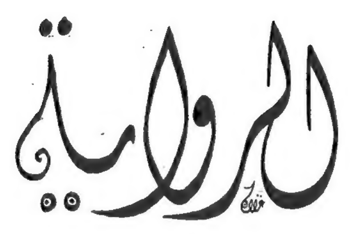


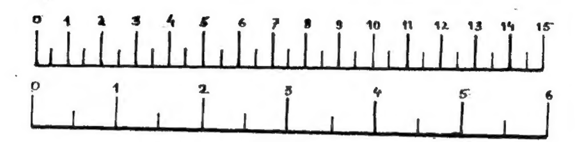
مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1938

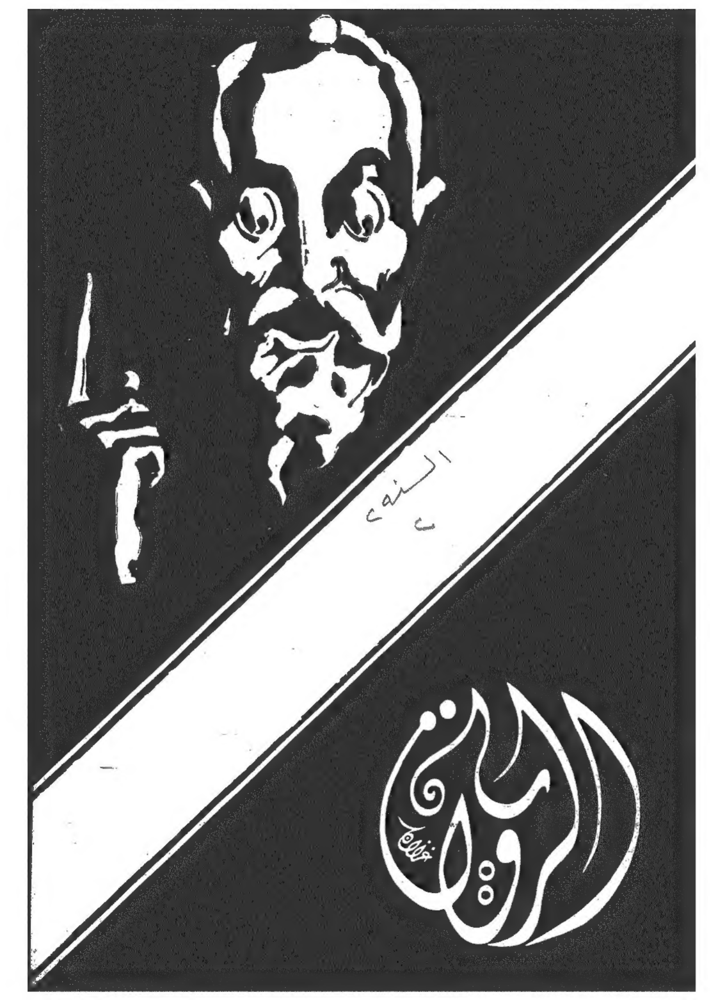
Volume 2

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx9

A.C.R.P.P



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٦ — ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ — ١٥ يوليه سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد

صفحة



من التاريخ الإسلامي

الفصل الأخير من المأساة

على أبواب المدينة

للأستاذ علي الطنطاوي

زينب — كفّى يا فاطمة . كفّى يا حبيبتي،لقد بلغنا مشارف المدينة

فاطمة — وما ذا أصنع في هذه المدينة ؟ أألقى فيها أخي ؟ أألقى الفتية الكرام من آل النبي ؟ لقد ذهبوا يا زينب ، لقد ذهبوا إلى الأبد ...

سمية أمسى نسلها عـــدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسل[1]

زينب — إنا لله وإنا إليه راجعون !

فاطمة — ما ذا أجد في المدينـة ؟ يا مدينة الرسول ! هؤلاء بنات الرسول يتامى ثاكلات أسيرات ذليلات كأنهن سبايا الروم ... يا مدينة الرسول ...

زينب — فاطمة، أشفقي على الصغار،لقدنفدت دموعهن ...

فاطمة — ولمن يدخرن الدموع بعد حسين ؟ إبكين إبكين ... لقد قتل الحسين !

زينب — فاطمة ، أهكذا تدخلين المدينـة يا فاطمة ! كفّي يا أختاه كفّي

فاطمة — لقد كانت مدينتي يا زينب يوم كان فيها أهلي ، فما لي اليوم فيها من أهل . إن مدينتي هناك ، في القفرة التي غصت أحشاؤها بأجساد الهاشميين ، آه ... هل دخل على أهل بيت ما دخل علينا ؟ آه ، يا رب !

زينب — استعيني بالله

فاطمة — لقد رأيت ابن أخي ، وهو ابن خمس سنين ، يخرج من الخيمة فيتلفت مذعوراً لا يدري ما ذا يرى فلحقته لأدخله، فوجدت ... آه، يا رب، وجدت ... الدم ... لقد قتلوا الطفل!

زينب — إصبري يا فاطمة إن الله مع الصابرين

فاطمة — لقد رموا أخاه فمات في حجر أبيه فتلقى الحسين دمه بيده ... أنظري يا زينب ! ألا ترين إلى الدم قد خضب حواشي الأفق ؟

زينب — هذا هو الشفق يا فاطمة !

فاطمة — وهذا السواد الذي غطى على الكون؟

زينب — هذا هو الليل ، مالك يا فاطمة ؟ هذا الليل ...

فاطمة — إننا سنعيش في فجر دائم لا يلمح في جوانبه فجر . سنعيش بعد الحسين في ليل الأحزان السرمدي

زينب — لقد عدت إلى البكاء ! فاطمة إلى متى تبكين ؟

فاطمة — إلى أن يرجع حسين ، حسين خير الفتيان ، وسيد شباب الجنة

زينب — لا حول ولا قوة إلا بالله

فاطمة — حسين يا أخي يا حبيبي ، يا قرة عين رسول الله

زينب — ...

فاطمة — لقد رباك النبي ، وغذتك فاطمة بنت محمد ، ليقتلك سنان بن أنس النخعي ؟ لتكن ملعوناً يا سنان على كل لسان

زينب — تعال كلمها يا عليّ ، تعال كلم عمتك

(١) أنشده يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم بين يدي يزيد (الطبري : ٦ — ٢٦٥)

فاطمة — أين هو علىّ ؟

على — هأنذا يا عمتى !

فاطمة — أدن منى ياعلىّ ، أنت بقية آل محمد. أنت اليوم رجلنا وحامينا ، لم يبق إلا أنت ... آه كل أسرة فيها رجالها ، ورجال بيت النبي مصرّعون فى كربلاء ! لقد وسع المسلمون بعدلهم الذمىّ والكافر ، ولكن عدلهم ضاق عن آل النبى ، لقد قدموا الحياة السعيدة للنصرانى واليهودى ولكنهم لم يجدوا لابن بنت النبي إلا الموت الأليم

أفكان لهم ثأر عندك يا محمد ؟

على — كفّى يا عمّة ، لست وحدك المصابة ، إن المجد والشرف والاسلام ، كل أولئك أصيب يوم أصيب الحسين . كفّى يا عمّة لست وحدك الباكية . ستبكى معك عيون طاهرة لن يجف فيها الدمع إلى يوم القيامة . لقد مات الحسين ، لقد قتل أبى . . . ولكنه سيعيش خالداً بروحه فى جنان الخلد ، وخالدا باسمه فى القلوب . ألم يختر هو الموت اختياراً ؟ ألم يقدم عليه ؟ ألم يعرض عن نصيحة عمى محمد بن الحنفية ؟ ألم يستحلفه عالما الأمة بن عمر وبن عباس أن يقيم فى الحجاز ، وألا يثق بما يقول الكوفيون ، وألا يشق عصا المسلمين، فأبى ألا المسير ؟ ألم يأته الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وانقلاب أهل الكوفة عليه ؟

فاطمة — بلى بلى ، ولكنه رأى الجور فاشياً ، والنكر معروفاً ، وأموال الله نهباً مقسماً وحمى مستباحاً، فنهض ينصر الحق ، ويحيي العدل ، ولم يقم حتى دعوه وألحوا عليه . . . ما كان يظن أن المسلمين يقتلون ابن بنت نبيّهم، ويذبحون أطفاله ، ويسوقون نساءه كما تساق أسرى الروم . فكيف كان هذا أبا على ولم تطبق السماء على الأرض ؟ أيقتل بنو النبي وتسبى نساؤه ولا يغضب أحد ؟ ألم يبق على وجه الأرض مسلم ؟

هذا ابن بنت النبي ، وفتى بنى هاشم ، لو مات على فراشه لهزّ موته أهل الاسلام ، فكيف وقد قتل مظلوماً ، وقد قتل معه هؤلاء الفتيان البرءاء . وهتكت أستار أكرم بيت رفع على ظهر هذه الأرض ؟ آه . أيطلّ دمك يا حسين ؟

على — إطمئني ياعمة! إن دم الحسين لن يطل. لقد وقع الزلزال فأفاق الناس فزعين ، ولكنّ الهزة لم تدع لهم سبيلا إلى التفكير . إن العالم اليوم حائر مشدوه لأنه لم يكن يصدق أن هذه هى التحية ، كلا ، ولا هؤلاء الذين تألبوا على أبى يحاربونه . كانوا يظنون أنه سيستسلم لهم . كانوا يتحامون قتله ، وينأون عنه ، لا يريد أحد منهم أن يلقى الله بدمه وأن يبوء بهذه اللعنة ، فلما رأوه مقتولا ذعروا ، وتيقظوا كأنما أفاقوا من حلم هائل

فاطمة — ولكنهم أفاقوا بعد مافات الأوان . يا لهؤلاء الوحوش ! يا للذئاب ... لقد دعوه وألحوا عليه ، حتى إذا جاء نهضوا إليه بالسيوف ، وضنوا عليه حتى بالماء . لقد شهدته يقاتل عطشان قد جف حلقه من الظمأ ، فحسبتهم سيسقونه ، ولكنهم سددوا إلى فمه سهماً ملأ فمه بالدم . هذا هو الذى منوا به عليه !

على — إنهم سيندمون يا عمة . سيعضون أصابعهم حسرة . إنهم سيلطمون على وجوههم لوعة . إن هؤلاء الذين قتلوا الحسين وقتلوا أباه ، هم الذين سيبكون عليه وعلى أبيه . إن الكوفة التى أذاقتنا الغصص ستكون مثابة شيعتنا ، ومثوى أحبائنا ... سيفنى الأعداء ، ويبقى الأحباء، سيأتى يوم يقال فيه ، أين من قتلوا حسيناً ، أين أنسالهم؟ أين من يبغض آل بيت النبي ؟ قد خلا وجه الأرض منهم ، ليس فى الدنيا من بنى أمية أحد

الدليل — وما ذنب بنى أمية ؟

علي — لقد نسيت أنك هنا ، ما كان لي أن أتكلم عن بني أمية بمسمع منك

الدليل — ولم يا سيدي ؟ إني من جنود أمية ولكني محب لكم ولذلك محبتكم. وهل يتم إسلام امرىء يبغض آل بيت نبيه ؟ إني والله ما أوثر عليكم بني أمية ، ولكنها كلمة الحق

علي — وما هي كلمة الحق ؟

الدليل — هي أن أمير المؤمنين يزيد لم يرد قتل أبي عبد الله ولم يأمر به ، ولقد كتب إلى ابن زياد ألا يقاتل من لم يقاتله

علي — لقد عرف ذلك الحسين ، فسأل القوم أن يدعوه حتى يضع يده في يد يزيد ، أو يمضي إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل فيه المشركين ، أو يعود من حيث جاء

الدليل — أنصفهم والله ! ولو قدم على يزيد لوجده مبجلاً له ، عارفاً بقدره ؟ إن لم يمنعه دينه من قتله ، منعته مروءته، وهو ابن عمه ، أن يرمل نساءه ، ويهتك أستاره

علي — صدقت والله ، ما رأينا من يزيد إلا خيراً . أحسن إلينا ولعن ابن سمية وترحم على الحسين، وكان قصره من البكاء على أبي عبد الله كأنه في مناحة (١) . ولكن المجرم شمر بن ذي الجوشن

فاطمة — هـذا الذي أوقد النار وضرّاها . لتنزل عليه اللعنة الحمراء. ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

علي — وعبيد الله بن زياد

فاطمة — هذا الذي أمر بها ، هـذا الذي ضرب بقضيبه فاً قبله رسول الله . لتنزل عليه اللعنة الحمراء . ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

علي — لقـد باءا بلعنة العصور وكانا سبة التاريخ. لقد فقدوا الدين والمروءة، وخسروا الشرف. لم يستتر حيتهما، ولم يهج إنسانيتهما، هؤلاء الأبطال الذين وقفوا يدافعون عن الحق ، ويذودون عن أسرة النبي، يقاتلون وهم عطاش والموت عن أيمانهم والموت عن شمائلهم ، والموت من أمامهم ، وهم ماضون في سبيلهم لا يريدون مالاً ولا يبنون جاهاً ولا يحرصون على عرض من أعراض الدنيا ، ولكنهم يريدون الله حتى إذا أحسوا باليأس طفقوا يسارعون إلى الموت واحداً بعد واحد ، وكلما ذهب منهم بطل ودع الحسين وسلم عليه وأسلمه إلى من خلفه ليدافع عنه، حتى فارقوه جميعاً ليلقوه في الجنة. هؤلاء هم الأبطال الأشراف الذين ستبقى أسماؤهم درّة في تاج التاريخ تلمع أبداً تضيء للسارين طريقهم إلى النبل والشرف والمجد: حبيب بن مظاهر، وزهير بن العتيق، والحر بن يزيد الذي كفر عن خطيئته ، وتاب من ذنبه ، رحمة الله على الجميع

زينب — أنظري يا فاطمة لقد وصلنا إلى المدينة

فاطمة — خرجنا منهـا منذ شهرين فسحنا في الأرض ورأينا العراق والشام ولكنا عدنا كالسبايا . لقد خسرنا كل شيء، آه. أين أنت يا أخي تستقبلنا، أين فتيان بني هاشم يحفون بنا، أين رجالك يا أسرة النبي..

زينب — يا فاطمة ، إنهم ذهبوا ولكن الله باقٍ

فاطمة — هذه داركم يا آل النبي ، فتجرعوا فيها الآلام . هذه الدار فاذكروا ما كنها الذين احتواهم جوف الأرض من كربلاء ، هنا كانوا يقيمون ، وهنا كانوا ...

علي — قد بلغنـا المسجد ، فانزلي فسلمي على الرسول . إنزلي يا عمة

فاطمة — السلام عليك يا رسول الله .. يا جدي .. لقد قتلوا ابنك الحسين [illegible]

---

(١) تاريخ الطبري . والكتاب الذي ننشر منه هـذا الفصل مأخوذ كله من الطبري .

كان لصاً

عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت الليلة هادئة حارة من الليالي التي يصادف أن تكون كذلك في خلال شهر أكتوبر فتذكر بليالي الصيف وتحمل الناس على فتح النوافذ والأبواب لاستنشاق النسيم المشبع برائحة الأزهار، ودقت أجراس الكنيسة مؤذنة بالساعة العاشرة فكانت دقات تلك الأجراس هي الأصوات الوحيدة التي شقت سكون الليل . واستيقظت عند سماعها الآنسة صوفيا وكانت نائمة في حجرة أبيها بالكوخ الصغير القريب من الكنيسة وقد تخلل الشرفة ضياء القمر من النافذة المفتوحة .

وكانت صوفيا خفيفة النوم يوقظها أضعف الأصوات وقد سمعت بعد استيقاظها بقليل حركة خفيفة ولكنها غير عادية بالكوخ فقامت من السرير وأطلت من النافذة فرأت رجلا في الحديقة التي أمامها رافعاً بصره نحو النافذة وقالت بصوت ضعيف : « من هذا ؟ » ثم تبينته فقالت : « أأنت توم كلانتشي ؟ »

أجابها الرجل بمثل صوتها خفوتاً : « نعم يا خالتي صوفيا »

قالت : « إذن فامش نحو الباب ، وفي دقيقة سأفتح لك »

لكن الرجل ظل واقفاً في مكانه وقال : « لا تفتحي فقد نسيت أنكم أتبكرون في النوم ؟ وإننا الآن في ساعة متأخرة، وسأنام الليلة في القرية مع بعض أصحابي وآتي إليكم في الصباح لأتناول معكم طعام الأفطار

قالت صوفيا بصوت فيه رنة التعنيب « كلا يا ابن أختي فلن أتركك تذهب بعد غياب كسنة كاملة، ولا يهمني مجيئك متأخراً فإن رؤيتك عندي خير من نوم ساعة أو ساعتين . إذهب إلى الباب وسأكون عنده قبل أن تصل إليه

ثم أسرعت إلى الباب والشمعة في يدها ويدها الأخرى تمتد إليه للترحيب به

وفي بضع دقائق أوقدت النار في المطبخ . ولما عادت بالطعام قالت : « يظهر أنك جائع وأنك تحس بتعب شديد، فكل ثم أخبرني أين كنت وماذا كنت تفعل في هذه المدة ؟ »

لكنه لم يظهر اهتماماً بالطعام وقال : « لم أكن في حالة مرضية في تلك المدة لأنه ليس من السهل على الانسان أن يهرب من شهرته

وكانت اللهجة التي يتكلم بها دالة على الامتعاض الشديد فقالت : « لكن ذهابك كان حماقة شديدة منك لأنه حمل الناس على كثرة الكلام ، فانهم صدقوا الآن كل ما يقال عنك ونسبوك إلى الاجرام »

قال : « وأي شيء ينافي الحق في قولهم ؟ أليست السرقة إجراماً »

فأظهرت صوفيا دهشة شديدة ودقت بيديها على المنضدة وقالت : « سرقة ! إنك لم تكن قط سارقاً ولن تكون كذلك . إن السرقة في نظري أكبر من أن تتناول شيئاً ثم تنسى أن تضمه مكانه كما فعلت في صندوق « البسكوت وعلبة المربى » من عند البدال ... إن السرقة هي رغبة الحصول على الثروة وابتلاء الغير بالفقر في هذا السبيل . وهؤلاء يستحقون الشنق »

قال : إنك لتدهشينني بتفكيرك على هذا النحو

لأنه لم يبد منى ما يبرر ثقتك بى فقد فررت دون أن أحاول تبرئة نفسى »

قالت : « نعم وقد كنت أدرك أنك غير مستريح » فقال: «ولكن لو كان كل الناس يظنون بي كما تظنين ويعاملونى مثل معاملتك لكان حظى حظاً آخر »

فأطالت سوفيا النظر إلى وجهه وقالت : « ولكن القاضى هنا عادل ، ولم يمكن ثمت ما يدعو إلى الظن بضياع الحقيقة لو أردت إظهارها »

فقال : « هي أن الحقيقة كانت عندي فكان فى إظهارها إساءة لسمعتك وتنغيص لك »

رفعت سوفيا رأسها بشكل يدل على الزهو وقالت: « إنك لا تفعل ما يسبب لى ذلك، فانك كنت باراً بأمك وكنت تحبها وتخشى عليها وأنا أحبك مثل حبك وأثق بأنك لن تفعل ما ينغص حياتى »

فقال : « ولكنى وأنا أدرى بنفسى أنصح لك بالا تحاولى إبقائى عندك . وقد زرتك الليلة لأعرف كيف حالتك المالية لأنى بحاجة إلى ثوب جديد وحذاء وقبعة حتى أظهر بمظهر محترم لأني قد وجدت عملاً »

قالت سوفيا وقد تلاشت الابتسامة التى كانت مرتسمة على وجهها : « وهل تريد مالاً ياتوم ؟ إنه ليس لدىّ مال فقد صرفت مصاريف كثيرة فى هذه الأيام . ودفعت أجرة المنزل . و ... »

فقال : « إننى لا أريد أن آخذ المال منك ياخالتى »

: قالت: « ولكننى أنا أيضاً لا أتركك بغير مال ما دام الأمر يؤدى إلى وجود عمل لك »

ثم حددت النظر إليه وقالت : « أصغ إلىّ ياتوم! خذ هذه الأوانى الفضية وبعها واشتر لنفسك ما تريد . وانى لأثق تمام الثقة بأنك ستكون مستقيماً لأجل رضائى »

فقال توم : « كلا كلا ياخالتى فانك أحسنت إلىّ كثيراً فى الماضى وأظهرت بى ثقة عظيمة

قالت: « إذا لم تأخذ هذه الأوانى فانى سأبيعها فى الصباح وأضع ثمنها تحت تصرفك »

فتغيرت حالة توم فجأة عند ما رأى تشبثها باظهار العطف عليه وقال : « إننى على كل حال سأرد ما آخذه سواء منك أو من غيرك بعد حصولى على العمل . وأقسم انى سألزم الاستقامة لسبب واحد هو أن يكون ظن الناس بى وثقتهم مثل ظنك وثقتك »

قالت : « أشكر لك هذا الشعور والآن قد آن وقت النوم »

ودلته على الغرفة التى سينام فيها ، فقال إنه سينام فى أقل من ربع ساعة . وتركته قائلة إنها ستنام أيضاً

ولكنها لأول مرة فى حياتها لم تف بما قالته فذهبت إلى غرفتها لتقاوم النوم ولتراقب الحديقة . فلما انقضت نصف ساعة رأت شبحاً يخرج من الدور الأرضى فى الكوخ ، فتنهدت وأظهرت ارتياحها وقالت : « الآن أحمد الله على خروج اللص وعلى أنى أهديت إلى ابن اختى ما أهديت لم أخسر شيئاً ، بل أهديت إليه ما تركه اللص هنا حين سمع صوتى .

وكانت الحقيقة أن لصاً دخل فى المنزل قبل مجيء توم، فلما سمع صوت سوفيا اختبأ وترك الأوانى الفضية؛ ثم سمع ما دار من الحديث ، فانتظر حتى هدأت الأصوات وخرج تائبا حين رأى اللص الآخر قد تاب ، وحين رأى غير اللصة تسرق اللصين معاً

عبد اللطيف النشار

عجوز الصور المتحركة

للكاتب الأسبانى بلاسكو ابيانيز
بقلم الأديب محمد محمود دواره

رفع رئيس الشرطة ناظريه متأملاً المرأة المسنة ذات الشعر الذى وشمه المشيب فأصبح ذا لون رمادى عجيب . كانت واقفة فى تخاذل أمام مكتبه منذ هنيهة ، ولكن سرعان ما اتخذت لنفسها مجلساً على مقعد قريب منه غير مأمورة ولا منتظرة إذناً أو إشارة

وعاد الرئيس فألقى عليها نظرة فاحصة أخرى ثم أخذ يفحص وريقة موضوعة أمامه ، هى تقرير الاتهام المقدم إليه من رجل الشرطة الواقف إلى جانبه وقفة عسكرية نظامية وما لبث أن صاح موجهاً حديثه إلى العجوز :

إحداث شغب فى دار من دور السينما . التفوه بألفاظ معيبة فى حق السلطات الحاكمة . التعدى بالسب والاهانة باللفظ والاشارة على أحد رجال الحفظ . تلك هى التهم الموجهة إليك فما هو دفاعك؟

أما هى فكانت فى تلك اللحظة تجيل الطرف بين مكان الرئيس ومكان مرءوسه وقد بدت عليها علامات الذهول حتى كأنها لا ترى شيئاً أمامها

وانتهى الرئيس من توجيه التهم إليها فتقلصت عضلات وجهها وبانت فيه علائم الدهش والاستغراب ثم أغمضت جفنيها ثم عادت ففتحتهما كأنها تستيقظ فجأة على أثر حلم عجيب وهمست قائلة :

— سيدى الضابط ! ليست المرأة التى أمامك سوى بائعة من البائعات المتجولات . أبيع أنواع الخضر على عربة يد صغيرة وقد اخترت لنفسى شارع «تربى» فجعلته منطقة تجارى منذ أربعين عاماً ياسيدى أقوم بهذه المهمة وأحيا تلك الحياة و ....

حاول الرئيس أن يقاطعها ولكنها استمرت فى حديثها غير عابئة بمقاطعته بل بدأ فى صوتها لون من ألوان الاحتجاج

— ليدعنى سيدى الضابط أتحدث كما أشاء . إن كل امرئ يعبر عن نفسه بقدر طاقته ، وكل إنسان يتحدث على قدر عقله

فاعتدل الرئيس فى جلسته وألقى رأسه إلى الوراء ثم تناول فتاحة الرسائل بين أصابعه وأخذ فى تحريكها يمنة ويسرة . لقد عودته الصبر مهنته ودربته ثرثرة المتهمين أن يكون أكثر صبراً من أيوب . وها هو ذا قد أعد نفسه للموقف الخطير !

— فى عام ١٨٧٠ ، أيام الحرب السابقة لهذه الحرب الضروس القائمة الآن ، كنت فى العشرين من عمرى ، وكان زوجى العزيز جندياً من جنود الحرس الوطنى فى الوقت الذى حوصرت فيه باريس . وحدث أن جرح هذا المسكين فى أثناء موقعة من المواقع التى قامت بين الفرنسيين وأعدائهم الألمان فبذلت ما تستطيع امرأة أن تبذل فى سبيل إنقاذ حياته ، ولكنى اضطررت بعد ذلك أن أعمل وأن أعمل بكل ما أوتيت من قوة كى أعيش وكى يعيش معى زوج عاجز عن العمل وابنة لم يهبنا الله غيرها . ومات زوجى كما ماتت ابنتى — وا أسفى —

بعد قليل تاركة لي من بعدها حفيدين

وتوقفت العجوز لحظة عن الحديث حتى ترى أثر حديثها فى الرجلين . غير أنها لم تستطع أن تقطع فى الأمر بحكم أو قرار . فقد كان رئيس النقطة يصفر صفيراً خافتاً وهو يقلب القناحة بين أصابعه فى عصبية ومهل بينما عيناه تتطلعان إلى سقف الحجرة . وأما الشرطى الذى جاء بها إلى هذا المكان فقد كان واقفاً فى مكانه إلى جانب رئيسه تلك الوقفة النظامية كأحسن ما يقف الجندى النظامى الذى لا يختلف فى سكونه وجوده من تمثال صخرى

هل تسكت عن الكلام ؟ هل تحتج ؟ كلا إنها لا تستطيع . . . ما من الحديث مفر ، وإذن فلتتحدث ولتتحدث غير آبهة بموقف المستمعين منها

— أما حفيدتى جوليت فهى راقصة من راقصات المسارح ، وهى شخصية معروفة جداً ، ولا أحسب إلا أن سيدى الضابط قد رأى صورتها منشورة فى إحدى الصحف أو ملصقة على جدار من جدران المدينة . نعم إننى لا أراها ولا ألتقى بها كثيراً إلا فى فترات متباعدة جداً ، ولكنى أحبها الحب كله . وقد حدث مرة بينما كنت أدفع عربة خضرى وأسير بها فى أحد الشوارع أن كادت سيارتها الفخمة تصدمنى وتروق مني ، ولكنى سكت راضية بينما صاحت بى هى :

— إنها غلطتك يا جدتى . لماذا تصرين على احتراف مهنة البيع والشراء ؟

وماذا أفعل إذن يا بنيتى ؟ لقد كان حتماً على أن أمتهن هذه المهنة عندما كنت هى وشقيقها طفلين صغيرين لأقوم بواجب الانفاق عليهما وسد حاجتهما .

والواقع أننى كنت أحب مهنتى . وعلى قدر لحافك مد رجليك . وإنى وإن كان هذا مبلغ فقرى وحاجتى أصرح بأنى لا أميل ولا أطمئن إلى تلك الحياة التى يحياها هؤلاء الفنانون . ألست ترانى على حق يا سيدى ؟

وهنا أمسك الضابط عن الصفير واتجه إلى المرأة وجعل يتفرس وجهها مليًا . لعله كان يعرف الحفيدة ، تلك الراقصة النابهة الذكر . ولعل هذا هو سر ذلك التطور فى موقفه ! . . .

واستطردت العجوز قائلة :

— أما معبودى ؛ أما أحب الناس إلى وأقربهم إلى قلبى وعاطفتى فقد كان حفيدى ألبير . كان فى ذلك الوقت الذى أحدثك عنه عاملاً فى أحد المصانع الكبرى . كان عاملاً من أنشط العمال وأمهرهم وكان يميل إلى الدرس ومطالعة الكتب . وكثيراً ما كنت أزوره على الرغم من كرهى الاختلاط بالناس وإيثارى العزلة والانفراد بعيداً عن العالم . وكنت كلما زرته جعلت همى الأول مساعدة زوجته فى أعمالها المنزلية وملاعبة طفله الوحيد الذى هو حفيد ابنى يا سيدى ! تصور مقدار ما فى ذلك من سعادة وهناء ؛ ليس كل إنسان يستطيع أن يحظى بنعمة الحياة حتى يرى بعينى رأسه أولاد أحفاده

وصمتت لحظة قصيرة ، سبحت فى أثنائها فى عالم من الذكريات السعيدة ثم تمتمت قائلة :

— ما كان أسعد تلك الأيام ياسيدى ! تلك الأيام التى سبقت الحرب . قصدنا فى يوم من أيام الأحد إلى خارج المدينة ، وسط الريف الجميل كى نحتفل بتعيين ألبير رئيساً لعمال مصنعه ؛ وجلسنا هناك

على شاطئ السين حيث تناولنا الطعام والمدام، هنيئاً مريئاً ...

وبعد أسبوعين اثنين حدث ما كنا نخشى، إذ أعلنت الحرب ...

وفي هذه اللحظة أبدى الرئيس حركة من حركات الضيق نسبتها المرأة إلى كرهه الاستماع إلى شيء يمت إلى الحرب بصلة فقالت :

— نعم يا سيدي، بيدك الحق؛ فأنا أعلم أنه قد مرت علينا أربع سنوات عجاف من جراء هذه الحرب، وأن سيرة تلك النكبة تذهب بحلم أشد الناس رزانة وثباتاً . وقد أخبروني أن المسارح والجرائد السيارة ملت هي الأخرى ترديد سيرة تلك الحرب ووقائعها الدامية . أعرف هذا حق المعرفة كما أعرف أن حكايتي تشبه حكايات الكثيرين والكثيرات غيري

انضم البير إلى إحدى الفرق الحاربة إثر إعلان الحرب فلم أره إلا بعد مضي عام عند ما عاد من الميدان مرتدياً حلته العسكرية، ثم عاد مرة ثانية، وأخيراً اعتدت احتمال أمر غيابه عن المنزل. وكان لا يخطر ببالي قط أن ألبير كغيره من الناس يستطيع الموت أن يعدو عليه

غير أنه حدث في ذات يوم أن تسلمت وريقة صغيرة لم أستطع بعد أن تلوت ما حوت من كلمات إلا أن أصرخ باكية مولولة كما صاحت مني زوجته

وبعد أيام قليلة أقبل واحد من زملائه في الفرقة حاملاً معه بعض متاع حفيدي العزيز ...

وهنا أجهشت العجوز بالبكاء وخفت صوتها خفوتاً ظاهراً وهي تقول :

— لم أره بعد ذلك يا سيدي، فقد قتلوه !

وكأنها عادت فذكرت وعدها بأن تختصر الكلام إذا ما تحدثت عن الحرب فبذلت جهد الجبابرة في التغلب على عاطفتها وتركت الكلام عن الحرب فعلاً :

— وتعمل أرملة ألبير الآن في أحد مصانع المواد المفرقعة الواقعة في الناحية الأخرى من باريس. ولست أرى ابن حفيدي إلا مرات قليلة متباعدة إذ على كل إنسان أن يهتم لأمر معيشته

ولماذا أخجل من ذكر الحقيقة ؟ إنني مذ مات البير وأنا أكثر من التردد على إحدى الحانات . وكلٌّ يحاول إغراق همومه والتغلب عليها بالطريقة التي يعرفها . لقد تجاوزت السبعين، وفي هذه السن وخاصة إذا كان الانسان مثلي مضطراً إلى الاستيقاظ مع الفجر وإلى الذهاب إلى الأسواق الرئيسية لشراء بضاعته التي يعيش منها، أرى أن كوبة صغيرة من النبيذ هي خير دواء . أليس كذلك يا سيدي ؟

صمت الضابط ولم يجب على سؤالها الأخير، وكان معنى هذا بطبيعة الحال أنه رآه سؤالاً غير لائق

ولكنها استمرت في الحديث وبدا في أسلوبها وفي طريقة إلقائها شيء من الحدة والحرارة مما دل على أنها كانت تقترب من النقطة الحساسة في موضوعها .

— وفي هذه الليلة بالذات، بعد الغروب بقليل ذهبت إلى الحانة صحبة العم كرانكفيل . وقد اعتدت أن ألتقي بهذا الرجل هناك في كل مساء، وتركنا المكان معاً حوالى الساعة التاسعة، ولست أدري لم وقفت أمام باب إحدى دور الصور المتحركة؟ ولماذا رغبت في الدخول ؟ لفتت نظري صورة مكبرة تمثل

فتاة ألزاسية جيلة ، أمسك بها جندى ألمانى ضخم الجثة كأنه الحيوان المفترس بينما أخذت المسكينة تبذل أقصى مجهود بدنى للدفاع عن نفسها والخلاص من قبضته . وأنا أحب القصص التى من هذا النوع؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنى من أشد الناس تحمساً للوطن . ومرجع ذلك إلى أنى شهدت حربين مختلفتين ؛ ولكن دعنا من هذا ولنترك الحديث عن الحرب . . .

ورفض العم كرانكفيل أن يصحبنى فى الدخول إلى الدار مع أنى عرضت عليه ثمن تذكرته. والواقع أننى لا أعرف أى الأشياء يحب هذا الرجل وأى شىء يكره ؛ فقد تعود أن يقابل كل ما يلقى بابتسامة واحدة لا تتغير ولا تتبدل

وإذن فقد دخلت الدار وحدى وكان هذا لسوء حظى . ألم يلاحظ سيدى ظاهرة عجيبة فى حياة الانسان ؟ ألم يلفت نظره مرة كيف تعادى الظروف أحد الناس باستمرار ؟ وكيف أنه كلما حاول مقصداً انقلب إلى نقيضه ، وكلما جهد فى سبيل جلب السرور إلى قلوب الناس آذاهم وآذى شعورهم وعواطفهم حتى كأنما الشيطان بنفسه يقوده ويوجه خطاه وحركاته ؟ ولم يتنازل الضابط بالاجابة على هذا التساؤل أيضاً

— تشاجرت مع بائعة التذاكر من أجل قطعة من قطع العملة. أدعت هى أنها مزيفة ولم تقبلها بحال من الأحوال ، وأصررت أنا على أنها عملة جيدة لا عيب فيها ؛ ولكنها لم تستمع لكلامى فأغضبنى هذا غضباً شديداً وقلت لها إنها لا تعرف التمييز بين أنفها وبين ...

وعندئذ تدخل حارس الباب بيننا، مع أن هذا ليس من شأنه ولكنه أراد تمثيل دور البطل الذى يجىء لإنقاذ الفتاة النبيلة فى اللحظة الأخيرة ، فألقيت عليه هو الآخر درساً لا أظنه ينساه ...

وفى داخل الدار لازمنى سوء الحظ أيضاً وقاد خطواتى الشيطان فبدأ جيرانى يتذمرون ويتهموننى بأننى كنت أدوس أقدامهم ، حتى أن بعضهم لقبنى بلقب غريب هو « الحيزبون الفظة »

والحقيقة يا سيدى أننى لم أدس أقدامهم وإنما هى نواياهم السيئة التى أوحت إليهم بهذا الادعاء؛ وأنا شخصياً لا أبغض شيئاً فى الحياة قدر بغضى لمضايقة الآخرين .

وقد تبرعت امرأة سمينة كانت تجلس إلى جانبى بتشبيهي ببرميل الخمر من حيث الرائحة ...

برميل الخمر ياسيدى؟ هذا كثير. هذا لا يحتمل. عند ذلك اضطررت أنا الأخرى إلى إسماعها رأيى الخاص فيها ؛ فضج الجمهور واحتج ، ولكن احتجاجهم لم يكن منصباً إلا على وحدى دون غريمتى بدعوى أننى أفسد المرض وأننى أشغلهم عن الشاهدة ، ولكن ذلك لم يسكتنى قط . وإن كنت قد سكت أخيراً فإنما كان ذلك لأن قصة الفتاة الألزاسية كانت قد بدأت ...

هى قصة مسلية جداً يا سيدى ، كنت أحب أن أقصها على مسامعك ، لولا مخافة الاطالة والاملال ... وعلى كل حال لا داعى لذلك فلست أعرف كيف انتهت ولا كيف كانت خاتمتها . لم يتركونى أستكمل المشاهدة ياسيدى

وعاد الضابط مرة ثانية إلى التأمل فى سقف الحجرة وإلى الصفير محاولاً الترفيه عن نفسه

— وكان هناك سيد يجلس خلفى تبدو عليه

دلائل المعرفة والعلم بما يتعلق بالصور المتحركة. سمعت هذا السيد يبدى رأيه في الفلم المعروض لبعض جيرانه فى صوت خفيض . وعلى حين غرة تتقدم الفتاة الارزاسية إلى مقدمة الستار محاولة الفرار من مطاردها . ثم يبدأون بعد ذلك مباشرة فى عرض مناظر الخنادق المزدحمة بالجند ومطابخ المعسكرات والمدافع

قال السيد العالم بشئون الصور المتحركة الجالس خلفى : إن هذه المناظر فى الواقع قطعة من التاريخ، وإنها ... ماذا أقول ؟ هى مقتطفات واقعية أضيفت إلى صور الفلم . هل استطعت التعبير ياسيدى ؟ هـذه الاضافات أشـبه شيء بقطع من القماش الجديدة التى ترقع بها الأثواب البالية لتبدو أحسن منظراً . ولـكنى لا أعرف شيئاً ألبتة عن الصور المتحركة ، وغاية ما كنت أشعر به هو أن ما أرى ظريف طريف ، بل بالغ الغاية من الظرف والطرافة

وبعد ذلك ظهر على الستار منظر يمثل خندقاً من الداخل ، ورأينا جنداً كثيرين فى وقت راحتهم ، وكان أحدهم آخذاً فى تحرير خطاب وهو مسند الورقة على إحدى ركبتيه بينما كان ظهره متجهاً نحو النظارة ، ثم أخذ فى تحريك رأسه قليلاً قليلاً حتى ظهر وجهه ثم ابتسم للمتفرجين

حينئذ فتحت عينى جيداً وجعلت أدقق النظر . إننى لست عمياء ... ولا شك أنى أستطيع تمييز ما أمامى من مرئيات . . . كدت أصيح بكل ما فى حنجرتى من قوة ... إنه حفيدى

ونهضت من مكانى واقفة كى أتمكن من رؤيته جيداً . وحاولت أن أسرع إليه مهرولة فأحتضنه وأشبعه ضما وتقبيلاً . وقد يكون حدث فى أثناء ذلك أننى دهست بعض أقدام الناس فى خشونة ، أو دفعتهم أمامى فى شدة، ولـكن عذرى فى ذلك أننى لم أكن قط فى كامل شعورى . وهاج المتفرجون وماجوا ، وتدخل عمال الدار فى الأمر فاعترضوا طريقى نحو حفيـدى وأحاطوا بى إحاطة السوار بالمعصم، ولم يقبل أحد أن يستمع إلى كلامى؛ إذ كان الجميع يعتقدون اعتقاداً جازماً أن ما حدث إنما كان من فعل الخمر في رأسي ، وبدأوا فى دفعى نحو باب الخروج فى قسوة وشدة حتى اضطررت إلى استعمال قبضة يدى فى الدفاع عن نفسى . وجاء الشرطى الواقف الآن إلى جانب سـيدى ، والذى يقولون إننى سببته وأهنته وعضضته فى إحدى يديه مما لا أدرى كيف أمكن أن يصدر عنى . يخيل إلى أننى كنت في حال هى إلى الجنون أقرب منها إلى العقل . وجذبنى الشرطى إلى الخارج وجاء بى إلى هذا المـكان دون أن يسمح لى بالـكلام أو شرح الموقف ، وبذلك لم يتح لى فرصة البقاء لمشاهدة ألبير

وتلا ذلك فترة سكون طويلة كانت العجوز فى أثنائها تسكب الدمع من عينيها مدراراً إلى أن قالت:

— وهكذا التقيت بحفيدى ألبير أخيراً

وانحنت أمام الضابط انحناءة الخضوع والامتثال وقالت :

— استميح السيد عذراً وعفواً

ثم انحنت مرة أخرى أمام الشرطى الذى ساقها إلى ذلك المـكان وقالت :

— كما أطلب عفو سيدى

ثم وقفت وقفة الذل مطأطئة الرأس مشبوكة اليدين على الصدر، مرخية العينين نحو الأرض ، وظلت صامتة وهى تشعر فى قرارة نفسها أن دفاعها عن

نفسها لابد بالغ إلى قلب الضابط بينما كانت الدموع تنهمر من عينيها فتهبط جارية على وجنتيها المجعدتين

* * *

ومكث الضابط فى صمته لحظة ثم نظر إلى الشرطى الواقف إلى جانبه وهو رجل ضخم الجثة يحمل على صدره صليب الحرب وقد تحلت ذراعه بشرائط تدل على طول المدة التى قضاها فى الخدمة ، فبادل الشرطى النظر وقد كان يستمع إلى حديث المرأة فى حياد تام طول هذه المدة ولم يبد منه ما يدل على التأثر كما لم تبد منه حركة إلا قيامه بفتل شمرات شاربه مرات . وكأنما كانت هاتان النظرتان كافيتين لتمام التفاهم بين الرجلين ، إذ أمسك الضابط بعد ذلك بالتقرير الذى قدمه الشرطى إليه فناوله إياه فلم يكد يتناوله حتى أخذ يمزقه دون أن ينبس ببنت شفة

وقال الضابط :

— فى استطاعتك الانصراف ياسيدى المحترمة

وكأنما استيقظت المرأة من حلم آخر . أحقيقة أنهم يخلون سبيلها ؟ أتستطيع الآن أن تذهب حيثما تشاء ؟ ما أشد رحمتهم ! ... ولكنها قبل أن تهم بالخروج اتجهت نحو الضابط وقالت :

— وهل أستطيع أن أعود إلى دار السينما ؟ هل يسمحون لى برؤية حفيدى مرة واحدة فى كل ليلة ؟

فلم يسع الرجلين إلا أن يضحكا من سذاجتها ، وإلا أن يقولا لها إنها تستطيع أن تفعل ذلك كلما أرادت

وخرجت أخيراً من مركز الشرطة دون أذى ، ولكنها كانت تشعر بالخجل ولا تميل إلى رؤية أحد من معارفها فى ذلك الوقت حتى لا يلتبس عليه الأمر ويظن بها الظنون . وعند ماوصلت إلى الشارع العام تلفتت يمنة ويسرة وأمامها وخلفها، فلما لم تر أحداً جمعت أطراف ثوبها فى كلتا يديها وأسرعت العدو بقوة الشباب بينما أخذت عضلات وجهها فى التمدد والتقلص تبعاً لتردد أنفاسها وقد خرجت بعض خصلات من شعرها الأبيض من تحت القناع المزركش الذى يغطى رأسها . وصلت إلى دار السينما فرأت الجموع الأخيرة من المتفرجين يخرجون والعمال يقومون بإطفاء الأنوار ورفع الصور الموضوعة فى الخارج فوقفت على مقربة من الباب ترقب حركاتهم وهى ساكنة لا تتحرك ، مستندة بذراعها على الحائط وأسندت رأسها بيدها الأخرى وأخذت تبكى بشعور المرأة التى فقدت طفلا عزيزاً وتمتمت أخيراً محدثة نفسها :

— يا إلهى ! ... أعلى الآن أن أنتظر حتى الغد؟ أنتظر حتى الغد لأرى صغيرى المحبوب ...

* * *

وفى الليلة التالية دخلت المرأة دار السينما فى أدب جم . وعند ما اقتربت من نافذة بيع التذاكر أدارت وجهها إلى الناحية الأخري حتى تتحاشى رؤية العاملة لها إياها ولكن حارس الباب رآها واستطاع أن يميزها فاقترب منها وقال :

— لا . لا . هل أتيت الليلة لتكررى فضيحة الأمس ؟ لا تذكرة لك ياسيدة

ثم حاول إخراجها ... ولكنها نظرت إليه ضارعة وقالت :

— دعنى أدخل يا سيدى الفاضل ... لقد أتيت لأرى حفيدى وأعدك وعداً صادقاً أننى لن أتعبكم الليلة : فكان لحديثها الساذج هذا أثره فى الرجل جرده من كل سلاح ، فضحك كما ضحكت عاملة التذاكر وسمحا لها بالدخول ، فانحنت أمامهما شاكرة كما انحنت أمام الشرطى الواقف أمام الباب

وعند ما صارت داخل المكان أبدت من الأدب الجم ما لفت لها الأنظار . . . صارت تحيى كل من تلتقى به وتنحنى أمام الذين تعرفهم ومن لامعرفة لها بهم حتى تضايق الجميع وصاروا ينظرون إليها شزراً وكأن نظراتهم تنطق بمعنى واحد هو الاشمئزاز

وانكمشت فى مجلسها محاولة شغل أقل فراغ ممكن حتى لا تضايق جيرانها ، ثم جعلت تنظر حواليها نظرات مختلسة لترى تأثير ذلك السلوك فى المتفرجين هل حاز قبولهم أم لم يحزه ؟

— وبدأ العرض فنسيت العالم بأجمه وبكل حقائقه ؛ وظهر الجندى الألمانى وبدأ فى مطاردته للفتاة الألزاسية وأخذ موضوع القصة يتعقد ؛ وسرعان ما ظهرت الخنادق وظهر الجندى بظهره المتجه نحو النظارة وهو منهمك فى كتابة خطاب وقد استند على إحدى ركبتيه ثم اتجه بوجهه ناحية النظارة ، فلم تملك المسكينة أن همست :

— ألبير ... ألبير

كان عليها أن تبذل جهداً هائلا لكى تتمكن من كبت عاطفتها . فتحشرجت تلك الصرخة فى حنجرتها ، وكادت تصل إلى حالة من اليأس من التغلب على شعورها لولا أن ذكرت فى تلك اللحظة ما حدث لها بالأمس فارتعدت فرقاً . إنها لو صاحت الآن أو تكلمت لرمى بها الناس إلى الخارج مرة ثانية ولحرموها نهائياً من ارتياد الدار وبذلك يتم حرمانها إلى الأبد من رؤية جنديها الباسل

دفعها الخوف إلى الوراء وأسكن حركاتها ولخص عواطفها المتباينة ووجدانها الشقى فى بضع قطرات من الدموع سالت على خديها ، ولكى ترفه عن نفسها بعض الشىء أخذت تتمتم فى صوت خافت إلا أنه عميق لأنه خارج من صميم قلبها ، وكانت عيناها ترقبان القصة من فوق الستار

— ألبير يا صغيرى ... هأنا أمامك ... ألا تعرفنى ؟ سأحضر لمشاهدتك كل مساء ... فى كل مساء يا ألبير

***

وفى الليلة التالية قل بكاؤها عن ذى قبل فقد بدأت تعتاد مشاهدة هذه القصة

وعند دخولها الدار تحدثت إلى حارس الباب كما لو كان صديقاً قديماً . قالت وهى تحاوره :

— أشهدت كيف أجاد حفيدى اللعب ؟

فلم يسع الرجل الذى لم يكن يعير حديثها كثيراً من الاهتمام إلا أن تبادل نظرة مع عاملة « شباك التذاكر » وكأنه كان يسألها عن رأيها فى مبلغ حمق هذه العجوز

وعادت العجوز إلى مسكنها ولكنها لم تستطع النوم إلا بعد جهد جهيد ... كان ضميرها يعذبها ويؤنبها ... إنها أنانية ... نعم أنانية محبة لذاتها . ألم تستأثر بكل هذه اللذة التى اكتشفت مصدرها لنفسها بينما كان لألبير فى عالم الأحياء أناس آخرون

غيرها يهمهم أمره ويسعدهم أن يروه بعد أن فقدوا الأمل فى رؤيته مرة أخرى ...

وما كادت شمس اليوم التالى تبزغ حتى أسرعت العجوز إلى السوق فباعت خضرها دون أن تهتم كثيراً بمبلغ ما تصيب من ربح ، ووضعت العربة فى مكانها فى وقت مبكر بالنسبة للوقت الذى اعتادت وضعها فيه فى الأيام العادية ، ثم سارت ميممة ضواحى باريس إلى أن انتهت إلى المكان الذى تقصد . وهو مكان يكاد يكون مظلماً لكثرة ماحوى من مصانع ضخمة ذات مداخن هائلة وأبنية كأنها السجون هى التى يأوى إليها عمال تلك المصانع هم وأسرهم

واقتربت من أحد السكان سائلة عن زوج حفيدها وابنها ، فأخبرت بأن الطفل بالمدرسة وأن أمه تعمل فى المصنع ، فقصدت تواً إلى ذلك المصنع ، غير أنها ما كادت تصل إلى هناك حتى منعها الحارس — وهو جندى سابق — من الدخول قائلا إنه من المستحيل عليها أن تدخل، لأنهم يقومون الآن بصناعة الآلات الحربية وأطلت العجوز برأسها لترى ما ذا فى داخل المصنع قبل أن تترك الحارس فوقع نظرها على جملة نساء منهمكات فى العمل وهن رائحات غاديات وقد ارتدين ملابس طويلة من لون واحد ذات سراويل ضيقة قد التصقت بسوقهن وأفخاذهن فجعلتهن أشبه بالمتسابقين من راكبى الدراجات !

ودوى فى المكان صوت جرس ضخم مؤذناً بحلول وقت الغداء لعاملات المصنع وعماله فخرجوا جميعاً واستطاعت العجوز أخيراً أن تلتقى بأرملة حفيدها وأن تتحدث إليها .

كان وجه الأرملة شديد الشحوب ، وكانت عيناها أكثر اتساعاً مما عهدتهما المرأة، قد أحاط بهما ويحيط هالتان سوداوان . وما كادت تسمع خبر ظهور زوجها ألبير فى دار الصور المتحركة بعد مقتله حتى استخرطت فى البكاء وقالت فى صوت مختنق :

— كيف يمكن هذا يا جدتى ؟

وتكلمت العجوز محاولة الشرح والايضاح ، ولكن الأرملة حاولت عبثاً أن تفهم ما تقول : وأخذت العجوز تردد كلمات الرجل الذى جلس خلفها فى دار السينما وتكرر شرحه الذى لم تكن هى نفسها تفهم منه حرفاً واحداً ، وأخيراً ختمت حديثها قائلة :

— دعينا من هذا كله ... الواقع أن ألبير يظهر الآن على ستار السينما؛ فما عليك إلا أن تحضرى أنت وولدك لرؤيته؛ وسوف أنتظركما هذا المساء

قالت هذا القول فى لهجة يخيل لسامعها أنها صادرة من فم ملكة من الملكات تدعو بعض أتباعها ورعاياها للمثول بين يديها فى القصر الملكى !

— وسوف تجداننى فى انتظاركما عند باب الدار الواقعة فى الناحية الأخرى من باريس

وافترقا بعد ذلك الحديث القصير على أن يلتقيا فى المساء .

وفى الموعد المحدد وصلت الأرملة وولدها فكان لذلك وقع حسن على العجوز طربت له كل الطرب؛ وكانت الأرملة ترتدى فى ذلك الوقت ثوباً أسود جديداً كما ارتدى الطفل أحدث أثوابه

وعند ماحاولت الأرملة أن تبتاع تذاكر الدخول

اعترضت العجوز واحتجت فى قوة وحزم قائلة

— ماذا تعنين بتصرفك هذا ؟ سأدفع أنا ثمن التذاكر ، إن أصحاب الدار يعرفوننى حق المعرفة ويعاملوننى كفرد من أفراد أسرتهم

ولكى تبرهن على صدق قولها تبادلت بعض كلمات المزاح مع عاملة التذاكر ثم صافحت حارس الباب — عدوها القديم — وقدمت إليه سيجاراً رخيصاً اشترته منذ دقائق لهذا الغرض وهي تقول :

— الهدايا الصغيرة تحكم أواصر الصداقة . أرجو يا صديقى العزيز قبول هذه الهدية التافهة

وفى داخل الدار حيت أحد العمال تحية الصديق لصديقه الحميم ، ثم قالت وهى تنفحه ببعض القطع النحاسية :

— هذه هى زوج حفيدى الذي يعمل عندكم فى الروايات وهذا هو طفله

وأخذ الجميع مجلسهم فى المقاعد التى أرشدهم إليها العامل ، وبدأ عرض القصة على المتفرجين ؛ وبدأت سلسلة مخاوفها وأوهامها . كانت تخشى وقوع حادث يصدر عن الأرملة الجالسة إلى جانبها إذا ماظهر ألبير على الستار . غير أن الأرملة كانت فى الواقع من الذين يحتملون آلامهم فى صمت وفى شجاعة . جلست ترقب المناظر التى تتوالى أمامها بعينين ذاهلتين ثبتت حدقتاها فصارتا أشبه بعينى مدمنى المورفين ، وجعلت تضغط شفتيها بأسنانها محاولة كبت عواطفها الثائرة وقد جرت مدامعها على وجنتيها فى اطراد

أما الطفل فكان يشاهد الرواية فى براءة تلك السن التى نسمع فيها عن الموت دون أن نعرف كنهه أو حقيقته

ولقد استطاع أن يعرف الجندى الذى ظهر على الستار متجهاً بوجهه المبتسم نحو النظارة ... نعم لقد عرفه فقد رآه أخيراً فى منزلهم فى نفس الرداء الذى يرتديه الآن ، ولكنه لم يعد مرة أخرى إلى المنزل فلماذا لم يعد ؟

وقف فى مكانه ثم مد ذراعيه الصغيرتين نحو الصور المتحركة أمامه وتمتم فى صوت منخفض قائلا

— بابا ... بابا ...

ولكن أمه وجدته سرعان ما أجلستاه فى مكانه وأمرتاه بالصمت وقلباهما يكادان يتفطران من الغم والأسى

وعند ما خرجوا من الدار قالت العجوز :

— غداً نلتقى فى هذا المكان مرة أخرى

— ولكنى أقيم فى أقصى حدود باريس ياجدتى ومن واجبى أن أستيقظ مبكرة للذهاب إلى المصنع ولكى أعد الطفل للذهاب للمدرسة . إن الحضور مرة أخرى إلى هذا المكان يكلفنى ما لا طاقة لى به . . . ثم ما فائدة الحضور مرة ثانية ؟ لن يعود ألبير إلى الحياة ... وهذه الصور تقتلنى قتلاً بطيئاً

فرمقتها العجوز شزراً ... لقد طالما شكت فى أن هذه المرأة الصغيرة لا قلب لها ... وها هو ظنها يتحقق

— أجل ... بيدك الحق يا بنية . إن الانسان الوحيد الذى يذكر ألبير هو جدته العجوز البائسة

***

وفى اليوم التالى كان الحزن مستولياً على العجوز

استيلاء تاماً ، فما كاد الليل يسدل ستاره على الكون حتى أخذت تطوف فى الطرقات باحثة عن العم كرانقيل الذى اشتهر بين معارفه وخلانه باسم « فيلسوف السوق » وبأنه لا يهتم بشئون الآخرين فقد كانت تعلم أن الرجل على الرغم من اشتهاره بهذه الصفة يعطف عليها ويهتم بأمرها ...

وفى الحانة المعهودة جلس الاثنان وأخذت العجوز تروى قصتها الاخيرة وأفهمته أنها قد تغيرت تغيراً كلياً بعد ذلك الحادث الفذ الذى جد فى حياتها ، حتى صارت امرأة أخرى غير التى كان يعرفها من قبل ، فهي تبسط يدها كل البسط وتأتى بالنقود هنا وهناك بغير حساب . وهى تذهب إلى السوق متأخرة فتشترى بضاعتها بأغلى الأثمان لتبيعها بعد ذلك بأبخسها غير حاسبة حساباً للخسارة التى تلحق بها ، قال الفيلسوف :

— إنك تحطمين نفسك بنفسك . إنك تنتحرين . إن تصرفك هذا معناه ضياع رأس مالك

قال هذا القول ولكنه لم يمتنع عن قبول أكواب الخمر التى كانت العجوز تطلبها له

وظلت العجوز جالسة إلى جانب العم كرانكفيل إلى الساعة الثامنة مساء ثم نهضت فجأة وقالت :

— إلى اللقاء يا كرانكفيل . فإنى ذاهبة الآن لآخذ حفيدتى معى كى تشاهد أخاها وهو يمثل فى السينما

— ولكن حفيدك قتل

— أعرف أنه قتل ... ولكنه مع ذلك يمثل فى السينما

فهز الرجل كتفيه استخفافاً ولم يتكلم إذ كان يعتقد أن الكلام فى هذا الموضوع لا فائدة منه الآن ، ولقد علمته الحياة ألا يهتم بشىء فى الوجود وأن ينظر إلى الخطير من الأمور نظرته إلى التافه منها

* * *

ضغطت العجوز الزر الكهربائى ووقفت خلف الباب الضخم ترتب ثوبها الحريرى الأسود متأملة إياه لتستوثق للمرة الأخيرة من ملاءمته لها ثم تمتمت قائلة :

— لا بأس . إنه يلائمنى تماماً كما لو كان قد صنع لى خصيصاً لا لابنتى ، ثم إن القماش الجيد سرعان ما ينبىء عن نفسه

وكان رأسها عارياً ولكنها لم تكن ترى فى ذلك من ضرر لأنها كانت دائمة المفاخرة بشعرها الأبيض الناعم ...

ومرت لحظة قصيرة أعقبها صوت خطى مقبلة نحو الباب . فلما فتح ظهرت خلفه فتاة فى مقتبل الشباب ما كادت العجوز تراها حتى شعرت بالاشمئزاز من حركاتها الصبيانية الطائشة ومن تلك النظرات الحادة التى كانت تلقيها عليها من أخمص القدم إلى شعر الرأس

— أيتها العجوز الطيبة القلب ! إن كنت قد أتيت تستجدين أو تطلبين المساعدة من سيدة المنزل فإنى آسفة أن أقول لك إن السيدة ليست هنا وأن عليك أن تكلفى نفسك عناء زيارتنا فى يوم آخر

لاشك أن هذا الحديث أثار العجوز وأغضبها فجعلت ترمق الفتاة بنظرات حادة كما بدأت تتمتم مرددة بعض الشتائم الشديدة، ولكنها توقفت عن ذلك عند ماشعرت بيد تمسك إحدى كفيها والتفتت إلى الوراء لترى الشخص الذى اجترأ على الامساك بها فوقع نظرها على سيارة فخمة قد وقفت عند

الباب الخارجي للمنزل وهذه التي أمسكت بها هي السيدة الأنيقة صاحبة السيارة والتي هبطت منها لتضم العجوز إليها وهي تقول :

— جدتي ... جدتي ...

وكانت أولى الملاحظات التي لاحظتها العجوز أن حفيدتها الراقصة الكبيرة كانت تلبس ثوب الحداد ... نعم إنه ثوب فاخر غالي الثمن ، ولكنه ثوب الحداد على كل حال ... ولا شك أن الراقصة لم ترتد هذا الثوب إلا حداداً على وفاة أخيها ألبير ..

وعند ما أصبحت العجوز داخل المنزل صارت تتأمل أثاثه وتحفه بعين الاستغراب حتى ألوان الجدران المركبة كانت تستلفت نظرها وتستدعي تأملها .

وما كادت تذكر اسم ألبير بعد ذلك أمام الراقصة حتى تحركت عاطفتها وبدا عليها التأثر الشديد وترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول :

— كم كانت خسارتي فادحة بفقده . نعم إننا لم نكن على صلة عائلية دائمة ولم نكن على اتفاق لأنه لم يستطع أن يفهم كيف أحيا ولكنني كنت أحبه حباً عميقاً مكبوتاً ...

وهنا تناولت صورة شمسية كانت موضوعة على منضدة صغيرة قريبة منها وأدنتها من فمها ثم طبعت عليها قبلة حارة ... ولم تكن سوى صورة ألبير ..

كم أثر هذا الوفاء وهذا الاخلاص في قلب الجدة حتى أنها قالت محدثة نفسها :

ومع هذا يتقولون الأقاويل ويزعمون المزاعم الخاطئة عن جوليت من أجل المهنة التي اختارتها لنفسها والأسلوب الذي رسمته لحياتها ... أكاذيب...

مفتريات... ترهات ... إنها أطيب فتيات العالم قلباً وأطهرهن سريرة ! ... غير أن هذا الحماس الزائد في الدفاع عن جوليت سرعان ما اعتراه بعض الفتور عندما لاحظت العجوز برود الراقصة وفتورها لدى سماعها قصة الاكتشاف العظيم الذي اكتشفته في دار الصور المتحركة

كان جوابها على خبر هذه المفاجأة الرائعة أن قالت

— عجيب ... هذا عجيب في الواقع !

ثم تنبأت على أثر ذلك بما تريده العجوز منها فقالت: وأنت الآن قد أتيت ياجدتي تريدين أن أصحبك لرؤيته أليس كذلك ؟ حسن ! سأذهب معك الليلة ، ولكن على شرط أن تبقي معي هنا لنتناول طعام العشاء معاً ... ولعل سيرة ألبير قد ذكرت الفتاة الراقصة بأمور أخرى فقد استأنفت الحديث قائلة :

— نعم ياجدتي لم يكن ألبير هو الوحيد الذي ذهب للحرب . هناك آخرون لا يزالون على قيد الحياة، وأمر هؤلاء يبعث على القلق ويثير روح الكره لهذه الحرب أكثر من أمر الذين استشهدوا وانتهى أمرهم

وكانت الراقصة تفكر في هذه اللحظة في صديقها أو عشيقها وهو شاب غني جميل لم تره عجوز الأسواق ولم تعرفه، وكانت الاشاعات ترشحه للزواج من جوليت

وأزف موعد تناول الشاي فلم تستطيعا أن تتحدثا بأكثر من ذلك إذ بدأ صديقات جوليت وزميلاتها يفدن على المنزل زرافات ووحداناً وكلهن قد ارتدين أفخر الثياب وأغلاها قيمة وأكثرها أناقة ؛ وأمام ألوانها الباهرة ودقة صناعتها بهرت العجوز بل أخذت عقيدتها في حفيدتها وسلوكها تتزعزع

وأبدى الجميع إعجابهن بثوب الحداد الذي ترتديه جوليت حتى أن إحداهن ذهبت في إعجابها شوطاً بعيداً إذ قالت مازحة :

— ألا يعد من حسن الحظ أن يموت للانسان أخ أو أخت فيستطيع أن يلبس حداداً عليه ثوباً جيلاً كهذا ؟ إن اللون الأسود لون رائع وهو يبدى محاسن المرأة بشكل أروع مما يبديها أى لون آخر

وبدأن جميعاً يدخّن ثم ارتمين بأجسادهن على الأرض متكئات على وسائد بعضها من الحرير الخالص وبعضها من فراء الدببة الثمينة ، ومد البعض منهن أطرافهن كالحيوان البليد غير عابئات بما يعرضن للأنظار من أجزاء فى أجسامهن يجب أن تكون مستورة دائماً وقد شبك البعض الآخر أيديهن على ركبهن المرفوعة وأسندن ذقونهن عليها

كان الشاى ومعداته موضوعاً فى آنية فنية من الفضة على الأرض بين الأجسام البشرية الطرية، وكان المصباح الخافت يرسل شعاعاً خفياً من النور الأزرق البديع . وقدمت جوليت جدتها إلى الحاضرات فى شجاعة قائلة :

— هذه هى جدتى التى تبيع الخضر كل صباح فى شارع تربي ... إننى أفخر بأسلافى كما يفخر أى معاصر من نسل الصليبيين بأجداده

وقابل الجميع حديثها هذا بالقهقهة ومرت فترة قصيرة نسى الجميع بعدها أمر العجوز

أما هى فلم تكن راضية عن هذه الأفعال، ولم تكن مطمئنة إلى هذه التصرفات ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تخشى الاساءة إلى شعور حفيدتها فكانت تنتقل فى حذر من مقعد إلى مقعد كما تفعل أى طفلة صغيرة تخشى المجتمعات إذا أرادت الفرار من مجتمع ما ... إلى أن وصلت أخيراً إلى غرفة الطعام ... وهناك استطاعت أن تستجمع شجاعتها المفقودة فنهضت من مكانها ملقية عنها الخوف جانباً وسارت فى الغرفة التالية حيث التقت بالخادم التى لم تحسن لقاءها فرمقتها شزراً وهى تقول :

— قليلة الأدب !

وشعرت بالارتياح عندما انتقمت من الخادم بهذه الكلمات وسارت فى طريقها إلى أن هبطت بضع درجات أدت بها إلى المطبخ . وهناك استطاعت أن تقدر ثروة حفيدتها أكثر من ذى قبل عندما شاهدت الأوانى الكثيرة اللامعة التى كانت كل آنية منها تتوهج فى ضوء المصباح كالذهب

وهناك رحبت الطاهية بزائرتها أجمل ترحيب فوضعت على المائدة زجاجة من النبيذ وكوبين وأخذتا فى الاحتساء وكل منهما تسرد أحزانها ومتاعبها فى الحياة على الأخرى . وفى أثناء ذلك أخرجت الطاهية صورة شمسية من أحد جيوب ثوبها فقبلتها ثم قدمتها لزائرتها وهى تقول:

— صورة ولدى الذى يعمل فى الصيد فى جبال الألب . فألقت عليها المرأة العجوز نظرة عابرة ثم أخرجت هى الأخرى صورة من بين ثنايا ثوبها وقدمتها للطاهية وهى تقول :

— حفيدى الذى قتل فى الحرب والذى يظهر الآن كل مساء فى دار الصور المتحركة

فلم تكد الطاهية تسمع هذا الكلام حتى تحركت فى مقعدها حركة عصبية وقد اتسعت حدقتا عينيها إذ أيقنت أن المرأة العجوز الجالسة أمامها ليست سوى ضحية من ضحايا الجنون، ولكنها لم تبد

ما يعبر عن هذا الاعتقاد لا لشيء إلا لأن تلك العجوز هي جدة سيدتها وصاحبة نعمتها

* * *

وحان وقت تناول العشاء فدعيت العجوز إليه ، ولكنها عند ما وجدت نفسها في قاعة الطعام جالسة أمام مائدة عظيمة إلى جانب حفيدتها وصديقاتهـا الفنانات شعرت بانقباض شديد وبأنها بعيدة عن الجو الطبيعي الذي ألفته بعداً شديداً

كانت تتناول الطعام بشهية حسنة ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تتحرق شوقاً لساعة انتهاء الجميع من تلك المهمة . وكانت لا تنفك بين آونة وأخرى تنظر إلى الساعة المعلقة بالحائط كأنها تستعجل سيرها

وحوالى الساعة الثامنة اتجهت جولييت نحو جدتها وقالت :

— لا داعي للعجلة يا جدتي فما زال لدينا متسع من الوقت

وما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى ارتفع في المنزل صوت ضجيج عال وأجراس كثيرة ، ثم سمع من قرب صوت رجال مقبلين ، وأقبلت الخادم تلهث وقالت :

— سيدتي ... لقد حضر السيد ... !

ولم ترد على ذلك حرفاً واحداً ، ولكن العجوز فهمت الباقي فنهضت من مكانها كسيرة النفس حزينة الفؤاد وقد اغبر وجهها وتقلصت عضلاته . وحينئذ أقبل شاب جميل الصورة يرتدي لباس ضباط الطيران فما كاد يتقدم خطوة واحدة في الغرفة حتى أسرعت جولييت إليه وكأنها تطير ولا تسير ...

— لاشك أنها زيارة غير منتظرة ، ولكني جئت باريس في مهمة خاصة وليس لدي من الوقت سوى أربع وعشرون ساعة و...

ولم يستطع ان يتم حديثه إذ كانت جولييت قد طوقت جيده وارتمت على جسده وأخذا يتبادلان القبلات

ورأت العجوز هذا المنظر فانسحبت وهمت بالخروج من الغرفة ، ولكن جولييت لحتها فتخلصت من يدي عشيقها وأسرعت نحوها وهي تقول :

— ها أنت ترين ياجدتي .. ليس لديه من الوقت سوى ليلة واحدة ونهار واحد . لن أستطيع الذهاب معك الليلة .. هذا مستحيل . الأيام آتية ياجدتي .. يجب أن نفضل الحي على الميت

***

ألفت العجوز نفسها وحيدة في شارع حالك الظلمة وكان البرد قارساً والأنوار جميعاً مطفأة تحذيراً للقوم من حملة جوية مقبلة ، وكانت تتمتم في أثناء سيرها قائلة :

— الحياة تتطلب الحياة ؛ والأحياء في حاجة إلى الأحياء ، ويا ويلتا على من مات من الناس !.. الكل ينسون الأموات

حتى رواد دار الصور المتحركة أظهروا جحودهم بشكل واضح ، ففي تلك الليلة لم يكن المتفرجون سوى عدد يعد على الأصابع ... لقد مل الرواد قصة الفتاة الألزاسية ومطاردها

وجلست العجوز في مقعدها بين المقاعد الفارغة ، وكأنها ملك من الملوك أمر بعرض رواية من الروايات لمتعته الخاصة . وعند ما ظهر حفيدها على

الستار جعلت تخاطبه فى صوت هامس قائلة :

— أسعد الله مساءك ياصفيرى ! لقد هجرك الجميع ونسوك . هكذا الحياة يا صفيرى فلا تحزن . واعلم ان جدتك العجوز لن تتركك ولو تركك أهل الدنيا بأسرها ... ستجدنى هنا كل ليلة ... كل ليلة يا صفيرى المحبوب

* * *

أخذت الأخبار والأشاعات تنتشر فى الساعات الأولى من مساء اليوم بانتهاء الحرب وحلول السلام. بدأت ضعيفة خافتة غير مؤكدة، واستمعت العجوز إليها دون أن تعيرها أى التفات لأنها تعودت أن تسمع أمثالها من قبل ، ثم اتضح لها كذبها بعد ذلك

ولكن لم يكد يحل وقت الغروب حتى تأكد الناس من صحة تلك الأخبار إذ أعلنت الحكومة خبر عقد الهدنة

وبغير أن تعرف المرأة كيف حدث هذا ولا فى أى وقت حدث وجدت نفسها وسط جمهور كبير يدفعها تيار اندفاعه وتزاحمه نحو قلب المدينة دون أن تستطيع لذلك وقفاً ودون أن تستطيع منه خلاصاً . وسرعان ماسيطرت عليها روح الجماعة فسرتها رجفة الحماسة وانتقلت إليها عدوى الفرح فهتفت مع الجماعات الهاتفة التى كانت تملأ الشوارع

ووصلت إلى ميدان الكونكورد . وكان الجمهور يردد بأصوات كهزيم الرعد بعض الأناشيد الوطنية وقد أخذ بعض أفراده يلوحون ببنادق مأخوذة من الألمان كانت معروضة فى الميدان

وأقبل نحو العجوز جمع من الشبان فرفعوها فوق أكتافهم وساروا بها يطوفون الشوارع وسط الجموع الزاخرة

كان شعرها الرمادى الجميل قد انتثرت خصلاته وتشعث وجعل يتحرك تبعاً لحركات الريح، ورفعت كلتا ذراعيها فى حماس شديد ثم جعلت تنشد فى صوت قاصف نشيد المارسييز ، فلما انتهت من إنشادها حياها الجمهور بالهتاف والتصفيق

ولم يكن بطبيعة الحال بين هذه الجموع الهائلة من الناس من يعرف من تكون هذه العجوز الشمطاء . غير أن مجرد وجودها بينهم أثار فيهم ذلك الاحترام الغريزى الذى توحى به الشيخوخة دائماً ، وكان بعضهم يرى فيها رمزاً حياً لعظمة الثورة الكبرى وأثراً من آثارها ظهر فجأة بعد فترة من الزمان تزيد على القرن ...

ولم يمض وقت طويل حتى انفض الجمع ووجدت العجوز نفسها منتصبة على قدميها وسط الشارع وحيدة ...

أين الجموع الحاشدة ؟ أين البنادق التى كانوا يلوحون بها فى الفضاء...؟ أين الشباب المتحمسون الذين رفعوها فوق الأعناق ...؟ لقد اختفى الكل وليست تدرى أين ولا كيف اختفوا .

إنها الآن تسير فى الشارع الملكى إلى جانب تلك المطاعم النموذجية الكثيرة ... وها هى حانة مكسيم الشهيرة أمامها وقد خرج عمالها إلى الشارع يوزعون أقداح الخمر على المارة تبرعاً من أغنياء القوم واحتفالا بذلك اليوم السعيد

وتقدمت فى السير قليلا فوجدت نفسها بين جماعة من الجند الأمريكيين تتبادل وإياهم الحديث

كانت تحب الأمريكيين وقد عرفت أن هؤلاء الشبان منهم عندما رأت قبعاتهم ، وقد أعجبها منهم حسن منظرهم ودلائل الصحة البادية فى وجوههم وفى حركاتهم ، وروح المرح المتجلية من أحاديثهم وإشاراتهم، وذكرها أكثر من واحدمنهم بحفيدها ألبير فهتفت بأعلى صوتها :

— لتحى الولايات المتحدة ! !

أما هم فكانوا يفهمون حركاتها وإشاراتها أكثر من فهمهم لكلماتها؛ غير أن هذا لم يكن يعنيها فى كثير ولا قليل ، بل كانت تعتقدأن كل ما يحتاج إليه المرء للتفاهم مع الأجانب الذين لا يفهمون لغته ولا يفهم لغتهم هو أن يتبادل الود معهم وأن يكون حسن النية . وكأن طرب العجوز ومرحها قد أثرا فى الأمريكيين فصاروا يضحكون ويقهقهون كأنهم أطفال كبار

وتلمست المرأة موضعاً معيناً فى ثوبها حيث وضعت كيس نقودها الذى حلت فيه كل رأس مالها؛ فلما اطمأنت إلى وجوده فى مكانه جعلت تشير بكلتا يديها معبرة عن رغبتها فى دعوتهم للشراب على حسابها

غير أن الأمريكيين اعترضوا فى أدب كثير واعتذروا من عدم قبول دعوتها إذ أن فكرة السماح لامرأة أيا كانت بالانفاق عليهم لم تكن لتروقهم

ولكن العجوز صاحت فى صوت قوى قائلة :

لا . لا .. إنكم الآن فى وطنى ، فى بيتى ، وأنا أصر على دعوتكم؛ فان رفضتم تلك الدعوة المتواضعة كان ذلك الرفض طعنة مؤلمة موجهة إلى . وما أظن أن إيلام امرأة عجوز مثلى يرضيكم ! ..

وأخيراً دخلوا جميعاً أحد المقاهى وظلوا نحو نصف ساعة فى سرور ومرح يحتسون أكواب البيرة التى قدمتها العجوز إليهم ثم انصرفوا

أما هى فقصدت إلى الحانة التى تعودت أن تلتقى فيها بالعم « كرانفيل » فيلسوف السوق فوجدته جالساً جلسته الخالدة التى لا يغيرها فحيته وجلست إلى جانبه وطلبت لها وله زجاجة من زجاجات النبيذ، ولكنها ما كادت تفرغ من نصيبها من الخمر حتى شعرت بحاجتها إلى مسرة أكبر وأروع مما وجدت من أنواع المسرات فى تلك الليلة . ذكرت دار الصور بظلامها الذى يبث الاطمئنان والسكينة فى أشد النفوس اضطرابا خلافا لكل ظلام عرفه الانسان ، ومناظرها الجميلة التى كانت فى نظرها لا تقل جمالاً عن أجمل ما عرف الانسان من مناظر

ياله من شعور سار ! وياله من سرور جارف ذلك الذي كان يستولى على حواس تلك المرأة أثناء هاتين الساعتين اللتين كانت تقضيهما جالسة على مقعد مريح تتناجى ، كأروع ما تكون المناجاة الروحية ، مع حفيدها المحبوب ألبير ! لا شك أنه لم يسمع بعد بذلك النبأ السعيد الذى هز مشاعر الباريسيين عن بكرة أبيهم بل مشاعر الناس جميعاً فى جميع أنحاء الأرض ، ولكنها ذاهبة الآن إليه وسوف تسر إليه بذلك النبأ ليأخذ نصيبه من السعادة مع الآخذين

التفتت إلى كرانكفيل ثم قالت وهى تنهض من مكانها :

— طاب مساؤك يا كرانكفيل . سأتركك الآن لأن حفيدى ألبير فى انتظارى . مسكين هذا

الصبي ، إنه لا يستمتع بأجازة أو راحة بل يعمل في كل الليالي

فشعر الفيلسوف في هــذه اللحظة بقوة تدفعه إلى توجيه نصيحة لصديقته فقال :

— إنك تقتلين نفسك . إنك تنتحرين دون شك . تأكلين قليلا وتشربين كثيراً . ترمين نقودك بغير حساب. ولا شك عندى إذا استمرت الحال على هذا المنوال أنك ستفقدين رأس مالك كله . ما هذا يا امرأة؟ لقد رأيتك بالأمس تبتاعين نصف بضاعتك اقتراضاً؛ ويخيل إلىّ أنك في الأسبوع الأخير عشت أعواماً وأعواماً

ولكنه عاد بعد تلك المحاضرة فابتسم ابتسامته الساخرة التي قلما فارقت ثغره وأردف قائلا :

— على أنه إذا كان هــذا يروقك وتجدين فيه سعادتك ... فلا بأس

ثم هز كتفيه كما تعود أن يفعل دائماً

وأسرعت المرأة قاصدة دار الصور . أسرعت على الرغم من شعورها بالتعب المضنى وعلى الرغم من أن قدميها كانتا لا تطاوعانها على السير؛ وكانت تمنى نفسها في أثناء سيرها بجلسة مريحة في تلك القاعة المظلمة الهادئة الجميلة، وكان الظلام سائداً على المدينة كما كان يسودها قبل إعلان الهدنة وقد انتشرت في أنحائها جماعات من الهاتفين والراقصين وفرق الموسيقى

واقتربت أخيراً من مدخل الدار فحياها الحارس وهو يضحك ، ولمَ يضحك ؟ أليس سعيداً ؟ أليس الجميع سعداء في هذه الليلة ؟

ولكنه كف عن الضحك فجأة كأنه تذكر شيئاً لم يكن يذكره وقال :

— لقد ترك حفيدك العمل هنا وذهب ونحن نعرض الليلة برنامجاً جديراً بالاعتبار

— ماذا ؟ !

نطقت بهذه الكلمة سياحاً يكاد يكون باكيا؛ ثم أسندت جسمها المضنى إلى الجدار المجاور وبدا على وجهها المتغضن شحوب كشحوب وجوه الموتى وقد اتسعت حدقتا عينيها

وتطوع الحارس بتفصيل ما أجمل فقال محاولاً تخفيف وقع المصاب على المرأة :

— لقد انتهى الأسبوع يا جدتي ونحن كما تعرفين نغير براجنا كل سبعة أيام . إن الجمهور قد مل قصة الارزاسية الحسناء ومطاردها الألماني؛ ثم إن الله قد أنعم علينا أخيراً بنعمة السلام فمن الواجب أن نعرض شيئاً يتناسب مع هذا المنى الجديد في حياتنا. الناس جميعاً يريدون من صميم أفئدتهم أن ينسوا الحرب وشقاءها وأن يسعدوا أنفسهم؛ ونحن نعرض الليلة لجمهورنا الباحث عن المسرة والسعادة والمرح رواية جديدة من روايات شارلى شابلن؛ وأصدقك القول يا جدتي أنه شريط سار فاذا شهدته فسوف تستغرقين في الضحك

فأجابت في صوت يشبه الأنين :

— لن أراه بعد الآن ... لن أراه بعد الآن

ثم أخرجت من صدرها زفرة حارة عميقة وقالت:

— لقد قتلوه قتلة أخرى ...

كان منظر المرأة المتخاذلة داعياً لتجمهر الناس حولها ، فرأى الحارس منعاً لتفاقم الأمر أن يحاول الترفيه عنها فأخذ يخاطبها قائلا :

— رفهى عن نفسك يا جدتي . أتقتلين نفسك في ليلة كهذه الليلة لا لشيء إلا أننا غيرنا برنامج

الدار : هذا كثير يا سيدتى وعلى كل حال سوف أرى

ثم اتجه نحو بائعة التذاكر وسألها عن شىء ما فسرعان ما قدمت إليه كراسة صغيرة أخذ يفحصها على ضوء المصباح القريب وهو يتمتم قائلا :

— فلنرهذه القصة اللاى بالنباءقصة الأزاسية أين هى الآن ! يجب أن تكون معروضة فى مكان آخر ... شريط عفن هو مجموعة من السخافات .. أين هو الآن ؟ آه ها هو

ثم اقترب من المرأة وأفضى إليها باسم دار من الدور الحقيرة وسمى لها الشارع الذى تقع به

— دار بعيدة قليلا يا سيدتى ولكنك هناك سترين حفيدك. ثم ابتعد عنهـا ولم يعد يعيرها أى التفات إذ أن الجمهور بدأ يقبل نحو الدار لمشاهدة البرنامج الجديد

* * *

وعادت المرأة مرة أخرى إلى الطريق وأخذت تسير وقد استولت عليها فكرة واحدة فجعلت تتمتم قائلة

— لقد فتاوه مرة ثانية .. قتلوه فى هذا اليوم الذى يشعر فيه الجميع بالسعادة

وتحسست كيس نقودها للمرة الثانية فى هذا المساء فلم تجد فيه إلا القليل من القطع النحاسية مما يكاد يكفى لشراء تذكرة واحدة فى دار «السينما» التى تعرض الرواية . ولكنها كانت متعبة ، كانت فى أشد الحاجة إلى الراحة والمكان بعيد فماذا تصنع ؟ لاشىء... ليس فى وسعها إلا أن تسير، وكيف تسير وقواها خائرة ... فليكن ... يجب أن تسير ... قدماها لا تطاوعانها ...

ومرت بذهنها فى تلك اللحظة فكرة غريبة ماذا يحدث لو أنها مدت يدها وسألت الناس إحساناً ؟ إنه يوم عيد وسوف يرى الناس شيخوختها المحطمة وعلامات الأسى والتعب بادية عليها فلا يتأخرون عن مساعدتها

ولكنها سرعان ما استعادت كبرياءها المفقودة فقالت مخاطبة نفسها :

— إننى لم أسأل الناس إحساناً قبل الآن ؛ وأظن أن هذا وقت متأخر غير مناسب للبداية فى هذه الحالة ومع ذلك يجب أن أراه ... يجب أن أراه مهما كلفنى الأمر

وتقدمت قليلا غير أنها توقفت بعد لحظة قصيرة واستندت إلى جذع شجرة من الأشجار المنتشرة على طول الطريق ؛ وكانت أبواب الحانات والمراقص المقابلة تلمع فى ناظريها كأنهـا أبواب الأفران المستعرة ؛ وكانت الأصوات المنبعثة من الفرق الموسيقية المنتشرة فى كل مكان تسبغ على الجو روحاً من المرح والسعادة

وتنهدت العجوز قائلة :

— يا لبعد المكان . . . يا لبعده !

* * *

ولحظة قصيرة رأت من خلال الدموع التى ملأت عينيها شيئاً غريباً . . . رأت أمامها شبح جندى يبتسم . . . جندى يرتدى ثوباً أبيض ناصع البياض يغطيه من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه

يا للغرابة ... ! إنه جسم شفاف لا يحجب ما خلفه من مرئيات؛ وها هى تستطيع أن ترى أشجار الافريز المقابل واضحة كل الوضوح على الرغم من اعتراض جسمه للمسافة القائمة بينها وبين تلك الأشجار ... كأنه جسم من الزجاج أو من البخار

هاهوذا الجندى يشير إليها إشارة معناها أن تتبعه، وهاهوذا يتقدمها فى المسير ، وهاهى تحاول بكل قواها أن تنفذ مشيئته فلا تستطيع

— إنى متعبة يا ولدى . . . جسمى مضنى . . . أطرافى تنضح بالألم . . . لا أستطيع أن أتبعك . . . إن المسافة طويلة . . . طويلة

ثم ارتمت على جذع الشجرة فى غير توازن ، فاتجه إليها الجندى وقد بدت على وجهه الجميل علامات الحزن العميق، فرفعت ناظريها إليه وقالت فى صوت هامس وفى لهجة تنم عن الاعتذار الشديد :

— لا تحزن ...

لا تحزن يا بنى ولا تغضب . . . آه لو تعلم مقدار ما أعانى ومقدار عجزي عن الحركة، إذن لعذرتنى ... ولكن ثق ... ثق أن جدتك لن تتركك أبداً . ألبير

انتظرنى ... أنا آتية ... ها أنذى آتية ياحبيبى ...

(السويس) محمد محمود دوارة

جارسون ... واحد شوب !

فانتازية بسيكولوجية
للكاتب كارديك لاهوفيكي
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

كان قد مضى على اجتماعهما أربع سنين ، سنين أربع ، من الصيف إلى الصيف . هـذا الاجتماع الأول من أربعة أعوام في مدينة لوزان ، عاصمة مقاطعة فو بسويسرا ... لوزان أوشي ، بحيرة ليمان — ما أجمل هذه الأماكن ... الجبل الأبيض يرى لامعاً بالبياض تحت أشعة القمر ، كما يرى أحمر ساطعاً تحت وهج الشمس ، وتلك الألوان البنفسجية واللازوردية والوردية التي تبدو في سفحه ، إنها لعجيبة ، ولكن الأعجب منها لون الجليد الناصع الذي تعمّم به قمة الجبل في كل شهور العام ، على مدى الأسابيع والأيام ... وكيف كان ذلك اللقاء الأول ؟ إن لودفيج دي جيميه لايذكره ، ولايستطيع أن يقف عقله عند تفاصيله . كان طالب هندسة ورياضيات عليا في كلية بوليتيكنيك ، يجيد حساب المثلثات والهندسة الفراغية واللوغارتمات والتحليل الرياضي ... ولكنه ما كان قط يجيد الغرام ولا يتقنه . بل كان مشغولاً بالسياسة والجمعيات السرية ... ففي أوقات فراغه يغشى مجالس الروس والطليان — جمعية الدائرة الحمراء والكف السوداء وإخاء جوزيبي مازيني — وكان شغفه بحياة الخفاء في السياسة — بعد أن اقتنع بضرورته — يملك عليه لبه .

فهاهو ذا وطنه بولونيا قد اقتسمه الأغيار مثالثة بعد أن تنازعوه حقباً طويلة . وكلما اغتال بولوني حر حياة حاكم ظالم أو قاض غير منصف أو بصاص خؤون ، عدوه مجرماً ذا خطورة لايستحق عقوبة أقل من الاعدام . ولكن الأحرار قد باعوا الأعمار بيع السماح ، فلم تكن لديهم وسيلة أخرى غير هذه . فلما نزل لودفيج مدينة لوزان اختار لنفسه مقراً في بنسيون ڤيلابيانكا — الذي يملكه دي نافا ويديره ڤيلابيانكا أحد منازل افنيو دي زالب التي كان يقطنها موسيو بروشيه وزوجته ، وقد نزحا إلى ڤيلا ميسيدور في طرف المدينة الغربي بعد أن باعا بيتهما الفخم لهذا الايطالي الهجين في الفكر ، فقد كان أديباً شاعراً ، وثائراً سياسيًّا ، وداعية اشتراكيًّا ، ناقماً على النظام الرأسمالي . وفي نفس الوقت كان مديراً للفندق ،

تعريف بالقصة

كان في الامكان تحوير عنوان القصة . ولكننا احترمنا إرادة المؤلف ونصه فقد أراد أن يجعل من تلك المأساة التي سببتها خيانة المرأة مهزلة ساخرة ليسلح الضعفاء من الرجال بما يقيهم شر الانحلال الخلقي حيال غدر الجنس اللطيف . ولذا احتفظنا أيضاً بوصفها الفني «فانتازية نفسانية» وهي كلمة اغريقية معناها خيال أو أمر عجيب نادر أو ابتكار رجل ينفرد به في الحياة أو الفن أو التأليف ، كل يعيش على هواه ، فهي بهجة شاذة أو بدعة فذة وقد تؤدي معنى المسخ أو التحوير أو السخرية . وكارديك لاهوفسكي مؤلف بولوني من أتباع هنري سكوينتز مؤلف كوفاديس الشهيرة وقصة مونتكارلو وقد وصفها بأنها فانتازية . والمؤلف هنا يتعمق في نفسية المرأة والوالدة والعاشقة المهجورة والمستهترة والمتألمة والتي تشعر بالخيبة في الأدب والسياسة والزواج فتأخذ أول رجل تلقاه ثم تعبث بقلب الرجل الذي يخلص لها وتخضع للنذل الذي يشبع رغبتها وهي وسط بين العقل والجنون والعفة والدعارة . إنها لقصة مدهشة حقاً

يتقن القيام على خدمة أضيافه، ويظهر شمم الشاعر، وترفع المصلح عن عبادة المال، وقد يتخلى أحياناً عن المساومة فى الأثمان والأجور لزوجته كريونا.

وكانت سويسرية على جانب من الدمامة، ولا ريب أن دى نافا قد باع إليها نفسه فى مقتبل عمره لقاء دنانير معدودة كانت ورثتها، فرزقت منه ولداً ... ثم هجرها فى مضجعها، فافترقا على أنهما يعيشان تحت سقف واحـــد. ولـكنه عكف على حب « أنّـابيلا »، وهى خادم ألمانية ذات جمال ورشاقة وسحر، ولـكنها مفرطة فى البلاهة. وكان دى نافا يباشرها جهاراً ليلاً ونهاراً ويغار عليها من كل قادم ويرقبها عن كثب لوثوقه من عدم الوثوق بها، فهى بهيمة الأنعام فى الشهوات. أما الزوجة الشرعية فكانت تقطن فى أسفل الدار فاذا جاء الليل ودقت الساعة العاشرة صعد نافا إلى مخدعه وترك الشرعية الدميمة تتحرق، فتودعه فى أسفل الدرج قائلة:

« بونا نوتى كاروا »[1] وكان من مظاهر سلطان الرجـل عليها أنهـا تخاطبه بلغته وقد تخلت عن لسانها وهى فى وطنها. أما دى نافا وكان عملاقاً ملتحياً، لا يصلح إلا أن يكون نموذجاً حياً ينقل عنه المصورون أشباحهم الملونة أو تهاويلهم المثلة بالطين المشوى[2] فلما حل لودفيج تلك الفيلا أحسن دى نافا وفادته، وأرسل إليه عشاءه فى غرفته ذات الشرفة والنوافذ المطلة على البحيرة وجبال الالب تحمله تلك « البُنية » الشقراء التى هى أشبه النساء بجرتشن عروس المأساة الجوتيه[3] ولم يكن لودفيج زير نساء، ولـكن دى نافا لم يصبر على بقاء البنت

(١) عم مساء أيها العزيز بالايطالية (٢) terra cotta
(٣) هى رواية فاوست تأليف جوته.

فى غرفته ريثما تضع المائدة وتعـد الطعام فناداها « آنابيلا! آنابيلا! » وكانت هـذه المناداة تحز فى أحشاء زوجته الدميمة التى كانت تعلم أنها صدى لثيرته على الخادمة المحظية المفضلة عليها فى كل ليلة ..

وفى أحد الأيام دعا دى نافا إلى الغـداء بضع نساء وبضعة رجال من الروس الثائرين والمشردين عن أوطانهم بأمر الحكومة القيصرية. وكان لودفيج يجلس بطبيعة الحال إلى تلك المائدة، بحكم أنه نزيل بأجر. وكان دى نافا رقيقاً دقيقاً لبقاً إذ استأذنه فى الجمع بينه وبين أضيافه قائلا فى لغة إيطالية نقية (وكان لدفيج قد أتقنها مذ ساح فى لومبارديا وتوسكانيا وأقام ردحاً من الزمن فى تورينو وفيرنزه):

— انظر هنا ياصاحبى! أنتم فى الهوى سواء. هم مظلومون ثائرون ناقمون على حكومتهم وإن كانت منهم لحماً وعظماً ودماً، ولـكنها تخالفهم فى الرأى وطرائق الحـكم، وتحل الظلم محل النصفة، وتؤثر طبقات الأغنياء والشرفاء المزعومين على غيرها من طبقات الأذكياء والمتعلمين والصناع والزراع والأنتليجنتزيا[1] الناقمة على تقسيم الأرزاق وتوزيع المناصب؛ وأنتم أيضـاً مظلومون وثائرون لأن الحاكمين فى أوطانكم غرباء عنكم، فاذا نقمتم عليهم وطعنتموهم بمدية أو أطلقتم رصاصـة اعتقلوكم وحاكموكم محاكمة جائرة، ثم شنقوكم أو ألقوكم فى غيابات سيبريا أو حصون بطرس وبولس! أليس كذلك؟ غير أنى أفطن إلى عاطفة أخرى، فقد لا تحبون الجنس الذى خرج منه المستبدون فيكم، وإن كان أفراده فى وطنهم مظلومين ...

(١) كلمة إيطاليه intelligentzia صارت دولية ومعناها الذين تثقفوا فى المجتمع الحديث وآثروا المعرفة على جمع المال.

فأنت يا سيدى حر ، إن شئت قبلت دعوتى وتغديت مع أضياف على المائدة العامة ، وإلا فانك تتغدى فى غرفتك فهذا حقك الذى لا ينازعك فيه أحد .
فضحك ادڤيج لإسهاب الايطالى فى شرح موقفه وتبريره وقبل دعوته شاكراً . وبعيد الظهر بربع ساعة دخلت امرأة رشيقة فى مقتبل العمر فأجالت عينيها فى الجالسين حول المائدة . ثم جلست قبالة ادڤيج الذى أحس منذ الوهلة الأولى التى رآها فيها باعجاب بها لاحدله، وود كما يود المرء أحياناً لو تسمح الشرائع أن يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره وإن لم يكن له بها معرفة . لم تكن ألفاظ الجاذبية الجنسية قد سُكّت أو صيغت[1] ولم يعرف ادڤيج عبارة «سيكس إيبل» التى ملأت الأفواه والأسماع بعد ذلك ببضع سنين ؛ ولكن المعنى كان فى النفوس والعقول ويستحوذ أحياناً على الشعور . وقد أحس ادڤيج أن هذه الفتاة فتاة أحلامه التى أعدت لها الطبيعة فى قلبه أسمى عواطف الحب وأعمقها ولبث ينتظرها طويلا ، وإن فيها المثل الأعلى للمرأة التى هام به خياله الشاب ، واستهوته فراح يتأملها على الرغم منه ، فلم تتضايق من نظراته ولم تحمر خجلا. ولكن غيرها من النساء لاحظن ما حدث ، فحاول أن يصرف بصره عن الفتاة فلم يستطع، وظل محدقاً فيها . ولم يكلمها في أول الأمر ولكن نفسيهما قد أطلتا من أعينهما فالتقتا وتعارفتا منذ التقت نظراتهما وأخيراً وبعد الجهد والمقاومة قالت له بالروسية :
— إنك بلا ريب تحب السمك ! سؤال عجيب مدهش دلّ على ارتباكها كالمصحوب بالرغبة فى

« تحطيم حجاب الجليد[1] بينهما » .
فأجاب بالبولونية : أحب السمك بأنواعه وأكره التكلم باللغة الروسية التى لا أجيدها
فصاح من آخر المائدة صوت نكير يقول : ولكن قوانين بلادك تحتم عليك أن تتقنها وتؤدى امتحان الدولة بها. وكان المتكلم كهلا أصفر اللون كريه الهيأة يدعونه الكولونيل فشاروف ، تدل صلعته المربعة ولحيته الدبدبة وعيناه المستطيلتان تحت حاجبين مقوسين على صورة علامة الاستفهام أنه بلغارى من إحدى إمارات البلقان اللواتى يتملقن روسيا ويتقربن إليها ولو على حساب ضحاياها . فصمت ادڤيج هنيهة وأطال النظر فى وجه الكولونيل المتقاعد ، وشعر كل الحاضرين بأنه يعد سهما قاتلاً يحدث به جرحا من جراح اللسان التى لا التئام لها . ولكن الفتاة — وقد عرف أن اسمها جوتى مصغر أوجستا بادرته بنظرة مهدئة مستعطفة ، فاستلت سهام الغضب من جبهته قبل أن يصوبها . فابتسم ولم يجب، وحول وجهه عن ناحية الكولونيل فشاروف، فكان لهذا السكوت فى نفوس الحاضرين وقع أقتل وأفظع وأفجع مما لو أنه تكلم . ولكنه فى حالة صمته لم يضع فى يد أحد سلاحاً يناله به سوء. وطربت جوتى لما علمت من مكانتها فى نفسه ، وانه أطاع إشارتها فجزته على معروفه بابتسامة قصيرة ملأ وميضها نفسه نوراً .
ومرت « الندوة » بخير الكلام .. وهوما قل ودل وثبت فى ذهن دى ناقا أن مأدبته فشلت ولم ينل منها مأربا ، وأن السبب فى فشلها كانت كلة ذلك الكولونيل المتقاعد فشاروف ، ولكن رأى ادڤيج

(١) تعبير لطيف باللغة الأصيلة ، إشارة إلى أن الألفاظ تسك وتضرب كما تسك النقود

(١) افتتاح الحديث briser la glace أى وضع حد للصمت، يشبه الصمت بالثلج

كان مخالفا لرأى الداعى فقد نجحت المأدبة النجاح كله ونال منها أكثر مما أمل ، ففاز بهذه الفتاة التى لو أنفق ما فى جيوبه جميعاً لم يكن ليظفر بلقائها. فلما انسحبا بعد الفراغ من الفاكهة اختارا مجلساً فى البهو واختلسا ساعة للحديث ، وكان حديثاً لذاً كأنه قطع الروض . ثم افترقا على مصافحة اليد ، لا يفتأ يحس إلى المساء بأثرها فى يده وكأنما لمستها الكهرباء. وكان إذ يستذكردروسه أو يقرأ كتبه أو يقلب صحف المجلات ، يفكر فيها أبداً ويستعيد ذكراها فى نفسه ويرى طيفها ماثلا أمامه يؤنسه فى وحدته . ثم افترقا بغدر الزمان فسافرت أوجستا إلى وطنها دون أن تودع صديقها وهو لا يعلم سبب هذه الرحلة المفاجئة . . وتنكرت له المدينة وضاقت فى عينيه على رحبها ، وتنقل بين فنادقها ونزلها ، وعاد إلى مقعد مدام بروسيه ولحية زوجها . . وحاول فتيات من كل جنس ولون أن يتصلن به ليخضعن كبرياءه لسلطان الحب فلم يفلحن لشدة عناده وصلابته ولأنه كان منشغلا حقاً بحب أوجستا ... وبعد شهرأو شهرين نزح هوالآخرحاولاً أن ينسى تلك التى « رحلت ولم تترك عنوانها » فلم يفلح فى محاولته .

وفى يوم من أيام شهر يوليو القائظة الشديدة الهجير فى لوزان ترجل لدفيج على إفريز المحطة من القطار القادم من إيطاليا ، وقصد إلى دار البريد فى ساحة فيدرال ، فتناول حزمة من المكاتيب والبطاقات المصورة كانت تنتظره بذلك الصندوق المبارك ، صندوق الغرباء ، ومستودع الجوالين والمستنفعين « بوست رستانت » ، ثم إلى مطعم « غليوم تيل » وبدأ فض الرسائل فكان أول ماوقع عليه بصره بطاقة بصورة دانتى وبياتريس ، وقد خطت عليها بضعة أسطر :

«صديقى العزيز: ها أنا ذي فى لوزان مرةأخرى، وأبعث إليك بتلك الرسالة على أجنحة المصادفات ، هل تصلك أم تخطئك . إننى هنا نزيلة « فاميلى هاوس » إلى بضعة أشهر . كل شىء تغير إلا صداقتى نحوك »

أوجستا على بضع خطوات ! لقد قطع الشوق شهية الطعام ، وتغلب الوجد لرؤيتها على تعبه . فود لو يذهب من ساعته لرؤيتها قبل أن يذهب إلى النزل الذى تعودهوهو نزل لوسرن المطل على البحيرة ، ثم عاوده التعقل والأناة، فخير له أن ينزل فى نفس الفندق الذى اتخذته مقراً ، ليكون على مقربة منها ، وإن تكن تلك الطريقة فى توريط النساء مكشوفة ... فنهض و « حجز » غرفة بالتليفون فى « فاميلى هاوس » ، ثم أمر بنقل متاعه إليه كعادته قبل أن يصل لتكون غرفته على أتم استعداد للقائه . وقبل الغروب بلحظة وصل إلى الفندق وهو يتقلب على أشواك الانتظار ويلوك حنظل الصبر . وعلى مائدة العشاء قلب أجفانه فى الطاعمين والنزلاء — لأنه لم يشأ أن يسأل أحداً عن صاحبته التى لم يرها منذ أربع سنين ، خشية أن يثير الظنون — فلم يجدها فهم بمغادرة الخوان دون أن يأكل . وإنه لكذلك وإذا بها تقبل فى حياء ، وقد لبست السواد وعلى ثوبها زينة من الدنتلا السوداء والخرز الأسود جعله فتنة الناظرين . . . ولكنها كانت مصفرة اللون ، كالعاج ، وفى عينيها شبه ذهول فلم تلق نظرة على أحد ولم يأخذ بصرها بلدفيج المترقب الدائب . فطال إغضاؤها بدهشة القادم . وسره أنه لم يهف

بالتسرع فى السؤال أو الانصراف . ولكنه لم يأكل إلا قليلا من كل لون ، ليتمكن من اللحاق بها لدى نهوضها . وكانت عند ظنه بها فنهضت وحيت وانصرفت وانفلت فى أثرها ، فرآها تنحدر فى الدرج دون أن تلوى على أحد ، فتبعها ولم يشأ أن يفاجئها على السلالم ، وصبر حتى خطت بكعب النزال واخصيه هادئة ، وسارت فى بهو فسيح مفروش بالطنافس ثم دخلت من باب إلى مخدعها وغلقته وراءها .

فوقف لدفيج يمد أنفاسه قبل أن ينقر على الباب نقرة خفيفة . ففتحت له سيدة فى العقد الرابع خمرية اللون ذات وقار ومحاسن سالفة ، فحياها وسأل عن مدام أوجستا ، فابتسمت وقالت لا أعرف مدام أوجستا ولكنى أعرف مدام دامسكي

وفى تلك اللحظة تكلمت من الداخل بصوتها اللائكى وقالت بالروسية: هنا! تفضل. وأسرعت لقائه فرأى فى ضوء الغرفة حمرة فى خديها وبريقاً فى عينيها لم يكونا لدى العشاء . وكانت الغرفة واسعة ولها شرفة فخمة مطلة على البحيرة والجبال . فدعته إلى الجلوس فيها ثم عرفته إلى السيدة التى فتحت الباب وقالت إنها والدتها وقد صحبتها لتقضى بضعة أيام فى لوزان . ثم رجتها أن تصنع للضيف قدحاً من الشاى

ومر لدفيج فى طريقه بسرير صغير فيه طفل نائم ... فنظر إليه ثم انحنى عليه فاذا به مريض ... فنظر لدفيج إلى وجهها فأيقن أن الطفل طفلها ، فلم ينطق بكلمة . وأخذ مكانه فى الشرفة فى صمت وأحس بأنه فى جو قاتم ، وأن أوجستا تحاول أن تظهر السرور بلقائه وتبطن ما تعانى من ضنك وألم . فانها لم تلبث أن قدمت له الشاى حتى جلست بقرب ولدها واجفة القلب يذهلها الخوف عليه وقد استعصى داؤه . تنظر إليه وقد غشيت محياه الوديع صفرة كئيبة وأحاطت بأجفانه زرقة قاتمة. وأنعم لدفيج النظر فى صدره فاذا به يهبط بطيئا ويرتفع بمشقة وعناء . وكان لدفيج يتلهى بجرعات من الشاى ويرسل إلى الأرض بنظرات ساهمة . ثم تشجع قليلا وسأل الجدة : أمريض من زمن طويل هذا الصغير؟

قالت : منذ ثلاث سنين لا تعرف ابنتى سجو المنام ولا طعم الهناء .

قال: كيف؟ ألا تعرف العلة ؟ أو ليس فى روسيا حيث كنتم أطباء . فقالت الجدة :

— لقد استعصى الداء ، وغمض الدواء، وعجز نطس الأطباء

فضحك لدفيج ضحكة طويلة وهو يشعر أنها فى غير موضعها فى تلك الغرفة الملآنة بالخوف والكدر . وتبادلت المرأتان نظرة مذهولة . وساد الصمت قليلا ثم قالت أوجستا :

وأنت متى وصلت وأين نزلت وهل بلغتك رسالتى التى بعثت بها وأنا متأكدة من ضياعها ؟ فقال :

— دانتى وبياتريس ؟

فلمعت عيناها وقالت : نعم . وهل هى السر فى اهتدائك إلىّ ؟ لم أكن وربى أحب أن ترانى على هذه الحال . ولكن الأمراض تستأذن على أحسن الأسر [1] وابتسمت للنكتة

فنهض لدفيج وقال: ومن طبيبه فى هذه البلدة ؟

أجابت: دكتور كالينين ، طريد القيصر، وهو شيخ كبير كان مدير مستشفى الأمراض فى موسكو

(١) أصل النكتة أن بسمارك أصابه دمل ضخم فى عنقه فرآه الأمبراطور غليوم فقال: له دمل بهذا الحجم أيها المستشار؟ فأجابه : هذا يحدث لأفضل العائلات يامولاى

ولكنه منذ نفيه قد تغيرت أحواله وصار يبدو كالشبح؛ ولا أظن فيه من القوة مايبينه على التشخيص والعلاج ولكننا لانعرف فى هذه المدينة أحداً غيره .

فضحك لدفيج مرة ثانية وقال : لا عليكما ياسيدتى ! لا عليكما . ونهض وخرج .

فنظرت المرأتان فى إثره ثم عادتا تقلبان كفاً على كف وقالت الجدة : أهذا الذى كنت تذكرين مناقبه ؟ فأجابت : لا بد أنه طرأ عليه طارئ ذهب بمعظم لبه

كان لدفيج يعرف من عهد الجامعة طالب طب صغير هو جوردان بارتولوسكى ، بولونى مثله ، وكان لا يزال يكاتبه وقد ذاع صيته منذ تخصص لعلاج الأطفال . وقد اتخذ لوزان مقراً لعمله . فقصد إليه وكان يقطن بيتا فخما فى شارع « بنك فدرال » فالتقيا وتصافحا . ودعاه لدفيج لعيادة الصغير . وكان بارتولسكى شابا قصير القامة مستدير الوجه أزرق العينين وضاء الجبين هادئ الصوت ، يتكلم كالعلماء ويهبط على المرض كالملائكة ويعالج كالملهمين . ولم يكن فى ثيابه متأنقاً . فلما طرقا باب السيدتين فى الفندق ترددت الكهلة فى الاذن لهما. ولكنها فتحت كارهة خشية إغضاب ابنتها .

فدخل الطبيب واتجه قدماً إلى سرير الطفل ، وأطال النظر إليه ثم جسه وقلب ظهره وفحص أحشاءه؛ وكان ينظر إلى الولد بعينين هادئتين قويتين ، كأنهما تمزقان حجب الغيب وتنفذان إلى سرائر الحنايا . وقد بكى الطفل وهو يقلبه، ولم تكن أمه سمعت صوته أمداً طويلا ، ولم تر دموعه تنحدر على خديه . فلما فعل أسرعت السكينة إليه تهنئه دمعه وتهدهد آلامه . وقد حاولت أن ترسل له نشيدا تخافتها صوتها ، وطأطأت رأسها تذرف الدمع زفرات تفيض حسرات وأسى ، ولكن الجدة كانت تتبع حركات الطبيب بارتولسكى بعناية وقد غمغمت فى نفسها وحدقت فيه وهو يفحص بعناية، ومر بخاطرها ماتلاقيه بنتها من هم ملح وأسى لايشفق . وجلس الطبيب الشاب وأخرج قلماً وورقاً فسألته الجدة :

— هل يشفى الولد ويبقى لها ؟

فابتسم وقال : نعم ! بقليل من العناية . ودون الدواء ووصف ألوان الغذاء وأوقاتها بدقة رائعة ، بعد أن روى أطوار الداء السابقة كأنه كان يرى ويسمع . وهمس فى أذن لدفيج أنهما حيال حالة خبيثة من مرض « تريسكايا فولينجوس » الذى يصيب طفلاً من كل مليون، ويشفى منه واحد من عشرة مرضى، وأن علاجه الأوحد حقنة تحت الجلد من « فلورا بيكتوراليس » ولما كان الداء نتيجة لدغة من ذبابة سامة « موشاتو كسينوس » فلا يهزم السم إلا تلك الحقن والهواء النقى والحمام الفاتر وشراب البابونج بزهر البرتقال . وفتح الطبيب حقيبته الصغيرة وكانت تحوى عشرات الأدوية ، وحقن الطفل، ووعد بعيادته فى الغداة والمشى . وحييا وانصرفا تاركين المرأتين فى ذهول . وفى الصباح جاء الطبيب وصاحبه ؛ وكان وجه الأم متهللاً ، فقد نام الطفل هادئاً للمرة الأولى . وضحك لدفيج ضحكته الأولى ؛ وكان الحمام الأول بالماء الفاتر وماء كولونيا ثم الحقنة وشراب البابونج وعصير البرتقال . وانصرف الطبيب وبقى لدفيج يواسيها ويرقب الطفل تارة فى الشرفة وطوراً بجوار نافذة تأتى بنسمات من هواء الشمال المشبع برائحة أزهار الألب والجبل الأبيض ... وكان مقامه يطول أحياناً، ويطلب أن يتغدى مع الأسرة فى إحدى غرفها ، فتلبى إدارة الفندق طلبه . وقد أخفى عن صديقته مجاورته أمداً

حتى لا تسيء تفسير إقامته أو تخطيء الرأى فى تعليلها

وكانت أوجستا تترك الفندق أحياناً ضحى وأخرى عصراً وهى لابسة السواد الذى ألفه لدفيج فلا يسألها ولا تتطوع بالدلالة على مخارجها ومداخلها. وتحولت العلاقة من عاطفة الحب إلى عاطفة الحنان. ونشأت صداقة جديدة بين الأم ولدفيج من طول ما انفردا، وكانت المرأة قصاصة حاذقة ومحدثة ماهرة تطوى الأخبار وتنشرها وتجيد سرد الوقائع وتلخيص الكتب. فانتهز لدفيج غيبة أوجستا يوماً وسألها: لم أكن أعلم أن كريمتك متزوجة

فقالت: ذلك فى موضعه وهى لا تزال غير ذات بعل وإن تكن ذات ولد... أما كيف صارت أماً فهذا سرها. وأظنه سبب اغترابنا. فوجم لدفيج قليلاً ولحت الكهلة الليقة وجومه فتنحنحت وقالت «أظنك كنت تحبها وتعجب بها أما الآن فلا!»

فقال: إنها زادت حسناً فى نظرى، وزادها الألم جمالا وفتنة، ولكنى مذ رأيت الطفل عولت على أن تبقى زيارة مفردة لا تتكرر احتراماً للزوج الحاضر أو الغائب

فقالت المرأة: لو كان الزوج غائباً أو حاضراً ما بعثت إليك بتلك الرسالة. فقال: ولكننى عند ما رأيت الطفل المريض ولم أجد رجلاً يحيطها بعنايته صممت على أن أخدمها دون أن أكترث لعواطفى. وشعر لدفيج بلسعة فى قلبه ولكنه لم يظهر ألمه.

وعادت أوجستا من «مشوارها» مبتهجة فرحة، فاستقبلتها الأم بوابل من الأسئلة. وألقت الأم العائدة نظرة عجلى على سرير ولدها وهي تخلع قفازها ثم أخذ بصرها بلدفيج فتنبهت ثم عضت على شفتها كمن يتذكر شيئاً بعد أوانه ثم قالت له:

— إننى لن أنسى جميلك ما حييت. لا تحسب يا صديقى إننى غافلة عن فضلك. فان ولدى يعود إلى الحياة بمحض مجهودك ومجهود صديقك الطبيب الالمى بارتولوسكى. ونهض لدفيج يودعها حتى موعد العشاء فصحبته إلى الردهة وضغطت على يده وهى تصافحه. وفى تلك الليلة استبقته بعد الساعة التاسعة وهي موعد انصرافه فى كل ليلة. فقال لها: إن البيت الذي يؤوينى تقفل أبوابه فى الساعة العاشرة فلا يمكننى أن أتأخر. فضحكت وقالت له: إنى أعلم مقرك ومسكنك فلا حاجة بك إلى الاختفاء

وللمرة الأولى خلعت ثوبها الأسود ولبست ثوباً أزرق وجلست فى الشرفة على مقعد طويل وقالت له:

آن الأوان لأفضى إليك بسرى. لقد عرفت رجلاً فى وطنى فأغوانى وتخلى عني؛ وكانت الضربة قاسية فلم أبحث عنه بل عدت إلى أمي التى كانت تعيش فى عزلة فى مدينة كييف تزرع أرضها وتدير مطحنها وتتقاضى أجور منازلها التى تركها والدى فوقفت على قدميها، وشرحت لها حالى وسألتها الرحمة والحنان فغفرت لى وبكت. وبعد شهور معدودة وضعت غلاماً؛ وإذ بلغ عاماً بدأ ينطق ويمشى.

وكنت يوماً فى حديقة كاترينا حيث يجلس الأمهات والمرضعات ويدعن الأطفال يسرحون على الخمائل، ولم تكد تمضى ساعة حتى اعترتنى رعدة فقد لمحت رجلا يمشى وقد تأبط ذراع امرأة، وكان هو بعينه الذى أغوانى وتخلى عنى بعد أن أحسست بالجنين يتحرك فى أحشائى

فازداد اضطرابي وارتميت على مقعد قريب منى وانتبهت فى نفسى ذكريات الماضى. فماذا أصنع؟ لبثت جائمة فى مكانى حتى غابا عن نظرى. لم أتعود

أن أمثل دور المهجورة ، وإن مثلته فلن أتقنه مهما حاولت . وعدت إلى عزلتي محطمة حزينة تحز في نفسي الآلام وتحرقها شتى العواطف . ولم أعد أطيق على البقاء صبراً فتوسلت إلى أبي أن تصحبني . وإذ كنا نستمد السفر مرض الطفل ، فأخذنا نتنقل به من مكان إلى مكان، فسحنا في بولونيا وفنلندا والنمسا وإيطاليا حتى استقر بنا المقام في لوزان كما ترى . وها أنت ذا قد أسفرت عن شهم كريم ومَلَك حارس ولا أملك أن أكافئك على إخلاصك لي ولهـذا الطفل البريء وهو ثمرة غروري وغرامي — إلا بالاخلاص والوفاء. وها أنا ذي بين يديك أبادلك حبا بحب ووفاء بوفاء ، وأعاهدك على الصدق والصراحة وستجدني إن شئت صديقة لا تمل ولا تخون ...

فدهش لدفيج وكاد يذعر من هذا السيل من الكلام العـذب فابتسم . ونظر إلى الكواكب الحالمة والبحيرة الهامسة بصوت أمواجها ، ثم إلى أضواء المدينة — بحيرة ليمان وجبال الألب وأنوار لوزان — ما أجلها ! ثم نظر في عيني أوجستا فإذا الاخلاص يشع منهما فأيقن أن الأقدار قادمة على جزائه خيراً باهداء هذه المحبوبة إليه . وهي التي اشتهاها منذ أربع سنين وفارقته على غير صورة، وقد عادت إليه عذراء مفتونة ، وأمًّا منكوبة ، وعشيقة مهجورة . فما عليه إلا أن يطأطئ رأسه ويمد يده ليقطف تلك الثمرة الدانية الحزينة . ولـكن ماذا يقول بعد هذا الاعتراف الذي أفرغته في أذنه حلواً ومراً ؟ أباحت بسرها لتستعطفه أم لتقصيه ؟ أعارفة هي بخلقه إن كان يرضى بها أم يسخط عليها أم وثقت بإنسانيته ورجولته فلم تخف عنه سر حياتها ولغز وجودها ووصفت له ما قاست في سبيل ثمرة غرامها

المحرم ؟ ولم يستطع أن يبرم في أمرها أو ينقض ، فتظاهر بالعطف واللطف وشجعها على المضي في سجيتها كأنه قد شاقه أن يستمتع بحديثها ويمتعها بحديثه فأتيا بالبديع المستطرف من الملح والسائغ المستحب من النوادر. ورنت ضحكات أوجستا بريئة ناعمة تنبئ عما شملها من سرور واستحوذ عليها من مرح . وظلا كذلك ردحاً من الزمن غير يسير يتطارحان روائع الطرف . وأحس لودفيج بعد نصف الليل بقليل بما يضطرم في نفسها من ميول وأهواء . فقد أخذت تنظر في الغرفة وتنصت كأنها تتسمع وقع أقدام أو دقات قلب . ثم تغمض عينيها كالمرأة التي تريد أن تستسلم لعاشق يدل عليها ويقاوم رغبتها الجامحة ، وسألها لدفيج فجأة :

— ألا تزال صبة مغرمة وهائمة كلفة بالرجل الذي أحبها ونقلها من الهوى العذري إلى الغرام الأنثوي ثم أودعها سر الخليقة فأولدها طفلا لا تزال تعاني حبه وعلاجه ويخفق قلبها بخفقان قلبه؟ فقالت:

— إنني لا أحبه ولم أكن سوى ضحية الزمان والمكان والوجد السريع النادر ، ولا أحب الآن سواك لأنك أقرب إلى مزاجي وطبعي وأدنى إلى تفهم نفسيتي ومعقوليتي من ذلك الرجل . وكان لدفيج يخالسهـا النظر من حين إلى حين فتبادله « نظرة المريض إلى عيون العُوَّد » وتحاول وهي تناوله الشاي أو الفطير أو قدح الماء القراح أن يحتك كتفها بكتفه عرضاً أو بنانها بأنامله مصادفة فيشعر بثمرة اللذات وفيض الهناء ، كأن مفاتن العالم ومباهج الحياة قد استحالت جميعاً امرأة فاتنة خمرية اللون سوداء الشعر هي هذه التي يسعد بالجلوس حيالها يتملى من روعة حسنها الضحيان . وما كان

أسهل لديه أن يمد ذراعه ليجذبها إليه ويقبلها ويتملكها فى مظهر ذلك الجمال الأسمى المتجلى فى السماء والجبال وهدوء الليل ، ولكنه كان جباراً على نفسه قابضاً على زمام طبيعته بيد من حديد، فكبت وصمت وعادت أوجستا الحديث فقالت : لا أدرى لماذا أشتهى الخمر فى هذه الليلة أنا التى أبغضها من صميم قلبى . ولكن كان بودى أن أشربها معك . فاهتز كيان لدفيج هزة عنيفة ثم قالت : أعترف لك الآن أنك استملتنى بجميلك وحسن صنيعك فقد شارف ولدى على الشفاء بفضل سميك واجتهاد صديقك النطاسى بارتولوسكى، كما ملكت عواطفى بروعة أحاديثك . ولا أدرى لماذا تذكرتك كثيراً فى الصيف الماضى فى روسيا ولا لماذا كان طيفك يمثل أغلب الأحيان أمام عينى . وطالما تمنيت ... فقال لها : ماذا تمنيت ؟ قالت : أن يكون هذا الطفل لى منك لا من سواك، فانى أحب أن تعيد الطبيعة خلقك فى صغير تحنو عليه ضلوعى وتحتويه أحشائى وأرضعه لبانى . وكانت نفسى فى أشد أوقات الضيق تحدثنى بلقائك . فقال لها : أكنت تنتظرين لقائى إذن يا أوجستا ؟ وكانت تلك هى المرة الأولى التى لفظ فيها اسمها من غير لقب ، فرفعت إليه عينيها الساجيتين بجلال ، ولما التقى النظران أطرقت حياء وضرّج الخفر خديها الناضرين الناعمين بحمرة الورد . ولم يلبثا أن افترقا على أمل اللقاء فى الغد

وما انتصف النهار حتى كانت قدماه تقودانه إلى غرفتها كأن قوة خفية تدفع به إليها وما توشك أن تسمع دقته حتى تهرع إليه لتستقبله . وكانت أمها غائبة عن الدار فى أحد شؤونها التالية . فدخل لدفيج وجلس وأقبلت عليه وهى ترتجف ونظرت إليه بعينين نصف مطبقتين وحيا وادع كستة العاطفة من سحرها وروعتها وتمتمت : لدفيج ! فحنا عليها وصوتها الرخيم يرن فى مسمعه ، وحبها الكظيم يثور فى أضلعه وهمس يحب : « أوجستا » وهم بتقبيلها فما أن كاد يصل ثغره إلى ثغرها حتى سحب رأسه وتراجع عنها أظمأ ما يكون إلى رشفة من بين ثناياها وحبس القبلة فى فمه ، فردت رأسها المحبوب وأطلقت من صدرها المجهود زفرة لاهية ولم تنبس . فقال لها : — عندى . لا أستطيع أن أحبك فى هذه الغرفة ، إن عينى الصغير « اليوشكا » وشبح والدتك يوقظان الحياء والخفر فى نفسى

فقالت له : أو تظن أن نفسى مجردة منهما حتى يسوقاك ولا يسوقانى . أنا لك أنى شئت . فاتفقا على أن تستأذن أمها فى غيبة قصيرة — يوماً وليلة — تقضيهما فى بيت صديقة قديمة فى ديفون على شاطئ البحيرة ، ولكنهما يلجآن إلى بوفريه

فقال لها : لا بد أن والدتك تدرك شيئاً من سرنا عند ما لا تجدنى أزورها فى غيبتك . وعندئذ انفجرت أوجستا وقالت له : ألم تكفك الأيام التى قضيناها معاً وتصرمت منها الساعات وقد ذهبت علينا هدراً فيما لا طائل تحته ولا غنية فيه ، وإن الذى حال بين حبها وبينه من إباء وشرف وكرامة لم يكن إلا هراء ولغواً ، وقد أخطآ خطأً فادحاً فى عدم انصياعهما إلى عاطفتها وهواه

فقال لها : أتنفل كل ما تواطأ الناس عليه من قواعد وشرائط الحب ؟ فقالت وقد لمت عيناها : — على المرء عند ما يحب أن يرتفع فوق العرف والشرائع وأن يسمو فوق الترهات والأباطيل وأن

يتخلى عن التفكير فى غده ومستقبله وألا يبحث فى أمور السعادة والشقاء والرذيلة والفضيلة والشرف والتهتك أو يضيع أوقاته سدى، ولينذفع وراء حبه إن شاء متعة نفسه وراحة قلبه . فنهض ادفيج وقبلها قبلات حارة أودعهـا كل ما فى فؤاده من حنين وحب وصافحها مودعاً إلى الغـد وقد تواعدا على أن يلتقيا فى الصباح فى غرفة الانتظار فى محطة السكة الحديدية ، فيـكون قد اتخذ أهبته للسفر . وخرج وهو أسعد رجل فى انتظار ذلك اللقاء المرتقب . وذهب ادفيج إلى غرفته ولـكن فيمن كان يفكر وهو يصعد الدرج ليقضى ليلته وخيال من كان ملازمه ؟ وطيف أية حورية كان ذلك الذى راود أجفانه حتى الساعة العاشرة ؟ الجواب على هذه الأسئلة كلها هو « أوجيستا » . فلما أيقن أنه لن تغمض له عين ولن يأخذ الـكرى بمعاقد أجفانه نهض ولبس ثيابه وانحدر فى سكون الليل ليقضى هزيعاً منه فى أحد المقاهى الساهرة حتى يهون عليه انتظار أنفاس الصباح . فسار قدما فى شارع غليوم تيل ثم بون سودرون فاشيون بونون فبولفار رسوفيدان فيدراو، وهناك ولج باب تلك الحانة الشهيرة «جراند براسيرى فودواز » التى يؤمها الطلاب والطالبات ليشربوا ويطربوا ويرقصوا إلى ما بعد نصف الليل وجلس منفرداً فى إحدى تلك المقاصير المظللة بالخمائل المنعزلة عن أخواتها بشباك خضراء من الأغصان والأفنان كأنها خلوات العابدين فى بطون الوديان أو رؤوس الجبال. ولم يوشك أن يرتشف من قدحه رشفة حتى سمع وراء ظهره وقع أقدام وصوتين يتحدث صاحباهما فى مرح مصحوب بالحذر . صوت امرأة وصوت رجل. فاهتز ادفيج وارتجفت يده ثم كاد دمه يجمد فى عروقه. المرأة هى أوجستا والرجل هو دى نانافرانتلودي نانا ذلك الأفاق دعى الأدب وصاحب الخان الذى اجتمع ادفيج باوجستا على مائدته لأول مرة . وبعد الدهشة الأولى كذب أذنه لشدة استغرابه واستبعاده واستهجانه ، وود لو يستطيع أن ينظر إليهما بعينه ليرى وجه المرأة التى كانت بين يديه منذ ساعات معدودة تستعطفه وتترضاه وتراوده وتحمسه وتصرفه عن الفضيلة والشريعة والعرف وتهون فى نظره مراقبة الناس ومراعاة الحق والواجب . وما زال يتحرك ويعتدل ويميل حتى صار منهما بحيث يرى ويسمع، وعندما وقع نظره على ثوبها وشعرها وخدها (وكانت له فيه علامة لا تخطئ) كاد يجن ويفقد مشاعره وتحل قيود العقل فى نفسه ، ولـكنه ضحك واستطاع أن يحوّل ألمه سروراً وطيشه حلماً وغضبه صبراً وسخطه انتعاظاً فسمعها تقول : سأغيب عنك يومين لا أكثر ؛ إن لى صديقة قديمة فى ديفون تحب أن ترانى ، وقد حاولت أن أدعوها لزيارتى فى لوزان فلم أفلح فسمع الرجل يقول : وكيف تتركين ولدك ووالدتك ؟

أجابت : إن الصغير دخل دائرة النقاهة ولا خطر عليـه ؛ أما أمى فترى فى تلك الرحلة بعض راحتى وهنائى . ولشد ما وددت أن أكون معك فى سياحتى القصيرة

فقال : إن موسم العمل لا يسمح لى بالتنقل ، ثم إن زوجتى تجن إذا علمت بسفرى لأنها تتهمنى دائماً بمرافقتك . فما هـذه الساعات التى نختلسها إلا فرص نادرة . ولولا شوقى إليك ما استطعت أن أخاطر بعقلها أو بحياتى

فقالت: لا تمتن على بقربك وتشعرنى بعرفان

الجميل الذى لك فى عنق ، بيد أن الأمر بين الرجال والنساء غير ما تفعل . وكانت أشعة ضئيلة تقع على وجه أوجستا فيراها لدفيج كأنها فى غيبوبة عما حولها ، وكانت حركاتها وسكناتها كلها تنم عن استرخاء تستسلم فيه لرفيقها الايطالى المقامر استسلام التابع الضعيف يستمد حياته من متبوعه وقد أصبح خيالاً له وصدى لصوته . وكان لدفيج إذا نظر إليه متأملا خاله تارة أسعد الناس وتارة أشقى من فى الحياة ، فهو سعيد باكتشاف هذه الخيانة الثائرة فى أعماق نفس المرأة التى استسلم لها وسعى بخيبة أمله فى حبه حتى بغضت له الحياة . كان عليه أن يقتل أحدهما أو يقتلهما وينتحر ، وكان عليه — إن أراد الحياة — أن ينتقم دون أن يضحى بكرامته ؛ وهل تستحق هذه الداعر النادرة المفتونة أن يبذل حياته فى سبيلها ؟ فنهض وسار خطى معدودة حتى وقف بباب خلوتهما المجاورة لمقصورته وصرخ بأعلى صوته : جارسون . تفضل بمحاسبتى فانى مسافر فى الصباح الباكر، إن لى صديقاً قديماً فى ديفون يجب أن يرانى وحاولت استدراجه إلى لوزان فلم أفلح وسأغيب عن حانتكم يومين لا أكثر

وساد فى المكان صمت عميق

وجاء النادل مهرولاً ولم يسمع سوى آخر ما فاه به لودفيج . فدفع للخادم ثمن الخمرة المنقذة ونفحه حلوانه بسخاء ولم يجد الجرسون مايقوله سوى قوله « إن هـذه الجعة جيدة جداً ياسيدى ، لقد أدخلت السرور على نفسك بسرعة مدهشة » وقد ظنه سكران بفعل الخمر . وخرج لدفيج يترنح فكان من يراه لا يشك فى أنه فريسة منقوع الشعير وحشيشة الدينار . وشيعه الخادم إلى المخرج خشية أن يسقط على الأرض وهو ذلك الشارب السخى .

وبعـد فترة حكم فيها السكوت على دى نانا وصاحبته قال لها :

— ليس هذا الصوت غريباً على أذنى .

— وليس كلامه غريباً على سمعى .

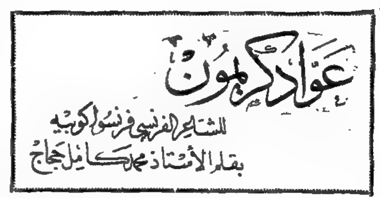
— أى نعم رحلة قصيرة إلى ديفون وصديق قديم .

— لعله التقفها من أفواهنا وحسّن له السكر أن يبيدها . .

— إن لم تخنى ذاكرتى فهو ذلك البولونى . . أتذكرين منذ أربع سنين أنك قلت لى إنه لا يعدو أحد رجلين: إما عبقرى، وإما أبله. فقلت لك: لا هذا ولا ذاك، إنه مخلوق عادى كالدرهم الذى ينفق فى الاسواق لا زائف فيرد، ولا حديث العهد بالسك فيدخر .

فضحكت أوجستا وقالت : صدقت لا يرد ولا يدخر .. جارسون : واحد شوب !

محمد لطفى جمعة



جانينا — قف التوقيع فأني لا أستطيع أن أحدعك أ كثر من هذا فاني أعرف كبرياء الفنان وأقاسمك إياه كما شاطرتك آلامك فيا مضى ولـكن ليس ذلك الذى يسيل عبراتى

فيليبو — وماذا إذن ؟

جانينا — سأسبب لك آلاماً ثقالا ولـكنك ستشفق على بلا ريب . وحينما قلت لك أيها الصديق القديم إن الحب تغلغل فى فؤادى وإنى كنت أتمنى النجاح لأحد المتنافسين وإن سعادتك هدمت سعادتى

فيليبو — أواه !

جانينا — يحسن ألا يتملـكك الغضب ، إنى كنت أجهل كل شيء لأنك لم تظهر لى شيئاً، وكنت أظنك كمامل مبتدىء ، وهذا أمر طبيعى ، ثم تمنيت أحسن الأمانى للرجل الذى أحبه ، وإن كنت أعرف هذه الأمور لما ترددت فى قرارى نحوكما وكنت أقنع بهذه الفكرة من أنك أذكى منه وأمهر وما كنت أبكى كاليوم

فيليبو — (مشيراً إلى الباب الذى خرج منه ساندرو) هل تحبين ؟ . . .

جانينا — (بصوت منخفض) نعم ! . . .

فيليبو — ساندرو !

جانينا — أنظر ، فانى أودعك سرى دون تردد . . . وهو الذى كان يغذى فىّ الأمل فى نجاحه ، ولـكنى بعد ما سمعته لا أرى أن يؤمل فى هذه الجائزة . وما أقسى أن يفقد الانسان الأمل ! ولـكن حزنى ليس مؤلماً لأن رفيق طفولتى وأخى الذى يجب أن ينال هذه الجائزة باستحقاق وجدارة وكان ذلك فوق طاقتى . . . فعفواً

(ثم تبكى وتتول)

فيليبو — إننى فى الحقيقة أتألم أكثر منك فأرجو منك . . .

جانينا — أواه ! إن هذا سىء وإنى لظالمة . . . وقد نسيت بؤسك ولم أفكر فى شئونك . ليس لك فى علنا أيها الدنف النحيل والصديق المسكين غير فنك الذى يعزيك ، فقدا انتهى حزنى لأنى كنت حمقاء، ومن العدل إذن أن يكون نصيبه الحب ونصيبك الفخر؛ وسيكون ساندرو العزيز زوجى على كل حال، وإنك فنان عظيم تثير إعجابى ، وإنى أحبك وأريد أن أقسم لك (ثم تأخذ يديه)

ولن أبكي عوض . . . أنظر فانى أبسم . .

(ثم تصعد الزفرات)

ولـكن هذا فوق طاقتى ! (ثم تخرج)

المنظر الثامن

فيليبو (وحده بعد تأمل مؤلم) — قطعت جهيزة قول كل خطيب ! اعترفت بكل شيء وإنها تحب رجلا آخر ، وهكذا حلت مشكلة سعادتى بكلمة واحدة ، نعم رجل آخر ! . . . هذا الشاب الخامل . . لم تدهش وتتعجب بعد كل هـذا؟! وتتهمها بالظلم والعسف ؟ . . . إن الأمور تجرى بطبيعتها أيها التعس . وفى سنها هذه تحلم الفتيات بحبيب مماثل

لهذا الشاب، وأنت أيها السقط المنكود الذى تضحك السوقة فى طريقه ، أما نظرت وجهك قط فى المرآة ؟ ولكننى لم أنظر شيئاً ؟ ياللعمى والحماقة !

هيا أيها الأحدب واختبئ في جحر ! إنها تحب ساندرو ! وليكونا سعيدين هانئين ! وأنت ، اذهب لشأنك ، تألم وت ! أواه ! أية حسرة تنهش فؤادى ! إنى أشعر بشيء انطفأ مني إلى الأبد . وماذا يفيدنى الآن أن أدخل فى هذه المسابقة والطمع فى الانتصار الوهمى ؟ ماذا تعمل أيها الغارق فى أحلامه والذى لا يريد المجد الا ليظفر منها بالقبول والاعجاب والذي لم ينجح إلا فى إسالة دمعها ؟ ولا حاجة لى فى المنافسة وإن ساندرو ليمد بمدى أمهر الصناع ، فليأخذ الجائزة ليكفكف عبراتها (ثم يأخذ كمانه)

وأنت يامن بذلت كل ما فى وسعى لنجاحها أصبحت عديمة الفائدة حتى إنى أحتقرك الآن أنت وآمالي ويجب أن أحطمك (ثم يتوقف)

رباه ! أية فكرة تنهش فؤادى ! وإذا نجح عامل آخر وحاز الجائزة فهل يتزوجها ؟ ان حبها لا يليق بى ! بل هو مضحك !... كلا ! فان الاخلاص هو الذى يتقدم بيننا أنا أتقهقر ! لأن الكمانين متشابهتان فى الشكل ، وإنى أستطيع أن أتنازل عن عملى بأن أغير الظرف لأن ساندرو ليس له روح موسيقية ليتسنى له أن يفرق بين صنعه وصنعي . وحينما يأخذون الآلات لتجربتها هناك سأقول له حذرا من فتح ظروفها وسترسل إلى المحكمين الآن ... إنى لا أريد أن تبكى هذه المسكينة ، وأنت يا كمانى ينبغى أن تحطمي لأنك تستطيعين أن تمنعها من التألم ؟ فلتتشجع ونقدم لها هذه الخدمة العظيمة

(ثم يفتح الظرفين ويضع كمان ساندرو فى الظرف الأحمر ثم يقول وهو يضع كمانه فى الظرف الأسود)

ومع ذلك فان هذه تضحية قاسية فظيعة لم تخطر على بالى ـ أيتها القلوب الانسانية الضعيفة ـ إننى صرفت أياما طوالا أشتغل فيها بيدى ، إن روح الفنان المشتعل قد أودع فى هذه الآلة الحنو الأبوى المؤثر . إنى أحبك كثيرا أيتها الآلة العزيزة التى صنعتها ، وداعا إلى الأبد . إنى أضمك فى هذا الظرف الضيق الأسود ، وأظننى فى حداد وأنا أضمك هذا الوضع كأننى ألحد ابنتى فى رمسها

(ثم يقفل الظرف بسرعة ويقول بصوت مختنق)

قد تم الأمر !

المنظر التاسع

فيليبو — المعلم فيرارى — ساندرو

المعلم فيرارى (وهو داخل)

هيا ياساندرو ... وفيليبو ... قد اقتربت الساعة ولم تتهيآ بعد للذهاب

ساندرو (يدخل من اليمين) — قد تم كل شيء يامعلمي !

فيليبو (مشيراً إلى الظرفين) — هاهما جاهزتين

المعلم فيرارى — أتمنى لكما النجاح ياولدىّ ، إنى أستاذ فى فنى وهؤلاء المدعون يفرطون فى الاكثار من وضع القلفونيا على كماتهم الرديئة ! وستكون الجائزة لنا — لأنى جلت جولة فى المدينة فرأيت الناس جميعهم فى استعداد لهذا اليوم مرتدين ملابس الأحد يسيرون زرافات ليشاهدوا اجتماع اللجنة ، ويرى من بعيد رئيس الكنيسة وهو متربع فى كرسيه الكبير ، ينظر من بعيد وهو مبيض من البودره كأنه شجرة تفاح فى ابريل . تجول فى الهواء نفحة شجية ، وفى الطريق لا يستنشق الناس ويشمون غير الموسيقى المنبعثة من مزمار «أورب» ومزهر « أبولون » ، وفى جميع مفارق الطرق تسمع أصوات الكمان صادرة من نوافذ غرف الأسطحة .

وجميع الأبراج وتنبعث من مدينة كريمون أصوات مختلطة متتابعة فى الصعود كأنها الاوركستر قبل رفع الستار !

ساندرو — هل ستتبعنى يا فيليبو ؟

فيليبو — كلا يا زميلى ... فانى أينما ذهبت يضحك منى ويهزأ بى ويضطرنى لحل صنعى مع صنعك ، فتصرف كنافس مخلص لأنك فى بعض الأحيان تكون بعيداً عن الاخلاص ، وفضلا عن ذلك فان دار المحافظة قريبة جداً

(ثم يتناول يد فيليبو التى مدها إليه)

ساندرو — نعم

فيليبو — شكراً لك !

(ثم يخرج ساندرو حاملا الكمانين فى ظرفيهما)

المنظر العاشر

فيليبو — المعلم فيرارى

فيليبو (على حدة) — أواه ! قد تمت الضحية فلنتشجع ! ... (بصوت عال إلى فيرارى) ألا تذهب لتشاهد صنعه مكللا بالنجاح ؟

المعلم فيرارى — نعم سأذهب ، ولكن ساندرو لم يأخذ الجائزة بعد وإنك لتستطيع أن تنال السلسلة الذهبية ، وهل أنت أقل منه ذكاء ومهارة ؟

فيليبو — كلا فانك تعرف جيداً أننى سيء الحظ

فيرارى — إنك تشك كثيراً فى نفسك وإنك لا تقل عن مهرة صناع الآلات الموسيقية ؛ وإن نلت الجائزة فانى أبر بقسمى معك وأختارك لى صهراً وخلفاً

فيليبو — أيها الأستاذ !

فيرارى — دعنى أتم حديثى فانى أعلم بحقائق الأمور ، وستكون رب بيت عظيم ، واعلم أننى حينما بنيت على عقيلتى كانت سنى ضعف سنك الآن ففتحت هذا المحل ولم أكن فى ذلك الوقت ذا جاه ناضر ولو أنه كان مقبولا ولكن فارقته قليلا تلك النضرة ، وكانت زوجى فى ربيعها العشرين ذات دل ، وهذا بلا شك فيه خطره فافتتن بها كثير من الشبان الأعيان فكانوا يقصرون نزهتهم على هذا المكان . وفى المساء يأتون زرافات ويوقعون شجى الألحان على آلاتهم الوترية . ألا تعجب الآن حينما تعلم لأى حد تنفذ المصادفات شرف رجال فننا وكيف بعت فى النهار لجميع هؤلاء الفتيان ذوى الجمال الباهر كثيراً من القيثارات ، وكنت أستدل من صوت آلاتهم وأنا نائم على ضراب هذه الألحان ، وراقبت زوجتى وحافظت عليها بكل دعة واطمئنان وجمعت ثروتى هذه بلا مشقة ولا عناء

ويل لك ! لقد نسينا المسابقة وتأخرت عن الذهاب فناولنى عصاى لأذهب على عجل

(ثم يخرج من اليمين)

المنظر الحادى عشر

فيليبو — جانينا

فيليبو — إننى لمتشوق لتحقيق كل ذلك (ثم يلمح جانينا داخلة وبيدها كتاب صلوات) ، إنها هى !

جانينا — إننى آتية يا فيليبو من الكنيسة ، ولقد ذهبت وقلبى مثقل بالهموم ... ! ودعوت الله أن يكلله بالنجاح رغماً من جميع الاعتبارات ، وحينما ركعت أمام القديسة سيسيل شعرت بأن الله لا يتقبل طلباً غير عادل . ومهما حصل فقد عاهدت الله ياصديقى أن أستمر معك كما كنت دون أن أغير شيئاً من طباعى ، فالى الملتقى القريب ... !

(ثم تخترق المسرح وتخرج من اليمين)

المنظر الثانى عشر

فيليبو (وحده) — ما أشد حبها له فوا أسفاه ! ولو كنت قوياً جميلاً مثله لأحبتنى حباً جماً ... !

المنظر الثالث عشر

فيليبو — ساندرو

ساندرو (يأتى من الداخل يهرولا بعنف واضطراب) — فيليبو ! فيليبو ... !

فيليبو — ماذا دهاك ! فانى أرى عينيك مغرورقتين بدمعهما ووجهك شاحباً ماذا عراك ؟

ساندرو — لقد اقترفت إثماً فاحشاً ، إنى مجرم عفواً ... ! عفواً ... ! عفواً ... !

فيليبو — من ؟ أنا ؟ أنا الذى أسامحك أيها الصديق ؟ وماذا جرى ؟

ساندرو — إنى — كما ترى — قد فُتنت بها وسيطرت على نفسى ، وقد أنتصر على مزاحم أمام عينيها ، وإنى لتمس نذل حسود . وحينما حلت كأنك — وهى صفوة صنعك — سولت لى نفسى وبا العار والفضيحة ، وقد فارقنى صوابى من الغيظ والألم ، فوقفت وأنا أرتعد كاللص، فى ظل رتاج بزقاق ضيق وبدلت السكاتين

فيليبو — أنت ؟

ساندرو — لقد قدمتهما للحكمين ، وحينما فتح الخبير الظرفين لم أستطع رؤية ذلك وركنت إلى الفرار . إنتقم منى إذن أمام الاشهاد وافضح عملى ! ولكن كن بى رحيماً ولا تطلعها على فعلتى الشنعاء . وسأكتب لك اعترافاً بالجريمة ثم أذهب لأموت بعيداً لأن الخجل قتال . ولكنى أتوسل إليك ألا تدع وجهى يحمر خجلاً أمامها
(ثم يركع أمامه)

فيليبو — كلا يا ساندرو فلا حاجة لى إلى الانتقام فلقد انتقمت أنت من نفسك

ساندرو — ماذا تقول ؟

فيليبو — هذا الفخر الذى يرجع الفضل فيه إلى صفوة أعمالى هذه قد تنازلت عنه لك ولكنك رددته إلى .

ساندرو — وكيف ذلك ؟

فيليبو — هاتان السكانان اللتان بدلتهما قد كنت بدلتهما أنا بيدى

ساندرو — ماذا أسمع ! فان توبيخ ضميرى يحول دون فهمى ! وما الذى اضطرك لهذا العمل ؟

فيليبو — لأنى أعبدها وأنت الذى فضلته وإن كان فؤادى يفيض حسرة مؤلمة . ولو كنت أبحث عن الشجار من فعلتك فانها قد محت كل ما عملته لأجلها ...

ساندرو (ينهض) — لقد اقترفت إثماً وأود أن أنال قصاصه ، فتفوه بكلمة لأذهب حيث لا أعود . وإن نسيتنى جانيتا فسأستسلم لله ... وستجعلها تحبك لأنك الوحيد الجدير بها ... إنى أرحل ... ويجب ألا أتردد (يسمع صخب فى الخارج)

فيليبو — لا تبرح مكانك وأطعنى !

المنظر الرابع عشر

الجميع (يدخل فيزارى ثم يرفع ذراعيه صوب السماء حينما يشاهد فيليبو وقد سار وراءه جماعة العوادين وحاجبان يحمل أحدهما السلسلة الذهبية على وسادة والثانى كأن فيليبو وقد زينت بالأزهار والأشرطة الحريرية — وتظهر جانيتا على عتبة الباب الأيمن) — ليحى الفنان الماهر !

المعلم فيزارى (مخاطباً فيليبو) — تعال بين ذراعى فإنى أنادى بك ملكاً للفن وإنى أبر بوعدى أمام الاخوان الزملاء فأنت إذن شريكى وصهرى وقلبى ! وقبل كل شىء أمنحك هذه السلسلة الذهبية ...
(ثم يناوله إياها)

فيليبو (يأخذها ويذهب إلى جانيتا ويضعها فى عنقها) — إنى أمنحها جانيتا الحسناء لتجعلها أحب الحلى إليها حينما يبنى عليها صديق ساندرو

جانينا — لافض فوك يافيليبو البار الطيب

ساندرو (بصوت منخفض) — صديقى النبيل ! وأخى العزيز !

المعلم فيرارى — مهلا ! أما تمنيت قط أمانى فرسان مالطه وأنك تستطيع أن تتزوج منها ...

فيليبو — كلا ! يا أستاذى الطيب وإنى أود أن أذهب بعيداً لأحمل معى شهرتك ، ومن الغد سأسيح فى إيطاليا . أنظر فإنى حلمت حلماً ، والذى يتأتى حدوثه لم يحدث ، ثم سأذهب وأنا سعيد جداً إذا كان ذهابى يحدث بعض الأسف وهذا كل ما أتمناه (ثم يجذب نحوه ساندرو وجانينا)

وحينما يعود الحل إلى العمل ويستتب لك الحظ بجانب حبيبتك وتعمل عملك الذى تودته وإن كان بعض الأوتار ذات الصوت الشاكى ، ينقطع بين أصابعك فاذكرا معاً أنى أشعر فى هذا الوداع الأليم الماثل أن قلبي يتمزق مثل هذه الأوتار الشاكية ! إننى أعرف أنكما لا تستطيعان أن تملا شيئاً فى هذا الأمر . ولا تنسيا أنى كنت ولا أزال أحبكما حباً خالصاً صادقاً !

المعلم فيرارى — أيها الناكر الجميل ! أتريد أن تخرب بيتى ؟

فيليبو — إننى أترك لك ساندرو

فيرارى — ما هذا الميل الغريب ! أتزرع هنا السعادة والثروة وما إليهما ... وما الذى حفظته لنفسك ؟

فيليبو (وهو ممسك بكمانه) — احفظ هـذه (على حدة)

وستعزينى وتكون سلوانى فى هوى وأشجانى !

(تمت) محمد كامل حجاج

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الرابع والأربعون

ولي العهد يزور السفير

تقرر أن يزورنا ولي العهد، وتحدد لذلك موعد بعيد يدل على أن اليوم إنما اختير ليمنه . ذلك بالرغم من تأكيد المترجم أن الأيام كلها سواء عند الانكليز . ولكن أكاذيب الانكليز كانت تظهر لنا شيئاً فشيئاً بشكل واضح . وقبل موعد الزيارة كتبت عنها جميع الصحف ، وقد اهتم أهل المدينة بهذا الخبر كأنهم لم يسمعوا قبل الآن أقل شيء عن الفارسيين . وأرسل السفير الدعوة إلى عدد كبير من الناس كطلبهم

والغريب في أمر الانكليز أن أحدهم يغضب إذا لم تصله دعوة كان ينتظرها ، وأنه يبني حقه في طلب الدعوة على أتفه الأسباب ، كأن يكون له ابن عم في فارس، أوأن يكون قد رأى السفير في إحدى الحفلات الخاصة . واحتجت إحدى السيدات بأنه مادام الفارسيون يسمحون بتعدد الزوجات فالواجب أن يكون عدد المدعوات في الحفلات أكبر من عدد المدعوين

وكانت قد انقضت مدة لم أسمع فيها شيئاً عن أسرة هوج سوى ما يأتي به السفير بين حين وحين من السخرية بي والاستهزاء بتعدد ذكرهم ومحادثتي في أمر الزواج

وقبل الدعوة بيوم واحد جاءت زوجة المستر هوج وبنتها بيسي إلى دار السفارة لتقابلني، وخاطبتني كالعادة كأنه لم يحدث شيء . وكانت تخاطبني بلقب الأمير وعاتبتني على عدم الزيارة، ثم تبين أن المطلوب هو إرسال الدعوة إلى حفلة ولي العهد ، ولكي تضمن الخبيثة بيسي إجابة هذا الطلب ضغطت على أصبعي الخنصر وهي تودعني عند الانصراف . فعاودني الأمل في مهرها وفيها، ووعدتها بأن أحصل على دعوة من السفير وإن كنت أثق بأن السفير سيسخر بي عند ما أطلب هذه الدعوة

بيد أنه لم يفعل ذلك ، بل وقع الدعوة إليها بغير تردد فأرسلتها إليها . لكنه في تلك اللحظة جاء عشرات من الناس يطلبون إليّ التوسط في إرسال دعوة إليهم ، فاعتذرت بأن التذاكر وزعت كلها

وأخيراً جاء يوم الزيارة ، فدهشت من البساطة التي يعامل بها ولي العهد في هذه البلاد ، لأن ولي العهد عندنا إن زار منزلاً من المنازل فرشت له الطريق بالأبسطة ، وممرات المنزل بالوسائد الحريرية المغطاة بالورود ، ويعطى عند دخوله من الباب مائة جنيه وتوقد له الشموع ويستعد الطباخون قبل يوم الوليمة بأسبوع على الأقل في تهيئة الحلوى وغيرها . أما هنا فلا يكاد يعمل أي شيء قبل ساعة الزيارة

ولما تشاورنا فيما بيننا فيما نكرم به الأمير في أثناء الزيارة قال لي تقي الدين : إن خدم السفارة وموظفيها يجب أن يصطفوا عند الباب ويسجدوا أمام الأمير .

فعارض محمد بك أشد المعارضة في هذا الاقتراح وأكد أنه ما ينبغي للمسلم أن يسجد لنصراني

واقترح سعيد ومحبوب أن تغني الشركسية وترقص على الطنبور كما تفعل الجواري عندنا أمام الشاه ...

فاعترض السفير على ذلك خوفاً من بلوغ الخبر إلى سمع زوجته، واقترح أن يقوم حسن طباخ السفارة أمام ولي العهد ببعض الألعاب الفارسية مثل أكل النار وبلع قطع الزجاج والمسامير ، وأن ينشد محمد بك نحو ألفي بيت من الشاهنامة ، ويقوم تقي الدين ببعض الألعاب البهلوانية . ولكن المترجم قال : إن ولي العهد لا يفهم اللغة الفارسية فلا معنى لإنشاده ألفي البيت ، وإنه بدلاً من باقي الألعاب يحسن أن نأتي بفرقة موسيقية من الانكليز رجالاً ونساء ليكون الأمر ملائماً

وقبل الحفلة وضع حول صورة الشاه إطار من الورد وحول المنزل كله إطار من الأنوار

وبدأ المدعوون يصلون واحداً بعد واحد ونحن في استقبالهم على الجانبين ، وقد أدهشتنا وفرة الجمال في الصغيرات من الانكليز وكثرة العجائز منهن . ورأينا بين المقبلين في عربة ثلاث نساء على رؤوسهن عمائم كبيرة كالتي يلبسها عندنا شيخ الاسلام

ولما دنت العربة عرفتهن ، وهن زوجة المستر هوج وبنتاها ، وقدمن تذكرة الدعوة وعليها بخطي باللغة الانكليزية عنوان كتبته على قدر معرفتي بتلك اللغة وهو (الأم هوج ورأسان من البنات) وقد رأيتهن يبتسمن وهن يقدمنها فأدركت أن كتابته بهذا الشكل غير مألوفة . وقد صافحنني ودخلن ، وما كنت نفسي فلم أذهب معهن ورأيت نظرات الناس إليهن تشف عن دهشة من كبر العمائم، وبعد دخولهن إلى القاعة الكبرى بدقائق دخلت فوجدتهن يقدمن التذكرة إلى الكثيرين والكثيرات ، وكل من اطلع عليها ضحك

وفي وسط هذا الموقف علت الصيحات مؤذنة بقدوم ولي العهد ، فذهب السفير والمترجم لاستقباله

وعند ما دخل سمو الأمير اجتمع الانكليز الذين في القاعة حوله على شكل دائرة وأحنوا رؤوسهم وكانت هذه هي كل التحية التي حيوا بها ولي عهدهم. وقد تذكرت عند رؤيته عظم الفارق بين ولي العهد عندنا وولي العهد عندهم، فالأول ينظر النظرة المخيفة فترتعد الفرائص ولا يجرؤ أحد على الدنو منه ووراء كلمته العقوبة ووراء إشارته الجلاد . أما الثاني فنظراته فاتنة وإشاراته رقيقة، وإن ابتعث في النفس شعوراً فهو الحب دون الخوف . وقد كان يمشي ببطء وهوادة ويبتسم لكل من يمر به ويصافحه

ولما نظر إلى لابسات العمائم الكبيرة ابتسم وسأل السفير عنهن فقدمت له الأم تلك التذكرة المكتوبة بخطي فسلمها إلى المترجم وقرأها هذا بصوت عال : « الأم هوج ورأسان من البنات » فابتسم جميع من سمعوا إلا الأمير فان تربيته السامية منعته عن تشجيع المبتسمين في هذا الموقف

وقد احتملت النعمة كأحسن ما يكون في وسع إنسان أن يحتملها . ولاحظت أن الأم هوج مغتبطة مسرورة بعمامتها وكأنها تقول بعينيها : « من لم ينظرني إلى الآن فلينظرني »

أما كريمتاها فقد لاحظت خجلهما وكأن إحداهما تريد أن تخسف بها الأرض

واتفقنا نحن أعضاء السفارة على أن الحفلات

فى بلادنا أروع وأفخم من هذه الحفلات التى لا معنى لها، فقد سادصمت عميق بالرغم من كثرة الموجودين فكاد كل إنسان يشعر بأن الغرفة خالية مع أنه لو كان نصف هذا العدد من الفارسيين مجتمعاً فى مكان واحد لسمعت عن بعد منه ضجة تصم الآذان

ثم أكلنا وانصرف كل المدعوين

وفى الصباح التالى دعانا السفير ليتحدث معنا عن اجتماع الأمس لكى يعرف آراءنا فيه . وقال : «لقد رأيتم ليلة الأمس هؤلاء الانكليز ولست أعرف هل شعوركم نحوهم مثل شعورى ؟ ولكنى أقول لكم إنه كلما مر بى يوم بينهم زاد ميلى إلى اعتياد عاداتهم، فان أخص ما فيهم من الصفات عدم الزهو وعدم الميل للضوضاء . هل رأيتم ولى العهد ؟ إنه «عباس ميرزا» هذه البلاد، وإنى أقسم أنه لم يتسلط إنسان على قلب إنسان كما تسلط هذا الأمير على قلبى، فقد جعلنى عبداً رقيقاً له » فقال محمد بك : « نعم إنه متواضع إلى درجة لا يصدقها أى فارسى »

قال السفير : « هل سمعتم حديثه ؟ لقد قال كلاماً جعل قلبي يخفق من الضحك . وملكته الفكاهية غريزة لا تنضب . ولقد أحسن الشاه باختيارى ممثلا له فى هذه البلاد، ولولا ذلك لضحك الانكليز من الفارسيين جميعاً . هبوا أنه اختار ذلك التركي الأحمق عسكر خان ، أوذلك الحيوان فرج الله خان، أوذلك المجنون عبدالقاسم خان، فان الانكليز كانوا يحتقرون الجنس الفارسى أشد احتقار

قلت : « نعم نعم ! ماشاء الله ، هل فى الدنيا ذكاء كذكائك ؟ هل فى الدنيا عقل مثل عقلك ؟ الحمد لله الذى بيض بك وجوهنا فى هذه البلاد فانه لولاك لكانت وجوهنا سوداء »

قال السفير : « صدقت يا حاجى بابا : هل سمعتنى وأنا أمازح الأمير ؟ لقد أضحكته أكثر مما ضحك فى أى يوم آخر » فقلنا جميعاً : « بارك الله فيكم »

قال السفير : « لقد كان فى حاشيته ملك مخلوع وهذا الملك سمين جداً فقلت له : ماشاء الله! إن السلاكين يسمنون فى ضيافتكم . فضحك وضحك الملك المخلوع نفسه واستحسن الجميع هذه النكتة

وكنا نتكلم فقال الأمير إن الخيول الانكليزية جيدة، وإن النساء الانكليزيات جيدات . واستمر يتكلم على هذا المنوال ، فقلت له إن كل شىء فى انكلترا جيد إلا الرجال ، فانهم يسألون أسئلة كثيرة . فضحك الأمير وأعجبته هذه النكتة أيضاً واعترف بأن الانكليز يكثرون من الأسئلة »

فقال محمد بك : « نعم وهم يسألون أسئلة غريبة جداً؛ فمن ذلك أن شاباً انكليزياً سألني هل يحسن الفارسيون ركوب الخيل؟ فقلت له إنه ليس فى العالم من يساميهم فى ذلك . وسألنى هل يحسن المقاتلة ؟ فقلت له: سل عنا التركمان والأكراد، فان أحدنا إذا ركب جواده وأمسك سيفه أمكنه اختطاف الأسد من عرينه. فسألني هل اعتاد الفارسيون أن يتكلموا بالصدق ؟ قلت له : إن كان هذا التعبير هو بعض أساليبه فى وصفنا بالكذب فان ذلك ليس من شأنه. ولما رأى أنني غضبت أكد لى أنه لم يقصد شيئاً، ولكنه قرأ فى كتاب قديم أن الفرس لا يحسنون فنون الحرب ولا ركوب الخيل ولا يستطيعون التكلم بالصدق »

وقال تقى الدين الفراش : « لقد قابلت رجلاً آخر يعرف قليلاً من الفارسية ، وسألنى عن نوع رؤوسنا فظننت فى بادئ الأمر أن هذا نوع من

التحية الانكليزية كما تسأل الانسان عن صحته ، ولكنه أفهمني أنه يسأل حقيقة عن دماغي . ولما أذنت له أخذ يجسه بيده ويرى استدارته وتكوره وقد دهشنا من ذلك ، ولكنه أكد لنا أنه قرأ كتاباً عن أدمغة الفارسيين »

وقال أمين المركبات : إن أحد الانكليز سأله لماذا نحنّي ذيول الخيل وأقدامها ؟ فضحكت منه وقلت : « ولماذا تقصون أنتم ذيول الخيل ؟ »

وقال محبوب : « إن أحد الانكليز طلب إليّ أن أريه الشركسية وقال : إن قوانين هذه البلاد لا تسمح بسجن السيدات . فقلت له : إذهب وقل للسفير ذلك ، فمض أصبعه وذهب »

وقال محمد بك : « وقد سألني انكليزي آخر : هل تعرف اللغة العبرية ؟ فقلت : إننا لسنا يهوداً وإننا نحتقر اليهود ، وإن الكثيرين منا يعرفون اللغة العربية ، ولكن لا يوجد في بلادنا من يعرف العبرية . على أن هذا اللعين أصر على تعلمنا تلك اللغة وأوصاني بإتقانها لقربها من اللغات الشرقية . ثم تحدثنا بعد ذلك عن الموازنة بين اللغة الفارسية وبين اللغة الانكليزية ، فقلت : إن قاموس لغتنا يحمل على ثلاثين جملاً ، فسكت ولم يحر جواباً »

ثم قطع السفير الحديث فجأة وسألني : من هن السيدات اللواتي كن يلبسن عمائم مثل قباب المساجد ؟ فقلت في استحياء : هن من أسرة هوج . فضحك السفير وقال : إذا كان لديهن مال فلا بأس من إتمام الزواج ولكن لا تنس مشروع الشركة التي بيننا

فأردت أن أجد مخرجاً من الجواب على ألا أتورط بالقبول ، ووجدت ذلك في إعلان استيائي من المترجم

الفصل الخامس والأربعون

مضى علينا ثمانية شهور في انكلترا وبدأنا نفكر على صورة جدية في العودة إلى إيران ، وأخذ السفير يشكو من أن المهمة التي جئنا من أجلها لم تتم لأننا لم نعقد معاهدات ولا اتفاقيات على طول ما أقمنا بهذه البلاد ، ووثق من خداع المترجم الذي كان قد أفهمه من قبل أنه سيتوسط في عقد أية اتفاقية ليكون الشاه راضياً عنا . ولما اشتد غيظ السفير عليه استدعاه يوماً وقال له عنتداً : « يجب أن تفهم وتبلغ وزراء دولتك أن شاهنا عظيم ودولتنا عظيمة . إننا رجال ولنا أموال وعندنا خيول ولكنكم ماطلتموني هنا في المعاهدات والاتفاقيات فبرهنتم على أنكم لا تعرفون الفارسيين . إن إيران تستطيع إذا شاءت أن تبتلع البلاد الأخرى . إنني أريد أن أعود ، ولكنني لا أعود قبل أن أعقد معاهدة وإلا فإن زملائي الوزراء هناك يلوون أنوفهم حين يبصرونني وتميل عمائمهم نحو جانب واحد . فأخبرني يا أخي بكلمة واحدة : هل تريدون عقد معاهدة أم لا ؟ »

فأجابه المترجم ببروده العادي قائلاً : « إن التعامل بين دولتين ليس مثل التعامل بين اثنين من أفراد الناس ، وإن وزير الخارجية الانكليزية ليس متفرغاً للسفارة الفارسية ، بل بينه وبين السفراء والقناصل من جميع بلدان العالم مفاوضات ، وأن السفير الفارسي إذا انتظر قليلاً فإنه سيحصل بغير شك على المعاهدة التي يطلبها لأنها ستكون في مصلحة الدولتين »

فأعاد السفير ما قاله ألف مرة من قبل وهو أن الشاه مستبد وأنه يقطع رؤوس الناس إن قضت الضرورة

وقال : « أرجو أن تذهب إلى وزير الخارجية وتقسم له أنى سأموت من الحزن ، وأن دخان هذه المدينة يضايق أنفاسي ويسم دمى ، فليعجل بعقد المعاهدات حتى أعود . فأكد المترجم أنه سيقول لوزير الخارجية ذلك وسيخبرنا بأشياء كان أهملها من قبل . وهذا هو عذره القديم الذى طالما ردده

قال السفير : « ما هى هذه الأشياء ولماذا لم تقلها من قبل . إنكم قتلتمونى بطول الانتظار وأنا فارسى أعرف الدنيا وما فيها وليس فى وسعك أن تخدعنى بالكلام المعسول »

فقال المترجم : « لقد عرض مشروع المعاهدة على البرلمان الانكليزى وتلقاه بالترحيب ولم يخالفه إلا عضو واحد من أعضاء المعارضة

قلت : « المعارضة ! إن أصحاب المعارضة ثوار على ما أظن ! إنهم كالخوارج عندنا . أليس كذلك ؟ »

فقال المترجم : « ثوار ! لماذا ؟ قد يختلف رأى الانسان عن رأى غيره ولا يكون ثائراً »

قلت : « إننا لانفهم ذلك فى فارس فان الشاه يرفض أن يكون لأى إنسان رأى غير رأى جلالته؛ وإنى أنصح لك أن تشير على ملك الانكليز أن يعامل قبيلة المعارضة كما كان الشاه عباس يعامل الأرمن فيقتل البعض ويشرد البعض إلى أقاصى البلاد

قال السفير : « لقد تكلمت يا حاجى بابا كلاماً حسناً ووافق رأيك رأيى »

وسكت المترجم ولكن كان بادياً عليه أن لديه كلاماً كثيراً ولكنه عن عمد لا يريد أن يتكلم . ثم دعا المترجم السفير إلى زيارة مصرف انكليزى ليرى فريقاً آخر من رعايا شاه الفرنجستان . فوافق السفير ولكنه قال إنه سئم ممن يزورهم ويزورونه .

ثم أمر محمد بك بأن يستعد لمرافقته

ويقع القصر الذى زاروه على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة، وله حديقة غناء لا يشك من يراها فى أن هذا القصر كان مملوكا لأمير فارسي زار انكلترا فى وقت من الأوقات لأنه أشبه بمبانى الفارسيين

وقد استقبل السفير عند بابه رجل سمين من الطراز الذى يسمونه فى انكلترا رجال الأعمال

وأدرك محمد بك بفطنته وذكائه من مجرد النظر إلى هذا الرجل أنه يهودى . ولكننى قلت : « يستحيل أن يكون ذلك يا محمد بك لأن المترجم لا يجرؤ على أن يدنس شرف الشاه بأن يقود ممثله إلى منزل رجل يهودى

لكن الرجل اعترف لما سألناه بأنه من هذا الجنس اللعين . وقال محمد بك : « إذن ففى هذه البلاد يهود كما هى الحال فى فارس . ولكن اليهود هنا أغنياء . أنظروا إلى فخامة هذا القصر ! أقسم بذقن الامام على لو كان عندنا يهود بهذه الدرجة من الثروة لكنت أول من يبصق على وجوههم وينهب من أموالهم ما تصل اليد إليه

وقال محمد بك محتداً : « لقد أهاننا المترجم إذ جاء بنا إلى هنا وسأحرق قبر أبيه » فسررت جداً من سنوح الفرصة للإنتقام من المترجم . وقلت : « لا بد من ذلك ! لا بد من ذلك ! »

ولما عدنا إلى دار السفارة جلسنا فى حلقة وأخذنا نقرأ ورد : « أستغفر الله ! استغفر الله ! » حتى يتوب الله علينا من مقابلة اليهود

لما دخلنا هذا القصر قال لى محمد بك : « يجب أن نعامل هذا اليهودى بمثل ما نعامل به اليهود عندنا »

فقلت : « انتظر حتى نسمع كلامه أولاً »
ولما استقربنا الجلوس كان أول ما قاله اليهودى:
« هل أتيتم من فارس بجواهر وأحجار كريمة ؟ »
فقلت باللغة الانكليزية : « لا. لم نأت بشىء من ذلك. أظنك تريد أن تسرقنا » فضحك ملء شدقيه واعتبر قولي مزاحاً .

ثم سألنا هل لدينا عملة أجنبية نريد استبدالها بعملة انكليزية ؟ فخشيت أن يسمعه محمد بك . وقلت لأمنعه عن ذلك : « إسمع يا أخى ! إننا لا نعاملك فأنت يهودي ونحن مسلمون »

وفى هذه اللحظة دخل رجل آخر لا يبدو عليه أنه يهودى . وبدأ حديثه كعادة الانكليز بالكلام عن الجو . وسألنا عما إذا كان عندنا مثل هذه البيوت والحدائق ؟ فقلت: إن كان عندنا مثل هذه البيوت فانها لا تكون مملوكة لليهود كما هى الحال فى انكلترا»

قال : « ربما كنتم تكرهون اليهود ؟ » فقلت : « نحن نكره النصارى ونكره الأتراك . ولكن اليهود أقبح من كل هؤلاء » فضحك الرجل: وقال « أنا لست يهودياً ولكنى تاجر »

قلت : « تاجر ! هل التجارة إحدى الأديان فى هذه البلاد ؟ فقال : « كلا ولكنها سكر وبن وفلفل وخردل »

قلت : لمحمد بك : « هذا بدال ! ما شاء الله ! إن المترجم يجمعنا بهذه الأوساط ويدعى أنه عرفنا بأصحاب المصارف » ثم سألته : هل أنت غنى ؟ فقال إن الانكليز يضربون الأمثال بغنى اليهود فيقولون فلان أغنى من يهودى، ولكن بما أنكم تكرهون اليهود فإننا بدالون »

قلت له : « يجب أن تعد نفسك سعيداً لأنك مع يهوديتك موجود فى انكلترا . لأنك لو كنت فى فارس لجعل الشاه مالك ملكا للجميع . وقد كان الشـاه عباس يلزم كل يهودى ببناء فندق أو مسجد أو تكية »

قال اليهودى: « نحن هنا ندفع الضرائب فهل تريد أن تقترح فرض ضريبة جديدة علينا ؟ »

وفى هذا الحين كان الغداء قد أعد وحضره خلق كثير، فأكلنا على كره من طعام اليهود؛ والحق أن طعامهم شهى لا يجيد مثله أمهر الطهاة فى تركيا . وكان السفير جالساً بين يهودى ويهودية . وكنت أنا ومحمد بك لا نملك نفسينا من الغضب لهذا السبب وتساءلنا ماذا عسى أن يقوله الشاه لو علم أن سفيره أصيب بهذه اللوثة ونسى أنه سفير ونسى أنه مسلم من أجل أكلة فى بيت رجل يهودى ؟

وقد نسى محمد بك تدينه فصـار ينافل السفير ويتناول القطعة بعـد القطعة من لحم الخنزير حتى لم يبق على هذا الإمام المجتهد ليصير انكليزياً غير أن يحلق لحيته وشاربيه

ولـما عدنا من الوليمة أعربنا للسفير وأعرب السفير لنا عن استيائه واستيائنا من تلك الوليمة. ولم تفتنى الفرصة فأوغرت صدره على المترجم ، فوعد بأن يحرق أباه ، وأخذ يمدح القصر وحديقته وإتقان الطعام وحسن الضيافة ، كل ذلك مع الحرص على لعنة اليهود

الفصل السادس والأربعون

قمبس يزور السفير

قضى محمد بك طول الليل فى الاستغفار عن الأوزار التى لحقت به من مؤاكلته اليهود . وفى

صباح اليوم التالى دخل الحمام ليتطهر من أكل لحم الخنزير . وضاعف عدد الصلوات المفروضة ، ولم أحد حذوه فى ذلك بل استوليت على سمع السفير فلم أزل أستثير غضبه على المترجم لتعريفنا باليهود. وتذاكرنا حوادث هذا الجنس فى بلادنا

وبينما نحن فى هذا الحديث إذ استأذن الزيارة قسيس انكليزى فى كل يد من يديه كتاب . أما أحدهما فهو الانجيل ، وأما الآخر فشيء يقال له كتاب الصلوات

قدمه المترجم الذى لم يزل يقدم لنا أقبح المخلوقات . وقد وجدنا ذلك القسيس أكثر أدباً ووقاراً ممن تعرفنا إليهم إلى الآن . وأحنى رأسه للسفير عدة مرات . وكان المترجم قد طلب إلى السفير أن يستقبله واقفاً فقبل . وبعد تحية قصيرة قدم القسيس الكتابين هدية لسفيرنا فقبلهما . ثم أخذ يتحدث عن الأخلاق بكلام طيب يظهر أنه عندهم مقدمة عادية للتحدث فى الدين ، وتكلم عن الله سبحانه كلاماً حسناً جداً ككلام المسلمين . وقد عامله السفير بمنتهى الاحترام والتأدب ، حتى همس محمد بك فى أذنى بأن السفير سيصبح مسيحياً وأنه لا شيء فى العالم أوضح من ذلك . لأن المترجم استحوذ على عقل السفير ولبه . ولم يدع له شيئاً من حرية الاختيار حتى لقد بلغ من سلطانه عليه أن يجمعه باليهود وبالقسس وبالبدالين

وعلمت الشر كسية من سعيد ومحبوب بأن سيدها سيغير دينه ، فانزعجت أيما انزعاج لأنها تعلمت فى أثناء المدة التى قضتها معنا تعاليم الدين الاسلامى . وثبت هذا الدين فى نفسها وصارت تقضى طوال أيامها فى الصلاة والتسبيح . وبلغ من شدة انزعاجها أنها خاطبت السفير فى هذا الشأن فجاءنا هائجاً فى اليوم التالى وقال لنا : « من منكم الذى يتهمنى أيها الأوغاد بأنى غيرت دينى ؟ هل أنت يامحمد بك أيها الرجل المنافق ؟ أم أنت ياحاجى بابا أيها الرجل الفاسق ؟ أيكم الذى اتهمنى هذه التهمة ! تكلموا أيها الناس! »

قال محمد بك : « اننى أقل الناس فى نظرك وفى نظر نفسى أيضاً . لكن ماذا أقول أيها السيد ؟ انك قبلت الكتاب المقدس عند المسيحيين ، وجلست باحترام أمام القسيس كأنك أمام شيخ الاسلام ففهمت أنك غيرت دينك »

قال السفير : « أهذا جوابك ياطويل اللحية ؟ إن الشاه أرسلك معى لتقول لى ولمن يزوروننى كلمات من التحية لا لزوم لها فى هذه البلاد ، ولم يرسلك لتراقب سلوكى . إن الانكليز لا يعرفون التشريفات الفارسية . وليس لوجودك ضرورة بيننا الآن . فإما أن تسلك معنا مسلكاً حسناً وإما أن تعود إلى فارس »

فقال محمد بك : « نعم أعود إن أردت أن أعود فانى مسلم ولا أطيق أن أراك وأنت مسلم تغير دينك دون أن أتكلم . اسأل عنى حاجى بابا فهو يعرف أننى أعمل كل شيء فى سبيل الاسلام »

قال السفير : « أسأل عنك حاجى بابا ؟ إننى أسأل حاجى بابا أولاً عن نفسه »

ثم التفت إلى وقال : « أخبرنى كيف أصبحت تثار فجأة على الاسلام ومن أين جاءتك هذه الغيرة ؟ أمن الترك أم من الأكراد ؟ لقد عشت خاطئاً ثم تأتى الآن وتزعم أنك شيخ من شيوخ الاسلام ؟ »

فقلت : « يا سعادة السفير إن محمد بك صدق فيما يقول ، وإن أى مسلم لينزعج حين يرى مسلماً

آخر يستقبل قسيساً بمثل الجفاوة التي استقبلته بها . فضلاً عن قبولك ضيافة اليهود . ولقد تناولت الإنجيل كما يتناول أحدنا القرآن »

قال محمد بك وقد تملكه الحماس الديني عند ما سمع جوابي : « الحق يقال يا سعادة السفير؛ فلا تغضب علينا إذا قلنا إنك نصراني »

فغضب السفير وقال : « أبهذه الوقاحة تخاطبني ؟ إنني ممثل الشاه؛ ولو كان الشاه حاضراً لقطع الآن رأسك جزاء هذه الوقاحة . إضربوه ! اضربه يا حاجي بابا ! »

فلم يعد في وسعنا نحن أعضاء السفارة إلا أن نوسعه ضرباً . وبالرغم من أني صديقه وشريكه في تهمته فقد كان من واجبي أن أنفذ أمر الرئيس وأشترك في الضرب . وقد كان في فم محمد بك سنان بارزتان شكلهما قبيح كأسنان الحمار ، وكانتا تسيبان له لثغة دميمة ، فانتهزت هذه الفرصة ولم أزل أضربه عليهما حتى كسرتهما

وكان محمد بك يصرخ صرخات الغضب ويتوعد بالانتقام فيضطرنا بذلك إلى الزيادة . ثم أمر السفير بالكف عنه فتركناه . وعاتبني بعد ذلك فاعتذرت إليه بأني لم أكن أريد إلا إراحته من هاتين السنين، وبأن النتيجة كانت حسنة على كل حال لانتهاء النزاع بينه وبين السفير . فقال محمد بك إنه يحمد الله على كسر سنيه لأن ذلك فسّر منامه الذي كان يتوجس منه على صورة مرضية . وذلك لأنه كان رأى في الحلم أن سنين له وقعتا . وظن أن تفسير المنام هو موت اثنين من أقاربه . أما وقد جاء تفسيره على كسر سنين حقيقيتين فإنه أصبح الآن مطمئناً على أقاربه

ثم تكلمنا عن السبب فيما تقدم فاتفق رأينا على أن المعيشة فى هذه البلاد أصل المصائب كلها . وعلى أنه لا يستطيع مسلم فى بلاد النصارى أن يتجنب مؤاكلة اليهود ومقابلة القسس

ثم صالحه السفير . ولما عدنا إلى الحديث عن بلادنا وحنيننا إلى العودة إليها قال السفير : « إن زوجتى أصبحت الآن عجوزاً لطول غيبتى عنها ، وإن شاء الله متى عدت إلى فارس استبدلت بها غيرها من صغيرات السن »

فقلت : « فى اعتقادى ياسعادة السفير أن معاشرة السيدات المتقدمات فى العمر خير من معاشرة الطائشات . ويظهر أن لكل عمر حالات خاصة وأن الإنسان لا يستريح إلى من لم تكن مقاربة له فى العمر . ويظهر لذلك أن الانكليز محقون فى آرائهم فى الزواج »

قال السفير : « ما هذه الفلسفة يا حاجى بابا ؟ إن العادات التى تصلح فى بلادنا لا تصلح فى بلادهم ؛ فهم قوم يخالفوننا فى كل شىء حتى فى مظهر الشمس » فوافقته على ذلك وآمنت بأن زواج الكهل من الفتاة الصغيرة غير جائز هنا ولكنه جائز فى فارس

الفصل السابع والأربعون

الاستحمام فى البركة

كنا جالسين مع السفير فى يوم من الأيام بدار السفارة فجاءنا المترجم ساخطاً متبرماً ينبئنا بحدوث مصاعب جديدة بين الانكليز وبين الفارسيين . ففزع السفير وقال للمترجم : « بحق علىّ عليه السلام إلا أخبرتنى بالذى حدث . هل وصل إليكم خبر من إيران . هل مات الشاه ؟ »

فقال : « لم يحدث شىء فى فارس وإنما أحدث الفارسيون ضجة فى شوارع لوندرا »

قال السفير : « الحمد لله لقد كنت أظن نكبة حدثت من شر النكبات »

فقال المترجم : « نعم لقد حدث شىء وهو يتعلق بكم » فتململ السفير وألقى عليه ألف سؤال فى آن واحد

قال المترجم : « إن الذى حدث كاد يؤدى إلى أمور شديدة الخطر ولكنه الآن قد وقف عند حد ، وليس من المنتظر أن تترتب عليه نتيجة . أما الأمر فان بعض موظفى السفارة ذهبوا إلى حديقة عامة فى بيكاديلى ، وهذه الحديقة يؤمها خلق كثير للتنزه فى كل يوم ، وفى وسط هذه الحديقة بركة صناعية ، فما كان من أصحابنا الفارسيين إلا أن خلعوا ثيابهم ، ونزلوا للاستحمام فى هذه البركة . فازدحم الناس حولهم ، ورجمهم البعض بالأحجار . فغضب أحد الفارسيين الواقفين على الشاطىء ، واستل خنجره يريد أن يطعن به أحد الانكليز فأخذوا منه الخنجر ، وتوسط بعض العقلاء فانتهت المسألة بسلام ، ولكن الأمر ما كان يقف عند هذا الحد لو قتل موظفو السفارة أحد الانكليز

اغتاظ السفير عند ما سمع هذه القصة وسألنا عمن فعل ذلك ، فعرف أن اللذين نزلا فى الماء هما سعيد وتقى الدين الفراش . وقد اعترفا بذلك غير معتذرين لاعتقادهما أنهما لم يفعلا ما يلامان عليه

قال تقى الدين : « لقد كنا نسير وكان الجو جميلاً ولم نستحم منذ سافرنا من أزمير والماء ماء الله فنزلنا للاستحمام فيه وليس من حق أحد أن يمنعنا عن ذلك . وإذا كان للانكليز عادات تخالف عاداتنا

فاعليهم إلا أن يعلمونا هذه العادات ونحن نحترمها ، ولكنهم بدل أن يفعلوا ذلك رجمونا بالأحجار ونحن عرايا .

وقال سعيد : « إذا كان الاستحمام ذنبا فى هذه البلاد فقد كان عليهم أن يقولوا لنا ذلك لا أن يفعلوا ما فعلوه »

فتغلبت روح الانصاف على السفير وقال متهكماً : « ما شاء الله ! متى أصبحت فيلسوفاً ياسعيد ؟ انك الآن تتكلم مثل كلام لقمان، ولكن من الذى استل خنجره ؟ »

قال سعيد : « هو فريدون حلاق السفارة »

وقال فريدون : « إننى لم أستل خنجرى ولكنى أردت الدفاع عن نفسى وعن إخوانى بالموسى »

قال السفير وقد غلبت عليه النخوة الفارسية : « مرحى لك ! مرحى لك ياحلاق ! لماذا لم يفعل الباقون مثلك ؟ إنك شجاع وإن كنت قد أغضبت الانكليز !

ثم التفت إلى المترجم وقال : « ها أنت ذا تسمع إجاباتهم ياأخى وهى إجابات معقولة . وأنتم تتباهون بالعدل . والعدل لا يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر . فاذا رأيت أن أقطع لك آذانهم فانك لا تعود إلى منزلك إلا وآذانهم فى جيبك . إن كنت تريد معاقبتهم فتكلم وإن كانت حكومتك تريد رقابهم فانى أقطعها قبل أن تقوم من مكانك

فأخذ المترجم يتكلم عن العدل كلاماً فارغاً لم نفهم منه شيئاً، وأخيراً قال إنه لا يريد معاقبة أحد، وإنما يريد ألا يفعلوا شيئاً قبل أن يتبينوا هل هو موافق لعادات البلاد

فابتسم السفير وأعجبه هذا القول وقال ليلزم المترجم الحجة : « ولكنكم تباهون بالحرية فهل تستطيع أن تخبرنى كيف تفهمون تلك الحرية ؟ إن الرجلين من الفقراء ولا يستطيعان دفع الأجور الغالية فى حماماتكم . ورأيا ماء من ماء الله فاذا يمنعهم من الاستحمام ؟ الحق أن الحرية مكفولة فى الشرق وليس عندكم شىء من الحرية »

ويظهر أن الكلام أقنع المترجم فلم يرد عليه بحرف

ولما خرج المترجم رفع السفير يديه إلى السماء وقال « إن وجودى فى هذه البلاد سيقتلنى بلا شك . لقد كانت الساعة التى غادرت فيها بلادى ساعة مشئومة » ثم التفت إلى موظفى السفارة وقال : « إن وجودكم معى يزيد من تنغيص حياتى فإنه لو لم يكن من الفارسيين أحد غيرى فى بلاد الفرنجستان لما وجد الانكليز ما ينتقدوننا عليه . ولكن أحدكم يمشى فى الطرقات وكل همه أن يتزوج من بنات الناس والآخر يستحم فى الحدائق العامة . متى يمن الله علينا بالعودة إلى إيران ؟ إن بلادنا هى البلاد التى نستطيع الحياة فيها، فهناك يطمئن الرجل على أهل بيته، وهناك يتمتع بحرارة الشمس وبوجه الشاه »

فقلنا جميعاً : « نعم نعم يا سعادة السفير أطال الله بقاء الشاه وبقاءكم »

قال السفير : « لو أن هؤلاء الوزراء الانكليز — وأسأل الله أن يحرق قبور آبائهم — ردوا على خطابات الشاه ووزرائه فأعطونا المعاهدات والاتفاقيات التى نطلبها لعدنا جميعاً فى الحال . وإذا كنت يا حاجى بابا تأخذ كل هؤلاء الأوغاد وتعود بهم إلى فارس فإنى أسر بالبقاء هنا مع تابعين فقط »

لم أسترح لهذه الكلمات لأنى لا أريد أن أعود إلى فارس بعد موت رئيس الوزارة الذى كان يحمينى .

ولكنني قلت في نفسي إذا أصر السفير على عودتي فانى أعود واثقاً من رضى الشاه فهو قد كلفنى قبل مجيئ إلى هذه البلاد بأن أدرس اللغة الانكليزية لأترجم كتبها إلى الفارسية وها أنا ذا قد صرت أستاذاً فيها ومتى عدت إلى فارس ترجمت مؤلفاتها كتاباً كتاباً

الفصل الثامن والأربعون

الشركسية

رأى السفير بعد ذلك أن يسكن وحده ويتركني أسكن مع سائر أعضاء السفارة ؛ وكان الذي استثار حيرته هو أمر الشركسية فقد كان بعضنا رقيباً على البعض مدة وجودها معنا . وكان السفير مطمئناً من هذه الناحية . وقد كان من الواضح أنه لا يثق بأي واحد منا . ولكن ريبته في سعيد ومحبوب كانت أقل من ريبته في سائر أعضاء السفارة . لكن الشركسية نفسها ما كانت تدعو إلى الريبة لأنها برهنت مدة وجودها معنا على أنها مسلمة، حريصة فلم تخرج قط من المنزل ولم تفتح قط نافذة الغرفة التي هي فيها ولم تترك فرضاً ولا سنة

حدث في يوم من الأيام أن جاء السفير مهتاجاً محتداً فسب ولعن سعيداً ومحبوباً لأنه سمع من أحد الانكليز أنه رأى الشركسية بالقرب من النافذة ورأى معها هذين الرقيقين

ناداهما السفير ساعة دخل السفارة وقال : أين كنتما أيها الوغدان ؟

— « كنا نائمين »

— « وأين دلفريب ؟ »

— « نائمة أيضاً »

— « ألم تكونا معها بالنهار بالقرب من النافذة ؟ »

فارتبكا . وقال سعيد : « لقد كانت مريضة وأغمى عليها فنقلناها إلى مقربة من النافذة لتستنشق الهواء .

قال السفير : « أقسم برأس الشاه أنكما كاذبان . إن جارنا الانكليزي أخبرني أنه رأى نافذة الدار مفتوحة على غير العادة . ورآها معكما . والانكليز في مثل هذا الشأن لا يكذبون

فنظر كل من الرقيقين إلى الآخر ولزما الصمت . ثم قال محبوب : « لقد كانت مريضة طول اليوم وكانت تبكي وتشكو الصداع ولم نفتح النافذة إلا عند ما أغمى عليها »

فصاح السفير : « ومن الذي أذن لك بفتح النافذة أيها المجنون ؟ »

قال سعيد : « لا ضرر فيما فعلناه فإنما فتحنا النافذة لكي تشفى . فقال السفير : « لقد كان موتها أفضل من هذه الفضيحة »

ثم طردهما وظل طول اليوم مهتاجاً . وفي اليوم التالي عدنا إلى الكلام عن عودتنا إلى طهران . واستقر رأى السفير على أن يسبقنا ويبقى هو حتى يتم عقد المعاهدات والاتفاقيات . فربطنا أمتعتنا وهيأنا أمورنا ، وكان أهم شيء في نظرنا هو وفاء الديون التي علينا

ولما أعلن أننا سنعود هرع عشرات من الرجال

والنساء إلى دار السفارة فى يد كل منهم قطعة من الورق يقال لها قائمة . وطلبوا إلى السفير دفع المبالغ المرقومة على هذا الورق . فانزعج السفير وسب ولعن

ولو كنا فى فارس لكان الأمر هيناً لأنه يسهل التخلص هناك من الدائنين بطردهم أو بعدم وضربهم على أرجلهم حتى يتوبوا عن المطالبة . أما هنا فن الذى يستطيع أن يضرب بائع الدقيق وبائع الزيت وبائع التبغ ؟ إن أمثال هؤلاء يعدون فى بلادنا من حثالة الناس ولكنهم هنا من الوجهاء ، وربما أدى ضرب أحدهم إلى إعلان حرب أو نشوب ثورة ، وهم لا يقبلون المجادلة فى الأسعار التى يكتبونها كأن كلامهم منزل من عند الله فاستجرنا منهم بالترجم ، وقد وجدناه مثلهم ضيق العقل فيما يتعلق بأمر المساومة

ومن المصائب التى ابتلينا بها رجل كان السفير كلفه بتصوير صورة زيتية لا يتكلف زيتها والفرشاة التى اشتغل بها بضعة قروش ولكنه طلب أكثر من مائة جنيه ، ولست أدرى بماذا يستحل هذا المبلغ الكبير

لكن الانكليز متى تكلموا فى أمر الأجور تكلموا بغير عقل ، ولقد قال السفير للمصور لكى يقنعه: إن دهن حوائط منزل كبير بالزيت لا يتكلف من المال نصف ما يطلبه لصنع صورته الصغيرة الزيتية . فأبى المصور أن يقتنع أو أن يفهم

الفصل التاسع والاربعون

فريدون الحلاق

كان فى جملة القوائم التى قدمت لنا قائمة عدونا تقديها إلينا نكبة أحدثها سوء الطالع فكانت عقوبة على خروجنا من أزمير فى ساعة غير ميمونة

بينما الأمير يستقبل المائتين ذوى القوائم إذ جاءنا رجل معه امرأة يظهر على وجهها الاجرام ورجل ثالث يرتدى ثوباً أسود اللون فى نهاية القذارة. وكان الرجل الأخير هو الذى يتكلم. وقد أطلق على نفسه اسم وكيل أشنال وقال على لسان الرجل الذى استدعاه: إن له بنتاً هى التى جاءت معهما، وإن فريدون حلاق السفارة أغواها ووعدها بالزواج ثم تركها. وإنه لذلك نطلب ألف جنيه تعويضاً لتخليه عنها.

وقد كان فريدون معتاداً مثل هذه الأمور فى فارس ولكننا ما كنا نتوقع أن تبدر منه بادرة من هذا القبيل فى بلاد القوائم التى لا تقبل المساومة

ولما علمنا هذه الحقيقة عنه عرفنا علة تفوقه علينا فى اللغة الانكليزية ونبوغه فى ضروب المجاملة بها

وكان أبو الفتاة تاجر صابون وهو من عملاء السفارة. وكانت معاملته معنا سببا فى تعرف الحلاق عليه لأنه زعم أنه يريد أن يتعلم عليه صنع الصابون، فقبل الرجل تعليمه ودعاه إلى منزله مراراً من أجل هذا السبب. وكانت هذه الزيارات المنزلية سبباً فى توطيد الصداقة مع ابنته. وتعلم تاجر الصابون من حلاقنا صبغ الشعر على الطريقة الفارسية المتقنة كما تعلم منه أموراً أخرى مما يعيد للشيخ قوة الشباب وكانت نتيجة اتصاله به توثيق عرى الحب بابنة التاجر

وقد أخذ صاحب الثوب الأسود القذر يتكلم مع السفير بطلاقة محاولاً التأثير عليه ليدفع التعويض عن الحلاق، محتجاً من أمر جريمة الاغراء والتخلى عن الزواج. فقال السفير: «أقسم أن هذا المطالب أسمج من أى رجل رأيته فى هذه البلاد» ثم نادى الحلاق ولمن أباه وسأله عن وعده بالزواج فاعترف أنه تزوج من الفتاة زواج المتعة لمدة شهرين وفق الاتفاق بينهما وأنه لم يعدها بالزواج الدائم ولم يخدعها، وقال إن زواج المتعة شائع فى فارس وإن الفتاة فهمت ما يريده قبل أن يباشرها مباشرة الأزواج وأقسم على ذلك أغلظ الايمان

وعند ذلك أخذ الأب وابنته ووكيل الأشنال يتكلمون فى وقت واحد وأصبحت الضجة عظيمة. وكان من حسن حظنا أن أقبل الترجم فى هذه اللحظة فأشار بكبرياء إلى وكيل الأشنال بالانصراف. وكانت إشارته بكبرياء كما يفعل العظيم فى فارس عند ما يريد أن يطرد رجلاً حقيراً.

وقد سكت الثلاثة وبهتوا عند رؤية هذا الترجم. وظهر أنهم مهوشون فقط. ولما أمرهم الترجم بالذهاب أو يدعو البوليس ذهبوا صامتين صاغرين.

ووكيل الأشنال عند الانكليز يعادل المأذون عندنا. ولكن عمله ليس قاصراً على التدخل فى الزواج بل هو يتدخل فى كل شىء.

قال السفير: «ألا عدل فى هذه البلاد؟ أكل من عنده فتاة بائرة يستغنى عن عمها فى استطاعته أن يطالب الناس بالتعويض؟» فقال الترجم ان إخلاف

المواعيد فى أمور الزواج من الأمور الخطيرة فى هذه البلاد فان قوانيننا تحمى المرأة »

قال السفير : « ليس فى بلادنا امرأة تبلغ بها الوقاحة أن تطالب رجلاً بالزواج منها على غير رغبته ومتى دخلت المرأة فى بيت الزوج أصبحت له وحده وتظل كذلك حتى يصير فى غنى عنها فيطلقها أو حتى يموت »

فلم يجبه المترجم

ولما تخلصنا من هؤلاء الأشرار جاء الخياط يطلب أجرة تفصيل الثياب . وجاء بائع الأحذية وبائع القمصان، وكل منهم بدون استثناء يحمل قطعة من الورق دوّن فيها حسابه . وقد تدخل السفير بيننا وبينهم وأفهمهم عوائدنا وخفف من حدتهم . وانتهى الأمر إلى أن تنازلوا على كره عن بعض مطالبهم ودفعنا لهم الباقى . وفى النهاية جاء رجل وجيه وطالبنا بمطلب غريب وقال لنا كلاماً أغرب . قال إن خيولنا كانت تأكل من الحشيش فى المراعى القريبة وإنه يريد ثمن الحشيش الذى أكلته من يوم مجيئنا إلى الآن. ونحن ما كنا نعلم أن للحشيش ثمناً فى غير هذه البلاد

سأله السفير هل هو مندوب عن الحكومة يطلب ضريبة عن الخيول أم ماذا ؟ وأفهمه أن السفراء معفون من الضرائب . ولكن يظهر أن الرجل مندوب عن هيئة أكبر من الحكومة فقد كان يقول إن « الأوصياء أمروا بهذا » والأوصياء أمروا بذلك » فصاح السفير: « أنا لا أعرف ملكا فى هذه البلاد غير جورج شاه ولم أسمع عن ملوك اسمهم « الأوصياء »

ولكن يظهر أن خوف هذا الرجل الوجيه كان خوفاً شديداً فقد قال لنا إنه سيدفع ثمن الحشيش من جيبه إذا نحن لم ندفعه . ولما استشرنا المترجم أشار بأن ندفع ماطلبه فدفعناه ، وأفهمنا أن الأرض الخلاء ليست مجردة من المالك كما هى الحال فى فارس وأن الملاك لها هم الذين يسميهم الأوصياء

الفصل الخمسون

حبيبة حاجى بابا تتزوج

أعدت سفينة لتحملنا من لوندره إلى الآستانة وجمعنا ثيابنا وتهيأنا للرحيل ، وعزمت قبل الذهاب على أن أزود عينى بنظرة من حبيبتى بيسى ونتسامح على ما عسى أن يكون فى نفس كل منا من جهة الآخر .

وأهدى إلينا شاه الانكليز بمناسبة سفرنا هدايا ثمينة . واشتريت ثياباً جديدة فصرت جديراً بأن يكتب لقب ميرزا بعد اسمى بدل كتابته قبله فسرنى أن أزور بيت المستر هوج بهذه الثياب

فلما وصلت إلى المنزل وجدت عربات كثيرة واقفة أمام الباب . وهذا منظر لم أعهده فى بلاد الانكليز فسألت البواب عنه فقال إن اليوم يوم زواج الآنسة بيسى

عند ذلك أحسست بأن الدم يتصاعد إلى وجهى وخفق قلبى خفوقاً عالياً ، وكنت على وشك العودة فى الحال. ولكن امرأة أطلت من النافذة وصاحت: « هذا هو الأمير! » ثم رأيت من يخرج من الباب على عجل فيدعونى . فدخلت غرفة فيها جمع كبير فى

أحسن الثياب والحلي ، ولكن الحزن مرتسم على وجوههم . وكانت بيسي جالسة بين أختيها وحولهن الفتيات . وكلهن في ثياب بيضاء . ولكن عيني العروس كانتا تدمعان وكانت الكآبة متجلية عليها بأوضح الأشكال

وكان على رأس بيسي قطعة من الشريط يتدلى منها ما يسميه الانكليز نقاباً وما هو بنقاب لأنه لا يستر شيئاً من الوجه كما أن ثيابهم لا تستر شيئاً من أجزاء الجسم

وقد دهشت من مظاهر حزنها وكيف يتفق أن يكون الحزن من علامات الفرح . ثم أخبرتني الأم همساً بتاريخ هذه الزيجة وقالت إن بيسي تحسن الغناء وإنها ستكون صالحة وإنها ستكون غنية

قلت : « ولكن لماذا تبكي ؟ » فقالت : « إن ذلك من السخافات التي اعتادتها الفتيات إظهاراً لتأثرها من مفارقتنا لأنها بالطبع لا تستطيع أن تجمع بيننا وبين زوجها

قلت : « وأين هو هذا الزوج ؟ »

وكنت أتوقع بالطبع أن يكون هو ذلك الرجل ذا المهماز والشارب القصير الذي كان ينافسني في الحب ، فقالت لي الأم إن العادة جرت في هذه البلاد أن يتقابل العروسان في الكنيسة . ودعتني إلى الذهاب لحضور حفلة العرس في ذلك المعبد . فقبلت لأني كنت مرغماً على الاقلاع عن كل أمل في الزواج منها . ورأيت من واجب اللياقة أن أعرب لها عن أملي في أن تعيش سعيدة وأن يقيها الله من عيون الحساد ويكثر من ثيابها وطعامها ويجعل ساعة زواجها ساعة ميمونة

ولما قلت ذلك وفقاً لعادات بلادنا وضعت في يدها جنيهاً ذهبياً وقبلتها من بين عينيها ، فانزعج الموجودون وقالت الأم : « ما هذا يا سمو الأمير ؟ ألا ترى يا مستر هوج ؟ »

فأقبل المستر هوج وقال بلهجة بين الجد والسخرية : « أراك يا سمو الأمير عنيفاً في مطاردة السيدات »

قلت بلهجة جدية : « لماذا ؟ هذه عوائد بلادنا ندفع المال ونُقبِّل . . . »

فجاءت ماري بالقطعة الذهبية من يد أختها وردتها إليَّ قائلة : « إن هذا عمل غير لائق في هذه المناسبة »

فاحمرت أذناي وقلت بأعلى صوتي : « هذه عوائد بلادنا ، إن الذهب إشارة إلى السعادة . وفي بلادنا نعطي العروس ذهباً ونقبلها لتكون سعيدة محبوبة . وإن الشاه يفعل ذلك وهي عادة جميلة »

فلما فهموا ذلك أسفوا على إساءتهم فهم الحقيقة واعتذروا إليَّ وشكروني على حسن نيتي . واحتفظت بيسي بالجنيه وشكرتني على أن تمنيت لها السعادة

وجاءت ساعة الذهاب إلى الكنيسة وهممنا بالذهاب وكنت أتوقع أن أرى العروس تقبل جدران منزلها وأرضه كما تفعل المرأة الفارسية . ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك . وسألت الأم عن ذلك فابتسمت ولم تجبني لأن الوقت كان وقت استعجال وحركة . ثم وجدت نفسي في عربة فخمة بين عربات كثيرة . ومشى بنا الموكب إلى الكنيسة . وقد بحثت فيها سدى عن منافسي ذي المهماز والشارب القصير . ولكنني لم أجده . وطلبت إلى الأم أن تقدمني الزوج فنادت : « يا مستر لجبي ! يا مستر لجبي . تعال أعرفك بسمو الأمير »

فجاء رجل غليظ الجسم هو البدال اليهودي الذي تغدينا في منزله . وقالت زوجة المستر هوج اللئيمة : « هذا هو سمو الأمير (حاجي بارباد) وهي توهم أنها تقول حاجي بابا . وإنما نطقت الإسم بهذا الشكل لأن كلمة (بار بار) باللغة الانكليزية معناها الحلاق

وقد تظاهرت بأني لم أفهم مرماها كما لو كنت سمعت اسمي على حقيقته . وقلت في نفسي إن هؤلاء اللئام يرفضون أن يزوجوا بنتهم من مسلم شاب جميل مثلي ثم يزوجوها من ذلك البدال اليهودي الهرم القبيح الشكل لأجل ماله ! سحقاً لهم وللمال الذي يعبدونه ! إن الانكليز أقبح جنس في الوجود فهم من أجل المال يتزوجون ومن أجله يحاربون . ومن أجله يعقدون الصلح .ومن أجله يشيدون الأساطيل. ثم أحسست بأن دمي يغلي في عروقي . ونظرت إلى العروس نظرتي الأخيرة فأدركت علة حزنها وبكائها فإنها كانت تبكي على نفسها لحرمانها مني وعلى بيع أهلها إياها بالمال .

وجاء القسيس فعقد زواجها . ولكنني لم أصغ إليه لأني كنت مشغول الخاطر . ولم أتنبه إلا عندما قدمت كأس من الخمر إلى يدي فشربتها واضطربت ومالت فأسندتها أختها ماري . وانزعج كل الموجودين . وثارت ثورة غضبي وحزني على هذه الضحية فقلت في نفسي : مالي ولهؤلاء الانكليز والبدالين واليهود وكلهم في قرارة جهنم

ثم أملت عمامتي على جانب واحد وفتلت طرفي شاربي ورفعتهما إلى الأعلى وخرجت من الكنيسة دون أن أصافح أحداً من هؤلاء الكفار

(يتبع) عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧)



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٠٠

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

العدد ٣٧ ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ — أول أغسطس سنة ١٩٣٨ السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة

حرمة القبور

بقلم اسبيدار جودورف
للأستاذ محمد لطفي جمعه

تعريف بالقصة

اسبيـــدار جودورف كاتب روسي منفي في لندن وهو ضـد البولشفيك، بل عدو لدود للسوفييت وهو من أكبر خصوم ستالين ولذا نراه يصور الشاعية (كوميونزم) تصويراً قاتماً ، ويعزج قصصه التي تنشرها مجلات أرجوسي وستراند وبلاككوود وماي رفيو بالعشق والاجرام والفلسفة . ومعظم التصاوير التي يلونها بألوان زاهية أو مظلمة منتزعة من الحياة . ولذا آثرنا نقل هذه القصة التي تنطوي على محاكمة متهم ذي شخصية نادرة المثال . يشرح حاله بما لم يأت به أعظم مدره في الدفاع عن مذنب بريء . ولما كانت تهمته تدور حول جريمة انتهاك حرمة المقابر فقـد جعلها المؤلف عنواناً لقصته

نظر القاضي إلى المتهم نظرة جد وأسى ، وقال له : أيها المتهم هل لديك ما تقوله مضافاً إلى الدفاع الذي فاه به محاميك فأنت بلا ريب آخر من يتكلم

فأجال المتهم نظـــره في الحاضرين ثم شد على نفسه كمن يعتزم أن يقوم بأعباء حمل ثقيل أو يحط عن كاهله عبئاً وقال :

نعم أيها القاضي ! سأتكلم !

لقد لفظتني الحياة من صلب فلاح خشن ، ورحم امرأة من بني جلدته وأهل طبقته ، في قرية من أقصى قرى الريف البولوني ، منذ خمسة وخمسين عاماً . وكنت وأبي وأمي وإخوتي وهم أربعة وأخواتي وهن خمس نعيش جميعنا في قاعة صغيرة ضيقة لا نافذة لها ، سوى تلك التي فتحت في جدار مشترك بيننا وبين الأنعام ، وعلى هذه النافذة أو الجدار الذي كان قاعدة لها توضع في كل عشية « مسرجة » من التنك[1] لها شريط أسود مشبع بالبترول والهباب فتخرج من الدخان أكثر مما تبعث من ضوء .

وكنا من الضيق والضنك بحيث كانت أمي تخشى على عفة أخواتي من إخوتي ، وكانت تتمتم دائماً قائلة : « إن اختلاط الجنسين خطر » ولذا سمعت أن تكون هي ورجلها حجاباً حاجزاً بين البنات والصبيان من أسرتهـــا البائسة

فسأله القاضي : ألم تكن تلك المرأة تخشى على عفة الصبيان من بعضهم بعضاً وكذلك البنات ؟

فأطرق المتهم وقال دون أن يرفع بصره إلى وجه القاضي :

— لم يكن الفساد قد وصل إلى هـــذا الحد في القرى . ولا تنس أن هذا التاريخ يرجع إلى أربعين عاماً . فنظر إليه القاضي وقال : استمر ... !

— وكان أبي — تتغمده الله برحمته — مدمن الشرب فكان يضيع كل ما يربحه وتربحه أمي وإخوتي في الحانة حتى اضطررت على حداثة سني أن أعمل عند صانع أحذية في المدينة المجاورة ، وكان هذا الرجل — صانع الأحذية — قاسياً غاشماً فكان يعاقبني أحياناً بالطعن بحديدته التي يقطع بها الجلد وطوراً بالجلد بسوط من عصب الثور المفتول . ولم يكن أحد يفكر في إنقاذي من مخالبه أو رفع شكواي إلى الشرطة لأن رجالها ــ رجال الشرطة ــ

(١) معدن أبيض رقيق يستخرج من شواطئ بحيرات أمريكا ويعرف هنا باسم الصفيح

كانوا يصلحون أحذيتهم ويخصفون نعالهم فى حانوته الملعون . غير أننى كنت أقبل العذاب والعقاب راضياً لو أننى تعلمت شيئاً من صنعة الاسكاف ، فقد كان اللعين يضن بها ، ولا يبوح بأسرارها إلا لولديه اللذين طالما لطخا وجهى بمادة « الرسراس » ليضحكا منى ويسليا والدهما على حسابى . أما أمى المسكينة — طيب الله ثراها — فكانت تلتمس رزقها فى الشوارع والطرق ، وتدخر ما تكسب لقوت أولادها وبناتها ولنفض عن أبى حين يسرق بعض النقود ليشترى بها أكواباً من الكحول الذى أحرق كبده وقضى على حياته . كانت المسكينة تطهى الطعام فى بيوت المتوسطين ، وتغسل الثياب وتمسح الخشب وتنظف الجدران وتبيع الخبز القديم « المرجوع » وتذبح الدجاج والأوز لليهود ولا ترفض عملا تجد فيه كسبا إلا ما كان يمس العرض والشرف . وفى إحدى الليالى جاء والدى نصف مخمور ، فأيقظنا جميعاً ، وبدلا من أن يقسم بيننا فطيراً أو كعكاً قال لها بمسمع منا جميعاً :

جميلة جداً شريعة القوقاز ، وعادات جورجيا الصغيرة التى يعيش فيها المسلمون والنصارى على قدم المساواة . إن الأسرة الكبيرة كأسرتنا يمكنها أن تبيع بعض أولادها وبناتها بمبالغ حسنة ، تتخلص من متاعبهم وتفتح لهم أبواب الرزق فى قصور الأغنياء . ربما كانت إحدى بناتك يا امرأة تكون سلطانة أو أميرة شرقية لو أنك تمكنت من بيعها ! وكذلك أحد أولادك ...

فزأرت أمى فى وجهه كأنثى الأسد ، وقالت له : أسمعت أيها الخبيث اللعين ، الطامع السكير ، حتى أولادى تفكر فى بيعهم لتشترى لنفسك بثمنهم خمراً . خسئت أيها الوغد المخمور . إننى أقتلك قبل أن تفكر فى هذا . فضحك والدى — رحمه الله — لأننى لا يحق لى أن أسبه أو أنسى الانتساب إليه ، إذا لم أكن ولده ، فابن من أكون ؟ أفضل أن أكون ابن أكبر سكير فى العالم على أن أكون مجهول الأب ، ولئن أعدت شتائم أمى فى حقه ، فلها أن تشتمه ما شاءت لأنها زوجته . أما أنا فالله يغفرلى ولا يسمح لى باقتراف هذا الجرم .

وكنت عندئذ فى الرابعة عشرة من عمرى وقد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة عند قسيس القرية الاب جرنجو ارسينكفيز ، فذهبت إليه من الغداة وشكوت له كل شئ ، وقلت له إن والدى يفكر فى بيعنا صفقة واحدة كالمواشى ! فتوسط فى توظيفى عند يهودى يخرج ماله بالفوائد ويعمل بالربا فلم أطق سماع تنهدات البؤساء والبائسات من عملائه وتركته لأدخل فى بنك لبيع الأراضى بالتقسيط وبناء المنازل الصغيرة للمستخدمين ، وقد أتقنت الكتابة والحساب فى ذلك المصرف وتعرفت بكثيرين من رجال المال والأعمال ، فنقلتنى إدارة المصرف إلى مدينة تيفلس بترقية . وبعد عام ونصف عام كنت أثناءها أبعث بمعظم راتبى إلى أسرتى ، أفلس البنك فجأة وانقطعت مصادرى ومواردى وعجزت عن دفع أجرة غرفتى وظنت صاحبة الدار بى الظنون ، فأغلقت باب الغرفة من الخارج وجعلتنى حبيسا بها ، فلم أذق طعاما ولا شرابا ولم أقض حاجتى . ولما كان سقف الغرفة مصنوعاً من الآجر المرصوف رصفاً بغير بناء فقد تمكنت من الفرار من أعلى الدار بأن خرقت رأسها ! . . . أما الأيام والليالى التى قضيتها بدون طعام ، فلا يمكننى أن أحصر

عدها . وبعد فترة من الزمن اشتغلت بالتمثيل فنجحت نجاحاً لم يكن فى حسبانى ، فقد زادنى طول قامتى وحسن هيئتى وارتفاع جبهتى واعتدال أنفى قبولاً عند الرجال والنساء . وكنت أتقن — يا لتهكم الأقدار — تمثيل أدوار الملوك والأمراء والزعماء والخطباء والمشوقين . وما زلت أدأب وأنشط وأعمل بثبات وأتقى الوقوع فى شراك النساء ، حتى جمعت ثروة لا بأس بها ، فابديت عذراً إلى مدير الفرقة وعدت إلى وطنى ومسقط رأسى لانقاذ والدتى وإخوتى ولأترك لهم ما جمعت من مال ، ولم أكن أدرى أن يد الزمان لاتنفك تعمل بالتدمير والتخريب فى بيوت الفقراء والمساكين ..

فقد قضى أبى نحبه فى السجن إثر مشاجرة فى حانة ، وسقط جدار قديم على رأس أمى وهى تتسول فى بيت ، وسقط بعض اخواتى فى مهاوى العار ، وتشرد إخوتى فلم أعثر منهم إلا على ولد أبله تركته فى الرابعة من عمره ووجدته فى العاشرة يتسول فى الطرق ، فأنقذته وهو فى آخر رمق وحملته إلى المستشفى ولكنه مات بين يدى . وقد تزوجت إحدى أخواتى بشرطى ، ولكنه كان يضربها كل يوم بالجلد الذى يتمنطق به أو بحمائل سيفه إلى أن أورثها الجنون ، فحملها إلى ملجأ المتوهات

أما البيت الذى كانت تؤوينا إحدى غرفه فقد تهدم — حتى ذكرى بؤسنا لم تبق فى مكانها . فكانت عودتى آلية بقدر ما رجوت من هناء وفوز على القادير ، فأدركت أن المنكود منكود وإن توهم السعد !

عندئذ ضاقت الدنيا فى وجهى ، فأردت أولاً أن أحصل على إذن من الحياة ، (١) وأن أبدأ ذلك بتوديع الموتى . فلم أهتد إلى قبور والدى ، طبعاً . هذا مفهوم ، لأن أبى كان مدفوناً فى قبر مجهول فى جبانة المشنوقين فى شرق مدينة دومسكوي . وكانت أمى ملحودة فى مدافن الفقراء المنبوذين بجوار جبل جراتز الشاهق الذى يقف حداً بين قريتنا وبين مدينة ليتوانيا . فأنى لى أن أهتدى إلى قبرين لخاملين من الفقراء بين عشرات الألوف من قبور الخاملين ؟

فقصدت إلى المدافن وودعتها جميعاً بخطبة وجيزة وكذلك إلى المستشفيات وإلى أماكن الدعارة والسجن ظناً منى أن واحدة من أخواتى أو واحداً من إخوتى لا يزال حياً يرزق ويتألم فى بعض تلك النواحى من جهنم الدنيا وجحيم هذه الحياة . تصور أنى لم أودع أحداً فى بيت أو مدرسة أو أسرة أو مخبز أو طاحونة .. أو حتى مقهى أو فندق ولكن ودعت أرواح أهلى وأشباحهم فى المقابر والمداعر والمستشفيات والسجون . . كان آخر يوم تركت فيه المدينة يوم أحد فقصدت إلى الكنيسة وصليت ، وبعد الصلاة دنوت من كرسى الاعتراف لأعترف ، لأنى ما زلت مسيحياً أرثوذكسياً على المذهب السنى القويم والخطة الكنسية الاغريقية المثلى . ولكننى بدلاً من الاعتراف فاجأت القسيس المتناوم بهذا السؤال :

— قل يا أبتاه لماذا يكافأ الأشرار فى هذه الدنيا بخيراتها على شرهم ويجازى الأخيار فى هذه الدنيا بشرورها وسيآتها على خيرهم ؟ قل وأوجز ، فانى أوشك أن أخرج من هذا الدين إن لم أجد

(١) لعله أراد أن يغير خطته فيودع موتاه قبل ذلك .

جواباً شافيا قبل غروب شمس هذا النهار .

فرفع القسيس الابق عقيرته وأجاب :

— لا تتعجل ياولدى ولا تيأس ، لن أطيل عليك الكلام ولن أعـذبك بالثرثرة التى لا طائل وراءها . إن الذى ذكرته مشاهد ومعروف . وهو حقيقة لا خيال ، وأمر واقع لا وهم ولا ضـلال . والجواب عليه أنه أمرٌ مجهول السبب ، لا تفسير له عندنا فى الكتب . ولم يهتد أحد من آباء الكنيسة إلى تعليله تعليلا حسنا يحسن السكوت عليه .

فقلت له: شكراً لك ياسيدى ؛ أستودعك الله لقد كنت صريحاً معى وهـذا يكفينى . وحينئذ أيقنت أنه لا توجد عدالة فى العالم مادام الأخيار فى بلاء والأشرار فى هناء والدين عاجز عن تفسير حالهما .

سافرت من المدينة التى قريتى من ضواحيهـا إلى مدينة أخرى فأنفقت معظم ما ادخرت فى المرح والشراب والطعام ومنازلة بنات الهوى .

وكنت أحياناً أغشى أماكن الدعارة وأختار فتاة فأطعمها وأسقيها وأحسن إليها بصدقة متوهماً أنها إحـدى أخواتى الصغيرات . وقد نسيت مرة أن أسأل امرأة عن اسمها فلما قضيت منهـا حاجتى (واخجلتاه) سألتها عن اسمها قالت : ازيدورا؛ وكان هـذا اسم صغرى شقيقاتى فكدت أجن وشرعت فى قتلها . ولكننى قلت لها ما اسم أبيك وأمك وما هى المدينة التى نشأت بها فأجابتنى بسرعة مدهشة إنها تشيكوسلافية من مدينة كرا كوف مقاطعة بيلوم،وأيدت قولها بأدلةحاسمة. وهى وشم على خصرها وفخذيهـا . فأفقت من الجنون الذى أصابنى لحظة وخرجت من بيت المرأة لا ألوى على أحد ولا شىء .

وأصابنى الكسل فى روحى وعقلى فأمسيت خاملاً يائسا . ولم أجد ما أقتات به فى مدينة برينسكابيولونيا الغربية فلم أستطع التسول لحسن هيئتى وقوة بنيتى فبعت ثيابى وارتديت ثياب متشرد من أبناء السبيل وكانت غاية فى الرثاثة . ودخلت على صاحب مصنع فى مكتبه ، وشكوت له سوء حالى وفقرى وبطالتى وعطلى ، وأضفت إلى ذلك أن والدى كان يعرف والده فرق لى وعرض علىّ العمل فى مصنعه وهممتُ أن أقبل ما عرض ولكننى خفت من نظام الحياة التى بدأت أثور عليها وخشيت أن أعمل فتتحسن حالى فأرضى عن الدنيا ومن فيها فأعدل عن سورة الغضب التى غمرتنى . فقلت له إننى قد وفقت إلى عمل سأبدؤه بعد يومين، وسألته أن يقرضنى قرضا حسناً لأصلح من شأنى ريثما أختم أسبوع العمل الأول فأقبض مرتبى وأرد إليه دينه مشكوراً . فصدقنى ودفع لى خمسين كورونا وودعنى وهمس فى أذنى أنه سيضع فى غرفة البواب بدلة ثياب كاملة وحـذاء وقبعة أستطيع تسلمها فى المساء فشكرته . وعدت إلى باب المصنع وتقمشت ووضعت ثيابى الممزقة فى مكان أمين، لحاجتى إليهـا ، وقصدت إلى أقرب حانة فأفرغت جيبى وملأت رأسى واحتلت على المال والطعام والخمر والنساء ، أى أننى احتلت للحصول عليها جميعاً ونجحت . لقد بدأت أنتقم من هـذا المجتمع المجرم الذى أصابنى منه الغُصص ونالنى منه البلاء العظيم . لقد فتك المجتمع بأهلى ، وعصف بأسرتى ، وتسلى على عقل أبى وقلب أمى كما يلهو الطفل بصغار القطط والعصافير فيخنقها وتلفظ أنفاسها وهو يضحك . لقـد كان أبى وأمى وإخوتى يموتون جوعاً وفقراً

ومرضاً والمراقص حافلة والمآدب قائمة والملاهي سائرة في طريقها والمثاني آهلة بالنواني والفتيان من كل لون ونوع . لقد احتلت واختلست وسرقت ، لا لأجل السرقة ، ولكن لأجل الانتقام . . . على الأقل لمرض الصغيرات التي تخيلت أنهن مولودات للشرف والعفة ولو في ظلال الفقر والفاقة . وعند ذلك وقف وكيل النيابة العامة وقال :

— هل يرى القاضي العادل أن هـذا الكلام يعد دفاعاً عن المتهم . إنني أطلب إسكاته . أرى أنه يهيج نفسية الجماهير من أعماقها ويوغر صدورها على المجتمع المحترم الموقر ...

الجمهور — يغمغم ويهمهم « الحرية ! حرية الدفاع ، لقد أعطاه القاضي حق الكلام فلا يحق لأحد أن يحرمه ! »

المحامي عن المتهم — إن سحب الكلام من المتهم بعد السماح له يبطل الاجراءات ويحتم إعادة المحاكمة ، فهل حضرة النائب على استعداد لسماع ثلاثين شاهداً للاثبات والنفي ومرافعة تطول ثلاثة أيام ؟ ثم لن يكون مناص من أن يؤذن للمتهم في الكلام من جديد لأنه بنص القانون آخر من يتكلم

القاضي — النظام، استمر أيها المتهم في دفاعك

المتهم — (يطلب كوبة ماء فيؤتى بها ويشربها دفعة واحدة)

وفي مدينة رومة اتصلت بجمعية سرية اسمها الكاربوناري أو المافيا لا أذكر الآن. وكانت خطتنا القتل باسم الفضيلة ولكن لا فضيلة هناك ولا شبهها بل القتل لأجل القتل . ولكن بعض المد . رين من أعضاء المافيا أسلموني إلى جمعية « الطراطير السوداء والبراقع المخضبة » وكان مبدأ هؤلاء يدعو للقتل المنيف ، وقد قالوا لي إنهم قتلوا بطريقتهم المنيفة أكثر من مليون إنسان . كنا نعيش معظم الأيام عيشة الفضلاء الأخيار ، ونخادع الناس حتى نستدرجهم ، وكنا نرغم على الزواج وتأسيس العائلات فتزوجت انصياعاً لأمرهم ، ولكنني توعدت امرأتي بالذبح إذا هي حلت . ثم لجأت للعزل والانتفاع بالعقاقير والاصباغ ، حتى إذا حل موسم الجفاف ادعيت أنا ورفاقي أننا مسافرون في تجارة تسبقها رحلة بحرية وسفرة برية واجتمعنا عشرات من أشد الرجال بأساً وألفنا عصابات تجتمع سراً وترسم الخطط السامية . وكنا نرابط في الطرق حيناً وحيناً في محطات السكك الحديدية وطوراً في الفنادق والمطاعم والمراقص وأندية الليل فاذا وقعت لنا فريسة من الأغنياء سطونا عليها وجردناها وفتكنا بها وهتكنا من الأعراض ما هتكنا ونهبنا من المال ما نهبنا ، ثم ذبحنا من استطعنا أن نذبح من الرجال والنساء والأطفال والجند والتجار والممثلات والمرضى والأطباء ، وكنا نسرق ونغتصب فرادى وأزواجاً ، ولكن لا نقتل إلا أفواجاً لأنه أنفى للريبة وأبعد عن الشبهات

النائب — هل يتكرم المتهم بأن يوضح الأسماء والأماكن والتواريخ مساعدة للعدالة وخدمة للفن وإكمالاً للحديث الذي يرويه إذا شاء

المتهم — لا أحب المقاطعة . ولكنني أجيب بأن شرفي لم يتنزل إلى درك التجسس على زملائي

الأقدمين، كما انحط شرف بعض الموظفين

(ضحك وتنهد وشهيق من الجمهور)

وكنا نقتل بالشنق بخيط من حرير أو قطعة رقيقة من القماش المفتول، وكثيراً ما كنا نضحك ونلهو ونرقص ونحن نزهق أرواحهم ثم نواريهم التراب في قبر مشترك كقبور الجنود بعد المواقع الكبرى، هكذا قانون جمعيتنا المحترمة بعد تقاليد الحرب العظمى

القاضي — إني أقترح على المتهم أن يغير التشبيه إذا شاء ولا أرغمه على شيء فهو حر في طريقته

المحامي — وأنا أنضم إلى المحكمة في هذه الرغبة وأنا أرجو شطب الكلام بعد لفظ «مشترك» من محضر الجلسة

المتهم — موافق. كنا لا نعاقب مطلقاً لأننا نبذل كل الجهد في إخفاء معالم الجرائم، ولم يكن أحد من الشرطة أو المحققين أو رجال البحوث الجنائية يستطيع أن يلقي القبض علينا، لأننا كنا مواطنين متازين بالشهرة الطيبة والفضيلة، فإذا حدث أن اعتقل أحدنا خطأ أو نتيجة لمهارة أحد رجال القانون، فإن الجمعية تتآزر توا في تخليصه ببذل النفس والنفيس من مال وهدايا، على أننا لم نكن نقتل لأجل القتل، ولكن كنا نقتل لأننا نقابل المثل بالمثل ونقتص من المجتمع الذي قضى علينا وعلى أهلينا وأحبابنا. فإنه لم يكن يقبل بين ظهرانينا إلا موتور أو مظلوم أو ثاكل أو مخدوع من الرجال أو النساء ممن فقدوا ثقتهم في العدل والرحمة والوعود العذبة والأماني المعسولة. لقد هدمنا المجتمع ونحن على حسن النية؛ فبنينا أنفسنا على سوء النية ثم شرعنا نهدمه. لقد كنا أخياراً فخاربنا فصرنا شراراً لنثأر لأنفسنا، لقد تنمرنا حقناً للدماء الباقية

غير أنني في نهاية الأمر ضجرت من قتل الأفراد واقتنعت أن الأولى والأفضل والأسرع والأخلق والأليق والأليق أن يكون القتل عاماً فانفلت من روما بعد أن أتقنت الخطابة والكتابة ببضع لغات كالروسية والفرنسية والايطالية. وقصدت إلى بطرسبرج في عهد القيصر نيقولا الثاني. وكنت أجيد التكلم بكل اللهجات. وقد قيل لي إن تعاليم الفوضى لا تتفق مع العقل وإنما تمشي مع الجنون، ولا تستعين ببرودة الكهولة وإنما تريد حرارة الشباب؛ وإن أشد مخاوفها الاحجام وأشد معضلاتها التروي. فهي لذلك تخشى العقلاء ولا تطمئن للرزانة ولا تسكن للمجادلة، يجب أن يكون خدامها عمياً حتى لا يبصروا ومجانين حتى لا يحجموا ولا يفرقوا، فهي لذلك لا تقع إلا على ثائر كره الانسانية فأراد أن يطعنها في قلبها ورأسها، أو مفلوك يطلب الغنى بعد الفقر. وكنت من الفريق الأول. فلما عشت ردحاً من الزمن في عاصمة روسيا القديمة اتخذت خليلة من صفوف الثوار اسمها ناديا وكانت امرأة نصفاً تبلغ الثلاثين من عمرها، وكانت كبنات جنسها تتقن سبع لغات على الأقل فأخذت تذكر لي أسماء رجال لم أسمع بهم من قبل وكانت كهمي في الخلاعة والتصابي فلهوت بها وأهملت تعاليمها. وكنا نعيش على مائة روبل تدفعها لنا الجمعية السرية «بلافنسكاي

نبراسكا » مشاهرة . وأخيراً ألحقتني باتباع زينون وكنت أظنه زعيما روسيا خطيراً فاذا به فيلسوف يوناني . وكانت ترغمني على أن أستظهر بعض النبذ التي تدعي أن حياة الثائر في روسيا بدونها مستحيلة من ذلك قولها « ليست القوانين نتاج الحكمة من أجـــدادنا ، وإنما هي وليدة عواطفهم وجبنهم وعصبياتهم واطماعهم ، وإن العلاج الذي نستمده من القوانين لهو شرٌّ من الداء الذي تدعي هـذه القوانين شفاءنا منه ، فاذا أبطلت هـذه القوانين وأقفلت هذه المحـاكم وترك الفصل في النزاعات للمراجيح من الناس، نشأ عن ذلك العدل الحقيق» أو كقولهـا « الامتلاك هو السرقة بعينها » . أو هذه النبذة المعقدة الملتوية «إذا رجحت عقول الناس وتهذبت نفوسهم حتى يستطيعوا أن يتبعوا غرائزهم الطبيعية فلا تعود بهم حاجة إلى المحاكم ولا إلى الشرط والمعابد والأديان ، ولا إلى استعمال السكة والنقود وإنما يستعيضون عن الأخيرة بتبادل العوارف والأعطية »

ولـكن هذه المذاهب لم تكن تروقني لأنني لم أفهمها بعقلي وإنما صبوت إليها بقلبي وروحي معتقداً أنها تعينني على الانتقام لأهلي . كان نزع أموال هؤلاء الأغنياء جميعاً وإغراقهم في بحر من الدماء لا يكفيني فداء لأمي وأبي وإخوتي ، ولا سيا أخواتي البائسات . لقد كانت عاطفة العائلة قوية غاية القوة في نفسي ، ولهذا أردت أن أتزوج من هذه الثائرة ناويا لتنـدمج مني أكثر من اندماج الحليلة الايطالية . وفي اليوم الذي صممت فيه على عقد زواجها اكتشفت خيانتها ! فقد كانت تخلو إلى طالب يهودي اسمه عمانوائيل كونسكي يقطن في نفس المنزل الذي كنا نعيش فيه . فلما ظهرت على أمرها كتمته وعدلت عن الزواج بها . وذكرت لها بعد بضعة أيام أنني مسافر إلى الجنوب إلى ناحية أوديسا ، نفاذاً لأمر كازميرسكي رئيس الشعبة التاسعة التي أنتمي إليها فقالت لي «على بركة الله أيها الرفيق !» كأنها كانت تنتظر فراق بفارغ الصبر ، وهي تعلم أن السفر بين بطرسبرج وأوديسا لايتم إلا في ثلاثة أيام وليلتين، فقلت لها : ألا تمدين لي حقيبة ثياب أو طعاما في خرج كالأخراج التي يحملها الوجيك ؟ فقالت لي وهي متعجلة وقد زاغ بصرها « يمكنك أن تدبر أمورك بشرين كوبيك أيها العملاق الثقيل » ووضعت في جيبي قطعة صغيرة من النقود الفضية فقلت لها وأنا أقبلها نفاقاً وودت لو أمزق وجهها بأنيابي : « لا زاد ولا غطاء ! أترين انني أموت برداً وجوعاً في خدمة الانسانية ؟ » فقالت « إن الشعبة التاسعة تعد لك أسباب الراحة ! هيا أسرع فقد حان موعـد القطار ! » أيتها العاهر المحرومة من الرجال قبل أن تعرفيني ! لقد التقطتك من الطريق وغذيتك من لحمي ودمي وعرق جبيني وخاطرت بالحياة لأجلك . أهـكذا أتبيعينني بيع السماح لأجل شهوتك الصاخبة . ألست رجلا ؟ أم دأبك التغيير والتبديل كحارة الوحش التي لا تقنع بقطيع كامل العدد والمدد من الذكور المهتاجة ؟ .

هذا كلام العقل الباطن تبادلته ونفسي، وقد تخيلت كل شيء يحدث في غيبتي . ثم نطق العقل الواعي قائلا

حسن ما تقولين ياحبيبتي ناديا . أستودعك الله !
وسارعت بالخروج وطرت على جناح السرعة إلى حي آخر من أحياء العاصمة وقضيت ليلتي في أحضان امرأة مذنبة . وقبل أن أضطجع إلى جنبها في الفراش الغريب الذي لم يألفه بدني صليت صلاة قوية وصلت المرأة المذنبة إلى جانبي راكعة على ركبتيها . فسألتها : إن وجدت زوجاً كريماً يقوم بأودك ويكفيك مؤونة الدعارة أفتسكنين إليه ؟ فأجهشت بالبكاء وقالت : أسكت أيها الرفيق ولا تذكر هذه النعمة المقدسة في هذا المكان الملعون . إني كلما أذكر الطهر والعفاف والقناعة أكاد أجن شوقاً إليها .

قلت « فإن وجدته وأحسن إليك وبني بك تخونينه مع أول قادم ؟ فوضعت يدها على في ، فقلت : وإن فعلت فما تستحقين ؟ قالت : أن يقتلني وأن أذهب بلا دية ، وأن يباح دمي . فقهقهت حتى أمسكت بجنبي ، وكادت المرأة تظنني مجنوناً . لقد حاكمها أي التائبة على طريقة قومها وبلدها ومذهبها بعد أن صدر الحكم على لسان امرأة من قومها ومن طبقتها ، ولم أطق صبراً ، فأفرغت جيبي في حجر البائسة المذنبة ، أعني أعطيتها كل ما كنت أملك ، وقصدت إلى كاتم أسرار الشعبة وزرته في غسق الليل ، وقلت له : إن الرئيس يطلب مسدساً وذخيرة فقال : أي رئيس ؟ قلت : الرئيس ٩ + ١٤

وكان هذا رمزه الأخير ، فأعطاني ما أطلب وقصدت إلى بيتي بعد نصف الليل بساعة وصعدت الدرج في الظلام الحالك ، ولم يكن الدفورنيك[1] ليوقظني . ووضعت أذني على خرق الباب فسمعت أصواتاً وحركات وتأوهات وهمساً ، فنظرت فرأيت في ضوء المصباح الكهربائي ما أقنعني بأن المرأة في أحضان اليهودي ولحت لحسن الحظ نافذة مفتوحة فعلمت أن الوصول إليها سهل من السطح فصعدت إليه وصبرت عليهما حتى أخذا نصيبهما من المتعة والنوم وهبطت عليهما كالقضاء من النافذة وذبحت العاشق اليهودي من الوريد إلى الوريد كما تذبح الشاة، ثم أيقظت ناديا ووضعت فوهة المسدس في فمها. فلما رأت دماء معشوقها الطالب العبري قالت لي : أنت الذي قتلته؟ قلت نعم . قالت حسناً فعلت . إني استدرجته لذلك ، فأنا أمقته وأحب أن تفعل به ما فعلت من زمن ولكني لم أتمكن من اقناعك .. اخلع الآن ملابسك ونم في حضني حتى الصباح . قلت : وماذا نفعل بجثته ؟ قالت : أترك الأمر لتدبيري، ولكنها لم تنته من حبك تلك الحيلة حتى أفرغت المسدس في حلقها وغادرت الدار كما دخلتها . وفررت إلى ساراتوف على نهر الفولجا واندسست بين الملاحين وعاشرت الموجيك في المولد الكبير في نيجني نوفجورود[1] وتعلمت أغانيهم وأنشدت مواليهم وقصائدهم وأدوارهم ، وأتقنت أصواتهم ، وغيرت اسمي وعقيدتي طبعاً وجعلت نفسي من قازان . وذقت أنواع الجوع والخوف والفقر ، وكانت أشباح الأحباب والأعداء والقتلى تظهر لي في نومي وصحوي . وتعلقت بكتاب « بيت الموتى » لحداثة عهده بالنشر ودخلت الكنيسة وتعلقت بالنساء أيام الأحد وأنا كافر بعلة القسيس

(١) بواب الدار وجابيها وجاسوسها

(١) بالروسية المدينة الجديدة مشهورة بالموالد والأسواق .

بجلجل صوتى كأحسن ما يكون منشد يترنم بمزامير داود ، ولكن القسيس فاجأنى وأنا أسرق من صندوق النذور فطردونى فخرجت إلى المدينة وأخذت أغنى فى الشوارع فسمعتنى أولجستا نوفا [1] الممثلة الفنية فعشقت صوتى وأحبت جسمى فوهبتنى بدنها وعلمتنى فنها واشترتنى من نفسى ، فصرت معشوقها وسيدها فأظهرتنى على مسرح أولياتوف ببطرسبرج ، وقد رآنى رئيس الشرطة فى دور حلاق اشبيلية «فاشتبه فى» لأنهم كانوا يبحثون عن ذابح ناديا وحبيبها، فصفعته أولجستا نوفا ، وقالت له أنت مجنون ، يابرتزيف ! هذا أخى فى الرضاع ، إنه لم يغادر قصر أبى فى تسار كوى تسيلو ، فكيف تتهمه بالتشرد والقتل؟ فقلت لها: عفواً ياأختاه! لاتصل بك الحماسة فى الدفاع عنى إلى هذه الدرجة ، إننى قاتل هذه المرأة ومعشوقها حقاً. فحدق فى الشرطى ، وفتح فمه لينطق فقلت مقهقها : ولكن فى المنام !! ...

وبدون عشق أولجا لم تبتسم لى الدنيا فوصلت إلى مسارح نيويورك وباريس ولندن وميلانو ، ثم عدت إلى روسيا ، وكانت أولجا قد أصيبت بالسل وعجزت عن الغناء ففقدت أنا الآخر صوتى كما حدث لتربلى عند ما مات سفانجيلى فجأة [2] ، وعدت إلى الفقر ومقاساة الجوع حتى قبلت أن أمثل لقاء رغيفين من الخبز وقطعة من اللحم وقدح من الفودكا . إن التهمة التى وجهت إلى هى أننى نبشت قبر أولجا ستانوفا ، وأخذت بعض حليها التى تزينت بها قبل دفنها . إنها لجريمة كبيرة حقاً ،

ولكن لا تنسوا أننى أنا الذى أمرت بدفنها بهذه الجواهر ، وكان يمكننى أن أستحوذ عليها ، لأنه لا قانون فى الأرض ولا فى السماء يحتم على الورثة أن يزينوا صدور الموتى ونحورهم وأصابعهم بالجواهر، ولكننى فعلت ذلك زهداً فى جواهرها ، وكنت فى أشد الحاجة إليها ...

لقد نسبت الشرطة لى أننى تعديت على جسمها بفعل فاضح ، أفيعقل هذا الزعم ؟ إنها وشاية دنيئة وغيمة قذرة ، ونبأ كاذب متعفن لا يصدر إلا عن قلوب متأكلة بدود الحقد والوقيعة . هل أعتدى على هيكل عظمى وجسد لحقه البلى فى وحدة الليل البهيم ؟ نعم « الهاوية » قصة خيالية ، ولكن الصندوق الخشبي النعش المغلق اعتبروه خزانة ملأى بالجواهر ، لا سرير عروس معدة للزفاف ، إنى أختنق . أموت . اسمحوا لى بالجلوس لقد انتهيت .

القاضى — إجلس أيها المتهم (يجلس وينثنى عنقه من التعب) أيها المحلفون ! لقد سمعتم دفاع المتهم ، لست فى حاجة إلى تلخيصه ، أو ترجيح إحدى الوجهتين . إن وجهة الاتهام قوية لا ريب، ولكن المتهم أظهر ضعفها . لا تصغوا إلى القسم الأول من دفاعه . قد يكون اعترافاً خالياً لعقل عصفت به المصائب فأنهكت قواه ، وقد يكون مظهراً من مظاهر الجنون الفجائى. انه بلا ريب رجل نالت منه حوادث الدهر نيلاً كبيراً حتى اختل توازن تفكيره .

إن سجل سوابقه مفقود فلا يمكننا أن نعلم إن كانت قصته صحيحة أو كاذبة . أما الجرائم التى نسبها

(١) هذه بريمادونا وسوبر آنوتوفيت أثناء الحرب

(٢) Trilby تأليف دىمورييه من أروع القصص الحديث

إلى نفسه متطوعاً فقد تكون وقعت ولم تظهر للملأ التحايل فى إخفاء معالمها. كما يمكن الافتراض بأنها لم تقع إلا فى دائرة ذهنه المريض فلا تتخذوا منها سنداً عندما تنسحبون إلى غرفة المداولة. لا تسمعوا صوتاً سوى صوت ضمائركم. ولا تذكروا إلا تهمة واحدة وهى التى يحاكم من أجلها هذا المتهم. هل نبش قبر صديقته أو لجاستانوفا ليسرق جواهرها أو ليعتدي على حرمة الموتى؟ إن كانت الجريمة لسرقة الجواهر فالجواب على الأسئلة جميعها بالنفى، وإن كانت غايته انتهاك حرمة القابر فالجواب على الأسئلة الأساسية بالاثبات. الله يهديكم

رئيس المحلفين — لسنا فى حاجة إلى المداولة. جوابنا على جميع الأسئلة بالنفى

القاضى — حكمت المحكمة ببراءة المتهم والافراج عنه فوراً، إن لم يكن محبوساً لسبب آخر

الجمهور — ليحى العدل! الرحمة فوق العدل! يسقط الظالمون.. المجتمع يحتج. ليسقط الشرطة.. اليهود.

القاضى — (يا حارس! اطلق سراح المتهم) وأخل قاعة الجلسة من جميع النظارة!

الحارس — ازيدور فيدوروف، انهض تيقظا! لقد حكم القاضى ببراءتك (يلمسه بلطف ثم يهزه بعنف ثم ينظر فى وجهه ويجس يده وصدره) إن المتهم لا يتحرك. لقد فارق الحياة وهذا الزبد فى شدقيه

القاضى — (يرفع قبعته وينهض) رفعت الجلسة وانتهت القضية!!

الجمهور — (يرتل: أيها الرب الرحيم تقبل روحه فى ملكوت سماواتك فقد كان أعدل من كثير من الكبراء).

محمد لطفى جمعة

ثروة لم تخطر على بال

للكاتب الإيطالي بوكاتشو
للأستاذ محمد كامل حجاج

لقد أجمعت الآراء على أن البلاد الواقعة على شاطئ البحر من ريجيو إلى جايتي هي أجمل البلاد موقعاً في إيطاليا. وهناك على مقربة من سالرن عراء تطلق عليه الأهالي اسم شاطئ ملفي وبه مدن صغيرة وحدائق وتجار، وكانت مدينة رافللو في ذلك العهد أبرزها رشاقة وازدهاراً، وكان بها رجل يسمى لاندولف من كبار الأغنياء ولكن نهم المال لا يشبع ولا يقنع، إذ أراد هذا الرجل أن ينمي ثروته فقضى طمعه على جميع ما ملكت يداه

وبعد ما فكر في الأمر طويلاً كعادة التجار اشترى سفينة عظيمة وشحنها بمختلف البضائع وسافر إلى قبرص. وحينما وصل إليها وجد كثيراً من السفن مشحونة بنفس البضائع التي جلبها فاضطر أن يبيع شحنته بأبخس الأثمان؛ فتملكه هم شديد لهذه الخسارة الفادحة التي ذهبت بثناء وصمم على الانتحار أو الاستعاضة عما فقده بواسطة شخص آخر فلا يرجع إلى بلده على تلك الحال بعد أن خرج منها غنياً محترماً. وباع سفينته واشترى بثمنها والمبلغ الضئيل الذي باع به بضائعه مركباً خفيفاً يصلح لأعمال القرصنة وسلحه جيداً واختار له بعض الرجال الأشداء وطفق يجوب البحار ويسطو على كل ما يصيبه ولا سيما الأتراك حتى زادت ثروته وفاقت ما كان يملكه وقت ازدهار أمواله

رأى أن غناه أصبح كافياً وأنه في حاجة إلى عيش شريف محبوب لا يحتاج إلى تعرض جديد للبؤس وتقلبات الأيام. وعزم على الرجوع إلى بلده والاكتفاء بغنائمه لأن ما حاق به من صروف الدهر جعله يخشى العودة إلى أعماله السابقة. فسافر إلى رافللو بهذا المركب الخفيف، ولما ابتعد عن الشاطئ هبت رياح عنيفة فهاجت الأمواج ورأى لاندولف أن سفينته الصغيرة لا تستطيع مقاومة اللجج المائجة فعزم على الالتجاء إلى جزيرة صغيرة. وبعد لحظة أقبلت سفينتان جنويتان لتحتميا في هذا الموضع من الجزيرة وكانتا آتيتين من الآستانة. وقد علم الركاب أن هذه السفينة الصغيرة يملكها لاندولف وكانوا يسمعون أنه من الأغنياء الولعين بالنهب والسطو على مال الغير فاتفقوا على مهاجمته وسدوا عليه المسالك أولاً ثم أنزلوا عدداً من رجالهم إلى البر وبأيديهم قسيهم وسهامهم وتخيروا لهم مكاناً يمكنهم من إصابة كل من يخرج من السفينة. ثم هب الباقي إلى القوارب وذهبوا إلى سفينة لاندولف وأسروها بدون مقاومة ثم نهبوا جميع ما فيها وأغرقوها واعتقلوا لاندولف في قاع مركب من مراكبهم ولم يتركوا عليه غير بعض ثياب خلقة. وفي الصباح تحسن الجو فسافر الجنويون إلى بوتان وسارت مراكبهم بكل اطمئنان طول النهار. وحينما أقبل الليل هاجت رياح عنيفة، واضطرب اليم فانفصل المركبان بعضهما عن بعض وارتطم أحدهما الذي يقل لاندولف في صخور جزيرة سيفالونى فتحطم كالزجاجة وافترس اليم مختلف البضائع والصناديق وحطام السفن، وطفق الملاحون يسبحون ويجالدون اللجج المائجة في الظلام الحالك ويتمسكون بكل ما يصادفهم لينجوا بأنفسهم

وأما لاندولف التعس الذي كان بالأمس يتمنى الموت لفقد ثروته فقد تملكه الخوف حينما رأى

نفسه مشرفاً على الهلاك ، ولحسن حظه صادف لوحاً من الخشب فتمسك به إلى أن يسر الله له من ينتشله من الخطر

ظلت الأمواج تتقاذفه ذات اليمين وذات اليسار إلى أن طلع النهار فنظر إلى ما حوله فرأى صندوقاً صغيراً عائماً فحاول الوصول إليه ولكن هبت زوبعة ضاعفت عنف الأمواج وقذفت الصندوق حتى اصطدم باللوح الذى بين يدى الغريق فأفلت من يده وغاص لاندولف من قوة الصدمة ، ثم طفا وشاهد اللوح بعيداً عنه ولكنه لمح الصندوق على مقربة منه فسبح حتى أمسك به وامتد على غطائه، وطفق يستعمل ذراعيه بدلا من المجاذيف،وأخذت تطوح به اللجج فى كل صوب دون طعام ، وقضى نهاره وليله على تلك الحال المضنية دون أن يعرف إن كان قريباً أو بعيداً عن البر لأنه ما كان يرى غير الماء والسماء..

وفي الغد طوحت به الرياح أو على الأصح إرادة الله السامية إلى جزيرة جولف ، وأصبح جسمه كالإسفنج وهو متكمش على الصندوق كما يفعل الغرقي عند إشرافهم على الهلاك

وكانت فى تلك الآونة امرأة فقيرة تغسل آنيتها على الشاطئ فذعرت لرؤيته على تلك الحال وصرخت صراخاً عنيفاً . وكان لاندولف منهوك القوى حتى أنه لم يستطع النطق بكلمة . ولما اقترب الصندوق من الشاطئ وتأملت فيه المرأة ميزت شكل الصندوق ولحت وجه الغريق فتأثرت بعاطفة الشفقة والحنان ونزلت بقرب الشاطئ وكان البحر هادئاً وأمسكت لاندولف من شعر رأسه وجرته هو والصندوق إلى الشاطئ، ونزعت يديه المتشنجتين من الصندوق بقوة ثم وضعت الصندوق على رأس فتاة كانت معها ثم حملت لاندولف على ظهرها كالطفل وذهبت به إلى المدينة ثم أدخلته فى حمام حار وغسلته ودلكته بالماء الساخن إلى أن أفاق وتحرك ، وبعد إخراجه من الحمام سقته نبيذاً وأطعمته قليلاً من المربى حتى انتعش وعاد إليه رشده . رأت هذه السيدة أن ترد إليه صندوقه وأن تشجعه على ما أصابه من المحن

ولو أن لاندولف لم يفكر قط فى الصندوق إلا أنه ظن أن يجد فيه شيئاً يستعين به على القوت بضعة أيام . ولما أراد أن يفتحه وجده خفيفاً جداً فتملكه اليأس والقنوط ، ثم فتحه بفارغ الصبر تطلعاً لما يحتويه، وكانت السيدة قد غادرت بيتها لقضاء حاجاتها ، فوجد فيه كمية من الأحجار الكريمة بعضها مبرى والآخر كما هو ، ولسابق معرفته بالجواهر تحقق أنها ذات قيمة كبيرة ، حمد ربه على هذه النعمة العظيمة وجده ، لأنه قد حرسه بعين عنايته وعوضه أضعاف ما فقد . وتشجع ونشط ونسى همومه ، وعزم على أن يتصرف بكل رزانة وحكمة ليصل إلى بيته آمناً مطمئناً ولا يكون عرضة لمصاب جديد أو محنة غير منتظرة. ثم صر جواهره فى قطعة من النسيج وعرض على السيدة أن تأخذ الصندوق مقابل كيس، فلبت طلبه ثم شكر لها حسن صنيعها ووضع كيسه على كتفه وسافر فى مركب .

ولما وصل إلى برنديس انتقل إلى ترانى وصادف هناك عدة رجال من بلده وكانوا من تجار القز والديباج فقص عليهم ما أصابه ، ولكنه لم يبح بالصندوق وما حواه فأعطوه حلة وأعاروه جواداً وبعثوا له عن رفقاء يصحبونه فى سفره إلى رافللو

ولما آب إلى بلده عاين جواهره فوجد فيها كثيراً من الماس الجيد بحيث أنها إذا بيعت بثمن معقول كانت قيمتها تساوى ضعف ثروته حينما فارق بلده . ثم أرسل مبلغاً من المال إلى السيدة التى انتشلته من اليم فى مدينة جولف وكافأ تجار الحرير الذين ساعدوه فى ترانى وعاش بقية عمره عيشة هنيئة شريفة

محمد كامل حجاج

الحب فوق الجبـــل

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت مارى تستطيع فى يسر أن تسمع الحديث بين الشابين الجالسين على مقربة منها إلى منضدة فى فنـدق بشارع « فليت ستريت » ولـكنها لم تعر أحدهما التفاتاً خاصاً

قال أكبرهما وهو أجلهما للآخر : « إذا كنت لم تذهب قبل الآن إلى اسكوتلاندا فاطلب أجازة واذهب إليها . وقد يشكو بعض المتقدمين فى السن وضعاف الأبدان من شدة البرد فيها ، ولـكن هذا لا يمنع من وصف جوها بأنه جميل

« وسأدلك على مكان بين الجبال ليس أطيب من هوائه ولا أروع من مناظره ولا أوفر من حاجياته مع يسر الثمن ، ولا أجمع لأسباب الراحة والسرور وقد طال ترددى عليه وآمل أن أذهب إليه أيضاً فى الخريف »

ورأت مارى المستمع يشير بالموافقة ويقول : « لست أعرف هل أتمكن من الذهاب إليها أم لا ، ولـكنى أريد أن أسألك عن بعض التفاصيل ، وأنت تعرف أننى لا أحب النزول بالفنادق فهل من الممكن إقامة كوخ هناك خارج القرية ؟ »

فأجابه : « ذلك سهـل . وسأدلك على نفس الـكوخ الذى كنت أقيم به ، وهو فى جبهة برتشاير الغربية فاكتب إلى مسز « ماك بين » وقل لها إنك أخذت العنوان من جارفى بلير »

ولم يكن المستمع يعرف الجهة التى ذكرها جارفى بلير . ولـكن مارى عرفتها ، وكتبت على ظهر مجلة كانت معها ذلك العنوان . ولم يخطر ببالها أنها أخطأت فى ذلك لأنها كانت تريد الاصطياف أيضاً ، وكانت اسكوتلاندا حلماً من أروع أحلامها . ولـكنها لم تـكن تعرف أحداً هنـاك ، وليس أجدر بإرشادها إليها من هذا الرجل الأسود الشعر والعينين الذى كانت تراه كل يوم على هذه المنضدة بالفندق وإن كانت إلى اليوم لم تبادله كلمة واحدة ، على أنهما كانا يتبادلان النظرات فى كثير من الأحيان

وفى تلك اللحظة كتبت مارى خطاباً رقيقاً إلى مسز « ماك بين » قالت فيه إنها سمعت اسمها وعنوانها مصادفة وأنها ترجو أن تسمح لها بالاقامة فى الكوخ مدة أسبوعين وتسألها عن شروطها فى مقابل ذلك

وفى اليوم الثالث وصل إليها الرد . وكان مرضياً وفيه تطلب مرسلتـه تحديد اليوم والساعة لترسل إليها العربة تنتظرها وأمتعتها عند أقرب محطة لتنقلها إلى الـكوخ الذى يبعد عن المحطة ثلاثة أميال

وتم كل ذلك . وفى ليلة هادئة الجو معطرة النسيم كانت مارى واقفة أمام الكوخ وصاحبته مارجريت ماك بين ترحب بها ترحاب الصديق بالصديق

قالت مارجريت : « أخشى أن يكون هـذا المـكان موحشاً لشدة هدوئه وخلوه من الأنيس ، ولـكنه يوافق اشتراطك فى خطابك ، وليس عمل يمكن أن يعمل هنا إلا المشى على سطح الجبال المزدانة بأعواد الزهر »

فابتسمت مارى وقالت : « إنها تألف هذه المناظر وتحبها فقد اعتادت الاصطياف فى الريف وإنها لا تنتظر أن تسبب لها هدأة الحياة شيئاً من السأم

وكان من حسن حظها أن الجو اعتدل وراق

فى الأيام الأولى من زيارتها لهذا المصيف . وفى يوم من الأيام قالت « مارجريت ماك بين » : « إنه فى المساء سيأتى مصطاف جديد وسيقيم فى غرفة أخرى من ذلك الكوخ »

وقالت : « فاذا راقك مجلسه بعد التعرف به قدمت لكما الطعام معاً وإلا فانى سأدبر لذلك وسيلة تريحك »

فلم تبد مارى أي اعتراض بل سرت من وجود زميل من أهل بلدتها فى هذا المصيف . وفى أصيل ذلك اليوم خرجت لتتنزه على سفح الجبل فى طريق المحطة وهى تمد نفسها بأن تكون نزهة الغد برفقة رجل هى إلى اليوم لم تصاحبه . وفيما هى تعلل النفس بوعد جميل زلت بها القدم عند محاولتها الصعود إلى مرتفع من سفح الجبل فهوت وجرحت ركبتاها واستحال عليها النهوض ، ورأت رجلاً يسلك الطريق بين المحطة وبين الكوخ

ولما دنا عرفت فيه صاحبها أسود الشعر والعينين « جارفى بلير » . ونظر إليها وكاد أن يمشى دون أن يتكلم لو لا أنها استوقفته وأخبرته بالخبر ، وطلبت إليه أن يبلغ صاحبة الكوخ رجاءها لترسل إليها عربة تقلها . فقال : إن الكوخ قريب فاذا شئت فلنذهب إليه مستندة إلى ذارعى . وفى بحمد الله من القوة فوق ما قد تظنين

قبلت مارى على خجل ما طلبه إليها . وكان لا بد لها من التحدث فى أثناء الطريق فاعترفت له بأنها عرفت المكان من حديثه مع صاحبه . وقال لها : إنه كان يريد أن يأتى فى الخريف ولكن طرأ ما دعاه إلى التعجل

وقالت : « أرجو ألا يغضبك انتفاعى بعنوان كنت أنت تعليه على آخر » فقال: « كيف أغضب؟ لا بل يسرنى كل السرور أن تشهدى صدقَ النصيحة التى قدمتها لصديقى وأرجو ألا تضطرك الإصابة الحاضرة إلى لزوم الكوخ باقى مدة الاصطياف »

وفى اليوم التالى كانا واقفين أمام الغدير يتحادثان فقالت : « ما أجمل هذا المنظر ! »

قال : « إننى لو أوتيت ثروة لحققت حلماً طالما كنت أنعش نفسى بتصوره وهو أن أشترى كوخاً فى مثل هذا المكان فأقضى فيه ستة أشهر من كل عام » . قالت : « أهذا حلمك ؟ » فقال : « نعم ولى حلم مرتبط به » . قالت : « أخبرنى ما هو ؟ »

فقال : « منذ عام رأيت فتاة فأحببتها وأريدها زوجة ولكنى لا أملك ما أسديه إليها غير حبى »

فتشجعت الفتاة أكثر مما كانت وقالت : « ربما كانت الفتاة لا تطمع فى غير الحب »

ثم قالت : « هل أرشدتها إلى هذا المكان الذى أرشدت إليه صديقك ؟ » فابتسم وقال: « إننى لم أكن كلمتها على الرغم من أنى كنت أراها كل يوم . وقد انتهزت جلوس صديق مني فرصة لأذكر المكان بصوت عال على مسمع منها . وكنت أعلم أنها تريد الاصطياف »

فاحمر وجه مارى وقالت : « ربما كان عند صاحبتك مثل الذى عندك، وربما سبقتك إلى الكوخ طمعاً فى لقائك »

وعادا إلى الكوخ . وبعد ذلك اليوم اشتد قلق « مارجريت ماك بين » بسبب التصاقهما لزاماً ، ولكن قلقها عاد سروراً حين أعلناها أنهما يريدان البقاء بالكوخ شهراً آخر هو شهر العسل

عبد اللطيف النشار



قال أحد المدعوين بمناسبة طلاق مشؤوم : يجب الحصول على شهادة صلاحية للزواج ... فقد عرفت فتاة كانت زهرة يانعة رطيبة الغصن باهرة الجمال لوثها زوجها بشكل مروع منذ ليلة زفافها إليه . فقال الطبيب س ... عند ما سمع ذلك :

— لقد كثر فعلاً حديث الناس عن هذه الشهادة ، وثار الرأي العام ، وبدأ بعض النواب في التفكير فيها . وفي مثل هذه الحال التي تتكلم عنها يميل الانسان إلى الاعتقاد بأن التشريع الذي يقضي بوجوب الحصول عليها قبل الزواج يكون تشريعاً مفيداً . أما إذا فكر الانسان في المسألة فانها لاتبدو بهذه السهولة . فكم كثير من المشاكل ! ثم هناك الصعوبة التي يجدها الطبيب في تسع حالات من عشر في تشخيصها تشخيصاً علمياً أكيداً . لم يبق إلا الحال العاشرة التي ضربت لنا مثلا منها ، ولكن ما العمل في التسع الأخرى ... ! وإنني لأسائل نفسي كم من زواج موفق قد يصير امتناعه بناء على دلائل خداعة لأمراض لن تظهر ألبتة . وكم من القلوب الفتية المتوثبة تتمزق وتسحق بناء على قرار أساسه نظرية قد يظهر فسادها فيا بعد ! وهذا بخلاف الأحوال التي يستعمل فيها الغش والتزوير . اسمعوا هذه الحادثة التي ما زالت ذكراها راسخة في ذهني قد كانت من الحوادث التي أثارت حزني وألمي وفي نفس الوقت كانت عزائي في مهنتي . ولايدهشكم هذان التعبيران المتناقضان لأنكم ستوافقونني متى انتهيت من سرد قصتي

كان في المستشفى المتنقل الذي كنت أعمل فيه أثناء الحرب في الريف امرأتان هما أم وابنتها سأدعوهما إذا شئتم السيدة لور والآنسة لويز ؛ وكانت كل منهما مثالاً عالياً للتفاني في العمل والنشاط والاخلاص

إن تعلق الطبيب بمساعديه هو إحدى العواطف التي يخلقها الاشتراك في العمل ، وهي عاطفة لا نجد لها مثيلاً في المهن الأخرى ، وتستمر إلى ما بعد انتهاء العمل معاً ، ولكننا معشر الأطباء عند ما نؤوب إلى عياداتنا لايترك لنا مرضانا الوقت الكافي لتبادل المكاتبات ، فانني عند ما عدت إلى باريس انقطعت عن مراسلة هاتين الممرضتين النشيطتين . وكانتا تقطنان بإحدى مدن الجنوب حيث كان زوج السيدة لور يتعاطى أعمال المصارف . ولكن سكوت رجال الأعمال لايتخذ دليلاً على النسيان ، إذ أن هذا ماشعرت به عند مارأيت ذات يوم السيدة لور تدخل مكتبي أثناء عيادتي للمرضى فقلت لها :

— آه ! أهذه أنت في عيادتي ! أنا الذي مازال ضميري يؤنبني منذ حضوري إلى هنا لأنني لم أجب على خطاب واحد من خطاباتك العديدة ! يسرني أن أنتهز الفرصة لتقديم اعتذاري لولا أنني ألاحظ أنك جئت في طلب استشارتي ...

— لك كل العذر ياسيدي الطبيب فإن وقتك أثمن من أن تضيعه . ومع ذلك فقد جئت أسألك

(*) في الأصل الفرنسي « شهادة ما قبل الزواج »
"Certificat Prénuptial"

منحي بعض هـذا الوقت ليس لنفسي لأنني لست مريضة ولكن لابنتي

— هل الآنسة لوز مريضة في باريس ؟

— لا يا سيدي الطبيب ولكنها ستتزوج أو على الأقل طلبها شاب يعجبها جداً للزواج وهو شاب نبيه وظريف للغاية عيّن منذ سنة في مدينتنا مهندساً للطرق والجسور . وقد طلبت وزوجي مهلة سنة لتبليغه ردنا إذ نريد وضع بعض الشروط قبل موافقتنا، لأن هذا الشاب خاض غمار الحرب بكل شجاعة وأصابته الغازات السامة تحت أسوار فردان . ولما كنت عرفت أثناء اشتغالي بالتمريض ومنك شخصياً أن أكبر أضرار هذه الغازات هو تمريض ضحاياها لعطب الرئات، ولما كان والدا لوسيان — وهو اسم الشاب — قد توفيا بذات الصدر فلا تقدر بل يجب ألا نزوج لوز بشاب مصدور ؛ وحينئذ ...

فقاطعتها قائلاً : وحينئذ خطر لكم أن تفحصوا عن مرض هذا الشاب بواسطة طبيب

— نعم يا سيدي الطبيب . لقد عرفت فكري

— وقد وقع اختياركم عليّ

— هذا طبيعيّ فقد طالما رأينا منك العناية بأمرنا والميل إلينا ، ثم شاهدنا دقة استدلالك على مواضع الداء

— لقد عزب عن ذهنك ياسيدتي مسؤولية الطبيب وواجبه الصارم نحو سر المهنة . من منا لم ير بائساً كان يعالج فيه قروحاً مخجلة ومعدية تزوج فتاة طاهرة جميلة ومنعه واجبه من الكلام، بينما كان من السهل منع حدوث هذه الجريمة بكلمة واحدة. فإذا فحصت عن داء السيد لوسيان ووجدته مصاباً بالداء الذي تخشين فإن واجبي يمنعني من أن أبوح لك به

— أوافقك على ذلك ولكن ألا تبوح به له هو؟

— إنني لا أفهم غرضك

— إذا حتمت عليه أن يأتي إليك وأن يبقى هو نفسه بعدئذ الشهادة فهل تعد ذلك من جهتك إخلالا بسر المهنة ؟

— طبعا لا . لأن من حق المريض أن يعرف حقيقة حاله، وللطبيب أن يرى إذا كانت هذه الحقيقة تفيد أو تضر بصحة هذا العليل الذي له أن يستعمل هذا التصريح الاستعمال الذي يلائمه

— وهل ترى ضررا في إظهار الحقيقة للمصدور؟

— على العكس فهي مفيدة له إذا كان المرض في مبدئه . وبما أنك تشكين في حالة هذا الشاب فيفهم من ذلك أن إصابته ما زالت طفيفة . ولكن فكري مليا في الأمر ؛ إذا طلبت منه أن يستشيرني فمن المحتمل جدا أن يرفض محافظة على كرامته . ثم إذا كانت الآنسة لوز تحبه ...

فقاطعتني بحدة قائلة :

— إذا رفض لهذا السبب فهذا دليل على أنه لا يحبها ، وإذا كان ذلك فيكون طبيبه قد حذره فنصبح نحن على بينة من أمره .

ثم توقفت منعا لابداء أي اعتراض جديد وقالت سنعود إلى بيتنا مساء اليوم . زوجي وأنا . لأننا لم نحضر إلى باريس إلا لهذا السبب ، وغدا سأكلم لوسيان وسأنبئك ببرقية، وإذا قبل فسيكون عندك بعد الغد ... ولكنه سيقبل ...

ودعتُ السيدة لور وعدت إلى مكتبي وأنا أسائل نفسي : « هل يقبل؟» ومع ذلك فإن موقعة

فرحان كانت فى الوقت الذى كانت تستعمل فيه غازات البثور فلم تتعد الاصابات الرئوية ٨ ٪. أما فى سنتى ١٩١٥ و ١٩١٦ فى عهد غاز الكلور فقد بلغت ٢١ ٪ إذن فالأمل كبير فى ألا يكون ثمة ما يخشاه هذا الشاب من النتائج الوخيمة . إلا إذا كان للوراثة تأثير ! . . ولكن عزة نفسه تأبى عليه أن يقبل ولو كان سليما . . . بل خصوصا إذا كان سليما لأنه يعرف ولاشك مايخشون عليهمنه فى المستقبل ، وإرغامه على استشارة طبيب لا يعرفه اتهام له بأنه لم يستشر طبيبه الخاص قبل أن يتقدم بطلب الزواج ، وهذا يعد غشا صريحا من جهته . لا ! إنه لن يقبل وإن أتحمل مسؤولية ادخال الحزن على قلب لويز الظريفة . إن نظرات هذه الطفلة وطول تفرسها لدليلان على عمق مشاعرها ورقة عاطفتها . وربما أنها تحب لوسيان هذا . . .

وتمثلت الشابة الصغيرة فى مخيلتى وأنا أردد هذه الأفكار فى خاطرى كأنها ما زالت أمامى فى بهو المستشفى حيث كنت أعجب بها كثيرا وأنا أشاهد نشاطها ورزانتها وهى تنحنى على سرير أحد مرضاى لتضميد جراحه . إن حركات وسكنات الممرضة أثناء تأدية هـذه الأعمال التى تمجها النفس أحيانا ولكن تتطلب دائما الكثير من الدقة والعناية تكون دلائل واضحة للطبيب الذى يرتبط تفكيره بهذه الأيدى النسائية التى تتكشف له منها طبيعتها الحقيقة كاملة

ستروت أننى لم أخطىء عند ما عددت هذه البنية فى عـداد بعض النفوس النادرة التى تستولى عليها العاطفة وتأسرها وإذا ما وهبت نفسها وهبتها إلى الأبد وبدون رجعى [١]

ستدركون بعد أن رأيتم انشغال فكرى بها إلى هذا الحد مقدار حيرتى واضطرابى عندما تسلمت فى اليوم التالى برقية من أمها ها كم نصها :

« لوسيان قد قبـل . سيكون عندك غداً . شكراً جزيلاً »

وقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة دخل إلى مكتبى خاطب لويز . ستعلمون مبلغ دهشى بعد الذى حدثتكم عن ميلى وإعجابى بهذه البنية الظريفة الرقيقة الاحساس عندما وقع نظرى على الذى تحبه لدرجة التدله كما أخبرتنى والدتها إذ لم ألمح فيه أى صفة أو سيماء تبرر أو تفسر مثل هـذه العاطفة الجامحة . فوجهه المستدير الضخم الذى يبسم لكل شىء يدل على أنه ولد طيب ، ولكن عادى بشكل ظاهر . وقد لاحظت أنه متهيب ويخفى ما به من الاضطراب تحت ستار من المرح الذى كان طبيعياً فيه ولاشك . كنت أقرأ اضطرابه مسطراً وراء جفنيه، ثم تبادر إلى ذهنى أن شجاعته التى يدل عليها الشريط المثبت فى عروته هى التى سحرت خطيبته المقبلة . وبمجرد النظر إليه يترجح أنه لا يخشى عليه من التدرن الرئوى . ثم إن الفحص الذى شرعت فيه ، وأنا أقل ما أكون رغبة فى العثور على دليل يثير ريبتى أثبت لى أن نظرتى الأولى كانت صادقة فوقعت بامضائى على شهادة الصحة التامة التى حتم والد لويز عليه إحضارها . وقلت أخاطب نفسى بينما كنت أرافقه مودعاً وأنا أوشك أن أغضب من كثرة ما أبدى لي من الشكر : « وهـذه أيضاً إحدى نتائج الحرب المحزنة . الاندفاع الوهمى الذى يساور الناس فى الشبان الذين خاضوا غمارها ، ثم إذا عادوا إلى الحيـاة العامة كانوا أناساً أقل من

(١) الرجعى والرجعة والرجوع والرجيم من رجع يرجع

العاديين ، وكثيراً من الأحيان متوحشين تظن الفتاة الخياليـة أنها ستتزوج فارساً كريماً وإذا بفارسها هذا على خشن كما يظهر لى هذا الشاب . ما أعظم الصـدمة عندما تتكشف الحقيقة الوز الصغيرة إلا إذا كنت قد أخطأت فى حقيقة نفسيتها وكانت فى الحياة العامة غيرها فى المستشفى كما يدل عليه هذا الاختيار أكبر دلالة

ولـكن لا ! فان نظرتى كرئيس عيادة لم تخدعنى وقد ألقت إحدى الصدف التى تحدث يومياً للطبيب بالدليل القاطع . وبهذه المناسبة ما هى الصدفة ؟ هى وقوع ظروف وحوادث لم يكن فى الامكان التنبؤ بحدوثها . وبالفعل أى طبيب يمكنه أن يتنبأ بأن المريض الفلاني الذى لم يكن له به سابق معرفة سيستدعيه، وأن دعوته هذه ستكون سبباً فى وقوع حوادث غير منتظرة ، إذ لم تمض فترة كبيرة على عيادتى لضحية غازات فردان حتى كنت قد استلمت برقية من السيدة لور تخبرنى فيها بمزيد السرور بخطبة الشابين . ثم تلا البرقية كتاب يطفح غبطة وحبوراً تبدي لى فيه أسفها لأن الزواج الذى سيتم قريباً جداً بناء على إلحاح ابنتها كما قالت لم يحدد له يوم يلائمنى ، وإلا كانت رجتنى فى أن أكون أحد الشهود ، وإنها تعلم أن كثرة أشغالي لاتتحمل بضعة أيام أتغيبها عن مرضاى وعن مستشفاى . وكانت تسكن على بعد عشر ساعات بالسكة الحديدية من باريس. وها كم المصادفةالتي كنت أكلمكم عنها

دعانى بعد بضعة أيام زميلان لى من تلك الجهة للتشاور فى قصر قريب من مدينتها، فحددت أقرب يوم سبت للمشاورة المطلوبة رغبة منى فى زيارة مرضتى السابقتين فى يوم الأحد لأستطيع العودة إلى أداء واجبي فى المستشفى فى يوم الاثنين بعد تمضية الليل مسافراً فى القطار فقد اعتدت بحكم المهنة النوم فى أى ظرف وجدت فيـه . وكنت أشعر برغبة شديدة تحفزنى إلى رؤية مقر أعمالى أثناء الحرب . ولـما كنت دائماً ميالا كما يقول ستاندهول إلى «معرفة كنه الشيء على حقيقته» فقد كنت تواقاً إلى معرفة صـلة لورز بخطيبها الذى لم أكن أراه جديراً بها ، واشتدت بى الرغبة حتى أننى بدل أن أنام فى القصر حيث أراد أصحابه أن يحجزونى طلبت أن يقودونى بالسيارة بعد الاستشارة مباشرة إلى مدينة مرضتى الظريفة النشيطة التى كانت تمد نفسها للارتباط إلى الأبد بهذا الرجل الخشن الذى أثار كراهيتى إلى هذه الدرجة فوصلت فى الساعة السادسة ومن المنزل اتصلت تليفونياً بالسيدة لور فى الحال ولحسن الحظ وجدتها فقالت لى :

— كيف لم تنبئنى بحضورك ياسيدى الطبيب؟ إن عملك هذا سيء بل سيء جداً ولـكننى أسامحك إذا أتيت فى الساعة الثامنة لتناول العشاء مع الخطيبين وبعض الأصدقاء ؛ ولا بأس من حضورك بملابس السفر طبعاً ، غير أننى أرجوك أن تبكر قليلا عن الوعد لأن ابنتى تشعر بانحطاط وأظن أن كثرة العمل قد أنهكتها ولذا أرغب فى أن أعرف رأيك. فقلت لنفسى : « أبدأت النائمة تنقشع عن بصرها؟ ومع ذلك فما زال أمامها متسع من الوقت » وثار فضولى وتنبهت غريزة التطلع فىّ عند ما أدخلنى الخادم فى غرفة الاستقبال التى كنت أعرفها من قبل كل المعرفة إذ كثر ما جئت وقتذاك لزيارة مرضتى الفضلتين كلـما سمح لى الوقت بين عيادة وأخرى . وقوة الملاحظة التى يمتاز بها الطبيب

شديدة جداً عندي ؛ فني بعض الدقائق التي مكثت فيها وحدي لاحظت وجود مسند تصوير عليه صورة بالفحم لم أكن أعرفها . والصورة جانبية لفتى تبدو عليه بشكل غريب سيماء النباهة وعزة النفس؛ وكنت أعرف أن لويز بعض الالمام بأصول الرسم، وقد دلني توقيعها تحت الصورة على أنها من صنعها فوقفت مشدوهاً من إتقانها ودقتها مع أن البرهان كان أمامي . ثم قطع عليّ تأملي صوت السيدة لور إذ دخلت وكانت ابنتها بالطبع معها وقالت لي هذه الكلمات التي لم أفقه معناها والذي فهمته بعد قليل وربما كان الاستفهام عنها ذا عواقب وخيمة « ألا تشبهه تماماً ؟ مع أنها لم تصنعها إلا في ثلاث جلسات ؟ ... ولكن ما بك يا ابنتي ! ... »

وكانت لويز قد وقعت فجأة على أحد المقاعد وهي متهالكة وقد غاض الدم من وجهها وكأنها فقدت وعيها بينما كانت أمها تواصل حديثها دون أن تترك لي الوقت لكي أجيبها على سؤالها عن التشابه إذ كان يفهم منه أنني أعرف النموذج الذي نقلت عنه هذه الصورة

— لقد شاهدت بنفسك مقدار ضعف أعصابها والدوار يعتريها باستمرار ! ... أرجوك أن تفحص عن دائها كما طلبت منك . ألا تتفضل بالذهاب إلى مخدعها ؟ أتستطيعين المشي يا ابنتي ؟ فأجبتها وأنا أساعد ابنتها على الوقوف . طبعاً يا سيدتي ، استندي عليّ يا آنسة ، وأنت يا سيدتي هدئي روعك فلا خوف عليها

وقد دلني تقبض يد لويز على معصمي وارتعاش ذراعها على ما بها من اضطراب أخذ يهدأ شيئاً فشيئاً مذ خرجنا من القاعة . ثم دخلنا مخدعها فاقنعتها بالرقاد على السرير . ولما ملت عليها لكي أثبت رأسها على الوسادة قالت لي هامسة : « أخرج أمي . أخرجها بأي شكل » وبدا عليها الانزعاج والرعب حتى أنني أطعتها طبقاً للمبدأ القديم الذي يقرر عدم التصادم مع العصبيين . فالتفت إلى والدتها قائلا : « أكرر لك يا سيدتي أن لا خوف عليها . سترتاح الآنسة قليلا بينما أوجه إليها بعض الأسئلة وأظن أنني أستطيع أن أؤكد لك أنني سأعود إليك بها بعد نصف ساعة وهي على أحسن حال مستعدة لتناول الطعام كأن لم يكن هذا الحادث الذي أثارته حرارة الجو ولا شك — فقد كنا في شهر يونيو — فقالت السيدة لور :

— أنا ذاهبة إذن لأصدر بعض الأوامر ...

ومع ذلك فها هو ذا الدم قد أخذ يتصاعد إلى وجنتيها . ثم قبلتها وقالت وهي تدللها : أجيبي بدقة على أسئلة الطبيب أيتها البنت الخبيثة ... ثم فكري فيما يصيب لوسيان المسكين لو رآك في الحال التي كنت عليها ! وأنت يا سيدي الطبيب أرجو المعذرة من مثل هذه المقابلة؛ وإذا احتجت إلى فدق الجرس فأعود سريعاً

وما كادت تقفل الباب حتى قامت لويز وقالت لي : « لا داعي لتوجيه الأسئلة إلي يا سيدي الطبيب فليس بي من مرض وإنما صعقت عند ما رأيتك تنظر إلى تلك الصورة التي وضعتها أمي هناك خصيصاً لك لكي تهنئني . إنها صورة خطيبي الحقيقي لا الذي جاءك في باريس ... » وعند ما رأت عجبي قالت : « آه . لا يمكنك أن تفهم ... إنني أنا الذي أردت أن يطلب لوسيان من أحد أصدقائه — وهو زميل أنقذ لوسيان حياته في فردان فأصبح يخلص له إخلاصاً أخوياً — أن يلعب هذا الدور فيذهب

إليك بدله متسمياً باسمه الحصول على الشهادة التي ما كنت تقبل أن تعطيها له هو الذي يعرف نفسه معرضاً إدانات الصدر فيمتنع زواجنا وكان لا بد لي أن أتزوجه » . ثم عادت فقالت وهي تشد على معصمي بقسوة وحشية هذه المرة : « لا بد لي » . ثم بصوت متحشرج : « إنني حليلته وأنا حامل » ثم وضعت كفيها على وجهها وأخذت تنتحب وتنشج وهي تواصل اعترافها المحزن :

— عرفت من أمي في الساعة السادسة أنك جئت إلى هنا وأنك ستأتي هذا المساء لتناول العشاء. لم يكن ثمة مناص من وقوع المأساة وانكشاف الحقيقة فطرد لوسيان من بيتنا عند ما تقول : « ولكن ليس هذا الذي جاءني في باريس . . . » فماذا كان يحدث لي أنا المدلهة بحبه ! . . خرجت معتذرة بعذر ما وجريت إلى الفندق الذي نزلت فيه والذي عرفت عنوانه من أمي ... ولكنك لم تكن هناك فعدت إلى هنا ولكن بعد أن كانت قد وضعت الصورة في الغرفة . ولحسن الحظ أنها كانت طلبت منك أن تبدر قليلا عن الوعد لأن صحتي أهمتها. وكانت كثرة الاضطرابات النفسية قد أتعبتني فوطنت النفس على أن أصارحك وأن تعرف كل شيء إذ ماذا كان يحدث لو أجبت على سؤال والدتي : « تشبه؟ ولكنني لا أعرف الأصل ... » أكرر لك القول هناك كانت المساة بل الكارثة . ولكنني لحسن الحظ شعرت بالألم قبل أن تتكلم . . . والآن هل ستتكلم ؟ .. فقلت لها وقد تملكني الفزع من هول ما سمعت « ولكن واجبي يا آنسة ! .. إنك تطلبين مني شهادة زور وشهادة زور تتعلق بمهنتي » .

كانت قد انتهت من البكاء فخدجتني ببصرها وقالت لي بعزم أشعرني بأنها لن تنثني عما قررته

— ليس الوقت وقت مناقشة وقد أوشكت أمي أن تعود فخبرها في الحال إذا كنت انتويت إخبارها فتكون قد رحمتني لأن هذا الشك يقتلني ، ولكن تيقن من أنني عندما أخرج من هذه الغرفة سأذهب لأنتحر ولك الخيار الآن فيما تقرر ...

وجلست إلى منضدة الزينة وأخذت تصفف شعرها بهدوء أمام المرآة كأن الحديث الذي تبادلناه كان حديثاً عادياً . وكنت أرى وجهها الجميل وقد هدأ الآن كما يحدث في الأزمات الداخلية إذ تتركز الثورة في قرار ينقذ النفس منها فترتاح إليه مهما يكن الشر المنطوي عليه . ماذا يجب علي إذاً أن أصنع ؟ وما هو واجبي ؟ وهل تهديدها بالانتحار صادق ؟ ولكن وجه الفتاة الثابت أزال كل أثر للشك من مخيلتي ، فاذا تكلمت انتحرت ، ولكن لو سكت عن واجبي لكنت شريكا في هذا الخداع ولكي يقبل خطيب هذه الفتاة التعسة الموافقة على إحلال آخر محله في مسألة الشهادة يجب أن يكون إما ضعيف الارادة إذا كانت الفكرة فكرتها أو سافلاً إذا كان هو الذي فكر في هذا الخداع. المقوت . وثمة إغواؤها وحملها منه ! هل يجب أن أشترك في هذه المخازي بكذبي على أمها التي ستكون هنا بعد بضع دقائق . هذه الأم ذات النفس العالية والاخلاص وكرم الأخلاق ! هذه الخلال التي كثيراً ما برهنت عليها في المستشفى ؟ هاهي ذي تقترب فعلاً . إذ تنبهت حواسي كما يحدث للانسان في الأحوال العصبية الشديدة ، فسمعت وقع خطواتها .

في الغرفة المجاورة كما سمعته لويز أيضاً . فالتفتت واتجهت نحو الباب ونظرت إلى مرة أخرى وهي ملازمة الصمت ، فتبين لي أنها ستقف هناك مستعدة للخروج إذا دلتها كالتي الأولى على أنني لا أوافقها. فهل كانت تخبئ سلاحاً أو قارورة سم أم كانت تفكر في إلقاء نفسها من نافذة غرفة مجاورة ؟ لم يبق ثمة مجال للتردد بعد أن تيقنت أن وقوع المصيبة — التي لا يمكن تلافيها لو وقعت — متعلق بي . فإن الكلام معناه قتل هذه الطفلة المسكينة التي باحت إليّ بسرها المشؤوم ووضعت مصيرها بين يدي . وفجأة اتخذت قراراً كما يحدث كثيراً لأحد الجراحين أثناء إحدى العمليات الصعبة إذ تطرأ له فكرة فيتخذ قراراً حاسماً ، قلت لنفسي : « ماذا تخشى الأم أن يحتاز ابنتها مصدور فتحمل منه ؟ إنها لم تستطع منع هذه النكبة فما الفائدة من إخبارها إلا وقوعها في نكبة أعظم ! إذن فواجبي كطبيب يعرف ما عرفته وما يمكن حصوله بل ما لا بد حاصل — هو السكوت

وبينما والدتها تدخل المخدع فاجأتها قبل أن توجه إلى أي سؤال بقولي : « اطمئني ياسيدتي . ليس بالآنسة شيء سوى بعض الإعياء وهو طبيعي في الأحوال الراهنة . فهناك التعب في إعداد معدات الزواج . وليس لدى ما أصفه لها بل أنصحها فقط ألا ترهق نفسها »

لم أكن مزهواً طبعاً وأنا أنطق كالتي هذه التي جعلتني أس هذا التواطؤ الذي اشمأزت منه نفسي في مبدأ الأمر . وبدل أن تلطف نظرات الفتاة التي كانت تعبر عن الشكر من حدتي أهاجتني كأنها كانت سبة موجهة إليّ . وبعد دخول والدتها وسكوتي عدنا إلى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث كان يجلس والد لويز وخطيبها الذي عرفته من مشابهته للرسم . فلم يظهر على الاندهاش عند ما تقدم لمصافحتي وهو مضطرب مما يدل على الخجل الذي كان يساوره والذي كان يجب أن أقدره له، ولكني لم أر في موقفه إلا دليلا على الرياء والخداع . إن هذا العشاء الذي جمع الأسرة وبعض الأصدقاء كان طويلا ومؤلما بالنسبة لي، فان مرح لويز الذي كنت أظنه مصطنعا كان يثير اشمئزازي كلما قهقهت ضاحكة، وكان السرور البادي على باقي الأضياف يؤلمني أشد الألم، وكان شعوري أمام هؤلاء الناس السليمي النية بأنني حامي الرياء يضاعف وخز ضميري . ولم أتخلص مما انتابني إلا بعد انتهاء العشاء إذ بادرت بالهرب مدعيا التعب بسبب السفر وواعدا بالعودة في اليوم التالي للفطور بينما صممت على مغادرة المدينة في نفس الليلة بقطار الساعة الحادية عشرة على أن أتخلص من وعدي تليفونيا عند وصولي إلى الفندق بدعوى ورود برقية تدعوني إلى العودة سريعا إلى باريس . وهذه كذبة أخرى ولكنكم تدركون طبعا أنني اغتفرتها لنفسي. أما الكذبة الأولى فكم كانت تؤلمني وأنا عائد مضطرب الخاطر مثقل بالهموم

قلت لكم عندما بدأت هذه القصة إنها أثارت ألمي وحزني إلى أقصى حد ، وإنها كانت في نفس الوقت عزائي في مهنتي . وها كم تفسير هذا التناقض فقد عدت إلى باريس بعد تلك الليلة المشؤومة مثقلا بالهم الذي اشتدت وطأته عندما وصلتني الدعوة الرسمية إلى هذا الزواج الذي لعبت فيه بواسطة سكوتي دوراً يتنافى مع نزاهتي وصراحتي . فكم ندمت وقتئذ على سكوتي بل بلغت درجة الندم أنني برغم أبسط قواعد الأدب لم أرسل رداً ولو برقياً على هذه الدعوة . تصوروا مقدار تأثري بعد يومين

من الحفلة التي كنت أعلم ما انطوت عليه من الغش عندما رأيت لويز نفسها تدخل مكتب العيادة وتجلس على نفس المقعد الذي جلست عليه أمها منذ ستة أسابيع . نعم رأيت لويز نفسها مشرقة الوجه تهتز طرباً فقالت لي عندما رأت صمتي ووجومي — فهل كنت أستطيع أن أرى في هذه الزيارة إلا منتهى القحة؟

— نعم ! هذي أنا يا سيدي الطبيب . أنا التي كنت أرغب في طلب غفرانك . لقد أدركت تماماً مقدار ألمك أثناء ذلك العشاء فأقسمت أمام نفسي لآتينك لأشرح لك الأمر في باريس . وهذا ما دعاني للحضور . ثم إنني لا أحتمل أن تظن في زوجي أنه لم يرع الشرف وجعل مني خليلته قبل الزواج . إن هذا عين الخطأ لأنه ما انفك يحترم تلك التي ستحمل اسمه . أما هناك فقد كذبت عليك ، وإنني أتوسل إليك أن تسامحني من أجل هذه الكذبة لأنه كان يجب عليّ أن أمنعك بكل طريقة من إخبار والدي بإرسال بديل من لوسيان بعد أن عانيت ما عانيت في إقناعه ، لأنني أنا التي فكرت في هذه الطريقة للحصول على الشهادة التي فرضاها عليه . فلما جئت إلى هناك ، وجعلت تنظر إلى الصورة ودخلت أنا ووالدتي جننت فزعاً فوضعت نفسي أمامك بالنار ونطقت بكلمة الانتحار لأرغمك على السكوت . هل كنت أنتحر لو تكلمت ؟ لا أظن ! لأنني أحب لوسيان إلى أقصى حد ، بل كنت أهرب من البيت وأرتمي بين ذراعيه طالبة منه أن يأخذني ضاربة صفحاً عن الزواج الديني . ولكنني مضطجعة ففعلت أخيراً ما فعلت . لك أن تدينني كما تشاء ، ولكن لوسيان يجب أن يسترد اعتباره لديك لأنني عندما رويت له ذلك الفصل المروع أراد أن يكتب لك ، ولكنني رجوته في أن يدع لي أنا الاعتراف لك بالحقيقة . إنني أشعر بالحاجة إلى أن تحترمه وأن تراه كما هو على حقيقته ، فكم أنبه ضميره وعذبه لأنه أرسل صديقه إليك بديلا منه . أكرر لك القول بأنني أنا التي أردت ذلك ، وإنني كنت أحبه فوق الطاقة

كثيراً ما فكرت في أنه ينبعث من كل فرد منا إشعاع ينتقل منه إلى الآخرين بواسطة الاشارة أو النظر أو الحيا وأن هذا الاشعاع يوجد بين الأشخاص إما تنافراً قوياً وإما توافقاً لا يقاوم . وإلا فكيف نفسر الانقلاب الذي أحدثه هذا السحر الجديد الذي كان لي من الأسباب ما يجعلني أعتقد أنه ينطوي على مكيدة جديدة مستترة بعد أن عرفت عن لويز أنها أهل لحبك مكرها ، ولا أظن أن أي كلمة مهما قست لا تصح أن تكون نعتاً للطريقة التي استعملتها هي وحبيبها للحصول على شهادة الصلاحية للزواج المزورة . ألم تتهم هي بذاتها نفسها بأنها مثلت أمامي دور الحبلى ودور المنتحرة اللذين أخجلاني في هذا الغش الذي ما زال ضميري ويخزني بسببه كل يوم ، ولكنني عندما كنت أشاهدها وأستمع إلى كلامها وأرى تأثرها وحماستها تنمحي كل تلك الأسباب فجأة وتعود لويز في نظري تلك المرضة الصغيرة التي كانت في المستشفى والتي كنت أقدر فيها إخلاصها على صغر سنها . ولعل شيئاً من العطف الذي امتزج بتقديري لها هو الذي جعل إفضاءها لي بغلطتها الأولى أشد وقعاً وأكثر إيلاماً كما جعلني أشعر بالعزاء لدفاعها عن براءتها .

وعلى كل حال فقد رأيتني أجيبها :

— ليس ثمة ما يدعو إلى طلب الصفح يا سيدتي ..

فقاطعتني قائلة :

— كنت في المستشفى تدعوني لويز

فقلت لها إنني أقدرك الآن يا لويز كما كنت أقدرك هناك . لقد جزت دقيقة عصيبة جداً عندما سألتني أمك عن الصورة ولكن يجب

أن تطلبي الصفح منها . فقالت :

— لا وجه لذلك إذا أنقذت زوجي لأنها كانت تريد ألا أتزوج مريضاً وكنت أنا موقنة من أنني سأخلصه . نعم إنه مريض ولكن بقدر يسير وما دعاني إلى الالتجاء إلى الطبيب الذي طالما رأيته يصنع العجائب عند ما كنت ملحقة بخدمته إلا لكي يمنح زوجي العزيز ويشفيه لي

لقد قبلت وبمساعدتها القيمة أمكنني أن أرى هذا العليل الذي ما كنت أوافق على زواجه ألبتة لو كان هو أتى بنفسه لأخص عن دائه كما طلبت منه والدة لويز المدلهة . حقا لم يمس المرض رئته إلا مسا رفيقا، وهو الآن وبعد مضي ست سنوات وبفضل عنايتها هي على الأخص قد أصبح بمنجاة من كل خطر . وقد أنجبا ثلاثة أولاد هم مضرب المثل في القوة والصحة ، وقدولدأولهم بعد الزواج بعشرة أشهروهذا دليل آخرعلى أنها اتهمت نفسها . ترون من هذه القصة أن فائدة شهادة الصلاحية للزواج ليست أكيدة كما يبدو لأول وهلة ، ولو أنها كانت مفروضة فعلالما وجدت هذه الأسرة السعيدة . هذا ولكم أن تستخلصوا من هذه المأساة التي اشتركت فيها النتيجة التي تحلو لكم، أما أنا فقد خرجت منها بهذه الحقيقة المؤثرة برغم بساطتها،وهي أن المرأةالتي تحب حبا حقيقيا لا تثنيها عن عزمها صعوبة ما؛ فأطهر النساء تقدم على إتيان أحط الأمور أوأنبلها لتحقيق غرضها ، وإنه لمن عجائب الطبيعة وجودقلب كقلب لويز الذي يصنع العجائب وأمامكم هذا الزواج وهذا الشفاء أكبر دليلين على ذلك .

عبد الله الرباشي

يد الهندي

للكاتب الأمريكي : لورنس استودارد
بقلم السيد محمد الغزاوى

هب الرجال إلى أعمالهم متدافعين عليها متواثبين؛ وبعد أمد قصير كنت ترى عرباتهم وبغالهم تختفى خلف الهضاب القائمة بأقصى الأفق ، وكنت تراهم يبدون من آن لآخر ، حين تسمح لهم بذلك فروج الثاب والهضاب ، فكأنهم زوارق ينشاها موج كالظلل من حين إلى حين ... وكانت صيحاتهم المرحة تخفت رويداً رويداً كلما بعد الركب واختفى فى ضباب البعد بين أدغال وأحراج . . .

ومكث الصبية بالحى والنسوة ، وبقى معهم رجلان من الخوالف قد وهن العظم منهما واشتعل الرأس شيباً . وقد كان الركب بحاجة إليهما ليصحبا الصيادين فى رحلتهم هذه « فأى أذى يلحق بالحى وضح الضحى ما دامت الدبية والنمر بعيدة فى الأدغال؟ وعلى أية حال فسوف يأتى الركب محملا عرباته بصيد سمين مع المساء » . وقال لهن جيم الصياد : « سوف نحمل لكن الدبية على البغال فلا تخشين بأساً ولا توجسن شراً » فتصايح الغلمان ورقصوا طرباً إذ تصور كل نصيبه فى المساء بين يديه ينهشه ويقضمه فى شوق ولهفة ؛ بينا النار تلفحه بوهجها ولظاها ...

وأمسكت أنثى غضوب بعلها ، وصاحت به فى خوف وهلع : «ولكن الهنود الحمر.. » فأضحك ذلك الجمع كله ، وصاحوا : « يا للهنود ... ! كيف ؟! إن أقدامهم لم تطأ هذه البقعة منذ عشرين عاماً ، وكانت عليهم حجراً محجوراً . لقد كسحناهم إلى مكان بعيد خلف ذلك السهل الذى ينبطح تحت أقدامكن واستراحوا إلى تلك البطاح التى تسفح رمالها الهاجرة فتصهر عظامهم وتحرق أقدامهم إذا ما ساروا أياماً يطلبون الماء فلا يكادون يشربون »

فقالت المرأة الغضوب الشاحبة : « ولكنهم مرة عادوا . إنهم لا يحفظون لنا إلاً ولا ذمة » . فصاح زوجها الذى غطت صدره لحية شهباء : « نعم لقد أتوا مرة فأحرقوا لنا كوخين . ضرر صغير ما أحدثه الكلاب » . فضغطت الزوجة على ذراع بعلها لتسكته خيفة : « صه ! » . وصمت الرجال من حولها متظاهرين بربط اللجم وإحكام السروج ولكنهم كانوا يرسلون بصرهم خفية إلى فتاة لبست سواد الحداد ؛ وقفت برهة ثم دخلت بيتها من دونهم . فقال ذو اللحية وهو يلتقط بندقيته :

— حقًا لقد أنسيتُ طفلها ؛ وما أنسانيه إلا الشيطان !

وشدوا الرحال فى طراوة الصبح وغرة الضحى إلى الجبال حيث الصيد والشجر ... وبدأت الظلال المستطيلة تتقلص ما سبحت الشمس فى السماء ...

وعادت الثكلى إلى بابها فوقفت جواره . ولم يحيها أحد فيقرئها سلاماً ، وعادت كل امرأة إلى كوخها ، وبقى الغلمان يلعبون أمام المنازل الأخرى صاخبين ضاحكين ، يثيرون فى لعبهم عثيراً وتراباً ، ما أسعدهم ! إن أمامهم يوم لهو طويلا

ولكن المرأة ذات السواد واقفة ما تزال ،

ساكنة ما تتحرك ، قابضة بيدها على الأخرى ، شاخصة لا تطرف ، مرسلة بصرها — خلال السهل — إلى حيث ضاع طفلها — إلى المكسيك

كان وجهها ناحلاً هزيلاً ، فلاعه حادة نائتة قد لوحته الشمس بحرها فأكسبته سمرة قانية لم تكن له من قبل وقد كان صبوحاً ... لم يكن حيا بوجهها إلا عينيها السوداوين اللامعتين ، فقد كانتا توريان ببريق غريب

وكان كوخها بعيداً عن الأكواخ الأخر ، يقوم على سفح هضبة تواجه الأبطح القفر

إنها سمعت قول ذى اللحية الشهباء : « ضرر صغير ما أحدثه الكلاب » أنسي حينذاك طفلها ؟ وكيف ينساه وقد وقفت تذكرة لمن ينسى ؟

بالقرب من كوخها تقوم صخرة كتب عليها « ذهب ويسلى ، ٦٩ » . لقد احتفرت تلك الحروف يداها فى آخر مكان لعب فيه طفلها العزيز ، وادكرت كيف تركته وانسلت ، حتى لا يبكي ويلح فى استصحابها، تركته دون أن تحتضنه أو تلثمه . يا للأسى ! وهنا ضربت ذات السواد بيديها حيطان كوخها :

— وى ! من لى بتلك القبلة ، وأموت !

ولكنها ذهبت إلى جارتها الشاحبة ولم تكن شاحبة إذ ذاك أو أرملة مثلها ، بل عروساً هانئة ضحكتا ما شاء لها الضحك ، وتحدثتا بما سمح الحديث. وإنها لتذكر أنهما كانتا تتحدثان عن النازلين الجدد فى الحيّ . وكان يوم عطلة فنسمه الرجال فاغتدوا إلى الغاب يقطعون منه الشجر والغصون ليبتنوا أكواخاً لهم ومنازل . وبينا هما تتحدثان فى سرور وجذل إذا بهما تسمعان ما غلتاه نباح كلب يعدو بين الهضاب والنيران ففزعتا إلى النافذة فبصرتا بخيل كثير تسبح فى الهواء سبحاً عند منعطف الطريق . وسمعتا وقع السنابك على الصخر سريعاً مدوياً ، وعلى ظهور الخيل فرسان تلهبها بالسياط والأرجل العارية ، فتنهب الأرض فى سرعة البرق وبطش العاصفة . وهنالك صرخت المرأة الشاحبة وولت الأدبار . لقد كانوا الهنود الحمر، جاءوا ليعيثوا فساداً فى حي البيض

عم الفزع وساد الهرج ، ولكنها أوصدت من دونها الباب واستراحت إلى كوخها المتين ، وكانت تنظر من خصاص الباب فترى الأمهات يجرين على الهضاب جازعات هاربات ، وبأيديهن أطفالهن الصغار

أطفالهن ! ... وأين طفلها العزيز ؟

لقد تحولت إذ ذاك إلى صنم من صخر وفتحت الباب ...

وتجاذبها الهنود بيأس وقوة فنشوا شعرها وضربوها حتى كادت تموت . ولكنها دافعت عن نفسها أحسن مما يدافع عشرة رجال سوياً . وماذا تعمل وقد كان هناك عشرون رجلا وهي وحيدة تحمل بين شرذمة من ذئاب جائعة ... كان الطريق مقفراً فلا شيء يدفع عنها عادية الهنود . وأمسك أحد بنحرها وضغط ، فكادت تموت خنقاً وضربها آخر على وجهها ، وسلك صدرها حتى كادت تلقى حتفها . وجذبها ثالث على جواده — بعد أن أحرق كوخاً — وفر بها مسرعاً إلى قلب الفلاة . كانت يداها مغلولتين ، وعيناها غارقتين فى دموعها الثرة، ولكن لم يكن يعنيها من هذا شيء قدر ما يعنيها طفلها . « ترى الآن أين هو ؟ »

وكان الرصاص — من وراء — يئز فوق رؤوس الهنود أزاً . لاشك أن البيض أتوا يتقنون عيالهم وجماهم . وفي الحق أنهم كانوا يعدون فوق الهضاب كأن بهم مساً أو جنوناً ، وفر الجنود عائدين كيلا تكون كرة خاسرة ، فروا بكوخها وهناك كان الغلام — حيث تركته أمه — جازعاً مذعوراً . فلما أن قاربته لوحت له بيديها المتلاوتين صائحة : « يا أحق ! يا أحق »

وهنا ضربت ذات السواد جبينها بيديها قائلة : « واحق ! » لم لم تمر به دون أن تلحظه ؟

ولكنها توسلت وتضرعت ، ثم تشاجرت وناضلت لتصل إليه . ولكن الهندي توقف لحظة ليخطف الغلام ثم يسير سيرته الأولى

فكرت أثناء الفرارفيما عساهم فاعلين بها وبطفلها فحاولت أن تطلق سراحه فينعم بحريته ، ولكن الهندي كان ما كراً جباراً ...

وكان البيض يجدون في العدو وراء الزنوج ، وفي ضرب الرصاص . وكان الجواد الذي كان يركبه الهندي — ممسكاً بها وبطفلها — يحمحم من شدة ما يعاني ، ويجاهد في العدو لاهثاً حتى كاد أن يصوم عن النفس . فهو يجر أرجله السابحة في الهواء واهناً يكاد أن يبرك . ورأى الهندي ذلك ففرق بين الصبي وأمه فأسقطها حتى يكفي الجواد حملها . ولكنها قامت وعدت وراءهم غارقة في التراب لا تكاد تعي من الأمر شيئاً . لابد أن يخطفوها هي الأخرى فدعتهم — وهي باكية تعدو خلفهم — أن يأخذوها فما سمعوا لها دعاء . وعثرت ولا مقيل من العثرة .. وصاحت ولكن لا مجيب . كان هذا كل شيء . فقصتها تنتهي هنا ، تنتهي بين التصايح والفرار ، بين وقع السنابك والمغار ، تنتهي بطعم الطين في فمها ، وثار الثكل في حنايا الضلوع .. وألقوها على الرمال غائبة الوعي . ولما أن ثاب إليها الرشد وذهب عنها الروع ، ورعتها جيرانها الكثر ، سعت إلى كوخها الذي تقف الآن ببابه سامدة لا تنطق ولا تبين ، مقتمة رأسها لاتلتفت يميناً ولا يساراً ، مرسلة بصرها خلال الرمال إلى حيث راح « غمرسها » إلى المكسيك ...

وتعاقبت السنون وهي لا تزال وحيدة في كوخها الذي كان يجب أن يعيش به « اسانم ». إنها الآن ترى غباراً يقوم بأقصى الأفق . تراه هنا وهناك — تذروه الرياح — من بين الهضاب يقترب دائماً ويعظم أبداً ، ولكنه كان هادئاً شفاً لا يمكن أن يحمل بين ثناياه أحداً حتى الهنود !

إن الغلام الذي تعرف قدمات ، ولكن القتلة أحياء بين أهلهم ينعمون . لو كان أحدهم بيديها الآن ... لأرته كيف يكون الثأر إذن ، وكيف يكون القصاص !

وطفقت ذات السواد تصور ماهي فاعلة به إذ هو بين يديها أسير ضعيف . لتريته الموت والفزع الأكبر ولتوسمنه عذاباً ونكالاً . ومن أقدر على ذلك من ثاكل موتور ؟! ورامقت النار في المصطلي تستوثق من لهيبها ولظاها ؛ إذ زادتها كتل الخشب توهجاً ولهيباً . وألقت فيها حطاماً وحطباً ، أتت به من الجبل بشق النفس . ولكن النار لم تزدد سعيراً ، بل لم تكف لأن تشيع الدفء فيها ، فجثت أمام المصطلي ، وبصرت بالحديد يحمر قليلا قليلا . وتوهج اسم المصنع الذي صنع الموقد . وكانت الحروف كلها بارزة إلا المقطع الأخير من كلمة « مؤتمر Congress »

ولمت تلك الحروف والأرقام « S. S. 64 » بالمـا من حروف ! فقـد ادكرت كيف تركته أمام الموقد يوماً فأعجبه وهج الحروف والأرقام فقبض عليها فى براءة وسذاجة ، فهى منقوشة على يده منذ الصغر ، وإنها لتستطيع أن تعرفه من بين الملايين بتلك الآية البينة !

ولـكنه مات ، وبقى الزوج !

ووثبت ذات السواد فقد دارت بخلدها فكرة : « لم لا تذهب إليهم تتوسمه من بينهم . فربما ألفته بين ظهرانيهم . لا عائق اليوم يمنعها . فهى بعد أن ترتوى من الأماكن النزة فى السهل لا يهمها من أمرها شىء

إنّ الرجال فى حالم لاهون ، والنساء فى أكواخهن عاملات . فلن يبصر بها أحد فيمنعها عن المضى إلى حيث شاءت وشاء لها الجوى !

وتأملت ذات السواد ثم قامت فانحدرت على السفح فولجت الأحراج فهى فى المرج تسعى . وكان الجو لا يزال لطيفاً طرياً ... ولا بد للصحراء من أخرى حتى تصل إلى المكسيك . إذن فسوف تجتازها بصبر وجلد . فجدت فى السير حتى أخذ الغفار يخنقها ويؤذيها . ولـكنها سارت على الرمل قدُماً لا تلوى على أحد . كانت تجـد فى السير حتى إذا ما تعبت نظرت خلفها إلى كوخهـا القائم فى أقصى المدى ، ثم إلى نافذة الـكوخ المجاور حيث تجلس المرأة الشاحبة

علا التراب حتى غرقت فيه فآلمها وأسخطها، ولـكنها مازالت تسير وتوسع الخطى . ولـكن انخلع كعب حذائها فعوّقها عن متابعة السير وأعياها . فجلست تبكي وتنشج . وفكرت فى العود كيما تلبس حذاءها الآخر ؛ ذلك الذى تلبس أيام الأحد .

وبدت لها الهضاب بعيدة فعدلت عما انتوت ، وسارت إلى المكسيك سريعاً . على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد خارت قواها ، ووهنت أوصالها ، فاستراحت إلى ظل صخرة ، وقد جف حلقها حتى كاد ينحطم ولا ماء بقربها يرويها . فعزمت على أن تعود وتبدأ مع الفجر مرة أخرى ، تكون فيها أشد على البلاء وأقوى ؛ أو تذهب فى الليل حين تسمح لها طراوته بأن تتقدم مسافة لا تستطيع القفول بعدها

وعانت فى الرجوع أهوالاً وشدائد . وأخيراً بلغت التل ، فبرزت لها — من كوخها — الجارة الشاحبة وحيتها ، فلم تجب ذات السواد ، بل دخلت الكوخ وأغلقت من دونها الباب ، ثم تطرحت على السرير ، وجرعت من كأس الـكرى جرعات ، ونامت على نقر الباب وقرع النافذة . ونهضت المرأة الشاحبـة وأرسلت بصرها يجوب السهل ، فبصرت بما بصرت به ذات السواد فى ميعة الضحى : بصرت بذلك الغبار الكثيف يسير قدُماً متكاثفاً متدافعاً ، وأحست رعدة الخوف تسرى بفرعها لما أن رأته يسير نحو الحى ، وقالت فى نفسها : « إنه يهب دائماً ، ولـكن ليس بهذا الشكل المريب » . وأدامت إليـه النظر ، ولـكنها لم تر إلا تراباً ؛ وازدحمت برأسها الأفكار ؛ غير أن فكرة سيطرت عليها : أن تذهب إلى زوجة العمدة فان لديها منظاراً . وسخرت منها السيدة ؛ وظنت أنها مخلوق جبان

ولم تقدر المرأة الشاحبة على أن ترفعه بيديها فقد علتها رعدة وزاد شحوبها . وتناولته امرأة العمدة — وكانت ما تزال ضاحكة نشوى — ونظرت خلاله فما لبثت أن علا وجهها قترة وغيض لونها :

— إني أرى على البعد رأساً ...

فصرخت المرأة الشاحبة :

— إنهم منا الآن على أميال . فلا يزال لدينا وقت وفير

— له ؟

— لنهرب ...

— ربما كانوا أصدقاء وادعين ...

— كلا، إنهم الزنوج...! فالبيض مايستطيعون في تلك الفلاة حيـاة ... لنهرب في الغاب ... ! النجدة... ! ساعديني ... ! حذري النسوة واجمي الأطفال، هيا ... !

واندفعت لبيتها ، بينما كانت الأخرى واقفة تصيخ السمع الرهيف ، وتعرض ما ترى ... حقًّا لقد أوجس قلبها خيفة ... وقد صدق الفؤاد ما رأى ، إن هذه إلا غزوة أخرى

وساد المكان هرج وتصايح مكتوم ... كل ينادي طفله وذويه ، وكانت الفتيات يتنقلن من كوخ لآخر خشماً وبكيا ، يحملن ما عز عليهن تركه للبناة الظالمين غنماً . وتجمع النسوة والأطفال خلف كوخ كبير يحجب عنهن العيون الظالمة العادية

وقادت أباها الفتاة الشاحبة . ثم هرعت إلى كوخ صاحبتها ونادت في صوت خافت واضح : « أي ماري ! ماري ! » ، ولكن أحداً لم يجب . فقد كانت ذات السواد تغط في نوم عميق ، وترددت جارتها الشاحبة ... ولكنها أحجمت وأسرعت نحو أخواتها اللائي عدون خلال الشعاب إلى الجبال حيث أزواجهن بصيدهم لاهون

غشي المكان صمت القبور ... التراب لا يزال يزحف عاتياً جباراً ... النساء يلذن من بين الجبال رؤوساً كأنها رؤوس الشياطين ... وذات السواد ما تزال نائمة ، تحلم أن قد حان حين الثأر ، ونعم الأوان ... ! وأنها تحمل بين يديها رأس هندي عتيد ... ...

وداعب الهواء نافذة الكوخ بشدة وجزع .

فقامت ذات السواد وبين ضلوعها حس غريب ، وتحاملت إلى النافذة ، وأطلت منها ، فلم تر شيئاً في السهول ولا في الهضاب. ولم يكن بالطريق شيء إلا شال كبير قد سقط بعرضه . وانحنت صوب النار فبصرت بالفازعات الهاربات يجرين صامتات واجمات، وأبصرت بشعورهن تسبح في الهواء من سرعة العدو . فألقت السمع ، فهال سمعها وقع رتيب غريب

وحينذاك تبسمت: « أبراهيري » ! إنهم الجنود جاؤوا يعبثون بالمحصنات والمتاع . ألا ساء ما يعملون

وجلست على طرف الوسادة مفكرة ... إن هذا ما كانت ترجو وتطلب . أفيكون دورها هذا ؟ أم لا يزال دورهم ؟

إنها تستطيع أن تقتل « واحداً »

ولكن أين سلاحها ؟ ... لقد استعار الرجال بندقيتها ...

فأين الآن فأسها ؟ ... إنها في الطابق الأول إن الأرض لتمور موراً ، والخيل يكسح بعضها — في الحي — بعضاً كأنها قطع الليل ، وتصايح الجنود ينبجس في الطريق أمامها

هبطت الدرج سريعة ، وأخذت فأسها من مكانها بالحائط ، وكانوا قد بلغوا كوخها ، فأضاءت الحجرة قليلاً . وقفلت عاقدة العزم على أن تقتل منهم أحداً . ورأت بالباب « أحدهم » يحجب عنها الشمس بظهره العريض . فعضت على نواجذها

وأخفت فأسها ثم طفقت تراقبه دون أن تطرف

وامتدت يداه نحوها كالمخالب ، وبرقت عيناه كأنهما تورية الزناد . ثم تقدم صوبها فتملكها رعب وفزع . فصرخت صرخة خافتة ثم تخطته فقفزت إلى الدرج وأسرعت الخطو . وبينا هي تصعد رمت غريمها بمقعد كان أمامها كي يعوقه ذاك عن اللحاق بها ، ثم ارتقت سلماً آخر إلى «صفة» بأعلى البناء دخلتها ، فأوصدتها ؛ فارتمت على بابها ، ثم طفقت تنتظر ، وساد السكون إلا في الخارج، حيث تسمع صيحات بعيدة . وجثت على الأرض تخبرها بسمعها. إنها تسمع ترديد النفس في صدر كبير ... وتلفتت حولها فاذا بها ترى عيناً مبصرة تحدق فيها من شق بالأرض، ولكنها ظلت واقفة قابضة على السلاح

ولت الباب ظهرها . ولكنها « أحست » بأن هناك شيئاً، فاستدارت فرأت يداً — ذراعها تحت السقف — تبحث عن قفل الباب لتفتحه

ورفعت المرأة فأسها فوق رأسها ... ولمست الأنامل قفل الباب وفتحته في هدوء ...

وحينئذ هوت الفأس — بكل ما وهبه الثأر من بأس وقوة — على رسغ يد الهندي فقفزت إليها اليد ... وسقط الرجل موجعاً

وساد السكون مرة أخرى ...

وبلل دم الجريح وجهها فأدفأه ...

وسمعت في الخارج تحطيم كوخ يحترق ... فقصف الرصاص من بعيد ... فصيحات تتالب البعد السحيق . وسارت إلى نافذة الصفة . فرأت منزل العمدة يحترق ... والهنود يتراجعون تاركين جواداً واحداً يرعى. « انها » تعرف صاحبه ! إنه « أحدهم » جاء قسامح فكان من المدحضين . وبينا الهنود يسرعون في الفرار إذبهم يقفون على أثر صيحة علت من باب كوخها . وبرز إليهم هندي وسيم يحمل ذراعاً رسغها يدي . فدعاهم بلغته للأخذ بثأره . فأسرعوا مهطعين إلى الداعي فدلهم على مكان المرأة «الثكلى» فأرسلت عيناها الحمر، وودت أن تقتله . وأدلت رأسها من النافذة مهددة بقبضتيها : « أحد الهنود على الأقل ! » ورمتهم بالفأس ولكنها أخطأتهم . فأطلقوا عليها الرصاص مراراً، ولم يصبها ...

والآن قرب الرجال ، فلما أن وجدهم الجريح مسرعين إليه نكص على عقبيه ؛ وأسرع فامتطى الجواد . وجمح يريد اللحاق بإخوته ... وضحكت المرأة إذ يمر بكوخها . ثم جلست على الأرض أمامها قدر كبير من دم مسفوح

وعاد الرجال وما لبثوا أن تفرقوا لدى الهضاب : فتبع الهنود فريق في الأبطح وفريق الحريق ... وعلا الصياح وعمت الضوضاء في الحي والفوضى . وزاد الصياح لما أن عادت النسوة والغلمان من مكامنهم. كل ذلك وهي جالسة وحدها حتى سمعت هتافاً باسمها . لقد اجتمع الجمع بكوخها ، وقالت المرأة الشاحبة «أين ماري» فأسرعت تهبط الدرج إليهم..

وأسرعت نحوها الشاحبة ، ولكنها صدفت عنها ، وأزاحتها من طريقها . ومسحت وجهها بكم ردائها وقالت :

— هل أدركتموهم فقتلتموهم ؟ أما قتلتم منهم أحداً ؟

فقالت صاحبتها « كلا ياماري ! لم نقتل أحداً» وأجاب ذو اللحية «لا ضير أصابنا هذه المرة» . فقالت امرأة العمدة « إلا كوخي فقد أكلته النار ، ولسوف نبتني كوخاً آخر » فصاحت ذات السواد :

— أنا لا أعنيكم أنتم ، ولكني أعني أولئك المردة الهنود ، هل قتلتم منهم أحداً ؟ هل قتلتم أحداً

يا جيم ؟ وأنت يا ذا اللحية ! أما قتلت أحداً ؟

فأجاب الرجال : « كلا ! » وقال آخر : « لقد كانت جيادهم أسرع من جيادنا فلم نلحق بهم » .

فقالت المرأة فى زهد وكبرياء : « لقد ظفرت بواحد لم أقتله ، ولكنى فعلت به أشد مما يفعل القتل ... مهلا ! » ثم اندفعت إلى الدرج ، فتراجعت النسوة مذعورات والرجال يرمق بعضهم بعضاً

وأخيراً عادت ذات السواد ، وفى يدها شىء رمته على النضد . « إنها كف أحد الجنود ... سوف تفسد ذراعه ، فيدعونه يموت على الرمال . أرأيتم كيف عذابى وعقابى !؟ » وفزع النسوة واقترب الرجال ، ولكنهم لم يلمسوا الكف البتراء فصاحت بهم ذات السواد :

— أفكنتم تتخذون كلامى هزواً ؟ أفرأيتم كيف تجبنون وتخشون لمسها ؟ !

وأمسكت باليد — باسمة بسمة نصر وازدراء — وفتحت أصابعها ، فوقعت اليدُ على النضد ، وسقطت على الأرض ، وانتسف وجه المرأة وبدت عليها علائم التفكير ... ثم صرخت المرأة صرخة قوية واستدارت نحو الحائط ، بائسة شقية . . . وحاولت المرأة الشاحبة أن تصل إليها ، ولكن زوجها أمسك بها واقترب من المنضدة قليلا ، ثم أمسك بالكف فى حذر كثير ... وتردد برهة . ولكنه فعل مثل ما فعلت ذات السواد بخفة ومهارة . فتح أصابع الكف ، وهناك على الراحة قرأ تاريخها ، فى حروف بيضاء كبيرة « S. S. 64 » . ثم تذكر الشيخ كيف أتته مارى يوماً تحمل طفلها ! مضمدة يده التى كواها حديد المصطلى الحار ، من عشرين عاماً خلون . كانت اليد إذ ذاك صغيرة ، ولكنها الآن كبرت وتكتلت . وتهامس الجمع : « إنها كف ابنها » ... ودلفوا إلى الباب فى سكون وهدوء ... وأخذت الشاحبة زهرة من عروة ثيابها ووضعتها فى اليد السوداء على المنضدة . ثم خرجت فى أعقاب الرجال والنسوة

لم تقلع ذات السواد عن التحديق فى الحائط ، ولكنها قالت : « دعوا اليد مكانها » فأجابها العجوز : « إنها على المنضدة » ثم خرج وأوصد الباب بلطف وخفة ...

واستدارت الثكلى — وقد انطفأ الآن بريق عينيها — فأمسكت باليد ، وحلت عرى الثوب ، فوضعتها على موضع الفؤاد من الضلوع ، ثم أرسلت بصرها يسبر السهل فى أثر الركب يستقر عليه وهو يشارف الكسيك

السيد محمد العزاوى

نكث الأمومة

أقصوصة مصرية

للأديب نجيب محفوظ

عندما أخذ قطار الصعيد يهدئ من سرعته كان نور الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلة فضية من ضوء الصباح المنير ، وقد فتحت السيدة روحية هانم عينيها مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس ، ولبثت لحظة مستسلمة لتراخي النوم ، ثم اعتدلت في جلستها وأدارت عينيها الزرقاوين الفاتنتين في أنحاء الصالون حتى استقرتا على وجه الأستاذ عاصم الذي كان يغط في نوم عميق . فلاحت فيهما نظرة حب وحنان ، وكان من الضروري إيقاظه لدنو القطار من محطة مصر إلا أنها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرآة الصغيرة الموضوعة بين صورة الكرنك وأجاممنون فتسوى شعر رأسها وتمسح خديها وجيدها بالبودرة المعطرة ... وتنبه النائم على لمس أناملها ذات الأظافر الأهرامية الحمراء ... وكان أول ما مس إحساسه من عالم اليقظة رائحة أنفاسها الزكية وهي تطبع على شفتيه قبلة شهية ... وفتحت النافذة وأطلت منها برأسها الذهبي كأنها شمس تشرق من الأرض ، فرأت بناء المحطة يدنو من بعيد فالتفتت إلى الأستاذ وقالت وهي تتنهد:

« وآسفاه ... انتهت سفرتنا »

فقال لها وهو يتمطى :

« هذه نهاية كل رحلة .. أما الحب فلا نهاية له »

فقالت بصوت جمله الشوق والوجد كلحن من الموسيقى الخافتة :

«أين أسوان أين ؟.. أين خلوة الصحراء تحتوينا معاً ؟ أين جدران المعابد تستر علينا ؟ أين زورق النيل يجرى بنا على سطح الماء؟ أين أنا وأنت لانفترق ونشهد معاً وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى والأصيل ثم المساء ؟ ... واها .. »

فتنهد الشاب تنهدة هادئة لا كتنهدتها الحارة وقال :

« سنعود إلى أسوان في الشتاء القادم . أما من الغد فالى عش غرامنا المعهود في شارع سليمان باشا »

« هيهات أن تعوضنا هذه الساعات التي ننتهبها انتهاباً من ذلك الشهر السعيد الذي كنا فيه جسما واحداً وروحاً واحدة »

وحاول أن يجيبها بمثل حماسها ، ولكن خذلته نفسه الهادئة الملولة فقنع بقوله «صدقت يا عزيزتي» ثم قام إلى النافذة الأخرى ففتحها ، وكان القطار قد بلغ المحطة وأخذ يرسل صفيره المدوى في جوفها المظلم ، فأرسلا بناظريهما إلى إفريز الاستقبال ، وكان مزدحماً بالجمهور . وسمعت الأستاذ يقول :

« ها هم أولاء ... زوجك وحياة ومدحت »

فقلقت عيناها بين الرؤوس المشرئبة حتى اطمأنتا إلى رأس حياة الذهبي ، فرق قلبها حناناً وتحولت عن النافذة وانطلقت تعدو خارجة والأستاذ في أثرها ، وعلى الأفريز هرع إليها مدحت وحياة وهما يصيحان : «ماما» فتعانقوا عناقاً حاراً ، ولما تخلصت منهما رأت زوجها الشيخ وهو في عباءته الفاخرة ، وطربوشه مائل إلى الخلف يبدى عن

شعره الخفيف الأبيض لجمدت عيناها وتقدمت إليه ومدت يدها فسلم عليها واجماً ووضع يده أيضاً فى يد الأستاذ عاصم ... وساروا جميعاً إلى الخارج، الزوج فى المقدمة وخلفه الزوجة بين مدحت وحياة ومن وراء الجميع الأستاذ... واستقلوا السيارة التى انطلقت بهم فى طريق الزمالك ...

وجلس الزوج وزوجه وحياة فى ناحية وجلس فى الناحية المقابلة الأستاذ ومدحت ، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كثب لأول مرة إذ أنها لم تكن تقابله في زياراته المتكررة لوالديها ، فعجب للشبه المظيم الذى بين الأم وابنتها فلم يكن يفارق بينهما إلا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة ، فكانت الفتاة كالياسمينة المبقة فى الغصن ، وأما الأم فكالوردة الناضرة فى الزهرية ...

وظلوا صامتين جميعاً حتى قال الزوج :

— كيف كانت الرحلة ؟ لعل صحتك تحسنت يا هانم ؟

فأحنت المرأة رأسها وتمتمت « الحمد لله » وقال الأستاذ :

— قل أن تغيب الشمس فى أسوان وهى أنجع دواء للهانم ...

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبية صناعية وقال

— يسرنى أن أسمع هذا ، وعسى أن تسرا بدوركا لأنبائنا ، فتهنئا حياة بخطوبتها القريبة

واحمر وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء ، والتمعت عينا الأم وبدا عليها الاهتمام ورددت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة :

— هل تمت هذه الخطوبة ؟

فقال الرجل :

— لا يجوز أن تتم خطوبة فتاة فى غياب أمها ... ولكنها ستتم قريباً بإذن الله

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسماً : « مبروك »

أما الأم فسألت :

— من هو ؟ وأجابها الرجل :

— طلعت، ابن شريكى

وسأل المحامي :

— هل هو موظف ؟ فقال الرجل بزهو :

— نعم ... وكيل نيابة

وأطبقت روحية هانم شفتيها فلم تفه بكلمة أخرى ، واستسلمت لأفكار غامضة فغابت عن الحاضرين ، وانتهت السيارة إلى الفيللا ودخلوا جميعاً ومعهم الأستاذ عاصم

ولكنه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب

* * *

كان السيد محمد بك طلبة من كبار تجار الشاى المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدر بمئات الألوف من الجنيهات؛ وكان في أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين فى حسن التدبير وعلو الهمة والحرص ؛ وبالرغم مما تحفل به حياته من التجارب والمخاطرات، وبالرغم مما صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح ، فانه ما يزال يعد زواجه أخطر حادث في حياته ، وهذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرح به ؛ وقد وقع هذا الحادث الخطير منذ عشرين عاماً — وهو فى الخامسة والأربعين — إذ كان يقوم بإحدى رحلاته التجارية بسوريا ، وقد التقى هناك بأسرة زوجه

وتعرف إلى والديها ، وكان الأب سوريًّا والأم أمريكية . ورأى ابنتهما الشابة الفاتنة ساعة فوقع في حبها وجن بها جنوناً وتحركت في أعماقه غريزته التجارية غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها ولم يستدر ذلك الشهر حتى تم زواجه منها ، وعاد إلى مصر « بأعظم ربح وأجمل امرأة في الوجود » كما قال لنفسه حينذاك ...

وبدأت الحياة الزوجيـة بنجاح لا بأس به ، وأثمرت على مر الأيام طفلين جميلين مدحت وحياة . فبشر مقدمهما الأسرة بدوام السعادة والعشرة ... ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنه أخذ يجتاز الحلقة السابعة ، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياة ، ويكتفي من الحب بتذكر أحلامه المنطوية ... وأما المرأة فألفت نفسها في مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب فلم تحمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام ، إذ كان شبابها عنيداً جباراً دائب الثورة على الزمن ... فتصدع ائتلاف الزوجين ، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هذه الحيوية الثائرة فانكمشت أمام سيلها العارم وخلت لها المنحدر وانزوت مطعونة باليأس مذعنة بالتسليم

واتفق أن كان الأستاذ عاصم المحامي — صديق الزوج وجاره — السبب المباشر في انفجار هذه الثورة الحيوية المنيفة ، وقد تحيرت (صالونات) الزمالك في تحديد علاقته بروحية هانم ، فمن قائلة إن هذا المحامي الجميل ليس إلا صديقاً للأسرة ، ومن هامسة بأنه عشيق الزوجة ومتغفل الزوج ، ومن مؤكدة أنه عشيق الزوجة على علم وتسليم أو — على الأقل — تغاض من الزوج . وظل كل فريق على رأيه حتى ذاع خبر تلك الرحلة الشتوية إلى أسوان التي قيل في تعليلها إن الأطباء نصحوا للهانم بانتجاع الصحة في مصر العليا، وأن الزوج — الذي تمنعه أعماله في مثل هذا الوقت من السفر — عهد بالزوجة إلى صديقه المخلص المحامي الذي يسافر عادة في يناير كل عام إلى أسوان ... هنالك قطع الشك باليقين واتفقت الآراء ...

وكانت روحية هانم لا تهتم بشيء اهتمامها بشبابها ، فكانت لا تني عن العناية به والتفكير فيه حتى غدا ذلك وسواساً ومرضاً ينغصان حياتها بالمخاوف والأوهام ، وكانت كلما تقدم بها العمر يوماً تزايدت وساوسها واشتدت مخاوفها ، ذلك أنها كانت تحس في أعماقها ببلوغ قمة الشباب التي لا يعقبها إلا الانحدار ، وكانت تعلم أن شبابها هو سعادتها لأنها بدونه لا تستطيع أن تجذب إليها الرجل الذي تحبه والذي تعلم — مع الألم الشديد — أنها تكبره بما لا يقل عن عشرة أعوام ...

ولطالما تذكر ما قالت مرة امرأة — تعلن لها الود وتكتم العداوة — في مجلس لأخرى وهي تعنيها بالذات من أن النساء اللاتي يحافظن على شبابهن بعد فوات عهده يهرمن مرة واحدة بلا تدرج ... واها ... كم سخرت من رأي هذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد التي تحمله لها ، ولكن لاسخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة أفادا شيئاً في مغالبـة الذعر الذي استولى عليها والرجفة التي استحوذت على أعصابها ... فغدت كالمجنونة يخفق قلبها جزعاً وإشفاقاً كلما طرقت أذنيها دقات الساعة

وجعلها ذلك في حيرة بين حبها لمدحت وحياة وبين الخوف منهما ، فهما بلا شك لذة الأمومة التي تخفق في صدرها ولكنهما آيتان على كذب شبابها ،

أما حياة فقد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تخطو إلى النضوج بخطي سريعة تدل عليها معاني العينين ونهوض الثديين ، وأما مدحت فتعذيبه لها أشد إذ أن هذا الشاب ـ الذي لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نمواً خطيراً فهو فارع الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين ، والأدهى من هـذا كله غرامه بشاربه ومطاوعة الشارب له ، فالشاب يحب الرجولة ويستزيد منها حب أمه للشباب واستزادتها منه ... وقد كانت حريصة على استصحابه كلما خرجت حتى قالت لها مرة امرأة من صاحباتها : « ما أحرى الذي يراكما بأن يقول ما أسعدهما من زوجين ! » ولم تدر ما إذا كانت المرأة تثني على شبابها أو تغمزه وعلى كل حال لم تستصحب فتاها بعد ذلك أبداً ...

على أنه لاح في أفقها الآن ما يستخف بجميع همومها السابقة ، إذ ما مدحت وما شاربه إلى زواج حياة المنتظر ؟ !

لقد بغتها الخبر ، وكانت البغتة من الشدة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبر ولا للتفكير ولا حتى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها إذ هما بالسيارة ... فلما ذهبوا إلى الفيلا خلت إلى نفسها بحجرتها مستقرة بتعب السفر ، وفي عزلتها عاودت التفكير في هدوء وإمعان فتوالت عليها الفروض والتصورات ، فهي لا تشك في أنه لولا الحياء لغنت حياة فرحاً وسروراً ، وأي فتاة لا تفرح للزواج ؟ وخاصة إذا كان الشاب في عنفوان شبابه وجيهاً في بحبوحة من الغنى والجاه سيداً في وظيفة تتيه على جميع الوظائف فلعلها باتت تغرد في قلبهـا أطيار الحب وتحلق في جوها الطاهر أحلامه العذبة ، فهي جدسعيدة بحاضرها جد آملة في مستقبلها ، ولا شك أنها تنتظر الآن أن تستعيد أمها راحتها من وعثاء السفر وأن تذهب إليها لتطبع على خدها الوردي قبلة التهنئة فتعلن بها رضاها وموافقتها فتتم الخطوبة وتكلل السعادة

ولكنها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسي أماً فتسمع عن قريب من يناديها بقوله : « جدتي » جدتي ! » لقد نطقت بهذه الكلمة الشنعاء فدوت في أذنيها دوي التصويت والنواح فارتج لها جسمها البض وخفق لهولها قلبها العاشق ... وأحست ببرودة الخوف تسري في أعصابها سريان الجفاف في الغصن الرطيب ... وخيل إليها الوهم أنها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام وكأنها تسمعه بأذنيها يهتف بها : « يا جدتي » ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغضن جبينها وغارت عيناها ورق خدها وابيض شعرها ... فانتفضت واقفة وكتمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها ، وهزت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة ، حتى إذا عاودها اطمئنانها صاحت « أبداً ... أبداً ... لن يكون هذا » ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها في نفس ابنتها المعززة ، حتى ثقل الأمر على البك فاستأذن عليها ودخل ، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحادتين وهو يرجو أن تفاتحه بالحديث ، ولما لم يدع له إصرارها أملا قال :

— أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك

وأغضبها قوله ، وظنت أنه يتهكم عليها فنظرت إليه نظرة حمراء ، ولما شاهدت عينيه الحادتين وقر في نفسها أنه هو الذي سعى إلى هذه الخطوبة ، وأنه سعى إليها تأديباً لها وانتقاماً منها فهو أعرف الناس بها وأعرفهم — على وجه الخصوص — بما يسرها .

وبما يسوؤها ، واشتد بها — عند ذلك — الغضب فعضت على شفتها السفلى وأهملت الرد عليه ، فقال كالدهش :

— مالك ؟ لست كعادتك ... والأعجب من هذا أنك لم تفرحي لما بشرتك به !

فاهتاجها الغيظ وقالت محنقة غاضبة :

— لن تتم هذه الخطوبة ...

فبدا على وجه البك الانزعاج وقال :

— ماذا تقولين يا هانم ؟

وأجابته بصوت صارم :

— أقول إنه لن تتم هذه الخطوبة ...

— كيف ؟ ... ولم ؟ ...

— إن (حياة) ما زالت صغيرة السن

— ولكنها بلغت سن الزواج القانونية

— ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج البكر يؤذي صحتها ؟

— لقد تزوجت يا هانم في مثل سنها ومع هذا فإن كل من يراك يشهد لك بالصحة والنضارة ...

فضربت الأرض بقدمها وقالت محنقة مغيظة

— أنا دائماً أشكو من أعصابي ...

فضيق عينيه ورفع حاجبيه وقال بتهكم :

— ربما كان ذلك لعلة غير الزواج ...

فغلبها الغضب واشتد بها الانفعال وقالت بصوت متهدج :

— باختصار لن تتم هذه الخطوبة ...

ولكن الزوج صر على أسنانه الصناعية وقال :

— لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملكتك حريتك الكاملة وقلت لك منذ عامين « أنت وشأنك » ... ولكني لم أتنازل عن حقوق كوالد ولا أفكر في التنازل عنها ، وإني لأشفق من أن تضيع على ابنتي مثل هذه الفرصة الذهبية ، ولذا فإني أعلنك — وإني أعني ما أقول — بأني سأعقد هذه الخطوبة ...

فقامت غاضبة وأشارت إليه بيد مرتجفة وصاحت :

— وأنا أؤكد لك بأنها لن تتم ...

فهز الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول « سنرى » .

وصبرت الهانم حتى عاودها شيء من هدوئها ثم دعت إليها ابنتها ، وحدثتها حديثاً طويلاً عن حبها لها وحدبها عليها وتوخيها ما ينفعها وإشفاقها مما يضرها ، ثم خلصت إلى مادعتها — في الحقيقة — من أجله فأعلنتها بأنها لا توافق على زواجها وأنها ترغب في تأجيله بضع سنين خوفاً على صحتها ، ورجتها رجاء حاراً أن ترفض يد ذلك الشاب وألا تذعن لإرادة والدها ...

وصمتت الفتاة صمتاً بليغاً ، ولاذت به من الرفض أو القبول ، وعبثاً حاولت المرأة أن تخرجها عن صمتها ولكنها فهمت منه ، ومما طالعت في وجهها من الحزن والاستياء ما أشفق بها على اليأس والقنوط ...

ولبثت الفتاة في حضرتها ما لبثت ثم غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها عن غير التحيتين ... تحية اللقاء التي نطقت بها في مسرة وفرح ، وتحية الوداع التي قالتها في صوت خافت بارد ... وجن جنون الأم وازدادت تشبثاً وعناداً ، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدي . فلما جاء الشاب الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد واضطر البك إلى انتحال الأعذار الكاذبة لها ،

وبذل الرجل ما في وسعه لاقناعها بالتحول عن عنادها وتوسل إليها باسم ابنتها ، ولكنها ركبت رأسها وأبت أن تصغي إليه حتى انفجر مرجل الرجل وأقدم على الافضاء بالحقيقة إلى شريكه — والد الخطيبة — وشكا إليه قسوة امرأته التي تضحي بسعادة ابنتها في سبيل شبابها الكاذب ... وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج ـ رغم إرادة الأم ـ إنقاذاً للفتاة من أنانية أمها المتوحشة ...

وذاعت هذه الكلمة التي قيلت سراً في جميع الأوساط الراقية ، وتحدثت بها (الصالونات) حتى بلغت أذني الأستاذ عاصم المحامي الذي بلغها بدوره إلى روحية هانم نفسها ولكن لم يكن هذا — ولا ما أصبح بيديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور إلا ليزيدها عناداً وإصراراً ... ووجدت المرأة أن كل ما قيل وذاع لم يغن فتيلاً في عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج ، وكانت ترى في نجاح مساعيهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت — في قنوطها — إلى فكرة جهنمية شريرة لا تخطر على قلب أم أبداً ، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب ، فقصدت يوماً إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج ، وقد دهش الرجل وحق له أن يدهش وقال لها ...

« وما أنا ولهذا ؟ ... ثم إنه لم تسبق لي معرفة وثيقة بالآنسة حياة فلا أدري والحالة هذه كيف يجوز لي أن أحادثها فيما هو من صميم شئونها الخاصة ؟ ... »

ولكن المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت :

« حقيقة أنك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنها تعلم أنك صديق والديها ، وقد سمعت في بعض المجالس ثناء كبيراً على نبوغك في المحاماة فهي لاشك تقدر رأيك حق قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية ... »

فتورد وجه الشاب وذكر وجه الفتاة الجميل الذي سعد برؤيته ساعة في السيارة صباح العودة من أسوان، فلم يستطع أن يرفض ولكنه قال متسائلا:

« فكيف لي بمقابلتها على انفراد لأحادثها في هذا الشأن الخطير؟ وإذا قابلتها فكيف أفاتحها به؟»

فتنهدت المرأة ارتياحاً وقالت :

لقد دبرت كل شيء ، سأستصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات ، وعليك أن تقابلنا — مصادفة طبعاً — في شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساء ، وتقترح علينا التنزه قليلاً على جسر قصر النيل فأتركها معك واعدة بأن ألحق بكما بعد دقائق ، وتنتظرانني ساعة على الأكثر فإن لم أعد تأت بها إلى شيكوريل حيث تجدانني ، وفي أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامي وتفضي إليها برأيك في الزواج المبكر ... ما رأيك الآن ؟ »

وقبل الشاب بسرور خفي، فتركته المرأة وذهبت إلى الفيلا على عجل ، وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلماً وكتبت ما يلي بيد مضطربة وبخط جهدت أن تخرج به عن مألوف خطها :

سيدي الأستاذ ...

أنت شارع في الزواج من كريمة محمد بك طلبة ولكن ينبغي قبل ذلك أن تذهب بنفسك كل

يوم إلى جسر قصر النيـل الساعة الخامسة مساء وخصوصاً أيام الآحاد »

ثم كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيـه ، وترددت لحظة رهيبة ثم نادت خادماً وأمرته بوضع الخطاب فى صندوق البريد ...

وجاء يوم الأحد وخرجت الأم وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ ، وتم لها ما أرادت من تركها معـه ، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت إليهما قائلة :

« أوه ... لقد تأخرت عليكما لأن المحل مزدحم كما تريان . لابأس ، أظن أنه ينبغى أن نذهب الآن. نستودعك الله يا أستاذ ... »

وفى الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت طويلاً أن تفاتحها الفتاة بالكلام ولـكنها ظلت واجمة كأنها تجهل اللغة التى تتكلمها أمها، واختلست المرأة منها نظرة فرأتها جامدة باردة لا تعير وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت — آسفة حزينة — كيف كانت فى حضرتها لا تمل الحديث والضحك والمداعبة ، وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على الـكلام :

— كيف كان التنزه...؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة :

— تحدثنا أحاديث عامة تافهة لاتستحق الاعادة

— وما رأيك فيه ؟

— هو جنتلمان

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذى تركه حديث الأستاذ فى نفسها ولـكنها لم تستطع أن تدرك شيئاً ...

ولما خلت إلى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت « إن (حياة) لا تحاول إخفاء نفورها منى »

نفورها ! وما النفور إلى جانب ما صنعت هى ؟ أى فعلة شنعاء ! أى إثم منكر ! إنها تعرف نفسها أكثر مما يعرف الناس ، وهى تعلم أنها سيئة التصرف ، كثيرة الأخطاء متسرعة هوجاء، ولـكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأ منكراً كهذا الخطأ. ومالها تسميه خطأ ؟ ولماذا لا تسميه باسمه الحقيق فتقول إثم وجريمة ؟ فهو جريمة شنعاء لأنه ليس أقل من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها فى سبيل شهواتها هى . يا للفظاعـة ! لو أمكن فقط أن يبقى هذا سراً مكتوماً، ولـكنه لن يبقى كذلك لأنها فى الحقيقة وإن كانت فكرت تفكير شيطان إلا أنها دبرت تدبير أطفال؛ فالرسالة التى كتبت قد تكفل لهافسخ الخطوبة، ولـكن من يضمن لها ألا يتصل خبرها بزوجها ؟ ومن يضمن لها ألا يسأل الرجل ابنته عما جاء فيها ؟ وإذا صارحت الفتاة أباها بأنها هى — أى أمها — التى تركتها مع المحامى ذلك اليوم فما عسى أن يحدس الرجل ؟

أواه ! قد لا تكترث لغضب زوجها ولـكنها على وشك أن تفقد محبة ابنتها إلى الأبد ، بل ابنها وابنتها معاً لأنه لا مدحت ولا أى ابن فى الوجود يستطيع أن يبر بمثل هذه الأمومة المتوحشة ، وأحست عندئذ بقشعريرة تسرى فى جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف ...

ولأول مرة منذ أن سمعت بنبأ خطوبة حياة اتجه تفكيرها نحو الخير فودت لو تستطيع أن تكفر

عن خطيئتها ببذل التضحية التالية وظلت تفكر صادقة مخلصة حتى قطعت عليها تفكيرها الحوادث. فعند أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدى معطفها وتتأهب للخروج فسألتها برقة : «إلى أين؟» وأجابت الفتاة قائلة : « إلى السينما » فسألتها بتعجب « يغفرك ؟ » فأجابتها ببرود قائلة : « مع الأستاذ عاصم »

وأصاب الجواب منها مقتلا فاستولى عليها ذهول شديد وقالت دهشة :

« ولكنك لم تستأذنى أحداً ؟ »

فقالت الفتاة بشيء من الجفاء :

« استأذنت بابا وأذن لى »

« وهل طلب الأستاذ اليك أن تذهبى معه إلى السينما ؟ »

« نعم »

« متى ... وأين ؟ »

« على جسر قصر النيل ذلك اليوم ... »

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت فى مكانها لا ترى شيئاً . ولما أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت ...

وتيقظت غريزتها مرة أخرى ، فطغت على عواطف الخير التى تحركت فى قلبها منذ حين قليل وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اليانع فذهبت تواً إلى زوجها وقالت له غاضبة :

— لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ ؟

فقال الرجل بلهجة تهكمية :

— ولم لا ؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها ؟

فاهتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهى تنظر إلى وجهه نظرة غيظ وكراهية

— إنى أعجب من تصرفك هـذا ، أيجوز أن تأذن لها باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل آخر ؟

فهز الرجل كتفيه وقال

— فسخ الرجل الآخر خطوبته

فخفق قلبها واصفر وجهها وتساءلت : ترى هل علم شيئاً عن الرسالة ؟ واستطرد الرجل قائلا

— عليك تقع تبعـة ذلك يا هانم فرفضك

— وما ذاع عنه — زهد الشاب فى الفتاة

ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع زوجها على الخطاب ؟ ليت ذلك يكون !!

وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها

— وقد أخبرتنى حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة فى قصر النيل فظننت أنك تفضلينه على الشاب الآخر فلما استأذنتنى فى الذهاب معه أذنت لها وقلت لنفسى لا على من هذا، فعاصم شاب جميل ونابغ فى فنه ...

عند ذلك لم تستطع صبراً فولت مدبرة تترنح فى مشيتها كالمصاب فى مقتل ...

وتذكرت المثـل القائل « على الباغى تدور الدوائر » فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما فقدت لتحافظ على حب الرجل وها هى ذى توشك أن تفقد — بمساها هى دون غيرها — الرجل وحبه

ياله من ألم ساخر ! ليتها أبقت على الخطيب الأول أو ليتها تستطيع أن تسترده بأى ثمن

ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة . وعند الصباح

حدثت المحامي بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول دائماً « مساء اليوم في عشنا ... هه » فأجابها بغير ما تعودت أن يجيبها به قال « آسف جداً يا عزيزتي .. أنا مشغول جداً هذه الأيام »

وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيب آمالها ولم يفتها مغزى قوله « هذه الأيام » ولكنها لم ترض بالهزيمة فقالت بسخرية مريرة « ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب إلى السينما ؟ » ماذا يستطيع أن يقول ؟ قال إنه بالأمس فقط كان لديه متسع من الوقت أما الآن فلا ...!

ورأت أنه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول ولِمَ يكلف نفسه ؟ إنما يهتم بانتحال الأعذار من يهمه شخص المعتذر إليه ... وقد غدت عنده شيئاً رخيصاً أو لا شيء مطلقاً . أواه ! أهكذا تتقلب القلوب ؟ أهكذا ينسى الانسان ؟ أمن الممكن أن يضحى حب كحبهما ذكرى وحلماً في لحظة سريعة؟ ألا من تدرج ؟ ألا من رحمة ؟

ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة والأستاذ عاصم وشاهدتهما معاً متنزهات القاهرة وخلواتها وملاهيها حتى توقعت الأم يوماً بعد يوم أن يتقدم الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكنه كان أحزم من أن يرتكب مثل هذه الهفوة لأنه كان خبيراً بأخلاق روحية هانم عليما بطباعها وعنادها وغرامها به فرسم في عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بإرادة لا يثنيه عنها شيء . ولبثت روحية هانم في حيرة من أمرها تعاني أشد الآلام النفسية والقلبية ، وتأسى بكراهية ابنتها لها وتحديها لعواطفها ، وتتمزق إرادتها نهب الأمومة المحتضرة والأهواء العنيفة ، حتى كان مساء لا ينسى إذ دخل عليها زوجها يهز خطاباً في يده ثم يرميه في حجرها وهو يقول بلهجة الغاضب :

« اقرأي وانظري ... أي جرأة ... »

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير وقلقت عيناها بين الأسطر الآتية :

سيدي المبجل

يصلك هذا الكتاب ونحن نستقل القطار الذاهب إلى بور سعيد حيث نبحر إلى أوربا أنا وعروسي — كريمتكم — لقضاء شهر العسل وإني أقر آسفاً بأنه لم تجر العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثال الغريب ، ولكن الظروف الدقيقة التي لا تجهلونها لم تدع لي فرصة للاختيار ، وإني كبير الأمل في أن تقدروا سلوكي تقديراً عادلاً ، ولست أقل أملاً في نيل عفوكم القريب .

ودمتم للمخلص

عاصم عادل

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئاً ولا تعي شيئاً والقنوط يتسرب إلى قلبها كالغاز السام ، ولم تحاول قط أن تقاوم نفسها المنهارة أمام زوجها كأنها نسيت وجوده نسياناً تاماً ، وكان الشيخ يحدجها بنظرة قاسية متشفية ، فلما وجدها تنهدم وتضمحل ولاها ظهره وذهب

ولبثت في غيبوبة الحزن حيناً طويلا ثم رفعت رأسها الثقل فوقع بصرها على صورتها في المرآة فارتاعت وجفلت لأنه خيل إليها أنها ترى جمالها يذوي وينضب وتنتشاه سيما الهرم ...

نجيب محفوظ

المجنونة

للكاتبة الفرنسية ماري بنيري

للسيد صلاح الدين المنجد

كانت تغنى أنشودة أخذتها عن أمها برقة وحنان وترنو إلى السماء الصافية صفاء الأمل الباسم ، وتنظر إلى سفير الأشجار المبعثر على حفافيّ الطريق ... وتصغى إلى الذكرى تهمس فى أذنها حديث الماضى إذ رحل زوجها إلى الجزائر ليرفع فيها العلم الفرنسى الجيل ، ويقهر أبناء الشمس الجبابرة الأشداء

وأغرقت فى صمت عميق ملؤه الغموض والحيرة ثم راحت تناجى نفسها وتقول : « عجبت أشدّ العجب لمن يزعم أن الحياة هى منبع الألم ومصدر الأسى ... ألا ينظرون إلينا كيف نعيش فى رخاء من العيش راضين متبطلين لا يعرف الشجو إلينا سبيلاً ؟ أو لأولئك الذين يحيون حياة تموج بالنعيم وتشرق بالبشر ... لا يفقهون الشقاء أو الحزن معى ... أما لقيت برنارد بعد أن ابتلع اليمُّ أبى ، وماتت أمى حزناً عليه ، فأحببته وأحبنى ، والتقت أحلامه بأحلامى ، وتمنينا على الأمانى ثم زففت إليه ؟

كنت أتمنى أن تكون لى دار إليها آوى ، وزوج أفضى إليه بحديث قلبى ، وطفل أدخل السرور بمرآه لنفسى .. فرزقت الزوج ، وشُيِّدت الدار ، وجاء الطفل وابتسمت لنا الحياة ! ... »

وأرسلت زفرة عميقة وهى تقول : « ساء ما يزعمون »

كانت جورجيت تحس السعادة وتشعر بالغبطة ما ينغص عيشها إلا أن زوجها بعيد عنها ما تراه ولا يراها ... إنها لتذكر ذلك اليوم الذى دخل فيه عليها ، وقال بصوت هادئ حزين : « سأذهب إلى الجزائر يا جورجيت مع رفاق صباى ، لترفع هناك علمنا ، وتمكن الأمر لرئيسنا ... فلا تبك يا عزيزتى ، لقد وُعدت أن أكون قائداً إن أحسنت البلاء ... ثم أعود إليك بعد حين راضى النفس ، مطمئن الخاطر ... لا تبك يا عزيزتى ... لن أمكث هناك إلا قليلاً ... إلى اللقاء ... » ولكن ها هى ذى خمسة أعوام تمر وبرنارد لا يزال بين أبناء الشمس الأقوياء ...

وكانت نفس جورجيت تفيض أملاً بالحياة والرجاء . لقد رزقت الطفل فنشأته بعناية وعطف وربته برأفة وحنان ، ولم تدع اليأس سبيلا إلى قلبها ، ولم تترك الحزن مدخلا إلى نفسها . وكان برنارد يحدثها فى رسائله اللاهبة بالحب ، الطافحة بالشوق ، المملوءة بالقبل ، أحاديث تبعث فيها النشوة والفرح ، فتنتظر بصبر وثبات . كان يحدثها عن الطبيعة الفاتنة التى تستهوى النفس وتسحر الفؤاد ، شأن كل ما فى الشرق ، وعن أولئك الجزائريين الذين عشقتهم الشمس فغمرتهم بفيض من قبلها اللاذعة ، وتركت آثار تلك القبل على الوجوه ... وكان يحدثها عن تلك المساجد ذات المآذن التى تناجى الله ليل نهار ، وتلك المحاريب التى رُصِّعت بالجوهر وازينت بالفسيفساء ، وتلك الصحراء التى غمرها النور فراحت تبسم وتضحك ... وكان يحدثها أيضاً عن التلاع التى رأوها ، والجبال التى صعدوا فيها ، أو يذكر لها ما رآه فى تلمسان القائمة بين غابات الزيتون ، وفى قسطنطين ذات الأبنية العتيقة التى شُيِّدت فى عالم قديم قد ابتلعه العدم

وكانت جورجيت تعشق الشرق وترهبه ... كانت تعشقه لأنه كان مسرحاً لأروع الحوادث وأعظم المغامرات ، لأن فيه تلك الحدائق المسحورة كما يقولون ، وتلك القصور الفاتنة التي تمتزج فيها نغمات الناي بآهات الحب وأقاصيص الحرب . . . ثم لأنه سيكون سبباً في نجاح زوجها وطريقاً إلى مبتغاه . وكانت ترهبه لأن فيه قوماً مغاوير يتلثمون الجن ولا يخافون ... فكان يساور نفسها قلق ملح وشك عميق ، ويستولى عليها من آن لآخر الخوف والذعر، فتتمنى رجوع زوجها ، لتعيش في كنفه ، وتتمتع به ، وتحيا بقربه حياة آمنة ناعمة براحة وسكون ...

***

— يا سيدتي ، ياسيدتي ، لك رسالة من الجزائر

فهبت جورجيت يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة ترقص حولها المنى واندفعت نحو الباب ، ونفسها تطفر من الفرح وتنزو من النشوة ، لأنها ستسمع اليوم حديثاً عذباً ممتعاً ... وجاء ساعي البريد يقدم رسالة ختمت بالشمع الأسود ، فتراجعت وهي تقول:

— ليست لي ... ليس هذا خطه ... إنه خط طفل حديث عهد بالكتابة ...

قالت إحدى صواحبها :

— خذيها يا ابنتي فإنها لك . من يدرى ... ربما أصبح برنارد قائداً ... ربما أنعم عليه بوسام الصليب ... ربما ظهر جنودنا على أولئك الشرقيين وخذلوهم ، خذيها يا ابنتي ... !

— آه ! ليعود إلى ، تلك أمنيتي يا أختاه ...

وأخذت جورجيت الرسالة بيد مرتجفة ، وقلب خافق ، وعادت إلى غرفتها فإذا بوليدها يمتطى حصاناً من الخشب ويقول:

— أماه ! أماه ! ألا تذهبين إلى الجزائر ...

فنشى وجهها العبوس ، ثم مزقت الغلاف فلفة مرتابة وقرأت :

« سيدتي ... ...

أنا لا أعرفك ... بل أعرفك كثيراً ، لأن صديقي برنارد كان يحدثني عنك أحياناً ... أواه ياسيدتي ! إن الحرب لمصيبة كبرى ... إنهم يرسلوننا لتفتح البلاد وتؤدب العصاة ، ويقدموننا للموت . ما أتعسنا ! من يفكر بنا نحن الذين ندفع دماءنا ثمناً للنصر ... من يردد أسماءنا أو يذرف الدمع من أجلنا إن غيبتنا رمال هذه الصحراء الرهيبة ؟ ومن يرسل الآهات إن أطفئت شعلة حياتنا على هذه السرر الخشبية التي شهدت مصرع الألوف قبلنا ... ؟ »

فاستوحش قلب جورجيت ، وانقبض صدرها وقالت :

— لكن .. لكن أنا لا أفهم عنه ما يريد .. وتابعت القراءة

« ما أدري ياسيدتي كيف أكتب إليك .. وما أدرى كيف أخبرك بما وقع لزوجك . . ولكنني أقسمت أمامه لأخبرنك ... إصغ إلى ياسيدتي : في موقعة قامت بيننا وبين هؤلاء الجزائريين ، وقع برنارد جريحاً يترسب في دمه . فضمدت جراحه ، ولكنه بقي متألماً أشد الألم . لا يأكل إلا قليلاً ، ولا ينام إلا لماما ، وكان يفكر بك ويحدثني عنك . فأرسله قائدنا الأعلى ليعيش تحت الخيام ، ويستجم من العناء ولكن وآسفاه ! لقد أصابته الحمى .. الحمى التيفيه التي لا ترحم أحداً هنا . فصبراً ياسيدتي ، عيشي لطفلك الصغير وأفيضي عليه حنانك ورحمتك ، وتعهديه بعطفك ورعايتك فهو خير عزاء لك .. إن برنارد قد مات .

جوزيف م ...

فشدهت جورجيت ، وجحظت عيناها ونادت:

— مات .. ؟ مات .. ؟ كلا من المستحيل ..
أيموت برنارد وهو في نضارة الصبي وبكرة الشباب ؟ أيموت وقد كان قوى الأيمان بالحياة ، عظيم الأمل بالسعادة ؟ .. أنا لا أصدق .. إن هـذا إلا كذب ومين . . !

وراحت تبكي بكاء محزناً تتفطر له القلوب ، ثم نظرت إلى أسفل الصفحة فاذا فيها كلمات مرتعشة عليها علائم قطرات من الدمع . فقرأت :

« عزيزتي جورجيت ! لقد حمّ القضاء .. إنتهى كل شيء ! آه ! لن أراك يا عزيزتي أبداً ، ولن تريني .. أنا أموت ... وداعاً جورجيت ... وداعاً طفلي .. وداعاً .. أيها الأحياء .. ! » برنارد ...

وتفجر الدمع من عينيها .. وراحت تلطم الوجه وتعول ، وتنادي وتصرخ ثم تئن وتقول :

— أوّاه ! أواه .. هاهي ذي النواقيس ترن ، فيملأ الفضاء رنينها ، تعلن أن غداً يوم الأموات !
أوّاه ! إن المقابر ستكون غداً مليئة بالناس ، يحملون طاقات الورد وعناقيد الزهر ، لينثروها فوق القبور ، ويذكروا الأهل والأحباب !
أما برنارد ، فواحسرتاه .. ! إنه ينام هناك .. في الصحراء .. في ظلال النخيل .. وحيداً لا صديق بجانبه ولا حبيب !
أوّاه ! إنه لصعب أن يذهب المرء وحيداً إلى عالم مجهول !
أصحيح أن برنارد قد مات ؟ هه ... أهكذا قُضي علينا نحن ... أن نعيش في الظلمة ... بصمت وسكون ... ما نكاد نتذوق طعم الهناء حتى نرزأ ، أو نعرف معنى السرور حتى نُصاب ؟
لكن ... كيف يموت برنارد .. ؟ كلا إنه لم يمت ... ! أنا أعلم ذلك ... أتخونني الحياة ... ؟ ألا تخاف مني ؟ أنا جورجيت ... ! مات ... هه ... سأحطم كل شيء من أجله . خذوا ... أنظروا أيها السادة ... أناقوية ... خذوا ... وانظروا ... !

وراحت جورجيت ترسل أصواتاً حزينة كخوار الثيران ... وأخذت تطوف بالغرفة تهذي وتصرخ ، ثم عمدت إلى المنضدة فحطمتها ، وإلى الكتب فمزقتها ... وأشعلت النار في الأثاث ... والتف حولها نسوة حاولن أن يهدئن من اضطرابها فما استطعن ، فبكين لبكائها ... ورثين لها . ثم أمسكت طفلهـا ورمت به الأرض فشج رأسه ! وهبطت إلى الشارع تبكي وتضحك وتنادي: الانتقام الانتقام . وهكذا سلب عقلها ، وأصبحت ما يفارقها الجنون إلا ساعة في النهـار أو بعض ساعة ، تقضيها في البكاء أو الصمت ... فاذا ما عاد إليها جنونها قامت تنفث وتضحك ... وتكلم الهواء وتستصرخ المارة وتتوعد بالانتقام .

* * *

ما أدري كيف انتهى بها الطواف إلى الجزائر وما أدري كيف استطاعت ذلك ... وأكبر ظني أن سفينة أوصلها رحمة بها وشفقة عليها . ولقد حدّث من رآها بأنها مذ وطئت أرض الجزائر عوّلت على الانتقام من أهلها . وكانت تروم ما أقفر من الأماكن وأوحش من الجبال ، وتتوغل في الصحراء ، وهي تنوح وتبكي ، أو تسب وتشتم . ولقد حاول نفر من بني جنسها أن يكلموها فما استطاع وأراد إرجاعها فأخفق . رأوها بعد أيام عادية نحو جوف الصحراء وقد تمزق ثوبها وعريت أقدامها ، وانتصب شعر رأسها ، وهي تضحك لمن تراه وتقول : إنه يناديني ألا تسمعون ؟ فارجعت بعد ذلك اليوم وما رأوها أبداً

مسكينة ! لقد غيبتها رمال الصحراء !

صلاح الدين المنجد

الكأس وقطعة النقود

للأديب مصطفى صبحي

هي قصة سمعتها من صديق منذ سنوات ثلاث بقيت في نفسي طول هذه المدة . وقد حاولت أن أكتبها قبل ذلك ، ولكنني كنت دائماً أؤجل كتابتها إلى وقت أكون فيه صافي النفس مرتاح الفكر حتى لا تخرج الفكرة مضطربة ، وحتى أستطيع تحليل كل مواقفها بدقة . وكنت كلما عاودتني ذكرى حوادثها وحاولت أن أمسك القلم ينحدر بي التفكير إلى نواح أخرى من الحياة فاذا أنا تائه في الخيال ، وإذا العواطف تجيش والمشاعر تختلج ، وإذا العقل يزدحم بالأفكار ، وإذا القلم يسقط فأذهب في ملل وصدوف ... ملل من كثرة التفكير ، وصدوف عن الحياة المتشابكة المزدحمة بكل شيء ، بالأفكار وبالأماني وبالمادة التي تتدفق وتسخر من الناس والناس يعبدونها ويطأطئون لها الرؤوس

قال لي صديقي إن القصة حقيقية وأكد لي ذلك . وكنت قد ظننت أنها قصة خيالية اختلقها قصاص ماهر ، ولم تقع حوادثها فعلا في الحياة ، إلا أن وجودها في ذاكرتي كل هذه المدة جعلني أصدق أنها حقيقية وأتصور أنني عرفت أشخاصها واحداً واحداً من مدة طويلة وشهدت كل ما حدث لهم ، وعرفت الأمكنة التي وقعت بها حوادثها حتى ليخيل إليّ أنني أستطيع أن أزور هذه الأمكنة التي أصبحت معبداً للذكرى ووحياً لشعر حي رفيع

هو الحب أيها الأصدقاء الذي سيلعب دوراً كبيراً في قصتي . ولعل أحداً منكم لم يسأم بعد الحديث عن الحب ، إن كان منكم الشباب فان قلوبكم عامرة به ، وإن كان منكم الشيوخ فان القلوب فتية لا تهرم

فاسمعوا ، اسمعوا أيها الأصدقاء ... انظروا إلى ذلك الشاب الذي جلس أمام مكتبه بعد منتصف الليل كما أجلس أنا الآن تماماً . إنه يزيح الكتب المبعثرة أمامه ويفسح ما بينها مكاناً يتسع لورقة ليكتب فيها خطاباً

إنه قد مل هذه الكتب التي أمامه . هذا كتاب في القانون المدني وآخر في القانون الجنائي وهذا في اللغة اللاتينية ، وهذا في الشريعة ، وهذه قصة لأحد الكتاب الكبار المحدثين ، وهذا معجم وهذا ... وهذا ... أشياء لاعد لها ، كلها قد سئم منها ، فانعطف يتلهى بكتابة خطاب إلى ماجدة قال فيه:

— أحقاً أنت سعيدة يا ماجدة بزواجك من الدكتور ؟ لعله عالج جراحاتك التي طالما حدثتني عنها أن مقرها في قلبك أليس كذلك..؟ بربك قولي: لا. قولي إنك لا زلت تذكرينني ، وأنك لا زلت تفكرين في ، وإن هذه التعاسة ما هي إلا من معاكسات الأيام وسوف يكون قلبي لقلبك وروحي لروحك ، ولو أن الأجسام بعيدة

سمعتك تقولين في حيرة وابتسام لم أفهم ماذا يختبئ وراءها : « لم لا يا أحمد ؟ أنا علي واجب ، وما حصل إنما هو فعل القدر ، ويجب أن تكون عاقلا . »

ثم هربت من أمامى مسرعة لا تلوى على شئ . أقد تغيرت بهذه السرعة ؟ كلا . . لا أظن . أنا أعلم أنك توفين الواجب حقه . أنا أفهم الموقف جيدا ، ولكنى لست فى كل الحالات هادئا كما أنا الآن . أنا ياماجدة فى بعض الأحيان أثور وأصخب وأحطم الدنيا بأسرها . أمزق العالم . أنا وحش عند ما أثور لأنى أخفقت فى حبى ، لأن وردة حبى ازهرت لكى يقطفها الآخرون ، لكى يقطفها من ليس له قلب بيد جشمة مرتعشة كلها الأنانية والمادية .

كلا ياماجدة . لاواجب هناك . سأحطم التقاليد . سأحطم هذا الواجب الذى حدثتنى عنه منذ أيام بعد زواجك . سأحطم كل شئ وسوف ترين »

كتب هذه الكلمات الأخيرة بسرعة وبيد مرتعشة عصبية ، وقد هاج شعوره فى هذا الصمت الشامل وكادت دموعه تطفر من عينيه عند مارآى حالته الراهنة . حياة غير مستقرة ، ودراسة متواصلة مضنية ، وإخفاق فى الحب ، وتمرد على الدنيا وعلى التقاليد والحياة والقيود الاجتماعية . ألقى القلم وسرح فكره فى عالم آخر . وفجأة سرت فى السكون نغمة حنون من منزل بعيد فأنصت إليها . إنها تضطرب كأنها شجون الليل يبديها بلا تكتم . إنها تتعالى فتتعالى بالنفس وتسمو بالقلب والعاطفة والحب ، وتعبر عن معان أخرى لا يعبر عنها بالألفاظ ، فهى معان مبهمة إن عبر عنها بالكلام فسدت وقل مالها من روعة وجمال .

خفت الصوت وتلاشى فى الفضاء ، وبقى أحمد ساهما يردد فى ذاكرته النغمة الحنون ، فهدأت نفسه ونظر إلى الورقة التى أمامه وعاد إلى القلم وكتب :

« كثيرا ما رجعت إلى نفسى أحاول أن أوحى إليها أننى أستطيع أن أعيش بدونك وأن أنساك إلى الأبد ، وكم أكون سعيدا لو استطعت ، إلا أننى لا أستطيع ياماجدة أبدا . كما أننى لا أنسى هذه الفترة التعسة من حياتى ، فترة الخيبة والضعف . الضعف إلى درجة أننى لم أستطع أن أغير شيئا وأنا أرى الدكتور عبد الحميد يتقدم طالبا يدك ، فيغرى أباك ، فيقبل هذا أن يبيعك إليه مغترا بمركزه وماله ، ذلك الطبيب المريد الجبان ؛ وأنت لم تستطيعى مطلقا أن تنبسى ببنت شفة ، ولم تستطيعى أن تحركى ساكنا ، فقدموك إليه جسما إلى جسم لا قلبا إلى قلب . »

شعر أحمد بضيق فى تنفسه فسعل سعالا حادا خفت وطأته شيئا فشيئا وظهر على عينيه أثر من الدمع فأخرج منديله ومسح به أجفانه وجبهته . وظل هادئا فترة قصيرة من الزمن . فظهر فى السكون صوت حركة خفيفة أعقبها صوت والدته تقول فى نغمة متعبة وسنى :

« قم يا أحمد إلى فراشك . يكفيك هذا السهر يابنى . قم هداك الله واستبق المذاكرة حتى الصباح فالنهار طويل »

مرت فترة سكون طويلة ولم يرد أحمد بكلمة . وبقى صامتا ينظر إلى حجرة النوم المجاورة ، فعادت أمه تناديه : أحمد . أحمد . . وكان الصوت يتردد فى الردهة فيرجع صداه ويملأ المكان روعة ورهبة . فرد أحمد بصوت ممتلئ فيه رنة الاستياء :

— نامى أنت يا أماه . دعينى أقرأ قليلاً فأنا لا أستطيع القراءة إلا فى الليل . إنى أنام أكثر النهار فنامى أنت واستريحى

— وهل يعجبك أني أظل قلقة هكذا طول الليل ؟ أنا لن أستريح إلا إذا نمت . قم يا بنى أراح الله قلبك

فأطاع أحمد رغبة والدته ورد عليها باستياء : « هأنذا قمت »

وقام وأدار زر الكهرباء فساد ظلام ولم يبق إلا نور ضئيل منبعث من مصباح صغير فى الردهة . وذهب إلى فراشه ونام

ظل يفكر —وهو مضطجع على ظهره— فيما قالته له والدته . وفكر فى حنانها وفى الخشونة التى قابلها بها وندم . وقال فى نفسه : إن حنان هذه الوالدة المسكينة كثيراً ما يسبب له شقاء وقلقاً . فهى لا يهدأ لها بال ما دام سهران ، ولا يمكن أن تنام أو تستقر على حال إذا كان خارج المنزل ، أو إذا تأخر عن ميعاده ساعة . وهو يتألم من ذلك ؛ وكثيراً ما يثور فتهدئ هى من ثورته وترجعه إلى نفسه وتحاول إفهامه ما تعانيه من التعب إذا غاب عنها لحظة قائلة : « يا بنى أنت لا تعرف ما هو قلب الأم » ثم تعقب على ذلك بأمثلة عامية لها موسيقية لذيذة صادرة عن براءة وصدق

تذكر قولها « قم يا بنى أراح الله قلبك » وقال فى نفسه : هل يمكن أن يجاب هذا الدعاء وأنى لقلبه أن يستقر ؟ إنه لا أمل له فى الحياة بعد ذلك ، لقد فقد كل شىء فى هذه الدنيا

***

قضاها ليلة كباقى الليالى كلها أحلام متقطعة لا معنى لها . وقام فى الصباح وكان أول شىء فكر فيه هو حادث زواج ماجدة من الدكتور عبدالحميد ، ماجدة التى تعبده ... ماجدة التى عاهدته على ألا تكون لغيره وأن تخلص له مدى الحياة . وقف بجانب فراشه واتكأ على حافته ووضع يده تحت ذقنه وراح يفكر . ما قيمة الحياة ؟ إن كل هؤلاء الناس ليسوا سوى أشباح قصيرة العمر تروح وتجىء ولا تعرف إلى أين المصير . تحركها العواطف ثم تندثر فى النهاية كأنها ما كانت ، فيستوى الطيب والشرير والجميل والقبيح والمحب والجامد القلب . وما هو الحب ... ؟ ولماذا لا يكون طوع إرادة الانسان إذا أراد كره ، وإذا أراد بدل حبيباً بحبيب ؟ وما هو الوفاء ... ؟ إن كل هذه الألفاظ أصبحت لا معنى لها . ألفاظ جوفاء خاوية لا تحوى وراءها إلا الرياء والكذب والمخاتلة

حاول أحمد أن يطرد هذه الأفكار من رأسه فمشى بكسل إلى مكتبه فوجد الخطاب الذى كتبه بالأمس ملقى عليه كما كان . فتناوله ومزقه ببطء ، وألقاه بدون اكتراث كأنه شيئاً بالياً ، وخرج إلى الردهة وجلس نصف جلسة على منضدة تجثم فى منتصفها وتناول سيجارة وأشعلها وصار يدخن ؛ وكان فكره يجول مع الدخان المتصاعد فوق رأسه وهو ينظر إليه شارداً ، وفجأة سقطت السيجارة من يده على ردائه فأخذها بسرعة دون أن تحرقه وصار ينظر إلى ثوبه ويثبت فيه النظر ثم أشار بيده إشارة استهتار وقال فى نفسه إن هذه القيود التى فى هذه الدنيا ليس لها أى معنى . يجب أن يتحلل منها . يجب أن يصل إلى الحرية والحق والعدل

***

وسبح فكره بعد ذلك فى الماضى البعيد ، ومرت على ذاكرته كل أدوار حياته منذ أن كان طفلا يسكن مع والده فى حى محرم بك فى الأسكندرية

بجوار منزل محمود عاصم بك والد ماجدة — وكان إذ ذاك أحد كبار موظفى مصلحة الجمارك — لقد كانت أياماً سعيدة تلك الأيام التى قضاها فى تلك البقعة المقدسة ... أيام الطفولة المرحة . أين هى ..! لقد ولت كأنها حلم جميل من أحلام الملائكة . أين تلك الأيام الجميلة المرحة حينما كان يلعب هو وماجدة وباقى الأطفال فى حديقة منزل والده ، أو حينما كان يغمض عينيه ويجرى ليبحث عنها بين أركان الحديقة وزواياها ، أو حينما كانا يذهبان معاً لشراء الحلوى من السوق الذى كان خلف محطة الأسكندرية القديمة — تلك الحلوى التى كانت ماجدة تحبها كثيراً لدرجة أنها أحدثت تآكلاً فى أسنانها زادها حلاوة وملاحة وجعل فى كلامها لثغة جميلة محببة ، أو حينما كانا يلقيان أسنانهما القديمة إلى الشمس لكى تنبت بدلها أسنان من الذهب . إنه لا يزال يذكر تلك الأيام السعيدة الجميلة ويذكر ولعه بالعب معها فى أيام الشتاء ، فقد كانا يقفان تحت شجرة من أشجار الحديقة ينصتان إلى زقزقة العصافير وينتظران نزول المطر ، فيجريان حينئذ فى أنحاء الحديقة فى فرحة وابتهاج ويجرى وراءهما البواب العجوز ويحملهما إلى داخل المنزل والمياه تتساقط من شعرهما ووجنتيهما وملابسهما على الأبسطة وهما فرحان بهذه المخاطرة المرحة الجميلة ولما شاهداه من مناظر الشتاء البديعة الساحرة

ذهبت هذه الأيام وكأنها كانت نغمة حلوة هادئة لم يعكر صفوها شىء ، ولكنها الآن أصبحت ذكرى ، إلا أنها ذكرى تثير الأسى وتبعث الآلام . أين أبوه وأين ثروته التى ضاعت ولم يبق منها إلا ما يكفى لسد نفقاته هو ووالدته التى بقيت له فى هذه الدنيا ؟ مات أبوه وكان تاجراً من تجار الثغر ولم يكن هناك أحد يحل محله فى تجارته ، وكان أحمد إذ ذاك فى الرابعة عشرة وكان لا يزال طالباً فلم يستطع أن يقوم مقام أبيه

كان والده يحبه فقد كان أمله الوحيد فى حياته. مات وهو يباركه ويدعو له ، وكانت آخر كلمة قالها وهو على فراش الموت « جعلك الله يابنى سعيداً فى الدنيا والآخرة »

تزاحمت هذه الذكريات فى رأس أحمد وهو متكئ على المنضدة وجعل يقرأ فى سره الفاتحة لأبيه وقال فى نهايتها « يارب ارحمنى وتقبل دعاء أبى واجعلنى من السعداء »

ترى أيستجيب الله هذا الدعاء؟ أجل إنه رحمن رحيم . ولكن كيف يسعد وماجدة الآن أصبحت لغيره؟ أتراها تغيرت عليه بعد أن مات والده فلم تعد تحبه ؟ لقد نقل والدها إلى وظيفة أرقى من وظيفته فى وزارة الداخلية بالقاهرة ، وبعدت ماجدة عنه فترة من الزمن ، إلا أنها كانت تأتى مع والدها لتقضى فصل الصيف فى الأسكندرية ، ولم يلاحظ عليها إذ ذاك أى تغير فى عواطفها

كانت هى عزاءه الجميل . وإن نسى فلن ينسى تلك الأيام التى كان يقضيها معها فى أيام الصيف على شاطئ « جليم » وقد أصبحا شابين اكتمل عقلاهما ونسيا نزق الطفولة ورعونتها . لقد كانت هى كل شىء لديه . امتلأ قلبه بحبها حتى لم يبق به فراغ لأى شىء آخر فى الوجود . وقد آمن بهذا الحب وثبت إيمانه بقلبه فما عاد يصدق أن ذلك الحب سيخبو وتبرد شعلته ، وما كان يصدق أنها ستكون فى يوم من الأيام لأحد غيره

جد واجتهد حتى نال شهادة الدراسة الثانوية ، وسافر هو ووالدته إلى القاهرة واستأجرا منزلها الذى يقطنان به الآن والتحق بكلية الحقوق ، وكانت ماجدة طالبة فى كلية الطب . وكم كان سعيداً لوجوده معها فى بلد واحد ، وكم كانت جميلة هذه الأيام التى قضاها معها في القاهرة لولا ذلك الدكتور الذى ظهر لها فجأة واختطفها منه

لقد كان أبوها رجلا لا يعرف معنى العاطفة ، وكان قاسياً شديداً على ابنته فلم تستطع أن ترفض هذا الزواج أو أن تنطق بكلمة واحدة . وكان أحمد قد ذهب إليه عندما علم بالخطبة وطلب منه يد ماجدة رغم أنه لا يزال طالباً ورغم أنه فقير لا يملك شيئاً ، فرفض طلبه ورده والأسى يكاد يفتك به واليأس يكاد يقتله

هكذا كان القدر ، وما ذا يفعل إذن ؟

عبثاً حاول أحمد أن يوقف تيار هذا التفكير ، فقام وأدار الراديو وكان اليوم يوم جمعة فسمع صوت القارىء يرتل قوله تعالى : (واضرب لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً) وكان صوت القارىء عذباً جميلا وكان يرتل هذه الآيات بإيمان وإخلاص أثرا فى نفس أحمد . فعقب على قول القارىء بصوت ملىء بالخشوع والايمان « صدق الله العظيم » واستمر ينصت إلى آيات القرآن الكريم فوجد فيها عزاء عظيما وذهبت عنه بعض أحزانه وأتى موعد الصلاة فقام وتوضأ وذهب إلى المسجد ليصلى

* * *

وقف الخطيب على المنبر وصار يخطب فى الناس بصوته المتهدج النغمات والناس يسمعون كلماته فى صمت وخضوع . وكان أحمد ينصت إليه بانتباه كأنه متشوق لسماع شىء جديد هو فى حاجة إلى سماعه ، ورن فى أذنه صوت الخطيب وهو يقول : (يا أيها الناس لا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . وإياكم والزنا فانه جرم لو تعلمون عظيم)

وفى هذه اللحظة التى كان أحمد ينصت فيها إلى بقية الخطبة كان الدكتور عبد المجيد جالساً فى منزله على مقعد كبير مكسو بالجلد فى ردهة مفروشة بأثاث هو على بساطته آية فى الأناقة وحسن الترتيب ، فدخلت ماجدة من باب مقابل فنظر إليها طويلا نظرة عطف يداخلها شىء من الشك ولكنه مستور وراء حجاب من المكر

وبادرها بقوله :

— مالك يا ماجدة ؟

— لاشىء

— إياك أن تكونى متكدرة لأننا لم نسافر لقضاء شهر العسل فى بلد بعيد . إذا كان الأمر كذلك فانك جد مخطئة ، فأنا عازم على تقديم مفاجأة مدهشة جداً لك (وضحك ثم مد لها يديه وقال) لك أنت ياحبيبتى يا أعز مخلوق لدى (واقترب منها وهو يقول) كنت عازماً على ألا أبوح لك بهذه المفاجأة ، ولكن ما دمت متكدرة فسأقولها لك الآن (وضمها إلى صدره وقبلها) إننا سنذهب عندما يأتى شهر مايو إلى سويسرا رأساً لنقضى فيها شهر العسل ثم نرجع فى طريقنا إلى فرنسا وإيطاليا واليونان . وربما ذهبنا إلى لبنان حيث نعود بالطائرة فهل أنت مسرورة من هذه الرحلة؟

— أنا لست متكدرة أبداً وحتى إذا كنت

متكدرة فأنا لا أتكدر من شيء مثل هذا ، فأنت لديك أعمالك وليس من الضرورى أن تتركها فى هذا الوقت، فدع هذه الرحلة لفرصة أخرى فالفرص أمامنا كثيرة نسافر فيها إلى أي جهة نشاء . وليس من الضرورى أن نسافر إلى الخارج . وهل رأينا بلادنا حتى نذهب لنتنزه فى الخارج ؟

— هكذا أريدك دائماً . بالله رفهى عن نفسك قليلا ... إضحكي والله

فقبلها بين عينيها وفى وجنتيها بشغف وهو يقول : أنت ملاك يا ماجدة .. أنت ملاك

***

عاد أحمد بعد أداء فريضة الجمعة إلى المنزل وهو لايزال يفكر فى حالته . إنه يكاد يجن ، إنه يطلب من الله فى ضراعة أن يريحه من هـذا العذاب وأن ينتزع من قلبه حب ماجدة فلا يفكر فيها بعد ذلك ولا في زوجها الذى يمقته من كل قلبه ويود لو يسحقه سحقاً

أيذهب إليـه فى عيادته ويرديه قتيـلا على مرأى من مرضاه ؟ أم يذهب إليه فى منزله ويقتله هووماجدة فى ساعة يكونان فيها غارقين فى بحر من السعادة والحب ؟ وأبوها ذلك الرجل القاسى ؟ إنه يحتقره ولا يريد أن يراه ، إنه يود لو يفتك به هو أيضاً .

ولـكن هاهى ذى كلة الخطيب ترن فى أذنه : (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) إذن ماذا يفعل؟ إنه إذا لم يصنع شيئا فهو قاتل نفسه لا محالة دون أن يشعر . إنه ينتحر ببطء.

كيف يستطيع أن يصبر على هـذا الشقاء ؟ وكيف يتحمل هذا بعد هذه السنين التى قضاها هو وماجدة فى هناءة وسعادة ؟ ماذا يفعل إذا هزه الشوق لرؤيتها والتحدث إليها وسماع صوتها العذب ؟ أيتسلل مثل اللصوص إلى منزلها ليظفر منها بابتسامة أو كلمة؟ أم يقتحم منزلها ليـلا ويختطفها ويذهب إلى حيث لا يعلم إلا الله ؟ أى خيال مضحك ذلك الذى يداعب أفكاره وهو مضطجع على فراشه وقت الظهيرة بعد الصلاة ؟ إن هذه الحياة كانت ممكنة فى العصور الوسطى حين كانت الفوضى ضاربة فى الأرض ، وحين كانت قوة الانسان ممثلة فى الفرد ، فهو وحده كان أمة ، وكل الدنيا كانت وطنا له يضرب فيه أين شاء وأنى يشاء . وهو قدير على اجتلاب الرزق فى كل وقت وفى أى مكان .. لقـد أصبحت الأفكار والأخيلة تسخر من عقل أحمد وتجعل منه ألعوبة . والحق أن الصدمة كانت قوية عليـه وهو لا يزال فى سن صغيرة ووراءه أمه السكينة وأمامه مستقبله فـما كان هناك شيء يستطيع أن يتلهى به سوى الخيالات المضحكة والأمانى الكذاب .

***

مرت الأيام متشابهة مملولة ، وكان أحمد يقضى معظم أوقاته فى مقهى مواجه لمنزل الدكتور عبد المجيد. ولمحه الدكتور مرارا وهو يحوم حـول المنزل . والحقيقة أن أحمد لم يقابل ماجدة بعد زواجها إلا مرة واحدة حين وجدها مصادفة خارجة من منزل إحدى صويحباتها .

وقد وجد أحمد فى يوم من الأيام أن الفرصة سانحة لرؤية ماجدة فقادته قدماه بدون تفكير وصعد إلى المنزل ودق الجرس، وكان قلبه يخفق بشدة، وكل عضو من أعضـاء جسمه ينتفض ، وفتحت ماجدة الباب بنفسها فدخل بدون استئذان وأغلق الباب

ووقفت ماجدة أمامه مبهوتة جازعة وقالت :

— أحمد! لماذا أتيت ؟

— لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك يا ماجدة . سأجن

فلكت ماجدة عواطفها وقالت له بلهجة حاسمة :

— أرجو يا أحمد أن تعود من حيث أتيت فليس هذا مكانك

فبدا التأثر على وجهه وقال غاضباً :

— أتطردينني يا ماجدة من منزلك ، ذاك الذى كان يجب أن يكون منزلى ... آه ... إنك غافلة . أنا حضرت الآن لآخذك بالقوة ، وإذا مانعت فسأقتلك وأقتل الدكتور عبد المجيد

فقالت ماجدة منفعلة : أحمد ! أرجو أن تتركنى للأقدار . . وخارت قواها فارتمت على أحد المقاعد وأجهشت بالبكاء وهي تقول : إنى أتعذب يا أحمد ... إنى أتعذب ...

فاقترب منها أحمد وقد أثار هذا المنظر أعمق عاطفة فى نفسه ، وحركت دموعها المنهمرة فى مرارة وأسى كل أشجان قلبه ، ولكنه ملك زمام نفسه وذهب إليها وجلس بجانبها وقال :

— ماجدة ... أتبكين ... لا ، قوى فأنا ذاهب . لن تريني بعد الآن . لقد كنت مجنوناً . أنا كنت أريد أن أراك . كنت أود أن أسمع صوتك . صحيح أنك الآن لست لى

وهم أحمد بالخروج فأمسكت به ماجدة ونظرت إليه نظرة حيرة وتوسل ، فدفع يدها ببطء وقال لها :

— دعيني أذهب ، فلست أنا أحمد القديم . لقد أصبحت تحبين زوجك حتى الجنون . دعيني

فانتفضت ماجدة وكأنما أعادت هذه الكلمات ذكرياتها القديمة ، وقالت له والدموع لا تزال تجول فى عينيها :

— إرحمنى يا أحمد . إرحمنى . ماذا يمكننى أن أفعل ؟ إننى إذا خنت زوجى فلن أسلم من ضميرى وإننى الآن صابرة على حكم القدر . آه يا ربى . ياليتنى كنت مت

فنظر إليها فجأة وقال لها فى ثبات وعزيمة :

— اسمعى ، هيا نهرب

— إلى أين ؟

— إلى حيث يشاء الله

— ووالدتك لمن تتركها ؟ إنها تموت من أجلك . وأبى ماذا يكون موقفه أمام الناس ؟ لا لا يا أحمد كن عاقلا

— إذن سأذهب ولن تريني بعد الآن

فساد اليأس والحزن يرسمان على وجنتيها صورة رائعة من الدموع ثم قالت له :

— تعال يا أحمد ، ولكن لا تدع أحداً يراك

* * *

كانت مخاطرة شائكة تلك التى أقدمت عليها ماجدة ، وقد ظل أحمد يزورها فى منزلها فى غياب زوجها ، وإن هذا اللقاء وإن كان قد أحاطته العفة فى مبدئه إلا أنه قرب الجريمة إلى نفسيهما شيئاً فشيئاً ، فالانسان مهما وبلغت نفسه من القوة والسمو فانه يصل أحياناً إلى درجة من ضعف الارادة يستوى فيها مع الحيوان

إن هذا هو رأيي . ولست أدرى إلى أى درجة وصل إليها أحمد هو وماجدة أثناء تلاقيهما فى بيت الزوجية ؟ إننى أعرف أن أحمد كان شاباً مهذباً ولو أنه كان طائشاً إلى حد ما ، وأن ماجدة كانت فتاة

رقيقة الاحساس ذات ضمير حي وأخلاق عالية

لقد داخل الدكتور عبد المجيد الشك في زوجته ، وظن بها ظن السوء خصوصاً وقد علم ما كان بينها وبين أحمد من علاقة سابقة ، وإلا فما هذا الجمود الذي يلاحظه عليها ؟ وما هذه المعاملة الجافة التي يلقاها منها في بعض الأحيان ولم تمض مدة طويلة على زواجهما ؟

على أنه قد دهش حينما وجد زوجته قد تغيرت فجأة وصارت تتكلف الابتسام وتحاول أن تجعل كل معاملاتها له أكثر رقة ، وأن تكون في كل حالاتها أكثر بشاشة مما كانت قبل . غير أن ذلك كان مما قوى الشك في نفسه فانه شخص مجرب يعرف الابتسامة المزورة من الابتسامة الحقيقية . لقد دبت الغيرة في نفسه وعزم على أمر ...

دخل المنزل متجهماً في مساء أحد الأيام وأخبر زوجته أنه مسافر إلى الاسكندرية لأمر هام وسيرجع إليها في ظهر اليوم التالي ، وخرج مسرعاً وركب سيارة واتجه إلى محطة القاهرة

فجاء أحمد كعادته فقابلته ماجدة بفرحة غير معهودة وأخبرته بأن زوجها سافر وأنه يستطيع أن يجلس معها في جو من الحرية أكثر مما تعود . وما كادت تندمج في هذه الحرية حتى بدت لها صورة زوجها يفتح باب داره ، فارتدت إلى صوابها وتنازعتها أفكارها حتى طوى هذه الأفكار أحمد بحديثه العذب الذي انتهي بأن أغراها بتناول كأس من الخمر معه لكي يضيعا مابهما من وساوس ويذهبا ما يتملكهما من أفكار

وما كادا يبدآن المدة لذلك حتى دخل الدكتور عبد المجيدووقف بجوار الباب وعيناه تقدحان شرراً فقام أحمد ووقف أمامه وجهاً لوجه ، وصرخت ماجدة لما رأت زوجها وجثت باكية تحت قدميه تطلب منه الصفح ، فركلها بقدمه ، وأخذ ينظر إلى وجه غريمه بقسوة ، وجعل يتفرس في وجهه ، وقال وهو يرتعد :

« آه يا سافل ... آه يا جبان ! » وهجم عليه وأمسك بمنقه ، واشتبك الرجلان في عراك عنيف وكان أحمد قوى الجسم فاستطاع أن يفلت من قبضة خصمه ويلقيه على الأرض ووقف ينظر إليه وهو يلهث في غضب واهتياج ، وقام الدكتور وأخرج من جيبه مسدساً وسدده إليه وقال :

— إني سأقتلك يا سافل يا وغد . وحاول أن أن يضغط على الزناد ولكنه كان مغلقاً . وفي هذه اللحظة لمح زوجته ملقاة على الأرض وقد أغمى عليها من هول الموقف ، فقال : « إنها هي التي تستحق القتل » . ثم عاد إلى نفسه وقال : « ولكن هذا فظيع ... إسمع يا هذا ، لقد وهبتكما الحياة . إنك تحبها وهي تحبك ... هذا حسن » فأفاقت ماجدة وقالت بصوت مذبوح : سامحني ياعبد المجيد لقد أخطأت ! فوضع المسدس في جيبه وذهب إلى الباب وأغلقه وأنهض ماجدة وأجلسها إلى المائدة التي أعدتها وأمر أحمد بالجلوس أمامها وسكب الخمر في كأسيهما وقال لهما وهو يضحك ضحكة قاسية :

— إشربا نخب هذه الليلة السوداء

فامتنعا عن الشراب فأخرج مسدسه وصاح بهما بصوت هائل والشرر يتطاير من عينيه :

— إشرب ... إشربي ...

فشربا . فانفرجت أسارير وجهه وصار يشرب هو كذلك كأساً بعد كأس حتى أتى على ما في

الزجاجة ولبث الخمر برأسه فقال لأحمد :

— الآن هات ثمن الليلة وثمن الخمر أيها التلميذ الصغير ...

فنظر إليه نظرة قاسية وقال له : أيها الحيوان !!

فسدد إليه الدكتور مسدسه وهو يقول :

— ثمن الليلة وإلا قتلتك فى الحال

فأخرج أحمد ريالاً كان فى جيبه وألقاه على المنضدة قائلا :

— خذ هذا ثمناً لهذا المشهد التمثيلى الذى قمت به ... فقال له :

— شكراً ... الآن تستطيع أن تخرج ولست أريد أن أرى وجهك بعد هذه المرة ثم دفعه بشدة إلى الباب

ومضت هذه الليلة وكأنه لم يحدث شىء . ولما أصبح الصباح نادى الدكتور عبد المجيد زوجته وأخرج من جيبه قطعة النقود ووضعها تحت الكأس التى شرب منها أحمد وقال لها بصوت خافت : سيبقى هذا الريال هنا إلى الأبد ، وإذا انتقل من مكانه فأنت طالق .

أصيب أحمد بصدمة عصبية قوية ألزمته الفراش . ولما أبلّ من مرضه علم أن ماجدة ماتت . لقد كان الدكتور عبد المجيد يستطيع أن يرحها ويرحه فيقتلهما فى تلك الليلة المشؤومة ، إلا أنه اختار لزوجته موتة أخرى بطيئة ، بواسطة الكأس وقطعة النقود وترك أحمد يعود إلى الحياة ويبنى مستقبله على أنقاض الماضى الحزين .

مصطفى صبحى

حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والخمسون

أتباع السفير يعودون

استبقى السفير محبوباً لحراسة الشركية وأعاد سعيداً معنا إلى طهران . وقد ودعنا لوندرا وولينا وجوهنا شطر طهران ، وكان طريقنا فى العودة غير شائق مثل طريقنا فى المجىء ، وقد تبادلنا مع السفير الكلمات الطيبة التى تقال فى مثل هذا المقام، وصفح كل منا عن الآخر . وعهد بنا إلى ربان الباخرة فأصبحنا فى وصايته وأصبح واجبه أن يسلمنا إلى مندوب فارسى فى الآستانة سواء أ كنا أحيـاء أم جثثاً هامدة

وكان هذا الربان رجلا ملفوح الوجه بالهواجر كأى رجل تركانى محارب، ووجدناه غليظاً متجهماً وكان يقدم لنا كل يوم طعاماً من اللحم والطيور ، ولـكنه لم يقدم لنا شيئاً من الأرز . ومن حسن الحظ أن المقدار الذى جئنا به من فارس لم ينقص كثيراً فأخذنا منه جانباً وتركنا للسفير سائره

وقبل سفر الباخرة رأينا عشرين أو ثلاثين رجلاً فى يد كل منهم ورقة وقلم من الرصاص ، وكلهم يكتبون وصف ما يشاهدونه . وقيل لنا إن هذه مهمتهم اليومية لأنهم مخبرون الصحف

وسأتجاوز عما رأيناه من المتاعب فى السفينة . ولـكنى أقول: إن تلك المتاعب تربو على كل ما قاساه المسلمون من جميع الدنيا من يوم أن نشأ الاسلام إلى اليوم ، فمن عاصفة إلى زوبعة إلى إعصار ، حتى إذا ما استقرت الحال وسارت السفينة فى أمن واطمئنان عادت إلى ما كانت عليه فتتأرجح بنا بين جبال من الأمواج

وأخيراً جاءت الساعة السعيدة التى ظهرت لنا فيها قباب المساجد ومآذنها . وكان المنظر بديعاً فحمدنا الله وصلينا صلاة الشكر . وقد تجسم فى نفوسنا شعور الفرج فهممنا بالنزول إلى الشاطئ والخلاص من السجن والسجان . ولما قابلنا مندوب فارس ألقينا عليه ألف سؤال وسؤال عن فارس وعن أصدقائنا وأقاربنا فيها . وكانت شكوانا مرة من ربان السفينة . وقص عليه محمد بك كل شىء مما رآه مما يخالف الشرع الشريف فى بلاد الفرنجستان . ثم ذهبنا إلى بيت السفير الانكليزى فسلمنا إليه ما معنا من الرسائل المرسلة إليه . وقد وجدنا الانكليز فى الآستانة لا يستقبلوننا بمثل الحفاوة التى يستقبلنا بها الانكليز فى بلادهم ولا بمثـل الدهشة التى كانوا يبدونها نحونا وسبب ذلك واضح وهو أننا كثيرو الشبه بالأتراك وقد ألفونا

ثم استأنفنا السير إلى بلادنا

الفصل الثانى والخمسون

حاجى بابا فى طهران

استأجرنا البغال وأعددنا معدات السفر، وفى مدى أيام قلائل كنا على مقربة من حدودنا وكانت قلوبنا تخفق سروراً، ولم يحدث فى الطريق ما يستحق

الذكر . وكنا نفكر في العادات التي اعتدناها بالغرب وفى عادات بلادنا القديمة فنجد السيء والحسن في كليهما

وفى أثناء الطريق زرنا الباشا فى أرضروم واتضح لنا أنه لم ينسنا ولم ينس السفير . وفى تبريز تمسحنا بأعتاب الحاكم وهو من أمراء الأسرة المالكة ، وقد سألنا أسئلة دلتنا على أنه عاين من قبل كل الذى عايناه فى أثناء الرحلة . ولا يفوتنى أن أذكر أننا قابلنا قبيلة من الأكراد على أثر خروجنا من أرضروم فأصروا على أخذ أمتعتنا عنوة ولكن فرقة من جنود الباشا التركي كانت تتولى حراستنا فقاتلتهم وألجأتهم إلى الفرار .

وأخيراً وصلنا إلى طهران فقابلنا أصدقاؤنا الذين كانوا فى انتظارنا على أحر من الجمر ، وقد عزمت على أن أسلك خطة من الترفع تتفق مع المكانة التى استفدتها ، ومع المعلومات التى تلقيتها فى رحلتى الأخيرة

ذهبت تواً إلى بيت رئيس الوزارة فوجدته قد ذهب إلى بيت الشاه فتبعته إليه وسلمته ما معى من الخطابات ووقفت منتظراً أوامره . وقد تركنى واقفاً أمامه عدة دقائق قبل أن يأذن لى بالجلوس . ووجدت كثيراً من أصحابى فى انتظارى فحيونى وهنأونى وسألونى عن الحالة فى بلاد الانكليز فقال أحدهم إن النساء هناك لا يخجلن . وقال آخر إنهم يعبدون الصليب. مما يدل على الجهل بأحوالهم كما أن الانكليز يجهلون أحوالنا

وفى هذه الأثناء أبلغ رئيس الوزارة الشاه بخبر قدومى فنوديت ودخلت باحترام وألقيت بين يدى جلالته خطبة قصيرة وحرصت بقدر الامكان على أن أجمع بين موقف الوزير الانكليزى أمام ملكه وبين موقف الوزير الفارسى أمام الشاه

قال لى الشاه متلطفاً رداً على خطبتى : «سررت بعودتك يا حاجى بابا »

فأحنيت رأسى على طريقة الوزراء الانكليز

فقال : « مرحباً بك »

فأعدت إحناء رأسى

قال : «هل أتيت بهدايا من شاه الفرنجستان؟ »

فقلت : « نفسى فداك يا جلالة الشاه لقد أتيت بهدايا قدمتها لأمين القصر » ثم أخرجت من جيبى عشرين جنيهاً من النقود الانكليزية ووضعتها على عتبة العرش وقلت : « وهذا الذهب أضمه متفائلا على أعتاب عرشكم »

فابتسم الشاه وقال لرئيس الوزارة الذى كان واقفاً بالقرب منه : «إن حاجى بابا خادم مطيع وقد بيض وجهى فى بلاد الفرنجستان »

قال رئيس الوزارة : « نعم نعم يا جلالة الشاه وحيث يوجد أتباع جلالتك نبيض وجوه الفارسيين»

ثم قال لى الشاه : « صف لنا بلاد الفرنجستان »

فقلت : « هي بلاد واسعة تختلف فى كل أحوالها عن بلادنا »

قال : « وازن بينها وبين بلادنا » فقلت : « لا وجه للموازنة يا صاحب الجلالة فهى بالقياس إلى إيران مثل مع ضمق بالقياس إلى جلالتكم »

فالتفت الشاه إلى رئيس وزارته وقال : « لكل بلاد محاسنها ولكن لا توجد فى الواقع بلاد مثل إيران» ثم استشهد ببيت من شعر حافظ الشيرازى فى مدح فارس . فقال رئيس الوزارة : « أين شعر حافظ مما قلتموه جلالتكم من الشعر . وهل فى العالم كله شاعر مثل مولانا تتاح على شاه ؟ »

فابتسم الشاه وقال : « ليس فى الانصاف غضاضة فان الشيرازى شاعر معدوم النظير » ثم التفت إلىّ وقال : « هل فى بلاد الفرنجستان شعراء ؟ » قلت : « نفسى فداك يا جلالة الشاه ليس عندهم أمثال السعدى والشيرازى ولكن عندهم شعراء على كل حال » فقال الشاه : « تعنى أنه ليس عندهم بلابل ؟ » فقلت : « نعم ليس عندهم بلابل يا صاحب الجلالة ولكن عندهم كلاباً . والحق أن إنشادهم بالقياس إلى إنشادنا كالعواء بالقياس إلى التغريد »

فسر الشاه من هذا القول وضحك وقال : « إذن فعندهم شعراء ، فماذا عندهم غير ذلك ؟ هل نساؤهم جميلات ؟ »

قلت : « نعم يا جلالة الشاه ، وأى جمال ! عندنا اليهوديات والروسيات والأرمنيات ومن كل جنس ودين وليس بين جوارى الشاه جارية انكليزية وفى الانكليزيات الجديرة بأن تكون فى خدمة جلالتك »

فقال الوزير : « ولماذا لم تأت بجارية منهن هدية للشاه ؟ »

قلت : « تلك غلطة منى فلو أمر الشاه سفيره بأن يعود بجارية انكليزية لقرت بها عيناه »

فقال الشاه : « لم تخطئ فى القول ياحاجى بابا » نحن نريد جارية انكليزية ليتم نظام حرمنا الشاهانى »

ثم التفت إلى رئيس الوزارة وقال : « وماذا تذكره لنسأل عنه حاجى بابا ؟ » . فقال رئيس الوزارة : « زجاجة التجسس يا مولاى ! »

قال الشاه : « أخبرنى يا حاجى بابا هل رأيت عندهم زجاجة التجسس ؟ »

فقلت : « نعم يا صاحب الجلالة . عندهم شىء غريب مستطيل اسطوانى الشكل وفى نهايته زجاجة مسحورة يستطيع الانسان بها أن يرى الجيش عن بعد عشرات الفراسخ دون أن يراه الجيش الآخر . وهى تظهر الشىء البعيد جداً كأنه على بعد أمتار قليلة . ولقد رأيت فى بلاد الفرنجستان أشياء معدومة النظير »

قال : « تكلم يا بنىّ . ولكن إياك أن تكذب بحضرة الشاه . وإذا كذبت فلن تجد رحمة فى نفسى »

قلت : « نفسى فداك يا صاحب الجلالة . لقد رأيت سفناً كأن الواحدة منها مدينة وهى تمشى فى الزوابع والأعاصير دون أن تمايل »

قال الشاه : « لقد حذرتك من الكذب يا حاجى بابا »

فقلت : « نفسى فداك ما قلت إلا ما رأيت »

فتلطف الشاه وسألنى : « أى شراع يجر هذه السفينة ؟ وما طوله ؟ وما عرضه ؟ »

فقلت : « إنها تسير ببخار الفحم » ثم أخذت أشرح معلوماتى فى هذا الموضوع وهو ينظر إلىّ نظرة استغراب كأنى أقص عليه قصة من قصص السحرة . ثم أعاد سؤاله عن زجاجة التجسس . وسألنى عما رأيت غير ذلك . فقلت : « إن أغرب ما رأيته هو النور الذى ينبعث من منارة السفن فى أثناء الليل ، فانه يرى عن بعد لتهتدى به السفن ويتحرك ويدور ظاهراً بهيئة جسم عمودى ولا يتكلف إلا أقل النفقات ويؤدى أكبر النفع » . فدهش الشاه وأخذ يسألنى فشرحت له معلوماتى عن المنارات أيضاً وقال : « لقد كنت أعرف أن الانكليز يصنعون الأقمشة الجيدة ولكن لم يخطر ببالى أنهم يصنعون النور الفاتن » . ثم قال : إنهم من أشهر التجار ولا يبعد أن يكونوا قد صنعوا هذا

النور ليفتتنوا به أتباعهم الفرسيس الذى يعبدون النار فى الهند

قلت : « هو ذلك يا جلالة الشاه » واقترحت على جلالته أن يأمر السفير بأن يرسل إليه صندوقاً من العجائب الانكليزية

فسألنى : « هل صحيح ما يقولونه عن شدة العواصف فى انكلترا ؟ »

فخطر لى خاطر بديع وقلت : « نعم يا جلالة الشاه إن العواصف هناك لا يدركها العقل ولقد هبّت عاصفة وأنا فى الطريق وكنت فاتحاً فى فطوحت الرياح بثلاثة من أسنانى وألقتها فى جوفى »

ثم فتحت فى وأريته مكان أسنان ثلاث مكسورة من رعة جواد . وأكدت له أن العاصفة هى التى أسقطتها فاستغرب الشاه هول تلك العواصف وحمد الله على أنه لم يذهب إلى الفرنجستان وإلا لنزعت الريح لحيته من وجهه

ثم أمر لى الشاه بخلعة سنية وصرفنى من حضرته مسروراً . فذهبت وأنا أدعو له ونفسى طامعة إلى الحصول على لقب خان، فأذعت بين إخوانى أني سأحصل على هذا اللقب . وفى الحق أن كلمة « حاجى بابا خان » ذات نغمة موافقة وجرْس بديع فلماذا لا يكون اسمى كذلك ؟

وقد تسامع الناس أنه أنعم علىّ بهذا اللقب ، وصار الشاه نفسه لا يقول لى «ميرزا حاجى بابا» بل يقول «حاجى بابا خان» ولا أعرف هل كان ذلك مزاحاً من جلالته أم جداً . ولكنه على كل حال فأل حسن

بيد أن رئيس الوزارة كان يصم أذنيه عن أقوال الناس حول هذا اللقب وإضافته إلى اسمى ، وما ذلك إلا لأن السفير فيروز خان قريبه وهو يضن علىّ أن أنال مثل مرتبته وأنا مرؤوسه

وعشت مسروراً أنفق من المال الذى خبأته قبل سفرى عند قبر « زينب » ولم يحدث ما يسوءنى ولم ينقطع أملى فى الحصول على الرتبة . وكنت أقضى أوقاتى فى التحدث مع أصحابى عن العجائب التى رأيتها فى الفرنجستان وفى ترجمة بعض الكتب الانكليزية

وكنت كثيراً ما أتشرف بزيارة الشاه وأسمعه من كلامى ما يقربنى من أملى فى الحصول على اللقب

والآن أيها القارئ الكريم أتشرف بأن أقبل قدميك وأطلب الحماية فى جيب قفطانك وأرجو ألاّ يقصر الله ظلالك

حاجى بابا خان

« تمت »

عبد اللطيف النشار

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى ــ عابدين }





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
قرش
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٨ — ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

مصرع نوار كوتو القديس الفاسق

بقلم إيزيدور كوليانوف
للأستاذ محمد لطفي جمعة

منذ الشهر العاشر من عام ١٥٧٥ تربع فيدور الثالث على عرش جولد تفاجوس عاصمة ديز فيدانيا ، في قصر منيف واسع الأرجاء ، تحيط به أبراج وحصون عالية الذرى ، وتلتف حوله بساتين ناضرة وحدائق غناء ، ورياض خضراء ، وغابات ملتفة الأشجار شاهقة الأغصان كأنها قطعة من جنات عدن . وكان البلاط الملكي في أقصى درجات الرفاهية ، تحف به مظاهر الهيبة وتتمشى فيه تقاليد موروثة منذ مئات السنين ، وتخضع لنفوذه ألوف الرجال وتخر أمامه مئات الرؤوس من القواد والساسة والعلماء والدهاة والوزراء والمتزلفين . وإذا بخدم جاهل من طبقة الفلاحين السذج البسطاء خارج من أعماق « تسار كوسيلو فلاخش » إحدى مقاطعات ديز فيدانيا ، وأفقر ناحياتها ، وأبعدها عن الحضارة والغنى ، واسمه نوار كوتو ، يظهر بمظهر الرهبان ويتشح بمسوح الصالحين الزاهدين ، فيقبض بيده اليمنى على عكاز متين ، وبيسراه على قلب كلاربوتانا زوجة فيدور الثالث وشريكته في الملك وقسيمته على العرش والصولجان ، فيمد نفوذه من قلب الأميرة المتوجة كلاربوتانا إلى البلاط الملكي فيصير له الأمر والنهي والقبض والبسط ، وبيده الحركة والسكون وبين أنامله الحل والعقد ، وتخضع له ديزافيدانيا من أقصاها إلى أقصاها ، وتنفذ كلمته قبل كلمة فيدور الثالث نفسه ملك ديزافيدانيا وصاحبها وسيدها . ويذيع في الدولة خبر الراهب ، وينتشر مع اسمه في المدن والقرى والعساكر والحقول والمصانع ، أن في بلاط الملك زاهداً مقدساً وراهباً ورعاً ، وتقياً نقياً ، يأتي بالكرامات وتتم على يديه خوارق العادات ، وأنه مقبول الارادة عند نافذ المشيئة بإذنه ، وأنه مستجاب الدعوات ، فلا يطلب شيئاً إلا ويجاب إليه ، فما من نعمة

تعريف بالقصة

إيزيدور كوليانوف مؤلف روسي مقيم في أمريكا ، وقد تنقل بين الولايات المتحدة والمكسيك وجواتيمالا . وقيل إنه نقل هذه القصة القصيرة العجيبة عن أسطورة مكسيكية قديمة حدثت حوادثها في القرن السادس عشر وكان رايدر هاجارد القصاص الانجليزي الشهير قد وصف « قلب الدنيا » وعاصمة النحاس ومدينة الكنوز (وهي مدن مفترضة) عن أساطير أسبانية وأمريكية

أما هذه القصة فأهم ما تدور عليه حوادثها الأخلاق والسياسة وعواقب الاستبداد ، واستعباد النساء للشهوات . وقد أفرغ الحوادث في قالب جذاب فاتن . أما العقدة وهي المؤامرة التي قضى بها على الراهب العاشق فمن أغرب ما تخيله فكر قصاص خصب ، وقد نشرت القصة بخريطة تبين معالم المدن وأهم ما فيها ولم نر فائدة مباشرة في نشرها ، فنكتفي بذكر ما ورد فيها من الأسماء تفادياً من رسمها رسماً قد لا يتقنه إلا خبير جغرافي . ديزفيدانيا : اسم المملكة وهي واقعة بين توكسانيا وديفيدانيا جولد تفاكوس عاصمتها على نهر شاطور . وهي مدينة كبرى . طوكسين : جبل عال في شمال الممالك الثلاث ولا يحول بينها . تسار كوسيلو فلاخش : مقاطعة الراهب التي ولد فيها وعاد إليها . هاشفات : قرية هي عاصمة المقاطعة وهي التي استقبل بها . شاطور : نهر كبير يخترق المملكة ويمر بالعاصمة والقرية . توكسانيا وديرفدانيا : جارتان معاديتان لديزفيدانيا

تنال أحداً من أهل النفوذ إلاوهو مريدها ومتمنيها وسائل الله والملك فيها . وما من نقمة تصيب أحداً منهم إلا وحبلها بيده ... وأنه من أجل هذه القوة الغامضة الخارقة قد أصبح الشيخ نوار كوتو الحاكم بأمره في القصر وعلى قوائم العرش وفي ديوان الملك ثم في أعناق الرعية . هو الذي يشفي المرضى بغير طب ولا دواء ، ويعالج الجراح دون مشرط أو سلاح ، وينقذ من الموت من شارفوا عليه ومدوا يدهم لمصافحة الأبدية ، فكأنهم عند سماع صوته ومقابلة نظرته قد بعثوا من مراقدهم . بل هو يحيي الموتى ويعيد إليهم وجودهم ، وأنه على كل شيء قدير ، وهو الذي يغني ويفقر ويعيد المغضوب عليهم إلى حظيرة الرضى الملكي — سواء أرضي الملك أم لم يرض — وينقل المرضي عنهم والمقربين إلى مضيق السخط والغضب ، سواء أغضب الملك أم لم يغضب. ليس الملك فيدور والملكة كلاوتانا والوزراء والقواد سوى أدوات صماء في أيدي الراهب الزاهد والكاهن القانع نوار كوتو الذي كان يعيش عيشة التقشف في بيت وضيع في أحد أحياء المدينة الآهلة بالفقراء .

ولما كان أهل دبزفيدانيا عبين للاطلاع وقد أتقنوا صناعة التجسس لأن جيرانهم المرافيديين شرقاً والتكسومانيين غرباً يطمعون في بلادهم ، فقد حذقوا التقاف الأخبار والتقاطها من أفواه المتكلمين للوقوف على الحقيقة التي قد تفيدهم في الدفاع عن أوطانهم ، فقد سرت تلك السليقة من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة، ومن التجسس على العدو الخارجي إلى التجسس على العدو الداخلي . فأخذوا يروون عن الراهب الرهيب أخباراً يحمر لها الوجه خجلا ويقطر العرق من جبين راويها وسامعها حياء ، لا ينجو من ذلك النبلاء والأشراف وزوجاتهم ولا رجال الدين وسدنة المعابد في دبزفيدانيا طولا وعرضاً وشمالا وجنوباً . فنسج دعاة السوء وذوو الألسنة اللاذعة خيوطاً من الأوهام والأخيلة والقصص وزعموا أنه على الرغم من تقواه الظاهرة، قد غرس بذور الاباحة في مزرعة الأخلاق الطاهرة، واتخذ من مظاهر الدين وسيلة التعدي على الفضيلة ، وأنه سخر من بساطة أهل الاستقامة ورماهم بالحماقة والبله . فلم يقف في طريقه حاجب، ولم يحل دون اندفاعه في رغباته وتيار أهوائه حائل . بل إنه لا يسمي ذلك عبثاً ولا لعباً بالفضيلة ولا تعدياً على الأعراض ، إنما هي الطبيعة التي يخضع لها ويلبي نداءها ويصغي إلى صوتها ويطيع أمرها في كل وقت من أوقات النهار أو الليل . فهو لا يقترف جرماً متعمداً ، ولا يخالف مكارم الأخلاق قاصداً ، ولكنه يسمع النداء من قريب ومن بعيد . فما لديه اكتراث لعفة العذراء ، ولا لكرامة الزوج ، ولا لرابطة النسب. حقه وهو « الرجل » مقدم على حق الزوج إذا أراد هو ووافقته الزوجة . الشرائع والقوانين والعقود . . وسائل مادية بمثابة الأوراق التي تعلق في أعناق السلع لتدل على أثمانها أو البطاقات التي تتدلى على جوانب الحقائب تنسبها إلى ذويها . ولكنها لا تمنع الرجل اللاهي أن يحمل الحقيبة ويولي بها الأدبار

ليستمتع بما فيها من أدوات الزينة ... وهكذا النساء الأبكار والثيبات والمتزوجات والمشوقات، كلهن فى نظره ملك يمينه وراقصات فى هيكل ملذاته الذى لا تغلق أبوابه . لقـد كانت تلك المواهب والرذائل واضحة فى ذهنه ، وكان واعياً لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال . ولكن العامة ظنوه غامضاً . . وأين الغموض أيها الحمقى ؟ إنه رجل متمبد ، قوي الارادة قوة نادرة ، سوبرمان إذا شئتم؛ أتقن حكمة الدين وحكمة القلم وحكمة اللسان ، يصلي ويسحر ويريد وينال ما يريد غير مدافع ولا منازع ولا مقارع . أنتم تسمون بعض ذلك رذيلة وهو يسميه إشباعا واستمتاعاً . ترون فيه الشر والجانب الأسود ، وهو يرى فيه الخير والجانب الوردى . الله المحبة . والمحبة كل شيء ولا حدود لها . وهؤلاء المريدون من ساسة وقواد وأمراء وكواعب ناضجات وفتيات مخدوعات وظباء غريرة

* * *

فى سفح جبل طوكبين ڤيلار ، وعلى ضفاف نهر شانطود يرى السائح فى مقاطعة تسار كوسيلو فلاخش قرية هاشنات پيدول ، وهى مربط أفراس ومستودع مركبات حوافل وملتقى قوافل، وموطن ثكنات للجند والجحافل ، ومركز دائرة الطرق والسبل من العاصمة إلى الداخل، ومحط رجال التجار والمهاجرين والمسافرين من أهل التقوى وأهل الفجور . وقد نشأ نوار كوتو فى أحد بيوت تلك القرية المطلة على الحقول والمحتكة بالرائحين والغادين .

فلما شب الفتى وترعرع ، هوت نفسه إلى الشعوذة والدروشة الكاذبة وهو يظن أنه مجذوب إلى لباب الدين، فأخذيغشى المعابد ، ويطيل الصلاة فى المحراب ويتحدث إلى كل من بدا له فى ثوب الصلاح ليفيد منه علماً . فكان الواردون يذكرون المعجزات وخوارق العادات وحياة الجن وتأثيرها فى الانسان وقوة الخير والشر وسيادتهما فى كل زمان ومكان ، فجذبه هذا الخفاء فى حياة البشر واستدرجه السر والسحر، وتغلب على خلقه الميل إلى التحكم فى حياة الناس بتأثير العقل فيمن لاعقل لهم

وكان أهل ديزڤيدانيا قاطبة من الجهـلاء والفلاحين المشغولين بالزرع والقوت والتناسل ، فكان لقوة الخيال ونفوذ الأوهام فيهم المكان الأول، وكانوا مظلومين ومرهقين ... كان فيدور الثالث ملكا على جانب عظيم من البلاهة ، كانت وراثته ملوثة بالأمراض التى تصيب الجسم والعقل . وكانت ملكته وعقيلته كلاروتاما متحكمة فيه لانحدارها من سلالة ملكية أرقى من سلالته وأسمى . وكانت ذات جمال رائع وشخصية شبقة وإرادة ملتهمة وشهوة ملتهبة . فوضعت فى عنق زوجها أغلالاً . فما كان ظلم الرعية يهمها أو يهم بعلها ، وهذه الرعية الجاهلة الفقيرة يجهلها أكثر من فقرها لجدب أرضها . إن جدب العقول أقرب إلى الفاقة من إجداب الأرض وعقمها

فما كانت كلاروتاما تبالي أظلم الشعب أم لم يظلم؟ وقد اخترع الكهنة للرعية فكرة الملكوت الأعلى

حتى إن من لم ينل نصيبه في هذه الكرة الأرضية ، لن يفوته نصيبه فى كرة أخرى ، ولكنها علوية . فكانت الرعية أقرب إلى التصديق والاعتقاد والايمان بالأوهام . هذه المعابد قد انقلبت مسارح ومراقص، وتلك الحيا كل صارت أماكن للتعذيب والتنكيل ، فان الكهنة قد فرضوا على الشعب فريضة الايذاء والجلد والجوع وتعذيب الأبدان لراحة الأرواح وتنقية النفوس وتطهير القلوب . مزيج من الوثنية الهندية والبيوريتانية الأيقوسية والكويكرزم . لقد سرت الشهوات فى الأبدان وسارت سيراً عكسياً . كانت الدواعر تجلد الشيوخ فى المخادع ليحركن من هممهم الفاترة؛ وكان الكهنة يجلدون العذارى والكواعب ليطهروا من قلوبهن وينفروا من ذنوبهن . ومن هذا الجلد والتعذيب وشحذ السياط ، إلى مذهب إشباع الحواس بعلة أن الله خلقها وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، خطوة واحدة ! فلم يكن الشيخ الفاجر نواركوتو واضع هذا المذهب أو الداعى إليه، إنما كان أحد أتباعه فسار فى أثر تياره وقلد أشياعه ومريديه . وكان فقهاء هذا المذهب يلتمسون التعليل والتحليل، ويبحثون عن التزكية بطريق التضليل ... ولكن نواركوتو قد وضع المذهب موضع التنفيذ ، فان الله فى زعمه لم يخلق لنا أعيناً إلا لنرى بها ما يمتعها ويمتعنا ، فلا نجعلها تقع إلا على ما يسرنا ، وعلاً نا نشوة وفرحاً، وجعل لنا آذاناً لنسمع بها أحلى الأصوات وأجل الأنغام ، فوجب علينا أن نقربها حبا من أنكر الأصوات وأرذلها ، وأبعدها عن الانسجام والهارمونية .. وما دمنا فى هذه الحياة الدنيا فلنستمتع بحواسنا ، بأبصارنا وأسماعنا وبقية جوارحنا ؛ والذنب كل الذنب فى حرمانها ، والأجر كل الأجر فى تمكينها . أما تعذيب البدن فهو وسيلة التطهر الذى لا يكون إلا لمن يشعر بأنه مذنب . أما الطاهر فلا يتنجس مطلقاً . وها هو الزاهد نواركوتو قد صار إمام المذهب وشيخ الطريقة وتجلت قدرة الخالق عليه فبدت له تصاوير فى الأفق فى وحدة الليل ، وفى وضح النهار ... هذه تماثيل القديسين وأعين القديسات ترمقه وهن يضربن الورد بالعناب، ويعطرن اللؤلؤ من النرجس ، وأصوات الملائكة تدعوه إلى الحضرة الملكوتية : وهذا هو الوحى بعينه وقوة الخيال وخصوبة الادراك الباطن، وها هو ذا يسير ولياً يد الله تدعوه ، وصوت الملائكة يحدوه ، ونور البصيرة يقوده، وعناية الأرواح العليا ترشده وتكلؤه. فما عليه إلا أن يلبى النداء ليرقى أسباب السماء ، وها هى ذى الأصوات تهمس فى أذنه وتأمره بالسياحة الكبرى التى لا وصول بغيرها . فليحمل المخلاة والكشكول، وليتشح المرقعة ذات الذيول، وليتأبط وعاء القناعة الحافل بألوان الطعام من المائدة السماوية، وليقبض على العكاز الذي ينبت فى يده أفناناً وأغصاناً، ويورق روحاً وريحاناً ، فلا قيظ الصيف ، ولا قر الشتاء، ولا وحوش الغاب، ولا أفاعى الغبراء، ولا الذئاب الجائعة ، ولا الثعابين اللاسعة ، لتخيفه بأنيابها وسمومها وإن يكن فراشه الغبراء وغطاؤه القبة الزرقاء ... نفس قوية لا ينفذ إليها من خلال

الجسم برد الجليد ولا وهج الشمس ، ولا تعتريها علة ولا يصرعها داء .. وهذه التكايا والأديرة ملجأه المادىء الهانىء عندما تخور منه قوة البدن أو يحتاج إلى التجديد ، كما يشعر الأفعوان المقدس بالحاجة إلى تغيير جلده فيسلخ عنه القديم ليحظى بثوب مرقط جديد . ولكن هذا البدن كان يلح عليه أحياناً إلحاحاً شديداً ، ويغريه إغراء مزعجاً ، فلا علاج أن يحرمه ، فان حرمه أحس بوخز الابرة . فلا بد له من الخمر المسكر ، والتيب المخدر . . ليفيق ، أى نعم ليفيق فهو فى نشوة دائمة ، لاتفاوتها نفسه الهائمة . وبعد الافاقة أو السكر لا بد له من نعومة الأبدان المعطرة ، ولمس أجسام الإناث ذات الطراوة والخصوبة الفاتنة ، والعبث بالأيدى الرخصة . فتلك الجسوم اللينة المتثنية التى يعالجها من مس الجن لا بد أن تدفع له الثمن ، وما ثمن الشفاء إلا الاستمتاع ومشاركته فى اللذة الطارئة والقبلة العارضة . هذا هو الاتصال المقدس ، مظهر الحب الأعلى ، إفراغ الحقيقة فى قوالب الخيال ، فان لم تكن تلك التى تلتمس العلاج تجود بنفسها ، فاليه من يلقاها فى الطريق عرضاً ، فى سواد الليل أوفى نور النهار . راعية أغنام ، أو طاهية طعام ، غنية ، أو معدمة ، طاهرة أو داعر ، كلهن صالحات لبرء القديس من ألم الرغبة المحرقة . خمس سنوات ، وسبع سموات ، وألف دير ، ومئات النساء قضاها وطرقها وطاف بها وأظلته سقوفها وذاق حلاوتها ومرارتها ، وعشرات المرشدين والرفاق والمؤمنين تلقى عليهم وتلقوا عليه . وفى جبل آتوس دياثا ، أشرقت عليه الحقيقة المطلقة حقيقة العالم المحكوم بالخير والشر ، ولكنها فى نظر الحاكم الأعلى شىء واحد ، لا فرق بينهما ، لأنه هو الذى أرادها وخلقهما وألهمهما ، فهما حقيقتان مطلقتان فى نظر العبيد ، ونسبيتان فى نظر السيد الأعظم — فلا خير بلا شر ، ولا شر بلا خير ، كما أنه لا ليل بلا نهار ولا نهار بلا ليل ، ولا نور بغير ظلام ، ولا ظلام بغير نور ، ولا نار بغير رماد ، ولا رماد بغير نار ... هذه هى الحقيقة التى توهم أنها أوحيت إليه ، وعليه أن ينشرها ويبشر بها ويباشرها . إن الله معه ، حاضر يراه ويسمعه ، يجيبه إذا صلى ، ويحقق آماله إذا اتجه إليه . أليس عبده المطيع وخادمه الخاشع ؟ وها هو ذا قد خرج من الخلوة ، ونفض ثياب التحنث فى الكهوف وصدر إليه الأمر بالظهور ، فعاد إلى قريته (تشاركو سيلو فلاخش) فخرجت على بكرة أبيها تحييه وتستقبله وتحتفل به ، وهو ابنها البار الذى طاف العالم بأمر الله وتعلم وتلقن وتأهل واستمد . وكان رئيس الكهنة (كونيكتوفيلار) على رأس المواكب التى أخذت بيده وأحاطته بالكرامة والبر ، وقد وضع على رأسه أرسوصة[1] محلاة بالذهب والجوهر وقبض على عكاز الرياسة الدينية . فلما أقبل القديس احتضنه الرئيس وسلمه العكاز ، ووضع الأرسوصة ليرفعها على رأس الضيف الكريم وخلع رداءه الأزرق

(١) فى الأصل تيارا Tiare أى تاج مقدس يلبسه رؤساء الدين وهو مستدير منفوخ فاخترنا له « أرسوصة »

ليزين به منكبيه ، ولكن القديس ركع وصلى ، واستغفر واعتذر . فقال له رئيس الكهان المعظم « لم تعد هذه القرية بصالحة لاقامتك ، فلا بد من سفرك فوراً إلى جولدنفاجوس عاصمة ملكنا ، ومقر عرش مولانا فيدور الثالث ملك دبزفيدانيا ، فمكانك هناك بجوار العرش ، ومجلسك عن يمين الملك ؛ فهو أحوج ما يكون إلى قوة روحك ، وبركتك » قبل هذا القول بمسمع ومرأى من عجائز القرية وأبكارها شيبها وشبانها . وهذا أقصى ما يطمع فيه « رجل الدنيا » من مجد ... ليت عجائز قريتى يريننى ! هل كان الكاهن الأكبر مازحاً ماكراً ، أو صادقاً مخلصاً مؤمناً بما وصف به مواطنه ؟ هل أراد أن يهدى إلى الملك نصوحاً ومعيناً أم يتخلص من مزاحم خبيث لا تؤمن عاقبة أطماعه وطموحه ؟ ... ولما وصل توار كوتو إلى العاصمة كانت الأمة خارجة منذ عهد قريب من حرب التوكسانيين الطاحنة ، ولم توشك أن تنفض عن أكتافها غبار الهزيمة الفاضحة . وكان رأى البورچوازيين من أهل (جولد نفاجوس) على أشد حال من الاستياء والتذمر بعد الخسارة النكراء التى أصابتهم فى شرفهم وعزةأوطانهم. وكان النبلاء يشعرون بأن قوائم العرش قد تزعزعت ، وأركان السلطان المطلق قد تصدعت ؛ ولكنهم لم تتقوض فتشبثوا بالبقية الباقية منها ، معتقدين أن فى استمساكهم بها منفعة لهم ولذراريهم ، فقد أمسوا أرقاء الشهوات والترف ، وسرى الفساد فى نفوسهم سريان السم فى الأبدان . فلم يجدوا علماً يرجعون إليه، ولا عقلاً يلجأون إلى أحكامه، ولا علماً يلتفون حوله ، ولكنهم يشعرون بالخطر ويشمون رائحة النهاية التى تدنو منهم شيئاً فشيئاً .. أويدنون منها . لقد أحسوا أنهم فى آخر نهار لتلك العظمة والمجد والدولة التى آن زوالها واندثارها. هذا الشعور بآخر النهار عندما يميل ميزان الشمس ، وتختنق الأشعة الأخيرة ، هذه القيامة توشك أن تقوم على دولتهم وتفاجئهم بالويل والثبور وعظائم المهلكات

فكان النبلاء والوزراء يلجأون إلى المنجمين والمشعوذين ، ويتبركون برجال الدين ويتحككون بجدران الهياكل ، وينذرون النذور ، ويلتقفون البشريات من أفواه الخرفين والدجالين، فالشر مرتقب والخير مغيب ، والشهوات متحكمة ، والملك فيدور الثالث مضمحل الارادة منحل القوى وهو أكثر رعباً من المستقبل الغامض، ومن الحاضر المظلم من أضعف صانع أو عامل فى دولته . وكانت الملكة (كلاربوتانا) قد أصابها داء الهيستريا لحرمانها من ذكورة زوجها حرماناً مبكراً ، فانقطعت سلسلة نسلها ، وذوى عود شبابها ، وجف ماءحياتها ، ولم تكن نظم البلاط لتسمح لها بأن تتخذ من الجند أو الضباط عشيقاً مأجوراً مأموراً كما كانت تفعل جدتها كريستيانيا أو حماتها بيلادونا . فلما أن سمعت بالولى الجديد استدعته بحجة علاجها من أدوائها ماظهر منها ومابطن. فلما استأذن عليها بأمر رجلها الفاقد رجولته ، بهرها منظره واستولى عليها

الفزع والطرب فى آن ! فهاهوذا عملاق بين الرجال ضخم الوجه والأنف ، عريض الجبين والمنكبين ، واسع العينين والفم ، خشن الأكف والأقدام ، رث الهيئة ، ولكنه يبدو كالملوك فى عظمة فطرية لا يكسبها المجد الدنيوي ولا تخلعها مظاهر الثراء المادى .

إنها بلا ريب شخصية جذابة فاتنة ، تخضع لها الأنثى قبل أن تخضع الملكة . تخضعت الاثنتان معاً : الملكة الذليلة بحرمانها ، والأنثى المتعطشة بحاجة بدنها ... وسرعان ما وقعت المرأة المتعطشة صريعة لسلطان هذا الفلوك ، فقال : إنها مسكونة وملبوسة[1] وأن روحاً شريراً من الجن يحتل كل عضو من أعضاء بدنها ، ويسيطر على كل جارحة من جوارحها ، فلا بد من سيطرة أقوى من سيطرة الجن ... !

فقالت : وأين تكون السيطرة التى هى أقوى من سيطرة الجن يا أبتاه ؟

فضحك الزاهد ضحكة عريضة ساخرة . وقال : سيطرتى أنا !

نخرت أمامه وقبلت أطراف ثوبه البالية وقالت : صدقت يا أبتاه !

ومن تلك اللحظة سلمته قيادها — أعنى قياد بدنها وروحها — وصارت عابدته المخلصة وخادمته المطيعة المؤمنة ، وأعطته مفتاحاً ذهبياً يبيح له الدخول عليها فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، فأبواب قصرها لا تنغلق أمامه ، ومداخل مضجعها الملكى لا سر لها حياله ، ولا يعترضه معترض من الحراس ولا الوصيفات ... وكانت كلما خضعت لعلاجه خلعت رداء المرض شيئاً فشيئاً وعاودتها العافية تدريجاً ، فزالت صفرة وجهها ، وفارقتها الهيستريا التى كانت تمضها وتنخر شبابها وتجفف ماء حياتها ... لقد كان سراً رهيباً ، لم يقو أحد على إذاعته ، ولم يملك أن يتفوه به ... وكان الملك فيدور الثالث لا يدركه ولكن الهمس حول رأسه أشبه بطنين الذباب

لقد تمت المعجزة وضحكت الملكة كلاربوتا ضحكاً عالياً ، وزالت غضون جبينها وفارقتها السويداء[1] ورحلت عن مزاجها السوداء ، وزالت أعراض (الليتارجيا) النكراء ، واختفت علة الميلانكوليا التى أضعفت شهية الطعام ، وأنهكت قوة أعصابها ، وامتصت دماء أنوثتها ، وملأت رأسها بالأخيلة فى الصحو ، وبالأحلام المزعجة فى النوم

وكان الملك فيدور الثالث كلما تمشى البرء فى بدن خليلته دب السقم فى أحشائه ، فاصفر لونه ، ونحل بدنه وهزل كيانه ، وعراه خبال وذهول ، فكأن الذى أسبغ ثوب العافية على المرأة ، سلبها فى رفق وأناة من أوصال الرجل ، فازداد ضعفاً على ضعف ؛ فأهرعت الدولة تطلب الأطباء من كل مكان وبذلت لهم كل ما فرضوا من مال ونوال ورتب وألقاب عاممة أن يصيب تشخيصهم وعلاجهم

(١) فى الأصل possedée أى مملوكة لقوة خفية

(١) السويداء uclarcholie . ويقال امرأة سوداوية المزاج hysteric

محجة الصواب ، فكانوا إذا أقبلوا على سريره ورأوا نحوله وتحول لونه ، وجسوا نبضه ، وسمعوا دقات قلبه ، وفحصوا دمه ، هزوا رؤوسهم يأساً وقالوا : « إننا لنفرغ أقصى الجهد ! »

فدخل عليه الزاهد الرهيب يوماً فى غفلة منهم ومسح جبينه بكفه وقال له : « إن شفيت تنذر لى يامولاى نذراً » . قال : « نعم يا أبتاه! فما هو ؟ » . قال : « ألا تعير أذنك لوشاية واش ، ولا تصدق فى حق عذل عاذل »

قال الملك وهو يكاد يجود بأنفاسه : « لك ذلك يا أبتاه ! »

فركع الزاهد بجوار السرير ودفن وجهه فى لفائفه وأمعن فى صلاة حارة، ولما نهض من صلاته كان وجهه الأسمر الداكن وشعره الأسود الفاحم مبللين بالدموع ، وأخذ يعيد الكرة اليوم بعد اليوم ، وأخذت صحة الملك بعد قليل فى التحسن ، وعاودته القدرة على الطعام والقعود والوقوف — حتى المشى على الأقدام . . .

فشاع فى أنحاء المملكة المنكوبة أن صلاة (نوار كوتو) قد أنقذت الملك ، بعد أن أنقذت الملكة ، فاكفهرت وجوه الذين تحدثوا بالسوء من قبل ونسبوا شفاء الملكة الى علاج سفلى ، أو طريقة شهوانية وخطة شيطانية جعلت الحياة تدب فى جسم المرأة المحرومة ، التى كانت عليلة بالحرمان . وقال أنصار الراهب : هل كان بينه وبين الملك فيدور الثالث غرام واتصال كالذى زعمتم وجوده بينه وبين الملكة فى ظلام الليل وخفايا القصر ؟ . وأحيطت رأس الراهب بهالة من المجد وبعد الصيت ، وهو بعد لم يغادر بيته الحقير فى أحياء الفقراء . ولكن النساء النبيلات ، وزوجات العظماء كن يترامين على أقدامه ويقبلن إخمصه وكعبه ، ويتشبثن بركبتيه ، قبيل العلاج . وكان العلاج معلوما ، لابد منه ولاغنى عنه . . . لابد لكل امرأة أن تخضع ، وكن يخضعن مسرورات ، ألم تخضع أول سيدة فى البلاد ففازت بالصحة والحياة بعد اليأس من النجاة؟ وعاد طنين الذباب رنينا فى آذان الملك ، فكان يستدرج الوشاة حتى يعترفوا له وينقلوا اليه كل مايشاع ويملأ الأسماع ، فيأمر بسجنهم وتجريدهم من أموالهم ، ويضيفها الى طبيبه وحبيبه وشافيه ومعافيه ومنجده ومنقذه ، ويقول لنفسه : الحسد والبغضاء والغيرة السوداء ، إن صح مايزعمون عن الملكة — وهو باطل وإفك وكذب منكر — فكيف يفسرون علاجى وشفائى ؟ هل كان يعشقنى أنا أيضا ؟ لقد أصاب إذ طلب إلى ألا أصدق الوشاة . وهذه كرامة أخرى : فقد تنبأ بخبث أهل البلاط فأحكم الحماية من شرهم بطلب النذر منى فأمنته ووفيت منه. كان نوار كوتو أخا أورجيات [1] ، لايرحم . ولم تكن أنثى واحدة بكافية ، بل إناث متعددات ، وليست قنينة واحدة بشافية، بل قنانى ودنان مختومات مفعمات . وليست راقصة واحدة بقاضية أمنية

(١) أورجيا حفلة تهتك وإباحة كانت لليونان والرومان وبعض الفرقيين . وكتبها العرب هكذا .

النفس بل راقصات ومطربات . . ألم يعلم أن فى هيا كل الهند ومعابد المكسيك نساء عاريات اسمهن عرائس الآلهة المبذولات للكهنة ، وأحيانا لكل طارق وعابد . . . وهذه النسوة المشتبات حول كوخه ، الحاصرات لسكنه من الفجر الى نصف الليل ، المرتميات على أقدامه ، أليس فيهن صالحات لأداء تلك الوظيفة ، وهي عبادة « الاطمئنان » ؟ إن قوة الرجولة فيه نادرة المثال قادرة على إخضاع نصف نساء المملكة والقضاء على أوجاعهن المؤكدة .

وقدرة الذكورة الكامنة وراء سوادعينه ، وسواد شعره ، وضخامة أعضائه كفيلة باخراج الجن من أبدان الكاهنات مهما كان الجنى الساكن عنيداً ، فثارت عواطف النبيلات المهجورات وغلت دماء الشباب فى عروق العرائس اللواتى كن زينة القصور وحلية المجتمع ، ولكنهن زوجات لأزواج لايزيدون على التحية والاحترام وتقبيل الأيدى فى المجالس والأبهاء ، أما هصر تلك القدود ، والتمتع بورد الخدود ، والمناجاة فى المضاجع فكانت خارجة عن نطاق جهودهم وشاهدة بعجز نخوتهم عن أجدادهم لأنهم أسرفوا في فتوتهم فلم يدخروا لرجولتهم ، وقد أشعلوا الشمعة حتى آخرها ، فلم يعد فى عودها شحم يغذيها أو تستمد منه أشعتها ولذا هجروا المقاتل فى القصور ، كالمخطيات فى المعاقل ، فكان (نوار كوتو) كعبة آمالهن ومحراب عباداتهن حتى الراهبات فى الأديرة هجرن المذابح والمضاجع وحللن ببيت الزاهد يلتمسن الرحمة : الرحمة يا أبتاه ولم يكن للرحمة التى جرى اسمها على ألسنتهن سوى معنى واحد

وفى أحد الأيام علم البيلكو[1] سومان أن زوجته (البلكايا تندريس) قد فرت من القصر ، فوجدت فى حال بين السكر والموت ، عارية البدن وموخوزة بأسنان مدية قاطعة فى زورق شراعى شال فى عباب نهر شانطور الذى يمر بالعاصمة وقد اعتدى عليها بعد أن عذبت . ولكنها كانت فى كل الأحوال راضية . فنقل البيلكو حليلته إلى القصر والتجأ إلى الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) زعيم الخفية ورئيس الشرطة السرية ودفع له ألف فلورن ذهباً ووعده بمثلها إن هو أظهر له الجانى الذى استباح عرضه وهتك أستار شرفه ، وجمع بين الفجور والقسوة ... فاستوثق الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) من البيلكو سومان ألا يبادر إلى الانتقام ، وألا يبوح باسمه إذا سئل عنه في التحقيق ، فوعده بذلك فقال له : « إنه نوار كوتو الذى دأب على استغلال سيطرته على عاشقاته وأنه منح أجلهن لقب الأخت المختارة وكان يوعز إليهن أن يصبين أزواجهن ، فان الأزواج رجال ضرورة جمعت بينهم وبينهن دواعى المال أو الحسب ، أو الخوف من هيبة الدين والأهل ، وهذه كلها ترهات : أما المحبوب القاهر فهو الزوج الصادق الخفى والعاشق القابض على زمام الارادة عن طريق الجسم والعقل » وصمت (الكولونيل أنفورماتورى تشايف) ووضع سبابته على فمه علامة الأمر لمحدثه بالصمت

وقد أيقن البيلكوسومان أن نوار كوتو أصبح صاحب الحول والطول داخل القصر وخارجه وذا الكلمة التى لا تصمى ولا ترد ، وأن أذنى الملك فيدور الثالث مقفلتان دون كل وشاية ، لأنه مدين له بحياته وحياة زوجة الملكة ، فزاد ذلك من حقد البيلكو سومان الذى أهين شرفه ، وأهريقت

(١) لقب شرف مثل كونت ولورد ومؤنثه بيلكايا كما يقال كونت وكونته

كرامته ، وديست عاطفة الزوجية منه بالأقدام ، ولكنه أضمر الانتقام وصمم على الثأر ، وكان طوال أيامه يعالج زوجته وينعشها ويطمئنها ويستدرجها لتعترف له، وهو يسجل اعترافها ويخفى وراء الأستار شهود سماع يسطرون أقوالها فى ثبت رسمى فعرف الكثير من أسرار الرجل ، وأن امرأتين تبغضانه وتتربصان به الدوائر (ستارهزنا) رئيسة دير (بواركان) وهى فى أول أمرها نبيلة وقعت فريسة لشهوته وغدره ولم تنل من حبه مأربها ، إذ كانت تتمنى أن تستأثر به ، فهى قد وقفت أموال الدير ، وهى طائلة ، على الانتقام منه . ثم البارونة بيلادونا عقيلة الوزير (بيلمان) وقد كان سبباً فى إسقاط بعلها وإقصائه عن دست الوزارة ثم هجرها ، وما زالت تهوى فى حلزون الشقاء والانحطاط حتى صارت تعرض التسري بها على من يشاء لقاء أجر معلوم ، ولكنها مع ما حل بها من الضياع وانهيار الحرمة لم تنس ثأرها . فحدثته نفسه أن انتصاره على خصمه قرين محالفة هاتين المرأتين، إذ لا أمل فى الانتقام من رجل مهما علا أو هبط بغير معاونة النساء فأنهن مخالب الشيطان ورأس الأفعى وأداة الشر . فسعى البيلكوسومان الزوج الموتور إليهما وعقد بينهما وبينه أواصر المودة وأفضى إليهما حتى أمنتا جانبه ، وكانتا تحسبانه فى أول الأمر عيناً عليهما أو أذناً لنوار كوتو أو مولاته الملكة ، فأخذهما إلى قصره وأدخلهما على قرينته ، وأسمعهما من فمها قصة ألمها وعارها ، فأطلعتاه من أمر الكاهن الزائف على ما لم يعلمه أحد ، فعلم أن السر فى شفاء الملك المخدوع أن الراهب إذ كان يتظاهر بعلاج الملكة ، كانت تدس لزوجها السم بأمره ، جرعات معلومة مقدرة ، من زعاف نباتى لايترك فى الأحشاء أثراً ، ولايقتل فريسته للوهلة الأولى ، فلما أراد صنع الكرامة كفت الزوجة بأمره عن تسميم زوجها ، فعاودته الصحة ... ولكن الحادثة إذا سيقت للملك فى أبلغ قالب وأزهى صورة وأصدق رواية لا يصدق قائلها ولا يؤمن به ، بل يرميه بكل سوء ، ولا يعفيه من عقاب . وكان لنوار كوتو خادم مخلص اسمه (يانكو) ومريد وفىّ يدعى ليبوس ، فاستدرجهما البيلكو سومان بالمال والنساء تنفيذاً لخطة وضعتها رئيسة الدير الموتورة التى كانت مشوقة الراهب ، وبذل لهما البيلكو النضار وقدمت لهما ربة الدير ما شاءا من راهبات وسقتهما ماروى غلتهما من خمر ، حتى أفضيا لها بأن الراهب سوف يكون منفرداً فى بيت خلوى وفاء لموعد غرام جديد، وسوف توافيه إحدى النبيلات المشتملات بالشوق إلى قربه لتحقيق أحلام الهوى التى يحلم بها نساء كثيرات من طبقتها بعد أن أقض هجر الرجال مضاجعهن ؛ وأن هذه النبيلة تخشى مفاجأة زوجها أو أحد أقاربها فتسلحت بالرصاص والسم وأسباب أخرى للهلاك ، قد توردها موارد التلف إن تنسمت ريح الفضيحة ، وأن هذه الحسناء الخجول الحذرة وتدعى (كوتشنا) لا تلبث أن تصل إلى الدار لتجوس خلالها وتعرف مخابئها ، حتى إذا بلغتها يوم اللقاء كانت آمنة مواطن الفزع من رقبائها . وأن اليقين قاطع بوهمها وأنها فريسة لمخاوف مزعومة . وإذن ما أسهل أن يكمن واحد أو اثنان من عداة الكاهن ... ثم استمرت الكاهنة الموتورة فى وضع خطة محكمة جعلت مصرع الكاهن الملتهب من فعل عشيقته الملتهبة أمراً ميسوراً .

وفى اليوم المحدد لزيارة النبيلة زيارة كشف واستطلاع ، انتقلت إلى الدار ثلاثة من النبلاء الموتورين فى أعراضهم وقد تأبطوا حقيبة ضخمة

أودعوها قوتاً وأسلحة وحوائج أخرى ، فلما فتح الباب ودخلت البارونة (كوتشتا) صبروا حتى غاب سوادها فى ظلال الأشجار الوارفة وانسلوا بحذق كأنهم ينفذون مكيدة حرب فى مواقع الدرانفيديين أو التوكسانيين جيرانهم وأعدائهم من قديم الزمان ولم توشك المسكينة أن خرجت ، وقد اطمأنت وهى لا تدرى ما تخبئه لها الأقدار والأحقاد . ولم يطل على القابعين الانتظار فقد وافى فى اليوم التالى الراهب متزيناً فى زى أعيان الريف وجاء بعده أحد الخادمين يحمل ما يحتاج إليه مجلس الشراب ومخدع الهوى ثم انصرف الخادم وبقى الراهب فى الانتظار . وبعد الغروب جاءت النبيلة فى ثوب ريفية شمطاء مبالغة فى التخفى وغلقت الأبواب ، وجلست إلى الراهب فى استعداد لقطف أحلى ثمار الهوى ، وهى تمنى نفسها بتلقى صدمة الغرام العنيف[1] ، تلك الصدمة الأولى التى تشفيها من كل داء

ولم يوشكا أن يشرفا من نافذة النشوة على بستان الحب الفسيح ، حتى سمعا دقاً على ثلاثة أبواب فى وقت واحد ، وقبل أن يسترد العاشقان المأخوذان روعتهما ، دخل ثلاثة من أقارب النبيلة : زوجها وأخواها ... فجن جنونهـا ونهضت وأخرجت سلاحها فوقف الراهب بينها وبين أهلها فأطلقت الرصاص عليه فى لحظة جنون وفزع ثم أدنت من فمها خاتماً أنيقاً كانت جعلت فصه مخزناً لسم قاتل ، فلم توشك أن مصته بشفتيها حتى سقطت صريعة ... وانكفأ الراهب عليها ينعشها بطريقته غير حافل بمحضر الرجال الثلاثة ، فى سبيل إنقاذ مشوقته التى كاد يذهب ضحيتها كما ذهبت ضحيته .

وكانت مواطن الرصاص من جسمه تسيل دما ، ولـكنه كان يقاوم عوامل الموت بدوافع حيويته ؛ ويزأر حيناً كالضبع الجريح وطوراً يشمنم غمغمة مبهمة فأهوى عليه الثلاثة الدخلاء بخناجرهم وهو يجأر ويخور كالثور الكبير والفحل النابغ وينهض ثم يقع متخبطاً فى دمه ، حتى نزف معظم مافى عروقه وكان دماً أسود قاتماً كدم الجن . فلما أيقن الثلاثة بموته رفعوا الحام المستعارة ، ونزعوا ثيابهم التى جعلتهم فى صورة أقارب النبيلة حتى توهمت أنها قد فضحت حقاً وأن أباها وأخويها وقفوا على سرها فأقدمت على القتل والانتحار فى حين أن خصوم الـكاهن لم يزيدوا على أن قلدوا تصاوير أقاربها ، وانتحلوها ليحلوا محلهم لحظة تفقد فيها النبيلة رشدها بالرعب ، فتنتحر أوتقتل الراهب المزيف خطأ . وقد نفذت تلك الخطة المحكمة كما رسمها رئيسة الدير .

فلما تم لهم ما أرادوا غادروا المكان وتخلوا عن الحقيبة وأذاعوا فى العاصمة نبأ مصرع شيطان الانس حتى علمت به الملكة والملك . فانتحرت (كلاريوتانا) وجن فيدور الثالث وثار الشعب على النبلاء الـكهنوت ووضع الفلاحون والصناع أيديهم الطـامعة على كنوز ديزفيدانيا فانتهز الدريفاديون والتوكسانيون فرصة خلو العرش واضطراب الأمن وزوال العدل فاحتلوا أرض الوطن . . . وأقاموا لنوار كوتو تمثالا وللنبيلة كوتشاتو نصبا من المرمر لأن فسوق الأول وخشية الثانية من العار كانا سبباً فى امتلاك وطن ديزفيدانيا وزوال دولتهم .

محمد لطفى جمعة

---

(١) فى الأصـل premier "shock" d'amour لم ندر المقصود بها ولا سيما وإن إحدى الـكلمات انجليزية

جبل النار

قصة من تاريخنا الذي يكتب الآن
بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

... لما سمع الساعة تطن انتبه لها ، فلما أيقن أنها (الثانية) وثب من الفراش ، ومشى إلى الشرفة فأطل منها ، فمس وجهه نسيم السحر الناعش ، فجعل ينشق منه ويعب عبًّا ويعلأ رئتيه ، حتى إذا روى منه نظر إلى المدينة فرآها نائمة ، لا يسمع في رحابها صوت ، ولا يلمح خلالها نور ، فاطمأن إلى هذا السكون ، وأدنى منه كرسياً فجلس عليه متلفعاً بعباءته ... وجعل يحدّق في الطريق كأنه يرقب طارقاً يطرقه ، حتى طال عليه الانتظار ، وخيّل إليه أن الفجر قد سدت عليه المسالك أو حيل بينه وبين الطلوع ، ورأى الليل ثقيلاً ، فأحس كأنه منيخ عليه بثقله ؛ وزاده ضيقاً أنه جالس في الظلام لا يستطيع أن يوقد السراج لئلا يوقظ أهله فيفسدوا عليه الأمر الذي انتواه واعتزمه ، وهجر لأجله فراشه وجلس في شرفته يرقب رفيقه الذي يسعده على تنفيذه ، ولم يكن (في الواقع) نائماً ، ولم يخالط النوم هذه الليلة جفنيه ، وإنما اضطجع ساعة من أول الليل يوهم أهله أنه نائم ، فلما اطمأن إلى أنهم هجعوا نهض فأعد ثيابه ، وهيأ عدته ، ثم استلقى على الفراش يحلم بالحياة التي يقدم عليها ، ويفكر فيها حتى لقد أصابه من السهر والفكر صداع أليم لم يكن له بمثله عهد . وكان (عرفان) أصغر أبناء أبيه الغني المترف ، وأدناهم إلى قلبه ، وكان لأمه عطف عليه ليس لأحد من إخوته الكبار مثله . فكان الصبي المدلل المحبوب ، الذي إذا سأل أعطي ، وإذا أمر أطيع ، وإذا أبى شيئاً لم يكن ، وإذا أراد شيئاً كان ، وإذا اشتكى اضطربت الدار ، وأسرع الأقرباء ، ودعي الأطباء ... وكان عرفان (على هذا) ذكياً مهذباً ، متقدماً في مدرسته ، مجلياً بين أقرانه ، فتاناً بأدبه وخُلقه ، كفتنته بجماله وخَلقه ، فهو في الرابعة عشرة ولكن جسمه الأبيض القوي جسم فتى أناف على السابعة عشرة ، له عينان حوراوان ، وأنف دقيق صغير ، وفم كأنه زر ورد أحمر ، ولكن عطره بليغ الكلم ، وشريف القول . وكان ديّناً صيّناً نشأ على طاعة الله ، وأقام الصلاة وآتى الصدقة ، وما تعمد منكراً من الفعل ، ولا زوراً من القول ، فكان عرفان بهذه المزايا زهرة اللدات ، وزينة الفتيان ...

أما الفتى الذي ينتظره عرفان ، فهو رفيقه مختار ، وهو قروي في السابعة عشرة من عمره ، أسمر شديد السمرة ولكنه جميل الصورة ؛ دقيق الملامح جذاب ، وكان شجاعاً صاحب دين وشرف عرفه عرفان في المدرسة طالباً ممتازاً ، فلم يلبث أن جعله رفيقه وصفيه ، وخليله المصطفى ، وصديقه المختار

***

لبث منتظراً على الشرفة حتى بدت طلائع الفجر فأدركه اليأس ، وخامر نفسه ألم الخيبة ، فأزمع أن يمضي وحده ، وألقى على الطريق نظرة الآيس فاذا هو بمختار ، مختار بعينه ... فكاد يطير

من الفرح، وأشار إليه أن ينتظر وحمل عدّته ومشى على رؤوس أصابعه ، يبتدر الباب ، فلما مر بإخوته وهم نيام أدركته العاطفة فخاف أن يغلب عليه حبه لهم وتعلقه بأبويه ، فحبس العاطفة فى أعماق نفسه واستودعهم الله . . . إلى . . . إلى غير ما رجعة ، فما يعلم أحد إلا الله ماذا يكون نصيبه من هذا السفر.

ومضى هو ورفيقه يجتازان أزقة البلدة حذرين يترقبان لا ينبسان بكلمة، حتى إذا صارا إلى الفضاء وأمنا بعض الأمن ، افتتح مختار باب الكلام فقال لعرفان :

— ماذا تظن أباك فاعلا إذا هو تيقظ فلم يجدك فى الدار ؟

فلم يجب عرفان وإنما كان يصغى إلى صوت المؤذن يمشى فى سكون الليل مشي الغناء فى الأعضاء فتترنح منه الأشجار طرباً ، ويؤخذ به السكون مفتوناً . . . ويردد ما يقول المؤذن بصوت خافت ولكنه مملوء بالإيمان والثقة بالله : حيّ على الصلاة ! حيّ على الفلاح ! الله أكبر ! الله أكبر ! فأصغى إليه مختار وجعل يردّد الحيعلة والتكبير . . . فلما انتهى الأذان وشمل السكون السكون كرة أخرى مالا إلى رحبة قريبة فوقفا يصليان و كانا (كما وصفت) شابين دَيِّنين تقيّين فنسيا حين صليا الدنيا بما فيها. ولما انفتلا من الصلاة سارا صامتين يذكران الله سراً ، وكأن هذا الشعور السامي الذى ملكهما ، وهذه المراقبة التى أقبل عليها قلباهما قد أحالتهما من طالبين صغيرين إلى مسلمين من المسلمين الأولين الذين عرفوا الله ، وأدركوا غاية الحياة فصاروا سعداء إن عاشوا لأنهم يعيشون لهذه الغاية، وسعداء إن ماتوا لأنهم يموتون فى سبيل هذه الغاية . . .

وأى رجل يذوق حلاوة الإيمان ثم لا يرى نفسه أكبر من الدنيا ، وهو لا يرى فى الدنيا إلا جناح بعوضة ؟ أفليس أكبر من جناح بعوضة ؟ ومن يعرف حلاوة الإيمان ثم يتعجب من المسلمين الأولين حين خرجوا ليفتحوا الدنيا بسيوف ملفوفة بالخرق ويقابلوا ملوك الأرض بطائفة من البدو . . . أو يعجب من هذه الفئة من أهل فلسطين حين تقاتل أعظم دولة فى التاريخ الحديث ، ولو اجتمع أهل فلسطين كلهم بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ما ملأوا حياً واحداً من عاصمتها ؟ لا . لا تعجبوا من ذلك ، بل اعجبوا من مؤمن لا يرى نفسه أكبر من أكبر دولة فى الدنيا وهو جندى فى دولة الله ، ودولة الله أكبر من كل دولة ، لا إله إلا هو ، له الملك وله الأمر وإليه ترجعون !

* * *

وابتعدا من البلدة وهما صامتان لا يتكلمان ، وعرفان يفكر فى أبويه اللذين خلفهما يتجرعان الغصص لفقده ، ثم يذكر الواجب فيطمئن إلى أنه أحسن صنعاً حين خرج مجاهداً فى سبيل الله ، ولكن عاطفته لا تهدأ ولا تقر ، فيحاول أن يتسلى بهذه المناظر الفتانة التى تبدو له فى هذه الغداة الباكرة فى غاية الجمال ، فلا يبكيه شيء فيندفع يغني بصوت خافت حزين هذه الأغنية المعروفة . . .

« ياوالديّ سيصدع موتى فؤاديكما وستسكبان الدموع غزاراً ، ولكن تراب قبري سيجف فتجف معه دموعكما ، ويلتئم صدع قلبيكما . . . »

« وأنت يا أختى . . . ستنسيك الأيام ذكرى أخيك الشهيد ، وستمحى سطور الحزن من صفحة نفسك . . .

وأنت يا جدى الشيخ ، ستنسى حفيدك الفقيد ... »

« ولكن أخى لن ينسانى ... »

« أنت يا أخى ستظل ذكراى بين عينيك حتى تثأر لى من قاتلى ، وتنضح قبرى الجاف بدم القاتل»

« وأنت يا أخى الأصغر ... لن تنسانى حتى تضطجع إلى جانبى [1]

فلايختم أغنيته حتى تلعب هذه الخاتمة الشجية التى تحط على النغم (الأصبهانى) بقلب مختار فتثيره وتهزه فيقول لعرفان :

— ولكنك جرعت أبويك كأس الآلام ، فشرباها منذ اليوم حتى الثمالة ...

فيجيب عرفان حزيناً واهياً :

— أعرف ذلك

وتكون فترة يصمتان فيها فلا يسمع إلا وقع أقدامهما العجلة على حجارة الطريق الوعر المهجور الذى يخبراه . ثم يقول عرفان :

— أعرف أنى جرعت أبى كأس الأحزان ، ولكن ما ذا أصنع ؟ أليس لله علىّ حق أكبر من حق أبى علىّ ؟ أنسيت يا مختار ما ذا قال مدرس الدين حين شرح لنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم « من لم يغز ولم يجهز غازياً ، ولم يخلف غازياً فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة » والحديث الصحيح « لا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » والحديث الآخر : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد »

ألم يقل لنا إن الجهاد فى هذا العصر أفضل منه فى العصور الأولى ، لأنهم كانوا يجاهدون ليضموا إليهم إخواناً وبلاداً ونحن نجاهد لندفع الموت عن أنفسنا وبلادنا ، والجهاد فى فلسطين أفضل منه فى البلاد الأخرى ، لأنها لم تمن بلدة بمثل ما منيت به فلسطين حين دخل عليها اللصان ، فلبس أحدهما جبة الحاكم فقضى وهو اللص ... وارتدى الثانى رداء التاجر فاشترى ... وهو السارق ... وكان خلاصة الأمر كله ، أن تقول للمالك : قم فاخرج من دارك لنعطيها لهذا السارق ، أو ... أو نهدم دارك ، ونقطع رأسك

— رحمه الله ـ هذا ما قاله بالحرف . لقد كان .

— لقد كان ؟ أتعنى أنه مات ؟

— لا . ولكن سفح دمه على أرض الحرم الأقدس ؟

— ؟؟

— لقد شنقوه ، شنقوه لأنه حمل مسدساً .

— أو لا يرون (أولئك) يحملون المسدسات والسبسات جهاراً نهاراً ، فلم لا يشنقونهم ؟

— (أولئك) من الشركاء ـ ولكن مالنا نتألم ؟ من كان مع الله فلا يحزن ، أتشك فى وعد الله ؟

— لا والله ما شككت ، ولكني أفكر فى أستاذي ، رحمه الله ، أيشنق عالم جليل فلا يتحرك له أحد؟ وهؤلاء الذين يحملون راية الدين ، ويملكون الحول والطول ، وتسير بإمرتهم الجيوش ... أما

---

(١) أصل فكرة هذه الأنشودة لتولستوى

بين أضلعهم قلوب تعرف الإيمان ـ فتحركهم إلى نصرة المظلومين ؟ ..

— وله ؟ وهل ضعفنا أو جبنّا ؟ إن هذه البلاد ياصديقي متعودة ، متعودة الحرب . ألم ترد جيوش أوربة كلها في يوم من الأيام ؟ فاذا ينقص الأبناء عن الآباء ؟ أنسينا ؟ إن نسينا ذكرتنا بتاريخنا هذه الجلاميد وهذه الأسلاك ـ وذكرتنا أجنادين ، وذكرتنا حطين ، واسم صلاح الدين ؟ ان الارحام التي ولدت صلاح الدين لا تزال تحمل وتضع ، وان الله الذي نصر صلاح الدين هو الله ، « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » فلتدافع عن (أولئك) الدولة صاحبة الأساطيل ، أو فليدافع عنهم الانس والجن ، إن الله يدافع عن الذين آمنو ، والله أكبر !

— ولكني أخشى عليك ياعرفان ، أنت ابن الترف والنعيم ، نشأت تتقلب في ثياب الحرير ، وتنام على ريش النعام ، فكيف تنام غدا على الحجر والمدر ، وتصبر على الجوع والعطش ، وتحمل لذع الشمس ووقع الرصاص وحر السيوف ، إنها الحرب ياأخي ، إنها الحرب ، ليست جولة كشفية ، إلى اليمين دُر ، إلى الأمام سر ، ثم تعود إلى بيتك فتجد حمامك مسخنا ، وطعامك مهيئا ، وفراشك موطئا . إنها الحرب ليست هزلاً ولا لعبا ، أفتستطيع أن تمضي يومك في الكر والفر ، بين القنابل المتفجرة ، والرصاص المتساقط كوابل المطر ، ثم تقوم الليل كله بلا طعام ولا منام ؟

— لست أدري ياختار ، وما جربت ذلك ولكنّ الذي أدريه هو أني خرجت مجاهداً في سبيل الله . ألم يقل لنا مدرس الدين ، ذلك الشهيد المرحوم : إذا دخل العدو أرضا للمسلمين صار الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة كفرض الصلاة ؟ .. أنسيت الحديث الذي علمنا إياه : « سئل رسول صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميّة ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ونحن خرجنا لإعلاء كلة الله ، لا لدنيا ولا للمال ولا لجاه ولا دفاعاً عن حب ولا أرض ولا وطن ، فاذا متنا فنحن الشهداء ، أنسيت الحديث الآخر ؟ إني لا أزال أحفظه ، رحم الله أستاذنا

— أي حديث ؟

— قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء ، إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة »

— لا لم أنسه ، ليتنا نموت شهداء ، اللهم اكتب لنا الشهادة .

ولكنهما حاس طاغ ، فأسرعا وهما ينشدان أنشودة الموت التي يحفظها المجاهدون كلهم ، ويلقونها بنغمة تهتز لها أوتار القلوب كلها ...

« أيها العصافير ! »

« طيري إلى منازلنا وبلغي الأمهات والأخوات أننا متنا في سبيل الله ، ومن أجل فلسطين »

« قولي لهن : إن أجسادنا لن تسكن اللحود الضيقة ، ولن تحويها الأرض المظلمة ، ولكنها ستسكن بطون القشاعم والنسور الحلقة في شعاع الشمس ، وبطون الذئاب الشاردة في الفضاء الأرحب »

« أما أرواحنا فسترقى إلى جنان الخلد »

«أما أسماؤنا فستكتب في تاريخ البطولة بأحرف من النور »

« أيتها العصافير ، طيرى إلى منازلنا فبلغى الأمهات والأخوات إرادتنا الأخيرة : هى أن يهبْنَ أطفالنا لخاتمة بارعة كخاتمتنا »

* * *

ساروا سحابة نهارهما فبلغا قرية مختار فى الساعة التى يعود فيها الرعاة من الجبال ، وتزدحم فيها النسوة على الينبوع ، وكان التعب والجوع قد هدّا عرفان هدًّا ، فاتجه به إلى أكبر دار فى القرية ، وكانت تلك دار مختار ، فجاز به (بوابة) من الحجر إلى ساحة واسعة فيها فرسان كريمان مرتبطان ، وثلاثة من الابل، وفى وسطها تل من العلف. فمشى به خلالها حتى انتهى إلى باب الدار فقرعه ، فخرج صبى فى التاسعة عرف عرفان منذ نظر إليه أنه أخو مختار ، فقد كانا متشابهين حتى ليصعب على المرء أن يفرق بينهما لولا السن ، ولولا دعج ظاهر فى عينى الصغير الكبيرتين اللتين تشبهان إذا فكر الصبى أو أطرق سبحات مقاتل ظبى شرود فصاح به مختار :

— أين أبوك يا نورى ؟

فأجاب الصبى بصوت غرد كأنه صوت بلبل :

— ذهب فى هذا الصباح إلى الجبل . لقد علم الثائرون بأن حملة كبيرة لم يروا مثلها ، ستتوجه تلقاء الجبل

فلما سمع ذلك عرفان نسى تعبه ، واستعاد نشاطه وأحس بقلبه يرقص فى صدره فرحاً بالمعركة ، وصاح بمختار :

— هلم بنا ، أسرع ، أين البنادق ؟

— حاضرة ! لقد اشتريت لك خير أنواع البنادق وأعددت لك مائتى رصاصة ، والخيل مربوطة فى الساحة ، اذهب يا نورى فرحدانَ أن يعد الخيل وهات البنادق

فوثب الصبى ليذهب، ولكن امرأة فى الأربعين من عمرها ، سافرة على طريقة الفلاحين ، هذا السفور المحتشم الذى نرجو أن نستبدله بهذا التبرج الفضاح الذى نسميه (هنا) حجابا . . . استوقفته هذه المرأة وأقبلت على ابنها تقول :

— أدخل أولا

فأطاع مختار ودخل معه عرفان ، ينظر إليها وهى تعانقه وقد انفجرت بالبكاء

— أتبكين يا أماه ؟

— لالا . ولكنى لا أدرى هل أراك من بعد أم لا ؟

— ولكن ما بالك يا أماه ؟

— لا شىء ، لا شىء ، استودعك الله . . . وهذا الذى معك ، من هو ؟

— هذا صديقى عرفان ابن الوجيه الكبير ل . . .

— آه ، وأنت أيضا ياحبيبى ؟ أهلا وسهلاً ، وشرفتنا يابنى ، اللهم احفظ وسلم

— أشكرك ياخالة وأستودعك الله .

ماذا ؟ أتذهبون ؟ لا والله ، لقد مشيتم النهار بطوله ، أفجئتونا أنا حتى أدعكم تصلونه بالليل ؟ لا والله . بل تنامون هنا وتذهبون إن شاء الله فى الصباح مع من بقى هنا من رجال القرية

— ولكن ياسيدتى

— لا والله ، لا أدعكم تقتلون أنفسكم ، لو كانت أمك هنا أ كانت ترضى عن ذهابك الآن ؟ أنا مثل أمك ياحبيبى. إن رفيق ابنى هو ابنى، ثم إن المجاهدين بل المسلمين كلهم أسرة واحدة . . .

ودخلت فتاة صغيرة أصغر من نورى وبها من

أخويها مشابه ، غير أنها أدنى إلى البياض ، وكانت تلبس إزاراً أخضر وملتفة بمنديل أحمر يزين أطرافه طراز أصفر من القصب ، فلما رأت الفتى وقفت وأحجمت ، فصاحت بها أمها :

— أدخلي يا بنتي ، هذا أخوك عرفان ، ذاهب إلى الجهاد ، رحبي به ثم اذهبي فأعدى الطعام ، هيا حالاً . وأنتما فانزعا ثيابكما واغسلا وجهيكما وأيديكما . قم يانورى فأعد الماء وصب عليهما ، ثم اذهب فساعد أختك . هيا يا بنت أسرعى؛ إنهما جائعان...

* * *

نال التعب والسير الطويل وسهر الليلة الماضية من عرفان ، فلم يكد يضع رأسه على الوسادة حتى انحدر إلى قرارة نوم عميق ، لم يفق منه إلا سحراً حينما أيقظه مختار ليمشى إلى الجبل ، فنهض مسرعاً فتوضأ وصلى الصبح ، ثم لبس الثياب التي دفعها إليه مختار ، وأدار العقال على رأسه ، ثم حمل بندقيته واستوى على ظهر فرسه ، ليمشى إلى الجهاد ، وهو يحس لفرط سروره أن الدنيا على رحبها أضيق من أن تسعه ...

كان يظن أن الحرب من السهولة بحيث تكون كما قرأ في (قصة عنتر) فكان يتخيل أبداً كيف يبرز بعد ساعة إلى الميدان وينادى أنا عرفان ... فيصول فيه ويجول وينازل الفحول ، ثم يهجم على الآلاف المؤلفة ، فيقتل الرجل ثم يحمله فيضرب به الآخر ، ويطعن الطعنة فيصرع الفارس وفرسه ، ويضرب الضربة فتخترق الهامة وتقطع الدرع ، ثم تنزل إلى السرج فتقده هو والفرس قداً ...

خرج الرجال من القرية وهم قريب من مائة ، فيهم عشرون فارساً ، فسلكوا الشعاب الوعرة لئلا يلاقوا على الطريق المطروق مايعوقهم عن غايتهم. وكانت وجهتهم جبل النار ، فانطلقوا ينشدون أنشودة النار بصوت كانت تضطرب له الجلاميد ، وتتوارى منه الأودية الرهيبة فزعاً ... الأنشودة التي معناها :

« يا جبل النار ... »

« هل درى من سمّاك فى أول الزمان جبل النار أنها ستخرج منك النار التي تزهق البغى والظلم والاستعمار ؟ يا جبل النار ... »

« هل درى أن هذه الفئة من أبطالك ستأكل جيوش الدولة ذات الأساطيل ، كما تأكل التل من الحطب شعلة واحدة من النار ؟ يا جبل النار ... »

« هل دريت أنت يا جبل النار أن الأجيال الآتية ستتخذ منك حرماً للحرية مقدساً ، فتكون الشارة الحمراء والنار للسارين فى طريق الجهاد ؟ يا جبل النار »

« يا جبل النار ، صخورك الجحيم المتوقد فى شعاع الشمس، ولكن الله الذى وطأ لنا ذراها وسهل لنا صعابها ، وأسكننا منها أوكار النسور ، وربى السباع ، هو الذى أحال نارها برداً علينا وسلاماً ، فأنت جحيم الأعداء وأنت جنة لنا ، فهل اجتمعت إلا فيك الجنة والنار ؟ يا جبل النار ... »

« فيا جبل النار ، ثر واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب ، وليحرق دور الظلم ومعاقل الاستعمار، ولو سبحت فى البحار يا جبل النار ... »

« يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار ، نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمنذا يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه

جرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكانا صلاح الدين ... يا جبل النار ! »

كان عرفان ينشد الأنشودة وهو رافع رأسه زهواً ، يظن أنه أوتى الخلافة ، أو أنه غدا خالداً أو قتيبة أو طارقاً ... كان وهو فى داره يخشى أن تصيبه شوكة ، ويألم إن لفحته نسمة باردة، ويفزع من ذكر المرض ، فما باله الآن لا يجزع من الموت بل هو يسعى إليه ويريده ، ولا يأمل إلا الشهادة فى سبيل الله ؟ لقد هان عليه الأعداء وصغروا فى نظره حتى لقد خالهم الذباب أو أسراب النمل حينما وقف القوم وراء الصخور العالية ، ونظروا إلى الحملة وهى تجتاز الطريق البعيد كأنها خط أسود لايبين له أول من آخر ، ولقد كان الجندى الواحد يراه فى بلده أكبر فى عينه من هؤلاء جميعاً

ورأى القوم يطلقون النار فأخرج بندقية فأطلق منها الرصاصة الأولى، ولم يصنع شيئاً ولكنه كبر فى عين نفسه وأحس أنه أصبح رجلا حقاً ومجاهداً صدقاً ، وود لو يطير إلى الحملة حتى يسقط عليها ، ولكنه كف ووقف حين كف القوم ورأوا أنهم لن يصيبوا عدواً .. وساروا فى طريقهم إلى الظهيرة والحملة تبدو لهم عن بعد ثم تختفى وراء الصخور كأنما كانت تسايرهم أبداً وطفقوا ينظرون إليها فيرونها ثابتة لا تريم مكانها، حتى إذا أصبحت عند مفترق الطرق ، وبلغت سفوح الجبال وأقبلت تتسلقها رأى القوم الزلزال تزلزله الأرض من تحتها فتخرج أثقالها ، وينقلب عاليها سافلها ، ويمتلىء الجو بالدخان ، وكان ذلك كله فى لحظة سمعوا على أثرها الدوى المائل الذى قصف فى الدنيا كأشد ما عرفت الدنيا من رعود ، فعلموا أن الثوار قد وضعوا (الألغام) على طول الطريق ، وتركوا الحملة تسعى إلى حتفها بظلفها فتحطمت تحطيما ، وعلموا أن المعركة قد انتهت وكفى الله المؤمنين القتال[1] فارتدوا إلى القرية ، أما عرفان فكانت تتقاذفه عاطفتان الفرح بالنصر المؤزر ، والندم على أنه بات فى القرية فلم يحضر المعركة ولم تكتب له الشهادة فى سبيل الله فيدخل الجنة

* * *

بلغ عرفان وأصحابه القرية عند المساء، فإذا كل شيء تبدل، فلا الدنيا بالدنيا، ولا الناس بالناس، وإذا القرية قد هدمت كلها ، وأحرقت سقوفها وأبوابها ونوافذها، فاختبل مختار وجن، فعدا فرسه إلى داره ولحقه عرفان وبه مثل مابه ، فإذا الدار أكوام من التراب ، وإذا العلف قد أحرق ، والأشجار قد قطعت ، فدار فى أرجائها ينادي أخاه وأمه ، ويهتف بأخته، فضاع صوته فى ضجيج الرجال وصراخ النساء فمشى يفتش صامتاً ينظر فى التراب ، وقد أدركه الخبل حقيقة فلم يعد يقوى على التفكير فى شيء ، وسلم أمره إلى الله ، وتبعه عرفان ينظر كما ينظر ، فإذا هو يرى ويا لهول ما يرى ، نورى ذلك الصبى صاحب العينين الفاتنتين الدعجاوين ... ملقى على باب المسجد قد مزقت حراب الأعداء جسده الأبيض الجميل وإلى جانبه أمه قد صرعتها رصاصة كسرت جمجمتها ...

فجذب مختاراً من يده حتى لا يرى ، ولكن مختاراً أحس بالأمر فنتر يده وأقبل ينظر فإذا هو يرى كل شيء : ضاع الباقى من وعيه فانحنى على أمه وأخيه يقبلهما ويمرغ وجهه بدمائهما ، ثم نهض متهافتاً فتعاون هو وعرفان على مواراتهما حتى إذا

(١) رواية صدق عن شاهد عيان

أقام فوقهما شبه قبر ، وما القرية كلها فى الحقيقة إلا قبر، وضع يده الممسوسة بالدم على القبر ، وأقسم لينتقمن ... وأقسم عرفان !

وتركا أهل القرية يدفنون الموتى ، ويرفعون أوراق المصحف التى ألقيت على أرض المسجد وديست ، وغادراها تضج ببكاء الأطفال الذين ماتت أمهاتهم بالبنادق ، والأمهات اللائى قطع أبناؤهن بالحراب . وعادا مع الرجال إلى جبل الحرية المنيع ينشدون أنشودة الانتقام ...

« إلى جبل النار ، إلى جبل النار ... »

وكان مختار (يصف) لهم بصوت يكاد يقطر منه الدم ...

« لقد غرست شجرة الزيتون يا أبى بيدك ، وسقيتها كل يوم لتتعلق منها الغصن الذى تحملينه على رؤوس أبنائك فى موكب العرس . لقد بنيت الدار يا أبى بيمينك لتسكن فيها بنيك الذين تحبهم مع زوجاتهم ، فقطع الأقوياء الشجرة ، وهدموا الدار ، وقتلوا الأطفال ... »

وهم يرددون اللازمة : « إلى جبل النار ، إلى جبل النار »

— « أرأيتم أختى نورى ؟ لم يعد لعينيه سبحات مقلة ظبى شرود ، ولا لصوته رنة بلبل غرد . لقد قتلوه فها هى ذى جثته ملطخة بالوحل والدم . لقد نام إلى الأبد على يد أمه التى ذبحها الأقوياء المتمدنون »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « أرأيتم كلام الله ، وبيت الله ؟ لقد مزقوا المصحف وهو كتاب الحق والنور ، وداسوه بأقدامهم[1] . لقد استحلوا حرمة المسجد ، وهو دار السلام ، وأقاموا فيه حرباً ، فماذا تنتظرون من الأقوياء المتمدينين بعد ما عبثوا بحرمة الدين وحرمة الانسانية البريئة ... ؟ فالى جبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « هذه مأساة الأندلس ... ولكننا لم ننس مأساة الأندلس بعد ، ولن ندعها تعاد أبداً ، لا فى فلسطين ولا فى اسكندورن ، ولا فى بقعة من بقاع . وها نحن أولاء ذاهبون نحقق ما تقول ... »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « يا أمى ، يا نورى ... يا أختى التى لا أدرى أين قبرها ، اهجعوا فى أمان، فكلما سفك دم جديد نبتت فى القلوب بغضاء جديدة . . . كلا ، ما هى بالبغضاء ! ما البغض ؟ ما العداوة ؟ إن العاطفة التى يحتويها اليوم صدر كل عربى، بل كل مسلم، شىء أكبر من البغض ، وأشد من الحقد ، وأبلغ من العداء — إنها عاطفة سوداء مبهمة ، عظيمة مخنقة تتوارثها القلوب ، فلا تزداد إلا سواداً وعظمة ورهبة ... »

— « فيا جبل النار ثر واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب وليحرق دور الظلم ، ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت فى البحار ، يا جبل النار »

— « يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار . نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الجمر المتوقدة ، فمن ذا يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه جمرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكلنا صلاح الدين ، يا جبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

« دمشق » على الطنطاوى

(١) رواية مؤيدة بالصور الفوتوغرافية

تجربة قاسية

مترجمة عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

إن التغيير المستمر الذى طرأ على مركز المرأة قد سبب كثيراً من مصائبنا الاجتماعية ، ولا تزال الحالة تزداد كل يوم سوءاً

وما دامت المرأة ترى واجبها فى الحياة أن تكون أماً وزوجة وربة منزل فهي شريكة الرجل فى سروره وحزنه وغناه وفقره . ولكنها متى تركت هذا المجال فلا يمكن أن تكون إلا واحدة من اثنتين : إما خادماً للرجل وإما حاكمة له ، ومن أجل ذلك كان أتعس السيدات هن نساء الطبقة التى يدعونها بالطبقة الراقية اللواتى لا يرين أنفسهن فى حاجة إلى التفكير فى قوت يومهن واللواتى يقضين أيامهن كسالى بليدات ويسهدن بكل واجب من واجباتهن إلى أخريات ، فانهن أقل شعوراً بالسعادة من سائر النساء

ولقد كانت بطلة هذه القصة من النوع الأخير فانها نشأت وظلت طول عمرها لا تقدر مسئولية لشيء ، فهي تنتقل من يد المرضعة إلى يد المربية إلى معلم الموسيقى والرقص دون أن تشعر فى هذه الأدوار إلا بأنها مخدومة وأن على غيرها واجبات لها وليس عليها لأى إنسان أى واجب

وتزوجت من رجل متقدم فى العمر فمات وهى لما تبلغ الخامسة والعشرين، وقد وجدت نفسها عند موته غنية ذات معجبين كثيرين بجمالها وهى حرة فى اختيار ما تريد وترك ما تشاء، فكانت نتيجة حياتها على هذا النمط أن شعرت بالسأم وأحست بأن الحياة عبء ثقيل عليها، فكان لذلك كل عملها أن تقتل الوقت كأنما هي لا تريد إلا التخلص من حياتها جزءاً فجزءاً

ولكنها مع هذا السأم من الحياة كانت زينة الحياة وبهجتها فى أعين كثيرين ، ومن الغلطات الشائعة أن الناس يحسبون كل جميلة العينين وسيمة الوجه تكون حتماً ذات ذكاء يتناسب مع جمالها وتكون ذات روح شعرية

ولئن كان فى السيدات من تجتمع فيهن هذه الصفات فان صاحبتنا البارونة أديل لم تكن كذلك بل روحها قاتمة مظلمة

وكانت متوسطة الطول نحيلة شديدة البياض بحيث يظهر فى جلدها الناصع لون عروقها الزرقاء وهى جميلة الوجه والأنف صغيرة الفم وردية الشفتين ذهبية الشعر ولكن عينيها كانتا أجمل شيء فيها فقد كانت نظراتها الوسنى مثل نظرات الحالم

وقد قضت سنوات فى الحداد على زوجها تتنقل بين البلدان فزارت إيطاليا وفرنسا الجنوبية وأسبانيا، وكان أحب أماكن الاصطياف إليها جبال التيرول حتى لقد جمعت كل صورها ومناظرها فوضعتها فى غرفة استقبالها. وفى يوم من الأيام أرادت أن تتسلق إحدى قممها المكللة بالجليد فلبست ثوباً من الفرو وأمسكت بعصا غليظة وصعدت إلى الجبل قبيل الغروب ، فلما وصلت إلى مكان مرتفع منه كانت الشمس قد غابت . ثم وجدت أنها ضلت الطريق وأصبحت محاطة بجفائر مكدسة بالثلج بحيث لا تستطيع العودة ولا الاستمرار فى المشى

وحاولت عبثاً أن تجد لها منفذاً ، فرأت من

المستحيل أن تتقدم أو تتأخر أو تعلو أو تهبط فاستغاثت بأعلى صوتها، ولكنها لم تسمع غير صدى صوتها فأخرجت من جيب معطفها مسدساً وأطلقته ولكنها لم تسمع غير دوى الطلقات، فخارت قواها وجلست على صخرة بعد أن أزالت ما عليها من الجليد وظلت تبكي

وبعد ربع ساعة مر عن كثب منها رجل يصفر فنادته وكلمته بلهجة لم تتكلم بها منذ سنوات وهي لهجة التوسل والضراعة وطلبت إليه أن ينقذها فمشى نحوها رافعاً قبعته محيياً باحترام . وعرض عليها مساعدته فشكرته شكر الضارع الخاشع ورأت من ثيابه ومن الأسلحة التي يحملها أنه من هواة الرياضة والصيد . ودلتها هيئته على القوة والاعجاب

قال لها : « اسمحي لي أن أحملك »

فقالت : « أخشى أن أسبب لك تعباً كثيراً »

قال : « لا داعي إلى مثل هذا القول »

ثم حمل البارونة بين يديه فشعرت وهي محمولة بشعور غريب لم تجربه من قبل . وكانت أنفاسه الحارة تدفئ خديها فتسائل نفسها أي شعور هو الذي تجده في نفسها في هذا الوقت، هل هو الحب ؟

فلما وصل بها إلى الفندق الذي تقيم فيه شكرته ودعته إلى زيارتها ووعدها بأن يرافقها في فرصة أخرى إلى جبال التيرول . وسألته عن اسمه فقال إنه فردريك فون فاردورف

قالت : « أنت ذلك الروسي الشهير ؟ لقد سمعت اسمك يتردد كثيراً في الأوساط العالية »

فأخبرها فاردورف بأنه من أسرة ألمانية تنتمي إلى أصل روسي، وأن ضياعه في كورلاند ولكنه لم يزرها منذ سنوات لأنه كان في العهد الأخير يزور بقاعاً مختلفة من الأرض

وفي اليوم التالي زارها فاردورف ودار الحديث عن زياراته لأمريكا الجنوبية وأفريقيا الشمالية وقرأ لها قصة أو قصتين من قصص إيفان ترجنيف . وكانت تصغي إلى حديثه متلذذة وتدعوه إلى تكرار زياراته فكررها . وصارت بعد ذلك تخرج معه إلى جبال التيرول وإلى غيرها من المتنزهات وتدعوه للعشاء كل ليلة . فأخذ الناس يتحدثون عن علاقاتهما وعن احتمال زواجهما قبل أن يتم التفاهم على شيء من ذلك

وفي ليلة من الليالي كانا جالسين معاً في المنزل فقالت إديل : « إننا سنفترق سريعاً يا فاردورف »

فقال : « لماذا ؟ »

قالت : « لأنني تغيبت عن منزلي طويلا وأريد العودة، فهل تزورني هناك ؟ » فقال : « ما الذي تعنين ؟ هل تحبين ألا أزورك ؟ »

قالت : « ما الذي تعنيه أنت ؟ إنني أتألم كثيراً إذا ابتعدت عنك » فقال الروسي بلسان متلعثم : « هل تسمحين ؟ ... ألا يغضبك ... ؟ »

قالت : « تكلم : ما الذي يمنعك من الكلام »

فقال : « إنني أحبك يا إديل »

فأطالت البارونة التحديق في وجهه فقال : « لا تمنعيني عن الكلام حتى أقول كل ما أريد »

قالت : « ولكنني لم أعد أومن بالحب » فقال الروسي : « أعرف ذلك ولم أعلل نفسي قط بأنك ستجازينني على حبي بمثله ، ولكنك قلت لي مراراً إنك تعيشين بغير غرض ولا تسرين من أي بواعث السرور فعيشي معي زوجة لي وأنا الكفيل بأن ينشأ في قلبك ميل لي بعد الزواج »

فنظرت اديل نظرة شاردة من النافذة دون أن تجيبه بأي جواب وسكت الروسي لحظة ثم قال : « قرري ياسيدتي بكلمة منك إماحياتي وإما موتي »

فأجابته وهي تبتسم : « الحياة أو الموت ؟ »

قال : « نعم إنني أعني ما أقول فاني أفضل الموت إذا لم تحبيني » فقالت المرأة التي لاقلب لها : « هذا مجرد تعبير »

قال : « كلا ولكنه الحقيقة فاختاري لي الحياة أو الموت » فقالت : « إنني سأعطيك مهلة عام فاذا لم تستطع في خلالها إقناعي بأنك تحبني حقيقة وإذا لم تستطع أن تبعث في نفسي عاطفة الحب نحوك فاني سأقضي عليك بأن تقتل نفسك » .

قالت ذلك ثم بدأت تضحك ضحكاً عالياً فقال الروسي وهو عابس مقطب : « إذا حكمت بعد انقضاء العام بأنه لا أمل لي في الحياة معك فاني أفعل كما تريدين ولكن يكون لي عندك رجاء آخر »

قالت : « ما هو ؟ » فقال : « هو أن تقتليني أنت »

قالت : « لك ذلك » فقال : « ولكن هل تستطيعين ؟ »

« ولم لا ؟ انه يستوي عندي أما أن تقتل نفسك من أجلي أو أن أقتلك بيدي » فقال الروسي : « إذن فعاهديني على أنه بعد انقضاء العام إما أن تقتليني أو تتزوجي مني »

قالت : « أعاهدك على ذلك ولكن يجب أن تتذكر أنت أيضاً تعهدك عند انقضاء العام وألا تنتظر مني رحمة »

فقال : « لا وسط بين الحالتين فاما أن تكوني لي وأما أن أموت »

ومدّ كلاهما يده إلى الآخر فتعاهدا على ذلك

ومضى العام وهما يعيشان معاً في منزلها بفينا وكان الليل ساجياً من ليالي الربيع الجميلة وهي جالسة على نمرقة بجانب الشرفة وهو جالس عند قدميها فقالت : « هل نسيت ؟ »

قال : « نسيت ماذا ؟ » فقالت : « هل نسيت عهدنا ؟ إن اليوم موعده » فمرت جسم الروسي رعشة باردة وقالت له همساً : « ادن مني وأخبرني ما هو رأيك اليوم في تعهدك قبل أن تسمع حكمي »

قال : « إنني أرتعش . . . » فقالت : « إذن فاسمع الحكم : « إنك قد أقنعتني بأنك تحبني فليس عندي شك في ذلك ... »

وهنا ارتمى الروسي على قدميها ليقبلهما فقالت : « لا تتسرع فانك لم تسمع بقية الحكم »

قال : ما الذي تعنين ؟ فقالت : « إنك أقنعتني بأنك تحبني ولكنك لم تستطع أن تجعلني أحبك »

قال : « ما أشد قسوتك ياأديل ! »

فقالت : « إنني أكلمك كلاماً صريحاً شريفاً »

قال الروسي : « أما عند حكمك إذن فاقتليني »

فقالت : « هكذا سأفعل فاني ذاكرة عهدي . وروحك الآن في يدي ولن أتركها هبة لك . إنني لاأحب ولكنني أريد أن أكون محبوبة وأن يحبني من يحبني فيموت تحت قدمي وأنا أنظر إليه نظرة احتقار »

قال: «هل تجدّين فيما تقولين ؟» فقالت: «ألا تصدق ؟ هل حبك لنفسك أكبر من حبك لي ؟»

قال : « كلا كلا : وإني مستعد للموت »

فقامت وعادت وفي يدها زجاجة صغيرة مملوءة بسائل أسود وقالت : « اشرب هذا »

فتناولها وقال : « أشرب فى حبك يا أديل »

ثم قال : « ناوليني يدك فان قواى تخونني »

ثم أظلمت الدنيا فى عينيه . وبعد ساعتين أفاق فوجد رأسه على حجرها وهى تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة دالة على السعادة

قال: « ما الذى حدث ؟ » فنادته باسمه بصوت عذب فقال : « هل أنا أحلم الآن ؟ ألم أمت ؟ »

قالت : « كلا وستعيش وستكون لى زوجاً فانى أحبك كما تحبنى » فقال : « وما هو السائل الأسود الذى فى الزجاجة ؟ ألم يكن سماً ؟ »

قالت : « كلا، ولكنه مخدر » فقال : «لماذا؟»

قالت : « لكى أجربك » فوقف الروسى مسرعاً وقال : « تقولين إنك تحبينني ولكنك مع ذلك تتركيننى أقاسى أشد الآلام بقصد اللهو والتسلية إن المرأة التى تفعل ذلك لا تستطيع أن تملك قلبي »

قالت اديل بصوت الخائف : « ألم تعد تحبنى يا فاردورف؟ ما الذي جعلك تتغير هذا التغير الفجائى ألم تعد تحبنى ؟ » فقال : « إننى لا أحبك الآن ولن أحبك فى المستقبل ، وداعاً ! »

فطوقت اديل عنقه بذراعيها وقالت : «أستحلفك بحق السماء ألا تجعلني أتعس إنسانة فى الوجود »

فقال : «أنت التى أتعستنى وأتعست نفسك، وداعاً»

قال ذلك ثم تخلص منها فارتمت على قدميه ولكن ذلك لم يفد وأظهر قوة إرادته فخرج مغضباً

ولما جاءت الخادمة وجدت إديل مستلقية على الأرض جثة هامدة »

عبد اللطيف النشار

حكمة الموت

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

مضى شهر تقريباً وحضرة محمد أفندي عبد القوى يشعر بتوعك المزاج . آيته خمود فى الجسم وثقل فى الدماغ ووهن — يشتد حيناً ويخف أحياناً — فى الساقين ، وقد سكت عن حالته الطارئة طوال الشهر وهو يعللها بكثرة العمل تارة وبادمان السهر تارة أخرى؛ وفملا طلب إجازة قصيرة وكف عن السهر راجياً أن تعود صحته إلى حالتها الطبيعية ... وانتظر على هذا الرجاء أياماً وما تزداد حالته إلا سوءاً حتى لم ير بداً من استشارة طبيب. وقال له الطبيب — بعد أن فحصه بدقة وعناية — إنه مصاب بضغط الدم وأشار عليه بالتزام الراحة أياماً وبالاقتصار على الطعام المسلوق والفواكه ، والامتناع عن تناول اللحوم الحمراء وتعاطى الخمور ثم وصف له الدواء اللازم ...

ورجع محمد أفندي من عيادة الطبيب خائفاً مذعوراً كثير الهم والفكر ... وقد يكون هذا — فى ظاهره على الأقل — غريباً لأن الضغط لم يكن شديداً، ولأنه من الأمراض التى يمكن تلافى خطرها بالعناية والحرص فى اختيار الطعام والشراب، ولأن محمد أفندي شاب فى الخامسة والثلاثين فلا ينذره الضغط بما ينذر به ذوى الستين أو السبعين. والأعجب من هذا كله أنه لم يكن غافلا عن هذه الحقائق ولكنه فى الواقع لم يخش المرض فى ذاته قدر ما خشى التاريخ أعنى تاريخ أسرته . فهو يذكر أن أباه أصيب بالضغط وهو فى مثل عمره تقريباً ويذكر أنه لم يقاومه طويلا فساءت حالته وأصابه الشلل فقضى فى عنفوان شبابه وقوته . ولم يكن موت أبيه فى عنفوان شبابه حادثاً غريباً فى أسرته، فهكذا قضى جده من قبل ولم يجاوز الأربعين ... إن ذاكرته لا تحفظ له من حياة والده إلا آثاراً خفيفة لأنه توفى وهو —أى محمد— غلام صغير ، ولكن صورة المرحوم الملقة بحجرة الاستقبال أثر باق يشهد بالشبه العظيم بين الابن وأبيه ، وإن الناظر إلى الصورة ليقتنع بهذه الحقيقة التى تدل على أثر الوراثة . فالجبهة المربعة والعينان العسليتان المستديرتان ، والأنف الكبير المائل إلى الفطس ، والفم العريض المنطى بالشارب الغليظ، والوجه الممتلىء والجسم البدين... جميع هذه معالم مكررة بين صورة الراحل والشخص الحى كالأصل وصورته، وكأن صاحب الصورة هو محمد نفسه فى ثياب بلدية .. الجبة والقفطان والعمامة ..

يا له من شبه عجيب ! ولم يكن غافلا عنه ولكن خيل إليه عندئذ أنه يفطن إليه لأول مرة فى حياته أو أنه اكتشف فيه مغزى كان عنه خافياً ...

ولا مراء فى أن الشبه بينهما لم يقف عند حد الشكل فطالما سمع والدته تنوه بأوجه الاتفاق بينه وبين أبيه فى الخلق والطبع فى المناسبات المختلفة ... فكان إذا احتد وغضب لأتفه الأسباب تنهدت وقالت : « رحم الله أباك ... ليته أورثك غير هذا الطبع طبعاً هادئاً » ... أو إذا جلس إلى الحاكى ينصت فى انتباه ويهز رأسه فى طرب قالت وهى تبتسم له : « ابن حلال يا بنى ... » أو إذا رجع

إلى البيت بعد منتصف الليل ثملا مترنحاً استقبلته قلقة حزينة وتصيح به وهى تتالب دموعها « إن جرح قلبي لم يندمل بعد ... فلا تفجعني فيك كما فجعت فى والدك من قبل ... »

فهو صورة صادقة لوالده فى شكله وخلقه وطبعه وها هو ذا يرث عنه مرضه ... فلم لا تكون نهايته كنهايته . ؟..

وا أسفاه ! إن هذه الأسرة مقضى عليها بالدمار فقد قضى جده شاباً ، وقضى مثله والده، فليس إذاً هذا المرض من المصادفات المحزنة ... ولكنه بداية النهاية، وما هو إلا معيد تمثيل الدور القصير الذى قام به من قبل المرحوم والده، وقام به قبله جده، وما مرضه هذا إلا سبب تمتل به الطبيعة عليه لتنفذ قضاءها المحتوم فى شجرة أسرته البائسة المقضى عليها بالذبول والجفاف فى إبان ربيعها ...

وجعل يردد فيما بينه وبين نفسه : « الشكل واحد والخلق واحد والسيرة واحدة والمرض واحد فالنهاية واحدة دون ريب » وتشبث وجدانه بهذه الأفكار فقويت عقيدة الموت فى نفسه وملأت شعوره فتمثلت له حقيقة لا تتزحزح ، واستسلم لها استسلاماً تاماً حتى أشفى على القنوط، وبات ينتظر القضاء المحتوم الذي يراه قريباً ... بل أدنى إليه من مخاوفه ...

إننا جميعاً نعلم أننا سائرون إلى الموت ولكننا لا نذكر هذه الحقيقة إلا حين حوادث الوفاة أو لدى زيارة المقابر وفى الساعات النادرة التى نستسلم فيها للتأمل . وفيما عدا ذلك لجلبة الحياة تثمر عادة سكون الموت، وحرارة الأمل تقصى عن أفكارنا برودة الفناء. أما الآن وقد ضرب له شعوره ومنطقه موعداً قريباً الموت فقد ولى وجهه هذا الأفق القريب لا يحول عنه ،وجعل يديم إليه النظر فى استسلام وحزن ويأس ...

وعجب في أحزانه لمن يقول إن الموت راحة، ولم يفقه لها من معنى إلا أن تكون تململا وضيقاً بمتاعب الحياة ، ولكن ما هذه المتاعب بجانب ظلمة الموت ووحشة القبر ؟

الموت ! ياله من حقيقة مخيفة ... لم يشعر بهولها من قبل ... ترى ما هو هـذا اللغز الغامض ؟ وما كنهه ؟ وما حقيقة الروح التى ستفارقه بعد زمن يسير وتصعد إلى بارئهـا ؟ وذكر عند ذلك الآية الكريمة «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أما هو فلم يأت من العلم كثيرا ولا قليلا، وحسبه أن يعلم أن الروح — وهى منبع حياته ووجدانه وأفكاره — ستهجر جسده البائس آخذة معها كل جميل حى غير تاركة خلفها إلا أثراً جامداً ... أو جثة كما يقولون ... فوا أسفاه !

وولف إلى المرآة وألقى على وجهه نظرة ملؤها الأسف والحزن . وتأمل صورته طويلا ، وجعل يقبض كفيه ويبسطهما ... كم هو ممتلئ صحة وعافية وشبابا ! سينضب معين هـذا كله ... ويجف غصنه الرطيب ... وتغيض معانى اليقظة فى عينيه ... ويمسى جثة ... ممزقة ... نتنة ... قذرة ... ترعاها الديدان ... ما أفظع هذا !

والأدهى من ذلك أنه لم يشبع من الدنيا وأحس فى تلك اللحظة كأنه لم يبدأ رحلة حياته بعد ، وود من أعماقه لو تتاح له فرصة فيعيد الكرة ، ليعيش حياة الطفولة السعيدة مرة أخرى ويعيد عهد الصبا

ويتقلب إلى الشباب عمراً مديداً ، ولا يترك الدنيا إلا وقد شبع من مسراتها وتزود من خيراتها ...

كلا إنه لم يشبع من الدنيا ولم يتمتع بحياته كما ينبغي له . وإنه ليسأل نفسه وسط حزنه وأسفه ويأسه: (ماذا صنعت بحياتي؟) فيصيبه الجواب كأنه ولد بالأمس القريب ، ثم يزول عنه الإعياء والعجز فتأتيه الذكريات تباعاً ، خفافاً وثقالا ، فلا يكاد يظفر فيها بما يجوز أن يعده من السعادة الصافية التي تطيب بها الدنيا وترجى لها الآخرة . أما ماينغص الطمأنينة وينتزع آهات الحسرة والأسف فكثير لا يحصى ، وما يتبقى من الوقت ما يتيح الفرصة لإصلاح فاسده والتكفير عن سيئه ...

ماذا صنعت بحياتي ؟ قد يطرح هذا السؤال قوم فيأتيهم الجواب السعيد في آيات الفكر التي أورثوها الانسانية كافة أو الأعمال الجيدة التي بذلوها لأوطانهم أو الكفاح النبيل الذي أدوه للأسرة والأبناء ، أما هو فلم يك واحداً من هؤلاء ... لم يضطلع بتبعة من تبعاتهم ولم يبذل تضحية من تضحياتهم ولم تكلل هامته بوسام من أوسمة مجدهم وجهادهم ... فلم يختلج في صدره قط معنى من معاني الانسانية ولم يعرف الوطنية إلا شقشقة لسان وجدل فراغ، ولم يقدم على الزواج ولا قدر ما فيه من مغزى طبيعي خالد أو واجب اجتماعي نبيل . وبالجملة عاش لنفسه يرسف في أصفاد الأنانية وينزلق يوماً بعد يوم في مهاوي الحيوانية والجمود ...

وقد يكون من المغالاة أن يقال إنه لم ينتبه من قبل إلى تفاهة حياته ولكنه لم ينتبه إليها الانتباه الحري بأن يمس فيه روح الندم الصادق وأن يحثه على التفكير والتجديد، فكان إذا ضايقه التفكير في تفاهته أغمض العين على القذى وقال لنفسه معزياً «إن في العمر متسعاً للتغيير ... » ولكنه لا يستطيع أن يقول ذلك الآن والموت لا يمهله إلا شهوراً معدودة ... ولو أن حياته اقتصرت على التفاهة لربما هان الأمر ... ولكنها تلوث في صميمها بالإثم والشر والخنوع مما يندى له الجبين خجلا ويتنزى له القلب ألماً وحزناً ...

ذكر حياته الحكومية فذكر بها الذل والهوان والضعة والجبن ... هو ولا شك موظف مجتهد ودقيق في عمله ولكنه كان دائماً أضعف من أن يقاوم الوسط الذي وجد فيه ، فكان يجاري التيار ويتفادى التصادم ويخنع إشفاقاً من النقل والاضطهاد فأدى به خوفه من الاضطهاد إلى أحط أنواع الاضطهاد والذل ، ووجد نفسه يخوض في الأعراض ويجامل في الحق ويتغاضى من الذل ويسكت على الاهانة ... فيالضعة !

وذكر حادثة أهوت به إلى الحضيض وتقبلها في وقتها قبول الفاجرين ، إذ كانت تختلف إلى بيته امرأة عجوز تحتال على العيش ببيع البيض والفاكهة، وكانت أمه تشملها بالعطف فتطعمها وتكسوها مما جعل المرأة تطمئن إليها وتعهد لها بحفظ أرباحها الضئيلة حتى تجمع لديها خمسة جنيهات أوصت - إذا أصابها قضاء الموت - أن تردها إلى ابنتها البائسة وأبنائها اليتامى ... وماتت العجوز فعهدت أمه إليه برد المال إلى مستحقيه ... وآسفاه ! ... لقد كان يعلم أن المتوفاة كانت تخفي أمر تركتها عن ابنتها ، فما كان منه إلا أن دس الجنيهات في جيبه وبددها في المقامرة والشراب ... وهضم ضميره البليد فعلته الشنعاء وارتضى السرقة وحرمان اليتامى

حقهم دون وخز أو ألم ... فأى دناءة وحقارة !

وذكر ليالى العربدة والفجور التى عرفته فيها الحانات مدمناً لا يريم ، وموائد القمار لاعباً مدلساً لا يشق له غبار ، والمستهترات رفيقاً لا يشبع ولا يرعوى ... أواه ... إنه ينبغى له أولا أن يستل الدين والايمان من صدره قبل أن يعد تلك الليالى الحمراء من الحياة السعيدة التى لا يجوز أن يندم على ما فعل فيها ...

وذكر أيضاً غرامه ... فقد استطاع قلبه على تفاهته وتلوثه ـ أن يحس ويخفق ، ولكنه كان غراماً عجيباً ، بل لو أن إنساناً سماه كراهية ما جاوز الحقيقة ... كانت فتاته أخت طبيب كان فى صباه صديقه الحميم ، ثم أنأته عنه أسباب الدراسة والعمل فانتهى هو إلى وظيفته المجهولة وبدأ الشاب حياة الكفاح والنجاح ، ولم تكن طبيعة محمد بمستطيعة أن تهضم هذا الفارق بينه وبين صديق الصبا دون أن تفرز الحقد والحسد ، وزاد سخيمته إهمال صديقه القديم له وزهده فى معاشرته ، وأجج من نيران غضبه عليه ما تراى إلى سمعه من زيغ صديقه وعدم اكتراثه للأديان وإيمانه بالعلم وحده دون غيره. ولكن ذلك كله لم يستطع أن يمحو من صدره ولماً تربى فى قلبه منذ الصغر باحسان شقيقة الطبيب الناكث الناجح الكافر ... ما كنه هذا الولع ؟ كانت الفتاة ـ إذا حرصنا على المجاملة ـ متوسطة الجمال وربما دلت بعض قسماتها على دمامة ، ولكنها كانت ممتلئة الجسم بضته ، مفصلة الثنيات خفيفة الروح ، فكان يسرى من مشهدها إلى صدره ما يشبه مس الكهرباء ، وكان يبقى فى أعصابه من أثر رؤيتها قلق وألم فاقتنع فيما بينه وبين نفسه بأن صاحبة هذا الجسم البض حرية بأن تسكن قلبه وتطفئ نيرانه .

وكان المنتظر والحال هذه أن يتقدم إلى صديقه القديم طالباً يدها ، ولكنه توقع الرفض ورجحه نظراً للفارق بينهما وبين أسرتيهما ، وسلم بظنه تسليما دون مناقشة أو مراجعة أو اختبار ، فانقلب أشد حقداً على صاحبه وعلى الدنيا جميعاً ... وطارد الفتاة حتى أوقعها فى شباكه فكانا يختلسان اللقاء الحين بعد الحين ، وكانا يذهبان إلى الحدائق يطلبان غرة من الناس وهنالك يلف ذراعه بذراعها ويروى غلته بلمسها وتقبيلها ، ويعطيها فى مقابل ذلك وعوداً خلابة . ثم يعود ظافراً بإشباع عاطفته والانتقام من كبرياء صديقه القديم ...

يا لها من نذالة ! ... إنه يعبث بفتاة تصدقه الحب وتخلص له أيما إخلاص ... فلو أن نيته صدقت على الزواج منها لربما فاز ببغيته ، ولربما كان هذا الزواج خير علاج لحياته البائسة. ومن يعلم فلعله كان الآن أبا يتعزى بما يخلف فى الدنيا من أبناء يمدون خيط حياته القصير ويعيدون حياته الفانية

ومهما يكن من أمر فما عساه صانعاً ولم يبق له من العمر إلا أيام أو شهور ؟ ماذا هو فاعل بشهوره الباقية ؟ هل يركن إلى الراحة والدعة ؟ أم هل يطبع على عينيه فيستهتر ويتمادى فى غيه ؟ أم هل يستطيع أن يصلح فى شهور ما أفسده فى خمسة وثلاثين عاماً ؟

ليس الانسان حراً فى الاختيار كما يتراءى له ، وقد كان محمد ـ على تفاهة حياته وقذارتها ـ يؤمن بالله وباليوم الآخر فبث إيمانه الخوف فى نفسه وجعله يشفق من عاقبة الموت فاختار سبيل الاصلاح . نعم قد لا يستطيع أن يصنع شيئاً ذا بال ، ولكنه على كل حال لن يعدم طعم الراحة التى يثيب عليها الاجتهاد ...

إن الموت قريب وهو يحس بدنوه منه ساعة بعد ساعة، ولكن رسوخ هذه الحقيقة فى نفسه جمع شتاتها وقوى جنانها وملأه شجاعة واستهتارا بالمخاوف، مخاوف الدنيا جميعا، وهم يخاف بعد اليوم؟ بل كيف يخاف شيئا؟ لقد كان حب الحياة مبعث مخاوفه جميعا، فلما صار حبا ضائعا لا فائدة فيه انحلت عقدة مخاوفه وانطلق من إساره حراً طليقا لا ينوء صدره بشيء من تكاليف الحياة ...

كم كان يخاف الرجال — أو بعض الرجال على الأصح — وكأنه يكتشف الآن فقط أنهم أناس مثله، وكم داس على الحق والكرامة فى سبيل مرضاتهم! وكم ضيع من فرص فى الحياة!... لاخوف بعد اليوم ... ولامجاملة فى الحق ... ولا فر حيث يجب الكر. ولا إحجام حيث ينبغى الأقدام. كلا. كلا. لقد انقلبت المخاوف جميعها ألاعيب أطفال وسيشق طريقه فى الحياة غير هياب.

واستحال محمد افندى عبد القوى إنسانا غير الانسان الذى عرفه الناس ...

وكان أول ما صنع أن سحب من نقوده المودعة فى البريد خمسة جنيهات وذهب لتوه إلى المرأة ابنة العجوز المتوفاة وأعطاها إياها وهو يقول «هذه أمانة أمك ترد إليك» ووقف لحظة ذاهلا أمام الفرح الذى غمر قلب المرأة البائسة وفاض منه إلى أبنائها وشمل البيت جميعا فى ثوان سريعة، وشارك فيه وهو لا يدرى وخيل إليه أنه محدثه فأحس بسعادة ظاهرة لم يخفق بمثلها قلبه من قبل ...

وألغى إجازته وعاد إلى وظيفته بعزم جديد، وحدث ما كان متوقعاً فوقع الصدام بينه وبين رئيسه وبينه وبين زملائه وجرت على لسانه كلمات لم تكن لتنتظر منه أبداً وكانت موقع الدهشة لدى الجميع، ذاد بها عن الكرامة وذم «الاغتياب» وندد بها المتحرشين وجعلته بطل ثورة غريبة حار الجميع فى تعليلها، ووجد الجو من حوله يتغير سريعاً وآنس من البعض ميلا إلى إبعاده أو تأديبه ولكن شيئاً واحداً لم ينازعه فيه إنسان وهو الاحترام الظاهر والمعاملة اللائقة، ورضى بذلك مغتبطاً ولم يبال ما تخفى الصدور أو ما تخبئ الحنايا

ترى أمن الحكمة أن يغضب القوم وهو على أبواب الأبدية؟ ولكن ما حيلته وهم لا يرضون عن إنسان يعرف حقاً لانسانيته وكرامته، وهو على كل حال لا يعبأ بالناس فى سبيل مرضاة الله الذى هو على وشك المثول بين يديه ...

وإحسان! ماذا هو صانع بها؟ لقد ضيع الفرصة السانحة وترك شبابه يتسرب من بين يديه وهو غافل عنه بالاطمئنان إلى العمر المديد ... ومهما يكن فالأمر واضح لا لبس فيه، وليس عليه إلا أن يذهب إلى صديقه القديم ويطلب يدها فاذا رفض — وهو حتما سيرفض — عاد مطمئن الضمير ملقياً عن نفسه ما ينغصها من وخز الألم والتأنيب ولن يضير إحساناً اختفاؤه من حياتها لأن عدم الزواج من ميت ليس خسارة تذكر ...

وذهب إلى صديقه القديم وحادثه فى الأمر وانتظر الجواب الذى قدره، ولكن حدثت معجزة لم يقدرها مطلقاً ... فرحب به الشاب وقبل طلبه وشد على يده بحرارة ...

يا العجب! لقد كان أعمى حقاً، ولكن ما العمل الآن؟ فقد غدا الزواج منها جريمة لا تغتفر لأن معناه أن يغادرها بعد حين قليل أرملة فى

عنفوان الشباب وربما ترك فى بطنها طفلا يتيما ...

ووجد نفسه فى حيرة ظلماء لا يهتدي فيها إلى مخرج، فقد قبل طلبه بالموافقة التامة وعلمت به احسان، ولا شك أنهـا تنتظر الآن بفرح عظيم الخطوات الختامية وهو لا يستطيع أن يتقدم ولا يدرى كيف يتقهقر . . .

ولم يربدا فى النهاية من الافضاء إلى فتاته بأزمته النفسية بجميع تفاصيلها وباح لها بكل مخاوفه وأوهامه، وأصغت الفتاة إليه بقلب واع ، ولـكنها لم تجد من نفسها استعدادا لتصـديقه أو موافقة على ظنونه وتقديراته، وأبت أن تسلم بما يسلم به قانطا، وحملته على عرض نفسه على مشاهير الأطباء، ولم تدعه يذهب وحده فذهبت معه ... وأكد الأطباء جميعا وجود الضغط ولـكنهم سخروا من أوهامه وأجمعوا على أن لاخطر يهدده قبل الستين ... وابتسمت إحسان مغتبطة وابتسم محمد فى حيرة وارتياب ، وظل على ارتيـابه أياما ولـكنه كان شديد الاستعداد للتأثر والايحاء فأخذت كلة الثقات تحوم من نفسه المخاوف. ولـكنه لم يعاوده شعور الطمأنينة إلى الحياة والنجاة من الموت إلا بعد أيام أخرى . فلما كرت ذهبت عنه حمى الخوف وعد نفسه مرة أخرى من الاحياء ، وتأمل حياته ساعة فلم يتمالك أن يهتف من أعماق قلبه : ياعجبا ... لقد بعثت بعثا جديدا ...

لأنه مات — إذا جاز لنا أن نقول ذلك — ذليلا جبانا سارقا نذلا أعزب، ورد إلى الحياة كريما شجاعا أمينا شهما متزوجا — فياللعجب ! هل يستطيع الموت أن يخلق جميع هذه المعجزات ؟ لقد غابت عنه قديما لذة الفضيلة فكبر عليـه فعل الخير وهالته الشجاعة وخال الاقدام عليها هلا كا ذريعا ...

فأثبت له الموت بالتجربة الواقعة أن الفضيلة لذة سامية ، وأن فعل الخير سعادة لا تعجز طالبه ، وأن الشجاعة حياة كريمة لا هلا كا محتوما ...

ولا نحب أن نقدر محمدا بفوق ما يستحق فالحق أنه كانت تأتى عليـه ساعات يخلو فيها إلى نفسه فيهمس حيران متأسفا : قد تزوجت وانتهيت ... وهجرت حياة الليل اللذيذة ... ولن أكون آمنا بعد اليوم فى وظيفتى ... ولـكنها كانت أصواتا خافتة سرعان ما تغيب فى جلبة الحياة الجديدة ...

ولبث يعجب لما صنع الموت منه . ويحسبه من الخوارق والمعجزات . ولما امتلأ صدره بالتعجب والتأمل رأى أن يشرك فى أفكاره صديقه الطبيب الذى لا يؤمن بغير العلم والمادة فقص عليه قصته وروى له ما فعلته فكرة الموت بحيانه ، وأصغى إليه الطبيب بانتباه ، فلما انتهى قال له بسخرية: « ويحك أتتوب عن نعيم الدنيا لدنو الموت منك ؟ ... انظر إلى ... ألست تراني أواصل الليـل بالنهار عملا واجتهادا وراء المجـد والشهرة والنجاح ؟ أفتعلم ما الذى أصنع لو اطلعت على الغيب وعلمت أن الموت منى قريب ؟ ... لاشيء ... اخلد إلى الراحة والدعة واقضى ما بقى من حياتى بين الـكاس والخدود ! »

وضحك ضحكا عاليا متواصلا ثم قال بنفس اللهجة الساخرة :

« ولـكن أتعلم متى أتوب حقا عن المهالك وأهب نفسى للعلم والفضيلة ؟ .. إذا وجدت الخلود ممكنا فى هذه الدنيا » وأصغى إليه محمد فى صمت وجمود ... وازداد عجبا وتأملا ...

نجيب محفوظ

كرم

للكاتب الشاعر القصصي «بول بورجيه»
بقلم السيد كمال الحريري

المكان «باريس» والوقت عصر يوم من أوائل الربيع الباسم الطلق، وزمر الغادين والرائحين تملأ شارع «ريفول»: وهو الشارع الذي ينتصب في ساحته تمثال القديسة «جان دارك» وكان موج دافق متراكب من السيارات والعربات والدراجات لا يفتأ يتجدد ويتمالى دويه وهديره فيصم الآذان حتى لقد كان يعجز أمهر رجال الخفية والشرط عن تعقب أحد من الناس خلال هذه الزحمة الصاخبة الماجة من الناس والآلات

لهذا وحده اختار «جول به ليه» هذه الساحة والساعة موعداً للقاء حبيبته «إديل». فكان هناك خلف دكان حلواني يتظاهر بمراقبة قطع الحلوى بينما هو في الحقيقة متجه النظر لزجاج الدكان يرقب من خلاله ظلال الوجوه وهي تتماكس وتتحرك على صفحته. كان في الخامسة والثلاثين دقيق معارف الوجه، واسع إنسان العين، مكفهر السحنة: تكشف شفتاه الرقيقتان اللتان يظللهما شارب أشقر، عن أسنان بيضاء لامعة عجيبة، وتنم هيئته وملبسه عن حياة غنى وبطالة، ولكن صورة من الغموض والابهام، كانت تنطبع على تقاطيع وجهه. ويشاهد الفتى من خلال الزجاج فتاة كانت ولا شك هي التي ينتظرها، فترف ابتسامة غامضة على زاوية فمه. حتى إذا اقتربت الصبية منه، أجال في الشارع عينين حادتين نفاذتين أخذتا تنفضان جموع الناس، وقد انطبع عليهما بريق من القلق والخوف لا يبررها موقفه كعاشق قد يحتسب الرقباء والفضوليين.

كان أول ما لقى الفتاة المتأخرة بهذه الكلمة التي أودعها كل تخوفه ورعبه:

— لقد مضى عليَّ عشرون دقيقة وأنا أنتظرك «يا أديل» ورجال الخفية ألا تحسبين لهم حساباً؟

ثم مشى العاشقان جنباً إلى جنب، فقالت الفتاة في انفعال:

— لا أستطيع أن أهمل وصيفة كما أمرتني، لأن سيدتي تكاد تشك فيَّ ... ثم ... إذا كنت تظن أني ما أزال خاضعة لك إنك إذاً لمغرور ... إنها المرة التاسعة التي أنقاد لك فيها، ولكن هذا حسبي ... أفهمت؟ حسبي هذا. قالت اديل هذا بغيظ وهياج، حتى إن صوتها الصاخب وحركاتها العصبية أدخلت الرعب في قلب اللص فقال:

— حتى أنت يافتاتي ونعيم قلبي؟! قال ذلك في تدليل وتحبب وقد رق صوته وانبسطت أسارير وجهه، فأكسب ذلك محياه وهيئته شيئاً من الجمال الذي خضعت لسلطانه «إديل»

لقد كانت تقاسيم وجه الفتاة الدقيقة الجميلة، وطراز هندامها وزينتها تناقض كل المناقضة دور الشريكة الآثمة التي كانت تقوم به مع هذا اللص العاشق ... ثم تندم الفتاة على الرفض الذي جهرت به أمام عشيقها متدلهة، خصوصاً حين أبصرت انقلاب جفانه إلى رقة وإيناس، فقال:

— نعم لقد عراني منذ لحظة غضب طارئ،

ولكني أحبك على كل حال . وسبب هذا الكلام الذى بدر منى إليك إنما هو الخوف من أن يقبض علينا رجال الشرطة ، ألا تعلمين أن ذلك كان لأجلك ؟ أتريني نسيت عزمنا على مغادرة هذا البلد بمجرد أن نستطيع ذلك؟ ألا تذكرين ما قصصته عليك من قبل عن آلامي وأشجاني ؟ ألا تحسين ما أنا فيه الآن من الضيق والسجن في هذه الحياة المتشردة البغيضة؟!

لقد كانت عنيفة جارحة ، تلك الكلمات التى جبهتني بها منذ قليل . فقولى لى إنك نادمة عليها ، قولى ...

وحين رأى اللص صمت الفتاة الطويل راح يلتمس يدها برفق ، ثم جذبها إلى صدره بضغطة لطيفة لذيذة أراد منها شل ارادة الفتاة وإلهاءها عن ثورتها عليه . وتلك حاسة سادسة يمتلكها بعض الرجال الذين يعرفون كيف يتحببون إلى قلوب النساء . ولقد كان هذا اللص العاشق يعلم بوحى هذه الحاسة أن هذه الفتاة البائسة إنما هى له بجملتها مهما ثثر

لقد كانت تعبده هذه الفتاة ، فكان يستغل فيها هذا الوله لتحقيق أغراضه وتنفيذ جرائمه ، منذ اليوم الذى هجرت فيه عش الأمومة حتى هذا اليوم .

فى « إديل » كل معانى الصبا الذى ينم عليه وجهها البديع ومعارفها الوسيمة . لقد كانت بنتاً وحيدة لعائلة شريفة متوسطة الحال . مات والدها فى حومة القتال وهو يحمل رتبة ملازم ثان ، فاضطرت الصبية عقب وفاته إلى الاقتران بـ « مسيو بارون » وهو تاجر أقمشة شرس فظ ، لم ترزق منه ولدا لحسن الحظ . وحين اتصلت حبالها بهذا الشاب «جول مليه» لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه موظف فى أحد المصارف ، ولقد لفق لها الشاب حكاية لحياته جازت على عقل المسكينة فآمنت به ثم ... ثم أصبحت له خليلة بعد فترة من الزمن .

وتبلغ حكاية اتصالها بهذا الشاب إلى مسامع زوجها (وكان المبلغ له هو نفس عاشقها) فيطردها التاجر من منزله . وبعد أيام ثمانية ينعى إليها «جول» عاشقها بأنه ارتكب خطيئة فى وظيفته طرد بسببها من مركزه . وعلى هذا فقد أدركت الفتاة أنها حيلة منه ، وأنه يريد إشراكها معه فى سلسلة من الجرائم والسرقات لا تتصل حلقاتها إلا بشريكة مثلها من الجنس اللطيف . ومن أصلح لهذا منها ؟!

ولسوف يدرك القارئ طبيعة هذه الشركة ومرماها حين يعلم أن هذه المؤامرة التى دار الحديث حول تنفيذها بين العاشقين كما يأتى : لقد استخدمت إديل عند سيدة أمريكية اسمها « مس إديث » بوظيفة وصيفة ، وكان ذلك بشهادة كاذبة تحت اسم مستعار مزور . وإذن فلم تكن غاية هذا الموعد الذى ضربه لها العاشق اللص فى شارع ريفول إلا الاستعلام منها عن موضع صندوق الجواهر التى اعتزم تلك الليلة على اختطافها من سيدتها الأميركية.

ولقد مرت على شفة الشاب بسمة الفوز حين بدأت إديل تتكلم وتقول :

— لو لم تكن ياجول سيء الاعتقاد بإخلاصى وحبي لما شككت بكلماتى الموجهة إليك منذ هنيهة، إنك لتتسخط على حياة الاجرام والتشرد التى تحياها ولكن من يمنعنا من مبارحة هذا البلد منذ الغد ؟ أبداً لن يعلم أحد بحقيقة حالنا . ثم إنك ستعيش من العمل الحلال ، وسأشتغل أنا معك أيضاً .

وقاطعها اللص :

— إن هذا مستحيل في هذا الظرف على الأقل وأنت تفهمين جيداً وجه استحالته

— ولكن متى يكون ارتحالنا ؟

— حين نجمع لنا ثروة كافية ، وفى هذه الليلة سيكون ذلك إن نجحت إغارتنا على جواهر سيدتك. وبهذه المناسبة هل جربت على علبة الجواهر المفاتيح التى صنعناها ؟ وتجيب الفتاة :

— نعم لقد جربتها ياجول فنجحت كل النجاح

— وهل أنت مطمئنة إلى أن العقد الثمين اللؤلؤي موجود فى العلبة وأن سيدتك لن تتقلده هذا المساء ؟

— بالطبع لأنهـا ستتغدى في « نوى » عند مدرستها القديمة وستقودنى معها وعندى أن الوقت الملائم لدخول الفندق هو الثامنة مسـاء أو الثامنة والربع . قال اللص العاشق :

— لقد فهمت ، سأكون فى الثامنة عند باب فندق « بيوزيل » الذى يشرف على شارع « سانت هونوره » ولئن سألنى سائل عن وجهتي لأقولن له إلى مدام « زيرلى » فقد بلغنى أنها تقطن شارع يتفرع عن شارع « ريفول » . لسوف أمر بأول ممر من الفندق عن يمينى ، ثم أصعد درجتين ، ثم أصل إلى الغرفة التى رقمها ٦٧ ، ستكون مفتوحة بالطبع ، وسألقى أمامها دهليزاً ثم ردهة صغيرة . إن علبة الجواهر فى خزانة غرفة النوم ، وقد وضعت أنت المفتاح تحت سجادة السرير ، أليس ما أقوله صحيحاً بالضبط ؟ قالت الفتاة :

— تماماً تماماً ، ثم أردفت بارتباش :

— ولـكن عدنى أنك إذا لقيت أحـداً من عاملات الفندق ستبارح الفندق بعذر تنتحله ! ثم قالت « إديل » فى همس :

— لست أطيق أن أكون مساعدة لك فى جريمة قتل ، إن ذلك هائل . إن ذلك ما لا أطيق . قال « جول بليه » :

— ثقى أن ذلك لن يحدث أبداً ، لأن كل شيء سيجرى فى سكون وخفاء كما هى عادتنا فى السرقة ، وهبى أنى فوجئت بما لم يكن بالحسبان ، إنى سأدافع عن نفسى ، وسأختار أن يفصل رأسي على أن أذكر اسمك بسوء أو وشاية ، إلا إذا كنت أنت تذكرين اسمى فى مثل هذه الظروف . أجيبي أتذكرين اسمى ؟

— أبداً مطلقاً . قالتها وهى ترمقه بنظرة فيها الاخلاص والعتب ، فسرى عن نفس الشاب لهذا الاحتجاج الذي عبر عنه صوتها ومنظرها ، وحين أدرك اللص أن هذه المحاورة قد يكون من أثرها إن هى طالت أن تنبه مخاوف شريكته ثانية ، فقد قال ،

— ستكون هذه آخر محاولة نحاولها ، فتشجعى يا حبيبتى وهاتى لى لثمة من شفتك الحلوة . قال هذا ثم قادها إلى جهة كنيسة « سانت روش » فى زقاق ضيق خال من المارة . هناك جذبها إلى صدره وضمها بين ذراعيه ضمة عنيفة حارة ... ثم ... ثم تلاقت الشفاه ... وشعرت الصبية وهى تجوز شارع « هونوريه » عقب هذه الثواني اللذيذة من الضم والعناق ، بدبيب هذا الحب الطاغي يجرى فى عروقها فيجعل منها دائماً آلة صماء في يد هـذا العاشق اللص الجميل

* * *

لم تكد « إديل » تدخل فندق « بيوزيل » .

وتضع قبعتها عن رأسها حتى رن فى مسمعها جرس غرفة سيدتها ، يدعوها فرددت فى انزعاج وهى تتوجه لغرفة سيدتها :

— الساعة الآن السادسة إلا ربعاً ، وسيدتى من عادتها لبس ثيابها فى السادسة والنصف ، أترى بدا لها فى الذهاب فغيرت رأيها ؟ ! أعنّى يارب ...

كانت «مس إديث» مستلقية على كرسى طويل فى غرفة الفندق وكان كل مايحيط بالسيدة من متاع وأثاث يحمل طابع اللطف والرقة والكرم : هى امرأة فى الخمسين من عمرها شقراء تضرب شقرتها إلى حمرة داكنة ذات عينين سمراوين ملتمعتين ، ووجه لطيف التكوين يصطبغ بصبغة زهرة حائلة ذاوية . ولسبب يعود إلى مزاجها الصريح وطبعها البرئ من التكلف والرذيلة ، كانت « مس إديث » تحب أن تطبع كل من يحيط بها من الخدم والوصائف على غرارها فى العوائد والمسلك . فكان يكفيها من وصيفاتها الطيبة والاستقامة كي يتقربن إلى قلبها وينزلن من نفسها منزلة الأبناء . انجذب قلب « مس إديث » لوصيفتها « اديل » منذ غياب وصيفتها القديمة الألمانية تلك التى انطلقت إلى أهلها عقب برقية مستعجلة تلقتها من أمها المريضة . ولم تترك السيدة « إديث » لوصيفتها الألمانيـة فرصة سانحة للاعتناء بأمها قررت الاستعاضة عنها بغيرها خلال هذه المدة ، فشاءت الصدفة أن تكون بديلتها فتاتنا « اديل » تحت اسم مستعار مزور بشهادة ملفقة . وكان أول ما بدرت به السيدة « إديل » أن قالت لها :

— إن لى ثقة كبري بالانجـذاب أو النفور اللذين تحدثهما لى رؤيتى الشخص أول مرة ، وعن هذا الانجذاب أوالنفور أصدر فى معاملتى لوصيفاتى « ياإديل » . لم يكد يمضى على اديل ثلاثة أشهر عند « مس اديث » حتى عزمت هذه الأخيرة حين نزلت من نفسها الوصيفة منزلاً حسناً ، أن تعرض عليها السفرمعها إلى أمريكا مع سلفتها الألمانية . ولـكن شيئاً واحداً كان يؤلم قلب هذه المرأة الطيبة ، فى كل مرة كانت تلتى اديل الزائفة : كيف تطلب منها أن تكون لها وصيفة فى الدرجة الثانية بعد تلك الألمانية النائية ؟ أى وسيلة ستتخذها كيلا تؤلم نفسهـا وتجرح شعورها ، بينما رسائل تلك تترى إليهـا بالقدوم ؟ إنها لتعلم من حب « اديل » لها وتفانيها فى خدمتها مالا تستجيز لنفسها معه أن تفاتحها بهذا الموضـوع . على أن « مس اديث » لم تكن مخدوعة ، فإن « اديل » كانت تبادلها حباً بحب واخلاصاً بإخلاص . ولم يكن هذا التمرد والتردد اللذان أبدتهما « اديل » لماشقتها إلا أثراً لـما يعتلج فى جوانحها ويثـور فى قرارة ضميرها من الندم على ما هى مقدمة عليـه من خيانة سيدتها الحسنة الطيبة الـكريمة . وقبيـل أن يرن الجرس لاستدعائها خطر لها أنه يمكنهـا أن تنبه سيدتها إلى ما قد تتعرض له من الخطرهذه الليلة .

لـكن رنين الجرس صعقها وأزعجها ، أيكون مشروعها الأثيم قد أحبط واتصل خبره بسيدتها ، وهى الآن تريد من استدعائها أن تقبض عليها وتسلمها ليد العدالة ؟! كل ذلك جال بخاطر الشريكة المسكينة ، وهى تسرع الخطا إلى غرفة سيدتها التى بادرتها بهذه الـكلمة :

— إنى لن أبرح الفندق هذه الليلة يا «اديل» لأن مدام «رنود» (وهى المدرسة التى قضت عندها

مس أديث عامين من حياتها) أبرقت إلىّ تعلمنى بمرضها، وأنا نفسى أحس بشيء من الوعكة والضعف

لم تجب « اديل » على كلام سيدتها الاميركية ، لأن مشهداً هائلاً كان يتمثل فى خيالها تلك اللحظة لقد فتح الباب الذى يواجه باب غرفة سيدتها وبرز منه خليلها « جول بيه » وهو يعتقد أن غرفة سيدتها فارغة كما هو متفق. وإذن فإن «مس أديث» ستسمع الضجة، وسترى كل شيء وحينئذ؟ وحينئذ إما أن تساعد « اديل » الفرصة فتنبه سيدتها لخطر حبيبها فتكون قد قضت عليه، أو أنه سيفوز فيقتل سيدتها الكريمة . فى ظرف ساعتين ، سيكون هذا المشهد حقيقة راهنة . وهنا ترتجف أوصالها وتشعر بقلبها يميد ، وتشاهد الامريكية اصفرارها وارتجافها واضطرابها ، فتقول فى قلق

— ولكن ما بك يا « اديل » أأراك مريضة ؟ ثم تنهض من كرسيها الطويل وتتجه إلى وصيفتها ولكن هذه توقفها بإشارة من يدها وتقول

— لا شيء يا سيدتى إنه دوار بسيط يعرض لى دائماً وقد انصرف عنى الآن

— ولكنى أشاهد حالاً غريبة تأخذك منذ أيام ! أيكون أحد قد ساءك أو آذاك ؟ أتكون خدمتى لا تعجبك وترهقك ؟ قالت هذا بصوت تسيل نبراته حناناً وتحبباً ، ثم أردفت تقول :

— لئن كان هذا ، فإنى جد آسفة على ما فرط وخصوصاً أنى من السرور بك والارتياح لخدمتك وإخلاصك ، بحيث يقوم بنفسى أن أعرض عليك أمراً : لقد قلت لى سابقاً إن ذويك، ليس لهم أحد غيرك وغير شقيقتك، أفتعتقدين أنهم يرضون بذهابك معى إلى أمريكا ؟

— إلى أمريكا ؟ ! (رددتها شريكة اللص فى دهشة) تريد سيدتى ...

— أن آخذك معى إلى أمريكا . ثم تابعت « مس أديث » كلامها فقالت

— غير أن هناك مشقة احتمالها يسير عليك ، وهى التى أتردد منذ طويل فى الإفضاء بها إليك . فقولى لى الآن فى صراحة وجلاء ، ألست واثقة من حبى لك وإيثارى مصلحتك وخيرك ؟

— أواه يا سيدتى ، وهل أشك فى ذلك وأنت من أعطف الناس علىّ وأحسنهم معاملة وألينهم كلمة؟!

— إنك لتستأهلين منى هذا وأكثر ، وإلا فماذا كان يحدث لى لو أنك كنت بعيدة عنى هذه الشهور؟! ثم عرا الاميركية شيء من الحيرة والحياء، فاستأنفت تقول :

— وأظنك تدركين أنه لا يمكن العيش سنين عدة مع وصيفة أمينة كوصيفتى السابقة ، دون أن يتعلق القلب بها ، كما أظنك تعرفينى على أنى لن أستطيع التخلى عنها ولا سيما أن رسائلها تنبئ من يوم لآخر بمجيئها ... نعم إنها هرمة محطمة تحتاج هى نفسها إلى وصيفة تعينها ... وسيكون شديداً عليك أن تكون هى الأولى وتكونى أنت الثانية ... ولكن إذا سلمت إليك رأس كل شهر نفس الراتب المعتاد ، ووعدتك بأنك ستخلفين يوماً هذه العجوز فى خدمتى ، أتراك ترضين بهذا ؟

لقد كان فى هذا النوع من التوسل الذى تبديه هذه المرأة الثرية النبيلة أمام خادمتها كرم ونبل يثيران القلب ويستفزان الإعجاب والاكبار . نعم إنها كلمة طيبة لاغير. ولكنها على ذلك تكشف عن كنز غنى من حساسية دقيقة وشعور إنسانى رهيف وهنا شعرت اديل رغم موت ضميرها بمرض

الجرعة والانحطاط — بهزة من الندم طالما أحست بها، إذ هي تدور من قطب هـذه المرأة الصالحة الطيبة حول محور من لطف وكرم وحساسية . ولكن هذه الهزة تستحيل الآن وهي تسمع كلماتها الطيبة إلى زلزلة هائلة من النـدم ووخز الضمير : زلزلت أعشار قلبها وحنايا نفسها فادت أي ميدان . وتنظر الفتاة حائرة إلى هـذه المرأة الضعيفة الطيبة الحنون التي اعتزمت هي أن تضحي بها بعد دقائق على مذبح خيانتها وحبها الآثم ، فتفيض عيناها من الدمع وتروح تغمغم :

— إنك يا سيدتي رمز الطيبة وعنوان الكرم؛ وإن لساني لا يقوم بشكرك على عنايتك بي وسهرك عليّ . ليس شيء في الدنيا أحب إليّ من خدمتك فكيف تظنين أني سأستاء إن قدّمت عليّ وصيفتك السابقة ؟ سواء لدى أكنت الأولى أم الثانية في خدمتك . حسبي أن أكون بجانبك ، ولا يهمني شيء بعد ذلك ، ولـكن ... وتقاطعها الأميركية :

— ولـكن ينبغي لك ألا تتعدى أمراً دون استشارة أهلك . وعلى ذكر أهلك أقول إن اليوم عيد ميلاد أمك القديسة « أميل » وتذكرت « إديل » في جهد أن ذلك الاسم الخيالي الذي لفّقته « لس إديث » حين استخدمت عندها إنما كان من ابتكار خيالها وكذبها. أما « مس إديث » فقد مضت في حديثها تقول بلهجة حنون وابتسامة عطوف :

— لماذا لم تنبئيني بهذا ؟ إذن لـكنت سمحت لك بقضاء يومين بجانب أمك ، ومع هذا فلا تأسي ولا تأسفي ، فما زال لديك وقت متسع إن سافرت من الآن ، فليست « كره نه ل » بعيدة عن هنا كثيراً ، ثم إني لست بحاجة إليك حتى الحادية عشرة غداً . إنما قولي لي هل أنت مغتبطة سعيدة ؟ قالت الوصيفة في خفوت لم يبلغ مسمع سيدتها إلا بجهد :

— أواه يا سيدتي ، إني جد مغتبطة ... ثم ولّت من الغرفة تكفكف دمعة حارة انحدرت على خدها

وقالت : « مس اديت » لنفسها بعد إذ غادرتها وصيفتها

— كم هن طيبات القلب بنات الشعب ؟ ! أنا واثقة بأن حزنها كان سببه حرمانها من ذكرى عيد والدتها

* * *

ومضت ساعتان على ذلك ، وكادت تدق الساعة الثامنة و « أديل » ما برحت محتبسة في غرفتها ملتزمة كرسيها الذي انحطت عليه عقيب خروجها من غرفة سيدتها ... وفي غمرة من اضطراب نفسها وتبكيت ضميرها وتناقض عواطفها وشعورها راح يعتادها من جديد شعور الاعتراف بجميل سيدتها وكريم عطفها أقوى مما كان يعتادها من قبل — حتى لقد كان واجبه عندها في تلك اللحظة يفضل حياتها وحياة حبيبها ومباهجها معه .. وتكاد تأزف الساعة الرهيبة المخجلة : ساعة قدوم حبيبها اللص ، فتنتابها لذلك حمى الخوف من الافتضاح بالاضافة إلى شعور الندم والتبكيت ، ترى ما ذا تصنع ؟ في أي مكان هو « جول بليه » الآن ؟ أتنتظره على رصيف

الشارع كي تبدهه بالخبر وتمنعه من دخول الفندق، أتقول له إن مشروعه أحبط بملازمة سيدتها غرفتها هذا المساء ؟ لقد كانت هذه أول فكرة خطرت في ذهن المسكينة القلقة ، وهي تتمثل محيا حبيبها الغاضب المربد بنظراته الجامدة الباردة وصورته المهددة التي تنذر بالويل والثبور ، ولكن من يضمن أنه سيصدقها فلا يصمد رغماً منها إلى غرفة سيدتها كي يبحثها هو بنفسه ؟ أتحاول اعتياقه عن غايته الأثيمة ؟ ولكن تمثلت هذا المشهد الفظيع المروع : سيدفعها بعنف بل سينهال عليها ضرباً إن ألحت على صده ورده ، وحينئذ والناس ملتفون حولها سيتدخل شرطي الشارع في الأمر وسيقودها إلى التحقيق ... وهنا كادت مادة دماغها تجمد ، حين تمثلت منظر القبض عليهما . وماذا بعد ذلك غير ضبط العصابة وزجها في السجن . . . لا،لا، هذه الطريقة غير ممكنة ولا مجدية ، وأحسن منها أن تنتظر في الفندق بعدم اكتراث مجيء حبيبها اللص. إن ذلك ممكن وسهل التنفيذ، ثم ... شلت إرادتها ثانية فكرة مخيفة لم يكن مبعثها خوفها من تهديدات حبيبها ، ولكن مبعثها احتسابها لضعفها وعجزها أمام نظراته الساحرة الكهربية وهنا تمثل لها حبيبها ليس فظاً ولا جلفاً ولكن رفيقاً رقيقاً لطيفاً مؤنساً ... أإذا طلب منها إخفاءه في غرفتها كي يزاول سرقته الليلية، أترفض ؟ أإذا أمرها أن تسرق هي نفسها العقد اللؤلؤي كي تسلمه إياه وهو في مكانه ، أتأبى ؟ نعم بهذه الوسيلة سيذهب بغنمه وينتهي المشكل ولا يشعر أحد بها ولا به . . . ولكن أتغدر بتلك الإنسانة الكريمة التي أظهرت لها منذ لحظة كل كرم وحب وإخلاص؟ كلا ، كلا ، ولكن ماذا بعد هذا التردد ؟ وترتفق المسكينة وجه الطاولة ، وتنمر رأسها بين يديها ثم تروح في هوة لا قرار لها من التأمل والتفكير...

ودقت الثامنة فهبت فجأة مذعورة مرهقة تقول : الوقت لا يحتمل الامهال والابطاء ... فبعد دقائق سيأتي « جول به ليه » شريكها في الاثم . ولكن في هذه الأزمة الفكرية المتحرجة ، ومضت في رأسها القلق الحائر فكرة وجيهة لم تنتبه لها من قبل وفجأة عادت إلى هذه الروح الوالهة التائهة قواها النفسية الباطنة يا للدهشة والنباء ، كيف لم تفطن لهذه الخاطرة من قبل ؟ إذن فعليها أن تتوجه إلى غرفة سيدتها ، ثم إلى « مس اديث » كي تقول لها كل شيء ، وتكشف لها عن باطن الأمر طالبة منها في تضرع أن تسدل الستار على هذه الخزاة التي كادت أن تكون هي « مس اديث » ضحيتها ... إنها لتعلم من كرم سيدتها وحنانها ما يجعلها تؤمل في العفو عن صاحبها المجرم بعد هذا الاعتراف الصادق منها ولا سيما أن كشف أمره معناه كشفها هي الأخرى بصفتها شريكته ودليلته إلى الفندق ، وذلك ما لن تفعله سيدتها ... ولكن أتجرؤ على الكلام أمام هذه السيدة المحسنة السمحة البرة ؟ أتحدثها عن تفاصيل جريمتها الخزية الشائنة التي جعلت منها وصيفة مزورة خائنة ؟ ولم هذا التزوير وما غايته ؟ يا للعار يا للشنار ...

وفي لحظة عظم في قلبها هذا التأثير ، فلفظت

كلة : لا ، لا ، ثم ألقت بهذا التصميم وجه الحائط ومضت لحظة فاذا بها تقول فى خفوت : ولكن ! إذا ! واستيقظ فيها من جديد قلب المرأة الشريفة « البورجوازية » فاذا بضميرها يبكتها من جديد ، وإذا بها تزفر وتقول : كم سيكون ذلك فظيعاً شنيعاً إن أنا لزمت جانب الصمت . ثم تقول بصوت مطمئن واضح :

— إن ما سأعمله هو جدٌّ صائب وشريف ...

وقامت لساعتها خافقة الجوانح مرتعدة مضطربة تقتحم غرفة سيدتها في سرعة كي لا تترك لنفسها وقتاً للتفكير وموازنة الآراء ... بهذا العزم والصورة نقرت على باب سيدتها . يا لله ! كم هو رائق حلو ذلك الصوت الذى انبعث إلى أذنيها من الغرفة قائلاً : أدخلى !

كانت مس « إديث » ما تزال مستلقية على كرسيها وبجانبها بقية من طعام كانت تتناوله . فحين رأت وصيفتها بهذا القلق والارتباك قالت لها بدهشة:

— أو قد عدت ثانية يا « إديل » ولكن ماذا حدث ؟

— حدث أنى خدعتك وغرّرت بك ياسيدتى وأنى لست إلا وصيفة زائفة هى خليلة لص فاجر مجرم سينتهك حرمة منزلك بعد قليل . حدث أنى شريكته قد زورت مفتاحاً لاستلاب ما تحتوى علبة جواهرك ، وهذا المفتاح فى جيب عشيقى الآثم... حدث أنى ... بث لا أستطيع احتمال تنفيذ هذه الجريمة الشنعاء ضد الشخص الكريم اللاتكى الذى عاملنى ويعاملنى معاملة أم رءوم وأخت حنونة ....

ونهضت فى هذه اللحظة «مس إديث» بينما أخذت « إديل » تكلمها وتقول :

— ليس فىّ ما تخشينه على نفسك ياسيدتى .. ولكن ... جول ليس بوسعى أن أسلمه للشرط ... كلا لست مستطيعة ذلك أبداً ... وما عليك ياسيدتى لملاقاة هذا الخطر الذى سيحدث بعد دقائق إلا أن تقفلى الباب من الداخل ... حتى إذا أراد الدخول عليك تحتم عليه أن يدفع مصراعى الباب ... وحينئذ ... تتكلمين بصوت مرتفع مع نفسك فيفهم أنك لم تبارحى الغرفة هذا المساء ... فيغادر الفندق دون أن يحدث أمر فظيع ... أما فى حالة عدم خروجه فإنك تستطيعين النجاة إلى غرفة ثانية وهناك تطلبين النجدة والغوث ... ابقى مكانك أنت ودعينى أنا أبادر إلى العمل ... وهنا يعقب كلامها عملها فأسرعت « اديل » إلى باب البهو وأغلقته ثم أدارت المفتاح فى قفله مرتين ، ثم أسقطت عليه المزلاج الداخلى . وكذلك وبنفس العجلة عملت فى غرفة النوم ما عملته فى البهو ، ثم عادت إلى سيدتها الأميركية وكانت هذه قد سمرت بمكانها كالمشلولة أمام هذا المشهد المرعب السريع الصامت . وبينما كانت المرأتان منتصبتين الواحدة أمام الأخرى، وقبل أن تستعيدا شيئاً من حقيقة الموقف المتأزم الفاجع إذا بضجة تنبعث من البهو فتهز أدق عصب من أعصاب المرأتين ثم تبدو ذراع تدير زر باب البهو ولكن المقاومة غير المنتظرة التى وجدها « جول بليه » من القفل ، أدهشته وصعقته فأخذ يحرك الباب بشيء من الحذر . . . صرخت « اديل » متوسلة ضارعة

— تكلمى بحقك يا سيدتى ! فصاحت مس أديت بصوت هادئ لا رعشة فيه ولا اضطراب

— ولكن من هناك ؟ ! ثم مشت بجأش رابط إلى مدخل البهو وهى تقول : إذا لم ترد على فسأنبه الخدم بدق الجرس ... قالت هذا وأرهفت أذنيها ، فإذا بها تسمع زفرة حبيسة انطلقت من صدر « جول » لهذه الخيبة والفشل الفاجئين ، ثم تجاسرت الأميركية فوضعت يدها على مقبض الباب وقد تهيأت لفتحه . ولكن فى هذه اللحظة سمعت خفق نعل « جول » يضمحل ذاهباً شيئاً فشيئاً ، ففهمت أن اللص يبتعد ويلوذ بالفرار . ثم تكلمت فقالت :

— لقد انطلق صاحبك يا « إديل » وسأدق الآن الجرس كي أشعر الخدم وأهل الفندق أن أحداً من اللصوص أراد دخول غرفتى على، وبأنى فى حاجة إلى حارس أضمه فى البهو بقية الليل . ثم تناولت يد الصبية وقالت لها :

— أما أنت فأريد منك ألا تبرحينى كى تقصى على قصة حياتك لأنى أبغى معرفة كل شيء

* * *

فى صبيحة غد هذه الحادثة أفاقت «مس إديث» متأخرة عن موعد استيقاظها ، وكان الاعتراف الباكى الحزين الذى اعترفت به الوصيفة أمامها ، قد حرك أوتار قلبها النبيل فقالت لها فى حنان :

— لقد أنقذتنى من ذلك اللص صاحبك ، وأنا بدورى أريد استنقاذك منه واستخلاصك لنفسى ... لسوف ترافقينى إلى أمريكا ، ولسوف تغيرين اسمك ، وهناك تعيشين فى كنفى دون أن يستطيع لحاقك أبداً . فكان جواب « إديل » على هذه المكرمة والشهامة دموعا حرارا هنا وقُبل مخلصة حارة لقدم هذه الانسانة الملائكية التى تعرض عليها — وهى فى هوة سقوطها وتدهورها — السلام والحب والرعاية . وهل بعد هذا كرم ومروءة وحنان ؟ ولقد تم الاتفاق بين السيدة ووصيفتها على أن تلزم « إديل » الفندق حتى قدوم الوصيفة الألمانية ، حينئذ تسبق سيدتها إلى « ليفربول » حيث تنتظرها هناك للابحار إلى أميركا ...

ولكن كم كانت دهشة « مس إديث » عظيمة حين أفاقت فى اليوم الثانى وراحت تنمز عبثاً زر الكهرباء مستدعية « اديل » دون أن يرد عليها أحد .. أخيراً عزمت الأميركية على استدعاء وصيفة الطابق الآخر كى تستعلمها عن غياب « إديل » ولكن هذه جاءت لتخبرها أن « إديل » غير موجودة فى الغرفة وأن رسالة معنونة باسم الأميركية قد وجدتها على طاولة « إديل » رسالة ؟ كلا . إن هى إلا سطور مكتوبة بيد مرتعشة هذه هى :-

« إغفرى لى يا سيدتى بحقك ... إنى لأشعر بعجزى عن فراق ... هذا الرجل الذى لن أستطيع العيش بدونه ... نعم لقد قنعت البارحة بمقترحك لأنك ملكت قلبي واستوليت على إرادتى بلطفك وكرمك ... أما الآن ... فأنا والمفتاة ، جدُّ أسيفة على حبه الذى سأحرم منه إلى الأبد إن لحقت بك . أرأيت ياسيدتى أنى لست من الطيبة والصلاح بحيث كنت تتصورين ... نعم لست طيبة ...

وسأكون ... على ما يحبه منى لا أنحرف عن رضاه ولا أسير إلا على إرادته ، لأن هذه قسمتى ... إني حين أحاول حياة أخرى بعيدة ... عنه ، أشعر بأن برودة الموت تجثم على صدرى وتغشى فى عروق ... وداعاً ياسيدتى ... ياسيدتى الكريمة ، إنى أتوسل إليك أن تجزى أمتعى فى طرد وتبقيه عند البواب باسمى ... وأنا واثقة كل الثقة بأنك لن تحاولى إيقافى ولا تسليمى للعدالة حين آتى لآخذ الطرد ... ولكن ... أواه كم أنا وقحة حتى أطلب هذا أيضاً . لئن وضعت ياسيدتى صورتك العزيزة المحبوبة بين ... أمتعى لتكونين هذه المرة ألطف إنسانة وأكرم امرأة عند خادمتك المقرة بجميلك وإحسانك إلى الأبد » خادمتك : « إديل »

.... لقد فعلت « مس إديت » ما طلبته منها وصيفتها الآبقة ، على رغم أن بعض قراء الفضائل يرون فيه خروجاً عن الطبع الانسانى اللئيم . نعم ، ولم تكتف بالصورة وحدها ، بل وضعت بجانبها مظروفاً يحتوى على خمسة آلاف فرنك و كتبت فى ورقة فيه :

« من « مس إديت » الأميركية إلى وصيفتها الأمينة « إديل » ذكرى محبتها وإخلاصها فى خدمتى سنتين . وكان فى آخر الرسالة هذا القول المعروف : أما وقد شئت فراق يابنية فاستعينى بهذه الصبابة من المـال على العيش مع صاحبك بشرف وحلال » « إديت »

كمال الحريرى

الأول والأخير

للكاتب جون جالزورثي
بقلم الأديب سامي الناقص

أشخاص الرواية

كيث دارانت مستشار ملكي
لاري دارانت أخوه
واندا

مناظر الرواية

المنظر الأول : فى مكتب كيث
المنظر الثاني : فى حجرة واندا بعد المنظر الأول بثلاثين ساعة
المنظر الثالث : فى حجرة واندا بعد المنظر الثاني بشهرين

« يعد برنارد شو وسير جيمس ماثيو باري وجون ملنيجتون سنج وجون جالزورثي أحسن كتاب الدراما فى الأدب الانجليزي الحديث. وقد تعلم جالزورثي فى هارو واكسفورد وككثير من الأدباء الانجليز درس القانون واشتغل به . ولكن هذه المهنة لم ترقه فتركها واشتغل بالأدب فكتب أولا قصصاً بين طويلة وقصيرة ثم تحول إلى كتابة المسرحيات فكان أول ما كتبه مسرحية (الصندوق الفضي) ثم كتب بعد ذلك أكثر من عشرين قصة تمثيلية كان أحسنها جميعاً مسرحيات البهجة والنزاع والعدالة والحامة والأوباش والأمانات وكل مسرحيات جالزورثي تعالج مشاكل اجتماعية فى البيئة الانجليزية . وهو يعرض لنا المشكلة فى مسرحيته فى قوة ككل كتاب الدراما معتمداً فى ذلك على الحوار الطبيعي وذكر التفاصيل الحقيقية مهما كانت مروعة فيهيج بذلك شعور المتفرجين . وهو يكثر من استخدام علامات التعجب لكي يترك فهم ما يراد منها إلى ذكاء المتفرجين . ومسرحياته كلها ناجحة لأنها وضعت على أساس مسرحي متين »

المنظر الأول

الساعة السادسة من إحدى أمسيات نوفبر فى غرفة مكتب كيث وهى حجرة كبيرة مغطاة بستائر كثيفة وليس بها إلا مصباح مكتب يسقط ضوءه على سجادة تركية وكتب موضوعة إلى جانب كرسي ذى مساند وطقم قهوة أزرق مذهب فتظهر كأنها واحة من النور أمام النار المشبوبة فى الموقد

نرى كيث نائماً فى كرسيه وقد انتعل حذاء تركيا أحمر وتدثر بثوب قديم من القطيفة الرمادية ، وهو أحمر الوجه حاد التقاطيع حليق اللحية وقد ابيض جزء من شعره الأسود ، إلا أن حاجبيه الكثيفين مازالا أسودين . يفتح الباب المغطى بالستائر والواقع فى الجزء المظلم من الحجرة بهدوء حتى أن كيث لا يستيقظ . يدخل لاري دارانت ويقف بالباب لايدري ماذا يفعل وهو شخص ضامر الجسم ذو وجه متعب بارز عظام الخد وعيون عميقة زرقاء وشعر ناعم أشعث ولكن وجهه ما يزال جيلا . يتحرك داخل الحجرة إلى جانب الحائط ثم يقف ثانية ساكنا ويتنهد وهو يلهث بصوت خافت فيصحو كيث فجأة ويتحرك فى كرسيه

كيث — من ؟

لاري (بصوت جامد) — إنه أنا لاري

كيث (بين اليقظة والنوم) — أدخل ؛ لقد كنت نائما

(لا يلتفت إلى الباب وإنما ينظر إلى النار بين يداعبها النعاس)

لاري (يتنفس بصوت مسموع)

كيث (يدير رأسه قليلا ناحية لاري) — حسن يا لاري ، ماذا وراءك ؟

لاري (يتقدم داخل الحجرة ولكنه يمشي مستنداً إلى الحائط خارج دائرة النور وكأنه لا يستطيع المضي دون الاستناد إليها)

كيث (يفرس فيه) — أأنت مريض ؟

لاري (يقف جامداً مرة أخرى ويتنهد)

كيث (يقف موليا ظهره إلى النار ثم يفرس فى أخيه) — ماذا حدث لك يا رجل ؟ (فى حالة أقرب إلى الوحشية تولدت عن اضطراب أعصابه) هل اقترفت جريمة قتل حين تقف مضطرباً هكذا كالسمكة ؟

لاري (هامسا) — نعم يا كيث

كيث (بصوت يظهر فيه الكره الشديد) — يا إلهي! سكران مرة أخرى! (يتغير صوته بخوف مفاجئ) ما الذي أتى بك إلى هنا وأنت على هذه الحالة؟ لقد أخبرتك — لو لم تكن أخي — ! تعال هنا، ما الذي يؤلمك؟ ماذا حدث يا لاري؟

لاري (يندفع من جانب الحائط المظلم ثم يجلس على كرسي ذي مساند في دائرة الضوء) — هذا صحيح

كيث (يتقدم إليه بسرعة ويحدق في عينيه حيث يظهر فيهما تعب مخيف — يتكلم بصوت منخفض يظهر فيه الغضب والحيرة) — ما هذا الهراء الذي تقوله؟ (يذهب بسرعة ناحية الباب ويزيح الستائر جانباً ليتأكد من أنه مغلق ثم يعود إلى لاري فيراه منحنياً فوق النار) هيا يا لاري تمالك نفسك ولا تتركها للمبالغة! ماذا تعني بما قلت؟

لاري (منفجراً في صوت حاد) — الأمر كما قلت لك، لقد قتلت رجلا

كيث (متمالكا نفسه بصوت بارد) — هدئ نفسك

لاري — (يرفع يديه ويعصر إحداهما بالأخرى)

كيث (يظهر عليه الخوف الشديد) — لماذا أتيت هنا وأخبرتني بذلك؟

لاري — ومن الذي أخبره غيرك يا كيث؟ لقد أتيت لأسألك عما أفعله — أأسلم نفسي أم ماذا أفعل؟

كيث — متى؟ متى؟ ماذا؟

لاري — الليلة الماضية

كيث — يا إلهي! كيف كان ذلك؟ وأين؟ من المستحسن أن تهدأ أولا ثم تخبرني عن كل شيء من البداية. خذ، إشرب هذه القهوة، فإنها تهدئ اضطرابك (يصب فنجاناً من القهوة ويعطيه لاري)

لاري (يشرب القهوة كلها) — اضطرابي! نعم! هكذا كانت الحكاية يا كيث — كانت هناك فتاة

كيث — نساء! دائماً نساء، ومعك! حسن؟

لاري — هي ماسحة أحذية. مات والدها ولم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها وتركها وحيدة. وكان يعيش معها في المنزل نغل (ولد زنا) فتزوجها أو ادعى ذلك. إنها جميلة جداً يا كيث. ثم تركها بعد أن أولدها طفلا فكادت تموت جوعاً، فالتقطها آخر وعاش معها سنتين حتى رجع إليها ذلك الحيوان واضطرها إلى العيش معه وكان يضربها دائماً. ثم تركها ثانية حين لقيتها وكانت على استعداد للعيش مع أي إنسان (يتوقف ويمر يديه على شفتيه وهو ينظر إلى كيث ثم يتمم حديثه متحدياً) وإني لأقسم أني لم أقابل امرأة أحلى ولا أصدق منها، امرأة وهي لم تتجاوز العشرين! ولما ذهبت إليها أمس كان ذلك الشيطان قد وجدها مرة أخرى فاندفع نحوي حيواناً كبيراً متوحشاً. أنظر! (يلمس كدمة على جبينه) فأمسكت بعنقه القبيح ولما تركته — (يسكت وتسقط يداه إلى جانبيه)

كيث — ماذا؟

لاري (بصوت مختنق) — كان ميتا يا كيث. ولم أعرف إلا أخيرا أنها كانت قد تعلقت برقبته هي الاخرى لتساعدني (يعصر يديه)

كيث (بصوت جاف) — ماذا فعلت بعد ذلك؟

لاري — جو . . . جلسنا بجانب الجثة طويلا

كيث — حسن؟

لاري — ثم حملتها على ظهري ونزلت إلى الشارع

وهناك فى ركن شارع تحت قنطرة تركتها

كيث — كم يبعد عن المنزل ؟

لارى — خمسين ياردة تقريبا .

كيث — هل ... هل رآك أحد ؟

لارى — لا

كيث — متى كان ذلك ؟

لارى — الساعة الثالثة بعد منتصف الليل

كيث — وبعد ذلك ؟

لاري — عدت إليها

كيث — لماذا ... بالله ؟

لارى — كانت وحيدة خائفة وكذلك كنت أنا يا كيث

كيث — أين تسكن ؟

لارى — ٤٢ ميدان بورو ... حى سوهو

كيث — والقنطرة أين تكون ؟

لارى — فى ركن شارع جلوف

كيث — ياإلهى ! لقد قرأت عنها فى جرائد الصباح . وتحدثوا عن الجريمة فى (الكورلس) (يأخذ جريدة من كرسيه ويتصفحها ثم يقرأ) لقد تحدثوا عنها ثانية (وجدت جثة رجل هذا الصباح تحت قنطرة شارع جلوف ونستطيع من تلك الآثار التي حول رقبته أن نظن ظنا يقرب من اليقين أن هذه العبة الفقرة لم تقف عند حد وقد سرق ما كان يحمله القتيل) ياإلهى (يلتفت فجأة) هل رأيت ما كتب؟ وهل كنت تحلم بذلك؟ أتفهم يالارى ؟ أ كنت تحلم بذلك ؟

لارى (فى توق شديد) — آه لو كنت يا كيث !

كيث (يغسل يديه كما يغسل أخوه) — هل أخذت شيئا من ا ... الجثة ؟

لارى (يخرج مظروفا من جيبه) لقد سقط منه هذا أثناء الشجار .

كيث (ينتزعه منه ويقرأ) « باتريك والين » أ كان هذا اسمه ؟ « نزل شيمون ، شارع فارتر ، لندن »
(ينحني جهة الموقد ويضع المظروف فى النار) لا ! إن هذا يجعلنى ...(ينحنى ثانية لينتزعه من النار) (ولكنه لايحرك يديه ثم فجأة يدفعه بقدمه بينا) لماذا بالله جئت إلى هنا وأخبرتنى بذلك ؟ ألا تعرف أننى . . . أننى على وشك الانتقال إلى مقاعد القضاء ؟

لارى (ببساطة) — نعم ، ويجب عليك أن تعرف ماذا أفعل ، لم أ كن أقصد قتله يا كيث ، إنى أحب الفتاة ... أحبها . ماذا أفعل ؟

كيث — حب !

لارى (مندفعا)— حب!... هذا الخنزير القذر! مليون من المخلوقات تموت كل يوم وليس فيهم واحد يستحق الموت أ كثر منه . ولكن . . . ولكنى أشعر به هنا (يلمس صدره عند مكان القلب) أشعر بشىء يقبض قلبى قبضا عنيفا يا كيث . ساعدنى إن كنت تستطيع أيها العجوز . لعلى لم أ كن خيّراً، ولكننى لم أوذ ذبابة إذا كنت أستطيع أن أقدم لها نفعا (يغطى وجهه بيديه)

كيث — تمالك نفسك يالارى ! دعنا نفكر فى الخروج من تلك الورطة . قلت إنه لم يرك أحد ؟

لارى — كان المكان مظلماً والليل ساكناً

كيث — متى تركت الفتاة بعد رجوعك إليها؟

لارى — فى الساعة السابعة تقريباً

كيث — إلى أين ذهبت ؟

لارى — إلى منزلي

كيث — شارع فتزروى ؟

لارى — نعم

كيث — وماذا فعلت بعد وصولك

لاري — جلست هناك — أفكر

كيث — ألم تغادر المنزل ؟

لاري — كلا

كيث — ألم تر الفتاة ؟

لاري (يهز رأسه)

كيث — ألا يمكن أن تشي بك ؟

لاري — لا ، مطلقاً

كيث — أو تسلم نفسها إذا اضطربت أعصابها ؟

لاري — كلا

كيث — من يعرف علاقتك بها ؟

لاري — لا أحد

كيث — لا أحد ؟

لاري — لا أعرف يا كيث من يكون قد عرف ذلك

كيث — هل رآك أحد وقت ذهابك إليها أمس أول مرة ؟

لاري — كلا فإنها تسكن الدور الأرضي ومفاتيح غرفتها معي

كيث — أعطنيها

لاري (يخرج مفتاحين من جيبه ويسلمهما لأخيه ثم يقف)

— لا أستطيع أن أبتعد عنها !

كيث — ماذا ؟ فتاة كهذه ؟

لاري (مندفعا) — نعم فتاة كهذه

كيث (يحرك يديه ليؤثر في أخيه) — ماذا تحمل أيضاً مما يربطك بها ؟

لاري — لا شيء

كيت — ولا في منزلك ؟

لاري (يهز رأسه)

كيث — صور أو رسائل ؟

لاري — لا شيء

كيث — أمتأكد أنت ؟

لاري — كل التأكد

كيث — ألم يرك أحد عند رجوعك إليها ؟

لاري (يهز رأسه)

كيث — ولا عند خروجك في الصباح ؟ أظنك لا تستطيع التأكد من ذلك

لاري — أنا متأكد

كيث — إنك مجدود . اجلس يا رجل فيجب أن أفكر (يتجه إلى الموقد ويتكىء على رفه بيديه ثم يضع رأسه على يديه)

لاري (يطيع فيجلس)

كيث — هذا لا يليق . إنها وحشية

لاري (يتنهد) — نعم

كيت — هذا الـ « والن » — أكان ذلك ظهوره الأول منذ اختنق ؟

لاري — نعم

كيت — كيف استطاع العثور عليها ؟

لاري — لا أعرف

كيت (بشدة) في أي حالة من السكر كنت ؟

لاري — لم أكن سكران

كيث — ماذا شربت ؟

لاري — قليلا من الكلاديث (نوع من الخمور الفرنسية)

كيث — قلت إنك لم تكن تقصد قتله

لاري — يعلم الله ذلك

كيث — هذا شيء

لاري — لقد أصابني عدة إصابات (يرفع يديه)

لم أكن أحسب أنى على هذه القوة

كيث — قلت إنها تعلقت برقبته ، ما أقبح ذلك !

لارى — كانت خائفة من أجلى

كيت — أتعنى أنها تحبك ؟

لارى (ببساطة) — نعم يا كيث

كيت (بوحشية) — أتستطيع امرأة مثل هذه أن تحب ؟

لاري (ثائراً) — يا إلهى ! أأنت شيطان متحجر ؟ ولم لا تحب ؟

كيث (جافا) — إننى أحاول أن أصل إلى الحقيقة. إذا كنت تريد مساعدتى فيجب أن أعرف كل شيء . ما الذى جعلك تظن أنها مغرمة بك ؟

لارى (بضحكة جنونية) — أوه ، أيها المحامى ! ألم تحتوك امرأة من قبل بين أحضانها

كيت — إنى أتكلم عن « الحب »

لارى (بحدة) — وأنا كذلك فقد قلت لك إنها تحبنى . ألم تلتقط كلباً ضالا من الشارع قط ؟ حسن إنها تحبنى حب الكلب الضال صاحبه الذى التقطه ، وكذلك أنا . لقد التقط كل منا الآخر . لم أشعر نحو أى امرأة بما أشعر به نحوها . إنها منقذتى

كيث (يهز كتفيه) — لماذا اخترت هذه القنطرة ؟

لارى — كانت أول مكان مظلم قابلنى .

كيت — أكان يظهر على وجهه أنه قد خنق ؟

لارى — (يحنى رأسه)

كيث — أكان مشوها ؟

لارى — نعم

كيث — ألم تلاحظ أى علامات على ثيابه ؟

لارى — كلا ، لم ألاحظ

كيث — ولمَ لا ؟

لارى (بضيق) لست مصنوعاً من حديد مثلك ولم لا ؟ لو كنت أنت الذى قتلت !

كيث (ممسكا بيده) — قلت إنه كان مشوهاً ، فهل معرفته ممكنة ؟

لارى (متعبا) — لا أعرف

كيت — متى كانت تعيش معه فى المرة الأخيرة وأين ؟

لارى — أظنهما كانا يعيشان فى بمليكو

كيت — لا فى حى سوهو ؟

لارى — (يهز رأسه)

كيت — منذ متى سكنت سوهو ؟

لارى — منذ سنة تقريباً

كيت — وكانت تعيش هذه العيشة ؟

لارى — حتى قابلتنى

كيت — حتى قابلتك ؟ أتعتقد ؟

لاري (جافلا) — كيت !

كيت (يرفع يده ثانية) دائماً فى نفس المنزل ؟

لارى (ساكتا) — نعم

كيت — ما صناعته ؟ أهو مجرم معتاد الاجرام ؟

لارى — (يحنى رأسه)

كيت — أظنه يقضى معظم وقته فى الخارج

لارى — أظن ذلك

كيت — أتستطيع القول بأن رجال الشرطة يعرفونه

لارى — لم أسمع بذلك

كيت (يمشى فى الغرفة جيئة وذهاباً ثم يقف أمام لارى ويقول) — إستمع إلى الآن يا لارى : عندما تخرج من هنا إذهب رأساً إلى منزلك وامكث هناك حتى آذن لك بالخروج . عدنى بذلك

لارى — أعدك

كيث — لن تخلف وعدك

لارى (فى إحدى ثوراته) — ذلك التردد كالماء لا يتقدم غيره

كيت — تماماً . ولكن إذا كنت تريد مساعدتى فافعل كما أطلب منك فانى أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير فيما يجب عمله . أمعك نقود ؟

لارى — قليل جدا

كيت (عابساً) — نعم ، دائماً نقودك ضائعة . لو كنت مضطراً إلى الهجرة — لاعليك ، سأدبر أمر النقود

لارى (متواضعا) — إنك طيب معى يا كيت . إنك دائماً طيب معى ، ولا أعرف لماذا ؟

كيت(متهكماً)—إنهاحقوق الأخوة كمايحدث دائماً . أفكر فى نفسى وفى أسرتى . ولا يمكن أن ترضى نفسك بقتل رجل دون أن تجر وراءك الخراب . يا إلهى ! لقد صنعت منى شريكا لك فى جريمتك ... أنا ... المستشار الملكى الذى أقسم ليخدمن القانون ، والذى فى مدى سنة أو سنتين سيتولى محاكمة أمثالك ! يا إلهى ! لقد دفعت بنفسك فى مأزق يا لارى

لارى (يخرج من جيبه صندوقاً صغيراً) — يجدر بى أن أنتهى من هذه الحياة

كيت — أيها المجنون ؟ أعطنى هذا

لارى (بابتسامة غريبة) — كلا (يمسك قرصا بين أصبعيه السبابة والابهام) سحر أبيض يا كيت ! واحد فقط ... وليفعلوا بك ما يريدون دون أن تحس بهم . يبعد عنك كل شعور بالعذاب . إنه راحة كبرى ! ألا تأخذ واحداً لتحفظه معك ؟

كيت — هيا يا لارى ! سلمنى هذا

لارى (يعيد الصندوق إلى جيبه) — لن أسلمه لك ! إنك لم تقتل رجلاً ، أترى ؟ (يضحك تلك الضحكة الجنونية) أتذكر تلك الطرقة التى قذفتنى بها ونحن صغيران ؟ لقد كنت محظوظاً يومذاك . وكنت محظوظاً مرة أخرى فى نابلى فقد كدت أقتل حوذياً لضربه حصانه ضرباً مبرحاً . أما الآن ... ! يا إلهى ! (يغطى وجهه)

كيث (يتأثر من أقواله فيذهب إليه ويضع يده على كتفه) — هيا يا لارى ! كن شجاعاً !

لارى (ينظر إليه) — حسن يا كيت ، سأحاول

كيت — لا تترك منزلك ولا تشرب خمراً ولا تكلم أحداً وهدئ من روعك

لارى (يذهب إلى الباب) — لا تتركنى مدة طويلة دون مساعدتك يا كيت

كيت — لا لا ! تشجع !

لارى — (يصل إلى الباب ثم يلتفت إلى أخيه ليقول شيئا لكن الكلمات تخونه فيذهب دون أن يتكلم)

كيت (يتجه إلى الموقد) الشجاعة ! يا إلهى ! إنى أنا الذى سيحتاج إليها !

(ستار)

المنظر الثانى

(حجرة واندا وهى بالدور الأرضى بحى سوهو الساعة الحادية عشرة تقريباً من الليلة التالية . لا يستطيع الناظر تمييز ما بالحجرة تماماً لأنها مضاءة بمصباح كهربائى واحد مغطى من جميع نواحيه . من جهة الشمال نار خامدة . وفى وسط الحائط الخلفى نافذة مغطاة بستار . وفى الجهة اليمنى باب الأثاث مكسو بغطاء من القماش وهو برغم رثاثته نظيف . بالحجرة أريكة بدون مساند خلفية أو جانبية وهى فى الوسط بين النافذة والموقد

(نرى واندا جالسة على هذه الأريكة محملقة فى الرماد المحترق وهى لا تلبس إلا قميص النوم يغطيه روب وقد انتعلت فى قدمها العارية حذاء خفيفا وقد شبكت يديها فوق

صدرها وأخذت تضغط بهما عليه . فجأة تتحرك فتنظر أمامها وتتسم . يظهر فى عينيها المرتجفتين سلامة الطوية . وجهها أبيض باهت وشعرها الأسمر الباهت المقصوص مسقوف جهة رقبتها العارية . عيناها السوداوان الخائفتان وشفتاها الورديتان الباهتتان تظهر وجهها وكأنه قناع أبيض ملون)

(خطوات شرطى منتظمة تسمع خارج الحجرة ثم تتلاشى فتذهب واندا فى خطوات خائفة إلى النافذة حيث تزيح أحد شقى الستارة فيدخل منها شعاع دقيق من النور ثم تفتح بقية الستارة حتى يظهر خلالها شجرة كأنها ساحرة عجوز موجودة فى الميدان الذى يلى الشارع من الجهة الأخرى . تسمع الخطوات مرة أخرى وهي تقترب فترخى واندا الستائر وترجع ثانيـة ولـكن الخطوات تتلاشى . تقف واندا بين الأريكة والباب وتنظر إلى الأرض وكأنها تبحث عن شيء ثم ترتجف وتغطى عينيها . ترجع إلى الأريكة وتجلس كما كانت جالسة أولا لتحملق فى الرماد ، ومرة ثانية ترتجف لسماعها صوت فتح الباب الخارجى فتقوم مسرعة وتجرى ناحية الباب فتضغط الزر الكهربائى المجاور للباب فينطفئ النور ولـكنا نستطيع تمييزها وهى واقفة تتسمع بجانب ستائر النافذة المظلمة بواسطة نار الموقد)

(يسمع صوت طرق خفيف على باب الغرفة فتقف مذعورة لا تستطيع التنفس ، يعاد الطرق ثم يسمع صوت مفتاح يدار فى القفل فيفارقها الذعر ، يفتح الباب ويدخل رجل يلبس ثيابا سوداء ومعطفا من الفرو)

واندا — (فى صوت متقطع من الفرح تشوبه نبرة أجنبية) — أوه ! هذا أنت يا لارى ! لِمَ قرعت الباب ؟ قد أخفتنى . أدخل . (تذهب إليـه فى سرعة وتحوط عنقه بذراعيها ثم تتراجع فجأة وتتكلم هامسة فى خوف) أوه ! من تكون ؟

كيت (فى صوت مختنق) — أحد أصدقاء لارى فلا تخافى

(تظل تتراجع حتى تصل إلى النافذة ، وعند ما يضيء كيت الغرفة تظهر واندا واقفة إلى جانب النافذة وقد أمسكت بالروب من فوق عنقها وظهرت على وجهها نظرة ذعر وكأنها فصلت من جثة ميت)

كيت (بلطف) — يجب ألا تخافى فانى لم آت لأوذيك بل على العكس تماما (يريها المفاتيح) ألا ترين أن لارى لم يكن ليعطينى هـذه المفاتيح لو لم يكن واثقا بى ؟

واندا (ما زالت واقفة محملقة دون حراك وكأن روحها انتزعت من جسدها) —

كيت (بعد أن يلقى نظرة على ما حوله) — إن أسفى شديد لأنى أخفتك

واندا (هامسة) — من أنت ؟ أرجوك .

كيت — أنا أخو لارى

واندا (تتنهد بفرح مفاجئ ثم تذهب إلى الأريكة وترتمى عليها)

كيت (يذهب إليها) — لقد خبرنى

واندا (تقبض على عنقها بيديها) — ماذا ؟

كيت — شيء مخيف

واندا — نعم ، أوه ، نعم ! مخيف .. إنه مخيف !

كيت (ينظر حوله ثانية) — فى هذه الغرفة ؟

واندا — فى نفس المكان الذى تقف فيه . إنى أراه الآن ، دائما أراه وهو يسقط

كيت (يتأثر من اليأس الحزين البادى فى صوتها) — إنك تبدو صغيرة السن ، ما اسمك ؟

واندا — واندا

كيت — أتحبين لارى ؟

واندا — إنى على استعداد للموت من أجلـه (لحظة صمت)

كيت — لقد ... لقد حضرت لأرى ما الذى أنت على استعداد لفعله من أجله

واندا (بمهارة) — يجب ألا تخدعنى ، أأنت حقاً أخوه ؟

كيت — إنى أقسم على ذلك

واندا (تشبك أصابعها) — لو كنت أستطيع أن أنقذه! ألا تجلس؟

كيت (يجر كرسيا إلى مكانه ويجلس عليه) — هذا الرجل ... زوجك، منذ متى لم تريه قبل هذه المرة؟

واندا — منذ ثمانية عشر شهرا

كيت — وهل يعلم أحد سا كني هـذا الحي أنك زوجته؟

واندا — كلا، فقد جئت هنا لأحيا حياة تعسة فلم يعرفني أحد . إني وحيدة تماما هنا .

كيت — لقد عرفوا شخصيته . . . ألم تعرف ذلك؟

واندا — كلا، فإني لم أجسر على الخروج

كيت — حسن. لقد عرفوه ومن الطبيعي أنهم سيبحثون عن كل من له صلة به .

واندا — لم يظهر للناس مطلقا أني زوجته. وإني لا أدري إن كنت زوجته ... حقا، فقد أخذني إلى أحد المكاتب حيث وقعنا بامضائينا: وإني لأعتقد أنه فعل مع كثيرات غيري مثل ذلك فانه رجل شرير .

كيت — هل رآه أخي قبل هذه المرة؟

واندا — لا، مطلقا! وهو الذي بدأ أخاك بالعدوان

كيت — نعم فقد رأيت أثر الكدمة . أعندك خادم؟

واندا — كلا، إلا امرأة تأتي كل يوم في الساعة التاسعة صباحا لمدة ساعة واحدة

كيت — هل تعرف لاري؟

واندا — كلا، فانه يكون دائما خارج البيت وقت حضورها

كيت — ألك أصدقاء أو معارف؟

واندا — كلا، فقد كنت وحيدة تماماً حتى قابلت أخاك . إني لا أرى أحداً يا سيدي

كيت (بحدة) — أصادقة أنت؟

واندا — أوه، نعم، إنني أحبه، ولم يحضر أحد إلى هذه الغرفة منذ مدة طويلة غيره

كيت — كم تبلغ هذه المدة؟

واندا — خمسة أشهر

كيت — إذن لم تبرحي الغرفة منذ الحادث؟

واندا — (تهز رأسها)

كيت — وماذا كنت تفعلين؟

واندا (ببساطة) — أبكي (تضغط يديها على صدرها) لقد وقع في الخطر بسببي وإني لجد خائفة عليه

كيت (يخاطبها) انظري إلي

واندا — (تنظر إليه)

كيت — إذا فرضنا أسوأ الفروض وعرفوا أنك زوجه أتساعدينني على ألا تشي بلاري؟

واندا (تنهض وتشير إلى النار) — انظر! لقد أتلفت كل الأشياء التي أعطاني إياها حتى صورته، ولم يبق عندي بعد ذلك شيء منه

كيت (يكون قد نهض هو أيضاً) — هذا حسن. لي سؤال آخر: هل يعرفك رجال الشرطة بسبب حياتك الخاصة؟

واندا — (تواجهه بنظراتها وتهز رأسها)

كيت — أتعرفين أين يسكن لاري؟

واندا — نعم

كيت — يجب ألا تذهبي إليه وألا يحضر هو إليك

واندا (تحني رأسها ثم فجأة تذهب إليه وتتعلق به) — أرجو ألا تأخذه مني إلى الأبد فسأكون

محترسة ولن أفعل شيئاً يجلب إليه الأذى ولكنني إذا لم أره بين وقت وآخر لا أستطيع الحياة . أرجو ألا تأخذه مني (تضغط يده بيديها في يأس)

كيت — اتركي لي هذا فسأعمل كل ما أمكنني عمله .

واندا (تنظر في وجهه) — ولكنك ستكون رؤوفاً (فجأة تنحني وتقبل يده فيجذبها منها ، فتتراجع خطوة في خضوع وهي تنظر إليه ثم فجأة تعتدل في وقفتها وتتسمع ثم تقول) إسمع ! يوجد شخص في الخارج !

(تتركه سريعاً لتطفئ النور . تسمع طرقة على الباب . واندا وكيت يكونان أثناء الطريق قد التصقا في وقفتهما بين الباب والنافذة)

واندا (هامسة) — أوه ! من يكون ؟

كيت (بصوت خائف) — لقد قلت إنه لا يحضر إلى هنا أحد إلا لاري

واندا — نعم ، وقد أخذت منه مفاتيحه . أوه ! لعله لاري ! يجب أن أفتح الباب !

كيت (يتراجع الى الحائط ويلتصق بها)

واندا (في هذه الأثناء تذهب إلى الباب فتفتحه فتحة صغيرة) — نعم ؟ أرجوك من تكون ؟

(يظهر على الحائط شعاع من ضوء بطارية مصباح كهربائي ويسمع صوت شرطي)

الشرطي (من الخارج) — لا شيء يا آنسة ، غير أن الباب الخارجي مفتوح وأنت تعرفين أنه يجب إغلاقه بعد سقوط الليل

واندا — شكراً يا سيدي

(تسمع وقع خطوات مبتعدة وصوت إغلاق الباب الخارجي . واندا تغلق الباب) شرطي !

كيت (يترك الحائط) — يا للمنة ! لقد تركت الباب الخارجي مفتوحاً (فجأة يضيء المصباح) لقد أخبرتني أنهم لا يعرفونك

واندا (تتنهد) — أظن أنهم لا يعرفونني فأني لم أذهب إلى المدينة منذ مدة طويلة ، منذ عرفت لاري ...

كيت (ينظر إليها بإمعان ثم يذهب إلى الموقد حيث يقف لحظة ناظراً إلى الارض ثم يلتفت إلى الفتاة التي تكون قد جلست على الأريكة ثانيا . يتكلم وكأنه يخاطب نفسه)

— بعد حياة مثل حياتك هذه من يصدق ... ؟ إستمعي إلي ، يجب أن ينقطع ما بينكما وأن ترحلي بعيداً . أتسمعين ؟ من المستحسن لأجله أن يترك كل منكما الآخر إلى الأبد

واندا (تئن أنة شديدة) — أوه ! يا سيدي ! أكتب علي ألا أحب لأن حياتي لم تكن طيبة ؟ لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة حين أفسدني ذلك الرجل ، لو كنت تعرف ...

كيت — إني أفكر في لاري ، فإن الخطر عليه يتزايد بوجوده معك ، فمن الواجب أن تقطعي هذه الصلة التي بينكما . أتدرين إلى متى ؟ إلى بضعة شهور

واندا (تقف عند طرف الأريكة وتلمس عينيها بيديها) — آه يا سيدي ! ألا ترى أنه حقيقة حياتي . بالله لا تأخذه مني

كيت (يتحرك ضجراً) — يجب أن تعرفي من يكون لاري . إنه لن يتصل بك إلى الأبد

واندا (ببساطة) — بل سيفعل يا سيدي

كيت (بقوة) — بل إنه آخر من يفعل ذلك من الرجال ، ولكنه سيعرض حياته وشرف أسرته

للخطر لمجرد وهم طارىء . إنى أعرفه

واندا — كلا كلا . إنك لا تعرفه ، بل الذى يعرفه هو أنا

كيت — مهلاً مهلاً ! إنهم فى اللحظة التى يعرفون فيها صلتك بذلك الرجل وأنت مع لارى فى هذه اللحظة سيرتبط لارى بالجريمة ، ألا ترين ذلك ؟

واندا (تلتصق به) — ولكنه يحبنى ، أوه يا سيدى ! يحبنى !

كيت — لقد أحب لارى عشرات من النساء

واندا — نعم، ولكن (ترتجف عضلات وجهها)

كيت (بخشونة) لا تبك ! أإذا أعطيتك قدراً من المال تختفين من طريقه ، لأجله ؟

واندا (تش) — سيكون اختفائى فى الماء إذن حيث لا يوجد رجال متوحشون

كيت — آه ! لارى أولا ثم أنت ثانياً ! استمعى إلىّ ، إنه من المصلحة لكليكما أن تفترقا لمدة شهور قليلة ، ستنسيان بعدها أنكما تقابلتما

واندا (تنظر إليه بوحشية) — سأذهب إذا قال لارى إنه يجب على أن أذهب ولكن لا لأعيش لا ! (ببساطة) لن أعيش يا سيدى

كيت - (يتأثر فيظل ساكنا)

واندا — لن أعيش بدون لارى، ما الذى يبقى لفتاة مثلى إذا ما أحبت وفشلت؟ لقد انتهى كل شىء

كيت — أنا لا أريد أن تعودى إلى تلك الحياة

واندا — كلا ، بل أنت لا تهتم بما سأفعل ، ولِمَ تهتم ؟ لقد أخبرتك أنى سأذهب نزولا على إرادة لارى

كيت — هذا لا يكفى ، إنك تعرفين تماماً أنه يجب أن ننتزع هذا الأمر من يديه لأنه لن يضحى بحاضره فى سبيل مستقبله . لو كنت حقيقة تحبينه كما تقولين لساعدتنى على إنقاذه

واندا (بصوت متقطع) — نعم ، أوه ، نعم ! ولكن لا تبعده عنى كثيراً ، أتوسل إليك (تسقط على الأرض وتحيط ركبتيه بذراعيها)

كيت — حسن ، حسن ! انهضى

(تسمع دقة على زجاج النافذة)

اصغى !

(يسمع صفير خافت له نغم خاص)

واندا (تثب واقفة) — لارى ، أوه ، شكرا يا إلهى ! (تجرى ناحية الباب وتفتحه وتخرج لتقابل لارى)

كيت (يقف منتظرا وقد واجه الباب المفتوح)

لارى (يدخل وواندا وراءه مباشرة) كيت !

كيت (عابثا) — لقد حافظت على وعدك فلم تغادر منزلك !

لارى — قد انتظرتك طول اليوم ولم أستطع البقاء أكثر من ذلك

كيت — تماما !

لارى — حسن ، ما هو الحكم يا أخى ؟ أهو نفى مدى الحياة وغرامة أربعين جنيهاً ؟

كيت — إذن فأنت تستطيع أن تقول نكاتا ، أليس كذلك ؟

لارى — يجب أن أفعل

كيت — ستسافر سفينة إلى الأرجنتين بعد غد فيجب أن تسافر عليها .

لارى (يلف ذراعه حول وندا وهي واقفة بلا حراك تنظر إليه) نحن الاثنان يا كيت ؟

كيت — لا يمكن أن تذهبا معا ولكن سأرسلها فى السفينة التالية .

لارى — أتقسم ؟

كيت — نعم، إنك سعيد الحظ... فهم يقتفون أثرا خاطئا

لارى — ماذا ؟

كيت — ألم تر هذا الخبر ؟

لارى — لم أر شيئا فانى لم أقرأ أى جريدة

كيت — قبضوا على مجرم كان قد سرق الجثة ورهن خاتما ثمين الشكل كانوا قد عرفوا شخصية هذا الا (والن) عن طريقه . قد ذهبت إلى السجن ورأيته هناك متهما .

لارى — بالقتل ؟

واندا (بضعف) — لارى !

كيت — لا خطرعليه فانهم دائما يقبضون على رجل غير القاتل ولن يضره أن يسجن عـدة من الزمن .. على كل حال إن السجن أحسن له بكثير من النوم تحت قنطرة فى مثل هذا الجو

لارى — ما شكله يا كيت ؟

كيت — رجل صغير مصفر رث الهيئة أعرج غير حليق كأنه هـولة . لقد كانوا مغفلين إذ اعتقدوا أن مثل هذا الرجل عنده قوة

لارى — ماذا ! (فى صوت خفيف) لماذا ؟ لقد رأيته — بعد أن تركتك فى الليلة الماضية

كيت — أنت ؟ أين ؟

لارى — عند القنطرة

كيت — أذهبت إلى هناك ؟

لارى — مقوداً يا كيت

كيت — أنت مجنون فى اعتقادى

لارى — لقـد حادثته فقال لى « شكراً لك على هذه الحادثة البسيطة ، إنها لا تقدر بمـال عند «سيئ الحظ أمثالى». إنه رجل صغير مغبر وكأنه حيوان قذر وقد جاء أحد بائعى الصحف وقال : هذا حقيقى ، فإن الحكومة وجدت الجثة فى نفس هـذه البقعة التى تقفان فيها ولكنها لم تقبض على القاتل بعـد » (يضحك بينا تلتصق به الفتاة المذعورة) رجل برىء !

كيت — قلت لك إنه ليس فى خطر ، من غير الممكن أن يكون قد خنق . ولماذا ، إنه لا يملك قوة هرة صغيرة . والآن يا لارى ، سأحجز لك مكاناً على السفينة، وهاهى ذى النقود (يخرج من جيبه رزمة من الاوراق المالية ويضعها على الاريكة) تستطيعان أن تبدءا بها حياة جديدة ، كلاكما تحت الشمس

لارى (يهمس) تحت الشمس ! « كأس من الخمر وصحبتك » (فجأة) كيف أستطيع يا كيت ؟ يجب أن أرى أولا ما سيحل بهذا الشيطان المسكين

كيت — آه ! أسقط ذلك من خاطرك فإن الأدلة غير كافية لإدانته

لارى — غير كافية ؟

كيت — كلا، لقد سنحت لك الفرصة فانتهزها كرجل

لارى (ترتسم على شفتيه ابتسامة غريبة ويخاطب الفتاة) — هل نفعل يا واندا ؟

واندا — أوه ، لارى !

لارى (يلتقط النقود) — خذها يا كيت

كيت — كيف ! لقد قلت لك إنه لا يوجد علف يديته، وإن وجد لا يوجد ذلك القاضى الذي يحكم باعدامه . إن النول الذى يسرق جثة ميت

ليستحق أن يسجن ، إن ما فعله أسوأ مما فعلت

لاري — هذا لا يكفي يا كيت ، يجب أن أرى النهاية بنفسي

كيت — لا تكن مجنوناً

لاري — إني مازلت أملك مقداراً من الشرف ولن أستطيع الذهاب قبل أن أعرف النهاية ؛ وإن ذهبت فلن أحيا في طمأنينة . خذها يا كيت وإلا فسأجعلها طعمة لنار الموقد

كيت (يأخذ النقود — بمرارة) — أرجو ألا تتغافل عن شرف اسمنا ، وإلا فلا يتفق ذلك مع مقدار الشرف الذي تملكه ؟

لاري (يرفع رأسه) — إني جد آسف يا كيت، جد آسف أيها العجوز

كيت — إنك مدين لي ... ولشرف اسمنا ... ولذكرى أمنا المتوفاة ... يجب ألا تفعل شيئاً حتى ترى ما سيحدث

لاري — إني عالم بذلك ولن أفعل شيئاً يا كيت حتى أستشيرك

كيت (يلتقط قبعته) — أأعتمد عليك في ذلك؟ (يحملق بشدة في أخيه)

لاري — تستطيع ذلك

كيت — أتقسم ؟

لاري — أقسم

كيت — تذكر ، لا تفعل شيئاً ، مساء الخير

لاري — مساء الخير

(يخرج كيت ويجلس على الاريكة ناظراً إلى النار بينما تنسحب واندا إليه بهدوء وتلف ذراعها حوله)

رجل برىء !

واندا — أوه ، لاري ! ولكنك أنت أيضاً برىء ، ما احتياجنا إلى قتل ذلك الرجل ؟ لا شىء ! أوه ! قبلني ! (يلتفت إليها فتقبل شفتيه) لقد عانيت كثيراً ... لأني لم أرك ، لا تتركني ثانية ، ابق معي ، ألا يكون جميلا بقاؤنا معاً ؟ أوه ! مسكين أنت يا لاري فإنك متعب كما يظهر عليك . ابق معي فإن هذه الوحدة تخيفني ، كم أخاف أن أن يأخذوك مني

لاري — يا طفلتي المسكينة !

واندا — لا ، لا ! لا تظهر بهذا المظهر !

لاري — إنك ترتعدين

واندا — سأشعل النار ، حبي يا لاري ! فإني في حاجة إلى النسيان

لاري — لقد سجنوا ذلك الرجل التعس ، أتعس مخلوق على الأرض بسببي ! سجنوا حيواناً صغيراً متوحشاً حيث يروح ويغدو في قفص ، يروح ويغدو ... ألا تربنه ؟ إنه يبحث عن مكان يعترضه ليفتح لنفسه طريقاً إلى الخارج ... ذلك الفأر الأغبر (يقف ويأخذ في المشي ذهاباً وجيئة)

واندا — لا لا ! إني لا أحتمل هذا ! أقصر عن ذلك فإنك تخيفني

لاري (يرجع إليها ويأخذها بين ذراعيه) — رويدك رويدك ! (يقبل عينيها المغلقتين)

واندا (بدون حراك) — لو كنا ننام قليلا ... ألا تستحسن ذلك ؟

لاري — النوم ؟

واندا (ترفع نفسها) — عدني أن تبقى معي ... تبقى هنا دائماً ، لاري ، سأطبخ لك وسأجعل حياتك مريحة . سيجدونه بريئاً وعندئذ ... أوه ، لاري ! .. في الشمس ... هناك بعيداً ... بعيداً عن هذه البلاد

الخيفة ... ما أجمل هذا! (تحاول أن تدعه ينظر إليها) لاري!

لاري (يحاول أن يبعدها عنه) — إلى حافة العالم ثم ... تتخطاها!

واندا — لالا! لالا! إنك لا تريد لى الموت يالاري، أليس كذلك؟ سأموت إن تركتنى ... دعنا نعيش سعداء ... حبى

لاري (ضاحكا) — آه! فلنعش سعداء ولننس هذا الرجل. من يعنينا؟ ملايين من الناس يتألمون لغير سبب معقول، فلنكن أقوياء ككيت. كلا! لن أتركك ياواندا. دعينا ننسى كل شيء إلا أنفسنا (فجأة) هناك يذهب ... يروح ويغدو!

واندا (ثمل) — لالا! أنظر! سأصلى للعذراء علها ترحمنا! (تسقط على ركبتيها وتشبك يديها وتصلى محركة شفتيها)

لاري (يقف بلا حراك وقد عقد يديه على صدره وظهر على وجهه الشوق والجبن، والهزء والسخرية، والحب، واليأس ... يهمس) صلى لأجلنا! مرحى! صلى كثيرا!

واندا (فجأة تمد يديها وترفع رأسها وقد طبعت على وجهها نظرة ذهول وشغف)

لاري — ماذا؟

واندا — إنها تبتسم! سنسعد سريعا.

لاري (ينحنى عليها) — ياطفلتى المسكينة! عندما نموت ياواندا ... دعينا نموت سويا كى نظل في دفء ونحن في عالم الظلام

واندا (ترفع يديها إلى وجهه) — نعم، أوه، نعم! إذا مت فلن أستطيع ... لن أستطيع البقاء فى هذه الدنيا!

(ستار)

المنظر الثالث

(بعد حوادث المنظر الثانى بشهرين)

حجرة واندا — يكاد ضوء الشمس أن يغيب فى أحد أيام يناير — المائدة معدة للعشاء وقد وضعت عليها قناني الخمر)

(تظهر واندا واقفة بجانب النافذة تنظر إلى أشجار الميدان القريب الشتوية)

(يسمع صوت بائع صحف يقترب شيئا فشيئا)

الصوت — جرائد! قتيل شارع جلوف! المحاكمة والحكم (يكرر) الحكم! جرائد!

واندا — (تفتح النافذة وكأنها تريد أن تناديه ثم تتراجع وتغلق النافذة وتجرى ناحية الباب. تفتحه ولكنها ترتد إلى داخل الحجرة لأن كيث كان واقفا هناك)

كيت — (يدخل) أين لاري؟

واندا — ذهب ليرى المحاكمة ولم أستطع منعه.

المحاكمة أوه! ماذا حدث هناك يا سيدى؟

كيث (بوحشية) — مجرم! حكم عليه بالاعدام! مجانين! بلهاء!

واندا — الاعدام! (يظهر عليها كأنها قاربت الاغماء)

كيث — أيتها الفتاة! أيتها الفتاة! إن كل شيء يتوقف عليك. ولاري، أما زال عائشا هنا؟

واندا — نعم

كيث — يجب أن أنتظره

واندا — ألا تتفضل بالجلوس؟

كيت (يهز رأسه) — أأنت على استعداد للسفر إلى الخارج فى أى وقت؟

واندا — نعم نعم، إنى دائما على استعداد

كيت — وهو؟

واندا — نعم ولكن الآن! ماذا يفعل؟ ذلك الرجل المسكين!

كيت — هى مقابر. غول !

واندا — ربما كان جائعاً . كنت جائعة يوماً . إنك فى حالة الجوع تفعل أشياء ما كنت لتفعلها وأنت فى حالتك الطبيعية . لقـد فـكر فيه لارى كثيراً وفـكر فى حالته وهو فى السجن، أوه ! ماذا نفعل الآن ؟

كيت — اسمعى ! ساعديني . لا تدعى لارى يبتعد عن نظرك . يجب أن أرى كيفية سير الأمور. لا يمكن أن يشنقوا ذلك البائس (يقبض على يديها) والآن يجب أن نمنع لارى من أن يسلم نفسه . إنه مجنون ، أتفهمين ؟

واندا — نعم ولـكن لماذا لم يأت بعد ؟ أوه ! لو كان قد سلم نفسه وانتهى الأمر !

كيت (يترك يدها) — يا إلهى ! لو أتى رجال الشرطة ورأونى هنا (يتجه إلى الباب) كلا ، لا يمكن أن يفعل ذلك بدون أن يرانى أولا . من المؤكد أن يحضر . راقبيه كأنه مسجون، لا تدعيه يخرج بدونك

واندا (تشبك ذراعيها على صدرها) — سأحاول يا سيدى

كيت — أنصتى

(يسمع صوت مفتاح يدار في القفل) إنه هو

لارى (يدخل وقد حمل باقة من الزنبق الفرنجى والورد الأبيض — لا يبدو على وجهه شئ)

كيت (ينقل بصره بين لارى والفتاة الواقفة دون حراك)

لارى — كيت ! إذن فقد رأيت ؟

كيت — لا يمكن أن تستمر الحالة هكذا وسأقف هذا الأمر بكل الطرق ولـكن يجب أن تفسح لى الوقت يا لارى

لارى (بهدوء) — أما تزال تعـنى بشرفك يا كيت ؟

كيت (عابسا) — فلتكن آراؤك فى عقلى وتفكيرى كما تريد

واندا (بنعومة) — لارى

لارى (يحيطها بذراعه) — آسف أيها العجوز

كيت — يستطيع الرجل الخلاص ، وسينجو، فقط عدني ألا تسلم نفسك أوحتى تخرج من المنزل ثانية .

لارى — أعدك

كيت (يجيل بصره فيهما) — أتقسم بذكرى والدتنا؟

لارى (مبتسما) — أقسم

كيت — لقد أقسمتما لى ... كلاكما .

وها أنذا أذهب تواً لأرى ماذا يمكن فعله

لارى (بنعومة) — حظ سعيد يا أخى .

(يخرج كيث)

واندا (تضع يديها على صدر لارى) — مامعنى كل هذا؟

لارى — العشاء ياطفلتى ... لم أذق طعاما طول يوى . ضعى هذه الزنبقات فى الماء

واندا (تطيعه فتأخذ الزنبقات وتضعها فى الماء)

لارى (يضع كمية من الخمر فى إناء زجاجى عميق ملون ويشربها) لقـد تمتعنا زمنا ياوندا ، فإن أحسن زمن مر على طول حياتى هو هذان الشهران وليس علينا الآن إلا أن ندفع الثمن

واندا (تمسكه بيأس) — أوه ، لارى ! لارى!

لارى (يبعدها عنه وهو ممسك بها ليلقى عليها نظرة فاحصة) — انزعى عنك كل هذه الأشياء والبسى ملابس العرس

واندا — عدني أن تصحبني إلى أيّ مكان تذهب إليه . عدني ! أتظن يا لاري أني لم ألاحظ شيئاً كل هذه الأسابيع ، كلا يالاري لقد لاحظت وعرفت كل شيء حتى ما لم تبح به وأبقيته في قلبك إنك لا تستطيع أن تخفي عني فأني قد عرفت ، عرفت ! أوه ، لو كنا نذهب إلى هناك لنعيش تحت الشمس ، أوه يا لاري ! ألا نستطيع ؟ (تحاول أن تلتقي عيناها بعينيه — ثم ترتعش) حسن ! إذا كان لابد من دنيا الظلام فأني لا يهمني إلا أن أذهب وأنا بين ذراعيك . لن نكون في السجن معا . إني على استعداد للذهاب ولكن أحبني أولا . لا تدعني أبكي قبل الذهاب ، أوه يالاري ! هل سأتألم كثيرا ؟

لاري (بصوت مختنق) — لا ألم ياحبيبتي .

واندا (تتنهد) — يرحمنا الله

لاري — لو كنت رأيته كما رأيته طول اليوم وهو يتعذب ، واندا ، يجب أن نرحل عن هذه الدنيا (يبدأ تأثير الخمر في الظهور) سنكون أحراراً في دنيا الظلام ، أحرارا من وحشيتهم الملعونة . إني أكره هذه الحياة ... أمقتها ! أكره عالمها المهجور المتوحش ، أكره كبرياءها واعتزالها ووحدتها ! حياة كيت ... وجميع الأتقياء الأقوياء الناجحين . نحن لانستطيع العيش في هذه الدنيا ، أنت وأنا .. فانا لم نخلق لها ... نحن غير أقوياء ، نحن ضعيفا الارادة ... إن الموت أحسن لنا من أي شيء آخر . لا تخش شيئاياكيت فلن أترك المنزل ! (يصب بعض الخمر في كاسين) اشربي

واندا (تعطيه وتشرب كاسها)

لاري (يشرب هو أيضا) — والآن اذهبي وتجملي .

واندا (تلف يديها حوله) أوه ، لاري !

لاري (يلمس وجهها وشعرها) — سيشنق حتى تفارق الروح جسده ... قصاصا لما فعلته أنا .

واندا (تنظر في وجهه نظرة طويلة ثم تتركه وتذهب خارجة خلال الستائر القريبة من الموقد)

لاري (يبحث في جيبه ثم يخرج الصندوق الصغير فيفتحه ويشير إلى الأقراص البيضاء) اثنان لكل منا ... بعد الأكل (يضحك ويرجع الصندوق إلى جيبه) أوه ! يافتاتي !

(صوت موسيقى خفيفة تبعث السرور إلى النفس ، تعزف على بيانو بعيد ، يدمدم ثم يحملق في النار) لهيب ... لهيب . يتلألأ ... ثم يصير هشيما . « لا شيء بعد ذلك ، لاشيء ، فقد مات القمر ؛ وذهب الناس جيمافيه » (يجلس على الأريكة وقد وضع قطعة من الورق على ركبتيه فيضيف إلى ما هو مكتوب بها بعض كلمات أخرى)

واندا (ترجع خلال الستائر وقد لبست ثوبا حريريا . تلاحظ لاري أثناء دخولها)

لاري (ينظر إليها) — كل شيء هنا ... فقد اعترفت (يقرأ) : « رجاؤنا أن ندخن سويا . لورانس دارانت ٢٨ يناير ، الساعة السادسة مساء تقريبا » . سيجدوننا في الصباح ، تعالي نأكل يا حبيبتي

(تتقدم الفتاة ببطء . يقوم ويلف ذراعه حولها فتلف ذراعها حوله . يبتسم كل منهما وهو ينظر إلى الآخر . يذهبان إلى المائدة ويجلسان . تنزل الستار لمدة ثوان قليلة لتدل على مرور ثلاث ساعات ، وعند ما ترفع يكون الحبيبان نائمين على الأريكة وقد احتضن كل منهما الآخر وانتثرت حولهما الزنبقات ويكون ذراع الفتاة العاري ملتفا حول عنق لاري وعيناها مغلقتان ، أما عيناه فتكونان مفتوحتين دون إبصار . الحجرة مظلمة إلا من الضوء الذي تبعثه نار الموقد . طرق على الباب وصوت مفتاح يدار في قفل الباب)

كيت (يدخل ثم يقف لحظة لا يدري ماذا يفعل فى هذا الضوء الخافت ثم ينادى بحدة) — **لارى**

(يضيء النور فلما يرى من على الاريكة يتراجع لحظة ثم ينظر إلى المائدة والقنانى الخالية فيذهب إلى الاريكة وهو يتمتم) — **ناعمان ! سكرانان ! آه !**

(فجاة ينحنى ويلمس لارى ثم يقفز إلى الوراء) :

— **ماذا ؟ !**

(ينحنى ثانية فيهز رأسه وهو ينادى) :

— **لارى ! لارى !**

(ثم دون أن يتحرك ينظر إلى عينى أخيه المفتوحتين اللتين لا تبصرانه وفجأة يبلل أصبعه ويمرره على شفتى الفتاة ثم على شفتى لارى) — **لارى !**

(ينحنى ليتسمع دقات قلبيهما فيرى الصندوق بينهما فيمسكه بيده) — **يا إلٰهى !**

(يقوم متثاقلا ثم يغلق عينى أخيه وبينا هو يفعل ذلك يقع نظره على ورقة ملصقة بالاريكة فينتزعها ويقرأ) :

« أنا ، لورانس دارنت ، على وشك الموت منتحراً ، أعترف أنى ... »

(يتم قراءة الخطاب وهو صامت وقد تملكه الرعب فلما ينتهى تسقط الورقة من يده ويتراجع عن الاريكة حتى يصل الى كرسى موضوع أمام مائدة العشاء فيجلس عليه وهو ذاهل . فجأة يتمتم) :

— **يا إلٰهى ! إن فيها الدمار !**

(يمسكها وكأنه يريد أن يمزقها ثم يكف عن ذلك وينظر إلى الاثنين فيغطى وجهه بيده ويترك الورقة تسقط على الارض ويندفع نحو الباب ، ولكنه يقف عند الباب ويرجع وكأن هذه الورقة مغناطيس يجذبه إليه فيأخذ الورقة ويضعها فى جيبه

صوت خطوات شرطى خارج الحجرة بطيئة منتظمة . يتجمد وجه كيت ويرتعش ويتسمع حتى يتلاشى الصوت فينتزع الورقة من جيبه ويذهب إلى الموقد) :

— **كلا ... لا ، فليشنق !**

يلقى الورقة فى النار ويدوسها بقدمه ويأخذ فى ملاحظتها وهى تتلوى وتسود . وفجأة يقبض على رأسه ويدور لينظر إلى الجسدين على الاريكة وهو يلهث كرجل مختل الشعور ثم يذهب إلى رأس الأريكة ويندفع نحو النافذة فيرفع الستائر ويفتح النافذة طالبا الهواء . تظهر الشجرة فى الخارج وكأنها هيكل عظمى لساحرة عجوز وكأن شخصا هناك يشنق فيتراجع كيت)

ما هذا ؟ ماذا ... !

(يغلق النافذة ويرخى الستائر)

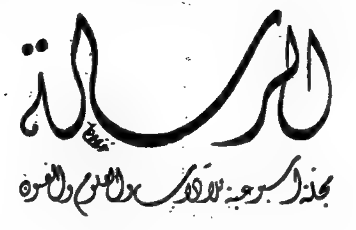
مجنون ! لا شئ !

(يضغط قبضتى يديه كل يد بالأخرى حتى يستعيد ثباته ويهدئ نفسه بكل ما يستطيع من قوة . ثم يذهب فى بطء إلى الباب حيث يقف لحظة وكأنه تمثال بوجه جامد كأنه قد من حجر . وفى هــدوء يطفئ النور ويفتح الباب ويخرج . الجسدان لايزالان كما هما راقدين أمام النار التى ما زالت تسرى فى بقية الخطاب المسود)

(ســتار — انتهت)

سامى الناقص

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجـــلة الآداب الرفيعة والثقافة العاليـــة

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصـور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معـارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

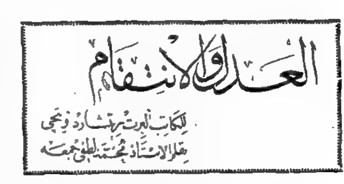
بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٠٠

العدد ٣٩ — ٦ رجب سنة ١٣٥٧ — أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد



لقد علمت ذلك السر المظلم من شفتى الشقى الصريع وهو على فراش موته، فلو أننى أذعته، وهو ما يسوغه العدل والشرف ، لضاعفت هذه الاذاعة عبء الكرب والبلاء على الفئة الذين هم أحب خلق الله إلىّ وأعزهم على نفسي ، والذين حسبهم ما هم فيه من هم وغم . فهل كان يليق بي أن أجلب الخزي والعار والفضيحة والارتباك على جميع أولئك الذين كانت تربطنى بهم أواصر الحب والوداد ، ولهم في عنق أطواق وأرباق ، لكثرة ما أولونى من منن وآلاء ؟

لقد تدبرت الأمر وعرضته على ضميرى أثناء كان الشقى الصريع يؤدى اعترافه ساعة النزع ، فرأيت الطمع والاغراء ومعهما العدل نفسه فى صف، ولكننى رأيت الحب والأمانة وعرفان الجميل فى صف آخر. فكانت هذه أغلب على قلبي وأحوز لبي. ولما انجلى غبار هذه الموقعة العنيفة عن فؤادى توهج ضميرى بشعاع مؤنس من الفرح والسعادة، وبكيت سروراً إذ جعلت أحمد الله الذى وفقنى إلى اختيار تلك الخطة . لقد قتل ولكنه كان من قبل قاتلاً .

كنت أعلم أن هذا الحى من أحياء لندن ؛ مأهولا بالأعيان وذوى المكانة العالية ، وأن الكثرة الغالبة من ساكنى قصوره السعيدة ومنازله الفاخرة ذات الحدائق الناضرة والبساتين المشرقة، ويظهرون أمام المجتمع فى أبهى الحلل وأجمل المفاتن ، متخذين لزينتهم أغلى الحلى وأرفع المحاسن ، ويقيمون الليالى الساهرة والأمسيات الراقصة ويحيون حفلات الشاى والكوكتيل ، تتلوها المآدب والولائم فترمقهم الأعين بالاجلال والاكبار ، وتوخذبهم الأنفس بين الغبطة والدهشة والحسد والانبهار ... من كان يظن أن هؤلاء السادة وأولئك السيدات ليسوا سوى مجرمين وجناة وآفاقين متزيين بأزياء الأعيان والوردات والبارونات . منهن من تؤجر للاتجار بالسموم والمخدرات، ومنهم من يؤجر على القتل بدراهم معدودة. وأظن هذه السيدة التى فقدت زوجها غدراً واغتيالا هى التى سمعتها فى أحد أركان الحانة تخاطب رجل الأسرار بصوت خافت وأنفاس مختنقة وعينين دامعتين وقلب دام :

« أين زوجى يا بوردرو؟ رد علىّ زوجى ! كيف وقفت جوف الليل تنظر إليه وهو يقتل ؟ بل كيف أفلت منك الخائن الذي جناها ؟ فأراد بوردرو أن يتناول يد السيدة التى تخاطبه ، ولكن تلك السيدة المجهولة انثنت عنه ووضعت قناعها ثانية واتكأت على المنضدة . وكان وجهها ممتقعاً شاحباً كما بدا لى من وراء القناع . وأما عيناها وأظنهما كانتا فى العادة حلوتين رفيقتين فقد وجهتا إلى بوردرو نظرة تفجع وتوجع ، وتأسف وتأفف ، لم يطقها بوردرو على جفوته وقسوته وجوده وكنوده وجحوده ، فزوى وجهه عن تلك النظرات اللاذعات . وكان على مقربة منا رجل وامرأة يتحادثان فقالت المرأة للرجل :

— نعم لك أن تلقى بي في الهاوية ، أو تدعني أتدهور من حالق إلى الدرك الأسفل من حضيض الحياة بعد أن استغللتني أنت وأصحابك

— لقد أحسنت إليك بقدر ما استطعت إلى ذلك سبيلا ثم جاء دور غيرك . فعليك أن تخضعي لأحكام القضاء والقدر ، وتلك الأيام يا ليلى نداولها بين الناس ، فلا تطمعي في أنصبة الناس بعد أن نلت نصيبك

ليلي — سأعمل على فضيحتكم ، وأظهر العالم على طريقة إجرامكم وكيف تأخذوننا نحن الفتيات من السوق فقيرات فتخلعون علينا ألقاب الشرف الكاذبة بين لادي هاجرة لوردها ، وبارونة من بارونها هاربة . ثم ...

فقال لها : إنك تعرفين الثمن الذي تدفعينه نقداً وعداً إذا شئت أن تستمتعي بتلك الخيانة

ثم غرق صوتهما في عباب الضوضاء . وسمعت السيدة المقنعة تعود إلى تعنيف صاحبها الذي كانت تدعوه بوزدرو قالت :

— لم تقل لي يا بوردرو الأمين ، يا بوردرو الوفي كيف أفلت منك الخائن الذي جناها ، وأنت بطل بيتنا ومانع حوزته ، وأنت الذي كنت ترى أنك تضحي حياتك في سبيلنا ، وأنت الذي كنت مناط حبنا وثقتنا ..؟

ليلى — أتريد أن تخنقني ، إنك لا تملك ذلك في حانة عامة ، إن هذا المكان حافل بالشرطة السرية ورجال الخفية من كل لون ورتبة ودرجة ، ولعل واحداً أو اثنين أو أكثر يلتقفون الأقوال من أفواهنا . لقد خلعت عليّ النقود والجواهر والخواتم والأقراط ، فحلّيت بها جيدي وصدري وأناملي ومعاصمي وأنا لا أعلم أنها زائفة إلا بعد أن تخليتم عني واضطررت لرهن بعضها وبيع البعض الآخر ، فإذا بها لا تساوي فلساً . لقد أرغمتني على الاتجار بالمخدرات سنوات عدة بعد أن طليتني ودهنتني حتى صرت كواحدة من نجوم المجتمع اللامعة . فخرج الرجل الذي كانت توجه إليه هذا اللوم بالصمت عن لا ونعم !

وتأملتها بعد أن سمعت اسمها وهو : ليلي [1] وأنعمت النظر في جسمها الذي لا فضول فيه فأسفت على ما أصابها ، ولم أكن أملك لها خيراً ولا شراً

وبعد أن طال صمت الرجل عقيب تهديده انفجر مرة أخرى وقال لها : عهدي بك رزينة يا ليلي كأختك فيليس [2] ولكنك الليلة تعملين بالمثل السائر : « من راقه بدنه ، كشف عن محاسنه ، ومن أعجبته رنات صوته رفع عقيرته » وقد اخترت لرفع عقيرتك مكاناً عاماً ، وهو فخ لأمثالي وأمثالك ، ومصيدة ...

وفي تلك اللحظة فتح باب الحانة وظهر فيه سواد مستر ميكائيل آرلين المؤلف الشهير ، فخفت أن يتعرف عليّ فيهتك ستار التخفي الذي كنت منزوياً وراءه . فحولت وجهي ناحية أخرى وإن كنت واثقاً من تجهيل معارفي في الزي الذي كنت به على ألصق الناس بي . ولحسن حظي رأيت مستر ميكائيل أرلين قد اتجه إلى طائفة من الشباب اللاهين كانت تجمعهم تلك الحانة للعبث واللهو والمجون . وكان ذهن هذا المؤلف سريع الالتفات إلى معاني

(١) فلة زهرة بيضاء عبقة

(٢) اسم انثوى بمعنى غصن

المرأة . وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ولا سيا بعد أن نشر قصة « حتى الدودة تستطيع أن تسمى لرزقها » فقد آلت عواطف صديقاته من بنات إسرائيل ... حتى الدودة تستطيع أن تسمى . لقد كانت قصة بشعة . إنها تدور حول قصر فاخر تقطنه أسرة إسرائيلية غنية ، فدعى إليه مرات فنشيه زائراً وراقصاً ومقامراً ومنازلاً ، فاتضح له أمر عجيب وهو أن أهل القصر يعرضون شرائط سور متحركة فيها مناظر لا توصف ، وقد يتلو العرض نوع من الأرجيات الأغريقية والرومانية ، وقد أرى صاحب الدار وكان اسمه ليفيكو فسارلورلفيكار أوف جيتاربفضل من سبقوه إلى مراتب المجد أمثال سيمون ميكلنبرج وأولان مندلبرج وولف ساندولباوم وناتان كيرزون هاندلسون وجويلم مايزنشتاين

فلم يشغل مرأى المؤلف إلى أكثر من لحظة ، ثم تغلب صوت المرأة المقنعة على صوت من عداها وهى تقول لبوردرو :

— لماذا دخلت بينى وبين زوجى ؟ إنك لم تهدنا سوى الحزن والكمد والندم . لقد مكنت منه عدوه حتى قتله .. الندم الأليم جزاء ودنا ورحمتنا . ألم تك طفلاً يتيما أول ما رأيتك ورآك هو الذى كان غاية فى البر والنبل وحسن النية . وقد كان من رأيه إرسالك إلى جهة أخرى ولكنى سألته أن يبقيك حماقة منى وسفها ، وادعيت أنك تحبنا وصدقناك

فقطع بوردرو صمته بكلمة واحدة فقال :

— لقد كنت صغيراً لا أعى شيئاً ولا أميز الخير من الشر ، ولا أفرق بين الجمرة والتمرة .

فقالت السيدة :

بالرغم من صغر سنك إذ ذاك ومن ضعفك وانفرادك فلقد كنت توجست شراً فى استبقائك وبلاء . ولقد قرأت أسارير وجهك ونظرت فى أعماق عينيك فرأيت فيها شواهد النكر ودلائل السوء ، وقد وقع المحذور والمكروه وكنت عليمة بوقوعه .

فقال بوردرو : فَلِمَ لم تدفعى عنه مادمت عليمة بوقوع المكروه كما تزعمين ؟

فقالت : ولِمَ لم تمت أنت ، إذ أصابك الجدرى وكنت أعودك بنفسى وأنت فى هذيان مُحَالك لاتعرفنى حتى جعلت تناديني وأنا بجانبك . فكل ما أصابنى منذ ذلك الوقت هو جزاء الحماقة ، أصاب قلبي الخبيث ، قلبي الغيور الخبيث . ويلى ثم ويلى ، لقد لقيت العقوبة ، لقيت أصرم العقوبة ، فهاك زوجى يتخبط فى دمائه ، قد قتل وأنت بجانبه ولكنك لا تريد أن تدل على قاتله .

فى هذه اللحظة الرهيبة نظرت فلم أجد ليلى ولا صاحبها أو خانقها الذى كان يتوعدها بالقتل إن هى وشت به وجماعته وعصابته ، وكان الشرطيان بيل شاندلر وسيايك موليجان أحدهما يختال فى ثوبه الرسمى ، والآخر فى زى أهل الفراغ والجدة ، وهما يراقبان « الطيور الجارحة » من القتلة وأهل السطو الخفى والمتجرين بالمخدرات . دق ناقوس الرقص إيذاناً بنهاية الفف والدوران والجازبند فى الدور الأول . وبعد هنيهة عادت الموسيقى إلى التوقيع وامتلأت الحلقة المستديرة بالراقصين وبدأ تانجو من نوع جديد وبدأ كذلك اللمس والهمس والغمز واللمز ووزن الخطى على الأنغام

وفجأة تقدم خادم إلى بيل شاندلر الشرطى الرسمى وهمس فى أذنه خبراً هاما فذهب الشرطى إلى خزانة السرة (كشك التليفون) ثم عاد منه مسرعا وخرج

إلى الطريق . فسأله صاحب الحانة مستر ما كيردو ، أشهر « بوص » فى ماربل آرش قائلا :

— حادث مهم يا حضرة الكونستابل ؟

— أى نعم ، فقد قتلت الفتاة ليلى أوميجان هايل وهى الآن جثة هامدة على إفريز الشارع ، وقد طعنت فى قلبها بخنجر منذ هنيهة كأن قاتلها كان ينتظر خروجها من الباب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يصغى إلى كل كلمة تدور فى الحديث بين صاحب الحانة وصاحب الشرطة ، يكاد يرشف الألفاظ حرفاً حرفاً ، ويتتبع المعانى خبراً خبراً ، وحتى لتراه وهو يستمع إلى حديثهما عن المرأة القتيل ، واليد الخفية التى طعنت ، والقلب الصخرى الذى قسا ، والفكر الخبيث الذى دبر مصرع المرأة ، كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا يصغى إلى حديث . ولا ريب فى أنه كان يضمر وضع قصة طريفة يجمع لها الشاهد ويحشد لها الأقاويل كالنحلة التى تجنى من كل زهرة قطرة ، ثم يزين له الخيال ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع مالم يسمع . وكان يستزيد مما يسمع وهو مصغ ملذوذ فيحمل صاحب الحانة والشرطى على الاطناب والاسترسال ، حتى ينفض جملة ما فى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال

ولكن الشرطى كان عجولاً . بعد أن أنهى خبر الفاجعة إلى المركز العام لم تبرأ ذمته ، ولن تبرأ حتى يجمع الأدلة ويدونها فى كناشته . كذلك المؤلف ميكائيل آرلن فقد أخذ يدون ما سمع فى مفكرته ...

وإنه لكذلك منهمك فى كتابة ما وصل إلى سمعه وذهنه من الأسماء والوقائع ، إذا بمستر دارك نايط أوفجاردر ، ذلك المحقق الخطير الذى يربض فى «فيلا سانوار تروث» بأعلى قمة فى مقاطعة نورفوك ولا يرد عاصمة البيار إلا نادراً . ولا يكون وروده إلا مؤذناً بأمر من أهم الأمور فى عالم الجنايات الخفية، عالم الظلام والجريمة ، وقد استفاضت شهرته فى عواصم أوربا وأمريكا الشمالية حتى كسفت شمسه كواكب الشهرة العالمية التى عرف بها أرسين لوبان ورافلز وموريس هيويت ... فلم يكن يضارعه أو يفوقه قليلاً سوى أستاذه ومرشده ومعلمه الأول شيرلوك هولمز ، ولكن هولمز قد قضى نحبه قبل موت صاحبه بأعوام وقد خلا الجو لدارك نايط أوفجاردر فلا مزاحم ولا مبارز ، وقد ساعدته طوالع الحظ السعيد فأظهر حذقاً ومهارة تكاد تكون من المعجزات ، لا من نبوغ الفن فى كشف الجرائم

فعقدت النواصى على الاعجاب بدارك نايط وصار بطل الساعة ، وخصم اسكوتلاند يارد الألد ، لأن دأبه أن ينقض ما يبرمونه وينفى ما يثبتونه ، ويكذب ما يقطعون بصحته ولا يبالى ، لأنه لا يلبث أن يقيم الأدلة الحاسمة على صدق نظره وصواب رأيه . ومن ذلك لم تتولنى دهشة ولم يأخذنى عجب إذ رأيت هذه السيدة المقنعة تلجأ إلى دارك نايط فتعهد إليه بقضيتها ليكشف بقوة ذكائه الخارق أسرارها الغامضة ، فيرشدها إلى الجانى الذى تحوم حوله شبهاتها ، ولا تستطيع أن تقيم عليه الدليل

* * *

تبدأ حوادث هذه الجريمة فى بلدة نيدلهام من

مقاطعة يوركشير حيث توطنت أسرة كبيرة العدد من نيف وثلاثين عاماً ، وانقطع أعضاء تلك الأسرة إلى الزرع والضرع والحرث والغرس والرى والسقيا والجمع والحصـد ، والاتجار فى الحبوب والأنعام والأصواف ، وتربية الدواجن ، وترويض الجياد لكسب قصب السبق فى مضمار داربى القريب من موطنهم . وبالجملة كانوا أسرة لاتعرف اللهو واللعب ، ولا تضيع الأوقات فى غير ما يعود على أفرادها بالخير والمنفعة ، حتى أصبحوا مثالاً يحتذى وقدوة تتبع فى الجد والاجتهاد والحرص على المال والحذق فى تكوين الثروة . وكان أرجوس كوبلاند برا كنبرى أظهر أفرادها مشهوراً بالشدة ، فكثر عدد أعدائه الذين يضمرون له السوء ويخفون نية الانتقام لثارات لا يعلمها إلا ذووها ممن ربوها فى صدورهم ونموها فى أفئدتهم . ومن العجب العاجب أنه لم يسمع قط يتلفظ بكلمة خشنة ، ولكنه كان لا يتبذل مع أتباعه ، وكان يتلطف فى معاملة الأمة السوداء كما يتلطف فى معاملة الأميرة العصماء ، ولم يكن يخطر ببال أحدأن يتجرأ عليه تجرؤاً منكراً .

وكان أرجوس كوبلاند برا كنبرى يضطر أشد الخلق صلفاً وكبراً إلى الكف عن غلوائه بما يصوب إليه من قوارص التهكم ، فقد كان له فى ذلك مذهب يحمل الناس منه على أشد المخافة والحذر . ومما قيل عنه إنه كان يحب الترؤس على كل مجلس يضمه

وفى مساء يوم من الأيام سمع أهل البلدة التى كان يقيم فيها ذلك الرجل وهى نيد لهام بمقاطعة يوركشير طلقات نارية تترى ، فلما زال الجمود الذى يتلو وقوع الكارثة ، وقُضى على الدهشة التى تعقب كبار الحوادث هرع النـاس إلى مصدرها ومرجع صداها فاذا بهذا الزعيم الماثل ، ورئيس الأسرة الجادة المجدة معفراً بتراب الأرض مضرجاً بدمائه ، مكفناً بثيابه التى كان يختال فيها منذ برهة. ولم يعثروا فى مكان القتل على أثر للفاعل الشرير الذى انتهز بلا ريب خلو المكان ، فصوب فوهة طبنجته إلى صدر الرجل ضامناً القضاء عليه حتى لايشى به ولا يبوح باسمه

واتصل الخبر برجال الشرطة وأعوان سكوتلاند يارد ، وكان من شيمتهم ما يكون فى مثل تلك الحال فانتقلوا بقضهم وقضيضهم وأدوات بحثهم وآلات فحصهم ، وبثوا عيونهم وأرصادهم ووزعوا آذانهم توزيع المـاء فى الفيضان ، ولكنهم وا أسفا عادوا بالخيبة وباؤوا بالحسرة ولم يوفقوا إلى إثبات التهمة على أحد . غير أن واحداً من أقوى أعداء الرجل حامت حوله الشبهات وكان صديقاً حميا لبوردرو الذى ربّاه القتيل وأنفق عليه وتعهده منذ الصبا إلى تمام الرجولة وجعله موضع ثقته وموطن أمانته . ولكن بوردرو الذى لاتشك أسرة الصريع فى علمه بشخصية القاتل وقدرته على إقامة الأدلة على جنايته ، غادر البلدة ولم يعد إليها وفضل أن يعيش على هامش الحيـاة فى لندن ، على أن يقضى بقية أيامه فى مسقط رأسه ومستقر أصدقائه ومواليه ومن بينهم تلك السيدة ، وهى لاتزال دائبة فى البحث والتنقيب، وقدضرب لها دارك نايطأوغاردر موعداً فى هذه الحانة ليتمكن من رؤية الرجل الذى تظن أنه يعرف قاتل زوجها . فلما دخل من الباب ووقع بصره على الرجل والمرأة التى تحاول تليين قلبـه ليعترف لها بما يعلم تقديراً لجميلها وجميل زوجها فى معاملته تجاهلهما ثم خرج وعاد متزيياً بزى سكير

لا يفيق وإن يكن من أهل الأناقة ، وأومأ إلى السيدة أن تتنحى فتنحت ، وجلس إلى جانب بوردرو الذى لم يعرفه

وتبادلا النظرات فالحديث فالمساقرة . وبدأ دارك نابط يروى لبوردرو بعض حوادث من مبتدعات الخيال يوهمه أنها من مغامراته وأنه كان بطلها إلى أن سال لعاب بوردرو ، فروى له الحادثة الآتية : لو أسرعت الخطى منذ هنيهة لاصطدمت هنا بامرأة تتهمني بالقتل وأنا منه برىء وتتذلل إلىّ وتستعطفني وتستفني وتذكرني بالماضي السحيق . وقد قتل زوجها ولم يكن إلا قاتلا رجلا آخر استولى على ثروته وكان من الحذق بحيث لم يكشف عن جريمته أحد ، ومضى على هذه الجريمة أعوام وأشهر وأيام ، وظن القاتل وهو زوج تلك المرأة الملحة أن ستار النسيان قد أسدل على الجريمة والمجرم ... ولكن شقيق القتيل كان لا يزال يذكرهما معاً ، وكان يعد الأيام والساعات ويحصى الدقائق والثوانى ويتحفز للانتقام ممن اعتقده قاتل أخيه، وكان يمهله ولا يهمله ، كأنه القضاء المبرم ، وكأن القضاء المبرم أراد أن ينزل به فى أسعد أوقات حياته ، فاتصل به وصادقه وصافاه ، حتى أمن القاتل جانبه ، ونصح إليه بالزواج فتزوج وشاركه أفراحه ، وصحبه إلى باب غرفة الزفاف كأعز صديق يقضى مع صديقه آخر أوقات العزوبة ليشاركه مسراته

ولما سنحت له فرصة القضاء عليه وهو على أتم ما يكون صحة ومالا وجاها وأمناً على نفسه وفرحاً بزوجته وولده ، استل روحه من بين جنبيه

فضحك دارك نابط وهو يتظاهر بالسكر وقال : وما دخلك أنت أيها الغبي فى هذا الأمر ؟ لا يد لك فيما تبت يداك . لا تحدثنى عن نفسك إلا حديثا فيه قتل كنت أنت بطله .

فقال بوردرو : إنك لم تفهم شيئاً . ألم أقل لك إن الشقيق هو الذى قتل وإننى الذى مهدت سبيل القتل ، باختيار الساعة التى كان فيها القتيل وحيداً والطريق خالياً . وقد كان نصيبى من تلك الحادثة مكافأة قبضتها بعد مرور عام على حفظها فى سجل الشرطة ونسبتها مؤقتاً إلى قاتل مجهول فأبرقت أسرة دارك نابط ولمعت عيناه . وقال له :

وما عليك إذا كنت تصيب مكافأة جديدة لا يعرف سبيلها سواى ؟

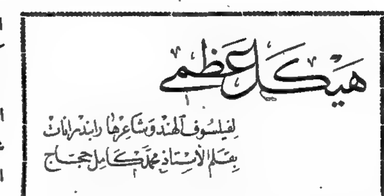
فحملق بوردرو فى محدثه ، فاستمر الرجل :

— أى نعم ، أكتب تقريراً مطولا يبعث به أحد أصدقائنا إلى رجال الشرطة فيمنحونك منحة لا بأس بها ، ولا غبار عليك ولا حرج . فضحك بوردرو حتى بانت نواجذه . . وقال : لقد كتبت ورقة كهذه واجتهدت أن أدفع عن نفسى المسئولية ما أمكن ذلك . وها كها :

فضحك دارك نابط وقال : وأنا أعددت لك المكافأة وها كها . وأخرج من جيبه « جامعة » الحديد ، وقبل أن يستفيق بوردرو من دهشته ، ليدرك ما حل به كانت يداه مقيدتين فى الأغلال وكان رهن رجال الشرطة الذين كانوا يحيطون به من كل جانب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يرهف السمع ويصوب البصر ليقف على هذا الحادث الجديد بالتفصيل، فما كان يصبر على أن تفوته طرائف الحانات فى هذه الليلة الحافلة بالحوادث

محمد لطفى جمعه



كان في الغرفة المجاورة لغرفة نوم الأطفال هيكل عظمى معلق يقرقع حينا تعبث به الريح وفي النهار كنا نسر بالاصطدام به

وكان في هذا الوقت طالب من مدرسة الطب بكامبيل يعلمنا تشريح العظام لأن أوصياءنا كانوا يزعمون أنهم ينقشون في عقولنا العلم التام . ليت شعري لأي حد نجحوا ؟ ولا حاجة لأن تقول ذلك لمن يعرفنا . والأفضل بلا شك أن نلتزم الصمت أمام من يجهلنا

وقد كرت الأعوام واختفى الهيكل العظمى من الغرفة كما اختفى تشريح العظام من ذاكرتنا دون أن يترك أى أثر

ازدحم منزلنا أخيراً بالمدعوين فاضطررت أن أقضى الليل في تلك الغرفة التي كان معلقاً بها الهيكل العظمى والتي انقضى الزمن الذي كنت آنفها فيه . حاولت النوم بكل وسيلة فلم أستطع ، أخذت أتقلب وأعد دقات ساعة الكنيسة طوال الليل ... طفق مصباحي يختلج لحظة ثم انطفأ ، وقد فقدت أسرتنا بعض أعضائها حديثاً ، وهذا ما اقتاد فكرى نحو الموت ...

سألت نفسي ألا يشبه نور المصباح الذي يتيه في الظلمات من مسرح الحياة المظلم ضوء حياتنا الضئيلة الذي لا يلبث أن ينطفئ في كل ساعة من الليل أو النهار ؟

ولتداعي الفكر عاودتني ذكرى الهيكل العظمى ، وبينا أنا أتصور شكل الجسم الذي كان يكسو تلك العظام ، شعرت أن شخصاً يدور حول سريري يسير متسكماً بجانب الحائط ، ولقد شعرت بتنفسه السريع ، وخيل إلى أنه يبحث عن شيء لا يجده ويدور حول الغرفة بخطى سريعة

ولقد خدعت في الحقيقة من شيء خلقه مخى المضطرب الذي حرم نومه ، وظننت أن وقع الأقدام التي سمعتها ما هو إلا دقات شراييني في صدغى ، ورغم ذلك شعرت بارتعاد مثلج ... ولأطرد من مخيلتي هذا الهذيان صحت بأعلى صوتي : « من هناك ؟ » فأحسست بأن الخطى وقفت بجانب سريري وأجابني صوت : « أنا الطارق وقد أقبلت لأختبر هيكلي العظمى »

ومن السخف أن يظهر الانسان الهلع والخوف من خيال بسيط ، ثم اكتفيت بأني أضغط على وسادتي وأصيح بلهجة مخالفة للأولى : « إن هذا الشاغل الذي اقتادك في مثل هذه الساعة من الليل لمضحك ؟ وماذا يهمك هذا الهيكل العظمى »

ويظهر أن الجواب انبعث من كلتى نفسها : « إن عظام هذا الهيكل قد أحاطت قلبي ورأت محاسن شبابي الخلابة في ربيعها السادس والعشرين ! وكيف أقاوم الرغبة الملحة في رؤيتها ثانية ؟ »

فقلت له بدوري : « إنها لرغبة شرعية فتمم بحثك واتركني لشأني عساني أجد النوم »

فرد الصوت : « إخالك وحدك وأود أن أجالسك لحظة نتسامر فيها . لقد كان يسرني أن أساجل الناس الحديث ولكني لم ألق في هذه الخمسة والثلاثين سنة الأخيرة إلا الأنين فوق نيران الموت ، وما أحيلى أن أحادث اليوم رجلاً مثل العهد السابق »

وقد شعرت أن شخصاً أقبل وجلس بجانب ستائري فاستسلمت واستمنت بتوددى قائلا :

— ما أعظم ابتهاجي وسروري للسمر ولنبحث سوياً عن موضوع شائق نتحدث فيه ...

— إني لا أجد موضوعاً مسلياً أعظم من قصتي الشخصية فهل تسمح لى بسردها ؟

وقد دقت في هذه الآونة ساعة الكنيسة الثانية صباحاً

قال الصوت : « حينما كنت في عنفوان شبابي وكنت أقطن بين الأحياء سبب لى أحد الناس فزعاً ورعباً يفوقان رعب الموت : ولم يكن ذاك غير زوجي . وإني لا أجد ما أقارن به شعوري غير السمك الملق في سن الشص فكأن شخصاً أجنبياً علقني بشص عنيف وانتزعني من دار طفولتي السعيدة حتى كنت لا أستطيع أن أفكر في الخلاص ولقد مات زوجي بعد الزفاف بشهرين بينما كان أقاربي وأصدقائي يبكون بكاء مراً لحظي التعس النكود . وفي ذات يوم قال حمى لحماتي بعد ما أطال النظر إلى وجهي : «ألا ترين أن زوج ابننا لها عين سوء صائبة حاسدة ؟ » هل أنت مصغ إلىّ ؟ وهل يهمك حديثي ؟

— يهمني جداً وإن أوله ليدل على أنه شائق مسل !

— أتمم إذن حديثي . ولقد عدت إلى بيت أبي بكل سرور . ولو إن البيئة التي كنت فيها ما كانت تشعر بشيء من محاسني لكنني كنت واثقة من أنني أحرز جمالا رائعاً نادراً . فما رأيك ؟

— هذا شيء معقول جداً ، ولكن لا تنسى أنني لم أرك قط

— قط ؟ وماذا تسمى بهيكلي العظمى ؟ ها ! ها ! هذا لا يهم فإني أمزح

وكيف أجعلك تتصور أنه كان في هذين التجويفين اللذين تجردا من لحمهما عينان سوداوان يتلألآن بأنواع السحر والفتنة ؟ أو أن الابتسام الذي كان يضيء هاتين الشفتين الورديتين لا يشبه في شيء هيئة الضحك العابس التي عرفتها ، وعند ما أذكر كل المحاسن والرشاقة ومتانة هاته الانحناآت التي كانت في شرخ الشباب تتفتح كالأزهار فوق هذه العظام النخرة لا أستطيع أن أكتم ابتسامي . وإني لأتألم من ذلك . وهل يستطيع مشاهير العلماء في زمن أن يفرضوا أن عظام جسم مثل هذا تخصص لدراسة تشريح العظام ؟ واعلم أن طبيباً من الشبان المجاورين لنا شبهني بزهرة (الشمباك) الذهبية ؟

وحينما أمشي كنت أشعر بأن أقل حركاتي تنفجر أمواجاً منسجمة تنبعث من كل صوب كلألاء الماس . وكانت تمر علىّ ساعات وأنا أشاهد في يدىّ اللتين كبلتا برشاقة الرجال الذين يتأجج فيهم نشاطهم

ولكن هذا الهيكل العظمى قد أخفى عنك الحقيقة كشهادة الزور ، ولم يكن في ميسوري أن أدحض تأكيداته الوقحة . إني أشعر أنني أحب

أن أطرد التعاس من عينيك إلى الأبد بأن أستحضر أمامك الصورة الوردية الحية لجمالى بحيث أمحو من أمامك كومة العظام المشؤومة التى تملأ ذهنك

— كنت أستطيع أن أقسم بجسمك إذا كان لم يزل حياً ، ولو أنه لم يترك منه أى أثر من العظام لكن عقلى قد افتتن بالصورة الوضاءة لجمال كامل يظهر بهاءه بقوة التضاد هذا الليل الفاحم الذى يحيط بها ، وإنى لا أقدر أن أقول أكثر من هذا

—استمر الصوت فى حديثه قائلا : لم تكن لى صاحبات لأن أخى الوحيد صمم على عدم الزواج . كنت وحدى فى خدرى ، وقد اعتدت أن أستلق فى الحديقــة فى ظل شجرة ، وكانت الأحلام تستدرجنى فى يقظتى حتى خلت أن العالم كله قد شغفه حبى وأن الدرارى التى ما فتئت مستيقظة على الدوام لتثمل من نشوة بهائى ، إن الصبا لتتنهد حينما تنتحل لها عذراً لتتمسح بى بجناحها . وإن داست قدمىّ مرجاً فإن مجرد اللمس يفقده رشده . وإن فتيان العالم يظهرون أمامى كأنهم أعواد الــكلأ تحت قدمىّ ، ولا أدرى لأى سبب يلازمنى الحزن والــكآبة

وحينما تخرج شيكهار صديق أخى من مدرسة الطب أصبح طبيب أسرتنا ، وقد لمحته عدة مرات مختبئاً وراء ستار . وكان أخى رجلاً غريب الأطوار لايهتم بالنظر إلى العالم الخارجى، وكان بوده ألاتكون الدنيا مقفرة وينتمد بالتدريج إلى أن يقبع فى ركن مظلم ، كان شيكهار صديقه الوحيد الذى أتاحت لى الفرص مقابلته ، وفى بلاط الفتونين بحيى الذى كنت أتخيله فى أوقات نزهتى الليلة كان كل شاب مشتت الفكر عند قدمىّ يستمير وجه شيكهار . هل أنت مصغ إلى ؟ وما قولك فى قصتى هذه ؟ »

فأجبت وقد سبقت لسانى زفرة :

« وددت لو كنت شيكهار ! »

— انتظر قليلاً وأصغ أولا لآخر الحديث ، وفى ذات يوم مطير أصابتنى الحمى فجاء الطبيب يعودنى ، وكانت هــذه أول محادثة جرت بيننا . كنت راقدة أمام النافذة وقد لطف ضوء الشمس عند غروبها بياض لونى ، وحينما نظر إلى الطبيب وضعت نفسى مكانه وطفقت أنظر إليــه مغرقة فى التصور والتأمل ، وشاهدت وجهى الشاحب فى ضوء الأصيل موضوعاً فوق الوسادة البيضاء كزهرة ذابلة وحلقات شعرى الحتى تعبث بجبينى بينما أجفانى مطرقة باستحياء ناشرة ظلا معبراً فوق سحنتى

سأل الطبيب أخى والحياء يلثم لسانه ويخفض من صوته : « أتسمح لى أن أجس نبضها ؟ »

« أخرجت من تحت الغطاء قبضة مستديرة مدنقة ولاحظت حينما تفرست فيها أنها عاطل من سوار الصفير ! »[1]

لم أر فى حياتى أجهل من هذا الطبيب فى جس النبض . كانت أصابعه ترتعد حينما تمس ذراعى، فإن قاس درجة الحمى فى جسمى فإنى شعرت بدقات قلبه وقستها من أصابعه — هل وعيت حديثى ؟

فقلت : بكل سهولة ، إن دقات قلوبنا تعبر عن أفكارنا

— وبعــد عدة وعكات وكثير من الشفاء والعافية وجدت أن عدد المفتونين الذى يؤمون بلاط حبى الخيالى آخذاً فى النقص حتى انتهى إلى فرد واحد وفى النهاية استحال عالمى الصغير إلى طبيب ودنفة

(١) من عادات الهنود أن الأيامى لا يلبسن غير الثياب البيضاء ويكن عاطلات من الحلى

وبمناسبة مقابلتي اعتدت أن ألبس سرآطيلساناً أصفر وكنت أعقد حول شعرى عقداً أبيض من أزهار الياسمين، ثم أتناول مرآتي وأذهب إلى مكاني الذى ألفته تحت الأشجار

« إنك ترى بلا شك أن مشاهدة جمالنا في المرآة يكون على مر الزمن مملا ؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل لأني لا أنظر بعيني نفسهما لأني كنت فى الوقت نفسه أحد الشخصين فكنت أختبر كما يختبر الطبيب وكنت أطيل النظر وأفتتن وأشتعل بنار الحب . ورغماً من انتباهي وحذرى أثار أنين على فؤادى وسمع له صوت كنسيم الصبا فى المساء

ومن هذا العهد كففت عن الشعور بالوحدة وفى أثناء نزهتى كنت أتتبع بنظراتي عبث أصابع رجلى الصغيرة الرقيقة بالرمال الناعمة ، وكنت أسائل نفسي ماذا يكون شعور الدكتور لو كان حاضراً . كنت أمثل الشمس وقت الزوال منيرة على الزرقاء بنورها الوهاج ، ولم يعكر صفاء السكون غير صياح متقطع لنسر بعيد وصوت وراء سياج الحديقة لبائع خواتم من البلور وهو ينادى نداء شجياً ؛ فرشت على الكلأ ملاءة بيضاء لأستلقى عليها وأسندت رأسي إلى ذراعي وأرحت ذراعى الأخرى فوق الملاءة بشكل رشيق ، وقد تخيلت أن شخصاً أين لاحظ وضع يدى الشائقة فشد عليها بين يديه ووضع فى راحتى قبلة ذهبية وابتعد ببطء . وإن وقفنا الحديث هنا فما رأيك ؟

— « يكاد يكون ختاماً مقبولا » وقد أجبتها بلهجة حالم . قالت : وستبقى الصورة ناقصة قليلا ولكنني سأقضى بقية الليل فى إصلاح هذا النقص

— ولكنها تكون جافة . وكيف تدخل فيها الضحك ؛ وكيف تصل إلى جعل الهيكل العظمى يضحك وينكر ملامحه ؟

— دعنى الآن أتم الحديث ، وما أن وجد الطبيب بعض المرضى حتى أخذ غرفة أرضية من منزلنا وأعدها لعيادته . وفى هذا الزمن كنت ألهو بسؤاله عن تأثير العقاقير والسموم والكمية الكافية لقتل رجل ، فكانت هذه الأسئلة ملائمة لطبيعته فأجاب عليها بفصاحة ولباقة ، وكان من نتيجة هذه الحادثات أن صارت عندى فكرة الموت عادية لا تثير أي اهتمام ، وبذلك توطن الحب والموت عالمى الباطني . إن حديثي قد قارب النهاية لأننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة

— كما أننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من الليل

— وقد لاحظت بعد مدة من الزمن قلقا غريباً يساور الطبيب وظهر عليه كأنه يخجل من أمر يريد أن يخفيه عني . وقد حضر مرة بثياب فاخرة وهندام ظريف ليستعير عربة أخي

« كنت فريسة لتطلع شديد فصممت على سؤال أخى . وبعد أن دار بيننا الحديث من الشرق إلى الغرب قلت له : خبرنى بالحقيقة يا أخى ، أين يذهب الطبيب الليلة فى عربتك ؟

فأجاب أخى باختصار : « إلى الموت »

— خبرنى بكل صراحة أين ذهب ؟

— « ذهب ليتزوج » وقد أجاب أخى بطريقة أكثر وضوحاً

— أحقاً ما تقول ؛ وقد تفوهت هذه الكلمة مصحوبة بقهقهة طويلة

وقد علمت فى آخر الأمر أن الخطب كانت غنية وورثت ميراثاً عظيما سيتدفق على الطبيب ثروة طائلة ولكن لم أهانني بإخفائه هذا المشروع ؟ هلا سألته يوماً أن لا يتزوج حتى لا يصمى فؤادى ؟ ولكن الرجال لا يؤتمنون . لم أعرف فى حياتى إلا رجلاً

واحداً ، ولكن لحظة كانت كافية لكشف هـذه الحقيقة .

ولما رجع الطبيب من عمله وتهيأ الرحيل قلت له والضحك يغالبني : « ستتزوج فى هـذا المساء أيها الطبيب ؟ »

— إن فرحى قد أربكه بل زاده غيظاً وحنقاً

— ماذا جرى فانى لا أرى الأور كستر ؟

— فأجاب بتأوه : هل الزواج حادث مفرح ؟

« عاودني ضحك عنيف لا يغلب ثم قلت له :

لا ! لا ! فذلك من المستحيـل أن يعلن زفاف دون أضواء وموسيقى !

ثم ضايقت أخى حتى أعد معدات العرس وجعله بهيجا سارا .

ولم انقطع لحظة عن التندر بالخطب وعن الوقائع التى ستمر بها وعن حالتى تلقاء هذه الواردة الجديدة .

— خبرني أيها الطبيب ، هل ستستمر فى جس نبض مرضاك ؟

بخ بخ ! ولو أن عمل العقل الباطن غير منظور لاسيما عند الرجال فانى أستطيع أن أؤكد بأن قولى سيصمى فؤاد محدثى كالحراب الفولاذية .

إن الزواج سيشهر بعـد قليل فى الليل وقبل الذهاب شرب الطبيب هو وأخى كاسا من النبيذ كعادتهما اليومية ، وفى هذا الوقت طلع القمر

« ثم تابعت حديثى قائلة والابتسام يعلو وجهى : هل نسيت زواجك ؟ قد آن المسير »

وقد فاتنى بعض التفصيل ، فإنى قبل هـذه الآونة قد هرولت إلى العيادة وأخذت منها مسحوقا ووضعته خفية فى كأس الطبيب .

لقد أفرغ الطبيب كأسه بنهلة واحدة ثم قال لى بصوت متهدج من التأثر مصحوب بنظرة اخترقت فؤادى : «سأذهب» . ابتدأت الموسيقى بأنغامها الشجية ، ثم ذهبت إلى خدرى ولبست ثوب الزفاف المنسوج من خيوط الذهب والفضة وتزينت بحليّ ووضعت على شمرى العلامة الحمراء التى تميز الزوج وذهبت إلى الأشجار لأهيء مضجعى .

وكان الليل شائقا وقد ذهبت رياح الجنوب المنعشة بمتاعب الدنيا وقد تضوع شذا الياسمين والورد حتى غمر البستان البشر والفرح

وكانت أصوات الموسيقى تصل إلى سمعى أضعف مما كانت عليه وطفق لألآء القمر آخذا فى النقص وانمحت من ذا كرتى الدنيا وصورة بيت الأسرة كأنها وهم تبدو ثم أغمضت عينى وأنا مبتسمة .

وقد تخيلت أن الذين سيقبلون لمشاهدة بسمتى الأخيرة المنطبعة على شفتيّ كأنها آثار نبيذ وردى ، وأنى سأدخل فى مخدع زفافى الدائم ووجهى مضيء بنفس ابتسامه .

واأسفاه على مخدع زفافى وثوب عرسى المنسوج من الزخرف واللجين ! لأنى حينما استيقظت من قرقعة العظام التى يخيل إلىّ أنها صادرة من هيكلى العظمى وجـدتنى فى حضرة ثلاثة غلمان يتعلمون تشريح العظام فى هيكلى . وفى هذا الصدر الذي كانت تخفق فيه أفراحى وأتراحى والذى تتفتح فيه وريقات زهرة صباى كان المعلم يبين بسبابته عظامى واحدة فواحدة . هلا وجدت أثرا من هذا الابتسام الذى درسته بكل عناية ؟

وكيف وجدت قصتى ؟

— إنها لذيذة محبوبة .

وفى هذه الآونة ابتدأ يتمق أول غراب

ثم سألت : « هل أنت هنا ؟ »

فلم يرد علىّ أحد

واخترقت أشعة الصباح مخدعى فأضاءته .

محمد كامل حجاج

الخـــادم

للكاتب العظيم سيمونوف

بقلم الأديب نصرى عطاالله سوس

— ١ —

عاد جيرازيم إلى موسكو حيث كان يتعذر الحصول على عمل فيها ، وذلك قبل عيد الميلاد بأيام قلائل . وفى هذه الفترة كان كل عامل يتمسك بعمله مهما كان حقيراً ، طمعاً فى الحصول على هدية من مخدومه . وهكذا قضى الشاب الفلاح ثلاثة أسابيع دائباً فى البحث عن مهنة ولـكنه لم يوفق

وكان يعيش مع أقاربه وأصدقائه الذين نزحوا من قريته. ولم يكن فى فقر مدقع، ولـكنه كان يتبرم لرؤية شاب قوى مثله يحيا بغير عمل

وقد عاش جيرازيم فى موسـكو منذ حداثته . وعند ما كان طفلاً كان يشتغل بغسل الأوانى فى معمل من معامل البيرة ، ثم اشتغل بعد ذلك خادماً فى أحد المنـازل . وفى السنتين الأخيرتين كان يعاون أحد التجار ، ولو لا أنه دعى إلى قريته لسبب يتعلق بالخدمة العسكرية لبقى حيث كان الى الآن. ولسبب ما لم يقبل جيرازيم جندياً. ولما لم يكن معتاداً حياة الريف فقد بدت القرية لعينيه فى حلة من الـكآبة ، وصمم على الرجوع إلى موسكو مهما كانت النتائج

وكل دقيقـة تمر كانت تزيد مقته من جوب الطرقات فى فراغ وبطالة . ولم يترك جيرازيم أى سبيل للعمل إلا طرقها . ولقد ضايق جميع معارفه بالحافه ، وأحياناً كان يتصدى للمـارة ويسألهم إذا كانوا يعرفون سبيلاً إلى عمل خال

ولم يعد يحتمل جيرازيم أن يكون عالة على الناس . وقد أصبح وجوده يغيظ بعض مضيفيه . وتعرض بعض الخدم الذين كان ينزل عليهم لتأنيب مخدوميهم إياه بسببه . لقد كان فى حيرة تامة لا يدرى ماذا يفعل ، وأحياناً كان يجوب الطرقات النهار كله دون أن يتناول طعاماً ...

— ٢ —

فى أحد الأيام ذهب جيرازيم إلى صديق له من أبناء قريته ، يعيش على حدود موسكو . وكان هذا الصديق حوذياً عند رجل يدعى شاروف ، وقد مضى عليه أعوام كثيرة فى خدمته شاروف ، وقد أفلح فى أن يستحوذ على محبة سيده فأصبح يأمنه على كل شيء ويبـدى له دلائل الرضا . ولعل لسانه الفتيق هو الذى كسب له ثقة سيده فقد كان يشي بكل الخدم ، وكان شاروف يقدره من أجل ذلك

وتقدم جيرازيم وحياه؛ واستقبل الحوذى صديقه استقبالاً مناسباً وقدم إليه شاياً وبعض الطعام ثم سأله عما يفعله فأجابه :

— فى أسوأ الأحوال يا يجور . إنى أعيش بدون عمل منذ أسابيع

— ألم تسأل مخدومك القديم أن يستعيدك إليه؟

— لقد سألته

— أو لم يقبل ؟

— هناك من حل محلى

— آه ... هذا هو السبب . تلك هى خطتكم أيها الشبان . تخدمون رؤساءكم حينما اتفق ، فاذا تركتم مهنتكم تكونون قد سددتم طريق الرجوع إليها بالأوحال . ألا يجب أن تقوموا بواجباتكم بحيث تنالون التقدير الحسن ، فاذا رجعتم إلى مخدوميكم لا يهملونكم — بل يخرجون من حل عليكم ...

— وكيف يكون ذلك ؟ إنك لا تجد مخدومين على هذه الشاكلة فى هذه الأيام كما أننا لسنا بملائكة !

— وما فائدة تبديد الكلام ؟ ! إنى أريد أن أحدثك عن نفسي : إذا حدث أنى تركت عملى لسبب من الأسباب ورجعت إلى منزلى ، فالسيد شاروف يقبلنى عندما أرجع إليه ويكون سعيداً بقبولي

وجلس جيرازيم محزوناً . لقد لاحظ أن صديقه كان يباهى بنفسه ، ورأى أن يسايره فقال :

— إني أعرف ذلك ولكن من العسير وجود رجل مثلك يايجور . ولو لم تكن من أجود الخدم ما أبقاك سيدك فى خدمته اثنى عشر عاما

فابتسم يجور لأنه كان يحب المدح وقال :

— ذلك هو الواقع . لو أنك اتبعت نظامى فى الحياة والعمل ما وجدت نفسك عاطلا شهرا بعد أشهر

ونادى شاروف حوذيه فخرج وهو يقول :

— انتظر برهة .. سأرجع حالاً

— حسن جدا .

— ٣ —

عاد يجور وأخبر صديقه أن عليه فى خلال نصف ساعة أن يعد العربة ويسرج الخيل ويستعد لحمل سيده إلى المدينة . وأشعل يجور بيبته وأخذ يذرع أرض الغرفة ثم وقف فجأة أمام جيرازيم وقال:

— استمع يابنى ، إذا رغبت فى أن أحدث السيد شاروف عنك فلا بأس

— وهل هو فى حاجة إلى خادم ؟

— لدينا خادم غير كفء . تقدم به العمر ومن التعذر عليه القيام بالخدمة . ومن حسن الحظ أن هذه الضاحية غير مأهولة — كما أن رجال البوليس لا يدققون كثيرا ، وإلا لم يمكن الخادم الشيخ أن يحتفظ بالمكان على حالة من النظافة ترضيهم

— آه .. لو أمكنك ، حدثه عنى يايجور — إنى سأدعو لك طول حياتى .. لم أعد احتمل العيش بدون عمل

— حسن . سأحدثه عنك . تعال غدا . والآن يحسن أن تأخذ هذه الدريهمات

— شكرا يايجور . هل ستحدثه عنى ؟ قم بهذا الجميل من أجلي

— حسن . سأحاول

وانصرف جيرازيم وأعد يجور العربة وارتدى ملابسه الخاصة بمهنته وقاد العربة إلى الباب الرئيسى للمنزل حيث ركب شاروف ، ثم انطلقت به الخيول إلى المدينة وهناك أدى مهمته ثم آب إلى منزله . ولاحظ يجور أن سيده على شيء من البشاشة فبدأ حديثه معه :

— هل لى أن أسألك معروفاً ؟

— وماذا تطلب ؟

— شاب من قريتى ، شاب طيب ... ليس لديه عمل

— حسن !

— ألا تلحقه بخدمتك ؟

— وهل أنا فى حاجة إلى خادم ؟

— ألحقه على أن يقوم بأية خدمة تطلب منه

— وما ذا يعمل بوليكار ؟

— وما فائدة بوليكار ؟ ! لقد حان أوان فصله

— ليس من العدل فصله . لقد خدمنا عدة سنوات . فلا أستطيع طرده بدون سبب

— ولنفرض أنه اشتغل بخدمتك سنوات ، إنه لم يخدمك بغير أجر . لقد كان يتناول مرتباً ، ومن المؤكد أنه ادخر بعض المال لسنى شيخوخته

— ادخر ؟ كيف كان يمكنه ذلك ، إنه ليس وحيداً فى الدنيا : لديه زوجة يعولها وهذه مضطرة أن تأكل وتشرب أيضاً

— إن زوجته تكسب أيضاً . إنها أجيرة باليومية . ولم تمير بوليكار وزوجته اهتماماً ؟ حقاً إنه خادم فقير . ولكن لم تبعثر أموالك ؟ إنه لا يؤدى عمله كما يجب . وعندما تعين نوبته فى حراسة المنزل يترك مكان الحراسة أكثر من عشر مرات أثناء الليل . لم يعد يحتمل البرد وقد يكدرك البوليس بسببه يوماً . قد يهبط المفتش علينا يوماً ، وعندئذ لن يسرك أن تكون مسئولا عن نتائج إهمال بوليكار

— ومع ذلك ففصله قسوة واستهتار . لقد خدمنا خمسة عشر عاماً ، وبعد هذه المدة نعامله هذه المعاملة الفظة فى شيخوخته ... إنها لخطيئة

— خطيئة ؟ هل يصيبه منك ضرر ؟ إنه لن يموت جوعاً بل سيذهب إلى ملجأ الفقراء . وهذا أجدى عليه . هناك يقضى شيخوخته فى سلام

وأخذ شاروف يفكر فى المشكلة ثم قال :

— حسن . دع صديقك يحضر هنا . وسأرى ما يمكننى أن أفعل له

— أرجو يامولاى أن تلحقه بخدمتك . كم أنا حزين له ! يا له من شاب خَيِّر ! ومع ذلك فهو عاطل منذ أمد طويل . إنه سيؤدي واجبه على أكمل وجه وسيخدمك بإخلاص . لقد ترك عمله الأول بسبب الخدمة العسكرية . ولولا ذلك ما تركه مخدومه الأول

— ٤ —

عاد جيرازيم فى المساء التالى وسأل صديقه :

— هل أمكنك أن تقوم بشىء فى سبيلى ؟

— نعم ... على ما أعتقد . دعنا نتناول بعض الشاى أولا ، وبعد ذلك نذهب لمقابلة سيدى

ولم يكن جيرازيم بالراغب فى شرب الشاى . لقد كان متشوقاً إلى معرفة ما قر عليه أمره ولكن مقتضيات الواجب واللياقة نحو صديقه أجبرته أن يشرب قدحين من الشاى ، أخذه بعدها صديقه إلى رب الدار

وسأل شاروف جيرازيم عن مكان سكنه وعن مخدوميه السابقين ، ثم أخبره بعد ذلك باستعداده لقبوله خادماً عاماً يؤدى كل ما يطلب منه وأن عليه أن يأتى صباح اليوم التالى ليبتدئ عمله . وأذهل جيرازيم هذا الحظ المفاجئ وكان فرحه عظيما حتى أن قدميه لم تقويا على حمله ، وبعد برهة رجع جيرازيم إلى غرفة الحوذى

وقال له الحوذى : « حسن يابنى . يجب أن تعنى بأن تؤدى واجبك على الوجه الأكمل حتى لا أضطر يوما إلى الخجل بسببك . أنت تعرف من هم السادة إذا قصرت مرة تعقبوك دائما بالبحث عن أغلاطك ولن يدعوك فى سلام أبدا

— كن مطمئنا ياعجوز

وانصرف جيرازيم وعبر فى طريقه فناء المنزل ،

وكانت غرفة بوليكاز تطل على هذا الفناء وكان ينبعث منها نور ضئيل يضيء طريق جيرازيم الذى شعر بالشوق إلى رؤية الغرفة التى ستخصص له، ولكن زجاج النافذة كان مغطى بالصقيع بحيث يتعذر رؤية أي شيء خلاله . وسمع جيرازيم أصواتاً تنبعث من الغرفة فوقف يتسمع . سمع صوتاً نسائياً يقول « ماذا نفعل الآن ؟ » فأجاب رجل — وكان بوليكار لا شك :

— لست أدري .. لست أدري، نطوف الشوارع مستجدين .

— هذا كل ما بقي لنا . وما من حيلة أخرى . يالله لنا، نحن الفقراء ! أى حياة تعسة نحياها! نكد ونكدح من الصباح الباكر حتى الليل يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، وعند ما تتقدم بنا السن نتضور جوعا

— ماذا نفعل؟ إن سيدنا ليس من طبقتنا، ولا جدوى فى الذهاب والتحدث إليه . إنه لا يهتم إلا بمصلحته

— كل السادة على مثل هذه الحقارة . إنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم ، لا يخطر ببالهم أننا نعمل بشرف وإخلاص مدى سنوات ، نفنى زهرة قوانا فى القيام بخدمتهم ثم يخشون أن يقوتنا عاماً آخر ، حتى ولو كانت لدينا القوة للقيام بواجباتهم . فاذا عجزنا تماماً وجب علينا أن ننصرف من تلقاء أنفسنا

— إن شاروف لا يلام بقدر ما يلام حوذيه الذى يود الحصول على مهنة لصديقه

— نعم ... يا له من ثعبان ! إنه يعرف كيف يتشدق بلسانه ... وأنت يا يجور أيها الحيوان القذر اللسان ... انتظر ، سأنتقم منك ، إنى سأذهب إلى السيد وأخبره كيف كان هذا الوغد يغشه وكيف يسرق التبن والعلف . وسأقنع السيد أن هذا الوغد يكذب فى كل ما ينقله عنا .

— لا لا . أيتها المرأة لا ترتكبي خطيئة

— أية خطيئة ؟ أو ليس حقاً ما أقوله ؟ إننى أعرف صدق ما سأتحدث به وسأفضى بكل شيء للسيد . ولم لا ؟ ماذا نفعل الآن ؟ أين نذهب ؟ لقد حطمنا، لقد حطمنا، وانفجرت المرأة باكية متأوهة

سمع جيرازيم الحديث كله وكأن خنجرا نفذ فى أوصاله . لقد تحقق أى بلاء كان يجره الى هذين الشيخين وشعر أن قلبه يتمزق

وقف حيث كان زمنا طويلا عزوناً غارقاً فى الفكر ، ثم دار على عقبيه وذهب ثانية إلى غرفة الحوذى الذى سأله عندما رآه

— هل نسيت شيئاً ؟

وأجاب جيرازيم متلعثما : لا ... لقد أتيت ... استمع إلىّ ... أود أن أشكرك كثيراً على حسن استقبالك إياى ، وكل ما عانيته من أجلى .. ولكنى لا أقبل العمل هنا

— ماذا ؟ ما ذا تعنى ؟

— لا شيء . لا أرغب فى العمل هنا . سأبحث عن عمل آخر . وانتابت يجور حدة غضب وقال :

— هل تعنى أن تجعلنى مجنوناً فى رأى سيدى؟ هل تعنى ذلك أيها الأبله؟ لقد أتيت تتضرع فى وداعة وترجو المساعدة . والآن ترفض العمل . أيها الوغد لقد أخزيتنى !

وصعد الدم إلى وجه جيرازيم وخفض عينيه ولكنه لم ينبس ببنت شفة

وأدار يجور ظهره فى احتقار وكف عن الكلام

وعندئذ التقط جيرازيم قبعته بهدوء وترك غرفة الحوذى وعبر الفناء مسرعاً ثم اجتاز باب المنزل وابتعد عن الدار مهرولاً

وكان يشعر بالسعادة والفرح ...

نصرى عطا الله سوسى

الآنية المكسورة

مترجمة عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

إن مدينة نابول ليست إلا قرية صغيرة جداً على خليج كانز . ولكنها لجمالها من أشهر المدن في إقليمها وتحيط بها مزارع البرتقال الدائمة الاخضرار وبساتين الكرم والزهور . على أن ذلك وحده لا يكفي لشهرتها فلا بد أن تكون فتياتها جميلات . وإنني لست واثقاً من ذلك وإنما استنتجته بمجرد الاستنتاج . ويحزنني أن هذه المدينة صغيرة فلا يكفي ما فيها من البرتقال والعنب والنساء لتقسيمه على أهل بلادي

وقد كان نساء نابول منذ وجدت هذه المدينة جميلات . وكانت كذلك إحداهن الملقبة باسم ماريتا الصغيرة . وسميت صغيرة لجمالها ولكنها بنت سبعة عشر عاماً وقد علت هامتها فارتفع جبينها بحيث يصل إلى ثغر الفتى الطويل القامة

وقد أكثر المؤرخون من الكلام عن ماريتا . ولهم كل العذر في ذلك ولو كنت في مكانهم لفعلت مثل ذلك لأنها كانت حتى إلى العهد الأخير لما انتقلت مع أمها إلى مدينة مانون على شاطئ الافينون قد قلبت المدينة رأساً على عقب . ولست أعني أنها قلبت أبنية المدينة ولكنها قلبت الرؤوس والقلوب التي يحيق بها الخطر كلما جاوزتها عيون جميلة . وإن الذين يسخرون من هذا القول هم الجهلاء الذين لم يقرأوا في التاريخ أن سيدة واحدة كانت سبباً في إثارة الحرب في آسيا وأوربا . وقد جاء ذكر هذه السيدة في شعر هوميروس

لم يمض أسبوعان على سكنى ماريتا المنزل الذي أقامت فيه حتى عرف كل شبان المدينة أن الفتاة التي سكنت هذا المنزل هي أجمل فتاة في الإقليم . وكانت كلما مشت في الطريق تكلم الطاعنون في السن . وأما الشبان فيعتريهم الخرس . وتفتح النوافذ ذات اليمين وذات اليسار ويلقي عليها السيدات من هذه النوافذ تحية ، فتجيب متلفتة يميناً ويساراً بابتساماتها السارة

وإذا مشت ماريتا في الكنيسة نسي من فيها من الشبان الجنة ونعيمها وصدفوا عن صور القديسين إلى خديها الورديين

وكان نساء المدينة يعدون مجيئها نكبة فإن أزواجاً كثيرين فترت محبتهم ، وكاد يسلو معشوقته كل عاشق مستهتر ، وأصبحت الأحاديث كلها عن حوادث الطلاق بعد أن كانت عن الزواج . وأخذ كل خطيبين يردان الخواتم والهدايا والصور بدلاً من التهادي بها في العهد القديم . وشارك الكبار الصغار في ذلك ، وصار الزوجات ذوات النسل يمضين من بيوتهن ومعهن أبناؤهن وأحفادهن

وكانت ماريتا هي السبب في ذلك كله . وصار كل الناس يتكلمون بهذه الحقيقة ، ولكن ماريتا نفسها لم يخطر ببالها أنها فعلت سوءاً ولا أن الناس ينسبون إليها مثل هذه الشرور . وكان البادئ بنسبة الشر إليها أترابها الفتيات ثم الأمهات فالآباء فالشبان . ولكن الفتاة ظلت تحترم الجميع وتحب

الجميع ، فشذ عن هذه القاعدة الشبان وصاروا يقولون إنها طاهرة بريئة من الأذى فلا يتهمونها بشيء . وحذا الآباء حذو الشبان ثم تبعتهم الأمهات فالفتيات

وكان مجرد الحديث مع ماريتا يكسبها الحب والاحترام والتقدير . ولكنها لم تظن أنهـا موضع التقدير كما لم تظن من قبل أنها موضع البغض . وهل تظن البنفسجة المختفية فى الصخور وراء العشب أنها جيلة ؟

غير أنها كانت تلاحظ أنها تدعى إلى كل حفلة وكل سهرة ، وأن جميع الرجال يبدون من العطف ما يسترق القلوب وإن كان بعضهم أقسى قلباً من فرعون ، ولعل تلك القسوة وراثية عن آدم بعد طرده من الفردوس .

ومن أمثلة القسوة التى ارتكبت ضد ماريتا ما فعله كولين أغنى مزارع فى نابول وهو صاحب مزارع الزيتون والليمون والبرتقال ، وهو يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً ، ولكنه لم يسأل نفسه قط لماذا خلق الله النساء . وقد كان الأوانس إلى عمر معين يتنفرن له ذلك ويحسبنه من أحسن من أظلتهم السماء .

ولما عاد أهل المدينة فاتفقوا على أن ماريتا بريئة لم تجن ذنباً كان كولين هو الوحيد الذى لم يعدل عن الرأى الأول فيها ، فاذا ما ذكر اسمها اعتراه الصمت ، وإذا ما رآها فى الطريق أدار وجهه مغضباً ، وإذا ما اجتمع الشبان عند الشاطىء للتنزه أو الرقص كان كولين أشـدهم مرحاً حتى تظهر ماريتا فيعتريه الانقباض والصمت

وكانت نظرات كولين حادة تحبهـا الفتيات وتخشينها إلا ماريتا فانها لا تحب هذه النظرات ولا ولا تخشاها . وإذا جلست مع كولين فى وسط أصدقائه وأخذ يقص إحدى قصصه وهى كثيرة عذبة لم تلتفت إليه كسائر الفتيات بل كانت تنتقم منه . وإن الانتقام لمذنب وان ماريتا تعرف كيف تنتصر . لـكنها مع ذلك كانت رقيقة وكانت عفة . وإذا سكت كولين فانها تتألم ، وإذا عبس امتنعت عن الضحك ، وإذا ذهب لم تمكث بعد ذهابه طويلاً بل تعود إلى منزلها وتبكى وحدها وهى فى بكائها تكون أجمل من المجدلية ولو أنها لم تخطىء مثلها .

وكان الأب جيروم راعى كنيسة نابول يبلغ السبعين من العمر وفيـه كل الصفات التى تميز القديسين غير أنه أصم . وكان الصغار يسرون من خطبه وهى دائماً تنحصر فى موضوعين أحدهما : « الحب المتبادل بين الأطفال » والثانى « عجيبة هى أفعال العناية » والحق أن هذين الموضوعين يتضمنان كثيراً من روح المسيحية . ولـكن كولين لم يكن يفهم شيئاً منهما ، وهو حتى حين يرى أنه أحب حبًّا شديداً يضمر فى نفسه حقداً شديداً

وفى الموسم السنوى الذى ينتقل فيه أهل القرى فى ذلك الاقليم إلى مدينة فنس ، ذهب أهل نابول وكان بينهم ماريتا وأمها وكان بينهم كولين أيضاً . وقد أنفق كولين كثيراً فى مشترى هدايا لأصحابه ولـكنه لم ينفق درهماً واحداً من أجل ماريتا . ذلك على الرغم من أنه لم يفارقها . على أنه لم يكلمها ولم تكلمه فى كل مسافة الطريق . وكان من السهل

عليها أن تفهم أن وراء هــذه الملازمة والمخاصمة تدبيراً من تدابيره السيئة

ووقفت أمها واستوقفتها أمام حانوت وقالت : « انظرى ياماريتا ، ما أجمل هذه الآنية ! إن الملكة لا تشرب فى آنية أنفس منها . انظرى إلى هذا الذهب اللامع وإلى رسم هذه الحديقة التى تشبه الفردوس . إن صور الزهور فيها جواهر غالية . انظرى إلى شجرة التفاح . إن آدم وحواء كانا معذورين إن كان تفاح الجنة بمثل هذا الجمال »

فنظرت ماريتا إلى الآنية وقالت : « أيكون لى مثلها فى يوم من الأيام يا أمى ؟» فقالت الأم : « أنحن فى سوق فنس هنا ، أم فى سوق الفردوس ؟ »

وفى أثناء الحديث بين الأم والبنت اجتمع حولها الفتيات والفتيان الآتون من نابول وسألوا صاحب الحانوت عن ثمن هذه الآنية فقال : « مائة جنيـه » .

فسكتوا وذهبوا يائسين

ولما ابتعد أهل نابول عن الحانوت عاد كولين وحده إليه ودفع المائة جنيه وأخذ الآنية ملفوفة فى الأقطان داخل صندوق

ولما اقترب كولين من مدينة نابول وهو عائد إليها رأى فى الطريق جاك المرم حاجب القاضى ، وكان هذا الحاجب طيب القلب جداً ولـكنه غبي جداً . قال له كولين : سأعطيك مالاً يا جاك على أن تذهب بهذا الصندوق إلى بيت ماريتا على شرط أن تقول إن الذى أعطاك إياه رجل غريب ولا تصرح باسمي ولا باسم أى إنسان . وإذا خالفت فانى أعاقبك يا جاك »

فوعده جاك وأخذ الصندوق الذى به الآنية ولـكنه قبل أن يذهب إلى المنزل رأى سيده القاضى « هو تمارتين » فسأله القاضى : « ما هــذا الذى تحمله يا جاك ؟ »

قال جاك : « هذا صندوق سأذهب به إلى بيت ماريتا ، ولـكننى لا أقول لك من الذى أعطانى إياه» فقال القاضى : « لماذا ؟ »

قال الحاجب : « لأن كولين يعاقبنى إذا قلت »

فابتسم القاضى وقال : « لك الحق فى كتمان السر يا جاك ، ولـكن فاتتك الفرصة فى هذه المرة . هات الصندوق فانى سأذهب إلى بيت ماريتا »

سلم جاك الصندوق إلى القاضي فقد كان من عادته أن يقابل بالطاعة كل أمر يصدر إليه وذهب القاضى إلى منزله ففتح الصندوق وفحص الآنيـة فأدرك قيمتها ، وعرف أن كولين لا يشترى هذه الهدية إلا وله غرض سيء من إرسالها إلى ماريتا . ففحصها خشية أن يجد فأراً مخبوءاً فيها ، فلما لم يجد فأراً قال إن كولين لم يرد على كل حال إلا إيصال الأذى بماريتا ، وقد يكون قصده أن يشاع أن هذه الآنية مهداة إليها من عاشق فيمتنع خطابها وتسوء سمعتها . وقال : « إننى منعاً لهذا الأذى سأقدم الآنية على أنها هدية منى »

وتذكر قول القسيس جيروم إن الأطفال يحب بعضهم بعضاً . وقد كان هذا القاضى طفلا ولو أنه

تجاوز الخمسين . وكانت ماريتا تكرهه ولم تفكر قط في ضخامة مركزه وكثرة أمواله ، وكان يزور منزلها فيتكلم أحياناً عن الزواج فتهرب ماريتا من مجلسه منزعجة . أما الأم فانها تظل جالسة غير خائفة أمام هذا الرجل الرفيع المركز . ومما ينبغي أن يذكر أنه وإن كان كولين أجل أهل المدينة فان هذا القاضي يمتاز عنه بشيئين أولاً أنه أكبر منه سناً ، وثانياً أنه أضخم منه أنفاً . وقد كان أنف هـذا القاضي فريداً بين الأنوف، فهو يتقدمه في الجلسة كأنه حاجب، وهو إلى جانب أي أنف آخر كالفيل إلى جانب أي إنسان .

وذهب القاضي إلى بيت ماريتا فقابلها هي وأمها وقال : « لقد رأيتك في فينس تبدين إعجابك بالآنية فجئت إليك اليوم بهـا وأرجو أن تقبليها مع قلبي هدية إليك »

فأخـذت الأم تنظر إلى الآنية نظرة سرور ، ولكن ماريتا قالت : « لا أقبل الآنية ولا أقبل قلبك » .

غضبت الأم وقالت : « إنني يا حضرة القاضي أقبل الآنية وأقبل قلبك . وأنت أيتها المجنونة كيف تحتقرين الحظ ؟ هل تظنين أن الكونت سيتزوج منك حتى ترفضي خطبة قاضي نابول ؟ إنني أعرف مصلحتك أكثر مما تعرفينها. إنني ياحضرة القاضي أفتخر بأن تكون زوجاً لبنتي »

وفي أثناء هـذا القول خرجت ماريتا باكية وكرهت الآنية أشد الكراهية من ذلك الحين . ووضع القاضي راحة اليد اليمنى فوق أنفه وقال لمن يريد أن تصـير حماته : « لا تستعجلي يا أمي فمع مرور الزمن ستعرفني ماريتا أكثر ممـا عرفتني إلى الآن . وإنني أفهم أخلاق الفتيات . وأؤكد أنه بعد ثلاثة أشهر ستصير ماريتا محبة لي »

فقالت ماريتا ساخرة من وراء الباب : « إن أنفك أكبر من أن يسمح لي بالحب »

وانقضت ثلاثة الأشهر ولم يستطع القاضي أن يصل إلى قلبها ولو بطرف أنفه .

وفي أثناء هذه المدة كانت الآنية سبب متاعب ومضايقات كثيرة لماريتا . وفي خلال الأسبوعين الأولين كان أهل المدينة يقولون إن القاضي أهدى إليها آنيـة فقبلتها وإن الاتفاق قد تم على زواجها منه . وكانت ماريتا تقول لصاحباتها إنها تفضل أن تلقي بنفسها إلى قاع البحر على أن تصبح زوجة له فيقلن لها ضاحكات : « إنه لمن السعادة أن تستظلي بظل أنفه » فيزيد هذا القول من مضايقتها

وكانت الأم تكره ابنتها على أن تضع في الآنية كل يوم باقة جديدة من الزهر، وهي تريد بذلك أن تحببها فيها وفي مهديها ؛ ولكن ماريتا استمرت على كره كليهما . وكانت تمد ما تكلفه بها أمها عقوبة. وهذا سبب آخر من أسباب مضايقتها ...

وفي الصباح نزلت إلى حـديقة المنزل كالعادة لتقطف الأزهار وتصنع منها باقة للآنية فوجدت باقة من أجمل الزهور موضوعة فوق صخرة . وفي وسط هـذه الباقة ورقة كتب عليها : « عزيزتي ماريتا » فظنت هذه الباقة من القاضي ومزقت الورقة إرباً . ولكنها أخـذت الورد ووضعته في الآنية .

وفى ذلك اليوم جاء القاضى للزيارة فى موعده فلم تجده مستاء حين لم يجد الورقة فى الآنية . وفى ذلك دلالة على تمزيقها . فكان عدم استيائه سبباً ثالثاً من أسباب مضايقتها

وأخيراً فهمت من حديثها مع القاضى أنه ليس الذى وضع الباقة والورقة فى الصباح .

وكانت مارييتا كأكثر الفتيات شديدة الرغبة فى معرفة الحقائق فتساءلت أى رجل آخر فى المدينة هو الذى فعل ذلك ؟ وأخذت تستعرض فى ذاكرتها أسماء الشبان واحداً بعد واحد، ولكنها لم تصل إلى نتيجة ، فقررت أن تراقب الحديقة حتى تعرف هل يعود مَنْ وضع الباقة

ولكن مراقبتها لم تسفر عن نتيجة، فقد كانت كل صباح تعثر على الباقة وفيها ورقة كتب عليها « عزيزتى مارييتا » ، فكانت تخال هذه الجملة تأوهاً وتعود فى اليوم التالى قبل ساعة من اليوم السابق حتى صارت تنزل إلى الحديقة فى أواخر الليل .

وفى إحدى الليالى نزلت قبل الشروق فوجدت شاباً نائماً وفى يده باقة من الزهر . وكانت دهشتها شديدة عندما عرفت أنه كولين . وعرت جسمها رعشة شديدة وقالت فى نفسها : « أهذا هو الشرير الذى استثار قلقى هذه المدة الطويلة وجعلنى أقوم كل ليلة فى هذا الموعد ؟ »

ثم عزمت على الانتقام منه فحلت الباقة ورمتها منثورة حوله كما ترى الزهور فوق القبر . ولم تكتف بذلك بل أرادت أن تزيد فى الانتقام فحلت الشريط الأزرق من قبعتها وربطت بطرفه يد كولين وبالطرف الآخر فرع الشجرة القريب منه لكى تزيد ارتباكه عند ما ينهض من النوم

ولكنها استبقت الورقة التى عليها « عزيزتى مارييتا » . وقالت إنها لا بد أن تكون بخطه وانها متى احتفظت بها فقد احتفظت ضده بدليل كتابى

وهكذا كانت مارييتا تظن أنها ماكرة ولكنها أسفت على تعجلها بربط يده بالشريط ، فانه لما نهض لف هذا الشريط حول قبعته ومشى كذلك فى كل شوارع المدينة . ولم تكن مارييتا تظن أن شريطها الأزرق معروف لكل إنسان ؛ ولكن أهل القرية عرفوه وأخذوا يتحدثون بأنها أهدت شريطها إلى كولين

وسمع القاضى وسمعت الأم بهذا الحديث فاشتد غضبها وخجلت مارييتا وأنكرت . وقال القاضى : « أما وقد وصل الأمر إلى هذا الحد فلابد من عمل سريع » . فقالت الأم : « إذهب اليوم وأعد وليمة العرس وفى غد سأبعث بمارييتا إلى القسيس ومعها رسالة حتى لا ترتاب . ولكنى فى هذا اليوم سأكلم القسيس وأفهمه الأمر . ومتى وصلت إليه فإننا سنباغتها عنده ونعقد إكليلها عليك »

قال القاضى : « ولكنها لا تحبنى » فقالت الأم : « أنا أعرفها أكثر مما تعرف . إذهب وأعد وليمة العرس »

وذهب القاضى مطمئناً إلى ذلك . وفى الصباح التالى نهضت مارييتا فى الفجر وذهبت إلى الحديقة فلم تجد الباقة . ولكن بعد لحظة ظهر كولين وفى يده الباقة فاحمر وجهها واضطرب كولين وقال :

« سعدت صباحاً يا ماريتا »

قالت : « سعدت صباحاً ، ولكن لماذا تمشى بالشريط فى شوارع المدينة وتعرضه علناً ؟ ألا تخجل ؟ إننى لم أعطك هذا الشريط »

فزاد اضطراب كولين ، وخجلت ماريتا من كذبها فقالت : « نعم أنا أعطيتك الشريط ولكن لم يكن من حقك عرضه علناً على هذه الصورة . هات الشريط »

قال : « اتركيه لى » . فقالت بحدة : « كلا ولكن هاته »

فغضب ووضع الشريط فى باقة الورد وتناول منها الآنية ووضع فيها الباقة وألقاها على الأرض وجرى مسرعاً فتكسرت الآنية ، وكانت الأم إذ ذاك مطلة من النافذة ورأت كل شىء ، وسمعت الحديث كله فكاد يطير عقلها من تكسر الآنية . ولكن بعد تفكير قليل قالت : « إن قاضى المدينة سيكون صهرى ولا بد أن أشكو كولين إليه فيحكم لماريتا بتعويض كبير يكون مهراً لما تدفعه إلى القاضى »

أخذت ابنتها وذهبت إلى القاضى ومعها أجزاء الآنية المكسورة وقدمت شكواها ، فثار القاضى وأمر الجنود بإحضار كولين ، وعقدت الجلسة فجاء كولين إلى جانب ماريتا وهمس فى أذنها : « سامحينى فإنى كسرت الآنية ولكنك كسرت قلبى »

وسمع القاضى أقوال الأم . وسأل كولين فاعترف بأنه كسرها عن غير عمد . فقالت ماريتا : إنها هى التى أغضبته وإنه لم يكن يريد كسر الآنية »

صاحت الأم : « هل تدافعين عنه ؟ إنه لم ينكر كسرها ولذلك استحق لنا التعويض »

فنظر القاضى إلى كولين وقال : « عليك أن تدفع ثمن الآنية ثلثمائة جنيه فإنها تساوى أكثر من ذلك »

فقال كولين : « إننى اشتريتها بمائة جنيه وأهديتها إلى ماريتا فهي لا تساوى أكثر من ذلك ؛ ولا أدفع ثمنها إلا إذا طلبته ماريتا لأننى صاحب هذه الهدية »

هنا اضطرب القاضى اضطراباً شديداً وأبهم الأمر على الأم ، واستغربت ماريتا ، وقال القاضى :

« كيف تجرؤ على الادعاء بأنك اشتريت الآنية مع أنها هدية منى »

فقال كولين : « أنا أرسلتها إليها مع حاجبك هذا . تكلم يا جاك فأنت شاهدى »

قال جاك : « تذكر يا حضرة القاضى الصندوق الذى أخذته منى فى الطريق لتذهب به إلى بيت ماريتا . إن الصندوق الخالى لا يزال بمنزلك إلى الآن وعليه خط كولين »

ضج المتفرجون فى الجلسة وكاد القاضى أن يصعق ، وطرد الحاجب ، وأجل القضية إلى الغد ، ولكن كولين قبل خروجه من الجلسة قال : « هذه آخر جلسة تجلس فيها أيها القاضى اللص . وسأذهب اليوم إلى وزير الحقانية وأعرض عليه أمرك »

ثم خرج كولين تواً إلى محطة السكة الحديدية

وقالت الأم فى آخر الجلسة : « على من سيحكم لى بالتعويض ؟ » فقالت ماريتا : « أنا صاحبة الآنية وقد نزلت عن ثمنها إن كان الملتزم به هو كولين »

وخرجت الأم وابنتها . وفى عصر ذلك اليوم أرسلت الأم ابنتها بأ كاليل إلى القسيس وقالت لها إنه طلب منها هذا الا كليل من أجل عروس أخرى. فذهبت مارييتا وهى لا تعرف السعادة التى تنتظرها ولا تفكر إلا فى حادث اليوم. وفى أثناء الطريق قابلها كولين فشكر لها ما قالته أمام القاضى وقال إنه قابل وزير الحقانية وإن الوزير جاء معه . وسألها : « ألم تصفحى عنى ؟ لماذا أنت قاسية علىّ يا مارييتا ؟ »

فقالت : « إنى سأرد إليك الشريط ولكن هل أنت الذى اشترى الآنية حقاً ؟ »

قال كولين : « وهل تشكين فى ذلك ؟ إن كل ثروتى لك يا مارييتا »

وظل سائراً معها وهو يحدثها حتى وصلا إلى الكنيسة فاستقبلهما القسيس بقوله : « فليحب كل منكما الآخر كما يتحاب الأطفال »

ويظهر أنه لضعف سمعه قد أخطأ فى سماع الاسم الذى كانت الأم قد ذكرته له . أو لعله لضعف ذاكرته قد نسى هذا الاسم . وعلى أية حال فانه ظن أن هذين هما المطلوب إليه أن يعقد إكليلهما. وقال كولين جواباً على كلمة القسيس : « إنى أحبها من سنوات ولكنها قاسية » وقالت مارييتا :

« إنى أحبه ولكن هو القاسى ».

وأخذا يتعاتبان عتاباً لم يسمع القسيس الأسم كلمة منه، فظن أنه إيجاب وقبول، وضم رأسيهما وهو يقرأ صلاة الزواج ، فتبادلا قبلة حارة على الفم وعقد الزواج والمصلون حاضرون ثم خرجوا يتحدثون عن زرواج مارييتا و كولين

وتأخرت الأم عن الموعد المضروب بينها وبين القسيس لأنها كانت فى انتظار القاضى ليذهبا معاً وفقاً لتدبيرها السابق . فلما لم يأت القاضى ذهبت إليه فى المحكمة فوجدت الوزير قد أجرى تحقيقاً مع القاضى ثم أمر بسجنه فقالت : « هذا عمل شرير من أعمال كولين » ثم هرعت إلى الكنيسة لتعتذر للقسيس عن التأخير ولتؤجل الزواج المزمع، ولكنها وجدت هناك بنتها ، وقد تم زواجها من كولين ؛ فثارت مقدار لحظة ثم شرحت له الأمر فقال كعادته : « عجيبة هى أفعال العناية »

ثم اصطلحت مع كولين لما علمت مقدار ثروته وليقينها بأن القاضى لن يعود إلى منصبه

وذهب العروسان وأم العروس إلى بيت كولين حيث دعى كل أهل المدينة إلى وليمة فخمة استمرت يومين ...

واحتفظ الزوجان ببقايا الآنية المكسورة لأنها هى السبب فى زواجهما

عبد اللطيف النشار

موت الحب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

للعاشق من عشقه لذة، أما سامى فله من عشقه لذتان ... لذة الهوى ولذة الفوز . ذلك أن فتاته لم ترتبط به عبثاً ولهواً كما يقع عادة فى الطرق المزدحمة أو الخلوات العامة ، ولا هى فرضت عليه تحت تأثير الظروف كما يحدث كثيراً بين الأقارب ، ولكنه رآها مرة فأعجبته وأطربته ، ثم رآها بعد ذلك مرات فآنس فى روحها اللطيفة جاذبية قاهرة ، وأولع بعينيها الصافيتين الجميلتين ، ونظراتهما البريئة الناطقة بالوداعة والاستسلام . وكان — فى تلك الأيام — يدير فى نفسه مسألة مسائل الشباب وهى الزواج ، فرجا أن يوفق إلى الاستقرار والسعادة بتلك الفتاة الحسناء . ولم يكن سامى ممن يقنعون بلذة الأمانى ، ولا ممن يتيهون فى وديان الأحلام ، فشق طريقه بقدمين ثابتتين وقلب جسور ، ولم يثنه عن عزمه أن يعلم أن ابن خال الفتاة يحوم حولها ويطالب بيدها ، لأنه كان ذا ثقة بنفسه لاحد لها ؛ وكان بطبعه جباراً عنيداً لا يرضى بالهزيمة ولا يستسلم لليأس . فاستمال الفتاة إليه ، وظفر بعواطف قلبها ، وارتبطا معاً سراً بالمواثيق والعهود ، ثم تقدم إلى ذويها يطلب يدها ، وكان هؤلاء من الحكمة بحيث جعلوا الاختيار منوطاً بصاحبة الشأن ، واختارت الفتاة حبيبها وأعلنت رغبتها على الملأ ، وعلت كلمة الحب وغلب نوره ، واكتسب سامى فى ساعة واحدة حباً صادقاً ونصراً عزيزاً ، ودحر خصمه واستهان بكيده وغضبه ، وآوى إلى ظلال الحب يفتتن بنفثاته ويحلق فى سماواته ، ويضم إلى نفسه فتاته ، الحسناء ينتظران على الجوى معاً أن تنطوى أيام التأهب ، ويرقبان فى الأفق السعيد أعلام اليوم الموعود ومنية المنى ...

إلا أنه حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فأصيب سامى بحمى وبيلة حبسته فى فراش الألم والذهول ثلاثة أشهر كاملة علقت فيها حياته بين البقاء والفناء ، واضطربت قلوب ذويه بين النعمة باليأس والشرق بالأمل ، وتمنت له نفوس الشفاء حتى أضناها التمنى ، وتلهفت نفوس الى هلاكه حتى أقضها اللهفة ، ولكن أراد الله له السلامة ، فسلم واجتاز طور الخطر واستقبل دور النقاهة ضعيفاً ذاهلا شارداً كمن يقوم من نوم مائة عام ...

ومضى يسترد صحته ويستعيد قوته فاستطاع بعد حين أن يستأنف تمثيل رواية حياته المألوفة ما بين البيت والمصلحة والخطيبة ، إلا أنه لاحظ على نفسه تغيراً طارئاً ظن أول الأمر أنه أثر من آثار المرض لا يلبث أن يزول ، فلما لم يزل ولم يبشر بالزوال ذهب إلى طبيبه يسائله ، ولم يفجأ الطبيب المجرب وهز رأسه هزة المتوقع لما حدث ، وقال للشاب إن مرضه قلما يدع فريسته سليما بلا عاهة مستديمة وأنه لم يعفه من ضريبته التى يفرضها على مرضاه فأصابه فى قواه التناسلية بالوهن والضعف اللذين سينتهيان بها فى شهور إلى موت تام لارجاء فى النجاة منه ...

واستمع الشاب إلى قول الطبيب فى ذهول كأنه لايعى شيئاً ولا يفقه معنى ، واستوضحه مرة ومرتين وألقى عليه الأسئلة جماعات وفرادى ، وكان كلما يهوى

عليه الطبيب باليأس يفزع إلى نائي الأمل ويستصرخ الاحتمالات البعيدة والفروض المتفرقة ، ولكن الرجل اضطر إلى خنق أنفاسه وقتل آماله ومجابهته بالحقيقة القاسية ...

وهكذا نجا من الموت ، ولكنه لم يهنأ بالصحة ولا اطمأن إلى الحياة . نعم إن صدره ما زال حارا ورغبته ما تزال حية ، ولكنها هادئة رزينة يملكها ولا تملكه ، ويسيطر عليهـا ولا تسيطر عليه ، وقد يكون من الجائز أن يعلل وهنها بعدم تماثله للشفاء التام ، ولكن لا مكابرة في الحق ولا فائدة ترجى من معاندة الواقع ، وأولى له أن يصدق الطبيب ، فلا ريب أن قواه تحتضر وأن ما بها من حياة إن هو إلا اضطراب اليأس تبـذله في مغالبة الجفاف والبرودة الزاحفين ...

يالرعب ! ... ترى ماذا عسى أن تكون حقيقة الحال التي تتربص به ؟ وما ماهية الشخص الغريب الذي سيستحيل إليه بعد قليل ؟ كيف يكون شعوره ووجدانه ؟ وكيف تكون دنياه ؟ وهل يبقى له ادراكه كما هو وشعوره كما هو وعاطفته كما هي ؟ أم أن موت هذه الغريزة الجبارة يعقبه مباشرة موت كلي لدنياه جميعا يبدله من وجـدانه جمودا ومن إدراكه غباء ومن أفراحه سأما ومللا ؟ .. ماذا عسى أن يكون حاله ؟ هل حق أنه من الممكن أن تقع عيناه على الحسناء غداً فلا يخفق لها قلبه ولا يثور وجدانه ولا تتيقظ فيه رغبة ؟ أم تبقى له حماسة عواطفه ولكنه يعجز عن إشباعها وهذا أشد قساوة وأبلغ نكاية ...

ولدى بلوغه هذا المبلغ من التفكير الحائر الحزين أحس بالتهاب الخجل يحرق خديه وغرق العار يتصبب من جبينه فتأوه من قلب قنوط وهتف من الأعماق : ما حكمة هذا القضاء ! ... ما حكمة هذا القضاء ! ...

ولم يغفل عن تذكر عطية دقيقة واحدة ، هذه الفتاة الجميلة ذات العينين المسليتين الصافيتين ، التي أحبته فصدقته الحب ونبذت من أجله أقرب الناس إليها . كيف يفي لها بعهوده ومواثيقه ؟ كيف يحقق لها ما مناها به من السعادة والحب ؟ وهل تبقى على حبها ووفائها إذا علمت بحقيقة دائه ؟ إنه لا يظن ذلك ، وما معنى هذا الوفاء لو منحته إياه ؟ وما فائدته ؟ كلا ... كلا ... إنه شذوذ لا ترضى عنه الطبيعة ولا تسيغه الفطرة . أما المعقول فهو أنها تتحول عنه من الساعة التي يداخلها فيهـا اليأس من ناحيته . هذا هو الحق الذي لا ريب فيه ، فالأنوثة معنى أجوف من غير الرجولة ، وكأنهما متضايفان كما يقول المناطقة . والمرأة تنشد حياتها في الرجل ، فاذا يئست من شخص فلن ترضى بجعل اليأس منه يأسا من الحياة كلها ما دامت تستطيع أن تجد رجلا آخر يحقق لها حياتها ... وعطية واحدة من النساء تخضع لناموسهن . . فليعلم ذلك جيدا . . وليرُض نفسه على التسليم به ... وا أسفاه ...

فاز خصمه وغريمه وكسب المعركة التي لم يرم فيهـا بسهم واحد ، فاز بالفتاة التي يحبها ، وفي الغد تعود إليه كسيرة القلب تضرع إليـه أن يغفر لها تمردها على حبه ويفتح لها صدره مرة أخرى ، وإنه لفاعل حينما يكون هو قابعا في عقر داره بائسا عزونا لا يدرى من أي جنس هو .. !

وغص عند ذلك بمرارة الخيبة والهزيمة والقهر، وعصرت قلبه آلام الخسران والقنوط ، وضيقت صدره عواطف الحنق والحقد ، فثار ثورة مكتومة على الطبيعة والأقدار وحقد على غريمه ما شاء له الغضب واليأس ووجد على حبيبته البريئة موجدة شديدة ورمق العالم أجمع بعين الحقد والكراهية...

ولم تحل آلامه الخفية دون اللقاء فكانا يلتقيان كثيراً ، وكانت تلقاه دائماً بعينين فرحتين صافيتين تفيضان بآى الامتنان كأن نجاته من الموت طبعتهما بطابع الشكران العميق . وكانت تجلس إلى جانبه تستمتع إلى همسات ضميره الصادقة وتلق إليه بأنات قلبها المحموم وكل ما بها من عينيها المتمنتين ووجهها المتطلع وشفتيها الشوقتين وصدرها الصاعد الهابط ينطق بالحب الصادق واللهفة الحارة ، وكان يجالسها ويحادثها ويضمها إلى صدره بحنان وشوق ويقبل ثغرها قبلات عنيفة ... فاذا أخفت وجهها فى صدره — وأصبح بمأمن من عينيهـا — تنهد محزوناً أسيفاً ، وقال لنفسه بصوت غير مسموع : كيف أحرم هـذا النعيم دون ذنب أو جريرة ! يا لك من بائسة يا حبيبتى ... تمثلين مأساة الوداع وأنت تجهلين ... وكان يعلم أن هذه الحال لن تدوم طويلاً، فـكان يسائل نفسه جزعاً: «ماعسى أن أصنع بالبقية الباقية من حبيبتى ؟ » فليس من الهين أن يفرط الانسان فى سعادته ولا أن يزهد فيها وهى على وشك الذهاب ، فما العمل ؟ هل يعجل بالزواج من فتاته؟ لن يتعذر عليه تحقيق ذلك، ولـكن ماذا يفعل غداً إذا حم القضاء ؟ وكيف يحتمـل تلك الفضيحة المدخرة له ؟ إنه يصبر على المـكاره جميعها فى سبيل أن يتلافى تلك الفضيحة ، وقد فكر جدياً فى أن يهجر حبيبته ، وكأنه يهجرها لزهد أو لملل تستراً على عجزه لولا أنه وجد من نفسه ميلاً إليها لا قبل له بمقاومته ... فما العمل إذاً ؟ ... وخطرت فى باله أفـكار حمراء خالطت نفسه فى حذر وتهيب ولـكنه طاردها بعنف شديد وأغلق دونها قلبـه يأساً وخوفاً ...

وفى ذلك الوقت ذهب مرة لزيارتها فى بيتها فوجده خالياً إلا من خادم عجوز ، فطابت لهما خلوة جميلة وجلسا يتناجيان ويتبادلان الحديث، وكانت عطية تطلب مثل هـذه الخلوة لتصارحه بما ترددت فى التصريح به... فقالت له همساً بالرغم من انفرادهما :

« ألاحظ عليـك شرود اللب والـكآبة فى أحيان كثيرة ... »

« أنا ! ... »

« ألاحظ أحياناً أنك تكون منهمكا فى الحديث منى والبهجة تشمل حواسك جميعاً ... ثم تجمد بغتة قسمات وجهك كأن نفسك اصطدمت على غرة بخاطر أليم ... فتظلم عيناك ، ويثقل جفناك ... وكأنك تشفق من نفاذ عينى فتعود إلى الأخذ بأسـباب الحديث ولـكن تخونك بهجة الروح ... لماذا ؟ ... لماذا ؟ ... ما الذى يكدر عليك صفوك ؟ »

فاستولى عليه الارتباك ، وقال لنفسه : « آه لو تعلمين ما يكدر علىّ صفوى ... »

ثم قال لها بصوت مسموع كالمتعذر : «لعله أثر من آثار المرض »

ولـكنها هزت رأسها بارتياب وقالت وهى تديم إليه النظر :

« المرض ؟ ... إنك صحيح معافى »

« أؤكد لك أن نفسى آمنة مطمئنة ولا داعى للقلق مطلقاً ... »

« حقاً ؟ ... »

« لا تدعى للشك سبيلاً إلى نفسك »

وأراد مخلصاً أن يبدد مخاوفها وأن ينير مجرى الحديث إلى ما هما بسبيه من الخلوة السعيدة الطاهرة فضمها إلى صدره ونال من شفتيها المنفرجتين الصامتتين بالكلام قبلة طويلة حارة رطبت ريقها شفته ... ولبثا فى غيبوبة غرامية يحس خلالها بصدرها الصاعد الهابط بين يديه ويشعر بملامسة نهديهـا لصدره المضطرب الخافق ، وكانت تلك الملامسة الرقيقة كأنها مس شيطان جذبه من عالمه الدنيوى ، إلى جحيم متقد تفور فيه الشهوات ، ويسيطر الجنون فخفق قلبه بعاطفة نارية ، والتمع ذهنه بأمنية خبيثة؛ وسرعان ما وجد جواب السؤال الذى عذبه وسهده: « ماذا أصنع بالبقية الباقية من حيويتى » حاضراً بين يديه ... وليكن ما يكون ...

وأحست عطية بأنه يضمها إلى صدره بعنف لم تعهده من قبل ... وأنه يلتهمها بعين وحشية تتقد فيها نظرة جنونية ... فداخلها خوف وهمت بالابتعاد عنه ... ولـكنه تعلق بها بقوة ، ولف يديه حول خصرها بعنف وفظاظة ، فاشتد بها الخوف وطالعت صفحة وجهه بنظرة مريبة فامتلأت رعباً وأخذت تقاومه مقاومة جدية وتدفعه عن نفسها بما أوتيت من قوة وتهتف به ضارعة متوسلة باكية ، وما يزداد إلا عنفاً وجنونا . فلـما لم تغن عنها جميع محاولاتها صرخت بأعلى صوتها تستغيث بالخادم العجوز ... وشلت الباغتة حركته حيناً، فجمد ، ثم استولى عليه غضب كاسر فرفع يمناه وضربها فى وجهها ضربة شديدة وقعت على أثرها على الأرض وقد انعقد منها اللسان ... فارتد إلى الوراء مترنحـاً كالثمل وغادر البيت فى ذهول شديد

ما الذى فعل ؟ ... كيف سولت له نفسه محاولة اغتصابها ؟ ... بل هب أنه فاز بمأربه فـماذا كانت تكون العاقبة؟ ... كيف انقلب وهو الوديع الدمث وحشاً لئيما سافلا بلا تدبير سابق ولا تعمد مبيت ؟ . كيف هانت عليـه فأطاعته يده الشريرة فى توجيه تلك الضربة القاسية إلى وجهها الجميل ؟ ... ياله من ألم أليم وخزى باق لا يزول ...

ولـما هدأت نفسه قليلا وسكت عنها الغضب وخفتت بها أصوات التأنيب وأنات الخزى والخجل واستطاع أن يذكر أمرا آخر فيطيب بذكره ويرتاح له، ذكر أنه تخلص من فتاته، وهو وإن كبر عليه إلا أنه ضرورة لامعدى عنها؛ وقد تخلص أيضا بنير افتضاح سره وهو ما كان يرجو ويتمنى، ولأن يفقدها وهى تنتقد وغريمه ينتقد أيضا — أنه رجل غادر سافل خـير من أن يفقدها قهرا وعجزا وهى ترثى لحاله وغريمه يطير فرحا وشماتة به ... ومهما يكن الأمر أليما ممضيا إلا أنه أوفق حل وتفاد الكارثة المتوقعة من حين لآخر...

وعلى أثر هذه الحادثة مباشرة انفلت منه زمام نفسه ، واختلت موازينه واضمحلت إرادته فغلبه القهر واليأس وحز فى نفسه اندثار سعادته ، وتهدم آماله، فأغرق فى الغواية إغراقاً وأوغل فى الفجور إيغالا ، وكان أكثر ما يرى فى رفقة نسوة ممن اصطلح على تسميتهن بالساقطات ، وكان يتعمد أن يظهر معهن فى سبيل حبيبته أو غريمه ، وكان يأتى هذا بشراهة ليتزود تزود الوداع وليتستر على العجز

الكامن فى أعماقه ، وليوهم غريمه البغيض بأنه زاهد لايائس ؛ وأقسم ليبقين على سلوكه هذا ولو بعد حدوث الكارثة دفعاً للظنون وشفاء الصدر وقهراً لكل شامت أو ساخر ... ثم وقعت الواقعة وتم التطور المقدور ...

ولسنا هنا بسبيل وصف هذا الداء بصفة عامة فقد يحدث أنواعاً لا تحصى من الجنون والشذوذ ولكنا حيال حالة خاصة ...

وقد شاهد سامى التغير بارتياع ودهشة، وأحس قانطاً بالحرارة تتسرب من طوايا قلبه ، واستولى عليه جمود وتأفف بلغا حد الزهد والشبع، وسرت فى عروقه برودة الشيخوخة والهرم ... حقاً إنه تغير خطير غريب ...

كانت تطيب له معاشرة النساء ويسعده الجلوس إليهن والاستماع لهن، فزهد فى ذلك كله غير آسف ولاحزين، ولاأحس بأنه فاقد بفقدهن شيئاً ذا بال، ولم ينظر إليهن إلا بالعين التى ينظر بها الرجل الكامل الرجولة إلى اللعبة التى كانت تستهوى طفولته وتستأثر بها .

وكان أخوف ما يخافه أن تبقى رغبته نشطة قوية ويعجز عن إشباعها ، ولكن الموت أدرك الرغبة نفسها واقتلع الشهوة من جذورها فانهار معبد المرأة فى نفسه وتبخرت العواطف التى تخلقها فى قلوب الرجال ، فاستهان بالأمر ولم يذق أسفاً ولا وجد ألماً ولا حزناً، فكان فى حرمانه كما يكون فى شبعه ، إذ ماذا تعنيه أى امرأة بعد فقدان هذه الرغبة ؟ تغدو صورة غريبة سخفها ظاهر وحسنها غامض لا معنى له ... كالمال فى عين الزاهد الصادق الزهد ... ليته كان يعلم ذلك من قبل . . . ! لقد حزن فبالغ فى الحزن . . . وأسف فغالى فى الأسف . . . وتحسر فجنى حسرة . . . وحاذر من أن يفتضح أمره لدى حبيبته وأشفق من أن يشمت به غريمه . . . لماذا ؟ . . . لماذا ؟ . . . لا حزن ولا أسف ولا حسرة . . . وليذع فضيحته من تسره إذاعتها، وليشمت به من تطيب له الشماتة به ... إنه أسمى من ذلك وأعلى ... إنه لايبالى بالتافهات...

* * *

وأعجب ما حدث له بعد ذلك أن وصلته رسالة من حبيبته — أو من كانت حبيبته — تطلب إليه أن يوافيها إلى موعد . . . وكانت مصوغة فى قالب مختصر ، شديد الاختصار يذكر بلهجة الرسالات البرقية ، فدهش دهشة عظيمة وسأل نفسه ماذا تريد عطية منى ؟ وما الذى دعاها إلى تحرير هذا الخطاب ؟ وهل يحسن به أن يذهب إلى لقائها أم أولى له أن ينزوى ويختفى من أفقها إلى الأبد ؟ وأحس بدبيب الخوف يسرى إلى قلبه ولكنه لم يستسلم إليه وصدقت عزيمته على الذهاب ...

وفى الموعد المضروب جاءت تسعى إليه فى مشيتها الرقيقة وحركاتها الراقصة . ولما صارت منه على بعد خطوة رمقته بنظرة عتاب أنبأ بريقها الخاطف عن بشائر ابتسامة خفيفة تغالب الظهور ، واكتفت بها تحية وجلست إلى جانبه على الأريكة المظللة بأغصان الكافور ... إنه يعلم بما يسكنها ويعلم بما يربكها ... فلقد أتته حقاً ولكنها أتت مقهورة متألمة ، وأقل ما تنتظر الآن أن يتحمس للقائها ، ويفيض مخلصاً فى الاعتذار وطلب الغفران ... إنه يعلم بذلك كله ،

ولـكنه لا يجد من نفسه أدنى استعداد للرياء والتمثيل فظل سا كناً جامداً يقلب ناظريه فى قسمات وجهها وجيدها ويديم النظر إلى ثديها وساقيها العاريتين . ويتعجب أيما تعجب ... كانت هاتان العينان تنفذان إلى أعماق قلبه وتفتحان مغلق مشاعره فتبثان به حياة آيتهــا القوة والجمال والنشوة ... وكان هذا الجسم البض يطلق شرارة حامية إلى أعماق صدره تسرى إلى فرائصه وأعصابه فتجعلها شعلة من نيران موقدة ... فماله اليوم لا ينفذ سحر إلى قلبه ؟ ولا يقوى جمال على بث عواطفه ؟ وما بال صدره هادئاً بارداً كأنما قدت ضلوعه من الثلج ؟ وما بال هاتين العينين لا تنفذان إلى قلبه ولا تفتحان مغلق شعوره ؟ ما بال هذا الجسم لا يبث ناراً ولا يشعل وقوداً ؟ كيف آضت هذه النظرة لا معنى لها ؟ وكيف أمسى هذان النهدان ولا مغزى لها ؟ ... يا عجباً ... وكان لابد له أن يقول شيئاً فقال بصوت هادئ :

« كيف حالك يا عطية ؟ »

ولم تعجبها لهجته ولا ارتاحت لنبرات صوته فدجته بنظرة لوم صارمة وقالت :

— يا غادر !

فأحنى رأسه أسفاً وذكر لقاءها الأخير وما وقع فيه فقال :

— مسنى الجنون ذلك اليوم ... كم أنا آسف .. غفرانك ...

— وأنا استولى على رعب شديد فدافعتك بقوة وما أدري ...

— قد أكرمتنى فوق ما أستحق ... وسكت عن سفاهتى ...

— مع هذا فقد غضبت على غضبـاً شديداً ، لما تنفره لى ...

— أنا ... ؟

— كيف السبيل إلى النكران ؟ لقد انقطعت عنى ... وهجرت مودتى ... وتناسيت عهودنا ، وقد انتظرت طويلاً أن تثوب إلى عقلك وترجع إلى كيما نصفى حسـابنا ... انتظرت طويلا ... وانتظرت عبثاً ...

— إنى آسف يا عزيزتى ...

— وليتك قنعت بكل هذا ... بل رأتك عيناى تسير فى رفقة ... إخص يا ... كم تألمت ، إن الغدر قاتل أليم ... »

أوآه ... إنها تنفخ فى « قربة مقطوعة » كما يقول المثل الدارج ، حقاً إنها تتكلم فى حماسة وحرارة وصدق ، ولـكن كيف له باستجابة دعائها أو تلبية ندائها ، فاكتفى قهراً بتنكيس رأسه ، وقد روعت لجوده وضاق صدرها به واحتارت فى تعليله وأحست بيد اليأس تقبض على أنفاسها فقالت جزعة مذعورة

— مالك ..؟

فلما لم تبد عليه أى رغبة فى الـكلام عادت تقول بلهفة :

مالك ؟ أمريض أنت ؟ ... لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثنى ؟... لم لا تكلف نفسك مشقة الاعتذار إلى ؟ ... تكلم بحلو أو بمر ... لن أتردد فى نسيان المـاضى إذا طلبت إلى ذلك ... كلة واحدة ونبدأ صفحة جـديدة ... أواه ياساى إنك لا ترغب فى الـكلام ...

— إنك لا تعلمين ...

— تكلم ... تكلم ... ماذا ينبغى أن أعلم ؟

ما فائدة المواراة والتردد؟ وما وجه الحكمة فى مد أجل هذا اللقاء الذى قد يكون آخر لقاء بينه وبين امرأة ؟ وآخر ما يسمع من حديث الحب وأهواله ؟ لا فائدة ترجى، وأولى له أن يصارحها بالحقيقة ...

الحقيقة ! ...

كان بالأمس يشفق من ذلك إشفاقا شـديدا ويفتديه ببذل النفس ومفارقة الحاقات، أما الآن وقد ماتت تلك الشجرة الباسقة المتفرعة فقد سارع الجفاف إلى ساقها فذبلت أغصانها واصفرت أوراقها وتناثرت أزهارها وأمست شبحاً كئيباً لا يرجو بعثا ولا نشورا . لقد أظلم عالم الحب البهيج وأقفرت وديانه وسكتت بلابله وتبددت أخيلته وافتضحت أوهامه واستحال مقبرة لا حياة فيها ولفظا لا معنى له وذكرى لا أسف عليها . . . وجمع فلول قواه وذكرى الفتاة العاشقة الحقيقة العارية فى عبارة مقتضبة وتلقى نظرتها الملتاعة الحيرى بهدوء عجيب .، وانتهى كل شىء

أهكذا ينتهى الحب ؟ ...

وهل تنتهى عوالم الانسان الأخرى الشاسعة وأحلامه السامية إلى أصول غرائز خافية فى طبيعته ؟ وهل إذا كتب على إحداها الموت تبـدد عالمها وتلاشت أحلامها وأضحت هباء وأوهاما ؟ أمن الممكن أن يكون نصيب الحق والجمال والبطولة والجلال نصيب حب سامى السوء الحظ ؟

نجيب محفوظ

مفارقات الشارع

للكاتب الأمريكي دونمار كيز
بقلم الكاتب الأديب محمد محمود دوارة

خسر (مربوذر بوك) كل ماله كما أضاع ما كانت تملكه شقيقاته وبنات عمه وخالاته ... وفى ساعة من ساعات الضيق واليأس قال محدثاً نفسه :

— سوف أضع حداً لتلك المهزلة بطلق نارى واحد أصوبه نحو قلبي ... ولن يتأخر تنفيذ ذلك عن الساعة الثانية بحال من الأحوال ... الساعة الثانية تماماً ...

وتلمس مسدساً آلياً ذا عشر طلقات كان موضوعاً بعناية فى الجيب الأيمن لمعطفه الثقيل ، ثم خرج يتسكع فى طرقات برودواى .

كان يسير فى خطى متعثرة بطيئة كخطى المخمور . ولا غرو فإنه لم يتناول طعاماً منذ يومين كاملين لا لسبب إلا أنه لم يجد ما يأكل

ألقى نظرة على شوارع المدينة المترامية الأطراف وتمتم مخاطباً إياها ، وكأنه يتمثلها أحد أبناء البشر يسمع ويعى ما يوجه إليه من حديث :

— كم أكرهك أيتها المدينة الملعونة ! وكم كنت أتمنى أن تكفى تسع رصاصات للقضاء عليك وتدميرك ... آه لو كانت تكفى تلك الرصاصات التسع لخرابك ! إذن لما ترددتُ لحظة واحدة فى إطلاقها عليك متتابعة كالسيل الجارف أو المطر الهاطل ...

كان هذا أسلوباً عنيفاً غير لائق من أساليب التفكير والتعبير وخاصة إذا علم أن مصدره كان شاباً فى مقتبل العمر تلقى قسطاً وافراً من التعليم والتهذيب ، ولكن المسكين كان فاقداً لكل شعور ، مجرداً من كل وعى

أما المدينة وكيف تلقت كلماته الثائرة النارية فلا حاجة بنا إلى القول بأنها لم تعر ذلك التفاتاً ، كما لا حاجة بنا إلى القول بأنها استمرت فى حركتها ولغطها وضوضائها وجلبتها كما كانت قبل أن تتحرك فى جوها تلك الموجات الصوتية الضعيفة الخائرة التى انطلقت من فم مربوذ ربوك

ولو كانت المدن كالبشر تشعر بما يدور حولها لكان شعور هذه المدينة فى تلك اللحظة شعور السخرية من المجنون الذى يريد تدميرها والقضاء عليها برصاصات تسع تخرج من فوهة حديدة صغيرة موضوعة فى جيب معطفه ...

والذين جربوا اليأس والبأساء من الناس كثيراً ما شعروا بخيبة الأمل عند ما كابدوا الشعور الذى كان مربوذربوك يكابده فى هذه الآونة

يمتلىء قلب الواحد منهم غيظا وحنقا على المدينة التي يعيش فيها والتى يعتقد فى قرارة نفسه أنها سبب شقوته وبلائه ويتمنى أن يسمع المدينة رأيه فيها ولكنها لا تشعر به ولا تحس بما يتأجج فى صدره من نيران

وفى اعتقادى أن الثائر على مدينة من المدن لن يستطيع أن يشفى غليله منها كما يحب ويهوى إلا إذا حدث بصدفة غريبة أن كان هو نيرون بعينه

* * *

الساعة الآن الواحدة ...

اخترق مربوذربوك أحد شوارع ميدان هيرالد متجها نحو عمارة كبيرة هى إدارة إحدى الصحف اليومية الكبرى ، فما كاد يقف هنـاك لحظة حتى خرج من العمارة شاب تبدو على وجهه وحركاته إمارات الجد والتفكير، غير أن عينيه كانتا تفتقران كثيراً إلى بريق الذكاء فى نظراتهما

وقف الشاب على عتبة الدار واضعا كلتا يديه فى جيبي سترته الثمينة واستسلم للتفكير غير ناظر إلى ما حوله؛ فانتهز مربوذربوك هذه الفرصة واقترب منه ثم وجه إليه الحديث قائلا :

— أسألك المعذرة ياسيـدى . ألست مخبراً من مخبرى الجريدة ؟

فهز الشاب رأسه ولم يصـدر عنه إلا صوت عميق كصوت الخنزير قائلا :

— نعم ...

— إذن فإنى متحفك بقصة نادرة

صمت المخبر ، ولكن مربوذربوك استمر فى حديثه قائلا :

— قد نعيش فى الحياة نكرات لا أهمية لها، ولكنا جميعاً نحب أن نشعر قبل انقضاء تلك الحياة أن موتنا سيحدث أثراً ما ولو كان طفيفاً ...

فكان جواب المخبر صوتاً آخر شبيهاً بالأول هو:

— وبعد ؟! ...

قال مربوذربوك فى لهجـة الجد والصراحة الصارمة :

— عند ما تحل الساعة الثانية سأطلق النار على نفسى

فبدت على المخبر دلائل خيبة الأمل إذ كان عمله فى الجريدة قاصراً على الأخبار السياسية ، ولـكنه قال موجهاً السؤال إلى محدثه الغريب الأطوار :

— وهل أنت من أصحاب الأسماء المعروفة ؟

— لا ...

ولم يزد على ذلك حرفاً لأنه كان يعلم أن من العبث إضاعة الوقت في ذكر اسمه واسم الأسرة التى ينتسب إليها ؛ وسواء قال إنه يدعى مربوذروأنه من أسرة بوك إحدى أسر ولاية جورجيا أو لم يقله فالنتيجة واحدة ، وهو أنه نكرة ابن نكرة ومجهول من أسرة مجهولين

قال المخبر فى لهجة تنم عن اللوم والتوبيخ :

— أظن أنك قلت قبل الآن إنك ستقص على مسامعى قصة ذات أهمية ؟ فهـل عزمك على قتل نفسك هو تلك القصة النادرة ؟

— أجل .. ألست على الأقل أحد أبناء البشر ؟

— أبناء البشر ؟ يالك من معتوه .. أيتساوى أبناء البشر في كل الأمور ؟ إن فيهم من هو أرخص وأتفه مما تظن يا عزيزى

وما كاد يصل إلى هذا الحد من حديثه حتى أبدى حركة دلت على رغبته فى الانتهاء من ذلك الحديث الذى لا يقدم ولا يؤخر وهمّ بالانصراف

غير أن مربوذربوك اعترض طريقه وصاح به قائلا :

— يالك من كافر جاحد ... أتكفر بالحياة يا هذا وبقدسية الروح ؟ ... ولـكن لا ... ليس لى أن أنتظر منك غير هذا . أفلست صخراً من صخور نيويورك التى خلقت على صورة البشر وألبست ملابس الرجال ...؟ ذلك رأيى فيك فهل

سمته ... وهل علمته ؟ وأظن أنني سأبدأ بقتلك أنت قبل قتلي نفسي

— لا ، لا ياعزيزي ... ليست لي رغبة الآن في الموت، ولن أسمح بحدوث ذلك قط، فإن هذي صفقة من أحسن الصفقات

ووضع مريوذربوك يده في جيب معطفه الأيمن وقبض على المسدس الصغير بين أصابعه وهم بإطلاقه ولكنه عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة لا خوفاً من المصير أو رهبة من الموقف... ولكن لأن فكرة غامضة طارئة مرت بذهنه المكدود لا يدرك لها كنهاً ... وأخرج يده فارغة من غير سوء ...

وبذلك ابتعد الخبر عن القبر المحفور الذي كاد يتردى فيه ...

واستأنف مريوذر حديثه قائلا :

— أنا جائع ...

فلمعت عينا الخبر قليلا وقال :

— لقد ذكرتني .. ياعزيزي .. لقد ذكرتني .. أنا الآخر أشعر بالجوع

ثم عبر الشارع متجها نحو مطعم قريب سرعان ما اختفى وراء بابه الدائر

لم يتكلم مريوذر حينئذ ولم يبد حراكا، غير أن صوتا من أعماق نفسه كان يتكلم ويتكلم ...

— يالهذا الانسان المتحجر القلب والعاطفة ..! يا لهؤلاء الناس أبناء هذه المدينة الملونة !

ومكث في صمته قليلا يستمع إلى ذلك الهاتف في أعماق نفسه، ثم تكلم أخيراً في صوت منخفض ولكنه عميق، إن دل على شيء فعلى الاصرار والعزم الأكيد قال :

— نيويورك .. إنك الآن في قفص الاتهام .. إنك الآن على كفة الميزان، إنني أمهلك ساعة واحدة: فإن دعيت إلى النداء في خلال هذه الساعة نجوت من التجربة الهائلة التي قدرت لك ، وإن لم أدع فالويل لك. سأقتل نفسي... نعم . ولكني قبل أن أفعل ذلك سأبدأ أولا بقتل أكبر عدد ممكن من أبنائك : أبنائك الناجحين الموفقين الذين تحتضنيهم وتحدبين عليهم . أكبر عدد ممكن.. أكبر عدد أستطيع أن أصل إليه برصاصاتي التسع ... نيويورك ! لقد انتهى كل شيء .. نيويورك ، أنت الآن على وشك مشاهدة مذبحة مروعة من مذابح التاريخ

كانت فكرة عابرة ، ولكنها أطربته وراقته ؛ ولا عجب فقد جبل محباً لألاعيب الصدف ومفارقات الحظوظ .

واستسلم للتفكير وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه :

— قد يحدث الآن أن يخرج رجل ناجح أو امرأة ناجحة من بين ألوف الناجحين والناجحات في المدينة فيكون على يديه أو على يديها إنقاذ الموقف ، وبالتالي إنقاذ تسعة آخرين من موت محقق

— إذ أنه سيحتفظ بالرصاصة العاشرة لنفسه — وقد لا يحدث هذا فتكون النتيجة وبالاً

وهنا استولت عليه نزعة من نزعات الكبر والغرور، وسرت في جسده رعدة كرعدة المحموم .. أليس هو الآن قادراً على سفك الدماء ! ...

وقهقه ضاحكا من تفاهة قيمة الحياة ... حياة الانسان

وكانت هناك امرأة تسير مخترقة الطريق على مقربة منه في تلك اللحظة فلم تكد رنة ضحكته تصل

إلى أذنيها حتى التفتت إلى الوراء لترى مصدر تلك الضحكة الساخرة وبذلك تلاقت عيونهما ...

كان مريوذر بوك حسن المنظر وكذلك كانت المرأة ، ولكنها كانت إلى جانب حسن منظرها من النساء اللاتى تكفى نظرة واحدة من الرجل إليهن لمعرفة حقيقتهن ! ...

تقدم مريوذر بوك نحو المرأة ووجه إليها الحديث قائلا :

— أرجو المعذرة يا آنسة ، ولكن ألا توافقين على تناول الغداء معى ... أ ... أ أعنى على أن نتناول الغداء معاً

فضحكت ضحكة رنانة وقالت :

— تعجبنى جرأتك

والواقع أن جرأته كانت تعجبها . واقتربت منه حتى كاد جسدها يلتصق بجسده وقالت :

— وأى مكان تختار ؟

— المكان الذى يروقك أنت .. ذلك متروك لتقديرك ، لأنى معتمد عليك فى دفع ثمن ما سنأكل

فضحكت ظناً منها أن حديثه هذا نوع من أنواع المزاح المبتكر، ولكنها عندما نظرت إلى وجهه أيقنت أنه يعنى ما يقول

قال :

— تعجبنى جرأتك

وفى الحقيقة لم تكن جرأته موضعاً لاعجابها فى تلك اللحظة كما كانت منذ دقيقة واحدة ، وسبحان مغير الأحوال !

واستأنف مريوذر بوك حديثه قائلا :

— قد تبدو ملابسى فى حالة حسنة إلى هذه اللحظة ، ولكن لا تغرنك المظاهر ، فأنا لا أعدو أن أكون رجلا خائباً ، محطماً وفوق ذلك فإنى جائع ؛ بل لا تكفى كلمة الجوع للتعبير عما أشعر به من حاجة إلى الطعام . لم أتبلغ بلقمة واحدة منذ يومين يا آنستى العزيزة . إننى لا أخدعك ولا أكذبك القول ولا أموه عليك ، والله شهيد على ما أقول ؛ وعند ما وقع نظرى على شخصك الكريم توسمت فيك الخير ، وأحسست أن الحديث معك فرصة لا تعوض ؛ والجوع كما أعتقد له حسنة واحدة هى أنه يهب الانسان خبرة نادرة بالوجوه . لذلك قامرت على وجهك

غير أن كل هذا الحديث العذب المنمق لم يبلغ الغاية التى كان المسكين يرمى إليها . فرمقته الفتاة شزراً وقالت فى لهجة الشخص الذى يدفع عن نفسه إهانة لحقت به :

— دع عنك هذا الملق المبتذل ووفر عليك عناء الرياء والمداهنة ؛ واعلم أننى خدعت فيك حين ظننت أنك رجل شريف ! ...

ثم انطلقت من أمامه مسرعة ؛ وعند ما حاول أن يتبعها توقفت عن المسير والتفتت إليه صائحة به :

— أغرب عن وجهى أيها اللص الذى يعيش على فضلات النساء . أغرب وإلا دعوت رجل الشرطة ليقودك إلى المكان اللائق بأمثالك

وابتسم مريوذر بوك ... ابتسم

***

الساعة الآن ثلث واحدة و ... ومعنى ذلك أنه انقضى من المهلة التى حددها ذلك البائس لتنفيذ خطته ثلث ساعة يصبح بعدها فى خبر كان بعد أن يمحو من الوجود عدداً لا يعلمه إلا الله ممن قدر لهم الموت برصاصات مسدسه

سار على غير هدى إلى أن وجد نفسه أخيراً

أمام محطة من المحطات حيث لمح شخصاً يدل مظهره على أنه ذو مركز خطير في الحياة يخرج من أحد الأبواب . تأمل وجهه بعينيه الزائغتين ليقرأ فيه ما طبعته أخلاقه وميوله ، فدلته وجنتاه المتوردتان على أنه ذو طبع مرح ومزاج منبسط . لا شك أن سنوات طويلة قضاها هذا الرجل في البر بالناس وإسداء المعروف إليهم هي التي أكسبته هذا الطابع وتلك الطبيعة

اقترب مريوفذر بوك من ذلك الرجل العظيم وقال في ذلة وانكسار :

— لا تؤاخذني يا سيدي على فضولي وجرأتي ولكني توسمت فيك الخير واستبشرت بلقائك . ويغلب على ظني أنني الآن في حضرة أحد وزرائنا العظام . أليس السيد وزيراً من وزراء الدولة ؟

فأخرج الرجل من جيبه منظاراً ذا سلك ذهبي وقربه من عينيه وهو يقول في لهجة مرحة :

— نعم إنني وزير ، فا حاجتك يابني؟

— أنا جائع

— جائع ... ؟ لم يخطر ذلك ببالي قط

— ولكنه الواقع يا سيدي ، فهل تدعوني لتناول الغداء ؟

— إه ...

كان سؤالاً محيراً ، ولكن الرجل تقبله قبولاً حسناً ولم يتبين في حركاته ما يدل على الضيق أو التذمر ، بل صمت لحظة وكأنه يحاول صياغة رد لا يصدم شعور محدثه ؛ وأخيراً قال :

— يا عزيزي الفاضل ... أنت تعلم ... تعلم حقيقة ...

ثم أسند إحدى يديه على كتف مريوفذر بوك بشكل ودي يدل على العطف ورقة العاطفة

وانتظر مريوفذر تتمة الجملة التي بدأها الوزير بصبر نافد ، ولكن هذا لم يتكلم بل اكتفى بأن ضحك ضحكة قصيرة لعله اعتبرها ذات معنى

قال مريوفذر بوك :

— ولكني أطلب إحساناً ...

فما كاد الوزير يسمع كلمة الإحسان حتى تنفس الصعداء كمن يعثر على ضالة طال بحثه عنها وقال :

— حسن ... إذن فأنت تطلب إحساناً ... هل قصدت ... ولكني أحب قبل أن أستطرد في الحديث أن أسألك سؤالاً

— إنني رهين إشارتك يا سيدي

— هل أنت جاد في حديثك أم هو نوع من أنواع المزاح ؟

— وهل يجوز المزاح في شأن كهذا ، بل أنا جاد يا سيدي كل الجد

— هل اتصلت بإحدى الجمعيات أو المؤسسات الخيرية المعروفة ؟

— كلا ... وأحسب أن ...

فقاطعه السيد قائلاً :

— يا ... يا ... يا ...

ثم أخرج بطاقة من حافظة نقوده وتناولها بين أصابعه وأخذ يدون عليها بضع كلمات وهو يقول :

— سأعطيك بطاقتي الآن وما عليك إلا أن تقدمها إلى (سكرتير) الجمعيات الخيرية المتحدة ... إنها مؤسسة حسنة النظام كما أعتقد. هناك سيتحرون أمرك وأمر سيرك وسلوكك وظروفك وأخلاقك وسوابقك

— كل ذلك لكى يطعمونى وجبة واحدة ؟

— بطبيعة الحال

ولما فرغ من الكتابة ناول مريوذر البطاقة وكأنه يناوله مفاتيح الدنيا بأسرها وهم بالانصراف ولكن مريوذر بوك قال

— ولكنى أريد أن تقوم أنت باطعامى الآن

فابتسم الوزير وهو يقول :

— لقد قلت ياعزيزى ... إننى مشترك من مشتركى هـذه المؤسسة الخيرية وهذه هى طريقتى الوحيدة فى الاحسان وهى طريقة مثلى توفر كثيراً من الزمن

— سؤال أخير ياسيدى

— وما هو ؟

— ألا تريد سماع قصتى ؟ ألم تر فيك حالى ولو قليلا من الاهتمام ؟

فبدا الضيق على وجه الوزير جلياً ولكنه قال مخفيا ما يدور بخاطره

— قصة ... قصة . هناك ياولدى سيستمعون إلى قصتك بآذان واعية . إن عملهم منظم ولديهم ملفات كثيرة كلها قصص وحكايات ، مئات من القصص ... أكوام من ملفات القصص لكل ملف منها رقم خاص وستأخذ قصتك رقما من هذه الأرقام قد يكون المائة بعد الألف

ثم ختم حديثه قائلا فى شىء من التحمس :

— أؤكد لك أن طريقتهم من أحسن الطرق . أستودعك الله

كان الرجل يريد إنهاء الأمر كله بهذه الجملة غير أن مريوذر تشبث بأذياله فى إصرار عجيب وهو يقول

— ألم تجد شيئا من الغرابة فى أمرى ؟ ألا تريد أن تعرف لماذا أنا جائع أليس لديك الوقت الكافى للاستماع إلى بنفسك ؟

— الوقت .. الوقت يابنى هو الشيء الوحيد الذى يعوزنى والذى أبحث عنه فى ظرف كهذا فلا أجده ولكنى سأدلك على ما تفعل

ثم أخرج بطاقة ثانية من الحافظة المنتفخة وكتب عليها بضع كلمات أخرى ثم قدمها إلى مريوذر وهو يقول :

— إذا أردت أن تقص علىّ حكايتك فخذ هذه واذهب إلى مكتبى حوالى الساعة الثالثة والنصف . هناك ستجد كاتبتى الخنزلة فأمل عليها ما تريد وستقوم هى بعد ذلك بكتابته على الآلة الكاتبة وتقديمه إلىّ ...

ثم انسحب من أمامه وذهب

* * *

كانت الساعة وقتئذ واحدة وخمسا وعشرين دقيقة ... أى أنه بقيت من ساعات الحياة خمس وثلاثون دقيقة !! ...

استأنف مريوذر بوك تسكعه فى شوارع نيويورك متصفحاً وجوه المارة واعترض طريقه أحد المتسولين فلم يتردد فى منحه بطاقتى الوزير اللتين تخولان لحاملهما دخول الجنة بغير حساب ، ثم اتجه ناحية الشرق ماراً بالشارع الثانى والأربعين .

وإذا كانت حياة الانسان قد انقضت ولم يبق فى عمره إلا دقائق معدودات فلماذا لا يقضى هذه الدقائق فى الشارع الخامس ... هناك يستطيع أن يمتع النظر بأحسن المشاهد وأعظمها

والواقع أن هذا الشارع كان أنسب مكان لمن كانت غايته كغاية صاحبنا . فى ذلك الشارع يستطيع

الانسان أن يلتقى بأعظم الشخصيات وأهمها وماذا يريد هو غير ذلك ؟

وما كاد يقف هنـاك لحظة قصيرة حتى رأى أمامه عجباً . رأى مشهداً لم يكن يخطر له ببال؛ على أن ذلك المشهد لم يكن حادثاً خطيراً أو معركة هائلة كما لم يكن رغيفاً من الخبز معه قطعة من لحم خنزير مشوى ... كلا ... إنما هو رجل

لم يصدق مربوذر عينيه فى بادىء الأمر وقال مخاطباً نفسه

— هذا غير ممكن ... هذا مستحيل ... إنه شخص آخر

وفى هذه اللحظة اقترب الرجل منه فعلم مربوذر أن عينيه لم تـكذباه الخبر

أما الرجل فـكان ج. ديبون إيفانز أكبر رجال المال فى نيويورك ، نعم هو بعينه ، إن مربوذر بوك يعرفه حق المعرفة ويستطيع تمييز وجهه من بين مليون وجه

هاهوذا المستر إيفانز على قيدشبر واحدمن فوهة مسدس مربوذر بوك . أليست هذه مفاجأة يطيش لها صواب أكثر الناس ثباتاً وأصلبهم عصباً فضلا عن إنسان محطم لم يذق الطعام منذ يومين ؟ غير أن مربوذر بوك تلقاها صامداً لايتأثر وكأنه الجبل الأصم

بعد دقائق معدودات يصبح المستر إيفانز صاحب الثروة التى تزرى بكنوز سليمان ومال قارون خبراً بعد عين ضحية من ضحايا اللعبة الخطرة التى يمارسها ذلك المقامر المجنون الجائع

أحس مربوذر بوك بقوة غير عادية، وكأن دماً جديداً يجرى فى عروقه الجافة...هاهى ذى مفارقات الطريق تضع تحت رحمته مصير عدد من دور المال الـكبرى فى نيويورك لا يقل عن نصف ما فيها من دور ، وعلى تصرف مستر إيفانز معـه يتوقف ذلك المصير ونوعه ، بل هاهوذا القدر الساخر يضع لقمة وقطعة من اللحم أو قليلا من الحساء فى كفة ميزان ويضع فى كفته الأخرى نصف ثروة أمريكا ولا يعلم إلا الله أيهما تـكون الراجحة ! ...

فى استطاعة سبابة مربوذر بوك الموضوعة فوق زناد المسدس أن تقرر الآن لا مصير رجل واحد ، بل مصير شعب بأسره

قبض على المسدس وصوب فوهته من تحت الثوب إلى قلب المستر إيفانز وتقدم خطوة نحوه وهو يقول فى لهجة تنم عن الأدب :

— كم الساعة الآن يا سيدى ؟

ومضت ثانية قبل أن يجيب الرجل خيل لمربوذر فى أثنائها أنه يرى رأى العين عمارات المصارف تنهار واحدة واحدة، وطرق السكك الحـديدية تتحطم طريقاً طريقاً ، والمصانع تغلق أبوابها والأسواق تتعطل ، والمناجم تتوقف عن الانتاج ، والمحاصـيل الزراعية تترك فى الحقول ، والسفن التجارية ترابط فى الموانىء ليل نهار ، والكساد يعم جميع المرافق ، وراية الخراب ترفرف فوق المدينة

أخيراً رفع المستر إيفانز سيجاراً ضخما من فمه وألقى نظرة شـك وارتياب على مربوذر بوك وهم بالانصراف، ولـكنه عاد فعدل عن رأيه وأخرج ساعة فضية كبيرة الحجم ألقى عليها نظرة وقال فى لهجة يشوبها قليل من التذمر :

— الساعة الآن الثانية إلا دقيقتين

ثم عاد وقال فى لهجة أقل تذمراً

— هل أجد معك عود ثقاب أيها الشاب ؟

بعد دقيقة واحدة سيسأل الرجل أن يطعمه فان لم يقبل قتله دون تردد ، ولكن لا بأس من إعطائه عوداً من الثقاب قبل ذلك .

أخذ يبحث فى جيوبه وهو فى أثناء ذلك يدقق الوضع المناسب لاصابة عدته فى مصرع ، وفكر فى رغبة الرجل الذي سيصبح فى عالم الأموات بعد ثوان فى التدخين فأضحكته المفارقة فأخذ فى القهقهة ثم قدم بعض أعواد الثقاب إلى الفريسة

غير أن مستر إيفانز ما كاد ينظر إلى الأعواد حتى صاح قائلا :

— وماذا أصنع بهذه الأعواد يا ولدي وهي كما ترى من النوع الذي لا يشتعل إلا إذا حك فى علبته الخاصة ... أين العلبة إذن ؟

قال هذا القول وقد ثبت فى ذهنه تمام الثبوت أنه إنما يخاطب إنساناً به مس من الجنون

فضحك مربوذر بوك ضحكة هستيرية حادة وأجاب قائلا :

— هذه فكرة علمية عظيمة ... هذا سر صناعى خطير

ثم استأنف الضحك والقهقهة ولم يكن يضحكه إلا ذلك الميت الذى يلح فى طلب التدخين ... !

وفكر المستر إيفانز قليلا ثم قال :

— سر صناعى ... أى سر ياسيدى ؟

فأجابه مربوذر وقد استولت عليه نوبة من نوبات الجنون :

— إنه سر عظيم ... إنها فكرة رائعة يمكن استخدامها فى إيجاد مدمر عظيم يغنينا عن استعمال السفن الحربية والمفرقعات الحالية التى تستعمل فى الحروب وفى المناجم ... و ...

فقاطعه المستر إيفانز قائلاً :

— كل هذا ... ؟ إذن فأنت مخترع

فكذب مربوذر لأول مرة إذ قال :

— نعم ياسيدى ... لقد اخترعت مدمراً أقوى من الديناميت ويمكن استخدامه بغير الحاجة إلى النار خلافا للمعتاد عند استعمال البارود . مدمر لا صوت له ولا يتجمد بعد استعماله ، طريقة واحدة يمكن استخدامه بها وهى تقريبه من مادة كيائية أخرى كما هى الحال فى أعواد الثقاب التى تشتعل بحكها بعلبتها

— لله درك يافتى .. إن ثروة عظيمة تنتظر اختراعك هذا. أليس فى السوق اختراع يماثله؟

— لا ياسيدى

وفى هذه اللحظة أخذ فى إحكام تصويب مسدسه من وراء الثوب ثم استطرد قائلا :

— ولكنى لا أملك المال الكافى لتحقيق آمالي باخراج اختراعى إلى عالم الوجود

فابتسم الآخر وقال :

— حسن، سأدلك على ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال أيها الشاب النابغة . أظن أنك لا تمانع فى مرافقتى لتناول طعام الغداء معا .. تعال ياعزيزى، سوف نتناول موضوعك بالدرس أثناء تناول الطعام وسنبحثه من كل النواحى ... المال وغير المال ...

وفى هذه اللحظة دوت فى الجو أصوات ساعات بنايات نيويورك العظيمة مؤذنة بحلول الساعة الثانية ...

(السويس) محمد محمود دوارة

ذكرى حب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم محمود العشري

تأخذني رعدة رهيبة ، ويستولي عليّ أسى عميق كلما رجعت القهقرى عشرة أعوام وأحييت في خيالي ذكرى ذلك العهد البائد ، عهد شبابي الزاخر بالشقاء والآلام ، عهد شبابي الذي يطوي بين أيامه أحلى أماني ، ويلف في أكفانه السود المخيفة أول حب دب إلى قلبي ، وسعدت وشقيت به نفسي !

إني لأود الآن من قرارة نفسي أن أترك ذلك العهد جانباً ، وألا أعيد ذكراه المرة الأليمة إلى ذهني حتى لا تثير أشجان قلبي ... ولكن ... ولكن العجيب أن قلبي هو الذي يدفعني دفعاً للعود إلى هذا العهد بالرغم مما فيه من إيلام له . ولعله يفعل هذا لأنه يريد أن يعيش ثانية في جو تلك الأيام البعيدة وأن يتذوق مرة لذة ذلك الحب الهائل الذي كان يملأه حينذاك ...

وأنا ... ما ذا أفعل لو خالفت رغبة قلبي ... ورغباته لما تزل كل ما أعنى به في حياتي ؟ حسن . سأطيع قلبي — وليست هذه هي المرة الأولى التي أطيعه فيها على شيء لا أحبه — ولأعد إلى ذلك العهد فانه وإن كان لا يحمل لي في ثناياه إلا الشقاء ، فان في استعادة هذا الشقاء لذة عظيمة قد لا يجدها من يستعيد عهداً سعيداً من عهود حياته ... وما أجمل أن يعيش الانسان مرة ثانية مع الماضي وفي جو الذكرى ، ذكرى حبه الأول والأخير ...

***

كنت أيامئذ في العشرين من عمري . وكانت دماء الشباب تجري في عروقي فتملأني قوة وفتوة ومرحاً . ولم أكن قد رأيت القاهرة ، فقد عشت تلك المدة من حياتي في إحدى المدن الصغيرة . فلما قيل لي إنني سأسافر إلى القاهرة لأتم علومي رقص قلبي طرباً وغبطة . وسهدت أياماً لعظم فرحي . فلقد كنت أسمع عن جمال القاهرة وعن أخذ أهلها بأساليب الغرب . فكانت أعز أماني أن أراها وأجوس خلال شوارعها الواسعة الطويلة التي كانت تنقص مدينتي الصغيرة

وأتيت القاهرة . ولم أعتم أن صادقت بضعة من شبابها . ورحت وإياهم نغشى دور اللهو الحرام ، ونقضي جل ليالينا في المواخير بين أحضان الفتيات الأجنبيات اللاتي يبعن أعراضهن لكل طارق ما دام يملك المال الذي يسد به أفواههن الجشعة ...

وسارت حياتي على هذا المنوال بضعة أشهر . ثم ابتدأت أشعر بأن هناك فراغاً عميقاً يضرب أطنابه في حياتي ، ومكاناً كبيراً ظل شاغراً في قلبي . ولم أعرف سر هذا الفراغ ولا ذلك المكان الشاغر في أول الأمر . ولكنني عند ما فكرت فيهما ملياً عرفت أنني في حاجة ماسة إلى حب أملأ به فراغ حياتي وقلبي ، وتسمو به عواطفي التي انحطت ... وتتطهر به نفسي التي دنست ...

وعجلت في البحث عن هذا الحب فقد كنت أحس بالحنين إليه يتضاعف ، بحثت عنه في كل مكان ، في شوارع القاهرة ، وفي منازل أصدقائي وحتى في دور اللهو التي كنت أتردد عليها . ولكن

هباء ذهب بحثي . فما وجدت الفتاة المنشودة . الفتاة الهيفاء القد ، الفاتنه الوجه ، الطاهرة الروح والقلب ، التي رسمت صورتها في خيالي وأحلامي مراراً ...

وبلغ مني اليأس مبلغه في العثـور على حبي المرجو ... وظلت حياتي فارغة قاحلة كما هي ، حتى كانت احـدى الأمسيات وكنت جالسا في شرفة الطابق المتواضع الذي استأجرته في أحد البيوت لأقضي فيه مدة إقامتي بالقاهرة ، وإذا بغادة ما رأيت وجها أجمل من وجهها ، ولا قداً أرشق من قدها ، تبدو أمامي في شرفة المنزل المواجه للمنزل الذي أقيم فيه كما يبدو الحلم الجميل في خيال النائم . فما استطعت أن أمنع صرخة خافتة كلها دهش وإعجاب

لقد كانت هذه الغادة هي نفس الفتاة التي رسمت صورتها في خيالي .. نفس الفتاة التي ستهبني الحب !

وحسبت نفسي أحلم في أول الأمر .. ولـكن هذا الوهم لم يلبث أن تبدد .. ووجـدتني بين يدي الحقيقة الحلوة الجميلة ..

ورأتني الفتاة فمادت في دلال من حيث أتت واختفى شبحهـا عن ناظري ؛ ولـكنه ظل عالقا بذهني ...

ولما أفقت من غيبوبتي ولم أجدها أمامي ، عرتني انتفاضة ، وخيل إلي أنني كنت في الجنة وطردت !!

***

وطلقت دور اللهو . واندفعت بجميع قلبي إلى هـذه الفتاة . فما كنت أغادر شرفتي إلا لحظات قصيرة . ونسيت مدرستي فكنت أذهب إليها يوما وأنقطع أياما .. ومع هذا فانني لم أرفتاتي إلا قليلا.. أربع مرات أو خمسا . وكانت في كل مرة يقع بصرها علىّ تغادر شرفتها مسرعة ؛ ولعلها كانت تفعل ذلك بدافع الخجـل مني ، أو انني لا أعرف تعليلا لذلك غير هذا التعليل . .

بيد أن هذا لم يكن ليغير رأيي فيها . فقد كنت واثقا أنها هي الفتاة التي ستملأ فراغ حياتي وقلبي بالحب . . وقد كان . . ولم يخب ظني عندما ابتسمت لي يوما ..

كان هـذا في الصباح على ما أذكر ، وكنت قد بكرت في الجلوس بشرفتي . وفجأة ـ بعد قليل ـ أطلت برأسها الجميل من إحدى نوافذ المنزل الذي تقطنه .. وكانت هذه أول مرة أراها فيها تطل من نافذة . فأردت أن أنتهز هذه الفرصة وأعبر لها عما أحس نحوها ولا سيما أني وجدتها في تلك المرة باسمة الثغر ، مشرقة الوجه فلم أخف على نفسي منها ، ولم أجد أفضل من الابتسام لهذا الذي أريد . فابتسمت لها . ابتسمت بسمة سكبت فيها كل قواي . وكانت مفاجأة ملأتني سعادة وغبطة حينما ردت علىّ بسمتي ببسمة منها . أجل وايم الحق لقد ابتسمت لي، وابتسمت لي في اشراق وصفاء ومحبة !

لو سئلت يوماً ماهي أسـعد أيام حياتي ... لأجبت فوراً أنها هي الأيام التي كانت تبتسم لي فيها تلك الفتاة . وإنني لأطوي الآن مراحل حياتي فلا أجد يوماً ذقت فيه سعادة تداني هذه السعادة التي كنت أشعر بها تغمرني كلما ابتسمت لي . فلقد كانت بسمتها بمثابة نور يغمر حياتي . ويبدد ظلمات نفسي وكانت بعد هذا تضيء أمامي الطريق إلى حياة جديدة تقوم دعائمها على الحب ... والأحلام ...

وأنا ممن يعشقون تلك الحيـاة . . .

فقـد كانت — على الأقل — تبعدنى عن حياتى الحقيقية التى لم تكن تزخر إلا بالهموم . وكان حبي لهذه الفتاة يزداد كل يوم . وأصبح أملى أن أراها دائماً تبتسم .. تبتسم لى . فما كنت أحس بالحياة تترقرق بين جنبي إلا إذا ابتسمت لى . وما كنت أجد لذة العيش إلا إذا لاقتنى ببسمتها كل صباح ، ولا النوم إلا إذا ودعتنى ببسمتها كل مساء ...

ومرت الأيام مرّ السحاب وأنا لا أعلم إلى أى مصير تقودنى حياتى هـذه . وزارنى يوماً أحد أصدقائى ممن كنت ألهو معهم في الماضى فما إن رآنى حتى صرخ دهشاً وهو يقول :

— قاسم ! بالله ... هل أصدق هذا ... ؟

قلت : ماذا ... ماذا تعنى ؟

قال وهو يحملق فى عينى والدهش لا يزال مرتسماً على وجهه :

— منذ كم رأيت نفسك فى المرآة ...؟

قلت : منذ قليل ...

قال : عجباً ... وهل تعرف أنك قد تغيرت ؟

قلت : كلا ...

قال : إذاً تعال ...

وجذبنى من يدى إلى مرآة كانت بالقرب منا ثم طلب منى أن أنظر إلى نفسى فيها . فلما فعلت قال :

— والآن تأمل فى نفسك جيداً وخبرنى ماذا يبدو عليك : على وجهك وجسدك ...

فهززت رأسى متعجباً فما رأيت جديداً فى وجهى ولا فى جسدى . فعاد صديقى يقول :

— أنظر إلى عينيك جيداً . ألا ترى كيف ذبلتا ... أنظر إلى وجهك ألا ترى كيف شحب .. أنظر إلى جسدك ... ألا ترى كيف نحل ؟

ونظرت إلى عينى ، ثم إلى وجهى وجسدى ، وعندئذ أجفلت والدهشة تعقد لسانى . فقد وجدت صديقى على حق فى ملاحظاته . ووجدتنى قد تغيرت حقاً . . . وتغيرت كثيراً . . .

وعجبت كيف لم أفطن إلى هـذا من قبل ... وظللت حزيناً للتغير الذى طرأ علىّ أربعة أيام أو خمسة لا أذكر ... ثم عدت أتابع حياتى ... الحياة التى تقوم دعائمها على الحب والأحلام ، وتملأها بهجة وجمالا بسمة فتاة ...

ودرجت الأيام مجدة فى طريقها المجهول الذى لا يعرفه إلا الله .. إلى أن كان يوم من أيام الصيف رهيب الجو حار الهواء راكده . وكنت جالساً كعادتى فى الشرفة أنتظر بسمة فتاتى التى احتجبت فى ذلك اليوم فلم تبد لى حينما دخلت على صاحبة المنزل الذى أسكنه — بعد أن استأذنت علىّ — وقدمت لى برقية باسمى وصلت إلى المنزل منذ ثوان . وكان ما فى هذه البرقية مروعاً أليماً .. أليماً جداً .. حتى تمنيت لو مت قبل تلاوتها ..

كانت البرقية من أمى تقول لى فيها إن أبى قد مات فجأة ليلة الأمس « بالسكتة القلبية » وتطلب منى أن أعود إلى مدينتى سريعاً لألتحق بعمل عثرت لى عليه هناك حتى أعول أسرتنا بعد أن مات أبى الذى كان يعولها ...

وأظلمت الدنيا فى عينى .. وأخذنى ذهول عميق

أين أنت الآن يا فتاتى لتبتسمى لى ، ولتبددى ببسمتك بعض ما عرانى من الهم والحزن ؟ ... أين

أنت لتبيدى بيسمتك إلى قلبي بعض الأمن والاستقرار ؟

ولكن أحداً لم يجب ... وسقطت على راحتى بضع قطرات من العرق كانت عالقة بجبينى !

* * *

وكان يوماً مشهوداً من أيام حياتى هو ذلك اليوم الذى حزمت فيه أمتعتى لأبارح القاهرة ...

أقسم أنى ذرفت كثيراً من الدموع فى ذلك اليوم ... ولعمرى ما ذرفت هذه الدموع حزناً على والدى الذى مات ، كلا بل حزناً على فتاتى التى سأخلفها بعد قليل ... وعلى بسمتها التى كانت تملأ حياتى بهجة وجمالا .. ثم .. ثم على حبي وسعادتى وكل منهما سيذوى !

وخلفت المنزل وفى قلبي لوعة وأسى . وما كدت أقف على أرض الشارع وأرفع رأسى إلى النافذة التى اعتاد وجه حبيبتى أن يطالعنى منها كل يوم حتى وجدتها تطل منهـا وعلى فمها نفس البسمة الساحرة التى كنت أحس وأنا ألتقاها منها بالحياة تترقرق بين جنبى ، وفى يدها زهرة صغيرة كانت تداعب بها حافة النافذة فى هدوء ...

طار عقلى من رأسى فى تلك اللحظة . ولم أعد أسيطر على قواى . وتعالى صوتي مدوياً حزيناً وأنا أقول لها بجرأة عجيبت — فيابعد — كيف توفرت لى :

— لاتبتسمى يافتاتى ، فانى مسافر إلى مدينتى ؛ مسافر الآن ولن أعود ...

ونظرت إليهـا فإذا بها تنظر إلى فى دهش وذهول ، وإذا بسمتها قد تلاشت ، وكأنما عنها تلك الدموع التى رأيتها تنحدر من عينيها على شفتيها ووجدت يدها تضغط على الزهرة فى قوة فتناثرت بضع ورقات منها على الأرض التقطتها فى الحال ووضعتها بين صفحات كتاب كان فى يدى

وعند ما تحولت لأسير سقطت على يدى من عل قطرة من دموعها ... من دموع تلك الفتاة التى أحببتها ، والتى خلق منى حبها إنساناً جديداً يختلف عما كنت فى الماضى كثيراً . فلم أستطع أن أمنع نفسى أنا أيضاً من البكاء ، وكان بكائى مراً مكتوماً

* * *

أنا خجول .. خجول جدا . واعترف بأن خجلى كان هو السبب فى أننى لم أعرف إلا الآن .. إلا متأخرا ... أن تلك الفتاة التى أحببتهـا تحبنى أيضا . فكثيرا ما فكرت فى أن أسألها من شرفة الطابق الذى كنت أنزل فيه : هل هى تحبنى أولا . ولكنى كنت أخجل فأظل جامدا مكتفيا بالبسمات التى أتلقاها منها فى كل يوم ..

كان حبي مجيبا ، ولا أدرى كيف استطاع أن يعيش إلى تلك اللحظة وإلى ما بعـدها وهو قانع بتلك البسمات ..

آه لو كانت هـذه الجرأة التى استطعت بها أن أخاطب حبيبتى ، ومن شارع قد يمر فيه عابر فيسمع كلامى قبل الآن ؛ إذاً لاستطعت أن أجنى ثمار حبي ، ولكن الخجل . . . أضاع منى الفرص السوانح وأضاع معها سعادتى !

* * *

لا أعرف كيف استطعت أن أعيش فى مدينتى بعد أن عدت إليها ، ولكن الشيء الذى لن أنساه هو أننى كنت أحيا فيها كالغريب عن هذا العالم . كنت أحيا فيهـا كطائر شارد تائه فى بلد لا يعرفه ولا يعرف أحدا فيه . وكانت حياتى تسير على وتيرة

واحدة وأسلوب واحد : من بيتي إلى مقر عملي ، ومن مقر عملي إلى بيتي ، لم يجد فيها يوما جديد

وانكببت على عملي أحاول أن أفنى فيه نفسي لأنسى ، ولكن الذكريات كانت تلح عليّ دائماً فلاأستطيع أن أطردها عني إلا بعد أن تجول الدموع في عيني .

ولطالما تراءت لي بسمتها من وراء تلك الدموع فملأت قلبي حسرة وألما ، لأنها كانت تبدو لي في كل مرة حزينة شاحبة تمحوها شيئا فشيئا عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما .. دموع !

ووجدتني يوما أدخر بعض الجنيهات التي أتناولها في كل شهر من عملي . وكنت أسأل نفسي كثيرا لم أدخر هذه الجنيهات وأنا في أشد الحاجة إليها . فما كنت أجد ردا شافيا . . إنني أدخرها وكفى . .

وما إن مضت ثلاثة أعوام حتى كنت قد ادخرت مبلغاً من المال لاهو بالكبير ولا بالضئيل وبعد أيام من مرور هذه الأعوام الثلاثة كنت في طريقي إلى القاهرة ... لم ؟ لأخطب فتاتي إلى أهلها بعد أن حاولت في تلك الأعوام الثلاثة التي مرت أن أسلوها فلم أستطع !

وهبطت إلى أرض القاهرة مهد حبي ومسرحه، وما إن قاربت الحي الذي كنت أقيم فيه حتى هاجتني ألوف الذكريات ... ووجدت الحي كما هو ... كما تركته منذ ثلاثة أعوام وبضعة أيام . ودنوت شيئاً فشيئا من دار الفتاة التي أحببتها في كل هذا الوجود وطفت عليّ سعادة غريبة لا عهد لي بها ، واشتد وجيب قلبي وازدادت دقاته . . ووجدت «بواب» الدار في (كشكه) الصغير كما تعودت أن أراه في الماضي . ولم يكن قد طرأ عليه تغير ما ، إلا تلك الشعرات البيضاء التي عمت رأسه ولحيته وشاربه . وملت عليه أسأله قبل أن أخطو إلى داخل الدار :

— هل سيدتك الصغيرة هنا ؟

فلم يبد عليه أنه فهم سؤالي . فشرحته له . وعندئذ بدا على وجهه أنه فهم ما أرمى إليه . فغمغم قائلا في صوت أجش ظهر فيه شيء من الاضطراب :

— أتعني ... المرحومة « اعتماد » ؟

كانت كلماته صدمة قوية كادت أن تذهب بعقلي؛ فاعتماد هذه هي حبيبتي بعينها ، فقد سمعت أمها يوماً تناديها بهذا الاسم . جمعت أطراف شجاعتي وصرخت فيه بصوت لا أدري كيف خرج من حلقومي :

— وهل ماتت ؟

— من عام ...

— كيف ؟

— مرضت . . . ولكن أحداً لم يعرف سر مرضها . وكل ما نعرفه أنها كانت تهذي كثيراً في أيامها الأخيرة . وقد سمعتها أنا بنفسي وهي تهذي قائلة : « لقد كنت أحبه ... وقد مضى ... سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده » وكثيراً ما حاول أهلها أن يعرفوا هذا الذي كانت تحبه . ولكنهم أخفقوا ... وماتت سيدتي اعتماد وسرها في صدرها

وأحنى الرجل رأسه على صدره في حزن وقال :

— رحمها الله ...

وفهمت كل شيء ... فتوليت من أمامه في .

خطوات ذاهلة وأنا أتمتم فى ذهول وقد اعترانى شبه خبال :

— أجل ، رحمها الله ...

وسرت كثيراً لغير وجهة فى ذلك اليوم ... وأخيراً عند ما أفقت من ذهولى بعض الشيء — وجدتنى فى القطار المسافر إلى مدينتى

وكان أول ما فعلت عندما عدت إلى منزلى فى المدينة أن تناولت الكتاب الذى كنت أضع بين صفحاته الورقات التى تناثرت من تلك الزهرة التى كانت فى يد « اعتماد » يوم أن بارحت القاهرة عقب وفاة أبى ... وأخذت واحدة منها وضعتها على كفى وكانت قد جفت ... تماماً كما جفت حياتى فى ذلك اليوم الذى عرفت فيه أن فتاتى قد ماتت . وخيل لى وأنا أنظر إليها أن وجه « اعتماد » قد رسم عليها .. ورأيت فمها وعليه تلك البسمة التى ربطتنى بالحياة مدة طويلة . ولكنها كانت تبدو لى شاحبة حزينة تمحوها شيئاً فشيئاً عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما — دموع !

وغابت البسمة وغاب الوجه .. وخيل لى أننى أسمع هاتفاً يهتف فى صوت كئيب خافت ، ولكنه هادئ رهيب :

— « لقد كنت أحبه وقد مضى .. سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده ! .. »

وأعدت ورقة الزهرة إلى مكانها بين صفحات الكتاب ... ودمعت عيناى !

عبد الحليم محمود العشرى

ابن تاراس بولبا

للكاتب الروسي غوغول

بقلم الأديب ابراهيم زين الدين

« حاصر (الزابورجيون) دوبنو إحدى المدن البولونية يريدون الاستيلاء على أموال أهلها ومواشيهم، وقد سمعوا أن فيها مؤناً كثيرة . وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وأكلوا الأخضر ، وأحرقوا اليابس ، وأهلكوا الزرع والضرع ... ثم يتركونها قاعاً صفصفاً ... »

كانت المدينة كأنها غارقة في سبات عميق، وكانت سقوفها وجدرانها القوية وحصونها الحصينة تلمع على أنوار النيران البعيدة

اخذ أندريه يتمشى بين صفوف القوزاق بينما أخذت النيران التي حف من حولها الحرس الناعون تخمد من وقت لآخر . نام الحرس بعد أن ملأوا أجوافهم من طعام المساء بشهيتهم « القوزاقية » واطمأن أندريه إذ قال لنفسه : « من حسن حظنا أننا لسنا تجاه عدو يخشى جانبه ، وأن ليس هناك أحد نخافه [1] »

أخيراً اقترب من عربة تسلقها واستلقى على ظهره ، وجمع يديه تحت رأسه، ولكنه لم ينم؛ وتطلع إلى السماء الممتدة فوقه فرأى النجوم الكثيرة ، وأحس بالهواء الندى يداعب شعره؛ وكانت النجوم في وسط السماء تغمرها بالنور وبالسحر ...

نسي أندريه نفسه بين هذه الأشياء ، وفجأة غطى السماء سحاب حجبها عن عينيه ثم انقشعت الغيوم وبانت السماء أجمل مما كانت

شبه له في ذلك الوقت أن مخلوقاً حياً غريباً ظهر لعينيه ، فظن لأول وهلة أن هذا المشهد هو من تأثير غفلته الأولى ، ففتح عينيه وحدق في السماء ، فرأى حقيقة وجهاً يقترب منه وينظر في عينيه ، ورأى شعراً أشعث نافراً من غطاء الرأس :

نظرات غريبة ووجه أسمر شاحب جملاء يعتقد أنه فريسة كابوس وأوهام ، فتناول بندقيته بحركة آلية وقال باضطراب : « من أنت ؟ إذا كنت من الأرواح الشريرة فابتعد عني ؛ وإذا كنت رجلا فانك قد اخترت وقتاً غير لائق للمزاح : إذهب وإلا قتلتك من أول ضربة ! »

فما كان جواب الشبح إلا أن وضع أصبعه على فمه طالباً السكوت والهدوء ... ألقى أندريه سلاحه ونظر بانتباه إلى الشعر الأسود الطويل ، إلى العنق والصدر العاريين. فاذا بالشبح امرأة. ولكنها ليست من بنات جنسه : وجهها أسمر وعليه آثار المرض، وجنتاها بارزتان وعيناها غائرتان . وكلما أطال النظر إليها وجد فيها شيئاً له به عهد . وأخيراً لم يسعه إلا سؤالها : « قولي من أنت ؟ يظهر لي أني أعرفك ، أو شاهدتك في مكان ما ! »

— قالت: كان ذلك منذ سنتين في « كييف ! »

ردد بعدها أندريه « منذ سنتين في كييف؟ ... مجهداً نفسه في استرجاع ما يمكن أن تعيه ذاكرته

(*) من قصة الكاتب الروسي غوغول عنوانها « تاراس بولبا »

(١) قوزاقي تعلم أو عاش في « زابورجيه » في المدرسة الحربية

من ذكريات « كياف » ... من دخوله إلى المدرسة وما مرّ عليه ... ثم نظر إليها وصاح فجأة « أنت التترية خادم النبيلة الصغيرة ابنة الحاكم ! »

— فدمدمت التترية قائلة: صه ! وهى تمد يديها برجاء وابتهال وخوف ... ثم رفعت رأسها لترى إذا كان أحد أفاق على صوت أندريه ...

— قولى تكلمي ... لم وكيف أنت هنا ؟ أين السيدة الصغيرة ؟ ألم تزل حية ؟ تكلمي، أسرعي .
قال ذلك بصوت مخنوق من تأثير الشعور الداخلى الذى كان يخالجه

— هى فى المدينة !

— فى المدينة ؟ وأحس أندريه بأن دمه تجمع فى قلبه ... ولم كانت فى المدينة ؟

— ذلك لأن والدها هناك ، وهو لم يزل فيها منذ سنة ونصف

— وبعدئذ ... هل تزوجت ؟ ولكن تكلمي كم أنت غريبة الأطوار ... ماذا تعمل الآن ؟

— إنها لم تذق طعاماً منذ يومين ...

— ماذا تقولين ؟

— لم يبق شيء عند أحد من سكان المدينة .. حتى ولا كسرة خبز . منذ زمن طويل والناس لا يجدون ما يأكلونه غير التراب

بقى أندريه صامتاً لا يبدى حركة ... إلى أن قالت التترية : « عرفتك السيدة الصغيرة من بين جميع الزابوروجيين من أعلى القلعة وقالت لى : إذهبي وقولى لهذا القوزاق النبيل أن يأتى لأراه ... وإذا لم يعد يذكرنى ، فاطلبي منه كسرة خبز لأجل والدتى المسكينة ، لأنى لا أريد أن أرى أمى تموت بين يدىّ وأحب أن أموت قبلها . . . تضرعى إليه : واركعى عند قدميه ، وقولى له إن له أما أيضاً. فاذا ما تذكرها أعطاك ! »

واستيقظت مشاعر الشاب واستولت عليه بقوة :

— ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ كيف ... وأى طريق سلكت ؟

— اجتزت طريقاً سريًّا تحت الأرض !

— وهل يوجد نفق سرى تحت الأرض ... ؟ وأين ... ؟

— إنك لا تخون أبداً !

— أقسم لك بالصليب المقدس ... !

— هناك تنزل طريقاً منخفضاً وتمر بمجرى الماء عند آخر الدغل

— وبعد ذلك نصل إلى المدينة ؟

— نصل إلى جانب المعبد

— هلمى نذهب حالاً

— ولكن ... قطعة الخبز

— حسن ؛ إجلسى هنا ؛ إبقى فى العربة ... أو اضطجعى بداخلها فلا يراك أحد . الكل نيام . سوف أرجع حالاً ...

واقترب من العربة حيث تراكمت المؤن بعضها فوق بعض وهى مؤن فرقته

خفق قلبه ، وعاوده ما حرص على الابتعاد منه طيلة تلك الأيام بنومه فى الصحارى فى الأيام الأخيرة ، واقترب من حياة الحرب العابسة القطبة ... عاودته ذكرى امرأة من منزل رفيع ظهرت له كما تظهر من قاع بحر مظلم ... ولمت فى مخيلته يداها الطاهرتان وعيناها البراقتان وفمها الباسم الضاحك ، وشعرها الجعد بلونه البندقى الجميل السدل فوق كتفيها وعلى نديها ...

وبعثت فى مخيلته كل تقاطيع وجهها بانسجام جميل ...

كلا لم تنطق هذه الآثار ولم تمح من مخيلته ، لكنها ظلت جلية فى قلبه تملو عليها الحياة الصخبة التى سيرإليها ، ولكن كثيراً ما فكر فيها ، وكثيراً ما كان يضطرب من تأثيرها فى غفواته ... وكثيراً ما بقى مستلقياً بعد استيقاظه ، لايعرف السبيل إلى إيضاح عواطفه وإبانتها

تابع سيره ودقات قلبه تقوى وتتسارع لذكره أنه سوف يلقاها ، واضطربت ركبتاه ... ولما وصل إلى العربات نسى كل ما جاء من أجله . نسى مايجب أن يفعل . . حمل يده إلى رأسه مجتهداً فى تذكر ما يجب عليه عمله ...

أخيراً اختلج وأخذته رعشة خوف ، وفجأة جاءته الفكرة ... إنها سوف تموت جوعاً ...

ألقى بنفسه على العربة وأخذ عدة أرغفة من الخبز الأسود وضعها تحت إبطه ... ولكنه فكر : هل يكون هذا الخبز — وهو كاف (الزابورجى) قوى — خشنا متنافياً مع مزاجها وطبيعتها اللطيفة ؟

تذكر عندئذ أن القائد عنّف الطاهى ليلة أمس لأنه خبز دفعة واحدة مقادير كبيرة من الطحين، إذاً لبقى ما يكفى ثلاث مرات ...

فتأكد من أنه سوف يجد ما يلزمه . أمسك بقدر والده الصغير واتجه نحو طاهى الفرقة الذى كان نائماً بالقرب من قدرين عظيمين يسع كل منهما عشرات الأرطال ، ولم يزل الرماد تحتهما ساخناً

ألقى نظرة على القدرين فعلم أنهما فارغان ، نظر إلى قدور الفرقة الباقية ... لا شىء فيها أيضاً ...

فذكر بالرغم منه مثلاً سائراً : « الزابورجيون كالأطفال ، إذا وجدوا شيئاً قليلاً أكلوه ، وإذا وجدوا منه شيئاً كثيراً لم يبقوا على شىء ! »

ما العمل ... ؟ تذكر أن فى عربة والده كيساً من الطحين الأبيض وجدوه عند ما سلبوا أحد الأديرة ... اقترب من عربة والده ، ولكن الكيس لم يكن فيها . لقد وضعه أخوه أوستاف تحت رأسه ومدد باقى رأسه على الأرض ... وملأ السهل من شخيره ...

أمسك أندريه الكيس بيده وسحبه بقوة جعلت رأس أوستاف يرتطم بالأرض ويفتح عينيه بألم من أثر الضربة التى أصابته فأخذ يصيح بكل قوته : « أمسكوا هذا العفريت البولونى . اقبضوا عليه ، أمسكوه ، أوقفوا الحصان! » فصرخ أندريه مأخوذاً بالرعب والخوف : « أسكت وإلا قتلتك ! »

ولم يكن أندريه بحاجة إلى مثل هذا التحذير لأنه سكت من نفسه وعاد إلى مكانه من الأرض ، وعاوده شخيره يملأ السهل ويهز الأعشاب التى نام عليها

أجال أندريه نظره فى كل الجهات خوفاً من أن يكون صوت أوستاف قد أيقظ أحداً من القوزاق

لم ينهض غير رأس واحد من الفرق المجاورة ، فألقى نظرة واحدة على الجموع النائمة ثم ترك نفسه الى الأرض

انتظر أندريه دقائق قليلة دون حراك ثم حمل ما معه

لم تزل التترية مستلقية فى العربة تتنفس بصعوبة . ولما اقترب منها أندريه قال لها : « انهضى ، الكل نيام ... لا تخافى ... ولكن لا يمكنك أن تحملى شيئاً مما أحمل ، وليس فى إمكانى أن أحملها كلها .

قال ذلك ثم حمل على ظهره كيسه ومرّ بالقرب من عربة عليها كيس من الذرة حمله أيضاً ووضع تحت إبطه الخبز الذى أراد أن تحمله التترية . وسار بين صفوف القوزاق منحنى الظهر خائفاً بين حين وآخر أن يستيقظ أحد

— أندرية ! قال الأب بوليا فى الوقت الذى مرّ فيه ابنه بجانبه . فتوقف أندرية عن السير وخفق قلبه وأخذ يرجف ثم أجاب بصوت منخفض : « ماذا ؟ »

فقال له أبوه : معك امرأة ؟ قسماً سوف أضربك عند ما أنهض ، إن النساء لا يجلبن لك شيئاً من الخير، قال ذلك واتكأ على مرفقه محدقاً فى وجه المدثرة بنطائها

بقى أندرية واقفاً نصف ميت لا يملك القوة على النظر إلى والده . ولما رفع نظره إليه وجده قد نام ورأسه بين يديه

رسم إشارة الصليب وسرعان ما زال عنه الخوف ولما التفت ليبحث عن التترية وجدها واقفة بالقرب منه كتمثال حجرى مظلم ، ملتفة بردائها ، وشعاع نار بعيدة تنير عينيها ، فوجدها كديتين قاسيتين أو كعيني ميت . أمسك بطرف ثوبها وسارا ... وكل منهما باقى نظرة بعد نظرة وراءه. حتى وصلا إلى أرض فيها منحدر كأنه حفرة ، يجرى فى أسفله جدول ماء صغير، وعلى جانبيه الحجارة والحصى ...

بلغا المنحدر واختفيا عن الأنظار . ولما نظر أندرية إلى ما حوله وجد جداراً يعلو قامة الرجل نبتت فى أعلاه بعض الحشائش البرية ... وفوقهما يلمع القمر كأنه سجن ذهبي... وهب عليهما هواء خفيف من السهول المشوشبة أعلمهما أن لم يبق وقت طويل على انبلاج الفجر ، لكن لم يطرق سمعهما صياح ديك فى جهة من الجهات ؛ لا فى المدينة ولا فى الجهات المجاورة التى صارت كالصحراء ... لأنه لم يبق ديك واحد منذ زمن بعيد

اجتازا جدول الماء على جزع شجرة ثم وصلا إلى الضفة الثانية ، فوجداها أعلى من التى تركاها كأنها سهل منحدر من طرف جبل ...

هذه الجهة من المدينة آمنة ويمكنها المقاومة ، ولو خرج رجال الحرس لما رؤى واحد منهم ... وكذلك يتعالى سور الدير من الجهة الثانية ويحميها

كانت الضفة الثانية مملوءة بالحشائش البرية ، كثيرة الوعورة يفصلها عن الماء قصب كثير يقارب علوه طول الرجل ، وعند مشرف الوعورة بقايا سياج حدد فيا مضى البساتين والغيط ، ومن أمامها تمالت أوراق القرطب[1] الكبيرة ووراء السياج نبت الموسج البرى الشائك ... وكذلك نبت السباد[2] فى البقية الباقية من الأرض

عند هذا المكان نزعت التترية حذاءها المرتفع الكعب وسارت عارية القدمين ، رافعة ثوبها فى حذر وتحفظ لأن المكان موحل ومليء بالماء ... وتوقفا عندما وجدا طريقاً بين القصب المرتفع ووجدا فتحة لا تزيد على فتحة الفرن

أحنت التترية رأسها وسارت ، وتبعها أندريه محني الظهر ما أمكنه ليقدر على المرور بحمله . وسرعان ما دخلا فى ظلام دامس

* * *

استطاع أندريه التقدم بصعوبة فى هذا الممر

(١) Bardane — نوع من النبات

(٢) Tournsol — عباد الشمس

المظلم وراء التترية جاراً وراءه أكياس الخبز قليلاً ووصل إلى النور ؛ قالت التترية : نحن نقترب من المكان الذى وضعت فيه المشعل

وكذلك كان . بدأت جدران الأرض المظلمة تضاء بنور شاحب ، ثم وصلا إلى ممر يظهر لأول وهلة كأنه معبد ، فيه طاولة صغيرة مسندة إلى الحائط على هيئة المذبح ، وفوقها صورة العذراء والقديسين ، تكاد لا تظهر من شدة كمود لونها . وعلق بالقرب من هذه الأشياء قنديل فضى اللون يضيء هذه الأشياء

انتحت التترية ورفعت بيدها القنديل الذى تركته من قبل ؛ ثم حركت النار بملقط بجانب القنديل زاد الشعاع وقوى ، ثم سارت ورفيقها ، يحفهما تارة نور قوى ، وتارة يكتنفهما ظلام دامس. وظهر التباين الفادح بين وجه الشاب الممتلئ صحة ونشاطاً وبين وجه التترية الأصفر الشاحب ...

أصبح الممر أعرض من ذى قبل ، وتمكن أندريه من الوقوف على طول قامته ، ولاحظ وهو يسير جدران النفق التى ذكرته بممرات « كياف » الأرضية فإن الشبه بينهما قريب جداً . ترى الحفرات فى الجدران والأرض ، والقبور منتشرة فى كل مكان ؛ وترى أيضاً فى بعض الأمكنة بقايا بشرية تأثرت بالرطوبة وصارت رفاتا

يظهر أن فى هذا المكان رجالا قديسين هربوا من صخب العالم وحسراته وضلاله ...

كانت الرطوبة قد تمكنت من بعض الأمكنة ، وانتشرت بقع الماء تحت أقدامهما

وقد اضطر أندريه مراراً إلى التوقف عن المسير ليترك لرفيقته الوقت اللازم لترتاح من آلامها التى سببتها لها قطعة صغيرة من الخبز ابتلعتها .

قالت بصوت منخفض وهى لا تبدى حراكا : « شكراً لله ، هاقد وصلنا ! »

واقتربا من باب حديدى كبير رفعت يدها لتطرقه فلم تسعفها قواها ، فطرق أندريه الباب مكانها مرات انتشر بعدها صدى الصوت ، مما دل على طول المسافة وراء الباب؛ ثم تغير الصوت عندما اصطدم بحاجز ، وبعد دقيقتين سمع وقع أقدام وحركة المفاتيح فى الباب ثم خرج عليهما راهب بيده شمعة وظل واقفاً على المدرج

توقف أندريه بالرغم منه عند رؤيته راهباً كاثوليكياً يبذر النفور بين القوزاك . . . الذين يعاملونه معاملة أقل إنسانية من معاملتهم اليهود

وتوقف الراهب أيضاً ورجع إلى الوراء عند رؤيته (قوزا فى زابوروجى) . . . لكن كلمة غير واضحة فاهت بها التترية طمأنته فأضاء لها الطريق وأوصلهما بعد أن أوصد الباب إلى أعلى المدرج حيث وجدا نفسيهما بين أروقة الكنيسة المظلمة

وقف بالقرب من المذبح حيث علقت الشمعدانات الكبيرة وأضيئت بالشموع ، ثم جثا على ركبتيه وأخذ يصلى بخشوع . وبجانبه جثا شابان يرتلان الألحان ، وعليهما ثياب خضر فوقها قمصان بيضاء مزركشة الجوانب والأطراف ، وبيد كل منهما مبخر — يصلون بخشوع للمعجزات والخوارق الالهية ، يصلون لأجل تخليص المدينة واسترجاع شجاعتهم ، يصلون لله ليهبهم الصبر ويبعد عنهم الأرواح الشريرة التى توسوس لهم بالشكوى وتحثهم

عليها بالدموع فى أعينهم ، وتسليهم شجاعتهم أيام المصائب الأرضية

بعض نساء كالأشباح ركعن مستندات إلى الكراسي ووضعن رؤوسهن بجانب المقاعد الخشبية السود .

وبعض رجال اتكئوا على الأعمدة القائمة فى وسط القاعة وركعوا بحزن وأدوا صلاتهم بخشوع

أصاب شعاع الصباح الضئيل النافذة ذات الزجاج الملون ، فأرسلت أنواراً على شكل صريماتها زرقاء وصفراء ، وغيرها من الألوان . فأنيرت الكنيسة فجأة ، وظهر المذبح بالرغم من شدة سواده محاطاً بالأنوار الساطعة ... وشاهد أندريه بدهش من ركنه عظمة النور ... »

تعالى صوت الأرغن فى ذلك الوقت وملأ الكنيسة الفسيحة ، وأخذ يقوي من وقت لآخر ويتعالى كثيراً ويتحول إلى قصف رعدعظيم ، ومنها يتحول إلى لحن موسيقى ناعم يتعالى من وقت لآخر تحت الأروقة ثم يتغير من حال إلى حال حتى يصبح حاداً يذكر بأصوات الفتيات الصغيرات ... ثم يعود إلى القصف والرعد ... ثم يسكت

وبعد ذلك ارتفع الصوت من جديد وانتشر بين الأروقة والأعمدة ، وأندريه فمه نصف مفتوح يصغى إلى هذه الموسيقى العذبة

أحس عندئذ أن أحداً يمسك بطرف ثوبه : « لقد حان الوقت » قالت التترية ذلك واجتازا الكنيسة من غير أن يلحظهما أحدواطلا على ساحة بالقرب منهما

منذ زمن طويل والفجر يضىء السماء بلونه الأحمر ، وكل شىء يعلن ظهور الشمس . كانت الساحة المربعة الشكل خالية تماماً ولم يزل فى وسطها بعض مناضد سود دلت على أنه كان هنالك منذ أسبوع تقريباً أسواق البلد ، والطريق التى لم تنظف منذ ذلك الحين كانت مملوءة بالأوحال الجافة

كانت الساحة محاطة من كل جوانبها بمنازل صغيرة مبنية بالحجارة أو الآجر مؤلفة ، من طابق واحد وحولها الأعمدة الخشبية المرتفعة ، وكلها من صنع أصحابها وسكانها وهى شبيهة بمنازل ليتوانيا وبولونيا . كانت كلها مغطاة بسقوف على غير انتظام وفى بعض جدرانها نوافذ صغيرة لاأنارتها

وعلى أحد الجوانب ظهر منزل على غير طراز النازل فى المدينة ، عرف فيه (فندق المدينة) أو غيره من دور الحكومة . كانت تلك البناية مؤلفة من طبقتين ، وفى أعلاها جناح خصص للحراسة ، وعلقت ساعة كبيرة فى الحائط

ظهرت الساحة كأنها ميتة

لكن أندريه سمع أنيناً ضعيفاً منبعثاً من الجهة الثانية ...

حدق فى المكان فرأى جماعة من ثلاثة رجال مستلقين على الأرض بلا حراك تقريباً ، وحدق النظر فيهم أكثر ليتبينهم إذا كانوا أمواتاً أو أحياء

وبينما هو سائر اصطدمت قدماه بجسم ممتد على الأرض : كان ذلك جسم امرأة يهودية على ما يظهر — ما تزال شابة بالرغم من آثار الضعف والهزال البادية على وجهها مما يمنع تقدير سنها . وضعت تلك المرأة على رأسها غطاء من الحرير الأحمر وزينت قبتها بجواهر — ربما كانت زائفة — وأسدلت بعض شعرها الجعد على عنقها الجاف المنتفخ الأوداج

وانطرح بالقرب منها طفلها ممسكا ثديها بشدة قارصاً إياه بين أصابعه بحركة غير إرادية ... ولا يجد فيها لبناً ... لكنه لم يبك ولم يصرخ ... ولا يمكن الحكم على حياته إلا بحركات بطنه الذي ينتفخ ويهبط ببطء لافظاً من بين شفتيه أنفاسه الأخيرة

تابعا سيرهما في الشارع ؛ لكنهما توقفا فجأة أمام رجل هائم تقدم منهما عند رؤيته حل أندريه الثمين ، وارتمى عليه كالنمر الهائج وأمسك بتلابيبه وصاح : « خبز ! » ولم تباعده قواه أكثر من ذلك فأبعده أندريه عنه فوقع على الأرض ، وأخذته الشفقة عليه فألقى إليه بلقمة خبز ارتمى عليها الرجل كالكلب الهائج وعضها بين أسنانه وابتلعها وهو يرسل معها أنفاسه الأخيرة ... بين هياجه وتشنج أعصابه من تأثيرها

خرج الناس من منازلهم ظانين أنهم بصلاتهم هذا ربما تنزل عليهم معونة من السماء ترد إليهم قواهم

وأمام منزل جلست عجوز القرفصاء ورأسها بين يديها فلا يمكن معرفة ما بها . هل هي نائمة أو مغمى عليها أو هي جالسة بلا حراك إلى الأبد..

وظهر من سقف أحد المنازل حبل مربوط في أسفله جسم رجل مدلى لم يتمكن ذلك المسكين أن يصبر أكثر مما صبر على هذه الآلام ، فعجل لنفسه الموت بانتحاره ...

لم يتمالك أندريه نفسه عند رؤيته هذه الأشياء فسأل رفيقته : « هل حقيقة لم يجد هؤلاء الناس ما يمسكون به حياتهم ؟ عندما يصل الرجل إلى حالة لا يمكن معها أن يعمل شيئاً ، ولا يجد ما يأكله بأية طريقة كانت ، يمكنه أن يتغذى بكل شيء ، يمكنه أن يأكل الحيوانات المحرمة عنه . كل شيء يصبح صالحاً لطعامه ! »

— لقد أكلوا كل شيء ! أكلوا القطيطان والحيوانات بأجمعها ، وإنك لا تجد في المدينة لاحصاناً ولا كلباً ولا هراً حتى ولا فأراً

— ولكن كيف يمكنكم وأنتم لا تجدون ما تأكلون أن تدافعوا عن المدينة إلى اليوم ؟

— نعم ! من الممكن أن يسلم الحاكم المدينة ، ولكن القائد الذي في «بوزداك» أرسل الينا رسالة مع الحمام يأمرنا ألا نسلم المدينة ، وأنه خارج نحونا مع جيش لينقذنا ، ولكنه ينتظر لذلك قائداً آخر ليتمكنا من الحضور في وقت واحد ... ونحن في انتظارهما من وقت لآخر ... ولكن ها نحن قد وصلنا إلى البيت ...

رأى أندريه المنزل من بسيدليس هو فاذا كغيره من منازل المدينة ، يظن أن مهندساً إيطالياً شيده على طابقين بترميد دقيق جميل. نوافذ الأول متوجة بشكل جميل مرتفع ؛ والثاني مؤلف من أروقة وغرف كبيرة ، وتظهر من بين الأعمدة أسلحة العائلة المعلقة على الجدران

يصل سلم القصر العريض إلى الساحة ، وعند أسفله وقف الحرس حاملين سلاحهم الأبيض بيد ، وممسكين بيدهم الأخرى رؤوسهم المنحنية على صدورهم ، وهم في موقفهم هذا أشبه التماثيل منهم إلى الناس

إنهم لم يناموا ولم ينفلوا أبداً، ولكنهم لا يشعرون بما حولهم حتى لم يروا اللذين مرا أمامهم

وعند أعلى السلم وقف جندي بثيابه الثقيلة

التالية حاملا فى يده كتاب الصلاة . وعند ما مرّ أندريه بالقرب منه رفع إليه نظرات دهشة ، لكن التترية قالت له كلمة رجع بعدها نظره إلى كتاب صلاته ...

دخلا أولا غرفة فاذاهى متسعة الأركان متباعدة الجوانب كأنها قاعة استقبال ، مليئة بالجند المستندين إلى الجدران على أوضاع مختلفة ، والخدم والحرس والسعاة وغيرهم من رجال الخدمة اللازمين لشرف رجل بولونى عظيم ، أكان رجل حرب أم مطلق سيد كبير ؟

فى وسط القاعة شمعة على وشك الانطفاء ، واثنتان تضيئان فى شمعدانهما الكبير بالرغم من أشعة الصباح التى دخلت من النافذة الكبيرة

ترك أندريه هذه الغرفة واتجه نحو باب حديدى مزدان بأنواع الأبسطة فأمسكته التترية من يده وأشارت بيدها إلى باب صغير فى آخر الجدار

اجتاز هذا الباب إلى ممر ضيق ثم إلى غرفة أخذ يتفحصها بدقة . وكانت الأنوار التى تدخل من فتحاتها تنتقل من أثاث إلى آخر وتقع على قطعة هندسية أو لوحة فنية أو ستار أحمر

هنا قالت له التترية أن ينتظر ، وفتحت باباً يطل على غرفة ثانية كانت مضاءة بنور الموقد ... سمع دمدمة ثم صوتاً خافتاً جعله يرتجف ... ورأى من خلال الباب خيال فتاة يمر بسرعة ، رافعة بيدها شعرها الطويل

خرجت التترية ثانية وسمحت له بالدخول ، ولم يذكر أندريه كيف دخل ولا كيف أغلق الباب وراءه ولا كيف وجد نفسه وسط الغرفة

وجد غرفة منارة بشمعتين بالقرب من صورة العذراء فوق طاولة صغيرة على حسب عادة الكاثوليك ، وعند أسفل الطاولة وضع كرسى صغير للركوع عليه وقت الصلاة

وجد نفسه فى الغرفة ، ولكن ليس هذا ما يبحث عنه

أدار وجهه إلى الجهة الثانية ، فرأى امرأة كأنها مثلجة ومتصلبة بوضع غريب ، وظهرت كأنها تهم بالوقوع عليه ، ثم توقفت فجأة وهو أيضاً بقى واقفاً مشدوهاً ...

لم يتخيل أنه سيلقاها على هذا الشكل . ليست هى ليست التى عرفها ورآها من قبل ، ليس فيها شىء يشبهها ... تلك كانت عذبة وجميلة أكثر من هذه ، وكان لها مزايا لا نهاية لذكرها ووصفها . أما هذه فهى جميلة ، ولكنها تشبه لوحة انتهى الرسام من آخر ريشة فيها

كانت فتاته القديمة مرحة شهية غير مضطربة . أما هذه فهى جميلة ، وهى امرأة بكل ما فيها من لطافة ، وظهرت فى عينيها الطويلتين علامات التألم وظفرتا بالدموع التى لم يكن لها الوقت الكافى لتجف ، فظهرتا رطبتين لامعتين نافذتين إلى القلب ، فالصدر والقلب قد حافظا على اعتدالها وجمالها

وشعرها الذى كان فيما مضى مجعداً جمّاً أصبح الآن مرسلا . خصلة منه على ظهرها والثانية على على كتفها وذراعها وصدرها

لقد طرأ عليها تغير عام . واجتهد أندريه أن يتذكر شيئاً فى فتاته الأولى يشابه التى أمامه ولكن عبثاً حاول . لم تبق فى ذاكرته إشارة واحدة تنطبق على هذه

وبالرغم من أنها لم تحافظ على جمالها القديم فقد زادها اصفرارها جمالاً عن ذى قبل، جمالاً لا يقدر ولا يقارن .

وشعر أندريه بخوف واحترام فى قلبه وبقى لا يبدى حراكا . وهي أيضاً بقيت متأثرة بمشاهدة الشاب القوزاق الذى ظهر لها في أبهى صورة لجمال الرجل الشاب وقوته . وعلى الرغم من سكونه فقد تأجج صدره بشتى العوامل ، ولمعت عيناه ببريق الشدة، وتجمع حاجباه على شكل نصف دائرة فدلا على جرأته وإقدامه . ولمعت عيناه بقوة وكذلك شارباه السوداوان اللذان يشبهان الحرير

— كلا، ليس لدى وسيلة يمكننى أن أشكرك بها أيها الفارس النبيل . قالت ذلك وصوتها الفضى يتهدج ... إن الله وحده يستطيع أن يكافئك ... ليس ذلك فى مقدورى ، أنا المرأة الضعيفة ...

وخفضت عينيها وحجبتهما تحت جفنيها المسلحين بأهداب طويلة كالسهام . . . ونكست رأسها واصطبغ وجهها بحمرة خفيفة

لم ينبس أندريه بكلمة ... أراد أن يظهر ما يضمر أراد أن يتكلم بتلك القوة والحرارة اللتين فى قلبه ولكنه لم يفلح ، وأحس بشىء يمسك شفتيه ويحبس صوته

أحس بأن ليس له ، وهو الذي انتظم فى الحياة العسكرية الحربية وتعلم في المدرسة ، أن يجاوب في مثل هذه الظروف التترية

عندئذ دخلت التترية الغرفة وقد قطعت الخبز الذى أحضره الفارس إلى قطع صغيرة وأحضرته فى صحيفة من فضة وضعته أمام سيدتها

نظرت الفتاة إلى الخبز ثم رفعت بصرها إلى أندريه وكان فى نظراتهما معان كثيرة ، وهذه النظرات التى كانت تقول بالمستحيل وعدم القدرة على إظهار العواطف المتيقظة ، فهمها أندرية وأدرك معناها أكثر من إدراكه أى حديث آخر

وفجأة تذكر أنه أصبح حراً ؛ وأن حركاته وشعوره لم يعودا مقيدين كما كانا من قبل ، وتحفزت نفسه للكلام ، وفتح فمه يريد أن يرسل أقواله كالسيل المنهمر ...

لكن الفتاة الجميلة أدارت رأسها نحو التترية وقالت لها : وأمى ؟ هل أحضرت لها شيئاً ؟

— هي نائمة

— وأبي ؟

— قدمت إليه الطعام وقال إنه سوف يأتى بنفسه ليشكر الفارس

وتناولت الفتاة قطعة من الخبز حملتها إلى فمها بين أصابعها الدقيقة . ونظر إليها أندريه وهى تقطعها بأسنانها ... وفجأة ذكر ذلك الرجل الذى لقيه فى الطريق وهو يكاد يموت جوعاً ، وذلك الذى أسلم الروح وهو يزدرد اللقمة التى ألقاها إليه

علت وجهه صفرة ثم أمسك بذراعيها وصرخ :

« كفى ! لا تأكلى أكثر من ذلك. مر عليك زمن طويل لم تذوقى طعاماً. وربما سبب لك الخبز ضرراً ! »

تركت يدها تقع ووضعت قطعة الخبز ثم نظرت إلى عينيه بهدوء نظرة الطفل ، ولم تنطق بكلمة

لا يمكن لمنحت التمثال ولا لريشة الرسام ولا لقلم مهما قوى أن يعبر عما تكنه نظرة فتاة

صرخ أندريه وهو ممتلئ قوة روحية وعاطفة قلبية : تاريترا[1] ماذا تريدين ، ما يلزمك ؟ مريني أن أعمل شيئاً لا يقدر على عمله الرجال اطلبي مني المستحيل اسرع إلى إنجازه . اذهب إلى الموت ، والموت في سبيلك عذب شهي لدي

عندي ثلاث مزارع ،ونصف قطعان والدي هي ملكي، وكل ما أحضرت والدتي لوالدي ، وما تخبيء له أيضاً . كل ذلك لي ، وعندي أسلحة ليس لأحد من القوزاك مثلها

إني أخرج عن هذه الأشياء . أني أترك كل ذلك : أرميه ، أحرقه ، ألقيه في الماء عندما تلفظين كلة واحدة ، بل وأقل من كلة : عندما تحركين حاجبك الأسود الدقيق . ولكني اعلم أن عزمي هذا ربما كان جنونياً . هل عبث كل ذلك ؟... أو ليس لي الحق وقد أمضيت حياتي في (زابوروجيه) أن أتكلم أمامك كما يتكلم الناس أمام الملوك والأمراء؟

أرى أنك مخلوقة إلاهية ، تختلفين عنا تمام الاختلاف ، ولاتشابهك إحدى نساء الأشراف ولا بناتهن . . نحن لسنا صالحين لنكون عبيداً لك ، فقط وملائكة السماء وحدهم يصلحون لخدمتك ! »

بقيت الفتاة مأخوذة بعاطفة سامية لا تنطق بكلمة مصغية كلام الشاب الصريح الخارج من قلب صاف نقي كالمرآة تبين فيهـا روح الشاب المتأججة ...

أحنت الفتاة رأسها إلى الأمام وألقت شعرها إلى الوراء وفتحت شفتيها ونظرت إليه طويلا ثم أرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها توقفت فجأة وتذكرت أن أمامها شاباًقوزاقيا له هدف معين وله أب وإخوة، وكل أهله ومواطنوه واقفون وراءه ناقمين . . . ما أظلم أولئك القوازق الذين يحاصرون المدينة ! وامتلأت عيناها بالدموع فأمسكت منديلها الحريري وألقته على وجهها . . . أما هو فغشيت عينيه سحابة

بقيت كذلك برهة ورأسها الجميل إلى الوراء وشفتها السفلى بين أسنانها العاجية كأنها أحست ذبابة سامة . ولم ترفع المنديل عن وجهها حتى لا يلاحظ الآلام التي تكابدها

قال لها أندريه: قولي كلة واحدة ... ؟ وأخذها بين ذراعيه وأحس بنار تسري في عروقه ، وضغط على اليد التي بقيت بلا حراك بين يديه ...

لكنها ظلت ساكنة لا ترفع المنديل المسدل على وجهها ولا تأتي بحركة فقال :

— لماذا أنت هكذا حزينة ؟ قولي لماذا أنت حزينة ؟

فألقت المنديل جانباً ورفعت خصلات الشعر التي سالت على عينيها وأخذت تنطق بكلمات ممزوجة بتنهدات في صوت ضعيف شبيه بالهواء المنبعث آخر النهار في الأصقاع الممتدة وأكوام القصب المترامية عند مجاري المياه؛ أصوات خفيفة ترتفع مدمدمة ، ويقف المسافر يصغي إليها بآلام شديدة ... لا يشعر

(١) كلة روسية معناها ملكة صغيرة

بالنهار للذى يولى ... ولا بالأغانى البهيجة المتصاعدة من أفواه الفلاحين العائدين من أعمالهم فى الحقل

— أليست جديرة بحنان دائم ؟ أليست شقية تلك الأم التى وضعتنى فى هذا العالم ؟ هل قدر لي أن أحيا حياة مرة ؟

ألست أنت الباعث على آلامي أيها القدر القاسي ؟ - لقد وضعت تحت قدمى أعظم رجال البلاط وأغناهم وأشرفهم ، وكلهم من اللاك والترين ، وكلهم كان يتمنى أن يحبنى ؟ وكلهم حسب حبي فوزاً عظيما له ، ولم يكن على إلا أن أشير إشارة صغيرة حتى يصبح أكثرهم مالاً وأجلهم وجهاً وأرفعهم حسباً زوجاً لى

عجيب أمرك أيها القدر القاسى ، لم تجعل قيادى لأحد ؛ من رجالنا ولكنك جعلتنى أسيرة لغريب . . . لعدو . . .

لأى سبب أيتها الأم الالهية المقدسة[1] ومن أجل أية خطيئة تبعينني هكذا بدون شفقة ولا رحمة ؟

لقد مضت أيامى رغيدة طيبة ، لا أتناول طعامى إلا فى أثمن الآنية ، ولا أشرب خمورى إلا فى كأس مترعة ... فلم تبدل كل هذا ؟ الأجل أن أموت ميتة أفقر رجل فى المملكة ؟ ولم يكف أن قدر لى مثل هذا الحكم. لم يكف أنى قبل أن أموت يجب أن أرى أمى وأبى على شفا حفرة من الموت من العذاب أشده . كل ذلك لم يكف، وأهلي يريدون تسليم المدينة التى أدفع ثمنها حياتى عشرين مرة ... أوجب على وأنا أقرب من نهايتى أن أرى ... وأسمع أحاديث حب لم أسمع بمثلها من قبل أبداً ، وأن أشعر بهذه الأحاديث تمزق قلبي وتزيد فى حرارة ماقدر لى، وأن آسف على حياتى الشابة الأولى . . . وأن أرى قسوة الموت، وأن أبغضك وأكرهك وألعنك أيها القدر ... اغفرى خطيئتى ومذلتى أيتها الأم الإلٰهية المقدسة »

وعند ما سكتت ظهرت على وجهها علامة غير منتظرة ، كل ملامح وجهها تكلمت ، وكل شيء فيها : من جبهتها المنهوكة وعينيها الملیئتين بالدموع التى تسيل وتبرد وتجف على خديها المنتفخين قليلا كل شيء كان يقول : «لا سعادة فى هذا الوجه !»

— قال أندريه: لم يسمع أحد بمثل هذا فى العالم بعد . إن من المستحيل أن يكون ذلك . إن من المستحيل على أجل امرأة فى العالم أن تتحمل مثل هذه الآلام ، إنها لم تخلق إلا ليركع أمامها الحب كما يركع أمام تمثال العذراء . . . كلا ، لن تموتى . أقسم لك بيوم ميلادى وكل شيء عزيز على فى العالم أنك لن تموتى . وإذا قدر ذلك ولم يمكن تجنبه لا بالقوة ولا بالصلاة ولا بالارادة القوية، فلنمت معاً ، ولأكن أول من يموت تحت قدميك

— فقالت وهى تحرك رأسها بهدوء: لا تخدع نفسك ولا تخدعنى ، أنا أعلم أن ذلك هو شقائى الأعظم ، أنا أعرف أن من المستحيل عليك أن تحبنى . أنا أعرف واجبك وإيمانك : أبوك وإخوانك ووطنك كلهم يدعونك ، أما نحن فلسنا الا أعداءك ... !

— فقال لها : وما ذا يهمنى من أمر أبى وإخوانى ووطنى ؟ ثم ونهض بقامته الطويلة

[1] Saive Mére Ditnine

كشجرة الحور عند أطراف الغدير : وإذا كان الامر كذلك فليس لي أحد، ليس لي أحد أبداً...

كرر ذلك بصوت عال محركا يده حركات رجل قوزاق عنيد مصمم على رأيه

... من قال إن أوكرانيا هي وطني ؟ ومن أعطاني إياها وطناً ...؟ الوطن هو الخير الذي تبحث عنه أرواحنا، وهو أعز ما فيها . وفوق كل شيء وطني هو أنت ، هاك وطني وسأحله . سأحمل ذلك الوطن بين حنايا قلبي ، سأحمله إلى اليوم الذي تحين فيه ساعتي ، وسوف ترين إذا حاول أحد القوازق أن ينتزعه من هنا ...

وكل ما لدى كل ما أملك ، أبيعه ، وأحرقه ، ألقيه في الماء من أجل هذا الوطن !

ظلت الفتاة برهة مأخوذة بكلماته ، كأجمل تمثال ، تنظر إلي عينيه ، ثم أجهشت بالبكاء وارتمت عليه ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، كأجمل امرأة لها قلب كبير خلقت للحوادث الكبيرة ، وظهرت بذلك المظهر النسائي الذي لا يمكن لواحدة غيرها أن تظهر به

عندئذ سمع صوت طبول وحركة غير اعتيادية صادرة من الشارع ، لكن أندريه لم يسمع شيئاً ، لم يشعر بغير الشفتين تتدفقان عليه من رحيقهما المعسول ، وتردد أنفاسهما العذبة ، ودمعها الذي سال على خديها ، وشعرها العطر الذي أحاطه وغطاه بكامله بين لمعان حريره الأسود

دخلت التتر في هذه البرهة وهي تجرى وتصيح قائلة : « لقد نجونا ، نجونا ، لقد عاد رجالنا . لقد أحضروا خبزاً وطحيناً وشعيراً ، وقد أحضروا معهم بعض أسرى الزابوروجيين ! لكنهما لم يسمعا شيئاً ، لا هي ولا هو ، ولم يعرفا عن أي رجالنا تتكلم التترية ولا عن أي أسارى ...

أما أندريه فلم يعد يشعر بغير الشفتين العطرتين الملتصقتين بخده ، والشفتين العطرتين تقابلانه بالمثل . وفي هذه القبلات المتبادلة شعر أندريه بما يحق للرجل أن يشعر به ولو مرة في حياته

« ... لقد ضاع ذلك القوزاقي ، وأضاع فروسيته القوزاقية . إنه لن ير بعد اليوم « زابوروجيه » أبداً ولا مزارع والده ولا كنيسة الرب

وكذلك « أوكرانيا » ! إنها لن ترى بعد اليوم أشجع أبنائها الذي أخذ على عاتقه الدفاع عنها

أما الأب « بولبا » فقد جز شعره الأبيض من خجله ، ولعن الساعة التي رزق فيها مثل هذا الابن

ابراهيم زيد الديه

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي - عابدين ﴾





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

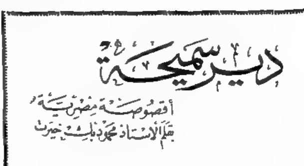
الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٤٠ — ٢٠ رجب سنة ١٣٥٧ — ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة



— دائماً إلى مكتبك ؟

— أحاول أن أضع قصة

— قصة ؟ وما عساك أن تكتب فيها . لعلك وقفت على حياة بعض الناس ، فيها من الحوادث ما حبب إليك تسجيلها

— كلا ، فما أكتب إلا عن نفسي

وعند ذلك لم يتمالك صديقه نفسه من الضحك

— ولِمَ لا ؟ ألم يكتب جان جاك اعترافاته ، وكوتيه روايته «حياة» ، ودوديه «الشيء الصغير» ، ودوماس «ذات الكاميليا» ؟ إن الكتاب كثيراً ما يدونون حياتهم حتى في أدق أسرارها

— ولكن القصص لا يقبل عليها الناس إلا إذا غذاها الكاتب بالحوادث المنيفة ومواقف الحب المتقدة المعقدة حتى تلهب المشاعر وتهز النفوس . وأنت يا صديقي لا يتخلل حياتك شيء من ذلك . وكل ما في الأمر أن أبويك خلفا لك هذه الثروة الطائلة التي تعيش عليها ، كما أنك أكثر الناس نفوراً من المرأة حتى إنك لا تفكر في زوجة تسكن نفسك إليها وتطرد بها وحشة العزلة التي أصبحت من بعدهما فيها . لم لا تتزوج فيكون لك أولاد يروحون ويغدون أمام عينيك فيملأون دارك حركة وبشراً . إن الأولاد كالنور ، وإنهم لأولى بهذه الثروة من بعدك . على أنني إلى الآن لم أقف على سر كراهيتك النساء وأنت بحمد الله في أوج الصحة ومقتبل العمر ؟

— ومن قال لك إني أكرههن ؟ ولكني لن أتزوج

— لن ؟

— نعم . ولقد حرصتُ دائماً أن أخفي عنك السبب الذي وقف بي عند هذا العزم . ولكني أذكره لك الآن حتى لا تعود عيناك تعذبانني بنظراتهما المتوسلة وأنت تحاول أن أكشف لك الغطاء عنه

كان أبي رحمه الله من كبار تجار الفاكهة بالاسكندرية ، فعزم مرة على زيارة جبل لبنان للاتفاق مع أحد ملاك البساتين فيه ليرسل إليه بكل ما تخرجه من الثمار . وكان من بين أغنياء الجبل رجل اسمه السيد محمد صلاح الدين شهاب يقيم في دير القمر الذي كان فيما مضى مقر الأمير شهاب المعروف . فكتب أبي له لينتظره

وبينما هو في طريق الجبل إليه داهمه على مقربة من دير القمر بعض قطاع الطرق فلما قاومهم طعنه أحدهم بمديته طعنة وقع على أثرها مغشياً عليه ثم فروا بعد أن سلبوه المال الذي حمله لتنفيذ ذلك الاتفاق

ولما طال انتظار السيد صلاح الدين عزم على ملاقاته بنفسه . ولكنه ما كاد يبتعد عن حدود القرية حتى لمح أبي ملقى على الحالة التي ذكرت ، فلم يشك في أنه هو وأسف على أنه لم يفكر في النزول إلى بيروت لمقابلته . على أنه كلف رجاله بحمله إلى داره . وكان الجرح من حسن الحظ غير خطير فالتأم في مدى شهر بفضل عناية الطبيب الذي استقدمه لمعالجته .

ومن ذلك العهد توثقت الصلة بينه وبين هذا

الرجل الكريم إلى أن مات وهو فى شرخ الشباب

— لعلة ؟

— كلا . وإنما أولع بعد انتهاء الحرب الكبرى كغيره باقتناء أوراق البنكنوت الألمانى . وقد استنفدت ثروته كلها وهو يملل نفسه بالغنى الطائل فى يوم قريب حتى إذا انكشف الأمر وظهر له أن هذه الأوراق لا تساوى شيئاً قضى عليه الهم

— وأهل بيته ؟

— لم يكن له غير زوجه وابنته . وقد وقع نعيه فى نفس أبى أسوأ موقع فبكاه بكاء مراً وأسرع إلى لبنان ليعود بهما إلى مصر ، ولكنه لم يعثر عليهما لا فى دير القمر ولا فيما جاوره

— لعله ذلك الذى كانت صورته هنا إلى جانب صورة المرحوم أبيك ؟

— نعم هو ولكنها تثير دائماً فى نفسى تلك الذكرى فأزلتها . إنها الآن فى ركن فى غرفة نومي بل إنى حرمت على نفسى تناول الفاكهة أيضاً حتى لا أذكرهم جميعاً

— حقاً إنها ذكرى تصلح أساساً لقصة رائعة طريفة . ولكنى لا أجد فيها إلى الآن سبباً يباعد بينك وبين الزواج ... لعل تلك البنت ... ؟

— هى . هى يا صديقى . ومن الغريب أننى لم أرها ولاهى رأتنى ، إذ كانت فى القسم الداخلى بمدرسة عنطورة لاتزور أبويها إلا مرة كل أسبوع ، ولكنها على رواية أبى كانت أجمل فتيات دير القمر بل وقرى الجبل كلها . وقد وتعاهدأبى وأبوها على أن تكون لى إحكاماً للصلة بين البيتين .

وعند ذلك ساد السكوت وأخذ كل منهما يسبح فى بحر قاتم من الخيالات . فيلمن الزائر تلك الأوراق التى جرت الحسرة والويل على كثير من الناس . ويلمن أولئك الطامعين القصيرى النظر وإلا كانوا يقتصرون إذا كان لا بد من المضاربة على جزء من أموالهم فلا يحيق بها كلها الخراب .

وكان كامل افندى (صديقه) يذكر تلك الفتاة وحسنها الذى كان مضرب المثل فى الجبل حتى خيل اليه أن دير القمر لم يسم بهذا الاسم إلا لأنها كانت زينته

ثم يشعر بالمرارة وهو يتصور ما صادفها وأمها بعد موت عائلهما من غوائل الفقر والجوع والتشريد . وهكذا يحطمه اليأس وتتسابق فى عينه الدموع . ولم تكن هذه المرة هى الأولى التى صدعته فيها تلك الذكرى فانه ما كان يقبل على غرفته ويرى صورة أبيها حتى تتجدد ولذلك اضطر إلى رفعها . ولكنه كان يقول فى نفسه إذا كانت لم تعد بعد من سكان دير القمر فلِمَ لا أقيم أنا لها فى قلبي ديراً آخر تترهب ذكراها فيه إلى أن يحين ساعتى . ولذلك وطن نفسه على عدم الزواج .

وكانت الساعة أخيراً تدق النصف بعد العاشرة ، ولكن أحداً منهما لم يشعر بها وهو فى شاغل من هذه المأساة لولا أن طرق الباب طرقاً عنيفاً فانتبها . وعند ذلك هرول صديقه مستأذناً كما رافقه كامل افندى إلى الباب ليرى من هذا الطارق .

ولما فتحه وجد أمامه أحد رجال البوليس وفتاة فى أسمال بالية مستندة إلى الحائط وبجانبها صرة يظهر أن بها ملابسها . وعند ذلك قال الجندى إنه رآها جالسة عند عتبة الباب تبكى وتقول إنها خادمة حضرتك ، ولكنى شككت لوجودها خارج البيت فى ساعة كهذه فطرقت الباب لأتأكد من صدقها

— نعم إنها خادمتى يا شاويش ... أشكرك

وعند ذلك انصرف صديقه وهو يعتقد أنها خادمة جديدة، وكذلك الجندي، ثم أغلق الباب. وكان وهو صاعد وهي من خلفه يسائل نفسه في ألم: لم تسرع في إيوائها؟ وكيف جاراها فيا ادعته وقد تكون هاربة بعد أن سرقت ما وصلت اليه يدها؟ ولكنه تذكر رواية رجل البوليس من أنها كانت تبكي وأن دموعها لا زالت تنحدر من عينيها في جزع وصمت؟ ثم لم لا تكون بائسة مضطهدة ففرت لهذا السبب. وعند ذلك تنفرج أساريره وتنبسط نفسه وما فعل شيئاً بجانب ما فعله صديق أبيه حين قصده في لبنان ودهمه قطاع الطرق.

ويظهر أن الفتاة أدركت من سكوت كامل افندى أنه نادم على ما اندفع إليه فقالت ياسيدى: إني لم أكن خادمة يوما ما لولا موت أبي فاضطررت إلى الخدمة، ولكن اتضح أن الشاب الذى أرسلت إليه اليوم أعزب ويعيش وحده فما كاد يدخل الليل حتى أخذ يخاطبني بلهجة غير اللهجة التى يخاطب بها المخدوم الخادم، ثم أخذ شيئاً فشيئا يقترب من غرضه حتى انكشف لى، فرفضت. ولكنه حاول أن يأخذني غصبا فقاومته حتى مزق ثوبي وجرح ساعدى. وأخيرا دفعته عني وفررت. وقد كذبت على رجل البوليس فلم يشأ أن يصدقني وطرق الباب. وعند ذلك اضطربت وبكيت خشية أن يفتضح أمرى. على أن هذه الصرة بين يديك يمكنك أن تلقى نظرة على ما فيها.

— ولكن يا ...

— صبيحة ياسيدى

— ولكني ياصبيحة أنا أيضا أعزب وأعيش هنا وحدى فكأنك ما فررت من النار إلا إلى النار أليس كذلك؟

وكانت الفتاة في خلال ذلك تنظر إليه من طرف خفي وقلبها مطمئن فصاحت:

مش كل الناس ياسيدى

وعند ذلك قال: لما إذن ستنامين هنا إلى الصباح. أتبعيني لأدلك على المكان الذى تقضين سواد هذه الليلة فيه. ثم أخذها إلى غرفة خادمته التى استأذنته في غياب ليلة فتأخرت ليلتين. وبعد ذلك عاد إلى غرفته لينام هو أيضا.

ولكنه كان مشدود الأعصاب مشتت الخاطر فلم تجد عيناه سبيلا إلى النوم وقد ذكر ما تعاني خطيبته وأمها أيضا بعد أن كشر لهما الحظ فأخذتا تضربان في بطن الأرض هائمتين في دنيا الهموم والأحزان.

وما كانت الفتاة كذلك ليطرق جفنيها النوم وهي تعلم أنها لن تنام تلك الساعات القليلة الباقية إلا لتفتح عينيها عند الصباح على جفوة الطريق وقسوة الناس ومرارة الفاقة وذل السؤال، ولذلك كانت تبكي وتقول: لو أن تلك الخادمة لاتعود فتحل محلها! إن هذا الشاب الكريم الذى أنقذها من موقفها مع رجل السلطة لن يتردد في استبقائها مكانها. ولذلك لم ينبثق نور الصباح حتى أخذت تكنس السلم وتنظف الغرف وترتب الأثاث، ثم استعانت بما وجدته في علبة المطبخ من اللبن والشاي على إعداد طعام الإفطار، حتى إذا استيقظ كامل افندى دهش وسر فلم يتعرض لمسألة خروجها وأثنى عليها

ومن حسن الحظ أيضا أن الخادمة الأولى اعتذرت من عدم العودة بالزواج فأثلج ذلك صدر صبيحة وأخذت تدير كل شئون البيت بمفردها. وكانت

فى عملها تتوخى دائما السرعة والدقة وسلامة الذوق حتى إنه كان يجد ما على مكتبه منظما تنظيما غريبا وهو يري الكتب العربية فى جانب والأفرنكية فى جانب آخر، والدواة والأقلام مغسولة براقة زاهية، وورقة النشاف المستعملة منزوعة

وكانت جريدة الأهرام تصل باستمرار فى صباح كل يوم فاشترت لها حالة من الخيزران على مثال ما يجده الناس فى المقاهى، وكانت تعلقها فى مكان قريب من المائدة حتى إذا وقعت عينه عليها ساعة إفطاره تناولها بسهولة . وكانت بعد إطلاعه عليها تحفظ أعدادها فى مكان خاص فلعله يطلب الرجوع إلى عدد منها .

وكان المطبخ فى عهد الخادمة السابقة قذرا مهملا فأخذت فى تنظيفه وترتيبه وتجديد كثير من الوسائل اللازمة له فأوصت النجار بعمل حامل يحفظ الأطباق بين قوائمه وأعدت كذلك مائدة كست سطحها بالزنك لتيسير غسل المواعين والآنية .

وكان سيدها لا يحاسبها على ما تأخذ كل صباح من المصاريف اليومية، فكان ما يزيد منها على الحاجة تشترى به ورقا أمريكيا للمرحاض أو طوابع بريد كانت تضعها على المكتب فى مكان ظاهر، كما أنها اشترت تقويما مما يعلق على الحائط كانت تنزع منه كل صباح ورقة اليوم المنصرم، وكذلك اشترت جرسا على شكل سلحفاة وضعته إلى جانب الدواة حتى لا يجهد سيدها نفسه بالنداء عليها

وكل ذلك أعدته ولم يمض عليها أسبوع من يوم التجائها إلى الدار مما أدهش كامل افندي وجعله يشعر بأنه لم يكن أمام فتاة عادية كان أول عهدها بالخدمة ذلك اليوم الذى فرت فيه

وكان لكامل افندى عمارات ضخمة فى بورسعيد أقام عليها وكيلا يحصل له إيجارها ويرسل به اليه كل شهر مع كتاب مطبوع فى رأسه اسم « دائرة كامل أفندى الزاهد ببور سعيد » فأراد كامل افندى أن يكتب له فى شأن مستعجل من شئون تلك العمارات ثم وضع الكتاب على المكتب وفى الصباح خرج بعد أن أوصاها بسرعة إيداعه صندوق البريد لأهميته . ولكنها وجدت الغلاف خلواً من العنوان فخطر لها أن تطلع على خطاب ذلك الوكيل وهكذا كتبته فوقه ثم أرسلته . غير أن الوكيل لما تسلمه لاحظ خلافاً بين خط الغلاف وخط سيده فخشى أن يكون من حمل الكتاب إلى مكتب البريد فتحه ليطلع على ما فيه ولذلك نبه سيده إلى ذلك مع إعادة ذلك الغلاف

أما كامل افندى فقد أدرك أنه نسى كتابة العنوان وأنه ليس هناك غير سميحة التى استكملت ذلك النقص حتى لا يفوت الغرض الذى قصده فأكبرها ، وقد ظهر له أنها مثقفة تجيد القراءة والكتابة كما أنها فطنة ذكية تقدر ما يجب للقيام بتنفيذ مطالبه على الوجوه التى ترضيه وتتفق مع ما تتطلبه من العناية والسرعة .

نعم، إنه لما سألها عما إذا كانت تعرف القراءة والكتابة أنكرت وقد صبغ خديها الخجل، ولكنه لم يناقشها إذ قد تكون ظنت أنها تصرفت فى أمر الغلاف تصرفاً غير لائق أو أنها لتواضعها تنفر من مظاهر الاعتزاز والكبرياء

ومرة أخرى دخل عليها المطبخ فوجد بين يديها قصة الشاب الفقير لأوكتاف فوليبه ، فما إن رأته حتى نهضت مضطربة وطوت الكتاب بعد أن

وضعت عند الصحيفة التي كانت تقرأها عود ثقاب لتهتدى اليها ، فلما تناوله قال إنك تجيدين الفرنسية أيضاً يا سميحة، ولكنها أجابته سلباً وأنها فقط كانت تتسلى برؤية المناظر المصورة مع أن تلك الصحيفة كانت خالية منها

قضت هاتان الحادثتان وقضى نشاط سميحة ونضوج تفكيرها وقوة ملاحظتها مما ذكرناه على كل شك فى أنها من أسرة رفيعة لا بد أن الزمان وقف فى طريق سعادتها . وكان فى ذلك اليوم قد قصد إلى البنك وقبض منه مبلغاً فناولها منه عشرة جنيهات قائلا خذى هذه يا سميحة واشترى به فوراً ملابس تليق بك فانى أريد أن أراك من اليوم فى غير هذه الأسمال .

وهكذا ما حان موعد طعام العشاء حتى كانت سميحة فى زيها الجديد آية من آيات الحسن والرشاقة وهى فى سن الرابعة والعشرين التى تكتمل عندها الأنوثة وتبرز الملاحة .

ولقد لفت نظره قرطاً فى أذنيها من ماس صناعى فأسرع إلى خزانته وأخرج منها قرطاً من ماس ثمين كانت تتحلى أمه به ، ثم شبكه فى أذنيها بيديه المرتجفتين بدلا من ذلك القرط الكاذب وجسمها ينتفض وأنفاسها العاطرة تتلاحق وعيناها الساحرتان تنظران إليه فى صمت أبلغ من الكلام كله شكر

وكانت المائدة حاضرة وقد زانتها بوعائين أطلت منهما مجموعتان من الورد الزاهى المختلف الألوان كما أن غرفة الطعام كان يغمرها نور ساطع قوى وقد ضاعفت عدد مصابيحها . وكان النور ينعكس على قرطها فتنبعث منه شرارات متألقة تتحرك بتحرك القرط فى أذنيها الجميلتين ، وقد ظهر وجهها الصبوح تحت شعرها الأسود اللامع بدراً فى ليل ، وعيناها النجلاوان وأنفها الدقيق وفمها الذى يطلب القبل . كل ذلك يبتسم فى جو يموج بأثير الشباب. وما كان هذا الوجه البديع إلا ثمرة شهية أطلت فوق غصن قدها المتدلل الناعم وقد زانه نهداها البارزان وبطنها الضامر وأعطافها اللينة وساقاها الجميلا التكوين مما يأخذ باللب ويغرى بالحب ، حتى أنه حين أخذ مجلسه من المائدة قال لها : من الآن يا سميحة تتناولين الطعام معى . اجلسى هنا أمامى فما أنت بخادمتى وإنما أنت سيدة بيتى . وكانت حيرى مترددة فألح عليها؛ حتى إذا انتهيا من الطعام أسرعت إلى المطبخ وعادت تحمل طبقاً واسعاً من الصينى به قرص شهى من التورتة ظن أنها اشترته من أحد حوانيت الحلوى . ولكن كم كانت دهشته لما علم أنه من صنع يديها ، وأنها اشترت مما تقتصده فرناً صغيراً لهذا الغرض وغيره. وأخيراً عادت إلى المطبخ، فلما طال غيابها خف خلفها يبطء فرآها تبكى . وعند ذلك عاد دون أن تلمحه وهو يسائل نفسه من عساها أن تكون هذه الفتاة ؟

* * *

وكان من عناية كامل افندى بسميحة أن أفرد غرفة خاصة لزينتها كما أعد لها سريراً فخماً فى الغرفة المجاورة لغرفة نومه . وكان إذا خرج اصطحبها فى سيارته التى كان يقودها بنفسه ، وكانت تتولى هى قيادتها أيضاً فى بعض الأحيان . أما إذا عادا فى

الليل من رياضتهما فكانا يشتركان في الحديث والمطالعة

أصبحت سميحة الشغل الشاغل لكامل افندى لا يفتأ يفكر فيها ويعجب بحماستها ويغمره السرور عند كل حركة من حركاتها حتى كادت تنسيه تلك التى أرادها له أبوها وأبوه، وقد أخذت سميحة تنزل رويداً رويداً إلى أعماق ذلك الدير الذى أقامه فى فؤاده لتلك الذكرى

وفى ليلة من ليالى القمر قضياها فى طريق السويس عادا إلى الدار وقد تملكه حبها ولم يعد يستطيع صبراً عليها فأخذ يداعب شعرها ويتلطف معها ويسائلها من أنت أيها الملاك الذى هبط علىّ من سماء وحشتى ؟ أو لا أعرف على الأقل من أنت ومن أبوك ومن أمك وما هى أحداث القدر التى حاربتهما وحاربتك ؟ تكلمى . إشفى غليلى فانك لم تعودى الآن إلا جزءاً منى بعد أن تلاشت روحك فى روحى وامتزجت نفسك بنفسى . ولكنها ظلت تغمره بنظرات فاترة ضالة وقد عجم لسانها الصمت وغلبها الحياء. وأخيراً قالت له : ماذا يهمك من أمرى ومن أمر أبوىّ . بالله عليك أن تترفق بى ولا ترجعنى إلى ذلك الماضى الذى أحاول نسيانه لأنه لم يثمر غير شقائى ...

— إن من واجبى إذن أن أحول بينك وبين هذا الشقاء

— هيهات

ولكنه أمسك بكفيها وقال متململاً وهو يحدق فيها :

— إنى أحبك يا سميحة

وعند ذلك عادت إلى حلمها ونظراتها الشاردة تسبح فى فضاء الغرفة كأنها تفتش فيه عن شىء مفقود

— أو كثير عليك أن تقابلى هذا الحب بمثله ؟

— إننى لا أنكر ما لك علىّ من الجميل ياسيدى. ولكن فى هذا القبر (مشيرة إلى قلبها) شبحاً دفيناً يغوص فى تراب الذكريات البعيدة ، فبالله عليك لا تحاول أن تثيرها فإنك لا تعلم مبلغ ما تجدده لى من العذاب

— إذن أنت تحبين يا سميحة ؟

— ... ...

— قوليها كلمة صريحة وإن كان عذابى فيها فانى بقدر ما أحببتك وأكرمتك أكرم أيضاً هذه الصراحة فيك

— ... نعم

— نعم ! إن من الكلمات القليلة الحروف ما يحقق سعادة أو يحطم حياة ... ولكن من عساه أن يكون هذا السعيد ؟ من هو وأين هو ؟

— إنى أجهله يا سيدي ...

أنت أيضاً ! أنت أيضاً تجهلين مكانه كما جهلت أنا مكانها . والحظ الذى يجمعنى بك ويملأ نفسى منك هو الذى يهدم الآن سعادتى ويباعد بينك وبينى . ولكنك على كل حال أكبر منى نفساً وأكثر وفاء ، فأنت لا تزالين على عهده أمينة وفية بينما أنا الشقى أسدل الآن ستاراً على عهدها وأنساها

وعند ذلك أفلت كفيها من يديه وارتمى على مقعده خائراً ذليلا . أما هى فعقدت ساعديها حول

رأسها وأخـذت تبكى . وأخيراً قالت له فى رفق وخشوع : إن لى عندك حاجة يا سيدى لعلك لا تخيب رجائى فيها

— وما هى ؟

— أن تأذن لى بالذهاب عن هذه الدار حتى لا يطول عذابك ... وعذابى

— ماذا ؟ وهل جهلت يا سميحة أن بعدك عنى الآن يضاعف هذا العذاب وربما قتلنى . بل تبقين إلى جانبى حتى تهتدى إليه فأجمع بينكما وتعيشان سعيدين ..

— وأنت ؟

— وأنا أعيش فى ظل هذه السعادة صديقاً وفيا

كم كان موقفه معها فى هذه اللحظة القاتلة نبيلاً . وكم كانت هى أيضاً تحبه وتتهالك عليه وهو جميل رشيق شجاع عادل ، لولا ذلك العهد ، وكان قد غلبه النوم فأيقظته فى رفق لينتقل إلى سريره ويرتاح .

ولـكنه لم يلبث أن شعر برأسه يدور وجسمه ينحل ويتفكك وقد ثقلت أطرافه وزادت حرارته فعكفت على تمريضه . وأغلقت النافذة التى بجواره منعاً لمرور التيار . ولـكنها فتحت النافذة الأخرى البعيدة عنـه حتى يتجدد دائمـاً هواء الغرفة ثم ناولته قرص اسبيرين كما أعطته مليناً فقد يكون الصداع الذى يشعر به بسبب سوء هضم أصابه . وكانت بين فترة وأخرى تختبر حرارته بترمومتر أسرعت فى شرائه . وقد لاحظت أن حرارته ترتفع شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغت ٣٩ درجة وخطين انزعجت وأسرعت إلى دفتر التلفون لتستدعى فى الحال طبيباً

وبينما هى تنتظر عودته وهى على أحر من الجمر كان هو يهذى فى نومه فيذكر أبويه ويذكر اسمها والجبل ودير القمر وساعداه يمتدان فى الفضاء كأنه يناجى ويتوسل . وعند ذلك ذهب بها الظن إلى أنه كان على نية السفر إلى هذه الربوع لأنها وجدت دليل المصيف من بين الأوراق التى على مكتبه

وعند ذلك سمعت حركة سيارة تقف عند الباب وما كان الطارق غير الطبيب فأسرعت به إليه ولـكنه كان نائماً فرأى ألا يوقظه واختلى بها فى غرفتها يستفسر منها عن يوم إصابته وعن أعراضها وعن الاجراءات التى اتخذتها فى تلك الأيام الخمسة التى مرت عليه وهو فى تلك الحالة . وكم أعجب الطبيب بكل ما فعلته ولاسيما بالبيان الذى حرصت على أن ترصد فيه درجة حرارته فى خلالها . وكان كامل قد استيقظ لأنه ناداها عليها فأسرعا نحوه وقد دهش لعنايتهما به إلى هذا الحد

وبعد أن فحصه الطبيب لم يجد به أثراً لأية علة فقلبه سليم ومعدته طاهرة من العفونة إلا حمى رفعت حرارته إلى ٣٩ درجة ونصف لم يكن سببها برد تعرض له . وعند ذلك لم ير إلا أنه وقع تحت تأثير سيئ وصدمة شديدة لم يتحملها ، فشرح كل ذلك لها قائلاً : إن الجسم كما يتسمم من سوء الغذاء والشراب ، يتسمم كذلك من اضطراب الفكر بسبب حادث مفاجئ أزعجه . فهل مر به شيء من ذلك أو هو على الأقل تكدر لسبب من الأسباب ؟

وعند ذلك التفت كامل إليها والتفتت إليه ثم سكتا.

فأدرك الطبيب أنه لم يخطئ فيما انتهى إليه بحثه . ولذلك أوصاه بالحذر من الوقوع مرة أخري تحت سلطان مثل هـذه المفاجآت ثم قال له : إنك على ما أرى دقيق الحس إلى حد أن أقل اضطراب يؤثر في أعصابك ثم في جسمك. سأكتب لك الآن عن دواء يشفيك من هذه الحمى فتعود حالتك إلى طبيعتها الأولى . وربما كان من حسن حظك أن هذه السيدة الفطنة إلى جانبك ، فهل هي ممرضة ؟

وعند ذلك قال المريض: نعم يا دكتور مع تشير في شكل بعض الحروف، فلم يفهم غرضه ، ولكنها فهمته هي ، وقد أراد بذلك سكون الميم الثانية مع كسر الراء ، ولذلك لم تستطع أن تحبس دمعها

— هلا ترى يادكتور أن يذهب إلى الجبل لقضاء فصل الصيف فيه ؟ ...

— نعم . نعم . ولكن بعد أن يجدد قواه ثم انصرف

أما كامل فقد أدهشته هذه الاشارة ولكنه حملها على هذيانه في نومه بعد أن ذكرت ذلك له، ثم قال لها:

أوعَيْتِ ما ذكره الطبيب يا سميحة من أنني أكون سعيداً إلى جانبك على شرط أن أحذر مثل تلك الصدمة ... ولكن ثق بأنها لن تعود ، وأنني سأطيب وسوف لا أخون العهد الذي قطعته لك . سأعيش يا سميحة إلى جانبكِ كما وعدتك فحسبي بعد ذلك من هذه الدنيا أن أراك سعيدة . وعند ذلك لمحت شبح الخطر يتمثل لعينيها لأن تلك الصدمة لن تلبث أن تدهمه مرة أخرى وهي تعلم مبلغ ما فعل حبه لها فيه . ولذلك أخذت توازن بين بقائها على عهدها نحو ذلك الغائب الذي لا أمل في عودته وبين أن تهوى بقبلتها على جبين هذا الذي أحبها وأكرمها ويريد أن يضحي بسعادته ويعيش معذباً في سبيل سعادتها. ولكن دافعاً خفياً كان، كلما همت إلى تنفيذ عزمها ، يستوقفها

وقد خطر لها أن تنقل إلى ذلك الركن الخالي المقابل لسريره منضدة في غرفتها حتى تكون على مقربة منه فيمكنها القيام عليه . ولذلك حملت تلك الصورة لتنقلها إلى مكان آخر وكان التراب قد علاها وهتك غلافها فنزعته عنها . ولكنها وقفت ذاهلة مسمرة في مكانها وهي لا تصدق عينيها ، إنها صورة أبيها وهـذا خطه في ذيلها حين أهداها إلى صديقه تاجر الفاكهة لها الذي انتقل بها إلى هـذه الدار ، لعله اشتراها من تركته ، ثم لماذا يحرّم الفاكهة على نفسه مع أنها من خير ما ينفع الأجسام حتى أن الطبيب نفسه أشار بها

وعند ذلك اقتربت منـه وكانت حرارته قد انخفضت درجتين فتهلل وجهها ثم استأذنته في أن تحضر له فاكهة كما أمر بذلك الطبيب، فقال لا بأس ما دام قد أشار بها ولكنها لن تكون كتلك التي كان يطعمنا إياها أبي ...

— أبوك ؟

— نعم . ألا تعلمين أنه كان من أكبر التجار فيها

— ولِمَ لم تقل لي من قبل يا كامل ؟ الآن أبشرك بأنني قد اهتديت إلى مكان تلك التي أرادها لك

— أنت ؟

— نعم ... أنا . وسوف لا تعود إليك بعد الآن تلك الصدمة التي كنت أنا السبب فيها . سوف تجتمعان فلا تحنثت في عهدك الذي ربطك به أبوك كما تكون خير عون لي مع احترام عهدي فلا يضيرك بعدئذ أن أتزوج أنا أيضاً به

— به ؟

إنه في تلك اللحظة شعر بسلطان حبها عليه بعد أن نسي الأخرى . ولكنها لم تمهله فطوقت رأسه بساعديها وحدقت بعينيها في عينيه قائلة : إنها أنا يا كامل وهذا شاهد على ذلك من أهلي ... أبي

ثم طبعت على فم الملتهب تلك القبلة الحارة التي طالما اشتهاها وطالما حبستها

***

ما كاد كامل أفندي يتماثل للشفاء حتى أرسل إلى وكيله بكتاب طويل ولكن الرد عليه لم يصله إلا بعد عشرين يوما تقريباً . وقد جاءه من لبنان مما يدل على أنه كان قد كلفه بالقيام إليها . وعند ذلك كاشف سميحة وأمها بعزمه على القيام معها فورا إلى الجبل ، إلا أن هذه الرغبة لم تصادف هوى في فؤادهما ، وقد غلبت عليهما ذكرى دارهما التي ألفاها ونشأت سميحة فيها وقد خرجت من أيديهما . ولكنهما مع ذلك رضختا والطبيب هو الذي أشار بذلك .

ولما وصلوا إلى دير القمر قصد بهما أولا إلى قبر عائلهما لزيارته ثم عاد بهما وقد ظننا أنهم سينزلون في خان بالقرية حتى أنهما لما مرت بهم العربة أمام الدار حولتا عيونهما عنها وقد اغرورقت بالدموع .

ولكن كم كانت دهشتهما عندما رأتا العربة تقف بهم عند بابها

لعله إذن سعى عند مالكها في أن يأذن بزيارتها أيضا قبل الانتقال إلى ذلك الخان . وكانت الدار على عهدها السابق إلا أنها أصبحت أزهى لما تناولها من التعمير والتجديد . وكان أثاثها جديداً فخما وكان كل شيء فيها مستكملا مرتبا أحسن ترتيب . فأخذتا تطوفان في غرفها ومسالكها وكأنهما في صمتهما تتخاطبان : هنا كنا نأكل ، وهنا كنا ننام ، وهنا كان رحمه الله يجلس ، وهنا كان يستقبل أصدقاءه من التجار ، ولكنهما كانتا تشعران بالألم والمرارة وهما لا تلبثان أن تبرحاها حتى إذا همتا بالنزول أوقفهما كامل افندي قائلا : إلى أين ؟ إنها كانت داركما وهي الآن كذلك . لقد سبق أن اشتريتها ثم كلفت وكيلي بتعميرها وتأثيثها حتى لا تنزلا في سواها ...

ومن محاسن الصدف أن صديقه لما علم بسفره إلى لبنان أدرك أنه قصد إلى دير القمر العزيز عليه فوافاه إليه . وكم كان سروره لما علم بكل ما ذكرناه هنا حتى قال له : الآن قد استوفيت عناصر قصتك فأي عنوان ترى أنه يليق بها فقال كامل افندي : لا أدري للآن

— سمها دير القمر

— أو دير سميحة

محمود خيرت

هل مات مسموماً

لكاتب « ليوكوزيانوف »
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

ليوكوزيانوف كاتب روسى من العهد القيصري ، تأثر بمدرسة تورجنيف وبوشكين ، وأندريف في القصة القصيرة ، وكان صديقاً حميماً لبونين الذى حاز جائزة نوبل ، ودرس ليوكوزيانوف الرياضة والميكانيكا ، في جامعتى زوريخ وجنيف ، كما درس حياة المتأمر والأوساط الثورية ، التى هاجرت أو فرت إلى خارج روسيا ولجأت إلى سويسرا وإيطاليا . ودأبه بعض الغموض اللذيذ في العقدة ، والجلاء في وصف الشخصيات وتحليل النفسيات ولا سيما النساء من أبطال قصصه . وقد نقلت هذه القصة « هل مات مسموما ؟ » إلى الفرنسية ونالت جائزة مجلة ليزانال Les Annales ونجحت نجاحا عظيما

تسألنى متى عرفتها ، وكيف عرفتها . تالله إن أمرك لعجيب ، فقد رويت لك هذه القصة عدد شعرات عثنونك التى لا تفتأ تنتفها من الهوس وفقد الذاكرة

لقد عرفتها يا صاحبي في صيف تلك السنة التى عرفتك في خريفها . هل في هذا التدقيق إبهام أو غموض ؟ هل كانت سيدة في زواجها أى قبل اتصالنا ؟ من يدرى ؟ ولكن من ذا الذى عرف الدنيا وخبر أخلاق رجالها ونسائها فراح بعد ذلك يشك فيما قد أصاب تلك السيدة من البلاء على يدى زوجها .. لقد وصفته لى كأننى أراه وأسمع صوته ، وقد رأيت أناساً هبطوا إلى أسفل درك الشيخوخة حاملين في أحشائهم جمرة صبابة الصبا ، وحرقة غرام الشباب . وكان ذلك الزوج منهم . ولكن لكل امرأة جميلة وصبية أن تعد مسؤوليتها من العقد ساقطة متى عجز الزوج عن حمل مسؤوليته . فإن حبها لا يبقى بعد زوال قوته ... مالى أراك تحدق فىّ كأننى أكلت ميراث أبيك أو هدمت قبة كنيسة القديسين بطرس وبولس ؟ لست حارساً على هيكل الفضيلة . وأنا أقرر الواقع . أنا لا أنكر أنه قد يحدث أحياناً خلاف ما ذكرت ، كما روى كثيرون ممن شاهدوا وجربوا . أن بيوتاً عدة لم يطفأ قط فيها سراج الحب المقدس منذ أشعل ليلة الزفاف

إيه ؟ ماذا تقول ... تهمس ولا ترفع عقيرتك . كلام معيب .. تخجل من تكراره ... ها .. ها ها .. صدقت .. تمام . أى نعم .. إن سراج الحب الذى يصب نوره على العروسين ليلة الزفاف لعرضة لألف ريح وإعصار يهبان عليه من المدخنة فيطفئانه وربما أخذته قلة الزيت ... ها ها ... الزيت . مفهوم . مفهوم طبعاً . إن المرأة ليست سيارة . قد تكون كوكباً أو نجماً مذنباً ... ولكنها ليست سيارة . فإذا ما نضب الزيت ، حينئذ ترى الزوجة بائسة يائسة تحيى الليل المظلم الطويل أرقاً بينما الزوج يغط في نومه لا يبالي ولا يكترث . نعم ؟ آه الحالة المضادة لما أقول ... دائماً المحاسن والأضداد . أنت ترى حالة الرجل المسكين قد تزوج من خداعة لا قلب لها ثم انتبه من حلم الزفاف الباطل إلى الحقيقة المرة . لقد هيأ الزوجان لنفسيهما فراشاً لا بد أن يرقدا فيه حتى يفرق بينهما الأجل ، زيجة أورثوذكسية على قواعد عقيدتنا الدينية . . .

لا ، لا . المرأة التي تعرفها لم تقبل ولم تخضع . لقـد سارعت إلى الفرار وهي تحمل في أحشائها الجنين .. الذي حملت به ليلة الزفاف، ويالها من ليلة! لقد قضت عامين اثنين فقط أثناء الخطبة والزفاف . وكنت أعرفها قبل الزواج ، فعرفت فيها الشباب والجمال والمرح وعدم الاكتراث للحياة ... لقـد كانت قبل عامين طفلة . أمّ طفل وكانت تفيض على كل من يراها من ابتسامتها كضوء الشمس ، منبع الحياة والأنس . ولـكن عند ما أيقنت أنها دفنت زواجها وشبابها في قبر الشيخوخة المتمة أسنّت فجأة كما يهرم الذين يكابدون الآلام النفسية الجسيمة في سكينة وصمت . . . إنها علمت أموراً كثيرة كانت لا تخطر لهـا قبل على بال ... فلما تعلمت ما تعلمت على يد ذلك الأستاذ الكريه (الشقاء) ثارت حميتها فنبذت كل طاعة . ولـكن بعـد أن كابدت مرارة الفجيعة في حياتها التي قضى عليها أن تسلك مناهجها وحدها

أي نعم ! لقد عرفتها في تلك الفترة .

وفي تلك اللحظة دخلت مدام اوجستا دمانسكي، فلما علمت ان الحديث بيننا كان بشأنها تضرج وجهها من فرط السرور والخجل . وكانت في مشيتها ونظرتها أزهى من أميرة . وعيناها بلون القطيفة ، ونمومتها في شكل النرجس الغض ، وكانت خديها صفرة تخالطها حمرة وخضرة كأنهما خدا تفاحة نضرة أو زيتونة عطرة ، ولها صوت لين غني بالأنغام المؤثرة الشجية، ولفتات هادئة ونظرات عميقة. وقد فاجأت كرولنكو ذلك الفيلسوف ذا الشئون المتوف وهو يهز كتفي قائلاً : اغرس غرسك أيها النلام واغتنم من دهرك ما ساقه اليك القدر . والله لوددت لو أرجع صبياً فأدخل الجامعة لأرشف رضاب العلم ، وأشهد التمثيل خالي البال ، وأهصر أغصان الصبايا خاوي الوفاض من المال . أحب الحياة التي يكون فيها جيبي وفؤادي فارغين . فلما سمع صوت حفيف حرير التافيتا الذي كانت تخب فيه أوجستا رفع رأسه وألقى عليها نظرة عجلى ثم أطرق . فخجلت كما خجل فتقدمت اليه وقالت له: نعم صباحا يا ايليا ايليا تشتش. كيف حال السيدة حرمك ؟ إنني لم أرها ولكن أعرفها بالشهرة الذائعة . فنهض ايليا ايليا تشتش وتناول يدها الطائلة الممتدة اليه في عظمة امبراطورية وقبل أطراف البنان . فلم تمهله حتى يبلع ريقه ويتكلم: بل قالت وفي صوتها لهجة حزن وشيء من التهكم « حقاً إن دارنا هذه لموحشة ، دار سمجة عتيقة مظلمة . نصفها خَـرِب وسائرها ناقص الأثاث والرياش . ومن كان مثلك قد تعود محافل الأنس والحبور ومجالس السمر والفكاهة في لندن وبرلين وفارسوفيا ، لا يرتاح إلى مسامرة امرأة وطفلها وصديقها الطالب بالجامعة (تشير إليّ) ولا يقر عينه مثل هذا المجلس وقلة أنسه . والواقع أننا لا نصلح لضيافتك . فأما إسعادك وإدخال السرور على نفسك ففي غير هذا المكان فالتمسهما واطلبهما فانتظر عودة أبي ...

فقال ايليا ايليا تشتش : لعنة الله على القيصر وجميع أسرة رومانوف يا اوجستا فيلبوفنا إن كنت أدري أتجدين الآن أم تمزحين ! فدنت مني وتناولت أناملي تعبث بهما وكان ولدها بوريس قد دنا منهـا فتناولت خصلة من شعره تلاعبها باليد الأخرى . وأخذت تنقل عينيها من وجهي إلى وجه الصغير الساهم ثم وجهت الحديث إلى الرجل الناضج :

— إنى أجدُ يا سيدى ايليا ايليا نقتش ، وهل هذا المقام يحتمل مزاحاً ؟ ثم صوبت نحوه نظرة عظمة وأبهة ورنت إلىّ بلحظها الفاتر كأنها تناجينى

فأبرقت عينا ايليا ايليا نقتش وقال مسرعاً ألفاظاً متراكمة كأنها قطع من الحديد المحمى يفصلها حداد حاذق ، بدقات على السندان متتالية كرنات ناقوس القطار السريع :

— أحقاً يا أوجستا فيلوبوفنا أنك حتمت على هذا الفتى أن ينمى شعر لحيته الفضى ليبدو للناس رجلاً ناضج السن ، فلا يلفت أنظارهم اليكما بفتوته وكمال نموك ، فان الفارق فى السن ملحوظ بينكما لدرجة أنك تخجلين من مصاحبته . وإن بعض الناس ليظنك أمه خصوصاً فى مصلحة البريد عندما قال له موزع المكاتيب والطرود : أخبر السيدة المصون والدتك أن لها خطاباً مسجلاً ولايمكننا أن نسلمه إلا اليها يداً بيد ... أليس كذلك يا ساسا ؟

أما أنا فقد أصابنى دوار ، كأنى أخوض غمار البحر فى سفينة غروقة ، ودارت بى الدنيا ورأيت ألوان قوس قزح ترسم أقواساً أمام عينى ، ثم سمعت فى أذنى طنين ذباب لا يبى ولا يكف ، وقد فقدت توازنى من هول ما سمعت من الاعتداء على كرامة سيدة وشرف رجل . إن هذا الرجل كان يكامنى فى صفاء وحسن نية ، وهأنذا أراه يتهجم على عرض السيدة التى أحبتنى وأحببتها، بأفظع القول، وأقذع السب ، وأمر القذف ...

وعند ما دخلت زنيا (خادمتها الخاصة) بطقم الشاى لم تتردد أوجستا فى خدمته بأن سألته فى أدب عن عدد قطع السكر التى تكفيه ليزدرد فنجانه ، وقد تمنيت أن يكون منقوع الزرنيخ النقى ، لتخمد أنفاسه . ولم يكن أقل ثباتاً منها فقال : ثلاث قطع من فضلك . كأنه لم يأكل حلواً فى طفولته فهو يعوض على مائدتنا ما فقده فى صباه ...

وفى خلال تلك اللحظات لم ينقص أدب السيدة ذرة ولم تقل محاسنها فى عينى، فكان وجهها لا يزال يحمل لى ألطف الابتسامات وأرق النظرات ، وإن لم تكن تلك الابتسامات من الفرح والسذاجة على مثل ما كانت عليه إذ هى تلاعب طفلها وتداعبنى . وشيئاً واحداً لحظته يدل على ماطرأ من التغيير، لقد كان صوتها عميقاً كأنه خارج من قاع بئر . ولو كان للأصوات ألوان إذاً لكان صوتها أبيض مشرباً بزرقة الفجر ، وقد دهشت حقاً من جرأة إيليا إيليانوفتش الذى عهدته وديعاً . لقد كان موقفاً حرجاً حقاً بينى وبينهما ولم ينقذه إلا وصول أمها فى هذه اللحظة فيدورا كيليا نوفنا ، فقد كانت فى سياحة قصيرة فى نيون ، فلما وقع بصرها على إيليا إيليا نوفاش قالت له :

— ها أنت ذا أيها الشيطان الأزرق ، لا تزال على قيد الحياة ، وقد احترفت مضايقتنا فى كل مكان ، أمالك عنا منصرف ؟ فاحتقن وجه الرجل وجحظت عيناه ولكنه ضبط نفسه وقال :

— أهذه هى التحية التى تدخرين لى منذ فراقنا فى ايسيا نابوليانا ياأمى العجوز .

فقالت فيدورا كيليا نوفنا : لئن كنت أمك العجوز كما تزعم أيها الشيطان الأزرق إذن لثكلتك بأسرع مما فقدت أم موسى ولدها الوحيد .

فضحكت من سرعة خاطر هذه المرأة التى كنت لا أميل إليها لأنها كانت ذربة اللسان موجعة الهجاء، وإذا كانت قد نازلت فى حومة النضال كل

منافساتها من فاتنات عصرها ، فلا جرم أن تكون قد كابدت من النازعات ما لا يحيط به حصر أو استقصاء .

فقال لها إيليا إيليا نوفتش فى هدوء قاتل :

— لا عليك يا أمنا العجوز ، سواء أثكلتنى أم لم تثكلينى ، ما دام الله قد عتق رقبة زوجك الذى كنت تجودين عليه بالضرب الوجيع لغير ما علة يدريها . وإنى ما أردت إلا إنقاذ هذا الفتى المسكين ساشا (يقصدنى ويدلنى إذ حقيقة اسمى كما لا يخفى عليك الكسندر دريانوف) الذى لا يزال فى صحوة شبابه من الوقوع فى مخالب ابنتك ، لأنها حديثة السن مليحة التقاطيع فلا يخدعنه حسنها وشبابها؛ فغير عجيب أن تنمو الأشجار الكبار فى اتجاه معاطف الأعواد الرطاب — ألم يمت والدها مسموما بيد مجهولة ؟ قيل إنها يد أقرب الناس إليه ؟

فتقدمت العجوز نحو ذى البشنون وقالت له : كذاب أشر، وغام أثيم، أتجرؤ أيها النادر الفاسق أن تنال منى ومن ابنتى ، وقد أويناك وغذيناك ونجيناك من مخاطر لا عدد لها ؟ بعد أن التقطناك من حمأة الخمر وما إليها من الشرور والمفاسد

فابتسم إيليا إيليا نوفتش ابتسامة عريضة صفراء حتى بانت نواجذه وبدا وجهه كالذئب الذى يتحفز لالتهام فريسة لينة وهو آمن وقال :

دعى عنك يا أمى العجوز تلك السخافات وتنكبى بالله مواضع العبث والسخرية فى الحديث ، فقد انقضت دولتك وولى معها الزمن الذى كان يحيطك فيه أهل الدعابة والمزاح ، ولا تحقدى على وأنا ناصح لأنك تريدين أن تلبثى إلى آخر دقيقة من عمرك وأنت تمنين النفس بأنك فاتنة الحسن خلابة الجمال مصرة على التحلى بزهرة الربيع وبهائه، وقد أفضى بك العمر والناصرات إلى قلب شتائه ، ومتبرجة فى حلة الشباب القشيب بعد أن جلل رأسك ثلج المشيب ، دعى عنك اليد المرتجفة الملطخة بالدماء

وفى الحق كان وجه العجوز مدهونا بالابيض والأحمر إلى حافات أجفانها ، فكان هذا الدهان يعير عينيها بريقا وحشيا ، غريباً ، وكان على رأسها برج من المخرمات[1] وتحت هذا البرج خميلة من الغدائر السوداء المستعارة فلا بدع أن يكون هذا الوخز الأليم قد غاظها فتهرأت أحشاؤها من الحقد. لم أكن فى حياتى شهدت مثل هذا المنظر ، إذن هذه هى درامة الحياة بعينها . ولا يشهد أمثالى نوعاً منها إلا على خشبة المسرح ، فلا عجب إذا بهتُ وذعرتُ وأنا أرى وأسمع هذا النضال النادر ، فأخذت أحدق فى العجوز من فرط الدهش بعينين تقاربان فى السعة عينيها ، كما كنت أحدق فى الممثلة التى كانت تمثل فى المآسى دور الملكة الشريرة .

ثم نظرت إلى وجه أوجستا حبيبتى وكريمة تلك المرأة المخيفة ، فاذا هو ممتقع بلون الكركم الصينى وهى ترتجف من قمة رأسها إلى إخمص قدمها ، كغصن رطيب فى وسط عاصفة هوجاء .

وقد نظرت إلىّ نظرة بالغة الحزن والعتاب ، كأنها تنتظر منى أن أبطش بخصمها اللدود ، الذى

(١) نوع من الحرير المصنوع على هيأة « الدانتله » وقد بطلت هذه (المودة)

كشفت عنه المصادفة ، ولم أكن أنا التي جلبته إلى الدار ، بل هي التي لقيته في شارع كاردج مأوى المطاردين والمنفيين المتآمرين من الثائرين ، ودعته حنانا ولطفاً ليشرب الشاي على مائدتها .

فدنوت من أوجستا وهمست في أذنها أسألها ما ترى واجباً على في هذه اللحظة العصيبة . ولبث ايليا نوفتش الوتور يرنو إلى ذلك المنظر العجيب بالحاظ ماكرة رزينة . أما العجوز فقد أخذت ترفع عن رأسها تلك القبعة الضخمة التي شبهها خصمها بالبرج ، بيد مهزولة هرمة ، وكانت رواجبها المعقدة المتشنجة تأتلق بما لا يحصى من الخواتم . فانتهزت هذه الفرصة ودنوت منها وأخذت أقبل يدها بخشوع وخضوع قائلا :

— أرجو المغفرة، فالذنب ذنبي والخطيئة خطيئتي ياسيدتي ...

فأجهشت المرأة بالبكاء كالطفل ، فسارعت اليها ابنتها وعلتها إلى الباب تريد بها الخروج. ودنوت من ايليا ايليا نوفتش فبادرني بقوله :

— أراك يا بني مولعاً بتقبيل أيدي العجائز وإنه لأمر غير مستحسن .

فقلت له : يا سيدي . . . إنني حديث العهد بمعرفتك . ولم أكن أظن أنك تقسو على امرأة ضعيفة بهذا القدر.

فقال : لم يؤن الأوان لأطلعك على حقيقة هذه المرأة بعد أن رأيت للابنة فيك هوى وأنت أصغر منها بسنين عدة ، وكنت أراها في موضع مقتك وكاد نجاحهما في الاستيلاء عليك يتحقق .

فأوشكت وأنا أحرق الأرم حنقاً أن أقول له : وماذا ينفعك أو يضرك أيها الفضولي الدخيل أن تنقذني أو تتركني أغرق ما دمت لم أستنجدك ؟ ومتى كان لمثلك أن يحشر نفسه فيما لا يعنيه من شؤون رجل رشيد ؟ ولكنني بعد أن عرفت شراسة طبعه أحببت أن أخدعه حتى أخلص من شره فقلت له :

ولمَ ياسيدي تسلك في ذلك سبيل القسر والاكراه ، وكان في مقدورك أن تعالج الأمر برفق ولين ورقة، فكنت بذلك تجتذب ميلي وحبي، لأنني أسهل انقياداً وأطوع انسياقاً بهذه الأساليب مني بذرائع العنف والقسوة

ولم تكد كلماتي تصل إلى سمعه حتى انبسط جبينه وهدأت ثائرته وابتسم في وجهي بنظرة ملغزة عميقة وقال لي : الحق بيدك يا الكسندر دريانوف ما دمت قد أدركت حقيقة مقاصدي الخيرة ، فلك عليَّ أن أطيع ما تأمرني به . فقد توصلت بقلبك الفياض بالمحبة والعطف وبفضل ما أوتيت من بشاشة وظرف إلى اكتساب ولائي وطاعتي

فدهشت من مسلك الرجل ، وخيل إليَّ لحظة قصيرة أنه قد يكون مجنوناً ، فما الذي دعا إلى سورة غضبه الفاجئة ثم انقلابه حملا وديعاً . أو قد يكون بلغ من الدهاء غايته ومنتهاه فهو يخدعني ليستل الغضب والغيظ من نفسي كما يستل السهم من العضو الكليم.وكأنه لحظ ترددي ودهشتي فقال لي: سأفضي إليك بكل شيء بعد أن نصفي موقفنا ونمحو أثر ما رأيت وسمعت . فقلت: هل ترى أن تعتذر إلى هاتين

السيدتين كما يفعل النبلاء من الرجال . وإن كان فى الأمر ما يوجعك أو يشعرك بالهوان بعد موقف الجفاء والعنف الذي وقفته فافعله لأجلى وتحمل فى سبيل مودتى بعض الأذى الذى تحملته وأنا أشهد منظر التخاصم والتقاذف بالشتائم والسباب

فقال : لك علىّ ذلك ، فان كانت هـذه المرأة الجحمرش الدردبيس قد أسـدت إلىّ من الخير وصنعت معى من الاحسان ، فانما هو شرف تمرق إليك فانك ممن يأسف المرء على ما مضى من عمره بدون صداقتك

فكبر الرجل فى عينى ونفيت فكرة جنونه نفياً باتاً . وصافحته ، فقال لى :

إن الحوادث التى ألمت إليها فى خصومتى مع تلك الكاهنة الشوهاء وقعت فى وقت كان القوم فيه فى موسكو وبطرسبرج قلبلى الغيرة على أعراضهم حتى لقـد كان أهل الشرف منهم والحسب يعدون تلوث أعراضهم بوصمة قيصرية حلية من حلى المجد والفخار . وإن هذه المرأة هى التى سودت صبى بنتها وألبست عهد طفولتها وشبابها ثوب التعاسة والشقاء . وكان زوجها لا يخرج عن كونه صفراً فى البيت لا كلمة له ولا نفوذ بل خاضعاً كل الخضوع لسلطان قرينته الطاغية ، وكان حسبه أن يزجى أيامه بين قليل من الصيد فى الحراج وقليل من الطرد وكثير من النوم وكثير من شراب الفودكا على مائدة القمار . وأخيراً زفت ابنتها تلك التى ترى إلى شيخ قد بلغ من العمر أرذله ، وكاد ينقلب إلى الطفولة مرة أخرى ، وكان ساكن الريح فاتر الحركة عليه جلباب موشى بالأزهار وفوق رأسه قبعة كبيرة وهو مشتغل بعص البرتقال ، وكانت زوجته أوجستا هذه التى تبادله الحب لا تزال تمسح له أنفه كما كانت تفعل مع طفلها ؛ أما أيام الأحد فلا يزال يرتل الأدعية والصلوات من خيشومه الكبير المرم . وقد مات الرجل بجريمة غامضة فعاد الغموض إلى نفسى من هذا الوصف الدقيق الذى دلنى على أن إيليا إيليا نوفتش جد خبير بتاريخ الأسرة من قديم . فلزمت جانب الصمت وقدته إلى حيث كانت المرأتان تجلسان وعليهما مظاهر الكآبة والألم . فلما رأتانا جفلت الصغرى وتشبثت الأم العجوز بمسندى مقعدها كأنها تكاد تنور بها الأرض وتبتلعها ، فقلت : لاهليكا ياسيدتى فقد جئنا لنعتذر إليكما . وقد آلينا على نفسينا لا يغادر إيليا إيليا نوفتش هذه الدار الكريمة إلا بعد أن يصلح ما أفسد بتهوره وطيشه

فقال إيليا إيليا نوفتش :

— أى نعم ! إن العفو من شيم الكرام ، والحق ما قال ساشا الذى أتقـدم به إليكما شفيعاً وكفيلا . وهأنذا ألثم يديكما وأستميحكما عذراً عما فرط منى فى حقكما . وأنت ياسيدتى الكريمة (متجها إلى تلك التى دعاها جحمرش ودردبيس منذ لحظة) أحق الناس بالمغفرة لى . وإن قصرت فى خشوعى وخضوعى بين يديك ، فلأن البطل لا يكون أبداً بطلاً فى عين سيده . وعندما نطق بهذه الكلمات التى لا أدرى كيف نغمها ومتى نسقها وفى أى قالب من قوالب الاخلاص أو النفاق أفرغها ، بدت فى عين الأم نظرة خبيثة كأنها تتفرج على مشهد من

مشاهد الألباب . وكانت المرأة جريئة كاللبؤة المصور ، كأني بها لا توجس خيفة من أحد . أما أوجستا السكينة فقد غاصت في مقعدها والفزع منتشر على محياها . وكانت من قبل ممتقعة اللون هادئة الصفحة . ثم إن المرأة العجوز همت بالقيام وتوهجت ديباجتها وبرقت أساريرها .

فقالت لها ابنتها :

ناشدتك الله ياوالدتي أن تتقبلي اعتذاره وأن تلتزمي الصمت والسكينة وألا تعرضي نفسك لخاطر الموت بالسكتة القلبية . فابتسمت المرأة وقالت :

— نعم نعم ، كيف لا أقبل عذره وهو ربيب داري ، وأنيس وحشتي في شبابي وقد كابد من الشقاء في حياة المرحوم والدك ما كابدنا .

فجلسنا وتبادلنا الحديث والفكاهة ، نصطنع السرور ونفتعل الضحك ، ونقوم بأدوار تمثيلية ماجنة بعد الفاجعة التي مرت بنا عاصفتها .

وكان الليل قد أرخى سدوله . فقالت العجوز : تتعشى معنا ياإيليا إيليا نوفتش. فقال: كان بودي أن أجيب دعوتك ، فتبعث الماضي الجميل من مرقده ولكن موعداً سابق التحديد يستحثني إلى موافاة الرفاق في « كاروج »

فقالت له : إذن تشاركنا الشاي والفطير عصر الأحد . سأصنع لك الكعك بيدي . وأعد لك صحناً من مربى البرتقال التي كنت به جد شغوف . أليس كذلك ؟ ولك أن تدعو من تشاء من أحبابك

فقال : طبعاً يكون ساشا حاضراً .

فقالت : هذا مالا شك فيه فانه يعيش معنا تحت سقف واحد .

قلت : يكفيني أنسكما وصحبته

ثم نهض وانحنى وقبل أيديهما وصافحني وحاول مداعبة الطفل فنفر منه نفوراً شديداً فضحك الرجل مدارياً خجله واستخذاءه وعجل بالانصراف .

فلما عدت وجدت الغلام (وكان اسمه بوريا دليلا من اسمه الحقيق بوريس) فقد عثرت عليه وحيداً كئيباً منطوياً على نفسه كأنه سلحفاة أدخلت رأسها وعنقها تحت درعها الصخرى ، فلما دنوت منه نظر إلىّ نظرة تنم عن الابتهاج والدهش بعد النجاة من الغول الذى عكر صفاءنا ، وكان شعره الذهبي يلمع في ضوء المصباح ، وعاد محياه يتلألأ وضاءة ونضارة ، وثغره يتألق بنور الابتسام ، وعيناه تشرقان بنوع من الحنان جعل قلبي يخفق دهشاً واضطراباً .

وفي تلك اللحظة حضرت مدام بوبيه وهي خادم عجوز تؤجر بالساعة لتطهى الطعام وتمد المائدة ، دون أن تذوق من الألوان التي تتقن طبخها لقمة واحدة ، لشدة محاسبة العجوز في كل صغيرة وكبيرة؛ فكنت أعتذر عن العشاء أو الغداء أحياناً لأمكن الخادم العجوز (وهي فرنسية الأصل تقيم في جنيف) من أكل الوجبة التي أتخلى عنها شفقة عليها . فاذا تحركت شفقتي وشهيتي في وقت واحد نفحتها فرنكا تمد به طعاماً لنفسها في غرفتها المظلمة في حي « فوبور » فلما تركته لحظة لأبدل ثيابي استعداداً للعشاء عاد إلى صمته وحزنه وكآبته . فلما رأته أمه على تلك الحال ذاب قلبها رحمة وشفقة فأخذت بيده ووضعت يدها الجميلة الثانية على رأسه وجعلت ترنو اليه بألحاظ كلها رأفة وحنان وتخاطبه بألفاظ كلها حلاوة ورقة وعذوبة .

فلما عدت من مخدعى أخذت بيد الطفل فانصرفت الأم لتمد أزهار المائدة ، وكانت تعلم حبى الشديد الخزامى ولكنها وضعت مكانها زهر البنفسج .

وأخذت أتحدث إلى الغلام وهو يسألنى وأجيب وأستدرجه فى لين ولطف ، لأمحو من ذهنه أثر المشادة الأليمة التى شهد بعض أدوارها فكانت تحوم فى ذاكرة الغلام عهود غامضة وذكريات مبهمة ترجع إلى زمن أقدم من ذلك العهد ، فقد كان يتذكر أنه أقام فى قطر آخر وأنه رأى مدينة ذات منازل شاهقة بيضاء وأنه ركب فى سفينة ، غير أن هذه الأمور كانت كالخطوط الدارسة فى صحيفة ذهنه . والواقع أنه لم يلبث إلا قليلا حتى لحقت بهذه المعاهد الغامضة ذكرى مدينة « كييف » أو على الأقل ذكرى كثير مما قاساه وكابده هنالك .

فلما انقضت وجبة العشاء وراحت الخادم العجوز تتعثر فى أذيال شيخوختها وفقرها وضعفها وآوت الأم إلى غرفتها وهى تجتر الشر وتضرب أخماساً لأسداس ، أقبلت علىّ أوجستا فى ثوب أسود وقد رسمت تحت أجفانها حلقات زرقاء فكسر منظرها من حدة غضبى وألانتنى بوادر الحزن التى ظهرت على وجهها وهى تقول :

— لك أن تفعل ما تشاء إلى أن تقضىَ علىّ . إن حظى من الحياة بين يديك وأنت سيد هـذه الحياة منذ عرفتك، وبوسعك أن تعد مايحلو لك من انتقام تجاه هـذه الجهود التى يبذلها الدهر المائد وأمثال هذا الوغد المخبول الذى جنى على سعادتنا . فما حيلتى فى هذا الحائل الذى انتصب فجأة على سبيل آمالنا فتعثرت به حتى توشك أن تتبدد وأنت تعلم أننى لم أدخر وسعاً لتحقيق أمانينا

فقلت لها : أصحيح ما قاله ذلك الرجل وإن كان صحيحاً كله أو بعضه فلِمَ أوصدت سريرتك دونى ؟ وما الذى دعاك إلى كتمان أمرك ؟

فقالت : هل تشك فى إخلاصى ؟

قلت : ولكن الماضى الذى لمح إليه إيليا إيليا نوفتش . فما عتم حتى ظهرت على أوجستا دلائل الشحوب فأمست صامتة تحنى دائماً رأسها . فأردت أن أشدد عزمها بتأكيدى لها أنها ستلاقى السعادة وأنى سأقف حياتى على هنائها ، فلجأت إلى ذرف الدموع

وما كان قلبي وهو السادر فى هواه ليخامره ريب فى إخلاص أوجستا فاذا لاحت لى فكرة تستدعى لومها ردها هذا القلب متمرداً بعد أن رأى من ثباتها وولائها ما رأى . وهكذا أوجدتنى تائهاً فى وهاد أظلمت آفاقها وخفيت عنى مخارجها

وما كانت هذه المرة الأولى التى حاول بها الناس بمثل هذه المكايد أن يفرقوا بيننا ... فجذبتها إلىّ وقبلتها، فملأ وجهها الشحوب وأعرضت بعينيها عنى تاركة شفتيها لشفتى ، ولم أشأ أن أسير فى طريق الحب إلى أبعد من تلك القبلة، ولم يجد النوم إلى عينى سبيلاً فى تلك الليلة ...

فتحرك كوتشامسكى الذى كنت أقص عليه هذه القصة وقال :

ألم تكن تعرف هذا الرجل الذى عذبك وعذب المرأتين ؟

قلت : قلت تقصد إلى إوليا إيليا نوقتش ؟

قال : طبعاً أقصد إلى هذا الشيطان

قلت : كلا

فقال كوتشامسكي : أما أنا فأعرفه فذاً من أفذاذ الخلق الناشز والطبع الغريب فاسمه ملء الأسماع، وشهرته هذه لم تكن لعلو كعبه في السياسة أو الثورة والأدب ، بل لغرابة أطواره وشذوذ عاداته فقد كان في أول أمره يتجنب الناس ما أمكنه الأمر، وينأى عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكانت رغبته في الانزواء ملحة قاهرة، وهو منذ وضع قدمه في جنيف يأبى إلا أن يزورنا في منازلنا ، ويأبى إلا أن يفدحنا بطلعته المشؤومة في غرفنا كأنما لم يكن يكفيه طول ما يتكبنا بها أثناء اجتماعنا في المطاعم والمقاهي لأنه كان يعتقد أن زيارة الزملاء وأبناء الوطن في الغربة فرض لا مناص له من أدائه وواجب لا بد من القيام به

— نعم نعم لقد عرفت بعض ذلك من السيدتين قبل حدوث الفاجعة ولكن كانت الفرصة قد فرت

— الفاجعة ... أية فاجعة ؟

— الأفضل أن أتم حديثي . فقد كان بيننا وبين يوم الأحد الذي عينته الأم العجوز لدعوة الشاي ثلاثة أو أربعة أيام في غداة الشاذة والاعتذار تيقظت العجوز فيدور اكيليانوفنا ممتعضة ، ممتقعة اللون متجهمة الأسارير . وعند ماوقع بصرها على أوجستا قالت لها كأن المسكينة كانت مسؤولة عن زيارته المشؤومة :

— ما له عندي حتى يأتي إلى منزلي ؟ قولي له بالله عليك إنني أكرهه ولا أريد أن أرى له في بيتي وجهاً بعد اليوم

فقالت أوجستا : ولكنك دعوته إلى الشاي يوم الأحد هو ومن يحب

— من يحب ؟ آه من يحب هذا الكائن المشؤوم ؟ حسن ... بعد هذه المرة . لعلها تكون الأولى والأخيرة

أما أوجستا فلم تنم هي الأخرى . وكانت أمائر الاعياء والقلق بادية على محياها الشاحب بأجلى مظاهرها فقلت في نفسي :

أيسعني أن أتخلى عن أوجستا هذه الأفروديت الساحرة التي ملأت حياتي ولولاها لبقيت أيام شبابي فارغة ، لأن مأفوناً واشياً غاشماً اعتدى على كرامة سيدتين لا حول لها ولا طول ؟ وكان يجب على أن أخنقه أو أركله بقدمي وأقذف به خارج الدار

وفي اليوم الثاني كانت العجوز على أسوأ ما تكون خلقاً ومزاجاً فقالت عند ما رأتني :

— ألا ما أردأ الناس وأخبثهم !

وراحت تحدثني بدل وتفرعما تملكه في مقاطعة بادولي (عاصمتها كييف) من مال منقول وعقار ، وعما تنتجه المزرعة في (جريانيش) من خضار وبقول وحبوب وفاكهة ، وعما يحفل به بستانها الثري من أشجار مثمرة وجني شهي . وكل الذي حدث أن هذا القزم المفتون الذي كان وجهه الصغير الشاحب شؤماً على رائيه أراد أن يتزوج من أوجستا . أتتصور ذلك ؟ أيمكنك أن تتخيله أو يرتسم شبحه في وهمك ؟ وكيف يريد أن نبحث

فى أمر زواجه من ابنتنا وليس فينا جيماً من يعتقد أن هذا القزم الجبان أهل للزواج ؟ وقد خيل إلينا للوهلة الأولى أن هذا المفتون هازل فيما يقول ، فاذا بنا نراه جاداً كل الجد . على أن هذا لم يحل قط دون اعتبارنا كل قول فى هذا الصدد هراء فى هراء وكل بحث فيه من باب التندر كأكثر الأحاديث التى تتداولها الألسن

ويجب ألا أنسى أن أقول لك يا ولدى ساشاً إن أوجستا استسمجت إيليا إيليانوفتش ، وكرهته للوهلة الأولى التى وقعت فيها عليه عينها ، وكانت تأنف حتى من ذكر اسمه ، أو الجلوس معه على السفرة، وكثيراً ما كانت تقول لنا عندما كان يذكر اسمه فى أحاديثنا عرضاً : « أنا لا أفهم كيف تستطيعون أن تحتملوا هذا المأفون الواشى فيما بينكم باسم الصدقة أو الصداقة » وكان هذا السخيف لا يفتأ يقول : « لن أبقى معكم إلا ردحاً من الزمن يسيراً وأعتزل بعده الحياة وأعيش حراً طليقاً بعيداً عن المداجاة والرياء والتزلف » . فكنا نقابل هذا الوعيد السعيد بعاصفة من الضحك لأنه على الرغم من أن نقض العهود والنكث بالوعود والمخالفات على شتى أنواعها ، كانت تبليه باضطراب الخاطر وانحلال القوى ، فانه لم يف قط بوعد فراقنا والتحول عن دارنا

فقلت لها : وكيف صنعتم بمشروع الزواج ؟

قالت العجوز : أى زواج ؟ آه . تذكرت . دعوناه يوما إلى حضرة والدها فقال له :

— نحن نعلم ياإيليا إيليا نوفتش أن كل شخص سيتزوج يوما ما . ولكن أمر الزواج خطير بل أشد خطورة مما تظن، وعلينا أن نفكر فى الواجبات المقبلة وفى التبعة التى ستلقى على عاتقنا كى لا نقع فيما نحاذره ونخشاه .

وبعد بضعة أيام وفى إيليا بوعده وغادر منزلنا غير مأسوف عليه .

* * *

فى يوم الأحد الموعود تزينت العجوز وتبرجت فوق عادتها . وتبدت أوجستا فى ثوبها الزاهر الأنيق ووجها الطافح بشراً وإيناسا فاتنة أخاذة . فلم أفهم لهذا التبدل سراً .

وجاء إيليا إيليا نوفتش وأخذ ينتف عثنونه بعد أن قبل يدى السيدتين وصافحنى وداعب الطفل بوريا الذى نفر منه النفور كله وكاد يفر من وجهه لولا توددى إليه وتلطف والدته .

وإن أنس لا أنس تلك الساعة الرهيبة ، فان أوجستا التى كنت أعلم أنها تبغض الرجل وتنفر منه وتتمنى هلاكه أقبلت على إيليا إيليا نوفتش تتحدث إليه وتزين عروة ثوبه البالى بزهرة يانعة ، وكانت تارة تضحك ويداها على خاصرتها ضحكات ساحرة فاتنة وطوراً تغنى بصوت رقيق عذب ، أغانى عاطفية جميلة مسكرة — وفى تلك اللحظة أخرجت العجوز من ثنايا صدرها ورقة صغيرة وأفرغت ما فيها من مسحوق أبيض فى فنجان إيليا بسرعة البرق وتناولت قطعة من السكر وأخذت تقلب بملعقة صغيرة، ثم مدت يدها المرتجفة إلى الرجل بفنجان الشاى، فأخذ يحتسيه ويلتهم الكعك والفطير والمربى

بنهمة المفجوع بنقمة الجوع والحرمان. فعجبت للسانه كيف لزم غمده فلم يفه بعبارة سوى امتداح الماضى وإطرائه بعد أن كان يحمل عليه بالأمس حملة نكراء. وبعد ساعة شعر إيليا إيليا نوفتش بدوار وإعياء فاعتذر عن البقاء ورجانى أن أصحبه إلى غرفته.

فبادرت العجوز قائلة :

— لا عليك يا ولدى . إذا كنت تشعر بدوار فهلم إلى غرفتى فترقد حتى تستريح فان فراشى كما لا يخفى عليك من أنظف الفرش . فنهض الرجل متهالكا وقد استند إلى ذراع أوجستا التى تطوعت بمونتــه فتبعتهما وأنا موزع بين الذعر والغيرة فسمعت إيليا يدمدم :

— لقــد اسودت الدنيا فى عينى واحلولكت مرائيها، ولم أعد أسمع ولم أعد أرى، وما بلغ الغرفة المغمورة بآراد القمر وأضوائه حتى خلع ثيابه وهرع إلى السرير ورقد فيه محرور الجسم منهوك القوى.. ولم يقم منه بعد ذاك

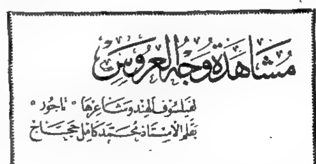
وفى الصباح استشرت العجوز فى استقدام الطبيب فألحت علىّ فى الاسراع بإسعافه . فدعوت طبيباً روسياً مسنا كان يقطن على مقربة من البيت فلما عدناه وجدناه نائماً وراء كلته ، مغطى بلحاف العجوز حتى الرأس وطرح عليــه الطبيب بعض الأسئلة فلم يكن ليرد إلا بلا أو بنعم، وكانت العجوز تروح وتجئ حيال السرير مكتئبة النفس محزونة الفؤاد . فقال الطبيب : حمى وافدة ، داء الموسم . لا خوف عليه ! ووصف له جرعة وبرشاماً ونهاه عن الطعام

وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وقلما اغتمضت عيناه فى لياليه السود لطوارق أوهامه وصرعات أحلامه ، وبعد أسبوع ذاق خلاله هذا البائس المحزون من صنوف الألم وضروب العذاب ما صهر جسده الواهى وأذاب جسمه المنهوك، وقع المقدر ونفذ المحذور وأسلم صاحبنا الروح . ومن العجب العاجب أنه لم يسأل عنه أثناء مرضه أحد .

وسرنا جميعاً وراء نعشه فى موكب مهيب . وإنى فى غنى عن إخبارك بأن أوجستا كانت الوحيدة التى مشت فى جنازته خاشعة مطرقة بكل ما فى الخشوع والاطراق من معنى، وأنها ذرفت عندما واروا جثمانه الثرى بضع قطرات من دمعها السخين .

أما العجوز فقد عادت من دفنه وعلى وجهها أمائر الحزن ، لا أسى عليه ، بل لأنها كانت تأبى أن تظهر على وجهها دلائل السرور . وقد سمعتها تهمس كمن يحدث نفسه : إن موت رجل مثل ايليا ايليا نوفتش مسرة لقلوب من نكبوا بطلعته المشئومة إبان حياته ...

محمد لطفى جمعة



كان كنتشندرا لا يزال في عنفوان شبابه حينما فقد زوجه، ولم تحدثه نفسه بالبحث عن عقيلة جديدة، وانقطع لقنص الوحوش وصيد الطيور، وكان عظيم القامة ممشوقها، نشطاً خفيف الحركة حاد البصر ماهراً في الرماية

ارتدى يوماً ثياب الريف واصطحب هيراسنغ المصارع وشكتلال وخان صاحب الموسيقى وميان صاحب وكثيراً غيرهم

وفي شهر أجراهايانا ذهب كنتي إلى الصيد في مستنقعات تيديجي بصحبة نفر ممن يحسنون الرماية . ركب الصائدون وحاشيتهم وخدمهم الكثيرون المكافئون على أحواض الاستحمام سلسلة طويلة من القوارب . وقد قالت نساء القرية إنه لم تتمكن واحدة منهن من الاستحمام أو حمل الماء إلى دورهن طوال النهار لأن فرقعة البنادق عكرت صفو الأرض والأمواج ، كما أن الموسيقيين لم يستطيعوا النوم ليلة واحدة

وفي ذات صباح كان كنتي جالساً في مركبه ينظف بندقيته المفضلة ، وعلى حين غفلة أصابته رعدة عند سماع صوت البط البري الذي لم يسمعه قط ، فرفع عينيه ولمح فتاة قروية تقترب من الشاطئ ، وقد ضمت إلى صدرها بطتين صغيرتين ، وكان الغدير في هذا الوقت جافاً تقريباً لأن الحشائش سدت مجراه ، ووضعت الفتاة بطتيها في الماء وطفقت تنظر إليهما بنظر حائر ، ولم يكن اهتمامها بالصائدين أقل من اهتمامها ببطتيها وخوفها من أن تطيرا . كان لجمال هذه الفتاة القروية روعة غريبة كأنها نحتت في معمل ويشفاكرما (وهو المثال الرباني في الميثولوجيا الهندية) وكان الانسان لا يستطيع أن يقدر مقدار عمرها لأنها جمعت بين جسم المرأة ووجه الأطفال بشكل لم ير في غيرها ، ويظهر أنها كانت تجهل أنها على عتبة الشباب

لبث كنتي لحظة دون حراك كالمسحور ، وما كان يتصور أن يجد مثل هذا الوجه في مكان مثل هذا وقد زادها المنظر الطبيعي جمالا لن تبلغه في القصور لأن الزهرة البديعة تفتننا وهي على شجيرتها أكثر مما لو كانت في إناء من ذهب . وفي ذاك اليوم كان القصب مزهراً غضل السنابل من ندى الخريف ، وكانت السنابل تتلألأ وهي مخضلة من قطر الندى تحت أشعة شمس الصباح وقد حف هذا المنظر وجه فتاتنا النضر الفتان حتى ظهر ساحراً لكنتي كأنه صورة أخاذة

وقد قات كاليدوس أن يبني ملكة جبال سيفا هابطة في بعض الأحيان الجنج الشاب حاملة فوق صدرها بطتين صغيرتين

وحينما لمحت الفتاة كنتي ارتعدت رعبا وانقضت على بطتيها متنهدة وغادرت الشاطئ ثم اختفت في خميلة قصب هندي (بمبو)

وقد شاهد كنتي أحد رجاله يصوب بندقيته إلى البطتين فانقض عليه ونزع سلاحه ولطمه لطمة قوية . وقد انتهى المزاح على الشاطئ وعاد كنتي لينظف بندقيته

ولقد جره حب التطلع إلى خميلة القصب الهندى التى اختفت فيها الفتاة فر عليها وتمداها إلى أن قادته قدماه إلى فناء بيت ميسور الحال، ترى فى الميمنة مخازن الغلال وفى الميسرة حظيرة نظيفة للبقر وفى طرفها خميلة من النبق . وكانت الفتاة التى يبحث عنها جالسة وسط هذه الخميلة والدمع ينحدر من مآقيها، وكانت تحاول أن تمتصر من طرف ثوبها البلل بعض قطرات فى منقار بطة جريحة . وكان بجانبها سنور رمادى اللون متكىء برجليه الأماميتين على ركبتيها ، وكان ينظر بنهم إلى الطير من وقت لآخر حينما يقترب القط منه فدفعه بلطمة على مخطمه كانذار منها .

وهـذه الصورة الفتانة التى تظهر وسط النهار فى جو هادىء من فناء مزرعة قد انطبعت فى قلب كنتى . وكان اللعب المتبادل بين الضوء والظل يعكس صورا مرتعشة فوق ثوب الفتاة ، وعلى كثب بقرة تجتر وتذود عنها الذباب بحركة بطيئة من رأسها أو من ذنبها بينا تهب ريح الشمال وتخلط صوتها الذى يشبه خرير الماء بحفيف أوراق القصب الهندى .

وكأن الفتاة التى حضرت فى الفجر إلى شاطىء النهر ملكة الغابة وقد أظهرت الاهتمام بملكة البيت ، وقد أحس كنتى بأنه أشبه بلص فوجىء ويداه مخضبتان بالدماء. وعلى حين غفلة سمع من البيت صوتا ينادى : صدحى (معناها بالعربية الرحيق الموجود فى بعض الأزهار) فهبت الفتاة فجأة وأمسكت ببطتها ودخلت مهرولة . فأعجب كنتى بهذا الاسم الظريف

رجع كنتى إلى السفينة وأعطى بندقيته إلى رجاله ثم ذهب إلى باب الدار الأصلى فوجد برهميا فى منتصف العمر بوجه وديع وذقن محلوقة جالسا فوق مقعد داخـل البيت وهو يقرأ فى كتاب صلوات . وقد لاحظ كنتى فى ملامحه المحبوبة الفكرة الطيبة والعطف المشرقين على وجه الفتاة القروية . ثم حياه كنتى وقال له : « أيسمح لى سيدى بقليل من الماء فانى شديد العطش؟» فقابله الرجل بكل لطف وترحاب وأجلسه على المقعد ثم عرج على المنزل وخرج وبيده صينية من النحاس وبها أصناف من الكعك وقدح كبير من البرنز وبه ماء .

وحينما أكل وشرب رجا منه البرهمى أن يعرفه بنفسه فعرفه باسمه واسم أبيه وعنوانه ، ثم قال عنـد انصرافه : « إنى أكون مسرورا جدا إذا استطعت أن أؤدى خدمة لسيدى » .

— إننى لا أسألك أية خدمة . أجاب نابان بارجى . « ولـكن ما يشغلنى الآن » .

— وما هو ؟

إن الأمر يتعلق بابنتى التى شبت (فتبسم كنتى حينما فكر فى الوجه الصبيانى الذى شاهده) ولم أجد لها إلى الآن بعلا كفوا؛ وإن حصلت على هذه الأمنية أكون قد أديت دينى أجمع العـالم . إننى لا أعرف فى هذه البلاد حزبا ملائما ولا أستطيع أن أترك وظيفتى لأذهب للبحث عن زوج مناسب .

— « إنك يا سيدى إن استطعت أن تزورنى فى سفينتى فاننا نستطيع أن نتكلم فى شأن زواج ابنتك » ثم حياه كنتى ثانية وانصرف وقد كلف بعض أتباعه الاستفسار عن هذه الأسرة فلم يجـد إلا ثناء عاماً على جمالها وفضائلها .

وفى الغد حينما حضر البرهمى لرد زيارة كنتى حياه أعظم تحية ثم طلب يد ابنته ، فدهش البرهمى لهذه السعادة التى كان يحلم بها — لأن كنتى فضلاً عن أنه من أسرة برهمية عريقة فى النسب فانه يملك ثروة ضخمة — وظن الرجل أنه فى حلم فأعاد القول كالآلة : « أتريد أن تتزوج ابنتى ؟ »

— إذا تنازلت بالقبول

— أتتكلم عن صدحى؟

— بكل تأكيد

— ألا ترغب قبل كل شيء أن تراها وتحادثها ؟

فتظاهر كنتي أنه لا يعرفها وقال بكل بساطة :

— سننتظر كشف الوجه في حفلة العرس ...

فأجابه الشيخ البرهمي بصوت متهدج من التأثر :

— إن ابنتي صدحى لهي في الحقيقة طيبة عارفة بشئون البيت ، وبما أنك قبلتها بكرم عظيم فهي لا تسبب لك يوماً ما ظل الأسف والتندم ! وهذه أماني أعرضها عليك وأنا أباركك

وقد حدد الزواج في (ماغ) وأظهر كنتي رغبته في عدم تأجيله . وقد استعاروا للحفلة بيت مازومدار المبني بالآجر ، وفي الوقت المناسب حضر الخاطب ممتطياً فيله في موكب عظيم من الموسيقيين والأتباع يحملون في أيديهم المشاعل ثم ابتدأت الحفلة

وحينما نزع العروسان القناع الأحمر القاني لاتمام شعائر كشف الوجه تفرس كنتي في وجه عروسه المستحيي الغاض الطرف ورأسها مكلل بتاج الزفاف وفوقه عجينة الصندل ولم يستطع أن يعرف القروية التي ما فتىء شكلها منطبعاً في ذهنه، فتأثر وظن أن ضباباً كثيفاً حال دون تحقيق منظوره

وبعد انتهاء الحفلة اجتمعت النساء في غرفة العروس . . . ذهبت عجوز منهن قائلة لكنتي هيا اكشف قناع عروسك . ولما نزع قناعها وجدها غير التي كان يعهدها ، فتقهقر بسرعة وكاد يجن من الغضب والغيظ ، وظهر ضوء المصابيح أمام عينيه ضئيلاً وتصور أن الظلمات أغارت بظلها على وجه العروس ...

وثارت نفسه ضد حبه وظن أنه بدل العروس بأختها . ولكنه بعد التأمل والتفكير تذكر أنه لم يره أية واحدة منهما وأن الخطأ واقع عليه نفسه ، وفضل أن يخفي حماقته وأخذ مجلسه متظاهراً بالسكون والدعة . ولو استطاع أن يبلع السم لما تمكن من إبعاد طعمه . لم يتحمل فرح هذه الجموع ولغوهم ، وكان يتمنى أن يتمتع بهذا السرور هو وجميع العالم

لمح على حين غفلة أن زوجه اقشعرت وكظمت صرخة ، ثم شاهد أرنباً هارباً اصطدم برجل عروسه وظهرت وراءه الفتاة التي شاهدها في الشاطئ ، ثم أخذت أرنبها وطفقت تلاطفه بالمسح وهو فوق ذراعها وتتمتم له بتودد وعطف

صاح النساء قائلات : هاهي ذي البريئة . وأشرن إليها بترك الغرفة ، ولكنها لم يظهر عليها شيء وجلست بدون اهتمام أمام العروسين وظلت تطيل فيهما النظر بتطلع صبياني . ثم هبت خادم وأمسكت بذراعها لتبعدها عن هذه الغرفة فاعترض كنتي بشدة وصاح فيها : « دعيها وشأنها »

— « ما اسمك ؟ » فاهتزت الفتاة ذات اليمين وذات اليسار ولم تجب بكلمة . فأغرقت النساء في الضحك

عاد كنتي إلى سؤاله : « هل كبرت بطتاك ؟ » فاستمرت الفتاة في عدم اهتمامها

ولما يئس كنتي من إجابتها سألها بكل لطف وعطف عن أخبار بطتها الجريحة فاشتدت القهقهة من الجميع وعددن ذلك نكتة مسلية

وانتهى الأمر بأن علم كنتي أن تلك الفتاة صماء بكماء ولا أنيس لها غير طيور القرية وحيواناتها . وكان من سبيل الاتفاق أن الفتاة ظهر عليها أن تلبي نداء من كانت تنادي صدحى .

تملك كنتي تأثر جديد وعرف أن الستار الذي أخفى عنه ضوء النهار قد انزاح . فتنفس الصعداء كأنه تخلص من كابوس وفر من مصيبة .

ثم نظر ثانية إلى عروسه فعرف أخيراً حقيقة المشاهدة لوجه العروس ، وتسلطت الأشعة الصادرة من قلبه وأضواء المصابيح على وجه قرينته فتجلى جماله الوضاء وتحقق أن بركة نابان قد أثمرت وأتت بأعظم نتيجة .

محمد كامل حجاج

يوماً واحداً فحسب

مترجمة عن التركية
بقلم الأديب عبد اللطيف أحمد

كان الوفاق التام سائداً بين « سرمد بك » وبين زوجه السيدة « ناهد » ؛ وكانت حياتهما صفواً كلها إذا استثنينا أمراً واحداً كان لا يروق السيد في زوجه العزيزة طالما حدثته نفسه باعتراضها فيه وبحملها على الكف عنه ، ألا وهو الكذب !! إذ أن السيدة ناهد كانت ككثير من بنات جنسها لا ترى بدًّا من تجسيم الحقائق وتوشيتها كما يشاء خيالها، وإذا ما أنصفناها أمكننا القول بأنها لم تكن مغرقة فيه ، بل كانت طبيعتها تجنح بها إلى القليل منه ، ونعني أن كذبها لم يكن منطوياً على مضرة؟ أما زوجها فقد كان على العكس منها لا يرضى في أمر من أموره أن يتخلله نصيب من هذا الخيال . فهو يسره جد السرور أن تسرد الوقائع وتذكر الأشياء كما هي ، ولكن هذا لم يكن ليحمله يوماً على تعنيف زوجه ، بل كان يكتفي — إذا ضاق به صدره — أن يقول لها :

— ناهد ، أرجو ألا تكذبي وأنت عالمة مقدار بغضي لهذه الطريقة الكريهة عندي

فتأخذ ناهد في الدفاع عن نفسها حينئذ في لهجة محتدمة ، غير أن الطبيعة الثلابة تسلك بها سبيل الكذب فتنظم أفانين منه مثبتة أنها ليست بكاذبة ، فيعجب زوجها ويجن جنونه صائحاً :

ها هو ذا !! ما زلت تكذبين . ومن العجب أنك تبرئين نفسك من الكذب باسترسالك فيه

— ماذا مما قلته كذب ؟!

— هل نسيت يا عزيزتي أنك كنت قصصت على حادثة الخاتم الضائع قبل الآن مجردة عن هذا التزويق المسرحي ؟

وهنا تتخاذل ناهد قليلاً وتجاوب زوجها في إخلاص :

— أقسم لك أن الحادثة كما قصصتها عليك ، وإن كنت حين سردتها مرة أخرى قد اختلفت شيئاً يسيراً فذاك مالا أرى منه بداً . وهل يستطاع سرد حادثة دون تحويرها ؟

— نعم يستطاع

— وهل يمكن التحدث بحديث دون أن يتخلله كذب مطلقاً ؟

— نعم يمكن

— لا يمكن

— إنه ممكن من غير شك

وكذلك يتجمع الخلاف بين هذين الزوجين ويدور الجدل حول هذا المحور وحده ، فيتكر كل منهما على صاحبه رأيه كلما بدرت بادرة . وبينما هما في نقاشهما — ذات يوم — اقترحت السيدة ناهد على زوجها المحتدم في إثبات رأيه هذا الاقتراح :

— إني أتعهد لك بأني لن أكذب بعد اليوم ، ولكن وفائي بهذا العهد مرتبط بقبولك لما أشترطه عليك ، وذلك أن تأخذ على نفسك ألا تكذب يوماً واحداً مهما تكن الظروف

— أجل ، لك ما اشترطت

— على ألا تكذب فيه ولو اقتضته منك المجاملة وتطلبه الأدب ، وألحت به عليك الدواعي القاسرة

ترجمت هذه الأقصوصة عن الكاتب التركي ارجند أكرم

— لك ما شئت

— وألا تحاول تحوير الحديث ، ولا الطفرة من موضوع إلى ما لا علاقة له ، وألا تتنصل بالسكوت حين يجب الجواب عما تسأل عنه

— ليكن لك ما أردت

— ولا تكون فى ذلك اليوم صادقاً لى فحسب بل للناس جميعاً ! !

— سأكون كذلك



— حسن جداً ، وإذن سأعرض أنا عن الكذب ؛ وأكبح نفسى عن الأخذ به مهما تكن الحال ، واقتضت الظروف . غير أنى أطلب منك أن تخولنى حق تعيين هذا اليوم وسيكون فى أسبوعنا هذا إن شاء الله !

أدت بسرمد بك عزمته أن يقبل كل اقتراحات زوجته غافلا عن تدبر منبتها وتبين حقيقتها ، وراح يقسم بضميره ويحلف بشرفه أن سيبر بوعده ويوفى بعهده ، غير أنه لم يمض يومان على أثر ذلك حتى نسى الرجل حديثه مع زوجه وفرغت ذا كرته من كل ما دار بينهما

غربت شمس يوم الثلاثاء وأقبل مساء اليوم التالى يحمل لسرمد بك ثمن غفلته ، ولم يكن المسكين يدرى أن اليوم الموعود هو يوم الأربعاء ذو التاريخ القــديم .

فى مساء ذلك اليوم كان « نرى بك » أحد أصدقائه الأقربين قد دعاه إلى طعام العشاء ؛ وكان نرى بك تاجر تبغ قد أحب فتاة تدعى « شكوفة » تشتغل عنده فى محل تجارته على الآلة الكاتبة ، ولم يلبث حتى اتخذ لنفسه منها خليلة ، وما كان إلا أن نما الحب بينهما واشتد حتى أثمر رأياً جديداً فى نفس نرى بك وهو أن يتخذ شكوفة زوجاً له

راقت له هذه الفكرة وأخذ الحب يزداد بين الحبيبين حتى زالت الكلفة وامحت دواعى التكلف وبانت نفس شكوفة وانكشفت عما كانت تنطوى عليه من نقص فى التربية وقلة فى الذوق ، وبدا منها ما يتنافى مع أصول العشرة ، وتضاءل أمامه رأيه فى الزواج بشكوفة ولم يعد فى نفسه شىء من ذلك .

وكان من جراء ما استقر عليه فكره أخيراً أن تجافيا ثم افترقا . انقضت أيام وقد ضرب الهجر بينهما حجابه وأخذ يثقل كاهل الفتاة حتى نأت به وضعفت عن احتماله بما أصابها من الضجر وذاقت من المرارة ، فرجعت إلى خليلها مستسلمة خاضعة غير مشترطة عليه شرطاً ولا متخذة عنده عهداً .

وكانت هذه المصالحة سبباً فى إقامة المأدبة التى دعى اليها سرمد بك إذ كان على علم بتفاصيل روابطها . ولذا كان نرى بك شديد الإلحاح فى دعوته لسرمد إذ قال له :

— أناشدك الله أن تجيء واذكر أن شكوفة تطلب حضورك حتما وقد أخبرتني أنها ربما لاتحضر بمفردها .

— من سيكون هنالك إذاً ؟ ؟

— قد ذكرت أن لها صديقة بهية الطلعة رائعة الجمال ستجيء بها إن هي تمكنت من إقناعها . وكان سرمد بك قد استشعر غمزاً في كلام صاحبه فلم يجد بداً من معارضته بقوله :

— ياعزيزي إنكما ستنحابان وتمرحان في صفو هواكما ولا أحب في وجودي معكما تعكيرا لهذا الصفو . فأجابه نري بك في مزاح يشوبه بعض الجد :

— أرجو ألا تكلف نفسك مشقة المداورة وأن تعفيها من هذه المعالجة فان شكوفة قد حدثتني بكل شيء وأنك — قبل الذي كان بيني وبينها — كنت تغازلها وتطير حولها كالفراش — ومن يدري لعل الهوى قد جمح بك في هذا المضمار أكثر مما علمت .

— لقد أشفقت أن يجمح بي الهوى فجمح بك الظن إلى حد القمة ، وكان الأولى أن تسمو بحديثك وظنك عن الاسفاف يانري .

— إن أقصى ما كان بيني وبينها أنني قبلتها وربت على خدها أوعبثت بشعرها . كان سرمد بك — بدواعي أعماله — يتأخر أحيانا عند العودة مساء إلى بيته ، وكانت زوجه قد ألفت منه هذه الحال منذ سنين فلا تجد نفسها في حاجة إلى سؤاله عن السبب ، ولا يجد هو داعيا لتعليل تأخره ؛ غير أنه كان يكتفي باخبارها قبل هذا لئلا تنتظره في طعام العشاء . وكذلك أخبرها قبل يوم الأربعاء بعزمه على التأخر قليلا في مسائه . وفي صباح هذا اليوم على إثر شربه الشاي نهض ولبس ثيابه ، وما كاد يتناول عصاه وقبعته حتى وقفت له السيدة ناهد بالباب تقول :

— أريد منك اليوم أن تبر بوعدك الذي وعدتني به .

فلم يفهم — لهذه المفاجأة — ماتريد، ولذا سألها :

— وما هو هذا الوعد ؟

— وعدك الذي قطعته على نفسك ألا تكذب قط في يوم قد خولتني حق تعيينه

فأجابها وقد اعتراه شيء من الارتباك :

— أجل ، سأفعل

— ستتأخر الليلة قليلا . أليس كذلك ؟

— بلى

— هل ذلك لأن لك في المكتب من الأعمال ما يشغلك ويحول بينك وبين المبادرة ؟

ابتلع ريقه ثم قال :

— لا ، بل لأن نري دعاني للعشاء

— هل ستتعشيان أنتما الاثنان فحسب ؟

ابتلع ريقه مرة أخرى وكأنه مقبل على مورد الموت الأحمر

— ستكون شكوفة أيضاً معنا

وكانت السيدة ناهد تعرف شيئاً من علاقة شكوفة بنري لأن زوجها كان أنبأها بخبرها ، إلا أنه غير لها الأمر وصور تلك العلاقة في صورة مشروعة وأن نري يرغب في الزواج من شكوفة . ثم لم يلبث أن أخبرها بعدول نري عن الزواج بها بعد أن شاهد فيها من الطيش والنزق ما جعله يزهد فيها ويرغب عنها

— وهل اصطلحا ؟

— نعم

وكان يحدق فى الباب عساه يصادف فيه فرجة يستطيع أن يتسلل منها .

— رويدك لا تستعجل . فان أسئلتى لم تنته هل شكوفة هذه كانت خطيبة اترى ؟

— لا ...

— فاذا كانت له إذن ؟

وهنا ثارت ثائرة سرمد :

— إعلمى أنه ليس لنا أن نسبر أسرار الناس ولا سيا إذا كانت من هذا النوع الذى تتوسعين فيه

— لا تنس أنك وعدتنى وعدّ وفىّ بأنك لا تكذب مهما تكن الظروف أو تقض المجاملة والأدب أو تلح عليك الدواعى ، وأنك إذا ما سئلت عن أمر لا تخفى ماتعلمه عنه ، وأنك لا تحاول تحوير الحديث أو الطفرة فيه أو الانتقال منه أو التنصل بالسكوت حين يجب الجواب عما تسأل عنه . واذكر أنك أقسمت بضميرك وشرفك على الوفاء بكل هذا ، فأنت اليوم رهينة الوعد فلا حول لك ولا قوة .

وهنا شعر سرمد بك بعمق الهوة التى هبط إليها وأسقط فى يده فراعته نكبته ، وباعدت مابينه وبين الطمأنينة محنته .

— هلا قلت ماذا كانت له إذن ؟

— كانت خليلته !

— من ذا الذى أغراها حتى زلت قدمها ؟

— أف ! دعينى أذهب .

— إذا كان يرضيك أن تذهب وأنت مسلوب الضمير موصوم بعدم الشرف فاذهب ...

— حذار ياناهد ...

— ألم تكن لك بهذه البنت علاقة ؟

— كان هناك شىء قليـل فى الأيام الخالية ! وبعد ما أخذ نزعى يتحبب إليها كففت عنها ولم يعد الآن بينى وبينها علاقة ما .

— إلى أى مدى بلغت رابطتكما ؟

— أناشدك الله أن تكتفى لأن ذلك يؤخرنى عن عملى .

— بربك قل الحق . هل أنت ترتبك لأنك قد تتأخر عن عملك ؟

— لا ، بل لأن أسئلتك تضجرنى !

— إذن ، قل لى وحدثنى حتى تنتهى إلى أى مدى بلغت معها ؟

ثنى جيده وقد تعبت نفسه واستولى عليه الملل ولـكنه استمسك وقال :

— كنت أعبث بشعرها وأعانقها وأقبلها ، هذا كل ما هنالك .

وكان حينئذ قد وضع قبعته على رأسه ومد يده إلى مزلاج الباب ولم يكد يجره حتى قبضت زوجه على معصمه ، وراحتاها تلتهبان كالنار وأظافرها المرهفة تكاد تخترق عروقه وهى تقول :

— لى سؤال أيضا . هل تجىء هناك امرأة أخرى عدا شكوفة هذا المساء

— لا أعلم . ولـكن على ما قيل لى ربما تجىء !

— ولمن تجىء هذه ؟

— لا علم لى بهذا . وربمـا كانت من أجلى ولـكن أقسم لك أن ...

— لا أرى ضرورة اليمين إذ قد سبق وأقسمت . على أني مؤمنة بكل ما تقول لعلمي أنك رجل أخو ضمير وذو شرف !



— والآن من يعلم ماذا يساورك من الظنون ؟ إن هـذه الأمور مع كونها عادية قد أحدثت فيك من الانفعال مالا أستطيع تكييفه ...

قاطعته زوجه قائلة :

— حسبك ! .. حسبك ! .. لقد بلغت غاية تستطيع معها أن تذهب !

خرج سرمد بك وكان مثله حينئذ كمثل من نجا من تنكيل محاكم الارهاب فى القرون الوسطى وقد وصل إلى الشارع وهو لا يدرى ماذا كان يريد أن يعمل ، ثم بدا له أن يركب الترام . ولم يكد يقف لانتظاره حتى تأبط ذراعه أحد أصدقائه القدماء يسأله :

— كيف أنت يا عزيزى سرمد ؟

— لست طيباً !!

— لا بأس عليك ؟ ! هل أنت مريض ؟؟

— لا ...

— إذن ، ماذا بك ؟

— تملكتنى الهواجس

— وهل هذا من شئون الأسرة ؟

— نعم ، ولكن أرجوك ألا تسألنى سؤالا آخر وأن تتركنى أذهب لشأنى

— أستودعك الله

ترك صاحبه ، وصاحبه ينظر إليـه من خلفه وقد تملكه العجب وهو يسائل نفسه :

— ما باله قد تغيرت أخلاقه وتنكرت حاله !! إنه قد أصبح وقحاً !! وأيما وقاحة !!

لم يكد سرمد بك ينزل من الترام حتى واجهه خاله المرم ، وقد فاض قلب الشيخ شوقاً إلى ابن أخته فتلقاه بحنان عظيم وأخذ يسأله فى لهف :

— أهذا أنت يا سرمد ؟؟ كيف حالك يا بنى ؟ لماذا لم تجيئوا لزيارتنا ؟؟

— لا أعلم !! وها أنت ذا ترى أننا لم نجئ !!

— وهل هناك مايحول بينك وبين هذا يا بنى؟

— لا

دهش الشيخ :

— أتقول لا ؟ كيف ؟! كأنه لم يستفزك الشوق إلى رؤية خالك أيضاً ؟؟

رفع سرمد حاجبيه وهو يقول :

— لم يستفزنى الشوق !

بهت الرجل وقال « وهو يصرخ من فرط غضبه » :

— يا وقح . يا عديم الأدب . ألم تستح حين تقول هذا الكلام الرذل الثقيل مواجهاً به خالك الشيخ ؟

وكان الرجل آنئذ ينبش الأرض بعصاه وهو يرتعد غاضباً مرتعشاً

جرى سرمد فى طلب خاله وهو يحاول الاستغفار عما بدر منه بقوله :

— لاتؤاخذنى ياخالى ، لقد حلنى على ما رأيت أننى أقسمت ألا أقول إلا صدقاً !

فوقع هذا الكلام من نفس الرجل موقع الحطب من النار وكان فى نظره على حد المثل القائل : «عذر أقبح من ذنب»

ولما لم يكد سرمد يتم اعتذاره حتى دار الرجل بنظره حوله وهو يشير إليه :

أنظروا إلى عديم الأدب. هذا مازال يؤكد لى وقاحته ويزعم أنه كان يصدق فى حديثه.. لاتقرع بعد هذا اليوم بابى ولا أريد منك أن تحضر جنازتى

ومضى الشيخ لا يلوى على شئ

وصل سرمد إلى مكتبه وقد مسه نصب ناء باحتماله فأرهقه إرهاقاً ولم يكد يتنفس الصعداء حتى سمع دق التليفون

— ألو ... ألو ...

— سرمد بك ؟؟

— نعم . فمن أنت ؟؟

— أنا (ناجى) بحثت عنكم بضع مرات فلم أجدكم . اسمع ... لى عندكم رجاء خاص

— تفضل وقل

— هل لديكم خمسون جنيهاً ؟؟

— عندى

— وهل بكم حاجة إلى هـذا المبلغ مدة يومين أو ثلاثة أيام ؟

— لا

— شكراً . إنني سأعيده على أثر اليوم الثالث أظن أنك تقرضنى خمسين جنيهاً ؟ أليس كذلك ؟

— كلا ، أبداً !!

— لـماذا ؟ ! (وكان هذا الاستفهام بصوت يشبه الصراخ)

— إننى لست مطمئناً إلى أنك تعيد هذا المبلغ

أجابه صاحبه بصوت أشد من سابقه وقد غلبه الغضب وتملكه السخط :

— ياعزيزى ، إنك تستطيع ألا تقرضنى ولك ذلك ، ولكن ليس لك أن تعتدي على كرامتى وتهيننى على غرار ما يفعل السفلة ومن لاخلاق لهم

— معذرة . إننى أخذت اليوم على نفسى ألا أكذب فلذلك ...

أقفل التليفون وبعد قليل دخل الكاتب على سرمد بك فى حجرته قائلا :

— جاء المتعهد ياسيدى البك فهل تأذن لى أن أماطله ؟

— كيف ؟

— أقول له إنكم ذهبتم إلى أنقرة .

— لا يجوز اليوم أن تكذب .

— إذن يجب أن يعطى مبلغه المطلوب فى حين أنا لم نملك منه شيئا

— قل له ليس عندنا اليوم من النقد مانستطيع معه تسديد ما علينا .

— مهلا ياسيدى البك ، ماذا تقول ؟ إن هذا يرج مركزنا رجا ويحدث فى السوق المالى تأثيرا سيئا

— ما الحيلة إذن ؟ إننا لا نستطيع اليوم أن نكذب

لم يكد الكاتب يخطو للخروج وهو يفكر فيما أصاب البك اليوم حتى ناداه من ورائه ثم قال له :

— إستمع إلى ... إن أعصابى اليوم متوترة جدا ولهذا أرانى شديد الحاجة إلى تهدئة النفس وتسكينها . فمن جاء يسأل عنى فقل له : إنى لست هنا .

— أمرك يا بك ! ...

— انتظر لا يناسب أن تقول ليس هنا خوف أن أكون كاذباً ، قل له إنه لا يقابل أحداً

ولكنه استشعر خشونة هذا القول لأنه ليس من اللائق أن يجيب زائره بهذا الجواب ، فسأل الكاتب وقد ملكه الاضطراب واستولى عليه اليأس:

— ماذا يجب عمله الآن ؟ إن . . . جزاها الله شر الجزاء

ألقى الأوراق التى بيديه على الأرض وهو خارج وقد خطف بإحداها قبعته وبالأخرى عصاه ، ولم يلبث أن طفر من الغرفة إلى الخارج

كان المساء ، وإذا سرمد بك يتمتم بصوت خافت مضعضع وهو جاث على ركبتيه مطرق الرأس أمام زوجه يقول :

— أى زوجتى العزيزة ، لقد بان لى بجلاء لايقبل الشك أن الحق كان بجانبك وأنه يتعذر كل التعذر بل يستحيل على الانسان أن يتم أمراً خطيراً كان أو حقيراً دون أن يشوبه الكذب . لا الصداقة ، ولا مصالح الأسرة ، حتى ولا العشرة ولا التجارة ، يمكن الانسان أن ينجح فيها دون أن يفتقر إلى الكذب ! !

هأنذا أعدك ألا أعترض عليك فيما أنت منه بسبيل ، وأسألك أن تصفحى عنى ، ومع ما تعلمين مما طبعت عليه من حب الصدق فك منى أن تمضى عن نفسك ذلك القيد وتكذبى ماشئت أن تكذبى !

عبد اللطيف أحمد

المنفى

عن الإنجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

لن أذكر اسم المكان ، ولن أذكر اسم بطل القصة . أما الأول فهو بعيد جداً في جهة خصبة حارة على شاطئ البحر . وقد كنا نسير بقرب ذلك الشاطئ فنرى عن يميننا مزارع القمح الخضراء وعن يسارنا أمواج البحر التي تهتز تحت أشعة الشمس . وكانت الأزاهير الغضة نابتة على حافة البحر مطلة على مائه . وكان اليوم شديد الحر ولكن جوه زكي العرف قد تشبع بروائح التربة الخصبة والأعشاب والأزاهير والماء ، فكأننا كنا نستنشق مع الهواء عبير الحياة العطر

وقيل لنا إننا سنكون في المساء ضيوفاً على رجل فرنسي يقيم في وسط بستان البرتقال . ولم أكن أعرف هذا الرجل ولا أعرف عنه سوى أنه جاء إلى هذه الجهة منذ عشرة أعوام فاشترى أرضاً واسعة جعل بعضها كرمة وبعضها مزرعة برتقال وسائرها خصصه لزراعة القمح . وأقام من ذلك العهد في أرضه يعمل كادحاً مجداً . وكان يزيد نطاق أرضه اتساعاً كلما مر شهر أو عام فحصل على ثروة واسعة بهمة لا تعرف الفتور

وكان جيرانه يقولون : إنه يستيقظ قبل الفجر ويظل يعمل في حقوله إلى هزيع من الليل وجعل نصب عينيه فكرة واحدة لا يمكن إرواء ظمئها ، وهي فكرة الحصول على الثروة

وكانت الشمس قد غربت عندما وصلنا إلى منزله في حديقة البرتقال . ولما دخلنا المنزل المطلة شرفاته على البحر خرج لاستقبالنا رجل طويل القامة طويل اللحية . وبعد أن سلمت عليه طلبت أن يقبل ضيافتي ، فمد إلى يده وقال وهو يبتسم : « تفضل أيها السيد أنت هنا في منزلك »

ثم قادني إلى غرفة خصصها لي . ووضع تحت تصرفي خادماً . ورأيت من كرمه ما دلني على حسن تربيته . وقال وهو يتركني : « إننا سنتناول العشاء في الطابق الأرضي بعد أن تستريح وتغير ثيابك »

وتعشينا في غرفة تطل على البحر . وتكلمت عن هذه الجهة الجميلة الثانية الغنية . فقال لي : « نعم هي جميلة غنية . ولكن لا يمكن أن يسر الانسان في بلاد مهما كان جمالها وغناها ما دامت بعيدة عن وطنه الذي يحبه »

قلت : « أأنت آسف على مغادرتك فرنسا ؟ »

فقال : « إنني آسف على مغادرتي باريس »

قلت : « إذن فلماذا لا تعود ؟ »

فقال : « إنني سأعود »

ثم أخذنا نتحدث عن باريس وعن شوارعها الواسعة الطويلة . وكان كلامه عنها كلام من يعرفها حق المعرفة . وذكر لي عدة أسماء لا ينساها من زار الأحياء التي فيها مسارح الفودفيل في باريس

قال : « من الذين يقابلهم الانسان في تورتيني الآن ؟ »

فقلت : « هم الذين كانوا فيها دائماً عدا من مات منهم »

قلت ذلك ثم سكت فجأة لأني نظرت إليه نظرة بعثت في نفسي ذكرى . وأدركت أنني كنت رأيته ولكن متى وأين ؟

وكان يبدو عليه التعب والحزن على الرغم من

علائم القوة وصلابة العزم . وكانت لحيته الطويلة متدلية إلى صدره . وكان يمسكها بيده أحياناً أثناء الكلام . وهو خفيف شعر الرأس غليظ الحاجبين كبير الشاربين وفي خديه بقع مملوءة بالشعر ملحقة بلحيته

وكانت الشمس تغرب فيما وراء البحر الذى نطل عليه مرسلة شعاعها الذهبي إلى الشاطئ . وكان البرتقال الذهبي يبث رائحة قوية جداً فى جو هذا المساء

كان مضيفى لا ينظر إلا نحوى . وكان ينظر إليّ محدداً فىّ بصره . ثم وقع نظرى ونظره على صورة معلقة فى الحائط تمثل جهة فى شارع دروت فسألنى : « هل تعرف هذا الشارع ؟ »

قلت : نعم . فسألنى : « هل تعرف بوتريل؟ »

قلت : « أعرفه حق المعرفة »

فقال : « هل تغير كثيراً ؟ »

قلت : « لا . بل لا يزال كما هو »

فقال : « وهل تعرف لاريداى ؟ »

قلت : « وهذا أيضاً لم يزل كما كان »

فقال : «والنساء ؟ هل تعرفهن ؟ قل لى شيئاً عن سوزان فرنو »

قلت : «إنها لا تزال كما كانت فى شرخ الشباب»

فقال : « وصوفيا أستير ؟ »

قلت : « ماتت »

فقال : «مسكينة أستير .. هل .. هل تعرف..»

ولكنه سكت فجأة وتغير لون وجهه وقال بصوت غير صوته الأول : « كان خيراً ألا أتكلم إنها ذكريات مؤلمة »

ثم وقف وكأنه يريد أن يغير اتجاه أفكاره فسألنى هل أحب أن أزور بقية المنزل ؟

ثم سار فتبعته

وكانت غرف المنزل واسعة ولكنها تكاد تكون خالية من الأثاث وشكلها يدل على أنها لم تستعمل قط . وكان فى إحدى هذه الغرف أوان وزجاجات خالية متروكة على الأرض . وقد علقت على الحائط بندقيتان وقصبة لصيد السمك ، وبعض الفؤوس

وقد قال صاحب المنزل وهو يرينى هذه الأشياء المبعثرة : « أليس هذا المنزل أشبه بسجون المنفيين منه بالمساكن ؟ »

وكنت أتخيل لو لم يقل ذلك أننى فى بعض الحوانيت التى تباع بها السلع المستعملة . وكان مما رأيته بين هذه السلع دبوس شعر مما تستعمله السيدات لتثبيت القبعات فوقفت أمامه وقد بدت عليّ علائم الاستغراب، فوضع مضيفى يده على كتفى وقال : « إن هذا الدبوس هو الشيء الوحيد الذى أحرص عليه فى هذا المنزل — لا بل إن حرصى عليه يزيد عن حرصى على حياتى »

ففكرت لكى أجد كلمة مناسبة أقولها فلم تسعفنى الذاكرة إلا بقولى : « أظنك عانيت فى الحياة كثيراً بسبب امرأة » فقال : « إننى أعانى مالم يعانه أنس إنسان. وإننى سأسألك عن اسم آخر ولكن إذا قلت لى إن صاحبته قد ماتت كما قلت لما سألتك عن استير فأنى سأقضى على حياتى فى هذا اليوم »

ومشى فمشيت معه إلى غرفة أخرى وكانت الشمس قد غابت . ونظر إليّ وقال : « هل جان دى لامور لا تزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « نعم والله » فقال : « وهل تعرفها ؟ »

قلت : « نعم » فتردد لحظة ثم قال بلسان متلعثم :

« هل معرفتك إياها إلى درجة تسقط التكلف ؟ »

قلت : « لا » فقال : « حدثنى عنها »

قلت : «ولكن ليس عندى ما يستحق التحدث

به سوى أنها من أجمل الباريسيات وأشهرهن فى الأوساط وهي تعيش كما تعيش الأميرات ، وهذا كل ما أعرفه عنها »

فقال : « هذه هى التى أحببها . وقد حاولت قتلها خمس مرات أو أكثر من هذا العدد . وحاولت هى فقأ عينى بهذا الدبوس الذى رأيته الآن . أنظر إلى أثر الالتحام الذى تحت عينى اليسرى . إنه من أثر هذا الدبوس . وكان كلانا يحب الآخر ، وقد لا تكون على استعداد لفهم ذلك ، فان الحب الشائع بين الناس حب بسيط . ولكن الحب القوى لا يخلو من العنف . والمحبون من هذا النوع يبعد أحدهما الآخر ولكنه يتوق إلى قتله .

«وقد أهلكتني هذه الفتاة فى ثلاثة أعوام أنفقت فى خلالها أربعة ملايين من الفرنكات ثمناً لابتسامات حلوة ونظرات فتانة . وقد وجدت فيها شيئاً لا يقبل المقاومة ، ولكن ماهو هذا الشيء ؟ لست أدرى هل هو قوة عينيها ؟ هل هو عذوبة ابتسامتها ؟ هل هو صوتها ؟ لقد عشت ثلاثة أعوام عانيت فيها من الآلام ما لم يعانه إنسان . وكانت تخدعني وتخونني لا لشيء سوى الرغبة فى خيانتي وخداعي ، فلما استكشفت ذلك وخاطبتها قالت لى : « هل نحن متزوجان ؟ »

ولما تركتها وجئت إلى هنا استطعت أن أفهمها أكثر من قبل فهي لا تستطيع أن تعيش دون أن تخدع »

قال ذلك ثم سكت بضع دقائق استمر بعدها يقول : « فلما أنفقت عليها آخر درهم قالت لى : « أنت ترى يا عزيزى أنني أحبك أكثر مما أحب أى إنسان آخر ، ولكنني أريد أن أعيش ولا أستطيع الحياة مع الفقر . ولذلك لا أرى بداً من أن نفترق »

ولقد وجدت من نفسى عندما سمعت ذلك دافعاً آخر إلى تقبيلها فمددت يدىّ إليها لأعانقها وأخنقها فى نفس الحين . وقد كان فى عينيها غير الجمال قوة أخرى قاسية . ولعل هذا هو السبب الأكبر لحبي إياها وكان فى نعومتها زيادة لا تبعث فى النفس عاطفة غير الجنون

«ولقد سكرت وانتشيت وجننت بحبها وبعشقها ، ولما كنت أمشي معها فى الطريق كانت تنظر إلى كل رجل تمر به نظرة كأنها بها تسلم نفسها إليه ؛ وكنت أشعر وأنا أسايرها أنها من متعلقات كل إنسان ، وأنها خلقت كذلك رغم أنفها ورغم أنفي ورغم أنوف الناس جميعاً

« أتفهم يا عزيزى معنى ذلك ؟

« تستطيع إذا فهمته أن تتصور أى عذاب كنت أعانيه ؟

« لقد كنت أذهب معها إلى المسرح أو إلى المطعم فأحس بأن نظرات الناس إليها عناق وتقبيل ؛ وكنت أعتقد أنى إذا غبت عنها جاء الناس جميعاً ليجلسوا إليها . ولقد مرّت عشرة أعوام لم أرها فيها ولكن حبي لها لا يزال كما كان »

وكان الظلام قد اشتد فى هذا الوقت وزاد تصاعد الروائح العطرة من حديقة البرتقال وسألته :

« وهل تريد أن تراها مرة أخرى ؟ »

فقال : « إننى أملك الآن ما يربو على الثمانمائة ألف فرنك . فعندما تصل ثروتى إلى مليون فاني سأبيع كل شيء وأعود إلى باريس ويكفيني من العمر بعد ذلك عام واحد أقضيه معها فى أحلام رائعة كأحلامى السابقة

قلت : « ثم ماذا ؟ » فقال : « ثم أودع الحياة مسروراً أو أطلب إليها أن تستخدمني سائقاً لسيارتها ! »

عبد اللطيف النشار

... ثم جاء الربيع

للكاتب الانجليزى دوروثى بلاك

ترجمة الأستاذ فؤاد الطوخى

كان زواج مستر بوينت من هذا موضوع حديث القوم · ولقد تضاربت الأقوال فى هذا الشأن لأن رجلا فى مثل ثروته ومقامه كان يستطيع أن يتزوج بأحسن منها، لأن هذا لم تكن إلا موسيقية فى إحدى الفرق . وصحيح أنها كانت جميلة ولكن جمالها لا يكفى.. أما هى فإنها كانت قانعة بهذا القران لأنه أنقذها من عملها الشاق المضنى القليل الأجر ولقد نقلها إلى قصره الفخم الذى يشرف على غابة من شجر الصفصاف ... وكان بعض العمال قد اعتادوا أن يتخذوا فى نهايتها ملجأ يأوون إليه فى الربيع

على أن مستر بوينت لم ينس أن رجلا موسيقياً غريباً ذا شعر طويل لبث ثلاث ليال متتالية يجلس فى الصف الأول بالمسرح ويحدجها بنظرات حادة، وكانت صغيرة السن تميل إلى كل جميل كالملابس البديعة والأرائك الحريرية والروائح العطرية فأتاها مستر بوينت كنعمة من السماء، وأنقذها الله من العمل فى المطبخ بالمنازل الريفية القديمة، حيث كانت تطهى طعامها بيديها — وطالما كانت تنزع إلى الحب

ونظراً لصغر سنها فقد ظنت الحب سهلا، وتوهمت كعادة الشابات أن الحب ... ماهو إلا كاهن يلقى بكلمات سحرية فوق رأسها

وكان من عادة الفرقة الموسيقية أن تأتى فى فصل الربيع بعد أن تجرى حركة طلاء وتجديد واستعداد فى المسرح

وكانت زهرة الماتوليا تزين حدائق الفلات فى ذلك الفصل

واشترك مستر بوينت فى الحفلات اشتراكا كاعتاده لأنه كان يناصر الفن مع أنه لا يتذوق الموسيقى

وكان من الجائز عنده أن يستغرق فى النوم وهو فى قاعة الموسيقى كما ينام فى أي مكان آخر ولكن منظرهذا الرائع جعله يتنبه إلى موسيقاها.. كان شعرها ناعماً كالحرير الأسود، وجلدها يحاكى زهرة الماتوليا .

وهناك كان يجلس فى الصف الأول ذلك الرجل الموسيقى وهو يكاد يلتهمها بعينيه التهاما فلمح ذلك مستر بوينت ودبت فى نفسه عقارب الغيرة، وهو الذى اعتاد أن يحصل على كل ما يريد بنقوده الكثيرة فتزوجها فى الكنيسة الانجليزية للقديس سنت بارثليو فى يوم عاصف... ورحلت الفرقة الموسيقية تنقصها هذا، ولكن ماذا جرى لذلك الموسيقى الذى اعتاد أن يجلس فى الصف الأول ؟؟ ...

كان مستر بوينت يجهل ذلك، ومن المدهش أن هذا لم تكن تشعر به، فضلا عن أنها كانت ساذجة لا تعرف المكر ولا تثق بمواهبها الخاصة فى حين قد نالت كل ما كانت تحلم به من مجد وفخار، فقد غمس القصر بألوان الترف والنعيم ... ففوق منضدة ملابسها كان لها تلك القضبان الخزفية التى كثيراً ما رأتها فى نومها الهادئ وأحلامها الجميلة.. ولما أخبرها بقيمتها التالية — وكان حريصاً على القول بأن كل شيء عنده لا قيمة له — توقفت

أنفاسها وأمست قلقة ، فقالت له :

— وماذا تقول إذا تحطمت ؟

فهز رأسه وقال :

— يمكن أن تعوض

وكان پوينت يعتقد أنه لا شيء فى الدنيا لا يمكن تعويضه ، ولا حزن لا يغسله الشراب رقم (٨٧) . ووجهة نظره هذه يصعب على ماليا أن تفهمها لأن الفنانين لا يقدرون الحياة على هذا الوجه . وظهر فى الجو شيء جديد فقد كان مستر پوينت يتحدث عن الحركات والنغمات فى حين لم يكن يدرى شيئاً عن الموسيقى ، ولم يكن فى وسعه أن يترنم حتى بأنشودة الملك . جلس على أحد المقاعد وقال لزوجته :

— أسمعينى يا عزيزتى !!

فامتلأت الحجرة بنغمات الموسيقى

— ظريف وجميل جداً ... ولكن أتعرفين أنشودة فيها نغم ؟؟

فوقعت له أخرى

— إنه صوت شجى ما أحلاه يامليا. وضرب بقدمه ضربة قوية

وفى المساء غنت له وكان صوت الكمان يزداد عذوبة ورقة ، فنهض مستر پوينت وقال :

— حقا ... إننى لفى شوق لسماع هذا اللحن أسمعينى ثانية ياعزيزتى ماليا .. عزفك جميل حقا

وما لبثت أن أجهشت بالبكاء ، ثم طوحت بالكمان بكل قواها فى أحد أركان الحجرة ، أما هو فلم يكن يعرف لذلك سببا .. وكثيرا ما خطر له أنها عرضة للنوبات العصبية ، إذ أنه قد أمدها بكل ما تشتهى نفسها فى هذا العالم ، وما كانت الخسارة مقصورة على تحطيم آلاتها الموسيقية ، ولكنها عند ما ألقيت هشمت فى طريقها تمثالا لاله الحب ؛ وكان فخما مصنوعا من الخزف ، وقد اشتراه مستر پوينت بثمن غال . التقط حطام التمثال والكمان وقال :

— يمكن تعويضهما

ولما رحل إلى ڤينا لقضاء بعض أعماله اشترى لها كمانا آخر بثمن بخس ، ليحل محل كمانها المحطم ؛ فشكرته ووضعت الكمان فى ركن من أركان حجرة نومها . وعلى أثر ذلك .. تمنى عليها أن تسمعه لحنا ، فنظرت إليه بحمق ثم هزت رأسها باحتقار وسكتت

— لقد ماتت الموسيقى ياپوينت ! وعجيب أنك تخاطبنى كأن لك إلماماً بالعزف

كانت ماليا قبل زواجها قد تجولت مع فرقتها الموسيقية هنا وهناك واكتسبت شعورا وذوقا خاصا . . . أما اليوم وهى منعمة فى القصر بالفراش الوثير والطعام الفاخر وشراب الخمر (٨٧) الجيد فقد أصبحت خشنه . . . ولم يتسع المجال لمستر پوينت لبادلتها الشعور ، لأنه لم يكن بينهما انسجام . وكثيرا ما كان يرحل إلى لندن أو باريس أو ڤينا لمباشرة أعماله ، فيغيب عنها أياما

وكثيرا ما أقيمت فى هذا القصر ولائم فاخرة فلم يغن ذلك عن كآبتها شيئا

وذات يوم رحل پوينت وبصحبته خادمه وحقائبه فى سيارته . فسلكت ماليا مسلكا جديدا ، وبدأت تعيش عيشة أخرى .. أغلقت القصر ورفعت ستائره وأبسطته وطردت جميع الخدم ما عدا مارية وصيفتها الخاصة التى كانت تشاطرها الحزن والأسى . فقد مرت بتجربة قاسية ؛ إذ أحبت بحارا واقترنت به ثم ضرب الدهر بينهما بضرباته ، فأمست لا تسلم من أمره شيئا . واتخذت من حجرة نومها حجرة الجلوس ، ووضعت على إحدى الموائد موقدا البترول لتعد الطعام بيديها . كما كانت تفعل

فى أيامها السالفة . ومن العجب أنها لم تقترن بمستر بوينت إلا لتتخلص من تلك الحياة التى بدأت تحن إليها ، وما أحزنها إلا جهله بالموسيقى فأفضى ذلك إلى شعورها بالجمود نحوه .. وكثيرا ما كانت تقول فى نفسها ... لقد أشرق ضوء فى ظلال حياتى ولكنى أطفأته .

ومرت أيام وأيام ومستر بوينت يزداد غنى وثراء . وحل الربيع مرة أخرى وظهر فى المسرح عمال بدأوا يشتغلون فى تنظيفه وطلائه وترتيبه وإصلاح أدوات الحمام . وشخص مستر بوينت إلى باريس فى بعض أعماله .

ثم عاد الصفاح مع قافلته يحتل مكانه المعهود فى الغابة بين أشجار الصفصاف ، وفى كل عام كان يأتى عندما تتفتح الزهور وكان يصطحب فى كل مرة كلبه، ولم تكن هلدا قد رأته من قبل وإنما كانت تطل من النافذة من وقت لآخر على قافلته ، فيروقها ألوان ملابسهم الزاهية الجميلة . وكان وقتئذ مرابطا فى الطرف النهائى من الغابة .. ولحرارة الجو انتحى ناحية الغدير . وكان يوما مشمسا أزاحت فيه مارية الستار عن نافذة سيدتها وأطلت على مقدمة القافلة فأبصرت نارا تحترق ، ودخانا ينعقد فى الجو فيكسب زرقته سوادا . قالت : إنها لوقاحة متناهية ، وهمت باستدعاء مدير الضيعة لولا أنها تذكرت أنه رحل إلى سنت بريك ليشيع جنازة أمه واندفعت هلدا نحوها وقالت :

— دعيه إنه لا يؤذى أحدا

— ولكن إذا هبت الريح اندفع الدخان رأسا إلى نافذة سيدتى

— ولكن دخان الخشب لن يقتلنى

— ربما كان بحارا، وثقى ياسيدتى أن أى امرأة فى العالم لم تسلم من أذى أولئك البحارة

ثم نظرت مارية فى المرآة فرأت جمالها السريع الذبول ووجهها الشاحب وقالت :

— أخشى أن نكون فى خطر ولو من أولئك البحارة

ولم تكن هلدا تهتم بأمر القافلة من قبل ولكنها أعارتها بعض الالتفات فى هذا الربيع . وذهبت يوما إلى غابة الصفصاف داخل الأحراش . وكانت القافلة مرابطة فوق بساط من الزهر البنفسجى اللون بين ثنايا الأشجار . وانساب بجوارها جدول من الماء . واسترسلت على النافذة سجوف قشية . وتطلعت هلدا إلى حجرة الصفاح فلم تجد فيها شائبة ، وقد كسا الفراش الممدود فى بعض الجوانب لون قرمزى بديع فأدهشها أن يكون ساكنها سفاحا بسيطا . وحارت فى أمر ذلك الرجل وماذا عسى أن يكون ولماذا لم يزر تلك البقاع إلا فى فصل الربيع .

وأرسل مستر بوينت برقية فى يوم الثلاثاء قال فيها إنه سيتخلف فى باريس أسبوعا نظرا لسوء حالة الجو .

وقد صدق بوينت فيما قاله عن الجو فقد زمجرت عاصفة فى منتصف الليل فأخذت ببعض أجزاء المسرح وشتتت أدوات الحمام فكسرت وارتمت على الأرض كدمى الأطفال ... ونجا القش بأعجوبة من الزوبعة ، أما الصليب المثبت على قمة الكنيسة فقد سقط متحطما على الأرض، ولم يصب القصر من الضرر إلا بقليل، وقد قصمت الأشجار الباسقة فى الحديقة كأنها كانت تتعارك مع الجن ، وكسرت النافورة المرمرية التى جاء بها مستر بوينت من فينا إلى ثلاث قطع ، وقد نكب الإله فينس الذى كان جالسا على عرشه فى قمة النافورة بهزة ألقته على الأرض صريعا، فرقد يندب حظه العاثر وهو لا يصدق ما قد حدث . أما هلدا فكانت موقنة بأن كل ما سيصنعه زوجها بمجرد اطلاعه على تلك الخسائر هو أنه يقول:

— يمكن تعويضها

وتصدع سقف الغرفة على أثر ظهور ثقب فى قناة، فبدت أولا صغيرة ثم اتسعت حتى صارت بحجم عجلة السيارة ، فصاحت مارية ، وأخذت تضع تحت هذه الفتحة ما تجمع عندها من أوان :

— يا لله ! ! أيحدث هذا ومدير الضيعة غائباً فى مأتم والدته

سيدتى ... ماذا نصنع بهذا الشلال الفظيع ونحن امرأتان وحيدتان ، وهرعت إلى النافذة لتصب إحدى الأواني الممتلئة بالماء ، ورأت العمال لا يزالون فى مكانهم

— انظرى يا سيدتى إنى سأحضره ، فهو على الأقل رجل ويستطيع الصعود إلى السقف ، أما أنا فلا أستطيع لضخامتى الدخول من الباب الصغير المؤدى إليه وإذا صعدت أنت فان سيدى لن يغفر لى هذا الذنب ... فخرجت تاركة وراءها تعليمات هلدا الخاصة بوضع الأوانى تحت هذا الشلال ، وبعد أن رفعت هلدا الاناء الرابع وقد فاض بالماء لتلق به من النافذة ... إذا بمارية قد عادت ومعها الصفاح وكان مديد القامة ، يرتدى سروالا من الفانلا وسترة موثوقة العرى حتى عنقه . فلما رأته علمت لأول وهلة أنه لم يكن من طبقة البحارة. وذكرت بعايشبه الحلم أنها قد تعرفه وربما تكون قد صادفته فى بعض أنحاء المدينة من غير أن تعلم شخصيته

وفى تلك الأثناء كانت مارية تطالعه بالحالة وهى بجانبه تشرح له الصدع بكل اهتمام ولو أنه لم يكن سبا كا إلا أنه قال :

— أظن أن الصدع هو نتيجة ثقب فى البالوعة وأن فى وسعه إصلاحه لو سمحت له السيدة بالصعود.

ثم صعد فوجـد قطعاً من الأغصان وبعض الأخشاب المتناثرة التى ساقتها الريح إليه فتناولهـا وأصلح بها الصدع ، فلما هبط قالت له هلدا :

— أشكرك ألف مرة على ما فعلت .. وأمرت له بزجاجة من السدر . وكانت قد جهزت فى يدها بعض النقود لتعطيها له، ولكنها توقفت خشية ألا يقبلها

وخرجت مارية وفى عينيها نظرات سوداء ، ولما وقع نظر الرجل على الـكمان بادر بالتقاطه ومسح الغبار الذى كان عليه وقال :

— لعل سيدتى قد أغفلت العزف

— وكيف عرفت أننى أجيد العزف ؟

ونظرت إليه فى حيرة وقلبها يشتد فى الخفقان

وقال : على أن السيدات الأرستقراطيات لايقتنين كاناً حقيراً ليضمن عليه ريشهن. فأدارت وجهها وقالت :

— لم أعد أوقع فقد ماتت الموسيقى

ثم أمسك بالـكمان مرة أخرى وقال:

— إن الموسيقى نائمة ولن تموت، أتسمحين لى بالعزف . ثم أخـذ يوقع لحناً كانت هى توقعه منذ سنوات مضت فى المسرح

— أين سمعت هذا الدور ..؟ لقد عزفته من قبل

— إنه أحد الألحان الوطنية

ورفع الآلة ثانية ثم تغنى بلحن مشج امتزجت عذوبته بأشعة الشمس المشرقة

— أنت لست بصفاح . . . وما اسمك ؟ ثم ارتجف قلبها للمرة الثانية ... فقال :

— حقاً أنا صفاح ... ألم تر سيدتى ما عندى من أوان وأوعية ؟ وتلفت فى الحجرة يمنة ويسرة فراقه منها بعض ما فيها من آثار الترف ثم نظر إلى الحديقة فعز عليه أن يرى إله الحب فينس مذبوحاً وملقى على الأرض وقال بصوت كأنه يخاطب نفسه ولا يخاطبها

— أى عصفور يمكنه أن يغنى فى القفص ؟

وبعدها عادت مارية وبيدها زجاجة الخمر . ولما رأت نفسها وحيدة مع سيدتها قالت :

— ما أشد وقاحته لاجترائه على لمس كمان سيدتى ... حقاً كان يجب أن تعطيه بعض النقود وتدعيه ينصرف فى الحال حتى لا يتلكأ فيتضح له أننا امرأتان وحيدتان فى هذا القصر . وأغلب الظن أننا سنقتل فى هـذه الليلة فى فراشنا . فقالت هلدا وهى ترفع رأسها إلى أعلى :

— على كل حال لقد أدى لنا عملنا

ولكنها كانت تنظر إلى كمانها

وقال مستر بوبنت حينما جاء إلى قصره

— يسرنى أنك عدت إلى العزف ... إن هذا لجميل فكل سيدة لها هوايتها ، فاعزفى لى يا عزيزتى فوقعت له أنشودة ، ولما أتت على آخرها قال :

— إنى لأحس بالحياة تجرى فى ثنايا نغماتك .

ثم نفض سيجارته وأضاف :

— أراك أكثر انتعاشاً .. فلقد عملت بنصيحتى . ولقد عاهدت نفسى أن أعطيك كأساً من المشروب (٨٧) مع قليل من البسكويت كل صباح

وما كان الخمر هو الذى أعاد اللون إلى وجهها والبريق إلى عينيهـا ، وإنما كشفها المدهش أن مواهبها الموسيقية لم تندثر رغم مرور الأعوام الطويلة فهى لا تزال قادرة على العزف ولو أعوزها المران .. ففى كل صباح كانت تقوم بالمران فى نافذتها أثناء اشتغاله بأوعيته وأوانيه . وإذا أرخى الليل سدوله خرجت من القصر وذهبت إليه فكان تارة يعجب بعزفها وأخرى ينتقدها ويظهر لها أغلاطاً جساماً وكثيراً ما تناول كمانه ولعب عليها بنغمات ساحرة كانت تملك عليها شعورها فتتذكر أيامها الغابرة التى قضتها تحت ظلال الفن ثم تعود على نفسها باللائمة لأنها باعتها بعيشة الترف والثراء فرحلت عنها السعادة ثم سألته :

— ماذا تعزف ؟

— « أغنية البعث » ولـكنها لم تنته بعـد ، فاربما غنيتها كاملة فى صبيحة يوم عيد الفصح . فهل ستستمعين لها ؟ ثم نظرت إليه وقلبها يخفق فى عنف فهل هى لا تزال عذراء تنظر هنا وهناك وتنشد الحب جائعة إلى أن تهتدى إلى قرار ؟ !

لم يكن فى الأمر خيانة فاذا كانت القصة قد جرت فى المدينة لعرفها جميع الناس منذ أمد بعيد ، ولتحدثوا بشأنها فى المسرح ... ولكن القصر كان بعيداً عن المدينة ولم تكن الأشجار الباسقة تروى أخباراً . وحل الصيف فى بريتانيا فسمعت دقات أجراس الـكنائس والأغانى الجميلة ، وشوهدت القبعات الجديدة ، وكست غابة الصفصاف الأزهار والورود . وعاد مستر بوبنت من باريس

وفى ليلة العيد ذهبت هلدا إلى الغابة ، فوجدت القافلة على أهبة الاستعداد للرحيل ، وكان الجواد الـكبير يرعى بجوار الورود ومناقع الصفصاف ، فسألت فى وجل وخوف :

— ما هذه الجلبة ؟

— إن ... فترة أجازتى قد انتهت وفى كل ربيع أعود إلى هنا لأمتع نظرى بالمشاهد التى ألفتها فى صباى ، وطالما حلمت بها فى منامى . ولقد فطنت سيدتى إلى حقيقة أمرى فأنا لست بصفاح

— طبعاً عرفت ذلك ولـكن من أنت ؟

— ليس من شأنى أن ألقى ضوءاً على هذا السؤال إذا لم تعرفه سيدتى من تلقاء نفسها

فجلست بجواره وقد أرغم عليها وكادت تجهش بالبكاء الحار على تلك الليالى الطوال التى سوف تقضيها فى عزلة ووحدة بعيدة عنه ، حتى لا يضىء مصباح فى الغابة المرمة الموحشة الرهيبة ثم همست فى أذنه :

— هل أراك ثانية ؟

— ومن يدرى ؟

فلما تركته واقفاً هناك خيم الأسى على عينيه وهو يشيعها ، وحامت الخفافيش حول مصباحه ذى الضوء الخافت ، وقال :

— سأعزف لك فى الصباح « أغنية البعث » وهى تؤدى لك رسالة وقد لا تؤدى

وجلست فى نافذتها وأسندت رأسها بيدها ... وانتصف الليل ... وانبعث من الغابة عزف سحرى أخذ بمجامع قلبها حتى حملها على البكاء قسراً ... وجال بخاطرها أنها ستصبح وحيدة رغم صغر سنها وتذكرت أنها ستصبح وجلة خائفة بين أعضاء فرقتها الموسيقية ؛ وأمامها فى الصيف ذلك الرجل تكاد عيناه تلتهمها التهاماً فنهضت من مكانها وقالت :

— نعم . هذا هو الواقع . لقد عرفت الجواب الآن ، ثم قالت :

— إنى قادمة

ولم تأخذ شيئاً ألبتة معها مما قد أحضره مستر پوينت، وفى منعطف الطريق قابلت القافلة وقالت :

— قد تذكرت ... تذكرت ... !

وامتطت صهوة الجواد بجواره ثم لفها بغطاء أحمر فسار بهم اوكب بين صلصلة أوانيه وأوعيته ، وبين صوت حوافر الجواد وهى تقطع الطريق الوعر ولم يخرج حديثهما عن المسرح وملعب التنس وحفلات الشاى

وها هى ذى قصة خيانة تعرض نفسها لمختلف الأحاديث والتعليقات ... هى قصة فتاة هجرت زوجها الثرى إلى الأبد لتتصل برجل بسيط أحبته

نعم ... فقد جلس الرجال المسكرون وسكان المدينة إلى المصطافين يتحدثون بصوت خافت : لقد كانت دائماً غريبة الأطوار .. لقد أخرجها من الفقر إلى الغنى .. ومن فرقة الموسيقى إلى قصره الفخم

وبعد بضعة شهور كانت مارية تحزم بعض عجلات قديمة كان قد أحضرها مستر پوينت معه من فينا ، فاستلفت نظرها مقطوعات شائنة فى الصحائف المصورة وعثرت على صورة شمسية لرجل ذى شعر أسود ضارب إلى البياض وقد انحسر إلى الوراء تاركاً مكاناً ناحلاً بينه وبين جبهته العريضة وكان يرتدى ملابس السهرة وعلى ركبته كان

هذا هو دانزليس الذى اعتاد أن يزور كل عام فى زى صفاح ومعه قافلته تلك البقاع التى قضى فيها أوقات صباه وزهرة عمره ، وسوف يعزف أغنية فى بودابست فى الصيف ، وهى من أروع الأناشيد التى تحاكى قلب الطبيعة ... وقد بلغت مهارة ذلك الرجل الموسيقى مبلغاً عظيماً ، فطغت على ما عداها واكتسحت كل شىء أمامها ... فهرعت مارية إلى مستر پوينت وقالت :

— ها هو ذا الرجل بعينه .. إنه ليس بصفاح ياسيدى ... سألتك بالله أن تنظر ... فتناول مستر پوينت الورقة بيده الغليظة وقال :

— أنشودة البعث ... ماسمعت بها قط ، خذيها من وجهى ولن تعودى تذكرين اسمها أمامى ثانية .

ولما بلغت الباب استعادها وقال :

— أبلغى هنرى أن يأتينى بشراب (٧٧)

ثم نظر مستر پوينت إلى الحديقة فرأى المقعد الحجرى الذى كانت تجلس عليه دائماً فى الأيام الحارة مشتغلة بإبرتها بجوار نافورة ڤينس وهو التمثال الذى أحضره من ڤينا ... ثم أخرج من غليونه عموداً من الدخان وقال :

— يمكن تعويضها ...

« طنطا » فؤاد الطرفى

الأغلال

للكاتب الفرنسي "بول هرفيو"

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصـــل الأول

ينكشف الستار عن قاعة مزينة بأفخر الرياش تلوح من شرفتها حـديقة شتوية ، الوقت مساء وقد أنيرت القاعة بنور ضئيل

المشهد الأول

(إرن وبولين أختان تتحادثان وهما جالستان إلى خوان)

(بولين تخاطب أختها بهدوء الناصح وإرن تضطرب ثم تقف تذرع القاعة طولا وعرضاً ، وفي الحـديقة ثلاثة رجال يدخنون)

بولين — ما هي شكايتك من زوجك ؟

إرن — شكايتي منه هي أنني لا أحبه

بولين — أتعدين إذاً إعراضك عنه ذنباً عليه؟

إرن — عشر سنوات مرت عليّ وأنا أحاول اختراق قلبه بحبي فما أجدت محاولتي غير حبوط آمالي

بولين — ما يدفع بك وبأمثالك إلى الثورة إلا إعلان قانون الطلاق، فسقياً لزمان المحصنات القانتات الجاريات لحظهن في الحياة

إرن — لست ممن يختزن الموت في الحياة

بولين — هلا وجدت من حياتك نفسهـا منفذاً إلى الحياة؟ إذا كان الله حرمك الولد فاحرمك مباهج المجتمع . لك مسكن من أجمـل المساكن تقيمين فيه فلا يزورك إلا زوجي وأنا، فافتحي قاعتك للاستقبال وافتحي تيار العالم فانه ينقذك مما توادينه لنفسك من أوصاب

إرن — لو أنني طالبـة ملاذ لأخذت بملاجك ، ولكنني طالبة سعادة؟ وما يوصلني إليها السبيل الذي تصفين

بولين — لا أدعي أن زوجك روبير كامل مجسم ، ولكنني أراك تحدجينه بعين مريضة ثائرة ، فكيف تتوقعين أن يروق لك ؟ إن دماغك يسكب سموماً على قلبك فأنت محيّرة في أمرك

إرن — بالله يا بولين لا تحولي الحقيقة التي ألمسها كل يوم إلى أشباح وأوهام . أفلا ترين أن زوجي كالحجر الصلد لا يتأثر لشيء ولا يشعر بشيء؟ أما أنا فلا أشعرمنه إلا بحق سيادته، فكأنه لم يوجد إلا ليكون حاكمي المطلق وسلطاني البارد المستبد

بولين — (بتهكم) وهل يصح أن يحكمك أحد ، أنت التي لم تخلق إلا الشعور ولمحبة كل شيء والاضطراب من كل شيء ، أنت التي تحيين من نسمة وتموتين من لفحة

إرن — ما أدعي بلوغ الذروة في الرّقي ، وما أتطلب من زوجي صفات أعاظم الرجال . ولقد كنت أرضاه حقيراً فقيراً وأقنع بعيوبه لو أن فيه أقل شعور بالحيـاة . لو أنه يفرح أو يحزن ، إذن لكنت أرفعه على هيكل روحي ، ولكن زوجي متمم ذاته بذاته مصفح بشخصيته ، ويا ليته يبكي مرّة واحـدة لأسكب عليه كل ما أكبت من العطف والحنان في قلبي

بولين — أفما يتسنى لك إشعاره بعطفك عند ما يثور بينكما الخصام ؟

إرن — إنك لا تعرفينه ... إن أمثال هـذا

الرجل لا يثورون ولا يحنقون لأنهم يرون الحق في جانبهم أبدا فلا تتزعزع ثقتهم بأنفسهم. وليتك تنظرين إلى زوجي حين يفيق من رقاده ، فانك لتلمحين على سيمائه التصميم على إعلان حقوقه طوال النهار؛ فهو يفرض حقه على الخدم وعلى الخيل وعلى الكلاب ولا يمكن أن يرتكب خطأ في أي أمر كان مع أي كان . . . وما سمعته مرة يتحدث إلا وهو يسرد قصة يكون غيره فيها المخطئ وهو المصيب.

بولين — ولكنه إذا وقف أمامك يصبح الحق في جانبك على ما أرى

إدرين — أنسيت حقوق الزوج ؟ إنه يلوح بها أبدا لفصل الخطاب بيني وبينه فاذا هو المصيب وأنا المخطئة .

بولين — إسمعي يا إدرين ، لقد كنت أنا الساعية في زواجك كما سعت أمي فزوجتني من قبل. وليس زوجي بأفضل من زوجك فهما فرسا رهان لكل منهما ثروة طائلة ولكل منهما ما تجني الثروة على أصحابها من الكسل والجمود . لقد قذف الآباء الطامعون المجاهدون في سبيل المال إلى الوجود بأمثال هؤلاء الأزواج الذين لا يخطر الزواج على بالهم إلا بعد أن تتحجر قلوبهم وتتعرى رؤوسهم فيهرعون حينئذ إلى الأديرة ليختطفوا من مقاعدها فتيات الجمال والمال . تلك هي طريقة الزواج في هذا الزمان وليس لنا أن نبدلها . لقد اعترفت بالأمر الواقع، لذلك تريني على أتم وفاق مع زوجي لأن حبنا متشابه متبادل ولا خيار في الواجب .

إدرين — إذن أنت في عداد الزوجات اللواتي لا يتمسكن بأزواجهن إلا بقدر تمسك هؤلاء الأزواج بهن .

بولين — لم أفهم ...

إدرين — لا يصعب عليك فهم ما أقول إذا أنت تذكرت ما قاله زوجك ونحن على العشاء حين كان ميشال دافرنيه يقص علينا أسفاره في بلاد اليونان . أفما قال ليثبت حبه للأسفار : لو أنني أصبت بفقد عقيلتي وكنت لا أزال شابا ، فانني أذهب سائحا في تلك الأقطار .

أفما لاحت على وجهك علامات الرضى فكأنك كنت تؤيدين رأي زوجك وتجدين قوله طبيعيا لا غبار عليه .

بولين — وأية غرابة ترين في هذا القول ؟

إدرين — الحق أن لا غرابة في أن يفتكر الزوج سلفا في كيفية سلوانه لشريكة حياته إذا ماتت. وأقل غرابة من هذا أن يعلن الزوج رأيه بحضرة زوجته وأن ترتاح الزوجة إلى مثل تلك الوقاحة .

بولين — تذكري أن الخطأ كامن في المبالغة يا عزيزتي .

ادرين — أتجدين اخلاصي مبالغة ... فما هو تقديرك للرضى المتبادل بين زوجين على تمثيل دور الزواج بالمخادعة والأكاذيب . لا ، إنني لن أرضى لنفسي بمثل هذا الشقاء يستتر رياء بوشاح الحب والاخلاص .

بولين — (وهي تبتسم بتهكم) إذا كنت لم أنتبه لما قاله زوجي ، فما ذلك إلا لأنني كنت مستغرقة في التفرس بملامحك لأقرأ فيها تأثير ميشال دافرنيه بفصاحته الخلابة .

ادرين — لم أفهم

بولين — أما أنا فقد فهمت كثيراً ... فوالله

ما اهتاجت أعصابك إلا المقابلة بين جهل زوجك وعبقرية صديقك القديم

ارن — وإلى م تذهبين بهذا الظن ؟

بولين — إلى أن هنالك غمامة صيف ستنقشع عن قريب . أرى الرجال يستعدون للخروج من الحديقة ، ولعلهم قادمون الينا فخير لك أن تغسلي وجهك فهو مكفهر وقد بدا الاضطراب في عينيك .

ارن — (تتوجه نحو باب الغرفة) بل خير لي أن أضع وجهاً مستعاراً لأتمكن من الظهور أمام الناس بالتصنع والخداع .

المشهد الثاني

بولين وفرجان زوج ارن

فرجان — لماذا تركتك امرأتي وحدك ؟

بولين — أفما أتيت أنت لتقوم مقامها ؟

فرجان — أتيت لأستأذنك في الخروج . إن حضرة المسيو دافرنيه ثقيل الوطأة عليّ بفلسفته وأخباره ، ولهذا أبقيته لزوجك فردينان يتدبر الأمر معه .

بولين — أنت تدعي الانشغال حين تخرج من البيت ولكنك لا تذهب إلا إلى النادي

فرجان — لقد تعود أصدقاء النادي الاجتماع فيه ، وليس لهم أن يخلفوا وعدهم .

بولين — أفلا يخطر لك بعض الأحيان أن هنالك أمراً يجدر بك أن تهتم له ؟ أفلا تفكر فيما يمكن أن يجول في مخيلة زوجتك وأنت تسلمها إلى العزلة والانفراد ؟

فرجان — أنا واثق من أنها على أحسن حال حين أفارقها ، أفما رأيت اغبرار وجهها عند ما كنا على العشاء . دقق في ملامحها بعد ذهابي فلسوف يتضح لك أنها ستعود إلى المرح والسرور . تلك هي عادة أختك: إذا أنا اقتربت منها جللها الكدر، وإذا ابتعدت عنها انبسطت نفسها وزال عن وجهها القطوب .

بولين — خير لك أن تنظر في مداواة العلة من أن تتلهى بوصف أعراضها .

فرجان — ماذا تريدين أن أفعل ؟ لقد لاح لارن أن تستحسن هذه الطريقة ، وما أنا بمضيع أوقاتي في حل الرموز .

بولين — إذا كانت هذه هي طريقتك أيضاً فالخرق بينكما سائر إلى الاتساع

فرجان — يؤلمني ذلك. ولكن ما يهمني شيء إذا كان ضميري مرتاحاً إلى طريقتي . وهل لك أن تقولي لي ما هو قصوري تجاه إرن ؟

بولين — أنت مقصر وبرهاني على قصورك أنك لم تنلها السعادة

فرجان — وهل تظن أختك أنني أنا سعيد بمشاهدتي سحنتها الشاحبة القاتمة؟ كلما زادتني قطوباً زدتها هجراً . لقد قررت أن ألهو خارج بيتي إلى أن يثوب رشد زوجتي إليها

بولين — وما يحل بإرن يا ترى أثناء لهوك ؟

فرجان — إنني أمنحها وقتاً للتبصر في أمورها

بولين — أتريد إخضاعها بالعنف ؟

فرجان — إنها زوجتي وأنا القيم عليها

بولين — هي لنفسها أولا يا فرجان

فرجان — لقد اتخذتها زوجة لي لأوفر لها الحياة المنيئة ، فقمت بواجبي ، فما أنا أطالبها إلا بالهدوء والسكينة واللذة التي يتمتع كل الناس بها

بولين — ليست إرن ككل الناس

فرجان — إننى آسف لذلك ، فلا يلومن الانسان الشاذ غير نفسه . إننى لست مطالباً بالخروج على القاعدة المتبعة . أريد أن أتمتع بالحياة كما هي وإرين تمضى أيامها بالاستغراق والتفكير ، أما أنا فأكره قرع الأوهام ولا أفهم ما هي الأفكار التى يشغل الانسان فيها دماغه إذا لم يتجه إلى تنظيم حياته ؟ على أختك أن تصلح نفسها ومن واجبك أن تدعيها إلى ذلك

بولين — كنت أحاول هذا الأمر منذ هنيهة

فرجان — وماذا كانت حجتها ضدى ؟

بولين — لم يكن لها من حجة عليك غير الحجة التى تدلى بها أنت من فمك

المشهد الثالث

بولين ، فرجان ، إرين

(تدخل إرين فيبدو عليها الاضطراب إذ ترى زوجها)

فرجان — (همسا لبولين) أنظرى، تأملى (بصوت عال) لقد عادت رفيقتك فهأنذا أهرب (يظهر الارتياح على وجه إرين)

فرجان — تأملى واحكى ...

(ينحنى فرجان مسلما ويخرج)

المشهد الرابع

بولين . إرين

إرين — لقد كنت أنا مدار الحديث بينك وبينه

بولين — وما عساه يكون سوى ذلك ؟ لقد اتخذت لهجة الاعتدال فى النصح

إرين — والنتيجة ؟

بولين — هى النتيجة نفسها التى توصلت إليها تجاهك .

المشهد الخامس

بولين ، إرين ، فالانتون ، زوج بولين ، ميشال دافرنيه .

(يدخل الرجلان من الحديقة)

فالانتون — (مخاطباً ميشال) — إذاً لم أتوصل إلى إقناعك

ميشال — ولن تتمكن من زعزعة اعتقادى .

فالانتون — (موجها الخطاب إلى زوجته وأختها) كنت أقنع صديقى بوجوب زواجه .

إرين — بمن ؟

فالانتون — لم نصل إلى حد تعيين العروس ، فقد كنت أقول لميشال : لقد بلغت الثلاثين وأنت رجل مثقف ولك شهرة ومقام فى الكتابة ، فمن السهل عليك أن تجد عروسا ذات جمال ومال. وقد مرت عليك أيام طويلة فى باريس ولم أرك تفكر لا فى الاندفاع إلى العروس ولا فى التسلى بالملاهى .

بولين — آه

فالانتون — إذاً لست عاشقا ، ياصديقى ، ولا شىء يحول دون زواجك ، فما عليك إلا أن تصمم على الزواج ثم تجيل أبصارك فيمن حولك من الفتيات حتى إذا اخترت إحداهن تفكر بعد زواجك فى خلق الحب بينك وبينها، تلك هى القاعدة ولا خير فى العمل بسواها .

بولين لميشال — وبماذا أجبت على هذا النصح؟

ميشال — أما أنا فلا أرى فى الوجود إلا ثلاث حوادث هامة هى الولادة فالزواج فالموت . وكلها متساوية تخضع لنظام واحد . فاذا كان الانسان لا يجيء الحياة مختارا ولا يبارحها مختـارا فالزواج لا يرسو أيضا على الاختيار وهو صنو الولادة والموت. من منا لم يأت الحياة صاغرا ولن يبارحها صاغرا .

لذلك أريد أن يكون الزواج تابعا للبداهة لا أثر فيه لتصنع الانسان وإرادته . أريد أن تكون كلة الايجاب والقبول فى الحب كلة مقدسة تدفعها الطبيعة من مستودع أسرارها كما تدفع الطفل إلى الصراخ حين يستقبل النور، وكما تدفع المحتضر إلى الأنين وهو يبارح الحياة .

إرين — إن الطبيعة تسود ولادتنا وموتنا ولكننى لا أراها تهتم كثيرا بتزويجنا .

ميشال — بلى ، إنها لتهتم إذ أنها تفتح قلبنا لشخص واحد ينحصر الوجود فيه لدينا . تلك هى القوة التى تنور قلب الانسان مرغمافهى أشبه القوى بالناموس الالهى الذى يفتح الأعين للنور ويغمضها للقبور ...

بولين — ولكن الانسان مخير فى زواجه فهو يقدر ألا يتزوج ، وهو مخير فى زواجه بلاحب حتى إنه ليتزوج بالرغم من الحب

ميشال — ذلك لأن الطبيعة التى تستقر فيها ناموس الحياة والموت قد شاءت أن تركز ناموس الزواج على قاعدة الشعور الخفى فهى تنبه الانسان بواسطته متوسلة باكية ثم تهيب به مسيطرة موجعة

ارين — ولكنها مع ذلك لا تقوى على ردع الانسان عن الزواج الموافق لأحوال الأسر والمنفعة الشخصية .

ميشال — إذا نحن ترفعنا عن الطبيعة فلا نفلت من سيطرتها إلا إلى حين ، فهى تتحكم فى الحياة من حيث لا ندرى ، فاذا لم يذهب الزواج بالرجل والمرأة إلى الحب عن طريق المودة والرحمة فان الحب يربط أحد الزوجين أو كليهما برباط الزواج الحقيق خارجا عن أنظمة الناس بالرغم من كل قاعدة مرعية

فالانتون — أما أنا فلا أفهم من الزواج غير شريعتين شريعة الكنيسة والقانون المدنى .

ميشال — لا زواج حيث لاحب . . . ولقد شاءت التقاليد أن تجعل الحب سلعة تسام وعملا يتفق عليه متعاقدان بموجب عهد . ولقد يكون مثل هذا الزواج راسيا على حق الايجاب والقبول ولكننى أنكر عليه كونه أخا الولادة والموت .

بولين — لعلك تعلمت هذه المبادىء فى مدرسة أثينا ...

ميشال — بل تعلمتها فى مدرسة الحياة ، وأنت تعرفين كيف قضيت حياتى .

فالانتون—أما كنت أول رفيق لأخت عقيلتى أيام طفولتها ؟

ميشال — لقد كان مسكنها قرب مسكنى عند ما كان لى أب وأم ؛ وعند ما حرمنى الله الأب والأم قاسمت جارتى الصغيرة ألعابها .

(يدخل خادم ويقول ان عربة مدام فالانتون حاضرة أمام الباب)

فالانتون — (الخادم) حسن فلننتظر

(يخرج الخادم)

بولين لميشال — لقد كنت ضعيفا متألما وأنت صغير ...

ميشال — تلك قسمتى من الدنيا وما الضعف إلا إرث يتلقاه الأبناء عن الآباء .

ارين — ولكن ميشال كان سىء الطبع

ميشال — لا أذكر أننى كنت سىء الطبع يا سيدتى .

ارين — أما أنا فأذكر كل ما كنت تخترعه لتكديرى ؛ وعندما كنت أبكى كنت تقطب وجهك وتذهب دون أن تبالى بقهرى .

ميشال — لعل الصبيان هكذا يكون

(ينهض فالانتون مشيراً إلى زوجته بالذهاب)

فالانتون — (مخاطباً إرين) إننى أعتذر لاضطرارى إلى الذهاب. لقد أتعبنى الصيد اليوم وعلى أن أعود غداً إلى الصيد أيضاً

إرين — ولم لا تأخذ لنفسك راحة من هذا العناء؟

فالانتون — لو كان الصيد عملا لوجب أن تتخلله راحة ، ولكنه تسلية (يتجه فالانتون نحو ميشال ويصافحه)

فالانتون — إلى الملتقى أيها الصديق

ميشال — (يقف هو أيضا) وأنا أيضاً أريد الذهاب فقد طالت زيارتى ، وما كنت لأطيلها لولا أنها زيارة الوداع

إرين — زيارة وداع !

بولين — أنت مسافر إذاً؟

ميشال — لقد عهد إلى بالقيام بدروس فى آسيا الصغرى

إرين — وما يوجب هذا الاسراع يا ترى ؟

ميشال — أمور لها شأنها

(يتجه فالانتون وعقيلته نحو الباب فتلتفت بولين إلى ميشال)

بولين — وهل لك أن تزورنا قبل سفرك ؟

ميشال — سأزوركم ولا شك يا سيدتى

(ويتقدم ميشال ليودع إرين فتستوقفه باشارة خفية)

المشهد السادس

(إرين ، ميشال)

إرين — ماهى هذه الأمور الهامة التى تستدعى إسراعك بالسفر ؟

ميشال — وددت لو أننى لم أنوه بها

إرين — كنت تفضل إذاً أن تطلعنا على سفرك برسالة من بعيد ؟

ميشال — دعى العتاب ولا تلومى

إرين — ما معنى هذه الألغاز ؟

ميشال — لقد سافرت للمرة الأولى ألتمس قوة أحكم بها نفسى ، وما عدت إلا لأتيقن عبث محاولتى . عرفت أننى أسأت إلى نفسى بالرجوع ، فهأنذا أعاود أسفارى

إرين — أفلا يحق لى أن أطلع على هذه الأسباب؟

ميشال — بل لا حق لأحد سواك فى معرفتها

إرين — آه !

ميشال — سليقى أجيبك

إرين — لم أعد أجسر على السؤال

ميشال — إذا كنت لا تجسرين فسأقدم أنا على القول من نفسى

إن هذه الأسفار الطويلة التى ألفتها بين الأطلال وبقايا الأزمنة الغابرة جعلتنى محباً لكل شىء حكم عليه بالزوال لتبقى على الأرض آثاره . لتدع الحاضر ، اتبعينى إذاً إلى مجاهل التذكار ، إذا شئت فلسوف أقودك إلى متنزه جميل تسوده الروعة كأنه أطلال هيا كل مندثرة

إرين — أراك تعود إلى طريقتك القديمة يا ميشال ، فها أنت ذا تريد تعذيبى كما كنت تفعل وأنت صبى

ميشال — عندما قضى عليك بالزواج ، كنت أنت فى الثامنة عشرة وأنا فى العشرين . دخلت أنا الكلية ، ودخلت أنت بيت فرجان . احتملت القضاء كأنه عدل مصدره مجهول ، وما أدرى ما تكون العواطف فى قلب امرأة لم تتجاوز الثامنة عشرة ، غير أننى أعرف ما يشعر به شاب لم يتجاوز العشرين . تعودت أن أراك بعد زواجك

صامتاً صاغراً إلى أن انجلت لى سرائرى فعرفت أننى أحبك . عرفت أن السنين التى توالت علىّ وأنا بقربك قد حشدت من الوجد فى قلبى ما يصدعه. من عرف ماضيه وما تراكم فيه من الهيئات فهو على بينة من مستقبله ، وما كنت لأجهل ما فى نفسى ، فأدركت أن القضاء جعل حبى وقفاً عليك دون من فى الأرض من بنات حواء . قضى لى أن أحبك وقضى علىّ أن أحرمك . اضطهدنى الزمان فهربت منه وفزعت إلى العمل من الغرام . وإذا ضاق مجال العمل عن سلوانى هربت إلى الأسفار، إلى المنفى . سافرت منذ ثلاث سنوات إلى الشرق محاولا إغراق بلابلى فى بحر أنواره ، حملت عينى وقدانطبعت عليها صورتك لعل شعاع الآفاق فى أجمل بلاد الله يمحو جمالك . ولكننى حاولت عبثاً وها أنا أعود إلى تلك البلاد منتزاً بشفائى ، ولكن المريض يتقلب على جنبيه وفى الجنبين مرض وآلام

إرين — قف عند حد الماضى ودع الحاضر فلن أتبعك إذا سرت على سبيله

ميشال — لقد وقفت حيث يجب الوقوف فلن أزيد كلمة على ما قلت

إرين — (بعد سكوت قصير) لا أفهم ما قلته عن الفرق بين عواطف الرجل وعواطف المرأة ، فهل للرجل أن يسلو بالابتعاد والهرب . أما أنا فأرى أول واجب على المحب ألا يهرب من محبوبه

ميشال — هل من برهان على قوة المحبة أشد من الهرب حين لا يجدى الاقتراب غير التألم والويلات ؟

إرين — أفلا ترى أن القيام بالواجب فى القرب أولى من السلوان فى النوى ؟ أتعلم أننى أعانى التضحية ولا تقدم عليها ؟

ميشال — ما كنت أعلم أنك تعانين التضحية لأقدم عليها

إرين — وأنا أيضاً ما عرفتها قبل اليوم

ميشال — وما الذى غيرك وكشف لك سريرتك يا إرين ؟

ارين — لقد طرحت نفسى تقابها؛ وها أنا ذى أراها متجلية أمامى بكل خفاياها وبكل خوفها من أن تفقدك يا ميشال

(تجلس إرين على كرسيها وتغطى وجهها بيديها وتستغرق فى البكاء)

ارين — لقد تعودت أن أحسبك ملكا لىَ .. وهأنذى أشعر أنك قطعة من قلبى فكيف أنسلخ بدون أن أتقطع ألماً ؟

ميشال — عفوك يا ارين لقد آلمتك . وقد كنت أحسب الألم مكتوباً علىّ وحدى .

ارين — عدنى بأنك لن تسافر

ميشال — وماذا يحل بنا يا ترى لو بقيت بقربك؟

ارين — ليكن ما يكون . لينزل المستقبل على بكل ويلاته . إننى أرضى بها ولكننى لا أحتمل بعادك . كن لى ملاكا حارساً يا ميشال. كن تعزيتى فى أحزانى . ليتك تعرف مقدار عذابى . لأتعلق بيدك نافذة الرجاء التى تذر أنوارها على لأول مرة فى حياتى . لنكن مفترقين مقتربين . دعنى أرك وأسمعك . لا تبتعد عنى ، فنبقى كالأخوين نقتسم نصيبنا من الدهر ولكل قسطه من عذابنا الواحد .

ميشال — أراك تنترين بقوتى يا إرين .

إرين — أرانى قوية أنا، لأننى أعتقد القوة فيك.

ميشال — أنت على ثقة من شرفى، ولهذا تجدينى

أرفع من أن أخلط احترامى لك باحتقار مقامك . ولكنك لا تعلمين ما يمكن أن يجول فى قلبى من العواطف التى تلطخ أشرف نزعاتى بقربك .

إرين — لا أفهم ما تعنى

ميشال — لا تنسى أن بقربك رجلا هو سيدك وله الحق فى التمتع بك كما يشاء .

إرين — لست كريما يا ميشال

ميشال — بل لست حجراً ، فالغيرة تقتلنى قتلا

إرين — اسكت

ميشال — إننى إن أهرب فما هربى منك فالدنيا بكل مداها أضيق من أن تضع حاجزاً بينى وبين هذا الرجل الذى يسودك

إرين — (بعد سكوت طويل) لقد شعرت بما لك على . لا أقدر أن أكون لك فلن أكون لسواك

ميشال — أواه ... أتقسمين بالمحافظة على هذا العهد !

إرين — نعم أقسم إذا بقيت بقربى وشجعتنى وحيتنى ، فلسوف تقرأ كل يوم آيات الأمانة فى عينى . سوف أكون لنفسى

ميشال — (يأخذ يد إرين فيقبلها) تشكرك روحى من أعماقها يا إرين

إرين — عد إلىّ لأراك ، فقد رجعت اليوم إلى الحياة

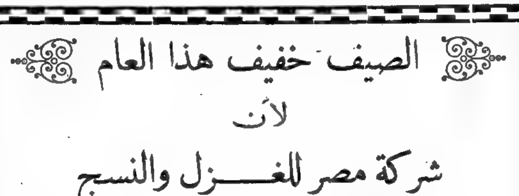
ميشال — وأنا اليوم قد بعثت من عالم الأموات

(يخرج ميشال من باب الحديقة)

المشهد السابع

(بعد أن تشيع إرين حبيبها بنظرات الحب تعود فتستلقى على مقعدها ، ثم يفتح فرجان باب غرفته ويتقدم ببطء من إرين ويضع يده على المتكأ)

فرجان — أنائمة أنت ؟



إرين — لقد أرعبتنى

فرجان — ما كنت أقصد هـذا ، وما كنت عارفاً أنك باقية فى القاعة وقد انطفأت النار فى الموقد . (يأخذ يدها بيده) إن يديك باردتان كالثلج

إرين — دعنى

فرجان — ماذا طرأ عليك ؟

إرين — أريد أن أبقى منفردة

فرجان — أعاودك اضطراب أعصابك ؟

إرين — نعم

فرجان — إنى أفضل أن تكون أعصابك فى ثورتها؛ فانك أجل ثائرة، منك مستسلمة للأسى

إرين — أرجو أن تدعنى وشأنى

فرجان — لن أتركك

(يتقدم فيطوق خصرها بذراعيه فتفلت منه وتتجه نحو باب غرفتها وفرجان يسير وراءها)

إرين — إنك تدوس أذيال ثوبى

فرجان — (ينحنى على أذنها) أريد أن أوصلك إلى غرفتك

إرين — لا ، إنى لا أريد

فرجان — إسمعى

إرين — لا ، لن أسمع

(تدخل الغرفة وتوصد الباب فى وجه فرجان فيبقى أمام الباب ينادى)

فرجان — إرين ... إرين ... إرين ... آه ، سوف ترى

الفصل الثانى

(يرتفع الستار عن الغرفة التى انكشف عنها فى الفصل الأول غير أن المشهد يظهر فى ضوء النهار بدلا من ظهوره على نور المصابيح)

المشهد الأول

(فرجان وإرين ، هو إلى خوان وأمامه كأس شاى يشربها، وهى إلى الجهة المقابلة غارقة فى مطالعة كتاب تحمله بيدها . يقف فرجان بغتة ويتقدم إلى إرين فيأخذ الكتاب من يدها ويناقه)

فرجان — بالرغم مما أوصلتنى إليه من الرغبة عن محادثتك ، لا أرى بداً من اطلاعك على أمور قررتها اضطراراً . لقد مضى الشهر وأنت تشكين الصداع واختلاج الأعصاب ، ويؤلمنى أن تستسلمى لمثل هذه الأوصاب الوهمية وما خفيت عنى أسبابها. غير أنى سأنتهز فرصة انتهاء أجل الايجار لترك هذا القصر والخروج بك من باريس . إن هواءها لايضر بك على ما أرى ، فهل لك ما تقولينه فى هذا الشأن ؟

إرين — لا

فرجان — لقد اخترت مسكنين فى الضاحية لكل منهما حديقته ومناظره الرائعة ، وأبقيت لك حق الترجيح ، لأنك ستقيمين فى البيت أكثر مما أقيم به أنا ، فإن أشغالى تضطرنى إلى الحضور لباريس فى كل يوم ، لذلك أرجو أن تتولى كلتك فى أقرب آن

إرين — (تقف بحدة) قلت لك أن لا حق لى فى إبداء الرأى فى أى أمر كان ، فأنا أعتبر اتحادنا مفصوماً، وليس لنا أن نواجه المستقبل بنظرة واحدة فيا بعد . أنت تبغضنى وأنا أبغضك

فرجان — وهل من مسبب لهذا البغض المتبادل سواك ؟ لقد أحرجتنى. غيرى مسلكك أغير طريق

إرين — وهل أملك تغيير مسلكى معك ؟ إن ما أشعر به لا أقدر على مقاومته

فرجان — إنك الآن على غير ماعهدت من قبل

إرين — وهل كنت إلا ككل فتاة تتزوج مكرهة أحاول أن أخلق الحب خلقاً فى فؤادي فما أجدت محاولتى شيئاً ؟ لقد كنت ألتى حبك فريضة على قلبي كما يلتى الايمان كرهاً إلى الفكر دون اقتناع به فما استفدت غير الشقاء والآلام . أقسم بالله أنني لن أقدر أن أعتاد على حبك اعتياداً . لقد تفحصت أعماق قلبي فلماذا أخدعك وأخدع نفسى

فرجان — (وهو يتميز غيظا) إن كل كلمة خرجت من فمك إنما هى حنث بعهودك وتحقير لواجباتك

إرين — لتكن كلماتى ما تكون فانها صرخة مدوية فى أعماق روحى

فرجان — لا أفهم ما تقصدين

إرين — وأنا أيضاً لا أفهم ما تريد أنت

فرجان — ماذا ترجين يا ترى ؟

إرين — وأنت ما هى آمالك ؟

فرجان — أراك مجنونة ولكل داء دواء

إرين — إذا رأيتنى مجنونة فكن أنت عاقلا على الأقل

المشهد الثانى

(إرين ، فرجان ، بولين)

بولين — (تدخل بغتة) يا لله . ماذا جرى ، أفلا يمكن أن تتفقا ؟

فرجان لبولين — سوف أتركك معها لتتحقق أمرها وتعلمى إلى أين بلغ بها الجنون . دعيها تتكلم فان ما تقوله لا جواب عليه

المشهد الثالث

(إرين ، وبولين)

بولين — أفلا تزال أعصابك في هياجها ؟

إرين — إنها ستزداد هياجاً من يوم إلي يوم ، ومن ساعة إلى ساعة . إن مثل هذه العلل لاشفاء لها

بولين — تذرعى بالصبر يا إرين

إرين — وعلامَ أصبر؟ لقد سمعت أمس تهديده، وها هوذا اليوم يعمل على تنفيذ أحكامه فقد أعلن لى أنه سيأخذنى من هنا . فهو يريد إلقائى فى سجن يكون هو السجان فيه

بولين — مسكينة يا ايرين !

ارين — لقد وصلنا إلى حيث لا منفذ لنا إلا بالطلاق أو ...

بولين — أو ماذا ؟ ...

ارين — إلا الطلاق أو الموت .

بولين — بربك يا ارين اسمعى .

ارين — لقد تقضى الأمر فكونى معى أو فكونى على .

بولين — وهل أكون معك فى مثل موقفك إلا إذا كنت عليك ؟ ماذا تشكين من هذا الرجل الذى يتنحى أمام إرادتك ؟ أفلا يكفيك منه أنه وهو زوجك لايتمتع بحقوق الزوج منك ... أفلا ترينه يفضل الكثيرين ، فهو على الأقل لا يلجأ إلى إغضابك ، ولو كان سواه فى موقفه لما أحجم عن استعمال القوة لارغامك ...

ارين — اسمعى ، يا بولين ، على المرأة ألا تضحى بنفسها لأحد .

بولين — ولكن الواجب يقتضي هذه التضحية من كل امرأة فاضلة .

ارين — لا ، إنى أنكر العظمة والفضيلة على ضحية تنبت فى تربة الكره والاشمئزاز .

بولين — ان الدين يقضى عليك بهذه الطاعة .

ارين — لا ، يا بولين ، ان الدين الراسى على التضحية بكل مبادئه السامية ، لا يقضى بمثل هذه التضحية الراسية على تدنيس القلب . إذا كان إنكار الذات فضيلة فما تدنيس الذات إلا رذيلة لا تنحط عنها رذيلة فى الحياة . أفلا يعلمنا الدين أن الطهارة هى أقوى ما يتزلف به مخلوق إلى الله ؟ وهل من الطهارة أن تستسلم المرأة بلا حب لشهوات حيوان ؟ أهذا هو الزواج ؟ أيمكن أن يمسخ الانسان باسم الشريعة أقدس مافى الانسانية تكاذباً وكذباًورياء؟ أيمكن للمرأة أن ترى فى رجل هادم حياتها ونيرون قلبها ثم تقتسم معه عرة الحياة والموت ؟ ياالله من هذا الدنس! ويالله من هذا العار يلصقه الناس بروح الوجود ولا يخجلون !

بولين — أنت عاشقة يا ارين .

ارين — وما هو برهانك على ما تدعين ؟

بولين — ان البغض سلبي،أما الحبة فايجابية؛ ولا يتفوه الانسان بمثل ما تتفوهين به دون أن تحفزه قوة إيجابية مستقرة فى أعماق روحه .

ارين — هى افتراضك صحيحاً أفلا ترين فى الحب قوةأشد من قوة البغض تهيب به إلى الخلاص؟

بولين — ولكن من يضمن وأنت على مثل هذا التمرد أنك لن تعاملى زوجك الثانى كما تعاملين زوجك الأول الآن ؟

ارين — لست أنا الآن تلك الفتاة التى تزوجت منذ عشر سنين ، هى غيرى تلك العروس التى اقتلعت من مقعد دروسها اقتلاعاً لتطرح على سرير رجل مجهول . لقد صرت (أنا) الآن فأنا أعرف ما أريد وما لا أريد وما لا طاقة لى باحتماله . إن فى أعماق قوة تهيب بى للانعتاق أو للموت .

بولين — اسكتى بحق الله يا ارين . ويلاه كيف الخلاص ، وما العمل ؟

ارين — لقد آن أوان العمل . أنت زوجتنى فعليك انقاذى الآن .

بولين — أنت إذاً مصرة على عزمك .

إرين — وهل بإمكانى أن أحول عنه ؟ إذهبى إلى زوجى وأعيدى عليه مالا يريد الاصغاء إليه .

بولين — ولكن للطلاق شروطاً ، ياإرين ، ولا يمكن الحكم به دون أسباب مبررة ثابتة .

إرين — إذا توافقنا على الافتراق سهلت أمامنا الوسائل . إذهبى إليه وقولى له كل ما ترين من خطورة الحالة . إن هـذا الرجل يخشاك ولا أراك إلا مدركة ما يجب عليك القيام به تلافيا لأشد الاخطار .

المشهد الرابع

(إرين ، بولين ، خادم)

الخادم — إن المسيو فافرنيه بالباب يستأذن فى الدخول

إرين — ليتفضل

المشهد الخامس

(إرين ، بولين)

بولين — أى حديث سيدور بينكما يا ترى؟أهو عالم بما يجرى؟

إرين — لا، إنه لا يعرف شيئا

بولين — مسكينة أنت ياأختى .

(تقبل إرين بولين وتخرج)

المشهد السادس
(إدين ، ميشال)

ميشال — أستميحك العفو لأنني أتيت

إدين — لك عفوي ياميشال، وقد كنت في غنى عن الحضور الآن

ميشال — وعدتك أن أبتعد عنك ، وأقسمت ألا أقترب منك ، ولكنني تمثلتك معذبة فأشفقت على نفسي وعليك .

إدين — أفما تتوقع أن يدور القضاء دورته ونحن مفترقان ؟

ميشال — لقد صرت أحـذر الآمال وأخاف الأماني .

إدين — لئن غبت عن فرسمك ماثل في فؤادي وأينما اتجهت بأنظاري أراك بجبينك الشاحب ينم عن مرض فيك تحتم عليّ شفاؤه

ميشال — وهل لمثل غرامي أن يشفى ؟

إدين — أريد محو ما ارتسم على وجهك من شقاء ، أريدك سعيدا تتذوق لذة الحياة ياميشال .

ميشال — وهل لإرادتك أن تهدم ما بيننا من حوائل ؟

إدين — قل لي ، ياصديقي ، أفلا تراني وأنا غائبة عنك ماثلة أمامك كما أراك أنا ماثلا أبدا لعيانى

ميشال — أجل إنني أراك . أراك في غيبوبة فكري ، فتشاهدك بصيرتي بأجلى ممـا يشاهدك بصري ، وأشعر أنك لي دون أن يدنس غرضنا لؤم أو يحوم فوقنا ارتياب .

إدين — يا لله ما أشبه روحك بروحي! فكأن تفكيري إمتداد لتفكيرك، أو كأنني شعلة منبثقة من نورك . كلانا مترفع عن الدنيا طامح إلى الحق الصريح

ميشال — أصحيح ما تقولين ؟

إدين — إصغ إليّ : إنني منذ زمان مديد أفكر في طريقة تجمع بيننا بلا لوم أمام الله والناس

ميشال — وكيف يكون هذا ياإدين ؟

إدين — إن القضاء يدور لنا أو علينا في هذه الساعة . إن أختي تخاطب زوجي في هذه اللحظة لتطالبه بحريتي

ميشال — وهل تؤملين النجاح في هذا المسعى ؟

إدين — لا أعتقد أن هذا الرجل سيتمسك بالبقاء معي في جحيم دائم الاضطرام

ميشال — ليتني أشاطرك الأمل يا إدين

إدين — عليك أن تسافر الآن إلى أن أعد المعدة للخطوة الأخيرة

ميشال — أتقضين عليّ بالابتعاد عنك الآن

إدين — أطلب ابتعادك حتى تعود إليّ بعد سنة إذا أنا نجحت في مسعاي ، وإن أنا فشلت فمجال الأرض رحب والأمر لله

ميشال — ويلاه !

إدين — إذا قضي علينا بفراق لا لقاء بعده ، فإننا نلبس الحداد على حياتنا ونبقى طاهرين أمام ضميرنا فشك ومثلي لا يتخذان الخداع سبيلا لسعادة مكذوبة

ميشال — أنت حياتي يا إدين

إدين — إنني أواجه الحقيقة فلا أخادع نفسي

ميشال — ولكنني لن أطيق الفراق إلا على ذكرى وأمل؛ فاملئي عينيّ من نور عينيك ويديّ من حرارة يديك (يتقدم إليها بحركة ملؤها الجوى فتتراجع عنه)

إدرين — لا تدخل الاضطراب إلى نفسى . لا تفقدنى الثقة بذاتى . إياك أن تفسد إيمانى بعزة نفسى . إذا كان الدهر يقضى لنا فى هذه الساعة ، فلا تلطخها بوصمة ضعف أندم عليه فى أى زمان . دعنى أنا خطيبتك يا ميشال

ميشال — أواه ، إننى أعبدك (يضع على جبينها قبلة) أنا خطيبك المطيع لأمرك

إدرين — لقد طالت زيارتك ، فاذهب الآن

ميشال — أأذهب دون أن أعلم ما قضى الله فى أمرنا ؟

إدرين — سأبلغك الحكم فى حال صدوره

ميشال — ولكن من يضمن لى أنك ستتمتعين بحريتك بعد اليوم ؟ أفما تحاذرين أن يمنعك زوجك من الخروج وأن يراقبك فلا تتمكنين من الكتابة إلىّ ؟

إدرين — (تشير بيدها إلى الحديقة) أدخل إلى الحديقة وانتظر إلى أن نعلم ما قدر لنا

(يتوارى ميشال فى الحديقة)

المشهد السابع

(إدرين ، بولين)

بولين — أذهب ميشال من هنا ؟ لقد خفت أن يدخل زوجك فيراه أو يلتقى به فى البيت وهو على ما هو عليه من هياج فلا نأمن سوء العاقبة

إدرين — هو يرفض إذن ؟

بولين — سوف تسمعين حكمه من فمه فهو آت

المشهد الثامن

(إدرين ، بولين ، فرجان)

فرجان — أهذه هى المؤامرة الرائعة التى كنت تدبرينها مع أختك يا إدرين

بولين — لم يكن من مؤامرة بيننا

فرجان لإدرين — أهــذا ما كانت تضمر كل آلامك العصبية ، لأجل التوصل إلى هذه الحجة كانت كل هذه المحاولات

إدرين — أنت تعلم أننى ما اتخذت تجاهك مرة واحدة طريق الخداع والمداجاة فما أخفيت عنك تمردى . لقد أعلنت لك بكل صراحة أننى لا أحبك ! والآن أكرر القول بأننى ضقت ذرعاً بك وبحالى ولا قبل لى بالاحتمال . أفما آن لنا أن نفك أغلالنا ونضع حداً لهذا العذاب ؟

فرجان — يا للغرابة أن تنتصبي أنت المثلة ضلال القلب والتمرد على الشريعة والعفاف لتطلبي منى الرضوخ لك أنا الممثل كرامة الأخلاق وقداســة العادات وشرف المجتمع وحق الشرع ؟

بولين — إسمع يا فرجان ، مالك وللاعتصام بالمبادئ والشرائع ، فما نحن نناقشك فى مواد القانون

فرجان — وفيم تناقشينني إذاً ؟

بولين — لقد حاولت من جهتى أن أمنع البركان من الانفجار فلم أفلح

فرجان — أشكرك على هذه المحاولة

بولين — كن عادلا يا فرجان ، كن شفيقاً ، أتوسل إليك باسم حبتى لأختى واعتبارى لك أن ترفع نفسك إلى أرقى مراتب العظمة

فرجان — لقد حسن لدى أن تتخذك أختك واسطة بيني وبينها فى هــذا الأمر ، وأنا أجد من حقى ألا يتوسط أحديثنا فيما لا يعنى سوانا ، فالحديث سيكون إذاً بينى وبينها

إدرين — لا ، يا بولين ، لا تذهبى ، لا تتركيني وحدى معه

فرجان — لا تخافى فلن أرفع يدى عليك

وقد تتوقين إلى مثل هذه المعاملة الخشنة تتخذينها حجة عليّ ، إذهبي يا بولين ، فأنا صاحب الأمر هنا

بولين — لله ما أقساك

بولين — (تتقدم إلى إرين وتقبلها قائلة) اغفري لي عجزي فما ادخرت جهداً في سبيل مرضاتك

المشهد التاسع

(إرين ، فرجان)

إرين — إلى أية دركة تريد قذفي يا فرجان ؟

فرجان — لا أقصد إلا إعادة رشدك إليك

إرين — لقد أبديت لك الأسباب التي توجب فراقنا ، فما هي الأسباب التي تدعوك إلى التمسك باتحادنا ؟ لا حجة لك إلا إذا ادعيت العشق وتظاهرت بحب مكذوب

فرجان — ما أدعي أني أحبك لأني لا أحبك، ولكن لي عليك دعوى القتيل على قاتله ، فأنت مزقت حياتي تمزيقا

إرين — إذاً أنت طالب انتقام ، أنت تقضي على بكفارة لا نهاية لآلامها

فرجان — إنني إن قصدت ذلك لا أكون إلا مستعيداً ذرة من حقوقي الضائعة . ولكنني لا أخرج ببرهاني من هذه المقدمة . لقد عقدنا يوم زواجنا اتفاقاً وكلانا بصحة العقل والجسد وهذا الاتفاق صحيح لا غبن فيه ولا تغرير وهو سالم من شائبة التزوير ، وبموجب هذا العقد أصبحت رجلا متزوجاً أي رجلا مزدوجاً أدبيًا وماديًا ، وقد قمت من جهتي بكل تكاليف العقد بلا تردد ولا مخالفة ، وأنت الآن تتقدمين بطلب على غاية من الغرابة ، فأنت تريدين أن أشطر شخصيتي إلى شطرين فأصبح مطلِّقاً ومطلَّقاً ، فأضطر إلى بيع نصف بيتي ونصف مفروشاته وأن أفرغ نصف كيسي ، ثم أذهب إلى المجتمع فلا أجد فيه غير نصف مقعد ونصف استقبال ، وكل هذا لأجل النزول عند إرادة أعصابك المختلجة ، ولأنك لا تجدين لذة في عشرتي . والله إنها لأسباب مضحكة مبكية ، ولن تجدي رجلين فيهما مسكة من عقل يوافقانك عليها

إرين — أما أنا فانني أكره التظاهر بغير الحقيقة وأحتقر زواجاً يرسو على الخاتلة والنفاق ، فانني حين أقول لك إن الزواج هو الشعور بالسعادة من توليد السعادة في القرين لا أسمع منك غير كلمات الشرف والعهود المبرمة والاتفاقات المسجلة ، وكل ما هنالك من مضحكات ما أشبهها بالمبكيات

فرجان — لقد أردت أن تمدي نفسك غريبة في بيتي فاتخذت الوقاحة سبيلا للانشقاق عني ، لذلك رأيت أن أعاملك المعاملة التي لا تستحقين سواها . إن بيدي اتفاقاً مسجلاً أقودك للرضوخ له بالرغم منك، فأنا لا أشعر نحوك إلا بأمر واحد، وهو حق عليك

إرين — في الحياة حقوق وواجبات يا فرجان وأنا أحترم كل شريعة تؤمن الانسان على ماله ولا أبحث فيها ، ولكن الذي لا أفهمه بل أتمرد عليه هو القانون الذي يجعل الانسان ملكا لانسان مثله ويحكم المخلوق بالمخلوق ما دام فيه نسمة حياة

فرجان — إنك تنكرين الزواج وهو يرسو على مبدأ احترام العقد وصيانته من تلاعب الأهواء

إرن — لقد كان زمان هنا في هـذه البلاد نفسها يمكن فيه لأحد الزوجين أن يحل الزواج بمجرد اختياره

فرجان — ومن قال لك هذا ؟

إرن — أحد المحامين

فرجان — وهل توصلت بالهوس إلى هذا الحد إلى استفتاء المحامين ؟

إرن — لقد كان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر ، حين كان المجتمع يفوق مدنية اليوم عظمة وتنظيما ، فما أطلب إذاً مايزعزع دعائم الكون. إن قرينا أبغض قرينه بالأمس ويبغضه اليوم ولن يحول عن بغضه غداً لهو ذو حق صريح وعلى الشريعة أن تحميه . لقد كان من الواجب أن يحترم حق الانسان على نفسه لأنه يسمو على فطرة كل نظرية ترتد عنها خاسئة متحطمة. أى شيء أصدق من العاطفة وفى العاطفة كل الحياة ؟

فرجان — أحمد الله لأن شريعة هـذا العصر لا تجيز الطلاق حتى ولو طلبه الطرفان بالتراضي

ارن — وما هي حاجة الطرفين إلى الشريعة إذا اتفقا على الطلاق ؟ ان القانون لم يوضع لاقامة عدل قائم بنفسه ، ولكنه ضروري لانصاف المظلوم وأخذ حقه من ظالمه وماذا يفيد تشريع لا يمنع النخاسة ويحطم الأغلال الجائرة ؟

فرجان — التجئي إلى أى منفذ فالأبواب كلها موصدة في وجهك .

ارن — لن أعدم مخرجا أنطلق منه .

فرجان — لا ، لن تجدي . أنا لم أرفع يدي لضربك يوماً ، ولم أقصر في تقديم ما تحتاجين اليه . لست زانياً، ولم يصدر على حكم بجرم وما من سبب غير هذه الأسباب يمكنك أن تتقدى به أمام الحاكم ...

ارن — ولكنني أتمكن من جرك جراً إلى طلب الطلاق

فرجان — لن تستطيعي .

ارن — وإذا أنا أوقفتك موقفاً تتحرج أنت فيه؟

فرجان — ولا هذا يجديك نفعاً .

ارن — سوف ترى .

فرجان — وماذا أنت فاعلة يا ترى إذا أنا أوصدت عليك الأبواب كلها ؟

ارن — أترك السجن وأهرب .

فرجان — إذا فررت من مسكنك أرسل الجنود يقبضون عليك ويعيدونك اليه ...

إرن — وإذا قضيت أنا على نفسي وأصبحت امرأة لا يجوز لرجل شريف أن يبقيها عنده

فرجان — سوف أحرسك .. يلذ لي ألا أعيد حريتك إليك . أنا حاكمك حتى الموت وفي هـذا الحكم كل لذتي . القانون في جانبي ، فأنت في يدي ولن تفلتي منها

إرن — ويلاه لقد منعت النخاسة في جميع الأقطار وأبطلت التجارة بالعبيد . لقد نقض العقل كل تعهد أبدي، ويمكن لمن نذر حياته لله أن يتحرر من نذوره ولا يمكن لامرأة أن تتحرر من عبوديتها لزوجها ـ أين الحرية في العالم ولما تزل فيه قوانين

تمنع الانسان أن يكون مالكا لنفسه، ونفسه عطية الله له .

فرجان — سوف تألفين هذه العبودية . لقد قلت لك إنى أعمل على شفائك ، فسوف نبارح باريس فيتسع لك المجال فى عزلتك لتدبر أمرك وتعديل مبادئك المتطرفة .

إرين — أهذه هى كلمتك الأخيرة ؟

فرجان — الكلمة التى لا كلمة بعدها

إرين — (تضم يديها بحركة التوسل) لا لن تكون طاغياً ، ارحمنى ولا تدفعنى إلى الهاوية

فرجان — (يدفعها عنه) أرجوك أن تترفعى عن مثل الحركات الصبيانية إذ لا فائدة منها . لقد مضى زمن العناد والثورة ، لقد قررت ما وجب اتخاذه من وسائل وما أقرره لا مرد له .

إرين — (ترتمى على قدميه) الرحمة .. الرحمة .. الرحمة ! أنقذنى . .

فرجان — إن إرادتى لا تتزعزع ، شددى نفسك واتبعى أوامرى ، ولسوف يأتى يوم تزول فيه سكرتك فتشكريننى لأنى صنتك من الضلال وقدت خطواتك على السبيل السوي .

(يخرج فرجان شامخا بأنفه من الباب المؤدى إلى غرفته)

المشهد العاشر

(إرين وحدها ثم يدخل ميشال)

(تسقط إرين على ركبتيها وهي مضعضعة ثم تلوح على وجهها بغتة علامات التردد والعزم فتقف وتتجه نحو باب الحديقة وتفتحه منادية : ميشال)

ميشال — (يهرع إلى إرين) مالك . . . ماذا جرى ؟

ارين — (ترتمى بين ذراعيه) أنت .. أنت .. ها أنا ذى بين يديك

« يتبع » فليكس فارس

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدول — عابدين)



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر و فى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

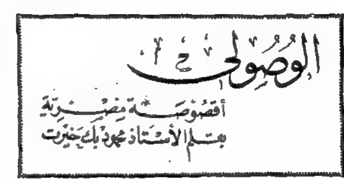
بدل الاشتراك عن سنة
قرش
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء ــ القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٤١ — ٧ شعبان سنة ١٣٥٧ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العــدد



بناحية (أبو النمرس) من قرى مديرية الجيزة رجل في العقد الرابع مديد القامة نحيف الجسم خفيف الشارب، وقدمات أبواه وهو صغير فشبّ يعمل أجيراً فى أطيان الملاك كغيره من فقراء الفلاحين .

وكان هـذا الرجل طموحا حسودا لا ينحدر إلى ركن غرفته المسقفة بسعف النخيل والقش قبل أن يفكر في أحوال هؤلاء المحظوظين الذين يستعبدون الزّراع فى فلاحة أراضيهم وهم يقيمون فى أحياء القاهرة هانئين مطمئنين فيتملكه الغيظ ويفيض صدره عليهم بالحفيظة

ينظر إلى تلك الغرفة المظلمة الرطبة فيذكر ما لهم من القصور والضياع ، ويتناول طعامه البسيط الحقير فيتمثل لعينيه ما ينعمون به من ألوان الطعام الشهى . ولا ينتقل في الصباح المبكر إلى الحقل وهو بعيد عن حدود القرية حتى يخيل إليه أنه يرى عرباتهم الفخمة وخيولهم المطهمة تجرى بهم وهم غارقون فى النعيم .

وهكذا يدب البغض فى نفسه ويأخذ فى النمو على تعاقب الأيام . وبخاصة كلما زار الناحية صاحب الأرض التى يعمل فيها وهو يصيح فى رجاله وفيه : « يظهر أنك كسلان يارجل ، فمن الخير أن تلتفت لعملك وإلا طردتك »

وعند ذلك يكب بفأسه على الأرض وهو يكظم غيظه ويلعن الأقدار التى حكمت هـذا الرجل فيه، وقد أخذت النار تنفذ إلى جسمه، وشررها يتقد فى عينيه، والفأس ترتج بين أصابعه الرجفة حتى لتحدثه نفسه بأن يهوى بهـا على رأس الشيخ مناع ذلك المالك فيحطمها لولا بقية من رشد يذكر عنـدها ما هو فيه من مرارة اليتم والفاقة فيهدأ ثورته ويعود إلى عمله؛ حتى إذا ما انصرف الشيخ ألقى بفأسه على الأرض ساخطا وعاد إلى التفكير .

وكان ربحه من مزاولة الزراعة ضئيلا ، فتركها وانخرط فى سلك العمال الذين يشتغلون فى تطهير الترع وتقوية الجسور . ثم عدل عن هذا أيضاً وفكر فى أن يشترى مقدارا كافيا من التنباك يمر به على هؤلاء العمال وهو يتنقل فى شتى البلدان التى يكثرون فيها بسبب مشروعات الرى الجديدة. حتى اجتمع لديه من المـال قدر لا بأس به، فحدثته نفسه أن يزاحم صغار المقاولين الذين يعهد إليهم فى تنفيذ تلك المشروعات فنجح وأصبح فى رغد نسبى من العيش . ولـكن عطية (وقد اشتهر بعطية الجحش) كان يطمع فى أكثر من ذلك : فى ضياع وقصور، وفى جاه يساعده على تحقيق أمانيه التى لا تقف عنـد حد والتى كان من أشهاها أن يقف يوما ما فى وجه ذلك الشيخ ليصفى معه حساب ذلك الماضى القاسى .

وإذا كان عطية قد تعلم مبادىء الكتابة والقراءة وحفظ القرآن وقد وفق إلى جمع هذه الثروة فان كل ذلك لم يغير من أخلاقه التى انبعثت من الشر واتجهت للشر؛ وما كان أبوه إلا لصاً خطيراً، ولا أمه إلا امرأة سليطة اللسان شريرة . حتى إن

عمه السرى تبرأ منه كما تبرأ فيما مضى منها فكان من الذين حلت عليهم لعنته واستوجبوا حقده

واتفق أن هذا الرجل الكريم كان ذات ليلة عائداً إلى داره فشعر فى جنح الظلام بمدية تنوص فى عنقه وفى صدره تخر صريعاً . وقد أقام هذا الحادث رجال الحفظ وأقعدهم ، وبالرغم من عثورهم فوق جانب من سور الحديقة على آثر كف ملوثة بالدم فانهم لم يهتدوا إلى القاتل ولا الى تلك المدية . وقد رأوا أخيراً أن وقوع هذه الجريمة كان لمجرد الانتقام فاتجه خاطرهم إلى عطية الجحش لأنه ابن أخيه وابن أبيه ... وقد قوى هذه القرينة اختفاؤه من ابو النمرس مسقط رأسه، فحكم عليه بالاعدام غيابياً. ويظهر أن القتيل كان قلقاً قبل وقوع هذا الحادث، وأحس دنوّ أجله فأقام الشيخ مناع صديقه وصياً مختاراً على ولده صادق . وهكذا انتقل قصره وأملاكه التى فى أبو النمرس إلى يد الشيخ فقام على إدارتها وعنى بتربية القاصر ، حتى إذا حصل على شهادتى الدراسة الابتدائية والثانوية — كما حصلت عليهما وسيمة كريمته — أوفده إلى احدى جامعات التجارة بسويسرا، كما خصص لها أساتذة يحاضرونها فى الدار لإتمام ثقافتها

أما صادق ففتى صبوح الوجه حلو الشمائل، كما أن وسيمة فتاة جذابة رشيقة الحركات ، فكان من ذلك ومن ظروف اجتماعهما تحت سقف واحد أن وقعت من نفسه كما وقع من نفسها . وساعد على نمو هذه العاطفة الطبيعية ما سبق فى نية أبيها من أن يزوجه منها إكراما لذكرى ذلك الصديق

وهكذا كانا يتكاتبان فى رسائل تفيض تارة بالحب وتارة بأحوال المجتمع أو الزواج وما تطور اليه فى العصر الحاضر ، تعد من أسمى النماذج فى مثل هذه البحوث . ويتلخص رأيها فى الزواج فى كتاب قيم من بين ما كانت ترسل اليه به :

القاهرة فى ٢ فبراير سنة ١٩١١

عزيزى صادق

تسلمت كتابك الحبيب إلى المقام فى تلك البلاد العجيبة بجبالها الشامخة البيضاء مما جعلنى أغبطك على اجتلاء مناظرها الساحرة . وكم كان لشرحك مشاهد المتزحلقين والمتزحلقات فوق الثلج من الأثر فى نفسى حتى خيل إلىّ أن أهمّ بالطيران نحو هذه الربوع لتشترك عيناى فى الاستمتاع بها مع عينيك الجميلتين .

وكم سرنى أيضا إقبالك على الدرس وأنت تشيد بطلاوة الموضوعات التى تتلقاها كما سرنى أنك من رأيى فيما أوجزته لك عن الزواج فى العهد الحالى .

والواقع أن حجر الزاوية فى الزواج السعيد هو الحب المتبادل بين الزوجين لأنهما متى امتزجت روحاهما توحدت مصالحهما وامتنعت من بينهما أسباب الشحناء والقلق . ومثل هذا الحب يقتضى اختلاطاً بين الجنسين، حتى إذا كانت فى طبيعة كل منهما جاذبية نحو الآخر كامنة ظهرت ونمت . ثم إن آباءنا وأمهاتنا فى عهد الحجاب كانوا يمقتون مثل هذا الاختلاط وينفرون منه ، ولكن الواقع أن الرجل فى ذلك العهد ما كانت لتقع عيناه إلا على زوجه . وكذلك المرأة ، فكانت علاقة الحب تنشأ بينهما بحكم هذه الصلة الضيقة واستمرارها . وكان يساعد على ذلك ما كان الناس عليه من كرم الخلق وإنكار الذات . فكان للزواج قديماً طابع روحى شفاف لا يتأثر بمغريات المادة . أما فى عصرنا الحاضر

فقد قام منها سد منيع بين العيون والنور فلم يعد الزواج إلا صفقة بين طرفين لا يجمعهما ذلك الرباط المعنوى المتجانس وإنما هو رباط من المصلحة فى صورها المختلفة من مال أو جاه أو غيرها . وهكذا يبيع الفتى شبابه لمن هى أكبر منه سناً ليعيش عالة عليها . وتسلم الفتاة فى نفسها لا لشىء إلا إشباع أهوائها ومطامعها . وكل ذلك تحت ستار من الشريعة التى ما كانت حمايتها لغير ما يتفق مع النواميس الطبيعية

وعندى أن الفتاة التى تسقط لإطعام طفلها الجائع أو مساعدة أمها المحرمة البائسة لأكرم ألف مرة من تلك العذراء التى لا ترقى إلى سرير الزوجية إلا لتتناول المال الذى فوقه لترضى به شهوات زينتها وجنونها . ولذلك فكل علاقة تتم على أساس بعيد عن تلك النواميس ، ولا تقوم إلا على غاية مادية أو مطمع يدفع إليه حب الذات ، ليست فى نظرى إلا دعارة فى أوسع معانيها وإن اختفت عنا حقيقتها تحت غلاف من عقد رسمى على يد مأذون

وكثيراً ما يتعدى هذا الاستهتار أشخاص المتزوجين إلى آبائهم وأمهاتهم فيضحون بهم على هيا كل أغراضهم كأنهم من بعض السلع التى يتجرون بها لايهمهم من أمرها أن يكون المشترى لها شيخاً أو شاباً . ولذلك أصبحنا اليوم أمام أزمة خطيرة قامت حائلا دون تحقيق الغاية المشروعة من الزواج وهى أن يكون طرفاه شريكين متضامنين لمواجهة أعباء الحياة

وما دمنا على هذا الاعتبار من المغالاة فى المهور لمجرد التباهى ، ومن سوء التدبير فى اختيار الشريك الصالح ، ومن البعد عن الروح الحقيقية التى لا يترعرع الزواج إلا بها — ما دمنا لا نتزحزح عن هذا الأساس فقل على الأسرة السلام

(رسيم)

وقد بلغ من حب الشيخ لابنته أنه كان لا يتعرض لحريتها فى الكتابة إلى خطيبها على أى نحو تراه وهو يعلمها مثقفة عاقلة رزينة حتى كانت دائماً البادئة فى عرض ما تكتب عليه . وكم كان يلتذ للموضوعات التى تخوضها والأسلوب الذى تصوغها فيه . وكثيراً ما كان يناقشها وتناقشه وهى تعترف بخطئها إذا رأته على حق ولكنها ما كانت لترميه بالخطأ إذا ابتعد عن الصواب ، فيدرك هذا الأدب منها وهو ينظر إليها فى حنان ورفق معجباً بشعورها ممتزاً بها

وكان الشيخ قد جاوز الستين وهو نحيل يشعر بالضعف فأقعده الروماتزم الذى أصابه عن الحركة وأعجزه عن الاستمرار فى إدارة مزارعه ومزارع صديقه حتى زارهذات ليلة رجل كان قد تعرف به فى بعض مجالس جيرانه اسمه عبد الرازق بك ناصر فى العقد الخامس من عمره ، ولكنه قوى تدل ملامحه على الختل والشراسة ، إلا أنهما كانتا تختفيان وراء حديثه اللطيف أو التكلف وبين حبات السبحة التى كان لا يفتأ يحركها بين أصابعه

وكان الشيخ متاع يملك فى أبو المترس حوالى مائة وخمسين فداناً جيدة التربة ، ومثلها لصديقه ، إلا أنها ارتفعت إلى مائتين بعد أن باع الشيخ منزله الذى لم تعد لصادق حاجة به لبعده عنه فعرض عليه هذا الزائر أن يستأجرها جميعاً . وكانت فرصة سانحة فلم يتردد الشيخ فى إجابة هذا الطلب ، وقد قبل الرجل الشروط التى عرضها والقيمة التى قدرها كما

أنه أبدى استمداده لدفع نصف إيجار المدة كلها معجلا. وهكذا عاد إليه فى اليوم الثانى ومعه صورتان من العقد، أخذ يتلوه عليه حتى إذا انتهى وقعاعليهما واحتفظ الشيخ بإحداها أودعها خزانته

وبحكم هذه الصلة الجديدة كان عبد الرازق بك يزور الشيخ من وقت لآخر. وكثيراً ما كان يلتقى بوسيمة وهي تطالع كتاباً أو تهيء رسالة أو تشتغل بالابرة فى زركشة، فيحادثها وتجيبه ولكن بغير أن ترفع عينيها فيه لأنها كانت إذا نظرت إليه تولاها الفزع وشعرت بالخوف. وحاجباه الكثيفان يرتفعان وينخفضان كلما تقلصت عضلات جبينه عندما يتكلم حتى لكأنهما من بعض تلك الكتل الحديدية التى يستعين بهـا الرياضيون فى حركاتهم البدنية. وتحت كل حاجب منهما حفرة غائرة استقرت عند قاعها إحدى عينيه الصغيرتين وها تبرزان وتختفيان وتتسع حدقتاها وتضيقان بتأثير الحديث كأنهما عدستا جهاز تصوير شمسى تتحركان بتأثير ما يغمر المرئيات من الظلمة أو النور. وكان إذا ضحك انفرجت شفتاه الغليظتان عن أسنان صفراء برز من بينها نابان كنابى الذئب. وفى تموجات ضحكه ما يشبه قرقرة المـاء فى قنينة « النرجيلة » أو هدير الأمواج وهى ترتطم بجوانب خليج ضيق

وكان إذا يئس من تلطفها معه ساد سكوت طويل يتناول فى خلاله هـذه الفتاة الخلابة الشفقة التمالية التى تجرح دائماً عزته بسلوكها هذا معه، وهو رجل غني جبل المنـدام فى ثوبه الأفرنـكى، وساعته الذهبية وحذاؤه اللامع ورباط رقبته الحريرى وهو يتموج حول دبوس من اللؤلؤ الثمين رشقه فيه وكان قد علم بحكم اختلاطه بأبيها بالصلة التى بينها وبين خطيبها ـ فتثور نفسه. ويتمنى لو أنها فى يوم من الأيام تكون له فينزلها عن كبريائها ويخضعها لسلطانه.

وكانت هى أيضاً فى خلال هذا السكوت تحلل هذا المخلوق الغريب الكريه الذى ينم ظاهره عن باطن غامض خبيث. ثم تحدث نفسها كيف يطمع مثل هذا الرجل فى أن يكون يوماً ما زوجاً. بل من هى تلك الفتاة التى تقبل أن تدفن شبابها بين ساعديه إلا إذا كانت على شاكلته: والطيبون للطيبات، والخبيثون للخبيثات

أما صادق الذى كان قد انتهى من دراسته فقد اضطر إلى البقاء فى سويسرا نظراً لقيام الحرب العالمية الماضية. وكانت مدة الايجار قد انتهت فانقطع المستأجر عن زياراته، وحمدت وسيمة الله على هذه الفرصة التى من شأنها أن تنقطع صلته بأبيها

وكانت كتب صادق قد انقطعت عن وسيمة فأرجعت ذلك إلى صعوبة المواصلات بسبب الحرب العامة. ولـكن كم كانت دهشتها حين وصل إليها كتاب منه يشكو فيه ما حل به من الضيق ويلعن هذه الحرب التى كانت سبباً فى عدم وصول نقود إليـه ... حتى باع ساعته وخاتمه وبعض ملابسه وكتبه ليحفظ بثمنها القليل رمقه ...

ولكن الشيخ من عهد انتهاء العقد احتجب فى غرفته وظهرت عليه آثار الهم وبواعث التفكير. ولقد كانت وسيمة فيما مضى إذا أقبلت عليه هش لها وأنس بها فأصبح إذا وقع نظره عليها اضطرب وأخذ يحدثها وصوابه بعيد ونظراته سابحة ضالة. وهو مع ذلك يحاول أن يظهر أمامهـا فى مظهره الطبيعى، ولكن تكلفه ما كان ليخفى عليها وهي

حيرى لا تفهم سبب هذا التغير الذى طرأ عليه على أنها لم يفتها أن تكشف سر آلامه بأسلوب غير محسوس ، إلا أنه كان يتعلل بالمرض وبشواغل الدنيا ؛ فاذا ما سألته عن هذه الشواغل عاد فنفاها وهو يتململ ويرسل اليها نظرات دامعة كأنه يتوسل بها عندها لتكف عن تعذيبه .

وعند ذلك رأت أن تلجأ إلى الجانب اللين وهو أمنها ولكنها ما كادت تخاطبها فى شأن أبيها حتى انهمرت دموعها وخنقها البكاء

— لاتلحى يا ابنتى فتعجل الأيام الباقية له بعد تلك الصدمة التى أصابته

— أية صدمة يا أمى ؟ وكيف لم أعلم بها ؟ تكلمى بالله . إن هذه الصدمة إذا كانت تتناولنى أنا أيضاً فقد أصبح من حقى أن أقف عليها . وإذا كانت تقتصر عليه وحده فإن لى هذا الحق أيضاً لأنه أبى ...

— إن ذلك المستأجر الذى تعهدينه خاطبه فى شأنك

— فى شأنى أنا ؟ تريدين أنه يسعى للزواج منى ؟ ان أبى لن يقبل ذلك . على انى لاأرى فى ذلك مايدعو إلى هذا الهم الذى أصبح فيه . فلم لم يصفق فى وجهه ولم لم يطرده ؟

— هيهات ياوسيمة

— هيهات ؟ إذن وراء هذا الطلب ماهو أمر منه

— لقد انخدع أبوك بمظهر هذا الرجل بل هذا الشيطان . ولعلك تذكرين أن عقد الايجار كان لثلاث سنوات، فهذا العقد لم يتجدد لانتهائه، ولكن لأن ذلك الرجل جعله عقد بيع وبسلامة نية أبيك اكتفى بأن يتلوه عليه ثم احتفظ بصورته من غير أن يطلع عليها .

— وهكذا ...

— وهكذا لم يكن تعجيله لنصف الايجار وموافقته على كل شروط أبيك إلا ليوهمه بعقدرته من جهة، وليلهيه عن حقيقة مابيته له من جهة أخرى . وهكذا سجل العقد وانتقل إلى اسمه التكليف فأصبح المالك بغير منازع . ولو أن ما وقع اقتصر على ما كنا لهان الأمر ولكنه تناول أطيان ذلك الفتى المسكين . وقد لوح هذا المجرم لأبيك بأن المجلس الحسبي قد يقف على مثل هذا التصرف فيقع تحت طائلة المسئولية وتصبح سمعته مضغة فى أفواه الناس . ولعله بهذا التلويح كان يحاول الضغط عليه ليقبل ماطلبه بشأنك . ولكنه رفض .

وعند ذلك انحدرت مدامعها وقد أكبرت هذا الأب الرحيم الذى عز عليه أن يبيعها بالرغم من هذا الذى أصبح فيه . وقد أدركت أيضاً سر انقطاع النقود عن خطيبها كما أدركت خطر الهاوية التى أصبحوا جميعاً عند حافتها فعزمت على مواجهة أبيها، ولكنها أسرعت قبل ذلك فباعت ماكان لها من حلى وأضافت إلى ثمنه ما كانت قد اقتصدته ثم أرسلت بذلك كله إلى صادق وهى توصيه بالاقتصاد فى مثل ذلك الوقت الذى ارتفعت فيه أثمان الحاجات وأصبحت الأطيان يكاد إيرادها لايكفى إلا لمصاريفها وماعليها من الأموال . وبعد ذلك اندفعت إلى غرفة أبيها

— أنت هنا ياوسيمة ؟

— نعم يا أبى

— لقد ساءت صحتى ؛ وكم أتمنى لو أن ساعتى تحين فاستريح من هذا العذاب

— بل تعيش يا أبى . وستنجلى هذه الغمرة

إن شاء الله . ولكنى أطلب اليك شيئاً أرجـو ألايغضبك

— وما هو يا ابنتى ؟

— أن تجيب ذلك الرجل إلى ماطلبه منك بشأنى

— أنا ياوسيمة ؟

— نعم .

— ومن العجيب أنك أنت التى تطلبين ذلك .

فلم َ ؟

— لأنتقم

* * *

لم تقدم وسيمة على هذه التضحية إلا لتصون أولا سمعة أبيها التى تهددها المستأجر بذلك التلويح، لأنه بحكم هذه الصلة لا يجرؤ على تنبيه المجلس ولو من طريق غير مباشر . ولكن تبقى بعد ذلك أطيان صادق التى يجب أن تعود له وما كان له يد فى ضياعها . هذا ما فكرت فى توجيه جهودها إليه بعد أن تفرض سلطانها على هذا الغاصب العاتى الحقير

ومن غير شك أن سروره بتمام هذا الزواج كان بشيراً بوقوف الحظ إلى جانبه وقد امتلأت يده من تلك الفتاة الجميلة الجموح وأصبح سيد أبو النرس بتلك الأطيان الواسعة وبما له من ثروته الخاصة

ولكنه مع ذلك يذكر مابينه وبينها من التفاوت فى السن ، وأنها كانت مخطوبة فتى فى ربيع الصبا ونضرة الشباب، فكان مجرد تسرب تلك الذكرى إلى خاطره يزعجه ويكدر عليه صفوه . نعم إنه قطع خط الرجوع على تلك العلاقة بعقد زواجه منهـا . ولكنه كان يريد أيضاً أن تنساها هى وأن ينصرف قلبها إليه وحده ، فاشترى لها حلياً ثمينة ونفحها مبلغاً من المال وفيراً كهدية رأى من الواجب أن يتقدم إليها بها على أثر ذلك العقد

إلا أنه بعد كل هذا يعود فيشعر بالفارق بينها وبينه من حيث الثقافة وكرم المنبت ، فكان كلما هم بالتحدث إليها فى شأن الغرض من هذا الزواج ينحل عزمه ويقف لسانه فى فمه . وهكذا مر ّ شهر واثنان . حتى إذا ضاقت نفسه أمسك بأطراف شجاعته ولـّمح لها بغرضه ؛ فأرسلت ضحكة ساحرة ساخرة وهى تقول : لم َ هذه العجلة وقد أصبحت لك ؟ ولـكن الذى تطلبه أدعى إلى الصبر والتمهل حتى أروض نفسى عليك فنمتزج ونأتلف . أما قبل ذلك فلا يكون الزواج إلا معنى واحـد هو الاغتصاب ولا أظن أن نفسك الرقيقة ... ترضاه

وعند ذلك يغلب عليه الخجل ويتقهقر . وقد خيل إليه مع ذلك أنها بدأت تجاهد نفسها لتنسى ذلك الذى كان أحق بها منه . وهكذا يمر شهران آخران ...

وكانت أم صادق على أثر وفاة زوجها تقيم فى دار الشيخ وهى لا تجهل ما بين ابنته وولدها من الصلة، وأن النية كانت متجهة إلى زواجها منه؛ فلما رضى لها أبوها غيره انكسرت نفسها وغلب الحزن عليها وهى شيخة مضعضعة فقضت نحبها . وكان فى ذلك فسحة جديدة تحول بين عبـد الرازق بك المتحرّق وبين أمنيته

ولكن وسيمة فى خلال ليالى المأتم طرق أذنها همس بين بعض الزائرات عن ذلك الزوج الذى صارح أباها بأنه لم يسبق له زواج مع أنه تزوج من اثنتين على التعاقب ماتت إحداها مسمومة والأخرى محروقة. وعند ذلك اضطربت نفسها واسودت الدنيا

فى عينيها ، لأنهما إما أن تكونا آثرتا الموت على شراسة هذا الرجل؛ وإما أن يكون هو الذي قضى عليهما . وليس مثل هذا يبعيد عليه وهو الذى ماتت نفسه فدس إلى أبيها ذلك العقد المزور

ولكن الذى شغل بالها وأفزعها أنها ربما كان لما عنده مثل هذا النصيب أيضا. وعندئذ تفكر فى العودة إلى حجر أبيها ثم تسعى فى الطلاق على أية صورة . إلا أنها تعود فتصطدم بذلك الغرض الذى ضحت بنفسها من أجله وهى لو فعلت ذلك لقضت على كل ما هيأت نفسها له ومهدت لهذا الوحش سبيل الخروج ظافرا بما حصل عليه دون جزاء . فشد ذلك من عزمها وضاعف شهوة الانتقام فيها وقد أصبح عليها أن تنتقم لا لأبويها وحبيبها فحسب ولكن لبنات جنسها أيضا .

لذلك رأت من حسن الرأى أن تأخذه باللطف والحيلة لتكشف حقيقته ، فلما عادت إلى داره وأثر الحزن باد فى عينيها هشت له فغمره السرور ولمس فى ذلك دليلا جديدا على تقدمها فى طريق نسيان غريمه .

وتشاء المقادير أن يسافر لشأن من الشؤون وكان قد نسى سلسلة مفاتيحه ومن بينها مفتاح مكتبه فأسرعت تفتش فى أدراجه حتى وقع نظرها على حزمة من خطابات مرسلة من بعض المقاولين بعنوان « عطية الجحش » وكانت تعلم أن هـذا الرجل هو الذى حكم عليه لقتله والد حبيبها . فما الذى جمل هذه الرسائل تستقر فى هـذا المكتب ؟ وما هى العلاقة التى تربط زوجها بهذا الرجل ؟ وبينما هى فى سبيل جرد ما بقى من تلك الرسائل

وجدت أن إحداها خطاب مرسل من نفس ذلك القاتل وفى أسفله الرد عليه . وعند ذلك انتفضت مذعورة وكأنما استيقظت من حلم مزعج عنيف . لأنها رأت أن خط الخطاب لا يفترق فى شىء عن خط زوجها . إذن لم يكن ذلك القاتل غير هذا الذى تسكن معه وحدها فى تلك الدار . وقد وجدت أيضاً فى درج آخر مدية ذات حدين ملوثة بدم متجمد فكاد يغشى عليها وقد ارتجف جسمها وزاغ بصرها ولكنها تمالكت نفسها وأعادت كل شىء إلى مكانه وتلك السلسلة حيث وجدتها .

وكانت فترة الأربعين قد انقضت ، وسيعود من سفره فى مساء الغد ، وهو لا بد سيكرهها على تنفيذ ما يطلب منها بعد أن صبر عليها وفرغ صبره، فلم تر إلا أن توقف مأمور القسم القريب على كل ما اهتدت إلى كشفه

ولقد وقع الذى حسبته، فأنها ما كادت تستقبل زوجها حتى ضمها إلى صدره وهو يقول : هذه المرة لن يقبل منك أى عذر. فحسبى تلك الشهور الطوال التى حالت بينك وبينى . تعالى يا حبيبتى. ثم جلس إلى جانبها فوق منضدة بالغرفة ، ولكنها ابتعدت عنه فاقترب هو منها قائلا :

يظهر أنك لازلت تفكرين فى ذلك الأبله الذى قطعت عليه سبيل كل أمل فيك . ثم لم لا يستمتع الكهول كالشبان بحسنات الحياة ؟ ومع ذلك فهل يظهر شبابك الغض إلا إلى جانب شيخوختى . أو يبدو رونق شعرك الفاحم إلا إذا جاوره هـذا الشعر الأبيض الذى يكلل رأسى ؟ اعلمى يا وسيمة

أن أنفاسك العاطرة هي كنزي الذي يعيد إلى حرارة الحياة ، وأن سحر عينيك ليبعث في عينيّ النابلتين القوة والنور من جديد . فلم تقفين بيني وبين هذه السعادة ؟ تعالي يا حبيبتي . اقتربي مني

ولكنها مع ذلك ازدادت بعداً ثم التفتت تسأله :

— قل لي أولا أصحيح أنك لم تتزوج من قبل ؟

— لقد صارحت أباك بهذا

— ولكن الناس يقولون إنك تزوجت من قبل باثنتين

— كاذبون . وحتى لو صح هذا فاذا فيه ؟

— ولكنهم يقولون أيضاً إن إحداها ماتت مسمومة والأخرى محترقة

— ليكن كل هذا . ولكن اعلمي أن الحياة مرحلة قصيرة يجب أن نجتازها من طريق المال والجاه والحب . وقد يخدع الأغبياء مظاهر التقوى بالأسارير التي تشقّ جبيني . وبهذه المسبحة التي تحرك حباتها أصابعي . وما كانت الأولى إلا سطور دهائي وتدبيري ، ولا الثانية إلا الحبل الذي أشد به على عنق كل من يقف في طريقي . وإذا كنت قد تزوجت باثنتين قضتا نحبهما على الصورة التي ذكرت فليس لأي كان حساب بشأنهما عندي

— وعذاب الضمير ؟

— ها . ها . وهل تريدين أن يكون لمن يسعى إلى مباهج الحياة ضمير ؟ لم تكن الحياة في أي عصر إلا شعلة تسعرها المصلحة ويذكيها حب النفس . فلا تظني أن رجل اليوم تغير عن رجل الماضي فكلاهما واحد في البطش وان اختلفت وسائل كل منهما

— وشرف النفس ؟

— لا نصيب لها منه ولا من الوجدان والرحمة وهذه الخرافات التي ينكرها كل من يريد أن يحيا . ولقد كان رجل القرون الغابرة اذا نازل خصمه ترك له السبق في الطعن ولو مات مدفوعا إلى ذلك بفروسية ذهب زمنها . وكان قرني اذا صرعني ندم وبكاني . أما اليوم فقد يقتلني في الصباح وفي المساء ويقبل على الطعام والشراب والنساء كأن ماجرى لم يكن : هذه هي شريعة العصر الحاضر عصر المادة . وأخيراً ، فادمت زوجتي فلا مناص لك مني

— بالقوة ؟

— بكل الوسائل . والآن لا أطلب عندك إلا كلمة واحدة نعم أولا .

— لا

— ولكني لازلت أحتفظ بمدية غير بكر ... لأنها جربت كيف يكون مصرع كل من يتحداها تغذي حذرك واعلمي أني قادر على أن أغيبها في صدرك فألحقك بتينك الراحلتين وإلا لا أكن أنا عبد الرازق بك تامر ...

— أو عطية الجحش

— ماذا ؟ أوقفت على هذا أيضا ؟ إذن فلتذهبي في أثرهما .

وعند ذلك انطلق إلى غرفة مكتبه فخرج رجال الشرطة من مكامنهم . حتى إذا عاد والمدية في يده أحاطوا به

وهكذا نفّذ حكم الاعدام وانتصر الحق .

محمود خيرت
(٢)

في جوف الليل

للشاعر الهندي الفيلسوف " طاغور "
بقلم السيد فخري شهاب العبيدي

« دكتور ... دكتور »

استيقظت من نومي العميق في جوف الليل فزعاً مذعوراً ، فاذا أميرنا « دوخين بابو » ... فقدمت له كرسياً بالياً أجلسته عليه ، ونظرت إلى وجهه في شيء من القلق والاهتمام ... ثم ألقيت على الساعة نظرة فاذا هي قد جاوزت منتصف الثالثة صباحاً .

قال « دوخين بابو » وقد علا وجهه شحوب ظاهر ، واتسعت عيناه :

— « إن أعراض المرض قد عادت إليّ ، ودواؤك ذاك لم يفدني في قليل ولا كثير »

فأجبته في استحياء :

— « أخشى أن تكون عدت إلى الشرب مرة أخرى »

فقال وقد بدا غضبه :

— « لقد أخطأت خطأ فاحشاً ... فليس هو الشراب ... بل عليك أن تسمع القصة كاملة لتفهم الأسباب الحقيقية »

وأدرت السراج الذي كان يتقد في المشكاة شاحباً باهتاً فازداد ضوؤه قليلا وتعالى منه الدخان؛ ثم أسبلت ردائي على كتفي وجلست على صندوق أستمع قصة « دوخين بابو »

قال :

— «من نحو أربع سنين تمضت أصبت بمرض خطير كاد أن يودي بحياتي؛ ثم أبللت من مرضي بعد أن اشتدت علي وطأته وقرب ما بيني وبين الموت، فاسترجعت صحتي كاملة في شهر أو بعض شهر . . .

« وكانت زوجتي — خلال ذلك — لا تعرف الراحة معنى في لحظة من لحظات الليل أو النهار ، حتى لكأنها كانت تدافع رسل الموت عن الاقتراب من الباب ! ودام ذلك منها لا تطعم شيئاً ولا تأخذها سنة من الكرى ، ولا تفكر في شيء سواي

«وكان الموت كنمر خُدِعَ عن فريسته استلت من بين فكيه فنبيت عنه .. فلما غُلب هذا الغلب ، أصاب زوجتي بضربة قوية من براثنه ، فاذا هي بعد قليل تضع طفلاميتاً، وإذا دور عنايتي بها قد حلّ»

قال: «ولكن ذلك كان يسوؤها، فتصرخ قائلة:

— « إبتعدوا بضوضائكم من غرفتي هذه ابتغاء مرضات الله ... »

« .. كان يزعجها كل شيء ؛ فلو ذهبت إلى غرفتها في الليل وقد اشتدت عليها الحمى فأحرك المروحة لأروحها وكأني أروح نفسي بها ، تنتبه منزعجة ..

«ولو أخرت موعد طعامي من أجلها يكون ذلك مدعاة لتوسلات واستعطافات ترفعها إليّ ..

« ... ولو ذهبت لأقدم لها أبسط ما أستطيع من أمر خدمتها ، جزاء ما صنعت بي ، يكون لذلك في نفسها أسوأ الوقع ، فتصرخ قائلة :

« ليس للرجل أن يضج كل هذا الضجيج ! »

« أظنك رأيت حديقة داري حيث ينبسط أمامها نهر الكنج ... وهناك في ناحية الشمال كانت تقوم غرفة نومها ومن حولها حديقة اتخذتها لنفسها تكتنفها أشجار الحناء ؛ وقد كانت تلك البقعة من الحديقة هي البقعة البسيطة المتواضعة ، إذ لم تكن ترى في أصص الورد تلك الأسماء اللاتينية الطويلة

(*) من كتاب «من روائع طاغور» الذي سيصدر قريبا

معلقة على أوتار الخشب كأعلام مزوقة خافقة ؛ بل كانت أنواع الياسمين وزهور الليمون والورد هي التي تسود المكان

« وكانت تحت شجرة من أشجار «البُكُل» رخامة بيضاء اتخذتها زوجي مَغسلاً تغتسل فيه مرة أو مرتين في النهار يوم كانت لها صحتها ونشاطها . وكانت هذه الرخامة أيضاً مجلسها في أمسيات الصيف حين ينتهي عملها ، تطل منه على النهر فترى الغادين والرائحين فيه دون أن يشعروا بوجودها !

« وفي ليلة مقمرة من ليالي نيسان (ابريل) أبدت زوجتي رغبة في الخروج إلى رخامتها تلك بعد رقاد دام أياماً في سرير المرض ، لتستبدل بجو غرفتها الخانق جلسة في حديقتها هذه ... فحملتها في عناية كبيرة ووضعتها تحت الشجرة حيث تساقطت عليها بعض زهورها ، وأطل القمر من بين فروع الأشجار

« وقد كان السكون يشمل كل ما حولنا ، فلما نظرتُ إلى وجهها — وقد كانت إلى جانبي تحت الظلال القاتمة — واستنشيتُ عبير الزهور ، ترقرقت عيناي بالدموع ، فدنوت منها وأخذت إحدى يديها النضة الحارة بين يدي فلم تمنعني ، ثم بعد أن جلست كذلك هادئاً بدأ قلبي يخفق خفقاناً شديداً ؛ فقلت لها :

« لن أستطيع يوماً أبداً أنسى هذا الحب ! »

« ضحكت زوجتي على أثر هذا ضحكة كان فيها بعض معاني الفرح والسرور ، وكان فيها بعض معاني الشك والارتياب ، وكان فيها أثر من التهكم المرير!

« لم تقل ما يدلّ على أنها أجابت جواباً بيناً ، ولكن ضحكتها تلك التي أرسلتها كان من جملة معانيها أن ما قلت ليس مقبولاً مُستساغاً ، بل ولا هي ترضاه!

« ... لم يكن عندي من الشجاعة ما يكفني من أن أحبّ زوجي حباً مجرداً عن الخوف من ضحكتها الحادة تلك ؛ فكل ما أصطنع لها من الأحاديث في غيابها يصبح مبتذلاً تافهاً عندما أكون في حضرتها !!

« ... إنك لتستطيع أن تمضي في الكلام حين تخالف في الرأي ؛ ولكن « الضحكة » لا تقرع بالحجة ولا تقابل بالبرهان ؛ وذلك ما يجعلني أقف بين يديها لا أنبس بشيء ! »

قال : « ثم ازداد ضوء القمر إشراقاً ، وصدح طائر من طيور « الككو » طويلا حتى ظُن أنه مأخوذ أو أصابه مسّ من الجنون ! فعجبت وأنا في مكاني هادئ لا أبدي حراكا : كيف تبقى «عروسُ الككو» في مثل هذه الليلة قليلة الاهتمام كذلك؟!»

قال : « وبعد أن لم تفد أنواع الأدوية زوجتي اقترح علينا الطبيب أن نبدل الهواء فأخذتها إلى « الله آباد »

وعند هذا الحد من الكلام توقف «دوخين بابو» فجاءة وظل صامتاً، ثم فحص وجهي بنظرة أجالها فيه وبدأ يجيل الفكر، وقد ألقى رأسه على يده ، فبقيت أنا الآخر كذلك صامتاً

وارتجف لهب المصباح في المشكاة .. وارتفع في جو الغرفة طنين البعوض واضحاً ؛ ثم إذا «دوخين بابو» يباغتني بتبديد شمل السكون راجعاً إلى قصته ، فقال:

« عالج الدكتور « ماران » زوجتي طويلا ثم علمت — من بعد ذلك — أن هذا المرض لا شفاء منه ، وأنه قد كتب على زوجتي المسكينة أن تتحمل ذلك حتى نهاية حياتها !

« عندئذ قالت زوجتي : « إذا كان مرضي هذا لا يشفى ، وليس ثمة أمل بموتي قريباً ، فلم تقضي أيامك مع هذا الميت الحي ؟ أتركني وارجع إلى أعمالك »

قال : « وكان دور ضحكي منها قد حلّ لولا أني لا أقوى على « القهقهة » مثلها فأجبتها في حشمة يتطلبها موقفي ، مؤكداً أقول :

— ما دام في جسمي حياة ...

فقاطعتني قائلة: « كفاك .. كفاك .. لست في حاجة إلى أن تقول أكثر من هذا، لأن سماعي إياك تقولها يبعث في نفسي الثورة.. ويحبب إليها ترك الحياة!

« ... لست أدري أصارحت نفسي بهذا الذي أقول أم لم أصارحها به حينذاك ، ولكني أعلم الآن علم اليقين أني كنت سببا من العناية بذلك العليل الذي لم يكن في شفائه رجاء

« ومن الواضح أن تكون! كشفت مللي الخفي بالرغم من خدمتي لها ...

« ... ما كنت أدرك يوم ذاك أنها كانت تستطيع أن تقرأني كما يقرأ الصغار كتب « قراءاتهم الأولية » الخالية من معقد الكلمات ... ولكني الآن لا يزاولني الشك في ذلك »

قال : «وكان الدكتور «هاران» من طائفتي التي أنتسب إليها، وكانت لي في داره دعوة دائمة ليس لها انقطاع ... وبعد بضع زيارات قدمني إلى ابنته

« لم تكن ابنته متزوجة ، مع أنها كانت قد جاوزت الخامسة عشرة ، وقد اعتذر عن هذا التأخر أبوها بدعوى أنه لم يجد من يزوجها إياه من أبناء طائفته ؛ على أن الشائعة تقول إن سبب تأخرها هو مولدها الموصوم بالعار !

« ولم تكن لها غلطة غير تلك ، وذلك ما جعلني أتحدث إليها في شتى الموضوعات وأبحث وإياها ألوانا من الأسئلة والأحاديث إلى ساعة متأخرة من الليل قبل عودتي إلى الدار حيث كان يجب علي أن أقدم الدواء لزوجتي في الوقت المعين له.. ولم يكن ليخفى على زوجتي أني كنت في دار الدكتور «هاران» ولكنها ما كانت تسألني مطلقاً عن سبب ذلك التأخر الطويل

« ... كانت غرفة المريضة تتراءى لي موحشة مزعجة فكنت لذا أتغافل عن العناية بزوجتي وأتناسى غالباً مواعيد دوائها .

« ... وكان الطبيب قد اعتاد أن يقول لي أحياناً « إن هؤلاء الذين لا أمل في شفائهم يكون لهم الموت عتقاً ... فهم ما داموا على قيد الحياة يقلقون أنفسهم ويشقون الآخرين ! » وهو قول مسموح به في « الأحوال الاعتيادية » فأما أن يقال هذا وزوجتي على حالتها تلك فشيء لا يستساغ ولا يجوز أن يذكر أبداً ؛ ولكني كنت أفترض في الأطباء قسوة القلب في مثل هذه الظروف فلا يبالون ما يقولون . »

قال : « وكنت يوماً جالساً بالقرب من إحدى القماصير إذ سمعت زوجتي تقول بغتة : يا دكتور ! لم أراك جادا في إعطائي هذه الأدوية التي لا طائل فيها ؟ إن حياتي حين تكون مرضاً دائماً يكون من الخير أن تفكر في قتلي بدلاً من معالجتي ؟ ! »

ثم سمعت الدكتور يقول لها : « عليك ألا تتحدثي بمثل هذا الحديث ! » . . . ومتى انصرف الطبيب ذهبت إلى غرفتها وألقيت بنفسي إلى جانبها، فقالت وهي تضرب ناصيتي بلطف : « إن هذه الغرفة حارة ، فاذهب إلى نزهتك المعتادة ، إذ لولا عنايتك بي في كل مساء لفقدت شهية العشاء »

« ونزهتي المعتادة هذه معناها الذهاب إلى دار الدكتور «هاران» . وقد كنت — أنا — الذي قلت إن بعض التمارين البسيطة ضرورية للصحة والشهية لتناول الطعام ؛ وأنا الآن جد واثق من أنها كانت تتناسى عن ذلك !

« . وقد كنت بليداً حقاً ، إذ ظننت مطمئناً إلى أنها كانت يومئذ غافلة عن هذا الخداع . »

وهنا توقف « دوخين باو » عن الكلام واعتمد برأسه على يديه وظل كذلك صامتاً برهة من الزمن ؛ ثم إنه قال : « أعطني كوبة ماء » فناولته وشرب ثم استأنف الحديث .

قال : « وفي يوم من الأيام أبدت « مونوراما » ابنة الدكتور رغبة في رؤية زوجتي ، وما كان ذلك

ليرضيني تماماً . ولكن لم يكن لي عذر في الرفض ، ولذلك جاءت إلى دارنا في المساء

« كان مرض زوجتي يومئذ قد تعاظم وجاوز المعتاد ، وكان من عادتها إذا اشتد بها المرض أن تضطجع صامتة هادئة أو تقبض أصابعها علامة ما تقاسيه من ألم النزع ...

« كنت جالساً بجانبها ، وكان يسود ما حولنا السكون ، ولم تكن قد التمست مني أن أغادرها ، إما لأن قوى الكلام فيها كانت قد خارت إلى هذا الحد ، أو لأنها كانت تستشعر الراحة في بقائي بجانبها أثناء نزعها المؤلم الشديد !

وكان مصباح النفط قد وضع بقرب الباب خشية أن يؤذي عينيها ، فكانت الغرفة يسودها الظلام والسكون ولم يكن يسمع فيها غير حسرة تفرج بها كربها حين تخف عنها وطأة المرض لحظة أو بعض لحظة . »

قال : « وفي عين هذا الوقت كان مجيء « مونوراما » ووقوفها بالباب ، فكان الضوء ينعكس على وجهها فيجلوه واضحاً فانتفضت زوجتي وقبضت على يدي قائلة : —

— « أوكي [1] ؟ »

« وفي هذه الحال ، كان يفزعها أن ترى شخصاً غريباً يقف ببابها ، فإذا هي تتساءل بهمسات تقول : « أوكي ؟ أوكي ؟ ! » فأجبتها في أول الأمر : لست أدري ! ولكني شعرت في اللحظة التالية كأن شخصاً ألهب بدني بالسياط فتداركت قائلاً : ألا تعلمين بأنها ابنة الدكتور ؟ فاستدارت إليّ ونفضتني بنظرة لم أقومها على أن أحدق في وجهها ، ثم التفتت إلى القادم الجديد قائلة بصوت ضعيف :

— أدخلي .. ثم قالت لي : جيء بالمصباح ..

« دخلت « مونوراما » الغرفة وبدأت تكلم زوجتي قليلاً ، وإنها لكذلك إذ جاء الدكتور يعود مريضته .. وكان قد جاء من الصيدلية معه بزجاجتين من الدواء . فأخرجهما قائلا لزوجتي :

— أنظري ! هذه القنينة الزرقاء للعلاج الخارجي ، وتلك للعلاج الداخلي . وكوني شديدة الحذر من أن تخلطي بين الاثنتين فإن هذا سم زعاف ! » ثم نبهني أنا أيضاً ووضع الزجاجتين على المنضدة إلى جانبها ، فلما أراد أن ينصرف نادى ابنته لتذهب معه ، ولكنها أجابته قائلة :

— لم لا أبقى يا أبي وليس هنا من يمرضها ؟!

فتحركت شجون زوجتي عند ما سمعت منها ذلك وأجابتها تقول :

— لا تزعجي نفسك فإن عندي خادمة عجوزاً تعنى بي كأمي .

قال : « وإن الطبيب لمنصرف مع ابنته إذ نادته زوجتي قائلة :

— دكتور .. لقد طال جلوسه في هذه الغرفة الضيقة الملأى بالأثاث . أفلا تأخذه إلى الهواء الطلق ؟

فالتفت الدكتور نحوي وقال يخاطبني :

— سآخذك إلى نزهة على ضفاف النهر ، وبعد تردد وامتناع نزلت على طلبه .

.. ثم انصرفنا ، وكان الدكتور قد نبه زوجتي مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الزجاجتين قبيل خروجنا

« ... تناولت طعامي ليلتئذ في دار الدكتور ، ثم رجعت إلى الدار متأخراً فإذا بي أرى زوجتي قد انتابها ألم شديد فسألتها :

— هل اشتد بك الألم ؟!

« ... ولكنها لم تكن تقوى على الجواب فاكتفت بأن نظرت في وجهي . وقد رأيت — حينذاك — أنفاسها تتردد في صدرها بمشقة وجهد شديد ! ، فأرسلت في طلب الدكتور ..

(١) كلمة بنغالية معناها : (من هذه ؟)

« وما كان الطبيب ليفهم سر هذا الألم أولا ولكنه سألها :

— هل ازداد الألم عن قبل ؟ هل استعملت ذلك الدهان ؟

قال ذلك وتناول الزجاجة الزرقاء من مكانها على المنضدة فوجدها خالية !

... فسألها الطبيب في ثورة وحنق ظاهرين :

— أو أخذت هذا العلاج خطأ ؟ ! هل فعلت ؟ !

فأومأت برأسها اشارة الايجاب !!

« ... فأما الطبيب فقد ركض ليحضر جهازاً خاصاً يستخرج به السم المستقر في معدتها ! وأما أنا .. فقد سقطت كمن فقد الوعي ..

قال : « وكما تحاول الأم الحنون أن تهدئ من طفلها وطأة المرض فكذلك أراحت زوجي رأسي على صدرها ، وبلمسات أصابعها كانت تريد أن تبثني ما كان في نفسها من الأفكار !

« .. كانت بتلك اللمسات الخفيفة توحي إلى بالصبر ، وتمنيني بخير تؤول إليه الأمور ، وتعزيني عن نفسها بأنها ستموت مرتاحة سعيدة ، وذلك ماسيجعلني سعيداً أنا أيضاً ..

« .. ورجع الطبيب بآلته ولكن الآلام المبرحة كانت قد أودت بحياتها ... »

ثم تناول جرعة من الماء ، وقال :

« ياله من حر شديد ! » ثم مشى إلى الشرفة ورجع ثم استدار اليها ثم عاد منها .. كمن يريد أن يهرب من الحرفيستعصي عليه .. ثم جلس واستأنف حديثه من جديد .

وتبينت منه أنه لم يرد أن يطلعني على الطرف الأخير من القصة ولكن قوة خفية ساحرة منى سيطرت عليه فاجتذبت البقية منه اجتذاباً ، فقال :—

« ... كنت بعد زواجي من مونوراما » كلما حدثتها في شيء مسترسلاً معها في الحديث رمقتني بنظرة رزينة قوية حتى ليخيل إليّ أن في ذهنها عني بعض آثار الشك التي ما كنت أقدر على أن أتفهمها تماماً !

« وفي ذلك الوقت عينه .. بدأ هيامي بالشراب ! »

قال : « وفي أمسية من أمسيات الخريف الباكر كنت أتجول مع « نوراما » في بستاننا على ضفة النهر ، وكان الظلام حولنا يشعرنا أننا في عالم خيالي ؛ والهدوء لايعكره شيء حتى ولا انتفاض أجنحة الطيور المستغرقة في نومها العميق ، بل لم يكن على جهتي الممشى الذي كنا نسير عليه غير ذوائب السنديان الأسترالي يحركها النسيم .

« وشعرت « مونوراما » بالتعب استولى عليها فاضطجعت على تلك الرخامة البيضاء متوسدة يدها وجلست — أنا — بجانبها فكان يخيل إليّ أن الظلام الشامل قد تكاثف بعضه مع بعض حتى بدت رقعة السماء التي كنت أحدق فيها مكتظة بالنجوم ! وكان صرير بعض الحشرات تحت الأشجار يشبه تموج صوت رقيق في طرف الصمت السفلي .. »

قال : « وكنت ليلتئذ قد شربت قليلا فكأن قلبي كان رقيقاً ، سريع التأثر ؛ فلما نظرت إلى « مونوراما » في ثوبها الفضفاض ولونها الشاحب وكانت عيناي تعودتا رؤية الظلام — أيقظ ذلك الذي رأيت فيّ شوقا لايستطيع لساني التعبير عنه . »

قال : « وتبدت أطراف الأشجار بغتة في مثل هيئة الحريق تعلوها حافة البدر ملونة بلون غلات الحصاد مشرقة النور تساقط الضوء على ثوب المضطجعة الأبيض ، فما كان لي أن أملك نفسي بعد ذلك . فاقتربت منها وأخذت يدها بين يدي وقلت لها :

— « مونوراما » ! وربما كنت لا تصدقين ...

ولكني ... لن أستطيع يوماً أن أتناسى مثل هذا!

« وفى اللحظة التى بدأت بها هـذا الـكلام تذكرت أني كنت قد قلت مثل هذا الشخص آخر

«وفى عين هذا الوقت جاء الصوت من بين ذوائب الشجر والبدر المنير ، ومن وراء ضفة الكنج البعيدة

— « هـاهـا .. هاها ... هاها ! »

« رنة قهقهة تطوى الجو طيا ...

« لست أستطيع أن أقول أ كانت ضحكة قلب محزون ، أم نوحاً شق عنان الفضاء ، ولـكني عند سماعها سقطت مغمى على

فلما أفقتُ وجدتُ نفسى فى غرفتى مضطجعاً على الفراش . فسألتني زوجتى قائلة : « ماذا حل بك ؟! » فأجبتها فى شيء من الاضطراب والفزع : « ألم تسمعى رنين القهقهة فى السماء ؟ ! — هاها — هاها — هاها ؟ » . فتبسمت زوجى قائلة :

— «قهقهة؟ أين هذه القهقهة؟ إن ما سمعته كان أصوات طيور تطير... إنك لسريع الفزع جداً ! »

« وعلمت فى اليوم التالى أن ما سمعت كان ضجيج سرب من الطير اعتادت أن تهاجر فى مثل هذا الفصل من كل عام إلى الجنوب ... ثم لما أمسى المساء رجعت إلى وساوسى تارة أخرى ، فخيل إلى أن السماء ترن بقهقهة عالية تمزق جلباب السكون لأقل داع ... وكان من ذلك أني لم أستطع أن أكلم « مونوراما » بكلمة واحدة عند ما تخيم جيوش الظلام ...

« وقررت أن أهجر حديقتى إلى رحلة فى النهر مصطحباً معى « مونوراما » وأزالت رياح (نوفبر) القارسة كل مخاوفى فلبثت أياماً مغتبطاً سعيداً ، ثم غادرنا «الكنج» مجتازين نهر «خورى» حتى وصلنا إلى « پادما »[1]

« ... كان هذا النهر ممتداً فى البطاح كثعبان مستغرق فى رقدة شتوية عميقة ، وكانت فى ناحية الشمال منه تتراءى شواطئ الرمل القاحلة الوحيدة متقدة فى وهج الشمس ؛ وفى ناحيته تقوم أحراج السمبة (المانجو) كأنها فى امتدادها واقفة فى انفراج فم ذلك النهر المجنون الذى كان بين الفينة والفينة يتقلب فى نومته على أرض الشواطئ المفطرة فيملأ شقوقها بخرير وهدم[2] ظاهرين

« فلما وجدنا مكاناً مناسباً رسوت بالقارب على الشاطئ »

قال : « وسرنا فأوغلنا فى السير مبتعدين عن القارب ، وكان الشفق الذهبى يتضاءل شيئاً فشيئاً فبرزت السماء طافحة بنور البدر الفضى ، فشعرت وقد كان ذلك النور يملأ الفضاء الرحيب الفسيح ويتساقط على الرمال البيضاء بفيضه المتألق — شعرت كأنا نحن الاثنان منفردان نتجول فى عالم الخيال على غير قصد .

« كانت « مونوراما » ترتدى ليلتئذ شالا أحمر سبلته على رأسها وكتفيها مبدية وجهها فقط ، فأخـذت يدى بين يديها وقد اشتد الهدوء حتى صار جلالاً لا يعكره شيء

فقلت لنفسى فى اشتياق :

— أحقاً أن فى العالم مجالاً يتسع فى غير هذا الفضاء الرحب تحت السماء لقلبين عرفا الحب جديداً ؟

« ثم خيل إلىّ أن ليس عندنا دار نأوى إليها ، فنمضى سائرين كذلك ممسكين يداً بيد ، متحررين من كل العوائق والتقاليد فى هذه الطريق

(١) أسماء أنهار فى جهة الشمال الشرقى من الهند والمشهور منها الأول والأخير

(٢) الهدم : صوت وقوع الشيء ، وهو المعنى المطابق للكلمة الانجليزية Thud

التي لا تعرف نهايتها تحت البدر

« ووصلنا بعد التطواف إلى بركة ماء تكتنفها رُبى الرمال من أطرافها، وكانت أشعة القمر تخترق « قلب البركة » كسيف وامض، فوقفنا هناك صامتين ونظرت «موتوراما» في وجهي متطلعة. وكان الشال قد انحسر عن رأسها فانحنيت عليها، وقبلتها وإذ ذاك جاء من حيث لا أعرف خلال ذلك الصمت في تلك الصحراء النائية صوت يقول ثلاثاً في نغمة هادئة مهيبة.

— أوكي ؟ أوكي ؟ أوكي ؟

«فتراجعت إلى الوراء . وفزعت لذلك زوجي »

قال : « وفي اللحظة التالية تأكدت — أنا وزوجتي — من أن الصوت لم يكن صوت بشر ولا ملاك ، بل كان صوت طير ذعر من مجيء القادمين في هذه الساعة المتأخرة من الليل !

« ثم ثاب إلينا رشدنا فرجعنا إلى القارب بأسرع ما استطعنا وآوينا إلى المضاجع ، وسرعان ما استولى الرقاد على «موتوراما» قال : « وفي الظلام المهيب شبه لي أن شخصاً قد وقف بجانب السرير مشيراً بأصبعه الغليظة إلى النائمة وبهمسة سألني قائلا:

— أوكي ؟ أوكي ؟ أوكي ؟ !

« فقمت مسرعاً وأشعلت السراج فاذا الشبكة ترفرف في الهواء وإذا القارب تحركه الأمواج

« وقد جد الهم في عروق ، وتصبب العرق غزيراً عند ما صك مسمعي رنين الضحكة : — هاها هاها — يتردد صداها بين سجف الظلماء متجولة في النهر ، بين ضفافه الرملية في الجانب الآخر ، ثم حائمة على مدن القاطمة النائمة وقراها ؛ طائفة بلا انقطاع على أقطار الأرض جماء ؛ ثم طفقت تتضاءل في الفضاء غير المتناهي حتى تستدق تدريجاً فاذا هي كرأس الابرة في استدقاقها !

ما كنت سمعت من قبل صوتاً نافذاً خافتاً ؛ ولا كنت ظننت أن مثل هذا الصوت في الوجود ! وعلى أنه لو كانت في جمجمتي خواء غير متناهية ولا محدودة لما استطاع ذلك الصوت — مهما أوغل في رحلته — أن يبرح ذهني .. »

قال : « وأخيراً ، وحين جاوز الأمر حدّ الاحتمال فكرت أني لن أستطيع أن أنام مالم أطفيء السراج . وما كان أسرعني حين أطفأته فاذا أنا أسمع قريباً من كلتي في جوف الظلام ذلك الصوت المبحوح قائلا :

— أوكي ؟ اوكي ؟ اوكي ؟! »

« فطفق قلبي يخفق على وقع هذه الكلمات وبدأ يستعيد بالتدرج السؤال — أوكي .. أوكي .. أوكي ؟ — .. وفي هدأة الليل ، ومن وسط القارب ابتدأت ساعتي المستديرة تردد السؤال : — أوكي ؟ أوكي ؟ أوكي ؟ — بفصاحة مشيرة بعقاربها إلى « موتوراما » ..

كان وهو يقص على هذا يمتقع لونه امتقاع وجوه الأموات ويتضاءل صوته ، فقلت له واضعاً يدي على منكبه : « إشرب قليلاً من الماء » ، وخفق لهب المصباح ثم انطفأ ، فوصل أذني صوت غراب ينعق ، وصفير قبرة صفراء ، وصلصلة عجلة كان يجرها الثيران ...

وكانت أمارات « دوخين بابو » المرتسمة على وجهه قد تغيرت فلم يبق في نفسه من آثار الفزع شيء ، ذلك بأنه قص على ما قص متأثراً بخوف خيالي ، مخدوعاً بسحر الليل ، فتظاهرت بتأنيبه على ذلك الخوف حتى أريته غضبي عليه ، وانطلق فوراً وخرج تصحبه السلامة !

فخري شهاب السعيدي

زهرة الجبل

للكاتب جيوفاني دي نافا
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

لما بلغت قرية مورجان نزلت بفندق «رأس الجن» وقد أطلق هذا الاسم على الفندق نسبة إلى جبل شهير هناك في قمته صورة رأس مخيفة . وأهل القرية يروون عنها الأخبار ويتناقلون الأساطير . أما القمة ذاتها وهي إحدى قرى مقاطعة فالبه فهي راقدة في حضن الوادي كأنها وديعة ثمينة في يد غادة حسناء يحرسها أحد الجبابرة . وكان الناظر يرى عن يمينه جبلا آخر اسمه المنظر الجميل ؛ وما أغرب التفاوت بين الجبلين ؛ فان المنظر الجميل كان كأنه كتلة من الزمرد القاتم لكثرة ما فيه من الأشجار الخضراء والأجمات الملتفة والأدغال القائمة . وبقدر ما كان جبل رأس الجن حجرياً قاحلاً كان جبل المنظر الجميل خصباً غضا . فكأنما يرى الناظر إليهما مثال الخير ومثال والشر قد اجتمعا معاً ، فان جبل المنظر الجميل تتسلقه الأبقار لترعى الكلأ الذي ينمو بغير غرس وهي تتبع في مرعاها ذكراً ضخما من أفرادها قد علق صاحبه بعنقه جرساً ليسترشد به القطيع ، وذلك الفحل المرشد لا يضل ولا يتيه في ذهابه ومجيئه وصعوده وهبوطه . أما الناظر إلى جبل رأس الجن فما كان يستبين إلا رمزاً مخيفا يبعث إلى نفسه دبيب الوجل ، وبقدر ما كانت طريق جبل الجن وعرة ومسالكها محفوفة بالمهالك كانت سبل المنظر الجميل سهلة واضحة يتبينها الطفل .

أردت يوما أن أصعد في جبل المنظر الجميل فهداني بعض العارفين إلى دليل يأخذ بيدي أو أقتفي أثره إذا بلغنا جهة لا يأمن فيها السائر مخاطر الوحدة . وكان الدليل شيخا بلغ العقد السابع من عمره وقد ترك كل حول في صفحة جبينه سطراً ، كما سلب كل هم من هموم الحياة من عمره شطراً .

وكان كث اللحية مهيب المنظر حديد البصر كأنه من جوارح الطير ، سهول الخلقة قليل الكلام ، وكان اسمه جيوفاني وقد علمت أنه قضى أربعين عاماً يدل السائحين في جبال الألب إلى أن بلغ من الكبر عتياً وأمسى عاجزاً عن تسلق شوامخ الجبال المتعممة بالجليد طول العام فقضل العزلة في تلك القرية ليقضي في ظلالها أيامه الأخيرة .

ثم سار صامتا وهو يجس الأرض قبل أن يطأها بهراوة مدببة وأنا أتبع له من ظله ، فإذا عبر قناة عبرتها ، وإذا اخترق غابة مرقت فيها ؛ وكنا كلما أوغلنا وعلونا مصعدين كان لنا منظر جديد تنبسط له النفس . فشهدنا حقولاً ينبت فيها النرجس الغض فيحمل النسيم إلينا عطرها على أجنحته فنكاد نثمل من العبق . ثم بلغنا غابة سوداء تلامس أشجارها الباسقة مناكب الغمام ، وتناطح أغصانها الشامخة عنان السماء ، ولو كانت في سهول الهند لأمست عرين الآساد ومكمن النمور ، ولو كانت بباريس الفاتنة لخلق الفرنسيون منها « غاب بولونيا » تشرق فيه الشموس والأقمار ، وتسرح في مجاهله الغواني والحور ، ولكنها هنا كغيرها من غابات سويسرا لا ترى فيها إلا نهاراً مشمساً وليلا مقمراً ، ولا علؤها إلا رائحة الأزهار

ولا يسمع بجوانبها إلا خرير الماء وتغريد الأطيار .
فلما أن توسطنا الغابة وصلنا إلى نهر قوى الانحدار شديد التيار ولـكن ماءه صاف كعين الديك، وهو من شدة انهماره يطغى على شفتيه كأنه ينازع اليابسة ليغمرها، فسألته عن اسم هذا النهر فقال نهر الجياز؛ ولما رآنى قد ارتمت رؤيته قال لى إنه الآن بالنسبة له فى وقت فيضانه كالحمل والذئب . فإنه إذا انهمرت الأمطار فى منتصف الربيع وذاب الجليد فى جبال الجنوب حيث يوجد المنبع اندفعت أمواه هذا النهر بقوة تفوق قوة نهر الرون عند فيضانه ، وعند ذلك يطغى على الضفتين ويطمر الأرض على مسيرة نصف ميل ويحمل فى طريقه كل مايسوقه من أحجار وجذوع أشجار ورمم بالية وأوكار طيور جارحة وأفاع منسابة وذئاب عاوية ، وبالجملة لايفر من طغيانه جماد ولا نبات ولا حيوان . فلما أن توسطنا الأجمة رأيت آثار أشجار ملتفة قائمة كأنها دعائم أعظم من عمد الرمس وأرفع من مسلة كليوبطره وأكبر .
فقلت لصاحبي الدليل: ماهذا الذى أرى: أمعبداً أقامه القدماء يتوسلون به إلى أرباب الغابة وآلهة الهواء؟ قال: كلا إنما تلك الأشجار هى بقايا كوخ عتيق له حديث يعد من أساطير الأولين . قلت. هل لك أن تجود على بهذا الحديث فأشكر فضلك. قال: إذن هيا بنا نجلس على بعد من ذلك النهر . فوقع نظرنا على هضبة خضراء فقصدنا اليها وأخذنا مكاننا منها وبدأ الدليل حديثه قال :

كان فى هذا المـكان كوخ لامرأة مات زوجها وخلف لها ولداً وقطيعاً من الغنم فكانت تعمل ليل نهار لتحصيل الرزق وإنبات ولدها، وما زالت المرأة تعمل وتدأب وحول يجيء وحول يذهب ، حتى شب الولد وخفف عن أمه العجوز أثقالها، فكان يرعى الغنم ويصطاد الأرانب البرية ويحتطب ويحسن إلى تلك الأم التى قضت أيامها فى تربيته . وفى يوم من الأيام خرج الفتى إلى القرية يبيع فيها صوف الخراف وخرجت الأم من الكوخ وجلست على ضفة النهر وإذا بها ترى صبية جميلة لايستر بدنها إلا أطمار بالية تبكى وقد سترت وجهها بكفيها ، كما سترت جدائل شعرها كتفيها؛ وكانت بهية الطلعة رغماً من فاقتها البادية وحزنها العميق . فلما أن بصرت بالمرأة مالت نحوها وجلست على مقربة منها وزاد شهيقها وعلا صوت انتحابها ، فتحركت عاطفة الحنان فى قلب المرأة وسألتها ما يبكيها ثم ضمتها إلى صدرها فاطمأنت الفتاة وسكنت عاصفة نفسها وقالت : ليس لى أب ولا أم . وكنت أعيش مع « الراعى الصغير » يطعمنى القديد ويسقينى الحليب ، ومنذ أمس ذهب عنى وغاب ، فأخذت أبحث عنه وأناديه فلم أعثر به حتى بلغت هـذا المـكان . فقالت لها الأم: أترضين بهذا الكوخ مسكناً وبى أمّا وبولدى أخاً ؟ فبكت الفتاة ولم تحر جواباً . وكان سكوتها أفصح بيان فضمتها المرأة إلى صدرها وقبلتها فى جبينها وأنهضتها وأدخلتها كوخها وأطعمتها من جوعها وأمنتها من خوفها وألبستها ثياباً بسيطة نظيفة وطيبت خاطرها وأعدت لها مكاناً على المائدة ومرقداً بجوار مرقدها وفرحت بها . ولـما أن عاد الولد عشية قالت له أمه إنه رزق فى غيبته أختاً تقاسمه الخير والضير. ففرح

الفتى بها وسماها « زهرة الجبل » وقضى ثلاثتهم الهزيع الأول من الليل ساهرين ، وقد استأنست البنت بعد وحشتها وأعادت عليهما نتفاً من قصتها . وكان الفتى ينظر إلى « زهرة الجبل » نظر المفتون بجمالها ، ولما أصبح انصرف الولد كعادته وأخذت زهرة الجبل، وقد اطمأنت، تحمل عن العجوز عبء حياتها المنزلية . ولما عاد الفتى أخذت تحادثه بلطف وهو يداعبها والأم تسر بذلك وتبيحه لأنها أملت أن تنشأ في قلبيهما عاطفة الحب ، فترى بينها أهلا بنسلهما قبل موتها . وقد دبت في الكوخ وما حوله حياة جديدة بحلول تلك الزهرة الشريدة . وزاد نشاط الفتى وصار يصيب في الصيد المرى أكثر مما كان ، وربح في بيع الحليب والصوف والحطب أضعاف ربحه الأول . وكان كلما ذهب إلى القرية عاد إلى زهرة الجبل بهدية كمنديل من حرير أو عقد من خرز أو خاتم من معدن ، وهي تتقبلها بفرح عظيم ولا تكتم عنه سرورها

وفي يوم ما انحدر الفتى إلى القرية ثم عاد وجلس مطرقاً كأنه يفكر في أمر شاغل فلم يداعب زهرة الجبل ولم يعرها التفاته الذي تعودته، فسألته أمه عن سبب انشغاله ، فقال إنه رأى في القرية راعياً كان يعرفه منذ بضعة أعوام فلم يتعرف عليه للوهلة الأولى لما يبدو عليه من علامات الغنى واليسار . فلما سأله عن مصدر ثروته أجابه أنه تجشم أخطار السفر إلى الدنيا الجديدة التي تنبت أرضها ذهبا وتمطر لجينا ، أي وضع الرجل فيها قدمه أو كفه لقي مالا ينتظره كأن أمنا الأرض تركت لكل منا إرثا يطالب به في تلك البلاد العجيبة، فأقام بها بضع سنين وأحرز من المال ما أحرز ، وأنه ما عاد إلا زائراً وسوف يرجع إلى بلاد المال والحرية فيوالي العمل حتى يملك نهراً بسفائنه أو منجما بدفائنه . فلما رأته الأم مشغول البال يكاد الحسد يأكل قلبه وحب المال يملك نفسه نظرت إليه نظرة استعطاف، ونظرت إلى زهرة الجبل وكانت صامتة ، وكأن نفسها الطاهرة النقية قد أشرفت على المستقبل الرهيب ، فقالت الأم بعد طول السكوت وقد جالت الدموع في عينيها : إنني ياولدي لا أعوقك عن السفر فسافر إن شئت في طلب المال إن كنت لا تقنع بعيشتنا. وكأنما لم يدرك الولد أن في هذا الكلام ما فيه من الاستعطاف . وكان حب المال ، والطمع في تحقيق آمال مبهمة قد أعمياه عن حب الوالدة وأنسياه كل ما قاست في سبيل تربيته ، فلم يشأ أن يجيب نداءها وكانت تظن أنه سيبقى بجانبها في شيخوختها ولكن محبتها وكرامتها أبتا عليها أن تلح وقد علمت بفطرتها وخبرتها أن الشباب إذا تعلق بأمنية لا يتحول عن تحقيقها . أما زهرة الجبل فقد أدركت كل معنى ما دار من الحديث بين الأم وولدها ولكنها لم تستطع الكلام بل لم تكن تدرى ماذا يجب أن تقول ولكنها أدركت أن سعادتها فارقتها، فأخذت تبكي بكاء مكتما ولكن هذا لم يلن من جمود الفتى ولم يحرك من عواطفه ساكنا . فانه في اليوم التالي تأهب السفر وترك المرأتين رهن الوحدة والوجل .

سافر الفتى وبقيت الأم وزهرة الجبل وقد أراحتها من عناء الحياة وحلت عنها عبء العمل .

وكانت المرأة إذا ذكرت ولدها ضمت الفتاة إلى صدرها، وإذا تاقت نفسها للحديث عنه حدثتها، وإن دعاها ألم البعد إلى البكاء بكت واستبكتها .

أرسل الفتى خطابا يصف فيه أهوال رحلته وصعوبة الحياة على القادم وشدة الصدمة الأولى التي تصيب كل مهاجر . فكانت المرأة تقرأ وتبكي وتقبل الجواب حيناً وحيناً تضمه على قلبها كأنه جزء من ولدها . ثم جاء كتاب آخر ينبئها بأنه مريض وطريح الفراش، وأن أمله في الاثراء بل في الحياة ضعيف ويحن فيه إلى عيشته الهادئة في الكوخ الجبلي ويذكر الجلوس على ضفة النهر ويتحدث بجمال زهرة الجبل . فزاد قلق المرأة وذهب هناؤها وتزعزعت أركان صبرها لبعد ولدها، ولزمها الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناها ، وملك ألم الفراق عليها قلبها وهي لا تعلم إلى أي مكان تبعث بخطابها ولا تدري كيف تستقدمه من الدنيا الجديدة . وكانت تتخيلها لجهلها عالماً آخر غير دنيوي .

ذهب الصيف وأقبل الخريف وأخذت أوراق الشجر تتساقط ذابلة، وبدأ النهار يقصر والليل يطول والغيوم تتلبد والأمطار تهطل ، وتكمل الوحدة وينقطع السبيل على المارة وتلزم الأم وزهرة الجبل الكوخ أشهراً شعرت المرأة بانحطاط قواها وامتنعت عن الغذاء وعجزت عن أهون الأعمال وقل كلامها، فكانت زهرة الجبل تزداد بها عناية كلما رأت شدة وطأة المرض عليها وتقضي الليالي ساهرة تبكي تارة وترقب وجه الراقدة طوراً .

ذهب الخريف وأقبل الشتاء فاشتد الضعف واستعصى الداء ، وكانت زهرة الجبل لاتعلم أن في الدنيا أفراداً انقطعوا لإسعاف المرضى اسمهم أطباء، وإن عرفت فلم تكن تدري أين مقرهم ولا كيف تكون دعوتهم. وكذلك الأم فانها لم تفاتحها بشيء ولم تشك يوما اليها حالها . ولكن زهرة الجبل كانت تجمع بعض الأزهار والأعشاب وتستخرج خلاصتها وتقدمها للعجوز قائلة إنها رأت « الراعي الصغير » يجمعها ويحفظها . إشتد الضعف واستعصى الداء وصامت الأم عن الكلام والغذاء فكانت تقضي يومها وليلها راقدة لايغمض لها جفن، وإذا نطقت فباسم ولدها أو بطلب جرعة من الماء تطفيء بها لظى نار خفية تشمل أحشاءها . وكانت زهرة الجبل بجانبها لاتفارقها ولا تفتر عنها طرفة عين، تارة تمسك بيدها وطوراً تحمل رأسها في حجرها

وفي ليلة من ليالي القر المنيف كانت العواصف تزأر والرياح تزمجر كأنها وحوش سجينة ـ نهضت الأم من فراشها وضمت زهرة الجبل إلى صدرها وسألتها عن ولدها ثم طلبت شربة ماء فأسرعت زهرة الجبل إلى الاناء وعادت به إلى الأم العطشى فاذا هي لاتتكلم، فدنت منها ونبهتها فلم تنتبه، فمسحت جبينها بيدها فاذا هو بارد عليه قطرات من عرق النزع الأخير . ولم تكن زهرة الجبل تعرف ماهو الموت فظنتها نائمة وأرادت ألا تقلقها فبقيت ساهرة بجانبها ولكنها كانت تشعر بما لم تمارسه فيما مضى من الليالي: سكون شامل ووحشة لم تعتدها . كانت الأم تنام ساعة وتستيقظ أخرى . أما هذه الليلة فعندما نامت لم تستيقظ. لم تر زهرة الجبل قبل هذه

المرة إنساناً يموت ، فلم تعرف الموت. رأت أمها هذى بالأمس راقدة وعلى وجهها علامات الألم مما ألمّ بجسمها من الضعف وبقلبها من الحزن ، والليلة رأت وجهها ساكناً هادئاً كأنه مرآة صافية وعلى شفتيها ابتسامة جميلة ولكنها مخيفة — هي ابتسامة الفراق .

كانت زهرة الجبل منتظرة الصباح بفارغ الصبر لعل الراقدة تنهض بعد هذا الصمت الطويل

قبيل الفجر سكنت العاصفة وجفت ما في السماء وأطلقت دياناً سراح وحوش الريح فأفلتت إلى الوادى

***

كل شيء في الطبيعة تبدل وكل ساكن تحرك إلا تلك الأم الراقدة فانها مازالت راقدة لا تنهض . فخرجت زهرة الجبل إلى ظاهر الكوخ لعلها تجد الفتى عائداً من رحلته فيشاركها في إيقاظ والدته . وإنها لكذلك وإذا بها ترى فتى أشعث أغبر قد تلفع بفرو؛ فلما دنا منها تبينته فاذا هو « الراعى الصغير » الذى أضلته فيما مضى من أيامهـا فبهتت للقائه وسرت برؤيته وسألته عن حاله فطلب منها خبزاً وحليباً فأدخلته إلى الكوخ وقدمت إليه طعاماً وشراباً ، وكان سرورها به عظيما لأنها تمكنت من رد جميل لمن أحسن إليها وصنع بها معروفاً ، ثم حانت منه التفاتة فرأى المرأة راقدة . وإذ رابته ملامحها اقشعر وعرته رعشة الخوف ، وتبينت زهرة الجبل منه ذلك فسألته ، فلم يخف عنها أنها ميتة . وإذ كانت لاتعرف معنى الموت أخذت تسائله فقال إنها فقدت الحيـاة والحس فلن تنهض ولن تتكلم ولن تبصر ولن تسمع فسألته: أو لو عاد ولدها من الدنيا الجديدة تبقى صامتة !

أجاب الراعى: لو انتقلت الدنيا الجديدة بأسرها إلى هنا فانها لن تعود إلى حالها لأن الحياة فارقتها فقالت له: هل هذا الفراق أبدى بينى وبينها؟ فأجاب الراعى: لا أعلم. فسكتت الزهرة ، ثم طرحت نفسها على صدر الراقدة واندفعت تبكي وتختلج حتى بللت وجه الراقدة وصـدرها بكائها وجاشت بنفسها عواطف الحب والحنان والألم والذكرى . ثم إن الفتى أنهضها وقال لها: لابد من دفنها. فلم تفهم. ولما ذكر لهـا حالة الجسم الانسانى وسرعة فساده وواجب الأحياء نحو أحبابهم الذين كانوا بالأمس مثلهم امتثلت وطلبت إليه أن يخط لها مضجعاً فى الكوخ حيث رقدت، فقال لها هذا لا يكون ولابد أن يحفر قبرها فى مكان خال، فأشارت إلى الشجرة التى جلست فى ظلها يوم لقائها بالأم على ضفة النهر وأخـذ الفتى فأساً وحفر لحداً فى ظل الشجرة . وكانت زهرة الجبل ماشية بجانب أمها تكلمها وتبكى وليس هناك من يشهد ذلك المنظر الرهيب إلا الطبيعة والراعى الصغير ، أما الطبيعة فجامدة صامتة غشوم عمياء وهى التى أوجدت، وهى التى أعدمت، وهى التى تخلق وتبيد ، وأما الراعى الصغير فقد علمه شقاء الحياة معنى ألم الموت ولذة الحياة

دفنت الأم بعد أن كفنها الراعى بأوراق الشجر وكأنما الخلق الذى سول له أن يترك الطفلة فيامضى دعاه الآن إلى تركها وحيدة بعد الذى رأى ، فقال لها الفتى وهو جامد : أستودعك الله يازهرة الجبل .

وكأن الفتاة لم توجس بعد حالها ، ولم تتبين مغبتها ووحدتها فلم تزد على أن سألته أعائد أنت إلى أمك ؟

فأجاب : لا أم لي ولا والد .

قالت : أين تذهب إذن ؟

أجاب : أطلب رزقا بتعب اليمين وعرق الجبين .

قالت : إبق هنا وارع الأغنام وصد الطير ريثما يعود أخي

فقبل الفتى لا كريما ولا مجيبا سؤلها ، وإنما تبين في المكان رزقاً فلم يجد بأساً في البقاء ، وعاشا معاً : هو يقوم بكل ما يقوم به الرجال من أعمال الزرع والرعاية والصيد وتحويل مجرى النهر إذا طغى على الكوخ ، وتقويم جدرانه إذا انقضت من شدة السيل الجارف، وينحدر إلى القرية ليبيع فيها الحليب والصوف، وزهرة الجبل تعد الطعام وتغسل الثياب وتبكي على قبر أمها وقد فارقتها الوحشة الأولى وذهب تدبير المنزل بما في نفسها .

وفي أحد أيام الربيع إذ أخذت الطيور في التغريد وظهر زهر البنفسج في أثناء الغاب وتجدد شباب الطبيعة ونهضت الأرض من رقدتها بعد الشتاء قال الراعي الصغير: ألا تأتين معي يازهرة أريك إحدى العجائب؟ قالت: أين ؟ قال : عند تلك الشجرة وأشار بيده، فانطلقا حتى تعبت الفتاة وقالت له: أين الشجرة ؟ قال هناك وأشار بيده، وكانت تبدو عليه سيا الاضطراب والحيرة ، فسارا حتى كلّ قدماها وقالت له أين تلك الشجرة؟ فوقف أمامها وقال لها ألا ترين أمامك تلك الشجرة التي تظلك بفرعها بعد أن رويتها بحبك ؟ ألا ترين أمامك الشجرة تحمل قطوفا دانية ، وقد آن لها أن تجنى ؟ ألا ترين تلك الشجرة التي خلقت وخلقت لك ؟

فبهتت الفتاة وارتجفت وقالت له : كلا لا أرى .

ففتح الفتى ذراعيه وقال لها : أنا تلك الشجرة . فلم تتكلم ولم تتحرك، وأخذت تنظر إلى الأفق كأنها تنتظر من الطبيعة أن توحي إليها جواباً . فلما ارتج عليها مالت صوب الكوخ وسار خلفها الراعي الصغير وهو لا يدري ماذا يجول في صدر زهرة الجبل . أتدرك الحب أم لا تدركه ؟ وهل تريده رجلا لها أم هي لا تفهم ذلك المعنى ؟

ولما بلغا الكوخ رأت زهرة الجبل شخصاً كأنها لم تره من قبل وإلى جانبه شابة حريبة المنظر وقد لبسا ثياباً غريبة ، فمن حذاء يصل إلى ركبته ، إلى قبعة مزدانة بطيور ميتة على رأس المرأة ، وكان الرجل خشناً وحشي الصورة فابتدرها بقوله ولم يسلم : أين صاحبة الكوخ ؟

فأجابت زهرة الجبل : إنها راقدة

قال : ألا توقظينها ؟

قالت : إنها لا تستيقظ من رقادها

قال : وأين هي ؟

قالت : هناك في ظل تلك الشجرة

فنظر إلى صاحبته ثم نظر إلى الراعي الصغير ، وقد بقي هذا صامتاً متشائماً من هذه الوفدة الغير المنتظرة — ثم تحول الرجل إلى زهرة الجبل وقال لها : ألست أنت تلك الفتاة الوحشية التي اتخذتك ربة الكوخ بنتاً لها منذ ثلاث سنين ؟

قالت : بلى

قال : ومن يكون هذا ؟ وأشار إلى الراعي بطرف سوط كان في يده . أجابت : هو الراعي

الصغير الذى دفن أمي بعد أن كفنها بأوراق الشجر وهو يقاسمني متاعب الحياة والقرية

ثم شعرت كأنهما تتذكر الصوت والعينين والقامة فقالت له : ألست برنار أخي ؟ ثم أقبلت عليه تريد تقبيله فدفعها عنه بعنف وقال : ألا تخجلين من هذه السيدة ؟ ولكن خبريني متى كان زواجكما .
فلم تجب لأنها لم تدرك سؤاله ولأنها منذ دفعها قال: ألم تذهبي إلى الكنيسة قبل مخالطة هذا الرجل .
فظلت على سكوتها لأنها لم تكن تدري من كل ذلك شيئاً . قال : إذن أنتما تعيشان بغير رباط شرعي . لقد عشنا في الأرض الجديدة وعرفنا أخلاق الأمم ، فأنت وهذا الفتى في عرف الفضيلة آثمان. كيف جاز لكما أيها الفاسدان أن تدنسا قبر أمنا الطاهر بجرمكما ! . ثم أخذ يتبادل مع رفيقته ذات القبعة المريشة حديثاً بلسان لا تفهمه زهرة الجبل ولا الراعى، ثم استمر في خطبته وقال : إن هذا الكوخ كوخنا وجئنا نبغى الاقامة فيه ، فسيرا في سبيلكما وكفاكما منا هذا الاحسان ، فاننا نطلق سراحكما ولا نريد أن نودعكما ظلام السجون . ثم خاطب رفيقته ، والتفت إلى المسكينين يترجم ، قال إنها تقول : يا للعار ، أفى هذا المكان الجليل ، وفى تلك البقعة الطاهرة تقترفان إثماً كهذا ! ثم قصد قبر أمه وجثا أمامه ، وكذلك فعلت الأمريكية ، وقال : عفواً يا أماه إذا كان هذان الآثمان قد أساءا إليك في غيبتنا ولم يرعيا لك حرمة . أما زهرة الجبل فقد بدت عليها حيرة شديدة ، وكأنها تنبهت إلى ما في هذه الأقوال والأفعال من سوء المقصد والحرمان ، وقدرت ماسيصيبها من الشقاء بالبعد عن هذا المكان.
ولما نهض برنار ورفيقته وقد نظرا إليهما نظرة الكره والطرد وفاه بذلك في وجه تلك المسكينة ، هاجت زهرة الجبل ووقفت في وجهه كأنثى أسد غضبى تقول له : كيف تريد أن ننصرف وأنا التى سهرت بجانب أمي أشهراً وعنيت بها ليلا ونهاراً حتى نامت النوم الأخير ، وأنا التى غرست هذا الزرع ورعيت القطيع ، وهذا الفتى هو الذى حول مجرى النهر وشاد جدار الكوخ الذى أراد أن ينقض بعد أن طغى عليه الماء ، وهو الذى حفر لأمي مرقدها في ظل تلك الشجرة ؛ ألا تريان أنت وهذه المرأة المبرقشة أنني قضيت ثلاث سنين في الخدمة والعمل وهذا الراعى الصغير لم يلجأ إلى الراحة إلا خلسة لنكسب قوتنا ؛ لقد عدتما من أرض الأحلام بالمال فاذهبا وشيدا لكما كوخاً غير هذا واشتريا قطيعاً غير قطيعنا . فقال برنار : إنك لاشك معتوهة، ولو علمت أنك تنكرين الجميل ما تركت أمي فريسة لخياناتك . ثم حادثته رفيقته قالت : ومن يدرينا كيف ماتت هذه الأم المسكينة وأنت بعيد عنها؟ ولم تدرك زهرة الجبل معنى هذا السؤال وإلا لافترست تلك الأمريكية الفاسدة القلب التى حاولت أن تنسب إليها أفظع الجرائم

أما برنار فقد أخرج من جيبه ساعة ونظر فيها وقال إن لم تنصرفا لساعتكما من كوخنا وأرضنا استنجدنا برجال الشرطة والقضاء ليمثلوا بكما. فقالت زهرة الجبل: نحن لا ننصرف. فسار برنار ورفيقته في سبيل القرية ودخلت زهرة الكوخ وباشرت

عملها كعادتها . ولكن الراعى كان بادى الحزن والوجل ، ولم ينتقل من مكانه كأنه ينتظر حادثاً فاجعاً . ولم يخب ظنه فانه لم يكد يميل ميزان النهار حتى عاد القادمان ومعهما شرطى من القرية ، فلما دنوا من الكوخ أسرع الراعى إلى زهرة الجبل وأفضى إليها بما يكون من وراء العصيان . والغريب أن نفسه لم تحدثه بفكرة المقاومة التى تلتئم مع حالة الفتاة النفسية . وفى ظنى أن القليل الذى عرفه من الحياة المدنية ترك نفسه فريسة الخوف من القانون ورجاله الذين يمثلون العدل الوهمى . ولكن زهرة الجبل لم تعبأ بقوله إلى أن أقبل الشرطى وطلب إليها بلهجة الآمر أن تغادر الكوخ ، وأن تتخلى عنه لمالكه وأنها إن امتنعت أرغمها بالقوة ، فأخذت المسكينة تحتكم إليه برواية تاريخ حياتها ، وما كان من شأنها منذ تبنتها الأم الراقدة تحت ظل الشجرة. وكاد الشرطى يشفق عليها لأنه لم يرحل إلى أمريكا ولم يقف على قواعد المدنية الحديثة . فلما رآه برنار يوشك أن يضعف حيال قصة زهرة الجبل قال له: أيها الشرطي لست قاضياً ، قم بواجبك . فقال الشرطى للفتاة إن رئيس الشرطة لاشك ينصرها إن هى طرحت لديه شكواها واستنصرته فى بلواها . وكانت زهرة الجبل كالفهدة المجروحة خرجت من الكوخ هائجة لم تحمل شيئاً من متاعها إما تيها وإما اعتقادا منها بأنها بلا ريب عائدة ، فتقدم برنار إلى الكوخ وعاد بخرقتها وحليها المموهة ، وبينما ما كان قد أهداه إليها وقذف بكل ذلك فى النهر . وبهذا أضاف الأذى إلى المهانة وزاد الطين بلة . سارت الفتاة والشرطى وخلفهما الراعى وقد شيعتهم الأميركية بضحكة عالية

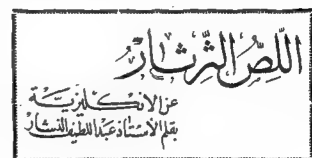
فلما بلغا القرية لفتت زهرة الجبل الأنظار بغرابة زيها وما يبدو عليها من علائم البداوة والجفوة وخشونة المظهر والملبس . ولما مثلت بين يدى رئيس الشرطة سألها عن اسميهما ولقبيهما وسنيهما وصناعتهما ومسكنهما وهلم جراً ، فلم يحيرا جوابا . فسأل الشرطي عن حالهما فأبدى له مارأى وسمع، ثم تقدمت اليه زهرة الجبل وهى مملوءة بالأمل فى العدل الانسانى، وروت له كل ما جرى لها، وكان أثناء ذلك ينظر اليها تارة معجباً بجمالها وبساطة نفسها وبطولتها، وطوراً مستخفاً بشأنها وساخراً من دعواها . فلما أن فرغت سألها عن عقود الملكية ! فلم تقدم ولم تؤخر . فنظر اليها ثم أصدر حكمه بأن القانون لا يعطيها على (اليمين حقاً) وانها لم « تضع يدها » بسبب صحيح ! وأن حكمه (نهائى لا يستأنف) ونصح لها ألا تعود إلى الكوخ لئلا يضطر إلى حبسها . والأولى لها ولرفيقها أن يبحثا عن عمل أو يغادرا المقاطعة لئلا يعاملهما معاملة المتشردين وإنه يمهلها أربعاً وعشرين ساعة ! ثم أمر الشرطى بطردهما . فخرجا ، وقد غابت الشمس — أما زهرة الجبل فانها ما كادت تخرج من غرفة الضابط وتخطو عتبة باب (دار العدل والقانون) خارجة حتى تركت الراعى الصغير الذى لم تتبين فيه أخاً ولا صديقاً ينفع وسارت على وجهها وحدها حتى خرجت من القرية، وما زالت تقودها قدماها رغم إرادتها حتى بلغت مكانا يطل على الكوخ ، فلزمته كلما نظرت اليه حنت

ثم تملكتها عواطف الغيظ والمقت لما كتبه، وكانت أيام الربيع الأولى قد فكت أغلال الجليد من رؤوس الجبال ودفعت بالمياه المكرة والأحجار المتناثرة فى مجرى النهر إيذاناً ببداية الفيضان فعاشت زهرة الجبل أياماً فى الغابة كأيامها الأولى، وكانت تقتات من ثمر التفاح والقطن البرى على ما فيها من غضاضة ومرارة، وتروى ظمأها من ماء ذلك النهر الذى صحت عزمتها على أن يكون فيه إطفاء لنار عاطفة الانتقام التى ولدتها نظرات الشقاء والكره الذى ذاقته فيما رأت. ولما مضت عليها أيام أصبحت كبعض الوحوش التى تسكن الأدغال ، وتثير مظهرها كأنها لا يهدأ بالها إلا أن تنتقم من عدوها. وكانت إذا تنفس الفجر وتضرجت وجنة الأفق بأرجوان الصباح وخشيت أن تصادف برنارا ورفيقته أوغلت فى الغابة وأمعنت وكأن خشخشة أردية الدوح ومطارفه، ووسوسة أوشحة النبات وملاحفه، وانحدار المياه وهديرها، وهبوب الرياح وصريرها، أصوات تبعث فى نفس زهرة الجبل حب الانتقام . ولم يكن خفقان النسيم وهتاف الطير بصوته الرخيم، ولا تغريد البلبل بالترنيم والتنغيم، لتعوق البنت الموتورة عن الانتقام. حتى إذا جن الليل وأقبل الظلام سكنت الفتاة إلى مكان منفرد فى غيابة الغابة أو اختفت فى أغوار الأجمة ، فلما أن توسط الربيع وأقبل الفيضان نهضت زهرة الجبل خفية فى السحر والطبيعة نائمة، ودنت من ضفة النهر من مكان يشرف على الكوخ وأخذت تحفر ببعض الأغصان مجرى صغيراً يشبه الغدير لتحويل ماء النهر. وما زالت تعمل فى الحفر والماء يندفع بقوة انحدار السيل حتى اتسعت الثغرة ثم أخذت تنقل حجارة كبيرة إلى وسط النهر لتكون سداً فكانت . وكاد يندفع النهر بمائه إلى حيث حفرت له زهرة الجبل ، وزاده انهماراً وجود الكوخ فى وهدة منخفضة . ولما أن رأت فيضان النهر فاض السرور فى جوانحها وشاع الطرب فى فؤادها وهنأت نفسها على أنها فازت ببغيتها، وقضت على عدوها وعدوتها . وإنها لكذلك وإذا الماء كالطوفان يطمر الكوخ ويغمره ويزعزع أركانه ، ويغرق جذوع الأشجار ويهلك سكانه ، وأخذت جدرانه التى أقامها الراعى الصغير تتداعى ثم تنقض، وعلت الأصوات بالاستغاثة ولم يلبث الكوخ أن تهدم على من فيه ، وجرفته الأمواه بعد أن أغرقتهما ؛ والفتاة تنظر إلى الخراب الذى صنعته يداها وهي تعتقد أنهـا أقامت ميزان العدل وأنها اقتصت لنفسها ممن أذلها وطردها . وكان الصبح قد تنفس ونثر النور فى الشرق ياقوتاً من أشعة الشمس، فرأت زهرة الجبل قبر أمها وقد نبشه الطوفان فبدت جيفتها على سطح الماء وقد عراها الفساد ومرت أمامها مسرعة كأنها سفينة تمخر عباب بحر الأبدية ؛ فلم تطق الفتاة رؤيتها وظنت أنها أساءت إليها بانتهاك حرمتها فألقت بنفسها وراءها واستشهدت فى سبيل الذنب الذى تخيلت أنهـا جنته على من أحسن إليها . وهكذا ابتلع النهر أربع جثث عاشوا جميعاً على ضفتيه، وماتوا بين حافتيه، وهذا باسم القانون والعدل

فلما فرغ الدليل من حديثه كانت الشمس قد آذنت بالمغيب فعدنا إلى القرية

محمد لطفى جمعة

(٤)



لما أضيئت الغرفة فجأة شعر اللص بالخطر ، وكان هذا اللص يلقب بين أصحابه بلقب الدوق لجرأته على اقتحام المنازل ولحسن طلعته وهيئته . وقد قضى أكثر من عشرة أعوام فى مخاطراته دون أن يعتقل مرة واحدة . لكن الخوف يعترى أجرأ اللصوص عند وقوع الخطر

وكان البيت مكوناً من طابقين : أما الأول فهو إدارة جريدة . وأما الثانى فهو مسكن رجل من الأغنياء كان مسافراً وكان البيت خالياً من السكان لجاء هذا الدوق ليسرقه على هذا الاعتقاد

لكنه لما دخل من النافذة وجد الغرفة مظلمة ورأى فى وسطها منضدة وشم رائحة فأدرك أن فى المنزل سكاناً لأن الرائحة هى رائحة ويسكى . وكانت الزجاجة موجودة على المنضدة وبجانبها كأس وزجاجة من الصودا . ولما كانت النافذة لا تزال مفتوحة فقد تردد الدوق وهمّ بالعودة . ولكن فى هذه اللحظة أضيئت الغرفة ووقف عند الباب رجل فى يده مسدس وهو يقول : « من هذا ؟ »

فأجابه اللص : « حسن ، استدع البوليس »

قال صاحب المنزل : « سأفعل » وفى نفس اللحظة دخلت سيدة فاختفت وراء صاحب المنزل وسألت : « ما هذا ؟ »

فقال صاحب المنزل : « إذهبى فارتدى المعطف وعودى إذا شئت فانظرى لصاً من أشهر اللصوص » وقال : « ألست الوغد الذى يدعونه بالدوق ؟ »

فابتسم اللص وقال : « نعم أنا الدوق ولكننى لست وغداً »

وكان الدوق فى الخامسة والثلاثين مهيب الطلعة يحمل وقاره رجال البوليس على رفع أيديهم بالسلام عند ما يرونه . وكانت ثيابه ثمينة وصوته ينم على السيطرة والنفوذ ، وقال له صاحب المنزل : « ابق أنت » ثم مشى نحو آلة التلفون فجلس اللص أمام المنضدة ووضع رجلاً على رجل كأنه جالس فى منزله أو كأنه ضيف كريم

وطلب صاحب المنزل قسم بوليس « لايم ستريت » فقال اللص : « بل اطلب قسم بوليس (واردور) فهو أقرب مكاناً ونحن تابعون له »

قال صاحب المنزل : « كما تريد » وطلب القسم الذى أشار به الدوق ، ثم قال فى سماعة التلفون . « مَن ؟ مفتش البوليس ؟ أرسل بعض جنودك الآن . أنا السير براندون برتون — شارع كوربرى رقم ١٦٢ — عندى لص . الأمر لا يدعو إلى عجلة شديدة فإنى أستطيع الانتظار حتى يحضر الجنود »

ثم ألقى السير برتون بالسماعة والتفت إلى اللص الجالس أمام المنضدة وقال : « مرحباً بك ! » فقال الدوق : « إننى أعلم منك بأقسام البوليس وأنا فضلا عن ذلك أحب قسم واردور فان سجنه من السجون الجديدة النظيفة » فقال السير : « إننى لم أر لصاً أبرد منك . ما مقدار العقوبة التى تظن أنه سيحكم عليك بها ؟ » ففكر الدوق لحظة ثم قال : « خمسة أعوام لأنهم سيسجنوننى مدة سابقة بسبب حكم

لم ينفذ . وقد كنت فى الواقع لا أريد دخول هذا المنزل بل المنزل المجاور وهو نادى السباق »

مضت بعد هـذا فترة فى صمت ثم قال السير وهو يشير إلى زجاجة الويسكى : « اشرب كأساً إذا شئت »

فشرب وشكره ومضت فترة صمت أخرى . ثم قال السير برتون : « ولكن لماذا كنت تريد أن تدخل فى نادى السباق ؟ »

فقال الدوق بلهجة تنم على الوثوق التـام : « لقد كنت أعلم من قبل باسم الجواد الذى سيربح فى السباق المقبل » فابتسم السـير وقال : « أنا كذلك أعلم »

فهز الدوق رأسه وقال : « أنت مخطئ فقد تغير العزم على منح الجائزة لجوادك : «وايت لادى» الذى كنت تعتقد حتى هـذه اللحظة أنه صاحب الجائزة »

فامتقع وجه السير لما رآه يصرح باسم الجواد وصاحبه . وقد كانت الحقيقة أن التدبير جرى من قبل فى النادى على أن ينال هذا الجواد الجائزة »

ثم قال اللص : « وكنت قد اشتريت أوراقاً للمراهنة على جوادك ، ولكننى بعتها واشتريت بمائة وخمسين جنيهاً أوراقاً أخرى على الجواد الآخر لكى أربح خمسة آلاف جنيه وحلت أصدقائى من اللصوص على مثل ذلك »

وكانت لهجة الثقة التى يتكلم بها اللص داعية للسير برتون على تكرار الابتسام وقال : « لكنه من المحتمل أن تخسر » فقال الدوق : « إن هـذا مستحيل — لكن البوليس تأخر كثيراً »

وكان إبداؤه هـذه الملاحظة بمناسبة هى أن الساعة دقت الثانية بعد منتصف الليل . وقد نظر إليها اللص وأبدى تعجبه من ارتفاع صوتها حينما تدق دقة مزعجة مع أنها من أغلى طراز . فلم يجبه السير على هـذه الملاحظة ولكن سأله : « ما اسم الجواد الآخر ؟ »

قال الدوق : « ليس من حقى أن أخبرك لأن مصدر علمى يتعلق بمحادثة غرامية بين رجل أعزب وبين امرأة متزوجة . ولو أخبرتك باسم الجواد فقد تعرف هذه المرأة . وأرى مما يتنافى مع شرف الكبار من اللصوص أن يفعلوا ذلك . لقد كنت أسرق منزلاً لأحد الأغنياء فوجدته مستيقظاً ومعه امرأة فاضطررت إلى الاختباء وسمعت الحديث الذى دار بينهما وهو عن التدبير الذى تم لتغيير الجواد الرابح . وقد كان هـذا التدبير لمصلحة الرجل وبواسطة تلك المرأة

وهنا دخلت اللادى برتون وقد دهشت عندما وجدت زوجها واللص يتحادثان كأنهما صديقان ووجدت اللص جالساً مطمئناً . وزادت دهشتها عندما وقف اللص ووقف زوجها للترحاب بها عند الدخول . وقالت لزوجها : « ما الذى فعلت ؟ ألم تستدع البوليس ؟ »

فتناول اللص كرسياً وأشار إليهـا بالجلوس فجلست وهى فى نهاية الدهشة مما تراه .

وقال السير : « اسمعى ما يقوله الدوق . لقد أخبرنى بأن العزم تغير فى نادى السباق ولن ينال

الجائزة جوادنا « وايت لادى »

فنظرت اللادى فى حيرة إلى اللص وقالت :

« ما هو الجواد الأخير ؟ »

فقال : « لا تسأليني فان القصة تمس شرف إحدى السيدات . وقد كنت منذ أسبوع أسرق بيت رجل غنى فجلست فى غرفة الاستقبال . وكان فى غرفة النوم سيدة متزوجة تتآمر مع الرجل على موضوع السباق »

ولاحظ الدوق ارتباك السيدة مما بدا فى نظراتها وصوتها . ولكن السير كان بطيء الملاحظة فلم يدرك شيئا من ذلك .

وقالت اللادى : « وهل رأيت السيدة ؟ »

فقال : « لقد لمحتها » فقال السير برتون :

« هل هى زوجته ؟ »

قال : « كلا وقد قلت الآن إنها متزوجة »

قالت اللادى : « ولماذا لم تظهر نفسك ؟ »

فلاحظ السير على زوجته هذه الملاحظة : « كيف يستطيع إظهار نفسه ويتعرض للاعتقال ؟ »

فقالت : « إنه ما كان من الممكن أن يعتقل ما دامت المرأة التى معه متزوجة »

قال الدوق بإباء وترفع : « إننى لا أستغل الأسرار ولا أتجر بسوء السمعة »

* * *

استمر اللص فى سرد ما سمعه عن تغيير الجواد الرابع فاستثار اهتمام السير لأنه وثق من صدق ما يسمع لما فيه من التفاصيل عن شئون النادي

وفى أثناء الكلام دق الجرس فاستأذن السير من اللص وذهب إلى الباب . وفى أثناء غيبته التفتت اللادى إلى اللص وقالت : « أرجو أن تصارحنى الآن، أليس المنزل الذى سمعت فيه هذا الحديث هو منزل اللورد آرثر جريفزلى ؟ »

قال : « نعم ولكن ما يدريك ذلك ؟ »

فقالت اللادى : « دع هذا التجاهل فاننى أنا السيدة التى كانت هناك . ألم تكن تلك الليلة ليلة الأربعاء ؟ »

قال اللص : « أأنت مجنونة حتى تعترفى أمام مثلى بمثل هذا الاعتراف ؟ لكن سرك على كل حال مصون فى قلب يكتم الأسرار وقد كانت الليلة ليلة السبت وكانت المرأة امرأة غيرك »

وقد كان اللص يحسب هذا القول مطمئناً لها ولكنه أخطأ فان هذا القول لم يزدها إلا انزعاجا . وألحت عليه أن يخبرها باسم المرأة الأخرى .

وقالت إنها لاتهتم لنفسها ولا تعبأ بالسر ولكنها تهتم لأن اللورد يدعو إلى منزله امرأة غيرها . وأخذت تلعن وتسب وتقسم انه لن يكون بينها وبين اللورد علاقة »

وفى أثناء الحديث عاد السير برتون وقال إن الذى كان يدق الجرس هو رجل البوليس وإنه صرفه بأكذوبة اخترعها وإنه يرجو من الدوق أن يخبره باسم الجواد الآخر

قال الدوق : « لاتتعب نفسك فانى لا أسمح بذكر حديث يؤدى إلى معرفة المرأة » فقال السير « عجيب والله أن يأتى لص فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ليلقى علينا درساً فى الأخلاق . قل وسأعطيك ماتريده من المال » فأبدى اللص علائم الاشمئزاز

وقالت السيدة لزوجها : ليس مما يتفق مع مكانتك أن تساوم مثل هذا الرجل على ما أفهمك أنه سر .

ولكنها رأت إصرار زوجها وتشبث الدوق وضاق صدرها بسرها وشعرت بأنها أحرجت فقالت: « ان الرجل الفتى الذى يتحدث عنه هو اللورد آرثر جريفزلى والجواد الرابع جواده »

وقف الدوق مغضباً وقال : « هذا سر خنته »

ولكن اللادى خرجت باكية متعثرة وقد عرتها رعشة المضطرب فتبعها زوجها . ووقف اللص وحده وهو نادم على إفشاء السر أكثر من ندمه على أنه سارق

وبعد ساعة عاد السير برتون وهو أصفر الوجه خائر القوى وقال : « إن اللادى اعترفت لى بالحقيقة كلها وهى ترجو مكافأة على إطلاق حريتك الليلة أن تسرق لها الخطابات التى كتبتها إلى اللورد آرثر » .

فوعده الدوق بذلك

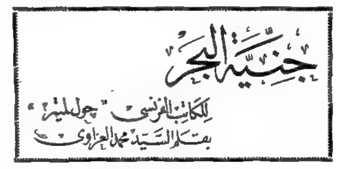
وفى الليلة التالية كان اللورد آرثر فى حجرة مدير البوليس السرى ليساعده على استكشاف جريمة

قال المدير : « ماهو الشيء المسروق ؟ » فقال: « رزمة من الخطابات يظهر أن اللص حسبها أوراقا مالية »

فقال مدير البوليس : « وما فائدة البحث عنها ؟ إن اللص سيمزقها كما كنت تفعل لو أعيدت إليك »

لكن مدير البوليس كان مخطئا فان اللص أخذها ليردها إلى اللادى برتون وقد نال فى مقابل ذلك جائزة هاجر بها من انجلترا إلى أمريكا وترك مهنته الدنيئة

عبد اللطيف النشار



احتبست الريح عنها إذ هى تحاذى الشاطىء من جزيرة « جن البحر » فلم يعد أحد يسمع للرياح عواء ولا عويلاً، أو يسمع للموج هديراً ولا هزيماً، أو يدرك فى اليم عوجاً ولا أمتاً ؛ فهو الآن هادئ سادر ، تتفجر الرهبة من جوانبه ، وتنبع الوحشة من نواحيه . وإذ رأى الركب مارأى من عنت البحر وبأسه طوى الشراع للسارية ثم استكانوا

لقد كان أودسيوس وصحبه . فقد أحنقوا نبتيون الجبار ، فأرسل عليهم الرياح عذاباً فهي عاصفة قاصفة ، لا تبقى ولا تذر . وألب عليهم البحر عقاباً فهو شموس لا يستقيد ولا يلين . . لكن كان البحر لهم بلاء ، وأي بلاء ! وقد استعذبوها فى سبيل رائيا كا !

واستمع أودسيوس لما نصحت به « سيرس » العاشقة ، فعجن الشمع ، وصبه فى صماخيه حجاباً كثيفاً ، وفى آذان صحبه فهم صم لا يسمعون . وشده الرجال — كما أمر — إلى السارية بحبال غلاظ شداد ، ثم طفقوا يزحمون عن السفينة زبد البحر الغاضب

وكانت جنيات البحر يشهدن تقدم السفينة — من كهفهن — بصبر وشغف . حتى إذا مادخلت السفينة مجال السمع بدأ الغناء :

« أيها الناس هلموا ! فما مر بنا رجل إلا سحر الغناء لبه ، وألهب حسه، فانتقل إلى عالم الخلد مسروراً ، عالماً بما لم يكن يعلم فى الحياة الأولى ... »

« نحن نعلم ما على الأرض جميعاً ، إن هى إلا أمنا ... ... »

ثم استوين جالسات على وصيد الكهف يلوحن بأيديهن فرحاً وطرباً ، مستبشرات بالقادمين النازلين ... أهلا وسهلا !

وكانت أصواتهن رقيقة ناعمة . يلفها ريح البحر الخم فيزيد من غموضها وجلالها ... يخالطها البحر بسحره وسلطانه فيجذب نحوها السامع كما تجذب النار الفراش ...

واصطرع أودسيوس على السارية بوثاقه . وطفق يجذبه وينحيه عنه فى بأس وقوة ، ثم يدعو رجاله أن يفكوا وثاقه . ولكن الرجال أحكموا الوثاق ثانية ، وشدوه من جديد . وظن «أوفريون» ـ أحد أعوانه ـ أن ذلك الغناء الذى هز رب الحكمة والجد فصارع الأغلال من أجله ـ لابد أن يكون جيلا ساحراً وليس بكثير أن يموت المرء من أجله فانتزع الشمع عن صماخيه فسمع الغناء فاذا هو فى لجة البحر وقاموس التبج ، يصارع اليم المتدافع ويجالد الموج الهادر ... سابحاً إلى « السرينات الصادحات » . وحزن السفر لما رأوا ، وعز عليهم أن يتركوا أخاهم اليم صيداً أو للجنيات غنماً ؛ ولكن أودسيوس ـ من فوق ـ دعاهم بنظرة راجية أن واصلوا السير علنا نبرح المكان فننجو من بلاء عظيم

* * *

وسبح أوفريون بمـا أوتى من قوة العضل ، فقد كانت الرغبة الملحة تهتك صدره ، وتدفعه شهوة السماع فيسابق الريح إلى الصوت سبقاً

وكانت المياه اللامعة تدلف فى وهج الشمس ، آمنة إلى كهف بالشاطئ القريب ؛ والجنيات السبع قد اجتمعن على وصيده سادحات فرحات

وليس يخاف أن الجنيات غريبات التكوين ؛ فهن إلى ما يلى الخصور أبكار كواعب ، نحيلات الخصور ، مربعات الصدور . وهن طويلات النحور حور العيون ؛ يعلو الجبين منهن شعر غزير أصفر كأنه سبائك الذهب ... وكانت أسنانهن مشدودة منضدة فى أفواه واسعة ركبت فى وجوه بريئة ضاحكة كوجوه الأطفال . أما ما بعـد الخصور فتكسوه حراشيف نابتة تعلوها فلوس لامعة . ويمكن للدانى منهن أن يرى أذيالهن — ذات الألوان الرائعة — تبصبص فى الماء تيهاً وعجباً

ولما اقترب منهن سكن الجوفلا غناء ولاصدى، ثم تواثبن عليه تواثب الذئاب على حمل وديع . وصحن صيحات العقبان المنقضة ؛ وجذبنه إلى داخل الكهف المعتم ، فنضون عنه الثياب ، ثم طرحنه على تل من عظام وجماجم ؛ إذ كان من دأب هؤلاء الجنيات أن يلتقطن من حطمت سفائنهم على شعاف الصخور البارزة فى قاموس البحر ليمتصصن دماءهم بشفاههن اللعس المكتنزة

والآن تراءى لأوفريون أن إحداهن أقوى سحراً من أخواتها الأخر وأشد فتنة : فعيناها تشعان ما لا تشع عيون أخواتها من حنان وعطف فولاها وجهه ثم قال :

— إنى لأموت سعيداً بعد أن سمعت ما أطربنى من غناء عرائس البحر الحسان . ولكن لن يتم لى سعد أو تطيب لى نفس إلا أن أموت على يديك أنت من دون أخواتك جماء !

فجحظت عينا الثانية من دهشة واستغراب ، منكرة عليه ثبات جنانه وهدوء نفسه ، إذ لم تعتد أن ترى وجهاً من وجوه ضحاياها الكثر يعبر عن الرغبة ويعرب عن العزم مثلما عبر هذا وأعرب . لقـد كانت عيون ضحاياها لا تشف إلا عن فزع ورعب مميت . إلا حين ينهكها التعب فهي شاخصة لا تطرف ، أو يعميها الهول فهي جاحظة لا تبصر . فما لعيني هذا الرجل يلمع فيهما بريق العزم وضوء التفكير ؟

فاستدارت الجنية لأخواتها وقالت آمرة :

— تخلفن فان الغريب غنيمتى !

وأطاعتها الجنيات الأخر . فربما كان لها عليهن نفوذ وسطوة ، أو فى قلوبهن حب وحظوة . أو ربما كان ذاك جرياً على عرف تواضعن فى عليه قسمة الضحايا . فانفردت بالاغريقى تسائله عن اسمه وخبره فلما قص عليها منه ذكراً قالت :

— فديتك يا أوفريون! لقد علقتك! وما أظنها إلا المرة الأولى إذ أسرح فيها بالحب وأستشعر الهوى!

فسألها الاغريقى :

— وأنت ما اسمك يا عروس ؟

— ليكوسيا !

* * *

أما الجنيات الأخر فقد تركن المتحابين يعيشان فى سلام ودعة . ولعل ذلك كان جرياً على العرف الذى تواضعن عليه ، والذى لا نعلم من أمره شيئاً . وكان بداخل الكهف مرج خصيب نهيتو سطبع

من ماءٍ معين ؛ كان أوفريون يروى منه غلة الظمأ بعد أن يغتذى بلحم السمك السمين .

ولم تفارقه ليكوسيا بعد ذلك أبداً : فهما يسبحان حتى تكل سواعدهما وتهن قواهما . وهما الآن بسفح الموج وبعد حين على الأعراف ؛ وهما بجنب الشط طوراً وفى القاموس أطواراً . تضمه إلى صدرها بينا هما فى الوشل ، وتنفذ إلى صدره — بعد أن ترق شغاف الصخر الناتئة — فكأنها سهم صراش . حقا لقد كانا سعيدين تحت ضوء الشمس المشرقة . وكثيراً ماداعبا الحيتان فى عودتهما إلى الكهف الوقور .

وإذا جن الليل نامت الجنيات على الشاطىء تاركات أذيالهن فى الماء . أما أوفريون فكان ينام بالمرج فى أحضان ربة البحر ليكوسيا . ولم تكن أحضانها بذات دفء فيلتمس فيها ملاذاً من البرد ومأوى .

وكانا قليلا مايتحادثان . إذ لم تكن تلم ليكوسيا من الكلام إلا بما سمعت به إقامتها بشاطىء البحر الأبيض المتوسط . فهى تستطيع أن تسمى «السماء» و «البحر» و «الشمس» و «القمر» و« النجوم» كلا باسمه ؛ وأن تسمى الصخوز قاطبة والسمك كافة . وهى تستطيـع أن تقول إنى « أرى » و « أسمع »و« أعشق » ، وإنى « أريد » و« آمل» و « أفعل » . وكان هذا كل مالها من لغة .

وسألها أفريون يوماً « كنتن تتغنين — حين سمعت غناءكن من الفلك المسرع — بعلم مالا يعلم البشر . فهل لك أن ترينيه يا ليكوسيا ؟ »

ولكنها أفهمته بأن ما ذهبن إليه فى أغانيهن باطل ، لايقصدن به إلا الكيد وإثارة التطلع فى النفوس .. وصحيح ماقالت، فان الكلمات التى تتغنين بها والتى يسمعها أوفريون صباح مساء — لم تكن تدل على شيء محدود ، بل كانت تثير فى النفس مايثيره جمال الشروق وجلال الغروب ؛ وكانت تستمد قوة السحر من حنان أصواتهن الذى يأسر القلب البشرى ويعطله من الحكمة والعزم وقد وضح ذلك لأفريون وضوحاً ..

ولم تكن ليكوسيا غافلة عن أحزان حبيبها العزيز ، فكانت تنعشه بقبلات حارة ، وكانت تلقفه إذ هو يغوص فى البحر إعياءً لأنها كانت أوفى منه قواماً وألين عضلا . وقد تهبه ظهرها صهوة يمتطيها إذا كده النصب . ولكنها كانت تغبطه — إذا ماكانا فى المرج الخصيب — على جوارحه الباهرة التى لم يكن لها منها إلا ساعدان مجفاوان لايغنيانها كثيراً إذ هى تسايره، وذيل يعوقها إذ هي تماشيه، واستشعرت قصور عقلها وذكاء عقله ، وأحست فوق ذلك — بنقصها رغم الخلود، وكماله رغم الفناء. لقد كانت تعلم أن عقله يعى مالا يعى عقلها من عوالم غريبة لاتعرف عنها قليلاً أو كثيراً ، فكانت تغبطه وتحسده لكل ذلك ثم ودت لو كانت بشراً سوياً .

وأخذ أوفريون على عاتقه أن يعلمها مالم تحط به ، ويهبها عما تجهل أفكاراً وصوراً . ولكنه تبين الفشل سريعاً . فقد كانت لاتستطيع أن تتصور مايقول أو تفقه له معنى . وكيف تفهم وهى تسمع ألفاظاً للمرة الأولى ؛ ثم كيف تفهم وهي لم تتخذ غير البحر مقاماً ومستقراً

وبدت له الحياة ثقيلة نوعاً : فقد زال عن ليكوسيا روعة الجديد وبهجته ، وتولى عنها سحر الغامض وجلاله . ثم . . . ثم هي جنية لا تفنى

الانسى شيئاً ؛ فلا هو من أصلها ولا هى من طينته ولا هى واجدة فيه ما ترتجى ، ولا هو واجد لديها ما يشتهى ... وران على قلبه الحزن. ألن يأتى عليها دهر تدري فيه فتريحه ، أو تنقلب إنساً فتسعده وتمينه ؛ أو يأتى عليه حين ينقلب فيه إلى جنى فينسى آله وصحبه ، ويستريح من الجوى والحنين ؟

ولج به الحنين إلى الوطن فتيره تتبيراً ... فى الليل بينا يهجع فى أحضان ربة البحر تسبح أفكاره وراء البحر إلى عالم البشر . فيبصر بعين الخيال الواهم أنهاراً وغاباً ، وجنات وحقولا . ويبصر مدناً وخلقاً كثيراً .. ويرى الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، والراسيات على الشواطىء كالأطواد .. وينعطف بصره بغتة إلى المواخير غصت بالمربدين السكارى ... هم الآن فى شغل فكهون : أمامهم خمر عتيق لذة للشاربين ، تتهادى بينهم الغانيات النشاوى مثنيات ضاحكات مداعبات باسمات ؛ ينضدن على شعورهن اللامعة زهراً ناضراً وجيلا .. هن — دون شك — دقيقات الخصور ، ناضجات الأنوثة مثمرات الصـدور ... مرهفات القوام ... رقيقات السواعد والأقدام ... و ... إلى آخر ما يصوره خيال المحروم

وحدث أن مرّ بالمكان فلك منكود جذبه سحر الصوت وترجيع الصدى فاستوى الفلك على صخور قريبة . وهرعت إليه الجنيات هادرات صاخبات . وانقضضن على ركبه — وقد أنشبن فيهم أنيابهن القاطعة — يمتصصن دماءهم الزكية . وتخلفت ليكوسيا عن أخواتها فلم تشاركهن الغناء أو النداء . وما كان ذلك ميلا عن الطبيعة أو عزوفاً عن الطعام ، ولكن مجاملة لأوفرون الحبيب . ولما علم أفرون بذلك حزن واستخذى .. وأيقن أن الحب الذى مسّ قلبها عاجز أن يهبه الحنان خاصة تميزه . وأيقن — كذلك — أن العطف والحنان قد اختص بهما القلب البشرى دون العالمين

* * *

ليس بخاف أن جنيات البحر ينشقن الهواء فى البر والبحر على السواء . وقد سرت تلك الميزة إلى أفرون بعد أن هذبتها قوانين البشرية، فهو يستطيع الصوم عن الهواء تحت المـاء أكثر مما يستطيع غواص مجيد . وكان أحب اللهو إليه أن يغوص بقاع البحر بين مروج المرجان والعشب الجميل ، وأن يهيم بينها متعجباً لها ، فى حيرة من أمرها : أهى أزهار أم أحجار أم حيوان يشعر ويرى !

وقد عثر يوماً بقاع البحر على فلك محطم ووجد بين ألواحه ودسره صحافاً من ذهب وأوانى من خزف بديع . ووجد أكواباً وأباريق ، وقدراً من ذهب فى صندوق متين . وعثر على جواهر وقلائد ونطقاً من حرير ومرايا وأساور من فضة ثم عدة لوحات تحاكى الطبيعة الساحرة

واستعان على إخراجها ليكوسيا ، فكانت خير معين . وقد حلّى جيدها العاطل بقلادة وطفاء الذوائب والأهداب ؛ وذراعيها بأساور من فضة ، وطوق خصرها الدقيق بنطاق من حرير ، ثم ثبت فى يدها مرآة صافية

وملأ قلب ليكوسيا الفرح إذ ترى صورتهـا الجميلة فى مرآة صافية . وطفق أوفرون يفسر لها ما استعصى عليها فهمه ، وشرح لها ما تمثله اللوحات من مناظر الطبيعة . فبدأت ليكوسيا تفهم العالم الذى حاول أوفرون أن يهبها عنه فكرة ضحلة . لقد

ألفته عالماً غريباً جذابا . فقالت رنة الأسى ولهجة الحزن : « وددت لو فهمت ما فى الأرض جميعاً . ولكن لن تنثني الوداعة ، فما أنا إلا ربة بحر قدر عليها نبتيون ألا تبرحه » .

ودار بخلد أوفرون أن يستغل تلك الحسرة . فزين لها الرحيل إلى الأرض ، وحرضها على هجر اليم الصاخب إلى البر الوادع ... فهو يغريها بالوعود الخلابة والأماني الباسمة ؛ وهو يحدثها عن أشجار وأطيار ، ورياض وبساتين — أنشأها له خياله الخالق . وهو أخيراً يقص عليها من أخبار الناس كل طريف ... وما ذلك إلا ليهرب من جزيرة « جن البحر » وينقلب إلى أهله مسروراً :

— لو تستطيعين السير معي يا ليكوسيا لركبنا الموج إلى بلد يدعى « أثينا » لا يبعد عنا إلا سبح ثلاث ليال .

— ولكني لا أستطيع أن أعيش على البر ، أو أسيغني زمناً .

— سوف أعينك على أمرك : فإذا كنا بالبلد الأمين سآتيك بعربة كاحدى ما أريتك فى اللوحات فتقلنا إلى حيث تهون الدهاب . وسوف نحيا فى نعيم بما نحمل من ذهب وفير وخير كثير ...

ولم يبح لها بما يكن فؤاده من شتى الأمور ..

ولم يكن سبح ثلاث ليال بمعجز ربة البحر ، ولكنه كان على إفرون بلاء عظيماً . وعلى أية حال فقد وصلا الأرض ؛ وهبطا شاطئاً غير ذى أهل ولا زرع . ولم تكن المدينة تبعد عنـــه طويلاً ، إذ كانت تتراءى على أبواب الأفق ، ولكن الطريق إليهـا كان وعراً متعباً . وطفق أفرون يخصف على نفسه من ورق الشجر ما كساه كساء مقبولاً .

وسارت الجنية بيديها فرحة مرحة . ولكن السير مالبث أن آلمها ، وآذاها والحر مالبث أن خنق أنفاسها المتلاحقة المبهورة .. وسبقها أفرون فى المسير فنادته :

— أفرون ! إن الأرض صعب سيرها شديد حرها . وقد حملتك فاحملني بدورك .

وما كان له أن يتخلى عنها فلا حبها يسمح ، ولا المروءة ترضى . فعاد وحملها فطوقته بزراعيها ، بينا ذيلها يثير خلفهما عثيراً وتراباً .

وتسايل العرق على وجهه المكدود ، وناء تحت حمله ، فوهت أعصابه وتمردت نفسه على ذلك المخلوق الذى يحمل ... وعجب لنفسه إذ يصطحبها ! فبالله ماذا يفعل بتلك السمكة الخنثى بين الناس ... ؟ ولم يكن منه إلا أن طرحها بعيداً عنـه ، وعدا نحو المدينة مسرعاً . فأعولت ليكوسيا :

— أفرون ! أفرون الحبيب !

لقد كان التوسل يائساً حزيناً ، تحرك له قلب أفرون فعاد وهو يقول :

— ألا فاصبرى يا ليكوسيا ! فانى عائد بعـد حين بعربة تقلنا للمدينة

— لا ! لا ! إني موقنة بأنك لن تعود ... إنك لم تعد تحبني لأني لا أحاكي الانس فى شيء . وما ذاك ذنبي ! ألا فاذكر نعمتي عليـك يا أفرون إذ أنت إلى اليوم حيّ ... أتريد بعد ذلك فنائى وموتى ! ؟ يالك من جحود ...! آه لو تعلم عظيم التضحية ... إن الآلهة قد نضت عني ثوب الخلد لأني علقتك !

وضمت إليها يديها إذ تفيض الدموع من عينيها للمرة الأولى !

— أفرون ! عطفاً علىّ !

— عطفاً ؟ ! عطفاً ؟ ! ما نطقت بتلك الـكلمة من قبل !

— ذلك لأني لم « أقاس » حبًا أو شقاء . إصغ إلىّ ! إني موقنة بأني حملٌ يؤودك ، إلا إذا استويت إنسانة تؤنسك وتؤسي جراحك . وما أجد عن

حالى هـذه حولا ... على أن ما رأيت من عالمك أفزعنى وأرعبنى فلا يحزنك أمرى ... ولا تبتئس إذ أعود لليم مرة أخرى ، فأسير سيرتى الأولى مع أخواتى القاسيات

— القاسيات !! أنى لك تلك اللفظة الأخرى؟!

— واحسرتا ! لقد علمتنى أنت معناها ! .

ولم يعقب الرجل على ما قالت كلاماً . بل حملها بين ذراعيه وعاد إلى الشاطئ شديدى أسى كاسف بال . وابتسمت له ليكوسيا من بين الدموع الواكفة فقادها الرجل إلى الشاطئ بلوعة المودع وجوى العاشق المشفق

— وداعاً يا صاحبى !

— آه ! لو وهبك الاله من لدنه أقداماً !

— حسن يا صاحبى ! فليس لى أقدام ، ولا أود أن يكون . فمالى بها من حاجة فى هذا البحر اللجى . سوف أنسى كل شىء أو أحاول .. وسوف أسير سيرتى الأولى . وإن قدر لى أن أذكرك بين الماء والسماء فيا لسعدى وهنائى ! ولكنى سأشفق على نفسى خشية أن يحطمها الهوى ... وسأشفق عليها مرة أخرى ... فما أشد خوفى أن أطرح بعد أن يسخط علىَّ نبتيون الأعلى

وبكى أفريون بكاء مراً . وصاح بها :

— كونى كما شاء نبتيون الطاغية ! ولـكن تعالى ! تعالى نكن كما شئنا وشاء لنـا الهوى !

وما كان أفريون إلا أحمق وعجولا . وما منعه أن يأتى خاتمه إلا « زيتيس » الوادعة ! وقالت لهما إذ تستوى فى جلال الآلهة :

— لقد سرنى أمركما وأطربنى ، وإنى لمعجبة بكما سوياً، فأنت يا ليكوسيا قد أكرمت مثوى فارس صنديد ، ظاهر ولدى آخيلوس بن بيلوس إذ هو بنـار الحرب صال . وأنت — يا أفريون — قد عطفت على إحدى فتياتى — ربة البحر ليكوسيا — وكنت من سؤلك قاب قوسين أو أدنى ... لقد أحب كل منكما أخاه وأعلى مقامه . وإنى بكما لفرحة طروب؛ وإن لكما عندى أحسن الجزاء فالتمساه فى واحد مما أرى ... أنا مستطيعة — ياليكوسيا — أن أمحو — قبل أن أسرحك — ما تخلف بقلبك من ذكر هذا الآدمى . وأنا — يا أفريون — زعيمة بأن أهبك هيئة الحوت مبقية لك على روحك الآدمى وعقلك ، كى تعيش مع ربة البحر رغداً سعيداً ... ولـكنى أفضـل أن أهبكما السعادة كما ترغبان ... والآن ياليكوسيا ! أأنضو عنك ثوب الخلد ثم تعيشين فى دنياه إلى حين ؟

— يقيناً ! فما فى الخلد من غناء !

— لا شكر لك ولا أجر !

— آه ! مولاتى ! لأجمل بك الصفح وأولى ! كنت أتحدث عن نفسى !..

— لا تثريب عليك الآن . فإنى أفهم ما تقولين جيداً . والآن ! أتصبحين آدمية ؟!

— نعم !

— إذن فـكونى بشراً سويا !

ولمستها برمحها الرشيق فاذا هى امرأة تسعى .

— والآن يا فتاتى ! أسرعى إلى تلك الراهبة فى ذلك الدير القريب واسأليها إزاراً وبرداً ثم سيرى خلف فتاك ولا تعصى له أمراً ...

وعقل الفرح لسانيهما، وعطل الذهول حواسهما فما استطاعا شكراً ولا سجوداً ...

وانفتل العاشقان .. وابتسمت لهما إذ يودعانها . ولكن ما أمر بسمتها .. بسمة حزينة مشفقة ! لقد خامرها الشك فيا وهبت من سعادة ونعمة .

السيد محمد العزاوى

من القصص الألماني

سارقة الأطفال

للكاتبين القصصيين « إركمان وشاتريان »
بقلم السيد صلاح الدين المنجد

تعريف

إركمان وشاتريان أديبان فرنسيان كبيران ، أصدرا معاً ، كثيراً من الروايات والأقاصيص التاريخية . وقد اشتهرا بأسلوبهما الذي تغلب عليه السهولة في التعبير ، والدقة في الوصف .

وقد أجادا في وصف عادات أهل الألزاس الأقدمين ، ومن أشهر مؤلفاتهما : الصديق فريتز ، مدام تيريز وغيرها

في سنة ١٨٧٠ ، كان يُرى في مدينة « مايّانس » ، امرأة شاحبة الجسم فارعة القد ، قد لصب خدّاها ، وسهمت عيناها ونال منها السقم والضنا ، تضل في الشوارع ، وتطوف الأحياء وتتمتم بصوت خافت حزين : دوبش ... دوبش ... أين أنت ياولدي .. !

كانت تسمى « كريستين »

وكانت صورة للجنون المتصل والألم الدائم . فقدت عقلها بعد أن اختطفوا منها طفلها الصغير قبل عامين وهي تتنزه في شارع « القوارب الثلاثة » في عتمة الليل العابسة . فصاحت آنئذ وعَدَتْ ، ثم أعولت ونادت ، ثم فتشت عنه في كل مكان .. حتى في البحر المضطرب العميق ، وسألت عنه من رآه ، من أطفال وولدان .. ولكنها ، وآسفاه ، لم تجد له أثراً في البحر ، ولم يحدثها عنه إنسان ..

من ذلك اليوم . لم تتمتع كريستين بالعيش أبداً. أصبحت لا تطأ أرض دارها التي صارت رهناً للبلى إلا قليلا ، ولا تذوق عيناها المذعورتان طعم النوم إلا غراراً . فهي هائمة على وجهها في الشوارع والطرقات . تنادي ابنها بصوت يرتفع تارة فيرعب ، ثم ينخفض أخرى حتى ما تسمع منه سوى زفرات تتصعد ، وأنات ترسل ، وجمجمة تمزق الصدر وتلهب الحشا ، وحتى لا يتمالك الناظر إليها من الرثاء لهـا والاشفاق عليها ، فيقدم لها من الطعام ما تأكله ، ويجود عليها من الخرق الممزقة بما تلبسه . مسكينة ! لقد كانت القلوب تتفطر حزناً لمنظرها وتتصدع أسى ، وكان نداؤها لابنها حزيناً باكياً ، يستدعي الرحمة ويستدر الشؤون .

ولم تكن كريستين وحيدة في هـذا المصاب ، إذ فقد كثير من الأشراف أبنـاءهم ، ولقد حاولوا عبثاً معرفة أولئـك اللصوص الذين يثكلون الأمهات إذا ما جاء الليل وابتلع الكون ، وأقفرت الشوارع . وعلى الرغم مما بذله هؤلاء الأشراف من جهد ، وما أنفقوا من مال ، فان السارقين بقوا مجهولين لا يعرف مقرهم ولا يهتدى إليه .

ففي إحـدى أماسي أكتوبر من تلك السنة ، جلست كريستين إلى عين ماء ، بعد أن طافت المدينة وزارت الأحياء . وقد قف شعرها الرمادي ، واغبر وجهها الشاحب الـكئيب ، وأخذت تنظر حولها بعينين تائهتين تارة ، وترق ببصرها الحائر إلى السماء أخرى .. كأنها تسأل الأرض والسماء والكون عن وليدها المفقود . وكانت الخادمات يأتين إلى النبع ليملأن جرارهن ويرجعن عجالاً ، لا يقفن كعادتهن ليتحدثن بما يقع لهن في الليل أو النهار من حوادث ،

ومايسمعنه من أخبار ، وكانت المجنونة ساهمة واجمة . لا تتحرك ولا تتكلم . وكان المطر يرش رشاً خفيفاً . وقد بدأ الظلام يغمر الشوارع ويظلل الدور .

ودقت الساعة السابعة . فلم تتحرك كريستين ، بل راحت تجمجم : دويش .. أين أنت ياودويش .. وفجأة التمعت عيناها ، وتقلص جسمها ، وتطاول عنقها وأخذت تنظر ... إلى امرأة كانت تمر فى الجانب الثانى من الشارع ، وقد التفت بثوب فضفاض وحملت بين يديها فى قطعة من قماش شيئاً يلبط ويتحرك ، ويقفز يريد الخلاص

وكان منظر المرأة يثير فى النفس الشك والريب وكانت تعدو كسارق يريد الاختفاء عن الأعين . فاعترت كريستين هزة عنيفة . . فراحت ترتجف وتتمتم كلمات مبهمة غريبة . ثم تفزت فجأة وانطلقت تعدو فى أثر المرأة وتنادي بصوت مرعب : السارق السارق .... اقبضوا عليه .. اقبضوا عليه ..!

ولكنها ما كادت تلحق بها حتى اختفت المرأة فجأة.. كأنما ابتلعتها الأرض !

هنا لك .. وقفت كريستين تبكى .. لقد كادت تعرف مقر ابنها . ولكن . . ولكن وآ أسفاه ، اختفت السارقة فى هذا الظلام المرهب ، وساد السكون .. فلا صوت إلا خرير الشلال المتساقط البعيد .

وراحت المجنونة تلطم على وجهها ، وفى صدرها كلام تجمجمه كأنه أزيز القدر ، وفى ناظريها وميض يرعب ويخيف ، ثم عادت أدراجها ، ومرت بشارع القوارب الثلاثة وهى تمايل كالسكران ، واجتازت ساحة غوتمبرغ وقصدت إلى مقر رئيس الشرطة .

ورأته فى غرفته ، وفى يده قدح من الشاى ، فقالت له وهى تبكى :

— سيدى الرئيس .. لقد عرفت سارقة الأطفال . . اسرع ياسيدى واصغ إلى . . ! وكان رئيس الشرطة ذا قلب كالحجارة أو أشد قسوة ، وكان ضيق الصدر متبرماً بالناس، يحب الإخلاد إلى الراحة إذا أسدف الليل وأكل الطعام . فأزعجه مرأى هذه المجنونة فنادى بها مغتاظاً :

— يا إلهى ! ألا أستريح لحظة واحدة طوال النهار ؟ أرأيتم بالله مخلوقاً أتعس منى أو أشقى . . ؟ ماذا تريدين منى .. ؟ لم تركتموها تدخل ..؟

— آه يا سيدى .! تسأل إن كان هناك مخلوق أتعس منك.. أنظر إلى..أنظر إلى ياسيدي.. هه.. أنا مجنونة ؟. لقد كنت ذلك قبل أعوام ..! اما الآن. هه . . هه . . لقد رأيتها ياسيدى تحمل طفلاً . . أقسم لك .. آه أين أنت يادويش .. ياولدى ..!

— عليك وعلى طفلك ، وعلى السارقة اللعنة. اعزبى عن وجهى .. حقاً إنك مزعجة . هانس .. أطرد هذه المرأة .. اسرع .. ياهانس اسرع !

فجاء الخادم وحيا الرئيس فقال له :

— أطرد هذه المرأة . وغداً سأطلب زجها فى السجن .. هيا أخرجها .

عندئذ راحت كريستين تضحك . . وتقهقه وتغنى .. فجاء اليها الخادم وقد امتلأت نفسه شفقة عليها وقال :

— هيا يا كريستين .. هيا .. تعالى واخرجى .

وعاودها الجنون . . فخرجت تنادى : دويش دويش أين أنت ياولدي ..!

* * *

وفى الوقت الذى راحت المجنونة تنادى طفلها ، كانت مركبة رئيس الحرس الامبراطورى تجرى فى شارع « إرستين » ثم تتوجه نحو مقر صاحب الشرطة

وترك الكونت رئيس الحرس مركبته وقصد دار الرئيس بلباسه الرسمى الأخاذ ، وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أشقر اللحية والشعر ، آتاه الله بسطة فى الجسم وقسوة فى الطبع . فرأته كريستين فضحكت منه ، ثم دخل على رئيس الشرطة فجاء وقال له :

— سيدى رئيس الشرطة ! إن حراسك كبالى متقاعسون . منذ عشرين دقيقة وقفت مركبتى أمام باب الكنيسة الكبرى فرأيت الكونتيس م ... ، فتركت طفلى فى المركبة وجئت لأستقبلها ، ولما عدت إلى المركبة لم أجد طفلى ... لقد حاولت أن أعرف السارق ولكننى فشلت ، لقد يئست من معرفتهم ... لقد يئست !

وسكت الكونت ، وجفف دمعتين عرقتين انحدرتا على خديه ... وتنحنح رئيس الشرطة وأراد أن يؤجل أمر البحث عن الطفل إلى الغد .. ولكن الكونت قال :

— إننى سأنتقم ... إن عليك أن تحضر لى ولدى ... وإن عليك أن تسهر على راحة الناس .. إنك مهمل ... حذار ... حذار ... منى ، أتسمع ؟

وكان العرق يتصبب من جبين رئيس الشرطة على الرغم من البرد القارس ، فقال له :

— إنه الولد العاشر يامولاى ... ! ماذا تريد منى أن أفعل .. ! إن السارقين مهرة جداً .. وإنهم لـ ..

— ماذا أريد أن تفعل .. ؟ أهذا جوابك لأب يطلب ابنه منك ... ؟ آه يا ...

— هدئ روعك يا مولاى ... لقد كانت هنا منذ دقائق ... امرأة مجنونة ... اسمها كريستين لقد قالت لى .. إننى أذكر .. نعم ، هانس .. هانس

وجاء الخادم فقال له الرئيس :

— فتش عن كريستين

— إنها لا تزال هنا يا سيدى

— دعها إذن تدخل

— إجلس يا مولاى الكونت ... إجلس

ودخلت كريستين فقال رئيس الشرطة :

— مولاى ... لقد فقدت هذه المرأة ولدها منذ عامين ... وفقدت بعد ذلك عقلها ...

ورأى الدمع فى عينى الكونت وقال :

— ثم ماذا !

— لقد جاءت إلىّ وقالت ... لى ...

— تكلم ماذا قالت لك ؟

— قالت لى إنها رأت امرأة تحمل طفلا

— وأين هذه المرأة ؟

— لقد حسبت أنها تهذى فطردتها ...

— طردتها ... !

— نعم ... نعم ... حسبت ...

فاغتاظ الكونت وثار وصاح : —

— يا لك من ... إنك تعين السارقين . آه ! أنا مارأيت رجلا أصفق منك وجهاً .. إنك لجبان .. حذار منى ... لئن لم تجد لى ولدى لأقتلنك ، ثم لأمثلن بك ، ولأطرحنك إلى الكلاب ... !

وترك رئيس الشرطة يرتجف خوفاً وفرقاً ، وقال لكريستين :

— أيتهــا المرأة ... أجيبيني ... أين رأيت السارقة ؟

— دوبش ... دوبش ... لقد قتلوه

— لكن أين السارقة ؟

— واحسرتاه ! إنهم قتلوه ... نعم قتلوه ...

وتركت الكونت ينظر إليها ، وانثنت راجعة من حيث أتت وهي تبكي وتنادي: دوبش... دوبش أين أنت يا ولدي ؟ ...

وهبّ الكونت ليلحق بها فناداه رئيس الشرطة

— سيدي الكونت ...

— صه يا ...

وراحت المجنونة تعدو وهي تتمتم ألفاظاً سقيمة الجرس، غريبة المعنى، والكونت يتبعها ويقول لنفسه:

— لقد ضاع الولد ، وخاب الأمل ... إن هذه المرأة لا تدري ما تفعل ولكن ... من يدري لعلّ شعورها الخفي يقودها نحو مكان السارقة فلأتبعها إذن على أن أنقذ الطفل وأرجعه إليّ

مضى الكونت في طريقــه يتبع خطوات كريستين . وكان يراها على الرغم من الظلام الدامس والضباب الكثيف الذي غمر المدينة ، ويسمع أنينها وزفراتها على الرغم من الهواء السكران التائه .

ووهن الليل ... ثم عسعس ، وما زالت كريستين تمشي ... لقد طافت حول المدينة والكونت وراءها تدفعه الأماني ، وتقوده عاطفــة الأبوّة الحلوة ، ووصلت إلى النبع الذي تركته لتلحق بالسارقة عند ما كان الليل طفلا ... وكانت تتمتم كلمات تبعث في النفس الحزن والكآبة . وأظلمت الدنيا في عيني الأب المفجوع ... فراح يدعو ربه . وكان القمر يظهر من وراء الغيوم تارة ويختفي أخرى ، فينير الأرض مرة ، وينشر عليها رداء رقيقاً من الحزن مرات ... وفجأة انطلقت المجنونة كالسهم ... إلى أحد الشوارع ... فتبعها الكونت ... وكادت أن تختفي عنه ، ثم اختفت ، وضاعت في الظلام

وحار الكونت في أمره ، ثم رأى نوراً يظهر تارة ، ثم يختفي من ثقب في زاوية الشارع ، كان مصــدره نفق في الأرض ، فتقدم نحوه ، فرأى كريستين واقفة تبكي... فلما رأت الكونت نادت : هذا بيت السارقة ... لقد رأيتها الآن ... إنها هنا ، فبرقت عينا الكونت ... وثار ثائره وحطم باب الدار ودخل ووراءه كريستين

ودقت الساعة الثالثة بعــد منتصف الليل في كنيسة القديس إنياس

وسمع الكونت وقع أقدام ، ثم بكاء طفل ، كأنما سلط عليه العذاب... ثم رأى عجوزاً محدودبة الظهر ... في غرفة صغيرة ... تذبح طفلا ... لم يتبينه ، لجن جنونه ، وفقد وعيه ... وقفز نحوها ولكنه تدحرج سريعاً إلى هوة عميقة مظلمة ... !

وتنبهت المرأة ... وانطفأ المصباح ... وساد الظلام في الدار ... فراحت المجنونة تنادي ابنهــا دوبش ، وراح الكونت ينادي طفله الصغير ... وراحت العجوز تقهقه وتضحك

وسمعت أصوات تصدر من الدار ... واشــتد اللغط ... والمجنونة تنادي ، والكونت يصيح ، والعجوز تجيب

— انتظروا قليلا ... سأعطيكم ما تريدون ... أولادكم ... أليس كذلك ؟

أخرجوا يا ... هيا وإلا ألحقتكم بهم ...

وأشعل المصباح ... وتقــدمت العجوز ...

فرأتها المجنونة فوثبت إليها ... ولكن ... مسكينة لقد اجتذبتها العجوز إليها ثم أهوت عليها بطعنة تركتها تئن فى الأرض وتصيح

وقام الكونت ... فتألب عليه جمع من النساء لم يدر من أين أتين، ألفظتهن الأرض، أم أرسلتهن السماء ... وجرّد الكونت سيفه وضرب إحداهن ففررن ... فتبع العجوز ... واقتحم إحدى الغرف وهناك سقط مغشياً عليه لا يحس ولا يعي ...

لقد رأى ابنه مذبوحاً ..! نعم مذبوحاً يا قارئ ورأى رأسه يتدحرج فى أرض الغرفة ، وأبصر يديه وقدميه ، وقد تمزق جسمه ، وسال هنا وهناك دمه ، وأبصر الجماجم والرؤوس معلقة على جدران الغرفة ، والفؤوس والمدى مبعثرة فى جوانبها ...

آه ! يا للوحشية ! ويا للفظاعة !

* * *

لم يستفق الكونت من غشيته إلا فى صباح الغد فوجد نفسه فى قصره بين الخدم والحراس ... إذ ألفته المرأة فى زقاق بعيد عن دارها بعد أن أشبعته طعناً بالمدى . فنقله العسس إلى قصره بعد أن عرفوه

وعلمت آنئذ أن تلك المرأة كانت تبيع اللحم ! تخطف الأطفال ... وتذبحهم ، ثم تبيع لحومهم الطرية للناس يساعدها أربع نساء فى دارها

وفى تلك الليلة اختفت سارقة الأطفال ... ولم تظهر بعد ذلك اليوم أبداً ...

* * *

ترى ماذا يبقى فى المرأة إذا جردتها من عاطفة الأمومة ، وحب الأطفال ؟ ...

« دمشق » صلاح الدين المنجد

فنان

للكاتب الايطالي "أدريانو زوكولي"
بقلم الأديب محمد حسني

قالت الكونتس :

— هل شاهدت الكنيسة الصغيرة المشيدة على ذروة مونت سان فوستو ؟

فأجابها أرتورو أندولفي بسرعة عجيبة قائلاً :

— أجل يا كونتس، زرتها منذ ثلاث سنوات غبرت ، وهي بديعة جداً ، وإني لأذكر أن قدمي زلقت في منتصف الطريق أثناء صعودي فسقطت إلى جانب الماء المتدفق هناك وأصيبت ركبتي برض فاستدعيت الطبيب في اليوم التالي ، وإنه لطبيب نطاسي لا نظير له ، وقد عالجني بأسلوب غريب ..

وعند ذلك أنشأ أرتورو يفيض في الحديث ، فروى سيرة الطبيب ، والوسائل التي يعمد إليها في علاج الرضوض ، ثم خرج من ذلك إلى ذكر بعض أزهار معينة كان قد اقتطفها من سفح مونت سان فوستو

وهكذا سقط موضوع الكنيسة الصغيرة من الحديث ذي الشجون

وفي الواقع أن الكونتس عراها بعض الدهش لما ذكر الماء المتدفق ، غير أنها ظنت أنه ربما كان هناك ماء منهمر منذ ثلاث سنوات ثم غير طريقه فسلك مسرباً آخر . وعلى أية حال فقد كانت تصغي إلى القصة الصغيرة وتبتسم وعلى وجهها أمارات الرضا

كان هذا شأن الكونتس ، أما أنا فإني أقسم أن الرجل ما غشي تلك الكنيسة قط ، بل إن بصره لم يقع عليها حتى من بعيد ، وفي مقدوري أن أحلف غير حانث أنه لا يدري أين موقع ذلك الجبل

لقد عرفت أرتورو منذ أمد بعيد فعرفت فيه الكذب ، وكان يكذب على الكونتس

ولكن لماذا يكذب ؟

لعله يسوؤه أن يُعرف عنه أنه لم يصعد مونت سان فوستو ، أو لعله يستروح تسلية في مجرد قوله « نعم » بينما قد يقول الآخرون « كلا » ، ثم هو سيسرد قصة ولا ريب متى أجاب « بنعم »

إن الرجل أستاذ كبير في فن اختلاق الأكاذيب ، وملم بفنه الإلمام كله ، فيعرف الابتسامة التي تنم عن شيء بينما يكون الفكر منصرفاً إلى شيء آخر ، كما يعرف أصول القصة الملفقة التي ينبغي أن ترتجل ارتجالاً في برهة قصيرة إذا استدعى المقام لجأة إنقاذ الموقف ، أو إخفاء بعض الظروف ، أو القضاء على شبهات وريب

وإنك لتراه وهو يكذب ثابت الجنان هادئ النفس وعلى وجهه الناعم الورد أثر السوداء والحزن كأن الصدق الذي يلقيه يجشمه بعض الجهد ، وكأنه لا يفضي به إلا إلى خلصائه ومن يثق بهم ، وما نعني بصدقه إلا الأحاديث التي يبتكرها من العدم ونسميها نحن الكذب

ولأرتورو صوت منسجم هادئ دائماً ، ونظرات صريحة فيها ما يذكرك بنظرات النساء ، ولسينيه أهداب وطف ، وهما واسعتان وتنمان عن

ذكاء صاحبهما فى الاختراع والتأليف ، وتنظران إليك باقناع لطيف يسل من نفسك أى شك يقوم

وتكاد ابتسامته أن تكون مبهمة غامضة إلا أن التهيب ظاهر فيها ، وتراها فتري التوسل وطلب المعونة والتماس الموافقة

وبذلك الصوت ، وتلك النظرات ، وهذه الابتسامة استعان ارتورو على الكذب كما استعان أيضاً بذلك الجمال البارع الرائع الذى أفرغته عليه الطبيعة إفراغا

وقد دأب على الكذب نيفاً وثلاثين سنة بلا وجل ولا فتور وكأنه مكلف بأداء واجب مقدس. ويكذب فى العظيم من الأمور وفى الصغير منها ، إما رغبة فى الكذب كما سمعت من حديثه مع الكونتس، أو تظاهرا بالورع والتقوى ، أو إشباعا لرغبة سيئة، أو اضطلاعا بالتزام اجتماعى ، أو لمجرد التغرير والايقاع بالغير

ثم إن الطبيعة حبته نعمة تعينه على ما هو بسبيله دوما ، وإنى أرى هذه النعمة من ألزم الأشياء له ، وهى ذاكرة هائلة عظيمة

وإن الذاكرة الواعية التى يستخدمها الناس فى شؤون حياتهم لايعدها ارتورو شيئاً ذا قيمة إن لم تكن معينة له ومسعفة فى ميدان الكذب

وبفضل هذه الموهبة النادرة جداً والمثيرة للحسد يفعل ارتورو العجائب ويأتى بالمدهش المستغرب

ومن أمثال ذلك أنه يلذ له ويطيب فى بعض الأحايين أن يخبر أناساً مختلفين بأكاذيب مختلفة تدور جميعها على أمر واحد معين ، ثم هو يخترع لكل فرد منهم تفصيلات يرويها للآخر على صورة تباين الأولى وتخالفها ، وقد يعيد بعد شهر أو عام أكاذيبه كما رواها لكل واحد دون أن يخرم منها حرفا

وقد خيل إلى بادىء ذى بدء أن الرجل يستعين بمذكرة يدون فيها أعظم ترهاته وأكبر أكاذيبه ويثبت فيها أيضاً أسماء ضحاياه، غيرأنى مالبثت أن أبعدت هذا الرأى . لأنه لو عمد إلى ماتخيلته وتوهمته لما وسعت خرافاته المجلدات مهما كثرت ، إذن فالأمر الذى لايرقى اليه شك أنه يطبع كل كذبة يرسلها على صفحات عقله وناهيك به من طبع لايمحوه كر الأعوام

وإذا اتفق وذكرته مثلا بألوان القصص الخرافية التى حبانى بها وحدى فى غضون سنى صداقتنا الطويلة لما أعجزه أن يعيد على مسمعى رغم الأعوام التى تصرمت أول أكذوبة أتحفنى بها ..

ثم هو فى غنى بعد عن أن يتذكر دائماً كل شىء بحذافيره فلو تصادف أن تعثر فى حديث له فانه يبادر إلى إصلاح ما أفسد بعبارة لايكاد يصدقها العقل ، وهكذا ينشل نفسه من نفسه ويخلف السامع مشدوها فاغراً فاه

ولم تعرف زوجة ارتورو (نعم ان لارتورو زوجة ... ألا يمكنك أن تتصورها ؟ ... يالها من امرأة مسكينة) من أمور بعلها إلا ما يطيب له هو أن يطلعها عليه كأن يخبرها بقصة يحشوها بالاغراق فى المبالغة ، أو يروى لها حكاية مضحكة أو أي شيء آخر ، إلا الصدق ...

سافر ارتورو مرة إلى روما فلما آب اتفق أن سألته زوجه عمن رأى هناك فذكر أسماء عديدة من جملتها اسم الكونت سجارجى

وفى مساء نفس اليوم ، وكانا على الطعام مع آخرين اتفق أن قال فى كلام له :

— وهل تعلمين أن سجارجى كان هناك أيضاً ؟

فقاطعته زوجته بقولها :

— ولكن أليس سجارجى فى روما كما قلت ؟

فقال من فوره :

— هذا هو أخوه ، وأنت تعرفينه أيضاً

— لا يا عزيزى

— لا ، بل تعرفينه يا عزيزتى

وجرت بعد ذلك مناقشة قصيرة جهدت السيدة المسكينة خلالها أن تتذكر سجارجى الآخر الذى يزعم بعلها أنها تعرفه أيضاً ، ولم تطرح على زوجها سؤالا يبدد حيرتها ففاتتها فرصة الاهتداء إلى الحقيقة

وكنت من جملة الجالسين إلى المائدة فسألت نفسى بقولى : ترى أى الرجلين موجود فى هذه الحياة الدنيا ، سجارجى روما أم سجارجى ميلان ؟ ولماذا اخترع أرتورو وجود واحد فى العاصمة وآخر فى مدينة ؟

إننا جميعاً نعلم علم اليقين أن ليس فى العالم كله سوى واحد يدعى كونت سجارجى ، ولكن أين هو الآن ، أفى روما أم فى ميلان ؟.. وظل السر فى بطن الكذاب الأعظم

وإذا ضبط أرتورو فى أكذوبة أو أحرج فإنه لا يتردد برهة فى سوق البراهين على أنك مخطئ ، وأنك لم تفهمه كما يجب ، وربما يتواضع ويقول إنه لم يوضح حديثه جيداً ولذلك نبت الشك فيه

ولأجل أن يعبر فى وضوح وجلاء عما يقصده يعمد إلى تشييد قصة أخرى حول قصته فإذا أردت أن تتفهم تماماً مارواه أولا وأخيراً لتمين عليك أن تنفذ خلال ذلك التيه من التفصيلات والجزئيات والحواشى ... وهذه خطة عسيرة ومراد مرهق فلا يسمك إلا الرضا بالتسليم ، وقد تتهم نفسك بأنك لم تفهم أقواله جيداً كما ألقى الفنان فى روعك

إذن هو ما أراد التوضيح والتفسير بل التعجيز والارهاق ...

وقد يكذب ليطيع روحه الخيالية أو مزاجه المتقلب الغريب الأطوار

خرج ذات صباح للتروض غير أنه بدل أن يعود مساء أو بعد موهن من الليل انقطع عن بيته وأهله ثلاثة أيام سويا

وليس فى غياب ثلاثة أيام ضرر عظيم ، بل وليس ثمة ما يمنع الغائب عن الاعتراف بالسبب الذى غيبه عن بيته ، وأى إنسان يمكنه أن يعلن فى صراحة كيف قضى أيام غيبته ، إلا أن أرتورو ليس بالرجل العادى فلا تطلب منه ما تطلب من سواه

وأرتورو أكبر وأعظم من أن يدع تلك الفرصة تمر دون أن يطلق لخياله الخصب العنان ويصوغ سلسلة من الحوادث المعقدة وإن لم تقع قط

وارتجل أرتورو كذبة بارعة بدون أن يجهد فكره فكان مثله فى ذلك مثل الفنان القدير الذى يخرج فى زمن قصير أبدع الطرائف وأثمن القطع الفنية التى لا يتأتى للفنانين الآخرين إخراج مثلها إلا بعد عناء ومشقة تطول أعواماً

طلع على أهله بأنه اشترك فى مبارزة ، وعلل غيابه الطويل بقوله إن تسوية المسائل المتصلة بالشرف ليست من الأمور الهينة التى تعالج بسرعة فى يسر ويقضى فيها بدون روية واهتمام عظيم ... ثم لابد

قبل المبارزة من اختيار الميدان وانتخاب السلاح والموافقة على الشروط

وقد بارز فجرح منازله ...

ولكن ماذا جري له هو ؟

لم يصب ولا بخدش خفيف ، أدره وأدره ، وانظر إليه من كل ناحية ... لم يصب ولا بخدش خفيف ...

وتم كل شيء على أحسن ما اشتهى ورام ، وقد طعن بسيفه ذراع غريمه طعنة جعلته الآن طريح الفراش ...

ويصيح أحد أقاربه قائلا :

يالها من حادثة ! أتجازف بحياتك ، ولكن لماذا ؟!

وكان ارتورو لم يفكر بعد ذلك في اختلاق سبب المبارزة ، والمرء لا يبارز رغبة في أن يرى جسده مثخنا بالجراح ... وكان القصاص الأعظم لم يقدر أثناء الكلام هذا السؤال بل ولم يدخله في حسابه ، وإن كان من المعقول والمنتظر أن يأتي السؤال

وسمع ارتورو السؤال دون أن تهتز له شعرة ، ولم يزد على أن ابتسم ابتسامة الحذر الأريب ، ثم ألقى نظرة لطيفة متوسلة فأدركوا جميعا ما شاء أن يدركوه

إن من أسباب المبارزات أسبابا لا تفشى . . . إنه شرف امرأة .. أو إنه فضيحة امرأة (والشرف والفضيحة كلتان مترادفتان في بعض الأحوال)

وقال قريب آخر له ولع بالمنطق :

— ستتسرب أنباء الفضيحة إذ ستنشر الصحف كل المسألة من ألفها إلى يائها ...

فقاطعه ارتورو بقوله :

— أنت تهذى ، سترى أن الصحف لن تشير إلى شيء فلقد مررت مع الشهود على دورها ولم أزل بالمشرفين على تحريرها حتى استخلصت منهم وعدا بألا ينشر شيء . أجل لن يقولوا كلة واحدة ، وستصدر الصحف غدا وليس في واحدة منها كلة عن المبارزة . وأتوسل إليكم أنتم أيضا أن تصونوا سرى ، وإنى ما بثثتكم إياه إلا لأن المرء الكريم لايضمر شيئا دون أهله وناسه ... وأتضرع إليكم ألا تستثمروا سرى على نحو ما !

فبادر السامعون إلى رفع أصابعهم إلى شفاههم ووقفوا جامدين وكأنهم يتآمرون . وجعل ارتورو يتصفح وجوههم وجها وجها ثم ابتسم وآوى إلى فراشه ... يالله من فنان !

ولم تشر صحف الصباح إلى المبارزة ... وكان ارتورو قد أمر بابتياع كل الصحف ، فلما جيء له بها راح يقلب طرفه فيها باهتمام كبير ، هذا وأهله حوله وقد علقوا أنفاسهم من فرط القلق

ولا كلة واحدة ...

لقد بر الصحفيون بوعدهم ...

وأجال ارتورو بصره فيما حوله وعلى فمه مثل تلك الابتسامة التي أجلاها أمس ، وقد افتر لما رأى القلق مرتسما على وجوه ذويه

وقال بينه وبين نفسه : حبذا الأهل البررة ، لقد ابتلعوا جميعا الكذبة ، يالها من مزحة !

وليس أرتورو دائما بالرجل الفاضل المحب للنظام إذ قد تصادفه حال يكشف فيها عن مثل براثن الأسد ، وذلك حين لا يكون ممازحا أو متهكما في حديث سداه الثرثرة ولحمته التهويل ؛ ثم تواجهه حاجة قد أوجدتها ضرورة ملحة من ضرورات حياته اليومية

وإنك لتراه إذا ركب ذلك المركب متأهباً في صبر وجلادة لتنفيذ أية مكيدة وتدبير أية خطة ، ويفعل ذلك قبل وقوع الأمر بأشهر

وقد يلقن في حديثه كلمة اليوم ، ويدس أخرى غداً ، وثالثة بعد أسبوعين ، وهذا شأنه إذا ما أراد أن « يخلق الجو » على حد تعبيره ، حتى إذا مابصر بالثمرة وقد أينعت وحان قطافها لا يكلف نفسه أكثر من أن يهز الفرع هزة خفيفة فتهوى الثمرة بين قدميه

كيف يستطيع أن يشخص إلى باريس ليشهد افتتاح « الصالون » الحديث دون أن تصطحبه زوجه النيور ؟

إن سافرت معه فستمنعه ولاريب من التطواف طويلا في مدينة تضل العابد وتفتن الزاهد

ولكنه سافر

وسافر بمفرده

وكيف ؟

بفضل العمل في هدوء وصبر قرابة ستة أشهر ، العمل في اختلاق قصة من قصصه المألوفة

وإني إذا حاولت أن أسرد ما حاكه ودبره في غضون نصف عام لما اتسع المقام، ولذلك أراني في حل من أن أذكر الخلاصة كما يذكرونها في برامج دور السينما

يتعرف أورتو إلى السنيور كارلو روستي ويقول لزوجه ذات يوم إنه تعرف أخيراً إلى السنيور كارلو روستي أحد تجار الصور ، ثم يمسك عن ذكر اسم صاحبه الجديد خمسة أيام

ثم يقول :

— آه ، هل تعلمين أني التقيت بروستي صباح اليوم ؟

وتمر ثلاثة أيام ويقول أرتورو لزوجه :

— إن روستي رجل غريب الأطوار ، قابلته اليوم فاقتطع من وقتي ساعة أفناها في الحديث عن الصور !

وتنقضي ثمانية أيام لا يحرك الرجل فيها لسانه باسم صاحبه ، ثم يقول :

— آه تذكرت ! أقول على ذكر ذلك : إن روستي يعتقد أني أفهم أصول الرسم الحديث ، وأكبر ظني أن حوارنا أخيراً جعله يرى هذا الأثر فيّ ، ثم هو يزعم أن نصائحي سوف تنفعه نفعاً عظيما

ويمر أسبوعان في صمت

ثم يقول الفنان لزوجته :

— آه تذكرت ما أنسيت أن أطلعك عليه، إن روستي مسافر إلى باريس

ويمسك أرتورو عن ذكر صاحبه أسبوعاً ويمضي ذات مساء إلى دار التمثيل بصحبة امرأته ، وفجأة يحيي إنساناً غير منظور فتسأله زوجه بقولها :

— من هذا الذي تحييه ؟

فيرد عليها بقوله :

— إنه روستي ، أتودين أن أقدمه إليك ، سأمضي إليه وأحضره ؟

فتجيب السيدة قائلة :

— كلا

فيبتسم ارتورو ، وكان يتوقع ما أجابت به ، ثم يقول :

— عرض روستي على اقتراحا سخيفا : إنه يبتغي أن أرافقه إلى باريس ليستأنس برأيي عند شراء الصور

ويطول الصمت ثلاثة أيام ثم يتكلم الفنان عن صاحبه فيقول :

— لا أكتمك أنى برمت بروستتى وضقت به ذرعا ، لم يعد يشغله سوى الافضاء إلى كل من يقابله بأنى مسافر معه إلى باريس لأعاونه فى اختيار الصور ، ويزعم أنى نقاد وأن لدى ثقافة فنية تبعث على الحسد.

ويمر أسبوع ولا حديث عن روستتى ثم يقول ارتورو لزوجه :

— آه ياعزيزتى ، حقا انى لم أعد أطيق أن احتمل فوق ما احتملت . إن الجميع يتحدثون عن باريس . وعن ممرضها ، وعن روستتى ، وعن سفرى معه ، يجب أن أعترف لك ياعزيزتي بأنى قد أرى بالبله إن مكثت هنا . من الواجب على أن أسافر ولكن انظرى ما انتهيت إليه بهذر ذلك الحار ، أسبوعان ؟ ! لماذا ؟ يكفى أسبوع واحد ، أو أربعة أيام فقط ، بل انى أراها كثيرة . سأسافر لأكفي نفسى مؤونة فضول الناس ولأتقى مقالة من قد يقول عنى إنى أسرف فى الحديث وأخبط فيه خبط عشواء

ثم لايذكر صاحبه ولا يذكر باريس أربعا وعشرين ساعة

ثم يضرب الضربة الفاصلة

لقد انتهى من « خلق الجو »

يقول لامرأته :

— نعم ، أشهد أنى أكثر الناس سخطا على تلك المسألة ، ولكن من كان يتصور ياعزيزتى ان أقاويل ذلك التاجر سترغمنى يوماً على ركوب البحر إلى باريس ؟ هدئى من غضبك أيتهـا الزوجة الصغيرة !

سأذهب ثم أعود من فورى ، آه ، لو قدمنى ، فى المستقبل صاحب إلى تاجر صور الكنته فوق أذنيه ، أتريدين أن أجعل من نفسى أضحوكة بالمكث هنا على حين أن الجميع ينتظرون رؤية الصور التى سأنصح روستتى بشرائها ؟ وبعد فليست باريس فى طرف الأرض الآخر . . . النساء ؟ لم أفهم بربك وضحى ماترمين إليه .. إن النساء أشباه فى كل مكان. ألا توجد نساء هنا أيضاً ؟ ويل على روستتى لقد مكر بى واحتال على إلا أنها آخر حيلة أيضاً

وتأذن المرأة لبعلها بالسفر فيستقل القطار بمفرده

وأين روستتى ؟

تقـدم بيوم ليلتى النظرة الأولى السريعة على صور « الصالون » ...

وسافر أرتورو إلى باريس حيث مكث شهراً ، وأود أن تعتقد أنه لم يكن فى باريس بمفرده ... كما رأيته فى القطار ...

وأرتورو وإن كان قد دبر الخرافة المضحكة بحذق ومهارة إلا أنها انتهت بمأساة ...

أسرف الفنان فى اللهو ومع أنه لم يفته أن يكتب إلى زوجته مراراً ويذكر لها ما ابتاعه صاحبه من صور والنصائح القيمة التى أسداها ، إلا أن الزوجة المسكينة ساورها القلق وانتابتها الهواجس والمخاوف

وإذا ما خلا المرء بنفسه قد يواتيه الانسجام فى التفكير بل وقد يصل إلى السداد فى الرأى فيقع على الحقيقة

ولما عاد أرتورو من رحلته راعه من زوجه أنها جابهته بقولها :

— أشتهى أن أتعرف إلى روستتى المظيم.

فيتأملها ثم يقول :

— ولكنك رفضت أن أقدمه إليك في الملهى

— نعم غير أنى راغبة الآن فى التعرف إليه

— لاشك أن صديق سيسر ويطرب ، يا له من صديق عزيز ، إنه رجل ذكي مهذب ، وهو ذو حرص وبصيرة وستشاهدين منه ما يسرك

ومع أنه لفظ أقواله هذه وعلى شفتيه ابتسامته المادئة المألوفة ، غير أنه كان بعيداً عن الهدوء والاستقرار . إنه ما واجه قط مثل هذا الخطر الداهم المرعب . لقد أصبح لزاماً عليه أن يفرد يوماً يدبر فيه الختل الذى ينقذه من ورطته

وقد أجاد التدبير وأتقنه بصبره المعروف عنه والذى دونه صبر القطط

وبعد مرور أيام قلائل على ذلك الحديث مرض روستتى ، وانقضى بعض الوقت وهم لا يعرفون ما دهاه ، وذهب الأطباء فى مرضه فرقا ، وأخيراً استفحل الداء فنم عن نفسه وكشف عن سره . إنها الزائدة الدودية ، المرض الرفيع الشأن ، وخشى الأطباء النهاب البريتون . وارحمتاه لك ياروستتى ! أهكذا تمسى حليف الأوجاع والأسقام وأنت فى ميعة الصبا وشرخ الشباب ، وأنت الصديق الوفى الفاضل ؟ من كان يصدق ذلك أثناء المرض فى باريس ؟ كان روستتى شفاه الله يناقش إخوانه فى الفنون ، ويملء سحابة يومه بهمة وحماس ...

وبينا أنا أهم بالخروج ذات صباح إذ دخل على ارتورو اندولفى فى لباس الحداد فصحت إذ بصرت به:

— آه ، من أين قدمت ؟

فأجابنى بقوله :

— من جنازة روستتى المسكين ، لقد توفى أول من أمس ...

— من ؟

— روستتى تاجر الصور

وكان ارتورو رفيق فى عهد الدرس والتحصيل ويعلم أنى أفهمه جيداً ولذلك اختصنى بأسراره

وذكر فى لهجة تقطر سخرية القصة بأكملها ثم ختمها بقوله :

— وكان الخطر عظيما ، وكيف أقدم إلى زوجتى صديقا ما عاش إلا فى مخيلتى . لا أنكر أنى أشرت إليه فى الملهى ذات مساء غير أنى كنت أحيى الهواء ، ولا أنكر أيضاً أنى عرضت على زوجتى أن أقدمه إليها ولو أنهـا قبلت لدرت حول المقاعد دورة ثم رجعت إليها أقول إنه غادر دار التمثيل فى نفس الوقت الذى رأيته فيه . وبما وعر الموقف وصعبه ما وضعته زوجتى من عقبات فى طريقى ، وكانت لا تفتر عن ذكر روستتى ، وتسألنى عنه دائماً حتى لخشيت من فرط إلحاحها أن ينتهى بى الأمر إلى أن أعتقد أنه موجود حقاً فى هذه الدنيا . ولما رأيت الضرورة تقضى بأن أضع للأمر حداً قتلته ، وها أنت ذا ترانى قادماً من مقبرته بعد أن واريته التراب

ثم أخرج من أحد جيوبه ورقة ذات حواش سود وقال :

— وهـذا نبأ نعيه ، وقد وصل إلى بالبريد أمس ، ولا أكتمك أنه سقط علىّ سقوط الصاعقة؛ وقد أثر المصاب فى زوجتى أيضاً فهى حزينة واجمة. ولمـا رأت لوعتى على صاحبى فى اليومين الماضيين جعلت تعطف علىّ وتواسينى وتغمرنى بشفقتها . سألتك بالله أن تحدثها عن روستتى المسكين إذا ما زرتها لأنه لا حديث لنا اليوم فى منزلنا إلا عنه ...

فضحكت وقلت :

— أنت مهرج كبير

فقال بلهجة العاتب :

— يجب ألا تضحك

ثم جلس وأشعل سيجارة واسترجع يقول :

— نعم يجب ألا تضحك ، إن موت روستق المسكين خسارة فادحة منيت بها ، ولقد كنت أدخره لرحلات أخرى هامة قد تتراءى إلى الهند . والآن وقد فقدته فانى لا أدرى كيف أشخص إلى الهند مثلا

— متى أزمعت السفر إلى الهند فما عليك سوى أن تخترع شخصية مهراجا

فقال في جدة ورزانة :

— رأى صائب . إنى أرى فيك بعض الحصافة ولكن أعدك بأنى سوف أدع المهراجا في بلاده بعد انتهاء السياحة إذ ليس من الوفاء للأصدقاء أن أقتل كل من يطوف معى

ثم وقف وقال بعد أن استأذن في الانصراف :

— يجب أن أذهب لأتناول الغداء ولأبدل ثيابى هذه بأخرى . لا تنس أن تذكر لزوجى ولو كلمة واحدة عن روستق المسكين ، وسأكون ممتنا لك جدا ... إلى الملتقى ، ليس لدى من الوقت إلا ما يكفى لتناول وجبة الظهر وتغيير الثياب إذ سيزورنى سيد انجليزى في الساعة الثالثة ...

فقاطعته بقولى :

— لا فائدة من اختراع الأكاذيب أمامى ، إنى لا أصدقك

— لا ، لا ، أقسم أنى منتظر في الساعة الثالثة قدوم ذلك الانجليزى

وتكلم في لهجة المحتج الصادق ثم قال :

— والكونتس فيورا هى التى نصحت السيد الانجليزى بأن يزورنى . ألا تذكر أننا تحدثنا في بيتك يوماً عن الكنيسة الصغيرة المشيدة فوق مونت سان فوستو ؟ حسن ، نصحت الكونتس السيد الانجليزى بأن يزورنى لأزوده ببعض المعلومات عن الكنيسة وعن أقصر طريق الوصول إليها

وأمسك عن الحديث برهة ، ثم انفجر ضاحكا وقال :

— لو استطاع ذلك السيد الانجليزى الاهتداء إلى طريقه فوق التل بفضل إرشاداتى لعددته عبقرياً في فن تخطيط الأرض

وخرج وأنا أسمع رنين ضحكته يدوى في البهو ، كان فرحاً مسروراً !

لقد خدع زوجته وسيخدع السيد الانجليزى كما خدع الكونتس ، ولعله خدعنى أنا أيضاً بتلك القصة الصغيرة عن الكونتس والسيد الانجليزى

إن أحداً لن يعرف الحقيقة أبداً ... !

محمد حسنى

الأغلال

للكاتب الفرنسي "بول هرفيو"

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الثالث

(ينكشف الستار عن قاعة فى قصر من قصور ضاحية باريس ، للقاعة بابان ومخرج يؤدى إلى حديقة)

المشهد الأول

فرجان . وفالانتون

(فرجان منهمك فى ترتيب الكتب على رفوف كبيرة ، فيدخل فالانتون وبيديه شبكة صيد)

فالانتون — أيمنعك شاغل عن مرافقتى إلى الصيد؟

فرجان — ألا ترى يا صديقى ، أننى لا أنكف عن العمل كأنني سيدة بيت . لقد مضت عشر سنوات على انتقالنا إلى هذا القصر ولم أتمكن من حمل إرين تهتم بأى عمل

فالانتون — وهل هي جاءت عن طيبة خاطر إلى هذا القصر لنطالبها بالاهتمام بترتيبه ؟

فرجان — وهل يبقى الانسان عشر سنوات مكرهاً ؟

فالانتون — (وهو يلهو بترتيب شباكه) إذا أكرهت المرأة مرة فلن ترضى أبداً

فرجان — ليس فى حياة زوجتى ما يبرر سوء الظن بها ولعل هذا الاهمال طبيعة فيها ، لست أشكو منها . وقد انقضى العهد الذى اضطررت فيه إلى سوقها بيد من حديد

فالانتون — وهكذا قمت بواجبك نحو نفسك على ما نعتقد

فرجان — بل قمت بواجبي نحوها هي لأنني وقيتها السقوط وحفظتها من التدهور فى زمن كانت فيه على شفير الهاوية لاضطراب أعصابها، والحق يقال أنني مرتاح إلى مافعلت ولست بنادم على ما أبديت من حزم وشدة . لقد أعادت العزلة السكينة إلى زوجتى، ومنذ أصبحت أماً تغيرت أطوارها وأدركت معنى الحياة فهي راضية بما قسم لها

فالانتون — وهل يبقى من خلاف فى زواج مرت عليه عشرون سنة ؟ إن المرء يلقى السكينة على كل شيء

فرجان — ولكن المصاعب لا تزول من الزواج حتى بعد مضى خمسين سنة ، فأنا اليوم تجاه مشكل جديد يجب على أن أستعمل الشدة فى حله

فالانتون — سنعود إذن إلى المشاكسة القديمة

فرجان — لا بد من ذلك فان المسألة تتعلق بتعليم ولدنا رينيه وامرأتى تقاومنى

فالانتون — إذا كان لا بد لكما من العراك فأرجو إرجاء المواقع إلى نهاية الصيف أى إلى أن أذهب مع زوجتى من بيتكم

فرجان — ليت هذا الارجاء ممكنا ، فان اليوم ميعاد دخول التلامذة إلى المدرسة ؛ وقد قررت إدخال رينه إلى مدرسة تبعد خمسة عشر ميلا من هنا وأوجبت أن يكون هذا المساء بين أقرانه فيها . وبما أنني أعرف طباع إرين فقد أردت توفير الحنق عليها مقدماً، لذلك سترى نفسها أمام أمرواقع هذا المساء .

فالانتون — أنت إذاً ترغمها إرغاماً ولم تسألها رأيها

* انظر العدد الماضى من الرواية

فرجان — ولماذا أطلبها على أمر أنا واثق من رفضها له ، فاذا ما صاحت هذا المساء أكون وفرت عليها صياح شهر

فالانتون — (يستعد للخروج بشبكته) إن العاصفة على وشك الهبوب . فهأنذا ذاهب

فرجان — أي نوع من الأسماك تصطاد ؟

فالانتون — كل نوع أتمكن من اصطياده

فرجان — ولكن ما هي الأسماك التي تقع في شباكك ؟

فالانتون — لا يقع فيها شيء

فرجان — أنت تجهل صنعتك يا عزيزي

فالانتون — لا بل هي الأسماك تجهل صنعتها ، ففي كل شيء في هذه البلاد تتلهى بالتفكير مستغرقة في أحزانها فلا تدنو من الشباك

(يقول هذا ويخرج)

المشهد الثاني

فرجان . ثم إرن وبولين

(تدخل المرأتان من باب الحديقة وعلى وجه إرن دلائل الهرم وقد لعب برأسها الشيب ، وبولين تحمل طاقة من الأزهار)

بولين — لقد أنهكنا التعب

فرجان — إلى أين اتجهتما بهذه النزهة ؟

بولين — ذهبنا إلى الحرج ومنه إلى المرج ثم أردنا الخروج من السياج للدخول إلى المزرعة

فرجان — (متهيجاً) ولكن السياج يمنع المرور

بولين — لقد كان السياج مخروقاً فولجناه ، وكانت هناك امرأة تغسل على شاطىء وهي التي خرقت السياج

فرجان — إنها لوقاحة (إلى إرن) وماذا قلت لهذه المرأة ؟

إرن — سألتها عن صحة ابنها

فرجان — وبعد ؟

إرن — أعطيتها دراهم لتشتري أدوية له

فرجان — (يأخذ قبعته ويتجه إلى الباب) أما أنا فسأعلمها كيف تخرق السياج مرة أخرى

بولين — ويلاه! ماخطر لي أن المسألة ستنتهي على هذه الصورة . بالله يا فرجان لا ترعب هذه المرأة المسكينة

فرجان — ولماذا أجازت لنفسها خرق سياجي ودخول أملاكي ؟

بولين — أفما تتعبك المطالبة بحقوقك دائماً يا فرجان ؟

فرجان — لو كان كل الناس على شاكلتي يعرفون ما لهم ويدافعون عن حقوقهم لكانت الدنيا على غير ما هي عليه الآن (يخرج)

المشهد الثالث

إرن . بولين

بولين — كان يجب عليك أن تردي زوجك عما يقصد

إرن — إنه يفعل ما يريد وليس لي أن أقف في وجهه.

بولين — أنت الآن كما كنت من قبل ، تمر الأيام ملقية بغبارها على لمتك ، وقلبك ذلك القلب القديم لا يتحول عن عواطفه

إرن — ولن يتحول

بولين — يخيل لي أن العواصف قد سكنت بينك وبين زوجك

إرن — لم يبق ما يوجب النضال بيننا إلا أمر واحد أحاذر وقوعه

بولين — وما هو هذا الأمر يا ترى ؟

إرين — مسألة تعليم رينه

بولين — أظنه يستترب مزيد انعطافك على ولدك يا إرين

إرين — إنني أكاد أعبده . لقد ضحيت بحوقى من أجل حياته ، ولولاه لما كنت أدرج على الغبراء بل كنت مدرجة تحت أطباقها . إنني من أجل هذا الطفل أعيش وهو وحده يربطني بهذه الدنيا ، فليس لى فى الحياة إلا حياته الواهية ونفسه الصغيرة المفكرة التى أحسبها مركبة من أنيني وأوجاعي فأنا لا أطيق الابتعاد عن رينه . وكيف أسلم تذكارى وضيق ودموعي لأيدى المعلمين ، لأيدى الغرباء ؟

بولين — وهل فاتحك فرجان بالأمر ؟

إرين — لقد تحدث إلى بشأن تعليم ابنه مراراً، وإذ شعر بما يخالج ضميرى فهم أن حياتى معلقة بشعر الولد الصغير ، وقد مضى زمن دخول التلامذة إلى المدارس هذه السنة ولم يرجع إلى حديثه وإذا هو عاد إلى نغمته لأقفن فى وجهه وقفة اللبؤة تدافع عن شبلها

بولين — مسكينة أنت يا إرين ! أنت لا تحيين إلا بحياة ابنك ، وقد قضى عليك ألا تكونى لنفسك ومع هذا فانك ما كنت لتصلين إلى حالة أسعد من حالك اليوم لو أنك اتبعت السبيل الذى استهوتك محجته من قبل

إرين — من يدرى ؟

بولين — لا ، يا إرين ، لو أن حظك تابع إرادتك لكنت اليوم رازحة تحت وقر أشجانك ، فقد وقر القضاء عليك أعظم ما يقع على قلب رقيق كقلبك

إرين — لا أفهم ما تعنين

بولين — ويلاه ، ما كان أغنانى عن إعادة هذه الذكرى إليك !

إرين — تكلمى يا بولين

بولين — قولى لى الآن ، أفما كنت مصممة على الاقتران بميشال دافرنيه

إرين — (تشيح بوجهها) لقد أكون فكرت فى هذا

بولين — أفما كنت أصبت بأشد الضربات لو تم لك ما أردت

إرين — كان علىّ أن أطلب هذه السعادة وأحصل عليها ، وما كان سيقع بعد ذلك فليس من شأنى

بولين — لا ، يا إرين ، لو كنت اقترنت بميشال لكنت اليوم على أسوأ حال . أفترين من السهل على المرأة أن ترتفع مع رجل إلى ذروة السعادة ثم تسقط منها بغتة وهو ميت بين ذراعيها ؟

إرين — لو أننى تزوجت به لما مات ... لكنت شفيته بقبلات غرامى ، ورددت عنه سهام الموت . لكنت منعت عنه الداء برد الشقاء عنه فى حياته المنفردة المؤلمة . لكنت وقيته كل إفراط مما أعلم (وتخفض صوتها كأنها تهمس همساً) وما لست أعلم

بولين — كان ميشال مصدوراً وابن مصدور

إرين — اسكتى

بولين — مالك ، يا إرين ؟

إرين — (تتمالك نفسها بصعوبة) لا شىء يا بولين إنها فكرة الموت المروع ... ويلاه من التذكار لماذا تعيدينه إلىّ ؟

المشهد الرابع

(إرين ، بولين ، رينه)

(رينه ابن عشر سنوات ، يدخل بلهفة ويطرح على أمه)

رينه — أمى ... أمى ...

إرين — (فاتحة ذراعيها لابنها) رينه..ياحياتى.. ياملاكى الصغير تعال أقبلك (تقبله) دعنى أنظر إلى دلائل الصحة على وجهك فقد صرت قوياً وصرت شيطاناً

رينه — وعدنى أبى أن يأخذنى معه إلى النزهة

إرين — لاأسمح لك بالخروج مع أبى كان بدونى

رينه — أواه ...

إرين — ماذا فعلت يارينه حتى بلت أثوابك عرقاً وقد كنت تكتب مع معلمتك ؟

المشهد الخامس

(إرين ، بولين ، رينه ، فرجان)

(يدخل فرجان فيسمع العبارة الأخيرة)

فرجان — هذا يدل على تمرد المسيو رينه فان معلمته لا تقدر على ضبطه

إرين — يجب أن نغير كل أثوابك

فرجان — (يهز كتفيه) ما شاء الله

بولين — (تأخذ رينه بيده وتقوده) تعال معى فسوف أوبخك توبيخ العمة فلا أضحكك ولا أبكيك

(تخرج بولين مع رينه)

المشهد السادس

(إرين ، فرجان)

فرجان — (وهو يتردد) على أن أتحدث إليك بشأن تعليم رينه

إرين — وما يدعوك إلى ذلك اليوم ؟

فرجان — لأن الأمر لا يحتمل التأخير

إرين — لماذا ؟

فرجان — لأن الولد قد بلغ العاشرة من عمره، وحين يبلغ الولد هذه السن ترتفع عنه سلطة الأم . لقد أبقيت رينه تحت سلطتك حتى اليوم لأن الأطفال يحتاجون إلى الحنان ، أما وقد خرج رينه من طور الطفولة فهو بحاجة إلى غير الاشفاق والتدليل

إرين — إذا كنت ترى تربيتى غير وافيـة له الآن فاستقدم له معلماً يعطيه الدروس فى البيت

فرجان — ليس الولد محتاجاً إلى العلم فقط لنستقدم له معلماً يعطيه الدروس فى البيت ، فهو بحاجة أيضاً إلى تقوية نفسه والاعتماد عليها ، هو بحاجة إلى المناظرة والاجتهاد والطاعة ، وكل هذه أمور لا يتعلمها الولد إلا فى المدرسة

إرين — ويلاه ! لقـد عدنا إلى معالجة أمر لا أطيق ذكره . ألم أقل لك يا فرجان إنك تجنى على حياة رينه إذا أنت حرمته حنوى

فرجان — دعى هذه الأوهام ياإرين فان حبك لرينه سيكون علة شقائه ، فأنت أضعف من أن تتولى تقويمه وتهذيبه

إرين — وأنت تريد أن تبتاع له قساوة الغرباء ويلاه ! أتطلب القساوة لهـذا الطفل الصغير الذى يتهدده الفناء حتى تحت جناحى ، هذا الطفل الذى لا ينام إلا مرتجفاً وأسمع سعاله المتقطع فى الليـل وأجفف بيدى عرقه البارد ...

فرجان — تبالغين فى تدليل ابنك يا إرين فتجعلينه مريضاً ولن يشفى إلا حين يعيش كباقى أبناء الناس

إرين — إن ابنى لن يبارحنى

فرجان — إن ابنى سيكون مثلى فليس هو

خيراً مني . وأنا عنـدما بلغت سنه كنت دخلت المدرسة منذ سنتين . وسوف يأتي رينه إلى البيت يوم الأحد من كل أسبوع ولك أن تذهبي لمشاهدته على قدر ما تسمح قوة خيولنا

إرين — أكرر لك القول إن رينه مريض، وحياته رهن طريقة معيشته. أنا أعلم هذا وقد أثبت الأطباء ظنوني ومخاوفي

فرجان — ومن هم هؤلاء الأطباء ؟

إرين — كل الأطباء الذين تسنى لي استشارتهم

فرجان — وقد استشرت الأطباء دون علمي

إرين — نعم

فرجان — ما أشد جنونك ، وما قال لك هؤلاء الدجالون عن صحة الولد ؟

إرين — (باضطراب) قالوا إنه ...

فرجان — ماذا ؟

إرين — قالوا إن لحبتي وحدها أن تقيه الموت ، فعلي أن أداريه وأنظم معيشته بكل دقة

فرجان — ما معنى هذا ؟ إن لكل مرض اسماً فما هو اسم مرض رينه يا ترى ؟

إرين — أواه ، لكم تعذبني ، دعني ، أفلا ترى لوعتي واضطرابي ؟

فرجان — أراك تخضعين اعتقاداً لأعصابك كما أخضعت لها حياتك ، ولعلك وصفت للأطباء من حالة ابنك ما شاءت لك الأوهام ، فقالوا لك ما تريدين أنت لا ما يقرر العلم . إنني والحمد لله ذو صحة كالحديد ولست أنت مريضة ليجيء ولدنا مسلولا ... وسوف نري كيف تتحسن صحته بعـد أن يقضي السنة في المدرسة

إرين — إنه لن يقضي فيها يوماً واحداً

فرجان — إيه ، ماذا تقولين ؟

إرين — عبثاً تحاول تنفيـذ أمرك ، فإنني سأقاومك إلى النهاية

فرجان — إذاً لم يبق سوى العمل ، تفضلي بإعداد أثواب رينه

إرين — ولمـاذا ؟

فرجان — لأنني سأذهب به إلى المدرسة

إرين — أتجسر ؟

فرجان — سيكون الولد بعـد ساعة واحدة حيث أريد أن يكون

إرين — ولن يكون هذا ، لأنني سأحمي ولدي ولن أدعه يموت حتى أموت قبله

فرجان — لقد عادت إليك أعراض مرضك القديم ، ولكنني سأستعمل سلطة الأب لأشفيك كما استعملت سلطة الزوج فيما مضى

إرين — خير لك ألا تذكرني بما فعلت ... لقد كان انتصاراً باهراً ... وهذا الانتصار جدير بإعجابك لقد أحنيت رأسي ولكن قلبي لم يزل متمرداً ، ومنذ أحنيت جبيني أمامك وفرت على نفسي أن أنظر إليك وجهاً لوجه . أما الآن فها أنا ذي أرفع الرأس لأنظر إليك ! ليست الزوجة من تتمرد اليوم ، إن الأم هي المتمردة وما يقف بوجه الأم إلا قوة من السماء ... !

فرجان — أنت مغترة بحقوق الأمومة ياسيدتي

إرين — لست أعلم بحقوق الأم من الأمهات يا سيدي ، إننا نعلم هذه الحقوق علماً أوفى وأصدق من علم أي مشرع أتاك . لأن الله يكتب هذه الحقوق يوماً فيوماً مع نمو الجنين في أحشائنا

فرجان — أنا صاحب الحق وسوف أتمتع بحق باسم القانون

إرن — ويلاه من هذه الكلمة المروعة، لقد حطمت حياتي باسم القانون، وباسم القانون أيضاً تريد قتل طفل بين يدي . ما أنت الآن أمامي إلا ما كنت منذ عشر سنين جلاد الانسانية وقاتلها باسم العدالة المضللة ، فأنت تسلط الحق بيدك لقتل الانسانية وعينك باردة كالثلج وقلبك متصلب كالصخر

فرجان — قولي ما تشائين إنني حر في التصرف بولدي كما أشاء

إرن — أفليس بوسعي أن أقول لك كلمة تردعك عن منازعتي ولدي ؟

فرجان — إن الولد لأبيه . هكذا ينص القانون

إرن — لقد كذب القانون

فرجان — بل أنت تكذبين

إرن — لا ... لا ... لست كاذبة

فرجان — إذهبي وأعدي حوائج ربنه

إرن — إسمع ، توقف

فرجان — (وهو متجه نحو الباب) أنا ذاهب لأعد العربة ، سوف نسافر الآن

إرن — (حائلة بينه وبين الباب) أشهد أمام الله أن هذا الولد هو لي وحدي

فرجان — (يدفعها بيده) هو لي أولا لأنني أبوه

إرن — (تصرخ بصوت هائل) لا ، أنت لست أباه ... !

فرجان — (يدير وجهه بغتة) ماذا ؟ هل طرأ عليك جنون ؟

إرن — لا بل أنا ممزقة نقاب التمويه والخداع

فرجان — ماذا قلت ؟ أتدرين ما تقولين ؟

إرن — وهل أجهل ما تهتف به أحشائي ؟

فرجان — إنك تكذبين ... إنك تلجئين إلى آخر وسيلة يخترعها حنانك . قولي ... إعترفي ... تكلمي ...

إرن — إذا كنت تطلب ما يقنعك فاليك البرهان ، وليكن ما تريد . تذكر الآن . تذكر أنني أوصدت بابي في وجهك منذ عشر سنوات حين كنت حاكمي وجلادي وما عدت إليك بعدها إلا مرغمة على احتمالك ؛ فافهم الآن

فرجان — ماذا ... ؟

إرن — لو كنت ممن يفكرون لأدركت أن المرأة لا يمتلكها إلا من يمتلك قلبها

فرجان — (وهو يرتعش) ويلاه ... لقد فهمت

إرن — لقد احتفظت بسري في ذلك الزمان واحتملتك لأنقذ حياة ولدي ، ولأجل إنقاذه اليوم أيضاً أرفع النقاب وأدفع بك إلى الوراء

فرجان — (يهجم عليها وهو يتميز غيظاً) بالشقية الجانية !

إرن — (تهرع إلى الجرس) إذا أنت مددت يدك ، دعوت خدامك

فرجان — ويلاه ... أبعد الخيانة فضيحة وبعد العار شنار ؟

إرن — تلك هي نتيجة مبادئك الفاسدة وقوانينك المضحكة ، لقد جرزتني قسراً إلى الكذب ثم إلى السقوط ، أنت هو المذنب وأنا لا أغتفر لك جنايتك

فرجان — من كان هذا الرجل ؟

إرن — لقد يكون ممن تعرفهم

فرجان — قولي، اعترفي، من هو هذا الرجل؟

إرين — أبداً ...

فرجان — وهل جاء إلى هنا ؟

إرين — إلى مكان قريب من هنا

فرجان — لا أفهم كيف توصلت إلى الاجتماع به

إرين — ولا أنا أفهم أيضاً

فرجان — وهل تكرر اجتماعك به ؟

إرين — ما يهمك هذا ؟

فرجان — أفلا يزال يجتمع بك

إرين — (تحاول إخفاء حزنها) لا، فانه ذهب منذ زمان طويل إلى سفر بعيد ... ولن يعود

فرجان — أفلا ترين من الجناية أن يحمل ابن غيري اسمي أنا وأن أكون مكرهاً على النظر إليه كأنه ولدي

إرين — هذا ما ورد في الشريعة التي مكنتك من البقاء زوجاً لي بالرغم مني وبالرغم من الأرض والسماء .

فرجان — ما كنت لأرتاب بعفافك أيتها المرأة ، عرفت أنك عدوة لي ولكن (تخنقه زفراته) ولكنني ما عرفت أنك امرأة ساقطة لا شرف لها

إرين — لكل سلاحه ياسيدي. لقد حاربتني بكل قوتك فحاربتك بكل ضعفي ...

فرجان — لقد كنت أدافع عن حق الصريح

إرين — ولكنك نسيت أن للطبيعة حقوقاً أقوى من حقوقك

فرجان — (وقد ظهر اللؤم على وجهه) لقد دفعك الغيظ إلى الاقرار ، فها أنذا حر من كل واجب نحو ابنك ، غير أنني لم أزل صاحب الحق والسلطان عليه فسوف أستعمل قوتي

إرين — لا ، بل أنت أعجز من أن تستعمل سلطانك بعد هذا الاعتراف

فرجان — وكيف ذلك أيتها المرأة ؟

إرين — لن يذهب بك اللؤم إلى الانتقام من طفل ضعيف

فرجان — مالي ولضعفه

إرين — ما أقدمت على الاعتراف إلا لأنني أعتقد بأن ليس على وجه الأرض رجل يدعي التمدن ويقتال الأطفال مهما تمسك بالشريعة وتعزز بالقوانين

فرجان — وإذا أنا جحدت الشرائع والتمدن الآن ...

المشهد السابع

(فرجان ، إرين ، رينه)

إرين — رينه يا الله

رينه — (يتجه راكضاً نحو فرجان) أفلا نذهب إلى التنزه يا أبي ؟

فرجان — اسكت

إرين — (تجتذب ولدها إليها) اسكت . . . اسكت . . .

فرجان — أخرجيه لنتم حديثنا

إرين — (إلى رينه) اذهب وانتظرني عند خالتك

رينه — لماذا يبكي أبي ، وهو لا يبكي أبداً ؟

إرين — إذهب ياولدي ... إذهب

رينه — لماذا لاتبكين الآن، وأنت تبكين دائماً؟

إرين — أواه ياعزيزي ، لقد نفدت دموعي

(يخرج رينه)

المشهد الثامن

(إرين ، فرجان)

فرجان — لقد أصبح هذا الولد لك وحدك الآن ، فافعلي به ما تريدين ، لقد قلت حقاً ... إنني لن أستطيع تعذيبه ، وأكاد لا أجد القوة الكافية

لقتل محبق له ... (يتنفس بشدة) خذيه من هنا ، اذهبي به إلى حيث تريدين

إرين — لا ، لن أذهب من هنا

فرجان — وكيف يمكنك البقاء؟

إرين — سأبقى من أجل ربيته ، فما أرضى بأن أطرد وأهان . إن لهذا الطفل حقاً أن يقيم في المجتمع أدبياً ومادياً فهو ابن الشريعة ...

فرجان — سأكرهك على الذهاب

إرين — لن تستطيع

فرجان — لقد طلبت الطلاق أنت فيما مضى ، فهأنذا أطلبه اليوم

إرين — لقد رفضت أنت أمس وأنا أرفض اليوم . لم يعد لي من مستقبل وقد تلاشت آمالي . فأنا أتحاشى كل تغيير وكل جهد . لقد شلت إرادتي فلسوف أبقى على ما أنا حيث أنا

فرجان — أفترضين أن أحتملك احتمالا ؟

إرين — لا برهان لديك غير اعترافي ، فعليك أن تحتمل

فرجان — وهل أنت منكرة هذا الاقرار ؟

إرين — أتطلب أن أهتف به عالياً أمام الناس وأشهره على ملأ الاشهاد ؟

فرجان — (يتنهد ويبكي) ولكن كيف أعيش وأنت أمامي ؟

إرين — لقد احتملت هذا فيما مضى فاحتمله أنت الآن . كلانا مرتبط بالآخر وما ربطته عماوة الناس لا تقدر قوة على حله . هذه هي الشريعة ... لقد شعرت بوقرها طويلا وحدي وقد آن لك أن تساعدني على حلها

فرجان — أفليس من عدل على الأرض ؟

إرين — بلى ، هنالك عدالة وهي حمل الشقاء بالمساواة ؟

فرجان — وما هي هذه المساواة وأنت مجرمة وأنا بريء

إرين — لا بريء ولا مجرم هنا ... كلانا شقي وحيث يسود الشقاء تسود المساواة

(انتهى)

فليكس فارس

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين)



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العدد ٤٢ — ٢٢ شعبان سنة ١٣٥٧ — ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد

عاشقة الأحذية

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ محمود بك خيرت

فى صباح يوم مبكر كانت سيدة محجبة تقطع طرقات الاسكندرية بخطى مسرعة وقلبها يدق وجسمها يرتجف، حتى إذا بلغت نافذة الملجأ أخذت تتلفت حولها، فلما لم تر أحداً يتعقبها أخرجت من إزارها طفلاً حديث الولادة ووضعته على الحامل المثبت عند قاعدة النافذة ثم دقت الجرس، وبعد لحظة امتدت يدان فالتقطتاه ثم اختفتا . وعند ذلك اطمأن قلبها وعادت أدراجها

وكان بالدار سيدة منطرحة فوق سريرها وعلى وجهها أثر الشحوب والضعف؛ فلما أقبلت عليها تلك السيدة المحجبة سألتها فى لهفة، فقالت: انتهى الأمر على أحسن حال وأصبح إلى جانب أطفال الملجأ . وعندئذ سُرِّي عنها وشعرت كأن حملا ثقيلا كان يضغط على صدرها قد ارتفع وزال

وكانت هاتان السيدتان شقيقتين من أسرة عريقة، إحداهما وهى التى كانت تحمل الطفل متزوجة من أحد أعيان الاسكندرية ، أما أختها فتقيم مع أبويها بالقاهرة ولم يسبق لها عهد بزواج؛ إلا أن فتى من فتيانها وقع نظره عليها فأولع بها وأخذ يطاردها ويتودَّد لها وينفخ من روح غوايته فيها ، وهو كلما تلاقيا يفتح أمام عينيها آفاقاً جديدة مشرقة بالحب ونعيمه . وكان يقسم لها بأنه لن تطيب له الحياة إلا بهـا ، ولن يتزوج فى حياته من سواها ، حتى إذا أفلت زمام عفتها من يدها وزلّت قدمهـا أدار لهـا ظهره وأنكرها واختفى عن عينيها

ولقد أحست بعد أشهر بجنينها يتحرك فى أحشائها فخشيت أن يفتضح أمرها وأسرعت إلى شقيقتها بحجة قضاء فصل الصيف عندها ، فما كترت لها تلك الدار لتضع حملها فيها إلى أن تم الأمر على الصورة التى مرت بنا

وقد يلوح غريباً أن (إحسان) تلك الفتاة البائسة الرقيقة يهون عليها أن تقذف بهذا الطفل البرئ الضعيف وهو ثمرة حشاشتها إلى هذا المصير المجهول، وأن يتحجر قلبها إلى حد ألا تذرف عليه عيناها دمعة واحدة وهى تسلمه لأختها . ولكنها فى الواقع كانت لاتزال تحت سلطان ذلك الموقف الرهيب الذى أقل ما فيه أنه كان يجرّ عليها وعلى أسرتها عار الأبد . حتى إذا مضى شهر على بعده عنها وقد هدأت أعصابها من تأثير الجزع الذى كان استولى عليها استيقظت فى نفسها عاطفة الأمومة الصارخة فانطلقت دموعها من عينيها غزيرة حارة ، وأخذت ترجع باللائمة على طيشها وتسرعها وترى أن ذلك العار الذى خشيته كان أهون عليها من أن تعبث بطفلها مثل ذلك العبث الأثيم . ألم يك ولدها ؟ ألم يك قطعة منها ؟ لقد أصبح بينها وبينه بعد ذلك حجاب قاس، فلم يعد أمامها تغمره بنظراتها وتغذوه بحنانها وتضمه إلى صدرها الخافق وهى تهزه بيديها

وتناجيه . لقد حُرمت لذة إرضاعه ، ولذة الاستماع إلى صياحه ، ولذة النظر إليه وهو يحبو ويمشى ، ولذة أول كلمة تخرج من بين شفتيه اللتين فى حمرة المرجان : أمى !

أما هو فقد أصبح يندفع إلى غير صدرها ويرتضع غير ثدييها، وما كان المرضعات إلا أجيرات يمنن لبنهن ولكنهن لايمنن الحنان، فاهن إلا أمهات صناعيات .

كانت إحسان لذلك لايغمض لها جفن ولا يهنأ لها طعام ولاشراب. تمر صورته بعينيها فى كل لحظة من لحظات النهار، وتراه فى أحلامها كأنه يمد ساعديه الصغيرين إليها ويندفع إلى صدرها وكأنه يعاتبها . حتى إذا ما استيقظت يوماً من الأيام كان حزنها قد بلغ غايته فانطلقت نحو الملجأ وقد وطنت نفسها على أن تعود به .

وقبل أن تأخذ فى سبيل ما اعتزمته حملت معها كثيراً من الحلوى والأقمشة لتتقدم بها كهدية لأطفال الملجأ ، وقد رحب بمقدمها سيداته ورجاله وتقبلوا تلك الهدية منها مع التقدير والشكر . وهكذا أخذت تطوف بالغرف وتتفقد أولئك اليتامى الذين كشر فى وجوههم الحظ لعلها تعثر من بينهم على طفلها ولكنها لم توفق

ومن الطبيعى أنها كانت تتحاشى أن تبوح بالغرض الذى جاءت من أجله إلا إذا تمكنت من الاهتداء إليه ، فلما يئست أخذت تستفسر من رئيسة الملجأ عن حديثى الولادة الجدد وعن الاجراءات التى اعتاد الملجأ اتخاذها نحوهم، فهدتها إلى أربعة عشر طفلا جىء بهم فى أيام مختلفة، منهم خمسة فى اليوم الذى حملت أختها صغيرها إليهم فيه .

فلما تأملتهم وجدت من بينهم اثنين بشرتهما سمراء ولكنها لم تعرف واحدا من بين الثلاثة الباقين ، لأن الأطفال على أثر ولادتهم يكونون أشبه بقطع حية من اللحم يصعب تمييز بعضها عن بعض ، إذ يكون الشبه بينهم وبين ذويهم لا يزال بعيداً، فهم فى ذلك مثلهم كمثل الصورة السالبة أول ما يبدو منها عند التظهير خطوط أولية يتلوها شيئاً فشيئاً أنصاف ظلال فظلال كاملة وعند ذلك يكون الشبه قد تم واستقر

ولا تسل عن الصدمة التى أصابتها فى تلك اللحظة التى علقت كل آمالها عليها وهى أمام ولدها وليست أمامه، فلبثت حائرة بين هؤلاء الأطفال الثلاثة ولا سيما أن اثنين منهم عيونهما زرقاء كعينى طفلها فأيهما هو الذى حملت به ووضعته وقاست وستقاسى عذاب الدنيا وعارها فيه ؟ إنها أصبحت أماً لكليهما، فإما أن تأخذهما معاً وإما أن تدعهما. على أنها علمت أن هذا الأمل بعيد أيضاً وأن من دونه مباحث وتحريات وتحقيقاً يثير من جديد تلك الفضيحة التى أمنت شرها وتخلصت منها، ولذلك استأذنت وانصرفت وهى حزينة باكية كثيرة الهموم

وكان أبواها طاعنين فى السن تنلنلت فى جسميهما الأمراض فقضيا نحبهما ، ولذلك انتقلت

إلى الاسكندرية لتعيش فيها على مقربة من أختها

بعد ثماني عشرة سنة

كانت إحسان فى موطنها الجديد تشغل نفسها بالمطالعة وتقضى كثيراً من وقتها فى الاحسان إلى الفقراء كما أنها لا تنسى زيارة الملجأ وحمل الهدايا إليه . وهى كلما قصدته وقفت عند بابه خاشعة كأنها أمام ضريح يضمّ فى جوفه رفات ضحايا الأقدار والحظوظ

وكان من النظم المتبعة فى الملجأ أن كل لقيط يأنس فيه القدرة على التعلم والاستعداد له يلقّنه مبادئ القراءة والكتابة ثم يخصّصه لحرفة من الحرف تساعده فيما بعد على تحمل أعباء الحياة ، وكان من نصيب ذينك الطفلين المتشابهين صناعة الأحذية

وكم كانت لوعتها حين ذهبت إلى الملجأ فى يوم من الأيام فلم تجدهما ، لأنهما بارحاه بعد أن أصبحا قادرين على العيش بعيدا عنه . نعم كانت مفاجأة قاسية وقد كان هذا المكان قبلتها يقيم فلذة كبدها بين أركانه . أما الآن فقد أصبح أمامه هذا الثغر الفسيح المترامى الأطراف فكيف تجده وكيف تهتدى إليه ؟

ولقد ظلت احسان سنوات تجوب أزقته وطرقاته وعيناها إلى الحوانيت والمخازن ، حتى إذا وجدت من بينها مصنع أحذية أسرعت إليه ، ولكن سرعان ما تتركه يائسة حزينة ولم تجد طلبتها فيه

وأخيرا بعد أن مضى على ذلك الحادث ثماني عشرة سنة عوّلت لآخر مرة على أن تقصد إلى حى محرم بك ، حتى إذا لم تعثر عليه فيه لزمت دارها واستسلمت لهمومها

ولقد عثرت فى ذلك الحى على حانوت بجانبيه خلف الزجاج أحذية مصفوفة للسيدات والرجال والأطفال ولكنها لم تجد به أحداً فلبثت لحظة ثم همت بالانصراف عنه إلى غيره ، ولكن دافعاً من نفسها استوقفها . وفى تلك اللحظة رأت فى الجانب المقابل للحانوت فتى يسرع نحوها ، فلما رآها دهش وأخذ يسائل نفسه أين سبق له رؤية هذه السيدة . ثم تذكر أنها كثيرا ما كانت تزور الملجأ وتحسن إلى أطفاله ، وعندئذ شعر بالسرور يتمشى فى نفسه فقال لها : « خيرا يا هانم » . وما كادت عيناها تقعان عليه حتى انتفض جسمها وخفق قلبها فاندفعت إلى داخل الحانوت وطلبت إليه حذاءين من نوع تلك الأحذية التى رأتها

وعند ذلك تناول شريطا من الجلد قريبا منه وشرع فى قياس قدميها وهو يقول: إنك ستسرّين كثيراً من أحذيتنا يا سيدتى . فاننا مع جودة الجلود التى نقطعها منها ومراعاة الدقة فى تفصيلها لا نجرى خلف الربح الكثير لكى نكسب ثقة الناس فينا وإقبالهم علينا . وكانت فى خلال حديثه تنظر إليه من طرف خفى فأخذت تسأله :

— هل لك زمن طويل فى هذا الحانوت ؟

— ست سنوات يا سيدتى كنت عاملا

فيه أما الآن فقد أصبح الحانوت لى

— ومن الذى عنى بتعليمك هذه الصناعة . أبوك ؟

وعندذلك أرسل زفرة طويلة ثم قال: لاياسيدتى إنما هو الملجأ . . . وكم كانت المرارة التى أحستها عند ذكر هذه الكلمة ؛ على أنها قابلت هذه الزفرة بأخرى مثلها احتبست فى فمها ، ولم يعد يساورها شك فى أن هذا الفتى هو أحد ذينك الطفلين اللذين كانت تزورهما فى الملجأ ، وأنه ولدها وكل ملامحه تشير إلى ملامح أبيه من عينيه إلى أنفه إلى فمه وإلى نبرات صوته

وكان قد طلب فى ثمن الحذاءين مائة وخمسين قرشاً فدفعت إليه جنيهين فى سبيل أن يبذل فيهما كل فنه وعنايته، ثم انصرفت وهو يكاد يرقص طربا وقد حصل على إيجار الشهر المتأخر عليه فلم يعد يضايقه المالك بسببه

وبعد عشرين يوما عادت إليه لاستلام الحذاءين وأوصته بالشروع فى حذاء ثالث من نموذج آخر . وهكذا كانت لايمرشهر إلا وتوصيه بإعداد حذاءين جديدين حتى أنه كان يقول فى نفسه : لو أن هذه السيدة تستمر على ذلك فلن أتعرض يوما ما إلى مضايقة مالك الحانوت بسبب الايجار . كما أنه وجيرانه كانوا يستغربون أمر هذه السيدة وولعها بالأحذية إلى هذا الحد ، حتى لقد أطلقوا عليها اسم « عاشقة الأحذية »

وفى يوم من الأيام بعد أن انتهى من حذائها الجديد كلفته بأرساله إلى منزلها فحمله إليها بنفسه، وكانت قد تهيأت لطعام العشاء فدعته إلى مشاركتها فيه فقبل ولكن بعد تردد منه وإلحاح منها . وبعد أن انتهيا أخذت تتحدث إليه :

— لعلك لا تجهل من هى التى دفعت بك إلى ذلك الملجأ ؟

— وهل كان هذا ممكنا ياسيدتى وقد كنت وقتئذ مشدودا فى قماطى حديث الولادة ؟ إننا معاشر اللقطاء لا نعرف لنا أبا ولا أما . وكل ما نعرفه عن أنفسنا أننا من نفايات الخلق لفظنا المجتمع وأصبحنا من طينة غير طينة الناس . وكثيرا ما كان يزور الملجأ سيدات ممن أولادهن فأنظر إليهم والأسى يرجى والدموع تتسابق فى عينى . أما سبب هذا المصير الذى كان من نصيبنا فلعله لا يخفى عليك يا سيدتى . إننا لم نكن غير ثمرة ملوثة من ثمار الزنا والدعارة. إن لنا أمهات،ولكن أولئك المرضعات فى عينى خير منهن لأنهن يعوضن علينا ذلك اللبن الذى حرمتنا إياه . ومع ذلك فقد كنا أحوج إلى لبن آخر لا نجده عند أولئك المرضعات . كنا أحوج إلى الحنان، لبن الروح، ولكن حيل بيننا وبينه. وفوق ذلك كان علينا أن نشقى لنكفر عن خطيئات أمهاتنا

— ومن يدريك أن أمك الآن تبكى بعدك وتبحث عنك ؟

ولم تبحث عنى يا سيدتى الطيبة وأنا لا أعرفها ولن تهتز جوارحى لها ؟ لقد قطعت على طريق

المودة إليها ومهدت السبيل أمامي لانكارها ونسيانها. كم كنت أود لو أنها أبقت عليّ فأحمل عارها وأغفر زلتها والعصمة لله وحده، ولكنها أبت عليّ حتى ذلك فباعدت بينها وبيني، وأغلقت فؤادها من دوني فحرمتني نصيبي عنده من نسمة الحنو الذي غرسته فيه يد الله. وما تغرى يبحثها عني أو اجتماعها بي؟ إنني يومئذ أجد أمي، ولكنني لا أجد ذلك الحنان الذي كنت في حاجة إليه عندها وأنا طفل لا حول لي ولا حيلة. بل إنني لأخشى أن أذهب إلى أبعد من هذا لأن الملجأ إذا كان قد فك تلك الأغلال التي وضعتها في يديّ فان عليّ واجباً آخر وهو أن أحطم هذه الأغلال وأحطمها معها ..

وعندئذ صرخت إحسان قائلة: كفي يا حسن فحسبي من العذاب ما تحملته ثماني عشرة سنة وأنا لا يهدأ لي جنب ولا يطرف جفني، فمنذ حتى إذا اهتديت إلى حانوتك كان لي منه بعض السلوى وأنا أعيش بين هذه الأحذية التي لم يكن لي حاجة بها، وإنما لأنها تحمل أثر أصابعك. إنني أمك ...

ثم سقطت مغشياً عليها. فأسرع نحوها ينضح وجهها بالماء وينهضها ثم أقبل على جبينها يقبله وهو يهمس في أذنها والبكاء يكاد يخنقه:

ساعديني يا أمي!

محمود خيرت

معركة على عروس

للكاتب الفرنسي جوستاف جيفروا
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

جوستاف جيفروا قصاص فرنسي قدير ، اشتهر بالقصة القصيرة والمسرحيات الموفقة وهو يدرس فى هذه القصة خلق بعض الشبان والفتيات فى مدينة من أعرق مدن فرنسا ، اشتهرت بالجمال وحب الاستمتاع فى هدوء وغموض وهى ليون وقد كشف القناع عن عفة الفتاة وفجور المرأة ، وشح التجار . وقد قيل عند نشرها إنها رمزية تمثل نفسية الألمان ذوى الجبروت وقوة الارادة ، فترام لا يترددون أبداً دون تحقيق أمانيهم مهما كلفهم ذلك من القسوة على الآخرين وهى تنقل إلى العربية للمرة الأولى لقراء الرواية فعسى تحوز رضاهم

فى شارع جارنت الذى يتفرع من شارع رامباردينيه بحى بيراش بمدينة ليون الزاهرة ذات الشوارع الضيقة والجسور الفسيحة والكنائس الشامخة ، حانوت صانع الأثاث إرمان موتون .

فى صباح يوم الأربعاء السابق لعيد البنتكوت نادى المعلم موتون صبيه شارل شفارز وكان عاملا ألمانيا من ستراز بورج :

« أى شارل ! إذهب إلى دار مدام ديلوم ، فانها ستعطيك كرسيا «لوى كاتورز» يحتاج إلى التنجيد وقد خبرتها أنى مرسلك اليوم فامض على عجل » فمضى شارل فى شأنه وهو يصفر ، حتى إذا مر بدكان الحلوى المواجه لدار معلم موسيو موتون مال إليه وانفلت من الباب الصغير ، حيث كانت صديقته الصغيرة ليونى تصنع قطعاً من الشكولاته فى وعاء معدنى كبير ، وكانت ليونى غضة بضة مثل لحطة القشدة ، وكانت عارية الذراعين والنحر والصدر إلى منبت النهدين ، لضرورة العمل ، وقد ائتزرت بمئزر قصير لا يصل إلى منتصف الساق ، وقد انسدلت ضفائرها المسجدية على ظهرها النحتى . فلما رأته ضحكت وقالت له : حذار أن تكون « البجمة » قد لمحتك . والبجمة صاحبة الدكان مدام كرنك دولاك السمينة الضخمة التى التقطتها وتبنتها وتعهدتها ووهبتها نصف ما تملك لتكون بائنة لها عند الزواج . ولكن ليونى كانت تبغضها وتخشاها وتحقد عليها وتشكو قيود العفة والحذر التى فرضتها عليها لتصونها من أخطار الحياة .

فابتسم شارل وقال : كلا ! إنها مشغولة بمحاسبة بعض عملائها وسمعتها تعنف الكتبى كنزلو وتتهمه بأنه التهم سبع فطائر ولا يدفع إلا ثمن أربع ، وقد جحظت عيناها وهى تقول له : تأكل السحت فى بطنك أيها العنكبوت الضئيل وتزداد نحولا . كلما أدخلت بطنك فطائرى المختلسة ! ألأنى ائتمنتك وفتحت لك صناديق دكانى وتشاغلت عنك بمنزلى .. إن عين التاجر لا تنمض .

فضحكت ليونى وألقت بجسمها الناعم اللين بين يدى شارل هامسة :

— قبلة الصباح ياحبيبى ، متى أغادر ذلك الجحر الخرب ، لأبقى لك طول حياتى ! .. فضمها الفتى إلى صدره بعنف الرغبة ، وقبلها فى وجنتيها وفمها وعينيها ونحرها ، وكانت تتوجع من اللذة وهو يلثم فاها ، ويكاد يغرس أظافره فى كتفيها ، فلما أفاقت من

غشية الحب السريع المفاجيء ، ملأت فمه بالشوكولاته المحشوة باللوز والبندق والجوز المسم ، وناولته علبة من الورق القوى ملأى باللبس الفاخر الذى يصنع خصيصاً لسيد البنتكوت . وقالت له : عليك أن تخرج فى حذر ثم تدخل على البجمة بعد لحظة لنتأكد أنها لم ترك . فدس العلبة فى جيبه وانسلّ وسار قدماً وهو يصفر أنغاماً من أوبرا لوهنجرن ، سمعها والتقفها من غناء ريدز التينور(١) الشهير . فلما دنا من عتبة الحلوانية انحنى وحيًّا وكان كنزلو لايزال مستسلماً لمطر الشتائم الذى ينهال على رأسه من سماء مدام كرنك دولاك

— ياذيل الخنوص ، ياجبة الرياء ! ياجرذ الحوانيت ! مادمت لاتعف عن الفطائر السبع ، فلِمَ تسارع إلى ابتلاعها ؟ وكان وجه الكتبي مصفراً كالكركم الصينى وهو يقول :

— مدام كرنك . أقسم لك بسانت فورثيير ! أنها أربع فطائر فقط لم تزد . إننى بطىء المضغ . اسألى الدكتور مويسيه طبيب عائلتى . شق بطنى إن شئت ، ولكن كفى بحق العذراء عن تقريعى أمام الجمهور .

فقالت له : إن كنت تستحى حقاً من الجمهور فلم تصنع فى الخفاء مالا يليق بكرامتك فى العلانية ؟ ألم تفد شيئاً من الكتب التى تسمم بها عقول القراء ؟ ألا إنها وبال عليك مادامت تؤدى بك إلى تلك المجاعة التى لاتجد لها سداً إلا من بضاعة أرملة بائسة مثلى . فقال الكتبي مبتهلاً متوسلا :

— شق بطنى !

— لا أشق بطنك ، فلست فى حاجة إلى تعكير جو دكانى بما تأكل . اغرب عن عينى ! صباح الخير أيها الشاب ، لاعليك ، فإننى أمزح مع موسيو كنزلو كعادتى لأدخل عليه السرور فيحسن هضم ما أكل ، فأرتج على شارل الذى دار بعينه فى الدكان كمن يبحث عن شىء ، فقالت :

— أظنك تبحث عن ليونى . إنها خرجت منذ الصباح لتشترى مؤونة الشوكولاته التى نمدها لسيد البنتكوت . كيف حال معلمك ؟ إن لدىّ مقعداً قديماً أريد تنجيده خير تنجيد وأثمنه فهو من تراث المرحوم زوجى ، وهنا تبللت عيناها بالدموع ، فنظرت إلى كنزلو الكتبي الذى مازال واقفاً مسموراً وقد قيده الخجل ، وقالت :

— بعد العصر ياموسيو كنزلو ، شرفنا لتأكل مايحلو لك من شطائر اليابان المحشوة بالقشدة ومُشَرَّقة فى روم جامايكا العتيق . فابتسم كنزلو وقال

— وعد الحر دين عليه ، إلى اللقاء يامدام دولاك أوريفوار أيها الشاب ، يالله من مزاح !

وخرج كالفار المسلوخ ، يتحامل على ساقيه النحيلتين ، ويكشف عن صلعة حمراء كباطن القلى المصنوعة من نحاس فيردان ، فضحك شارل ملء شدقيه والتفتت البجمة إليه ، وقالت :

— أدخل ، أدخل أيها الشاب . ودع عنك مارأيت وسمعت بينى وبين هذا الحمار الذى يحمل أسفاراً . وإياك أن تنقل حرفاً مما سمعت إلى ليونى أو غيرها ، لأننى أفكر فى تزويجها من ابن هذا الكتبي العتيق ، لأنهم أغنياء ، وأحب قبل الزفاف أن أخضع حماها بالإذلال والإرهاب ، حتى إذا تصاهرنا كان هذا الكتبي أطوع لى من كلبى

---

(١) صفة المنشد الأول

ليبن ؟ وضحكت فبانت أسنانها المحطمة وقالت .

— أتعلم أن موسيو كابوش عمدة المدينة ، أمر بتحرير محضر مخالفة ضدي لأنني أطلقت اسم محافظ مقاطعة السين على هذا الكلب الأمين ! ولكن فطيرة ضخمة مشبعة بالزبدة ومحشوة بالكرز أخمدت أنفاس كوميسير البوليس كابان . ومحت محضر المخالفة كأنك أرسلت خطابا لبريد! الحلوى والمداهنة تفسد أحسن الذمم . فضحك شارل من حديث المرأة الممزوج بالبلاهة وقال لها :

— أفهم جيداً أن « الفليك » يباعون بأبخس الأثمان .

— آه الفليك [1] يالهم من غول ذباب ! لو كانت ليونى هنا كنت أذقتك طعم تلك الشوكولاته الفاخرة . ولكن غداً لناظرها قريب . . والملبس الفاخر هدية البنتكوت . فابتسم شارل وهو يحس طعم الشوكولاته فى فمه ، ويذكر قبلات الفتاة .

ومد يده إلى جيبه ليتأكد أن علبة الملبس الفاخر لم تغادره ، ولم تنفذ اليها عين تلك التاجرة الماكرة . وقال : شكراً لك سلفاً وسأمر ببيتك لأنقل ذلك المقعد المزيز ، وأدار ظهره وهو يصفر ، حتى إذا بلغ دار السيدة ديلورم ، فتحت له الباب فتاة فى الثامنة عشرة ولما أبصرت الغلام الألمانى الأهيف الجميل فتحت عينيها وحدقت فيه دهشة وعجباً، وعراه هو من الدهشة لحسنها ماعراها، فحدق فيها وقد ذهل عما كان يجب عليه من نزع قلنسوته تحية واحتراماً فوقف شاخص البصر إلى نضرة جمالها ثم أفاقت هى قبله فقالت له : من أنت ؟

فأجاب: صبي الحلوانى، أعنى الحلوانية «البجعة» مدام كرنك دولاك . وأخرج من جيبه علبة الملبس قائلا :

— ولما كانت عادتها أن تبعث إلى خيرة عملائها بعينات من الملبس الفاخر الذى تصنعه خصيصاً لعيد البنتكوت . ومد يده بالعلبة فتناولتها الفتاة وفتحتها فقال : تذوق يا آنسة ، تذوقي فان نجاح عملنا قائم على مبدأ «من ذاق عرف» وهو شعارنا . « ذوقي وقارني » . فتناولت الفتاة بنانها فى رشاقة فاتنة ملبسة ووضعتها بين شفتيها الرجانيتين ثم افتر ثغرها عن ابتسامة زادتها فى نظر الصبي حسناً على حسنها

وقالت : هل ندفع لك ثمناً لهذه العلبة ؟

فضحك قائلا : هذه هدية وعينة ...

فقالت: شكراً لك وسأقنع عمتى بشراء الحلوى من محلكم . وهمت بمواربة الباب فاستدرك شارل قائلا:

— عفواً . وأمراً آخر نسيته

— وهو ؟

— إننى أيضاً صبي المنجد موسيو أرمان موتون أعنى أننى أزاول مهنتين بل ثلاثاً

فابتسمت الفتاة وقالت بين مصدقة ومكذبة :

— يا لك من فتى ذى صناعات عدة !

— الحياة تقتضى الجهاد فى سبيل العيش . إننى منجد فى الصباح ، وحلوانى بعد الغروب . فصدقته الفتاة وأشفقت عليه وسألته :

— أتريد شيئاً من متاع المنزل أم جئت بعينة أخرى من الأثاث الجديد ؟

فأجاب مداعباً : وهل فى المنزل شىء هو أحلى وأشهى من ذلك المتاع الذى أراه الآن ماثلا أمامى ؟

(١) الشرطى

فضربت الفتــاة بقدمها غضباً واغتياظاً من جرأة الفتى وخته، واحمر وجهها قليلا، فأدرك شارل أنها من الصنف الذي يكره الداعبة وتذكر أحضان حبيبته المواتية ليوني الذى ألهبت وجهه منذ هنيهة بحر أنفاسها ، فمحا صورة الحب السريع من ذهنه وزاده غيظ الفتاة الماثلة أمامه تمادياً فى مداعبتها فقال:

— إذا كان فى متاعك خلل أو فساد تريدين إصلاحه فاعلمى أن متاع الفتيات ليس ممــا نعنى باصلاحه ، فاطلبي لمتاعك مصلحاً آخر ! وإنما جئت ههنا بأمر معلمى الحلوانى . وسلمت إليك هديته ، ثم بأمر معلمى المنجد الموسيو أرمان موتون لأحمل إليه من مدام ديلورم كرسياً كانت خبرته أنها فى حاجة إلى تنجيده ، فأين هو ؟

فنصبت الفتاة رأسها فى أنفة وكبرياء وفتحت له الباب وسمت به إلى قاعة الاستقبال ثم أومأت إلى كرسى فيه خرق دون أن تنبس ببنت شفة ، ففحص شارل الكرسى بدقة ، ثم حمله على عاتقه وسار إلى الباب، حتى إذا بلغه التفت وراءه ونظر إلى الفتاة وقال :

— خيراً ؟

فقالت بكبرياء : ماذا تريد ؟

فأجابها شارل بابتسامة معنوية أجابته عليها باحمرار وجنتيها ثم قال :

— إنى بخير والحمد لله وأرجو أن تكونى بخير أيضاً . فضحكت الفتاة ضحكة نجائية عالية وقالت :

— إنك أظرف حلواني وأعبط من رأيت من المنجدين فى حياتى . أولى لك أن تذهب فى الحال وإلا ناديت عمتى وإنها لشديدة على أمثالك المستهترين

فأسرع شارل الهبوط فى سلم الباب وقال :

— أرجو أن تكون عمتك بخير أيضاً

فلما بلغ أسفل الدرج قال :

— وإنى لا أعلم كيف احتفظت بعلبة الملبس ورفضت ملاطفتى . ولكنه لم يسمع سوى صفقة الباب وراءه

وسار قدماً وهو يُصفّر ، إلى أن بلغ المنزل رقم ٥ شارع بواساك حيث كانت مدام جاكيه معشوقته تنتظره ، ففتحت له الباب هاشة باشة فقد كان الفتى حبيب قلبها فى غيبة زوجها الضخم فى معمل الساعات فى مونشا إحدى قرى النهر التى شيدت فيها مصانع الآلات الدقيقة ، وكانت المرأة آمنة عودة الزوج طول النهار . فغلقت الأبواب وأنزلت الكرسى عن كاهل معشوقها ، وكانت امرأة قصيرة القامة ذات محاسن وفتنة تدفع إلى الصبي ثمن غرامه السرى كل ما تدخره نفقــة البيت وما تسرقه من كيس زوجها أثناء غطيطه

ولم تكن تصبر عن لقاء شارل يوماً واحداً فكان يلهب عاطفته بين أحضان ليونى ، ليطفئ ناره عند جاكيه القصيرة البادنة . وسرعان ما خلعت عنه ثيابه وألبسته ثياب التفضل من صوان زوجها ومدت له مائدة رداحاً زاخرة بالدجاج المشوى — بوليه دوريه دى بريش —[1] وسمك الزون المقلى ، ولحم عجل حنيذ محمر ، وحمص أخضر بالزبد والسكر وحلوى المشمش التى كانت تجيد صنعها —

(١) نوع من الدجاج الضخم يعنى أهل ليون بتربيته وطهيه

واعتذرت له عن بعض الفطير المحشو بلحم الخنزير وشحمه . فأكل الفتى أكلة الشره وشرب من نبيذ جراف الذهبي حتى روى وشبع واستمد القيلولة

فسألته — أين كنت يا روحي ؟

أجاب — في العمل ، العمل الشاق المضني

قالت — هل كنت تفكر فيّ ؟

قال — طبعاً ؛ وفي من سواك أفكر ؟

قالت — أنت معبودي ، وحبك العنيف غذاء حياتي — أين تقضي أجازة البنتكوت ؟

قال — هنا في ليون ، ما لم تجنّ أسرتي شوقاً إليّ !

قالت — لقد أعددت لك مفاجأة سارة فحصلت على إذن من البغل زوجي ، لأزور أهلي في هوت سافوا، وفي الحق أعددت تذكرتين لنذهب معاً إلى قرية « إيل يارب » فنمرح أياماً وننعم بالحب . وقد ادخرت مائة فرنك ننفقها معاً في فسحتنا المرتقبة

قال : كيف أسافر وأنا لا أملك غير هـذه الثياب الرثة ووالدي لا يرسل إليّ مالاً ظنا منه أن ارمان موتون يندق عليّ النِسَم ويدفع لي من ثروة قارون . فأطرقت جاكيه الولهانة ثم قالت :

— لقد فكرت في ذلك أيضاً ، فأعددت لك بدلة كاملة من صنع لابيل جاردينيير ، أخذتها على حساب زوجي وأصلحتها على قياسك عند طرازي يجهلني في شارع جامبتا ، فلا يشك في غايتي من تقصير ساق سراويلاتها ، وتوسيع أكمامها ، فانك أعرض صدراً من الرجل وأقصر قامة .

وبعد الظهر بثلاث ساعات خرج شارل من بيت عشيقته يحمل الكرسي وعاد إلى الدكان فلم يجد معلمه الذي ذهب إلى أهله يتمطي بعد طول انتظار الصبي ، فوضع شارل الكرسي في غرفة الأمتعة المختلة واستأنف عمله في مرح وهو يصفر كعادته . فمرت بذهنه صور شتى مما شغل خياله منذ الصباح؛ فها هي ذي ليوني تقبله وتنفحه بالهدايا ثم البجمة ، والكتبي الشره ، ثم الفتاة التي تهددته بصمتها . . ثم المرأة الناضجة التي أطعمته ومنته وأعدت له الكسوة والنزهة على حساب بعلها وبغلها .

ولكن محاسن الفتاة الثانية جعلت تتراءى لعين خياله ، وكان وجهها فتاناً يحمل دلائل الدلال والتيه وآيات الزهو والكبرياء ، وقد لذ الفتى أثناء هذه التخيلات ما كان يبدو على ذلك الوجه من العبوس عند سماع أمازيحه التي كانت تعدها الفتاة ضرباً من الاجتراء على مقامها السامي من صبي حلواني أو صبي منجد حقير مثله كما وهمت وفهمت. فأكمل إصلاح مابيده في ظرف ساعة ومضى إلى المخزن لاختيار القطعة التالية . وكان ثمت عدة أمتعة قد لهج أصحابها وألحوا في سرعة إصلاحها ، ولكن شارل ضرب عن جميعها صفحاً وأخذ الكرسي المخروق فحمله إلى مائدة شغله . ولم يكن في نيته أن يبدأ بإصلاحه ولكنه تلذذ بمجرد النظر إليه من أجل الحسناء ذات الوجه المليح العابس . وبينا هو يتأمل الخرق الذي به ويضغط على لوالبه ، أخذت عينه ورقة صغيرة كانت قد سقطت في الثقب الذي في ظهر الكرسي فتناولها فاذا بها حوالة مالية بعشرة آلاف فرنك تصرف لحاملها ، فأخذها

هادئاً وأعاد تلاوتها وهو لا يصدق نظره ثم وضعها في جيبه ثم بدا له غلاف رسالة معنونة بالعنوان الآتي « المناجم الزئبقية جولد نبرج وشركاؤه — المدير جورج دي سا كس » فدسها هي الأخرى في جيبه وآمن بأن الدهر يبتسم له حتى في التربة .

وفي تلك اللحظة عاد موسيو أرمان موتون متجهماً؛ فلما رآه انفجر فيه بأقذع السباب على تلاعبه بوقته وتركه في انتظاره بدون غداء إلى ما بعد الظهر بساعتين في سبيل حمل كرسي مخروق. فوقف شارل باسماً وقال له :

— على رسلك يا معلمي . إن قبلت عذري فحباً وكرامة ، وإلا فوفر لي بقية أجري وسرحني باحسان أحمد لك حسن العشرة . فخبت نار غضب المنجد وقال: أتتركني يا شارل وقد علمتك خير ما في الصنعة ؟ قال : إني منصرف ؛ فان حياة المنجدين لا تروقني . قال : لا عليك ، فمعذرة . قال شارل : سأنصرف ساعة حتى يصفو دمي بعد كدره، السلام عليك . وخرج لا يلوي على شيء حتى بلغ بيت جاكيه وكانت لا تزال كليلة من أثر عناقه ، حالمة بما كان بينها وبينه من حلو الغرام ففتحت له وقالت:

— إني قديسة ؛ فقد اشتهيتك تشاربني الشاي وتقاسمني تلك الكعكة المحشوة بالزبيب والفستق . فنزل على إرادتها ومزج الأقداح بالتقبيل والمداعبة ، حتى استلانت له فنهض ينظر في المرآة ثم قال لها : إني مسافر إلى قريتي حتماً . فتجهمت المرأة وذهلت . فقال : لقد بلغت حالي من الرثاثة ما يجعل كل من يراني يحتقرني فلا بدلي من ثياب قشيبة وساعة وسلسلة وأزرار ودبابيس من فضة وذهب . فضحكت المرأة وقالت : انتظر ؛ ثم عادت فرحة بالثياب الجديدة وحلت من صندوق زوجها وهو ساعاتي وصائغ كل ما طلب ، وألحت عليه أن يلبس الحلل ويتحلى بما تاقت إليه نفسه من متاع زوجها مطلقة نفسها بنسيانه ما أودع من مصوغ . فتأبى شارل هنيهة ثم فعل فبدا كأبناء السراة ذوي العز والنعمة وسارع إلى تركها واعداً إياها بالعود غداة غد كعادته . وفي سرعة البرق بلغ مقر « سوسيتيه جنرال » وهو مصرف قوي لرجال الأعمال ، فرحبوا به ، وأبرز لهم الحوالة ، فصرفوا له قيمتها ، وعرضوا عليه أن يحتفظوا بها لحسابه لقاء دفتر صكوك يجعل المال رهين إشارته وتوقيعه، فقبل بعد أن قبض مئة فرنك وهي تعدل مرتبه عند المنجد شهرين وعاد إلى بيته فخلع الرداء الجديد ولبس ثياب العمل وقصد إلى مقهى توتون ليشرب فنجاناً من القهوة . وأخرج الرسالة التي وجدها مع الحوالة في خرق الكرسي فاذا فيها

عزيزتي روزموند

ليت شعري كيف أثر فيّ حسنك هذا الأثر البالغ ! ماذا أحدثت ألحاظك في حشاي من الجراح والأوصاب ؟ وما الذي قالته عيناك لقلبي فأجاب ؟ هل نلتقي في يوم الأربعاء المقبل بعد ظهره ، في عين المكان والأوان اللذين تلاقينا فيهما آنفا فانعم بحديثك العذب ؟

المخلص

جورج

فقطب شارل جبينه ووضع الرسالة في جيبه. ولما عاد إلى الدكان استمر مقطماً ونسي صفيره ،

ولحن لوهنجرن الذى كان يكرره، فلقيه المعلم موتون بالترحاب وقال له :

— مابرضيك ياشارل فأنا كفيل بنفاذه . أجاب « أن تزيد راتبي إلى مائة وخمسين فرنكا فى الشهر ، وأن تدفع لى مقدما مرتب شهرين لأصلح من شأنى ، وأن تمنحنى أجازة ثلاثة أيام أقضيها فى ترويض خاطرى » وهو يعلم أنها شروط قاسية لن يرضخ لها المعلم لبخله وشدة حرصه، ولكنه جعلها ماحكة ليصرفه مستغنياً عن خدمته . فتنهد موتون وقال : إنها لأقسى من شروط سيدان التى أملاها بسمارك على وطننا . . . ولكننى أقبلها. ثم دفع له ما طلب لأنه كان ينتوى أن يزوجه من ابنته لورا ويترك له المتجر والمصنع ، لينعم آخر حياته بالراحة والغنى واستمرار اسمه معلقاً بأعلى الدكان حرصاً على شهرته وعملائه . ولكنه يضمر ذلك ولا يبوح به ، لئلا يفسد أخلاق عامله الذى يجهل منشأه .

فعاد شارل إلى عمله فى كرسي آخر وترك المقعد المخروق ينبىء من خرمه، ودس فيه وثيقة المال ووثيقة الهوى بعد أن نال حظه منهما وسهلا له بداية المعركة ليفوز بعروسه .

وبعد لحظة ظهرت الفتاة الحسناء العبوس فى عتبة الدكان ، فقال له المعلم :

— شارل ! هذه ابنة شقيق مدام ديلورم تريد أن تكلمك كلمة . فاحتفظ شارل بثباته ، وهو الفاجر الواثق من نفسه الخبير بأخلاق النساء . وكانت الفتاة مرتبكة مضطربة يذهب لونها ويجىء فقالت للفتى :

— أظنك قد . . . أريد أن أقول لك هل عثرت على شىء فى الكرسى الذى أخذته اليوم من دار عمتى ؟ فنظر شارل تلقاء المعلم فوجده مكبا على شىء يصلحه غافلا عنهما فقال : إننى منذ حملته على كاهلى لم أره ولم ألمسه فتفضلى بأخذه إن شئت أو فحصه إن أردت . ثم عاد إلى عمله . فقالت بكبرياء وعظمة : إنه خطاب لا أكثر ولا أقل فأعطنيه . فقال: انتظرى لحظة ، ودخل إلى غرفة المخزن وعاد يحمل الكرسي بعد أن دس الخطاب فى الخرق أعمق مايكون ، ووضع يده فأخرج الغلاف واستبقاه فى يده

فقالت : أعطنى الرسالة . فهز رأسه نفياً وإباء فقالت : إذا أبيت تسليم هذا الخطاب شكوتك إلى مدام ديلورم عمتى

فقال شارل بثبات ورزانة : وإذا سلمته اليك فسأبلغ الأمر إلى مسامع عمتك مدام ديلورم . ولم يكد يتم قوله هذا حتى راعه وآلمه ما أبصر من شدة اصفرار الفتاة وامتقاع لونها . فالتفت إلى مسيو موتون معلمه وقال :

— إن السيدة الصغيرة تريد أن أرافقها إلى دارها لتطلعنى على شىء من أثاثه وسأعود بعد برهة قصيرة . فهز المعلم رأسه موافقة دون أن يرفعه عن عمله .

وغادر شارل الدكان تتبعه الفتاة مستكينة متواضعة، فلما بلغ زقاق جوادى فيقرو كانت الشمس قد آذنت بالغروب وقف وواجه الفتاة وكان يشرف عليها بمقدار قدم لطول قامته . وقال لها : إياك أن تحاولى انتزاع الرسالة من يدى لئلا تحدث فضيحة شنعاء أمام المارة ، وتدلى بذلك على سوء نيتك فتنتهى بالبقية الباقية من احترامى وعطفى عليك . فأومأت برأسها علامة الرضى وهى تكاد تنفجر غيظاً من تحكمه، ففتح الرسالة وقرأها بصوت عال كى

يقع نظره عليها لأول وهلة . ثم قال مستفهما :

— اسم حضرتك روزموند ؟ فقالت مغضبة ليس هذا من شأنك. فقال مبتسما : إذا كنت تأبين أن تجيبي عن سؤالي هذا فسأعرف الجواب من حضرة عمتك . فقالت : اسمي روزموند . فرنا إليها بنظرات لينة رقيقة ملؤها الحب والطرب وقد أذهله ما هو فيه من اللذة عن مشاهدة ماصبغ وجهها إذ ذاك من حمرة الغيظ والوجل . ثم قال :

— إذن اعلمي ياروزموند أني لست بمعطيك هذه الرسالة . كلا ! لاتعبسي ولا تقطبي جبينك ولا تظني أني من قبيل ذلك الفتى جورج صاحب الرسالة . ومهما يكن جورج هذا فانه وغد خسيس وكذاب أشر وما خطا به إلا إفك وبهتان. سأبحث عنه فأنظر بنفسي أي امرىء هو، هل يصلح أن يكون زوجاً لمثلك . لاتؤاخذيني في فضولي وتطفلي على أسرارك فاني مدفوع بأقوى عوامل النفس إلى الاهتمام بشأنك ؛ فاذا وجدته كفؤاً لك — ولا إخاله— فسأعتذر له عن سوء ظني ثم أحضر حفلة زفافك بثياب قشيبة وهدية من الحلوانى . . ولكن هاتفاً يهتف بي من أعماق نفسي انه وغد خسيس ونذل جبان وأحمق غبي . كذلك شعوري وهو شعور صادق قد ورثته عن أبي . فدعيني وتنفيذ خطتي وإمضـاء عزيمتي فانك إن حاولت مني فسأذهب تواً لعمتك وأقدم لها الرسالة قائلا إني عثرت عليها في الكرسي . فلم يكن من الفتاة إلا أنها شرعت تبـكي وتنتحب وتمزق منديلها بثناياها الجميلة من شدة القهر والغيظ والعجز عن الانتقام فقال لها : لاتؤذى عينيك الجميلتين بالبـكاء فوحق العذراء لأقصدن إلى إيلامك وإيذاء عواطفك

فقالت وهي تحرق الأرم: إنك لفظ غليظ القلب. أعطني الرسالة من فضلك . انها ملكي لاملـكك .

— فقـال شارل شفارز : إني أستملحك وأستظرفك وإني معجب بحماستك ، وسيأتي يوم تعلمين فيه حقيقة مقصدي ، وهو إيصال النفع إليك ورد الأذى عنك ؛ فاذا خشيت عمتك إلى هذ الحد فاني أعدك ألا أوصل الرسالة إليها أبداً ولـكني أذهب معك إلى أقرب أقسام الشرطة ، وهناك أسلم الرسالة . فنصبت الفتاة قامتها وقذفت الفتى الألماني بنظرة حشدت فيها كل ما تستطيعه طبيعتها من البغضاء والـكراهية وانطلقت في سبيلها دون أن تفوه بكلمة أخرى. فراقبها وحك رأسه، ولـكنه لم يلبث أن سرت إلى وجهه دلائل العزم والاصرار التي قد ورثه أهل جرمانيا قاطبة عن أجدادهم القدماء، فمضى تواً إلى القنصلية الألمانية بشارع كي دي برتو وقال إنه يريد لقاء القنصل للتو واللحظة ، فما لبث أن خرج إليه القنصل من مكتبه الخاص فدنا منه شارل وأسر إليه كلمة في أذنه ، فأجابه القنصل : كلا ! فأخرج شارل من جيبه رسالة وأعطاها القنصل فقرأها الثـاني بروية وأعادها إلى شارل وقال « لابأس ! »

عند ذلك ذهب شارل إلى مكتب شركة المناجم الزئبقية. جورج دي سا كس وشركاؤه، فقال صبي المـكتب لشارل : المسيو جورج دي سا كس ليس ههنا ، ولعلك واجـده في قهوة ريش في الشارع المجاور . فمضى شارل إلى القهوة وعقد صحبة مع النادل فأتحفه بكأس من الراح وألطفه بلفيفة من تبغ الراس وأقبل عليه يحادثه في حالة الطقس وأخطار الحرب الرقمية وأسعار الحرير وحوادث القسس

ثم شرع يستفهم منه عن أسماء اللاعبين بالورق ، وكانوا جالسين بناحية من المكان فكان ممن سماهم النادل جورج دى سا كس ، فاذا به كما كان قد صوره كارل فى مخيلته تماما — صغير نحيف حسن الهيأة ولكنه ضعيف البنية أصفر الوجه. وقال النادل : إن موسيو جورج هذا على ضعفه ونحوله وصفرته زير نساء عريق وله على الفتيات سلطان عظيم، فهن يتزاحمن عليه ويتهافتن. إنه غنى .. وخداع . وانتظر شارل حتى فرغ جورج من اللعب والخسارة لأنه سيء الحظ فى الورق ، حسن البخت فى النساء [1] — ثم استدعاه ووقف به ناحية وقال له :

جئت من ستراز بورج وما زلت أبحث عن صنف جيد من الزئبق الأندلسى ، أرسله هنالك ، وإنى أعلم أن ليس من اللائق أن أبنئك بطلبي هذا فى مثل هذا المكان ولكنى لا آتى هنا كل يوم وقد.. فقال جورج ببشاشة التاجر وحفاوة الثرى المستزيد :

عفواً ياسيدى، أنا فى خدمة عملائى فى كل آن ومكان ، تفضل بالجلوس ، ماذا تشرب ؟ لا بد أن تكون أنبذة كروم الراين قد أوحشتك، إنى أشربها بلذة . ثم تناقشا مليا فى الزئبق وأسعاره ونفقات شحنه ونسبة «العمولة» ، وقال شارل إنه سينظر فى الأمر ثم يخبره بالنتيجة فيا بعد . وقد أساء شارل وآذاه وآلمه أنه بدأ يشعر بشيء من الميل إلى جورج والاستئناس به واستظرافه، وأن جورج بدأ كذلك يظهر مثل هذه العاطفة نحوه وقال جورج دى سا كس:

— حبذا لو تعشينا الليلة معاً؛ إنى لأعرف مطعماً شهيراً بجودة دجاجه وحسن نبيذه . فقبل شارل دعوته والتمس منه ساعة لتبديل ثيابه وتواعدا على اللقاء فى نفس القهوة التى اجتمعا بها . وعاد شارل متطرياً مجلواً متحلياً طروباً وبانت عليه نسمة معشوقته مدام جا كيه وبثلها وهو بملها . فانتقلا إلى المطعم فى سيارة جورج ، وقبل فراغهما من الطعام خبره دى سا كس أنه مستعد أن يقدم إليه كل مالديه من الزئبق بأسعاره الأصيلة وأردف قوله « أى هيرشارل ؛ إنك أحب إلىّ من أن أربح من وزانك أدنى شيء وبودى ألا أفارقك أبداً . فهل لك فى الركوب معى الليلة للنزهة فانى أعرف فتاتين لاتأبيان أن تصحبانا فنقضى معهما برهة من الزمن . فذهبا للنزهة مع النادتين وكانتا مليحتين، ثم اقترح شارل أثناء النزهة الذهاب إلى دار الصور المتحركة ولكن دى سا كس هز رأسه نفياً وهمس فى أذن شارل عند أول فرصة قائلا :

— لاتقترح أدنى شيء من هذا القبيل فانى أعرف فتاتين أخريين أفضل أن نأخذهما إلى دار السينما ، لأنهما أليق بذلك المكان وأبهر للعيون فى الضوء وأمتع لنا فى حلكة الظلام . وكذلك ذهبا إلى دار السينما ووفى دى سا كس بوعده فاستحضر الفتاتين. وتغيب شارل عن دكان معلمه المتجد ثلاثة أيام قضاها مع صديقه الثرثار رئيس شركة الزئبق . وفى كل ساعة يقدم له هذا الصديق فتاة جديدة ، وكل ساعة يزداد شغفاً بشارل الذى نسي ليونى وجا كيه وازداد تملقاً بروزموند . وقد سهل على شارل أن يستكشف السر فى ميل الفتيات الى صديقه ، وذلك أن جورج دى سا كس كان طلقاً متهللا لاتفارق شفتيه ابتسامة البشر ولا ينطق فى أساريرِ وجهه نور البشاشة مع كثرة الملق والتلهوق

---

(١) مثل فرنسي سائر

والاطراء، وكانت له حيلة إلى أقناع كل واحدة أنها خليلته ومعشوقته دون غيرها . فقال مرة لشارل : إنى لا أخلو من النساء ساعة ، وإنى لأجدنى مدفوعا إلى منازلهن اندفاعى إلى الأكل والشرب، لا أستطيع الامتناع عن الأولى إلا إذا أطقتُ الامتناع عن الثانية .

فقال شارل : ولكن ماذا تصنع إذا تزوجت وقر قرارك ؟ فحدق جورج فى وجه شارل قائلا : أتزوج ؟ إنى متزوج، ألم تعلم بذلك ؟ لقد مضت زوجتى إلى قرية مونبيان لتزور أمها وسأقدمك اليها عند عودتها . وإن لها زمرة من الأتراب الحسان والصواحب النوانى كأنهن الربرب أو سرب المها لايزلن يحمن حول دارنا يرفرفن علينا . فقهقه شارل ضاحكا ثم أمعنا فى الشراب فقدم إلى دى سا كس الرسالة التى كان وجدها فى الكرسى فقرأها جورج وشرع يمسح جبينه بيده كالذى يحاول أن يتذكر شيئاً قد نسيه ثم قال :

لقد نسيت اسمها ولقبها . خبرني كيف حصلت على هذه الرسالة ؟ فأدرك شارل قلة اهتمامه بشأن روزموند وذهوله ألبتة عن كل ماحدث بينه وبينها . وسأله جورج « ولكن كيف وجدت الرسالة ؟ قال شارل: سأخبرك فى وقت آخر، ولكنى أطلب إليك الآن أن تكتب لها رسالة أخرى وتعطينى إياها لأوصلها إليها فأربح رهانا عقدته فى مسألة مسلية، أتوافق على ذلك؟ فقال جورج وهو يترنح : ولِمَ لا ياصديق ؟ وسيان عندى أن أقول لها إنها أحب الناس إلى أو أقول لها بعداً لك وعليك العفاء. هلم أمل على ماتشاء أيها الألمانى الظريف .

* * *

وردت على مدام ديلورم عمة الفتاة روزموند رسالة فجعلت تقلبها فى يديها مراراً عدة ثم قالت : لا أفهم ما ذا فى هــذه الرسالة فان أسرة برادنبور تدعونا إلى الغداء بعــد ما نسونا زمناً طويلا ، وقد دعوا أيضاً القنصل الألمانى وجميع أصحابهم القــدم . فى أى حلة تذهبين إلى المأدبة ياروزموند ؟

* * *

قالت مدام برادنبور : ما أشد فرحتى بك ياروزموند ! لم تكوني آخر عهدى بك إلا طفلة ضئيلة . هاك قنصل ألمانيا يا روز موند يذوب شوقاً لرؤيتك، وهاك موسيو شارل شفارز. فهمس شارل فى أذن الفتاة قائلا :

— سأرد إليك الرسالة متى شئت . فعلت الفتاة شفتيها تلك الطلة الحلوة المعهودة وعبست تلك العبسة المستملحة وقال شارل : إن الرسالة ليست معى الآن ولكن معى رسالة أخرى من الذى كتب لك الأولى فبدا الغضب على وجه الفتاة . وقالت :

— لا أدرى لماذا أنت هنا الآن ؟ ولا يهمنى تهديد صبي حلوانى أو صبى منجد وضيع . ولكن إذا كنت تحسب أن من الشرف والمروءة أن تتدخل فى شؤونى وتقاتل رجلا من الناس لتغلبه فترغمه على أن يكتب إلى رسالة سفه وخسة ودناءة فاسمح لى أن أخبرك أنك رجل شاذ غريب الأطوار. فقال شارل :

— أقاتل رجلا ؟ أتريدين موسيو جورج دى سا كس ؟ عجباً لك ! إنى أعشق الرجل . وهنا تدخل القنصل فجأة فصاح إلى عمة روز موند :

— أى مدام ديلورم ! ما رأيك فى هذا الفتى (يريد شارل) إن أباه من أغنى تجار الأخشاب فى

النابة السوداء وأشهرهم فى بلاد الراس وقد أراد أن يصقل ابنه ويعلمه فن التنجيد لضرورة تجارته ، ولكن شارل أنف أن يزاول هذه المهنة فى وطنه ، ولذا قدم إلى هذا البلد فأخفى نفسه فى دكانة منجد صناع ، ولكنها مستورة عن الأنظار حيث يأمن ألا يمر عليه أحد . وبينا هو كذلك إذا به قد خرج بنتة من جحره فانقض على وسائل المونة فى مسألة غرامية اعتماداً على ما بينى وبين أبيه من الصداقة والمودة فخبرينى يا مدام ديلورم رأيك فى الفتى وفيما يرى إليه ويطمح

فبدت على مدام ديلورم دلائل الحيرة والارتباك، ولكن مسيو براد نبور رب البيت وصاحب المأدبة شاهد ماظهر إذ ذاك على وجه روز موند من شواهد السرور والفرح فى احمرار وجنتيها ووميض عينيها وبريق ثغرها فأخرج مفتاحاً من جيبه وأعطاه لخازن الراح وقال له :

— هات لنا أجود ما لديك من السلاف نشربه فى نخب العروسين

قالت مدام ديلورم بشارل جانباً وقالت : أصارحك بأن بائنة روز موند وهى حوالة بعشرة آلاف فرنك قد فقدت منى — وبلل الدمع عينيها — وكانت كل ما تركه شقيقى لكريمته فما حيلتى ؟

فأخرج شارل من جيبه حوالة باسم روز موند على مصرف سوسيتيه جنرال بأن يوفروا لها باسمها مبلغ ثلاثين ألف فرنك نقداً فقالت العجوز :

— سيدى ! فقال لها: لقد وجدت البائنة فى خرق الكرسى المبارك الذى لا يزال عند معلمى أرمان موتون وقد آليت على نفسى ألا يصلحه أحد سواى وسأحتفظ به حتى يراه أولادنا فيعلموا أنه سبب سعادتى وعلة وجودهم. فضحكت روزموند وقالت: وسأحتفظ أنا كذلك بعلبة من الملبس الذى يصنع لسيد بنتكوت

* * *

ودعا شارل إلى حفلة زفافه « البجمة » وليونى والمنجدوجا كيه والكتبى كنزلو وجورج دى ساكس وقدم لكل منهم هدية لائقة، ولما كان ألمانياً فاجراً قادراً على القهر والحيلة فقد أرضى كلا من مدعويه بهمسة فى أذنه فقنعوا من مودته بوعوده ، ما عدا الحبة المفتونة جاكيه البادنة الشقراء التى وثقت أن زفافه سيحرمها غرامه . فهمس فى أذنها :

— لا تنسى أننا سنقضى معاً أجازة البنتكوت

محمد لطفى جمعة

التكافؤ في الزواج

مترجمة عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يبق إلا دقائق على الموعد عند ما التفتت « مونا » من نافذة المشرب التي هي جالسة فيه وهو في البناء المواجه لدار البرلمان وهي تنتظر مجيء « روى »

وكانت « مونا » مخطوبة « لروى » منذ ستة أشهر وكان الحب متبادلا بينهما . لكن الخطبة لم تعلن بعد ولم يوافق عليها أهلها إلى الآن . وكان لابد للفتاة من إثارة حرب شعواء بدارها قبل أن يوافقوا على هذه الخطبة . ولقد نشبت المواقع الأولى ولكن على غير طائل .

وجاء روى في موعده ودار الحديث فقال : « من العبث أن نتجادل فاني مع اعتقادى بأنك أنت الفتاة التي خلقت لى فانى أرى كلاً منا ينتسب إلى دنيا غير التي ينتسب إليها الآخر »

قالت مونا : « لست أفهم ما تعنيه » فقال : إننى رجل فقير أشتغل كاتباً في مصرف ولا يزيد إيرادى على مائة جنيه في العام ، وأنت بنت عضو في البرلمان ينفق مثل هذا المبلغ في أقل من أسبوع ، وأنت تلبسين من أغلى الثياب وتقيمين في شارع « بوندستريت » ، وأنا ألبس من أرخصها وأقيم في « شارع ستراند » ، وأنت تسافرين في السيارة إلى أبعد المسافات وأنا قد أمشى أحياناً لأنى لا أملك أجرة الترام .

قالت مونا : « إنني أكره الكلام بهذه اللهجة فانك بها تحاول إفهامى أنى مغرورة بالغنى » فقال : « إنك لست بالغنى مغترة . ولو كنت كذلك لما قبلت الزواج منى . ولكن الواقع أن الأسابيع القليلة الماضية دلت على أن عهد خطبتنا لن يدوم »

قالت : « إننى أفضل عدم المناقشة في هذا الموضوع . وقد وعدت أبى بلقائه الليلة في المجلس وقد آن الموعد وسأقنعه بكل رأيى

قالت ذلك ولكنها لم تتحرك من مكانها ولم يتحرك روى كذلك . وبقى كلاهما صامتاً مدة من الزمن . وكان هذا الموضوع أهم من أن يهملاه أو أن يحسما فيه برأى دون ترو . وكانت مونا تشعر في أعماق نفسها بأن فيما يقوله روى شيئاً كثيراً من الصدق

ومونا هذه هى وحيدة السير فيليب ماوز ولم تعرف قط ما معنى الاحتياج إلى شيء من الأشياء وكانت دائماً مالكة حريتها التامة في قصر أبيها في ويمبلدون . وكان من عاداتها أن تسوق عربتها بنفسها وتبتاع من الثياب والمعاطف ما يجزع عند المطالبة بثمنه كل الآباء ، ولكن السير فيليب كان وافر الغنى وكان لا يضن على ابنته بشيء . . .

وكان روى من هواة التمثيل وهو يشغل أوقات فراغه بتأليف روايات للمسرح وتمثيلها مع جماعة من أصحابه الهواة . وفي يوم من الأيام احتاج الى سيدة لتمثل دور الأميرة فوقع الاختيار على مونا لأنها بطبيعتها تمثل هذا الدور في غيرما تكلف وقبلت مونا ذلك أولا لأنها تحب التمثيل، وثانياً لأن هذه فرصة سانحة لشراء ثياب جديدة . ولما كان

روى من أبعد الناس عن التأنق فى الثياب فانه مثل دور سائق سيارة للأميرة .

وكانت الرواية تجعل هذه الأميرة تتدله بحب هذا السائق، فلم تكتف مونا بحبه على المسرح فقط بل أحبته فى الحياة الحقيقية، فأحبها روى كذلك، وتبادلا العهود والمواثيق وشعر كل منهما بأنه لايستطيع الحياة دون الآخر . وكانا يتقابلان دائماً ويقرآن كتباً متوافقة ويفكران تفكيراً مشتركا ويستنشقان نسيماً واحداً . وفى الحفلات الراقصة يرقصان معاً . ومايكاد يمضى يوم واحد لايتقابلان فيه

ولما ذهب روى إلى السير فيليب ليعرض عليه تزوجه من ابنته تلقاه بالضحك والبشاشة لأن عهد الكبرياء والغطرسة فى حياة هذا النائب قد انقضى منذ سنين .

قدم اليه النائب لفافة تبغ وقال : « إنى لا أعجب من حبك لمونا فهي جميلة ، ولكنى بغض النظر عن موافقتى أو عدم موافقتى باعتبارى أباً فلا أشير عليك إذا عددتنى صديقاً بأن تتزوجمنها، فان الزوج الذى يسترع الى حياته معها هو الذى ينفق عليها أربعة أو خمسة آلاف جنيه فى العام .

هبط قلب روى « بنطين أو ثلاثة » على حد تعبير مغامرة البورصة وأدرك أن السير فيليب لم يقل إلا الحقيقة، ولكنه أجاب : «إن مونا تعرف أنى فقير ولكنها لم تعر هذه المسألة شيئاً من الالتفات »

فقال النائب : إن مونا كالأوزة، فهي لاتعرف معنى الافتقار الى المال، وهى لاتعرف كيف تطبخ الحساء وأرى أن الزوج الذى يناسبها هو الذى يستطيع أن يجعلها تعيش على نفس النظام الذي اعتادته قبل الزواج . والحقيقة ياصديقى روى أن مونا بلهاء وإنك على مايظهر لست أفضل منها . »

اختضب وجه روى احمراراً، ولكن ذلك لم يكن لاستيائه من أن يخاطب بلفظ أبله بل لأنه لم يكن يتوقع أن يتكلم أحد عن مونا بمثل هذا اللسان

وخرج روى من عنده وهو يائس، ولكن مونا نفسها أنقذت الموقف، فقد قالت لأمها وتلك أبلغت السير فيليب أنها راغبة فى الزواج من روى وأنها هى التى اختارته، وأن أباها إذا اعترض على ذلك فانها لن تصفح عنه ، فغير السير فيليب خطته وقال لابنته :

« إذا كانت سعادتك مرتبطة بحظ هذا الشاب فانى وأمك نكف عن معارضتنا، فاننا نريد أن تكونى سعيدة . ولك الحق فى أن تختارى لنفسك ، ولكنى أريد أمراً واحداً إذا وعدتنى به تركت المعارضة، وهو أن تمتنع الكلام بتاتاً عن أمر الزواج مدة عام وفى العام المقبل تتزوجين »

وكان فى لهجة النائب رنة لم تستطع الفتاة فهمها، فقطعت على نفسها العهد الذى طلبه . ولم تكن مونا متعجلة بالزواج اكتفاء بأنها مخطوبة خطبة علنية لروى وأنها تذهب معه إلى كل مكان مبكرة أو متأخرة وهى تعد شريكته فى كل مجتمع

ولما اجتمع السير فيليب وزوجته لأول مرة بعد ذلك أشعل السير سيجارة وقال وهو يراقب دخانها : « لو أننا عارضنا هذين الأبلهين فانهما يعلنان نفسيهما من الشهداء . ومن المحتمل أن يتزوجا على الرغم منا . ولذلك وجب علينا أن نأخذهما بالحيلة وأنا واثق من أن كلا منهما سيمل من الآخر قبل انقضاء ستة أشهر . إن مونا لاتحب إلا الأشياء الغالية الثمينة وهذا الخاطب الفقير لايستطيع أن يفى

بعطالبها . ولذلك انتظر أن يتشاجرا فى أقرب الأوقات »

لم تجبه زوجته ووضعت مروحتها بين وجهها وبين المصباح : إما لـكي تستر مايبدو على عينيها من الملام ، وإما لـكي تحمى عينيها من الضوء

وكانت تقول في نفسها : «هل يجوز للمتقدمين في السن استخدام تجاريبهم بمثل هـذه الوسيلة ؟ لـكنه ربما كان فيليب محقاً وربما تشاجرت مونا وروى . ولكنى أفضل أن ترسو سفينتهما عند الشاطىء فى أمان فان من الخطر بقاءها فى وسط البحر مدة طويلة .

ومرت الأيام واتضح أن رأى السير فيليب كان رأياً سديداً

جلست مونا وروى أمام المنضدة التى يتناولان عليها الشاى وكلاهما يتجنب النظر إلى وجه الآخر. ولكن هذا التجنب كان خطأ منهما فلوأنه نظرإليها لأدرك أن الدموع تتجمع فى عينيها بالرغم من دلالة صوتها على الغضب . ولو أنها نظرت اليه لرأت رغم غيرته وقلقه أنه لايزال يحبها ، ولا يزال هذا الحب مالـكا كل قلبه

لـكن المصاعب التى وجدت أمامهما كانت أشد مما يتوقعان، فاذا ماذهبا إلى المسرح لم تسترح مونا إلى العربة لأنها اعتادت ركوب السيارات الفخمة، ولم يسترح كذلك روى لأنه يفضل السير على قدميه أو ركوب « الامنوبيس » . وكانت مونا تحب الملاهى وتعدها أهم شاغل لها فى الحياة فهي المدرسة الوحيدة التى تتعلم فيها ؛ أما روى فانه يعد الملاهى تسلية مؤقتة للتخفيف من أعباء العمل اليومي

وكانت هناك علة أخرى للمتاعب هى شعور روى بالغيرة . ولم يكن هـذا الشعور خالياً من المبررات فان مونا كانت تدعى دائما أن لها حرية التصرف فى كل شيء . وكانت تقول : « ليس معنى خطبتنا أن نهجر كل أصدقائنا القدماء . وفضلا عن ذلك فان هانسون يختلف عن غيره وقد كان يعرفنى من عهد الطفولة »

وكان « هانسون ميدواى » أكبر من روى بعشر سنوات وهو من أغنى التجار ، ولا حـد لاستعداده فى تبذير الأموال وهو يقدم لمونا من الهدايا ماليس يملك ثمنه روى ، وكان يهزأ بفقر صاحبه هذا

كانت صداقتها له امتحانا مؤلماً لروى ولكنه لم يكن يجد سبباً حقيقياً للشكوى لأن مونا لا تعتز بشيء فى العالم مثل اعتزازها بالصدق والأمانة . وكانت تقول له : « يجب ألا تهتم بشيء فان هانسون ليس له مكانة فى قلبي ولـكني أسر من الخروج معه لمجرد اللهو والتسلية .

ولكن روى كان شديد التذمر فلما ألح فى مهاجمتها قالت : « إذا أردت فسخ الخطبة فان الأمر كله فى يدك »

ولم تكن تعني ما تقول ولكنها أرادت إطعامه طعاماً مهيناً فلم يستطع تناوله وامتنعت شهوته للطعام وقال بلهجة تدل على الغضب أكثر من دلالتها على الود : « إننى لا أريد أن أفسخ الخطبة ولكنى أريد أن أتزوجمنك، غير أن السعادة لا يمكن أن تكون على هذا المنوال »

قالت: « ماذا تريد أن أفعل؟ أأجلس على المقاعد الخشبية فى أعلى المسرح لـكى أقنعك بأنى أميل إليك ؟ »

فسكت روي وقالت : « إذا لم يكن لديك مال تستطيع إنفاقه فهذه ليست غلطتى فان غيرك يستطيع بسهولة أن يحصل على ثروة »

كان هذا الجواب قاسياً ولكنه لم يستثر روى فأجابها بهدوء : « إن بعض الناس يحصلون على الثروة بسهولة ولكننى لست واحداً منهم؛ والأفضل يامونا أن نفترق مدة عام ليفكر كلانا فى الأمر بروية »

فقالت : « كما تشاء »

وكان جوابها بغير تردد، ولو أنها شعرت بأن حرارة قلبها تهبط إلى درجة الصفر . وقال : « إننى أعرف على أية حال ستكون مشاعرى عند انتهاء هذا العام، فانى سأظل راغباً فى الزواج منك، ولكن ربما استطعت أن أحصل على شيء من المال فتكون حياتنا أقرب إلى السعادة منها الآن »

ثم أطرق، ولو أنه استطاع قراءة أفكارها فى هذا الحين لوجد أنها تريد أن تقول : « لا حاجة إلى الافتراق يا روى فانى لا أريد أن أكون قاسية »

لكن الكلمات التالية جعلت التوفيق مستحيلا إذ قال : « إذا كنت لا تزالين تميلين إلىّ فربما كانت فتنة هانسون ميدواى غير قابلة للمقاومة »

فأخذت الفتاة قفازيها وقامت وهى تقول : « أريد مقابلة أبى الآن، فاذا سمحت فانى أريد أن أدفع لنفسى ثمن الشاى »

فقال وقد احمر وجهه : « لا أظنك تريدين أن تفعلى شيئاً كهذا . ألا تريدين مقابلتى مرة أخرى »

فأجابته : « نعم بعد عام من الغد » فتبين طول المسافة وقال : « ألا يكفى ثلاثة أشهر ؟ »

قالت : « كلا فأنت اقترحت جعل المدة عاماً وهذه فكرة صائبة . لا تنس هذا الموعد فسأنتظرك فى هذا المشرب على هذه المنضدة فى الساعة الرابعة من يوم ٢٣ ابريل من العام المقبل فاذا لم تأت فانى أعرف ما ذا تعنيه بتخلفك »

ثم أحنت رأسها أمامه بشكل كتمت فيه عواطفها وجرحت عواطفه وقالت : « وداعاً بالنسبة للحاضر »

ولقد يظن القارئ أن مدة عام لا تحدث أى تغير ...

— ٢ —

فى شهر ابريل التالى كان روى جالساً فى الفندق عند شاطئ البحر والأمواج المائجة تتحطم على الصخور تحت نوافذ هذا الفندق، وجاء الخادم يستأذنه فى احضار الشاى فأمره باحضاره وسأله هل وردت باسمه خطابات ؟ »

فأجاب بأن له خطاباً فى غرفته ثم ذهب ليأتى به وعاد ، فلما وقع نظر روى عليه عرته رعشة لأن عنوانه بخط مونا وكانت هذه أول مرة رأى فيها خطها منذ عام .

ولقد حدث فى هذا العام من الحوادث فوق ما كان ينتظره حين اقترح هذا الاقتراح بمشرب الشاى أمام البرلمان .

على أثر المقابلة الأخيرة نقل روى إلى فرع جديد صغير أنشىء للبنك فى بعض النواحى . وكان عدد زملائه فى هذا الفرع قليلاً . وفى أحد الأيام صادف أن وجد روى وحيداً فى ذلك المكان فدخل عليه رجلان مقنعان يحمل أحدهما مسدساً .

ولقد أراد واضعو الروايات السينمائية أن يجعلوا من يقع فى مثل هذه الحالة من التهديد يرفع يديه مستسلماً لأن أكثرنا يفعل ذلك فى مثل هذه الحالة .

ولكن ذلك كان مستحيلا بالنسبة لروى فانه لم ينظر شيئاً من الانزعاج بل نظر الى ماوراء الذى يهدده وقال : « قيد يديه ياضابط البوليس . أسرع باعتقاله »

فالتفت المعتدى إلى الوراء ، وفى أقل من لمح البصر ضربه روى على ظهر رأسه بقبضة النشفة التى على مكتبه فلاذ زميله بالفرار وتبعه الآخر ، فطارده روى وتمكن من القبض عليهما ودلا على سائر أفراد العصابة .

وكافأ المصرف روى على « ذكائه وحضور ذهنه » بجعله رئيساً آخر وبزيادة راتبه مائة جنيه. ولكن روى بدلا من أن يشكر رئيسه على ذلك ويذهب أظهر عدم اهتمامه . وكان موجوداً بجانب الرئيس صديق له من تجار الماس فاستأذن الرئيس وعرض على روى أن يخدم لديه براتب قدره ٧٠٠٠ جنيه فى العام . وقال إن المهمة التى يراد من أجلها تستدعى سفره الى أمريكا بالجواهر وأن حياته قد تتعرض للخطر فى بعض الاسفار . وقال رئيس المصرف لروى إنه لاينصح له بقبول هذه الخدمة . ولكن روى قبلها بغير تردد . وفى الاسبوع التالى كان فى الطريق الى أمريكا .

ولما انتهت مهمته فى الولايات المتحدة تلق برقية بالذهاب إلى جنوب أمريكا . وما كاد ينتهى إليها حتى أرسل إلى جزر المحيط الهادى . وها هو ذا الآن يعود إلى انكلترا وقد زيد أجره إلى ألف جنيه فى العام مع إنه لم يمض عليه غير عام واحد .

وجلس روى ناظراً إلى البحر وفى يده خطاب مونا . وكانت الأسفار الطويلة قد شحذت من عزيمته وقوت إرادته واكتسب صوته لهجة الآمر وفقد تلك اللهجة الضعيفة التى أفادها وهو كاتب .

وبعد أن فض الغلاف وجد نص الرسالة :

« عزيزى روى

لقد سررت عندما علمت بخبر عودتك، ولكن الوعد الذى اتفقنا عليه منذ عام يصح ألا ينظر إليه نظرة جدية ؛ فان أصررت فانى سأحافظ عليه وإن كنت أفضل العكس. وإنى أتمنى لك كل خير

المخلصة : مونا

تأوه روى تأوه الألم، وكان فى حياته الماضية قد اعتاد مقابلة الآلام متنظرة أو غير متنظرة فلم يجد مفاجأة أشد على نفسه من هذا الخطاب . وقد كان وفياً لمونا بالقول وبالفعل منذ افترقا، وكان يعتقد أنها أيضاً وفية له. وهاهى ذى لهجة خطابها تدل على السأم، فهى بلا شك استعاضت عنه برجل آخر . ولكن هل فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة ؟ إن العالم قد تقدم وصار فى الامكان أن ينسى المرء من يحبه وأن يحب سواه بأسرع مما يستطيع وضع حذاء ونزع حذاء .

وجلس إلى المائدة فكتب :

« عزيزتى مونا :

إنى آسف على انتهاء قصتنا على هذا الشكل ، ولكنى لا ألومك فلك مطلق الحرية .وأتمنى لك حسن الحظ

المخلص : روى

— ٣ —

لم يكتف بكتابة الخطاب وإرساله على هذا الشكل . ولكنه عزم على أن يبتعد عن المدينة فى يوم ٢٣ إبريل حتى لا تضعف إرادته فيذهب فى الموعد . ولما كان اليوم قريباً فقد حصل من رئيسه

على أجازة قدرها أسبوعان . وذهب إلى الريف محاولا نسيان المدينة ومن فيها

وفى يوم ٢٣ ابريل وصلت إليه برقية يدعوه فيها رئيسه إلى الحضور لأمر هام فسافر إلى لوندرا ووجد رئيسه فى انتظاره بالمحطة . ومشى معه الرئيس فى الطريق قائلاً إنه يريد مخاطبته فى شأن هام . ولم يزل يسير به حتى وصلا إلى نفس المشرب المعهود أمام البرلمان . وكانت الساعة الثالثة إذ ذاك، وهذه مصادفة من المصادفات التى تقع فى الحياة الحقيقية أكثر من وقوعها فى القصص .

جلس روى فى هذا الفندق وهو يقول إنه لا ضرر فى ذلك فان مونا لن تأتى . ولكنه مع تأكيده لنفسه بأنها لن تأتى فقد كان فى أعماق قلبه يتمنى مجيئها . وكان يتمنى لو يمكن التوفيق لأنه فقدها بسبب الغيرة . ولم يكن بينها وبينه منازعات . وكان يتساءل : أى الناس هو الذى حبته قلبها بعد روى ؟ هل هو هانسون ميدواى ؟

وعندما خطر اسمه بباله قطب حاجبيه وانعه الشعور بالغيرة مرة أخرى . ولم يعطه جليسه السير جون فرصة طويلة للتفكير فانه كان فى هذه الأثناء يشرح له المشروع الجديد وهو أن يحل محله فى إدارة العمل بلوندرا لأنه سيسافر إلى الخارج رعاية لصحة زوجته ، وقد تكون إقامته فى الخارج دائمة . ثم أخرج السير جون ساعته فجأة وقال إنه سيغيب الآن قليلا لاضطراره إلى مقابلة وزير المستعمرات .

ومشى تاركا روى وحده على نفس المنضدة .

وكان قد بقى شىء قليل على حلول الساعة الرابعة فدق الجرس ليدفع الحساب . وجاءت خادمة المشرب والتفت اليها روى فاذا هى مونا . . .

وهكذا تقابلا فى نفس الموعد ولكن عن غير قصد .

قال : « مونا ! ماذا حدث فى العالم حتى أصبحت خادمة مشرب ؟ »

فقالت : « أشكر لك المجىء فى موعدك . ولقد قدمت لك ولصديقك الشاى منذ ساعة ، وكنت أظن أنك ستنصرف دون أن تعرفنى »

وأراد أن يلقى عليها السؤال مرة أخرى لتجيبه عن سبب مجيئها إلى هنا ، فدخل « زبون » آخر واضطر روى إلى الصمت على أمل أن تعود الفتاة اليه ولكنه تبين أنها لاتريد أن تعود وأنها خادمة حقاً فى هذا المكان . وصمم على معرفة الحقيقة فذهب إلى أمين الخزانة ودفع النقود وسأل متى يغلق المشرب فقيل له فى الساعة السابعة .

وخرج فجلس فى مكان آخر يراقب منه الباب وهو يقول إن مونا ستكون لى الآن أولا تكون لى أبد الدهر .

وأخيراً أغلق الباب وخرج بعض الخادمات . ولكن مونا لم تخرج فقال فى نفسه وهو يبتسم : لعلها تأخرت توقعاً منها أن أكون فى انتظارها »

ثم خرجت فقابلها وقال : « لابد لى من التحدث معك يامونا فما معنى هذا ؟ »

فنظرت اليه طويلا وقالت : « ليس عندى ما أقوله . لقد كتبت لك بأنى أفضل عدم مجيئك

ولكن لا أعرف ماذا جملك تأتي »

وأصر على أن تروى له قصتها فقالت إن أباها أفلس وترك مجلس النواب لان هانسون كان نصاباً وجره إلى خسائر مالية نشأ عنها الافلاس ثم تركه .

وكان روى يصغى وهو متأثر ثم قال : هل أنت مخطوبة يامونا ؟ »

فقالت : « لا »

قال : « إذن فلنبدأ عهدنا من جديد »

فقالت : « كلا ؛ لقد طلبت اليك عدم المجيء حتى لاتستثير الذكريات المؤلمة . وانى لمسرورة من مركزى الحاضر وان كان الأجر فيه قليلا »

فلم يتمالك نفسه من الابتسام لأن مونا المتأنقة المرفهة ليست هى التى تعيش معيشة الخادمة مسرورة راضية وقال : « كل ما فات فقد مات . وستتزوج بأسرع ما تستطيعين فأين تحبين أن نسكن ؟ لقد أصبحت الآن فى حالة حسنة

قالت : « مستحيل يا روى فانى لما كنت غنية وكنت أنت لا تملك شيئاً بلغ من حماقتى أننى ...

ثم سكتت وأذرفت من عينيها الدموع

وبدأت السماء تمطر، ثم اشتد المطر على حين فجأة فاستدعى سيارة وطلب إليها أن تركب فقالت : « إلى أين ؟ أنت لا تعرف أين أقيم »

وركبت وأسرعت السيارة فقال رداً على سؤالها: «ليس هذا مهماً فقد أمرت السائق بأن يستمردون أن يقف حتى أحصل منك على وعد بالزواج »

عبد اللطيف النشار



النار المقدسة

للكاتب الإنجليزي ولتر سكوت

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

ولو أن بارونات أرنهيم كانوا يهتمون أيما عن جد بالعلوم الروحانية إلا أنهم كباقى النبلاء الألمان حربيون مولعون بالصيد . تلك الصفات كانت ممثلة فى البارون هرمن دارنهيم جد آن دوجيرستين لأمها ومن كان يفخر بأنه يملك أفخم الاصطبلات وأكرم جواد للسباق فى ألمانيا ، وإنى أترك وصفه وأكتفى بالقول بأنه أسود كالسبج (حجر كريم أسود) وليس به شعرة واحدة بيضاء لا فى جبهته ولا فى أرجله . ولهذا السبب ولكونه حاد الطبع أسماه صاحبه (أبوليون) هذا مما زاد الاشاعة الدائمة عن بيت أرنهيم تأكيداً لأن البارون أطلق اسم أحد الشياطين على جواده .

وفى ذات يوم من نوفبر ذهب البارون إلى الغابة ليصطاد ولم يرجع إلا عندما خيم الظلام ولم يجد شيئاً جديداً فى القصر أو زائراً غريباً . لأن البارونات ما كانوا يقابلون فى قصورهم غير من يتوسمون فيه العلم والمعرفة ليزيدوا معلوماتهم .

كان البارون جالساً وحده فى بهوه وبيده كتاب لا يستطيع هو أو غيره أن يقرأ حروفه ، وكانت يده الأخرى متكئة على مائدة من الرخام وعليها زجاجة من نبيذ توكيي ، وفى آخر هذه الغرفة يرى حاجب واقفاً وقفة احترام ، وقد ساد السكون ولم يسمع غير زفيف رياح الليل كأنها تئن بنغمة حزنة حينما تمر بعيون الزرود الصدئة والأعلام الممزقة التى يتكون منها آيات هذا القصر الذى بنى فى عهد الاقطاعيات .

وعلى حين غفلة سمع وقع أقدام سريعة على السلم وكأنه يرتعد ، ثم فتح الباب بعنف وظهر جنببار رئيس اصطبلات البارون والرعب باد على وجهه وهرول إلى منضدة سيده وهو يصيح :

— سيدى! سيدى! إن شيطاناً فى الاصطبل.

— مامعنى هذا الجنون؟ ثم وقف البارون واستاء من هذه المقاطعة .

— إنى أكون فى حل من عاقبة غضبك إن كنت أقول غير الحق ، وإن ابوليون . . .

ثم سكت لحظة

— تكلم أيها الأحمق فان الرعب قد أفقدك صوابك! هل أصاب جوادي مرض أو وقع له حادث ؟

وكل ما استطاع أن يتفوه به أن كرر (أبوليون)!

— وإذا كان (أبوليون) موجوداً فلا داعى لكل هذا الفزع

— إن الشيطان بجانب أبوليون

— يالك من معتوه. ما الذى ذهب بحجاك. إن رجالا مثلك ولدوا ليقوموا بخدمتنا يجب عليهم أن يتغلبوا على كل صعوبة. ثم قام واتجه إلى الاصطبلات وكانت فى الطرف الأخير من القصر وبها خمسون جواداً للسباق من كرام الخيل مربوطة على صفين وبجانب كل جواد أسلحة الهجوم والدفاع بحالة جيدة . دخل البارون وخلفه خادمان وهو دهش من هذه الاستغاثة الغريبة وسار بين صفى الخيل إلى

أن اقترب من جواده المفضل الذى كان فى طرف الاصطبل فلم يصهل الجواد ولم يحرك رأسه ولم يضرب برجليه كعادته حينما كان يعبر عن فرحه بمقدم سيده، بل اكتفى بالأنين كأنه يستغيث بسيده. رفع هرمن مشعله ، فوجد رجلا كبيرا متكئاً بيده على كتف الجواد

— من أنت ؟ وماذا تصنع هنا ؟

— أبحث عن ملجأ وضيافة ، أتوسل إليك بكتف جوادك وفرند سيفك ، جعلهما الله لك عوناً على الشدائد !

— إنك إذن من إخوان النار المقدسة ، ولا أستطيع أن أرفض طلبك احتراماً لمذهب السحرة القدسى . إنك تطلب حمايتى خوفاً ممن، ولأية مدة ؟

— خوفاً من الذين سيبحثون عنى هنا قبل صياح الديك ، لمدة سنة ويوم تبدأ من هذه الساعة.

إن قسمى وشرفى لا يسمحان لى بالرفض، وسأحميك ، وسيكون قصرى مأواك وستجلس إلى مائدتى وتشرب نبيذى ، كما أنك يجب عليك أن تحترم أوامر زرادشت إذ قال : « فليحم القوى الضعيف » كما قال أيضاً : « فليعلم الحكيم من هو أقل منه علماً » .

إننى القوى وستكون فى حماى، وأنت الحكيم ويجب عليك أن تعلمنى الأسرار الخفية

— أتريد أن تلهو على حساب خادمك ، وإذا كان دانيشمند يعرف شيئاً يفيد هرمن فان تعليماته تكون كتعليم الوالد لولده

— أخرج إذن من مخبئك؛ وإنى أقسم بالنار المقدسة التى تعيش بدون إسعاد أرضى وبالاخاء الذى يسود بيننا، وكتف جوادى، وفرند سيفى لأحمينك عاماً ويوماً بقدر ما تسمح به سلطتى .

خرج الغريب من الاصطبل ولم يدهش الذين شاهدوا زيه الغريب كثيراً مثل ما فزع منه جسبار حينما رآه فى الاصطبل دون أن يعلم من أين دخل . وحينما أدخله البارون إلى البهو وتلقاه بترحاب واحترام . وقد لاحظ فى ضوء المشاعل أنه رجل طويل القامة يلبس ثياباً أسيوية أى قفطاناً أسود كالذى يلبسه الأرمن وقلنسوة مربعة عليها عمامة سوداء من صوف اسطراخان، وكانت ملابسه جميعها سوداء ، وقد تدلت على صدره لحية بيضاء فزادت وضوحاً وسط هذا السواد ، وبوسطه حزام من حرير أسود علق به خنجراً وسيفاً قصيراً مقوساً فى غمد من الفضة ، وكان متحلياً بخاتم من الياقوت كبير الحجم تتلألأ منه أشعة لطيفة . ثم قدم له البارون الحلوى والرطبات فقال له :

— لا أستطيع أن أكسر لقمة أو أضع نقطة من الماء فوق شفتى إلا بعد حضور المنتقم أمام بابك.

ثم أمر البارون بإيقاد المصابيح وزيادة عدد المشاعل ثم قال لجميع رجاله : إذهبوا لتستريحوا . ولبث وحده مع الغريب .

وفى منتصف الليل تزعزعت أبواب القصر ، وسمع لهاصوت كصوت الأعاصير الهوج، وسمع صائح يقول : أسلموا إلى أسيرى دانيشمند بن على. ثم سمع بواب القصر صوت نافذة تفتح وعرف صوت سيده وهو يخاطب الصائح المنذر وكان الليل حالكا فلم يستطع أن يميز أحد المتكلمين ، وكان الحديث بينهما بلغة غير مفهومة .

وبعد خمس دقائق استأنف الصائح حديثه باللغة الألمانية قائلا :

— إذن أؤجل تنفيذ حتى سنة ويوماً بشرط أن أنفذ الواجب وألا ترفض بعد ذلك أو تعارض فى تنفيذه .

ومن هذا اليوم استقر الفارسى فى قصر أرنهيم

ولم يتعد بابه ، وقد ركز لهوه وعمله فى مكتبة القصر ومعمل البارون الذى يشتغل معه فيه عدة ساعات متتابعة .

لم يجد سكان القصر فى سيرة الساحر الفارسي نبأ يلام عليه ولكنهم لاحظوا أنه لم يقم بشيء من شعائره الدينية كما أنه لم يحضر أية حفلة دينية . وفضلا عن ذلك كان دانيشمند مواظباً على صلاته الفردية وقد صنع مصباحا من الفضة بشكل بديع ووضعه على عامود صغير من المرمر ونقش على قاعدته سطوراً أشبه بالهيروغليفى ، ولم يعلم أحد إلا البارون بأى مادة كان يغذي هذا المصباح لأن لهبه كان نقياً جداً يفوق أنواع اللهب المعروفة بعد الشمس .

وقد لاحظوا على الغريب أنه فى غاية الحشمة والشدة ، كثير الصوم والصمت لايحادث إلا البارون عند الضرورة ، كان كريماً لايعوزه المال فلذلك احترمه الخدم دون خوف .

أعقب الربيع الشتاء وأتى بعده الصيف فتفتحت أزهاره ثم أقبل الخريف بثماره فنضجت وتساقطت وكان بالمعمل حاجب يساعد البارون عند الحاجة إليه وقد سمع الفارسي يقول للبارون :

— يحسن يابنى أن تصغى إلى أقوالى لأن الدروس التى ألقيتها عليك تنتهى الآن ، ولا سلطة فوق الأرض تستطيع أن تؤخر طويلا ماقدر عليّ .

— وا أسفاه يا أستاذى ! أيجوز أن أحرم دروسك حينما أحتاج ليدك لتسمو فوق ذروة معبد الحكمة !

— لاتيأس يا ولدى فستقوم ابنتى بإتمام دراستك حتى تبلغ الغاية ، وستحضر هنا لهذا الغرض . ولكن تذكر جيداً أنك إذا أردت أن تخلد اسمك وجب عليك أن تحفظها عندك كساعدة لتعليمك . وإن كان جمالها ينسيك أنها ما خصصت إلا لتعليمك فانك ستقبر مع سيفك وفرسك وتكون آخر سلالة بيتك من الذكور ، وستحدث لك مصائب أخري لأن هذا الزواج لاتنتج منه نتيجة سعيدة.

— صه فانهم يراقبوننا .

ولما أتم دانيشمند إقامته فى القصر خرج منه راكباً جواداً كالسياح وودعه البارون والأسف ملء فؤاده، فطمأنه الحكيم وقال له بصوت منخفض سمع منه هذه الجملة :

— سنكون على مقربة منك وقت ظهور أشعة الشمس الأولى فاعطف عليها ولكن لا تتورط فى عطفك .

ثم سافر بعد هذه الكلمات ، ولم ير بعد هذا اليوم ، ولم يتحدث عنه أحد فى ضواحى القصر .

وخلافا لعادته جلس فى البهو الكبير ولم يدخل المكتبة ولا المعمل الذى حـــرم التمتع فيـه بمصاحبة أستاذه . وبعد ماغسل وجهه وأصلح من هندامه انتظر إلى أن ظهرت أشعة الشمس ودخل معمله وخلفه أحد الخدم فوقف على الباب لحظة وفكر فى صرف خادمه ، وتردد فى فتح الباب ثم صمم على الدخول كمن ينتظر أن يرى شيئاً غريباً . وحينما دخل وخادمه وراءه دهش من المفاجأة الغريبة التى واجهها بشيء من الذعر لأنها وإن كانت عجيبة ولكنها محبوبة تسر الناظرين .

لم ير البارون المصباح الفضى على قاعدته بل شاهد مكانه غادة فتاة مرتدية حلة فارسية قرمزية اللون حاسرة الرأس كستنية الشعر وقد عقدته بشريط أزرق وثبتته بأعلى جبينها بمشبك ذهبى زينته فص ثمين من عين [١] الشمس المتعدد الألوان وكان يعكس بين ألوانه لونا أحمر كالنار .

(١) حجر كريم يسمى بالفرنسية Opale

كانت هذه الفتاة متوسطة القامة ممشوقة القد باعتدال وجمال ورشاقة ، تلبس سراويل فضفاضة ربطت أطرافها فى كعبيها، صغيرة الرجلين، وترى تحت طيات ثوبها ذراعان ويدان آية فى الجمال والانسجام، وكانت سحنتها تدل على النشاط وقوة التعبير وحدة الذكاء ، ولها عينان سوداوان يعلوهما حاجبان انتظم قوساها وتزججت أطرافهما ، وفم صغير وشفتان قرمزيتان علاهما الابتسام الخفيف كأنهما توشكان أن تتلفظا بالقول .

ويظن لأول وهلة أن الكرسى الذى كانت واقفة فوقه لايستطيع أن يقل حملا جسيماً ولكنها كانت عليه فى غاية الطمأنينة والخفة كعصفور حط من الجو على فريع وردة . وحينما دخلت أشعة الشمس الأولى من النافذة المواجهة لهذا الكرسى زادت هذا التمثال الحى بهاء وجمالا، وكانت ساكنة كالمرمر، ولم تظهر أنها تحت حضور البارون إلا بسرعة تنفسها واحمرار خديها وابتسامها الساحر الهادىء .

لم يكن البارون يتوقع أن يصادف مثل هذا الجمال الفتان فانبهر عند مشاهدتها ولبث لحظة ساكن الحركة، وأراد أن يحسن مقابلة زائرته فتقدم إليها باسطاً ذراعيه ليساعدها على النزول ولكنها لم تقبل منه غير مساعدة يده وقفزت بكل خفة على الأرض كأنها من الكائنات الجوية ثم قالت :

— لقد جئت طوعا للأمر الذى تلقيته ويجب أن تثق أنك ستجد منى معلمة جادة، وآمل أن أرى فيك التلميذ المجتهد المتيقظ .

وبعد حضور هذه النادرة الفتانة حصل تغير عظيم فى قصر أرنهيم . قبلت إحدى السيدات وهى ابنة كونت من أقارب البارون أخنى عليها الدهر أن تشرف على خدام القصر ، ولتبعد الشبهة التى يلصقها به الناس من وجود هذه الفتاة التى أطلق عليها الناس اسم الحسناء الفارسية . فكانت الكونتيس ولسيتين لا تفارق البارون حينما يتلقى دروسه من هذه الفتاة التى حلت محل الساحر الشيخ، فكان يدرس معها فى المكتبة أو فى المعمل. وكانت أعمالها غريبة جداً ، كانت ترعب بها بعض الأحيان البارون، وكانت المعلمة لاتقبل مطلقاً أن تعمل شيئاً محرما بل كان علمها لايتعدى الحلال المشروع.

كان أسقف بمبرج يعد حكيما عظيماً فى مثل هذه المواد فزار قصر أرنهيم ذات يوم ليقف على مبلغ ماوصل اليه علم الفتاة هرميون التى ذاع صيتها فى جميع البلاد التى يرويها الرين . وحينما دارت بينهما المناقشة تحقق من تبحرها فى علوم الدين وقال إنها دكتور فى التوحيد تلبس ثياب راقصة شرقية، وإنه كان يعتقد أن ماقيل فى شأن هذه الفتاة مبالغ فيه فتحقق أنه لايبلغ نصف حقيقة فضلها .

وهذه الشهادة التى لا تجرح قد وضعت حداً للاشاعات السيئة التى دارت حول الحسناء الأجنبية حتى حازت أخيراً عطف الجميع .

وقد حصل تطور جديد فى مقابلات المعلمة وتلميذها فكانت دائماً بتحفظ واحتياط ولم تقتصر على المكتبة والمعمل . فكانا ينشدان اللهو والتسلية فى الحدائق والصيد فى البر والبحر ويحييان الليل فى الرقص .

كانت هذه الفتاة حلوة الشمائل فتانة شائقة الحديث حادة الذكاء فى منتهى اللطف والوداعة والكرم ، وقد وزعت على صديقاتها كثيراً من الحلى

كانت بارعة فى الرقص لخفتها ومهارتها فلا يعتريها أى تعب مهما طال الرقص حتى أن أمهر الراقصين لايستطيع أن يجاريها .

وحينما كانت تجهد نفسها فى الرقص أو الرياضة ويتورد خداها كانوا يزعمون أن فص عين الشمس

الذي يزين مشبك شعرها ولايفارقها يتطاير منه شرر وألسنة من نار . وقد لاحظ عليها خادمها أنها حينما كانت تغضب يحمر هذا الفص العجيب كأنه يقاسمها تأثرها ، وكانت تتجنب أن تبله بالماء .

ولم تمنع هذه الأقاويل البارون من اقترانه بهذه الفتاة الجذابة وقضاء شهر الزفاف على أفخم شكل . وعاش الزوجان في هناءة وسعادة . وبعد عام ولدت بنتاً أسمتها سيبيل كاسم والدة البارون ، ثم حددوا ميعاد حفلة التعميد حين تماثل الوالدة الشفاء . ثم دعى الناس من كل فج وازدحم القصر بالأفواج .

وكانت بين المدعوات سيدة عجوز تدعى البارونة ستينفيلد اشتهرت في كل مكان بفضول غريب وصلف وقحة ؛ ولم تمض عليها بضعة أيام في القصر حتى جمعت لها خادمتها كل الإشاعات التي ذاعت في القصر عن البارونة هرميون .

وفي صباح اليوم المحدد للتعميد والناس مجتمعون في البهو ينتظرون ربة القصر ليذهبوا إلى الكنيسة شجر خلاف بين البارونة التي سبق الكلام عليها وبين الكونتس ولستيتن لأسبقية المقام فحكموا البارون ليفصل بينهما فحكم لصالح الكونتيس . فغضبت البارونة وأمرت باحضار جوادها في الحال ثم ركبت هي وأتباعها وقالت :

— إنني أترك قصراً لا تقبل مسيحية صالحة أن تدخله . أغادر قصراً صاحبه ساحر وصاحبته شيطانة تخشى أن تبل جبينها بالماء المبارك .

ثم تقدم البارون بضع خطوات وقال : أيها الفرسان والنبلاء ! هل فيكم من يشهر سيفه ليزكي كذب البارونة الفاضح الذي تقذفه ضد زوجي وقرينتي .

رفض الجميع أن يدافع أحد منهم عن افتراء البارونة ستينفيلد وأعلنوا أنه كذب وادعاء .

وبينما كان البارون يتكلم كانت الكونتس ولستيتن تصدر منها إشارات قلق وحيرة ، ولما انفضت الجماعة من حوله اقتربت منه وقالت له : كن بصيراً ولا تعمل شيئاً فيه مجازفة ، واعلم أن فص عين الشمس فيه سر عظيم غريب .

— هل أنت أيضاً حمقاء ؟

وفي هذه الآونة دخلت البارونة ووجهها شاحب من النفاس فسلمت على المدعوين ثم أقبل البارون ورجا منها أن تدعو الحضور للذهاب إلى الكنيسة وكان الصبي محمولاً على عفة فاخرة تحملها أربع فتيات .

ولما دخل البارون الكنيسة غمس أصبعه في ماء المعمودية ودهن جبين البارونة وأراد أن يفند افتراء البارونة ستينفيلد بطريقة غير ظاهرة فأسقط نقطة من أصبعه على الفص فانفجر منه لهب متوهج كالشهب الساقطة وفقد لألاءه وأصبح كالحصاة ؛ وسقطت في الحال البارونة على رخام الكنيسة وهي تئن أنيناً شديداً من الألم . ذعر المدعوون من هذا المشهد وحملوا البارونة إلى غرفتها . وفي هذه الفترة القصيرة حصل تغير عظيم في ملامحها وضعف نبضها ثم رجت منهم أن يتركوها مع زوجها ، ثم جلس بجانبها ساعة وخرج وأقفل الباب بالقفل ورجع إلى الكنيسة وركع بكل خشوع أمام المحراب ساعة

وحينما أقبل الأطباء طلبت الكونتيس ولستيتن من البارون مفتاح الغرفة فناولها إياه قائلاً : لا فائدة من أي إسعاف ؛ وطلب منها أن يغادر القصر المتخلفون

ولما فتحوا الغرفة لم يجدوا في السرير غير حفنة من رماد كالذي يتخلف من إحراق ورقة . وعندئذ أعلنوا الجنازة وأقاموا الشعائر الدينية .

وبعد ثلاث سنين ، وفي نفس هذا اليوم توفي البارون ودفن في ضريح الكنيسة بالقصر ودفن معه سيفه وخوذته وترسه وكان آخر الذكور من أسرته .

محمد كامل حجاج

الثلاثة الزاهدون (*)

للفيلسوف الروسي "ليوتولستوي"
بقلم السيد فخري شهاب السعيدي

كان الجو لطيفاً رائقاً ، والريح رخاء طيبة ؛ وكانت السفينة تجرى بركبها فى اطمئنان وسلام .. وكان فى جملة الحجاج إلى دير « شلوفتسك » أسقف قدم من « أركانجل » لزيارة ذلك الدير

وكان الركاب قد انتشروا على ظهر السفينة فبعضهم قد اضطجع ، وبعضهم جلس للأكل ، وآخرون منهم قد اجتمعوا يزجون فراغهم بالحديث. أما الأسقف فكان قد نزل إلى ظهر السفينة وظل يخطر بين جماعات الركاب ، إلى أن استرعت نظره منهم جماعة ملتفة حول سياد[1] من سيادى السمك وهو يحدثهم ويشير إلى مكان فى البحر ... ووقف الأسقف ومد بصره إلى حيث كان يشير ذلك الرجل فما وجد شيئاً غير مياه البحر تضطرب تحت أشعة الشمس ، ودنا الأسقف من المحدث عله يسمع شيئاً ولكن ما إن رآه هذا حتى رفع قبعته احتراماً وانقطع عن الكلام ، فرفع الآخرون قبعاتهم أيضاً وانحنوا له ، فقال الأسقف :

— لا تزعجوا أنفسكم أيها الأصدقاء فما جئت لأكون سبب ذلك لكم ؛ إنما جئت كي أستمع ما كان يقوله هذا الرجل الطيب

فأجابه أشجع الواقفين وكان تاجراً :

— إنه كان يقص علينا نبأ « الزاهدين » !

— وأى الزاهدين عنيت ؟ !

قال ذلك وذهب إلى جانب السفينة واتخذ مجلسه على صندوق كان هناك

ثم قال :

— خبرونى عنهم ؛ أحب أن أعرف خبرهم وإلى مَ كنتم تشيرون ؟ !

فأجابه الرجل :

— أترى تلك الجزيرة الصغيرة هناك ؟

— وأشار بيده ذات اليمين — إنها الجزيرة التى يعيش فيها أولئك الزاهدون الذين خصصوا أعمارهم لانقاذ أنفسهم !

— ولكن أين الجزيرة ؟ ! إني لا أرى شيئاً !

— هناك إذا تفضلت فانبعث اتجاه يدى ... أترى تلك السحابة الصغيرة ؟ انظر ما تحتها إلى اليسار قليلا . تلك البقعة الدكناء هى الجزيرة

ونظر الأسقف فى جد إلى حيث كان الرجل يشير ، ولكن عينيه الضعيفتين ما كانتا تريان غير الماء يعكس أشعة الشمس

— لا أستطيع أن أراها ، ولكن من أولئك الزهاد الذين تتحدثون عنهم ؟

فأجابه سياد السمك :

— إنهم رجال مقدسون . اتصلت بي أخبارهم

(*) هذه القصة وقصص أخرى جمعها مترجمها إلى الانكليزية على أنها بعض ما يرويه سكان مقاطعة « الفولجا » فى روسيا من قصص شعبية ، تبين نفسياتهم الخالصة من التكلف والبغض ... وكان « تولستوى » قد ألف أقوال أولئك السكان فأخرج هذه الأسطورة منها دون أن يزيد عليها شيئا أو يحذف منها شيئا ، أو يضيف عليها تعليقا من عنده (المترجم)

(١) لصياد السمك اسم عربى وهو «المركى» فلو استعمله الكتاب واصطلحوا فيما بينهم عليه لشاع استعماله بين القراء

منذ أمد بعيد . غير أني لم أحظ بعلاقتهم إلا إلى ما قبل عامين

ثم قص الصياد كيف كان أمره معهم حين ضل في إحدى الليالي ، فقذفه الموج إلى جزيرتهم دون أن يدري . فلما أصبح الصباح وارتاد نواحي الجزيرة أبصر كوخاً من الطين ؛ ورأى فيه شيخاً طاعناً في السن قد وقف بالقرب منه ، ثم خرج اثنان آخران من الكوخ وبعد أن أطعموه وجففوا أمتعته من الماء ساعدوه على إصلاح قاربه المحطم

وهنا سأل الأسقف :

— وكانوا يشبهون ما ذا ؟

— كان أحدهم صغير الجرم ، منحني الظهر ، يرتدي ما يرتديه الكهان ، وكان طاعناً في السن إلى حد كبير ، إذ ما أظنه إلا قد جاوز المائة من عمره حتى أن شعر لحيته كان قد خالطته الخضرة الفاتحة من شدة الكبر ! وكان إلى ذلك باسماً وضاء الوجه ، كأن وجهه وجه ملك من ملائكة السماء. أما الثاني فكان أطول من صاحبه قامة ، وكان طاعناً في السن أيضاً ، وعليه رداء خلق مما يلبس الفلاحون ، ولحيته كبيرة قد ضربت إلى الصفرة من شدة البياض ! وقبل أن أمد لهذا الشيخ الفاني يد المساعدة انقلب إلى قاربي فحمله كأن لم يكن قارباً ضخماً بل دلواً صغيراً مما يحمل به الماء ! وكان هذا الآخر حنوناً شفيقاً . أما الثالث فكان طويلا أيضاً ذا لحية بيضاء كالثلج ، قد امتدت وتشبثت حتى وصلت إلى ركبتيه ! وكان متجهم الوجه عابساً ، بحاجبين غليظين مشرفين على وجهه . وقد لف حول بدنه من الوسط حصيراً

فسأله الأسقف قائلاً :

— وهل تحدثوا إليك بشيء ؟

كانوا في أغلب الوقت لا ينبسون ببنت شفة ، وإن نطقوا — وقليلاً ما يفعلون — اقتضبوا الكلام فيما بينهم... إن أحدهم ليرمق الآخرين بنظرة واحدة فما أسرع ما يدرك هذان الآخران قصد صاحبهما !

وقد سألت أطولهم : هل كانوا قد استوطنوا الجزيرة من أمد بعيد ؟ فعبس وغمغم شيئاً كالمغضب ولكن أكبرهم أخذ يده بين يديه وابتسم فسكن ثائر الطويل وأجابني الأخير بهذه الكلمات :

— « إن الرحمة والغفران لمن فوقنا ! »

وكانت السفينة اقتربت من الجزيرة حينئذ قليلاً ، فقال التاجر الذي بدأ الأسقفَ الكلامَ — أول الأمر — :

— أنظروا يا صاحب السيادة — إن الجزيرة لتبدو الآن واضحة ، قال ذلك وأشار بيده نحوها .

ونظر الأسقف فأبصر بقعة دكناء حقاً .

— كانت الجزيرة — وبعد أن أطال إليها النظر غادر مكانه وذهب إلى من بيده « سكان السفينة » فقال له :

— ما تلك الجزيرة ؟

— ليس لتلك الجزيرة اسم ، وفي عرض البحر مثلها كثير .

— أحقاً أن فيها زاهدين قد خلصوا إلى إنقاذ أنفسهم ؟

— إنه ليقال كذلك — يا صاحب السيادة — ولكني لا أدري حظ هذا القول من الصحة ؛ وكثيراً ما زعم صيادو السمك أنهم شاهدوهم ، ولا ريب في أن ما يقولون محض تخرص وتلفيق !

— أريد أن أنزل إلى تلك الجزيرة وأرى أولئك الرجال ، فكيف السبيل إلى ذلك ؟

— إن السفينة لا تستطيع أن ترسو بجانب الجزيرة ؛ غير أنكم تستطيعون الذهاب إليها فى قارب، وخير من هذا أن تكلموا الربان فى الموضوع

وأرسل فى طلب الربّان فجاء. فقال له الأسقف:

— أريد أن أرى أولئك الزهاد ، أفلا يمكننى الخروج إلى أرضهم ؟

وحاول الربان أن يقنعه بالعدول عن فكرته قائلا:

— أجل، إن ذلك فى الإمكان، ولكنه يقتضينا وقتاً جد طويل ! ولو تجاسرت لقلت لسيادتكم إن أولئك الشيوخ لا يستحقون كل هذا العطف منكم عليهم. إنهم مجانين تخرفون، لا يعون مما يقال لهم شيئاً ولا يفهمون ؛ ثم إنهم لا يزيدون كلمة على الأسماك التى فى البحر — إن كان للأسماك حديث! —

غير أن الأسقف بقى مصراً على رأيه ، مقرراً أن يرام ، وتعهد أن يعوضهم عن كل ما يخسرون .. فلم يكن مما أراد بد ، وصدرت الأوامر إلى الملاحين بتوجيه السفينة إلى ناحية الجزيرة ، واتخذت لذلك التدابير ... وجئ بالكرسى فوضع فى صدر السفينة ليكون مجلس الأسقف عليه يرقب الجزيرة . وكان الركاب بجمعهم قد تجمهروا هناك فكان ذوو البصر الحاد منهم يرونها وصخورها ، ثم الكوخ الذى فيها ، حتى استطاع أحد الشاهدين أخيراً أن يبصر الرجال الثلاثة أنفسهم .

وإذ ذاك جاء الربان بمنظار وبعد أن مدّ فيه بصره سلّمه إلى الأسقف قائلاً :

أولئك هم حقاً ! قد وقفوا على الساحل .. هناك إلى يمين تلك الصخرة الكبيرة قليلاً . وسلم المنظار إلى الأسقف ، وبعد أن مد فيه هذا بصره رأى الرجال الثلاثة — الطويل ، فالأوسط ، فالقصير المنحنى الظهر ، وقد وقفوا على الساحل متماسكين بأيديهم .

وهنا التفت الربان إلى الأسقف قائلاً :

— إن السفينة لا يمكنها أن تتقدم إلى أكثر من هذا يا صاحب السيادة فتفضلوا فاركبوا زورقاً يوصلكم إليها إن شئتم ، بينا نرسو هنا فى انتظاركم

وألقيت المرساة ، وأنزل الشراع ، فسمت من ذلك — السفينة حركة اهتزت لها ، ثم سكن اضطرابها فأنزل إلى البحر قارب ركبه بعض الملاحين وهبط الأسقف إليه معهم واتخذ مكانه فيه . ثم جدف الرجال فجرى بهم الزورق سريعاً نحو الجزيرة ؛ ولما وصلوا إلى مرمى بين الصخور رأوا الشيوخ الثلاثة : طويلهم بحصيره التى التف بها ، ثم الذى يليه فى ثوب خلق من أثواب الفلاحين ، ثم أقصرهم ، وأصغرهم حجماً : محنيّ الظهر كبراً ، وقد لبس ثوباً مما يرتديه النساك وكان بعضهم ممسكا بأيدى بعض .

وتقدم الملاحون من الشاطىء واقتربوا منه ، فربطوا القارب به بينا صعد الأسقف إلى البر . وانحنى له الشيوخ الثلاثة ، فقام بتمثل تحيتهم وقال يخاطبهم :

— لقد ترامى إلى أنكم رجال أتقياء ، تعيشون هنا لتخليص أنفسكم وإخوانكم الناس بالتضرع إلى سيدنا المسيح . . وأنا خادم غير ذى بال من خدمه دعتنى العناية الإلهية إلى إرشاد عباده ، وقد جئت لأراكم وأعلمكم ما أستطيع أيضاً . . فتبادل الرجال الثلاثة النظر بينهم وابتسموا ولكنهم لزموا جانب الصمت . ثم قال الأسقف :

— خبرونى ما أنتم فاعلون لإنقاذ أنفسكم ، وكيف تخدمون الإله على هذه الجزيرة ؟؟ فنظر أوسطهم إلى الكبير وتنفس الصعداء . فابتسم الأخير وقال يخاطب الأسقف :

— لاندرى كيف نخدم « الرب » إنما نحن نخدم أنفسنا ونتعهدها

— وكيف تصلون لله ؟

— إنا نصلى هكذا :

« أنتم ثلاثة

« ونحن ثلاثة .

« فارحمونا ! »

ولما قال الشيخ ذلك رفع الثلاثة أبصارهم إلى السماء وكرروا الجملة فتبسم الأسقف .

— إنكم على ما أرى قد سمعتم عن « الثالوث القدس » ولكنكم لاتؤدون صلواتكم على الوجه الصحيح ؛ وأراكم أيها الأحبة تسعون إلى إرضاء باريكم ولكنكم تجهلون الوسيلة إليه . فتعالوا أعلمكم طريقة الله التى أوصى عباده باتباعها فيما أنزل من كتب وأسفار مقدسة . وبدأ الأسقف يشرح للزهاد كيف جاء المسيح هادياً للناس ، ثم حدثهم شيئاً عن « الأب والابن والروح القدس » فقال :

— وقد نزل « السيد الابن » إلى الأرض لينقذ الانسان ، وعلمنا أن نصلى هكذا . أصغوا ثم أعيدوا بعدى ما أقول :

— يا أبانا . . .

فقال أولهم « يا أبانا » وقال الثانى مثل قول الأول ثم أعاد الثالث قوليهما .

— . . الذى فى السماء . .

فأعاد أولهم الجملة الثانية صحيحة ولكن الثانى تلعثم بها ، أما الثالث فقد أخطأ ! إن الشعر كان قد نما حول فمه بحيث ما كان يستطيع أن يقول شيئاً بوضوح . وصاحبه الذى قبله : فقد كانت السنين الطويلة أسقطت كل أسنانه بحيث لم يكن فى مقدوره أن يمضغ طعاماً أو أن يقول شيئاً إلا غمغمة لاتبين !!

وأعاد الأسقف الكلمات ثانية فكررها بعده الزهاد . . . ثم إنه جلس على صخرة كانت هنالك حيال الثلاثة الذين كانوا يرقبون فمه ، مايصدر من قول إلا أعادوه .. وعمل الأسقف طيلة ذلك النهار ، يقول الكلمة . . . المرة والمرتين . . . والعشرين والثلاثين ، بل ربما قالها للمرة المائة أو تزيد ، فيعيدها الشيوخ الثلاثة بعده فاذا أخطأوا أعاد عليهم وأمرهم باعادة الكلمة من جديد .

ولم يبادرهم الأسقف حتى علمهم كل صلوات الله بحيث أصبحوا قادرين على إعادتها بأنفسهم — لا كما بدأوا يعيدونها بعد سماعها من فمه — وكان أول من تعلمها وتمكن من إعادتها بنفسه : أوسطهم ، فكان الأسقف يأمره باعادة تلاوتها مراراً حتى تعلمها أخيراً منه الاثنان الآخران ... وكان الظلام قد جثم على المكان وطلع القمر يريق أشعته على مياه البحر حين أوشك الأسقف أن يغادر الزاهدين إلى السفينة ؛ فسجد له الشيوخ شاكرين ، فأنهضهم وقبلهم واحداً بعد واحد ، وحثهم على اتباع تعاليمه فى أداء الصلوات ؛ ثم استقل القارب إلى السفينة .

وكان وهو فى القارب متجهاً إلى السفينة تطرق آذانه أصوات الثلاثة مرتفعة فى هدوء بالتراتيل التى علمهم ، ثم انقطعت أصواتهم عنه حين بلغ

السفينة ، وأما منظرهم فى ضوء القمر فكان بيناً واضحاً يستطيع أن يستجليه بوضوح ويسر . ذاك أقصرهم قد وقف فى الوسط والاثنان الآخران قد وقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره .

وما أن وصل الأسقف السفينة حتى رفعت شراعها وأقلعت ، فهبت الريح رخية ، واستؤنف السير .

... جلس الأسقف فى مؤخرة السفينة بقرب « سكانها » يراقب الجزيرة التى أقلعوا منها ... كان يرى — أول الأمر — الزهاد الثلاثة ثم اختفى منظرهم عنه ، فلم يبق غير الجزيرة ولكن هذه اختفت أيضاً فلم يبق أمامه غير البحر تضطرب أمواجه تحت أشعة القمر .

وأوى الحجاج إلى فرشهم فخلا ظهر السفينة إلا من الهدوء التام ؛ أما الأسقف فلم تكن فى نفسه إلى النوم حاجة ، ولكنه ظل حيث كان يحدّق فى البحر ، فى المكان الذى اختفت فيه عن ناظريه الجزيرة ، مفكراً فى أولئك الشيوخ الثلاثة . . لقد كانوا ممتنين مما علمهم ؛ فشكر الله على أن أرسله ليهدى أمثال هؤلاء التقاة البررة !

ظل الأسقف جالساً فى مكانه كذلك يفكر فى هذا ومثله يحدق فى تلك الناحية التى غاب منظر الجزيرة فيها وضوء القمر يتلألأ أمام عينه يداعب أمواج البحر هذه مرة وتلك مرة، وإنه لكذلك إذ بصر فجأة بشىء أبيض مشرف يظهر على موقع قراء البدر من البحر ... أتراه طيراً من طيور الماء ؟ أم هو شراع إحدى المراكب الصغيرة ؟ وأثبت الأسقف فيه بصره ما يحوله عنه ... لا بد أن يكون شراع إحدى السفن الصغيرة تجرى وراءنا ولكنى أراها تتبعنا سريعاً ، لقد كانت منذ لحظة بعيدة ، بعيدة جداً فما أسرع ما أدركتنا ؟ لا ، ليست هذه مركباً إذ ليس لها شراع — ولكنها مع ذلك جادة فى اقتفاء أثرنا ! — ولا هى من الطير ولا الأسماك ؟ ثم إنها أكبر من رجل ! وأنى لرجل أن ينزلق على الماء فى وسط البحر ؟

ونهض الأسقف نخبر «مدير الدفة فى السفينة»

— أنظر إلى هناك . ما ذاك يا صاحبى ؟ أى شىء هو ؟

... إنه ليرى الزهاد الثلاثة يركضون على الماء وضاحة وجوههم ، مشرقة طلعاتهم وقاربوا السفينة حتى لكأنها قد وقفت عن السير !

ونظر الربان فترك إدارة السفينة مذعوراً :

— يا إلهى ... أولئك هم ثلاثتهم يركضون خلفنا كما لو كان وجه الماء أرضاً صلدة ! وسمعه الركاب فهرعوا وتجمهروا حوله ... ما ذا يرون ؟ إن الزهاد ثلاثتهم قد أقبلوا وأيدى بعضهم تمسك بعضاً ... فأشاروا إلى السفينة أن تقف ، وقبل أن تتمكن السفينة من التوقف عن السير وصلوا إليها ورفعوا رؤوسهم قائلين بصوت واحد :

— لقد أنسينا تعليمكم يا عبد الله . إنا منذ أن تعلمناه بدأنا بتكراره ، ولكن سقطت منا كلمة ... ثم إنا نسيناه كله الآن فعلمنا تارة أخرى !

فاتجه الأسقف إليهم وانحنى يخاطبهم :

— إن الله ليتقبل صلواتكم التى كنتم تتوجهون بها إليه ! ليس لى أن أعلمكم شيئاً ، بل صلوا من أجلنا نحن المذنبين ! »

وانحنى لهم ، فرجعوا من حيث أتوا ...

واختفوا عن النظر ، ولم يبق من آثارهم غير شعاع كان آتياً من حيث اختفوا حتى أشرق ضوء النهار !

فخرى شهاب السعيدى



كوساره يروى القصة ... وكوساره رجل طويل القامة ، جميل الوجه ، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ينبعث من ناظريه بريق يخلب اللب ، ويجرى فى عروقه دم هندى ، ولقد جاء مع والده إلى إفريقيا وبصحبتهما واحد ومائة من الهنود لينافس بهم عملا يقوم به واحد ومائة من الافريق

ورحل كوساره إلى انجلترا ، وأقام فيها ردحا من الزمن ثم رجع إلى افريقيا وأحاط به يوما جماعة من الهنود وتحدثوا إليه فى مختلف المسائل ثم نهض ملجان وسأله أن يطالعهم ببعض المغامرات ، وألح فى الطلب وألحف ، وأهاب به إخوانه أن يسكت ، وأوقفوا الجلبة حتى ينصتوا فى هدوء لقصة كوساره

سأتلو على مسامعكم قصة لا يجد فيها ملجان المثل الأعلى للقصة التى تصبو نفسه إليها ولكنها شائقة ممتعة ، وسأذهب بكم إلى منطقة من الأرض جرداء موحشة ليس فيها إنس ولا جان ، فتبصرون عند الأفق مزارع خضراء ، تتخللها حدائق غناء ، وتسيرون وعلى يمينكم فلاة تنتهى بكم إلى غدير صاخب ، وعلى يساركم جبال زرقاء خلو من الثلوج ، فالوقت صيف ، والشمس شديدة وهاجة تحرق الجلد وتذيب الثلج وقد آذنت بالغروب ، وبدأ الليل يرخى سدوله . فتقفون صامتين خاشعين بعد ما امحت آثار الحياة وضجيج الحركة ، ولا يبقى أمامكم إلا جلال الطبيعة وروعتها ، فلا يسعكم إلا التسبيح لله على ما خلق وأبدع ثم تطيف بكم غلالة سحرية فتستحيلون إلى كائنات صماء كقطع الأحجار التى تكتنفكم ، وتغيب الشمس الافريقية وراء الأفق فتغيبون عن الوجود ، وتكادون تفنون فيما حولكم من نجاد ووهاد ، وإذا البحر من بعيد يكشف عن صفحة من لجين ، وإذا الجبال تتراءى منحدراتها بما يكسوها من الورد القانى ، وإذا السماء فوقنا تتيه بزرقتها الصافية الأديم ، وتوغل فى الارتفاع طبقات بعضها فوق بعض ، وتحسون بالأرض الدافئة من تحتكم تخمد حرارتها شيئاً فشيئا ، وتومض الآفاق بقبس من الوهج الأحمر وهى تتلقى آخر أشعة من ضوء الشمس المنحسر ، ثم تنبو عنكم النشية فتستيقظون وتعودون إلى الحياة ، وتعدون وتمرحون وتهبطون وتعلون ؛ وإذا بالليل يهيمن على الطبيعة ويمد ظلاله فوق أرجائها ، فترحلون إلى كوكب جديد . فها هى ذى صفحة السماء تتلألأ فى جنباتها شموع النجوم ، وها هى سفوح الجبال يلمع وراءها بريق أبيض يبدد حلكة السواد وظلمات الليل البهيم ، ويزداد الضوء لمانا وظهورا حتى يتربع القمر فى كبد السماء وتهب نسمات الليل فتنعش أرواحكم بما تحمل من عبير الورد وأريج الأزهار .. تلك الطبيعة برمتها ، نجومها وقمرها وبحارها وجبالها إنما هى ملك أيمانكم .

وها كم قصتى ، هى قصة رجل وامرأة . . . وامرأة أخرى . وسأنتقل بكم إلى مكانهما فى سفح الجبل حيث صعدا . . أما الرجل فقوى البنية ممتلىء الجسم مليح الوجه ، هولاندى المنبت . . والمرأة فى مقتبل العمر وريعان الصبا وفرط الحسن والجمال.

وقف كلاهما على سفح الجبل ، وأشعل الرجل ناراً فى كهف مخضوضل الجوانب ، وكانت المرأة

جافة الحلق ، فحمل الرجل فى كفيه ماء من ينبوع وتقدم إليها فروت ظمأها ثم وضعت رأسها فوق يديه كأنها تحاول إخفاء نفسها عنه ، وكان صدرها مفعماً بالشجون والخواطر المحتبسة ، فأطلقت لها العنان وطفقت تبكى والدموع تنهمر من عينيها فوق يديه فهدأ روعها وطيب خاطرها وسألها :

— ماذا يبكيك ياحبيبتى . . أتخافين ؟

— كلا ، كلا . لست خائفة

وظهرت فى خلال دموعها ابتسامة ، وداعبت شعرها ، ونظرت إليه بدلال ورشاقة ، ثم عانقته وعادت فنفرت منه وابتعدت عنه ، وقالت :

— هذه مخاطرة مروعة

— ما الحب إلا مخاطرات

— ولكنى كذبت فى قولى فى الفندق ، ومنذ شهرين فقط لم أكن أعرفك وأحبك ، ولا أدرى كيف جرى ذلك ، ولم جئت إلى هنا ؟ وماذا يظن والداى الآن ؟ هل يظنان أنى أعيش على سفح جبل ؟ ومع من ؟ مع رجل متزوج ويستحيل أن يطلق زوجته . . ولماذا لم أعرفك قبل زواجك ؟ !

— أنظرى ياعزيزتى ! لقد سخنت القهوة ، فهيا نطهى طعام العشاء .

وجلسا يشربان القهوة ، وكانت لذيذة . وخرجت الحشرات من ثقوبها تنصت ، وتمايلت الأشجار ، واستوت النجوم الوضاءة فى السماء وهبت نسمات فيحاء وساورتها الهموم ، وقالت بصوت غير مسموع لنفسها :

— هى أن أختى جاءت إلى هنا . . هى أن أحد الناس رآنى . . هى أن زوجته تفقدته فلم تجده وحضرت تبحث عنه . . هى . . هى

وداعب شعرها فسرت بيده ، وتملكها السرور واتكأت عليه وقالت :

— دعهم يذهبون إلى حيث يشاءون . . فما شأنهم بنا . . نحن فى إفريقيا المحبوبة الرائعة . . دعهم يذهبون فى سبيل هذه الليلة الساحرة ، وفى سبيل الرجل الوحيد الذى أحبه . . أحبه .

وكانت ولهانة مفتونة به إلى حد الجنون ، تذيبها لمسة ، وتروعها نظرة فدنياها أحلام ، وجسدها لهيب .

وتعذر عليها أن تحدثه فى أمر ، إذ كانت زفراتها تتصاعد تباعاً بقوة من صدرها فأدناها منه وداعب شعرها وهمس : — أنت لاتحبيننى !

— كلا ! إنى أحبك

ثم قبلها فى عينيها وفمها وعانقها ، فغشيتها غبطة عميقة من الهيام ، فصعدت إلى وجهه وطبعت عليه قبلة ضخمة وعادها مايشبه الأحلام ، ثم تنبهت فأفاقت ورجعت إلى صوابها ، ومرت بخاطرها صورة من ذكريات ماضية فوجمت وخجلت ووجلت ، وامتد خيالها إلى أبيها ، فرأته يدخن غليونه ، وإلى أمها فوجدتها تحيك لها معطفاً ، فنفرت وتباعدت عنه وأدارت وجهها إلى ناحية أخرى ، فدهش وسار نحوها يستعطفها ، ثم ذهب إلى الكهف وأخذ يحرك النار المشتعلة ، أما هى فأنشأت ترقب الأفق والسماء ، وإذا بكوكبة جديدة من النجوم تبزغ فى الجو وتسيطر على سائر الاجرام السماوية فتزيدها رواء وبهاء ، وأنصتت فسمعت خشخشة ورأت شيئاً يتحرك . . شيئاً مظلماً غريباً فذعرت وشهقت ونهضت ، فأبصرت معبودها واقفاً ممسكاً بمعصمه فتمتمت

— حية . . ؟ لا . . ليست حية

— لا . . بل هى حية حقاً

— لم أر شيئاً كهذا فى حياتى . . لا . . رأيت مايشبهها فى حدائق الحيوانات .

وساد سكون رهيب . . ثم قطعته قائلة

— ماذا تصنع ؟ بل ماذا أفعل . . وارتجفت وحارت فى أمرها ، ودقت يداها ، وخارت قواها وعالها الموقف حتى صعقت

وبدأ يمتص معصمه فأقبلت نحوه فنعها ، ثم

انهالت على يده الجريحة وأمطرتها وابلا من القبل وهي ولهى خائفة دامية القلب فقال لها :

— إذهبي إلى الكوخ القائم فى أسفل الجبل ، واطلبي المعونة من صاحبه فعنده ترياق ودواء .

فمشت مسرعة فى الممر فى طريقها إليه، ولكنها ما لبثت أن توقفت وفكرت فى افتضاح أمرها لأن الرجل سيعلم كاسيعلم أولاده، ثم ماذا يكون حالما أبيها وأمها، فعادت واسترسلت فى التفكير فتوهمت أن الرجل سيموت... سيموت فى الكهف، وستبقى وحيدة على الجبل حتى مطلع الفجر ، فصرخت صرخة مدوية فزع منها الطيور فى أوكارهافخرجت تحوم حول الجبل . أما هو فخاطبها فى لهجة حاسمة

— إما أنك تحبيننى أولا . لو كنت تحبيننى لذهبت توا إلى الكوخ

فصاحت وهرعت نحوه وعانقته وقبلته بوله وقالت:

— إني ذاهبة .. إنى ذاهبة .. وأخذت تعدو فى الممر فناداها فوقفت :

— تعالى

— كلا ، سأذهب لئلا تضيع الفرصة

— تعالى .. تعالى .. فقد كنت أطلع النار عند ما اقتربت منك وهرولت إليها فوجدتها من النوع الذى لا يؤذى ، فتركتها تمضى فى طريقها ، وقد اخترعت فكرة اللدغة لأختبر مبلغ حبك لى ، فأيقنت أنك تحبيننى حقا .. فتعالى .. تعالى إلى .. وضمها وقبلها قبلات حارة فى شغف وشوق .

أما هى فاسترجعت ونفرت ومرت على وجهها سحابة من الغضب والسخط والتوت أصابعها من شدة الحنق ثم واجهته فى كبرياء وأنفة

— إنى أكرهك .. أكرهك لخداعك إياى أيها الوحش المفترس . واستدارت وأخذت تهبط الجبل غير مكترثة بصيحاته وتوسلاته، فوثبت وانزلقت وتدحرجت فوق الأحجار حتى بلغت الأرض وسارت على غير هدى فى ليل إفريقيا المظلم وهناقاطعه ملجان:

— يلوح لى أن هذا المولندى ممن يأخذون من الأشياء أغليها فحسب. فاعترضه كوسارد :

— كلا أنت مخطئ

— يظهر أنك تزوجتها يا كوسارد فإني أعرف نهاية أمثال هذه الفتيات

— كلا، لم أتزوجها، وهى تعيش عيشة رغدة

— ولكن ألمك أخبرتنا أنها غضبت وتركته فى الجبل

— نعم ولكنه لحق بها

وعرج على مركبة بجواره ولم تكن تتوقع مجيئه بل أخذت تسير عند انبثاق الفجر هائمة على وجهها دون مال أو متاع، حيرى لا تلوى على شيء وفى رأسها حلم بفندق كانت نازلة فيه وقدماها تسوقها إليه

فأشاحت بوجهها عنه لأنها كانت غاضبة حانقة، وتحدث إليها فلم تجب ، وأمرها أن تبقى فى الفندق فأذعنت للأمر على كره منها إذ لم يكن لديها سبيل آخر ، وعاد هو إلى الجبل وقضى سحابة يومه يفكر ، ويفكر طويلا ، فعقد النية على طلاق زوجته . . تلك الزوجة الفاتنة المرحة التى هجرها ولكنها لم تكن لتأسف على تركه لو نالت حقوقها المالية كاملة . ثم كتب خطاب استقالة من وظيفته ، وأخذ يحصر أملاكه ليبيعها ، ويجمع أمواله من المصارف استعدادا للرحيل مع معبودته إلى أرض أخرى

وفى تلك الليلة كانت زوجته فى مركبها وبجانبها رجل ثمل ، وانطلقت تعدو بهما فى نفس الطريق المؤدية إلى الجبل، وأضيئت أنوار السيارة، فلمح هرمنس زوجته بطرف عينه فخجل ولكنه ابتسم وقال :

لقد أصبحت الآن أختى.. أختى الصغيرة الظريفة.. غادة فاتنة هيفاء .. أليس كذلك؟ فؤاد الطرزى



جرت لى هـذه الحادثة سنة ١٨٨٢ وكنت مسافراً فى القطار وعزمت الانزواء بنفسى فى إحدى غرفه ، حين انفتح بابها وسمعت صوتاً يقول لآخر :

— خذ حذرك من الزلل ياسيدى ، فقد بلغنا ملتقى الخطوط « المقص » ثم إن مرتقى القطار مرتفع .

فأجابه صوت آخر :

— لا تخف يالوران فسأعتمد على مقبض عكازي

ثم ظهر لى رأس مستور بقبعة مستديرة ويدان تعلق بهما سيران من جلد ، أخذتا تتمددان وتستندان إلى جانبي باب القطار . ثم رفعتا بهوادة وبطء جسماً بديناً بعض الشيء . سمعت لوقع أقدامه الخشبية نقراً على مرتقى القطار . وحين هم الرجل بالدخول إلى غرفتى أبصرت نهاية بنطلونه المتراخى فبرزت لى من خلاله رجل خشبية سوداء لم تلبث أن لحقت بها أختها ، فعلمت أن رفيقى مبتور الساقين. ثم برز لى من ورائه رجل آخر راح يقول له :

— هل أنت مرتاح فى جلستك ياسيدي ؟!

— نعم ياولدي

— وإذن فهاك سررك وهذا عكازك . وهنا أبصرت خادماً تبدو فى سحنته معارف جندى قديم يصعد إلى صاحبنا حاملاً له بين ذراعيه كدسة من أشياء ملفوفة بأوراق بعضهـا أسود وبعضها أصفر . حتى اذا وضعها فى رف القطار الواحـدة بجانب الأخـرى ، قال لسيده :

كل شيء معد لك يا سيدى : فنى هذه الصرر الخمسة أشياء :

السكر والملبس ، والدمية ، والطبل ، والبندقية ، وأخيراً الفطيرة الدسمة

— حسن جداً ياولدى .

— أتمنى لك سفراً ميموناً ياسيدى

— شكراً « يالوران » وأنا أتمنى لك صحة موفورة . ثم غادر الخادم القطار بعد أن أغلق على سيده باب الغرفة .

كان رفيق فى السفر فى الثالثة والثلاثين من عمره تقريباً، على رغم أن شعره وخط أكثره الشيب؛ وكان حسن البزة والشارة غليظ الشارب تبدو عليه الفراهة والقوة واكتناز اللحم . فبعد أن استقر ومسح جبينه وراح ينفث في الهواء دخان سيجاره رمقنى بنظرة هادئة ثم قال :

— لعل دخان سيجارى يزعجك ياسيدى ؟

— فقلت له: كلا ، ولكن ماكدتُ أنطق حتى دهشت . ذلك أن هذين العينين وذلك الصـوت وحتى هذه السحنة لم تكن غريبة عنى . نعم كنتُ أعرفها ولكن أين . . ومتى ؟ وفى الحق لقد بدا لى أنى لاقيت هذا الشاب وكلمته وضغطت على يديه ولكن ذلك كان بعيداً حتى لقد ضاع فى ضباب كثيف يُخيل الفكر معه أنه يتلمس ذكريات الماضى ويتبعها كأنها الأطياف العابرة الهاربة . كان هو أيضاً يحدجنى بنظره ويتفرس فى وجهى متعرفاً .

كأنما داخله من التشكك بمرفق مثل ماداخلني. وتضايق نظرانا من هذه الملاقاة الملحة فافترقا. على أنه لم تمض إلا ثوان حتى عادا وتلاقيا ثانية بتأثير حب الكشف والاستطلاع. وابتدرته أنا قائلا :

— يالله ياسيدى. ألا ترى أنه يحسن بنا بدلا من أن يسارق كل منا صاحبه النظر أن نبحث معاً عن المكان والزمان اللذين تعارفنا فيهما أول مرة؟ فأجاب بلطف :

— إنك لمحق ياسيدى. وهنا سميت له نفسى قلت :

— إنى أدعى القاضى هنرى «بونكاير» فتردد برهة ثم قال بعين غائمة بضباب الذكرى وصوت من يحضر ذهنه كى يستذكر شيئاً عفى عليه الزمن :

— آه.. ذكرتك تماماً. فقد صادفتك فى «بوانسل» وكان ذلك منذ اثنى عشر عاماً قبل الحرب المشئومة..

— نعم ياسيدى... أوه... وإذاً فأنت الليوتنان فاليه ؟

— نعم بعينه، ثم أصبحت الكابتن «فاليه» قبيل اليوم الذى فقدت فيه ساقىّ الاثنتين بإصابة فظيعة من قنبلة حربية.

وهنا حدق كل منا فى صاحبه من جديد بعد هذا التعارف. وتمثل فى خاطرى هذه الساعة منظر ذلك الشاب الجميل اللطيف الذى كان ملء العين والفؤاد بلباقته وخفته وجماله. ولكن وراء هذه الصورة الغامضة الملفوفة بضباب النسيان، كانت تطفو على ذاكرتى قصة لهذا الشاب، كنت أعرفها وأنسيتها الآن، ولكنى لم أنس أنها قصة جذابة الحوادث مثيرة رغم قصرها لأن الحب لعب على مسرحها. ثم أخذتْ ظلال النسيان تنحسر عن ذاكرتى شيئاً فشيئاً وإذا بها تتضوء وتستنير بها المسالك فيطالعنى من خلال سطورها المحوة وجه فتاة مليحة، وإذا باسمها يرن فى سمعى ويجرى على لسانى: الآنسة «ماندال».. لقد ذكرت كل شىء الآن. وفى الحق لقد كانت قصة غرام تلك التى نسيتها أولا. كانت تلك الفتاة تحب هذا الرجل حين التقت به، وكان الناس يتحدثون عن زواجهما المنتظر القريب الذى كان يفجر ينابيع الفرح والسعادة فى قلب صاحبنا الضابط.

وهنا صوبت بصرى إلى الصرر الموضوعة على الرف فوق رأس الضابط الكسيح. فإذا بها تهتز وتضطرب من حركة القطار، وإذا بى كأنى أسمع الآن صوت الخادم يقول لسيده :

كل شىء مُعد لك ياسيدى. فى هذه الصرر الخمسة أشياء : السكر، والملبس، والبندقية، والطبل وأخيراً الفطيرة الدسمة. وتألفت فى لحظة بخاطرى رواية لهذا الكسيح الذى أراه أمامى : رواية تشبه الشبه كله جميع ما كنت قرأته فى القصص أو رأيته فى المسارح ؛ وذلك إما أن يتزوج الخطيب ذو العاهة خطيبته السليمة أو لا. وإذن فإن هذا الضابط المبتور الساقين قد وجد خطيبته بعد الحرب فوهبت نفسها له رغم مصيبته بساقيه. تمثلتُ كل هذا جيداً وفى بساطة، ثم عرض لى فجأة افتراض آخر أشبه بالحق وأقرب إلى الواقع المنتظر. أيكون الرجل قد تزوج من فتاة قبل الحرب وقبل الفاجعة الأليمة بساقيه ؟ أتكون الصبية المسكينة احتسبت الله فى مصيبتها فيه وخضعت لمشيئة القدر القاسى، فهى تستقبل مكرهة هذا الكسيح الذى غادرها

ملء العين ملاحة وسلامة قبل الحرب ، وآب إليها بساقين خشبيتين وجسم ناقص لا يتحرك إلا على عكازين ؟ أتراه سعيداً أم متألماً ؟ ! وقامت بنفسي رغبة لا تقاوم في الاستعلام عن قصة زواجه والاستفسار على الأقل عن النقط المهمة التي أستطيع أن أبصر على ضوئها ما يود هو إخفاءه عني أو ما لا يمكنه الافضاء به . ورحت أكلمه بأحاديث شتى ، بينما عيناي مثبتتان على الصرر الملفوفة التي وضعها خادمه على رف القطار ثم استنتجت من محتوياتها أن له امرأة وطفلين : أما السكر والملبس فلامرأته ، وأما الدمية فلطفلته ، وأما الطبل والبندقية فلطفله ، وأما الفطيرة الدسمة فله هو ؛ وفجأة قلت له :

— لعلك أب لعائلة يا سيدي ؟؟

— كلا .

فشعرت بشيء من الخجل والربكة لهذا السؤال كأني ارتكبت ما لا يتفق وحسن العشرة . لهذا عقّبتُ :

— معذرة يا سيدي لقد ظننت ذلك مما سبق إلى سمعي من قول خادمك وإشارته إلى هذه اللُّعَب . وأنت تعلم أن المرء قد لا يملك أذنه حتى ولو لم يرد ذلك . فافترّ ثغره عن بسمة راضية ثم قال :

— وما قولك أني لست متزوجاً ؟

وهنا بدت عليّ دلائل الاستذكار والتأمل ، ثم قلت فجأة :

— أوه ! إن ما تقوله الحق ، فحين تعرفت بك كنت عاقداً خطبتك على الآنسة ماندال فيما أظن ؟

— نعم يا سيدي إن ذاكرتك جيدة جداً .

فاجترأت وتابعت :

وأذكر أيضاً أني سمعت أن الآنسة ماندال خطيبتك تزوجت موسيو ... موسيو ... فلفظ الضابط في سكون هذا الاسم :

— موسيو فلوريل ، أليس كذلك ؟

— نعم هو بعينه . وأذكر أيضاً أني سمعت في ذلك الحين قصة فاجعتك ، ونظرت إليه من جانب عيني فاذا بالدم يتدفق في وجهه أحمر قانياً ، ثم إذا به يجيبني في حمية ونشاط مثل من يدافع عن قضية ضاعت له سابقاً وفرّط في حقّه فيها وهو يريد الآن تبرير موقفه فقال :

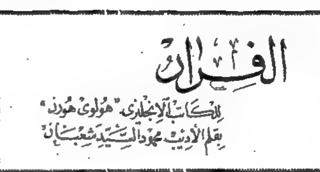
— لقد كان من أعظم الخطأ بل والألم أن يذكروا أمامي اسم خطيبتي « ماندال » بعد إذ أُبتُ من الحرب بدون ساقين ، وباللأسف ، لم يكن بوسعي أن أقبل دون ألم وتقريع ضمير أن تصبح « ماندال » امرأتي . أترى ذلك يكون ممكناً ؟ ؟ حين يتزوج المرء يا صديقي لا يفعل ذلك كي يتباهى على الناس بامرأة جميلة فتانة ! إنما يفعل كي يعيش بجانبها ويتصل بها طوال الأيام والساعات والدقائق والثواني . فاذا كان الزوجُ مثل كتلة شوهاء مبتورة فانه بزواجه من فتاة ريانة الشباب يكون قد حكم عليها بالألم الممض وقسرها على حياته الناقصة المحطّمة حتى الموت . أنا أفهم وأقدّر بل وأعجب بجميع التضحيات ، ولكن حين يكون لها حدود تنتهي إليها . لهذا فأنا أستنكر من نفسي أن تحرم فتاةٌ جميلة نفسَها لأجلي من كل ما تهفو إليه جوارحها ونفسها من سعادة وملاذ وأحلام الصبا والجسد أيضاً ، كل ذلك كي يقال عنها إنها عفيفة ظريفة كريمة . ثم كيف أطلبُ منها هذا وأنا نفسي حين أسمع على أرض الدار وقع عكازي وأنا أمشي وأحجلُ ، أنا نفسي

حين أسمع هذا الصوت الذي يُشبه وقع أقدام البشال يجيش في نفسي الحنق فأود خنق خادي .
وهل تظن أنه يمكن أن يقبل الزوج من امرأة أن تتسامح في شيء هو نفسه لا يغتفره لنفسه ، ثم أنتقد وتتصور أن ساقيّ الخشبيتين هاتين جميلتان في النظر فاتنتان للعين ؟ وسكت وسكتُ فما عساي مجيبه ؟! إن كلامه الصدق فهل يوسعني أن ألومه أو أخطئه . ثم سألته فجأة :

— هل لمدام فافوريل خطيبتك المتزوجة أولاد ؟!
— نعم ، طفلة وصبيـان ، ولهؤلاء الأطفال ما أجمل من لُعب في هذه الصور كهدية . إنها وزوجها طيبان . . وكان القطار في هذا الوقت يصعد ملتقى خطوط « سانت جرمان » ثم يمضي تحت الأنفاق المتعاقبة في المحطة . ثم يقف . وعزمت على تقديم ذراعي مُتكأً للضابط الكسيح كي يستعين عليها في النزول من القطار لولا أن يدين امتدتا من باب القطار المغلق لمساعدته

— نهارك سعيد يافاليه . فأجاب صاحبي الضابط
— سعد نهارك « يا فافوريل » . وكان خلف الرجل امرأته الجميلة تبتسم له أيضا وهي ترسل التحيات الحارة من كفيها المستورتين بقفازين . وبجانبها طفلة صغيرة كانت تطفر من الفرح والابتهاج بلقاء صاحبي الضابط وبجانبها الآخر صبيـان صغيران كانا يتناولان بشغف ونهم الطبل والبندقية وقد برزا من طرق الصرر التي تسلمها أبوهما فافوريل
وحين هبط الضابط إلى إفريز المحطة أسرع إليه الأطفال فعانقوه في محبة وألفة وشوق . ثم اتخذت العائلة طريقها إلى المنزل ، وفي أثناء الطريق أخذت الطفلة تسند بكفها اللينة البضة مسند عكاز الضابط الكسيح وقد فاض وجهها بماء الابتهاج والطيبة والمحبة البريئة

كمال الحريري



الفرار

للكاتب الإنجليزي "هولوى هورن"
بقلم الأديب محمود السيد شعبان

ما كاد السير (بول كانكارت) يصل إلى المستشفى حتى كان الليل قد قارب أن ينتصف ؛ فتلبث غير قليل — والقلق يملأ جوانب نفسه ويملك مدارك حسه — في البهو الرحيب الرهيب يترقب متلهفاً مقدم الممرضة ، فلما وافته سألها : « ألم تتحسن صحتها بعد ؟ »

وأجابت الفتاة في صوت خافت هادئ حزين : « إنه ليؤسفني ويكربني ياسيدى أن أعترف لك بأن صحتها قد ساءت كثيراً .. وإنها لتعانى الساعة أشد حالات المرض ؛ فهل تود أن ترافقنى لتراها ؟ »

... وتبع الرجلُ الفتاة وهى تسير فى البهو الفسيح ذى اللون الأبيض الناصع وقد انبعثت من من جنباته رائحة الحمض المطهر . . . وما كادت تقف عند باب من أبواب غرفه حتى خرج منها رجل يوحى إليك منظره ومظهره أنه طبيب

وغمغمت الممرضة قائلة : « ها هو ذا السير (بول كانكارت) يا دكتور (يارو) ! ! »

وتصافح الرجلان ...

وقال السير (بول) فى صوت هادئ رزين متزن : « إننى أريد أن أعرف منك الأمر على حقيقته ؛ فهل تسمح بذلك يا دكتور ؟ »

وعقل التردد لسان الطبيب برهة من الزمن فلزم الصمت ... ثم جمع ما تشتت من شجاعته ، وماتبدد من صراحته ، وما تفرق من قوة بيانه وحدة لسانه ، وقال : « إنه لمن الخير لى ولك يا سيدى أن أصدقك القول . إن الجرح الذى أصاب زوجك خطير مهلك . . . وإننى لأخشى أن يكون هذا آخر عهدها بالدنيا وأول عهدها بالآخرة ... ؛ لقد كاد هلا كها أن يكون حقيقة ملموسة واقعة ، وأكبر ظنى ياسيدى أنه لم يبق لها الآن نصيب من النجاة أو حظ من الحياة ! »

— « لله الشكر يا سيدى ... ؛ ولكن ألا يمكننى أن أراها الآن ؟ »

— « أوه ! ... بلى ... ولكنها الساعة غائبة عن وعيها لفرط ما تقاسى من شدة الألم ، وبرح ما تعانى من هول الفاجعة !! »

ودخل ليراها فاذا بها وحيدة فى حجرة خاصة مضاءة ، قد ارتدى كل ما فيها حلة بيضاء كسائر مافى ذلك البناء الرهيب . وكانت عيناها مفتوحتين ؛ أما وجهها فهادئ لايتألم ، صامت لايتكلم ، ساكن لا حراك فيه ولا أنين به ، كأنما قد وُكلت به ملائكة الصمت فغلت لسانه ، وأخفت بيانه ، وشلت حركته ... حتى ظن الرجل لأول وهلة أنها قد قضت

وانحنى عليها وناداها : « يا مارى ! » ؛ ولكنها — واحسرتاه — قد أخلفت ظنه فلم تتحرك

وقدمت الممرضة مقعداً للسير (بول) واقترحت عليه أن يجلس فشكرها ؛ ثم وقفت — وقد قبضت بيدها على معصم المريضة تجس نبضها — ناظرة إلى وجه الرجل المتجهم وهو يتأمل بنظراته الحائرة

الزائغة وجه زوجه الصامت ، وقد جلله بياض رهيب وهي مستلقية على فراشها ؛ وعجبت من هذا الوجه الهادئ الجميل الذي لاتعرف الرحمة سبيلا إلى نظراته القاسية . . . ! !

. . . وملأ المكانَ صمت رهيب كصمت القبور ، وسكون موحش كسكون الموتى ؛ ثم . . . ثم دوّى على حين غرة صوت الرجل يخاطب المرضة: « إن نبأ هذه الفاجعة لم يصلني إلا منذ قليل . . . فاني لم أتسلم رسالة المستشفى إلا عند عودتي إلى الدار » .

— « لقد نقلت زوجكَ إلى المستشفى في الساعة الثامنة » .

— « فهل أستطيع أن أستنتج من هذا أن الحادث قد وقع قبل ذلك بقليل ؟ »

— « نعم »

ونظرت إليهما المرأة الراقدة على فراش المرض نظرة غاضبة عاتبة كأنما قد أزعجها جَرْس كلامهما وهمس حديثهما . . . ومرت على شفتيها كلمات متقطعات مبهمات لم تدر كها الفتاة لأنها لم تسمعها ، ولم يفهمها الرجل لأنه لم يتبينها ، فانحنى إلى الأمام وأرهف سمعه علّه يعي شيئا مما تقول

— « إنني لم أستطع أن أفهم كلامها » .

— « إنها غائبة عن وعيها منذ حين وما أفاقت بعد . . . فهل لك أن تذهب فتجلس في حجرة الانتظار حتى يرحل عنها ما ألم بها من السوء فيعود إليها رشدها ؟ »

وما سمع السير (بول) هذا حتى نظر إلى الفتاة نظرة فيها شيء من الحدة والغضب ، وشيء من الشك والريب ، ثم قال لها : « لا . . . أشكرك ! »

ولكن . . . ولكن في هذه اللحظة صاحت المرأة الجريحة هاتفة : « بولي ! »

. . . لقد كان هذا الاسم أول كلمة صحيحة كاملة فاهت بها المسكينة ، وأول لفظة جلية واضحة فُهمت عنها

وسأل الرجل الممرضة في صوت هادئ النبرات « ألم تهتف بهذا الاسم من قبل ؟ »

وأجابت الفتاة في كثير من التردد والحيرة والارتباك : « إنني . . . إنني لم أكن أفهم عنها ما تقول ، وما استطعت أن أتبين شيئاً من حديثها قبل الآن »

ولكن الرجل لم يصدقها فيما قالت . . . فقد كان في ترددها الواضح ، وتلعثمها البيِّن ، وشرود فكرها ما يرجح أنها كاذبة فيما تقول

. . . في هذه اللحظة دخل جراح المستشفى وهو شاب لم يكتهل بعد ؛ وكان الناظر إليه يلحظ في حركاته شيئاً من الاضطراب ، أكبر الظن أنه نتيجة لوجوده في حضرة الرجل العظيم النابه السير (بول كانـكارث)

وجسّ الجراح نبض المريضة ثم قال : « إن نبض عروقها ضعيف بطيء ولكنه بالرغم من كل ذلك منتظم . . . . »

ولم يدعه السير (بول) يسترسل في حديثه وإنما سأله : « هل ستقضي نحبها الآن ؟ ! »

— « ما زال باب الحياة مفتوحاً أمامها وإنك لتعرف ذلك ياسيدي . . ولكن مرضها عضال ، وجرحها بليغ ، وإنني أخشى عليها . . . »

كان الطبيب صادقاً فيما قال ، فما مضت ساعة على هذا الحديث حتى أغلقت المسكينة جفنيها ، وأسلمت روحها لبارئها

... وأتم الطبيب حديثه مخاطباً السير (بول) : « إنني أخشى أن أقرر لك ياسيدى أن الأمر قد خرج من يدى . . . لقد حُم القضاء ، وماتت المسكينة ، وانتهى كل شيء ! ! »

وهبَّ الرجل العظيم واقفاً دون أن ينبس بذات شفة ؛ ثم ألقى نظرة طويلة على ذات الوجه الأبيض المسجاة على فراش الموت ، وقال وهو يبرح الغرفة : « والآن . . . سأذهب ! ! »

وما كاد الرجل يخرج حتى تمتم الطبيب : « ياله من زائر ثقيل ! ! »

وصاحت الممرضة فى ثورة وغضب : « ثقيل ؟!. هذا الرجل المسكين . . هذا الرجل الطاهر . . . اللهم امدده بعونك والحَظْهُ بعناياتك » . ثم وقفت ناظرة هى الأخرى إلى ذلك الجسد الهامد الممدد فوق الحشايا ؛ وقالت فى صوت مرتفع : « إنى لأعجب مَن يكون (بونى) ياترى ؟ ! »

— « بونى ؟ » .

— « لقد كان هذا الاسم حديثها ونجواها . . وأشهد أنى ماسمعت منها هتافاً غيره مذ رأيتها » . .

— « من المحتمل أن يكون هذا الاسم الذى اعتادت أن تطلقه على قرينها السير (بول) لتدلله به » .

وهزت الممرضة رأسها قائلة : « لقد رأيته يبكى عندما هتفت أمامه به . . إنه لم يكن هو . ! ! »

وماصدقت الفتاة الحقيقة فيما قالت ؛ فقد كان (بونى) — كما يعلم السير (بول) نفسه — رساماً تعرفه الليدى (كاتكارت) ، وما كانت تتغفل عن دعوته إلى كثير من حفلاتها وولائمها ؛ وهو شاب فى مقتبل العمر أصغر سناً من الليدى (كاتكارت) نفسها ، وإن كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها عندما أدركها الردى ، بينما كان زوجها قد جاوز الخمسين فى ذلك الحين .

وجلس السير بول فى سيارته متجهم الوجه وقال يناجى نفسه : « بونى ! .. لقد كانت تود أن تراه ... فيجب أن يتم لها ما أرادت . . . يجب أن أحقق رغبتها ... يجب أن أجيب رجاءها فلا أعصى لها أمراً ! » .

وما خيب (السير بول) طوال عمره حاجة لها أو رد لها مطلباً ؛ وليس ما تريده الآن غير مطلب يسير لو قيس بما اعتاد أن يجيب من رغائبها !

وقفت السيارة الفخمة أمام دار السير (بول) الأنيقة ، فهبط السائق منها ، وسأل سيده إن كان فى حاجة إليه فيبقى ، أم فى غنى عنه فينصرف .

وأجابه السيد العظيم وهو يحاول أن يكون أكثر هدوءاً وجلداً وقوة : « هذا يكفى ... إذهب إلى فراشك . إننى لا أريد أن يزعجنى أحد ! » .

* * *

ما مضت نصف ساعة على هذا الحديث حتى كان السير (بول) قد أعد عدته للخروج ، فارتدى سترة خشنة النسيج اعتاد أن يرتديهـا فى الريف ووضع فوق رأسه قبعة ، ثم مضى وحيداً فى ظلمة الليل الدامسة إلى حيث يقطن (بونى) وإن كان بينه

وبين مسكنه طريق طوله ميل . وسار الرجل مسرع الخطى بالرغم من رطوبة الجو وحلكة الظلام ...

لقد ذهب ذات مرة مع زوجه إلى (الاستوديو) الذي يعمل فيه (بوني) فلم يكن من الصعب عليه أن يهتدي إليه وحده هذه المرة ...

كان (الاستوديو) غارقاً في ظلام رهيب موحش كما توقع السير (بول) ؛ ولكنه ما كاد يدق الجرس حتى أضيئت الأنوار وانفتح الباب ..

ولما رأى الرسام وجه زائره ملكته الدهشة من هذه الزورة المفاجئة في تلك الساعة المتأخرة من الليل!

وقال (كانكارث) — وكان أكثر هدوءاً من مضيفه — في صوت هادىء متئد « إنه ليؤسفني أن أزعجك ! »

— « إنني لم أكن نائماً . تفضل فادخل ! تفضل؛إنني لم أرك من قبل في مثل هذه الساعة؟»

وتابع السير (بول) مضيفه بين جدران (الاستديو) وكان يرتدي فوق منامته معطفاً حريرياً أسود اللون مما يلبسه الرسامون والفنانون .

وقال صاحب الدار لضيفه وهو ينظر إليه نظرة فاحصة وقد خيم عليهما صمت موحش وسكون : « ماذا وراءك ؟. هل أصابك مكروه ؟ هل(سينشيا) بخير ؟! »

— « هل تعني زوجي (الليدي كانكارث) ؟ »

— أجل ! ... أجل... هل هي بخير ؟ »

وأجاب السير (بول) في صوت وحشي قاتل : « لقد ماتت ! »

كان هذا النبأ الفاجع صدمة قوية لم يتحملها الشاب ، وهزة عنيفة لم يقو عليها جلده ، وما كادت كلمات الزائر تصل إلى قرارة نفسه حتى أذهلته المصيبة الفاجعة فأنشب أظفاره في المنضدة التي إلى جانبه ثم نظر إلى ضيفه نظرة تحمل بين ثناياها أفظع الوحشية والجنون ...

— « ماتت ؟ . . ماتت (سينثيا) ؟ ! »

— « لقد قضت منذ ساعة » .

— « ولكن . . يا إلهي ! ولكن . . ماذا حدث لها أيها الرجل ؟ »

— « لقد صدمتها سيارة . . وقضت دون أن تفيق من غشية الواقعة » .

وقفز الرسام واقفاً على حين غرة ، كأنه وحش نهم يريد أن ينقض على فريسته ؛ وأخذ يصرخ ويهذي كالمعتوه . . « سينثيا . . ماتت . . ما . . » ثم ارتمى فجأة فوق مقعده ، منحنياً إلى الأمام ناظراً بعينين لا تبصران إلى الحائط الجديب .

ولم يشفق (كانكارث) على الرجل ولم يرق له قلبه في حديثه : « ولقد كان اسمك آخر كلمة فاهت بها . . اسمك أنت . . أنت وحدك ! ! »

وأعاد الشاب الذاهل الكلمة الرهيبة :«ماتت» ثم أطبق شفتيه وأسكت لسانه كأنما أفزعه أن تطرق هذه الكلمة المدمرة مسمعيه أو تمر على شفتيه

ومضى السير (بول) في حديثه غير مكترث بما أصاب مضيفه ، أو آبه لما حدث له : لقد سألت عنك كثيراً ... ونادتك ... وأرسلت في طلبك .. وكانت تريد أن تراك ... وأشهد أنها لم تغفل عن ذكرك لحظة ... وإنك ورب الذاهب معي إليها ... فهلم بنا !!»

وصرخ الشاب : « نادتنى ؟ .. تقول إنها نادتنى .. وطلبتنى ؟ .. وأرادت أن ترانى ؟ .. هل أنت متأكد ؟ .. أتقول حقاً ؟! أحقاً ماتقول ؟! »

ولم يستطع (كاتكارت) أن يجيب عن شيء من ذلك كله ؛ فقد جفّت شفتاه وتقلصتا فى يلسانه عليهما ثم تمتم فى صوت خافت : « نعم » ؛ وأطبق بعد ذلك راحتيه كأنما يسحق بينهما شيئاً

— « كانت تحبنى ... تحبنى ... أنا ... ليتنى عرفت ذلك من قبل ! آه .. آه لو عرفت ! يا إلهى .. يامن تسمى نفسك عادلا رحيما ... ليتنى يا إلهى قدعرفت قبل الساعة أنها تحبنى ... ليتنى!!»

ولم يتمالك (كاتكارت) نفسه فصاح به : « أنت ... ألم تكن تعرف ذلك ؟! »

— « آه ... إننى ما عرفت هذا قبل اليوم ؛ وإلا لأخذتها منك أيها الأحمق المغرور ... يامن لا ترحم ... إنه ليهون علىّ أن أصلى عذاب السعير من أن أفكر فيها مقيمة معك ... معك أنت ... وهى التى أحبتنى أنا وحدى ... أنا وحدى أيها القاسى ... ولكن ما عرفت !! »

وغطى الشاب وجهه براحتيه ثم تكبكب على نفسه وأخذ يميل من جهة إلى جهة ويهتز يمنة ويسرة كأنه معتوه لا يعى أو مخبول لا يعقل ... غير عابىء بمن معه !!

... ونظر السير (بول) لحظة إليه ؛ ثم ... ثم ولّى هارباً دون أن يشعر به الرجل ... وأغلق الباب وراءه فى هدوء وسكون !

« الاسكندرية » محمود السيد شعبان

حاجي بابا إصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موريه"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

مقدمة المترجم

لمؤلف هذه القصة قصة أخرى عنوانها حاجي بابا في انكلترا، وقد قرأها قراء «الرواية». والقصتان مضى على نشرهما أكثر من مائة عام. ولم يكن من أغراض مؤلفهما إلا تصوير حالة واقعة في عصره لا في إيران وحدها، بل وفي الشرق عامة. وسيرى المنصفون المتزنون بحاضرهم وبماضيهم الأقدم من الشرقيين أن الرجل لم يكن متجنياً على الشرق ولا مفتاتاً على التاريخ. فما من شك في أن الشرق كان منذ مائة عام ذا عيوب وذا هنات. وما نفتخر بعظمائنا وأبطالنا من عهد نهضتنا إلا بقدر ما سموا بنا عن الحالة التي سبقت هذه النهضة. وما نفتخر بتقاليدنا وبدينننا إلا لما فيهما من العناصر التي ساعدت على رفعنا إلى المستوى الذي نحن فيه بعد أن وصلنا منذ قرن من الزمان إلى ما كنا عليه

على أن الصورة التي رسمها هذا الكاتب فضلا عن صدقها ليست زرية، فقد بين المؤلف فيها عناصر من القوة أشار إليها في الفصل الأول من كتاب حاجي بابا في انكلترا. وقد قرأه قراء الرواية حيث قال: إن الاعتزاز بالنفس والاستماتة في المحافظة على الكرامة من أخص صفات الايرانيين، وإنه لو أضيف إلى ذلك علم صحيح لما سامتهم أمة في الحياة. وقال إن غرضه لفت نظر الشرقيين إلى عيوبهم، وإن لكل أمة محاسنها وعيوبها. وقد نقد بلاده نفسها «انكلترا» في كتابه السالف من وجهة النظر الشرقية

أما كتاب اليوم فنقد للشرق من وجهة النظر الغربية. وقد كان المؤلف سفيراً لبريطانيا في طهران حين وضع الرواية الحاضرة، ثم أقام في بلاده للوضع الرواية الأخرى. وكلا الكتابين مقروء في كل اللغات. وفي اعتقادنا أن مشاركتنا مئات الآلاف من القراء من أبناء اللغات الأخرى في مطالعته أجدى علينا من إغفال ما كتب عنا وما ليس يغفله غيرنا إذا نحن أغفلناه. وأسأل الله أن يوفقنا نحن الشرقيين إلى سعة في الصدر لا تتحرج معها من نقد ناقد، وإلى ثقة بالأنفس واطمئنان إلى القوة فلا نخشى على أنفسنا من رأى الغير فينا، وإلى احترام للحرية وحب للمعرفة، فلا نكره سماع ما يخالف رأينا ولا نميل إلى الجهل بما نحن أولى الناس بأن نعلمه

المترجم

الفصل الأول

نشأة حاجي بابا وتربيته

كان أبي واسمه كربلائي حسن من أشهر حلاق أصفهان. وقد تزوج وهو لا يزال في السابعة عشرة من بنت رجل بدال كان جاراً له في حانوته، ولكن العلاقة بين الزوجين لم تكن سعيدة، لأن زوجته لم تلد فأهملها. وقد جلبت له خفة اليد في حلق الموسى شهرة واسعة وعدداً كبيراً من «الزبائن» معظمهم من التجار الأغنياء. وبعد أن مارس صناعته عشرين عاماً استطاع أن يتزوج من سيدة أخرى ضمها إلى زوجته الأولى في بيت واحد

وكانت الزوجة الثانية بنت صيرفي غني، كان أبي يعنى به أكثر من عنايته بسائر «الزبائن» فلم يتردد في قبول خطبته عند ما طلب الزواج من ابنته

وفي الأيام الأولى من عهد زواجه رأى زوجته الأولى ستتعبه بما تبديه من ضروب الغيرة، وأحب أن يستريح منها وأن يظهر لصهره الجديد أنه صالح تقي فأخذ زوجته الثانية وذهب لزيارة مشهد الحسين

فى كربلاء . وفى أثناء الطريق حلت بى منه . وقد كان معروفاً قبل هذه الزيارة باسم « حسن الحلاق » فلما زار ذلك المشهد دعى باسم « الحاج حسن » لأن الشيعيين فى البلاد الفارسية يلقبون بهذا اللقب من زار قبر على أو أحد ولديه وإن كان سائر المسلمين يقصرونه على من زار المشهد النبوى . وقد دعيت أنا أيضاً بلقب الحاج وإن كنت لم أحج فى كبرى لأننى كنت فى بطن أمى وهى تؤدى هذه الزيارة . وقد أفادنى هذا اللقب احتراماً كبيراً بين الناس

ترك أبى حانوته فى مدة غيابه لأكبر عامل عنده. ولما استأنف عمله زاد الاقبال عليه، لأن حجه زاده شهرة فزاد إقبال المتدينين عليه عامة والتجار منهم خاصة

ويظهر أنه كان فى عزم أبى أن ينشئنى على هذه الحرفة ، ولكنه أرسلنى إلى المكتب لأتعلم مبادئ الدين . وكانت حرفته لاتستلزم من التعلم كل الذى تعلمت، ولكن فقيه المكتب كان يحبنى لأن أبى كان يحلق شعره مرة فى كل أسبوع بغير مقابل . وكان يكرمه لتدينه وورعه . ووجد الفقيه فضلا عن ذلك ميلى إلى التعلم فعلمنى القراءة والكتابة. ولم يمض عامان حتى كنت أعرف اللغة العربية وأحفظ القرآن وأحسن الكتابة بها وباللغة الفارسية. وكنت فى أوقات فراغى أجلس بحانوت أبى وأتعلم الحلاقة فى رؤوس الصيادين ورعاة الجمال . ولقد جرحت كثيراً منهم فى أول الأمر

ولكن لما بلغت السادسة عشرة من عمرى صار من الصعب أن تعرف فى أى الأمرين كنت أكثر نبوغاً، أفى المكتب طالباً أم فى السوق حلاقاً . وعلى معرفتى حلاقة الرأس وتنظيف الأذن وقص اللحية فقد كنت أعرف التدليك والتكبيس فى الحمام على الطريقتين التركية والهندية، فقد كان ذلك من واجب الحلاقين فى عصرى . ولكننى كنت أمتاز بخفة اليد ولطف الحركة . ولقد أحسن إلىّ معلمى الفقيه بتلقينى شعراً كثيراً من دواوين شعرائنا الفارسيين كالسعدى وحافظ الشيرازى وغيرهما، وكان صوتى عذباً وإلقائى جيلا ؛ وكنت أجمّل محادثاتى بالاستشهاد ببيت أو بيتين مما جعلنى رفيقاً أنيساً لائقاً كل اللياقة لصناعتى. وأقول فى غير غرور إن حاجى بابا كان فريداً بين الشبان فى سلامة الذوق وإمتاع الجليس

وكان حانوت أبى بالقرب من أكبر خان فى المدينة وهو المعروف بخان الشاه ، وهو محلة التجار من الأجانب والمقيمين . وقد كان أكثرهم يزوره ويجزل له العطاء محبة فى ابنه ، وكان أحدهم وهو تاجر بغدادى يصر على أن أحلق له دون سائر العمال فى الحانوت ويقدمنى حتى على أبى . وكان يحدثنى باللغة التركية التى تعلمت مبادئها فى العهد الأخير ، وقد شوقنى إلى زيارة البلدان المختلفة بما ذكره لى عن جمالها حتى نشأ بنفسى حب عظيم للسياحة . ثم خلا عنده مكان كاتب ، وكنت جديراً بأن أملأ هذا المكان وأنا أمتاز عن سائر الكتبة بأننى حلاق ، فعرض على أن أدخل فى خدمته فقبلت حباً فى السياحة ولكى أتعلم التجارة ، ولأن الراتب الذى عرضه على كان راتباً عظيما . ولما عرضت عزمى هذا على أبى وجد فى بعدى عنه خسارة كبيرة عليه فحاول إقناعى بالعدول عن ذلك وقال : إن هذه الأسفار مملوءة بالمتاعب والأخطار . ولكنه لما علم بمقدار الراتب وبالنفع الذى أرجوه فى مستقبلى ،

ورأى أنه من المحتمل أن أسير غنياً مثل هذا التاجر وافق على سفرى ومنحنى بركته ومنحنى كذلك صندوقاً من المواسى وأدوات الحلاقة

وكان حزن أمى شديداً على بعدى لأنها تخاف على من الأخطار وتكره أن أكون خادماً لرجل سُنّى مع أننا من الشيعة؛ وبين الطائفتين فى إيران عداوة قوية قديمة . ولكنها لما رأت إصرارى وتبينت أغراضى أهدت إلىّ صندوقاً من الكعك وأهدت إلىّ كذلك حُقّاً من المرهم قالت إنه يشفى جميع الأمراض ، وأوصتنى بألا ألتفت إلى الباب عند سفرى لكى أعود سليما . وهذه عقيدة محترمة عند الشيعيين

الفصل الثانى

رحلة حاجى بابا - محاربة الأكراد - وقوعه فى الأسر

كان اسم هذا التاجر عثمان أغا، وكان يريد السفر لشراء جلود من بخارى ويبيعها بعد ذلك فى الآستانة. وكان عثمان أغا قصير القامة ضخم الجثة كبير الرأس أقنى الأنف منتفخه كبير اللحية أسودها

وكان يحافظ على صلواته ولم يترك نزع الخف والجوارب عند الوضوء حتى فى أشد أيام البرد محافظة منه على السنة مع أنه كان يستطيع مسح الخف فى هذه الحالة . وكان يكره الشيعة إلى حد المقت ، ولكنه كان يخفى ذلك كل الاخفاء فى مدة وجوده بالبلاد الفارسية . وكان أكبر ميوله متجهاً إلى الكسب، ولم ينم قط قبل أن يستوثق من أن أمواله فى مكان أمين . وكان يرفه عن نفسه بالتدخين المستمر ويشرب النبيذ سراً وإن كان يلعن المجاهرين بشربه ويعد ذلك نقصاً كبيراً فيهم

وكان الموعد الذى سنسافر فيه القافلة فى أوائل الربيع فاستعدنو للسفر ، واشترى السيد لنفسه بغلة قوية واشترى لركوبى فرساً أحمل عليه مع نرجيلته وموقداً وزمزمية للماء وصندوقاً لفحم النرجيلة وثيابى . واشترى للعبد الذى يقوم فى خدمته بواجب الطباخ بغلاً يحمل عليه معه سجادة وأدوات الطبخ، واشترى الخادم بغلاً ثالثاً يحمل عليه معه ثياب السيد وزاد السفر وسائر الأمتعة

وفى اليوم السابق على السفر وضع السيد بعض ماله فى قماش ملفوف على عمامته وخاطه عليها وكان لا يطلع على هذا السر أحد غيرى . ووضع سائر الأموال داخل الخف وخاطه أيضاً على هذه الطريقة

وكانت القافلة عند ما استعدت للسير مكونة من خمسمائة بغل وفرس ومائتى جمل أكثرها يحمل متاجر من شمال فارس، وكان عدد الرجال مائة وخمسين من التجار والخدم، ولكن فيهم بعض المتعبدين الذين لم يكن لهم غرض من هذا السفر غير زيارة قبر الامام على الرضا فى مشهد . وبهم صارت القافلة هيئة دينية

وكان كل رجال القافلة مسلحين . وكان سيدى الذى اعتاد أن يدير وجهه خوفاً كلما أطلق غدارته، ويصفر وجهه حينما يرى السيف مجرداً من نصله ؟ كان هذا السيد يحمل فى نطاقه غدارة كبيرة مقوسة وسيفاً معوجاً معلقاً على جنبه ، وكان صدره كله مغطى بالخرطوش . وكان فى نطاقه غير الغدارة مسدسان وخنجر . وكان معى رمح ومع العبد سيف وبندقية قديمة بغير زناد

وركبنا ساعة الفجر من ضاحية فى شمال أصفهان . وكان يقود القافلة جاويش تعينه الحكومة

(البقية)

ومعه جنود يساعدونه، وكانت مهمته أن يرشد عن الطريق وأن يحدد الأسعار التي يشتري بها المسافرون مايحتاجون إليه من المدن التي يمرون بها ويحدد ساعات السفر والإناخة ويفض المنازعات بين المسافرين ويعين أوقات الصلاة.

أعلن هذا الجاويش السفر بصيحة عالية أتبعها جنوده بدق طبولهم النحاسية. وعلى الرغم من أن المسافرين كانوا جميعاً يحملون السلاح فيظهر أنهم كانوا جميعاً مثل سيدي عثمان أناساً مسالمين لا يعرفون كيف يستعملون سلاحهم.

وقد سرني من هذا المنظر أنه كان جديداً علي. وكنت أمرح بجوادي الذي لم أركب جواداً من قبله، وكان سيدي يتناظر من ذلك، وقد نبهني إلى أن الجواد لا يستطيع أن يقطع مسافة الطريق كلها إذا أتعبته في أثنائها بالركض وإظهار الفروسية.

ولم يمض إلا وقت قصير حتى عرفت كل المسافرين وصرت حبيباً إليهم جميعاً؛ وقد حلقت لأكثرهم بعد اليوم الأول من السفر. ولا حاجة بي إلى القول بأني كنت في هذا السفر مبعث سرور وأنس لسيدي؛ وكنت بين مرحلة ومرحلة أريح جسمه المكدود بالتدليك وبالاستحمام وبمسامرته حتى وصلنا إلى طهران دون أن يحدث عائق جدي في طريق القافلة.

وقد بقينا بهذه المدينة عشرة أيام لنريح المطايا ولكي نزيد عددنا، وكان أشد أجزاء الطريق خطراً هو الذي نحن مقبلون عليه بعد مغادرة المدينة، لأن به جماعة من متمردي الأكراد، بينهم وبين جنود الشاه حرب مستمرة، وكان من عاداتهم قطع الطريق والاغارة على القوافل لسلب ما معها من الثروة؛ وقد هاجمت قافلة قبل قيامنا بعهد قصير فجردتها مما معها وأسرت الأقوياء من رجالها لاستخدامهم في الحرب. ومن أجل هذا السبب كان كثيرون من رجالنا وأخصهم سيدي عثمان شديدي الخوف من مواصلة السير إلى مشهد، ولكن ما سمعه عن رخص أثمان الجلود فيها وغلائها في الآستانة أغراه بالتغلب على الخاطر حباً في الكسب.

وكان جاويش القافلة ورجاله يجمعون من طهران وما حولها من أرادوا الانضمام إلى قافلتنا، وقد كان عددهم كثيراً ففرحنا بهم لمعرفتنا بجسامة الخطر الذي سنصادفه

وكان هذا الجاويش معروفاً مهيباً في الطريق بين طهران ومشهد وذلك لما اشتهر به من الشجاعة فقد قطع رأس رجل تركماني وجده ميتاً في الطريق. وكانت طلعته مخوفة لأنه طويل القامة عريض الكتفين متجهم الوجه في ذقنه الكبيرة العظام شعرات قلائل طويلة على شكل لحية. وعلى صدره درع وفوق رأسه خوذة ذات سلاسل حديدية تتدلى فوق كتفيه وإلى جنبه سيف وفي نطاقه مسدس وفي يمناه رمح طويل يمده لاتقاء الخطر. وكان يفاخر كثيراً بقوته ويتحدث باحتقار عن التركمان حتى كان سيدي يطمئن إلى السير بالقرب منه والانضواء تحت لوائه.

وكان موعد رحيلنا بعد أسبوع من النيروز. وبعد أن أدينا في المسجد صلاة الجمعة ذهبنا إلى قرية «الشاه عبد العظيم» حيث تجتمع القافلة وتبدأ بالسير في اليوم التالي.

وكان الطريق مقفراً جدبياً لا يسر العين ولا يشرح القلب. وكنا كلما اقتربنا من قرية أولقينا

جماعة فى الطريق بادلنام التحية الاسلاميـة ووقت الطبول وكانت جل أحاديثنا عن التركمان

وعلى الرغم من اتفاق آرائنا على أنهم أعداء أشداء فقد كنا كبار الأمل فى أنه لا يستطيع عدو التغلب على عددنا الكبير ومظهرنا الذى يشر ، وكنا نصيح عندما نرتاب فى قوم : « باسم الله ! من هؤلاء الكلاب الذى تطمعهم أنفسهم فى مغالبتنا؟ »

وكان كلنا يتبارى فى إظهار شجاعته؛ وكان سيدى يفاخر — وأسنانه تصطك من الخوف — بما كان يفعله لو هوجمت القافلة. ولو سمعته إذ ذاك لظننت أنه لم يفعل شيئاً طول عمره غير محاربة التركمان وتقتيلهم .

وقد سمع الجاويش هذه الأقوال ؛ وكان شديد الحرص على أن يوصف وحده من بين رجال القافلة بالشجاعة فقال وهو يفتل شاربيه حتى يكاد يلمس بطرفيهما أذنيه : « لا يتكلم إنسان عن التركمان حتى يراهم، ولا يتكلم أحد عن الأسد حتى ينجو من بين مخالبه . ولقد صدق السيد حين قال : « لا يسلم أحد من الخوف فى يوم المعركة حتى ولو كان ذراعاه ذراعى أسد وجسمه جسم فيل »

لكن سيدى عثمان أغا كان كبير الأمل فى السلامة لأنه سنى كسائر الأتراك والتركمان، ولم يكن يعتمد عند لقائهم على سيفه أو غدارته وإنما كان يعتمد على قطعة من القماش الأخضر يلف بها عمامته . وهذا اللون عند الأتراك علامة على أن المرء من السلالة النبوية بعكس العرف عند الفارسيين ولم يكن سيدى من الأشراف فى الحقيقة وإنما هو سلاح يلجأ إليه عند الضرورة

سرنا على هذا المنوال عدة أيام ثم أخبرنا الجاويش بلهجة الرجل المطمئن الذى يلقى خبراً هاماً أننا أصبحنا الآن فى أرض التركمان وأوصانا بأن نستمد الدفاع عن أنفسنا دفاع اليائسين وبأن تتجمع القافلة فلا يبتعد عنها أحد ولا ينفرد بنفسه فريق. فكان أول شىء فعله سيدى أن ربط بندقيته وسيفه وغدارته ولفها بين الحقائب وادعى أنه مريض وأقلع عن عزمه السابق على الاشتراك فى القتال . ولف نفسه بعباءته وظهرت على وجهه علائم البؤس والتعاسة وصار لا ينقطع عن الاستغفار والتوبة ، واستعد لملاقاة القدر المكتوب عليه ونزع من نفسه فكرة الاحتماء بالجاويش لأن الأخير ترك المباهاة بقوته وصار يزعم أن معه « حجاباً » يقى القافلة شرور الاعتداء ويدفع عنهم سهام التركمان

وكان بعض الفتيان فى القافلة يباهون بقوتهم ويختالون فوق خيولهم إما لاظهار الشجاعة وإما ليحتفظوا بها فى أنفسهم . وأخيراً وقعنا فيما كنا نخشاه وسمعنا طلقات النيران ودوت فى آذاننا أصوات وحشية ، فاعترانا القلق جميعاً من مسافرين وركائب وتجمعنا بدافع الخوف فصرنا كتلة واحدة كما يتجمع سرب من الطير عند رؤية العقبان . .

ولكن لما ظهر أمامنا فريق من التركمان تغيرت الحال فتفرقنا وفر بعضنا يمنة ويسرة واستسلم البعض ومنهم سيدى عثمان فصاروا يصيحون : « يا ألله ! يارسول الله ! يا أولياء الله ! لقد هلكنا ! لقد متنا! »

ورمى البعض ما على فرسه من المتاجر ليخف حمله ويستطيع الجرى ثم ركض به . وأصابنا وابل من السهام ثم انقض علينا أعداؤنا ولم تمض إلا دقائق حتى صرنا فى أسرهم

وكان الجاويش من أوائل الهاربين فلم نره ولم نسمع له خبراً منذ سمعنا طلقات الرصاص. ولما اطمأن

التركمان إلى أنهم لن يجدوا مقاومة وضموا أيديهم على المتاجر فسلبوها . وكان سيدى قد اختبأ بين الحقائب المطروحة على الأرض منتظراً ما سيصيبه فاستكشف مكانه تركماني ضخم الجثة مرعب الهيئة فأخذ عثمان يتوسل إليه ويضرع بكل الألفاظ الدالة على الذل والخضوع ذاكراً أنه من أتباع أبي بكر وعمر لاعناً شيعة علي. ولكن شيئاً من ذلك لم يفده حتى أظهر له قماش العمامة الخضراء فعفا عن حياته ولم يبق على شيء من متاجره وإنما ترك له ما عليه من ملابسه وترك له حقيبة ثيابي لأنها لا تستحق أن تسرق، وكان فرحي شديداً حين ترك لي أيضا صندوق المواسي

وبعد أن أخذ التركمان ما أرادوا أن يأخذوه أسروا بعضنا وأطلقوا سراح البعض، وكنت من بعض الأسرى الذين ربطت أعينهم وشُدوا إلى ظهور الخيل . وبعد سفر يوم على هذه الطريقة تركونا في كهف

وفي اليوم التالي رفعوا الأربطة عن عيوننا فوجدنا أنفسنا في جهة لا يعرفها غير التركمان، واستأنفنا السير حتى وصلنا إلى سهل مملوء بالخيام السود وبه عدد وافر من الأغنام والمواشي المملوكة لأعدائنا

الفصل الثالث

التركمان — المواسي

لما اقتسم التركمان الأسرى كان من حسن حظي أنني كنت وسيدي عثمان أغا من نصيب رجل واحد هو اللص السفاح الذي سبقت الاشارة إليه وكان اسمه « أصلان سلطان » يعني سيد الأسود ، وقد كان قليل النظير في القوة والشجاعة، وكانت خيامه على حافة مجرى يجري بماء منحدر من التلال المجاورة، وكان على سفح تلك التلال حشائش خضراء ترعى بها الماشية

وقد أخذ بعض أقراننا إلى داخلية البلاد وقسموا بين قبائل التركمان التي تسكن في هذه المنطقة . وحينما ظهرنا في المعسكر اتجهت إلينا جميع العيون لتراناً، وقوبل الذي كنا من نصيبه بتحيات عالية تدل على أن له زعامة عليهم ، ونبحتنا كلاب المرعى التي خصص بعضها لحراستنا، وكانت زوجة هذا الزعيم مقيمة في خيمة من خيامه ، وكان لعثمان طيلسان أخضر يكسبه مهابة، فلما رأته تلك الزوجة أعجبها فأخذته منه ولم يبق على رأسه غير القاووق وهو نوع مستطيل من العمائم يحفظ فيه أمواله وقد طلبته الزوجة أيضاً لتقطعه وتضمه تحت هودج الجمل . ولما أعطاه إياها أخذته وألقته في جانب من جوانب الخيمة وقد حاول أن يحتفظ به ولكن عبثاً ذهبت محاولته . وأعطى بدلا منه غطاء الرأس كان يلبسه رجل مات من الأسرى وهو مصنوع من جلد شاة وقد مات هذا الأسير من حزنه لما تلقاه من سوء المعاملة

وكان هذا الأسير مكلفاً بخدمة الجمال، فلما مات أراد التركماني أن يضعني مكانه ، ولم يكن مسموحاً لي إلى ذلك الوقت بمغادرة الخيمة، وكان العمل الذي كلفت به منذ وصلت هو تحويل اللبن إلى جبن

وقد أقام الزعيم حفلة ابتهاج بنجاح الحملة على القافلة فأولم للكبار من أعوانه وذبح الذبائح ، وكان معظم هؤلاء الأعوان من الذين اشتركوا في مهاجمتنا

اجتمع الرجال فى خيمة والنساء فى خيمة أخري ، فقدمت للرجال أطباق الأرز وعليها قطع اللحم ، وبعد أن أكلوا حتى شبعوا نقلت الأطباق إلى خيمة النساء فأكلن ، ثم نقل ما بقى بها لرعاة الجمال فالتهموا بشراهة حتى امتلأت بطونهم ، ثم جيء لنا وللكلاب بالبقايا الأخيرة

وقد كنت أنتظر وقت مجيئها بصبر نافذ، لأن الجوع قد نال منى، وكان ما ذقته منذ أسرت تافهاً يسيراً ولكن فى أثناء انتظارى تلك الفضلات جاءت إلى خادمة فى السر بطبق مملوء بالأرز وبقطعة كبيرة من اللحم وقالت : إن التى أرسلته هى زوجة الزعيم وأنها تعطف على وتأمرنى بأن أتشجع

وقضى الرجال النهار فى التدخين وفى سرد حوادثهم . وقضاه النساء فى الغناء على الطنبور . أما أنا وسيدى عثمان فقد كنا فى حالتنا هذه وقلب كل منا مفعم بالأحزان . لكن تشجيع زوجة الزعيم وإرسالها لى الطعام قد جعلا خيالى يسبح فى الأجواء وتسليت كثيراً عن مصابى . ولم تكن كذلك حالة رفيقى الذى ضاق صدره وغلب عليه الهم ، وكنت أحاول مواساته بتلك الجملة التى تخفف عن كل المسلمين أحزانهم ، وهى « الله كريم ! » . فكان يقول : « الله كريم ! الله كريم ! ولكنك لم تفقد شيئاً وأنا فقدت كل شىء »

وفى اعتقادى أنه لم يحزن على شىء كما حزن على ضياع الكسب الذى كان ينتظره من شراء الجلود . وأنه كان يقطع وقته فى عد الأموال التى كان يقدر كسبها ولم يكسبها

على أننا افترقنا بعد وقت قليل فذهب عثمان إلى الجبل لرعى خمسين جملا، وهدده الزعيم بقطع أذنيه وأنفه إذا فقد واحداً منها ، وبأن يقطع من قوته ثمن الجمل الذى يموت : وإظهاراً لعطفى على عثمان أجلسته فى اليوم السابق على ذهابه أمام المعسكر وحلقت له . وقد رأى الجنود براعتى فاشتهر أمرى بينهم وأمرونى بأن أحلق لهم . وسرعان ما وصل الخبر إلى الزعيم فاستدعانى وأمرنى بأن أحلق له وبألا أضيع الوقت فأخذت أحلق بالموسى رأسه الكبيرة التى بها مائة التحام من آثار ضرب السيف

وكان هؤلاء التركمان يحلقون من قبل بنفس الآلة التى يقصون بها شعر أغنامهم ويحلق لهم أناس لا يحسنون هذه الصناعة. فأبدى الزعيم سروره. ولما وضع يده على رأسه ووجدها ناعمة ليس بها أى أثر للشعر مع أنه لم يحس بأى تعب أو ألم أقسم أنه لن يقبل فداء عنى مهما كانت قيمته ، وأكرمنى بأن جعلنى حلاقه الخاص . وإنى لأترك القارىء الكريم تقدير شعورى فى هذه الحالة

سجدت تحت قدميه وقبلتهما علامة على الشكر لهذا الاحسان وصممت على أن أنتهز فرصة الحرية التى ستتاح لى بعد ذلك فأهرب فى أول فرصة . ولكثرة اجتماعى بالزعيم صارت لى منزلة عنده وكنت أدبر خطة فى نفسى لأتمكن من النجاة

الفصل الرابع

اتقاذه الأموال واضراره على مقتلها

وكان من أهم أغراضى أن أحصل على عمامة سيدى عثمان وهى التى فيها أمواله وهى ملقاة فى جانب من جوانب خيمة السيدة . وكنت أريد الحصول عليها دون أن أثير أقل ريبة .

لما عرف فى المعسكر أننى حلاق وجد لى فيه أصدقاء، وكنت أعتقد أن العطف الذى وجدته من زوجة الزعيم سيزداد. ولكن مضت أيام طويلة لم تزد فيها تلك العلاقة على نظرة حنان منها ونظرة شكر منى.

ولكن الحلاقين فى البلاد الفارسية كانوا يزاولون بعض الأعمال الطبية مثل خلع الأسنان

وجبر العظام والحجامة والكي ومعالجة الجراح، وقد وجدت زوجة الزعيم نفسها في حاجة إلى أن تحتجم فأرسلت إلى تسألني: هل لي معرفة بالحجامة؟ فأجبت على الفور بأنها من صناعتي التي أحسنها كل الاحسان. وقام بعض رجال القبيلة بأعمال فلكية ونصبوا الأسطرلاب وقرروا أن الوقت المناسب لها هو الصباح المقبل.

وفي تلك الساعة المباركة قدمت إلى خيمة السيدة فوجدتها هناك تنتظرني بصبر نافد. ولم تكن من السيدات اللواتي يزعجهن رؤية السلاح في يد ضعيف مثلي. وهي مفرطة في السمن كالنساء اللواتي يحبهن الأتراك على النقيض من أذواق الفارسيين فانهم لايحبون من النساء غير الهيفاء الرشيقة، ولذلك لم يلائم جمالها ذوقي، وفضلا عن ذلك فانني أعيش تحت حكم الظالم « أصلان سلطان » ولو وصل إلى علمه أي شيء عني لما كان عقابي أقل من الموت.

ولقد كان التفاتها إلىَّ عظيماً، وكان خادماتها ينظرن إلى نظرتهن إلى الرجل الكبير النفوذ ويتملقنني، وقبل أن أباشر عمل الحجامة جسست نبضها فوجدته شديد الاضطراب، ودرت بلحظي في أرجاء الخيمة لأرى إناء يسكب فيه الدم المتخلف عن الحجامة فوجدت آنية ثمينة من البلور وطلبتها، ولكن زوجة الزعيم أبت وقالت إنها هي التي تشرب منها فاقترحت أن يؤتى بالعمامة التي كانت لسيدي السالف عثمان اغا

تفقدت السيدة تلك العمامة فلم تجدها وقالت لها الزوجة الأخرى إنها أخذتها وإنها أصبحت لها، وقام خلاف بين الزوجتين خشيت أن يصل إلى مسمع الزعيم فيدق عظام الزوجتين

ولكن المنجم تدخل في الأمر فقال للزوجة الثانية أنه لا ينبغي أن يساء إلى من ستحتجم وإلا كان ذلك مؤذياً لها وستكون عليها تبعة ذلك. فجاءت بتلك العمامة

ولما وضعت الموسى على ذراعها ورأت نظرات القلق في العيون المتطلعة إليها بدا عليها الخوف وخفت أنا أيضاً ألا أستطيع أخذ العمامة لهذا السبب، فقلت إن رفضها لا يفيد، لأن الحجامة ضرورية لها. واستشهدت بالمنجم واتفق الكل على تعضيد رأيي فتجلدت وتحملت وخزة الموسى. وقلت: إنه يجب أن يترك الدم الذي سكب منها فلا يقربه أحد غيري ويجب إخراجه من الخيمة ووضعه في مكان غير معرض للشمس لأن هذا ضروري لصحتها

فسمح لي بأخذ العمامة وفيها الدم وانتظرت إلى الليل ثم فتقت القماش وأخرجت ما فيه من المال وهو خمسون قطعة ذهبية وأخفيتها ثم أخفيت العمامة أيضاً.

وفي الصباح أخبرت السيدة بأني فعلت ما تقضي به أصول الصناعة فدفنت الدم بإنائه حتى لا يصيبها في المستقبل حادث مكروه، فأظهرت الاقتناع بهذا القول وكافأتني بطبق من اللحم طبخته بيدها وبآخر من الأرز

ولما صار في يدي المال تذكرت صاحبي الأول الذي قدر عليه أن يقضي حياته في شقاء وليس يشغل فكره غير عد الأموال التي فقدها والتي كان ينتظر أن يكسبها فلم يوفق إلى ذلك، وذكرت إكرامه لي فصممت على أن أحفظ له ماله. ولكنني بعد ذلك أخذت أناقش هذا الرأي فملت إلى العدول عنه وقلت في نفسي: « لولا حيلتي التي توصلت إليها بذكائي لما أمكن الوصول إلى هذا المال، وفضلا عن ذلك فان سيدي عثمان لن يستفيد من هذا المال وهو في عمله الجديد من رعي الابل في الجبل؛ وقد كان من القدر عليه أن يفقد هذا المال ومن المقسوم لي أن أناله. واعتبرت نفسي مالكا شرعياً لهذا المبلغ الذي لا أرى أي قانون يقضي على برده. ولكن نفسي حدثتني في الوقت نفسه بأن أرسل إليه نصف الذي أرسل

إلىّ من اللحم بواسطة الطفل الذى يساعده والذى كان يذهب كل يوم إلى المرعى والذى وعدنى بألاّ يأكل شيئاً منه ، وقد كنت أشك فى صدق هذا الوعد . ولكن لم يكن فى وسعى أن أركن إلى غيره وكان من العبث أن أحاول غير ذلك

الفصل الخامس

حاجى بابا يصير لصاً

مضى علىّ أكثر من عام وأنا فى أسر التركمان فاكتسبت ثقة لاحدّ لها من الزعيم وصار يستشيرنى فى كل أعماله الخاصة وفى الأعمال التى تتعلق بقبيلته؛ ورأى أنه يمكن الاعتماد علىّ فى كل شيء فعول على استصحابى فى غزواته إلى بلاد الفرس ، وهذه الثقة تهيئ لى الفرصة للفرار . ولكنه إلى ذلك الوقت لم يكن يسمح لى بالذهاب وحدى إلى ما بعد المراعى. وكنت أجهل الطرق المقفرة الصخرية الواقعة بيننا وبين فارس فرأيت أن محاولة الفرار عبث لا يفيد. وقد حاول بعض الأسرى أن يفروا فهلك فريق منهم فى الصحراء واضطر الفريق الآخر إلى العودة إلى سادتهم الذين زادوا فى الاساءة إليهم، فقلت فى نفسى إنه لا داعى إلى التعجيل بالفرار. ويجب أن أجعل همى مقصوراً فى هذه الغزوة على دراسة الطريق، فاذا لم أتمكن من الهرب عند وصولنا إلى فارس فانى أكون قد عرفت الطريق إليها وأهرب فى أى وقت أشاء

ومن عادة التركمان أن يجعلوا غزواتهم فى فصل الربيع لأنه يكون لديهم إذ ذاك غذاء وافر للماشية ويكونون واثقين من مقابلة قوافل فى الطريق. وكان ذلك الموعد قريباً فجمع أصلان سلطان شيوخ القبائل ورؤساء المائة ورؤساء العشرة والمهرة من اللصوص وأخذوا يدبرون الخطة لغزو البلاد الفارسية . وقد اجتمعت كلمتهم على غزو مدينة أصفهان فى الليل وهذه المدينة شهيرة بغنى تجارها.

وكان دليلنا فى هذه الرحلة هو الزعيم نفسه، لأن خبرته بالطريق أعظم من خبرة أى رجل سواه. وقد اعتمدوا علىّ فى إرشادهم فى طريق المدينة ولكن البعض منهم اعترضوا على ذلك وقالوا إنه لا يصح الاعتماد على رجل فضلا عن أنه أسير فهو من أهل البلاد المراد غزوها وليس يهمه شيء كما يهمه الفرار وبعد مناقشة شديدة تقرر أن أقودهم فى أصفهان على شرط أن يركب فارسان بجنبى أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى، فاذا رأيا منى ما يريبهما قتلانى فى الحال.

ولما تم الاتفاق على ذلك أعد التركمان خيولهم وألبسونى ثوباً من ثيابهم المصنوعة من جلد المعز ووضعوا على رأسى عمامة من فرو الغنم وأعطونى رمحاً طويلا وربطوا فى جوادى كيساً من القمح والخبز والبيض . وكنت فى مدة الأسر قد تعودت الصبر على الجوع والنوم على الأرض فصرت مثل سائر رفاقى الذين لا يعدلهم أحد فى الصبر وتحمل المشقات

وحرصت على إخفاء ما معى من المال وقلت لسيدى القديم إنه إذا أمكننى فداؤه أو حمل الزعيم على فك أسره فانى سأفعل ذلك فى الفرصة الأولى .

فقال لى إنه لا يفكر فيه أحد ، ولا يقبل أن يفتديه أحد، فابنه سعيد بان نال ممتلكاته ، وزوجته لا بد أن تكون تزوجت من رجل آخر وإنه لم يبق بنفسه أمل ، ولكنه يرجونى رجاء واحداً هو أن أسأل له عن أسعار الجلود فى الآستانة

وهنا قام بينى وبين ضميرى نزاع جدى بشأن ما معى من المال فقلت إن حفظه معى خير له وليس له أى أمل فى النجاة بغير وساطتى ، وإذا فررت ومعى مال خير من فرارى معدماً

وحدد المنجم ساعة ـ فرنا وكانت بالليل فركبنا، وكان عدد الضباط عشرين بما فيهم أنا والزعيم أصلان، وكنا جميعاً نركب جياداً مطهمة من خير جياد القارة الأسيوية . وكانت الليلة مقمرة ونحن

مسلحون بالسلاح الكامل، وقد كنت أشعر بأنى لم أخلق لأكون محارباً وإن كان فى مقدورى أن أتصنع حالة المحاربين من البسالة حتى يظن أصحابى أننى لست أقل شجاعة من رستم وهو أشجع بطل فى تاريخ فارس. ولكننى كنت بينى وبين نفسى أجزع من حلول يوم التجربة الذى تتضح فيه حقيقتى.

ولما سرنا فى الصحراء مدة اختلفت طبيعة الأرض ووجدنا تلالاً تسلقناها، وهنا ظهرت معرفة أصلان بالطريق، فقد كان مثله فى البر كمثل الربان فى البحر له فى معرفة الطرق ما ليس يسهل على غيره علمه

وكنا نسير بالليل ونستريح بالنهار حتى قطعنا أربعمائة وعشرين ميلا فوجدنا أنفسنا على أبواب أصفهان وصار الأمر متوقفاً على أكثر من أى إنسان، لأنه لم يكن فيهم حتى ولا الزعيم نفسه من يعرف طرق المدينة كما أعرفها، وكانوا يريدون دخولها من شارع كبير فيها ليس عليه باب وفى هذا الشارع خان الشاه وهو محط رحال التجار ويستحيل أن يخلو من أموال كثيرة ومتاجر؛ وكان فى نيتنا ألا نحدث هياجاً ولا ضجيجاً متى استطعنا إلى ذلك سبيلاً بل نأخذ ما تصل أيدينا إليه والناس نائمون ونعود قبل أن يستيقظوا إلى معسكرنا

هكذا كانت خطتهم. ولكننى وجدتها منطوية على كثير من الأخطار، والأمل فى نجاحها قليل فنهيتهم عنها، فنظر إلىّ الزعيم نظرة ملؤها العزم وقال: « افتح عينيك يا حاجى بابا فاننا لسنا أطفالاً وليس أمرنا لعباً. إننى أقسم إذا لم تسلك معنا مسلكاً حسناً بأن أحرقك حياً

ثم أمرنى بأن أسير بجوادى بالقرب منه وأمر وغداً آخر بأن يسير بجانبى الآخر. ثم تقدمنا نحن الثلاثة سائر الحملة فدخلنا فى الجزء غير المأهول من المدينة، فوجدنا المنازل الخربة ودخلنا فربطنا جيادنا ومشينا على أقدامنا دون أن نحدث هرجاً حتى وصلنا إلى الخان وقد كنت أعرفه وأعرف كل جزء فيه لمجاورته حانوت أبى، فأشرت إلى أصحابى بالوقوف وناديت البواب باسمه بأن يفتح الباب وكان اسم هذا البواب على محمد

فتح البواب وهو بين النوم واليقظة وقال لما رأى كثرتنا: ما هذا الموكب؟ ما هذا الموكب؟

فقلت: « نحن آتون من بغداد »

قال البواب: « بغداد! هل تريد أن تسخر منى؟ »

فقلت: « لقد جئنا من بغداد بالأمس » ثم لما رأيته مرتاباً قلت « أنا حاجى بابا ابن الحاج حسن الحلاق وقد ذهبت مع عثمان أغا كما تعلم إلى بغداد وعدت مزوداً بالأخبار »

قال: « هل أنت حاجى بابا الذى كان يحلق لى؟ مرحباً بك، لقد ظل مكانك خالياً مدة طويلة »

ثم أوقد شمعة فرأينا حجرة فسيحة بها أمتعة التجار. ولما رأى أصحابى ذلك عزموا على اختطاف بعض أغنياء التجار لأن أحدهم يستطيع أن يفتدى نفسه بأكثر مما نستطيع نحن حمله من المتاجر ولأن اختطافنا إياهم لا يكلفنا من المشقات والأخطار ما يكلفنا نقل هذه المتاجر

وقبل أن تحدث ضجة فى المكان اختطف زملائى ثلاثة من التجار المتحفين بالطيالس الحريرية المتوسدين السجاجيد الفارسية وأردفوهم على ظهور الخيل. وفى ذلك الوقت دخلت الغرفة التى كنت أعرف أن صاحب الخان يحفظ فيها أموال الضيوف فانتشلت الصندوق وجريت، وكان ذلك الصندوق مفتوحاً وبه عدد من الأكياس المتفاوتة الأحجام فخبأت فى ثيابى أكبر كيس منها، ولم نكد نخرج من الخان حتى استيقظ جميع من فيه وهاجوا، وكان البواب إذ ذاك مكتوفاً اليدين غائب الرشد من الخوف، ولم نكد نصل إلى مربط خيولنا حتى كانت المدينة قد هاجت كذلك وخرج الشجعان من رجالها يبحثون عنا.

« يتبع » عبد اللطيف النشار



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

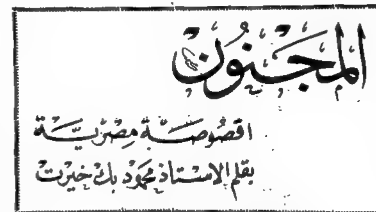
بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٠٠

العدد ٤٣ — ٩ رمضان سنة ١٣٥٧ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العــدد



لا مناص من الزواج لأنه ركن العمران وسعادة الأسرة . ولا شك فى أن أول الأسباب الحافزة إليه جمال التكوين لأنه مطمح الشباب والباب الذى ينفذ منه الحب، ولكن الجمال والشباب لا يدومان إلا كما تدوم الزهرة الناضرة ، حتى أن المرأة لتلجأ إلى كل الوسائل استبقاء لأثر حسنها الولى . وكذلك الرجل ، فكان مما لا بد منه أن يسد هذا الفراغ عاطفة غير عاطفة الحب تستقر بها هذه العلاقة وتستمر .

ثم إن الزواج فى العصر الحاضر ابتعد كثيراً عن معناه الروحانى الذى كان هناءالبيت، لانصراف الناس إلى المادة وافتتانهم ببريقها ، إلا أن العقلاء منهم ما زالوا يحسبون للزواج حسابا كبيرا لأن عليه مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وبناتهم

وإذا كان ليس بغريب أن الملاحين يرون غرق السفن بأعينهم ثم يعودون إلى البحر وأخطاره لأنه مادة حياتهم ومصدر رزقهم فإن من غير المستغرب أيضا أن الفتيان الذين يدفعهم جنون الشباب إلى تحطيم سفن الزوجية على صخور غوايتهم يعودون إلى ركوبها لأنهم مضطرون بحكم الناموس الطبيعى إلى التفكير فى الرفيق الصالح من طريق الزواج تيسيراً لمتاعب الحياة ...

ولكن كيف نوفق إلى اختيار هذا الرفيق والقلب عميق بعيد الغور هيهات أن يرتفع الحجاب عنه فنكشف ما ضمت غلالته من مختلف الشهوات والأهواء ؟

ولقد أمكن للعلماء أن يضعوا للكرة الأرضية خطوط الأطوال والعروض فأمكن لهم أن يهتدوا إلى أجزاء الدنيا العريضة الواسعة، ولكن بحر الزواج الشاسع المتنائى الأطراف لم يظفر يوماً بمثل هذه الخطوط نسبر بها قرار القلوب وما اندفن فى أغوارها من معانى الخير والشر وأسباب الاستقرار والانهيار .

ثم إن اختلاط الجنسين وتعارفهما قد يساعد على الالمام بأخلاقهما ولكنه فى الحقيقة إلمام ناقص لأن كلا منهما يجتهد فى كتمان عيوبه ويتكلف الظهور فى ثوب من محامد الصفات ليست فيه وقد تعمى القلوب أيضا عن جمال الصفات بجمال الذات « وعين الرضى عن كل عيب كليلة » .

على أن من الناس ذوى البصيرة النافذة من اعتادت عيونهم تحليل النفوس والنفوذ إليها فيستخلصون أسرار قلوب الناس من سكونهم وحركتهم وحلمهم وغضبهم ومن سرورهم وأحزانهم ومن أساليبهم فى أحاديثهم لأن كل ذلك ينشر من حولهم شبه موجات تحمل فى ذراتها الدقيقة أثرا محسوسا من تلك الأسرار .

وقد كانت « جلسن » من هذا القبيل حديدة

الذكاء بصيرة بعواقب الأمور حتى أنها لما خطبها « كمال » رفضت يده بمجرد نظرها إليه والاستماع إلى حديثه مع أنه فتى سري جميل . ولكنها قبلت يد آخر ليس بالجميل ولا بالدميم وهو مع ذلك رقيق الحال

وقد كانت هذه الفتاة فوق ما هي عليه من أسباب الفتنة ولباقة الشمائل على جانب عظيم من بعد النظر وسداد الرأى تبحث عن كمال السريرة قبل جمال الصورة وتنظر إلى الزواج نظرة التى تريد الحياة إلى جانب رفيق يقدرها ويحبها ، وقد قرأت فى سذاجة خطيبها الثانى مادة أولية يسهل عليها تكييفها بحيث تتفق مع طبيعتها وطبعها

ومن أبرز صفات هذه الفتاة أنها لا تجارى فتيات عصرها فيا يسمينه حسنات المدنية فكان من أبغض الأشياء إليها المشد لأنه يضغط على صدرها وأمعائها فيؤثر فى حركة التنفس ويسوق عملية الهضم ؛ وإنما كانت تكتفى عنه بحزام لين خفيف لا يؤذيها ، وعن أربطة الجوارب التى تمنع سريان الدم إلى قدميها بمشبك يصل طرف جوربها بطرف سروالها . وكانت تنفر أيضاً من المساحيق والأدهان والأصباغ لأنها تتلف البشرة وتذهب بمحاسن الوجه وشتان ما بين الملاحة الطبيعية والملاحة المجلوبة ، كما أنها كانت تمقت كشف صدرها وساعديها لأن ذلك يعرضها لتغيرات الجو والأمراض ولا يثمر غير الفتنة والإثم، وما تبخرت الفقة إلا من فتحات الأكمام القصيرة

وكان لأسرة جلسن أطيان فسيحة بشبين القناطر يباشر شؤونها ناظر كان كلما هبط إلى القاهرة يختلى به وتتحدث إليه حتى ألمت بأصول الزراعة الشتوية والصيفية وأنواع المحصولات وطرق رى الأطيان وتسميدها وبذرها وغرس عقل أشجار الفاكهة فيها ومواعيد جمع القطن وحصاد الغلال وتقليم الأشجار وتقليمها فى مشاتلها ولف فسائل النخيل بالخيش أو الحصير لوقايتها من أشعة الشمس إلى غير ذلك

كانت تحيط بكل هذا علماً وعملا لأنها كانت كلما قصدت إلى شبين مع أبيها تمر بالحقول وتجلس عند السواقي وتزور الأجران وتنطلق إلى زرائب الماشية وحظائر الدواب وتشرف على حلب الأبقار وتربية الدواجن وخلايا النحل حتى أن الفلاحين كانوا يدهشون من إقبال هذه الفتاة الناعمة على مثل هذه الشؤون الخشنة

ولقد مر على زواج جلسن وصادق نصف عام كانت السعادة فيه تظللهما بظلها والهناء يرفرف بجناحيه من فوقهما وهو يذهب كل يوم إلى عمله بينما تقوم هى على شؤون البيت ، وكان إذا جاء الليل يقضيان شطراً منه في الحوار والمطالعة ، وإذا حضر الشيخ ابراهيم أشركته معها فى التحدث إليه لتدربه على مثل هذه الأمور التى يجهلها كما أنها كانت ترافقه إلى شبين أحياناً ليكون ما ألم به ثابتاً من طريق عملى

وكان الفلاحون يستقبلونها فرحين وقد اصطفوا على جانبى الطريق ، وهى تحييهم وتوزع ابتساماتها عليهم وتسألهم عن صغارهم ثم توزع عليهم ما حملته لهم معها من الهدايا والحلوى . وهى تقصد من كل ذلك أن تمد زوجها للأشراف بنفسه يوماً من الأيام

على هذه الشؤون لاسيا وأن مرتبه من الحكومة ما كان يتجاوز تسعة جنيهات

وكان كل هذا يبلغ مسامع كمال فتثور نفسه ويأكله الحقد على صادق الذى امتلأت يده بهذه السعادة من دونه وهو لا ينسى ذلك اليوم الذى رفضت جلسن يده فيه فيحز فى نفسه أنها تبيعه لتشترى ودّ ذلك النمر الذى ما كان ليطاوله فى المال أو الجمال . ولذلك وقر فى نفسه أن ينتقم بالسعى إلى إفساد هذا الزواج مهما كلفه من الجهد .

وإذا كان الطريق إلى ذلك يقضى بالاتجاه نحو المرأة لضعفها ولأنها خلقت لتحب وتنعم ، ولكنه يعرف من أخلاق جلسن وصلابة عودها ماصرفه عنها إلى زوجها زميله من أيام المدرسة لأنه ساذج سليم النية فهو خير مطية يصل بها إلى غرضه ؛ فيفسده عليها حتى لايبقى لها منه إلا جثة تتحرك أقفرت من تلك الروح التى تحاول إعطاءها شكل القالب الذى فكرت فيه . وكل ما كان عليه أن يهتم له هو إحكام المكيدة التى يدبرها لأن القدرة فى عينه ليست فى الضربة الشديدة ولكن فى الضربة الشديدة التى تصيب .

* * *

وكان صادق إذا خرج للرياضة فى المساء لايتأخر عن الساعة الثامنة ليتناول العشاء معها . ولكنها شعرت فى الأيام الأخيرة أنه كان يرجع بعد تلك الساعة . وكان إذا سألته فى ذلك يدعى أنه تأخر مع إخوانه لأن الحديث كان يلهيهم بغير أن ينتبهوا ثم يعدها بأنه سوف لا يتأخر بعد ذلك ، ولكنه مع هذا يستمر فى تخلفه ، بل إنه كثيراً ما كان يتأخر إلى منتصف الليل وإلى ما بعده . وأحياناً كان يقضى سواد الليل بعيداً عنها ...

وكان كمال لاتخفى عليه خافية من أحوال صديقه يستدرجه إلى الكشف عنها فى حديث أخاذ ظاهره مثر وباطنه محجوب بما ينمقه له من حديث الأخلاص وصداقة الصغر

وكان خالياً يقضى أكثر وقته بين الكؤوس والغوانى على خلاف صادق الذى لم يكن أول عهده بالحب إلا عند صدر زوجته وهى لاتبسطه إلا بالقدرالذى تستبقيه به، فكان حبها له كالملح فى الطعام قليله يصلح وكثيره يفسد . نعم إنه كان فى وسعه أن يستزيد منه أو يحسن تذوقه ولكنه كان كالعازف على آلة يجهلها ولم تمرن أصابعه عليها فأوتارها لاتخرج من النغم ما تطرب له أذناه .

وكان كمال يلمس هذا الضعف فيه فاتخذ منه خيرة لما هيأ نفسه الشريرة له من وسائل الكيد . وهكذا أبعده عن زوجته على الصورة التى ذكرناها وهو يشجعه شيئاً فشيئاً على السهر ويدفعه إلى الشراب ثم إلى غشيان مجالس الساقطات من النساء وعند ذلك يخيل إليه أنه عثر على ذلك النغم الذى أخطأ أصابعه فى البيت فيمعن فى الرذيلة دون حاجة إلى إيعاز جديد من ذلك الصديق المفسد .

ولقد فكر صادق فيما ينفقه على هذا السبيل ، وكان قد أهدى إلى زوجته خاتماً من ماس فى صدر زواجه فعمد إلى أخذه بحجة صياغة ذهبه على ابتكار حديث. وهكذا باعه، ولكنه بعثر ثمنه كما أن المصلحة قررت فصله لتكرر انقطاعه وتراخيه فى عمله

أما جلسن فقد أحست من أول ليلة تأخر فيها

بالخطر الذى يحدق به وبها . وكانت غير مطمئنة إلى ما كان يسوقه لها من وجوه المعذرة فأوعزت إلى أخيها بمراقبته . وهكذا وقفت على حركاته يوماً فيوماً كأنما كانت تقع على مرأى منها ، حتى إذا ما علمت بأمر بيع الخاتم وقرار المصلحة ، أحست الهاوية التى عنـد قدميه وضرورة العمل لزحزحته عنها لأن من أعظم الأخطاء العجلة قبل الامكان والتأنى بعد الفرصة

وكان صادق كلما أراد كمال أن يتقدم به خطوة إلى الأمام فى الطريق الذى دفعه إليه يحاسب نفسه ويوازن بينها وبين نفس زوجته فيندم على ما أساء إليها وفرط فى حقها ويقوم فى خاطره أن يسارع فى الاعتراف لها وطلب غفرانها وهى التى فضلته على غيره وآثرته على فقره . فلماشعر كمال بأن ندمه أخذ يستيقظ وأن صوت ضميره يناديه أسرع إلى خنق هـذه العاطفة التى ظن أنه قضى عليها وانتهى منها فشرع يوسوس له بأن امرأته ما كانت لتحبه وإنما أرادته ليكون زوجاً ... وكفى . وإلا فمن هى تلك التى يتقدم لها من الخطّـاب من يفضلونه فى كل نواحى الحياة من حسن وغنًى وجاه فتعرض عنهم إليه إلا إذا كان لها غرض محجوب . ثم لم تجمعه بناظر الزراعة ليلقنه مبادئها مع أنه موظف ؟ بل لم يفرض عليه الرحيل إلى شبين فى أيام العطلة التى كان أولى بقضائها إلى جانبها ؟ نعم إنها لم تتخلف عن مرافقته إليها إلاّ مرة واحدة . ولكنه فى المستقبل لن تقوم له حجة فى اصطحابها ، وهى زوجة عملها فى البيت وهو رجل من شأنه الحركة والسعى . وهكذا ضاعف مخاوفه وحمّـم ظنونه تجرفه التيار ..

أما جلسن فلم يساورها شك فى أن كمال هو الذى أفسد ما بينها وبينه وما تزاحم الظن على أمر مستور إلا كشفه . وكانت لا تزال تذكر رفضها الزواج منـه وأنه كثيراً ما حاول الاتصال بها وهى تحتقره وتعرض عنه . ثم تعود فتذكر زوجها وخفّـته التى جرّت إلى الاساءة إليها وإلى نفسه . ولكنها كانت مع ذلك تلتمس له العذر وقد استغلّ ذلك الشيطان سلامة قلبه وحسن طويّته

وكان على أثر ما انتهى أمره إليه لزم سريره وقد أصابته حمّى شديدة عصفت بعقله حتى أوصى الطبيب بالحذر من إثارة أعصابه لأن الحالة التى أصبح فيها تنذر بثورة عنيفة مقبلة فهو بحاجة إلى السكون والراحة وفيهما سلامة محققة تحول دون وقوع تلك الثورة التى قد تكون سبباً فى شفائه كما قد تكون القاضية على حياته . ولذلك قامت جلسن بنفسها عليه خير قيام وهى تبتسم له وتتحاشى لومه وتشجّـعه وتواسيه

وكان صادق فى فترات رشده يعجب بهذه الزوجة التى أخذ صديقه يحذره منها ويرميها بما ليس فيها ، وهو يقول فى نفسه إذا كانت على ما وصف فلم عنايتها هذه به وإشفاقها عليه ؟

وكانت جلسن إذا خلَت إلى نفسها تتناول ذكرى ذلك الجرم الذى كاد يقضى عليه وهى حيرى لهذه الوسـيلة الدنيئة التى لجأ إليها والغرض الذى كان يحاول النفوذ إليه منها . ثم تقول إن زوجها صديقه من الصغر ولم يفعل معه مايوجب أن ينقلب عليه بمثل تلك القسوة التى لا ذنب له فيها وقد كانت بالعكس أولى منه بانتقامه فلم وجّـهه إليه ولم يوجّـهه

إليها . وعند ذلك يتزحزح الغطاء شيئاً فشيئاً عن هذا المعمى الذى طالما حيّرها . وهو أنه أراد من إفساد زوجها أن يسوّئه فى عينيها فينصرف عنه قلبها وهكذا يخلو له بها الجو . وترتّب على ذلك أنه لا بد إذن من عودته إليها لتنفيذ تلك الغاية السافلة بعد أن مهد لها بذلك التمهيد الجهنمي ولذلك انتظرته بقدم ثابتة

* * *

— لقـــد حزّ مرضه فى قلبي فأسرعت لأطمئن عليه

— لا غرابة فى ذلك . وأنت صديقه ... الحميم

— ولكنى سمعت يا هانم بأنه جُنّ

— ... تقريبا . ولذلك فنحن نحرص كل الحرص على راحته

— وهل تظنين أنه سيشفى ؟

— ولم لا ؟

— ولكن مثل هذه الحالة قل أن تجد سبيلها إلى الشفاء لأنى علمت من طبيبه أنه على باب ثورة عنيفة قد تعصف به

— وقد تشفيه ...

— ربمـا . ومع ذلك فالذى يشغلنى كثيراً هو أنت أيتها السكينة . لأنه إذا ذهب فقد استراح وإذا شفى فلن يكون نصيبك منه غير العذاب . فـما الذى بقى لك الآن منه وقد انصرف إلى ملاذّه التى انغمس فيها وهو يقضى لياليه بعيداً عنك بين أحضان النساء وأكواب الشراب . من كان يظن أن هذا الحمل الوديع يهوى إلى هذا المنحدر بمثل هذه السرعة المدهشة وإلى جانبه كنز من كنوز الحسن ... وثمرة شهية لا تطلب غير الحب ... ولكنه على ما يبدو لى جامد الشعور أو ينقصه كثير من سلامة الذوق وإلا لخرّ ساجدا بين قدميك ولجعل لك من قلبه محراباً يعبدك فيه . وعلى كل حال فلعلك تدركين الآن أنك لم تحسنى الاختيار وأن حسابك أخطأ برفضك يدى وإيثارك إياه علىّ ..

(تسمع فى خلال ذلك حركة فى الغرفة المجاورة ولـكنه يستمر فى حديثه)

ولـكنك ...

— ولكننى لم أخطئ فى حسابي يوماً ولا خطر ببالى أن أندم على اختياره وقد كان عفّ اللسان . طاهر الثوب سليم الضمير . ولكن الأصدقاء ... قرناء السوء هم الذين جروه إلى هذا الدرك . ومن الغريب أنك تدعى صداقته وتباهى بها ولكنك لم تعمل عملا يدل على تبادل عواملها بينك وبينه

— ومن أدراك أنى لم أمحّضه نصحى وأحذره من عاقبة ضلاله . ولكن مالنا ولـكل هذا وقد قضى الأمر فـلمَ تفكرين فيه ولا تفكرين فى مستقبلك أنت . إنك ياجلسن لا تعلمين مقدار الحب الذى فى قلبي لك والعذاب الذى أعانيه فيك ...

ولو أن هذا العذاب كان ابن يوم أو يومين لاحتملته ولقضيت على سببه . ولكنه قديم ، قديم يا جلسن ، من ذلك اليوم الذى تقدمت فيه إليك فأعرضت عنى وحطمت قلبي . وكم حاولت أن أجد السبيل إليك فأرى الأبواب موصدة فى وجهى حتى إذا سافر إلى شبين يوما من الأيام بغير أن

ترافقيه قلت في نفسي لقد سنحت الفرصة . ولكني لم أكن أوفر حظا فرفضت مقابلتي وأغلقت أبوابك من دوني ...

وعند ذلك ينفتح الباب على مصراعيه وينطلق منه المريض وقد احتقن وجهه واتقدت عيناه وكان وافر الجسم قوي البنية فساد السكوت وهو يذرع الغرفة طولا وعرضا ثم وقف أمام صديقه والحمى تصهره والغضب يرجه :

— أنت هنا ؟ شرّفت يا « حبوب » أهلا وسهلا يا « أنس » أليس كذلك يا « جامد » ؟ إنني أعيد على سمعك نفس الكلمات التي كنت تستقبلني بها في مجالس شرابك وفجورك وأنت تدفع الكأس إلى فمي والنساء إلى صدري وأنت هناك تحسّن لي القبيح وتقبح في عيني الحسن لأنك تريد أن أعرف كيف أسابر العصر . أما هنا فمعنى ذلك أنك كنت تمحضني النصح وتحذرني من عاقبة الضلال . أليس كذلك ؟ ومن العجيب أنك كنت تمتنع عن زيارتي بحجة أنك خطبت امرأتي من قبلي وأن أدب السلوك ودقة الموقف يحولان دون ذلك ، فماذا جاء الآن بك وأنت الذي كنت تحاول هذه الزيارة من قبل في غيبتي ... لقد كنت أعمى حين وثقت من صداقتك وأحسنت ظني فيك . وما جرني إلى طريق الغواية إلا أنت ، ولا حاول إفسادي إلا أنت ، ولا طعن هذه السيدة الطاهرة في عفتها إلا أنت ؛ فلما أفلتّ آخر سهم من جعبتك وبلغت المأمول من غايتك ، جئت إلى هنا تتسلل كاللص لتسرق امرأتي بعد أن سرقت صوابي وعقلي . جئت إلى هنا وأنت آمن بجنوني آمن بجوتي

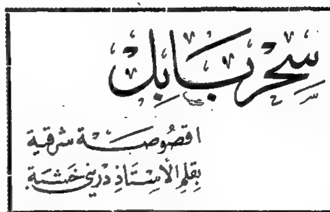
مالك سكت . تكلم يا حبوب . تكلم يا أنس . تكلم يا جامد ... ولكنك لا تجرؤ لأنني سمعت بأذني ورأيت بعيني

نعم أنا الآن مجنون فاحذر جنوني ، وإنني كتب عليّ الموت ولكن بعد أن أجرعك كأسه بيديّ

وعند ذلك صرخ صرخة هائلة ، ثم أطبق على عنقه بيديه القويتين فلم يتركه إلا ميتاً

وكانت هي الثورة العنيفة التي أشار إليها الطبيب ... ولكنه شقي !

محمود خيرت



كان القمر الساهر يسكب ذَوْب فضته على أطلال بابل النائمة فوق عُدْوَة الفرات الشرقية، حينما خرج الشيخ فوزان من كوخه الجاثم فوق العُدْوة الغربية، ميمماً شطر المرفأ الساكن، ليركب في الزورق الذي اعتاد أن يحمله في عرائس الليالي العربية المقمرة إلى عذراء حورابي[1] الراقدة تحت أضغاث الزمان

وكان الليل البابلي الرائع مفعماً بالذكريات، وكان في كل حَبَّةٍ من لُجَيْن القمر المنتثر في صفحة الفرات طيف من أطياف البابليين والأشوريين والأكاديين والكلدان يسبح خلف الزورق، أو يرقص فوق السُّكَّان، أو يحملق في غُرَّة الشيخ فوزان ... هذا الشيخ العجيب الذي افتتن به الشعب، وانعطفت إليه أفئدة الخلق، وسُحرت بخوارقه قلوب الناس

لقد كان الشيخ فوزان يلعب بالأفاعي السامة ذوات القرون فما تصيبه، وما تلحق به أذى؛ وكان يرسل النظرة الحادة من عينيه الصارمتين فيحرك بها الصخر عن موضعه، ويلوى بها أعنة الدواب في سيرها ... وكم من مرة تمتم بكلمات لا يفهمها إلا الشيطان فيقبل الشجر فينثر عليه من رُطَبِه، ثم يمضى تبارك الله فيكون في مغارسه

وكان النسوة من جميع القرى المجاورة يقبلن إلى كوخ الشيخ فيلصقن به حتى يتأذَّن فيَشفى مرضاهن ويُذهب أوصابهن؛ وهو في كل ذلك لا يتجشم شيئاً، إلا رقية ينفثها في أذن المريض أو المريضة، أو تميمة يُنمنم حروفها المرتبكة بماء البصل ثم يجعلها في جيد النادة أو ظهر الفتى الأمرد فيهرول سليما معافى بإذن الله

وكان معروفاً مع ذلك بالتقى والصلاح، ولم يكن أحد يعرف غرامه بالخمر، ولا ولوعه بالموسيقى، ولا سيما الناى. وكان فوزان حصيفاً حازماً، فكان يستعين على هذين بالكتمان

* * *

ركب إذن في الزورق ومعه نايه وزجاجته، ثم هم، فهمهمت حوله أطياف الملوك الغُر والفتية الصِّيد من أبناء بابل ... وتبسم القمر الساخر وأخذ يسطع بشدة فوق العمامة المكورة والعباءة البيضاء ... وفي وسط الفرات، بدا للشيخ أن يتشبه بالملك بختنصر، فرفع المجاديف وأوقف الزورق ثم جذب الفدام ووضع الزجاجة في فمه حتى ارتوى. وما هي إلا لحظة حتى استدار رأسه وبَرَق القمر في عينيه، وامتلأ النهر حوله بالجنيات الجميلات

ومع ذلك كله لم يثب صواب الشيخ، ولم يضع من حلمه شيء، بل هم مرة أخرى بالزورق فلم يزل به حتى بلغ شاطئ بابل فنزل فيه، ومعه الناى والزجاجة

(١) حورابي مؤسس مجد بابل وصاحب مجموعة الشرائع التاريخية

وسرى بين الأطلال الشاخصة حتى بلغ آثار البرج الكبير فخلع عباءته ، وفرشها فوق حجر عظيم من حجارة المرمر التي هناك ، ثم جلس يحتسي النُّطفَ الأخيرة الباقية في الزجاجة

وتناول نايه ، وطفق ينفخ فيه ... وخُيل له أن المدينة الميّتة قد انتفضت تحت الثرى وهبت من سباتها الطويل ، وأرهفت آذانها تتسمع وتَتَطرّب ، فغلا الشيخ في النفخ ، ولم يبال أن تضج رفات الموتى البابليين

ثم سكت قليلا ، وتوارى القمر الساحر وراء سحابةٍ رقيقة فشاعت في الوجود رهبة طارئة ، وأمسكت القمراء أنفاسها ، ثم ما هي إلا لحظة حتى رجفت الراجفة تحت بابل فمايلت أوتادها واهتزت جوانبها وتشققت عن كل جبار عنيد

وظن فوزان أنه يحلم ففرك عينيه وحلق في الآثار المضطربة أمامه ، لكنه رآها ترقص رأى العين ، فأيقن أنه البلاء من الله ، فتشهد وسبح باسم ربه ، وندم على ما عصى أمر الخالق من معاقرة بنت الحان في مثل ذاك المكان ، الذي لم يكن يصلح إلا للعظة والادّكار ، والتفكر في أمر هذه الدنيا الفانية التي تضج أحيانا بصولة الأمراء وجبروت الملوك ، ثم ينفذ الأمراء والملوك إلى أعماق رموسها فهم في بطونها حديث مروى وذِكْرٌ صامتات

ثم انشق بطن بابل فجأة ، فصعد منه جداران عظيمان عُلق بينهما شبحان هائلان ذَوَا أجنحةٍ مثنى وثُلاث ، وقد ربطت أقدامهما بأمراسٍ من نار ، وتدلى الرأسان العظيمان إلى أسفل ، وجعل لهب أزرق ينبعث من بدنيهما ، وشَرَرٌ كبير يتقدح من عيونهما ومنخريهما

وتبسم فوزان مع ذلك ... وحسب أن ما رأى وما سمع إن هو إلا تهاويل مما تصنع الخمر برؤوس المخمورين ... ثم أراد أن ينصرف ، فالتفع بعباءته ، وحمل نايه وزجاجته ... وما كاد يخطو خطوتين حتى سمع أحد الشبحين يقول وهو يبكي : « رباه ! رباه ! تبت إليك ، وندمت على ما فعلت ، وإلا تغفرْ لي أكن من الهالكين ! » . ثم سمع الآخر يقول : « يارب ! وسعت رحمتك كل شيء فكيف تضيق بما جلتنا ؟ اللهم لقد أعذَرَنا الناس فخفف عنا ! »

فخافتَ فوزان بالحديث إلى نفسه : « ما هذا ؟ ماذا أسمع ؟ تالله لأعودن وليكونن لي مع هذين حديث ... أبداً ماصنعت الخمر بي مثل هذا أبداً ! »

وعاد إلى مكانه ، وهدأ من روعه ، ثم حيّا الشبحين بتحية الأسلام فرداها وأحسنا ، وعادا إلى ما كانا فيه من شَجوٍ وشَكو

— نَشدتُكما الله يا صاحبيّ أن تقصا عليّ قصتكما !

— عُدْ يا ابن آدم من حيث قدمت ... فما أنت وما نحن فيه !

— لقد سمعت أحدكما يتوب إلى الله ويستغفره ، وسمعت الآخر يستعتبه ، فما ذاك أثابكما الله وخفف عنكما !

ونظر إليه الذي سمعه يستعتب الله فتأفف ثم قال :

— اذهب لحاك الله يامفتون ...

— مفتون ؟... لا والله ما أنا بذاك !

— وما تلك بيمينك يا رجل ؟

— هذه ... ؟... هذه زجاجة !

— ألق بها وانج بنفسك يامسكين !

— وماذا عليّ منها أيدك الله ؟ !

— عليك منها ما ترانا الآن فيه يا مخبول !

— لست أفهم !

— أيكما شرب صاحبه : أنت أم الزجاجة ؟ ألق بها وتب إلى الله ، وآل على نفسك ألا تقارفها قط ، واحمد الله على أن رأيتنا فى هذا العذاب بسببها اكسرها يا أتعس خلق الله ؟

— ولكن ...

— يا ربنا آمنا بك ، وندمنا على خطايانا ... آه ! واحرباه !

— ألا تذكران لى من أنتما أنابكما الله وخفف عنكما !

— إذهب .. إمض بها أيها الخاسر فسيسحتك الله !

— ولكن ... من أنتما ؟

— لن تصدق إذا ذكرنا لك !

— وكيف ؟

— إذن ... نحن مَلَكان !

— من ملائكة الله ؟

— جاهل وغبى ... وهل لغير الله ملائكة يا أحيمق ؟

— وبم طردكما الله من سمائه ؟

— بهذه التى فى يمينك !

— وَىْ ! والله لاذقتها بعد اليوم أبداً ! ولكنكما ملكان يا صاحبىّ ، فكيف شربتما هذا الأثم ؟ !

— تلك قصة طويلة فامض عنا هداك الله ، وخلّنا فيما نحن فيه من ذاك البلاء

— لا والله لا أفعل حتى أسمع منكما ، لأروىَ المسلمين لعلهم يهتدون

— ومن المسلمون هداك الله ؟

— المسلمون ! ألا تعرفان من المسلمون وأنتما مع ذاك تذكران أنكما ملكان من ملائكة الله ؟

— يا أخانا إننا ما نزلنا إلى الأرض إلا فى زمان إدريس عليه السلام ، ونحن فى ذاك العذاب منذ ذاك الأوان !

— ويحكما ! إذن فاعلما أن المسلمين هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم !

— أو قد بعث محمد ؟

— بعث محمد وانتشر الاسلام فى المشرقين والمغربين !

— ومنذ كم بعث محمد رضوان الله عليه ؟

— منذ ثلاثة عشر قرناً

— ياربنا لك الحمد . . إذن لن يطول عذابنا !!

— ولِمَهْ ؟

— لأننا كنا نعرف ونحن فى السماء أن محمداً لايرسل إلا فى آخر الزمان

— صلى الله على محمد وعلى آله وسلم

— أفأنت مسلم من أمة محمد يا أخانا ؟

— مسلم وابن مسلم ولله الحمد

— وهذه الزجاجة ؟ ! ألم ينهكم محمد عن الخمر ؟

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! نهانا الله

من الخمر فى كتابه الكريم !

— وفيم شربك الخمر أيها الفاسق إذن ؟

— عفا الله عنى ياصاحبى ، لقد كنت أقول إنها أهون المحرمات ! !

— وى ! لقد وقع المسلمون فيما وقعنا فيه ياهاروت ! !

— أجل! لقد قالوها كما قلناها ياحبيبى ماروت!

* * *

وشده فوزان حينما سمع الملكين يتناديان بهذين الاسمين ، وسرت فى جسمه قشعريرة باردة أبرد من قشعريرة الموت ، ثم لم يملك إلا أن ركع أمامهما وطفق يبكى ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة

— ياهذا أنت مسلم وتركع لغير الله سبحانه ؟

وخجل فوزان فانتصب واقفاً ثم قال :

— أأنتما هاروت وماروت حقاً ياصاحبى ؟

— أجل أنا هاروت وهذا أخى ماروت

— ويلكما ! ! لقد ذكركما الله فى كتابه إلى محمد !

— ذكرنا الله فى القرآن ؟ وعمرك الله ماذا قال سبحانه ؟

— قال تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » صدق الله العظيم

— صدق الله العظيم يا أخانا المسلم ... صدقت يا ألله ! صدقت ياربنا ! اللهم فرج كربنا واقبل توبتنا واغفر ذنبنا واعف عنا يا أرحم الراحمين !

واستخرط الملكان فى البكاء . فتنظر فوزان حتى هدأا ، ثم سألهما :

— نشدتكما الله إذن إلا ما أخبرتمانى بما وقع لكما ، مما استوجب طردكما من السماء ، وكتب لكما سوء ذاك المآل !

— إعلم ياأخانا أن الملائكة[1] لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس عليه السلام ، عيروهم بذلك وأنكروا عليهم ، وقالوا لله سبحانه : هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركبت فيهم لتعلتم مثل مافعلوا. قالوا: سبحانك: ربنا ما كان ينبغى لنا أن نعصيك . قال الله سبحانه . اختاروا إذن ثلاثة من خياركم . واأسفاه علينا ؟! اللهم لا حول ولا قوة إلا بك يارب !

قال ذلك وتفصد العرق من بدنه كالمهل ، ثم أنّ أنيناً مؤلماً وقال :

— ولسوء طالعى وطالع أخى ماروت اختارنا

(١) الرواية هنا عن ابن إسحاق بتصرف قليل

الملائكة واختاروا ثلاثا لنا أخانا عزرائيل . وكنا ثلاثتنا من أتقى الملائكة وأكثرهم ورعا ، بيد أن عزرائيل كان أحصف منا وأكيس ، فكتب الله له السلامة ، وكتب علينا الشقاء فبؤنا بهذا الخزى الذى ترى !

— لست أفهم ياهاروت فأفصح خفف الله عنك !

— سأذكر لك فلا تعجل ... أوه ، النار تدب فى عروق فالهم غفراً وتخفيفا !

— خفف الله عنك ياهاروت ؟

— لا كتب الله مثلها لك ياصاح ! .. أقول : ثم إن الله سبحانه ركب فينا الشهوة الملعونة التى ركبها فيكم يابنى آدم ، وأهبطنا إلى الأرض ، وأمرنا أن نحكم بين الناس بالحق ، ونهانا عن الشرك والقتل بغير الحق ، والزنا ، وشرب الخمر .. فأما عزرائيل فانه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربه ، وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه ، وسجد أربعين سنة ، ثم رفع رأسه ، ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياء من الله تعالى ... ألا ما أسعده ! ألا ما أسعده !

— وأنتما ياهاروت ، ماذا أصابكما ؟

— كل شر وكل شر يخطر أو لا يخطر على قلوبكم أيها البشر ! لقد لبثنا شهراً أو نحوه نحكم بين الناس بالعدل ، فاذا أمسينا ، ذكرنا اسم الله الأعظم وصعدنا إلى السماء . ثم افتتنا بعد ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

— وكيف !؟

— لشد ما أخجل أن أذكر لك !

— لا عليك فقل !

— اختصمت إلينا يوماً امرأة مفتان يقال لها ناهيد[1] ، فما كدنا نراها حتى أخذت بقلبينا ... فـ ... فراودناها عن نفسها فأبت وانصرفت ؛ ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلنا مثل ذلك فقالت : لا ! إلا أن تعبدا ما أعبد ، وتصليا لهذا الصنم ، وتقتلا خصمى الذى شكوت إليكما ، وتشربا معى من هذه الخمر . فقلنا لها : لا سبيل إلى هذه الأشياء فان الله قد نهانا عنها . فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من الخمر ، وفى نفسها من الميل إلينا ما فيها ، فراودناها فأبت ، وعرضت علينا ما قالت بالأمس ... فنظرت إلى أخى ماروت ونظر أخى ماروت إلى ، وقلت له وقال لى ، ثم قلنا : إن الصلاة لغير الله أمر عظيم ، وقتل النفس أمر عظيم كذلك وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربت لا هنيئاً ، وشرب أخى ... وشاعت فينا حمياها فطمس الله بصائرنا ، وارتكبنا كل الآثام التى نهينا عنها !

ولما بلغ هاروت من القول هذا الحد أخذته برحاء العذاب فصرخ وصرخ ماروت مثله ، ولبثا فى ألم وتبريح ساعة كان فوزان يصلى من أجلهما أثناءها ، فلما فاءا وصل هاروت حديثه فقال :

— أرأيت يا أخانا ما صنعت الخمر بنا ؟ لقد قلنا مثلك إنها أهون الشرور فخسوناها فأوقعتنا فى جميع الشرور ، فاحذرها ، ولتكن لك فينا أسوة

— إى وربى لن أذوقها بعد الليلة قط . ولكن

---

(١) هى فينوس اليونانية . وناهيد هو اسمها الفارسى . والزهرة اسمها العربى .

حدثني عفا الله عنك يا هاروت، كيف آل أمركما إلى ما أرى ؟

— حاولنا أن نصعد إلى السماء بعد إذ أعنتنا إعنتنا فلم تطاوعنا أجنحتنا ... وحقت علينا لعنة الله بما زنينا وعبدنا صنم ناهيد وقتلنا رجلا منكر رآنا ونحن نصنع أولئك فخشينا أن يشهد علينا فيفضحنا ، كأنما نسينا أن الله كان معنا وهو بكل شيء محيط !

— ثم ...

— ثم شق علينا ما حل بنا ، وكان إدريس نبي الله على مقربة منا فتوجهنا إليـه ، وقلنا له : يا إدريس : إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى الله ... وشفع لنا إدريس ، وجاءه الوحي يخيّرنا بين عذاب الدنيا نحتمله ونصبر عليه ، وبين عذاب الآخرة يكون سرمداً ... فآثرنا عذاب الدنيا لأنه ينتهي ، ولأنه أخف وأهون

— أوَهذا الذي تسـنبانه أخف من عذاب الآخرة وأهون ؟

— وماذا رأيت من عذابنا ؟ أواه لو رأيتنا نعذب بسياط زبانية كزبانية جهنم ، أو لو رأيتنا نرجم بحجارة مُسوَّمة وشواظ من نحاس !

— وناهيد يا هاروت ! ماذا كان من أمرها بعد ذلك ؟

— وا أسفاه !! لقد علمناها الاسم الأعظم فصعدت به إلى السماء فسخها الله كوكبا كلما غرب انشق بطن بابل علينا كما ترى !

— خفف الله عنكما يا صاحبيّ وعفا عنكما ... ولكنـكما كنتما تعلمان الناس السحر ، فما ذلك أثابكما الله ؟

— كنا نفعل ، وكنا نحذر الناس مما نعلمهم وتقول لهم : (إنما نحن فتنة) ، بيد أنهم ما كانوا يسمعون ، وهل سمع الناس إلى ما أتاهم على رسل الله ؟

— كلا والله إلا الأقلون ! ولكن يا صاحبيّ ، نشدتكما الله إلا ما علمتماني مما علمكما الله ؟!

— آه يا هالك ! وأنت مع ذلك تحفظ كتاب الله وقد رأيت ما نحن فيه ؟!

— علماني نشدتكما الله !

— كلا ! بل أنت تنشدنا الشيطان ! إذن فاجلس نعلمك ما يقصم الله به ظهرك في الدنيا والآخرة ...

* * *

وما كاد يفعل حتى زلزلت بابل زلزالها ومادت أحجارها ، وأطبقت الأرض على هاروت وماروت . وفرك الشيخ فوزان عينيه وهو ينظر إلى القمر ، ثم قبض على الزجاجة وخبط بها رأس تمثال فتهشمت وأخذ نايه فحطمه ، وعاد إلى زورقه ، وتوضأ من الفرات وصلى لله ، وأقسم ليكونن أزكى خلق الله ، وأن يهجر الخمر والسحر ... وقد فعل

دريني خشبة

خمسة أعوام في عذاب

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

ليس فى وسع إنسان مهما يكن شعوره بالفضل وبالترفع أن يفاخر بأنه لا يعبأ بالمغريات وبدوافع الشر أو بأنه يحتقرها . فالانسان لا يعرف كم تتغير نفسه تحت أحكام المؤثرات

وإنى لأروى على سبيل الاستشهاد على صدق هذه النظرية القضية الآتية التى سمعتها من أحد رجال البوليس السرى فى لوندرا

ماتت زوجة تاجر غنى لم يكن له إلا ولد واحد فتزوج من أرملة فى منتصف العمر . وكان ابنه شاباً فلم يرض عن هذه الزوجة . وكان يشتغل فى غير المدينة التى فيها أبوه فامتنع عن مراسلته بعد هذا الزواج . ولكن الأب كان راضياً بهذا الثمن وهو غضب ابنه فى مقابل تلذذه هو واستمتاعه مدة العام الذى بدأ بالزواج وانتهى بوفاته

ولأسباب لم تظهر قط كان الجزء الأخير من هذا العام كله ريبة وسوء ظن ودسائس فى هذا البيت، لأن الخدم الثلاث كن يرتبن فى مقاصد الزوجة . وكانت أقدمهن وقد قضت فى خدمة المنزل بضعة أعوام تعد نفسها فى موضع الجاسوس على كل أعمال الزوجة . وقد كانت تتصنت فسمعت زوجها يتوعدها عدة مرات بأن يغير الوصية ويحذف منها اسمها بتاتاً . فكانت تجيبه بأنها تجد الفقر أخف عبئاً من معاشرته على وفرة غناه .

وكانت تلك الخادم تستدعى زميلتيها ليسمع ثلاثتهن مثل هذا الوعيد . وقد فهمن جميعاً علة الخلاف بين الزوجين فلما مات الرجل انتظرن أن تكشف الوصية لهن عن جلية أمر الخلاف . وقد كانت دهشتهن عظيمة عند ما جاء المحقق وتبين أن الوصية تحرم ابنه من الميراث وتعطى الزوجة ألفى جنيه فى كل عام وهى كل إيراده طول حياتها

وكان من الطبيعى أن تشعر الزوجة بالراحة والاطمئنان عند ما صارت مالكة لهذا الإيراد . وزالت الحزازة التى كانت تشعر بها أيام حياته. وبعد يومين من الوفاة جلست أمام مكتبها تكتب الردود على التعازى . وقد فرغت سريعاً من هذا الواجب ثم أخذت تقلب أوراق زوجها وهى لاتزال مبتسمة. ولكنها لم تكد تقرأ اثنى عشر سطراً حتى قطبت وعرتها رعشة، لأن الذي كانت تقرؤه إنما هو النص الأخير لوصية زوجها ؛ وهو يحرمها كل شيء ويهب تركته كلها لابنه . وكان تاريخ هذا النص قبل أسبوع واحد من الوفاة ، وعلى الوصية توقيعات شهود من الأحياء . فجلست تفكر فيا سيؤول إليه أمرها لأن البقية الباقية من ذلك العمر ستكون حياة فقر مدقع . ولذلك كان الاغراء الذى تجد نفسها تحت تأثيره قوياً جداً ، فهو ليس بين الشرف وبين انعدامه ، ولكن بين الغنى وبين الفقر . وكان عمرها إذ ذاك خمسين عاماً وهي لا تستطيع الكسب بوجه من الوجوه . ورأت أنه إذا لم يكن أحد ليذيع أمر هذه الوصية فلماذا لا تلزم الصمت ؟

وحملت الوصية فى يدها ومشت إلى الموقد ولكنها وجدته خالياً . وكانت من قبل ذاهلة عن ذلك وعن

أن الليل كان قد انتصف . وكادت تمزق الوصية ولكن الخادم فى هذه اللحظة دخلت ووقفت واجمة فسألتها : « ماذا تريدين ؟ »

ابتسمت الخادم ولم تجبها فقالت : « ما الذي تعنين ؟ »

قالت الخادم : « أراك ياسيدتى الآن منزعجة كأنك قد رأيت جنيًّا »

فحاولت المرأة أن تضحك ولكنها لم تستطع . وقبل أن تتحرك أية حركة كانت الخادم قد اختطفت من يدها الورقة التى ستتركها فى فقر مدقع فصرخت تلك صرخة يأس ، وحاولت أن تسترد الوصية

وعلى الرغم من التفاوت فى السن فان الخادم كانت أقوى المرأتين فاستطاعت التغلب على سيدتها . وتلت الوصية فى هدأة ثم قالت بعد الفراغ من ذلك : « لقد فهمت الآن »

قالت الأرملة : « لقد وجدت هذه الورقة منذ دقيقة فقط وأردت أن ... » فقالت الخادم مقاطعة : « أردت أن تحرقيها لو كان فى الموقد نار »

ثم مضت فترة صمت قالت بعدها الخادم : من حسن حظك أنى أكره الستر ولم ابن سيدى المرحوم فاذا سلكت مسلكاً حكيماً فانه لن يعلم أحد بأمر هذه الوصية »

سمعت المرأة هذه الكلمات فأثلجت صدرها لأنها كانت شديدة الخوف من الفقر ، فاستدعت الخادم وأجلستها بجانبها وعرضت عليها اقتسام الثروة بينهما وأن تدفع لها ألف جنيه مقدماً .

فلما تم الاتفاق على ذلك قالت الأرملة : «والوصية؟ هل تمزقينها؟» فقالت الخادم: « كلا بل ستبقى معى إلى الأبد »

ورأت الأرملة أن خادمتها لا تقبل المناقشة فى الأمر فأذعنت . ومن ذلك اليوم أصبحت الخادم هى السيدة الحقيقية فى المنزل ، فبدأت بطرد سائر الخدم واختارت آخرين . وكان ثانى عمل أتته أن أحضرت ابنها إلى المنزل وأطلقت عليه لقب السكرتير لتلك الأرملة فكان يلازمها فى الصباح وفى المساء

***

صارت الحياة مؤلمة فى نظر السيدة لأنها أصبحت تشعر بعد إخفاء الوصية بأنها ارتكبت جريمة منكرة وبأنها باتفاقها مع الخادم قد وضعت نفسها فى مركز ذليل. ولكنها احتملت حالتها خمسة أعوام فى صمت؛ وفى بدء العام السادس ذهب الخدم ليقدموا الشاى إلى كبيرتهم التى يعرفون أنها السيدة الحقيقية فعادوا يصرخون ويعلنون أنها ماتت

وظنت الأرملة أن الحظ عاد إلى الابتسام ؛ ولكن سرعان ما أخفق أملها لما أصرت ابن تلك الخادم بأن يترك خدمتها فتنكر لها وهددها باظهار الوصية .

ولما رأت أن حالة الذل ستبقى كما هى بل ستزداد لأن خضوعها لهذا الرجل سيكون أشد إيلاماً لنفسها من خضوعها لأمه ـ لما رأت ذلك ملكها اليأس وذهبت إلى إدارة البوليس . ولكن جهلها بالقانون جعل رجل البوليس يضحك منها لأن الوصية التى تخشى شرها قد بطل مفعولها بعد وفاة ابن زوجها عن غير وارث وأصبحت هى من تاريخ الوفاة مالكة التركة .

كانت إذن فى الأعوام الثلاثة الأخيرة تقبل الذل خشية من ظهور وصية تجعلها هى المنفردة بالمال .

عبد اللطيف النشار

الشريدان

للكاتب الفرنسي جوستاف جيفروا

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تزوج كنزلو الكتبي في شارع فيكتور هيجو بمدينة ليون من آديلابيد مانجتو ، وقبض بائنة قدرها مائة ألف فرنك ووضع يده على المكتبة .

وكان مسيو مانجتو والد العروس من أغنى الوراقين وأشهرهم ، يتجر في المطبوعات القديمة ، ويحتكر كتب التعليم المقررة في الجامعات والليسيه ، وكانت ابنته آديلابيد وهي وحيدته ، على جانب من الجمال والرشاقة وهي وارثته دون منازع ، فلم يختر لها سوى صبيه كنزلو ، الذي حذق بيع الكتب ، دون أن يفتح واحداً منها ، ولم يخطر بباله يوما أن يستطلع السر في إقبال الشيب والشبان على شراء تلك الأوراق المخزومة المنلفة بمبالغ طائلة ، فكان يحسد سيده ويسخر من جمهور القارئين ، إلى أن شب وأدرك أمور الحياة ، فأخذ يغالي في الأثمان ، ويحسن البضاعة للهواة ومدمني القراء والطلاب حتى وثق سيده بمهارته وأمانته ، فأطعمه وكساه ودعاه إلى داره وقدمه إلى بنته وزوجته ، ثم عقد على الصبي والبنية وخلف التجارة ونزح إلى قرية شاربونيير ، حيث ابتنى قصراً ؛ وبدأ يعيش عيشة راضية بين الأزهار والكتب النادرة ، يقلب صفحاتها ولا يدري ما فيها ، ويعرضها لزائريه مكتسباً فخر اقتنائها .. إلى أن مات وعلى صدره نسخة ثمينة من العهد القديم .

وبدأ كنزلو حياة البخل التي شرعها حموه وسلفه الصالح ، فكان ينازع زوجته رغبة النسل ، ويلجأ إلى شتى الحيل ، خشية أن يرزقا أولاداً يهلكون الحرث والبضاعة ، ولكنه مع كل ذلك رزق منها بولدين : فتى وفتاة . فلما شبا قليلاً بعثت بهما أمهما — التي احتفظت في عقد الزواج بحق التفريق بين البائنة وصميم المال الموروث — إلى مقاطعة لوسرن بسويسرا ، ليتثقفا في خفاء عن والدهما الذي كان يقتله الهم لو علم أنهما يتكلفان مائتي فرنك كل شهر وهو ثمن مجلدين من أمهات كتب الطب الحديث . . . ولأجل أن تصون الأم روح زوجها البخيل من التلف أخبرته أنهما يعيشان عالة على أقارب لها فأثلجت صدره ونام مطمئناً على مال غيره ، تلك الليلة . وفي أحد الأيام من فصل الربيع صعد جورج كنزلو الصغير مع أخته لورا إلى أعلى البرج القائم وسط قصر لوسرن ، للمرة الأولى منذ أن قدما من بلدهما إلى تلك البقعة الجميلة الفاتنة ، فذهل لما رآه من بساط سندسي يحيط بالقصر من كل ناحياته ، تليه هضاب ووهاد ، من ناحية ، وغابات من الناحية الأخرى ، فصاح بأخته الصغيرة لورا قائلا :

— أختاه الصغيرة ! أختاه الصغيرة ! تأملي الأرض حولنا

وكانت حاسة الجمال قوية في الطفلين ، وكان الولد على خلاف والده وجده محباً للكتب يقرأها ويحملها إلى فراشه وعلى مائدة طعامه ويتيه بها . فأجابته أخته لورا وكانت تحب الجمال في كل شيء :

— إنها جد كبيرة تلك الأرض يا أخي الصغير

فقال جورج : لقد أخبرني أستاذي بذلك ولكن مربيتي أدلفايس قالت لي أنظر بنفسك قبل أن تصدق ، الاختبار مقدم على السماع والقراءة. فقالت الفتاة لورا : ما أقسى أن يكون العالم كبيراً جداً هكذا ، فقد يضل المرء سبيله أو ينفصل عن أحبائه ، إنني أحب أمي وأشتاق إليها . ولكن أبي ... ماذا أقول ؟ لِمَ لا يسأل عنا ولا يزورنا ؟

فتجاهل الولد ذكر أبيهما وأجاب: ما أبهج أن يكون العالم متسعاً فسيح الأرجاء ، فيستطيع الانسان أن يناضل ويبحث عما وراء الأفق ويقارن بين مايقرأ في الكتب وبين عالم الحقيقة ، ووراء هذه الألوان البنفسجية ؛ أختي لورا ! إني سأفتح كل هذه الجبال وأصل إلى نهاية هذه الدنيا ...

— وما هذه الحجارة الملقاة بجانب الربوة الخضراء؟ فقهقه أخوها قائلا : هذه منازل يا أختاه، أفلا تعلمين حدود لوسرن ؟

فسألته في سذاجة :

— وما هذا المجرى الذي ينساب كالأفعوان ؟

— إنه النهر! أنظر إلى الجسر الحجري الجميل !

وقبل أن يتم كلامه قالت وهي تشير نحو الأفق :

— أخي ! أخي ! أنظر ، أنظر ما هذا الذي يضيء في جانب الجبال الزرقاء كصفحة من البلور الأزرق ؟ فأجاب : هي البحيرة التي حدثتنا عنها مربيتنا اديلفايس ، محذرة إيانا من مائها الخطر الجميل ومن الحور الحنان — عرائس الماء — اللاتي يسكن في خفاياها ويخطفن الأطفال . فأجابته في تصميم وحزم : فلنذهب إليها ! وكأنما ارتاع الصبي من قولها ، ففغر فاه وصاح بها محذراً ... وكان جميلا في خوفه وتهديده

— لقد أمرتنا « ماما » ألاّ نخرج منفردين ، فكيف بنا نجسر على الذهاب إلى أقصى المعمورة ؟

فصرخت فيه لورا: ها أنت ذا لا تريد أن تذهب معي ومع ذلك فأنا لا أجرؤ على فتح الأرض ، ولا أطمع في الوصول إلى أقاصي المعمورة مثلك . سأذهب وحدي إلى هناك ، وبدرت من الطفل ضحكة سخرية زادت في حدة الفتاة فنادت من أعماق قلبها:

إضحك ما شاء لك الضحك ! فسأذهب وحدي أكشف عن المياه الهادئة الوديعة وأرى حورياتها الجميلة ، بينما تجلس أنت في عقر الدار تلاعب الدمية الصغيرة كطفلة يائسة ؟ وكأنما ألهبت هذه الكلمات نفس الطفل الصغير ، وأذكت فيه روح الحماسة ، فصاح صيحة الواثق : فلنذهب إلى البحيرة ولتحفظنا الحوريات !

***

وفي أصيل اليوم التالي بعد أن آوت المربية إلى حجرتها هرع الطفل إلى أخته وناداها قائلا : هيا بنا ! هيا بنا ! فأجابته فزعة :

إلى أين؟ فأجابها وهو يجذبها لتتبعه رغم تمنعها: « صه صه ! سنذهب إلى البحيرة !.. »

— ولكن كيف نذهب بعيداً دون إذن ؟ انظر إلى حذائي الحريري الناعم ! هل يجوز أن نذهب ؟ ثم نراها نائم وهو يصر ، ألم تمنعه بالأمس عند ما أشفق من الذهاب معها ؟ ألم تنعته بالطفلة اليائسة تلهو بدميتها ؟ وإنه يكيل لها الآن الكيل

مرتين ، والصباع ساعين ؟ فلتذهب معه ، رضخت أم لم ترضخ ، وافقت أو لم توافق ! ووافقت الطفلة فى تحفظ قائلة : فلنذهب من طريق غير طريق القرية ، خوفاً من أن يرانا أحد فتسوء العاقبة

وتولى أخوها الشرح والايضاح « سنتبع فى سيرنا طريق « جرتشن » الذى يدور حول القرية من الناحية الأخرى »

وسارا فى طريقهما بينما أخذت الصغيرة تجمع زهر البنفسج الساحر ، وزهر الثالوث من أبيض وأحمر ، تريد صنع باقة جميلة تهديها إلى حوريات البحيرة ، وشاركها أخوها فى العمل فى نشاط واهتمام وقد زال خوفه وحذره

وأجهدت الفتاة نفسها فى السير إلى أن وقفت إعياء وقالت : أخى إنى عطشانة ! فأجابها وهو يلهث : وأنا كذلك ، غير أن النهر مازال بعيداً ولا أرى فى هذه الجهة مجرى ولا نبعاً

— والآن ما العمل ؟

وما زالا فى حيرتهما حتى رأيا فلاحاً قد أقبل من بُعد ، يحمل سلاتها كهمن العنب الأحمر الشهى ، ويشاء حسن حظهما أن يكون مع الفتاة جنيه ذهباً ذو بريق يخطف البصر ، وأن يرضى الرجل إعطاءها بعض العنب فى مقابل الأصفر الرنان . وسار الطفلان يتمتعان بالتهـام الحبيبات الحمراء البديعة ويلقيان البذور ذات اليمين وذات الشمال ، وأخذت أشعة الشمس الذهبية تميل وراء الأفق البعيد ، بينما أخذ النسيم العليل يهب مداعباً شعر الفتاة فى رقة وفى حنان . وسار الطفلان يحوطهما سكون رهيب ، وصرخت الطفلة « لقد فقدت حذائى ، حذائى الحريرى الناعم ، فكيف أواصل السـير بقدم حافية ؟ وتلفتت خلفها فظهرت قلاع لوسرن من بعيد كنقطة سوداء بين السحاب والغمام فارتاعت الطفلة ، وصاحت واجفة :

رباه ! سوف تأكلنا الذئاب العاتية ، وسوف تموت أمنا من اللوعة والأسى علينا . فضحك جورج وهو يقدم لها حذاءها الذى التقطه فى غفلة منها .

— لاتخشى بأساً يا أختى الصغيرة ! ! سنعود ثانية قبل هجوم الليل . . فالى الأمام ! هيا !

* * *

وعادا بعد بضع سنين إلى ليون ، وأظهر جورج نجابة فى الدرس والفهم أدهشت العارفين بجهـل أبيه وغبائه وبلادته ، وعللوا ذلك بالرجى فى قانون الوراثة ، فقد تفوق الفتى فى الآداب والفلسفة ونظم الشعر حدثاً ، وأمسى موضع ثقة أساتذته وإعجاب رفقائه؛ وظهر نبوغ لورا فى الموسيقى . فلما شباعن الطوق وأدى جورج الخدمة العسكرية، ماتت الأم ، فوضع الوالد البخيل الجاهل يده على التركة ، وأظهر من الشح فى النفقة والتعليم ماقطع على الفتى وأخته طريق العلم والتثقيف . وحتم كنزلو على ولديه أن يلازماه فى المكتبة للبيع والشراء ولقاء العملاء ، فكانا يأنفان أن يراهما زملاؤهما فى الدرس أو يتحسر الأساتذة على نبوغ جورج وجمال لورا اللذين يريد الوالد وأدهما بين جدران المكتبة الضيقة المظلمة فى ظلال بوابات شارع

فيكتور هيجو . ولم يكن كنزلو يشعر بشيء من ذلك ، بل كان أبخل من خلق الله وأخبث من خلق الله، وكان له في البخل كلام معقول، ومنطق موزون ، ومبادىء ثابتة ، فقد رأى موسيو كايير عميد كلية الحقوق مرة في اكتوبر وقد بكر البرد شيئاً ، والعميد شيخ كبير طاعن في السن ، فلبس كساء له مبطناً بفراء خفيف ، قد نيل منه ، بعد أن صحب لابسه عشرين عاماً .

وكان انقطع عن شراء الكتب فلا يضير الوراق أن يهيج فيه غريزة الحرص على المال فقال له : « عم صباحاً ياسيدي العميد ! . ما أقسى السرف بالعاقل العالم ، وأسمج التبذير بالحكيم ! ماظننت أن الاحالة على المعاش والانسحاب من حياة الجامعة يبلغ بك ما أرى ! فدهش العميد السابق وقال : وأي شيء أنكرت منا مذ اليوم يا موسيو كنزلو ؟ وما كان هذا قولك فينا بالأمس . فقال :

— لبسك هذا الكساء قبل أوانه ، فقال العميد : « قد حدث من البرد بمقداره ولو كان هذا البرد الحادث في يوليو أو أغسطس لكان إباناً لهذا المعطف ، فليست فصول السنة بأوراق التقويم تعرف ، ولا بتواريخ الأيام تقاس ، ولكنها بشعور الأذكياء الذين خلقهم الله وسوّاهم بغير ريش ولا لُبد ، ولا جلود سميكة كالنسور أو السباع » قال كنزلو : «إن كان ذلك كما تقول، فاجعل بدل هذا المعطف الثمين المبطن بالفرو كساء أصم ، لا يخترقه البرد ، بثلاثين فرنكا من مستودع « ألف صنف » فانه يقوم هذا المقام ، وتكون قد خرجت من الخطأ فأما لبس الصوف والفرو اليوم فهو غير جائز فقال العميد : ولِمَ ؟ قال الوراق كنزلو وهو يرجف غيظاً من سرف الشيخ ويودلو يحجر عليه للسفه ؟ ولكنه كظم غيظه لأن غبار آخر الصيف يتداخله ويسكن في خلله ، فاذا نزل المطر ، وندِيَ الهواء وابتل كل شيء ، ابتل ذلك الغبار ، وإنما الغبار تراب ، إلا أنه لباب التراب ، وهو مالح يتقبض عليه الفرو والصوف فيأ كلهما أكل الأرضة ويعمل فيهما عمل السوس في الخشب والصدأ في الحديد !

فضحك العميد كايير ، ونظر حوله وقال وهو يسرع إلى الطريق :

— حقاً إنك لم تتجر في كتب العلم عبثاً ... لله ما أوسعك ! أنت وباستير فرسارهان ! ألهذا أهملت تعليم ولدك وتثقيف ابنتك ..؟

فبرز جورج لأبيه بعد أن انصرف العميد وقال:

— ماذا دهاك يا والدي حتى تعترض الناس في أخص شؤونهم ؟ أتحرم عليه الدفء بثيابه وهي ملكه وقد عتقت وبليت كما شارف صاحبها على الهلاك ؟ وأنت الذي تخشى البرد وتصطك أسنانك في مقتبل الشتاء ؟ فقال الوالد : أنا أخشى البرد ؟ حبذا البرد من طقس ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام البائت ولا يحمض فيه النبيذ ، إن ترك مفتوحاً ، ولا يفسد فيه مرق أن يبقى أياماً ، وتطرح الحكومة مذاقَّ الناس في الطريق ويشيع بيع القسطل الساخن وهو أرخص غذاء وألذه وأسهله ، ولا يسألك الناس عن تقصيرك في النفقة إذا لم تذهب إلى ملعب الأوبرا ، محتجاً بداء المفاصل

والزكام والسعال ورغبة الكن ، وتدفأ الكنائس بأنابيب البخار فلا نشعر بالصقيع أيام الأحد ونستغني عن مماكسة الفحامين ، ومشاحنة الحالين ، ولا نحتاج أبداً إلى الخشب والورق ، وفي الشتاء أفلح في المران على الجوع ، فلا أشعر أثناء الربيع بالسغب فمن صبر عن الطعام شهراً بارداً ، استطاع أن يصبر بقية أشهر السنة .

قال هذا وهو يفرك يديه متهللا كمن انتصر في معركة .

ولما طالت العزوبة على هذا البخيل ، خطب لنفسه مدام دولاك الحلوانية التي كانت تنغض الطرف عن اختلاس فطائرها ، فيأكل منها سبعاً ولا يحاسب إلا على أربع ، تريد أول الأمر مصاهرته ، فبادر إلى خطبتها آملا أن يلتهم مالها وفطائرها ، فلا يفتقر ولا يجوع في ظل تلك الأرمل الدسمة . فلما غضب الولدان من زيجة أبيهما وتخيلا أن هذه المرديبس السمجة ستحل محل أمهما أنكرا على أبيهما فعلته ، فباع الأثاث بالمزاد وانتقل إلى بيت زوجته الجديدة وفرض لولديه نفقة ضئيلة ، فلم يطيقا المعيشة ولم يجرآ على محاسبته أو مقاضاته ، واختفيا من وجهه ، واتخذ كل منهما سبيله في الأرض هرباً وقد فرقهما الفقر والقسوة ، بعد أن جمعتهما الثروة والحنان ، وحمل الفتى بعض كتبه وثيابه وحملت الفتاة حليها الموروثة وحللها وقيثارتها ولم يسأل أحدهما الآخر أنى يولي وجهه .. فضرب الدهر بينهما .

***

في حديقة لوكسمبرج على مقربة من متحف الفنون الحديثة وعلى مرمى حجر من مستشفى « شارتييه » كان شاب جالساً على المقعد الطويل ينتفض من البرد ويتلوى من السغبة وكأنه يعاني سكرات الموت ، يكاد شغاف قلبه يتمزق ، وكادت أطرافه تذوب ، وقد علت الصفرة وجهه والزرقة أظافره ، وأحس بأن عظام بدنه تتفتت ، وكان البرد شديداً في ذلك المساء من شهر ديسمبر فسرى إلى ذهنه الذاهل خاطر سريع .

— لماذا لم يدركني الموت منذ ساعات ، بل منذ أيام وأشهر طوال ؟ أفي الانسان تلك الحيوية القاهرة ؟ أم إن الأعمار محدودة كما يقول مارك أوريل في تأملاته ... ؟ وهل الحظ العاثر يتغير ويتبدل بتبدل حركات النجوم ، كما زعم إيبكتيت ؟ ألا إن الحظ السعيد لن يدركني ولو أطلق ساقيه للريح ! إن نهايتي قريبة ... وعلى غرة منه وهو سابح في أحلام شقائه ، لا يذكر الماضي ، ولا يملك أن يعرض حوادثه ، ولا يرى شعاعاً من نور المستقبل ، وينتظر انسدال الليل ليتمدد على خشبة المقعد لعلها تكون الرقدة الأخيرة ، سمع وقع أقدام مقبلة نحوه فبشر نفسه بمقدم الشرطي الذي سيقوده حتما إلى قوميسير البوليس ، فغرفة السجن الدافئة ، فان السجن أحب إليه من الحرية ، لأن الحكومة أشفق عليه من القدر ، ودنا منه سواد وصوت ولكنه لم يرفع رأسه ليتبينهما وسمع صاحب الصوت يقول :

— هل تتألم من الجوع والبرد ؟

فقال : البرد والجوع من شأن من يشكوهما

وحده ، فاذهب عنى بسلام أو اقبض على إن كنت شرطيًا ، فانى متشرد لا مال لى ولا صنعة ولا مأوى ، أو اتركنى أذهب إلى جهنم إن كنت قسيساً

فأجاب صاحب الصوت ، وهو يلمسه بلطف بيد كريمة :

— لست شرطيًا ، ولست قسيساً ، ولكننى أستطيع أن أنقذك من الجوع والبرد والألم والوحدة فنحن أفراد جمعية البر بالطرداء ، نجوس خلال الحدائق العامة ، ونعرق تحت الجسور ، فنفرح بهم ونميئهم ما استطعنا . وليس البر من صلب مالى ، ولكنه بعض الدين الذى فى أعناق المجتمع يسدده لكم أقساطاً ضئيلة على أيدينا ، فهل تقبل ما أعرضه عليك وتعيننى على أداء واجبى نحوك دون أن أسألك من شخصك أو أصل بلائك ؟

فأحس الشاب بأنه مقود إلى صاحب الصوت الهادئ واليد اللطيفة الكريمة ، ولكن البرد والجوع قد أتلفا أعصابه ، حتى غشيت بصره سحابة ، واختلج صوته فى حنجرته ، وخانته رجلاه وهو يحاول النهوض ليتبع المحسن مستسلماً ، فأى بلاء يخشاه بعد الذى هو فيه ؟ وما خوف الغريق من البلل ، والمحترق من مستصغر الشرر ؟ فلا حذر اليوم ولا وجل ، ولا رضى ولا أمن ، فقد استوى لديه الماء والخشب ، والبغض والحب ، وتكافأت فى عينه محاسن الدنيا ومساوئها !

فلما نهض ارتجف وكاد يقع على الأرض ، فأسندته يد كريمة . فقال الشاب كمن يفيق من غيبوبة :

— هل البرد شديد ؟

أجاب صاحب الصوت : نعم وإنه لشتاء قاس

قال : « يخيل إلى أننى سمعت رجلا يقول : « حبذا البرد من طقس ، ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام ، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً ولا يفسد فيه مرق إن بقى أياماً ، وتطرح الحكومة... أختاه هذا هو حذاؤك الحريرى الناعم ... » . ولم يكمل كلامه بل سقط على الأرض ، فظنه المحسن ميتاً فحمله على ظهره إلى أقرب سيارة ، وهو يجس نبضه ، ويفرك صدره ... وفتح الشاب عينه بعد ساعتين وهو يحس بالدفء والحياة ورائحة الطعام تهب على وجهه ، فطلب إليه أحد الخدم أن يدخل الحمام قبل الطعام ، وأن يترك ثيابه ليلبس سواها جديدة ؛ ولما أكل ونام وتيقظ لم يسأله أحد عن شخصه وتركوه أياماً حتى استعاد قوته ونشاطه وعرضوا عليه أن يتعلم صنعة من الصناعات الرفيعة كالتصوير أو الموسيقى أو إحدى الحرف النافعة كصنع الأثاث أو النسج الراقى ، فاختار التصوير واجتهد فى إتقانه ، ولكنه كان يقضى معظم وقته فى المكتبة ويحمل كتباً لا يفارقها ، وعبثاً حاولوا أن يقصوه عن القراءة حتى يحسن فنه فيربح منه مايعينه على هوايته . وكانت أيام الشتاء قد ولت وعاد الربيع بأزهاره وأطياره ، وعاد الشاب إلى كتبه وأشعاره ، إلى أن انتهز فرصة ، فاستأذن فى الخروج ، ولم يعد إلى الدار ، بل عاد إلى حياة التشرد حياة مفلوكة طليقة من كل قيد واتخذ له مجلساً ومقراً فى بارك مونسو على مقربة من تمثال جي دى موبسان ، ذلك

الكاتب الذى أحبه فى صغره فكان يأنس إلى تمثال أقيم هناك لتخليد ذكرى ذلك الكاتب الذى شغف بقراءة كتبه فى عهد محاه الشقاء من ذاكرته ، ولم يقو على محو روح هذا الكاتب من لوح فؤاده المعذب ، فقد صنع له المثال صورة امرأة من نساء باريس فى آخر الزمن ، ونهاية هذا العصر ، مضطجعة على « شيزلونج » ومتكئة برأسها الجميل الذى يشبه رؤوس عصافير الجنة ، على معصمها الفاتن ، وفى يدها الأخرى كتاب كانت تقرأه ولعله « قصة حياة[1] » وإلى جوارها عمود من المرمر نصبوا فى أعلاه تمثال جى دى موبسان فى الأربعين من عمره ، وهى السن التى مات فيها نزيل مصحة دوكتور بلانش ، وقد كان هذا التمثال فى أول أيام الربيع مدعاة لتفكير الشاب وتأمله ، فان المرأة الراقدة فى يقظة النعسان ، وإن كانت من المرمر الملون ، إلا أنها ناطقة بشحرات المعانى ، التى لا يدركها إلا من تذوق حياة باريس ووقف على الصورة العجيبة التى أودعها المؤلف كتبه ، سواء أكانت القصص الطوال أم الروايات القصار ، أم النوادر الصغيرة « الغالية[2] » امرأة فى مقتبل العمر وروعة الجمال عليها كل مظاهر الفتنة والحيرة أمام لغز الحب والحياة ، وكأنها تطلب حل هذا اللغز ، من ذلك الكتاب الذى تقلب فيه أجفانها أثناء تقليب صفحاته ، تقرأ بعينيها وعقلها وقلبها ، هناك بعيداً جداً تتبع رجلاً فى خطواته وتسأل نفسها عن وفائه وخيانته ، أهى مهجورة فى مضجعها ، أم منتظرة حبيبها ، أم يائسة من لقائه ، أم تائبة بعد أن اكتوت بنار الحب اللاذعة ؟

فكان الشاب يجلس حيال هذا التمثال فى وقت الأصيل وبين يديه كتاب ، وفى لحظة يستعرض حياته ويحار فى مصيره ، ولكنه كان يقضى النهار متسكعاً لا عمل له . كل ما يملأ ذهنه تلك الطيور المغردة المتنقلة بخفة أجنحتها بين الأغصان ، ثم مناظر الطبيعة فى موسم الربيع الساحر ، فى تلك المدينة الباهرة الجمال . وكان أحياناً يقصد إلى بعض المتاحف والمكاتب فيسلخ فيها بعض ساعات النهار ثم جاء الصيف ومر سريعاً ... ثم جاء الخريف وعادت السماء إلى الوجوم والتلبد بالغيوم وبدأت أمطار باريس تهطل مدراراً ، والبرد يتضاعف ويصبغ أفكاره بالسواد . أين يجد حياة تقيه متاعب الشتاء ... خطر له أن يبيع الكتب القديمة على ضفة النهر ... وأثناء تفكيره كتب قصة عن حياة طفلين ، ونظم قصيدة فى حنان الأم وبعث بهما إلى جريدة « الماتان » لأنه تفاءل باسمها ، أليس كل الخير والبركة والبشاشة فى البكور والبكور فى الصباح ؟ !

وجعل عنوانه مكتب البريد بشارع بوتنييه ، لقربه من بستان مونصو ، حيث تمثال مؤلفه المحبوب . ولكن الجريدة لم تستجب له ، ولم يشتر أعدادها بانتظام ليرى قصته وقصيدته . وضاقت الدنيا فى عينيه من جديد ، وندم على أنه ترك بيت المحسنين الذين أنقذوه أول مرة وخجل أن يطرق بابهم ،

(١) قصة Une vie من أشهر كتبه

(٢) Histoire gauloise قصة فيها مجانة وخلاعة نسبة إلى بلاد « الغال »

ولعله نسي مقرهم ، فهل يترك نفسه للموت البطيء وكان في العام الغابر أقرب إليه من حبل الوريد لولا أن أدركه الله . فلن يتحمل الآلام القديمة من جديد ، فلا بد له من الخلاص من الحياة ، فاستجدى ثمن سم سائل في زجاجة صغيرة ، استجدى امرأة شابة ، ظنها ذاهبة إلى موعد غرام ، والمرأة أكرم ما تكون عند ما تقصد إلى لقاء الحبيب ، فعاطفتها أرق وقلبها ألين وأرحم ، وهو شاب في مقتبل العمر ، لا يزال به أثر للجمال ظاهر ، وبقية من نعمة مفارقة فأخذ الصدقة ، ليدفعها ثمناً للنزع ثم القبر المجهول ، إن رخامة « المورج[1] » أحن على ضلوعه من البرد والجوع ومن هذه المدينة ذات الجمال والأضواء بل أحن عليه من أبيه . ولما ظفر بالسم عادمتهللا ، لأنه سيقضي على آلامه إلى الأبد ، وفي لمحة ذهن لامعة تذكر أبياتاً لفيرجيل :

إذا أشرفت النفس الحزينة على الموت

تجردت من همومها واستبشرت

سوف يكسر الموت المواتي أغلالها

ولا يهمها أن تخرج مختارة أو مرغمة

فانها تعبر القنطرة في طرفة عين

عبور القنطرة بالنار أو بالماء

بالخنجر أو بالسم الزعاف . إن العين لن ترى ، والأذن لن تسمع ، والعقل لن يذكر ، عبور القنطرة .

فكررها وترنم بها ، وكأنه يقرؤها في كتاب قديم في ركن مكتبة عتيقة في شارع مظلم ، في مدينة قاتمة ، فمن هو وما هي المدينة ؟

ذهب إلى الحديقة — بارك مونصو — ولم يقصد إلى المقعد الذي تعود أن يجلس عليه ، بل أخذ سمته إلى ناحية قصوى وأخرج القنينة من جيبه ، كانت كقارورة العطر التي يفوح منها ريح الموت المريح . ونظر حوله فلم يجد حياً عاقلاً سواه ، غير أنه لمح طائراً صغيراً يبني عشه في أغصان الشجر فضحك ضحكة عالية وهو آمن ألا يسمعه أحد وقال : حتى صغار الطير مسخرة للحياة ، تلتمس رزقها وجرعة الماء وتبني عشها ذرة فذرة وقلامة فقلامة ، وتغني وتعشق وتخضع للحب كما تلتقط الحب ، وتستهدف لحصاة الطفل ، ونبل الصائد ، ومنقار الجارح ومخالبه ، وأظفار القط الجائع ، لتبيض وترقد على صغارها حتى تفرخ وترتاش ... أما الانسان العاقل الطموح إلى الحياة ، المدرك لحقائق الدنيا ، المتطلع لأسرارها ، يبتلى ويجوع ويبرد ويظمأ وييأس وهو آمن . ربي لم لم يصنعوا قانوناً يضمن لنا الحياة كما ضمنت أنت الحياة لهذا الطائر ؟ لقد تركته طليقاً وتركونا في أقفاص ضيقة أتراك تحاسبني وتسألني عن تلك الثمالة من عمري .. ولكن إذا كانت هناك بقية فلم مكنت لي شراء هذا الدواء ، وأعددتني للموت هادئاً في ذلك المكان المهجور ، وسط المدينة الصاخبة ؟ إن قليلا من مالهم وطعامهم وثيابهم ونارهم ، يرد عنى غائلة الردى التي حببته إلي ! ألهذا ولدتني أمي الحنون وأرضعتني وخافت علي عادية الهلاك طفلا وفتى ويافعاً ؟ ترى كم من فتى مثلي في موقفي هذا بين يديك في تلك اللحظة المدهشة . وما قصصهم ؟ وما هي طريق المسيح التي وصفت بالعذاب وهو يحمل صليبه ؟ هل كانت خشبته أثقل على كاهله من خشبتي التي لا يراها أحد ، ولكني أشعر بعبئها ؟

(١) معرض جثث المجهولين في باريس

هأنذا أقصد إلى الجولجوتا طائعاً ، وليس ورائى حواريون يبكون ولا جنود يخزونني بأسنة رماحهم ولا نساء من الأهل والعابدات يندبنني . هأنذا أصنع خلاصي بيدى ، ولكن أصنعه بخطيئة حلوة ، لأنها تحد من شقوتى . غداً يقرأون نبأ مصرعى ، سأموت مجهولا ويقولون شريد قضى ! مجهول لا يمت لأحد بصلة ، ولن تذرف عين على جسدى العارى دمعة واحدة . ألا وداعاً أيها الحزن الدائم وأيتها المخاوف من برد الساعة الرابعة ، وأيها الجوع القارص وأيتها الذكريات الناهضة . سيفوز حىٌّ ضعيف عاجز ، بالانتصار على الطبيعة وعلى قوة القدر ، سأمحو بجرعة واحدة أعواماً طويلة من الشقاء المرتقب . وسأربح فى لحظة غفران ذنوب لم ترتكب وسأخلص نفساً ، وكأنى أخلص النفوس جميعاً .. إلهى ! إلهى ! لماذا تركتنى ؟

ثم رفع يده بالزجاجة ، فتجرع نصف ما فيها وإذا بصرخة مدوية ، أفقدته بقية رشده ، فلم يتم شرب منيته وأرخى يده . ترى من صاحب هذا الصوت المشئوم الذى أفسد عليه جمال تلك اللحظة الرائعة ؟ من ذا الذى تدخل متطفلا بين الموت وبينه ؟ من يكون ذلك الثقيل الذى لم يدرك جمال البرهة الرهيبة المقدسة ؟ من قطع تلك الحادثة بينه وبين ربه الذى يصغى إليه فى حنان ورحمة ويعد الملائكة لاستقباله ؟ أو .. فى غضب ونقمة ويأمر الشياطين ليجروه إلى سقر . هل كان دانتى اليجييرى كاذباً إذ وصف عذاب المنتحرين فى تلك المهزلة ؟ ثم أغمض عينيه وراح فى غيبوبة مظلمة . ومضت ساعات طويلة قبل أن يعود إليه رشده ، وفتح عينيه فاذا به فى غرفة مشرقة وإلى جانبه امرأة فى ريعان الشباب تحنو عليه وترعاه ... وقد حملته إلى سرير نظيف وفراش ناعم وأشعلت ناراً وجلبت له طعاماً ونبيذاً وأزهاراً يانعة . فشعر بالحياة تعاوده . وعرف أنها عاملة فى أحد مخازن الكتب ، وأنها كانت فى الحديقة بانتظار حبيبها الذى أخلف موعده فرأت إنقاذه خيراً من الصبر على صديق متباطىء ، فهل أخطأت ؟ نعم أخطأتِ ولكننى أحببتك منذ رأيتك ، وغفرت لك ذنب إقصائى عن الموت الذى كنت أنشده .

وقبلها وضمها إلى صدره . وشعر بأن قوة تجذبه إليها ، ولكنها مانعت ، لأنها لا تزال مرتبطة بالآخر الذى كانت تنتظره ، فلتقاطعه أولا ، بصراحة لا تعرف المواربة . ستذهب إلى الحديقة فتلقاه وتودعه ، وهى لن تلين له بعد اليوم ، وإن كان جديراً بشكرها لأنه يسر لها إنقاذ حياة الرجل الذى أحبته ، فوافقها وصحبها إلى سور البستان ، وشهد خلال أعواد الحديد والأغصان موقفها . فانه لم يزد على دقائق معدودة

قالت له فى رفق : إن ما كان بيننا قد انتهى . والماضى لا يعود ، وداعاً .

وعادت إليه فرحة مسرورة كمن وضعت حملا عن كتفها . فقال لها : أبهذه السرعة تقطعين حبال الود ، وتدفنين غير باكيات ذكريات الهوى ؟ فضحكت وقالت : عوضنى الله بدل الدرهم ديناراً ، فانك أنبل وأشجع وقد سمعت مناجاتك كلها قبل

أن ترفع يدك بالسم إلى فمك ، وكنت موزعة بين التلذذ والروعة ، وبين الخوف على حياتك والخوف منك . وحسبتك فى أول الأمر شاعراً مجنوناً ، إلى أن ذكرت سيدنا المسيح ، واستغفرت لله من المعصية ، فأيقنت أنك يائس ولكن خشيت أن أزعجك ، فلما رأيت السم يسيل بين شفتيك خاطرت بعمرى فى سبيل عمرك . ستعيش وتنجح وتفوز فما أنت للشقاء خُلقت .. وعادا إلى غرفتها . فألفاها عامرة بالكتب التى تشتريها وتستعيرها وبأوراق الموسيقى التى تجيد عزفها فأخذ يقرأ ويأكل وينام وينتظرها وهى تدأب وتعمل وتوفر له مطالبه ، ولا تتألم ولا تضجر كأنها أم فرشت فأنامت ولم تسأله عن اسمه ولا صنعته ، وهو كذلك لم يسألها ، فلو أنهما افترقا وافتقد كل صاحبه لما اهتدى إليه أبد الدهر . وإذ عادت ذات مساء وكانت تحمل رغيفاً ملتفاً فى جريدة قديمة ، لمح اسمه فكتم عنها الأمر ، ثم تناول الوريقة الذابلة وقرأها ... هذه قصته منشورة ، فابتسم . وفى الصباح ذهب إلى مكتب البريد فاذا مكاتيب تنتظره ، وكلها تدعوه إلى لقاء رئيس التحرير لأمر مهم ، فلم يستطع أن يخفى عنها رغبته فى الذهاب إلى إدارة الجريدة فمنيت بثيابه ومظهره فراح متقمشاً معطراً ، فلما تقدم إلى رئيس التحرير ، رحب به وقال له : يهمنا أن تساهم فى تحرير جريدتنا التى سرها نشر قصتك وقصيدتك ، ولا ريب أنك كنت تتجول فى الأقطار تجمع مادة لكتبك وهذا الذى دعا إلى إبطائك فى تلبية دعوتنا . إنك من فحول كتابنا المطمورين ، ولعلك غنى ، تعمل لأجل الفن ، ولكنا لا نقبل مساهمة بغير أجر . سندفع لك مائة فرنك عن القصة الواحدة مؤقتاً

أما القصائد فلها حساب آخر وإن شئت فاسحب من الصيرف قسطاً على المحاسبة ، وليكن ألف فرنك لتضمن تعاونك فذهل من كرامة الرجل ، وأراد أن يشعره بجاهه فقال له :

— إنى أقبل لأسرك ، فلست بحاجة إلى المال

فقال الرئيس : إن اسم كنزلو ليس غريباً علىّ . أتعرف صاحب مكتبة شهيرة بهذا الاسم فى مدينة ليون ؟

فقال جورج كنزلو — إذ لم يكن سواه — أنا ابن صاحب المكتبة بعينها . .

فقال الصحفى : إنى آسف لما أصاب والدك ، ولا أحب أن أحرك آلامك وقد نشرنا نعيه منذ عام بشىء من التفصيل وأغفلنا ذيول الحادثة خشية ذيوعها .

— فأتى هذا النعو . . . وإن كنت

— فبعث الرئيس فى طلبه وقدمه متلطفاً ، فطواه جورج وشكر الرئيس وودعه ومر بالخزانة ليقبض القسط الموعود ، ثم قصد إلى مقهى ونشر الصحيفة . وعلم وهو بين الفرح والألم أن والده مات فجأة عقيب مشاجرة بينه وبين زوجته ، فاتهمت بدس السم له فى فطائر دسمة ، وأثبت الدكتور لوكار إمام الخبراء فى الطب الشرعى أن فى أمعائه آثارة من زرنيخ ، فهاج الرأى العام ونعتوها بعدام لا فارج جديدة ، فاعتقلت الحلوانية — مدام كنزلو حالا وهى مدام دولاك سابقاً ، فختموا تركته وجردوا ثروته . وإذا بها تربى على ربع مليون ، وأنكرت المتهمة أن له ورثة ، ولكن الجيران شهدوا بحياة وارثين من صلبه ولكنهما غابا غيبة منقطعة ولعلهما يطلبان العلم فى بلاد نائية ولم يبلغهما

نبي أبيهما . فهذه الثروة ثروتهما . ولما كان قاتل المورث لا يرث في حكم القانون ، فقد أصبحا بغير مزاحم ، لأن الوصية التي ضبطت في الأوراق ، أمست لغواً ولم تقد المرأة إلا دليل إثبـات عليها ولا تقدر على نفيه. فابتلت عيناه بالدموع وهو يقرأ الخبر المطول ويذكر طفولته وأخته وأمه . ولكن أين هما؟

هل هو في حلم أم في حقيقة . وهل كان في عداد الأغنياء عندما كاد يموت من الجوع والبرد . ما أوسع يارب رحمتك ! وما أعجب تدبيرك وأحكمه.

وهذه الفتاة الغريبة التي أنقذتني ترى مايعتريها من جنون الفرح إذا علمت أنها لم تنقذ متشرداً ولا طريداً ولا وضيعاً ، بل أنقذت غنياً شريفاً يحب الشعر والأدب ، كان وأخته ضحية البخل وجنون الذهب ، وكانا ذوى مواهب كامنة قضى عليها لؤم الحياة. نهض جورج كنزلو فاشترى أزهاراً وثياباً وأطعمة دسمة وحلياً ولم يقرب الحلوى ، واتخذ مقعده في سيارة فخمة . وقال : سأتزوج منها اليوم ، وسنبحث عن شقيقتي معاً . لشد مايكون فرحنا جميعاً عندما نعود معاً إلى ليون ، ونفتح أبواب المكتبة . ثم لا نعترض على ثياب الناس ولا نمتدح فصل الشتاء الملون ، سوف نقضى الصيف في لوسرن لنرى القصر والحصن والبحيرة والجبل . وسوف نبتنى لأمنا قبراً فخماً ، ونشهد محاكمة المرأة المجرمة . ونثبت وراثتنا ، بأسهل مايكون . أيمكن أن يتجاهلنا أحد ؟

ولما بلغ البيت دفع أجر السيارة بسخاء ، وانتهب درجات السلم حتى وصل إلى باب الغرفة فوجده مغلقاً ، وقد علقت بأعلاه رسالة مغلقة ففضها وهو يلهث

— أخى جورج . لا تحاول البحث عني عبثاً فاني عرفتك بصوتك وملامحك منذ الوهلة الأولى ولكني لم أرد أن أفجعك بما وصلنا إليه من الشقاء . أما أنك لم تعرفني ، فلأن الألم قد أثر في ذاكرتك . لقد ذقتُ أكثر مما ذقتَ ، ولذا لم أسألك عن نفسك شيئاً . لقد شهدت عاري ، وعلمت من حياتي ما لا يسمح لى بلقائك إذا عرفتني . أنا شقيقتك لورا البائسة . لقد مات والدنا بيد تلك العجوز التي اختارها بعد أمنا ، وترك ثروة طائلة ، ولكنني لا أجرؤ على الذهاب لإثبات وراثتي دونك وأفضل الموت الآن على مواجهتك ، بعد أن علمت أنني سقطت في أحضان رجل لم تربطني به رابطة الزواج أنا التي أنبتَـتني أمي نباتاً حسناً ، ولم يجن عليَّ وعليك إلا جنون أبينا الذى في الأرض . ستعود إلى غرفتي فلا تجدني وسوف أختفي في باريس إلى أن أغادرها إلى بقعة مجهولة . إني أحمل على كاهلي الصليب الذى تركته في حديقة مونصو . لكل متانصيبه. ولكنني لن أقتل نفسي ، لأني لا أزال مؤمنة . لقد أحببتني وحدثتك نفسك بالرقاد في فراشي خليـلا وأنت لا تعلم أنك أخي . لعلني أخطأت إذ لم أصارحك في الساعة الأولى . ولكني خفت عليك أثر الصدمة ، وأنت ضعيف محتاج إلى العناية والهدوء . إنني فتية صحيحة البدن وسأجد رزقي كذلك العصفور الذى وصفته وأنت على شفا الهاوية . لقد كان نبش عشي نتيجة إنقاذك ، فهل أندم أن كنت سبب نجاتك ؟ سوف ألقط حَبي ، وأحاول أن أبني عشي دون أن يصيدني صائد ماكر . سأغرد باكية وأذرف دموعاً ساخنة على فراقنا المرة بعد المرة . إصفح عني واغفر لي ، فاني لم أقصد إلى تدنيس شرفك عامدة ،

أتذكر سياحتنا فى الجبل والبحيرة ؟ . كنت وأنا أتسهدك أذكرها دائماً ، وأبكي أثناء نومك ، وطالما هممت أن أوقظك قائلة : جورج ! أخى الصغير ... تلك لورا التى تكلمك ... ولكن شجاعتى كانت تخونني ...

وفى تلك اللحظة فتح الباب وخرجت سيدة مكتهلة ، وهي مالكة الغرفة المهجورة وصاحبة الدار كلها وقالت :

— سيدى ! إن الآنسة قد سافرت ولم تترك عنوانها ، ولم تذكر شيئاً يهتدى به إليها

— حسن، لقد قرأت خطابها، تفضلي بقبول هديتها إليك فقد أوصتنى أن أشكرك على ما رأت من لطفك أثناء إقامتها لديك ...

فابتسمت المرأة وقالت : تفضل واسترح قليلا من عناء المشتري والمساومة . فدخل يمسح عرقه ، وأخذت المرأة الأزهار والهدايا وصففتها فى أماكن لائقة دون أن تمس غلافها ثم سألته : هل كنتما عازمين على الزواج ؟

أجاب : كلا ، أى زواج ؟ أفى بلاد الزنوج نحن أم فى الهند الصينية ، أم أن الحضارة تتقهقر ؟

— ولم ياولدى ألا يتزوج من عشق غير الزنوج وهنود الصين ؟

— إنها شقيقتى ياسيدتى من أبي وأمي

— شقيقتك ؟ آه لقد فهمت فمعذرة

ولم تركتك على غير صورة ، كأنها تفر من ضيفها ، وأراك مهذباً شهماً لا تنكر قرابتها ، ولا تأخذها بلائمة

— وكيف أنكر قرابتها وقد أنقذت حياتى من موت مؤكد ؟ ولكني فى الحق لم أعرفها للوهلة الأولى وإن هي عرفتني

— لعلها خشيت عتاباً أو ملاماً ..

— وأي عتاب يكون بين شقيقين فرق بينهما الدهر ثم اجتمعا على إحسان أحـدهما إلى الآخر إحساناً لا ينسى .

— إذاً ما يسمي فى لغة العصر الحديث « سوء تفاهم » وإنه لفظ حلال للعقد .

— وأين لى أن أجدها لأركع تحت قدميها ، شاكراً مستغفراً ؟ ألا تعلمين ياسيدتى ، بالله عليك ، مظنة من مظان وجودها ؟ أحب أن أودعها ولو شاءت مفارقتى ، مستحيل أن أفقدها هكذا .

فاغرورقت عينا العجوز بالدموع وقالت :

— ربما ! ثم خرجت من الغرفة فأطرق جورج ملياً ثم سمع وقع أقدام فرفع رأسه ليرى من المقبل عليه .

فاذا بلورا نفسها خاشعة مطأطأة الرأس ، فأقبل عليهـا يقبلها ويحتضنها ويبشرها بالسعادة بشرط ألا يذكر أحدهما كلمة عن الماضى القريب أوالبعيد ، فما جمعهما الله لتفرق بينهما الذكرى . فابتهجت ووافقت ودخلت العجوز تبكي من الفرح وقد جمعت شملهما بعد أن ظنا أن لاتلاق بعدالساعة، وقالت وهي تنشج بدموعها : أنا التى استبقيتها إلى أن تعود ، وقلت لها : انتظرى حتى أمتحنه ، فان جفا أوقسا ، فمع السلامة ، وإن حنّ ولان فهو بك أولى وأنتما بالـكما أحق ، ووعدتنى أن تبقى الغرفة لها مادامت بباريس

— وأنت أيضاً لنـا ، فلن نفارقك بعد اليوم فقد كان بيتك دار النعمة والبركة ، والرجاء بعد القنوط ، ولا معنى للحياة مع اليأس

محمد لطفي جمعة

وقائع مارثان ولديك

للكاتب الشهير ولتر سكوت
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

إن الوحشة التى سادت غابات هرتس بألمانيا ولا سيما الجبال المسماة بلوكبرج أوبروكنبرج قد جعلت من هذه الأخيرة مسرحاً ممتازاً للأقاصيص التى تسرد فيها أخبار السحرة والجن والشياطين والخيالات . وأغلب سكان هاته المقاطعة حطابون أو عمال فى المناجم . وهذا النوع من المعيشة قد جعلهم يعتقدون بالخرافات ويعزون الحوادث الطبيعية إلى السحر والجن والشياطين

ومن الحكايات التى ذاعت فى هذه البلاد المتوحشة والتى يشاع فيها أن غابة هرتس يسكنها شيطان ويصورونه بشكل عملاق آدمى متوج الرأس وبوسطه حزام من أوراق البلوط وبيده شجرة صنوبر قلعت من الأرض بجذورها . ويزعم كثير من الناس أنهم شاهدوه مراراً فى أطراف واد صغير يتنزه فيه أو فى سفح الجبل . وهذا الزعم مقبول عندهم ولكن العصر الحاضر لا يقبله ويعزوه إلى خداع النظر

وكانوا يعتقدون فى العصور القديمة أن هذا الشيطان كان يتاجر مع بنى الانسان . ويقال فى تقاليد تلك البلاد السابقة إنه كان يتدخل فى أعمال الناس فتقوده أهواؤه تارة إلى الخير وطوراً إلى الشر ، كما أنه لوحظ أن منحه تكون مع الشر مشئومة

وكان القسس يشيرون على أتباعهم وهم يعظونهم بأن يتجنبوا الاختلاط بشيطان هرتس بشكل مباشر أو غير مباشر

إن الشاهدين والممثلين فى المسرح الآتى كانوا ثلاثة فتيان يحتطبون ويحولون أحطابهم إلى فحم ، وكانوا عائدين إلى كوخهم ، وكان حديثهم دائراً حول شيطان هرتس وعن الراهب الذى كان يلعن هذا الشيطان الوديع المسالم فرجمه الأهلون بالحصى والحجارة قائلين له : إذهب لشأنك لتلعن الشياطين فى بلاد غير بلادنا ، ثم جرهم الحديث إلى أن الذين يربطون علاقاتهم بهذا الشيطان تكون آخرتهم مشؤومة واستشهدوا بجواد السباق الأسود الذى منحه شيطان هرتس إلى الفارس أكبرت دورابتوالد والذى بفضله حاز قصب السبق فى سباق بريم ولكنه سقط فى الهاوية بسيده ولم يعلم أحد بخبرهما إلى الآن

كان مارثان أصغر إخوته الحطابين الذين سبق ذكرهم يخالف أخويه الأكبر والأوسط فى الاعتقاد بالشيطان ، وكان جسوراً جريئاً ماهراً فى جميع الأعمال التى يقوم بها الجبليون وكان مقداماً فى كل عمل يطلب منه أعمال المجازفة أو القوة وكان يضحك من حياء أخويه ويتسلق الجبال بكل سهولة وخفة .

قال لأخويه وهو يحاورهما : لا تقصا على هذه الخرافات فان الشيطان طيب وهو يعيش بيننا كأحد الفلاحين ، وكان يتسلق الصخور ويجوب الجبال كأنه يصطاد أو يرعى المعز ، ولما كان يحب غابات هرتس ومناظرها الطبيعية الخلابة فلا يتأتى أن يكون عديم الاهتمام بحظ ساكنيها .

وحينما يكون خبيثاً شقياً متلكماً فكيف يكون تصرفه مع من ينتفعون بمنحه دون أن يتعهدوا له بأى تعهد ؟ وحينما تورد خمك فى السبك لدبره بلغز ذاك الشيخ الذى لايفوه لسانه إلا بالتجديف ، أفلا تفضل أن تأخذ منه نقودك ولا تأخذها من القسيس ؟ فليست إذن منح هـذا الشيطان التى تعرضك للأخطار ولكن سوء استعمالها والتصرف فيها . أما أنا فانه إن ظهر لى فى هذه الساعة سواء أ كان باسماً أو عابساً فإننى أستمر فى حفر الأرض قبل أن يبرح مكانه ، وسأحسن التصرف فى نعمته التى يمن بها على وآمل أن أ كون فى حماية ورعاية فرد أقوى منه .

فأجابه الأخ الأكبر بأن المتاع الذى ينال بطريق غير مشروع يندر أن يتصرف فيه صاحبه على أحسن وأفضل وجه . فرد عليه مارتان : إننى إذا امتلكت جميع كنوز هرتس فان ذلك لايغير شيئاً فى طباعى وصفاتى .

فقال له ماكس : يلزمك أن تتكلم باحتراس وتحفظ حينما تخوض فى مثل هذا الموضوع . وأراد أن يحول الحديث إلى موضوع آخر وانتقل إلى صيد الذياب الذى سيشرع فيه . وقد استمر بينهم الحديث إلى أن وصلوا إلى كوخهم القائم على سفح أ كمة بواد ضيق بجبال بروكنبرج ، ثم حلوا محل أختهم فى مراقبة تحضير الفحم وكانوا يتناوبون مراقبة الفحم فينام اثنان ويراقب الثالث .

كانت نوبة ماكس والديك فسهر الساعتين الأولين وقد دهش حينما شاهد على أ كمة أمام كوخهم وحولها أشخاصاً كثيرين يدورون وتصدر منهم إشارات غريبة . ففكر فى بادىء الأمر أن يدعو أخويه ولكنه رأى أن أخاه الصغير يخالفهم فى الرأى وأنه لايستطيع أن يوقظ جورج دون أن يقلق مارتان ، ثم ظن أن مارآه ربما كان نتيجة وهم أوجده الحديث الذى دار بينهم عن الشيطان . وقد ظن أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً أحسن من الصلاة وأن ينتظر بقلق وفزع هذه المشاهدة . وبعد ما استمرت النار وتوهجت ثم انطفأت شيئاً فشيئاً وخيم الظلام لبث مضطرباً مدة نوبته مما شاهده .

حل جورج محل ماكس الذى ذهب لينام بدوره فشاهد النار التى رآها أخوه ، وكان حول النيران أشخاص تصدر منهم إشارات كأنهم يقيمون حفلة رمزية

ولو أن جورج كان أشد فطنة من أخيه الأكبر ولكنه كان جريئاً مقداماً ، وقد صمم أن يقترب من هذه المجتمعة ليختبرها فاجتاز قناة صغيرة تجرى فى هـذا الوادى واقترب من النار حتى أمسى على رمية سهم منها فوجدها متأججة كما كانت

وكانت الأشخاص المحيطون بها أشبه بالأشباح التى نراها فى أحلامنا ولأول وهلة تحقق أن هؤلاء ليسوا من أهل الدنيا وقد رأى بينهم عملاقاً هائلاً بيده شجرة صنوبر قلعت بجذورها كان يستعين بها العملاق فى إسعار النار ولم يكن عليه من الملابس غير تاج وحزام من أوراق البلوط . ولما عرف جورج شيطان هرتس هلع فؤاده لأنه كان طبق الصورة التى كان يتحدث بها الرعاة والصيادون الذين رآهم يجولون فى الجبال فرجع ممعنا فى الهرب وبعد قليل من التفكير وبخ نفسه على هذا الجبن وقرأ مزماراً من الزبور : « فلتبارك جميع الأمم الآله » .

واتخذ طريق الأكمة حيث شاهد النار ولكنه دهش حينما لم يجد للنار أثراً

أضاء الفجر بأشعته الضئيلة ذلك الوادى ، ولاحظ جورج أن جبينه ينضح عرقاً ، بارداً وقف شعر رأسه من الفزع ووصل وهو يرتعد إلى المكان الذى شاهد فيه النار وكان به شجرة بلوط كبيرة كانت تظهر كأنها وسط النيران فلم يجد أثر أقدام، ولاحظ أن الكلأ والأزهار البرية لم تمس ولم يهشم منها شيء وكانت أوراق البلوط مخضلة بقطر الندى

رجع إلى كوخه وهو يرتعد من الهول وفكر مثل أخيه الأكبر وصمم ألا يتفوه بشيء مما رآه خوفاً من أن يثير فيه تطلعا تصحبه المجازفة

جاء موعد سهرة مارتان عند صياح الديك مؤذنا برحيل الليل واقتراب الفجر . اختبر استعار التنور الذى يجهز فوقه الفحم فوجده ضعيفا لأن مشاهدة جورج الشيطان وما حاق به من الهلع أنسياه واجبه من مراقبة النيران فأراد أن ينادى أخويه ولكنه رآهما فى نوم عميق فعالج النار وحده ولكن الأخشاب التى استعملها كانت رطبة خضراء وانتهى الأمر بأن خبت النيران . طفق يعدو باحثا عن حطب جاف ولما رجع وجدها قد انطفأت وكان هذا حادثا جللا يفقدهم عمل يوم . أخذ يقدح زنده فلم يفلح لأنه تشبع بالرطوبة . فلم يجد مناصا من استدعاء أخويه وألح على حين غفلة ضوءا مفاجئاً فى الكوخ ففتح الباب فاذا هى الظاهرة العجيبة التى أذهلت أخويه ماكس وجورج

ظن فى بادئ الأمر أن الوهلر هاوسرس الذين كانوا معهم فى شجار مستمر لما انتابهم من غيرة الصناعة قد أغاروا على أرضهم فى الغابة ليسرقوا ما وصلت إليه أيديهم ، ففكر فى إيقاظ أخويه ليؤدبوا هؤلاء المجرمين ولكنه حينما شاهد إشارات الملتفين حول النار كأنهم يعملون عملا غير فكره واستنتج أن هذه حادثة غير حقيقية — مهما كانوا رجالا أو شياطين ومهما كان شأنهم سأذهب إليهم أسألهم جذوة من النار أضرم بها التنور . ورفض أن يوقظ أخويه وخشى أن يحول استحياء أخويه دون مقصده ثم تناول رمحاً مما يصطادون به الدببة وذهب وحده ليجعل حداً لهذه الواقعة

سار بشجاعة تفوق شجاعة أخيه جورج واجتاز القناة ثم صعد الأكمة وتقدم صوب هذه الجماعة وعرف أن الرجل الذى يتزعمها ليس إلا شيطان هرتس فأصابته رعدة كانت الأولى فى حياته ولكنه تذكر أنه طالما تمنى هذه الفرصة السانحة فلذلك تجددت شجاعته، فتقدم نحو النيران بثبات وجرأة فظهر له أن هؤلاء ظهرت عليهم ملامح غريبة خارقة للعادة وقابلوه بضحك متواصل وقع فى أذنه مزعجاً عنيفاً

— من أنت ؟ سأله العملاق وقد ظهرت على سحنته الدميمة ملامح الغضب والشدة

— أنا مارتان ولديك الفحام، وقد أجاب بكل جرأة وبسالة ، ومن أنت يا هذا ؟

— أنا ملك الجبال والمناجم . وكيف تجاسرت على تعكير أسرارى ؟

— قد أتيت لأطلب جذوة نار لأوقد بها تنورى ثم سأله بكل جرأة : وما هى الأسرار التى تحتفل بها هنا ؟

— فرد عليه الشيطان مازحاً : إننا نحتفل بقران هرمس بالتنين الأسود ، فهيا خذ النار واذهب لشأنك فما من مخلوق يطيل فينا النظر إلا ويهلك

أنشب مارتان سنان رمحه في قطعة كبيرة من الخشب ملتهبة وعاد بها إلى كوخه وسط ضحك مستمر وقهقهة عالية دوى صوتها في الوادى ثم وضعها وسط الأحطاب الجافة ليوقد تنوره، ورغماً من جهده المتواصل وكيره الكبير انطفأت الخشبة المستعرة . ثم التفت إلى النار المعهودة فرآها مازالت مستعرة فوق الأكمة فظن أن الشيطان أراد أن يلعب معه دوراً فعاودته جرأته وصمم أن يعود إلى الأكمة ليأخذ جذوة أخرى فأخذها دون أن يصادف أية معارضة ولكنه لم يفلح في إشعالها كالمرة الأولى وأراد أن يجرب المرة الثالثة فأخذ قطعة كبيرة وذهب فسمع الصوت يخاطبه : حذار أن تعود للمرة الرابعة

حاول أن يسعر النار وبذل كل جهده ولكنه أخفق . يئس وقطع الأمل وارتمى على سريره الذى اتخذه من أوراق الأشجار وقرر أن ينتظر إلى الصباح ليطلع أخويه على جميع ما حصل له فنام من التعب واضطراب فكره . استيقظ في الصباح على أصوات الفرح والدهش وصراخ أخويه فإنهما حينما شاهدا التنور خامداً أخذا يخرجان الخشب منه ويعالجان إيقاده فوجدا في الرماد ثلاث سبائك ضخمة فعرفا في الحال أنها من الذهب الخالص

ولما حدثهما مارتان عن الكيفية التى بها أصبحت هذه الثروة في حوزتهم هدأت أعصابهم لأن ما رآه فيما مضى جعلهما يثقان بحديث أخيهما ولا يشكان فيه ، وقد سولت لهما نفساهما أن يشاطرا أخاهما هذه الثروة

اعتبر مارتان نفسه رئيس الأسرة واشترى ضياعاً وغابات وبنى قصراً عظيما وحصل على براءات الشرف ومنح نفس الامتيازات التى تمنح للبارونات العظام الذين في جواره . ولشجاعته في الحرب وخصومة أعدائه لم ينل منه أعداؤه الذين كانوا يحسدونه على علوه الفجائى وغروره المالى . لم يلبث مارتان ولديك أن أظهر قدرة جديدة تدل على أن قليلاً من الناس من ينظر في عواقب ما تنتجه الثروة الفاجئة ، إذ ظهرت عيوبه التى أخفاها الفقر ، ففسدت أخلاقه ، وأصبحت الأهواء تجر بعضها ، فأيقظ شيطان البخل شيطان الكبرياء ، واستمان الاضطهاد بالقسوة والوحشية

استمر مارتان في غيه وجرأته فحقد عليه الناس من سراة وفقراء لكونهم رأوا رجلا سافلا علا فجأة ونفذ فيهم قوانين الاقطاعيات بقسوة همجية

انكشفت عيوبه وأصبح ممقوتاً حتى من رجال الدين الذين كانوا يلقبونه بشريك الشياطين والساحر لأن ثروته تضخمت بأساليب جهنمية ولم يمنح جزءاً صغيراً منها إلى الكنيسة حتى يبارك في باقى ثروته . وقد حصلت له حادثة كانت سبباً في سقوطه

أقام دوق بروفسويك ، وهو الحاكم ، برجاساً ودعا إليه نبلاء الألمان ، وكان مارتان ولديك متقلداً أفخر الأسلحة مصحوباً بأخويه متبوعاً بحاشية كبيرة العدد والعدد . وقد ساقته وقاحته لأن يظهر وسط الفرسان النبلاء وأن يطلب منهم أن يدخل في المضمار ، فارتفع ألف صوت قائلين : لا نستطيع أن نتحمل اختلاط فحام بالفرسان النبلاء في حلبة ألعاب الفروسية ؛ فاغتاظ مارتان وغاب صوابه واستل سيفه وضرب الفارس الذى عارضه في دخوله إلى المضمار، وشهر مائة فارس سيوفهم في الحال لمعاقبة هذه الجريمة ، فدافع ولديك دفاع الأسود ثم قبض عليه في النهاية وحوكم أمام ماريشالات البرجاس ،

وحكم عليه بقطع يمينه وتجريده من ألقاب النبلاء وأن يطرد من المدينة

وحينما جرد من سلاحه ونفذ فيه الحكم ترك الرعاع فاتبعوا هذه الضحية البائسة التي جنى عليها الطمع وطفقوا يسبونه صائحين : « أيها الساحر الظالم » وانهالوا عليه بأفظع الشتائم وأشنع الاهانات فتركته حاشيته وولت الأدبار . ثم أقبل أخواه وخلصاه من أيدي الغوغاء، ولما شفوا غليل انتقامهم منه تركوه حينما رأوه مشرفاً على الاغماء من فقد دمه وتعذيبه ، وقد قسا عليه أعداؤه حتى أنهم لم يسمحوا بنقله إلا على عربة فحم من التي كان يشتغل عليها حينما كان فحاما فوضعه أخواه على حزمة من قش فوق العربة وأرادا أن ينقلاه إلى مكان أمين قبل أن يريحه الموت من آلامه

ولما سارت أسرة ولديك بهذه الطريقة المحزنة واقتربوا من بلادهم الأصلية رأوا عن بعد في المضيق الواقع بين الجبال شخصاً يتقدم نحوهم ظنوه في بادئ الأمر شيخاً همّا ولكنه كلما كان يقترب ظهرت قامته الهائلة ثم اختفت عباءته من كتفيه واستحالت عصاه إلى شجرة صنوبر قلعت بجذورها ، ثم ظهر أمام أعينهم شيطان هرتس فارتعدوا من الهول ، وحينما وقف أمام العربة التي حملوا عليها أخاهما ظهرت على ملامحه هيأة أمير محتقر ، ثم قال بخبث ودهاء لمارتان : « كيف وجدت النار التي أشعلها خبثي ؟ » وما أتم قوله حتى جمد الدم في عروقهما من الخوف ولكن الجريح عاوده نشاطه وقوته ونهض ولوح بقبضة يده الباقية مهدداً الشيطان ؛ وما كان من هذا اللعين إلا أن قهقه بتهكم وخبث ، ثم اختفى عن العيون

تملك الفزع الأخوين ، ثم اتجها نحو دير قائم في غابة صنوبر على قارعة الطريق ، فتلقاهما راهب بالترحاب وكان حافي القدم طويل الذقن ، ولم يعش مارتان غير الوقت اللازم لاعترافه لأنه لم يعترف منذ أقبلت عليه النعم الفجائية مع أن مارتان كان يساعد الغوغاء على رجم هـذا الراهب المسكين وطرده من قرية مور حنبرودت قبل هذا التاريخ بثلاثة أعوام . ويظن أن هذه الأعوام التي أقبلت فيها السعادة بكل تسامح كان لها ارتباط خفي بالرحلات الثلاث التي ذهب إليها مارتان ليرى النار الغريبة

ثم دفن مارتان في الدير وترهب أخواه إلى أن وافاهما الأجل المحتوم ، وبقيت أرض مارتان خلاء ولم يقبل أن يمسها أحد إلى أن وضع يده عليها الامبراطور ولم يقترب الحطابون ولا عمال المناجم من أطلال القصر معتقدين أنه أصبح مأوى الشياطين

وقد جعل مارتان ولديك من نفسه مثالاً للمصائب التي يستهدف لها كل من حصل على ثروة بطريقة غير مشروعة ثم أساء التصرف فيها

محمد كامل حجاج

انتقام رهيب

للكاتب الفرنسي أونوريه دي بلزاك
بقلم الأديب عبد الوهاب مصطفى حلاق

على بعد مائة متر تقريباً من بلدة فندوم على حدود إقليم اللوار توجد دار كبيرة محاطة بأسوار عالية وقد قامت وحدها بعيدة عن جميع الدور الأخرى وتتبعها حديقة واسعة جفت الآن نباتاتها وغطى التراب دروبها وزاد منظرها من ضمة القدم والوحشة البادية على الدار، ولم يكن يفتح لها باب ولا يطرقها طارق، وقد علمت أنها قد أغلقت هكذا وخلت من السكان منذ عشر سنين، وإنما أحدث صبية الناحية فتحات في السور ترى منها جوانب من داخل الدار

وقد قصت على صاحبة النزل الذي نزلته قصة لا شك أنها سبق أن حكتها لسواي من النزلاء قالت:

« حين أرسل الأمبراطور أسرى الحرب من الاسبانيين وغيرهم إلى هذه البلدة أنزلت الحكومة عندي واحداً منهم. وقد أخذت عليه كلمة الشرف ألا يفر، ومع ذلك كان عليه أن يقدم نفسه كل يوم إلى وكيل المحافظة وكان من أشراف الاسبانيين واسمه ينتهي بأوس وديا، وهو يشابه كلمتي بورجوس دي فيريديا، واسمه الصحيح مدون في دفاتري، ولم يكن طويل القامة، وكانت يداه رقيقتين يعنى بهما ويخصهما بفرشاة كأنه سيدة حسناء. وكانت ثيابه أحسن ما مر على وقد تعلم أني غسلت ثياب أمراء وأشراف لا يحصى لهم عدد. ولم يكن ذلك الشاب كثير الأكل، وقد أعجبني منه حسن أدبه ووداعته، وملت إليه كثيراً وإن يكن لا يكاد يفتح فاه بالكلام أكثر من بضع مرات في اليوم، وكان من المحال أن يفتح أحد باب الحديث والسمر معه، وإذا كلمه أحد لا يجيب، وكان يتلو صلواته كل يوم كما ينبغي ويذهب إلى الكنيسة بانتظام، وفي المساء كان يمشي في الجبال وبين خرائب القصور، ولم يكن له من تسلية سوى ذلك وقد علمت أن اسبانيا مملوءة بالجبال والدمن فلا عجب في أن ينشدها هنا. وكان منذ بدء أسره قد اعتاد أن يرجع إلى النزل في ساعة متأخرة من الليل ولذا لم أكن أغلق عليه إذا غاب، وكان يأخذ معه مفتاح الباب فلا يحس به أحد حين عودته. ثم أخبرني أحد الخدم أنه رآه يسبح في النهر في ناحية منعزلة فبادرت إلى تحذيره من مواطن الخطر بالنهر حتى لا يغرق. ولكن جاء يوم لم يعد فيه أصلاً، ثم انقضت أيام أخرى دون أن يعود وقد بحث زوجي عنه طويلاً، وكان وقتئذ لم يعت بعد فعثر على ثيابه وراء حجر كبير عند أعالي النهر، وأيقنا أنه غرق. ولما فتحنا درجه في الغرفة الخاصة به وجدنا خمسين قطعة ذهبية اسبانية وحلياً من الألماس ومعها مكتوب منه يوصي بها لنا في حالة عدم عودته، ولم يكن أحد قد رأى زوجي وهو يرجع بالثياب لأنه كان قد ذهب في ساعة مبكرة قبل الفجر للبحث عن الشريف الاسباني ولذا حرقنا تلك الثياب وأخذنا النقود والحلي تبعاً لتلك الوصية وأعلنا المحافظة أن الأسير هرب وقد أرسل وكيل المحافظة جميع الشرطة للبحث عنه ومطاردته، ولكنهم بالطبع

لم يجدوه ، وكان المرحوم زوجي يعتقد أنه انتحر غرقاً . ولكني لا أعتقد ذلك بل إني أرجح أن يكون لذلك الشاب المسكين علاقة بقصة مدام دى ميريه فقد أخبرتني روزالي أن الصليب الذى كانت سيدتها تلك تحتفظ به وتحرص عليه كان من الأبنوس والفضة وهو الذى دفن معها طبقاً لوصيتها وقد جاء الشاب الاسبانى إلينا ومعه أيضاً صليب من الأبنوس والفضة ولكني لم أره معه بعد ذلك. والآن ألا تعتقد أن لى الحق فى أن أحتفظ بالنقود والحلى التى تركها لنا ذلك الشاب الاسبانى ؟ »

قلت لها :

— بالتأكيد . ولكن ألم تسألى روزالى عن معلوماتها بهذا الصدد ؟

— سألتها ولكنها تكتم كل ماتعلمه ويبدو لى أنها تعرف أشياء ولكنها لا تقولها . ثم تركتني صاحبة النزل ومكثت أفكر فيما قالت لى وقد دلني إلهام خفى على أن بين هذا الحديث وتلك الدار المهجورة صلة متينة، ولذا عزمت أن أكتشف ذلك السر الذى تكتمه روزالي فقد كانت وصيفة لمدام دى ميريه زوجة صاحب الدار المهجورة قبل أن تشتغل خادمة بالنزل فقلت لها ذات مساء :

— روزالى !

— نعم

— ألست متزوجة ؟

فضحكت وأجابت :

— فى استطاعتى أن أجد كثيراً من الرجال إذا خطر لى أن أشقى بالزواج

— إنك جميلة ذكية ومثلك لاينقصها المحبون، ولكن خبريني ياروزالي لماذا اشتغلت بهذا النزل بعد أن تركت خدمة مدام دى ميريه ؟ ألم تخلف لك تلك السيدة شيئاً تعيشين به ؟

— بلى . ولكن عملى هنا لا يضايقنى ألبتة

ففهمت أنها لاتريد الكلام عن سيدتها السابقة ومن ثم زاد اهتمامى بكشف ذلك السر الخفى . وفى صباح الغد قلت لها دون مقدمة :

— نبئيني بكل ماتعرفينه عن مدام دى ميريه

— لا تسألنى مثل هذا السؤال . .

ولكنى أصررت على سؤالي وكنت قد كسبت ودها فقالت لى :

— حسن ، مادمت تلح فى معرفة القصة فانى سأقصها عليك ولكن ينبغى لك أن تعدني بأن تكتمها عن جميع الناس

— أجل ، أعدك بذلك بشرف اللصوص وهم أكثر الناس محافظة على الوعود . ولو أنى أردت هنا أن أبين فصاحتها وهى تقص على قصة مدام دى ميريه لاحتجت إلى مجلد كامل ولذا سألخصها هنا بإيجاز :

« كانت الغرفة الخاصة بمدام دى ميريه فى دار زوجها الكونت بالطبقة السفلى وبجانبها دولاب كبير مبنى فى الجدار لحفظ ثيابها ، وقبل ثلاثة أشهر من ذلك الحادث الرهيب الذى أدى إلى إغلاق الدار وهجرها كانت مدام دى ميريه منحرفة الصحة فتركها زوجها وحدها فى جناحها الخاص بها واحتل جناحاً آخر فى الطبقة العليا. واتفق أنه عاد من ناديه ليلاً بعد ساعتين من موعده المعتاد وكانت زوجه تحسبه فى البيت راقداً فى فراشه ، ولكن الكونت كان يتحدث مع أعضاء النادى فى الشؤون السياسية وقضى وقتاً طويلا فى البليارد وقد خسر فيه أربعين فرنكا ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لبلدة فندوم حيث يدخر الأهالى نقودهم وحيث تقل الملاهى ووجوه

الاتفاق ، وكان الكونت قد اعتاد فى المدة الأخيرة أن يسأل روزالى عند عودته ليلا عما إذا كانت زوجه قد آوت إلى فراشها فكان جوابها دائماً بالايجاب فيذهب الكونت تواً إلى مخدعه بادى الرضا عن نفسه ، ولكنه فى تلك الليلة خطر له أن يقصد إلى مخدع زوجه ليخبرها بما منى به من الخسارة فى لعب البليارد ويلتمس منها العزاء ، وكان قد رآها عند تناول العشاء فى أحسن ثيابها وفتنتها قبل ذهابه إلى النادى فخطر له أنها قد شفيت من مرضها وأن دور النقه قد زادها جمالا ، وكان على عادة الأزواج بطيئاً فى إدراك ذلك

وبدلا من أن ينادى روزالى السؤال عن زوجه ذهب إلى مخدعها على ضوء المصباح الذى وضعه على السلم وسمع وقع خطواته فى الردهة ، وفى اللحظة التى أدار فيها أكرة الباب خيل إليه أنه يسمع صوت باب الدولاب الداخلى وهو يغلق ، ولكنه لما دخل الغرفة وجد مدام دى ميريه وحدها أمام المرآة وقد خطر له أولا أن روزالى بداخل الدولاب ولكنه طرد هذا الخاطر وحل محله ارتياب شديد ، ونظر إلى زوجه فرأى عليها دلائل القلق وقالت له بصوتها الرقيق البادى التأثر :

— « لقد تأخرت الليلة ! »

فلم يجب لأن روزالى دخلت فى تلك اللحظة ، وأخذ يذرع الغرفة ذهابا وجيئة وهو مطبق الذراعين وقد ثارت بنفسه عاصفة كان يكظمها جهد المستطاع ، وبينما كانت روزالى تساعدها على خلع ثيابها قالت لزوجها :

— « أسمعت أخباراً سيئة أم أن بك مرضاً ؟ »

فظل ساكتا

وعندئذ أمرت روزالى بالانصراف

وقد دلها منظر زوجها على شر مستطير ، فلما ذهبت روزالى وهى فى الحقيقة لم تذهب بعيداً لأنها وقفت فى الردهة تستمع موقف الكونت أمام زوجه. وقال لها بجفاء :

— مدام ! يوجد أحد فى مخدعك ؟

— كلا ياسيدي !

ولم يصدقها، ولكنه رآها فى تلك اللحظة أبدع وأطهر ما تكون، وقام ليفتح باب الدولاب ولكنها تناولت يده وقالت بصوت يدل على التأثر والأسف :

— إذا لم تجد أحدا بالداخل فلا تنس أن ذلك يكون آخر العهد بيننا

وكان اطمئنانها وتأثرها باعثين له على الندم لارتيابه بها فقال لها :

— كلا .. لن أدخل، فسواء كان هذا أو ذاك فانه مؤد إلى افتراقنا . اسمعى إنى أعرف أنك أمينة طاهرة وأن حياتك حياة قديسة ولن ترتكبى ذنباً خالداً لانقاذ نفسك

فنظرت إليه نظرة التساؤل فاستطرد يقول :

— تناولى هذا الصليب وأقسمى لى أمام الله أنه لا يوجد أحد مختبىء هناك ؛ وعندئذ أصدقك ولا أفتح الباب

فأمسكت مدام دى ميريه بالصليب وقالت :

— أقسم

— ارفعى صوتك وقولى : « أقسم أمام الله أنه لا يوجد أحد مختبىء بهذا الدولاب

— فكررت هذا القسم بهدوء

— حسن

وبعد أن سكت برهة أمسك بصليب من الأبنوس مطعم بالفضة وقال :

— إنى لم أر هذه الصبة الجميلة من قبل

— لقد وجدتها فى محل دوفينيه وكان قد اشتراها من راهب أسبانى حين مر الأسرى

الاسبانيون ببلدة فندوم فى العام الماضى

فلم يقل الكونت شيئاً وأعاد الصليب إلى موضعه ودق الجرس فجاءت روزالى مسرعة فقال لها :

— اسمعى ، إنى أعلم أن البناء جورنفلو يتمنى الزواج بك وأنك تتمنينه زوجاً لك ولكن الفقر هو العائق الوحيد ، فهيا أسرعى وائتينى به ومعه أدواته وعدده وليبرهن على براعته فى البناء. وحذار أن توقظى أى أحد فى الدار، وسأكافئه بمـا يشتهيه وعليك ألا تحدثى أى صوت وإلا ...

وهنا عبس فبانت كل قسوته ، ولمـا ذهبت ناداها وقال :

— إليك مفتاحى السرى

ثم نادى جان الحوذى وكان فى تلك الساعة يلعب بالورق مع رفاقه الخدم فأمره الكونت بأن يأوى الجميع إلى فراشهم ... ثم قال لجان همساً :

— حين ينام الجميع تعال وأخبرنى

ولمـا انتهى من الادلاء بهذه الأوامر عاد إلى زوجه فأخذ يحدثها عن خسارته فى لعب البليارد وعن أمور أخرى عادية ، حتى إذا عادت روزالى وجدتهما جالسين معا بخير حال

وكان الكونت قد أصلح فى العهد الأخير جميع سقوف الغرف التى بالطبقة السفلى وجاء لهذا الغرض بمقدار وافر من الجص من باريس وقد أمل أن يبيع الباقى منه بعد سد حاجة الترميمات فيجد له سعراً عالياً فى البلدة، وقد أوحى إليه ذلك بفكرة فى هذه اللحظة وبعد حين جاءت روزالى وقالت للكونت بصوت خافت :

— سيدى ، لقد جاء جورنفلو

فصاح بها قائلاً :

— أدخليه إلى هنا

ولمـا رأت مدام دى ميريه ذلك البناء شحب لون وجهها ثم قال له الكونت :

— يا جورنفلو، إذهب وائت بطوب وافر يكفى لسد باب هذا الدولاب ، فاذا انتهيت من ذلك طليت البناء بالجص

ثم قال لروزالى وجورنفلو بعد أن انتحى بهما ناحيـة :

— إسمع يا جورنفلو ستنام هذه الليلة، وفى الغد أعطيك جواز سفر إلى بلدة فى الخارج أدلك عليها، وستمكث عشر سنين بهذه البلدة بشرط أن تكون فى نفس المملكة ، وستسافر أولاً إلى باريس حيث تنتظر قدومى ، وسأعطيك أولاً ستة آلاف فرنك لأجل سفرك ، وفى باريس أعطيك عهداً على بستة آلاف أخرى سوف تتسلمها عند عودتك بعد انقضاء السنوات العشر بشرط أن تكون قد نفذت كل شروطى، وهذا هو ثمن كتمانك لما تعمله هذه الليلة. أما أنت يا روزالى فانى سأعطيـك يوم زواجك عشرة آلاف فرنك بشرط أن تتزوجى بجورنفلو ، ولكن إذا كنت تريدين الزواج فيجب أن تمسكى لسانك وإلا فلا زواج ولا صداق !

وفى تلك اللحظة نادت مدام دى ميريه وصيفتها لتصلح لها شعرها

وكان الكونت يروح ويجىء وهو يراقب زوجه ووصيفتها والبناء ، ولكن دون أن يبدى شيئاً من الهواجس التى تختلج فى نفسه ... وانتهزت مدام دى ميريه فرصة اشتغال البناء بتفريغ الطوب ووجود الكونت فى الطرف الآخر من الغرفة فقالت لروزالى :

— لك منى ألف فرنك كل سنة إذا قلت لجورنفلو سراً أن يترك طوباً مفككاً فى أسفل البناء

ثم قالت بصوت مرتفع :

— إذهبى وساعديه

وكان الكونت ومدام دي ميريه ساكتين طوال الوقت بينما أخذ جورنفلو يسد الباب بالبناء ، وقد أراد الكونت ذلك الصمت حتى لا يعطي زوجه فرصة لأن تقول كلمة ذات معنيين ؛ أما هي فقد رأت أن تسكت إما بدافع الكبرياء أو بعد النظر

ولما تم بناء نصف الحائط انتهز البناء الماكر فرصة عدم التفات الكونت فضرب بأداته على لوح زجاج بداخل الباب الذي يسده بالبناء وقصده من ذلك أن يخبر مدام دي ميريه بأن وصيفتها أخبرته وأنه موافق عليه وفي تلك اللحظة بدا للجميع — ماعدا الكونت الذي كان وجهه إلى الناحية المقابلة — وجه رجل أميل إلى السمرة وكان جاحظ العينين ترتسم الرعب في ملامحه وقبل أن يلتفت الكونت أشارت مدام دي ميريه إلى ذلك الرجل إشارة معناها الأمل

وعند الساعة الرابعة من الصباح تم البناء وسد باب الخوان فبعث الكونت البناء إلى الحوذي جان لينام عنده ونام هو في غرفة زوجه

ولما استيقظ في صباح الغد قال لها دون اكتراث :

— يجب أن أذهب إلى المحافظة لأجل جواز السفر .

ووضع قبعته على رأسه ومشى ثلاث خطوات ولكن ظهر عليه أنه غير قصده فتناول الصليب الأبنوس وعندئذ كادت مدام دي ميريه تصيح من الفرح وقالت لنفسها :

— لاشك أنه ذاهب إلى دوفينيه

ولم يكد يغادر الدار حتى نادت وصيفتها وقالت لها :

— هيا على عجل ، لقد رأيت كيف ترك جورنفلو طوباً مفككا وعلينا الآن أن نحدث الثغرة المطلوبة ثم نبني عليها . هيا ائتيني بالأدوات

وسارعت مدام دي ميريه إلى العمل بهمة فائقة وأخذت تزيل جانباً من الطوب وإذا بها ترى الكونت يعود ثانية ويدخل الغرفة دون أن تنتبه وكان قد اكتفى بالكتابة إلى المحافظة بصدد جواز السفر وبعث رسولا إلى الجوهري دوفينيية ولاريب أن الكونت قد تنبأ بما ترومه زوجه فأراد أن يوقعها في الفخ

وما كادت مدام دي ميريه ترى زوجها يدخل ويباغتها على ذلك الشكل حتى أغمي عليها فقال لروزالي :

— ضعي السيدة في سريرها

وبعد برهة جاء الجوهري دوفينيه فأطلعه الكونت على ذلك الصليب وقال له :

— هل اشتريت هذا الصليب من رجل أسباني من بهذه البلدة ؟

— كلا

— حسن أشكرك

ونظر إلى زوجه وهي راقدة نظرة تجلى فيها الحقد ثم أمر بأن تمد وجبات طعامه في غرفة المدام . وقال لجان وهو يأمره بملاحظة ذلك

— لأن السيدة مريضة ولن أترك غرفتها حتى تشفى من مرضها

وقد مكث في غرفتها عشرين يوماً ، وفي الأيام الأولى منها كانت تسمع أصوات بداخل الخوان حتى كادت مدام دي ميريه تتوسل إلى زوجها أن ينقذ حبيبها السجين بذلك السجن الرهيب فكان الكونت يسبقها بقوله :

— لقد أقسمت على الصليب أنه لا يوجد أحد بداخل الدولاب !

عبد الوهاب مصطفى بحلاوه

فتاة العصر

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

هو شاب جميل الصورة طاهر النفس ، فاضل الخلق ، له دين ومروءة وعفة وحياء، يحفظ القرآن ويستلهمه القول والعمل، ويقيم الصلاة زلفى وتقوى، ويؤتى الزكاة طاعة ورحمة ، ويصوم رمضان تديناً وتطهراً . ومن يطلع على باطنه يجده صورة صادقة لظاهره ، وقد وهبه الله ضميراً يحاسبه على الخطرة الحبيسة حسابه على العمل المحسوس ، ويضرم فى نفسه حماساً وشوقاً إلى المثل الأعلى

وقد تسألنى أيهـا القارئ : هل هذا الذى تعنى أحد أشبال الاسلام الذين جاهدوا مع النبى الأمين ؟ فأقول لك : كلا ... هو من شباب العصر الحاضر، وقد تهز رأسك باطمئنان الذى اهتدى إلى حقيقة المسألة وتقول : « لا ريب أنه من أبناء الريف الطاهر الذى لم تلوثه حياة الحضر » فأقول لك : إنه من المقيمين فى القاهرة منذ ثمانى سنوات على أقل تقدير، وإنه طالب بكلية الحقوق، وإنه إلى هذا وذاك من أسرة صعيدية معروفة كريمة المحتد موفورة الثراء عظيمة الجاه فلا يمنعه من الاستهتار لو أراده فقر ولا ضرورة . وقد يأخذك العجب وتستبد بك الحيرة ويداخلك بعض الشك فى أننى لم أتوخ الدقة فى وصفه ، أو أننى أغض الطرف عن بعض نقائصه غض من يزكي عزيزاً ، ولكننى أؤكد لك أننى لم أجاوز فى نعته قولة الحق ، وأنه شاب فاضل حقاً ميزته سجاياه الجميلة عن جمهرة أمثاله من الشبان، فهو لا يشرب الخمر ولا يرقص ولا يدخن ولا ينازل الطالبات والملمات . ويتجنب الملاهى حتى البرىء منها ، فلم يعرف عنه أنه اختلف مرة إلى السينما ولا دخل المسرح إلا مرة واحدة ليشاهد رواية يوليوس قيصر التى كانت مقررة حينذاك على طلبة البكالوريا ، وهو فى حياته العامة والخاصة كالعابد القانت لا يعرف طريقاً سوى طريق الجامعة أو الجامع، ولا يطمئن إلى مكان غير البيت والمكتبة، وقد وهب حياته جميعاً للعلم

وما كنت أتطفل على حياته لو أنه قدر لها أن تسير فى مجراها المألوف ... لأنه يصح أن يقال فيه ما قيل عن الفيلسوف كانط من أنه لا حياة له . وحسبك أن تعرف تاريخ يوم من أيام حياته الموزع بين العبادة والدراسة لكى تعرف حياته جميعاً ... ولكن قدر لحياته غير ما أراد لها ووقع له ما لم يدر فى خلد إنسان ...

كان يقيم منذ هبوطه إلى القاهرة فى الجيزة فى بيت من البيوت المعدة لسكنى الطلبة ، وكان يسكن البيت المجاور له محام شرعى متزمت ، فلبثت نوافذ الحجرة التى تواجه حجرته مغلقة هذه الأعوام كأن لا حياة بها ، وانتقل المحامى أخيراً إلى مسكن جديد فحل مكانه موظف حكومى وأسرته ودبت فى البيت حياة جديدة وفتحت نوافذ الحجرة على مصراعيها وتمتعت بعد طول الحرمان بنور الشمس وطيب الهواء

ولم يفت الشاب ملاحظة التطور الجديد ولكنه لم يلق إليه بالا . وإنه ليجلس إلى مكتبه ذات يوم يكتب بعض المحاضرات سمع ضحكة رقيقة ، فالتفت

إلى الحجرة المواجهة له بحركة عكسية فلمحت عيناه «صورة أنثوية» ثم رد رأسه إلى الأوراق الموضوعة على مكتبه بسرعة البرق فلم يعرف من صاحبة الصورة إلا جنسها، أما لونها وشكلها فلم تلتقط منهما عيناه أى أثر وما كان ينبغى له ... ومضى يكتب محاضراته إلا أنه كان يحرك عينيه — ورأسه ثابت — ناحية النافذة كلما مضت فترة من الوقت فيلحظ الصورة الأنثوية الناهضة فى مكانها من النافذة لاتريم، حتى أخذه العجب من ملازمتها لوقفتها — الخالية من الحياء — واشتد به العجب فرفع رأسه ورأى فتاة تطالع فى كتاب وكأنها أحست بحركته فهمت برفع رأسها ولكنه رد رأسه إلى موضعه الأول بسرعة وقد اهتاجه الحياء والغضب وهمس لنفسه: «عسى ألا تكون رأتنى» وبات ليلته غير راض عن نفسه لأنه صرف ثوانى من وقته الثمين فى غير ما يرضى الله ...

وفى صباح اليوم التالى وكان يرتدى ملابسه؛ لاحت منه التفاتة — لا يدرى كيف — إلى نافذة جارته فرآها تطل منها فى معطف المدرسة الأزرق الجميل وعلى رأسها قبعة صغيرة أنيقة فالتقت عيناها قسراً، وسحب عينيه — كالعادة — بسرعة فلم يدرك حسن هاتين العينين ولكنه — وآسفاه — أحس بهما . وغادر البيت ساخطاً غاضباً يفكر فى وسيلة يقطع بها دابر هذا الشر الباغت .. ولكن كيف ... إنه لا يستطيع أن ينتقل إلى حجرة أخرى فأن جميع حجرات البيت مأهولة بالطلبة ... ولا يستطيع أن يغلق نافذة حجرته دواماً فهذا فوق ما يحتمل ... وجعل يفكر فى أمر الفتاة ساخطاً غاضباً لاعناً، ولكنها على كل حال استطاعت أن تفرض نفسها على تفكيره سحابة يومه ...

وفى عودته إلى مكتبه عصراً شعر بجبينها إلى النافذة كما فعلت بالأمس ولكنه أقسم ألا يعيرها أى انتباه وألا يحنث بقسمه مهما كانت الظروف والأحوال؛ إلا أن جهداً كبيراً مما كان يصرفه فى القراءة بذله فى تركيز الانتباه وتجنب المحذور ... وبالرغم من ذلك المجهود الجبار فقد طرق أذنيه صوتها وهى تتكلم بصوت رخيم يجعل من أتفه الأحاديث ألحاناً رشيقة، ولم يفقه لما تقول معنى، ولكن لم تغب عنه حلاوة الصوت ... ترى من تحادث ... ولكن ماله هو ومن تحادثه ... فلتحدث من تشاء ... أو فلتحدث نفسها كالمجانين ... المهم أن يصم أذنيه عن صوتها الخبيث ... يا الشيطانة ... إنها لا تقنع بهذا الحديث فتضحك ضحكتها الرقيقة الطرية المثيرة، والله إنها لتضحك لا بدافع السرور أو الطرب ولكن إيقاظاً للعواطف والشهوات ... فكيف السبيل إلى تفهم الرومانى والشريمة وسط هذه الاذاعة الجنونية المضطرمة ؟...

ومضت أيام كثيرة وأسابيع وهى لا تكف عن أحاديثها الرقيقة وضحكاتها المثيرة وهو جامد كالجبار صارم كالصخر يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة ويكبت عواطفه كبتاً لا هوادة فيه، ولكن الفتاة لم تستسلم للقنوط بل لجأت إلى طريقة شيطانية فأتت بطفل صغير وحملته بين يديها ومضت تداعبه وتلاعبه وتقبله قبلات حارة يرن صداها فى حجرته وتقول له بصوت مسموع «يا حبيبى ... قبلنى ... أعطنى شفتيك المذبتين ... مالك لا تنظر إلى ... أنظر إلى حبيبتك ... ألا تحبنى ... ألا يروقك وجهى ... أنظر إلى يا حبيبى ...»

فكان يصغي إلى مناجاتها بقلب مرتجف كجناح طير ذبيح ، والدم يتصاعد إلى رأسه فيخضب وجهه وينبض بقوة في أذنيه ويستسلم إلى الاصغاء استسلام المجاهد اليائس أضناه الجهاد والعزم، ولا يلبث أن تتجلى في عينيه نظرة حزن عميق ويهتف من أعماق قلبه المعذب: « رباه ... اغفر لي ذنبي وهبني من لدنك قوة » ... ولكنها كانت تزداد جرأة على مرور الأيام حتى كان يصلي عصر يوم فوقفت خلف النافذة تديم النظر إليه وتقول ضاحكة : «إدع لي» وتقول أيضاً : « الله يهديك ويفتح عليك » فلما أن رآته يركع ليختم الصلاة أخذت تقرأ التحيات معه كلمة كلمة ... فاضطرب واستحيا ... رباه ... لقد جنح فكره إليها وهو بين يدي الله . وانفتل من الصلاة حزيناً كئيباً وارتمى على مقعده وجعل يتلو الآية الكريمة: «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » وكأن الآية الشريفة أمدته بقوة غريبة فانتفض قائماً بعزم كالحديد وسار إلى النافذة وفي عزمه أن يغلقها بشدة وعنف ... وقرأت الفتاة عزمه في تقطيبة جبينه فهتفت به بدلال جميل « إخص يا قدري ... »

وانخلع قلبه في صدره ورفع بصره إليها وهو لا يدري، فامتلأت عيناه من وجهها الأسمر البدري وهو في غيبوبة الدهشة والذهول . . . . وجفلت يداه من مس النافذة فعاد إلى مكانه كمن يسير في حلم . . . . كيف عرفت اسمه ؟ . . . . كيف ؟ ... ولماذا نادته به ؟ . . . . ما أجمل صوتها ! . . . . وما أجمل اسمه في صوتها ! . . . . إنه لم ينادَ هذا النداء من قبل . . . . وما هو بالنداء، إن هو إلا غناء جميل . . . . لقد غنى باسمه كما يغنى بأسماء مشاهير العشاق في الروايات الغنائية الخالدة . . . . ولقد سما اسمه على أجنحة ذلك الصوت العذب إلى طبقات الفضاء العالية ينافس محاسن الطبيعة حسنها وجمالها . . . . لقد أتى ذلك النداء على البقية الباقية من عزمه فتخاذل وتضعضع ولم يثن عنه عزمه ولا إيمانه فتيلا . . . . وطال ليله ولكنه لم ينم كبشار . وطرح على نفسه هذا السؤال أكثر من مرة « هل الحب فضيلة » ؟ إن ما يسمونه حبا وما هو إلا عبث وقبل ووعود كاذبة، رذيلة منكرة؟ أما تلك الجاذبية النفسية التي يهتدي بها الانسان إلى شريكته في الحياة فهي الحب وهي الفضيلة ، ولقد أحب النبي الكريم السيدة خديجة ، ثم أحب مرة أخرى السيدة عائشة أم المؤمنين، وما كان في الحالتين إلا كامل الخلق كما وصفه الله تعالى . . . . فما الحب بالرذيلة التي تخشى مقارفتها ، وما عليه من بأس في أن يحب جارته التي أجبرته على حبها . . . . وهكذا جعل يهون وقع المصاب على نفسه ويبرره أمام ضميره ليطمئن نفسه المذعورة المتهالكة . . . . وفي الصباح قام من نومه نشيطا مبتهجا برغم تقلبه وتسهيده وارتدى ثيابه بعناية لم يلق إليها بالا من قبل ، وكان يختلس من النافذة نظرات يمسها الرجاء ويردها التهيب، ولكنه ألفاها خالية ، ولم يبق شيء يعوقه عن الذهاب إلى الكلية ولكن كبر عليه أن يذهب قبل أن يتزود بنظرة من وجهها الأسمر الجميل . . . . ولكن النافذة ظلت خالية كالفم الفارغ الذي غاب عنه دره النضيد . . . . ولم ير بداً من الذهاب فذهب كئيباً محسورا ورجع متلهفاً جزوعاً ، وانتظر على حرقة وشوق، ولكن لم

ير لها أثراً ولا سمع صوتاً فذهب وجاء، وجاء وذهب وقام وقعد، وقعد وقام، وجعل يقلب في أوراقه وكتبه بدون وعي، ودلف إلى نافذة حجرته واستند إليها وانتظر وانتظر . . . . ثم انتظر حتى ضاق به الصدر وكتمت الأنفاس وحتى ودّ لو يصرخ بأعلى صوته أو يسير شوطا كبيرا بغير هدى، ومضى ذلك اليوم غير محسوب من العمر فلا ذوق الطعام في فمه، ولا معنى للروماني في عقله، ولا أثر الصلاة في قلبه.. ولا سبيل النوم إلى جفنيه . . . . لقد مات ذلك اليوم الأغبر . . . .

وفي صباح اليوم الثاني . . . . وكان الجمعة — رآها كما كان يراها — فهبطت على قلبه طمأنينة سعيدة، وفرح فرح ذلك الانسان الذي رد إليه نور الأبصار بعد ظلام العمى ورفع نظره إليها بعد تردد واستحياء، ولكنه أحس بخيبة لأنه رآها تنظر في كتاب بين يديها غير ملتفتة إليه فأدام إليها النظر ولكن لم يبد منها ما يشعر بأنها أحست بوجوده، فاقترب من النافذة وسعل سعالا خفيفا فنظرت إليه نظرة غريبة لا حياة فيها كأنها تراه لأول مرة ثم عادت إلى النظر في كتابها . يالشيطان! ماذا حدث؟ أهي هي بذاتها أم هذه أخرى تشبهها؟ مالها هكذا جامدة وما الداعي إلى هذا الفتور؟ وفيم كانت إذاً مطاردتها له وإلحاحها عليه وتفننها بامنه؟! أتناست هذا كله بين يوم وليلة فحل الزهد مكان الرغبة والجفاء مكان المودة؟ ورآها تغلق الكتاب وتمد يديها إلى مصراعي النافذة تريد إغلاقها فنسى نفسه وحياءه ورفع يديه إليها بتضرع وقال : « كلا . . . » فتوقفت ونظرت إليه نظرة شديدة إلى حين . . . ثم لم تتمالك نفسها فانفجرت ضاحكة ضحكا مكتوماً ظافراً وتجلت في عينيها نظرة المجون والعبث . . . .

فيالشيطانة . ولم تضع وقتها سدى، فأشارت بيدها إلى نفسها وإليه ثم إلى الشارع، فاضطرب وتحير وأشار إلى الشارع مستفهما منكرا فهزت منكبيها ببساطة وأحنت رأسها كأنها تقول « ولم لا ؟ »

فازداد حيرة لأنه يرى أن « الرندي فو » باب من أبواب الحب المحرم لا الحب الفاضل فوقف متردداً لا يأتي حراكا ولكنها هزت يدها هزة عصبية تستحثه . . . فأسرع إلى بدلته وارتداها ووضع الطربوش على رأسه بعناية فائقة وهبط السلم إلى الطريق لا يلوى على شيء، فرآها تسير على بعد أمتار منه فتبعها كالكلب الأمين، حتى بلغا ميدان الجيزة وانحرفت إلى اليسار في طريق الأهرام وهو في أثرها يتلفت بين الحين والحين يمنة ويسرة . . . وانتهت إلى محطة الترام ووقفت، فوقف على بعد منها قريب مضطرباً حائراً محمر الوجه — فالتفتت إليه وابتسمت ابتسامة مشجعة فابتسم ابتسامة ذاهلة ولم يدر ماذا يصنع، فلم تر بداً من أن تتقدم إليه وتمد إليه يدها وتقول برقة : « بونجور » فمد إليها يده كالخائف ورد عليها وهو لا يدري مايقول « بونجور مسيو » وهمّ بالالتفات فيما حوله ولكنها همست في أذنه ضاحكة « الثبات » وجاء الترام رقم ١٤ فصعدت إليه وصعد خلفها واتخذ مقعداً منفرداً وذهب بهما في طريق الأهرام — وفي أثناء الطريق لاحظت ارتباكه فسألته برقة . . .

— مالك ؟ فقال بصوت ضعيف

— لاشيء مطلقاً . . إلى أين نحن ذاهبان ؟

— ستعلم بعد حين

— وماذا عسى أن يقولوا في البيت ؟

فأرته كتاب الطبيعة للمدارس الثانوية الذي كان بيدها وقالت ضاحكة :

— يقولون إني أذاكر عند إحدى زميلاتي

فضحك قدري وقد أحس بأنه ينبغي أن يقول شيئاً ليثبت وجوده كما يقولون فسألها :

— كيف عرفت إسمي ؟

— هذا أمر بسيط . . سمعت شخصاً يناديك

ماذا يقول بعد ذلك ؟ إنه لا يجد مايقوله ! وقد سألته هي بتدلل :

— هل تعرف اسمي ؟ . .

— كلا . . .

— ولم لم تسألني عنه ؟ . .

— . . . . ! !

— إسمي لولو

— إسم جميل

— حقاً ؟

— جداً

— مرسي

— ولكن هل هو اسم عربي ؟

— نعم

— ولكني لم أسمع به من قبل

فضحكت دهشة وقالت :

— لولو تدليل ليلي

— آه . . .

فقالت له وماتزداد إلا دهشة :

— أنت ساذج جداً ياقدري

ما أحلى اسمه في فمها ! وما أحلاها هي ! وما أحلى الدنيا في وجودها

وسكتت عن الكلام حيناً فسكت طبعاً وكانت تديم النظر إلى وجهه لا تحول عينيها عنه ؟ فألقى عليها نظرة على عجل أبصر بها حسنها الفاتن وأناقة ملبسها البالغة ، ولم يعد يحتمل نظرتها الفاحصة فعطف رأسه إلى نافذة الترام وأرسل بناظريه إلى الحقول المترامية يميل نبتها الأخضر القصير مع ريح نوفمبر الخفيفة الباردة وقلب وجهه في السماء كأنه يشاهد زرقتها الباهتة التي انتشرت عليها الكثبان من السحاب بعضها أبيض متوهج كالقطن المندوف، والبعض مظلم داكن كالدخان. والحق أنه ماكان يرى إلا الصورة التي انتزعتها عيناه من وجهها الأسمر الجميل واحتفظت بها متشبثة جشعة . ثم حول رأسه إليها فوجدها ماتزال ترنو إليه بعينيها المسليتين الجذابتين ... رباه ! . . ، وأثارت الحديث مرة أخرى فسألته :

— أري أنك طالب ... أليس كذلك ؟

— نعم

— بأي كلية ؟

— الحقوق

— آه ... وفي أي سنة ؟

— السنة النهائية

فبدا على وجهها الارتياح وعادت إلى الصمت وكانت تنظر إلى الطريق كل دقيقة وأخرى، وكأنما أصابت هدفها فقامت واقفة وهي تقول له : « هلم » ولم يكن الترام قد بلغ نهاية مرحلته إلى الأهرام فعجب قدري ولكنه تبعها مستسلماً إلى مقهى قريب من المحطة ، واجتازت به المكان إلى حديقة خلفية صغيرة المساحة أنيقة التنسيق يخيم عليها سكون شامل وهدوء عميق ويوحي جوها بالخيال والحب ؛ فاتخذا مكانهما تحت ظل شجرة وارفة ولم يكن

بالحديقة سوى زوجين مثلهما فى الجانب المقابل لهما وجاء النادل يسعى فطلبت ليلى بدون استئذانه « شويبن بيرة » دهش الطلب وامتلأ قلبه رعباً ... كيف يشرب خمراً محرمة ؟ وهم بالاحتجاج ولكنه لم يجسر عليه فسكت وهو كظيم ... وكان مبلبل الفكر يسأل نفسه : كيف عرفت هذا المقهى المنزل البعيد ؟ ومتى عرفته ؟ من الذى صحبها إليه أول مرة ؟ فانه من المستحيل أن يكون مجيئها اليوم إليه لأول مرة ... يا لها من فتاة غريبة الأطوار ... غاية فى الجسارة والجرأة ... أنظر إليها كيف تجلس واضعة رجلاً على رجل وساقها بادية حتى الركبة ... وانظر كيف تفتح مقدم معطفها عن صدر ناهد فيلوح ثدياها من وراء ستار الفستان الرقيق كتفاحتين آن أوان جنيهما ...

وانتبه من أفكاره إليها وهى تقول :

— أنت لا تكاد تبرح حجرتك إلا حين تذهب إلى الكلية ... وفيما عدا ذلك فأنت لا تفارق مكتبك على الاطلاق ... لقد عجبت لشأنك وقلت لنفسي: ياله من شاب ليس كالشبان ... ثم رأيتك لا تبالى بى ... فأقسمت

وكان الباقى مفهوماً فلم تكمل حديثها وضحكت ضحكة الظافر ثم عادت تقول :

— لا تظن أن إصرارى — الذى لا شك أدهشك — كان محض عناد أورغبة فى الفوز، فالحق أن وجهك الجميل أثر فى نفسى تأثيراً عميقاً من أول نظرة.

فغلبه الحياء وخضب الاحمرار وجهه وتصبب العرق من جبينه وقال لنفسه : ويلاه ! من منا الشاب ، ومن منا الفتاة ؟ أما هى فسألته :

— لماذا جفوتنى طويلا . . أليس قلبك خالياً ؟

وحضره جواب ظن أنه غاية فى الجرأة وآية فى التنزل فتردد عن قوله هنيهة ولكنه ذكر كلامها الجسور فجمع أطراف شجاعته وقال :

— كان قلبي خالياً

— والآن ؟

أفـلها، ألا تكفيها الاشارة؟ وماذا يستطيع أن يقول زيادة على ماقال؟ ولكنها خففت من حيرته فقالت:

— وقبل ذلك ألم تحب أبداً ؟

— أنا ... ؟ أبداً

— أشباب وجمال وجفاف ؟

— ولم لا ؟

— ولكن ما قيمة الحياة بغير الحب ؟

— قيمتها بغير الحب أنها حياة فحسب

— هذيان ما تقول ... فالزمن الذى لا يخفق قلبي فيه بالحب لا أعده من حياتى

— يا سلام !

— أنت إما ساذج غرير أو ماكر داهية

— لا شأن لى بالمكر والدهاء ... ولكن هل أحببت كثيراً ؟

— طالما أبحث من الحب ... إنى أحب الحب... ولئن ضللته فى الواقع فما أضله في الخيال فانى أخلق حبيبي خلقاً وأناجيه بالشعر ... ألا تعلم أنى شاعرة ؟ ثم أتغنى بشعرى لأنى موسيقية أيضاً ...

— شعر وموسيقى ...

— نعم...ولكنى أحب الفن للحب لا للفن... وكم أتمنى لو يتحقق خيالى يوماً وتتفتح حياتى تحت

شعاع الحب ، إن قلبي يحدثني بأني بت على خفقة قلب من أمنيتي

فعاوده الحياء الشديد واستولى عليه الارتباك وجعل ينظر إلى غطاء المنضدة كأنما يشاهد الصور المطرز بها ، فكررت مداعبه وتقول وهى تتنهد :

— بهذا حدثني قلبي وأرجو ألا يكذبني ... ولذلك جددت فى طلابك لتطمئن نفسى

فابتسم وقال :

— إذاً فأنا تحت التجربة ؟

— هو ما تقول ... ألا تقرني على ما فعلت ؟ أما أنا فانى مقتنعة بأني ما تنكبت جادة الصواب ، فهذا هو السبيل الوحيد إلى « الحياة الزوجية » السعيدة ... !

وحيرته تلك الجسارة التي لم يسمع بمثلها من قبل وعجب كيف أنها تخلص إلى غرضها غير مكترثة للحياء أو التردد كالسهم الذي ينفذ إلى القلب من خلل الدرع المتين ، ورأى ألا يجعل للخجل سلطاناً على نفسه خشية أن تقتحمه عيناها وأراد أن يخوض الموضوع بجرأة تماثل جرأتها فقال :

— صدقت يا ليلى ...

ولكن سرعان ما غالبه التردد فثلبه ولم يزد على قوله حرفاً ، وشاهدت حيرته فقالت :

« أراك تحجم عن الكلام ، على أن هذا هين على، وكم من شاب يجيد تزويق الأحاديث وقلبه من الاخلاص خال ... أنا أبحث عن القلب الذى يخلص لى ... »

قالت ذلك ووضعت يدها على يده فانتفض انتفاضة سرت إلى جسمها وبلع ريقه مرتين وقال بحرارة ووجد :

« قد يعز على الكلام ياليلى ولكنى مخلص .. أى نعم أنا مخلص وصادق ولست كأحد من الشبان الذين تمنين ... أنا لا أخادع فتاة وأمكر بها كى أحظى منها بقبلة ثم أفر هارباً ... »

فضحكت وقالت وهى تشير بيدها « أنظر » فنظر إلى ما تشير إليه فرأى الزوجين الجالسين تجاههما يتعانقان فبدا على وجهه الغضب وقال :

— هذا شاب عابث ممن تمنين

— ما الذى جعلك تسارع إلى هذا الحكم ؟

— ألا ترينه يقبل فتاته ؟

— ولم لا يقبلها إذا كان يحبها ؟

— فقال بشئ من الحدة :

— الحب الطاهر يترفع عن هذا العبث

فقالت بدلال وما تزال يدها على يده :

— هنالك قبلات طاهرة بريئة

— وما الفرق بين القبلة البريئة وغير البريئة ؟

فأدنت وجهها من وجهه وهمست قائلة :

— القبلة البريئة تنال بغير فضول أعنى بلا ضم ولا عناق

ورأى فمها دانياً كأنه يقول له « قبلنى » فمرت به لحظة رهيبة ... ونظر إليها فى حياء وارتباك لا يدرى كيف ينال هذه القبلة البريئة ، وكان كلما مرت ثانية ازداد إحجاماً ، حتى سمعا معاً وقع أقدام ، فتراجعت الفتاة وقد احتقن الدم بوجهها ، وتنهد هو ارتياحاً ، وجاء النادل بالجمة ثم اختفى ثانية ، ورفعت الشوب وهى تقول « صحتك » فارتد سريعاً إلى حالة الارتباك والحياء، ولكن تردده هذه المرة لم يطل لأنه أشفق من أن يجرح شعورها مرة أخرى فرفع « الشوب » وتجرع رشفة ثم رده

وقد بدا على وجهه الاشمئزاز ؟ فسألته :

— ألا تعجبك ؟ فقال :

— إنها مرة كريهة

— ألم تذقها من قبل ؟

— أبداً !

— حقاً إنك شاب عجيب ! لست كأحد من شباب العصر

— وهل تدعين العلم بهؤلاء الشبان ؟

— إن أمرهم مشهود

وصمت يفكر ملياً ، فساورته بعض الشكوك ، وتيقظت به صيديته فسألها :

— ألم تعرفي أحداً منهم ؟

فباغتها السؤال ، ولكنها كانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تخفى حقيقتها إلى الأبد فقالت بإخلاص

« إصغ إلي يا قدري ... أنا لا أحب أن نبدأ حياتنا معاً بالكذب والرياء وما دمت تريد أن تعلم فاعلم أني عرفت شباناً كثيرين ... »

فاكفهر وجهه وأظلمت عيناه وسألها بصوت ثائر :

— وكيف حدث ذلك ؟

— كما يحدث عادة ؟ إذ ليس التعارف من الصعوبة بالمكان الذي تراه ، وكنت أذهب إلى اللقاء تغرر بي آمال قلبي في الحب فألقى خداعاً ورياء ووعوداً كاذبة فأرجع أتعثر في أذيال الخيبة والقنوط

فازداد اكفهرار وجهه وتصلبت عضلاته وساورته الشكوك فسألها :

— ألم ينل واحد منهم قبلة بريئة ؟

— لماذا تنبش الماضي ؟

— كيف لا ؟ أما الحاضر وما المستقبل إلا امتداد الماضي

— كنت أبحث عن ضالة قلبي المنشودة

— لم لم تنتظريها حتى تأتيك هي دون تلوث ؟

— تلوث ؟ ماذا تستطيع أن تنال قبلة من طهارة قلبي ونفسي ؟ لاتكن كالجامدين الذين ينظرون إلينا نظرة الجشع والأنانية فيود الواحد منهم لويلهو ويعبث كيف يشاء على أن تنتظره عروسه خلف الستائر لاتمسها يد كأنها لؤلؤة في توقعة . . يغبنى أن نحظى بقسطنا من الحرية ، والحرية معنى سام. ولاتظن أني حمقاء، يخيل إلى الجاهل أن الحرية هي الاستهتار ، كلا، هي عندي الخلاص الالهي للعقل والشعور كي أرى بعقلي وأشعر بقلبي ، فاذا أحببت فاني أهب قلبي عن حب صادق لا عن اضطرار أو تسليم أو يأس . كم من فتيات يجدن أنفسهن في بيوت رجال لايدرين كيف ذهبن إليها فيروضن أنفسهن على الرضا ترويض الأسير نفسه على الذل ويعشن حياة بهيمية تتحكم فيها ضرورات الحياة وحاجات الجسد ... كلا، ليس هذا الزواج الذي أريد . . أنا أريد زواجاً تلتحم فيه الروحان التحام الجسمين . . فيكون اتحادهما خير عتاد لدوام العشرة الشريفة السامية . .

— لا أنكر مافي كلامك من الوجاهة والحق، ولكن السبيل الذي تنهجين لايسلم رواده من رذاذ يلوث السمعة .

— ليس ذلك لعيب فيه ولكن لأننا لم نعتد عليه . . فلا تجعل لهمس الناس فوق مايستحق من

الاعتبار، واذكر أن مثلى إذا وهبت قلبها فانما تهبه عن حب يصمد للعواصف فهى آمن على الحياة الزوجية ممن تسمونها « فتاة البيت » أو « الغريرة التى لاتعرف من الدنيا شيئاً . .

وبدا على وجهه الارتباك والانقباض فتولاها الخوف والقلق وقالت بشيء من الانفعال :

— ماذا يهم الماضى أوكلام الناس إذا وجدتنى منذ الساعة طاهرة مخلصة حتى الموت ؟ لاتصغ إلى وسوسة نفسك وكن مثلى جسوراً واقتحم التقاليد السخيفة لتفوز بالسعادة . .

هل تبيعنى بثمن بخس ؟

وكان مستغرقاً فى تفكيره فلم ينتبه إلى سؤالها الضارع فاشتد انفعالها وسألته :

— هل تبيعنى يافندى بثمن بخس ؟

فهز رأسه وهو لايدرى وقال لها :

— كلا . . مافكرت فى هذا قط

— إذاً فهل أطمئن إليك ؟

— كل الاطمئنان

— وهل أعزى نفسى عن طول عذابى بأن تمنى لم يضع هباء وأنى وجدت أخيراضالتى المنشودة ؟

— أرجو أن أكون كذلك

— وإنك لكذلك؛ وها هو ذا قلبى دليلى يبث فى نفسى الطمأنينة والاستسلام بما لم أعهده فيه من قبل ... كم أنا فرحة يا فندى ... إنك لم تقل لى أحبك ولم أقلها لك ولكن كلانا يعترف حاله بالحب وبأننا تعاهدنا عليه إلى الأبد، أليس كذلك ؟

— نعم ... نعم ...

— أواه يافندى ... كم أنا فرحة .. وكم أجد رغبة ملحة فى الغناء ... ماذا تحب أن أسمعك دوراً ؟ لعبد الوهاب ؟

فهز رأسه بفتور ، فقالت ضاحكة :

— إنك كغالبية الرجال تحبون أم كلثوم

— ولا هذه ، فقالت بدهشة :

— ألا تحب الغناء ؟

— أحب أن أسمع صالح عبد الحى

— إيه !

فقلق لانكارها وسألها :

— هل تعدين هذا تنافراً بين روحينا ؟

فقالت تهدئ روعه :

— كلا ياعزيزى ، إن ماما وبابا فى شقاق دائم بسبب عبد الوهاب وأم كلثوم ، ولكنهما زوجان سعيدان ... إنى آسفة لأنى لا أحفظ أدوار صالح عبد الحى ولكنى سأغنى لك « افرح ياقلبى ... » وغنت بصوت عذب أطربه وأسكره وما زالت تراوح بين الحديث والغناء وهما فى دنيا لاتعرف الزمان والمكان حتى حانت العودة فعادا وافترقا على موعد جديد . . .

وحين خلا إلى نفسه صاح : رباه أى فتاة ! لقد بدأته بالمنازلة ... ودعته صراحة إلى تقبيل فمها ... وذكرت الحب والزواج وصارحته بماضيها الحافل، وعادت وهى تعد نفسها مرتبطة معه بميثاق أبدى!! انتهى الأمر، فأحب وخطب وعاهد بالرغم من أنه لم ينطق بجملة واحدة مفيدة ! فأى فتاة هى ؟! هذه واحدة، أما الأخرى فهى ابنة عمه الحاج اسماعيل

حافظ تاجر القمح الشهير بجرجا التي يعد زواجه منها — لدى والديه على الأقل — أمراً مفروغاً منه على الطريقة الصعيدية ، الحق أن ليلى محت من قلبه كل أثر لابنة عمه ، وأمثالها ولكن نفسه لم تطمئن إليها ، ولم يكن قدري مغلق القلب ولا متعصباً بل كان ذكياً حاد الذكاء لا تحجب التقاليد نور الحق عن عينيه، فقدر ماللفتاة من الذكاء واللباقة والرشاقة وأعجب بروحها الحساسة التي تلبي نداء الشعر والموسيقى والغناء، ولكن لم يشرب قلبه الاطمئنان فكان كمن يعجب بدين غير دينه دون أن تواتيه الشجاعة على الدخول في الدين الجديد ...

وجعل يقول لنفسه: ماذا يكون حالي لو تزوجتها ورآنا واحد من أصدقائها القدماء فمال على صاحبه وقال ساخراً « أترى هذه المرأة التي تسير إلى جانب زوجها ... ؟ كانت وكانت ، وكنت وكنت .. »

ولكنه على تردده وخوفه لم يكابر في الحق فاعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه يحبها حباً لم يحبه أحداً وأنه يهيم بها هياماً ...

إن في قلبه لحباً قوياً يروضه على النزول على حكم زمانه، وإن في نفسه لتراثاً من التقاليد الناشئة يصده عن فلسفة العصر الحديث، وهو بينهما موزع لا يدري أين المستقر ، وعبثاً حاول أن يخلص من شكوكه وهواجسه ، وما زال يقدر ويقدر دون أن يهتدى إلى رأى أو يقر على عزم ...

نجيب محفوظ

حاجي بابا أصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موريه"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(تابع)

وكان الضباط والجنود وهم أكثر الفارسيين كلاماً وأقلهم جرأة يصيحون : « اقتلوهم ! اضربوهم ! اعتقلوهم ! » ولكن أحداً من هؤلاء الصائحين لم يفعل شيئاً ليمنع العدو المغير . وأطلقت بعض طلقات نحونا فلم يصب أحدنا لحسن الحظ إصابة جدية . وذلك بسبب الظلام

وفي أثناء هذه الحركة حدثتني نفسي بأن أترك اللصوص وأختبئ في مكان أفر منه في الصباح . ولكن رأيت بعد تفكير قليل أن ذلك يؤدي إلى اعتقالي ومحاكمتي لأن الثياب التي علي تدل على اشتراكي مع التركمان في هذه الغزوة . وليت الأمر يقتصر على الاعتقال والمحاكمة بل إن أهل المدينة يمزقونني إرباً إذا رأوني قبل أن أجد فرصة لشرح حالتي لهم

ورأيت وأنا أجري في الطريق حانوت أبي فتذكرت أيامي السعيدة . ولم أستطع منع نفسي من التريث قليلا والالتفات إليه بعد أن غادرته .

وشعرت في هذا الحين بيد تمسكني من ذراعي ورأيت أصلان سلطان عابس الوجه يهددني بالقتل إذا لم أبرهن على أنني أهل للثقة التي أولانيها، فلأجل أن أظهر له وفائي هاجمت رجلا فارسياً كان قد خرج ليرى سبب الهياج وقلت له إنه إذا لم يتبعنا أسيراً فاني أقتله

فصاح الرجل متوسلا بقبر الحسين وبقبر عمر وبروح أبي أن أتركه

ولما سمعت صوته تأملت في وجهه فاذا هو أبي، ولا بد أن يكون غرضه الأول من الخروج إلى الطريق في هذا الوقت هو إنقاذ ما بحانوته من أيدي اللصوص ولم يكن بذلك الحانوت غير ستة مناديل وأربعة كراسي وصندوق من المواسي وصابون وسجاد

ولما عرفت أنه أبي تركت لحيته التي كنت قابضاً عليها وهممت بأن أجري على عادة الفارسيين في احترام آبائهم فأقبل يده وأقف أمامه منتظراً أوامره، ولكنني رأيت أنني لو فعلت ذلك لقضيت على حياتي وحياته فتظاهرت بأنني أضربه ووجهت ضرباتي إلى سرج جوادي وقال متمتماً : لو كان ابني حاجي بابا موجوداً لما عوملت هذه المعاملة »

فآلمتني هذه الكلمة أشد الألم وقلت لأصلان باللغة التركية : هذا الرجل لا يفيدنا بشيء لأنه حلاق »

ثم تركته وركضت مع أصلان

الفصل السادس

التحقيق مع الأسرى وتوزيع المسلوب

لما وصلنا إلى مكان بعيد عن المدينة نزلنا عن الخيل لنريحها ونستريح ولم ينس أصحابي أن يسرقوا جملاً في جملة ما سرقوه فذبحوه وشووه واقتسمناه بيننا ، وكان أول شيء فعلناه بعد ذلك هو التحقيق مع الأسرى لنعرف ماذا استفدناه من أسرهم . وكان الأول طويل القامة نحيل الجسم يبلغ الخمسين من العمر حاد النظرات بادي عظام الوجنتين خفيف

اللحية يبدو عليه التفكير . وكانت ثيابه ثمينة دالة على الغنى

وكان الرجل الثانى قصيراً سميناً ممتلئ الوجه بالحمرية تدل هيئته وثيابه على أنه من كبار الموظفين وهو يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر

وكان الرجل الثالث قوى الجسم متجهم الوجه تدل هيئته على القوة والصلابة

أعطينا هؤلاء الأسرى ما بقى من طعامنا ، ثم دعونا واحداً بعد واحد منهم واستجوبناه عن صناعته ومركزه فى الحياة . ولما لم يكن أحد من زملائى يعرف اللغة الفارسية فقد قمت بمهمة الترجمة وكان الذى يلقى الأسئلة هو أصلان سلطان . وسألنا الأسير الأول :

— « من أنت ؟ »

فقال بلهجة المستسلم : « أنا يا سادتى رجل فقير ليس لي مركز فى الحياة »

— « ما صناعتك ؟ »

— « أنا شاعر ولست أحسن أى عمل من الأعمال »

قال أصلان وهو يظهر الاشمئزاز عند ما سمع هذه الصناعة : « شاعر ! وماذا نستفيد بالشعر ؟ إن ثمنك لايقدر عندنا بعشرة قروش . إن الشعراء فقراء ولا يقبل أحد أن يفتديهم من الأسر لأنه لا نفع فيهم »

ثم قال : « ولكن إذا كنت شاعراً فمن أين جاءتك هذه الثياب الثمينة ؟ »

فقال الشاعر : هذه خلعة أجازنى بها أمير شيراز على قصيدة مدحته بها

فأمر أصلان سلطان بنزع هذه الثياب عنه وإعطائه ثوباً من سلخ الغنم . ثم جئ بالرجل القصير السمين وسألناه :

— « ما اسمك وما صناعتك ؟ »

— « أنا قاض فقير »

— « وكيف تلبس هذه الثياب إذا كنت فقيراً ؟ اعترف بأنك غنى وإلا فصلنا رأسك عن جثتك . إن كل القضاة أغنياء فصناعتهم تجارة رابحة »

قال القاضى الأسير : « أنا قاضى مدينة جالادون وقد جئت إلى أصفهان بأمر من الحاكم لأدفع الضريبة عن مزارعى »

فقال أصلان سلطان : « وأين هى الأموال التى جئت لتدفعها ؟ »

أجاب القاضى : « ليس معى أموال لأن الجراد أتلف زراعتى فى هذا العام ولم يكن ماء الرى كافياً »

فقال الزعيم : « هذا القاضى يقدر بثمن كبير وإذا كان عادلاً فان الفلاحين يودون أن يعود إليهم . أما إذا لم يكن كذلك فان قيمته لاتقدر بدينار (وهو أصغر عملة فى فارس) احتفظوا به فقد يكون انتفاعنا به أكثر من انتفاعنا من أى تاجر غني . ولننظر الآن ماقيمة الرجل الثالث »

واتجه أصلان سلطان إلى الرجل الثالث وقال : « من أنت وما صناعتك ؟ » فقال الرجل بلهجة المعتز بنفسه : « صناعتى فراش »

فصاحت الأصوات من كل جانب : « هذا كذاب ! هذا كذاب ! ويستحيل أن يكون فراشاً . أنت تاجر وإذا أصررت على كذبك فاننا سنقتلك »

ولكن الرجل أصر على قوله فضربوه حتى اعترف بأنه تاجر

ولكنني وأنا أكثر منهم معرفة بأحوال الناس رأيت من هيئة الرجل أنه قد لا يكون تاجراً وأنه ربما كان صادقاً فيما يقول، فحاولت إقناعهم بذلك ولكنهم زجروني وحاول بعضهم أن يضربني فاضطررت إلى السكوت . وتداول أصحابي بعد ذلك فيما يجب أن يفعلوه بالثلاثة الأسرى ، فقال البعض إنه يحسن إبقاء القاضي وقتل الشاعر والفراش، ورأى البعض إبقاء القاضي طمعاً في فديته واسترقاق الفراش . واجتمعت كلمة الفريقين على قتل الشاعر

وقد أخذتني الرأفة بهذا الرجل الذي كانت هيئته تدل على أنه كبير الأهمية وعلى أنه غني بالرغم من ادعائه الفقر فقلت لأصحابي : « ما أهول الغلطة التي تريدون ارتكابها ! تقتلون شاعراً ؟ ألا تعرفون أن الشعراء قد يكونون من أغنى الناس وأنهم جميعاً قادرون على الوصول إلى الغنى متى اتجهت ميولهم إليه لأن كسبهم من ثمرات عقولهم ؟ ألم تسمعوا عن الملك الذي كان يعطي الشاعر مثقالا من الذهب عن كل بيت يقوله ؟ أليس الشاه الحالي يجزل العطايا على قصائد المديح ؟ ومن يدري لعل الشاعر الأسير عندنا الآن هو شاعر الملك » !

قال أحد اللصوص : « إذا كان الأمر كذلك فليكتب لنا قصيدة في الحال وإذا لم يجزِ بكل بيت منها مثقالا فاننا نقتله ».

فقال الجميع : « قل لنا شعراً وإلا قطعنا لسانك »

وأخيراً تقرر أن يبقى الثلاثة الأسرى ثم بدأوا يقتسمون بينهم الأسلاب، فدعانا أصلان وجمعنا حوله وسأل كلا منا عما سرقه فقدم إليه بعضهم مباسم ذهبية وقدم البعض علباً فضية أو طيلساناً أو غير ذلك من الأشياء القليلة الثمن . ولما جاء دوري قدمت الصندوق المملوء بأكياس الذهب وكنت قد راجعت عقلي وخشيت أن يوجد مني الكيس الذي خبأته فوضعته بالصندوق مكتفياً بما اعتقدت أنهم سيمنحونه لي من الأسلاب

لكن طاش فألي فانهم قابلوني بالتصفيق وامتدحوني وأثنوا عليّ . ولكنهم لم يعطوني شيئاً رغم إلحاحي الشديد

قال أصلان عند ما قدمت إليه الصندوق : « أحسنت ياحاجي . أحسنت كل الاحسان . لقد أصبحت تركمانياً صادقاً وليس في وسع أحدنا أن يفعل خيراً مما فعلت »

ولما انتهى كل واحد من إطرائي قال الزعيم : « إنني سأتبناك ياحاجي بابا وسأقيم لك خيمة وحدك وأزوجك من إحدى إمائي وأعطيك قطيعاً من الغنم وسأدعو إلى عرسك جميع المعسكر »

لم يكن شأن هذه الكلمات إلا أن تزيد من تصميمي على الفرار في الفرصة الأولى . ولما طلبت إعطائي نصيباً من الأسلاب قيل لي : « إذا قلت كلمة أخرى فاننا سنقطع رأسك »

فسكت مكرهاً ثم اقتسموها بينهم فحدثت منازعات كادت تؤدي إلى سفك الدم لولا أن واحداً منهم قال : « لماذا نختصم كذلك وبيننا قاض ! تعالوا نترك الأمر لحكمه »

فجيء بالقاضي الأسير ليكون حكماً بين اللصوص الذين يختصمون على توزيع أمواله لأن أكثر المسروق كان مملوكاً له

الفصل السابع

تاريخ الشاعر عسكر

عدنا من نفس الطريق الذى أتينا منه . وكان منظر الشاعر منذ أسرناه مؤثراً فخصصته بعطفى وقد أرضيت غرورى بأن أصبح فى حاشيتى رجل من رجال الأدب فى وقت محنته . ونجحت فى تولى الرقابة عليه محتجاً بأنى سأحثه على نظم الشعر

وصرت أتكلم معه باللغة الفارسية التى لا يفهمها أحد من التركمان وقد أمنت جانبه وأمن جانبى فأعربت له عن رغبتى فى الفرار وأظهرت له استعدادى لأداء أية خدمة له . وقد ظهر عليه السرور حين سمع كلامى الرقيقة حيث كان لا ينتظر إلا معاملة خشنة . ولما اكتسبت ثقته بهذه الوسيلة أخذ يحدثنى بحرية عن نفسه وشئونه وقد كان كما ظننت شاعر الملك

وكان لقبه الرسمى « ملك الشعراء » وكان عائداً من شيراز (حيث أرسله الشاه فى مهمة) إلى طهران ومر بأصفهان ليلة وقوعه فى أسرنا .

ولقطع المسافة فى الطريق الشاق طلبت إليه أن يحدثنى بقصته بعد أن حدثته بقصتى فروى لى تاريخه كما سأذكره متوخياً ذكر ألفاظه . قال :

« ولدت فى مدينة كرمان واسمى عسكر وكان أبى حاكما على المدينة فى عهد الملك الخصى « أغا محمد شاه » وبالرغم من كثرة الدسائس التى كان يراد بها عزل أبى فانه كان من القوة بحيث تغلب على كل أعدائه . وبقى فى منصبه حتى مات موتاً هادئاً فى عهد الشاه الحالى وورثت عنه عشرة آلاف طومان (نحو ستة آلاف جنيه) وكنت فى صغرى منهمكا فى الدراسة حتى بلغت السادسة عشرة من العمر فأصبحت من أكثر الناس استظهاراً الشعر . وكان ديوان حافظ الشيرازى مما حفظته عن ظهر قلب . وصرت أقرض الشعر بسهولة عجيبة حتى اشتهرت بأنى أستطيع أن أجعل كل كلامى منظوماً . ولم أترك موضوعاً إلا وكتبت فيه ، فكتبت عن ليلى ومجنونها ونظمت قصائد كثيرة على لسان البلبل يناجى بها الورد ، وفى مختلف المراثى والأغراض . وفى ذلك الوقت كان الشاه يحارب « صادق خان » وهو زعيم كان يطالب بالعرش .

وقاد الشاه جنوده بشخصه لضمان الانتصار على هذا الثائر فكتبت قصائد كثيرة فى مدح الشاه وتشجيع جنوده على الحرب وجعلت فى بعض هذه القصائد كلاماً على لسان رستم أشهر الفرسان فى تاريخ بلادنا وجئت بالمعانى البديعة التى سهل حفظها وكثر تداولها ، ومن هذه المعانى قولى إنه لاحق لجنود صادق خان فى التظلم من الشاه لأنه وإن كان قتلهم إلا أنه جعل رؤوسهم عالية برفعها إلى السماء . وقد سمع جلالة الشاه هذا القول فى جملة ماسمعه من مدائحى فطرب وأمر بنصب أعمدة توضع فوقها رؤوس الثائرين تصديقاً لما قلته .

وأكرمنى أكبر اكرام يمكن أن يناله شاعر وذلك بأن ملأ فى دراً فى وسط جمع حاشد من كبراء الدولة ورجال البلاط والوزراء والحكام . وكان هذا أول باب لرفعتى فقد عينت بعد ذلك فى الحاشية وجعلت شاعر الملك وكلفت بالكتابة عن كل الحوادث . وقلت للشاه إن الشاعر الفردوسى وضع كتاباً لتخليد ذكرى جده وسمى كتابه « شاه نامه » أى تاريخ الملوك وإن ذلك الشاه أذن بأن يقدم الكتاب باسمه وكافأ صاحبه عليه .

واستأذنت جلالته أن أضع كتاباً أدعوه « شاهنشا هنامه » أى تاريخ ملك الملوك ، فسر الملك وأذن بوضعه وتتويجه باسمه وشكرنى .

وكان وزير المالية عدواً لى بغير سبب يحمل على المداوة ففرض عليّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان بوصف كونى أكبر شاعر فى البلاد فرفعت أمرى إلى الشاه الذى أمر بالغاء هذه الضريبة .

وحدث فى يوم من الأيام أن دارت مناقشة فى جمع كبير عن الجائزة التى أثاب بها محمود شاه شاعره الفردوسى وهى منحه مثقالا من الذهب على كل بيت فقلت إن هذه الجائزة تعدل ، لا بل تقل عن جوائز الشاه الحالى لشاعره الضعيف الموجود بينكم الآن ، فالتفتت إليّ العيون وبدا على كل من المجتمعين أنه قوى الرغبة فى معرفة الجائزة التى أثابنى بها الملك . فقلت إن جلالته سمح بأن أرث عن أبى عشرة آلاف طومان مع أنه كان حاكما وأموال الحكام يرثها الشاه إذا أراد، وفقاً لقوانين هذه البلاد فكان هذا المبلغ أول جائزة نلتها . ثم أراد وزير المالية أن يفرض عليّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان فرفع جلالته عني هذه الضريبة وأجازنى بكيت وكيت . وذكرت هداياه لى والراتب الذى أتقاضاه فى منصبى، فكانت جملةذلك أكبر من جائزة محمود شاه للشاعر الفردوسى ثم هتفت بحياة الملك وبأن ينصره الله على كل أعدائه

وكنت على يقين من أن كل ماقلته فى هذا المجلس سينقل إلى الشاه بأحرفه . وبعد بضعة أيام جاءتنى خلعة سنية لا أزال أرتديها فى الأعياد وفى أيام المقابلات الرسمية . وهنأنى كافة الأصدقاء فشعرت من السرور بما لم أشعر بمثله من قبل

وكتبت قصيدة أمدح بها الملك وأثأر ثأراً مضاعفاً من وزير المالية ، وكان كل بيت فيها محتملاً معنيين أحدهما فى مدح الملك والآخر فى ذم الوزير .

وكنت فضلاً عن الشعر الذى تفوقت فى صناعته تفوقاً عظيما ، على جانب كبير من المعرفة بالميكانيكا فاخترعت آلات نالت إعجاباً شديداً فى القصر الملكى واخترعت كذلك نوعاً من الورق وآخر من الحبر وبعض أنواع الثياب . وقد تركت الشعر مدة كنت فى خلالها أشتغل باختراع أقمشة تغنى عن التى نستوردها من أوربا . فطلبنى الشاه وأمرنى بأن أعود إلى نظم الشعر وأترك الاشتغال بالأقمشة لأن ما يرد من أوربا يكفى مؤونة الاختراعات فصدعت بأمر جلالته ...

ولما جاء يوم النيروز استعد كل من خدم جلالته لتقديم هدية إليه كما هى العادة فى هذه البلاد ونظمت قصيدة رائعة فى مدحه فكتبتها بخط جميل ووضعتها فى إطار ثمين وقدمتها إليه ، فلما سمعها منى وقرأها أمر كل وزرائه ورجال حاشيته بأن يقبلوا فىّ ففرحت باكرامه لى وإن كان قد ساءنى اختيار هذا النوع من الجزاء

وأخذ الناس لا يعدون الفردوسى شيئاً يذكر بالقياس لهذا الشاعر الحديث

وكذلك صرت من أقرب المقربين إلى الملك وانفتحت أمامى أبواب الغنى كما انفتحت أبواب الجاه

وكان آخر ما أكرمنى به أن أرسلنى إلى شيراز مندوباً عن جلالته لأسلم الخلعة السنوية التى يرسلها إلى ولى عهده . وأرسل معى هدايا غالية وعهد إلىّ باستلام الضرائب من الجباة فى الطريق ، فكانت جملة ذلك عظيمة جدا

ولما حدث حادث الأمس ضاع كل ذلك فلم يبق منه شيء فصرت أتعس إنسان في الوجود. وإذا أنت لم تهيئ لي الطريق إلى الفرار فاني سأموت أسيراً بين هؤلاء اللصوص . ولو سمع الملك بأسرى فانه يتمنى خلاصي ولكنه لا يدفع ديناراً واحداً ليفتديني لأن وزير ماليته لابد أن يحاول منعه عن ذلك منتهزاً فرصة غيابي . ولأن رئيس الوزارة يكرهني كذلك لأني قلت في يوم من الأيام وقد جرى بيننا الحديث عن الفنون الصناعية والفنون الأدبية : « إنه لا قيمة لحكمته ومعارفه إذا لم يكن يعرف من الصناعة تركيب الآلات التي تدور بها ساعته على الأقل » . وربما كانت الأموال التي أتيت بها قد سرقت جميعها وهكذا أصبحت يائساً . ولكنني أتوسل إليك بجامعة الاسلام التي تربطني بك أن تساعدني إذا أمكنتك المساعدة »

الفصل الثامن

حاجي بابا يهرب من الأسر

لما انتهى الشاعر من سرد قصته أكدت له استعدادي لبذل كل ما في وسعي لخدمته، ولكنني أوصيته بالصبر وبالتجلد في الوقت الحاضر لأني لم أملك بعد حريتي ومن الصعب أن أحييه وأحمي نفسي قبل أن أصير حراً، وأفهمته صعوبة الفرار منهم لأن رقابتهم شديدة على الصحراء وجيادهم مثل جيادنا وهم أكثر خبرة بالطريق فالهرب إذن لا يمكن أن يكون إلا حماقة . وخير وسيلة هي الصبر وانتهاز الفرص

جاوزنا الصحراء ووصلنا إلى الطريق الذي يمر بين طهران ومشهد وصرنا على بعد عشرين فرسخاً من داماجان ، فأمرنا أصلان بالبقاء يوماً أو يومين في هذا المكان لعلنا نجد فيه قافلة فنهاجمها لأن هذا الطريق هو طريق القوافل

وفي فجر اليوم التالي عاد إلينا أحد جواسيسنا يقول إنه رأى غباراً يتطاير من الجهة الغربية وإن قافلة ستقبل نحونا آتية من داماجان إلى مشهد. فقيدنا الأسرى وتركناهم في المكان الذي نحن فيه على أمل أن نعود إليهم متى فرغنا من مهاجمة القافلة وسرنا نحوها راغبين في السرقة وسفك الدماء

وكان في المقدمة أصلان سلطان وكنت بجانبه وقال لي : « هذه فرصة سانحة لك ياحاجي بابا لتتعلم كيف تقود هذه الغزوات في المستقبل . إنك أصبحت لا أستغني عنك لأننا قد نجد قوافل ليس فيها فرد واحد يعرف اللغة التركية وسأجعلك مترجمي الخاص »

وكنا كلما اقتربنا من القافلة نرى أصلان سلطان يزيد قلقاً واضطراباً . وأخيرا قال : « أخشى ألا تكون هذه قافلة فان نظام الصفوف يدل على أنهم جنود ؛ وفضلا عن ذلك أرى وميض الأسنة وشيئاً يشبه الأعلام »

ولما زاد اقترابنا منهم اتضح لنا أنهم جنود وأن الموكب موكب رسمي ولعله موكب حاكم مسافر من مدينة إلى مدينة فخفق قلبي سروراً لعلمي أن هذه أحسن فرصة سنحت لي للفرار وليس عليّ إلا الاقتراب حتى أمكنهم من أسرى دون أن أثير ريبة في نفوس التركمان، وقد يعاملني الجنود معاملة سيئة في مبدأ الأمر ولكنهم سيعلمون بلا ريب بعد فترة قصيرة حقيقة أمري فيمتنعون عن إساءة المعاملة . وقلت لأصلان : « تعال نجر نحوهم. ودون أن أنتظر أمره جريت فجرى خلفي لكي يمنعني ولكننا صرنا على مسافة قريبة منهم ، فعاد وعدت معه وكان يسرع لكي ينجو وكنت أبطيء لكي أقع في الأسر

وفى هذه الأثناء انشق بعض الفرسان عن الموكب وجروا خلفنا ونجحت مناورتى فأسرت ولكنهم فتشونى وأخذوا ما معى من الزاد والثياب وأخذوا الحسين قطعة من الذهب وصندوق المواسى أيضاً وتحملت ضربهم إياى ولطمهم وجهى بصبر وجلد حتى جىء بي أمام زعيمهم وقد تبينت من شكله ومن ملابسه أنه أمير وزال كل شك عندما ضربنى الجنود وأمرونى بالسجود فى حضرة « الشاه زاده »

ولما خفت أن يقتلونى اجترأت فأمسكت بثوب الأمير وأنا راكع عند قدميه وصحت « بيناه بى شاه زاده ! » أى أنا فى حماية الأمير صاحب السمو الملكى »

ولم يكن لأحد أن يعتدى علىّ فى هذه الحالة لأن التشبث بثوب الأمير يعتبر عند الفارسيين لاجئاً إلى شخص مقدس كما يفر المذنبون فى أوربا إلى الكنيسة فلا يجوز اعتقالهم . وقد أمرهم سموه بأن يبتعدوا عنى ووعد بأن يحمينى فقبلت الأرض بين يديه وشرحت حالتى بأكثر ما يمكن من الايجاز وطلبت إليهم إذا أرادوا التحقق من صدق قولى أن يبعثوا بعدد من الفرسان ليقبضوا على التركمان . وقلت لهم إنهم إذا فعلوا ذلك فسيجدون فى أسرهم شاعر الملك وإثنين من الوجهاء الفارسيين وقلت إن عدد التركمان قليل بحيث يسهل التغلب عليهم .

لكن الفرسان الذين كانوا يطاردون أصلان سلطان عادوا فى هذا الحين وأقسموا كذباً أن عدد التركمان كان يربو على الألف فأكدت لهم أن عددهم لايعدو مائة فكذبونى واتهمونى بأنى جاسوس وبأنى أريد الشر بجنود الأمير وتوعدونى بالقتل إذا قام التركمان بهجوم ضدنا

ثم سار الموكب فى غير الاتجاه الذى يؤدى إلى لقاء اللصوص وقد بدا عليهم من الخوف ما يبدو على كل فارس يسمع لفظة « تركمان »

أخذ منى جوادى وأركبت بغلا من البغال التى تحمل الأمتعة ولم يكن بجيبى درهم ولا فيمن حولى صديق وندمت على الحماقة التى دفعتنى إلى الانتقال من أسر التركمان إلى أسر الجنود الفارسية وارتكنت على ما اعتاده قوى من حرية الكلام فأخذت أصيح بصوت عال : « أتدعون أنفسكم مسلمين ؟ إنكم قوم لا شعور لهم ولا إحساس وإن التركمان أكثر رجولة منكم »

لكن هذا النوع من الشكاية لم يستثر غير الضحك والسخرية ممن سمعوه فاستبدلت به لهجة الضراعة وأخذت أتوسل بعلى والحسين وبأرواح آبائهم وحياة أبنائهم وأذكر رابطتى الدين والوطنية واستعطفتهم بذكر مالاقيته فى أسر أعدائى وأعدائهم فلم أجد عطفاً إلى من رجل واحد اسمه « على خاطر » وقد قال لى وهو يشعل لفافته : « إن هذه الدنيا بيد الله يابنى . وإذا كان الله قد جعل لون هذه الدابة أبيض فهل يستطيع على خاطر أن يجعل لونها أسود ؟ وإذا كان الله رزقنى شعيراً فهل أستطيع أن أجعله قمحاً ؟ احمد الله على حظك حسناً كان أوسيئاً وتمثل بقول حافظ الشيرازى : « إن كل ساعة تمر عليك رغم لا يمكن تعويضه »

تعزيت بهذا القول بعض العزاء ولم أعجب من تمثل الجندى بشعر حافظ فان التمثيل بالشعر أمر شائع عند الفارسيين فهم أمة شعرية . وقد عاملنى هذا الرجل معاملة عطف وشفقة وقاسمنى طعامه فى بقية الطريق وأخبرنى أن الأمير الذي وقعت فى أسره هو النجل الخامس للشاه وأنه عين حاكماً

لمقاطعة خراسان وهو ذاهب الآن ليتولى الحكم فيها وأنه مستصحب من الجنود أكثر مما اعتاد أن يستصحبه ليرهب التركمان ، وأن الأوامر صدرت إليه بألا يدخل معهم فى موقعة جدية إلا إذا اضطر إلى ذلك ولكنه إن تلاقى مع عدد قليل منهم فليقطع رؤوسهم وليرسلها إلى طهران لتعلق على باب القصر الملكى .

قال لى الجندى : « احمد الله على أن سحنتك ليست كسحنة التركمان وإلا لقطعوا رأسك وأرسلوها إلى طهران فتحسب هناك من رؤوس الثوار .

ولما استرحنا من المسير فى الليل عزمت على أن أحاول مقابلة الأمير وأرجوه أن يرد لى الخمسين قطعة من الذهب التى أخذت منى وثيابى وجوادى كذلك ، وكان صوت فى نفسى يحدثنى بأن حقى فى هذا المال ليس أكثر من حق الذى سلبه منى . وقد انتهزت فرصة قبل صلاة العشاء فتقدمت إليه .

وكان جالساً على نمرقة فى خيمة نصبت له وقد حاول الجنود منعى ولكننى صحت : « عرضى دارم » أى « معى عريضة » فأمرنى سموه بأن أدخل وسألنى عما أريد

فشكوت إليه معاملة الجنود الذين سلبونى مالى عند ما اعتقلونى وطلبت إليه أن يأمر برد هذا المال وجوادى وثيابى

فسأل من حوله عن أسمائهم ، فلما أخبروه بهم استدعاهم فلما حضروا بين يديه سألهم عن مالى فانكروا أنهم أخذوا شيئاً منى . وأمر بتفتيشهم فلم يوجد معهم شىء . ولكننى أقسمت ورأى الأمير على وجهى علائم الصدق فأمر بجلادهم وطرحوهم على ظهورهم فوق الأرض ورفعوا أرجلهم المقيدة بحبل مربوط من الطرفين فى عصا غليظة وضربوهم فاعترفوا بالمال

عند ذلك صحت بأعلى صوتى مخاطباً الأمير : « أعطنى المال إذن »

فنظر سموه بكبرياء إلى من حوله وقال : « ماذا يقول هذا ؟ اضربوه بالحذاء على فمه إذا عاد إلى الكلام

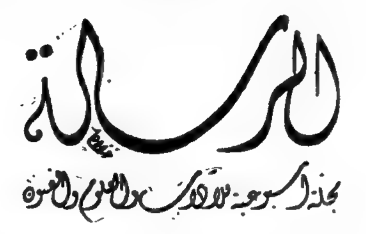
فرفع أحد الجنود حذاء أخضر يظهر أنه أعد خصيصاً ليضرب به المذنبون وقال : كيف تجرؤ يا وغد على مخاطبة الأمير بهذه اللهجة ؟ إذهب وافتح عينيك وإلا قطعنا أذنيك »

ثم دفعنى بعنف إلى الجنود فقادونى من حضرة الأمير

عدت يائساً إلى صاحبى الذى لم يظهر شيئاً من الدهشة لما حدث وقال لى : « ما الذى كنت تنتظر ؟ أليس هو الأمير ؟ وهل تظن أى إنسان يرد شيئاً بعد أن يصير فى حوزته ؟ إن هذه البغلة لا تعطيك من الحشائش الخضراء بعد أن تصير فى فمها ، وكذلك لا يعطيك الأمير المال بعد أن أصبح تحت تصرفه

« يتبع » عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)


الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

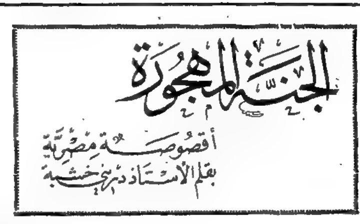
الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٤ ٢٣ رمضان سنة ١٣٥٧ — ١٥ نوفبر سنة ١٩٣٨ السنة الثانية



فهرس العـــدد



— منزلكم جميل جداً يا نسيم ! حقول فسيحة تطن بالنحل والفراش ، ونهر عظيم ناعم الأديم ينبع من الأزل ويتدفق فى الأبد ، وريف وديع هادئ يُسيم فيه الشاء والبقر ، وينعم فيه الفلاحون بالتوت والجميز ... و ...

— حسبك يا محمود ! إن بيتنا هذا كالجنة المهجورة التى تفيض بالزهر الفياح والنبات الأرج ، وهى مع هذا بكماء خرساء عمياء ، لأن زهرها يتفتح فلا يحس به أحد ، ونباتها يتأرج فلا ينتفع به مخلوق

— ماذا تعنى يا نسيم ؟ أعاشق أنت ؟

— أنا ؟... أنا عاشق ؟ وَيْك يا أخى ؟

— ولِمَ لا يا صديقى ؟ أنت شاب فى مقتبل صباك وشرخ شبابك ، فاذا لم تحب ، فلمن خُلق الحب ؟

— خلق الحب لمن خلقوا له !

— وأنت من أعتهم ! أليس كذلك ؟

— أنا ؟ لشد ما يخدعك مظهرى عن مخبرى يا محمود !

— لست أفهم !

— لأنك كمعظم الناس ، يخلبهم زخرف الحياة فلا يعرفون حقيقتها

— ماذا يا نسيم ؟

— لا شىء ! ألست قد بهرك هذا المنزل الجميل وذاك المرج المونق يخدعك ظاهرى عن باطنى !

— توشك أن تنقلنى من عالمى الملموس إلى دنياك المترعة بالألغاز !

— ألغاز ؟ آه ! حقيقة إن الحياة ممتلئة بالألغاز ، بل المعميات ، وهى مع ذلك وعلى ما يبدو لى لا ألغاز فيها ولا معميات !

— وكيف يا أخى ؟ أكاد أحسبك تناقض نفسك !

— كلا يا محمود ! إن الحياة حقيقة تصدم النفس ، وشعر يُزَوِّقه القلب ؛ والحقيقة تصنع نفسها ، أما الشعر فهو تعللات وآمال ، وهمس الروح التى تنشد الأمانى ولا تقدر عليها ، فهى تكتفى بأطيافها السابحة فى عوالم الخيال ، ترنو إليها وتغازلها بالأحلام ، حتى إذا استيقظت صدمتها الحقيقة المرة فذُعرت ، وتمنت أن تعود إلى أشعارها الحلوة ... ولكن هيهات !

— هيهات ماذا ؟

— هيهات أن تعود نفس صدمتها حقيقة الحياة إلى شعر الحياة !

— إنك تخيفنى يا نسيم بهذا الذى تقول !

— حقاً أنا أخيفك لأنك أحسست أن كلامى تنقلك من دنيا الأحلام الباطلة التى تسبح فيها إلى هذه الأرض التى خلقت من طين الحقيقة !

— لقد كنت أرجو أن أكتشف فيك غراماً ... فاذا

— فاذا أنت تكتشف فى آلاماً !

— ومع ذلك فأنا لا أفهم مصدرها !

— إذا ... هلم أرك بيتنا يا محمود !

* * *

— هذه غرفة أبي !

— إنها غرفة صحية واسعة جميلة الأثاث !

— ألست ترى أنها كذلك !

— بل أكثر من ذلك ! ما أغنى هذه السجادة الفارسية ! وهذا السرير الوثير ما أبدعه !

— وتلك آية أخرى على أنك تعيش على هامش الحياة !

— وكيف يا صديقى ؟

— لأن الذى فتنك من غرفة أبوى هو أثاثها وسجادتها وسريرها !

— وأنت ؟ ألا تفتنك هذه الأشياء ؟

— وكيف تفتننى وهى أكفان سعادتنا يا محمود !

— ويحك ماذا تقول يا نعيم ؟

— إى وربى إنها أكفان تلك السعادة العزيزة الغالية ... أنظر يا صديقى إلى هذا السرير الذى تقول إنه وثير ... أليس يشبه النعش ؟

— أى نعيم ! أى صديقى ! !

— ماذا يا محمود !

— إنك تزعجنى !

— لعل الذى أزعجك شىء آخر ! هذه الألفاظ ... أكفان ... نعش ...

— أجل ... وشىء آخر ...

— وما هو ! ؟

— لهجتك ونبرات صوتك . . إن روحك تبكى من بين شفتيك

— أسلوبك جميل يا محمود ! بدأت تفهمنى !

— لنخرج من هنا يا نعيم !

— ولماذا ؟

— لأننى أرتجف !

— وممَّ ترتجف يا صديقى ! ؟

— منك !

— منى ؟

— هلم ! هلم نخرج من هنا

— إنك تهيننى يا محمود !

— ما إلى إهانتك قصدت ، ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

— ولكنى رأيت شيئاً غريباً فى عينيك !

— رأيت شيئاً غريباً فى عينىَّ ؟ إنها أحزانى يا محمود ، وكنت أرجو أن تواسينى ، فإذا أنت تريد أن تهرب منى ... تعال !

— ٢ —

— أهكذا نقضى هذه الحياة يا نعيم ؟

— وماذا عسانا أن نصنع يا أختاه ؟

— إلى متى نتجرعها كؤوساً من العلقم يا أخى؟

— وماذا جعلها علقما يا أمينة ؟ ألسنا فى سعة وعز ؟ أليس لنا هذا المنزل المنيف ومن حوله ذاك البستان الفينان ؟ ألسنا محبوبين فى ذاك الريف البرىء ؟ فلِمَ تكون حياتنا علقما إذن ؟

— نعيم !

— ماذا يا أعز الناس على نعيم !

— لقد آن أن أصرح لك !

— تصرحين لى بماذا ؟

— بالسر نفسه الذى يمزق صدرك ، وتحسب أنك أنت الذى تعرفه وحدك !

— السر الذى يمزق صدرى ؟ أى سر هذا ؟

— نعم ! لماذا إذن أنت منقبض النفس ساهر هكذا دائماً ؟

— بل خبريني عن السر الذى تزعمين أنه يمزق صدرى ، ما هو ؟

— أراك تحاول أن أعترف أنا أولا ... كنت أحسبك أكثر شجاعة منى لأنك رجل وأنا امرأة

— عجباً ! أنتن يا بنات حواء تبدأن بنصب الشراك دائماً ! أى سر يا أختاه هذا الذى لا أجسر أن أعترف به لك قبل أن تعترفى لى به ؟

— وها أنت ذا تأبى إلا أن تبالغ فى الكتمان لأعترف أنا أولا ، ومع ذلك فقد أخذت تضطرب وتتفصد عرقاً !

— أنت بارعة فى اقتفاء الصيد يا أمينة ، على أنى أحلف لك أنى لا أعرف أى سر تريدين !

— إذن هذا الشاب محمود !

— ماله !

— لقد ... أحبنى !

— وهل هذا سر ؟ هاها ... إنى أكون فخوراً إذا تزوجتما ! آه يا خبيثة ! لشد ما أفزعتنى !

— أرأيت إذن ؟ ها قد انشرح صدرك حينا اطمأننت على السر الذى يمزق صدرك ، وتأكدت أنى لا أعرفه !

— ماذا يا أمينة ؟ أتريدين أن تلعبي بي يا أختاه ؟

— سأظل ألعب بك حتى تعترف أنت أولاً ... تكلم يا آدم ! إنك لن تغلب حواء قط !

— يا عجباً ! تريدين أن أهذى ؟ أى سر هذا الذى يفزعك فلا تستطيعى البوح به ؟ ماذا صنع بك محمود ؟

— وماذا تظنه صنع بى ؟

— إعتدى عليك ! أليس كذلك ؟

— هو ذاك ! هو ذاك يا نعيم !

— وَيْلك يا شقية ، يا ابنة الحية التى لا تلد إلا حية !

— مرحى مرحى ! لقد انتصرت ! ها قد بحت بكل شىء يا عزيزى !

— انتصرت ؟ وكيف ؟ وبم بحت أنا ؟

— ألست قد قلت إننى ابنة الحية التى لا تلد إلا حية ؟ وبم كنت تريد أن تبوح أكثر من هذا ؟

— أمينة ! أصدقيني يا أختاه ! أحقاً قد اعتدى عليك محمود ؟

— محمود يعتدى على ؟ والله لأرويت الأرض بدمه ! حقاً لقد كانت أمنا كما زعمت ، رحمها الله وغفر لها ، ولكنى تعلمت العفاف من مأساتها يا أخى فاطمئن !

— أمينة ! ماذا تقولين ! أية مأساة يا أختاه !

— أوه أيها الأبله ! إلى متى تتحامق على ! إذن فاعلم أننى اكتشفت السر الرهيب بعد إذ اكتشفته أنت مباشرة ، وفى الليلة نفسها التى كدت تنقض على الكأس المائلة لتشرب الثمالة القتالة التى تركها أبوك المسكين ، لولا أن سمعت وقع قدمى !

— أمينة !

— محمود ! لا فائدة فى الانكار يا أخى ! يجب أن نتعاون على هذا الشقاء الذى أوقعنا فيه سوء طالعنا . نحن أبرياء ، ولكن البرىء فقط هو الذى يتعذب أكثر من غيره

— ولكن مالنا نحن إذا كان أبوانا قد شربا السم ... ؟

— مالنا نحن ؟ إننا الثمرة المرة يا أخى ! لقد اتفقا على أن يتخلصا من الحياة بالسم حتى لا نعرف

نحن سرها الرهيب ، ولكنك كنت مختبئاً فى الليلة الماثلة تحت النافذة تسمع حوارها الخافت ، وتسترق حديثهما الفزع .... وكنت تحسب أنك وحدك تفعل هذا ، فى حين كنت أنا الأخرى أسترق السمع كما تسترق ، ولكن من ناحية أخرى ... أليس كذلك يا نعيم ؟

— .... ؟ ...

— يا للحياة من مأساة هى أشبه شيء بالمهزلة ! ومع ذلك كنت تريد أن تحتملها وحدك يا نعيم ، وكنت تتباله على لترى هل تعرف أختك البائسة سر أمها !

— الآن أعترف لك يا أختاه ... لكنى أقاسمك أنى ماعرفت كل شيء ، فهل عرفت أنت كل شيء ؟!

— عرفت كل شيء يا أخى ، بيد أنى أسألك أولاً ماذا تعرف وماذا لا تعرف من فصول هذه المأساة ؟

— الذى عرفته أننا لم نكن أبناء هذا الرجل الذى كان يحسبنا أبناءه .. واستنتجت بعد إذ رأيته يقنع أمنا باحتساء السم أنه فضّل أن يموتا فيذهبا بالعار كله قبل أن تأكلنا ناره ، وهذه تضحية عظيمة من الرجل الذى أحبنا ، والذى كنا نتمنى أن يكون أبانا الرحيم كما كنا نحسب

— والذى لا تعرفه يا نعيم ؟

— والذى لا أعرفه هو من عسى أن يكون أبانا يا ترى ؟ إنه يكون الأثم من خرج من صلب آدم ! ثم لماذا سلكت أمنا هذا السلوك الآثم ؟ إنها لا بد قد فعلتـه مضطرة بدافع غريب لم أستطع أن أحدسه !

— لقد كان زوج أمنا رجلاً عاقراً يئس الأطباء من إصـلاحه ، وكان غنياً جم الغنى ، مثرياً واسع الثراء ، وكانت أمنا تحبه ، لكنها كانت تخشى أن يتزوج عليها أو أن يهجرها إلى خليلة أو خليلة ، فكانت لا تنى تبحث عن الطبيب المؤاسى ، فلما عز عليها زين لها الشيطان أن تحمل باسمه لتربطه بأسبابها برباط لا ينفصم .. وكانت تحتال لذلك بحِيَل جمة ، وذلك أهون الأشياء على المرأة متى أرادت ...

— أنت تستنتجين أم عندك علم بشيء يا أختاه ؟

— من ذاك ومن ذاك ...

— يجب ألا يقفو الانسان ما ليس له به عـلم يا أمينة فاحذرى !

— يا أخى لقد سمعت أكثر هذا الحديث من شفتيها وهى تعترف به للرجل المسكين الصالح . . . وسمعته من شفتيها وهى تهذى به فى حلم جميل إذ أنا بين ذراعيها ليلاً ، إذ هى تقبلنى ، وتنثر دموعها على وجنتىّ ، وتستغفر لربها استغفاراً !

— أوه ! أذكر أنها صنعت مثل هذا معى ... اللهم يا من وسعت رحمته كل شيء إلا أن يُشرك به إغفر لها وارحمها

— وصنعت مثل هذا مع على ... ولقد رأيتها بعينى تنضح وجهه البرىء بدموعها !

— يا الله ! أو كلنا أبناء زنى ؟ اللهم لا رحمتها ! اللهم لا رحمتها !

— نعيم ! بل يرحمها الله أرحم الراحمين ! لا تبك يا أخى فان دموعك تنصب على وجهها كالمهل وهى الآن بين يدى ربها

— وهل كان استغفار إبراهيم ربه لأبيه إلا عن عدة !

— ذلك أن أباه كان مشركا يا نعيم

— وهل يزنى الزانى إلا وهو مشرك ...

— يرحمها الله يانعيم .. ورحمنى الله وإياك يا أخى !

— أتمى حديثك يا أختاه ! من أبونا إذن ؟ !

— أبونا ! لعنه الله ! لقد قتله زوج أمنا !

— قتله الشيخ عبد الموجود !

— أجل ! وهل كان يلق ربه إلا بهذا الهم !

— رحمك الله يا شيخ عبد الموجود ! رحمك الله فلقد كنت لنا خيراً من ألف أب !

— أى والله ! لقد كان لنا خيراً من ألف أب!

— ومن أبونا يا أمينة إذن ؟ !

— أبونا ! !

— أجل ! من هوه ؟

— وهل حتم أن تعرفه يا نسيم ؟

— حتم وأي حتم ... وهل أصبح بعد ذاك السر سر ؟

— إذن ... هو ... والد محمود ! !

— والد محمود ؟ ! يا الهول !

— هو بعينه !

— ومحمود !! ألا يعرف أن الشيخ عبدالموجود قتل أباه !

— أكبر الظن أن لا ! إن التحقيق لم يتناول شيئاً من ذلك ، بل لم تحم شبهة حول الرجل ، ولم يذكر اسمه قط

— يا الهول ! ومحمود مع ذاك يبحث عن قاتل أبيه !

— لا أحسبه يفعل يانسيم ؟

— لا تحسبينه يفعل ؟ وكيف ؟ ألا يفكر فى الثأر له ؟

— فى الثأر له ؟ ! إن الزناة لا يلدون ذوى حمية يا نسيم ؟

— أوه ! لقد ولدونا يا أمينة ! !

— ولكنا أبرياء يا أختى ، وما ذنبنا نحن ؟

— ودماؤنا يا أختاه ؟ أليست أنجس دماء فى هذه الدنيا ؟

— بل هى أطهر دماء وأزكاها ! إننى ما رفعت وجهى فى السماء يا نسيم إلا رأيت الله جهرة ! لقد كنت أبكى أكثر منك ، وكنت أشعر بنار العار تدب فى عروقى كالجحيم ، حتى رأيت ربى يمسح بيده المباركة على قلبى ، فشعرت بمن أنقذنى من جحيم أحزانى ...

— إيه ! يبارك الله إيمانك يا أختاه ! أما محمود!

— ماله ؟

— ماذا بينكما إذن ؟

— بينى وبينه مثل الذى بينى وبينك ، فهو أخى لظهر ، وأنت أخى لبطن ...

— لكنه لا يعرف هذا ، وأرى أنه يحبك !

— يحبنى ؟ إنه يكون غبياً !

— ولم يكون غبياً يا أختاه ؟

— لأننى لست جميلة ، وليس فىّ ما يجذب قلوب الشباب ، وهذا ما أحمد ربى عليه حتى لاتكون المأساة هائلة !

— أو ليست مأساتنا هائلة مع ذاك ؟

— كلا ... إذ أنها لاتزيد على زلة أم تكررت ثلاث مرات ، وهى إن تكن مأساة ، فهى مأساة أوديب ، أو هى تشبهها ، وإن لم يشبه الرجل الصالح الشيخ عبد الموجود البطل أوديب !

— أى أنه يقل عنه تعاسة !

— الشيخ عبد الموجود برىء يا أخى ، وإنما فقد أخطأ فى شرب السم ، وقد قتل بانتحاره نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق ...

— إنه لم يطق الحياة بعد إذ عرف أننا لسنا أبناءه ، وأن زوجته التى هى أمنا كانت تخدعه فى شرفه ومعاشرته ، وفى أيام السعادة الطويلة التى كان يظنها سعادة حقيقية ، فاذا هى نفاق فى نفاق !

— لو ثاب إلى ربه وسكن إلى رشده ، ماتناول الـكأس أبداً !

وما ذا كان يصنع غير ذلك ؟ !

— كان ينبغي أن يكون شجاعا فيواجه المأساة مادام لم يرتكب جرماً

— وكيف كنت تحسبينه يواجهها ؟

— كما يواجه الناس أي مشكلة من مشكلات الحياة يلعب فيها القضاء ألاعيبه ! إنه قد قتل نفسه لأنه لم يطق الفضيحة ، أليس كذلك ؟

— بلى ، هو ذاك ، ولأنه قد عز عليه أن يفقدنا ويفقد زوجته مرة واحدة ؟

— لا أحسبه حين أقدم على الانتحار قد فكر فيما تقول ، بل كان كل الذي روّعه هو شبح الفضيحة فلو أنه سكن إلى الله قليلا لما غلبه شيطانه لأن الذين صنعوا الفضيحة أشخاص آخرون

— بل هما شخصان أشدهما إثما زوجته

— والآخر أبونا الزاني يا نعيم ، وهنا لا تجد كيلا لعبدالموجود ، فعلام نحى السكين بنفسه إذن ؟

— من أجلنا !

— وهذا لا يصح إلا أن يكون خطأ مضافاً إلى خطأ ، فانه قد أذن لزوجته أن تحتسي السم ، وهي شخص الجريمة الأول ... ثم هو قد ثار لشرفه من الرجل الذي أغراها فأزاله من الوجود وربّ ل بيته وبيتنا ، فلم لم يعش هو ، ولو من أجلنا نحن ؟

— يعيش من أجلنا؟ وماذا يهمه من شأننا بعد؟ يهمه هذا الخيال البديع ... خيال البنوة الذي كان يستغني به عن حقيقة البنوة؟

— هذا شعر يا أختاه ، وما أبعد الشعر من الحقيقة

— ولولا الشعر لأظلمت أفق الحياة ، وضاعت بهجتها .

— كثيراً يا أمينة ماتكون الحياة غير المنطق ، وفي أغلب الأحيان يسلك الانسان سبيله في الحياة خاضعا لعواطفه وغرائزه دون أن يكون لعقله سلطان عليه ، والناس في هذا سواء ، حتى الفلاسفة الذين لا يكونون فلاسفة إلا حينما يناقشون معضلة منطقية أقام أحدهم قضيتها وأراد الآخر نقض أقوال صاحبه فيها ... أما هم في حياتهم الخاصة ، بل العامة أيضاً ، فسوفون مثلنا ، لا يستخدمون عقلهم أو منطقهم أو فلسفاتهم ... وهكذا كان الشيخ عبد الموجود... ومن يدري ! فقد أنتهي أنا ، وأنت أيضاً ، وقد ينتهي أخونا الصغير علي ، إلى مثل ما انتهى إليه هذا الرجل البائس .

— ماذا تقول يا نعيم ؟

— أقول إن آخرتنا قد تشبه آخرة الشيخ ، ولو لم نقصد نحن إلى ذلك ... فلا تنزعجي !

— لا أنزعج !

— بلى ، لاتنزعجي يا أختاه ، فوالله لقد أنرت لي سبيلي إلى الله ، وإني أقاسمك أنني لن أقدم على ما أقدم الشيخ عليه ...

— وما دمت قد أعطيتني موثقك على ذلك فكيف تنتهي أنت أو أنا أو أخونا علي إلى ما انتهى الشيخ إليه ؟

— أما أنا فسيقتلني الحزن

— وأي حزن يا أخي ؟

— أنت تتكلمين يا أمينة وكأنما قدت أعصابك من حديد ! أتسألينني أي حزن ؟ الحزن الذي ليس كمثله حزن ... إننا شذاذ يا أمينة ! من أبونا ؟ من أمنا ؟ بيت من هذا الذي نأوي إليه بغير حق ؟ لمن هذه الضياع الشاسعة الواسعة ؟ بأي حق نتصرف في ريعها ونحن نعلم أنها ليست لنا بحق ؟ كيف ندعي ملكيتها وغيرنا بها أولى ؟ أخوات عبد الموجود

وإخوته ؟ أليس أولئك ورثته الحقيقيين ؟ أين منطقك ؟ تكلمي ؟

— نسيم !

— أمينه ؟ ماأحسبك تزعمين أننا بسيدالموجود أولى ! أنا ذاهب يا أمينه !

— نسيم ! إلى أين يا أخي ؟

— سأهاجر إلى . . . إلى . . . إلى الله ! إنه حسبي وهو ولي ...

— وأنا يا نسيم !

— إن شئت هاجرت معي ! ولي مع ذاك شرط !

— وما ذاك جعلت فداك !

— أن تكوني مؤمنة فأنت التي أنرت لي طريق الايمان !

— سألبي يا أخي ! ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أخونا علي ؟

— سيأتي معنا ، وسيفتح الله به علينا !

— إذن ... هلم !

* * *

وذهب إخوة عبدالموجود إلى الأقطار الحجازية ليؤدوا فريضة الحج ، فلقوا نسيا وعليا وأمينة يهرولون بين الصفا والمروة ، ولما أفاضوا من عرفات دعاهم نسيم إلى منزله المادىء الساكن السعيد القريب من المسجد الحرام فقضوا هنالك عيدهم ، ثم ذهبوا إلى دكانه الجليل فاشتروا العقود والخواتم والسبح والكوفيات والعقالات وتمر الحلية

وحاولوا أن يكلموا نسيا في الماضي فاعتذر لهم ، وكان الدمع قد أوشك يترقرق فتفيض به عيناه

— لكنك نزلت لنا عن كل ميراثك من أبيك ، وكذلك فعل أخواك ، وما كان لك سلطان على الصغير علي .. ولقد بحثنا عنك في أقطار الأرض لنرد على أخيك ما لا يقدر أحد على استلابه منه ، وها قد عثرنا بكم جميعاً ، فتقبل يابني أن نكون أوصياء على أخيك لنرسل إليه من مصر ما هو حقه

— بعد عام واحد يبلغ أخي رشده ويتولى هو هذا الحساب

— إذن فلنا مآرب آخر

— مآرب خير إن شاء الله

— نزوج ابن عمك محمدا من أمينة !

— باركم الله ... لقد تزوجت أمينة !

— وممن ؟

— من الفتى المكي الحجازي الصالح ابراهيم ابن محجوب ، وهو يعيش وإياها في سعة والحمد لله وإن لي أنا الآخر لمأرباً ...

— وماذا أصلحك الله وأثابك !

— ذاك أني كنت استمنت ببعض أموالكم على سفري ، وقد بارك الله لي ، وإن لكم في عنقي مائتي جنيه ، فها كموها !

— والله لا يكون هذا أبداً ...

— بل الحق أحق يتبع ... فخذوها أثابكم الله .

— والله لا تصل أيدينا إليها قط ... إنك تحيرنا يا نسيم ، وتذهب ألبابنا كل مذهب ... تالله إنه لسر ، ولا ندري لم تخفينه عنا ونحن أعمامك !

وذهب نسيم إلى جدة ليودع القوم ، ولما همت الفلك واحتواها الماء ، زفر نسيم زفرة صدعت فؤاده ، وعاد إلى مكة أدراجه والدمع يترقرق من مقلتيه ، فقصد إلى مقام إبراهيم فصلى لربه ، واستغفر لذنبه ، واستعان بالصبر والصلاة على بلواه

دريني خشبة

في المصيف

للكاتب الروسي أنطون تشيخوف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« أحبك فأنت حياتي وسعادتي ، وأنت لي كل شيء في الوجود ! ولتغفر لي هذا الاعتراف فما أنا بقادرة على أن أحمل الألم ولا أشكو ، وما أسألك أن تبادلني حبا بحب ولكني أسألك العطف والرأفة بي . فلتاقني في تعريشة المتنزه في تمام الساعة الثامنة من مساء اليوم ... وما أحسب بي من حاجة لأن أوقع خطابي هذا باسمي وإني لأرجو ألا يزعجك أن أبقى مجهولة منك ، فحسبك أن تعلم إني صبية مليحة المنظر ... وما عساك تطلب وراء ذلك ! »

هذا هو الخطاب الذي تلقاه ، ساعة الأصيل ، « بافل ايفانتش » وهو رجل متزوج يقضي عطلة الصيف في بيت من بيوت المصايف ، فلما قرأه هز كتفيه ودعك جبهته ، وقد استولت عليه الحيرة ، وقال يخاطب نفسه :

« ياله من عمل من أعمال الشيطان . أنا رجل متزوج ، فما لهذه المرأة تبعث لي بمثل هذا الخطاب العجيب . السخيف ! ومن ترى تكون كاتبته ؟! »

وقلب بافل إيفانتش الخطاب أمام عينيه غير مرة وكرر قراءته مرة وثانية ثم تفل احتقارا وقال متهكما :

« إني أحبك ! حقا لقد وقعت على شاب ظريف جميل أيتها الحسناء ؟ إذاً سأسرع إلى لقائك في تعريشة المتنزه

لقد نعمت ، يا بفيتي ، منذ أعوام طوال ، بأمثال هذه الخيالات ، وملأت معاطسي بما كانت تبعث به أزهار الغرام في الجو من عطر زكي .. يالله ! إني ما أشك في أن كاتبة هذا الخطاب امرأة خليعة لا تقيم للفضيلة وزنا . رب ! إن لهؤلاء النسوة لأديما لا يحس الحياء . إنهن شبيهات بالعب التي تعرض في الأسواق ليتلهى بها الأطفال فليغفر لنا الله!

إن المرأة التي تكتب مثل هذا الخطاب لرجل متزوج وأجنبي عنها لا يمكن أن تكون إلا امرأة هوائية مستهترة لا تحفل بالآداب .. الحق أن هذا هو غاية ما يصل إليه الانحلال في الأخلاق ! »

وكان بافل إيفانتش قد تغلب في السنوات الثمان من حياته الزوجية ، تغلباً تاماً على العواطف الغرامية ولم يتلق في خلال هذه المدة أي خطاب من أية امرأة إلا أن يكون خطاب تهنئة . لهذا كان الخطاب الذي تلقاه أصيل ذلك اليوم منشأ اضطراب استولى على نفسه وحيرة أحاطت به من جميع النواحي على الرغم من محاولته الزراية بهذا الخطاب وبالمرأة التي بعثت به

ولم تمض على الرجل ساعة من تسلمه هذا الخطاب حتى كان مستلقياً على أحد المقاعد مفكراً يحدث نفسه فيقول :

« ما من شك في أني لست بالصبي الأبله الذي يندفع إلى المكان الذي عينته هذه المرأة للقاء ... ولكني أرى من الشائق مع ذلك أن أعرف من هي هذه المرأة اللعوب ... تبارك الله ... إن الخط خط امرأة ما في ذلك من ريب ... وإني لأشعر أن الخطاب يعبر عن إحساس صادق ... لذلك يبعد أن

يكون خطاباً قد أريد به المزاح الخالص ... وينلب أن تكون كاتبته إحدى هؤلاء الفتيات المصبيات اللواتى ... ولكن لعلها أرمل ... والأرامل على السموم مداعبات غريبات الأطوار ... يا لله ... ترى من تكون الكاتبة ؟ »

وكان مما صعّب الأمر فى نظر بافل ايفانتش أنه لا يعرف من بين زائرات المصيف غير امرأة واحدة هى امرأته ... فهمهم لنفسه :

« عجباً ... إن هذه المرأة تقول « إنى أحبك » فكيف أحبتنى ومتى وقعت فى شرك هذا الحب ؟! حقا إنها لامرأة مدهشة ! فما عهدنا الحب يقع على هذه الصورة ... ومن غير سبب ظاهر ... ومن غير تعارف سابق ، وقبل أن تعرف المحبة أى نوع من الرجال أحبت ... ما من شك فى أن كاتبة هذا الخطاب فتاة صغيرة ... خيالية ... ليس أدل على ذلك من وقوعها فى حبي أن بعد رأتنى اتفاقا مرتين أو ثلاث مرات فى الطريق ... ولكن ترى من تكون هذه الفتاة ؟! »

وذكر بافل ايفانتش فجأة أنه إذ كان يسير خلال بيوت المصيف فى اليوم السابق واليوم الذى قبله التقى أكثر من مرة بغادة حسناء على رأسها قبعة سماوية اللون ، شامخة بأنفها إلى السماء ، وقد أطالت هذه الحسناء الرقيقة النظر إليه ، ولما جلس على أحد المقاعد العامة جلست إلى جانبه ... فسأل نفسه فى حيرة :

« أيمكن أن تكون هى ؟ ما أظن ذلك بممكن ! وهل من المعقول أن تحب فتاة هيفاء كهذه الفتاة كهلا مثلى متحطا ؟ كلا ! إن هذا لهو المستحيل بعينه ! »

وفى أثناء تناول العشاء الأول نظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة تائهة ، وكان غارقاً فى بحر من التأمل والتفكير يحدث نفسه بقوله :

«.. إنها تقول فى كتابها إنها صغيرة حسناء .. إذن هى ليست عجوزاً ... عجباً ! الحق الذى لا مرية فيه أننى لست من الكبر والسذاجة بحيث لا يمكن أن تقع امرأة فى حبي ! فامرأتي تحبنى . ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن الحب أعمى .. وليس فينا من يجهل ذلك ... »

وقطعت عليه زوجه سلسلة تفكيره بهذا السؤال:

— فيم تفكر ؟

فأجاب الرجل ولم يك صادقاً فيما قال :

— أنا لا أفكر فى شىء ... ولكننى أشكو صداعاً خفيفاً ...

واستقر رأيه آخر الأمر على أن من الغباوة والبله أن يفكر فى شىء لا معنى له ، كخطاب تحدثه فيه كاتبته عن الحب . . . وعاد يهزأ فى نفسه ، من جديد بالخطاب وكاتبته

ولكن أسفاً ... إن للانسان من نفسه لعدواً قوي السلطان ! فقد رقد بافل إيفانتش بعد العشاء على سريره ، وبدل أن ينام انهمك مرة أخرى فى التفكير والتأمل فكان يحدث نفسه :

— ولكنى أستطيع أن أجزم بأنها الآن جالسة تحت التعريشة فى انتظارى . فيا لها من حماقة ! وإنى لأتصور إلى أى حد تتوتر أعصاب الفتاة وقد استولى عليها القلق من طول الانتظار ، كما أتصور كيف ضاق صدرها عندما دخلت التعريشة ولم تجدني فيها ومع ذلك فلن أذهب ... ولتأكل نفسها ؟

ولكننا نعود فنقول أن للانسان من نفسه لعدوا قوى السلطان . فلم تمض على الرجل نصف ساعة وهو راقد على فراشه حتى حدث نفسه من جديد :

« ومع ذلك فقد يحسن، من قبيل الاستطلاع، أن أذهب وأنظر من بعد أى نوع من المخلوقات هذه الفتاة ... وما تضرنى نظرة سريعة أتعرف منها شكل المرأة التى تجرؤ على كتابة مثل هــذا الخطاب ... وهل يكون ذلك أكثر من دعابة لا يبقى لها فى نفسى من أثر بعد أن تمر لحظتها ... لقد هيأت لى المصادفة فرصة الدعابة فلم لا أقتنصها ؟ »

وهب بافل إيفانتش عن سريره وشرع فى ارتداء ملابسه .

ولا حظت امرأته أنه أعد قيصاً نظيفاً ورباط رقبة أنيقاً فسألته :

« لم أراك تتأنق فى لباسك على هذا النمط؟ »

فأجاب الرجل متململاً :

« أف ! ليس هناك مايدعو إلى العجب . . . وما هناك من شيء ، غير أن بى حاجة شديدة إلى التروض ... فرأسى مصدوع ... و ... أف ! . »

ارتدى بافل إيفانتش أحسن ملابسه فبدأ فى أجمل هندامه ، وانتظر حتى وافت الساعة الثامنة وغادر البيت . فكان كلما التقى بأحد من زوار المصيف من رجال أو نساء أسرعت نبضات قلبه . وكان كلما رأى امرأة سأل نفسه متحيراً :

« ترى أيهن هى بين هؤلاء ؟ ولكن مالى أشعر بشيء من الخوف ؟ وعلام هذا الاضطراب ، وما أنا بذاهب إلى موعد ولقاء ! يالها من غباوة وحمق ! فلأتقدم فى ثبات ! ثم ماذا على إذا أنا دخلت إلى التعريشة ؟ ولكن لا ، فليس هناك ما يستوجب الدخول »

ثم اشتد خفقان قلب بافل إيفانتش

... وتصور فجأة وعلى غير إرادة منه منظر التعريشة المظلمة .. وخيل إليه أنه يري فيها فتاة رائعة المنظر على رأسها قبعة سماوية اللون وأنفها شامخ إلى السماء . . تصورها مستحيية لما ظهر من حبها . . وقد أصابتها الرجفة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها . . ثم رآها وقد تقدمت إليه على استحياء وهى مضطربة . . و . . . على حين فجأة ضمته بين ذراعيها . .

وحدث نفسه — وهو يحاول أن يطرد من رأسه جميع الأفكار الآثمة :

« لو لم أكن متزوجاً لما كان ثمت من بأس .. على أنه أى ضرر فى أن أحاول مرة فى حياتى هذه المحاولة من باب الاختبار ؟ . . وإلا فأن الانسان يموت قبل أن يتعلم ما يجب . ثم أى شيء فى ذلك يضير امرأتى ؟ ألا فلنشكر لله فنى خلال ثمانى سنوات عشتها معها لم أبتعد عنها خطوة واحدة ... ثمانى سنوات أؤدى واجب الزوج المخلص بما لا يدعو إلى لوم أو عتاب ! أما يكفى كل هذا الوقت الطويل فى مثل هذه الحياة المقيدة . . حقاً أن ذلك لما يضيق له الصدر ... وإنى لأشعر أنى لن أبالى بغضبها

ودنا بافل إيفانتش من التعريشة وقد استولت الرجفة على جميع أطرافه وأمسك بنفسه كالمتلصص ثم مد رأسه إلى الداخل فملأت رطوبة الجو خياشيمه وقال يحدث نفسه :

« أعتقد أن ليس هناك من أحد »

وتقدم بضع خطوات حتى صار داخل التعريشه

وهناك تبين شبح إنسان فى أحد الأركان

وكان شبح رجل ... وإذ دقق النظر عن قرب تبين أن هذا الانسان ليس أحداً غير الطالب ميتيا شقيق امرأته الذى يعيش معه فى البيت

فتمدم متمضاً بعد أن جلس ونزع قبعته :

« أف ! هو أنت ؟ ! »

فأجابه ميتيا :

« نعم هو أنا ذا »

ومرت لحظة ساد فيها السكوت ثم قال ميتيا :

« عفواً يا بافل إيفانتش إذا رجوتك أن تتركنى وحدى ، فانى أفكر فى الرسالة التى أتقدم بهـا للحصول على درجتى العلمية ... ووجود أى إنسان إلى جانبى يقطع على طريق التفكير »

فقال بافل إيفانتش فى شىء من التواضع :

« وقد يكون خيراً لك يا ميتيا أن تذهب إلى أى مكان آخر يتفق مع غرضك كزاوية فى بعض الشوارع الـكبيرة المظلمة ... فان الهواء الطلق مما يسهل عليك التفكير ... ثم لا أخفى عليك أننى أود ... نعم أود أن أنام فترة قصيرة هنا ... فوق هذا المقعد ... فالجو فى هـذا المـكان أقل حرارة منه فى البيت ... »

فأجاب ميتيا متذمراً :

« الأمر بالنسبة إليك أمر نوم ... أما بالنسبة لى فأمر استذكار وتفكير فى الرسالة العلمية ... ومن البديهى أن يكون التفكير فى مثل هذا الموضوع خيراً من النوم ... »

وساد السكوت مرة أخرى ... وكان بافل إيفانتش قد أرخى العنان لخياله ، وخيـل إليه أنه يسمع وقع أقدام فنفر من مكانه فجأة وقال فى صوت يتهدج غضباً :

« أرجو أن تصغى إلى يا ميتيا ! فأنت أصغر منى سناً وواجب عليك أن تحترمنى ... وأنا الليلة مريض ... وبى حاجة ماسة إلى النوم ... فلتنصرف من هنا ! »

فأجاب ميتيا :

« إنك لتدل بذلك على أنانيتك الشديدة . فلماذا تبيح لنفسك البقاء هنا وتطلب منى الانصراف . . إننى تمسكا بمبدأ الحق لن أغادر هذا المـكان »

فقال إيفانتش محتدا :

« إصغ إلى إنى أطلب منك أن تنصرف ! فقل عنى إنى أنانى . مستبد أحمق . قل ماتشاء . ولكننى أطلب منك أن تغادر هذا المـكان فى الحال . وهذه أول مرة فى حياتى أطلب منك فيها أن تسدى لى يداً بمعروف ! فهلا ظهرت بشىء من حسن التقدير والذوق ... »

فهز ميتيا رأسه وقال بافل إيفانتش فى نفسه :

« ياله من حيوان حقير . إن وجوده هنا تسير على اللقاء ! نعم مستحيل على أن اجتمع بهـا فى حضرته ! »

ثم وجه إليه الخطاب قائلا :

« استمع ياميتيا إنى أطلب منك للمرة الأخيرة . فلتثبت أنك رجل ذو إحساس . مهذب . فى نفسك شىء من الانسانية ! »

فهز ميتيا كتفيه وقال :

« لا أعرف لماذا تلح على هـذا الالحاح . لقد قلت لك إننى لن أغادر هذا المـكان . وها أنا أكرر لك هذه القول .. نعم سأبقى هنا احتفاظا بمبدأ الحق والحرية ... »

فى هـذه اللحظة أطل داخل التعريشة رأس

امرأة شامخة الأنف إلى السماء ...

فلما رأت ميتيا وبافل إيفانتش حبست وجهها واختفت فى الظلام .

فقال بافل إيفانتش فى نفسه وهو يرمق ميتيا شزراً :

— لقد ذهبت ... نعم لقد رأت هذا الحيوان الذى ضربت ! لقد أفسد هذا المجرم كل شيء علىّ

وانتظر بافل إيفانتش فترة قصيرة ثم هم واقفاً فوضع قبعته على رأسه وقال :

— إنك وحش ... إنك حقير ... وجبان دنئ ! نعم لقد برهنت على وحشيتك ودناءتك ... أيها الأحق ... والآن لتعلم أن كل شيء بيننا قد انتهى !

فوقف ميتيا أيضاً ولبس قبعته وقال :

— إنى لسعيد لسماع هذه الكلمات ... ولتعلم أنك بوجودك هنا فى هذا الوقت قد مثلت معى فصلاً قذراً لن أنساه لك ما حييت

وخرج بافل إيفانتش من التعريشة فعاد إلى بيته مسرعاً وهو ثائر غضب .. ولم يجد منظر المائدة المعدة لعشاء الليل فى التخفيف من غضبه

وفكر فى نفسه وهو ثائر مضطرب :

— مرة واحدة فى العمر تسنح لى مثل هذه الفرصة ... ثم تفلت منى فى اللحظة التى كدت أنتهزها فيها ... إنها الآن غاضبة مسحوقة القلب !

وفى أثناء تناول الطعام ثبت بافل إيفانتش وميتيا نظريهما فى أطباقهما وصمتا صمتاً كئيباً . . . وقد طفح كل منهما ببغض صاحبه ...

ونظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة المتحفز وقال :

— علام تضحكين ؟ إن الحمقى الأغبياء هم الذين يضحكون من غير سبب ؟

ونظرت المرأة إلى وجه زوجها الناضب وانفجرت ضحكا وسألته :

— ما هذا الخطاب الذى جاءك اليوم ؟

وأخذ بافل ايفانتش بهذه المفاجأة فتولاه الاضطراب وقال :

— أنا ؟ أى خطاب تعنين ؟ أنا لم أتسلم خطابا ما ... وإنك لتخترعين ما تقولين ... وأراك تجرين وراء الخيال ...

قالت امرأته :

— ألا فلتكن صريحا ! فانى لواثقة من أنك قد تسلمت اليوم خطاباً ! ثم علام الانكار وأنا مرسلة الخطاب ! نعم أقسم لك بشرفى إنى أنا الذى أرسلت لك هذا الخطاب ! ها ! ها !

فاحمر وجه بافل ايفانتش وأرخى نظره إلى صحنه وقال مهمهما :

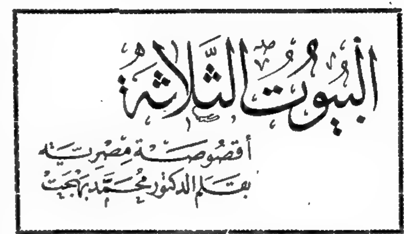
— مزاح بارد !

فقالت زوجته :

— ولكن خبرنى بالله ماذا كنت أستطيع أن أعمل غير ذلك وكان علينا أن ننظف الغرف هذا المساء ... ولم تكن هناك من وسيلة أخرى لاخراجكما من المنزل !... ولكن لا تغضب أيها البليد فلقد أردت ألا يتولاك السأم من الجلوس وحدك فى التعريشة ... لذلك أرسلت لميتيا أيضاً بصورة من الخطاب الذى بعثت إليك به ! فهل ذهبت إلى التعريشة يا ميتيا ؟

فكشر ميتيا عن أسنانه وخرج يرمق منافسه فى موعد الغرام بعين الغضب والبغضاء !

عبد الحميد حمدى



وتقع كلها فى شارع واحد من شوارع حى محرم بك بالاسكندرية ، أما الأول فبيت كبير فخم يدانى القصر فى أبهته وورونقه ، ذو شرفات واسعة مشرقة يدور عليه سور من غليظ الحديد ترى من خلال قضبانه حديقة أنيقة متعددة الألوان يسكنه رجل من أصل تركي اسمه مدحت بك . آلت إليه الثروة عن طريق أبيه الذى كان من ندماء الخديو إسماعيل باشا . وكان أن صدرت منه نكتة ظريفة فأنعم عليه الخديو المعظم بجارية حسناء وخمسمائة فدان من أجود أراضى البحيرة . أما مدحت بك فرجل أرمل نحيل تقدمت به السن حتى جاوز الخمسين ليس له ولد يرث ثروته العريضة ولذا كانت تعلو ذلك المنزل وحشة وكآبة لا يسترها جمال بنائه وتنسيق حديقته ، يجلس على بابه زنجى عجوز يسمى عم حسين تدور على رأسه عمامه كبيرة بيضاء ، وله لحية كثة بيضاء كذلك ، وعينان حمراوان مفرورقتان . وإذا ما طلعت الشمس فى الشتاء تراه جالساً على مقعده الخشبى يصطلى دفئها فى سكون ولذة فاذا ما انحرفت إلى الغرب قليلا نقل مقعده إلى حيث تميل حتى تراه جالساً فى منتصف الشارع لايقوم إلا إذا سمع صوت عجلة مقبلة أو ليتبع ضوءها إلى الجانب الآخر . وإذا ما بدأت الأشعة تصعد جدار المنزل المقابل قام فألصق نفسه به إلى أن تجاوز الأشعة رأسه فيجذب حينذاك مقعده ويقف عليه بل ويشب على قدميه حتى لاتفوته لحظة استمتاع . وأخيراً يرجع المسكين إلى بابه منكس الرأس وهو يود لو تحتمله خيوط الشمس فيتعلق بها ويغرب معها

وأما البيت الثاني فهو ذلك الذى يقابل البيت الأول والذى تنتهى عنده لذة ذلك الزنجى التعس كل مساء ، صغير متوسط البناء تقطنه عائلة متوسطة الحال يشتغل ربها متولى افندى بالجرك ويتقاضى مرتباً معتدلا لا يكاد يكفى للانفاق على زوجه وأولاده الخمس ، أكبرهم نميرة التى كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً . جميلة المحيا فتانة ، قوامها رشيق يحلو للشباب أن يحل فيه ، يانعة كالوردة فى أول تفتحها . ولا يهمنا أن نعرف شيئاً عن باقى أفراد العائلة ، ويكفينا أن نذكر أن المنزل كانت تخيم عليه السعادة والقناعة والرضا ...

أما البيت الثالث فهو لصق البيت الثانى تسكنه أرملة المرحوم درويش أفندى مع أولادها الثلاث . مات عنهم عائلهم الذى كان موظفاً بالبلدية وخلّف لهم الفقر ومعاشا ضئيلا يتعيشون منه . فوضعت الأرملة كل أملها فى ولدها الأكبر حسن وعنيت به العناية كلها . ولشد ما كانت تجول دموع الفرح فى عينيها نهاية كل عام دراسى حينما يدخل عليها ويخبرها بأنه بذّ كل لداته وأقرانه وخرج متفوقا على رأس فرقته . أمايوم حصوله على البكالوريا فكان يوماً مشهوداً فى هذا البيت الصغير ولكن سرعان

ما غامت سحابة كدرفى ذلك الجو الفرح عند ما تقرر سفر حسن إلى القاهرة لدراسة مادة القانون

وكانت بين عائلتى المرحوم درويش ومتولى أفندى صداقة قديمة ، وكثيراً ما تكلمت الوالدتان فى زواج حسن من سميرة عند ما يبلغان السن اللائقة. وبطبيعة الحال لعب حسن وسميرة سنوات طويلة مع بعضهما . وكانت بينهما ألفة عظيمة فكانت ترتاح إليه ويرتاح إليها ، كانت تخصه بعطفها وحنانها ويخصها برعايته واهتمامه، ولكن حدث أن قل الاختلاط والتمازج رويداً رويداً إلى أن امتنعا تماماً عند ما شبا وكبرا . وربما كان ذلك استحياء منها أو من رغبة والدة سميرة التى ارتأت أن تحجزها عنه فأصبح لا يراها ولا تراه إلا من النافذة ويقنعان بتبادل ابتسامة حلوة وبعض إشارات خفيفة يختلسانها من وقت لآخر . غير أن ذلك لم يعد يروق لحسن إذ ازدادت رغبته فى الاكثار من رؤيتها ولم تلبث الرغبة أن انقلبت إلى لهفة فكان يقضى معظم أوقاته إلى جانب النافذة وزاد فى لهفته شعوره بدنو يوم الرحيل . وأخيرا نفد صبره فراح إلى أمه يصارحها بما جدّ فى نفسه من شعوز وسألها أن تخطب له سميرة حتى يستطيع أن يجالسها وينعم بقربها

ذهبت أمه فى اليوم التالى إلى بيت سميرة وبعد ترجيع الكثير من الذكريات الماضية طلبت يد سميرة لابنها فابتسمت والدة سميرة ابتسامة الدل وعذرت بقولها أنهما ما زالا صغيرين وأن أمام حسن مرحلة كبيرة قبل أن يدخل فى طور الرجولة العملية . رجعت الأم المسكينة بالخبر الذى تلقاه حسن بالصبر ثم حزم أمتعته واستعد للسفر . وكانت وقفة طويلة بجانب النافذة ودع فيها سميرة وداعا طويلا مؤثراً أجرى دموعهما التى نمت عن حب عميق باض وفرخ فى قلبيهما الفتيين الطاهرين

ولنعد إلى مدحت بك صاحب البيت الأول فنراه قد برم بوحدته وأصبح يشعر بفراغ مؤلم فى حياته ويتمنى من صميم فؤاده لو أن له ولداً يرثه وطالما شكا ذلك الهم الدفين إلى خادمه العجوز الأمين الذى تلازمه وتمنى به عنايتها بطفل . فما كان منها إلا أن أشارت عليه بالزواج من فتاة صغيرة تجعل من قبر بيته جنة يانعة وتملأ فراغ حياته بالسعادة التى يظمأ إليها واقترحت عليه أن يخطب سميرة ابنة متولى افندى فهى غاية ما يشتهى من الحسن ثم أن الحصول عليها محتمل لفقر والديها فأبرقت أسارير وجهه وراقه الاقتراح وفوض إليها تمهيد الطريق لذلك . فذهبت فى اليوم الثانى إلى منزل متولى افندى وهى تخفى غرضها ، وأخذت تطنب فى حسن أخلاقهم وطيب سمتهم وتتدفق عليهم من كلمات العطف والمحبة الشىء الكثير . وجرى الحديث وتشعب إلى أن سألتها والدة سميرة عن حال سيدها فأظهرت لها ما هو عليه من ضخامة الجاه والثروة وكيف أصبح يفكر فى الزواج ليكون له ولد يفرح به وليورثه ماله الكثير . وبعد أن أحكمت نصب الحبالة قامت متسرعة وهى تحتج بقرب عودة سيدها ثم عاودت الزيارة ثانية وثالثة وفى كل مرة تضرب على هذه النغمة الساحرة إلى وجدت متمرءاً لينا فى جانب والدة سميرة وفى مساء أحد الأيام قرع عم حسين الزنجى العجوز الباب وأعلن أن سيده يرغب فى زيارة متولى افندى فكانت حركة ونشاط وجلبة اشترك فيها الصغار والكبار استعداداً لاستقبال الجار الوجيه فأقبل تكتنفه مظاهر الثراء والعظمة وجلس يتحدث إلى متولى افندى عن حقوق الجار وعن تضييعها فى التعارف والعمل بوصاة النبى الكريم. وبعد أن زخرف وذهب الكثير من القول أفهم متولى افندي أنه يرغب فى الزواج من إبنته ليتمكن من مساعدة العائلة . فشكره متولى افندى واستمهله بضعة أيام للتفكير فى الأمر والتداول ،

ولم تطل المداولة بينه وبين زوجه فقد بدت لها قصور الأماني شاهقة وقررا أن يزوجا سميرة من ذلك الشيخ الغني. وعبثاً حاولت سميرة أن تقنعهما بخطل رأيهما الذي بنياه على الطمع لا على ما يحقق سعادتها الحقيقية ، وأن الأمر أمرها هي فلم يصغيا لها وأفهماها أن الارادة إرادتهما . فأذعنت وأسلمت نفسها للآلام والأحزان .

وعلم حسن بالأمر فزاد همه وفترت همته واضطرب حاله فلم يعد ذلك الطالب النابه المبرز بل رسب في الامتحان وتملكه يأس شديد خيل إليه أنه سيقضي على مستقبله بعد أن تبدد حلم شبابه . وعاد إلى الاسكندرية لقضاء العطلة الصيفيـة . وكانت أياماً سوداء تجرعت فيها العائلة غصص الأحزان واستسلمت إلى يد القدر القاسية التي راشقها بسهام الآلام إلى أن تكسرت النصال على النصال ... وفي مساء يوم جميل بدا منزل متولي افندي في أبهج زينة وسطعت منه أجمل الأنوار وتمت فيه كتابة العقد واستمر السرور الكاذب إلى ساعة متأخرة من الليل . . . وكما يبدو سطح الماء صافياً بينما الكدر راسب بالقاع ، وكما يحمل العسل السم الزعاف بين جزيئاته الحلوة ، وكما تبدو الشوهاء جميلة من وراء النقاب كذلك بدا ذلك العرس الذي قام على فتات قلوب سحيقة . ولو رفع متأمل ليلتئذ بصره إلى شباك المنزل المجاور لأبصر شبح حسن منهدماً كأنه كومة بشرية يرنو إلى تلك الأنوار فيخالها تحترق من سراج حياته . وما أن انطفأت الأنوار حتى رفع حسن عينيه الدامعتين إلى السماء يستصرخ تلك العين الساهدة التي لا تنام . وفي هدأة الصباح وقبل شروق الشمس بقليل سمع صياح وعويل ففزعت سميرة وهرولت مع من هرول من أهل المنزل إلى النافذة وهناك كشفت الحقيقة عن وجهها البشع وبدت مخيفة مؤلمة . لقد انتحر حسن !

تجرع جانباً من محلول اليود — ذلك السائل الذي يريح الناس على أي حال ، فإما بالشفاء وإما بالموت .

وانتابت سميرة إغماءة طويلة كانت أبلغ احتجاج على قسوة القلوب الجافية ، وعلن منها والدها ضعف الأساس الذي قامت عليه أطماعهما وحقارته .

أما النـاس فعزوا انتحاره إلى خيبته المدرسية وأما أهله وأهل سميرة فعندهم الخبر اليقين وقد حرصوا كل الحرص على أن لا يفشو ويذيع . . . غير أن حسن لم يمت إذ أسعفه طبيب بالعلاج وأنجاه من مخالب الموت فخلص من موت جسماني ليبقى في موت نفساني . وقال الناس : انتصر الشباب على الموت وعوفي حسن . والحقيقة أن جراحات نفسه كانت دامية نزازة لا ينفع فيها طب طبيب

وفي ليلة علمت سميرة بتحديد يوم الزفاف فانتابتها رعدة ثم ذهول أشبه بذهول الفريسة بين يدي الوحش الكاسر قبيـل انقضاضه عليها والتهامها . فانسابت إلى غرفتها وأطلقت لدموعها العنان . وفجأة رفعت رأسها إلى السماء تستنصر العين الساهرة التي لا تنام . وإذ ذاك وقعت عيناها على نجم لامع فوق الشرفة التي بها حسن وخيل إليها أنه خفق خفقتين فهدأ روعها وحل بقلبها هدوء وسلام وأسلمت نفسها للذيذ المنام

وقبل يوم الزفاف بأسبوع واحد ، كان البوم ينعب في الليل نعيباً مؤلماً متقطعاً وفي الصباح انطلق صراخ وعويل من المنزل الأول ، لقد توفي مدحت بك بسكتة قلبية أدركته وهو في فراشه يحلم أحلامه اللذيذة

تمت المعجزة وانجلت المأساة عن انحدار ثروة عظيمة لسميرة ، إذ ورثت ثلاثين ألفاً من الجنيهات عدا العقار . وما هي إلا بضعة شهور حتى عقد لها على حسن ثم انتقلت به وبعائلته إلى القاهرة وساعدته على إتمام دروسه وعاشا سعيدين في ظلال الحب

محمد بهجت

مريم المجدلية ...

بعد ثمانية عشر قرناً

للكاتبة الإنجليزية « بارونس أورزي »
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

لما خرج أرنست كنزلو من سجن لاجيوتيير بمدينة ليون في أصيل يوم ١٤ مسيدور من السنة الثالثة للثورة الفرنسية ، كان الخادم صاحب الرداء الرسمي البنفسجي ذي السجاف والطراز الأحمرين ، في انتظاره ، فتناول هذا الخادم أمتعة الفتى ارنست ، وكانت نزرة يسيرة ، ثم خرج به من ذلك المكان المنكر سجن لاجيوتيير ، وسلك طريق راماپاردیش ، إلى ضفة نهر الرون مارا بذلك الجسر الحجري العتيق ، الذي مرت عليه جحافل الصليبيين في طريقهم من قلب بيرجندي وبيرجوني إلى رومة ومالطة ، فالشرق الأدنى لمحاربة العرب ، أتباع صلاح الدين الذي تغلب على معظم أمراء فرنسا وانجلترا ... فاستحضر الخادم قارباً ، فركباه وارتفعا في النهر إلى قرية كولانج ، وجعل ارنست كنزلو في أثناء ذلك يخال أن

تعريف بالقصة

بارونس أورزي أو البارونه أورساي Orczy من أشهر كاتبات القصص في اللغة الانكليزية . نبيلة بريطانية ، مختلطة الجنسين الفرنسي والسكسوني ، تسلسلت من نبلاء فرنسيس هاجروا إلى انجلترا أيام الثورة الفرنسية ولذا اتخذت موضوع الثورة وحياة فرنسا وانجلترا لمعظم قصصها ومنها « الزهرة القرمزية » ، سوف أسدد ديني ، إلدورادو . وقد اتخذت بمپرنل رمزاً لشخصية فتى محبوب جعلته بطلا لكثير من قصصها الطويل في مغامرات النبلاء أثناء الثورة . وهذه القصة التي نقلناها إلى العربية تحكي تاريخ فتى فرنسي ارنست كنزلو ، يبحث عن سر عميق لقاء سر آخر ، يهبه لمن يهديه إلى سر مولده وفيها وصف جميل للاشراف والجزويت وتحليل للاخلاق والنفسيات وهي منشورة في مجموعة مغامرات بمپرنل
(The adventures of the scarlet Pinpernel.)

الشمس لم تكن قط أشرق منها في هذا النهار ، ولا أبهى رونقاً ولا أبهر لألاء ، ولا كان النسيم أروح قط منه في هذه الساعة ولا أبرد على الأكباد ، ولا أندى على القلوب ، ولا أنعش للأرواح والأبدان . وبينما يرتقيان مع العباب الزاخر ، يمثلان المجاديف ، خيل إليه أن حديقة بيلكور ، قطعة من رياض الجنة ، وامتلأ قلبه سروراً وجذلا لمنظر الأرصفة والدكك والمباني القائمة على ضفاف النهر مثل باليه رويال ، ودير لاشاريتي حيث كان قد شرع في بناء الجسر الفاخر الجديد ، وبرج كارز جوبيه وقصر الحرية ، ومنظر نهر الرون تتلألأ صفحته رونقاً ويتوهج متنه بريقاً يضاحك حاجب الشمس وتلاعبه الأشعة ، قد ازدحمت على صدره القوارب والزوارق — هذه المناظر الجمة المختلفة أفعمت قلبه فرحاً ، وهزت أعطافه مرحاً .

ولا جرم أن يطرب لأمثال ذلك المنظر حديث العهد بالسجن ، قد لبث طويلاً في ظلمات وحشة يضاعف ظلامها سواد همومه وأشجانه ... وما زالا يستحثان القارب ارتفاعاً في النهر ، حتى انتهيا إلى قرية كولانج

الحسناء ، المتضمنة طائفة عديدة من منازل بديعة ريفية للأشراف والسادة ، الذين عملت الثورة على تقويض مجدهم وهدم صروح عظمتهم وتبديد ثروتهم ، ومصادرة أملاكهم والقضاء على مظاهر قوتهم ، بعد أن ظلموا الرعية وانتهكوا الحرمات ، وناءوا بكلاكلهم على صدور الأمة فامتصوا دماءها واستعبدوها وهم أجراؤها وخدامها . وكان هؤلاء السادة من الأعيان والأرستقراطية ، وعبّاد الشهوات وسدنة هياكل المال قد تملق منهم بأذيال الفرار من تملق ، واختبأ في خفايا القصور العتيقة من اختبأ، وما كان يجرؤ على الظهور منهم إلا المسلح المدرع الذي يستطيع أن يدافع عن نفسه . أما خدمهم فكانوا يسرحون ويمرحون ، ولا جناح عليهم ، لأنهم من طبقة الشعب ولا يتميزون عليه إلا بآثار النعمة البادية عليهم . كذلك الخادم الذي كان في انتظار أرنست كنزلو بساحة السجن ، في عصر ذلك النهار . وكذلك وصلا إلى دار النبيلة الكونتيه — وهي دار بهيجة جديدة ، إذ كانت من منشآت العام الأخير من حكم لويس الرابع عشر ، وهي في الصف المواجه النهر ، ووراءها بستان أنيق ، وهي تشرف على مشهدين جميلين ، أحدهما تلقاء بواسال والثاني ناحية سان پول ، حيث يقوم القصر الفخم العتيق — قصر البرنس بوربون .

* * *

في بهو الكونتيس أبصر أرنست كنزلو بعض تلك الصور التي كانت في قصر جرانمولان ، والتي قد نقلتها السيدة النبيلة إزابيل دى كابيت إلى دارها الجديدة عقب وفاة زوجها — وهو والد أرنست كنزلو — من امرأة من الشعب . وفي أخص مكان وأشرف موضع كانت ترى صورة السيدة النبيلة الكونتيه إزابل دى كابيت بريشة المصور دافيد . ذلك المصور النابغ الذي امتد به أجله حتى رسم بريشته تصاوير نابوليون وجوزفين بوهارنيه وجميع الأمراء والأميرات من أسرة بونابرته ، بعد أن رسم تصاوير دانتون وروبز بييرومارات وشارلوت كورداى . وقد قيل في ذلك الحين إن هذا الرسام الذي لا ضمير له ولا كرامة (كذا وما أنا إلا ناقل) قد دنس ريشته بتصوير أوغاد الثورة ، بعد أن شرفه الملوك بنقش صورهم !! ولكن دافيد كان طوال حياته مفلوكاً متصعلكاً ، لا يبالي شيئاً فقد رسم صورة مارى أنطوانيت وصورة جوزفين بوهارنيه ، وجمع بين اللوحتين في بهو مرسمه وقال لصديقه جوراندى « هاك صورتى داعرتين ممتازتين ، الأولى أوصلتها العظمة الامبراطورية إلى الفجر والفسوق، والثانية أوصلها الفجر والفسوق إلى العظمة الامبراطورية » وقد نقلها جوراندى إلى رجال الحكم وإلى ذلك الباهية تاليران ، فهز كتفه وقال :

« دافيد قالها ، وأنت تنقلها إلىّ ؟ علام تريدني أن أفعل به ؟ إنه مفتن ، وكل مفتن مجنون ، أتراني أقدمه للمحاكمة . إن عهد فوكييه دى تنفيل قد انتهى ، المحكمة الثورية قد غلقت أبوابها ... ولكنني أستطيع أن أعمل شيئاً يسرني ويسره ، أي دافيد ، وهو أن ...

فقال له جوراندى : ما هو يامسيو تاليران ؟

فقال : سترى عما قريب . ثم صرفه ولم يكد هذا الصديق الخائن يبلغ باب الديوان ، حتى أمر تاليران بالقبض عليه بتهمة التجسس . . لقد صرت

هذه الخواطر برأس أرنست كنزلو الابن الطبيعى لزوج الكونته إزابيل دى كابيت فى هيأة ربة الصيد « ديانا » وعليها سابرية صفراء ، وفى يدها قوس ، وعلى جبينها هلال ، وحولها كلاب تثب وتمرح . وكانت هذه الصورة قد نقشت أيام كان العشاق اللوكيون يتوددون إلى ربة الصيد العذراء (إزابل) فيلقون عندها منزلة وزلفى .

وكما أن الالهات لا يَشِبْنَ ولا يهرمن ، بل ينعمن بصِبًا دائم ، وشباب سرمدى ، فكذلك ما برحت هذه الإلهة (الكونتس ازابل) إلى يوم وفاتها تعتقد أنها لم تكبر قط ولا كان للزمن أدنى سلطان على شبابها ، وهكذا لبثت طول عمرها ترى أن الصورة لا تزال تحكى حسنها وتمثل جمالها

كان أرنست كنزلو يريد الوقوف على سر مولده، وكانت السيدة تريد الوقوف على سر مقتل زوجها ، الذى كان الفتى بسببه سجيناً . بعد أن سيق أرنست كنزلو إلى حجرة السيدة بواسطة خادم الغرفة ، وانتظاره هنالك المدة التى تقتضيها مراسم التشريفات وآداب الزيارات ، نزلت الإلهة «ديانا» إلى الظهور للفتى ، فجاء يتقدمها زنجى أسود فى زى الأتراك ، أحمر الحذاءين فى عنقه طوق من الفضة منقوش عليه شارة الفيكونتس ، وهو يحمل وسادة السيدة ثم تبعته وصيفتها وجاء بعد ذلك طائفة من كلاب الصيد ينبحن ويمرحن أمام الصائدة ذات الجلال والعظامة . ثم أقبلت السيدة الكونته ذاتها تنثر صنوف الطيب الغالية ، وفنون العبق والشذا ذات اليمين وذات الشمال . وما زال أرنست كنزلو يذكر منذ طفولته أرَجَ المسك الذكى الذى كان يفوح ويتضوع من أردان زوجة أبيه

وكما أن الأفق الغربى يزداد حمرة كلما ازدادت الشمس دنواً من المغيب ، فكذلك كنت ترى السيدة الأرملة يزداد خدها حمرة كلما ازدادت دُنواً من أجلها ، فلقد كان وجهها يتوهج بالدهان القرمزى الذى كان يضاعف وهجه بياض مايجاوره من الطلاء وكانت تلبس من الشعر ذلك النمط الجعد المسلسل الذى كان مألوفاً أيام الملك لويس الرابع عشر وكانت عيناها تبرق من وسط هذا البناء العجيب المركب من شتى أنواع الدهان والصبغة والطلاء . وهى ألوان من الأكاذيب . وإن البيت الذى يحل فى وسطه هؤلاء السادة والسيدات ، لجدير بألا يضم بين أكنافه إلا مرائين منافقين ، لأنه لكل منهم إلا أن يكذب على صاحبه ويظهر له غير حقيقته . فالزوج يكذب كلما استقبل الأضياف بوجه باش قد ارتسمت عليه ابتسامة المداراة أو المجاملة، والزوجة تكذب وتمضى على القذى وتسيغ الشجى وتظل طول حياتها فى كذب مستمر . تكذب على زوجها وشريك حياتها وقسيم روحها ، وتكذب إذا أمرت طفلها الصغير باحترام أبيه العزيز، وتكذب إذا أكدت لأبيها أنها فى هناء تام وعيش سعيد، والخدم أيضاً يكذبون كلما تظاهروا بالخشية والخشوع وهم ماثلون وراء كرسى مولاهم ، وكلما تغافلوا عما يقع من النزاع تحت أعينهم . وكذلك يقضى القوم حياتهم من مطلع الشمس إلى موعد النوم فى كذب ونفاق ، ثم ترى أدعياء الحكمة يمتدحون ذلك الرياء الأبدى ، ويسمونه مراعاة لآداب المعاشرة واحتفاظاً بقواعد المجاملة . أما الصدق والصراحة وقول الحق فليست مثلا صالحة لحسن المعاشرة ولا قدوة طيبة لاستقامة المعيشة ، وبسبب هذا

النفاق وقعت أغرب حوادث هذه القصة فان الكونت دى كابيت وهو فقيد الكونته إزابل وبعلها كان قد استقبل فى داره مركيز ديلامور وضافه وأكرم وفادته أياما طوالاً وهو يعلم أن هذا المركيز الماجن قد انفصل عن زوجته وقد وقع له كثير من الحوادث التى لها مساس بالعرض والشرف ، وكان السبب فيها النساء كما هى العادة .

وقد لحظ الفيكونت كابيت حديثاً دار بصوت خافت بين ضيفه وبين قرينته إزابل ، فلما بقتهما رب الدار (الكونت كابيت) انتهر زوجته قائلا : « قبحك الله أيتها الأفعى الصغيرة ، أخرجى من الغرفة ! »

فصاح المركيز ديلامور قائلا :

إنى مخبرك يا كونت عما قالته لى زوجتك ، ويعلم الله أنى لا أكذب فى حرف واحد منه . لقد تضرعت إلى ، وعيناها مملوءتان بالعبرات ، فى الاقلاع عن ملاعبتك ألعاب الزهر أو الورق ، وأنت أعلم وأدرى هل ذلك السؤال فى مصلحتك أو فى غير مصلحتك

فقال الكونت كابيت بصوت يابس جاف : « لا شك أنه كان فى مصلحتى يا مركيز ! ولا شك فى أنك مثال الانسان الكامل ، وإن الدنيا لتعلم أي قديس طاهر أنت !

فقال المركيز : لست بقديس ، ولست أنت شيطاناً ، ولكن امرأتك ملاك

فقال الكونت : والله لأحاسبنك على هذا

فاعترض المركيز ديلامور قائلا : حقاً يا كونت إن المصاب فى إبهام قدمه بالنقرس ليعجز عن الجرى وراء نساء غيره .

وبعد يومين أعلن ماركيز ديلامور عزمه على الرحيل ، وكان مضيفه الكونت أثناء ذلك يعامله بتأدب متكلف متصنع ، لا شك أنه يخالف ما هو معهود فيه من الصراحة والتبسط ورفع الكلفة ، بيد أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الظن بأن هذين النبيلين قد افترقا على غير الصداقة والاخاء .

ولكنهما افترقا على ضغن كرين ، وحقد دفين ، ونار أشعلتها الغيرة المحرقة . فان الغيرة متى تنبهت لم يكن فى طاقة الأفيون أو المرفين ، بل ولا فى طاقة كل ما حوى الشرق من المخدرات والمسكنات أن تلطف حدتها أو تطفىء جذوتها

فقد اجتمع الكونت والمركيز وانتحلا سبباً للقتال تافهاً عقيب العشاء والمسرح واللعب بالورق . فنادوا على مركبات تسعهم وأصدقاءهم وشهودهم ، وهمسوا فى آذان السائقين بالانطلاق إلى بستان رأس الذهب — بارك تيت دور — فلما بلغوا ذلك المكان نزلوا إزاء حانة — فولى كابير — وكان الوقت منتصف الليل ، وقد هدأ الناس فى مضاجعهم ، ولم يبق من الأنوار إلا أشعة قليلة تنبعث من نوافذ بعض المنازل . بيد أن الليل كان زاهي النجوم ، والسماء صافية الأديم ، ولم يكن المتنازعون يحتاجون إلى أكثر من هذا لقضاء وطرهم الوبيل ، فدخلوا البستان ولبث السائقون في خارج السور يحرسون البوابة مخافة أن يزعج الاجتماع بعض الناس فانه لم يمض أكثر من دقيقتين حتى سمعت صيحة من السائقين الواقفين خارج البستان يدخنون « شبقاتهم » ويتكئون على السور ، وهم يراقبون سير النضال فى داخله ، فعلم ارتست كنزلو من تلك الصيحة أنه قد وقع خطب جسيم ، فدار ملتفتاً ثم انطلق يعدو

إلى حيث وجد الكونت كابيت (زوج الكونتس) صريعاً على الأرض ، وكان المار كيز ديلامور واقفاً عند رأسه يقول بصوت أجوف : « هل أصابك جرح بليغ يا كونت ؟ »

فقال الكونت وهو طريح فى مصرعه :

— أحسبنى بين يدى المنية

فقال المركيز ديلامور الذى أصاب من الكونت كابيت مقتلا : لا قدر الله ! لا أحسب الأمر كما تظن ! إنى أخبرك والله على ما أقول شهيد : بأنى كنت عازماً على التماس عفوك لو أنك أعطيتنى فرصة لالتماسه . إن سيدتى المركيزة بريئة من كل ..

فقال الفيكونت المسكين وقد نهض متحاملا ، واتكأ على مرفقه : صه صه ! إن النزاع الذى بيننا لا يتعدى هذه الوريقات ، نعم هذه الوريقات الملونة (مشيراً إلى أوراق اللعب) وهنا وقع مغشياً عليه ، فاستحوذ الرعب على الجميع وحسبوه قد فارق الحياة ، ولكنه لم يكن مات فنقل إلى أحد الخانات العامة ليلفظ أنفاسه الأخيرة

وهناك أشار إلى الجميع إشارة ضعيفة بترك الغرفة ثم قال لارنست كنزلو :

إذن فانصت إلى اعترافى وأنا على فراش الموت

فسألته الكونتيس النبيلة : فماذا قال لك ؟

قال لى : إنه أبى ، وإننى ولدت له من امرأة من غمار الشعب ، وهأنذا أطلعتك على ملابسات وفاته ، فأطلعينى على سر مولدى . فصاحت الكونتيس : أشهد الله أنى بريئة من ذلك الاثم فقد حل بك وبأمك رحمها الله ظلامة جسيمة ، وإن أباك الخبيث هو الذى . . . فقال ارنست متمما : الذى جلب هذا العار على أسرتنا . . . أعرف ذلك حق المعرفة ولا أريد تكدير صفاء أحد قط ولا إقلاق راحة إنسان ما . فان ورثة الألقاب والثروة الآن كانوا أ كرم أهل ودى ونممق وما تممدونى بسوء قط وحاشاهم

فصاحت الكونتيه إيزابيل : إننى يا ولدى لم أعرف الحقيقة إلا قبل وفاته ببضعة أشهر . وقد زادنى ألماً أنك سجنت بسبب مصاحبته فى تلك الليلة ولا بد أن يكون بعض القسس عرفوه من سبيل الاعتراف

فقال أرنست : وعليك الآن يا أم ... يا زوجة أبى الكريمة أن تكشفى لى عن سر مولدى ، فدقة بدقة ، وسر بسر !

فقالت : لقد فحصت عن أمر والدتك ، لأعرف أهى على قيد الحياة أم لا ؟ وقد خبرنى الأب كابان فى آخر زفرات حياته أن والدتك ماتت منذ أعوام عدة ، ولا شك عندى فى مقاله . فقال أرنست : لست أدرى أفى طاقتى إثبات الزواج الذى عقد بين أبى وأمى ، على أنى ما كنت فاعلا لو استطعت ، إذ لا أحب أن ألوث اسمك بالخزى ، أو أسوق الهم والكمد إلى من أ كرمونى . فاعلمى أيتها السيدة أن ابن أبي لن يضاعف ما نالك من أذى والده ، فابقى أرملته ، وامنحينى برك وعطفك فهو كل ما أرجو لديك ، ولن ترينى أذ كر ذلك الأمر بعد الساعة

فصاحت الكونتيه بالانجليزية ، وكان دأبها أن تنطق بها كلما اهتاجت عواطفها ، لنشوئها فى بلاط الملكة حنة ، ملكة انجلترا أو إرلاندا

« والله إنك لشريف الطبع كريم السجية »

فقال أرنست منحنياً فى خشوع وتخاشع : « ذلك ياسيدتى البارة ما يقتضيه مقامى . إن فى الدنيا أناساً

طالما وعدت أن أبذل فى سبيلهم روحى جزاء ودهم وحنانهم ، أفيليق بعد ذلك أن أعاديهم وأشاحنهم من جراء لقب ؟ وماذا على أن يكون ذلك اللقب لى أو لهم ما دام في الأسرة ؟

فأجهشت الكونتيس بالبكاء ، وضمت أرنست إلى صدرها وأغدقت عليه من اللثم ما أنساه ألم الذكرى والتفكير فى والديه وهما الكونت العظيم و « السوقية » التى حملته فى أحشائها ووضعته ولم تستطع إرضاعه ، ولا العناية به ، ولم يقع بصره عليها وهو يدرك أنها أمه . ثم قالت له الكونتيس : إعلم أن الأب لامبير المتكف الآن فى دير نوتر دام دى فورفيير ، بأعلى هضاب المدينة هو الوحيد العالم بعصير المرحومة والدتك ، وقد وكلنا إليه تهذيبك فى الصغر ، فأقم ها هنا معنا أياماً ، حتى تستجم من وعثاء السفر

فقال أرنست السجن ... أو السفر ، شىء واحد ثم ندعوه إليك ، فيقص عليك أنباءه الصادقة

***

ولكن أرنست: لم يجد صبراً فاستأذن الكونته وسار قدماً إلى الكنيسة ، بعد أن خلع ثيابه وتزيا بأزياء الصعاليك الذين وصفوهم فى الثورة بعديمى السراويلات « صان كيلوت » ولما بلغ باب الدير واستأذن على الكاهن العتيق أخبره بكل ما وقع وأنهى إليه أنه قد اطلع على أسرار أسرته وصمم على عدم إفشائها ، فأكبره ذلك فى عين الكاهن ، لما أبداه من الايثار وإنكار الذات . وقال فى نفسه عجباً إن فى هؤلاء المجهولى الأصول ، وأولاد الطبيعة والأبناء غير الشرعيين من يسمون بمكارم أخلاقهم درجات فوق أدعياء الحسب والنسب الذين نخر عظامهم سوس الكبرياء والأثرة وحب الذات . فهنا الفضل راجع للأم حتما ، لا للأب الذى عرفته خبيثاً ما كراً

ثم اعتنق الكاهن المؤدب تلميذه القديم وجعل يهتف بكثير من عبارات الاعجاب والاستحسان قائلا : إن أرنست فتى شريف القلب نبيل النفس وإنه يفتخر بتلميذه وصديقه وقال له : إنه كان يود أن يهديه إلى الكنيسة الحقة الواحدة التى ينتمى إليها الأب وأن يدعجه فى سلك أشرف الجيوش التى حارب فى صفوفها الانسان — يعنى طائفة اليسوعيين التى تضم بين جنودها (كما يزعم الأب لامبير) أعظم الأبطال الذين دبوا على أديم الغبراء — أبطال شجعان لا يهابون شيئاً ولا يعجزون عن احتمال شىء ، يقابلون الجيش العرمرم بقلوب أيدة ولا يخافون لقاء الموت مهما أفزعت صوره — جنود بسلاء ، قد حازوا من الانتصارات ما يكسف لألأؤه أبهر فوز أحرزه أبرع القواد ، وغزوا الدائن والشعوب حتى خرجت الأمم ركعاً وسجوداً بين أيدى لوائهم المقدس : الصليب ! وا كتسوا من برود المجد وأكاليل النصر ما هو أسنى وأبهى من أشرف ما تقلده أمجد الفاتحين فى الأرض ، تيجان من النور السرمدى ، وهالات من البهاء الأزلى ، وآرائك فى أرفع مقامات الفردوس

فشكر أرنست لصديقه القديم ومؤدبه ومعلمه الأب لامبير اليسوعى ، حسن رأيه فيه وإن كان لا يشاركه فى تحمسه لمذهب الجزويت ، ثم قال وقد أمسك يد صاحبه :

« لقد فكرت فى هذا الأمر أيضاً يا أبى العزيز ، نعم لقد فكرت فى هذه المسألة وحللتها لنفسى ،

كما ينبغى لكل امرىء أن يفعل ، وإنى لباذل جهدى فى سبيل الحق والخير ، وإنى لأعطى الله من حُسن الطاعة وصدق الايمان بحسب طريقتى مثلما تعطيه أنت بحسب طريقتك .. إنى لا أستطيع التصديق بأن القديس فرنسيس جافير قد عام فوق اليم بعباءته ولا أنه أحيا الموتى — لقد حاولت جهدى تصديق ذلك فلم أفلح . ولقد أوشكت ذات مرة أن أصل إلى حد اليقين ولكنى لم أستطع . فدعنى ألتمس الحق وأطلب الهدى وأسأل الله الخير من الطريق الذى أنتهجه لنفسى

فجعل القسيس يتنهد لتمادى تلميذه فى الجهل وإصراره على الضلال . ولكنه لم يمنعه محبته وعطفه . وكان توثق عرى الصداقة بين الأب لامبير وأرنست كنزلو قد شجع هذا الأخير على سؤال صاحبه عن طرف من تاريخ أمه المسكينة تلك التى طالما كان يهتف بها فى أحلامه والتى لم يَرها قط فى حياته . وشرح الفتى أرنست للأب لامبير ما جرى قبيل مقتل والده وبعده ، وذكر له العهد الذى قطعه للكونته والأسرار التى وقف عليها ، ثم توسل إلى الأب لامبير فى إطلاعه على ما يعرفه من أنباء تلك المرأة المسكينة التى انتزع من أحضانها

فنهض الأب الجزويتى وتزيا بزى « أحد مندوبى الشعب » كوميسير دى بيبل — وهو يقول : اعلم يا بُنى أن كل أزياء التنكر جائزة فى سبيل الدين والولاء والصداقة . وكل أصناف الملابس جائزة — حمراء كانت أو سوداء لا فرق بين الشارة المثلثة الألوان التى أحملها وأنا أمقتها ، وبين الشارة السوداء والشارة البيضاء ، كما لا فرق بين القبعة المحلاة بالوشى والقلنسوة ذات الرفرف العريض التى تلبس فوق الناصية المجزوزة أو الضفائر المهدلة

وانحدر القسيس وصاحبه الفتى أرنست كنزلو من أعالى فورفيير إلى ضفاف نهر السون ، الذى يجرى الملتقى له مع نهر الرون فى طرف المدينة الغربى حتى بلغا أقصى حى كروا روس وجادة جيراف ، إلى الشارع الذى كان يقيم فيه أبوه والذى ولدت فيه أمه على ما يعلم . ثم قال له : كانت أمك من أهل هذه هذه المدينة ، ففى سنة ١٧٧٥ قدم أبوك ههنا فى حاشية الملك السابق فتعرف أبوك (وكان لا يزال ضابطاً فى الجيش ولم يرث لقب الكونتيه الرفيع) بأمك وطاردها حتى أوقعها فى حبائل غرامه وقد أخبرنى فى كثير من أحاديثه ، وكنت أشعر يومئذ بأن الواجب يقضى علىّ بكتمانها أن تلك المرأة كانت رحيمة القلب كثيرة الصلاح ، جمة الوفاء رقيقة العواطف ، وله الحق وله المفرق أن يخجل ويستحى من مسلكه فى معاملتها ، وكثيراً ما أعرب لى عما يقدح فى قلبه من صريخ الندم ، وما يحز فى ضميره من خالص التوبيخ على ما سامه إياها من سوء العذاب كما كان يحدثنى عن صفاتها الجيدة وخصالها الكريمة بلهجة تنم عن الحنان والمحبة . وقد اعترف لى أنه كان يفرط فى إساءتها وأن حياته يومئذ كانت سلسلة من مخازى الفسق والمقامرة والفقر . وفى ذلك الوقت حملت بك أمك . فلما انكشف السر لوالديها لعناها وطرداها ولكنها لم تنف من جلب لها التعاسة والخراب ، إلا بعبراتها المنسكبة من مدامعها الأبية وبما ارتسم على محياها من آيات الشقاء . وكان اسمها جرترود كنزلو . فأنت منتسب إلى جدك لأمك . وهذا هو السر فى حملك هذا اللقب الذى لم تكن تعرف علة اقترانه باسمك . ولم يمض على مولدك قليل

حتى مَلَّ عشيرة الفتاة التى سلبها عفتها وهناءها . ووصل إليه فى ذات يوم مبلغ من النقود أرسله إليه عمه مولاى الفيكونت السابق (الذى ورث لقبه بمدوفاته) نادعى أن لديه أشغالا تضطره إلى الرحيل إلى باريس ثم أكد لأمك المواثيق بوَشْك إيابه ومن ذلك العهد لم يرَ وجه المرأة المسكينة قط

فتنهد أرنست كنزلو الذى جحدت عيناه ، وكاد أن ينفجر من الغيظ : تبًّا لهؤلاء الأشراف ... وتبًّا لرجال الكنيسة الذين يمجدونهم ويعينونهم على التمادي فى الفساد . ألم يكن فى مقدورك أيها الراعى الصالح أن تنصح له بالعقد على أى تلك المسكينة التى ذهبت ضحية غروره وشهواته؟ وهأنت ذا تتفجع عليها وكنت تملك إقناعه بتصحيح موقفه أمام الله والكنيسة ، دع عنك المجتمع والانسانية والعقل المسكين ...

فصمت القسيس ، وأطرق قليلا ثم قال :

— لقد أقر لى أولا فى عرض اعترافه وثانياً فى عرض الحديث بين يدى عمتك زوجته — الكونتس دى كابيت — وإلا ما كنت مذيعاً لك ما أنا اليوم ذاكره — أقول إنه أقر لى بأنه عند قدومه إلى باريس أرسل اعترافاً مزوراً إلى المسكينة جيرترود (والدتك) مخبراً إياها بأنه كان قبل اتصاله بها قد تزوج من امرأة أخرى ، وبأن اسمه ليس برتران وهو الاسم الذى عرفته به وبأنه على وشك مغادرة أوربا إلى مزارعه فى فرجينيا ، حيث مابرحت لأسرتكم ضيعة أقطعكم إياها الملك لويس الرابع عشر وبعث إليها مع هذا الاعتراف مبلغاً من النقود هو نصف آخر مائة من الجنيهات التى كانت معه ثم سألها الصفح عنه واستودعها الله . وما خطر قط على بال والدتك المسكينة أن ما جاء فى هذا الخطاب من الأنباء قد يكون مخالفاً للصدق شأن سائر أحواله معها . وقد طلب إليها أحد الشبان الذين من طبقتها — وكان يعرف تاريخها — أن يتزوج منها ويتبناك ويسميك باسمه ، ولكنها أبت . وتعرضت بذلك لغضب أبيها وسخطه وكان قد آواها فى بيته حيث ما برحت تعانى منذ سقوطها سوء الذلة وقسوة المعاملة، وحيث كانت لا تجرؤ على رفع رأسها استكانة واستخذاء ، فرثت لحالها بعض السيدات الصالحات من معارفها ورتبت لها معاشاً يسيراً فذهبت الفتاة إلى أحد الأديرة ، وعهد بك إلى إحدى الحاضنات إذ كانت أمك من شدة الضعف والهزال بحيث لا تستطيع إرضاعك . فهل لك الآن رغبة فى مشاهدة الصليب المنصوب على لحد المرحومة والدتك فى مقبرة الدير ؟ إن رئيسة الدير من أتباعى الأقدمين ، وهى لا تزال تحن إلى ذكرى الراهبة مريم ماجدالين ، وهو الاسم الذى اتخذته والدتك فى رهبانيتها ، أما حقيقة اسمها فجرترود كنزلو

***

فى أصيل يوم من أيام الربيع الصاحية المشرقة ذهب ارنست كنزلو إلى مقبرة الدير فأبصر بين آلاف من الصلبان السوداء وأفيائها الممتدة على الآكام الخضراء ذلك الصليب المخصوص الذى تضطجع تحته أمه فى مثواها الأبدى . لقد تسمى بهذا الاسم (أعنى مريم المجدلية حوارية السيد المسيح وخادمته التائبة) كثير غيرها من أولئك البائسات الراقدات فى تلك المضاجع وما هو إلا الشعار الذى وسمتهن به الأحزان والرمز الذى يشير فى لطف ورقة إلى ما كابدنه من الحب والجوى .

وجعل الفتى ارنست كنزلو يتخيل أمه وقد راحت تسكب الدمع تحت جنح الدجى وهى راكعة بين يدى ذلك الصليب الذي دفنت تحته أشجانها وهمومها ، فخر جاثياً وأنشأ يتلو صلاته وما به لوعة ولا أسى وإنما هى رهبة ملكت عليه مشاعره (فقد كان لا يعهد من أمه شيئاً حتى ذكراها) ورحمة ورثاء لما كابدته تلك الروح الرقيقة فى حياتها من الآلام التى حضرت بها إلى هذا الصليب حيث استماتت بهذا العروس السماوى من الذى فتنها واستغواها ، والنادر الذي هجرها وأشقاها .

وكان على مقربة من الفتى راهبة فى قناعها الأسود راكعة بجانب مضجع إحدى الراهبات الراقدات ...

وكان الواقف هنالك يلمح من وراء جدران المقبرة شرفات مدينة ليون الزاهرة ومناراتها ويشيم ومضات ولمحات من أمور الدنيا ومعترك الحياة فتنهد أرنست وبكى ثم قال : ألا رعاك الله أيها الموت وحياك ؛ أنت ملجأ الراحة الصامتة ومستقر السكينة العميقة، لا تنالك أيدى العواصف ولا يزعج سكونك اضطراب القلاقل ؛ وكذلك خرج من المقبرة وإنه ليشعر كمن كان ماشياً فى قرار البحر العميق يتلمس مواطىء قدميه بين العظام المتناثرة من هياكل السفن المحطمة .

وعاد أرنست كنزلو أدراجه إلى المدينة ، وقد اشترى سراً بسر بعد أن اهتدى إلى قبر تلك الأم التى لم يحظ يوماً بندائها قائلاً « أماه ... »

محمد لطفى جمعة

الملوّح (*)

للقصصي الروسي فسفولد ميخائيلوفيتش كارشين

بقلم الأديب السيد فخري شهاب السعيدي

كان « سيمن إيفانوف » حارساً على خط من خطوط السكك الحديدية ؛ وكانت المسافة بين مسكنه وبين أقرب المحطات إليه — قرابةَ سبعة أميال ؛ ولم يكن حول مسكنه ذاك سوى دور زملائه الحراس الآخرين ، وسوى مدخنة سوداء سامقة في الفضاء لطاحونة كبيرة شيدت قبل عام على بعد ثلاثة أميال منه

كان « سيمن إيفانوف » هذا مريضاً مقعداً وكانت له سابقة الاشتغال في خدمة ضابط في الجيش لازمه في كل الحملات التي اشترك فيها ، ونالته من ذلك ضروب الأذى — فانه كثيراً ما جاع ، وإنه كثيراً ما تعرض للهلاك ، وإنه كثيراً ما قطع عشرات الأميال سعياً على قدميه في زمهرير الشتاء القارس ! ولكن الله تعالى قد أنجاه من كل هذا ..

وكانت الفرقة التي كان فيها سيده في مقدمة الصفوف المحاربة التي كانت تكافح الأتراك مدى أسبوع كامل لم تفتر خلاله الحرب ، أو ينقطع إطلاق الرصاص . وكان — هو — يحمل جرايات سيده من شاي أو طعام إلى مقره في خنادق القتال مجتازاً بها مسافة طويلة في مساحة الحرب التي يصم الأذن فيها أزيز الرصاص فكان ذلك يروعه وربما أبكاه ؛ ولكنه ما كان يتوقف عن المضيّ حاملا إلى سيِّده ما جاء له به من مطبخ الجيش . وكان ذلك منه مدعاة إلى ابتهاج الضباط فقد كان الشاي الساخن في متناولهم متى اشتهوه !

عاد « سيمن » من الحملة سالماً لولا أن كان أصابه مرض مؤلم في يديه ورجليه ومنذ ذلك الحين لازمته التعاسة ، فقد وجد عند أوبته أن أباه الشيخ قد توفى ، وأن ابنه الصغير قد لحق بجده ، وأنه لم يبق غيره وغير زوجه في الدار ... ذلك إلى أنه لم يكن يكتب له التوفيق في عمل ما ، وكيف — ترى — يكون التوفيق وهذه أطرافه قد شلّها الألم المبرّح فهي لا تفيده في الحرث ؟

ولم يصبر « سيمن » على الحياة في قريته كذلك : بائساً ، مقعداً فقيراً ؛ بل ذهب هو وزوجه يبحثان عن « السعادة » في أماكن

(*) الملوح : كلمة استعملناها لمن يعين لارشاد سائق القطار بالتلويح له بعلمين صغيرين مشيراً عليه بتخفيف السرعة أو الانطلاق حسب مقتضى الحال — ويقابلها بالانكليزية « The Signal »

أما مؤلف هذه القصة فأديب روسي نابغ ، من السائرين على مذهب « تولستوى » والمتأثرين بأسلوبه وأفكاره . ولد سنة ١٨٥٥ وكانت له في الجيش الروسي خدمات أثرت في أدبه القصصي إذ انتزع من حياة الجيش تلك صوراً جميلة رائعة لقصصه التي كتب ، والقصة التي نقدمها للقراء اليوم تريهم طرفاً من تصويره تلك الحياة . ثم أصيب باضطراب في أعصابه جعله ينقل إلى الناس بعض ما كان يعانيه من ذلك الداء الوبيل في كثير من قصصه التي كتب في تلك الفترة من عمره . وقد مات « كارشين » منتحراً وهو ما يزال في ميعة الشباب سنة ١٨٨٨

أخرى .... لقد ذهبا يبحثان عن عمل فى سكة القطار فى « خاركوف » و « الدون » ولكن الحظ لم يواتهما أينما ذهبا ؛ فاضطرت زوجه إلى أن تكون خادماً ، وظل هو يكمل رحلته فى التفتيش عن عمل له ... وإنه لجاد فى سفره إذ صادف مدير إحدى محطات القطار الصغيرة ؛ فتفرس فيه ، وأخذ يثبته ويتفيه كأن له به سابق معرفة حتى ذكر من يكون هذا الرجل ... إنه من ضباط الفرقة التى كان فيها سيده !

— ألست « إيفانوف » ؟

— أجل . . أنا هو ياسيدى .

— وكيف جئت إلى هذه المحطة ؟ !

فقص « سيمن » قصته عليه .

— وإلى أين أنت ذاهب الآن ؟

— لست أدرى يامولاي !

— ماذا تعنى ! أمجنون أنت فلا تدرى أين تضرب فى الأرض ؟

— هو ما تقول يامولاى ، إذ ليس لدى مأوى ألجأ إليه . وإن على أن أمضى فى التفتيش عن عمل مهما كان نوعه يا صاحب السعادة .

فنظر إليه مدير المحطة لحظة ، وظل ساهماً ، ثم قال له : —

— إسمع ياصديق ، ابق فى المحطة الآن ؛ أنت متزوج فيما أعتقد فأين زوجك ؟

— أجل ، هذا صحيح ؛ سيدى أنا متزوج ، وزوجى فى « كرسك » فى خدمة تاجر هناك .

— حسن ، فاكتب إليها تستقدمها لتوافيك إلى هنا ، وسأحصل لها على بطاقة سفر مجانية . . إن أحد حراس « الخط » سيخلى مكانه ، وسأكلم رئيس الشعبة فى شأنك .

— أنا شاكر جميل صنعك ، مولاى !

... وكذلك ظل « سيمن » فى المحطة يساعد السكانين باعداد طعام المدير طوراً ، ويقطع لهم الخشب تارة ، أو يكنس الساحة والبلاط أحياناً حتى قدمت — بعد أسبوعين — زوجه فخرج لاستقبالها ، وحمل لها أمتعتها فى عربة يد صغيرة إلى مقرها الجديد .

كانت داره هى مقر حراسته الخط وملاحظته القطار ؛ وكانت داراً جديدة البناء دافئة ، هذا إلى أن باستطاعته أن يحتطب مايشاء ، وأن يزرع أرضاً صغيرة حول داره ... وإنه ليفكر الآن فى شراء بقرة وحصان ليستفيد منهما فى تلك الأرض

وأُعطِىَ « سيمن » كل ما يحتاج إليه فى أداء وظيفته : علماً أخضر وآخر أحمر ، ومصباح نفط ، وبوقاً ومطرقة ومفتاحاً يقوى به مسامير الخط ، ومكنسة وكلاّباً ، كما أعطى كتابين صغيرين فى أحدهما قوانين استعمال العلمين وفى الآخر مواعيد وصول القطار ... وما كان « سيمن » يستطيع أن ينام فى بادئ الأمر ليلا لأن استظهار مواعيد القطار كان موضع اهتمامه وشغله ... فلو أن قطاراً سيمر بعد ساعتين كان ينهض له « سيمن » فيصلح من الخط شيئاً ، ولو بدقات بسيطة عليه من مطرقته ، ثم يجلس على مصطبة حيال داره يرقب مقدم القطار ، فان استعصى عليه ذلك بالسماع تحسسه باهتزاز الأرض أو ارتجاف خطوط السكة . وحفظ قواعد استعمال العلمين عن ظهر قلب بعد صعوبة قاساها

كان الفصل فصل الصيف ، والعمل فى الصيف

يسير ، فليس ثمة ثلج يقتضيه تنظيفه . . . بل كل ما هناك بضعة قطر تدرج على ذلك الخط مرات قليلة في اليوم ؛ فكان سيمن يخطر في مصامته[1] المسؤول عن حراستها مرتين في اليوم : يربط هذا الخط ، ويقوى ذلك المسار ، ويعدّل تلك الصابورة ويلاحظ أقنية الماء ، ثم يعود إلى داره ليشتغل في زراعة أرضه ؛ ولكن أعماله في الدار كان يعطلها شيء واحد هو طلب « الاذن » من ملاحظ الطريق الذي يرفع الأمر بدوره إلى « رئيس الشعبة » وقبل أن يجاب الطلب يكون قد فات الأوان ! وكان ذلك سبب تذمر « سيمن » وزوجه المستمر

مضى على مقام « سيمن » شهران فبدأ يتعرف إلى جيرانه ويتخذ له منهم الأصدقاء ... كان أحدهم شيخاً طاعناً في السن ، تفيض الألسن بشائعة الاستثناء عنه إذ لم يكن يستطيع الخروج من داره وكانت تعينه على أداء واجبه زوجه فهي التي تلاحظ الخط وتقوم بذلك مقامه ، وهي التي تؤدي ما كان زوجها مسؤولا عنه من واجبات ... وكان الآخر شابا في مقتبل العمر ، لقيه « سيمن » أول ما لقيه على خط السكة الحديدية حين جمعتهما المهنة المشتركة فألقى «سيمن» على الشاب نظرة ثم انحنى له وحياه فرد الآخر تحيته عليه ثم استدار يخب السير في طريقه

والتقت زوجاهما بعد ذلك فكانت «إرينا سيمن» تبتدر صاحبتها بالتحية، وكانت الأخرى ترد عليها ثم تنصرف إلى ما كانت فيه ... وقد صادف «سيمن» زوج صاحبه مرة فسألها قائلا :

— ما بال زوجك يا سيدتي طويل السكوت ، لا يتكلم إلا لماما ؟

فنظرت إليه الشابة بادىء الأمر ثم أجابته قائلة :

— وماذا تريده أن يتحدث إليك ؟ إن لكل امرىء شغله الشاغل ... هلا انصرفت إلى ما أنت فيه عروساً ؟

ولكن ما أن تمضي على ذلك شهر أو لواذ شهر حتى عرفا جلة من الأصدقاء هناك ... فكان «سيمن» إذا ضمته على الرصيف جلسة و«فاسيلي» تبادل وإياه الحديث عن سير حياتيهما التي يحيان وأزجى فراغه وصاحبه بالتدخين ، وكان «فاسيلي» ساكتاً أغلب وقته يستمع لأحاديث « سيمن » تارة عن قريته التي نشأ فيها ، وتارة عن أخبار الحملة التي شهد ، ثم تنتهي الجلسة بأن يختم « سيمن » كلامه قائلا :

— إنها ليست بالمتاعب القليلة تلك التي قاسيتها طوال حياتي ... إن الله لم يجعلني ذا حظ سعيد ، ومهما يكن من شيء فانه قسم لي هذا يا أخي ... ثم ينظف « فاسيلي » غليونه من الرماد بدقة على القضبان الحديدية وينهض وهو يقول :

— كلا إنها ليست « قسمة » المرء التي تجلب له « التعاسة » إنما هم « الناس ! » فليس مثل الناس وحوش ! إن الذئب لا تأكل الذئاب ، ولكن الانسان يفترس أخاه الانسان وهو على قيد الحياة !

— كلا يا صديقي فالذئاب يأكل بعضها بعضاً ، ليس إلى إنكارك هذا من سبيل !

— هكذا خطرت لي الكلمة فقلتها ... إنهم جميعاً سواء ، فليس ثمة مخلوق أقسى من مخلوق ! ولكن لو لا أن كان في الانسان «الشر» و«الطمع» لاستطاع أن يعيش ... إن كل فرد يتحين بك

(١) المصامة : الحدود المعينة التي لا يجوز تخطيها إلى غيرها

الفرصة لينقض عليك وأنت ما تزال حيًّا فيختطف لقمتك من فمك إليه !

— لست أدرى ، يا أخى ، ربما كان الأمر على ما تقول ... ولكن إذا كان هـذا حقًّا فتلك « قسمة الله ! »

— فإن صح ما ذهبت إليه فليس لدى أحدنا ما يقول للآخر ... إذا ياهذا لو عزونا كل ظلامة إلى الله وا كتفينا بالصبر على مضض العيش فما نحن بشر ، بل أنعام ... هذا ما أرى !

ثم يستدير ليمضى دون أن يسلم على رفيقه ، فيناديه « سيمن » ويعتب عليه لهذا التهجم ، ولكن « ڤاسيلى » يجد فى السير إلى أن تنقطع عن العين رؤيته فى المنعطف فيعود « سيمن » إلى زوجه ويخبرها بأن جارها هذا لايعدو كونه وحشاً فظاً !!

على أن هذا الحديث لم يكن ليجر إلى المشادة فسرعان مايعود الاثنان إلى صفائهما ويجلسان حيث كانا من قبل ويبحثان ما كانا يبحثان فيه فترى « ڤاسيلى » يقول :

— حسن يا أخى ، فلولا هؤلاء الناس ما كنا نأوي إلي هذه المسا كن التى نتجزفيها واجياتنا ...

— وما اعتراضك على هذه الدور ؟ إنها ليست بالرديئة ... إنك تستطيع أن تعيش فيها

— نعم تستطيع أن تعيش فيها ، نعم ! ذلك رأيك أنت أيها الشيخ ... الشر ! ولكن خبرنى بربك عن نوع هذه العيشة التى يعيش الفقراء سواء فى دور الحراسة هذه أو فى أى ملجأ آخر ... حدثنى عنها كيف تكون ؟ إن « مصاصى الدماء » سيأ كلونك وأنت ما تزال على قيد الحيـاة ! سيستنفدون آخر قطرة من دمك فاذا لم تعد صالحاً

لهم رموك كما ترى فضلات الذبائح للخنازير ! ألا تحدثنى عن أجرك ؟ إنك لتتناول اثنى عشر روبلاً فيما أظن . وأما أنا فأزيد عليك بروبل ونصف روبل فكيف كان هذا ؟ فى حين أن الشركة قد فرضت للواحد منا خمسة عشر روبلا إلى جرايات الوقود والاضاءة ؟ كيف جعلت اثنى عشر روبلا لك وثلاثة عشر روبلاً ونصف روبل لي ؟ من رتب هذا المرتب ؟ أجبنى على هذا ثم قل إن الواحد منا يستطيع أن يعيش ! إنك تفهم هذا على أنه حســاب روبلات زهيدة ! ولكن الأمر ليس كما تظن ... فلقد كنت بالمحطة فى الشهر الماضى حين مر « المدير » تحفه ضروب التجلة والاحترام ، وكان را كباً سيارة خاصة فنزل منها ووقف على الرصيف ... دعنى ... لن أبقى هنا أبداً سأهيم على وجهى :...

— إلى أين يا أخى « ستيفانيش » ؟ إن لك هنا سكناً يقيك البرد ، وإن لك قطعة أرض وزوجاً تقوم بخدمتك !

— آه ! قطعة أرض ... أنك لا تبصر غيرها ! ولكن ما الذى أفدته منها ؟ إنها خلاء حتى من الشوك ! لقد زرعتها في الربيع الماضى بشىء من الكرنب أفتدرى ماذا قال اللاحظ ؟ لقد جاء سكران يعربد :

— أى شىء فعلت ؟ هل استأذنت أحداً ؟ هل سمح لك به ؟ لا يجوز أن يبقى هذا ، ولا أثر منه بسيط ! أتدرى أنه كان يعنى نفسه أن أنفحه بضعة روبلات ... ثلاثة جنيهات ... لا بأس بها ! ثم قال « ڤاسيلى » بعد أن دخن فى غليونه :

— ولولا أن تريثت ، وتحملت ، لكنت بطشت به ...

— عجباً يا أخى ... اسمح لى أن أقول إنك رجل حديد الطبع ، سريع التأثر !

— كلا، لست كما تصف ، بل إنى أتأمل الحقيقة ثم أجهر بها .. وعلى كل فسينال اللاحظ جزاءه الذي يستحق ... سأرفع شكواى إلى الرئيس ... ثم كان الأمر كما قال .. إذ رفع شكواه إلى الرئيس .

... وجاء « الرئيس » لتفتيش الخط ، فقد كان من المنتظر أن يطرأ عليهم أحد من « بطرسبورج » بعد ثلاثة أيام ، ففحص الخط لاكمال نواقصه قبل وصول ذلك الطارئ .. لقد سويت الطريق ، وأصلحت المسامير ، والعوارض واختبرت العقد بالمطارق وصبغت الأعمدة ، ونثرت الرمال الصفراء فى مفارق الطرق ... وبعثت الحارسة العجوز بزوجها الهرم ذلك الأسبوع ليجتث الأعشاب !

أما « سيمن » فقد أجهد نفسه طوال ذلك الأسبوع حتى استوى له كل شيء على ما يرام ... لقد رفا ثوبه وغسله ، ولمع طاولته المدنية « بغبار الطابوق » حتى بدت صقيلة متوهجة ، وكذلك كان أمر « فاسيلى » الذى جد فى عمله أى جد !

... وصل « الرئيس » إلى المحطة فى مركبته الخاصة ... واندفع إلى مكان « سيمن » ، فقام إليه هذا لحياه تحية عسكرية !! . لقد كان كل شيء على ما يرام

— كم مضى عليك منذ مجيئك ؟

— كان مجيئى يا مولاى فى مايو الماضى .

— حسن ... أشكرك ... من هو صاحب الرقم ١٦٤ ؟

فأجابه اللاحظ الذي كان بصحبته :

— « فاسيلى سبيريدونوف »

— سبيريدونوف.. سبيريدونوف .. آه، أهو ذلك الفتى الذى عوقب فى العام المنصرم ؟

— نعم .. إنه هو

— حسن سنرى ، فلنمض ..

فسحب الرجال العربة وبدأت تسير ..

نظر « سيمن » إليهم لحظة ثم قال :

— لا بد أن يكون لهم شأن مع جارنا

وبعد ساعتين — انصرف فيهما « سيمن » إلى عمله — أبصر شخصاً قادماً من منعطف الطريق سائراً حذاء الخط ، وكأنه يحمل شيئاً أبيض فوق رأسه .. وتطلع « سيمن » وأطال نظره .. فاذا به يرى « فاسيلى » ، لقد كان ممسكا بعصا فى يده ، وعلى عاتقه حزمة بيضاء ، وكان وجهه ملففاً بمنديل

— إلى أين أيها الجار ؟

فاقترب « فاسيلى » ، وكان منظره غريباً ، ووجهه مثيراً للدهشة ، بعينيه الواسعتين الجاحظتين وحاول أن يتكلم فانفجر قائلاً :

— إنى ذاهب إلى « موسكو » إلى حيث « اللجنة »

— إلى اللجنة ؟ أكذلك ؟ .. لترفع شكواك على ما أظن ؟ ! لا يا أخى .. تناس ذلك .. أسقطه من بالك

— لا ... لن يكون ذلك ! يستحيل . انظر لقد صفعنى على وجهى فأدماه ! لن أنسى هذا

ما حييت ولن أدع الأمر يمر بسلام

وأخذ « سيمن » ذراع صديقه بين يديه ثم قال :

— لا بأس يا أخى ... لا بأس ؛ إسمح لى أن أقول لك إنك لن تصلح شيئاً مطلقاً

— لن أصْلِحَ شيئاً ، نعم أنا عالم بهذا ، لقد صح قولك عن « قسمة الله » ! لن أصلح شيئاً من أجل نفسى .. ولـكن علينا أن نتمسك « بالحق » أيها الصديق

— أرجوك حدثنى كيف تم هذا ؟

— اسمع ... لقد فَحصَ كلَّ شيء ، نزل من المركبة ودخل الدار وكنت عارفاً بعنـايته بالتدقيق والفحص فهيأت كل شيء ، وأعددته إعداداً حسناً ، وجعلته على خير ما يكون .. وهم بالخروج لولا أنى رفعت إليه ظلامتى ، فصرخ قائلاً :

— هذا تفتيش إدارى ، لا يجوز لك عرض شكواك الحقيرة هذه عليه ، هذا إلى أن هذه الأرض التى زرعت أرضٌ أميرية لاحق لك بأن تملأها قذارة بكرنبك ذاك ... ولم أستطع أن أقول شيئاً أجابهه به بعد هذا ... ثم ... ثم أهوى على وجهى بضربته التى ترى آثارها ! ولبثتُ فى مكانى كأن ذلك لى هو حُكمُ النصفة ، وقرار « العدل » ... وانصرفوا عنى ذاهبين ! وغسلت وجهى وفـكرت فيما عسانى أقوله لزوجى !... وانصرف « ڤاسيلى » وهو يقول :

— أترانى سأدرك العدل الذى أريد ؟!

— وستذهب ماشياً ؟

— سأسعى أن أسافر فى قطار البضاعة ، وسأكون فى موسكو غداً

ثم افترقا ...

... طال ارتقاب زوج « ڤاسيلى » عودة زوجها. إنها الآن هى التى تقوم بأعماله المسؤول عنها ليلَ نهار ؛ حتى مرَّ فى اليوم الثالث مفتش من مفتشى القطار وكانت المحطة آنئذاك مزدحمة ، فهمنا قاطرة وهناك عربة شحن ، وبقربها عربتان أخريان من عربات الدرجة الأولى . وقد شغل كلُّ هذا الزحام المفتشَ عن أن يتحرى أو يفتش ... غير أن « ڤاسيلى » مازال غائباً للآن ... وفى اليوم الرابع لقى « سيمن » زوجة جاره فى بعض الطريق — وكانت محمرة العينين ، بادية التعب — فسألها عن زوجها : هل عاد ؟ فأشارت إليه بالنفى ولم تحر جواباً وانصرفت إلى سبيلها

* * *

كان سيمن حذق فى صغره كيفية صنع المزامير من غصون الصفصاف فـكان يقتطع لباب الشجر الطريّ ويجوّفها ويثقبها من أماكن خاصة ، ثم يبرى لها « مكان الفم » فاذا تلك العصاة قد استوت له آلة يستطيع أن يوقع عليها ما شاء من ضروب الأنغام ! وكان يَشْتَغل أوقات فراغه فى صنع أمثال هذه المزامير ويبعث بها إلى القرية مع حارس من حراس قطار الشحن — له به معرفة سابقة — ويقبض « كوبكين » عن كل واحد من تلك المزامير

وكان قد مضى على مرور « المفتش » ثلاثة أيام حين ترك « سيمن » مهمة التلويح لقطار الساعة السادسة إلى زوجه ومضى إلى الغابة يقتطع بعض أخشاب الصفصاف — بعد أن خبر الخط بنفسه ليتأكد من سلامته

وكانت خيرة عيدان الصفصاف تنبت حول

مستتر في جوف الغابة ... فقصد « سيمن » إلى ذلك المكان واحتطب منه كفايته ثم تأهب للرجوع

كانت الشمس قد تضيفت للغروب ، وكان يخيم على المكان سكون رهيب لا يسمع من خلاله غير زفزفة الريح ، وحفيف الغصون ، وخشخشة[1] الأوراق الجافة المنتثرة على أرض الغابة . . . وسار « سيمن » حتى قارب خط سكة الحديد فخيل إليه أنه يسمع طرقاً على معدن، فخب السيرليرى ما هذا. إن الخط في هذه المنطقة لا يحتاج إلى إصلاح فما تعليل هذا الطرق ؟

وخرج من الغابة فرأى على « سدة القطار » رجلا قد جلس القرفصاء وكأنه مشغول بشيء بين يديه ، فدنا منه « سيمن » في حذر ، وكان يظن أنه رجل جاء لسرقة بعض صواميل الخط ! ثم أنعم فيه النظر — وكان الشخص قد نهض — فرأى مخلاً أحمر من تحت الخط الحديدي لينحرف به عن اتجاهه . . لقد حاول « سيمن » أن يصرخ به ، ولكن كيف ؟ إنه .. « فاسيلي » فانقض عليه بسرعة عجيبة ، غير أن « فاسيلي » كان قد طفر إلى الجانب الثاني من السد ، حاملا إزميله معه

— فاسيلي ستيفنيش — أيها الأخ — أيها الصديق . عد إلى . هات أزميلك لنعيد الخط إلى ما كان . لن يعلم بهذا أحد ؛ عد . سارع وأنقذ « روحك » من اقتراف الاثم .

ولكن فاسيلي لم يعد بل أوغل في الغابة هرباً !

وقف « سيمن » حيال الخط المقصومة عراه — تاركاً عيدانه تنتثر ... إن القطار الآتي قطار ركاب لاشحن ! وليس في استطاعته إيقافه إذ ليس لديه علم الخطر الأحمر ، وليس في مقدوره أن يعيد الخط بيديه المجردتين إلى وضعه السابق . وإذاً فعليه أن يركض إلى مكان قريب . إلى داره ليحضر الأدوات . ومنك يا إلهي النجدة . .

وانطلق « سيمن » نحو داره بسرعة فائقة وابتعد عن الغابة . غير أنه ما يزال بينه وبين داره نحو ميلين بالتمام !

إنها الساعة السادسة الآن ، وسيكون القطار هنا بعد دقيقتين . أيها الاله الكريم أنقذ الأرواح البريئة . لقد ارتسم أمام ناظرى « سيمن » المنظر بكامله ، فهذه القاطرة تتقدم عجلاتها الأمامية إلى مكان الخطر ثم تتبعها العجلات الأخرى ! يا الهول ! هنالك موضع الخطر ومن تحته انحدار خمس وعشرين قدماً — ارتفاع السد ! تلك جموع الأطفال والنساء الحاشدة في عربات الدرجة الثالثة وهم جميعاً ساهون لا يتوقعون حدوث الكارثة ولا يدرون عنها شيئاً كلا ... ليس في الوقت سعة للركض إلى الدار ، فليعد أدراجه إذن ...

استدار « سيمن » راكضاً من حيث أتى وهو لا يدرى ما يفعل ، مضاعفاً سرعته في الركض ، غير مهتد إلى حل ، جاهلا نهاية هذه المشكلة !

عاد إلى حيث كان أصاب الخط التخريب ، إن عصيه كانت مكومة هناك ، فوقف لحظة ، ثم أخذ إحداها ، وابتعد راكضاً — لقد وصل إلى أذنيه صفير القطار البعيد ، وها هى ذى القضبان بدأت تهتز وكانت قواه قد خارت ولم يعد باستطاعته أن يواصل الركض . إن بينه وبين مواطن الخطر الآن قرابة مائتي ياردة ، لقد خيل له أنه توصل إلى حل معقول .

(١) صوت حركة القرطاس والثوب الجديد أو الدرع أو ما أشبه ذلك، وهي من الكلمات الدارجة التي تستعملها (العامة) في العراق بهذا المعنى .

فرفع قبضته واستخرج منها منديلا قطنياً ثم سحب سكينه وحز ذراعه قائلا :

— باركني يا إلهي !

فتدفق الدم غزيراً قانياً حاراً ، فبلل منه منديله ثم نشره وعلقه على العصا الصغيرة ، ثم أمسك بعلمه الأحمر هذا ينتظر القطار ، ووقف هناك يلوح بعلمه . إنه ليتراءى له أن سائق القطار لم يره فهو يمضي مسرعاً حتى يقارب الموضع المشؤوم فيتردى

كان دمه ما يزال يتدفق بغزارة ، فألصق جرحه بجسده ضاغطاً عليه ليوقف تدفق الدم ، ولكن ذلك لم يفده. لقد كان جرحاً رغيباً [1] .. إنه ليشعر بالدوار يستولي عليه ، والضباب يتراقص أمام عينيه . ثم عم الظلام فهو لا يرى شيئاً ، ولكنه يسمع مثل دقات الجرس . إن شيئاً واحداً يشغله : خوف ترنحه قبل مرور القطار ، فلا يراه السائق أو يشعر به ! أدركني يا إلهي برحمتك ... وأظلمت عيناه ، وتبلد ذهنه ، فهو لا يعي شيئاً مما حوله ... ثم سقط العلم من يده ! غير أن علمه الدامي لم يسقط ... بل أخذته منه يد شخص (!) لا يدرى من هو ، وظلت تلوح به إلى موعد مرور القطار !

رأى هذا المشهد سائق القطار فأوقف قاطرته فنزل الركاب يستطلعون طلع الأمر ، متجمهرين ليروا ... ماذا ؟ رجل فاقد وعيه قد غطاه الدم ، وبقربه آخر ممسكا بعلم أحمر مدمى مربوط بعصا صغيرة ...

ونظر « فاسيلي » إلى ما حوله ، ثم لوى رأسه وهو يقول :

« اقبضوا علي ... فقد كنت سبب ما ترون ! »

« بغداد » فخري شهاب السعيدي

(١) الجرح الرغيب العميق

جزاء الفضيلة

للكاتب التركي رشاد نوري

بقلم الأديب السيد بشير الشريقي

(بهو دار البلدية في مركز إحدى المتصرفيات وقد غص بالعلماء والشيوخ وكبار الموظفين وأعيان المدينة)

(يوالي المتصرف قرع الجرس وهو في كرسي الرياسة حتى إذا سكتت الضوضاء وأنصت الحاضرون أنشأ يقول :

افتتحت الجلسة يا سادة. إنكم تعرفون الغاية من هذا الاجتماع فلا أتعب حضراتكم بمقدمات لا لزوم لها بل أرى أن أدخل في الموضوع رأساً

لقد انتقل إلى رحمة الله منذ أربعة أشهر الحاج (بهاء الدين أفندي) المعروف (بيوزجي زاده) وكان من تجار مدينتنا الموثوق بهم ومن كرام أعيانها وهاذا هو يدل على مبلغ سخائه بتخصيصه خمسمائة ليرة من كامل ثروته البالغة أربعمائة ألف ليرة ، لتنفق في وجوه البر والاحسان وإني أقرأ عليكم الفقرة الخاصة بذلك من وصيته

(المتصرف يخرج غلافاً من بين الأوراق المكدسة أمامه ويصلح نظارتيه ويقرأ)

بعد أن تقسم ثروتي بين الورثة كما هو موضح في أعلاه يصرف المبلغ الباقي وقدره خمسمائة ليرة في الأعمال الخيرية على الوجه الآتي :

(١) تبتاع ستارة ثمينة بمبلغ خمس عشرة ليرة يجلل بها باب (مسجد جلي) على أن يطرز اسمي في منتصفها بخيوط صفراء

(٢) تبتاع سبعة أباريق من النحاس الأصفر ينقش عليها اسمي وتوضع في سقاية (حسن الصغير)

المتصرف — حيث أن هذا القسم من الوصية طويل ولا علاقة له بموضوعنا الذي اجتمعنا من أجله فانكم توافقون على أن نصرف النظر عنه ونتنقل إلى الفقرة الخاصة بنا

(المتصرف يقرأ) :

أرينا الاختبار أن رجال النزاهة والاستقامة يقل عددهم يوماً بعد يوم ، وهذا مما يؤسف له حقاً فلعلاج هذه الظاهرة الخطرة على قدر المستطاع ، ولتشجيع أهل العفة وحث الناس على الاقتداء بهم فاني أوصى أن يعطي مبلغ الثلثي ليرة الباقي من الخمسمائة ليرة إلى أعف شخص في مدينتنا على أن يشهد الجميع بعفته واستقامته وأن تقرر ذلك هيئة مؤلفة من وجوه المدينة وأعيانها ، وعلى من سينال الجائزة أن يتعهد مع القسم بإيفاء الشروط الآتية :

أولاً : أن يرشد الناس إلى الخير في كل فرصة ومناسبة ويعلمهم أن النزاهة والاستقامة تكسب صاحبها الفوز والنجاح في الدارين ويضرب المثل على ذلك بهذه الجائزة

ثانياً — أن يتلو سورة (يس) الشريفة في كل مساء خميس

ثالثاً : أن يقرأ (المولد الشريف) في السنة مرتين

رابعاً : أن يزور قبري مرة في الأسبوع ...

(يلقي المتصرف الأوراق من يده) — لا أرى من

(*) نقل لنا معانيها من التركية الأستاذ عمر فائق مدير المدرسة الثانوية في أربد فوضعتها في هذه الصيغة العربية

حاجة لمتابعة هذه الشروط التي تبلغ واحداً وسبعين شرطا لأن وظيفتنا الأصلية هي انتخاب من يتفق الجميع على أنه أنزه وأعف شخص في البلد . ولتسهيل مهمة هيئتكم المحترمة قد نظمت بالاشتراك مع سعادة الباشا رئيس البلدية وحضرة الأفندي رئيس المحكمة قائمة بأسماء المرشحين ؛ ولكن مما يؤسف له حقا أن قائمتنا هذه ليست غنية بالأسماء فنحن بعد أن أجرينا تحقيقا دقيقا مع هيئة الشيوخ لم نجد سوى خمسة أشخاص قد توفرت فيهم الشروط اللازمة، ولكي نبرئ ذمتنا أمام الله فقد علقنا أسماء هؤلاء الأشخاص على أبواب المتصرفية والبلدية والمحكمة ورجونا الشعب أن يوافينا بكل ما يعرفه عنهم

أصوات — (موافق ! نعم مافعلتم)

الرئيس — إن أول المرشحين هو السيد (حافظ رائف) أحد كتاب البلدية ، والسيد حافظ رائف يعرفه الجميع ويحبه الجميع ، إن هذا الشخص الذي أمضى ثلاثين عاما في دائرة البلدية لم يعرف عنه أنه أساء إلى أحد في يوم من الأيام

أصوات — نعم هذا صحيح

الرئيس — ولكني أستدرك فأعرض على حضراتكم بأن حافظ أفندي قد جاء قبل ساعة إلى مقام العاجز وحدثني حديثا غريبا جدا. قال لي: أنا فقير الحال وكثير العيال وإن مثل هذا المبلغ على فرض أني ظفرت به سيكون له أعظم شأن في حياتي ولكني على الرغم من ذلك أشعر بخوف غريب لا أعرف له سبباً ... أرجو إعفائي من هذه الجائزة

رئيس المحكمة — ليس من محل لمثل هذا التوهم وعلينا أن نقوم بواجبنا نحو هذا الرجل المستقيم

طبيب البلدية — (وهو في الخمسين من عمره، بدين، أشيب الشارب ، أحمر الوجه)

حضرة الرئيس ، أرجو أن يسمح لي بالكلام . إني مقتنع أنا العاجز بأن هذا الرجل قد شعر بالخطر شعوراً حقيقياً فأرى أن ينظر إلى طلبه بعين الاعتبار فيصرف النظر عن هذه الجائزة التي أراها منافية للأخلاق

أصوات عديدة — (الله الله . أسكتوه إنه يهذي)

الطبيب — ياحضرة الرئيس أرجو أن يحفظ حقي في الكلام ... أيها السادة لا فائدة من الضوضاء ... سأتكلم حتى النهاية ... إننا جميعنا نعرف من هو (بوزجي زاده) فلا حاجة بنا إلى خداع أنفسنا ليغفر الله له سيئاته

المدرس زاهد افف — (بصوت أجش)

اذكروا موتاكم بالخير

الطبيب — لقد قلنا ياسيدي . غفر الله سيئاته نعم إن (بوزجي زاده) هذا قد أراد حتى بعد وفاته أن يزعج مواطنيه ويسيء إلى الناس ... لاتصيحوا أيها السادة ... سأتم كلامي ولو انفلق الحجر ... أراكم لم تدركوا ما تنطوي عليه كلمة (شهادة الجميع) من النوايا السيئة . إنها تجعل هذا الشخص المسكين هدفا لانتقاد الألوف من أهل هذه البلدة وكل واحد منهم عالم مستقل . إن السماح لآلاف العيون أن تخترق (حريم) عائلة مستورة لهو من أفظع الجرائم . أيها السادة إذا كنتم تحترمون العفة والفضيلة حقيقة فدعوا الرجل في عزلته يعيش كزهرة متواضعة من أزهار الجبال . إنكم تعرضون هذا الشخص الذي ستجعلونه نموذجا للعفة والاستقامة للغرق في طوفان

من الحسد والترض . ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟ إنى أخشى أن تجعل الأغراض والمنافع من قطرات الندى على وجه هذا التمثال الذى انعكس عليه الضوء لطخات إجرام ، لذلك أرى أن تلغى هذه الجائزة

المدرس زاهد افف — لولا أن المجـال ضيق لأثبت لك بالدليل المنطق أن دفاعك كله مغالطة وسفسطة .

الرئيس — لنستمر فى البحث ؟ لقد صنف الـكاتب ما ورد من رسائل ، فاذا سمحتم قرأ عليكم خلاصتها .

الـكاتب — الرسالة الأولى وردت من جار لحافظ افندى يشهد له فيها أنه رجل طيب ولـكنه يذكر أن مشاجرة وقعت فى الحى الذى يقطنه رائف افف وأنه لما دعى للشهادة رفض أن يدلى بأقواله مدعياً أنه لم يشاهد شيئاً فى حين أن أشخاصاً يشهدون أنه كان حاضراً .

المدرس — إن هذا لعمر الحق ذنب عظيم . لقد كنا نعتقد فى رائف افف التقوى والصلاح فاذا به يكتم الشهادة أحياناً فأرجو أن تسجلوا عليه ذلك .

الـكاتب — الرسالة الثانية وردت من جار آخر يقول فيها إن حافظ رائف افف كتب فى العام الماضى عريضة لامرأة فقيرة مهاجرة ذكر فيها أن المرأة عليلة مريضة .

الطبيب — ما هو ذنب حافظ رائف؟ لقد قالت له المرأة إنها مريضة فكتب أنها مريضة .

المدرس — لا تقل ذلك يا حضرة الطبيب، إن وسيط الخداع خداع . أرجو تدوين ذلك .

الـكاتب — التحرير الثالث ورد من مختار الحى السابق يذكر فيه أنه منذ سنتين كانت تسكن امرأة فى الحى الذى يقيم فيه رائف افندى وأنه ثبت بالتواتر أن هذه المرأة قبلت فى منزلها رجلا غريباً عنها فوضع أهل الحى عريضة طلبوا فيها طردها من حيهم وأبى رائف أن يوقع تلك العريضة .

أصوات عديدة — لم نـكن نتوقع هذا النكر من حافظ رائف .

الطبيب — وأى منكر فى هذا ؟ لقد أحسن صنعاً ؟ ليس من شأنه أن يوقع مثل هذه العرائض .

المدرس — بل ليس أفظع من ذلك ؟ إن من يحمى الفجور هو فى الواقع مروج للفحشاء وإنكم لتعرفون ماذا يسمى من يسهل الاتصال غـير المشروع .

الطبيب — وعليه قيدوا ذلك على التعس

المدرس — كلا . . . سوف لا نلقب حافظ رائف بهذا اللقب البشع حرمة لما له من حسنات بل أرى أن يكتفى بالقول إنه سهل من بعض الوجوه إجراء فعل شنيع .

أصوات — موافق . موافق .

الـكاتب — الكتاب الرابع ورد من أحد المستأجرين يتهم فيه رائف أفندى أنه كان يكذب فى بيان بدل إيجار العقارات ليستفيد أصحابها فيدفعون ضريبة مخفضة .

الطبيب — أيها السادة أرجوكم . . . كلنا يعلم مقدار ما كان يدفعه المرحوم « بوطجى زاده » عن أملاكه ...

المدرس — (الباطل لا يقاس عليه) يا حضرة الطبيب ؟ ليدون ذلك .

المحاسب — أرجو أن تسمحوا لى بهذا الكتاب ياحضرة الرئيس لأجرى التحقيقات الأصولية حتى إذا ثبت ما جاء فيه ضمناه الخسارة من أصل الجائزة .

الكاتب — صاحب هذا الكتاب استعاض عن التوقيع بهذا الشطر (العدل يستغنى عن التوقيع) التوقيع » وهو يفشي فى كتابه بعض أسرار تتعلق بحياة رائف الخاصة .

الطبيب — لوجه الله أرى أن يطوي هذا الكتاب على الأقل، أنا لا أرى من حقنا أن نبحث فى حياته الخاصة .

المدرس — الله ! الله ! إذا نحن لم نسبر غور حياته الخاصة فكيف تثبت عندنا درجة عفته وفضيلته . استمر يا حضرة الكاتب .

الكاتب — إنى أقرأ بعض فقرات وردت فى الكتاب « تزوج رائف افندى من امرأته الأولى بعد غرام دام ستة أشهر ؟ أما امرأته الثانية التى تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى فقد كانت زوجة رجل عجوز يشغل منصب رئيس محكمة الجنايات عرفها أثناء ترددها على دار البلدية لقضاء مصالح لها ومن ذلك الحين تمكن الحب بينهما فما أن توفى زوجها حتى عقد عليها !

المدرس — يالله ! يا للعجب العجاب ، إن فى حياة هذا الرجل الذى كنا نظنه المثل الأعلى للفضيلة صفحات مات فيها الوجدان ، خداع امرأة ذات زوج ، وأين يقع ذلك ؟ على رأس العمل أثناء القيام بالوظيفة . حسن استمر أيها الكاتب .

الكاتب — منذ سبع سنين فوجئت ابنة خالة حافظ رائف افندى مختلية بضابط فى منزلها وأحبت ابنته الكبرى جابيا وفرت معه ، وحبس ابنه الصغير شهراً ونصف شهر لضربه ابن جاره وكسره سنين من أسنانه .

الطبيب — حسن ، أمسؤول هذا المسكين عن كل ذلك ؟

ابنته فرت، ابنه سجن، ابنة خالته فوجئت مع ضابط ، أما هو فما ذنبه ؟

المدرس — أرجوك ياحضرة الطبيب.. لو كان رائف أفندى رجلا فاضلا حقيقة وربى أولاده تربية دينية صالحة هل تظن أنه كان يحدث ما حدث ؟

الكاتب — صاحب الرسالة السادسة يذكر أن رائف أفندى شوهد منذ ثماني أو عشر سنوات يشرب الخمر فى أحد الأعراس .

أحد الحاضرين — يالها من فضيلة ...

الرئيس — أرجو ألا أكون متطفلا ، إذاً فالرجل يشرب الخمر أحياناً .

الكاتب — الرسالة السابعة من إمام الحى يذكر فيها أن حافظ أفطر أسبوعا فى رمضان محتجا بالمرض .

المدرس — سجلوا عليه تقصيره فى واجباته الدينية .

الكاتب — الرسالة الثامنة وردت من رجل يدعى رشدى أفندى كان أمينا على صندوق الانتخابات الأخيرة يذكر فيها أن حافظ رائف امتنع عن إعطاء صوته بدعوى أنهم لم يتركوا له حرية الانتخاب ...

الرئيس — سجلوا عليه أنه استنكف عن القيام بواجباته المدنية والسياسية .

رئيس النادى — تفضلوا وأضيفوا أنه غير مطيع للحكومة المقدسة .

مدير المدرسة — لو أضيف أيضا (أنه يحمل

أفكارا رجعية) لكان ذلك صوابا .

الكاتب — الرسالة التاسعة من مفوض الشرطة يذكر فيها أنه من ستة أشهر بينما كان أحد رجال الشرطة يسوق مومسا سكرى إلى المخفر اضطر إلى استعمال بعض الشدة معها فاعترضه رائف افف وقال له من العيب أن تسيئوا معاملة المرأة .

الرئيس — حال دون قيام الشرطى بواجبه .

الكاتب — الرسالة العاشرة وردت من أحد الراجعين وهو يذكر فيها أن رائف أفف قال له بعد أن ماطله أسبوعا : ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟ إن الرئيس لم يحضر إلى البلدية حتى يوقع على الأوراق

رئيس البلدية — ياله من مفتر ... ومن أين له الحق فى انتقاد رئيسه ؟ سجلوا ذلك

الكاتب — الرسالة الحادية عشرة تبحث فى إهمال صدر من رائف افف وذلك أن مناقصة جرت بالأمس لابتياع كمية من الكلس فتأخر رائف عن تسليم مغلف أحد المناقصين إلى اللجنة فى الوقت المعين فسبب ذلك أن خسرت البلدية مائة ليرة .

رئيس البلدية — كثيراً ما أغضيت عن ذنوب كثيرة كان يرتكبها رائف أفندى، أما الآن فقد طفح الكيل وسأعزله وبامكانه أن يستعين بالجائزة التى سينالها على معاشه فيفتح حانوتاً أو يفعل ما يشاء ذلك ما لا شأن لنا به

رئيس النادى — وعلى كل حال سيكون فى بلد آخر إذ ليس من الصواب أن يبقى هذا الرجل فى هذا البلد وهو مشكوك فى لونه السياسى

الطبيب — يصيح بأعلى صوته :

أيها السادة قليل من الشرف والايمان والوجدان يوجب الكف عن تلاوة هذه الرسائل . إن هذا الرجل فقد الثقة التى تدفع الناس إلى لقاء الناس

الرئيس — وأى محذور ترى فى استمرارنا على قراءة هذه الرسائل

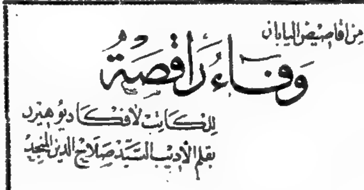
الطبيب — وأى محذور أرى ؟ إنكم إذا تابعتم قراءتها ستجدون ما يوجب سوق هذا الرجل الذى اتخذتموه مثالاً للفضيلة إلى المشنقة غداً صباحاً

المدرس — إنك لعلى باطل بيد أنى أرى أن نكتفى بما سلف ، لم تكن غايتنا محاكمة هذا الرجل بل التثبت من عفته ونزاهته (ياما فى الزوايا خبايا)

وأخيراً نشرت صحيفة رائف افف على الجميع فانكشفت فضائله .. أرجو أن يأمر حضرة الرئيس بحذف اسمه من جدول المرشحين . . . وفى الجلسة الآتية نحقق عن فضائل الباقين ...

الطبيب صائحاً — يا حضرة الأستاذ يظهر أن فضيلتكم .. قد اعتزمتم سوق أرباب العفة والنزاهة واحداً واحداً إلى المشنقة حتى لا يبقى فى المدينة غيركم

« شرق الأردن » بشير الشريقى



تعريف

« لافكاديو هيرن كاتب كبير ، ولد من أم يونانية وأب إيرلندى . طوف فى البلاد وهو فى ريعان صباه ثم قصد إلى أمريكا وعرج على اليابان حيث أصبح مواطناً تحت اسم « كوزووى ياكومو » . ألف كثيراً من الكتب التى يظهر فيها التحليل العميق والشعر السامى والفلسفة النافذة . درس الحياة الاجتماعية فى اليابان دراسة دقيقة ، بعد أن أصبح أستاذاً للأدب الانكليزى فى جامعة طوكيو . له من المؤلفات : كتاب « اليابان المجهولة » و « فى صميم الحياة اليابانية » وغيرها . وهذه قصة ذكرها عند بحثه عن نفسية اليابانيين ، أخذناها عن كتابه « اليابان المجهولة » وهى ليست بحاجة إلى تقديم ، إذ تقدم نفسها بنفسها لما فيها من الدقة فى الوصف والجمال فى المعنى والرشاقة فى الأسلوب . »

حدث من كان فى الأيام الخوالى . . أن فناناً بارعاً أراد ، وهو فى صدر شبابه ورونق يفاعته ، الطواف فى بلاده ، ليوقد حسه فتضطرم عاطفته ويفيض شعوره وتخط ريشته ما يبهر العين ويسكر النفس ويحيى الشعور . وكانت البلاد آنئذ مليئة بغابات الصنوبر ومزارع الأرز ، والحقول مغمورة بأفواف الورد والزهر ، والقرى مكتظة بالأكواخ والجواسق . وحفافى الطرقات تحمل تماثيل « الجيزو » الضاحكة لحجاج الميا كل وقصاد المعابد . . والأنهار تبسم للنواعم من الفتيات اللاتى كن يأتين ليرتمن فوق الحشيش الأخضر ويجمعن من ضفافها أعواد الزنبق ، وأنواع الزهور . . . وكل ما هنالك مغمور بالجمال والسحر ، ومفعم بالفتنة والبشر ، ومملوء بكل ما يحب ويشتهى .

وانطلق الفنان يمتع العين بالنظر ، والنفس بالتأمل ، والقلب بالنور . ويحلق فى عالم علوى يموج بالشعر والفنون . فأدركه المساء ، ذات يوم ، وهو فى واد منعزل يضل فيه السائر ويتيه العابر . فانقبض صدره واضطرب باله . وحار ، فما يدرى إلى أين يأوى وفى أى مكان يبيت . وكان ظلام السماء وأنين الصنوبر ، وسجو الليل ، كان كل ذلك يملأ جنبات الوادى رهبة وحزناً ؛ فوقف المصور يفكر ، وقد بعث هذا المنظر فى نفسه لذة وانقباضاً ولكنه انقباض وديع يرف فيما حوله ، ويدفعه لأن يقلب بصره مرة ومرة فى هذا المكان الذى لا تسمع فيه سوى زفيف الريح تبث حزنها لأفنان الصنوبر . . . وإلا زفرات الصراصير الحادة تتصعد على وتيرة واحدة . فمشى على غير هدى تائهاً بين الأشجار والأزهار ، وتنقل فى ظلال بين الحقول والبساتين ، والظلام دامس والحلك شديد . ثم هبط إلى السهل ، ومشى فى الوادى ، وصعد فى الجبل ، يفتش عن مأوى ، فما وجد المأوى ولا هدى السبيل . . .

ويئست نفسه وضاقت بالكون . . فعزم على المبيت تحت النجوم بين الأخاديد . . . ولكنه أبصر فجأة فى منبسط السفح وراء المنحدر الذى صعد فيه ، شعاعاً خفيفاً يخفق ويضطرب ، فقام يعدو . . نحوه ، فإذا هو أمام كوخ كبير .

وطرق الباب بقلب خافق ونفس قلقة . فسمع من داخل الدار صوتاً عذباً يسأل عن الطارق . فطفق الفنان يحدثه عن نفسه وكيف ضل فى الوادى وقد أقبل الليل وخيم الظلام . وطلب المبيت فى الكوخ حتى يتنفس الصبح ويظهر له الطريق . وفتح الباب . . فاذا فتاة تحمل بيدها مصباحا أضاء الكوخ . فقادته إلى غرفة نظمت تنظيما يدل على ذوق تام وفن بارع . فجلس ينظر إلى الفتاة ... فبهت لجأة ... بالحسن الساحر والسنا الفياض ! لقد كانت رقافة الاهاب ، غضة الشباب ، وكانت تميس تيهاً ودلالاً ، ويفيض جسمها إغراء وفتوناً . . آه ! إنها من بنات المدن وليست من القرويات ...

وأخذ الفنان يستمع إلى صوتها العذب المشتهى وفى عينيه وميض صبوة محرقة وظمأ قتال . قالت له بنبرة حلوة مسكرة :

— « أنا وحيدة فى هذا الوادى ... عزفت عن الناس وعزف الناس عنى . والطريق فى شعاف الجبل صعبة ملتوية ، فابق هنا ، فان ما أقدمه لك ليس بالكثير .. وما عندى شىء . ولكن سأعطيك سريرى ، وسأقدم لك قليلا من الحلوى .. »

وقبل الفنان أن يبيت وقد هفا قلبه إلى الحسناء ورقص من أجلها طرباً . وقامت الفتاة فأشعلت النار .. ثم قدمت للضيف ما يأكل منه

على أن نظام الدار ، ونظافة الأثاث ، وتنسق الترتيب وأناقة الطراز ، بهر نفسه وأعجبها . وخصوصاً هذه الزينة التى تجمل المكان ، والتى صنعت من الورق الأبيض الذى صور عليه أزاهير الربيع ، وأمطار الصيف ، ونجوم الخريف ، وظهر فيه سيف البحار ومياه الغدران وعواصف الشتاء مما يطرب الشاعر ويهز الفنان . وكان فى زاوية الغرفة مذبح صغير يتصاعد منه رائحة البخور المسك وفى داخله منضدة فرشت بالورود الوحشية . تحترق أمامها شموع كثيرة ببطء ، فتضىء صورة « كانون » إلهة الرحمة والغفران .

وأكل الفنان مما قدم له مضطرباً حائراً لكثرة ما علق ببصره فى الفتاة ، فنسى الأكل فلما فرغ منه قالت له :

— هذا هو سريرى ياسيدى أقدمه لك .. مع كلة من الورق الأبيض . وسأمضى إلى أعمالى فى الدار فنم ياسيدى بأمان .

ومانع الضيف . . . ولكنها طلبت منه بلهجة الأخت ، وبدلال الغوانى أن يستريح من غبار السفر ، ثم تراجعت ، ووضعت أمام سريره حاجزاً من الورق ، قسم الغرفة إلى قسمين ، وتمنت له نوماً هادئاً ومساء حلواً وتركته وعلى ثغرها ابتسامة كلها فتون وإغراء .

* * *

وما كاد الفنان يغمض أجفانه ، حتى غاب فى نوم عميق ... ولكنه مضطرب متقطع . وفجأة سمع صوتاً غريباً أيقظه . . ثم وقع أقدام . . لكن ما هذه الأقدام .. إنه مشى لا خفة فيه ولا هدوء .. إنه وقع قوى . . فيه حركة وفيه حياة . . قال فى نفسه : ترى أقدام من هذه ؟ ... ليت شعرى ألصوص يطوفون حول البيت ويرتمون فى جنباته، أم قطاع طريق .. ؟ ماذا ؟ أيريدون المتاع أم اختطاف الفتاة . . ! ؟ ترى أتستسلم لهم . . ؟ أتذهب معهم . . ؟ أواه ! يا لجالها الباهر . . ! ومالى

لا أقوم . . إن الحركة لتزداد . ومد الفنان رأسه من الكلة ولكنه لم يستطع رؤية شيء ، فالحاجز الذى وضمته الفتاة يحول دونه ودون أولئك ! رباه ! ماذا أفعل ؟ أأصرخ ؟ ولكن ماذا يفيد الصراخ . . ؟ ومن يجيبه ؟ الهواء التائه ، أم الليل الوسنان ؟ . . إذن لأقدم ، فلا بد مما ليس منه بد . . وارتدى ثوبه وتقدم . . تقدم . . وأخذ ينظر إلى ما يجرى وراء الحاجز . فوقف مبهوتاً لا يتكلم ولا يتحرك . . .

لقد رأي الصبية الحسناء . . عارية الساقين . . ممتلئة الفخذين . . بارزة الثديين . . قد زينت نحرها باللؤلؤ ، وصدرها بالدر ، وبثرت الحلى هنا وهناك . . لقد رآها ترقص أمام المذبح بثوب قصير فاتن . . لا تجده عند الراقصات المحترفات . وقد زين بالحلى وضمخ بالعطر . . وهى تبكى . وكان جمالها سحريا كأنما مسحت عليه يد الملائكة وأفاضت عليه فتنة من فنها وجمالا من جمالها . . يا للحسن الباهر ! والأنوثة الرقيقة ! والرقص العبقرى . . . ! لقد وقف دهشا . وخيل إليه أنها إحدى الحور العين . وغاب عن نفسه . . وحلق فى عالم بعيد . . بعيد جداً . فنبهه شذى البخور المحترق ، وهذا الاله الذى يطل من فوق المذبح وينظر بعينين عميقتين . فأراد أن يعود إلى سريره . . لأن ما يفعله منقصة وعيب . . ولكن روعة المشهد ، وفتنة المرأة ، وسحر العرى . . كل ذلك سيطر عليه فأوقفه . . ودفعه إلى أن يتأمل . . ويتأمل . .

يا للساقين ! ليت شعرى أأعمدة من مرمر أم قطع من رخام . .

وهذان الثديان ! لم يرقصان . . ؟ يا رحمتا لها . . أيبكيان بعد الحبيب !

وهذا الصدر ! أواه . . . هنا يلتمس السحر ويطلب النعيم . . .

والفم الرقيق . . . والعيون . . . والخدود . . . هنا تتيه الشفاه الظمأى تلتمس القبلات . .

تباركت يا إلهى ! تباركت يا بوذا ! وقفزت الصبيـة قفزة إلى الأعلى . . . ثم هبطت ، ووقفت أمام المذبح تبكى . . ثم قامت تنزع ثوبها . . ولكنها . . تراجعت . . تراجعت إلى الوراء . . عندما رأت عيناً تحدق فيها .

واضطرب الفنـان وتلعثم فلا يدرى ماذا يقول . . وبأى شيء يعتذر فاقتربت منه حتى تبينته . . ووقفا وقد علق بصر كل منهما بالثانى وتشجع . . وقال :

— من أنت إذن يا فتاة ! عفواً . . . عفواً . . . إغفرى لى زلتى . . أأنت طيف من أطياف الجنان ؟ أم ربة من الربات الحسان . . ؟ ومن أين تعلمت هذا الرقص . ؟ أإنسية أنت أم من الجان . ؟ أنا لم أر بين راقصاتنا من يرقص مثلك يا فتاة ! لا تغضبى . . . عفواً . . عفواً . . لقد أخطأت . .

قالت له بصوت ناعم ولهجة حزينة . .

— كلا . . لم أغضب يا سيدى ، ولكنى أخاف أن تحسبنى من بنات الهوى أو أن بى مساً من الشيطان . . إصغ إلىّ يا سيدى ، فها هى ذى قصتى سأنفضها بين يديك . .

وأخذت الفتاة تقول إنها إحدى بنـات الأشراف ممن باركهن الاله وقربهن الميكادو . .

ولكنها كانت فقيرة بائسة .. فأحبها شاب لا يقل عنها في الشرف والجمال ، وإن زاد عنها في الغناء والثروة . وفرّا ذات ليلة من أهليهما .. ليعيشا معاً ، وكان معهما من المال مايكفيهما . فذهب بها إلى واد منعزل ، بجانب إحدى الغابات المذارى ، فبنى هذه الدار وعاش يعبدها فيها ... ويرى أنها ملك أرسله الاله إليـه ... لقد عاشا سنوات وسنوات ، ملئا فيها الحب والسعادة والآمال .. وكان يحب أن يراها ترقص عارية كل ليلة على أنغام الناى الحزينة .. فكانت ترقص وتبدع .. فيمضى إلى أقدامها الصغيرة يقبلها .. ويسكب دموعه فوقها . ولكنه مرض .. مرض ذات مرة في الشتاء ... فعنيت به ، ولـكن واأسفاه ، أخذه الموت .. ومضى

لشد ما أحبته ! لقد وهبت له قلبها ومالها وجسدها ...

كم مرة ... كانت تنحنى على أذنيه تسكب فيهما أناشيد الخلود !

كم مرة ... كانت تحدثه عن أقاصيص الحب وأحلام الهوى !

كم مرة . . . كانت تتعرى في الليل . . . ثم ترقص رقصات فاتنات . . . والبرد يلذع جسمها العارى وأقدامها الصغيرة

لقد توسلت كثيراً إلى بوذا ... وبكت كثيراً أمامه ... ولكنه ... واأسفاه... لم يسمع لها...أبدا

منذ ذلك الحين ... عاشت وحيدة في هذه الدار تحفظ الذكرى التى كانت تملأ قلبها ونفسها . فكانت تصلى لروحه كل يوم أمام المذبح ... وتبكى ... فاذا ما سجا الليل ... ونامت العيون ... وسكنت النفوس ، قامت فتعرت ، ولبست ملابس الرقص القديمة ... ورقصت كثيراً وهى تسكب الدمع . حتى ينهكها الرقص ويمل البكاء ...

وأطرقت قليلاً تجفف عبراتها المنسكبة ثم قالت

— حسبت أنك نائم ، فقمت لأرضى روح زوجى ... ولكنك ... رأيتنى ... نعم

أنا أرقص كل ليلة ... وهو ينظر إلىّ ... هذا دأبى حتى أموت . قم ونم أيها الزائر . هذه قصتى قصصتها بين يديك ...

وبكى الزائر رحمة لها .. ثم قام إلى سريره يفكر ويسمع ...

ونام نوماً هادئاً .. لم يستيقظ منه إلا وقد متع النهار . وقام يريد الذهاب ، فقدم لها قليلا من الدراهم فضحكت ... وقالت له :

— لا أستحق ذلك يا سيدى ... لقد قمت بواجبى .. !

ومضى الفنان ، يفـكر فيما رأى وسمع ... لقد أسف على شئ واحد ... إنهـا تجهل اسمه ، ولكنه قال لنفسه : ما أنا إلا فنان حقير...

***

وتقلبت الأيام ، وتغير كل شئ في هذا الكون... وشاخ الفنان ، ولكنه كسب شهرة ما كسبها أحد قبله ، وسار ذكره في البلاد ، وجاءت إليه الثروة تجر أذيالها وقرّبه الملوك والأمراء ... وعظمته الخاصة والعامة ، وعاش تحفه السعادة ، ويرفرف فوقه الهناء ...!

وكان له قصر يقطنه مع تلاميذه ممن أتوا من أقصى بلاده وأدناها ليتلقوا الفن عنه . وكان كل شيء هادئاً طبيعياً في هذا القصر . إلا تلك العجوز الشمطاء التى كانت تأتى كل يوم ، فتسأل عن الفنان

وتلح فى السؤال . ثم تطلب مقابلته وتلحف فى الطلب فإذا سؤلت عن طلبها قالت : لى معه شأن .. فكانوا يردونها ظانين أنها فقيرة متسولة . فتعود فى اليوم الثانى تسأل عنه وتطلب رؤيته ! فإذا ما ردت عادت فى اليوم الثالث ، تحمل كعادتها صرة صغيرة تحت إبطها .

وضجر التلاميذ من العجوز وضاقوا بها ذرعاً فأخبروا شيخهم بخبرها . فغضب وذكر أيام بؤسه وعنته وقال لهم : إذا أتت فى الغد فأدخلوها .

وجاءت العجوز فى اليوم الثانى تدب دبيباً فأدخلت إلى قاعة واسعة . وهناك جلست تنشر أثواباً غريبة نادرة من الحرير ، عليها وشى من الذهب . قد زينت بأنواع الحلى واليواقيت . فأخذ الفنان يحدق .. ثم أغرق فى ذهول عميق . ذكرى قديمة . قديمة جداً .. تأتيه ، إنها مضطربة حائرة . غامضة . . ها هى ذى تظهر شيئاً فشيئاً .. إنه يرى الجبل والوادى والكوخ المنفرد ، والراقصة فى جوف الليل ، أمام الشموع المحترقة ، بين الورود والأزاهير ..

ونظر إليها وقال :

— عفواً ياسيدتى .. سأكلمك . . ولكنك هل تذكرين أيامك الخوالى قبل أربعين عاماً . . . خمسين عاماً . . . هل تذكرين المأوى الذى آويتنى فيه وقصة حياتك تحدثيننى عنها بين الشموع . آه . أنا لم أنس شيئاً !

وأغرق الفنان فى صمت عميق . أما العجوز فبهتت ولم تدرما يقول . وأخذت تفكر وترجع إلى الوراء . إلى الماضى البعيد . . . إنها تراه . . . يطرق الباب ، ثم يدخل ... ثم ينام ... وتنتفض فجأة : عين تحدق بها وترى جسمها العارى ، فى هدأة الليل . !

يا إلهى ! شكراً لك .. لقد تدت خطواتى إلى هذا السيد الرحيم ..

وطفقت العجوز تحدث الفنان عما أصابها قالت له :

— « وقست علىّ الأيام ، وأصبحت ما أطيق العيش هناك ... فتركت تلك الدار ورجعت عجوزاً فقيرة إلى المدينة التى تركتها وأنا فتاة حلوة الشباب غضة الصبا . شد ما تتغير الأشياء ! إنه ليصعب على المرء أن يترك المكان الذى ذاق فيه حلاوة العيش ولذة الحب .. بين ألافه وأحبابه ! ولكن كل شىء هيّن ياسيدى أمام هذه الشيخوخة القاهرة .. لقد منعتنى عن الرقص إذا ما جاء الليل أمام المذبح على نور الشموع وفاء لزوجى . أواه ! .. يا للذة المحرقة والألم الممض ! وأصبحت لا أستطيع الحركة أو القيام . إن روح زوجى ترفرف كل ليلة تريد رؤيتى راقصة ! ولكن ... واأسفاه ! لقد جئت إليك لتخط ريشتك صورتى . . صورتى إذ كنت فتاة ، أرقص فى جوف الليل أمام المذبح ، وأنا عارية الجسم ، لأضمها أمام عينى الاله ، فإذا ما جاءت روح رفيقى ترفرف رأت الصورة فرضيت عنى !

وبكت العجوز ... واغرورقت عينا الفنان . وقال لها :

— لك ما تشائين !

قالت له :

— ولكن شيئاً واحداً يحزننى ياسيدى ، فأنا فقيرة ما عندى ما تريده منى . . . سوى هـذه

الأثواب .. فتقبلها منى .. واحفظها إن شئت للذكرى !

— كلا .. كلا .. ما أريد شيئاً .. قرى عيناً .. واطمئنى .

وتهلل وجه العجوز بالبشر وقالت :

— لك الحمد يا إلهي .. لقد تحققت منيتى . لتكن صورتي ياسيدى جميلة .. فاتنة .. علها ترضى المفقود .. !

وأخذ الفنان يخط بريشته صورة رائعة فاتنة ، بهت منها التلاميذ . لقد حدقوا طويلاً بهذه الفتاة الناعمة ، ذات النظرة الساحرة ، والقد الأهيف ؛ وهذا السحر الذى يفيض من هنا ، ويظهر من هناك ، وينظرون إلى هذه الأثواب الموشاة بالذهب المزينة بالحلى ، المفعمة بالألوان .. يالله ! شد ما تشبه بنات السماء (١)

فلما فرغ من صورته .. قدمها للعجوز

— أتريدين شيئاً من الدراهم ياسيدتى .. ؟

— كلا ياسيدى .. شكراً لك .. لن أبغى بعد اليوم شيئاً ؛ ولئن مت فان بوذا سيفتح لى طريق جنانه .. وسأدعو لك .. كل مساء أمام المذبح ، شكراً لك ياسيدى .. شكراً !

— أين مأواك ياسيدتي ؟

— إنه حقير .. لا يستحق زيارتك !

ومضت العجوز تمشى مشياً وئيداً يتبعها تلميذ أرسله الفنان يرى مأواها

— إنه مأوى حقير ياسيدى .. بجانب النهر .. وراء المستنقع ..!

— سنراه غداً . وسنتعهده بعنايتنا

***

وفى اليوم الثانى جاء الفنان يدق الباب ، فلم يجبه أحد ؛ فنادى العجوز . ثم ضاق ذرعاً ودفع الباب .. فانفتح . ياويحنا لها ! لقد كانت ممدودة على الأرض ملتفة بثوب ممزق أمام المذبح . وكانت الشموع آنئذ ، كما كانت قبل خمسين عاماً ، تحترق ببطء ، والبخور يتصاعد فيملأ الكوخ بشذاه المسكر ... وكان فوق المذبح صورتها إذ كانت فتاة، تقابلها صورة ثانية لآلهة الرحمة .. وهنا خرق ممزقة .. وهناك عصاً طويلة .. !

لقد تقدم الفنان ليوقظها.. فناداها.. وكلمها.. وحدثها .. ولكنها ما كانت لتسمع أو تجيب .. فسقطت من عينيه دمعة ... وعلم أنها لن تستيقظ أبداً !

يالله ! لقد امحت آثار الألم .. وعاد إلى وجهها جماله ، وظهر عليه الوقار والجلال ، ورفرفت فوقها بنات السماء يستغفرن لها ويأخذن روحها إلى السموات العلى !

يا للوفاء ! ... يا للوفاء ! ...

« دمشق » صلاح الدين المنجد

(١) أى الملائكة

حاجي بابا اصفهاني

لكاتب الانجليزي « جيمز موير »
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل التاسع

وصلنا إلى مشهد فى الوعد المضروب ودخل موكب الأمير فى وسط احتفالات أقيمت له . ووجدت نفسي غريباً فى هذه المدينة التى ليس لى فيها صديق ولا أحد أستطيع الاعتماد على مساعدته . ولم يكن معى غير خمسة طومانات « ثلاثة جنيهات » سرقتها من الموكب وخبأتها فى عمامتى ، وكان الجندى الذى أنست منه العطف فى الطريق يبرنى ويقاسمنى طعامه ، ولكنه فصل بعد وصولنا إلى المدينة ، ولم يكن من المنتظر أن يساعدنى بعد فصله . وفكرت فى أن أباشر صناعتى الأولى وهى الحلاقة ، ولكن من الذى يأمن على رقبته رجلاً متهما بأنه جاسوس للتركمان ؟

أطلق الأمير سراحى فلم أستفد من ذلك شيئاً بل حرمت الطعام الزهيد الذى يعطى للأسرى ، وتقابلت مع صاحبى الجندى فنصح لى أن أصير سقاء . وقال لى : « أنت صغير قوى ، وأنت جميل الصوت ، فاذا ناديت على الماء بهذا الصوت أغريت من لا يحس بالظمأ أن يشرب . وذلك فضلا عن ذلك حيلة حسنة وقدرة على الضحك على الذقون . ولا تنقطع فى يوم من الأيام وفود الآتين لمدينة مشهد لكى يزوروا قبر الامام . وأول شئ يؤديه هؤلاء الزوار هو الاكثار من الصدقات لأن الزكاة كما تعلم مكفرة الذنوب عند المسلمين ، فلتسق الماء فى حب الحسين قتيل الظمأ يبذل لك الزائرون المال فى حبه . وتظاهر بأنك لا تأخذ أجراً على السقيا ، وقدمه لمن لا يطلبه ، فاذا شرب فقل له : « هنيئاً ، وأسأل الله ألا يظمئك فى يوم الحشر وألا تظمأ فى الدنيا ظمأ الحسين فى كربلاء »

وليكن هذا القول بصوت عال يستطيع كل من فى الطريق أن يسمعه ؛ فاذا بقيت على هذه الحالة مدة فاعتقد أنك ستصبح من الأغنياء »

اتبعت نصيحة هذا الصديق واشتريت بما معى من المال « قربة » وأكواباً نحاسية وثوباً من الجلد أجمله على ظهرى . وذهبت إلى قبر الامام فوقفت عند بابه أصيح : « الماء يا ظمآن ! الماء فى حب الامام » .

وكنت أقول ذلك بنغمة حلوة وصوت جميل فسرعان ما تميزت على سائر السقائين الذين أخذوا يتساءلون عما إذا كان لى الحق فى مزاولة هذه الصناعة ، ثم تدرجوا من ذلك إلى مخاصمتى عندما أملأ القربة ، ولكنهم رأوا إصرارى ورأوا أن وراء هذا الاصرار عضلات قوية فاكتفوا من المخاصمة بالنطق الهجر ، ولكننى كنت أسلط منهم لساناً فأسكتهم . وظهر لى أن الطبيعة قد هيأتنى لأكون سقاء .

وقد كنت أملأ سقائى من بئر غير نظيفة ، ولكن الشاربين كانوا يلتذونه كأنه آت من بئر زمزم أو من ماء الحوض المورود فى يوم الحشر

المعهود . وقد كان الربح الذى جنيته أكبر كثيراً مما كنت أتصور .

وكان لتذكيرى الناس بموت الحسين ظمأً أكبر أثر فى استحلاب أموالهم وعزمت على ألا أترك هذه الصناعة ماحييت لكثرة مالقيته من ربحها وقلة متاعبها. وكنت أعتقد أن شهرتى ستزداد بمرور الأيام .

وكان لى منافس من السقائين ، ولكن بما أن قربتى أكبر كثيراً من قربته فقد كان معترفاً بتفوق عليه. وكان الرجل شديد الحقد على ولم يكن ليمتنع عن إيصال أى أذى إلى إذا أمكنه ذلك .

ولما جاء يوم الموسم استعد كل أهل المدينة لمشاهدة الاحتفال الدينى الذى يحضره الأمير بالنيابة عن الشاه . وخرجت فى ذلك اليوم عارى الصدر والكتفين . وليس على نصفى الأعلى من الثياب شئ غير القطعة الجلدية التى أحمل فوقها القربة ووقفت أمام نافذة الأمير أسقى الناس وأدعو لسموه بالسعادة والرخاء فاستلفت نظره بهذه الوسيلة. ورمى إلى قطعة ذهبية ، وكنت قد أتقنت الحيلة قبل ذلك فاستأجرت جماعة من الأطفال يرددون هتافى على توقيع نغمتى ، وكان الجمهور يبدى من ذلك أعظم الدهشة. وقد لاحظ منافسى كل ذلك فاشتد غيظه ووقف فوق بنـاء ثم ألقى بجسمه فوق فوقعت على الأرض . وفى أثناء هذا اليوم لم أحس بكثير من الألم ؛ ولكننى لما عدت إلى منزلى وجدت ظهرى دامياً بحيث لم يعد فى إمكانى أن أشتغل بالسقاية فى المستقبل . وفكرت فى الاشتغال بعمل آخر لأن ما جمعته من المال كان يكفى لتأسيس تجارة .

وكان صاحبى الجندى قد سافر إلى طهران فلم يبق لى أحد أستشيره . وكان علىّ قبل كل شيء أن أطالب منافسى بالتعويض لمـا لحقنى من الضرر ، ولكننى رأيت ذلك يكلفنى كثيراً من المال والمشقة لصعوبة التقاضى فى هذه البلاد . ولأنه لم يكن لى ناصر قوى أستعين بنفوذه

الفصـــل العاشر

حاجى بابا يبيع التبغ

أخذت أفكر فى الصناعة التى أشتغل بها فى المستقبل ، ورأيت من اشتغالى بالسقاية أن أروج صناعة فى المدينة هى التسول على أى ضرب من ضروبه، فعزمت على أن أشترى دباً وعنزة وأستجدى الناس فى الطرق بهذه الوسيلة؛ فهذا عمل رابح أيضاً ولا يحتاج تعلم الحيل التى يبديها ملاعبو هـذه الحيوانات إلا إلى مدة قصيرة

ولكننى كنت متردداً فى تنفيذ هذا العزم لأنى كنت أفكر فى العودة إلى صناعتى وفتح حانوت الحلاقة ، وأخيراً أجبت هوى فى نفسى ، فاشتغلت بتجارة التبغ لأنى كنت مولعاً بالتدخين، فاشتريت مباسم من أنواع مختلفة ومؤرثات نحاسية «ماشة» لتقليب الجمر على النرجيلة ومقداراً من التبغ والطباق « التمباك » من أنواع مختلفة كالشيرازى والسوسى والدمشقى . وكنت أخلط المقادير القليلة منه بمقادير كبيرة من غيره فأكسب مالاً وفيراً لهذا السبب

وكنت ألاحظ طبقـات المشترين ، فالطبقة المتوسطة أعطيها من التبغ المخلوط بمقدار النصف ، والطبقة الدنيا بمقدار الثلاثة الأرباع أو من المواد التى أستعملها فى الغش خالية من التبغ بتاتاً .

أما الطبقات الراقيـة فكنت أعطيها تبغاً صافياً غير مخلوط

واشتهرت في مشهد بجودة البائس . وكان أحب زبائني إلى رجل من الدراويش لم أكسب منه كثيراً لأنني كنت أعطيه من أحسن الأنواع بأزهد الأثمان، ولـكن محادثاته لى كانت ممتعة ؛ وقد عرفني بكثير من الناس وبذلت كل ما في وسعي لاستثمار رضاه ومودته .

كان اسم هذا الرجل « درويش صفر » وهو رجل غريب الطلعة ذو أنف كبير أحدب ونظرات تكاد تخترق الحجب ، وهو كثيف اللحية ، وشعره الأسود منسدل على كتفيه، وقد طرزت عمامته بآية من القرآن، وعلى ظهره جلد عنزة على شكل كيس يجمع فيه ما يقدم إليه من الصدقات . وكان في منطقه وهيئته الرائعين ما يبعث الهيبة في النفوس كلما أراد ، وقد عرفت من معاشرته أن هذه حالة يتصنعها، لأنه عند ما يجلس بحانوتي وأقدم له النرجيلة يكون بحـالة عادية طبيعية لا تبعث مهابة ولا خوفاً . وقد عرفني في النهاية بعـدد من أصحابه الدراويش الذين دعوني إلى كثير من مجالسهم . وبالرغم من أن تعرفي بهم كان يكلفني ضياع كثير من التبغ بغير مقابل فاني لم أقو على مقاومة الدوافع التي تجذبني إليهم للطف معاشرتهم .

وفي ليلة قال لى صفر وقد دخنا من التبغ أكثر من العادة : « أنت ياحاجي بابا أقدر وأكبر من أن تقصر حياتك على بيع التبغ، فلماذا لا تصير درويشا مثلنا؟ إننا نعبث بذقون الناس أكثر مما يعبث الطفل بألاعيبه ؛ وحياتنا ممتعة لذيذة لما فيها من الراحة مع كثرة الـكسب، وقلوبنا مستريحة من ألم المطامع وحياتنا دائماً متغيرة متجددة رغم ما يبـدو على حالتنا من الركود . إننا ننظر إلى الناس كأنهم بعض الألاعيب ونستغل مواضع الضعف والغفلة فيهم . وقد رأيت منذ عرفتك أنك تصلح لصناعتنا وتشرفها ولا ينقضي عليك وقت طويل معنا حتى تكون من الرفعة والشهرة مثل الشيخ السعدى نفسه »

وقد وافق سائر الدراويش على قوله هذا فلم أبد نفوراً من هذه الصناعة وإنما أظهرت جهلي بمؤهلاتها وقلت : « كيف مع جهلي وقلة تجربتي أصير درويشاً عند ما أريد ؟ أنا أعرف القراءة والكتابة وأحفظ القرآن وديواني حافظ والسعدى وجزءاً كبيراً من الشاه نامه الفردوسي ، ولكنني فيما عدا ذلك جاهل تمام الجهل » ؟

فقال لى الدرويش صفر : « أخطأت ياصاحبي فأنت لا تعرف إلا القليل عن الدراويش . إننا لسنا في حاجة إلى كثير من المعرفة ولكننا في حاجة قبل كل شيء إلى أن نظهر بمظهر الواثق المؤكد لا بمظهر الذي يشك ويتردد . أما المعلومات التي تعرفها فقد كان يكفيك عشرها، وأؤكد لك أن قليلاً من التأكيد يمكنك — لا من جيوب الناس فحسب ، بل ومن أرواحهم أيضاً . إن الوقاحة والتبجح كنزان لا يفنيان أيها الصديق، وقد أصبحت بهما في نظر الناس ولياً من أولياء الله وأتيت بهما كثيراً من الكرامات. وفي إمكاني أن أقنع الناس بهذه الوقاحة أني قد شققت لهم القمر وأنهم رأوا بأعينهم انشقاقه

ولما فرغ الدرويش صفر من قوله أكد لى سائر الدراويش أن الجماهير في هذه البلاد من الغفلة بحيث لا يكذب بينهم مدع . ورووا لى قصصاً عجيبة

ظهرت فيها براعتهم وغفلة الجماهير . ووعدونى بأن يسردوا علىّ فى الغد تواريخ حياتهم وألحوا على أن أراجع عقلى فأنضم إليهم وأترك تجارة التبغ لأنها تجارة بائرة

الفصل الحادى عشر

الدراويش

لما اجتمعنا فى الغد جلسنا وفى يد كل منا غليونه . وكان بالغرفة التى جلسنا فيها نافذة تطل على حديقة مغروسة بالأزهار ، وكانت ظهورنا إلى الحائط ووجوهنا نحو تلك النافذة . وبدأ الدرويش صفر وهو أكبر الدراويش غير منازع فى الزعامة يقص علينا قصته بهذه الألفاظ قال :

كان أبي واسمه طاووس رئيساً للاعبي القرود والدباب فى قصر الشاه وقد تعلمت منه كل طرائقه وحيله كما تعلمت إحكام التقليد والتمثيل . ولما بلغت الخامسة عشرة كنت بارعاً فى هذه الصناعة . ولولا مصادفة لخلفت أبى فيها . أما ذلك الحادث فهو أن بنت قائد فرقة الجمال أحبتنى منذ رأتنى أرقص فى عيد رأس السنة . وكان لى صديق من الجمالة فى هذه الفرقة . ولهذا الصديق أخت تخدم فى بيت القائد . وكانت الألفة شديدة بينى وبين هذا الصديق الذى أخبرته أخته بميل سيدتها نحوي فذهبتُ إلى « الميرزا » وهو الكاتب الذى يجلس فى ركن من الطريق وكلفتُه أن يكتب لها خطاباً غرامياً يعبر شديد الاحتراز وأن يتمثل فى الخطاب بأرق الأبيات وأغزلها، ويقول فى هذا الخطاب إننى ميت لما أرسلته إلىّ من نظرات عينيها، وإن قلبي مكوى بنارحبها. ولم أستنع بعد هذا القول من التوكيد بأنى أريد أن أراها وأن أطلب إليها أن تضرب لى موعداً بلقائها . وقد أخبرت الكاتب باسم التى سأرسل إليها الخطاب . وكان ذلك حماقة مني لأنه ذهب إلى القائد وأخبره بالأمر لكى ينال منه مكافأة

ولم يكن ذنبي ليغتفر عند القائد، لأن زواج ابن ملاعب القرود من بنت « زامبورا كشى باشى » جريمة لا تعد لها جريمة

وكان لهذا الرجل نفوذ كبير فى القصر فاستصدر أمراً بنفيي إلى شيراز . ولم يَسَعْ أبي إلى تأخير سفرى بل ألحّ فى التعجيل به لامرضاة للأمير ولا خوفاً منه بل لأنه خشى أن أنافسه فى صناعته التى أصبحتُ مثله فى إتقانها

وقد قال لى يوم سفرى : « اسمع يا بنىّ ! يحزننى ابتعادك عنى ولكن التربية التى ربيتها لك والصناعة التى أخذتها عنى ستجعلان مستقبلك سعيداً إلا إذا شئت أن تفسده بالتفريط أو بالتهاون. وسأعطيك أكبر قرد عندى فاعتن به من أجلى وأحببه حباً لى، وأرجو أن تصل فى وقت من الأوقات إلى مثل ما وصل إليه أبوك من المعرفة والتجربة »

قال لى ذلك ووضع القرد على كتفى . ثم غادرت منزله الأبوى وسرت فى الطريق إلى أصفهان غير محزون ولا آسف لأنى أصبحت أكثر استقلالاً ولأن فى امتلاك القرد ما يسلى . ولكن شيئاً واحداً جعلنى أذكر وطني الأول وأحن إليه . وهو تلك الفتاة التى كنت أتخيل أنها أجمل من شيرين »

وما ابتعدت عن المدينة حتى بدت لى معالمها كالأشباح ووجدت كوخاً لأحد الدراويش فجلست فى ظله على قطعة من الحجر وأجلست القرد بجانبى موليا وجهى شطر المدينة، ولم أملك دموعى من

الاهمال وتنهدت ودعوت الله بلهجة محزنة مؤثرة سمعها الدرويش فخرج واستخبرنى عن حالتى فأخبرته، وتأثر فدعانى إلى كوخه الذى وجدت فيه درويشاً آخر على وجهه من النفوذ والهيبة أكثر مما يبدو على وجه صاحبه ، وكانت ثيابه مماثلة للثياب التى على الآن وهذه العمامة هى نفس عمامته . وكان فى نظراته قوة تبعث الخوف .

ولما رآنى تداول مع صاحبه على انفراد ثم اقترح أن أستصحبه إلى أصفهان ووعد بمكافأتى إذا سلكت مسلكاً حسناً، ثم قدم لزميله فى الكوخ غليوناً وقدم لى غليوناً آخر ، وخرجت معه فسرنا نحو أصفهان وقد انقضى جزء كبير من الطريق دون أن يتحدث كلانا إلى الآخر بحرف .

وأخذ الدرويش « بدين » — وكان هذا هو اسمه — يسألنى عن حياتى السالفة ، فلما أخبرته بدا عليه السرور، ثم أخذ يشرح لى حياته وصناعته وحبب إلىّ أن أصير درويشاً مثله . وقال لى إننى إذا عاملته معاملة التلميذ للمعلم فانه لن يترك شيئاً يجب أن ألم به إلا وعلمنيه .

وكان الرجل من أعلم الدراويش وأكثرهم اطلاعاً فأخذ يحدثنى عن الكيمياء والفلك وبعض ضروب السحر، وأكد لى أن ذنب الأرنب إذا وضع تحت وسادة الطفل فانه يجلب النوم ، وأن دمه إذا شربه الجواد اتسعت خطواته، وأن الأولاد إذا أكلوا أعين الذئاب نشأت فيهم الشجاعة ، وأن المرأة إذا دهنت جسمها بشحم الذئب كرهها زوجها ، وأن أكل مرارته ، يجلب العقم وأن الانسان إن وضع بين ثيابه قطعة من جلد الفهد أحبه الناس .

واستمر يحدثنى على هذا المنوال حتى لذنى حديثه ورغبت فى الاستزادة منه ثم قال لى : « أنت لاتعرف يا صفر ماذا تستطيع أن تجنيه من هذا القرد وهو حى مع أنك إذا ذبحته استخرجت من جثته ما ينفع فى السحر ويجعل لنا منزلة عند النساء فى قصر الشاه ، لأن المرأة التى تأكل قطعة من كبد القرد تستعيد محبة من تريد . وجلدة الأنف من القرود إذا وضعت على العنق منعت تأثير السم، والرماد الذى يبقى بعد إحراق عظمه يكسب صفات القرد وهى المكر والذكاء والقدرة على المحاكاة .

ثم ألح علىّ أن أقتل القرد ، فأزعجنى هذا الاقتراح لأننى تربيت مع القرد وشاركته السراء والضراء . وكدت أبدى له الرفض لولا أن سحنته تغيرت فجأة من الابتسام والبشاشة إلى العبوس والتقطيب بشكل خشيت معه عواقب الاصرار ، وقلت فى نفسى إنه يستطيع أن يفعل مايريد بغير موافقتى فلا تفيدنى المعارضة غير فقدان مودته فوافقته على ما اقترح .

وما كدت أوافق حتى أخذ القرد وقتله ثم أوقد ناراً وأخرج من جثة القرد ما أراد أن يخرجه ثم أحرق باقيها وجمع الرماد فى منديله واستأنفنا الرحلة .

وصلنا إلى أصفهان فى وقت مناسب . وفى هذه المدينة ظهرت شهرة سيدى وجنى ربحاً كبيراً. وكان يأتى إليه مئات من الناس يستشيرونه فى أمورهم ، فالأمهات يأتين بأبنائهن لحمايتهم من الحسد، والزوجات يطلبن منه الحماية من غيرة الأزواج، والجنود يطلبون أن يكتب لهم طلاسم تقيهم الموت فى المعارك . ولكن أهم من استشاره هن نساء البلاط، فقد كانت زوجات الشاه يطلبن إلى

الدرويش « بدين » أن يصف لمن مايبسط تجاعيد الوجه فلا تبدو الغضون عند الضحك أو التقطيب. وكان علاجه لذلك عظام البومة ورأس الدب وأرجل الضفدع .

وكانت كبرى زوجات الشاه غير محبوبة من جلالته فدفعت مقداراً كبيراً من المال إلى الدرويش فى مقابل قطعة من كبد القرد . وشكت إليه زوجة أخرى أن جلالته يؤثر عليها غيرها من نسائه فأعطاها بعض الرماد المتخلف عن إحراق عظام القرد . وأعطى الثالثة قليلا من دهنه

اشتركت معه فى كل هذه الحيل وساعدته بما كنت أظهره من الاحترام على رواج بضاعته التى كان يكسب منها مالاً كثيراً . أما أنا فلم أكسب شيئاً ولم يعطنى درهما مما حصل عليه ثمناً لقردى أو ثمناً لغيره من أكاذيبى

رافقت الدرويش « بدين » فى رحلاته إلى بلاد مختلفة . ولما كانت كل هذه الرحلات مشياً على الأقدام فقد شاهدت مناظر جمة ورأيت بلاداً فسيحة. وكان سفرنا من طهران إلى الآستانة ومنها إلى دمشق ثم إلى حلب ، وذهبنا إلى القاهرة ومنها إلى جدة ثم مكة والمدينة ، وذهبنا بعد ذلك إلى لاهور وكشمير فى البلاد الهندية

على أن ربحنا لم يكن كثيراً من البلدان الأخيرة لأن كثيرين من أهلها الأذكياء أظهروا كذبنا وخداعنا، فكنا ندخل البلدة معززين مكرمين ونخرج منها مطرودين محتقرين حتى وصلنا إلى الأفغان فلقينا من سرعة التصديق والسذاجة ما لم نجده فى أى مكان آخر . وأكرمنا أهلها أيما إكرام ونسبوا إلينا من الأعمال ما ليس يصدر عن غير الأنبياء

وكان يزورنا فى هرات نحو ألف نفس فى كل يوم من النساء والرجال شباناً وشيوخاً. وكان الدرويش الدجال يقيم معى على رأس جبل فى هرات . ويزعم أنه لا يأكل شيئاً غير الذى تقدمه لنا الجن، ولكن مع الأسف مات صاحبى هذا متخوماً لأنه أكل من اللحم أكثر من طاقته . وقلت الناس بعد موته إن الجن حسدت الآدميين على وجود رجل مثل الدرويش بينهم فسلطت عليه الرياح الشرقية التى رفعته إلى السماء . وهذه الرياح رياح حارة تهب فى أشهر الصيف وتستمر مائة وعشرين يوماً

وقد صدق هؤلاء البسطاء ما زعمت وعدوه كرامة أخرى للدرويش الذى زادت شهرته بعد موته وأقيم له مأتم حضره الأمير وكافة الأعيان

وبقيت مدة فى هرات بعد موته فاكتسبت مالا من بيع قلامات الأظافر وقصاصات الشعر التى كنت أزعم أنها من شعر الدرويش وأظافره مع أنها كانت فى الحقيقة من شعرى وأظافرى ومما أجمعه من عند الحلاقين. ولقد كانت جملة ما بعته من ذلك كبيرة تكفى لتكوين عشرين لحية . وخشيت إذا بقيت على هذه الطريقة أن يفتضح الأمر بالرغم من سرعة التصديق عند الأفغانيين فرحلت من الأفغان إلى فارس

وفى أثناء الطريق وجدت قبائل تعيش فى الخيام بين كابول وقندهار فكان نجاحى بين هذه القبائل أكبر مما كنت أتصور فقد نلت من الحظ ما لم ينله الدرويش بدين

ثم وضع الدرويش صفر يده على ظهر الدرويش الذى كان جالساً بجانبه وقال : « لقد كان معى هذا الدرويش هناك ورأى مبلغ نجاحى الذي أصبحت

فيه مثل « حظرة إيشان » نفسه . ثم سافرت إلى مشهد ومكثت فيها مدة طويلة عالجت فيها مصابة بعينها وشاع بين الناس أنني رددت إليها بصرها بعد أن أصابها العمى »

ثم سكت الدرويش وقال لجاره : اسرد أنت قصتك منـذ تعرفت بك . فقال ذلك الدرويش :

كان أبي من رجال القضاء في مدينة « قم » وقد اشتهر بكثرة الصلاة والصوم والانقطاع للعبادة وبأنه من أكثر الشيعة وسائر المسلمين صلاحاً وتقوى

وكان لي إخوة كثيرون، وكان أبي خشناً شديداً في معاملتنا فأنشأت خشونته وشدته في نفوسنا مكراً وحسن حيلة حتى صار يضرب بنا المثل في الرياء والكذب ونحن لم نجاوز بعد عهد الطفولة . ولما مات أبي صرت درويشاً واشتهرت لهذه الحادثة التي سأذكرها

لما وصلت إلى طهران اخترت لنفسي مجلساً أمام حانوت صغير لعطار كان يبيع العقاقير ، وقد اكتسبت مودته وثقته. وتصادف بعد عهد غير طويل من تعرفي عليه أنه مرض مرضاً شديداً وانقطع عن المجيء إلى حانوته . وبعد أسبوع أو أسبوعين من انقطاعه جاءتني بنته وطلبت إليّ أن أكتب لها « حجاباً » فأظهرت استعدادي لذلك . ولكنني طلبت أن أذهب معها إلى منزله لعيادته ولأكتب الحجاب عنده . وقلت إنه ليس معي ورقة ولا حبر ولا قلم حتى أكتب الحجاب في الطريق فأخذتني إلى المنزل

رأيت ذلك المريض نائماً في حجرة قد ازدحمت بالنساء من أقاربه يبكين ويقلن على مسمعه إنه سيموت . ورأيت للوهم أثراً في مرضه . ورأيت الطبيب الذي يعالجه جالساً في ركن من الغرفة مع النساء وفي فمه غليونه وهو الذي أمر بكتابة الحجاب حتى يجد له شريكا في المسئولية عند ما يتضح أن دواءه غير مجد ويموت المريض

ولقد بدا الأمل على وجهه وعلى النساء عندما دخلت حجرة المريض وطلبت قطعة من الورق ودواة وقلماً وأظهرت ثقة عظيمة مع أني إلى ذلك العهد لم أكن قد كتبت حجاباً قط، فجيء لي بالدواة وبالقلم وبقطعة من الورق غير المعد للكتابة، وظهر لي من شكلها أنه كان ملفوفاً بها بعض العقاقير التي استعملت في علاجه

كتبت على هذه الورقة اسم الله واسم النبي والحسن والحسين ومن حضرتني أسماؤهم من الأولياء والرسل ، وخططت أرقاماً حول هذه الأسماء ثم سلمت الورقة للطبيب الذي أمر بإحضار طست وإبريق فمحا بالماء الكتابة التي كتبتها وغسلها ثم قال : « إذا كان للمريض أجل فانه سيشفى ببركة هذه الأسماء . أما إذا كان أجله قد انتهى فلن تطيل عمره حيلتي ولا حيلة أي إنسان »

ثم أمر بأن يجرع هذا الماء فاتجهت إليه كل العيون . وبقي المسكين مدة لا تبدو عليه علامة من علائم الحياة، ثم مشى الطبيب نحوه وفتح عينيه ورفع رأسه بين ذراعيه وكله فأفاق، فنسبت ذلك بيني وبين نفسي إلى الدواء الذي كان في الورقة . ولكنني حرصت على أن أفهم المريض أن شفاءه إنما يرجع إلى بركة الكتابة التي كتبتها وأن ليس للطبيب فضل في شفائه

وفي الوقت نفسه حرص الطبيب على إفهامهم أن مريضهم شفي بسبب دوائه السالف وأنه لا فضل لي فقال عند ما فتح المريض عينيه وتنهد : « ألم أقل

إنه سيشفى متى تم تأثير الدواء فى جسمه ؟ أنظروا كيف كان علاجى ناجعاً ! لولاى لكان مريضكم قد مات »

إغتظت من الطبيب وخفت أن يضيع على ما كنت أنتظره من الأجر فقلت له : « إذا كنت طبيباً حقاً ، وكان فى مقدورك شفاء المرضى فلماذا استدعيتنى ؟ أنت لا تعرف من الطب غير الحجامة فلا تتدخل فيما ليس لك شأن فيه »

فأجابنى : « إسمع يا درويش ! أنا لست أنكر أنك أحسنت كتابة الحجاب ، ولست أنكر أنك تستحق على ذلك أجراً مناسباً . ولكنك تعرف من هم الدراويش وأن كتابتهم إن أفادت فببركة الأسماء التى يكتبونها لا بفضل هؤلاء الكاتبين »

أخذتنى العزة وقلت : « من أنت حتى تخاطبنى بهذا الأسلوب ؟ أنا خادم النبى فكيف أوازن بكم معاشر الأطباء الذين تضرب بجهلهم الأمثال ؟ إنكم تخفون هذا الجهل بنسبة الشر دون الخير إلى القادر فاذا شفى من تعالجونه قلتم إن شفاءه من ثمرات علمكم ، وإذا مات قلتم وافاه أجله ، مع أنه إن شفى فمن طريق المصادفة، وإن هلك فلأنكم تعطونه ما ليس يتفق مع مرضه . لقد كدت تقتل هذا المريض بعقاقيرك لولا أنى جئت وشفيته »

ولم يكن الطبيب يتوقع أن يسمع منى كل ذلك فبهت وقال : « هل قدر لى أن أسمع كل هـذا من درويش حقير ؟ »

فرددت عليه بأقسى لهجات الاحتقار . ولم يطل بيننا الجدال حتى تضاربنـا وأمسكت بلحيته وأمسك بناصيتى وانتزع كل منا خصلة من شعر الآخر وصرخ النساء وعلت الضجة وجرى بعضهن إلى الطريق ولم نزل كلانا متشبثاً بالآخر حتى دخل جندى استدعى لأجلنا من الطريق

عند ما طرق الجندى الباب ترك كل منا أخاه واعتمدت على أن أهل المريض سيشهدون لى لأنهم بالطبع يكرهون الأطباء خصوصاً هذا الذى ابتز مالهم ولم يكن الشفاء على يديه ، ولأننى لم أكن أخذت أجرى ولم يكن مضى زمن طويل على شفاء مريضهم .

كنت أعتمد على ذلك ، فلما دخل الجندى لم يسأل أحداً بل نظر إلى نظرة احترام وتقدير، وإلى الطبيب الذى قال إنه أهاننى نظرة ازدراء وتحقير، فحار فى أمره وبدت عليه شدة القلق؛ ثم خطر بباله خاطر فانحنى إلى الأرض وجمع بعض الشعر الذى نزعته من لحيته وقال لى أمام الجندى : « سترى فى الغد على أينا يحكم القاضى بعد ما نزعت شعر لحيتى وأنا رجل مسلم »

خفت عند ما ذكر ذلك أمام الجندى لأن لحية المسلم مقدسة فى هذه البلاد وديتها « دوكات » عن الشعرة الواحدة؛ وقلت فى نفسى إن جميع ما أكتبه من الأحجبة لا يقوم بتعويض هـذه اللحية . ولكننى اعتقدت أنه متى هدأ غضبه فلن ينفـذ وعيده خشـية نتائج المقاضاة ما دام الأمر مرجعه إلى الشهود ولذلك لم يفزعنى هذا الوعيد .

ولقد صدق ظنى وذاع فى المدينة أن الدرويش الجديد قد أحيا عطاراً من الموت فاتسعت شهرتى وبقيت كل يوم من الصباح إلى الغروب أكتب للناس أحجبة بغير انقطاع . واجتمع لدى مقدار وافر من المال . لكن لسوء حظى لم يمرض عطار آخر فأشفيه وتتضاعف شهرتى بل أخذت شهرتى

فى التناقص بمضى الأيام حتى كادت تزول فعزمت على مغادرة طهران والقيام برحلة فى سائر البلاد الفارسية حتى وصلت إلى هذه المدينة وكان معى خطاب من العطار ممهور بخاتمه يشهد فيه أننى رددت إليه الحياة، وكنت أطلع كل من رأيته على هذا الخطاب فظلت شهرتى قائمة على أساس هـذا الحادث الفذ .

لمـا فرغ هذا الدرويش من سرد قصته قال الدرويش الثالث : إن قصتى قصيرة، وقد كان أبى معلماً في مدرسة ، وكنت في مدة الدراسة منصرفاً إلى كتبى كل الانصراف . ولاحظ أبى أننى قوى الذاكرة فـكلفنى أن أقرأ له كتب التاريخ . وبهذه الوسيلة اتسعت معارفي ووعيت ما قرأته ، وحسن أسلوبى فصرت قاصًا روائياً ومات أبى وأنا لا أعرف صناعة ولا فناً أ كتسب به القوت فصرت درويشاً وتنقلت بين البلدان أقص على الناس فى مجامع عامة حوادث الدهور الغابرة . ثم وضعت أقاصيص صرت أقرؤها فى مشارب القهوة وأتقاضى على ذلك مايسد رمقى ثم زادت تجاربى ومقدرتى فى هذه الصناعة ، فوضعت روايات غرامية كرواية « أمير كاتى » و « أميرة سمرقند » . وراعيت أذواق الجماهير فأغربت فى الخيال وقربت المحال وكنت أسكت عند أهم موضع فى الرواية التى أسردها فيكثر الاهتمام وتتطاول الأعناق تشوقاً لسماع سائر القصة ويطالبوننى بأن أتمها فأطالبهم بأن يدفع كل منهم قطعة صغيرة من النقود وحصلت بذلك على مال كثير

وكنت كلما رأيت المنصتين يقلون فى بلدة انتقلت منها إلى غيرها فأجدد مجهودى بها

الفصل الثانى عشر

حاجى بابا يرى أنه عمل الخداع قصير فيبحث له عن عمل آخر .

لما فرغ الدراويش من سرد قصصهم شكرت لهم دعوتهم إياى وتمهيدهم السبيل لمستقبلى وعزمت على أن أتعلم منهم أ كثر ما أستطيع تعلمه لـكى أصير درويشاً مثلهم وأن أترك الاتجار بالتبغ . وعلمنى الدرويش صفر طرقاً كثيرة للظهور بين الناس بمظهر العلماء . وتعلمت من الدرويش الثانى فن كتابة الأحجبة ومن الثالث فن القصص . وتعلمت منه كيف أستثير رغبة السامعين حتى يجودوا بأموالهم . وبقيت فى الوقت نفسه مستمراً على بيع التبغ، ولكن بما أن الدراويش كانوا يدخنون بما يعدل كل كسبى فقد اضطررت إلى زيادة الغش فى خلط التبغ. حتى صارت رائحة ما أبيع لاتفضل إلا قليلاً — رائحة القش المحروق وأوراق الشجر المتعفنة —

وفى ليلة من الليالى جاءت إلىّ امرأة عجوز وطلبت أن أملأ غليونها بالتبغ وأعطتنى شاهيين (الشاهى عملة فارسية قيمتها مليم) فملأت لها الغليون وأشعلته. وما كادت تضعه فى فمها حتى سمعت سعالاً قوياً متكرراً خشيت معه أن تفارق الحيـاة أمام حانوتى وسرعان ما أقبل ستة رجال أشداء لنجدتها . وكان من بينهم المحتسب نفسه وهو موظف من قبل الحـكومة يجلس فى السوق لمراقبة الموازين وأصناف المتاجر

ولمـا عرف المحتسب السبب قال لى : « لقد افتضح أمرك أخيراً يا أصفهانى . لقد كنت تسمم

أهل مشهد بتبنك السموم فستضرب على قدميك عصاً على كل شاهي أخذته من الناس

وفى الحال وضعت رجلاى فى عصا مربوطة بحبل من طرفيها يدعونها الفلقة ولفوها على الساقين حتى أحكموا خنقها ثم ضربونى على قدمي ضرباً مؤلماً مبرحاً حتى خلت أن الأرض تدور بى وأننى أرى ألف محتسب وألف امرأة عجوز يضحكون من آلامى ويسخرون من بكائى

وأخذت أستغيث وأتوسل إلى المحتسب بأمه وأبيه وبأبنائه وبالنبي وعلى والحسن والحسين وبسائر الأئمة فلم يجد ذلك شيئاً وصرت ألعن التبغ وتجارته وبائعيه ومدخنيه

وكان أصحابى الدراويش جالسين فى هدأة وصمت لا يحاول أحدهم أن يحرك ساكناً من أجلى ولا ينظر إلى نظرة عطف ثم أغمى علىّ .

ولما أفقت بعد ذلك وجدت نفسى نائماً على قارعة الطريق وحولى عدد كبير من الناس يبدون الشماتة لما نالنى ويقولون إننى أستحق أكثر من ذلك لأنى غشاش . ولم يرض أحد أن يمد إلى يد المساعدة . ونظرت إلى حانوتى فلم أجد به شيئاً فقد أخذ كل مافيه من التبغ والمباسم فاضطررت إلى الذهاب زحفاً إلى منزلى وكان قريباً من الحانوت فوصلت إليه وأنا أبكى بكاء يستجلب الشفقة لو كان فيمن يسمع من يعرف الاشفاق .

وبعد يوم قضيته فى أوجع الآلام من الجراح المتعددة فى قدمى زارنى أحد أصحابى الدراويش وقال وهو خائف يرتجف إنه يخشى أن يوجد عندى فيظن فيه أنه شريك لى وقال لى إنه عوقب مرة فى شبابه مثل هذا العقاب وإنه يعرف الدواء الذي يشفى قروح الجلد فيعيد القدمين إلى ما كانتا عليه .

وكنت فى أثناء هذا اليوم قد عزمت على الخروج من مشهد وقلت إن مجيئى إليها كان فى ساعة منحوسة وأخبرت الدراويش بهذا العزم فحبذوه وقال لى الدرويش صفر إنه يريد مرافقتى فى هذا الرحيل وأن يكون سفرنا مع أول قافلة، وقال إن مشيخة العلماء مغيظة منه لازدياد نفوذه على العامة والبسطاء الذين يريد العلماء الاستئثار بالنفوذ عليهم . وإنهم لذلك يدبرون ضده خطة ومن المحال عليه أن يثبت أمام مقاومتهم .

ولبست ثياب درويش وخبأت مع ما أملكه من المال واستعددت للسفر عند ما تحين ساعته .

ولكن رغبتنا فى التعجيل بالسفر كانت شديدة جداً ، ومن أجل ذلك فكرنا فى الرحيل وحدنا غير منتظرين موعد القافلة وأردنا عمل استخارة على ذلك من ديوان السعدى لأن الفرس يأخذون الاستخارة منه ومن ديوان حافظ ومن القرآن الكريم فكانت الاستخارة هكذا : « ليس من العقل أن يشرب الانسان دواء بغير استشارة طبيب ولا أن يسافر بغير قافلة » فنهانا هذا التحذير الصريح عما كنا عازمين عليه

ولما ذهبت للسؤال عن الموعد الذى تسافر فيه القافلة قابلت فى الطريق صاحبى « على خاطر » وهو الجندي الذى أكرمنى وأنا أسير فى موكب الأمير . وكان قد وصل فى هذا اليوم مع القافلة

إلى مشهد ليشترى منها جلوداً يبيعها في بخاري. وعند ما وقع نظره عليَّ صاح صيحة سرور ودعاني إلى تدخين النرجيلة وأخبرته بقصتي فأخبرني بقصته أيضاً . وقال لي إنه بعد مفارقتي اشتغل بالتجارة وإنه سافر بمقدار كبير من خام الفضة مع قافلة كانت تسير في الطريق الذي قطعته معه في أسر الأمير

وكان خوف القافلة شديداً لاعتقاد رجالها أن عدد التركمان الذين قابلونا كان ألفاً ولكنه لم يحدث لهم حادث حتى وصلوا إلى أصفهان ، وهناك سمع أخباراً كثيرة عن الحملة التي قام بها التركمان وعلم أن رجلاً حلاقاً اسمه كربلائي حسن جرح أحدهم جرحاً خطيراً وأبدى شجاعة نادرة وتخلص بأعجوبة عرفت أنه يعني مقابلتي لأبي في الليلة التي هاجمنا فيها المدينة وكنت قد كتمت هذا الجزء من القصة عنه لما سردتها عليه

ولما ذكرني بهذا الحادث علمت أن أبي يفاخر بنجاته من يدي ؛ وهو يزعم أني أحد اللصوص فكدت أضحك وخشيت أن يرى محدثي على وجهي ما يريبه من الابتسام فصعدت نفساً طويلاً ملأ الفراغ بين وجهه ووجهي بدخان النرجيلة وقال لي إنه باع فضته في أصفهان واشترى بثمنها تبغاً ونحاساً وباع ذلك في « نيرد » ومن تلك جاء إلى مشهد في القافلة التي وصلت إليها . وقال إنه سيستأنف سفره مع القافلة إلى طهران ووافق على أن أذهب في صحبته إليها مع صاحبي الدرويش صفر وأن نركب بغلة من بغاله إذا تعبنا في أثناء الطريق

« يتبع » عبد اللطيف النشار

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي – عابدين }



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٥ — ٩ شوال سنة ١٣٥٧ — أول ديسمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد



كان يشدو طائفة من الفنون أحبها إليه النحت والتصوير ، وكان ضريب بجماليون اليوناني ، لم يصب قلبه قط إلى امرأة ، لأنه لم يكن يرى في نساء العالم جميعاً (حواء) الرائعة التي يسينها فنه ، وتستأهل أن تسكن معه في فردوسه المنشود ...

وكانت تماثيله كثيرة وجميلة ، وتترجم عن نفس واسعة عاصفة ممتلئة بالأسرار والألغاز ... لكن تمثالا واحداً كان يصبح أجملها وأشدها روعة لو أنه صنعه ، وهو مع ذلك لم يفكر فيه ولو مرة واحدة ، أو هو فكر فيه مرات لكنه لم يصنعه ... ذاك هو تمثال فتاة !

كنت ترى بين تماثيله الشحاذ المكفوف ، والمسن المحتضر ، وبواب القصر ، وبازي الصيد ، والأفعى ذات القرون ، والظبي ، والوعل ، والكلب الحارس ، والجمل ، والضب ، والكركي ، والحدأة الرائحة ... بيد أنك تجيل الطرف في متحفه الرائع فلا ترى تمثال امرأة . على أن المرأة هي الملهمة الأولى للفنانين ، وهي النبع الصافي الذي يتفجر بالمعجزات في رؤوس المثالين والمصورين والشعراء ورجال الموسيقى ... هي أجمل باقة في بستان الله ... هي أبهى نغمة تنطلق من أوتار الكمان ... هي ابتسامة الله الدائمة في قلوب عباده المؤمنين ... هي الواحة ذات الظلال والأفياء وسط صحراء الحياة ... ومع ذلك فليس يرى الرائي تمثالها الجميل الفنان في متحف رؤوف الفنان

وكان في رؤوف وحشة وضيق وانقباض عن الناس ، كأنهم كانوا أعداءه ... فلم يكن يطيق أن يشغله أحدهم عن فنه ، أو أن يشترك معه في أحلامه . خصوصاً إذا خرج للرياضة على عدوة النيل النائم في مهبط الوادي ... حيث كان من دأبه أن يستغرق في تأملاته يهدهدها خرير الماء وطنين النحل وغناء الأطيار ، ويسطرها النسيم بما يحمل من شذى وأرج

وكان صديقه طارق أعرف الناس بما جبل عليه من ذلك العزوف عن الناس . فكان يتردد عليه لماماً ، بل لم يكن يزوره حتى يدعوه وحتى يلح عليه في الدعوة ... فاذا زاره صمت عن الحديث حتى يبدأ رؤوف فيتكلم بمقدار . ولم يكن ذلك من طارق من عي ولا حصر ، بيد أنه كان يفضل تلك الوسيلة في التحدث إلى صديقه لما يعرفه عنه من قصد في الكلام ، وتفضيل الايجاز الذي يفي بحاجة التفاهم على الثرثرة التي تتلف التفكير وتذهب بجمال المجالس

وكان طارق مع ذلك لا ينى يفكر في حال صديقه ويجهد دائماً أن يكتشف سره ... لأن رؤوفاً كان فتى فيه من الشباب غضارة ونضارة ، ومثله لا جرم يصبي النساء بحسن لفتته ونافذ نظرته وانسجام قوامه وهندامه ... ثم هو فنان صادق الفن ... والفن حاسة سادسة في الفنانين ، وليس معقولا أن يعيش الفنان بلا حب . لأن معنى ذلك أنه يعيش بلا قلب ، وهذا محال في رؤوف ...

وقد وقف طارق مرة تلقاء تحفة باهرة من

روائعه ، وجعل يجيل فيها طرفه وخياله ، ثم يتعجب ، ويسائل نفسه : « إن صانع هذا الطاووس العجيب الذى وقف يتنازل أثناء على هذا النحو من الرسوخ فى فلسفة الحب ، لا بد أن يكون أعشق الناس . وتالله إن لصاحبي لسراً ، وإن وراء سره امرأة إن لم يكن تمثالها هنا فى ذلك المتحف ، فهو قائم من غير ريب فى قلبه ... »

وأقبل رؤوف يبتسم ، وحدج صديقه بنظرة ثم قال :

— « ما لك لصقت بهذا التمثال فلا تريد أن تريم يا طارق ؟ هل أعجبك ؟ »

— « وكيف لا يعجبنى وهو المفتاح الذهبي لقلبك الواسع الرحب ! »

— « ماذا تعنى ؟ »

— « أعنى أن تمثالك البديع قد أعانني على أن أفهمك »

— « لست أفهم ! »

— « رؤوف ! ! إجلس أحدثك حديثاً طالما أحببت أن أبدهك به ، لولا ما كان يخيفني من إحراجك »

— « وما ذاك جعلت فداك ! »

— « أنظر إلى طاووسك الجميل الرائع وقل لى ماذا أخفيت وراءه ؟ »

— « ماذا أخفيت وراءه ؟ لا شيء ! »

— « وفيم نحته إذن ؟ »

— « الفن من أجل الفن ! »

— « الفن من أجل الفن خرافة لا تعيش إلا فى الغرب يا صديقى . أما هنا ، أما فى جنبات هذا الوادى السعيد فقد عاش الفن من أجل الحياة قبل أن يعرف الغرب ما الفن ، وقبل أن يعرف هل يعيش الفن من أجل نفسه أم من أجل البيئة وأرباب البيئة من بنى الانسان

— أنت تبالغ يا طارق ، فقد يعيش الفن من أجل الفن فى كل مكان حتى على ضفاف النيل . . . ماذا تظن أنني أخفيت وراء هذا الطاووس ؟

— لست أظن !

— وماذا إذن ؟

— لأنى أعتقد أنك أخفيت قطعة من قلبك! إن لم يكن قلبك كله !

— أنا أخفيت قلبي كله وراء قطعة من المرمر؟

— قد تكون تركته دون أن تشعر به ، إن لم تكن تعمدت إخفاءه ! وأنت فى هذا كالشاعر الذى يلف فؤاده فى كلمات منظومة ، والموسيقى الذى يرسل نفسه فى نغمات مرقومة . . . كلكم سواء أيها الفنانون ، تنحتون وتصورون وتشعرون وتغنون ، وتحسبون أنكم تصنعون هذا من أجل الفن ، والناس مع ذاك يحسون آثاركم وهى تكاد تحترق مما فيها من حرارة

— وماذا تعنى يا طارق ؟

— أعنى الشيء نفسه الذى تبالغ فى إخفائه عنى وهو يأبى إلا أن يفوح كما يفوح شذى العطر لأنه أكثر منه عطراً وأشد عبقاً ! أعنى حبك يا رؤوف ! !

— آه فهمت !

— ألم تحاول أن تنحت تمثالاً لحبيبتك يارؤوف !

— إذا كانت لى حبيبة !

— ليس لك حبيبة وأنت مع ذاك فنان ؟

— أحتم أن يكون الفنان حبيبة ؟

— ذلك لا ريب فيه ؟

— ولو كان أعمى ؟

— ولو كان أعمى !

— ومن أين ينفذ الحب إلى فؤاد الأعمى ؟

— من أذنيه . . . فقد يكون صوت الأنثى أشد سحراً من مرآها !

— فاذا كان أصم ؟

— فمن جسمه باللمس ؛ أنسيت بضاضة الكواعب الأتراب يا صديق الفنان ؟

— فاذا كان بليداً لا يحس ؟

— فمن أنفه ... إن للأنثى شميا كشميم الورد أو هو أطيب ؟

— لشد ما تضحكني ؟

— ولشد ما تتناني على !

— لا ، لن أتنابى عليك يا طارق . . . هلم في إثري .

وانطلقا إلى أقبية القصر

ودفع رؤوف باباً عتيقاً تعلقت به عشرات من بيوت العنكبوت ، فتدفق من داخل القبو ظلام داكن ، وانتشرت رائحة قديمة آسنة ... ثم أومأ إلى صاحبه وقال :

— هنا يا طارق . . . هنا . . . لا وراء قطعة المرمر التي نحت منها الطاووس ...

— هنا ماذا يا رؤوف ؟

— ألا تفهمني ؟ هنا دفنت قلبي وحبي ، وقد آليت ألا أطلع إليهما ... وأنا أدعك لتبحث عنهما وحدك ، وإني منتظرك في مكتبي ! !

وانطلق رؤوف ، وفي عينيه دمعة رقراقة ، وفي صدره آهة مكروبة ، وظل يترنح يمنة ويسرة حتى كان في مكتبه ، فانحط على كرسيه وهولا يكاد يعي ...

ووقف طارق أمام القبو وهو موجس خيفة ... ثم مد رأسه في الظلام المنبعث من الغرفة الرطبة الآسنة ... فماذا رأى ؟

تماثيل ... تماثيل ... تماثيل ... ! !

تماثيل رائعة ناعمة ... عذارى وغانيات ... أجسام بضة طرية يكاد ماء الجمال يقطر من مرمرها الثمين ! بعضها واقف وبعضها جالس وبعضها منحن ! بعضها يرنو مفكراً كأنه يحلم ، وبعضها ينظر ويبتسم ، وبعضها تهمهم حول شفتيه أسرار وألغاز ...

لله تلك النادة المدللة التي تجردت من ثيابها ونزلت إلى البركة تبترد من وهج الشمس ، وقد مدت ذراعيها اللدنتين تفرق القصب وسيقان البردى !

وهذه الراقصة التي تكاد تتأود في مرمرها الناعم فتروح وتجيء في فيض من أشعة البرتقال والبنفسج والورد الجورى ، تارة يلون الحاشية ، وتارة ينصب على القدمين ، ويرتفع حتى يكسو الفخذين ، ثم يتمالى حتى يغمر البطن والظهر ، ويعلو حتى ينضح النهد ويغسل رمانتيه ، ويشرئب حتى يبلغ الوجه الباسم المشرق الجميل المحيا ...

وتلك العذراء التي تطرحت فوق العشب عارية متجردة تستمتع بأشعة الشمس ، وأشعة الشمس السعيدة تقبل كل جزء من جسمها تصل إليه ألف قبلة ...

وهذه العروب الكعاب قد جلست مع حبيبها عند حفاف الغدير بصيدان السمك ، وقد لفت ذراعيها حول كاهله ، وراحت تحدق في عينيه وتحملق

وتلك اللوحة العجيبة التي تمثل حديقة الأندلس أجمل حدائق القاهرة الفاروقية !! أواه ! يا للحبيب يثوى مع الحبيب في ظل الدوحة الباسقة !! لقد أسندت الحامة رأسها فوق صدر الالف الوامق ، وجعلت من شعرها المتدودن كِلّة فوق كاهلها وكاهله ... !!

وهذه الجالسة في غمر من أفياء الجنة تتلو قصة حبها ، وآدم الصغير جالس أمامها يقلب في قدميها الخلاسيتين عينيه الجائعتين وهو موشك أن يأكلهما

وتلك الحبيبة النافرة تعدو ثم تعدو ، ويعدو حبيبها في إثرها ثم يعدو....

وذاك التمثال العجيب الذي يمثل القبلة ! ما لك يا أجمل القيان تذودين فم الجائع الظمئ عن فمك الملتهب الريان ! أعطيه قبلة !

أواه ! من هذا السادر الحزين يذرف دمعه فوق طروس كتابه المفتوح !

ويحك أيها الساهر في شرفته يرقب النجم ويناجي الكواكب !

سلام عليك أيها المتعزل في منعطف الحديقة تجتر ذكرياتك وأشجانك !

حنانيك اللهم لهذا المصلي لك المسبح باسمك وقد بسط كفيه يطلب العون منك والغوث من لدنك

مسكين يارؤوف ! مسكين ياصديقي !

ما هذه الدنيا الحافلة الجميلة التي دفنتها في ذلك القبو المظلم الرطب !

لك الله ! ما هذه الأماني التي كدستها في ذلك الديجور الموحش الرهيب !

لله آمالك ! لم حطمتها هنا وآثرت أن تعيش في الدنيا وحدك !

* * *

وهرول طارق إلى الطابق العلوي حيث ألفى صديقه الحطم المتهدم مستلقيا على كرسيه الكبير ذي الوسائد وقد حمل رأسه بيديه ، وملء أساريره العابسة آلام وأحزان

— ماذا يارؤوف ؟

— ماذا ياأخي ؟! هل عرفت ؟

— عرفت كل شيء !

— كلا ! ما أحسبك عرفت شيئاً !

— بل عرفتك تماماً !

— هذا غرور ياصديقي !

— غرور ؟ ياعجباً ! وكيف يكون اهتدائي إلى قلبك غروراً ؟!

— قلبي ؟ وهل لي قلب ؟

— أحسن القلوب وأكبرها وأزكاها يارؤوف

— كيف عرفت هذا ؟ أمن أجل بضعة تماثيل لا قيمة لها ؟!

— وكيف لايكون لها قيمة وهي ثمرة حياتك

— وماذا ياطارق ؟

— وزهرة حبك يارؤوف !

— حبي ؟

— أجل حبك !

— وهل يحب من ليس له قلب ؟

— رؤوف !

— ماذا ياأخي ؟

— أراك قانطا من شيء ثمين ضاع من يديك فهل تخبرني ما هو ؟

— لا ! لم يضع مني شيء ؛ فقد أحببت فني ووهبت له حياتي وتفكيري ... وعملت التماثيل الرائعة والصور الشائقة . مثلت العذارى والغانيات

والفتيان والعرائس ، وصورت الجنات والقصور والأرض والسماء والكواكب وأبدع ما فى هـذا الوادى السحرى العجيب من آيات الخلود ... لقد كان النيل السمح العظيم يوحى إلي ما أوحى من قبل إلى فنانى الفراعنة . وكنت كلما أقفر قلبي فتحته له فغمره بكل جـديد وطريف من آيات الالهام فتناولت منحتى أو ريشتى فأخرجت مارأيت ومالم تر.

تقول إنى أضعت شيئاً؟ وماذا تظننى أضعت ياطارق؟

— هذا ما أحب أن أعرفه

— إذن فاعرف أنى لم أضع شيئاً !

— وهـذه التماثيل ! لم دفنتها فى هذا القبو الرهيب الميت ؟

لأنه أحسن مكان يناسبها !!

— أولئك العذارى ؟

— أجل !

— لقد كنت أحسبك تصنع لهن جنة فيقمن فيها خالدات ؟

— لو كن يستأهلن هذا منى أو من أى مخلوق !

— ولم لا يستأهلن هذا منك يا رؤوف ؟

— لأنهن أبالسة ... كدت أقول إبليسات !

— ولـمه ؟

— لأنهن خـنّنى جميعاً. أوه ! لقد استدرجتنى حتى فضحت سرى الذى كنت أوثر ألا يطلع عليه أحد ! ...

— أنا لم أستدرجك يارؤوف ، بل أردت أن تريح قلبك قليلا مما ينوء به بالبوح لى ، فليس أنفع للصديق من صديق يقول له ويقول صديقه له ، أما أن تعيش في هذه الدنيا المترعة بالعجائب وحدك دون أن تستعين عليها بأحد ، فهو عنـاء لا يحتمله صبر إنسان .

— أشكرك يا طارق ! لقد كنت تحسبنى أعيش الفن من أجل الفن .. فهل سرك أنى كنت أعيش الفن من أجل الحياة ؟

— سرنى كثيراً بل بهرنى ، وسيسرنى أن تعود فتصل أسبابك بهـذه الأسباب التى تقطعت بينك وبين الماضى ؟

— هذا ما لن يكون أبداً !

— ولم لا يكون يا صديقى ؟

— لأنك لم تجرب مثلى ... هلم بنا إلى القبو أقص عليك أروع القصص يا طارق ... إحمل هذا المصباح الأحمر، وذاك البرتقالى ، والثالث الأخضر ، وسأحمل أنا ذاك البنفسجى ، وهذا الأصفر .. و ..

* * *

وانطلق الصديقان يطويان الدرج إلى أقبية القصر

لقد كانت أعصاب رؤوف تضطرب وتهتز كما تهتز أوتار العود إذا لمستها أنامل الوسيقى ، وكان جبينه ذو الأسارير يتفصّـد بعرق بارد هو عرق الحمى التى ألهبتها فى قلبه الذكريات .. وكانت أنفاسه تتردد كأنها تحصى خفقات قلبه وضربات رئتيه .. وكانت عيناه الناترتان اللتان انطفأ فيهما بريق الأمل تنظران إلى أعماق الماضى ، ثم تنقلبان حسيرتين

ودفع رؤوف باب القبو دفعاً يسيراً فانفتح ، وانقذفت من ظلماته فى قلبه حسرات ...

وقبل أن يلج نظر إلى طارق نظرة آسفة مكظومة ، ثم ذرف عبرة حزينة زلزلت فؤاد صديقه ثم قال :

— هنا يا طارق غيّبت فى الظلام آمالى منذ عامين ، واليوم فقط أعود فأدخل هـذا الجحيم ،

ولولاك ما فعلت ، ولا أحببت أن أفعل . . .

ولم يتكلم طارق ، بل اقتحم القبو وراء صاحبه صامتاً ساكتاً

— أرأيت إلى هذه الغادة المتجردة التي تفرق القصب وسيقان البردي لتبترد في ماء البركة ؟ هذه هي الحبيبة الأولى ... يالها من ذكرى ! لقد نبض فؤادي نبضة غرامه الأول حينما لمحت هذه الفتاة تمشي وحدها على شاطىء البحر الأبيض في ذوب من أشعة القمر ... وكنت قبل ذلك أبحث عن غرامي ! خفق قلبي بشدة وعنف يا أخي طارق ... وتلعثمت ... لم أدر ماذا أقول لها ... لقد كنت أبحث عن كلة واحدة أقولها لهـا فما استطعت ... ونظرت هي إلى ، ولم أكن أدرى أنها ممثلة ... أجل يا طارق ... لقد كانت ممثلة والممثلات ممثلات حتى في مواقف الحب العادية !

رشقت فؤادي بنظرة هائلة من جانب عينها الخبيثة ، فمادت الأرض تحتى ، وأيقنت أنها غرامى الذى أنشد ، وحبى الذي أشدو . . . ورغم أنها لم تبال بي ، فقد تبعتها ... وكان الليل ساكنا ، ونجمه وبدره وبحره ... ومشينا كثيراً ... ثم التفتت إلى فجأة وقالت : « إن لم تنصرف فستضطرني لنداء الشرطي ؟! » فقلت لها : « إذا كنت جادة فإني منصرف . على أنني لست أتبعك لمجرد العبث ... إني أبحث عنك منذ زمان طويل ، وأرجو أن أكون قد وجدتك ! » . فقالت لي : « تبحث عني ؟ وهل كنت تعرفني ؟ » فقلت : « لا ... ولـكن قلبي كان يحدثني أنني سألقاك ... وها قد لقيتك ! » فقالت لي : « عجبا ! وهل تعرف من أنا ؟ » فقلت : « أعرف أنك أجمل حسان الاسكندرية ! » فقالت : « هذا أول الكذب ... لست من الاسكندرية » فقلت : « ومن أين إذن ؟ » فقالت في سخرية : « وأنت ما شأنك ؟ انصرف قلت لك ! » فقلت : « وإن لم أنصرف ، أفتدعين الشرطي ؟ » قالت : « أجل سأدعوه ! » فقلت : « ولم يأتي الشرطي؟ » فقالت : «ليسوقك إلى القسم!» فقلت : «ويحرمني من هذه الدنيا الجميلة ! من هذا القمر وذاك البحر وهذا النسيم ... ثم ... منك ومن التحدث إليك ؟ ما اسمك نشدتك الله ؟ » فقالت : « حورية ! »

لقد ذكرت اسمها وكفى يا طارق !

وجلسنا على صخرة مشرفة على البحر ، وكانت ليلة ما أجملها ! لقد كانت الخبيثة تسحرني بكلمات رنانة حفظتها لتلقيها على المسرح ، فيا ترى ، هل فكرت في إلقائها في أذني عاشق ؟ ! إنني ما أزال أحفظ نتفاً من كلامها ، إسمع يا طارق: «أنت يارؤوف تعطر حديثك بعبير الحب !! أوه يا رؤوف ! ما كان أحب إليّ لو أنني عرفتك قبل أن أولد ، هناك ... هناك ... في الجنة التي طرد منها أبونا آدم ! لم لم تلقني قبل هذه الليلة يا رؤوف ؟ آه يا قاسى ! تقول إنك مثال ومصور ... هل فكرت في تمثالي ! ستصنعه من مرمرتي ، أليس كذلك ؟ ! . . . إني أسألك كيف تهبه هذه الحرارة التي تحسها في جسمى . هل يستطيع أن يتكلم يا رؤوف ؟ هل يسمع؟ هل يرى؟ لشد ما أحب أن يكون كذلك!!»

وكنت أنا ساذجاً ياصديق ، وكانت كلماتها تسحرني وتفعل أفاعيلها في نفسى ، لقد صدقتها جميعها ... وسافرت معى إلى هنا ! وكانت تتجرد من ثيابها فأغمر كل جسمها الفتان بالقبل ، ثم آخذ في صنع تمثالها ! لقد كانت جميلة حقاً ! لله ما كان

أروع صدرها وأرق خصرها وأنعم قدميها وساقيها. لقد كان فيها يلتهب كلما طبقت عليه قبلة ... وكانت قبلها تشحذ عبقريتى فاستودعتها جميعاً فم التمثال أنظر ... ألا تحس يا صديقى ، إن فمه الرقيق الدقيق يجذبك إليه فى شدة وعنف لتقبله؟ ولكن انتظر ... أغلق هذا الباب الكريه ... لا تنزعج فقد أحضرنا معنا كل المصابيح ...

هاهوذا المصباح البرتقالى.. سأضىء به حواشى التمثال . أوه ! لقد نسينا أن نوصل تيار الكهرباء إلى هنا ...

وانطلق رؤوف يوصل التيار ، وبقى طارق لحظة وحده يرمق التمثال وقد تضاعف جماله فى نفسه بعد حديث رؤوف . ثم .ثم تقدم رؤوف إلى التمثال وراح يطبع على الفم الجميل الحلو ملايين القبل !

وسكر المسكين من القبل وفعلها فى نفسه فما شعر إلا ورؤوف وراءه يضحك منه ملء شدقيه

— حسبك يا طارق . حسبك . إنه مرمر بارد !

— واخجلاه ! أوقد أقبلت يارؤوف ؟

— إذن ماذا عسيت كنت فاعلا لو رأيتها وخاوت إليها ؟!

— ها ها ... ها ها ها ... إغفر لى يا أخى فقد سحرتنى حقاً !

— لا عليك ... أنظر إذن ...

ثم سلط الشعاع البرتقالى على حاشية التمثال فخيل إلى طارق أنه يسعى ... ثم غمر التمثـال كله بصبغ البرتقال فبدا كأنه يرقص ، واستبدل المصباح بآخر وردى فلاحت حورية كأنها خارجة من حمام ساخن والدم الحار يتدفق فى شرايينها !

— حسبك ... حسبك يا رؤوف ... لا تثير هذا المصباح ... الشعاع الوردى ... أللّه ... !

لكن رؤوفاً استبدل المصباح بآخر بنفسجى ، وشعاع البنفسج يبتعث فى النفس رهبة لا كما يفعل عبير البنفسج الذى يثير فيها نشوة الحب !

وبعد أن انتهى هذا العرض الفنوى الذى بهر طارقاً وسحره عن نفسه ، أخذ رؤوف يتم قصة هذه النادة فقال :

— وانتهيت من صنع التمثال فى شهر وبعض الشهر ... وكنت أحسبنى أعيش مع حورية فى جنة الفردوس طيلة هذه المدة ... قُبَـل ! عناق الديذ ! أحاديث أشهى من قطع الروض الوشى ! ضحكات كرنين الذهب ! ونظرات أسكر للنفس من حيا الخمر ! نسيت أهلها يا طارق ، ونسيت أهلى ... لقد نلت منها كل شىء إلا التفاحة ... التفاحة وحدها أقسم لك ! أجل لقد حاولت ذلك مدفوعاً بالحيوان الخبيث الذى يتغلغل فى نفوسنا منذ آدم ... بيد أنها كانت تغضب وتثور وقد تنتهرنى أحياناً وتعيرنى بأنى فنان ، وأول الفروض على الفنان ألا يدنس روحه بهذا الوزر الذى يبوء بإثمه إن فعل ! لقد كانت تقول لى : « إنك رجل لست كسائر الناس ! إن الخيال هو رأس مالك فلا تشوهه بهذا الدنس ! إن تفاحة حواء هى شقاء آدم فلا تقربها ... إنى سأحتقرك إذا أرغمتنى على شىء من ذلك ! وسأفر فلن ترانى إلى الأبد ! »

وعرضت عليها الزواج لأنى لم أعد أحتمل حياتنا على هذا النحو المطهر المحسور ، فرفضت لأنها فنانة ، ولأنى أنا أيضا فنان !

— ولماذا يا حياتى ؟ لم لا يتزوج الفنانون ؟

— لأن الزواج ينضب المعين الذى يفيض عنه فنهم !

— وكيف ؟

— لأنهم بالزواج ينالون التفاحة المحرمة فيفسد ذوقهم ويمسخ خيالهم ولا يعود شيء يلهب عواطفهم

ولما اشتد الجدل بيني وبينها وعدتني أنها ستري لنفسها ... وفي الصباح ... صحوت فلم أجدها في الغرفة ... ولم أجدها في القصر ... فرت ! فرت يا طارق ؟ ! وتبعتها إلى الاسكندرية ، وبحثت عنها حتى حفيت ، ثم اهتديت إلى مخبئها في قصر أفخم من قصري وأضخم ... وقد شهدتها تلبس اللآليء وتقتني الجواهر ، فعرفت أنها وقعت على صيد أثرى مني . . . واختبأت مرة في حديقة خليلها أرقب مشهداً غرامياً بينها وبين الرجل الوجيه الذي استلبها مني .. وكدت أنقض عليهما أحطم رأسيهما لكني لم أفعل ، لأني ذكرت عندئذ أنها غادة ، وهي لن يدفع أكثر ، فرأيت أن أذهب بدمها النجس !

ثم لقيتها بعد ذلك وحدها في حديقة الأزهار قاتلها الله ! ... لقد كانت هناك أجمل من كليوبطرة وسألتها عن حالها ! أي والله يا طارق سألتها عن حالها . لقد نسيت في تلك اللحظة كل ما قدمت من سوء إلي ! نسيت أنها رفضتني زوجاً لتقبل غيري مداعباً . نسيت أنها رفضت يد الله لتسقط في يد الشيطان ! نسيت أنها رفضت فناناً طاهر القلب لتتمرغ في وحل الرذيلة تحت أقدام الأغنياء ! نسيت ذلك كله ، نسيت أنها لم تأبه لجميع القبل التي روينا بها في أقاويق الحب ونشوات الغرام ، فدلت على رياء ونفاق ... ثم تقدمت إليها ذليلا ضارعاً أسألها العفو والمغفرة ! العفو والمغفرة ؟ ! هل تسمع ؟ ! هي التي تملك أن تعفو وتغفر بعد كل هذا ! وا أسفاه ! ما أضعف قلوب العاشقين !

ثم نظرت إلى شزراً ، وتبسمت مستهزئة ، وقالت لي : « كلا يا عزيزي ... ابحث عن غانية سواي فقد انتهى دورنا ! »

وتركتني وفي القلب حسرات تمزقه ، وفي الحشا عذاب وأوصاب .. ثم ذهبت لا تلوي على شيء وتبعتها لأرى ماذا ينتهي إليه مآلها ...

وا أسفاه عليها يا طارق ! لقد رأيتها تجلس إلى عصبة من الرعاع يلهون بها ويعبثون ... وهي وسطهم لاتحس كرامة ولاتشعر بآدمية ... فعرفت أنها سقطت ... وهنا فقط ، مضيت لشأني ، غير آبه ولا آسف ولا مبال ...

* * *

هذا هو غرامي الأول يا طارق ...

أما ذاك ... فهو غرامي الثاني !

هذه الراقصة يا طارق ! لله كم من راقصة تحتل قلباً لا تتحلى بمثله ربات الخدور ! أبداً ما رأيت أطهر من هذه ولا أنقى !

لقد لبثت عامين أجتر ذكريات حورية ، فتارة أبكي ، وتارة أسخر ، وتارة أتسلى بالتصوير وصنع التماثيل ... وكنت في ذلك كله كالتاجر الذي قام برأس ماله ، ثم قعد ملوماً محسوراً ... فهو يعلل النفس بالآمال ، ويداعبها بالأماني !

لقيتها في إحدى الصالات المعروفة بعد أن رقصت .. والناس في هذه الأماكن فوضى لا قانون لهم ولا عرف بينهم ... وأنت تتقدم إلى أي شئت كأنك تدخل محلا تجارياً لتشتري ، فاذا سرك الشيء دفعت الثمن وحملته ومضيت ، وإن لم يرقك تركته إلى ما سواه فان لم تجد ضالتك ، ذهبت مودعاً باللقى ، مشيعاً بتحيات الهمان ، وهم بذلك يرجون

ألا تلق أحسن مما عندهم فتعود ...

وجدتها جالسة وحدها فجلست إليها دون رجاء أو استئذان ... وكلما ذكرت لقائي حورية عند شاطئ البحر ، وجمال دلالها وروعته ، وتهديدها إياي باستدعاء الشرطي. كلما ذكرت ذلك ، وذكرت ماجريات ذلك الرقص ، أسفت ، وذهبت نفسي على غرامي الأول حسرات

ما أسهل التنزل هنا وما أيسره !

— نعمي مساء يا حسناء

— نعم مساء يا حبيبي

هكذا قلت لها وهكذا قالت لي ! . هل سمعت ؟ أنا حبيبها هكذا دون مقدمات ولا مؤخرات !

ثم تبسمت تلك الابتسامة المصنوعة السهلة الآلية التي تعودت أن تبتسمها لكل امرئ رام منها شيئاً ... فقلت :

— لقد أحسنت هذه الرقصة جداً ! إنها من أصعب الرقصات التي شهدت ! قلت ذلك وأنا لا أعرف من الرقص الشرقي قليلاً ولا كثيراً ! فقالت :

— « وهل لك معرفة بالرقص أيها السيد ! »

فقلت :

— لي به معرفة كبيرة يا .. ما اسمك من فضلك ؟

— إسمي ؟ ... إسمي ... إفرض أنه سَنِيَّه !

— ولماذا أفرض ؟ ما اسمك الحقيق ؟

— قبل أن أجيبك أرجو أن أعرف ما أنت ومن أنت ؟

— ولماذا تريدين ؟

— لأني أراك لجاً في غشيان هذه الأماكن ، وأنا ...

— تريدين أن تقولي إنني لا خبرة لي بها ؟

— أجل ... أردت أن أقول ذلك ...

— وأنت ماذا يعنيك من هذا كله ... ألست ترين فيَّ صَيْداً طيباً ؟

— أما الصيد فليس أيسر عليَّ من إيقاعه هنا ، لكني أحسست فيك شيئاً فأردت أن أعرف هل تصدق فراستي ؟

— وماذا أحسست يا ... سنية ؟

— لن أقول لك حتى تخبرني من أنت وما أنت ، ولم قدمت إلى هنا ؟ ...

— أما من أنا ، فأنا ... أنا ... رؤوف ! هل يعجبك هذا الاسم ؟

— إسم جميل إذا كان لك حقاً .. وما عملك ؟

— عملي ... أنا أصور وأصنع التماثيل ... !

— آه ! إذن أنت صادق ! إن اسمك رؤوف حقاً !

— وما ذاك جعلت فداك ؟

— لقد كلمتني عنك حورية !

— حورية ؟ ...

— أجل ... حورية ... حبيبتك ... أحقاً صنعت لها تمثالا ؟

— يا ربي !

— ولماذا هجرت حورية يا رؤوف ؟

— بل هي التي هجرتني ! لقد هربت مني ! لقد تبعتها ! لقد سقطت !

— سقطت !

— نعم ... سقطت إلى الحضيض ! إنها الآن تبيع جسمها لكل راغب فيه !

— أنت قاس جداً يا رؤوف ... إن حورية لم تسقط !

— وكيف ؟ لقد شهدتها بعيني لا ترد كف لامس !

— وإذا كنت تكره الساقطات فلماذا قدمت إلى هنا ؟

— حضرت لأتسلى ! وهذا هو الهواء بالتى كانت هى الماء !

— ولهذا جلست إلى !

— أعتذر ! ... إنى أعتذر ياسنية !

— أنت تعتذر ؟ وكيف تعتذر لامرأة ساقطة ؟

— سنية ؟

— ماذا يارؤوف ؟ هل علمتك حورية مواقف الغرام والغرام ؟ لقد كانت معلمة ماهرة ؟! ماذا تريد أن تقول ؟!

— إنى أحس فى صوتك طهراً وفى عينيك براءة !

— أنت تصب فى أذنى ما صبته حورية فى أذنيك ! لقد كانت تجيد هذا الكلام إجادة عجيبة ! أى طهر وأى براءة يارؤوف ؟! إنى أبيع نفسى لكل راغب كل يوم مرة أو مرتين ؟! طهر وبراءة ! هذا عجيب !

— وبالرغم من هذا فأنا لا أشك فى طهرك وبراءتك ! أين تسكنين يا سنية ؟

— أسكن فى حى قذر موبوء !

— أريد أن أزورك ثمة ، فهل تأذنين ؟

— إنى أخشى عليك أن تتنجس !

— أنا لا أبالى ... أرجوك ... لنذهب الآن !

وركبنا عربة ظلت تجوب شوارع القاهرة وقد نام ليلها الساهر ، ووقفت حركتها المائبة ... ثم انتهينا إلى عطفة ضيقة مرطوبة ... ووقفت العربة أمام بيت عتيق متهدم ...

— هنا ياسيدى

— هنا يتحكم ؟!

— أجل ... هنا ... وأرجو ألا تحدث صوتاً ونحن صاعدان ، فسترى كم من البقايا وربات الفجور يسكن معى فى هذا المنزل القذر ! كم الساعة الآن ؟ !

— الساعة ... الدنيا ظلام ... لنعد إلى العربة ... الساعة ... الثالثة صباحاً ... بل الثالثة والنصف ! لقد أذن الفجر !

— إذن لنصعد الآن !

وصعدت فى إثرها يا طارق ... ووقفت فى الظلام لحظة ، ثم نظرت إلى باب الغرفة ، فوجدت بصيصاً مريضاً من النور ينبعث خلال ثقب المفتاح ... وبعد أن نظرت سنية فيه رجعت قليلا وقالت لى ... « أنظر إذن ! »

ونظرت !

يالله ! شيخ عجوز هرم يتهالك على نفسه ، وقد استقبل القبلة ، وبسط كفيه إلى الله ، وراح يقول : « الله أكبر ! »

الله أكبر يا طارق ! الله أكبر يا صديق ! الرجل يصلى الصبح يا أخى ؟ فيا ترى ، هل يعلم من أين أقبلت سنية ؟ لقد عرفت أنه أبوها ... يالمفارقات الحياة ، ويالهول المتناقضات فيها !

ثم استيقظ طفلان صغيران وجعلا يتضاغيان من شدة الجوع ، وأخذا يبكيان ، فقال لهما العجوز الشيخ : « لا . لا ... حالا ستأتى نفوسة بالطعام لكما ! صبرا ... صبرا ... حالا حالا ... يارب ! لطفك اللهم يارب ! ... » ورفع الرجل كفه وطفق يخفى فى طرفه دموعه

ولكن ! ... يا ترى من تكون نفوسة ؟

— من تكون نفوسة يا سنية ؟

— نفوسة ؟ ... أنا ! أنا نفوسة !

— ولماذا قلت إنك تسمين سنية ؟

— لأنهم أرادوا ذلك !

— من هم ؟

— أصحاب المرقص !

— ولماذا ؟

— لأن اسم نفوسة اسم (بلدى) فى رأيهم ، ولا يصلح للاعلانات !

— آه ، فهمت ! ومن أولئك ؟

— الشيخ أبى وهذان طفلاى !

— فهو جدهما إذن ؟

— ... ؟ ...

— وأمك ؟

— ماتت !

— وزوجك ؟

— أدمن السموم حتى مات . . . وقد مات فى السجن !

— ولم يترك لكم ما تقتاتون به ؟ !

— ولماذا لجأت إلى المراقص إذن ؟

— ولم تجدى عملا أشرف من هذا العمل ؟

— كان يجب أن ننتظر طويلا حتى نموت من الجوع لأجد هذا العمل الشريف ؟

— وأبوك يعلم ذلك !

— يعلم ماذا ؟

— أنك راقصة ، وتتجرين بعرضك ؟

— لو علم لقتلنى وقتل نفسه !

— كنت أفضل أن تدرسا أمر عيشكما قبل أن تقدمى على هذه المهنة !

— لو درسنا ذلك لاقترح على الشحاذة !

— أى أن تكونوا أبناء سبيل ؟

— أجل ... هو ذاك

— ولكن الحرة تموت ولا تأكل بثدييها

— ما لم يكن لها طفلان ضعيفان عاجزان كهذين

— نفوسة

— ماذا يا رؤوف ؟

— ألم أقل لك إنى ألمح فى صوتك الطهر وفى عينيك البراءة ؟

— أنت أول من لمح هذا لأنك فنان

— نفوسة أتقبليننى زوجاً ؟

— لا . . . لن يكون ذلك

— ولماذا يا أختاه ؟ !

— لأنك تعرض هذا وأنت فى غمر من عاطفتك البريئة ، فاذا جد الجد ، وهفوت ولو هفوة يسيرة ... صحت فى بأعلى صوتك قائلاً : يا عاهرة ! إذهبى ... عودى إلى منبتك الوخيم القذر ... لقد أنقذتك وكفرت بأنعمى ! ... لقد ...

ثم ارتفع صوتها يا طارق ، فانفتح باب الغرفة ، وبرزت رأس الشيخ ، وتلألأت فى الظلام لحيته التى أنارها الشيب

— من ؟ ! نفوسة ؟ ! لماذا أقبلت قبل ميعادك يا بنيتى ؟ لماذا تصيحين وتصخبين ؟ !

ووضع الرجل كفه فوق عينيه ، يتبيننى ، وفى كفه الأخرى مصباحه الضعيف الخافت...أنظر...

واستدار رؤوف ، ثم أومأ إلى تمثال الشيخ وقد بسط كفيه إلى السماء وهو يقول : « الله

أ كبر ! ! » ثم استدار مرة ثانية وأشار إلى تمثال آخر للشيخ نفسه وقد رفع كفه إلى جبينه وهو يحملق ، وفى كفه الأخرى مصباحه الضعيف الخافت ! !

أرأيت ياطارق ؟ ! أصنعنا كله الفن من أجل الفن ؟ أم الفن من أجل الحياة ؟ ورآنى الرجل فصرخ صرخة عظيمة ... لأنه أيقن أنى عاشق من عشاق ابنته ، وربما أكد له ذلك ما تشمم من عبير البنفسج الذى كان ينتشر منها فى ظلام بيته ، ومن هذه الأصباغ التى كانت تتراكم صارخة فوق خديها وشفتيها .

— ما هذا يا نفوسة ؟ ما هـذا الذى تصنعينه بنفسك ؟ ومن هذا الذى معك ؟ أم تقولى لى إنك تذهبين إلى مصنع ... لتعملى فيه ليلا ؟ ! من أين لك هذه الملابس وهذا العطر وهذه الأصباغ ...

وى ... يارب ! ... يارب ! ...

وسقط الرجل فوق الدرج سقطة هائلة ...

وما هى إلا لحظة حتى أسلم آخر أنفاسه

ألا ليته مات وهو قائم يصلى ! ! ألا ليته ما علم سر ابنته ! !

وانحنت نفوسة فوقه تبلل لحيتــه ووجهه بدموعها ، فى حين أقبل طفلاها يصيحان من ألم الجوع ويقولان : « أمى ... أمى ... نفوسة ! هل أحضرت الخبز ؟ »

وسرت رعشة فى أعصابى فأثلجتها ... ولم أعالك أن بكيت ! !

وأخلصت لى نفوسة وأخلصت لها ..

فانظر إلى هذا الحب الذى ينمو من رفات الموتى !

لقد كانت جميلة ... كانت جميلة جـداً ، وكان حزنها يضاعف جمالها ... لقد أشرقت فى حياتى كما يشرق النجم الجميل فى غيهب الليل ، أو كما تشرق بارقة الأمل فى غياهب اليأس . أنظر إلى صورتها هذه ياطارق ! أترى إلى اليدين كيف تنتشر منهما ظلال الرحمة لا سهام العذاب كما يقول شعراؤنا ؟ أنظر إلى هذا الفم الحلو المختوم ! ألا يكلمك حديثا مشجيا تفهمه ولا تسمعه . وهذا الخد ! هذا الخد ! أنظر إلى قسمته ! ألا ترى فى صفحته آثار قبلى ! ما أعجزنا نحن الفنانين ! لشد ما عييت أن أنقل جمالها إلى هذا الرمز ! أين أنت يانفوسة البيت العتيق ، وسنية المرقص الوخيم ! سلام عليك أيها الشيخ . سلام عليك فى عليين !

— وأين ذهبت صاحبتك هذه يارؤوف ؟

— جاءت حورية ... حـورية الشيطانة ! فسرقتها منى ! سرقتها بعد أن طهر الموت نفسها ، ووضع فى النــار عارها ، ولست أدرى اليوم أنى مضت ، وأيان مستقرها ...

— ألم تبحث عنها ؟

— لم أترك مباءة ولا حانة ولا داراً للهـو إلا غشيتها ، لـكنى لم أقف لها على أثر . ولم أسمع عنها من أحد !

— وابناها ! ؟

— ذهبا معها . فلله‌ما ، لقد كنت اتخذتهما لى ولدين !

* * *

وظلا يتنقلان بين التماثيل ، ورؤوف يقص وقائع غرامه عند كل تمثال ، ثم يردف كل قصة بعرض ضوء يزيد فى بهاء تماثيله وسحر صوره المعلقة فوق الجدران ، أو الملقاة على أرض البهو ... وقد

يذرف عبرة أو عبرتين عند كل منهما ، إذا هاجه الوجد أو عصف بقلبه الادكار ...

ثم انتهيا عند باب قبو آخر مقفل ، فوقف رؤوف تلقاءه صامتا دامع العين ... ودفع الفضول طارقا فسأله :

— وماذا هنا أيضا يارؤوف ؟

— لا . لن أقص عليك قصة هذه ، فهى كتابى الذى أقسمت ألا أفتحه . ومن يدرى؟ فقد أموت ، وبعدها تأتى ياطارق إلى هنا ، وتكتب ما قصصت عليك ... ثم تكتب مالم أقصص عليك من أمر هذه القصة الراقدة هنا ... بالمأساة !

— يبدولى أن طوفاناً من العواطف يجتاحك يارؤوف ، وهذا حال الشاعر وليس حال الفنان .. إهدأ ياصديق ... وتجلد ... وعد إلى مرح الحياة فقد ضربت أنت أمثالها .. تنقل كما كنت تفعل .. وافتح هذا الباب الرهيب ، ولا تحمل من أسرارك وزراً يقصم ظهرك . . . أليست هى الأخرى قصة حب أو مأساة غرام ؟ ماذا تخشى ؟

— أجل، هى مأساة غرام ، ولكنها من نوع آخر ... لقد رأيت كيف كنت أنتقى حبيباتى من بنات الفن ، لأنى كنت أحسبهن أقرب إلى فهم حياة الفنان ... ولكنك رأيت كيف كفرن جميعاً بحبى ، فجرحن كبريائى ، ولم يكافئننى ... بل هربن منى ، برغم ما كنت أحوطهن به من عناية واقتداء وحبة ... ولكن ما بال هذه الثاوية هنا ؟ ! لقد شهدتها أول ماشهدتها فى حديقة الأندلس الناضرة . ولقد قرأت فى عينيها النبل ، وفوق جبينها العظمة والكبرياء ، وعرفت أنها من عائلة من أعرق العائلات فتقدمت إلى أهلها خاطباً على الطريقة المصرية ... هذه الطريقة التى كلها توكل واستسلام ... وقد رضيت بى بعلاً ... وزفت إلى على الطريقة المصرية أيضاً ... لقد كنت هذه المرة ثائراً على جبلتى ، نازلاً عند جبلة قومى ، وكنت أحسب أن علة شقائى فى مشاهد غرامى هى ثورتى على طباع قومى وعاداتهم ... فقلت أنسى أنى فنان ... وأخطب على الطريقة المصرية ... وتزف إلى عروسى التى لم أرها غير مرة ... وليقض الله أمره فى فؤادى !

على أن التجربة قد نفعت ... وكانت زوجة صالحة ... ولكن ، وا أسفاه ! إن صلاحها لم يدم طويلاً ...

أسبوع واحد من شهر العسل يا طارق ؛ ثم أخذت حواء تتنمر لآدم ! كنت أعمل جداً فى تمثالها المسجون هنا ... فإذا بها تقبل مغاضبة ، وقد اتقدت فى وجهها نيران الجحيم كلها ... قالت لى ؛ وقلت لها :

— رؤوف !

— سيدتى !

— أنا لا أصلح لك ، وأنت لا تصلح لى !

— أستغفر الله ! لماذا ؟

— أنت تعلم لماذا ، ولا حاجة بنا إلى النقاش ، فرجائى أن ترسلنى !

— أما أنى أعلم فأنا لا علم لى ، أؤكد لك ... وأما أن أرسلك فهذه تكون أشد كارثة تحل بى

— فنان ! ماشاء الله ! فنان غزل تهب قلبك لكل من تلق ! ياتلميذ إبليس ! كلما فكرت فى تمثال أو صورة عبدت غانية ومرغت تحت قدميها خدك ! حياة كلها أوزار وفسوق ! ألف حبيبة وألف قينة ! لقد انخدعنا فيك ... ولكن ...

— أوه ! ما هذا كله ؟ ماذا دهاك منى ؟

— ماذا دهانى منك ! خذ واقرأ ... وأرجو ألا تنكر خطك !

— آه ! حورية ! دائماً حورية ! إنها ترسب فى حياتى كلها وتطفو ! هكذا دائماً ، هى تلعب دورها بمهارة ، ولكن بقسوة !

— أجل هى حورية ... حورية التى تهبها أحلامك وآمالك ، وتنظم فيها درر فنك !

— أيتها السيدة ... أرجوك !

— ترجونى ؟

— أجل ، أرجوك ! إن هذا الخطاب قديم .. قبل أن أعرفك بعشر سنوات !

— والدليل على ذلك هذا التمثال الذى تصنعه !

— التمثال الذى أصنعه ؟ إنه لك يا عائدة !

— ها ها ... ها ها ها ... جميل جداً ... يبدو لى أنك مجنون ! أنظر يا أبله إلى تمثالك فلن تستطيع أن تخدعنى !

ونظرت إلى التمثال يا طارق !

يا للحلم ! صحيح إنه تمثال حورية ! تمثال حورية بعد عشر سنوات ، ولى مع ذلك زوجة صالحة جميلة كنت أرجو أن تنتشلنى من دنيا الفن إلى عالم الحقيقة ... كنت أرجو أن تكون أم البنين !

وتناولت الخطاب القديم أقرؤه ... وبرغم الموقف الماثل الذى كنت أقفه حيال زوجتى ... كنت أرقص طرباً لكل فقرة من فقرات الخطاب أسلوب لا عهد لى به ! حب متقد ! أزهار منثورة بين ثنايا السطور ! دموع ما تزال حارة تغلى ! قلب أضناه الغرام وشفه الوجد أو كاد ، أرفع يدى إلى صدرى أتحسسه ! آهات وزفرات ! شاطىء البحر الأبيض وبدره الساجى ونسيمه البليل ! الصخرة ! حرارة القبل !...

كل هذا لمسته فى سطور الكتاب لمساً يا طارق ...

ومع ذلك ... فها هى ذى زوجتى تشهد هذه الثورة الجامحة فى أعماقى ، تبدو على وجهى ولا تستتر ... قالت عائدة :

— رؤوف ... إذن ، أنا ذاهبة ! الوداع ! إنى أسامحك وأصفح عنك !

ولم أرد بكلمة يا طارق ... فقد حيرنى الخطاب الذى لم أشك مطلقاً بعد أن ذهبت عائدة ، أنى كتبته أمس ! ومداده الجديد يشهد بذلك ؟

* * *

— والآن يا صديق ، الفن للفن ، أم الفن للحياة ؟

— بل الفن للحياة برغم مآسيك كلها .. فلولا حياتك المفعمة المترعة ما حظى الفن بهذه الآيات الرائعات .. أنظر إلى هذا المتحف الكئيب ، وقارن بينه وبين القبو

هنا جسارين وأقاع وطيور وظباء قليلة ، وصور خافتة للصحراء ... لوادى الموت ...

أما هناك ! ... فيا لله ؟

حورية . سنية . كوكب . سناء . الشيخ بجار « الله أكبر . » حديقة الأندلس . جنة الأزهار . طاقة البنفسج . باقة الكيليا .

— ومع ذلك . فسأحيا للفن

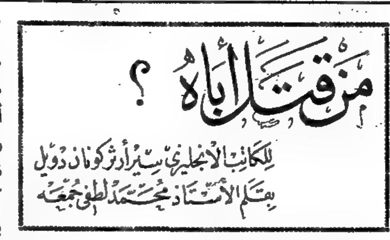
— وللحياة .

— كلا ... لقد ودعت حياتى منذ ودعت غرباى الأول .

وحنى رؤوف رأسه فذرف دمعة على ذكريات حورية .

درينى خشبة

(الرواية) القصة مؤلفة للسينما والنقل والاقتباس ممنوعان



حدث الدكتور وطسون قال :

كنت جالساً في مسكن شرلوك هولمز رقم ٤٠ شارع بيكر ستريت في يوم عبوس قمطرير ، شديد البرد ؛ ولكن مظاهر الترف والرفاهية التي كانت تحفني أنستني العواصف المهولة التي كانت تهز الأشجار وتحطم زجاج النوافذ وتغرق السفائن في البحر

فدخلت مسز تيرنر مديرة الدار وهي تحمل صينية من الأبنوس المطعم بالعاج وعليها طعام الافطار وقالت لي في سخط وغضب :

— أما آن لهذا المسكين أن يتناول وجبة الصباح ؟ لقد طرقت بابه فلم يجب فلما فتحت الباب كعادتي وجدته مستلقياً على ظهره ووجهه شاحب كأنه صريع الأفيون ، وقد امتلأ جو الغرفة بدخان تلك البيبة الأبدية التي يتنفس خلالها النيكوتين ..

فقلت لها : وهل مستر هولمز نائم ؟

قالت : أبداً ! إن عينيه شاخصتان ، كأنه ينظر إلى شيء في الفضاء وراء وحده

فقلت لها : هذه عادته فلا تنتشي

فقالت : ولكنك طبيب ، وإني أخشى أن يكون بالرجل مس من الجن ، أو أنه يعاني مرضاً دفيناً يقضي عليه فجأة ، فانه لم ينم منذ ليلتين ، ولم يخلع ثيابه وما بدل من مظهره سوى حذائه الذي استبدله بعباءة

فنهضت وصحبتها إلى غرفة شرلوك هولمز فرأيته على الحالة التي وصفتها العجوز ؛ وزاد علينا أنه لم يرد تحيتي ، فلما دنوت منه وقلت له :

هذا هو طعام الافطار يا مستر هولمز ، إنك بعد كل هذا رجل ، أي كائن حي تحتاج الطعام والشراب ولست ملكاً ولا جنياً . فسمعته يهمس : روتشديل ... كليمنس .. تسعة أقدام وسبعة . بعد ثلاثة أيام ... دائرة ضيقة

فضحكت ضحكة عالية ؛ لأنني أدركت أنه منشغل بحل تلك الجريمة الخارقة للعادة

فكان لقهقهتي أثر غير منتظر ، فقد أفاق هولمز من ذهوله وقال :

— ها أنت ذا يا وطسن . متى جئت ؟ وأين تلك العجوز الشمطاء تيرنر التي لم تفكر في إعداد إفطاري حتى هذه الساعة المتأخرة من النهار . فضحكت وقلت له : اخفض صوتك فان هذه التي تدعوها « شمطاء » وتتهمها بالتقصير قد حملت إليك الشاي والحلوى منذ ساعة وهي بالباب تناديك فلا تجيب

ودعوت مسز تيرنر فلبت واستأذنت . ووضعت خوان الافطار على المنضدة التي تكدست عليها الكتب والخرائط والقواميس والرسوم بحالة مزعجة . وأخذت مقعدي حيال هولمز لمؤانسته أثناء شرب الشاي

ولم يكد المسكين يمد يده إلى أحد الأقداح حتى عادت مسز تيرنر مهرولة وقالت :

— إن سيداً شاباً بالباب يريد لقاءك وقد بلله المطر ونال منه التعب نيلاً شديداً

فقال هولمز دعيه يدخل وأعدي له الشاي

وفي تلك اللحظة دخل علينا شاب في منتصف العقد الثالث ، أصفر الوجه ، عصبي المزاج نحيلاً في عينيه جمال وهدوء ، وفي سحنته وقار وثبات ، وفي يده كتاب تبينت بعد لحظة أنه الانجيل المقدس . فاتجه الفتى نحوي وقال لي : هل أنت مستر هولمز ؟

فقال هولمز : نعم . إنه هو بعينه ، ولكنه قليل الكلام فقل وأوجز

فاتجه الشاب المسكين نحوى وقال لهولمز : لقد وددت لو ألقاه وحده . فيا حبذا ياسيدى لو تركتنا قليلاً حتى أفضى إليه بسر حضورى . فضحك هولمز وقال : لا ! لا ! لا يمكننى أن أتركه ، لأننى كاتم أسراره ويده اليمنى . فخشيت أن أظهر الشاب على الحقيقة ، فيسوؤه مزاح هولمز فى ضيّقه

وكان هولمز يلجأ أحياناً لهذه الطريقة عندما يكون متعباً أوعندما يرى أمامه شخصاً خائر القوة، فيحب أن يتجه المحدث إلىّ ليدرسه على غرة منه

فلم أفعل أكثر من أن هززت رأسى وأشرت إشارة الرضى والموافقة

فقال لى الشاب : إذن أتكلم ؟ إن مستر هولمز لا يبعث بالثقة التى توحيها

فضحكت ولزمت صمتى ، ولكن وجه هولمز لم يبد عليه أقل انفعال أو دهشة

وكانت مسز تيرنر قد أحضرت له الشاى فأخذ جرعة واحدة ثم ألقى بالقدح جانباً وقال :

إننى انجليزى كاثوليكى من مقاطعة « سوث سكس » وعندما كنت طفلا ، كان من عادتى أن أتوجه إلى الاعتراف بين يدى قسيس القصر، ثم قصر أسرتى، فاننى أنتمى إلى الأشراف النورمانديين الذين دخلوا هذه البلاد بقيادة غليوم الفاتح .

فقال هولمز وقد اتخذ شخصيتى مؤقتاً :

— إن مستر هولمز لا يهمه كثيراً ذكر الآباء والأجداد وتسلسل الذرارى بقدر ما يهمه أن تدخل فوراً إلى صميم الموضوع

فاحمر وجه الشاب الذى كان شاحباً . ونهض على قدميه ونظر إلىّ وقال :

— إن كاتم أسرارك يهيننى . إننى متخرج فى جامعة اكسفورد وجئت لأمر جدى وأحمل بين أحشائى ناراً موقدة . فالأفضل أن تعيده إلى صوابه وترشده إلى احترام الذين يستحقون الاحترام

فقال هولمز : هون عليك ياسيدي النبيل . إن مقاطعتى أياك نوع من مصلحتك . فان وقت مستر هولمز من ذهب ووقتى أنا أيضاً ، وقد تضيع على نفسك بهذه الفاخرة دقيقة قد تفر أثناءها فرصة العمل . فجلس الشاب هادئاً واسترسل قائلا : عند ما كنت طفلا كان من عادتى أن أتوجه إلى الاعتراف . لشد ما وددت أن يرجع ذلك العهد ، عهد الصبى والطفولة فأعود طفلا يتوجه عند المغرب إلى محراب الصلاة الخاص بقصرنا فى تلك القاعة التى هيئت معبداً وجمت كل ما فى الكنيسة من أسباب الهدوء والبساطة تقوم عليها جدران ناصعة البياض ويرتفع فوقها سقف أزرق اللون تناثرت فيه تصاوير فلكية تمثل الكواكب وقد احتوت عدداً من المقاعد تحمل أسماءنا وأرقام جلوسنا . وكان القسيس الكاثوليكى المحترم هولت يمت إلينا بصلة القرابة ، ولكنه تعلم وتكرس وتناول الأسرار العلوية فى كنيسة نوتردام دي پارى . وكنت عند ما يحين دورى للركوع فى ذلك المعترف الضيق إلى جانب كرسى الاعتراف الذى يضم بدن القسيس الضئيل من فرط التعبد تتسارع دقات قلبي ويستولى علىّ شعور غامض ، وهذه الاحساسات المختلفة وخجلى من الخطايا التى سأعترف بها ، كانت سبب اضطراب أعصابى عندما تأتى اللحظة الرهيبة وأرى القسيس الذى كان يأكل معنا على خوان واحد ويؤهلنا للايمان يصوب إلىّ نظراته رغم أن وجهه الصغير الشاحب يشع منه نور التقوى .

فتململ هولمز فى مقعده ولكنه لم ينبس ببنت شفة . واستمر الشاب يقول :

يالها من لحظة يعقبها ألم عنيف ، يتلوه شعور بالراحة والحرية المطلقة وإحساس بخفة العبء الذى كنت أحمله . ثم توهب لى صفحة بيضاء علىّ أن أملأها بالاعمال الصالحة .

لقد حيل الآن بينى وبين عقيدتى الدينية التى كانت تشعرنى فى السنين الأولى بأن هناك سلطة عليا فيما وراء الطبيعة، وهى التى تسير كل شىء؛ وبعد ذلك أشعر بالحرية التى جددت شباب نفسى ، لأنى اعترفت بأخطائى وذنوبى وطرحت جانباً تلك الأوزار التى تثقل كاهلنا جميعاً .

فأصغى هولمز إلى هـذه النبذة الأخيرة إصغاء تاماً ، وتنهد تنهداً عميقاً وقال :

مرحى مرحى ! الآن دخلنا فى الموضوع ، ولكن السيد النبيل لم يذكر لنا اسمه

فقال الشاب : « أنا اسحق إزموند أوف كنجهام بليس هو رسام سوث سكس »

فقال هولمز : ممّ !

قال الشاب : عند ما بلغت العاشرة فى شهر يونيو سنة ١٩٠٧ كنت بعد ظهر أحد الأيام الدافئة جالساً فى حجرة مذاكرتى ، كما هى عادتى بعد حضور الدروس فى مدرسة القصر وتناول الشاي فى الساعة الخامسة . وكم من مرة زلت قدمى على الدرجات الثلاث المصقولة باتقان وهى الموصلة إلى غرفتى الصغيرة المؤثثة على نسق أنيق وكل ما فيها أزرق اللون ؛ وبين جدران هذه الحجرة أمضيت آخر الأيام السعيدة فى حياتى . إنى لأستعيد الآن كل شىء . كنت جالساً إلى مكتبي مرتدياً معطفاً أسود ومشغولا بحل مسألة حسابية على ورقة مسطرة

وعلى حين غرة سمعت صيحات عالية أعقبتها أصوات ممتزجة فاندفعت إلى الباب لأستطلع الخبر؛ فلما رآنى الخادم وهو ممتقع اللون ساح مذهولا :

آه يا سيدى اسحق ! ياله من سوء حظ مروع وحادث فاجع

وعند ما ثاب إلى رشده قال :

— عد إلى حجرتك فوراً ولا تبق هنا

فلما رأى ترددى أخذ بيدى عنوة وأدخلنى فى حجرتى رغم احتجاجى وإلحاحى عليه لأعرف سبب ذلك الاضطراب الشامل الذى احتوى الدار فجأة ، إلا أننى استطعت أن أفهم أخيراً أن والدى كان قد غادر القصر منذ يومين ولم يعد ، فأقلقت هذه الغيبة الطويلة بال والدتى فبعثت بخطاب إلى صديق الأسرة سير ويتنجهام خطاباً ليحضر . فجاء إلينا بعد العشاء فأفضتني والدتى . ولكنى كنت قد لاحظت بريقاً غير عادى يشع من عينى سير ويتنجهام الزرقاوين اللتين تسودانهما مظهر الجود من وجهه الحاد التقاطيع

فقاطعه هولمز سائلا : صف لى صورة جناب السير فى تلك الحقبة من الزمن التى مضى عليها على الأقل خمس وعشرون سنة

فقال اسحق أزموند :

كان رجلا مديد القامة حليق اللحية كستنائى الشعر وقد احتفظ بشعيرات باهتة اللون تركها تنمو فى مقدمة ذقنه

فقال هولمز : ممّ ! واسترسل الشاب :

وحينا حاولت التوسل للبقاء مع والدتي وسير ويتنجهام لمحت حركة آلية بعصا خفيفة يداعب بها ظهره . ولطالما أعجبت بتلك العصا وبتمثال القاتلين الذى يزين رأسها . وكانت حركته لا تدل على الاضطراب؛ ولكن كيف لا يضطرب سير ويتنجهام لاختفاء أعز صديق لديه ؟ بل على العكس ، من ذلك كان صوته غاية فى الهدوء فأسبغ على عباراته لوناً من الموسيقى العذبة حينا وعد بأن يقوم بكل البحوث الحكمة الممكنة ليهتدى إلى مقر والدى وعلة اختفائه . لطالما تذكرت والدتى تمر بمخيلتى بشعرها

الناعم وعينيها الدعجاوين وشفتيها المرتجفتين ، لقد كانت تحاكي في بياضها لون رداتها في ذلك المساء. وكان سير ويتنجهام كعادته متأنقاً في ملبسه؛ وإني لأتذكر جيداً وجهه الرشيق

مضيت في سبيلي مقتنعاً بما قاله ذلك الرجل فقد كانت له عندي منزلة كبيرة من أعزاز الطفولة . ولم يكن يعاملني قط إلا بالعطف ، ولكنني أخيراً عرفت الحقيقة القاسية فقد ظللت أطرق الباب بعد أن احتجزني الخادم في غرفتي بعنف وشدة منادياً بأعلى صوتي دون أن أظفر بجواب إلى أن جاءت مربيتي جوليا فصحت قائلا :

— أبي ؟ أين أبي !

فقالت المربية : مسكين أيها الطفل مسكين !

ثم احتضنتني . كانت متوفدة لتنبئني بالحقيقة المروعة . ولكن قواها خانتها . ففررت من بين ذراعيها ، وعدوت في طرق القصر وممراته حتى بلغت حجرة رقاد أبي ، ودخلت إليها قبل أن يتمكن أي إنسان من اعتراضي . آه . قد علا السرير جسم متصلب ، وطرحت فوقه ملاءة بيضاء ووضعت تحت رأسه الساكن وسادة من الصوف ، وزال عنه لون الدم والحياة . وبقيت عيناه مفتوحتين ثابتتين . لأن جفونه لم تجد من يغمضها في الوقت المناسب

وكانت ذقنه معصوبة بضماد ، وقد لفت حول رأسه قطعة من القماش الأبيض . وبجوار السرير جثت امرأة لا تزال بثوبها الأبيض الصيق ، وهي حزينة تنتحب ... هذان أبي وأمي !

ألقيت بنفسي عليها وقد ولاني حزن جنوني فتلقتني باشفاق وصاحت قائلة :

— إسحق ! إسحق ! يا ولدي

في تلك الصيحة تجلى حزن عميق ، وفي تلك الضمة شعرت بقلبها الملىء بالآلام يدفىء فؤادي . وبعد برهة قامت وحملتني إلى خارج الغرفة حتى لا أرى ذلك المنظر البشع مرة أخرى . واستمرت تقول : « ليعاقبني الله . ليعاقبني ربي ! » . دون أن تدرك أثر كلامها في نفسي ثم غمرتني بالقبلات ، وبللتني بدموعها في وجهي وعنق ورأسي

عندما طلبت إلى والدتي أن تقول لي كل ما تعلم عن ذلك الحادث الفظيع ، أخبرتني بأن أبي قضي على أثر نوبة قلبية في إحدى مركبات السنر . فظل مجهولاً مدة يومين، لأنه لم يكن مايدل على شخصيته

فسأله هولمز ... وهل صدقت ما قيل لك ؟

قال إسحق أزموند ... رغم حداثتي استغرقت طويلا في التفكير فيما قيل لي ، فلو أن أبي مات بتلك الحالة التي بلغتني ، فلماذا سألني الخادم عند ما خرج بي للنزهة عما قيل لي بشأنها ؟ فلما أجبته لزم الصمت ، وعهدي به ثرثارا كبيرا . وما الداعي لهذا الصمت المبهم الذي أشعر به حولي في كل مكان. في الهواء وخيما على كل الشفاه، ومختفيا وراء كل نظرة

وحدث بعد مرور ثلاثة أشهر أن جاء إلى القصر طفلان في صحبة أمهما ، وهي صديقة حميمة لوالدتي . فاقترب مني أحدهما بعد لعبة الجولف واستجمع شجاعته ثم سألني :

— هل ألقي القبض على قاتل والدك ؟

وقبل أن أفيق من صدمة السؤال قال لي :

— وهل سيعدم موته على المشنقة بعد محاكمته في أولد بيلي ؟

فاندفع الدم إلى وجهي وقلت : لا أعرف !

حدث ذلك منذ خمس عشرة سنة ، ولكني أشعر الآن بضربات قلبي عندما سمعت هذه الكلمات

فقال هولمز وهو يمثل شخصي :

— ولكن أيها السيد النبيل ، لعل مستر هولمز (مشيراً إلي) يسألك ما الفائدة من تشريفه بزيارتك وقد مضى على مصرع المرحوم والدك كل تلك المدة الطويلة؟ فاحمر وجه الشاب وقال :

— إن قاتل أبى لم يعرف. وسأشرح لك سبب هذه الزيارة التى قد تكون حبلى بالفوائد لى ولمستر هولمز. فقد اطلعت أبى على ما سمعته، ولكنى لم أفز منها بطائل. فقصدت إلى خادمنا العجوز مس جوليا. فلم تجد بداً من أن تطلعنى على الحقيقة. فقالت لى إن والدى مات قتيلا، وإن الذى قتله رجل يدعى روتشديل اتصل به قبل مصرعه ببضعة أسابيع وزعم أنه وكيل إحدى الشركات التجارية فى الهند. وقد جاء إلى انجلترا لمفاوضة والدى فى بعض أعمال تهمه. ثم دعاه إلى فندق والمعروف وهو الذى كان الرجل روتشيلد نزيلا به، وهناك وقعت الجناية واختفى روتشيلد اختفاء غريباً ولم يعثر له على أثر.

فلما سمع مستر هولمز اسم روتشديل تقفز من مقعده ولمعت عيناه، وأخذ يسير فى الغرفة ذهابا وجيئة كمن مسته الشياطين.

وتذكرت لجأة الاسم الذى كان يهتف به قبل مقدم اسحق ازموند الذى ازعج رؤية هولمز فى هياجه والتفت إلى وهمس فى أذنى: إن كاتم أسرارك رجل غريب الأطوار ويجب أن تستبدل غيره به.

فأجابه هولمز من آخر الغرفة:

— هدىء روعك أيها السيد النبيل فان مستر هولمز سيعزلنى بمجرد الانتهاء من كشف القناع عن مقتل المرحوم والدك فارتبك اسحق عند ما علم أن هولمز سمع همسه. واستمر هولمز قائلا:

— ولكن قبل أن نبت فى هذه المسألة أجبنى على سؤالى؟ هل تزوجت والدتك من سيروتينجهام صديق الأسرة الذى وصفته لنا؟

قال اسحق وهو بين الذعر والدهشة:

— نعم، من ذا الذى أخبرك؟

قال هولمز: وكان هـذا الزواج فى تمام العامين من مصرع أبيك؟

فقفز اسحق من مقعده وقال:

— نعم ياسيدى. إنك منجم حاذق

وقبل أن يفيق اسحق من دهشته قال له هولمز

— لقد عجز المحققون، لأن القاتل لم يسلب والدك نقوداً ولم يكن لأبيك أعداء فى الهندولا فى سواها.

فقال اسحق نعم نعم ياسيدى السكرتير أظن اسمك دكتور وطسن

فقال هولمز — إن الأسماء لا تهم بقدر ما يهمنا الوقوف على الحقيقة.

فقال اسحق — نعم ياسيدى وكان هذا الزواج الحادث الثانى فى حياتى.

فقال هولمز — بقى عليك أن تقص علينا مسلك زوج أمك بعد أن عقد عليها.

فقال إسحق: اسمح لى أن أشرب قليلا من الشاى، فانى لم أتذوق شيئاً منذ ثلاثة أيام

فابتسم هولمز وأمره بنداء كامل وقال له: وقد حضرت من بورغوث حيث تقيم بمفردك إلى هنا فى مركبة (دوجكارت) يجرها جواد واحد

فضحك إسحق وقال: نعم وقد تركته باصطبل فولكنر وجئت سائراً على قدمى حتى بللنى المطر. يا ليتنى عرفتكما منذ خمس سنين بعد بلوغ رشدى..

فقال هولمز: إن الوقت لحسن الحظ لم يفت

قال إسحق: أحسست بكراهة غريبة مبهمة لا أستطيع تفسيرها نحو سيروتينجهام زوج والدتى؛ وكنت أتجنب لقاءه بسبب الجفاء الذى كان يقع بيننا عند ما تتلاق أبصارنا... بيد أنه كان بجميع تصرفه يستدر عطفى ويستدرج ولائى. وكان جميع أمره ينم عن رقة ودماثة أخلاق تخفى وراءها دهاء عميقاً وحذراً يقظاً. إذ أنه لما بلغت مبلغ الرجال أبى أن ينقص شيئاً من إيرادى الخاص، مما أنفق فى تعليمى فى إيتون وأكسفورد. واتفق ووالدتى على تقديم ثروتى وافر دخلها إلى منذ وفاة أبى كاملة لم تمس. فوجدت بين يدى فى سن الشباب أموالا طائلة

ولكن هذه الأموال لم تغرني بشيء مما يغري الشباب ، إذ كانت رغبة الثأر والانتقام لوالدي تتأجج في صدري كالنار المشتعلة . وكان كل همي موجهاً إلى معرفة القاتل . وهل هو على قيد الحياة؟ وما سبب جنايته على والدي المسكين ... ؟ ولكن كل ما انتهى إليه استقصائي كان أن والدي قد قتل غدراً بيد ذلك الرجل الذي يدعى روتشديل ، وإنه لا بد أن يكون انجليزياً أو أمريكياً كما شهد مدير الفندق وسائر خدمه . فاتصلت برجال سكوتلانديارد وبمستر مارشال هول ، وهو المحامي الذي تولى الدفاع عن حقوقي ، وبلورد بروكلاند قاضي التحقيق الأول فأطلعني على ملف الدعوى ولم يكن فيه أكثر مما عرفت . وأرشدني إليك قائلا :

— إن مستر هولمز عقل جنائي هاو ولكنه أحذق من شخص قضية . فلما قابلت مستر بارمور رئيس شرطة سكوتلانديارد أحبط عزمي زاعماً أن مستر هولمز فيلسوف نادر المثال ، له شطحات تقصيه عن المرمى وإن كان يصيب الأهداف أحياناً . ولكنها ليست القاعدة . وقال : « خصوصاً وإن حدة الجريمة أخذت تخف وتبرد في الصحف والمنتديات ، وإن مستر هولمز لا يصلح للضرب على الحديد البارد » . ففترت همتي عن الحضور إليك . ولكنني الآن أعض بنان الندم ... ساءلت نفسي : أيمكن أن يضيع دم أبي هدراً ..؟ صار الأخذ بالثار محور حياتي وهدفي المقدس ، ولكن كيف أنتقم ؟ فعدت لا أطيق المقام في جو يعيش فيه وتنجهام ووالدتي ، فاتخذت مسكناً خاصاً واكتفيت بزيارتهما فلا أزورها إلا لماما

وفي أحد الأيام ناولني الخادم رقعة ممهورة باسم خادمنا الأمينة جوليا وهي التي تعهدتني طفلا وسهرت على فتى ويافعاً . قد آثرت أن تعيش بعد وفاة أبي في كنف عمتي في الريف . وكانت تحوي هذه الرسالة أن عمتي مريضة جداً . فسافرت تواً إلى قرية كنيلورث ، وكانت جوليا أول من لقيني ، وكانت عمتي نائمة على فراشها ، فلما استيقظت رأتني وكان المرض قد أعجزها عن الكلام . فأشارت بيدها الكليلة إلى صوان إشارة فهمت منها أنها تريد أن أحضر منه صندوقاً فأحضرته وتناولته بيديها المرتجفتين وأخرجت منه حزمة من الرسائل واتجه بصرها نحو المدفأ . ثم اعتدلت في فراشها بجهد شديد وألقت بحزمة الرسائل لتكون طعمة للنار قبل أن يقرأها إنسان في العالم . ولكن الرسائل لم تبلغ مدى النار ، فوعدتها أن أقوم باحراقها فاستسلمت للنوم ولم تمض ساعات حتى لفظت آخر أنفاسها

واعتقدت أن تلك الرسائل ربما تلقي شعاعاً هادياً على سر مصرع أبي فلم أنفذ وصية عمتي لأن رغبتي الملحة في الانتقام كانت أقوى من عاطفة الوفاء لوصية المرأة النبيلة

فقال هولمز : كانت هذه الرسائل بالطبع مؤرخة في نفس العام الذي قتل فيه أبوك ، وكان اسم وتنجهام يتردد فيها بكثرة ، وكان والدك يصف حالته النفسية إزاء ذلك الرجل ، وإنه يحس بأنه يحب والدتك حباً قوياً ويخفيه بمكره ودهائه ، وإن أمك بادلته الحب فترك والدك مزاحه على قلب زوجته ينشي القصر وهو يتعذب بعذاب الغيرة القاتلة !

فنهض إسحق أزموند من مقعده وضم مستر هولمز إلى صدره ضما عنيفاً وقال له : أيها الرجل إنك تعرف أكثر مما أعرف فقل لي بربك من قاتل أبي ؟

فابتسم هولمز وقال له : هدئ روعك أيها السيد النبيل . إن الأمر ظاهر كالشمس فلم يكن رجل أفاد من مقتل أبيك سوى سير وتنجهام الذي صار زوجاً لأمك ، ولكن يعوزك الدليل الحاسم

فقال أزموند : ولكن لم خفي هذا الأمر الواضح على هؤلاء البلهاء الرسميين في سكوتلاند يارد ؟ إلا أن شيئاً هاماً طرأ على الموقف وهو مرض وتنجهام

فى الأيام الأخيرة بنوبات قلبية

وبينما كنت أمس فى زيارة أمى وكان زوجها مريضاً قالت لى والدتى وهى تصحبنى إلى باب القصر إن النوبات التى تصيبه تزداد يوما فيوما وأن سببها أخ شقيق له مناس فاسد الأخلاق فر من الجندية ثم ادعى أنه انتحر ، وساعده على هذه الدعوى سير ويتنجهام نفسه ليزيل عن أسرته هــذه الوصمة . واستطاع هذا الرجل الشرير الذى بدد ثروته فى الحانات وبين النوادى أن يسافر إلى أمريكا باسم مستمار ولكنه عاد أخيراً إلى هذه البلاد معدماً وأخذ يتهدد أخاه ويصحب تهديده بطلب المــال وإلا قدم نفسه للحكومة مثبتاً أنه لا يزال على قيد الحياة وأن الذى أعانه على الفرار هو شقيقه

فقال هولمز — من الواضح أن هذا الشقيق العابث المستهتر المتردى فى حمأة الرذيلة الذى يتهدد سير ويتنجهام حتى أصبح مصدر رعبه ليس إلا الرجل الذى تسمى باسم روتشديل وأنه قاتل أبيك بنفسه، وأن زوج أمك قد استتل أعطافه وتهوره فى تنفيذ جريمة القتل فلم يكن سوى الآلة التى نفذت الجريمة . فبهت اسحق ازموند وقال إذن ... فقاطعه شرلوك هولمز قائلا : هل لديك صورة للمرحوم والدك ؟ فبادر اسحق إلى إخراج غلاف من جيبه كانت فيه صورة أبيه فنظر هولمز إليها ثم إلى وجه محدثنا . وأشار إلى إشارة فهمت منها أنه يتأهب الخروج فى صحبة ازموند

فقلت لازموند : لقد طالت المهزلة . إن محدثك هو مستر هولمز نفسه أما أنا فصديقه دكتور وطسن وهو يريد أن يصحبك فضحك هولمز وقال :

— أردت أن تأخذ قسطك من الحرية فى مخاطبتى . وعليك الآن أن تعود إلى بعد ساعة مرتديا بثياب تماثل الثياب التى كان بها والدك يوم مقتله

فقال اسحق — لقد أخذت له هذه الصورة يوم مصرعه ولم نحصل عليها من المصور إلا بعد وفاته بشهر وقد علم باسمه من الصحف

فقال هولمز — لقد قدم لك قبل موته وسيلة لاتمام انتقامك، وسوف ترى. وخرج اسحق مهرولاً

وبدأ هولمز عمله فاتصل بالتليفون بالشرطة العامة والخاصة وبنصف فنادق لندن ، إلى أن اهتدى إلى مقر الرجل ؛ وكان الاسم الذى اختاره جون برود كاست وقد أنفت به لادى ويتنجهام نفسها لوالدها وهى لا تدرى عاقبة الأمور

فقلت لهولمز — وماذا تريد الآن ؟

قال — أهاجم القاتل فى مكنه. ولما كان الشبه بين اسحق ازموند ووالده شديداً فان ظهور النجل أمام القاتل فجأة سيلقى الرعب فى نفسه . ثم نناديه بالاسم الذى عرف به إذ ذاك وهو روتشديل . وعندئذ لا يجد مفراً من الاعتراف بسبب هذه المفاجأة

وفى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر دخل علينا اسحق وهو فى صورة والده المتوفى منذ خمس عشرة سنة فدهشت، ولكن هولمز هز رأسه قائلا : إن قوانين الوراثة لاتخون ولاتكذب . وقال لاسحق : سأذهب معك فى هيأة تابع لك أحمل حقيبتك . وانحدرنا إلى الشارع وركبنا « هانسوم كاب[1] »

وفى طريقنا سأل اسحق :

— هل نقبض عليه اليوم ونسلمه إلى الشرطة ؟

فأجاب هولمز — أبداً. إن تتلنا عليه سيوصلنا بسهولة إلى شقيقه سير وتنجهام إذ أنه قبيل قتل والدك كان فاراً من الجندية ومقيما بأمريكا وكان فى نظر العالم قد انتحر . فلا بد أن زوج أمك أرسل إليه بعض رسائل خاصة بتدبير الجريمة ليستقدمه إلى انجلترا وهذه الرسائل ذات قيمة عظيمة ، لأنها الحجة الوحيدة التى بيد قاتل أبيك الآن وهى التى يتهدد شقيقه بها لابتزاز ماله . فرغبتى الآن منحصرة

(١) نوع من مركبات الأجرة يكون سائقها خلف الراكب

في الحصول على تلك الرسائل من شقيق زوج والدتك بأى ثمن . أما القبض عليه فقد انتهيت هذا الصباح من الانصراف عنه لأنه لا يتفق وخطتى، إذ سيضطر المحققين إلى سؤال والدتك وهي في اعتقادى بريئة من تدبير الجريمة . فتناول اسحق يد هولمز وهم بتقبيلها وبكى . فقال له هولمز : إنى أفهم عواطفك فأخرج الشاب من جيبه محفظة نقوده وقال له : هذه لك خذها . فرد هولمز يده بلطف وقال : آسف ياسيدى إنى لا أتناول أجراً على عملى

وصلنا إلى الفندق وبقيت في الممر الموصل إلى الغرفة التى بها الرجل الذى نعتقد أنه القاتل واتجهنا صوبها، ولم يكن لحسن الحظ بالبهو أحد. وفتح اسحق الغرفة فجأة وكان بها رجل موليا ظهره للباب ، فلما فتح اتجه نحوه فصاح به اسحق ازموند : روتشديل

فعراه اصفرار مهول وتساقط العرق من جبينه وصاح صيحة مكتومة : ــ ازموند !

وقبــل أن يأتى بأية حركة صوب هولمز نحوه مسدساً وتهدده بالقتل إذا تحرك . فلم يستطع الانكار طويلاً وقد ظن أولاً أن أخاه قد وشى به ليتخلص منه وقال : ماذا تريد منى ؟

فأجابه هولمز : إنى أريد الرسائل وسأعطيك بها ثمناً ضخماً لتهرب . أعطنى الرسائل فقط . فانتهز الرجل فرصة سانحة وقلب المنضدة وانقض على هولمز فاشتبكا في صراع عنيف فانتصر عليــه هولمز وقــد أعجبت بثبات إسحق أزموند وفقاً لأوامر هولمز ونواهيه، فسلم الرجل الرسائل وأعطاه إسحق خمسمائة جنيه وسمح له هولمز بالخروج على أن يغادر شواطىء انجلترا في نفس اليوم وبعد أن خرج سأل إسحق مستر هولمز كيف نسمح له أن يفر ؟

فقال هولمز : إن شقيقه زوج أمك هو المقصود بالذات . وبيننا وبينه سيكون الموقف الفاصل .

وعدنا إلى ٤٠ بيكر ستريت فبدلنا ثيابنا وقصدنا تواً إلى مقر سير ويتنجهام في قصر أزموند بسوث سكس . وكان سير ويتنجهام قد أبل من مرضه ، وزوجته خرجت لزيارة بعض صديقاتها فقصدنا تواً إلى غرفة المكتبة كما أخبرنا الخادم . فلما رأى الرجل ابن زوجته مد يده للمصافحة . فأبى أن يبادله التحية فدهش ولكنه لم يقل شيئاً وقال له إسحق أزموند : دعنا الآن من النفاق فقد مللته

فقال الرجل ماذا تعنى؟ ومن هذان السيدان ؟

وبعد إطلاعه على الرسائل التى كتبها بخطه إلى أخيه استسلم إلى الاعتراف. فأعطاه إسحق مهلة يوم لينتحر انقاذاً لشرف المرأة التى ظلت بضع سنين زوجاً لقاتل زوجها الأول . فأبى ذلك وطلب بضعة أشهر متعللا بمرضه ودنو أجله

وقبــل أن يتمكن هولمز من أن يحول بينهما اندفع اسحق ازموند بجنون وتناول خنجراً كان كان معلقاً فوق رأس الجانى وأغمده إلى مقبضه في في قلب غريمه وهو لا يعى شيئاً مما يفعل .

فصرخ سيرويتنجهام صرخة مكتومة قوية أشبه بالزئير وكأنما حاول استخراج الخنجر من موضعه

فقال هولمز : إنه متشبث بالحياة لأجل المرأة التى أحبها وأجرم في سبيلها ، وبسرعة غريبة اتجه المطعون نحو مكتبه وكتب بضع كلمات على ورقة ثم سقط على الأرض ميتاً واتجهت أعيننا إلى المكتب وتناول هولمز الورقة وكان قد كتب عليها

« سامحيني يازوجتى الكريمة فإني قد انتحرت تخلصاً من آلامى وأمضى باسمه

فقال هولمز : لقد أراد أن يخلصك من جرم مصرعه بأن يثبت انتحاره ، لا حباً بك ولكن ليلزمك الصمت فلا تعلم والدتك عن جرمه شيئاً

وخرجنا دون أن يلحظ أحد شيئاً وكانت اللادى ما زالت خارج القصر

محمد لطفى محمد



كان الملك أسركاف من أجل ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر حكماً اقترن فيه العدل بالرحمة والحزم بالكياسة والقوة بالمحبة ، وكان من سياسته — لدى أول عهده بالجلوس على العرش — أن عبأ جيشاً قوياً زحف به على الصحراء الغربية ليقضى على شوكة القبائل الرحالة التي أطمعها ميل الملوك السابقين إلى السلام — في نهب القوافل وسلب قرى الدلتا والاعتداء على الآمنين ، فانتصر عليها انتصاراً مبيناً وشتت قواها ورجع من غزوته بجيش من الأسرى وأثقال من الغنائم، ووطد بذلك سلطانه وفرض هيبته وأعلى كلمة مصر وكفى أهلها شر القبائل المتوحشة ، والتفت في ظل السلام والطمأنينة إلى حالة البلاد الداخلية وأولاها عنايته وحبه ، فشق الطرق وحفر الترع وأقام لنفسه هرماً منيفاً في أسوان عاصمة ملكه، فكان عهده عهد أمن ورخاء وتعمير ، وعاش الملك بين شعبه المجيد سعيداً مطمئناً يثلج صدره ما يجد من حب رعيته له ويسعد أيامه ولياليه ما يلقى من إخلاص نفر من كبار رجاله يتفانون في محبته؛ وكانوا له نعم المولى ونعم الصديق، من هؤلاء سحوري ابنه وولى عهده، وحروري رئيس وزرائه، وسمن كبير كهنة الرب خنوم، وسمنزى القائد العام للجيش المصرى

وكان من عادة الملك الصالح أن يذهب كل صباح إلى معبد خنوم للصلاة والعبادة ، وفي ذات مرة دخل إلى قدس الأقداس وخلا إلى تمثال الرب ولثم قدمه ثم صلى صلاة حارة وشكر الرب كثيراً وعدد آلاءه ونعماءه وختم صلاته بقوله : « الحمد لك يا أبي خنوم لما أوليتني من حب الناس وإخلاص الأصدقاء فإن حب المخلوق من رضا الخالق ، وليس أسعد في الدنيا ممن تسعد القلوب لسعادته وتشقى لشقائه »

ولأن الناس في تلك الأزمان كانوا يعبدون الآلهة بقلوب ملؤها الاخلاص والايمان والسذاجة فقد كانت الآلهة تكرمهم بالحديث تارة وبالمعجزات تارة أخرى ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يسمع فرعون صوتاً سماوياً يقول له :

— لقد منحتك حكمة أيها الملك فلماذا تطمئن إلى الناس كل هذا الاطمئنان ؟

فعجب الملك لقول الرب ودب القلق في قلبه فقال في قنوت وخشوع :

— أيها الرب المعبود ... لقد خدمت شعبي باخلاص فصدقني الحب ، ووفيت لأصدقائي فحق عليهم الوفاء لي ، فكيف يجوز لي أن أدع الريبة تنفذ إلى نفسي ؟

فقال الصوت السماوي الذي يجل عن الوصف والشبيه :

— أنظر إلى الشجرة المورقة التي تملأ الجو بالأغصان وتتلفع بالخضرة اليانعة كيف يفيء الناس إلى ظلها الممدود يحتمون به من أشعة الشمس ويقطفون ثمارها الدانية ، وانظر إليها إذا جرد

الشتاء عليها الرياح الباردة فتساقطت أوراقها وذبلت أغصانها وتمرت جثة بالية لم يصنها تحنيط ، كيف يهجرها الناس ويقطعون أغصانها ليلقوا بها فى النيران ... !

وعاد الملك إلى قصره حزيناً كئيباً يستعيد ما قال الرب ويتأمل فى معانيه ، فيوسوس الشك فى صدره ويرن القلق على قلبه ، ومضى يستحضر ذهنه الوجوه العزيزة التى عاشرته الأعوام الطويلة فى مودة وصفاء — لأول مرة — فى هالات من الريبة تكشف خلف أحاديثهم الرقيقة عن أكاذيب معسولة وتستشف وراء ابتساماتهم رياء مقيتا وترى فى فروض الطاعة التى يلتزمها أثراً الرهبة والخوف ، وطغت موجة عارمة من سوء الظن على نفسه فجعل يرجع إلى الماضى السعيد المنطوى يلطخ صفحاته الناصعة بقاذورات الظنة والشك فبدت له حياته التى آمن يوماً بأنها سلسلة من السعادات غفلت عنها عين الأقدار . . . خدعة نكراء وشقاء قابعاً خلف قناع سعادة زائفة

وفطن الأمير سحورى إلى حالة الملك الغريبة فتبلبل فكره وركبه الهم وسأل أباه عما يكدر صفوه وكان الأمير يحب والده حب عبادة ، وكان الملك يحب ابنه كأعز شىء فى دنياه ، ويثق به ثقته بنفسه فبثه حزنه ، وأفضى إليه بمخاوفه ، وروى له حديث الرب خنوم . واستولى الارتباك على الأمير ولم يدر كيف يطرد عن أبيه أشباح الشكوك ، وكان الملك لا ينقطع عن التفكير فقال لولى عهده :

— أنا لا أستطيع التنكيل بالمنافقين مالم يقم لى الدليل المحسوس على نفاقهم وقد اهتديت إلى طريقة أكشف بها عن خبيئة نفوسهم فاصغ إلى يابنى . سأقوم من الغد برحلة إلى بلاد بنت ، فتول أنت مهام الدولة فى أثناء غيبتى ، وانتظر أياماً ثم أعلن نفسك ملكاً على وادى النيل ، وأطمع صحابتى فى جاهك ومالك وعدهم ومنهم كى يخفضوا لك جناح الذل والطاعة ولنر ماذا يكون من شأنهم ...

ولكن قلب الأمير نفر من تدبير فرعون واحتج قائلا :

— أضرع إليك يامولاى ألا تحملنى على موقف أشهر به عقوقى على العالمين ! وألا ترضى بنية طويلة تحرم قلبى من طمأنينته وتسلب الشعب سهرك عليه وعنايتك به .

ولكن الملك أبى على عواطفه وبدد مخاوفه وحله على الرضوخ والاذعان وذهب إلى الملكة الشابة تاي — وهى غير أم ولى العهد التى ماتت منذ عهد بعيد — فودعها كما ودع كلبه الحبيب زاى، ثم ركب سفينة تجارية أبحرت به إلى بلاد بنت المقدسة منبت البخور العبق ؟ وعاش عهداً غير قصير يتنقل بين ودیانها الخصبة فيلقى الاكرام والترحيب اللذين كان يقابل بهما رعايا فرعون أينما حلوا وحيثما نزلوا ... وكان لا ينفك يفكر فيما عسى أن يلقاه من رعيته وصحبه حين أوبته وكان كلما لج به سوء الظن وأورده مهالك الأوهام والهواجس فر إلى جميل الذكريات المنطوية يستدر ثقتها ويستلهمها الصبر والطمأنينة ، فلما أن ضاق صدره بالقلق والوساوس وغشيت قلبه وحشة الغربة عزم على العودة إلى وطنه فجمع متاعه القليل وأبحر على ظهر سفينة مصرية أرست به على شاطىء الأرض التى أفنى زهرة عمره فى سبيل إسعادها ، وقصد من توه إلى أقرب قرية واختلط بأهلها وهو فى ثياب

القرية حتى أنسوا به فسأل جماعة منهم يوماً قائلا :

— من ملككم أيها الرجال ؟

فأجابه شاب لفحت الشمس وجهه وفتل الفأس ساعديه .

— المبارك اسمه سحوروى

فسأله الملك :

— وكيف ترونه ؟

فقال الشاب بحماس أمن عليه رفقاؤه :

— هو ماؤنا إذا النيل نضب وساعدنا إذا اشتد الخطب وادلهم

فسأله الملك :

— فكيف تذكرون أسركاف ؟ فقال :

— بالخير لولا أنه فى ميدان وملكنا فى ميدان

فتنهد الملك وسأله بصوت حزين :

— كيف خذلتموه وقد كان لكم نعم الولى ونعم النصير ؟

فحدجه الشاب بنظرة قاسية وقال له وهو يوليه كشحه .

— إن العصيان شر لعنته الآلهة ...

فهجر الملك القرية حزيناً وسار إلى النيل إلى عاصمة ملكه ، وولى وجهه شطر معبد خنوم وطلب مقابلة الكاهن الأكبر سمن فدعى إلى المحراب ولما رآه الكاهن عرفه بالرغم من ثيابه القروية فبدت عليه الدهشة وتولاه الانزعاج وهتف بصوت مبحوح :

— مولاى الملك أسركاف

فابتسم الملك ابتسامة مريرة ساخرة وسأله كالمفكر

— كيف تدعونى بمولاك الملك وقد باركت بالأمس عاصياً غاشماً اغتصب عرشى ؟

فاضطرب الكاهن وزاغ بصره وقال بتلعثم :

— مولاى ، وما عسى أن يفعل رجل ضعيف مثلى لم يعد للقتال ؟

— ليس القتال فريضة على كل إنسان ولكن الوفاء واجب محتوم على كل رجل فاضل ، فكيف تخلد إلى خدمة من غدر بمولاك وولى نعمتك ؟

واشتد الارتباك بصديق الملك القديم واعتلته حيرة ، فلم يحر جواباً ، فقال فرعون :

— تستطيع يا سمن أن تكفر عن ذنبك بأن تعلن على الملأ عدم شرعية ولاية ابن سحوروى فتقدم إلى خدمة بطمعى فى أداتك لما عاهدته فيك من الوفاء فى عهد مضى

ولكن الكاهن ذعر وارتعب وقال بتضرع :

— لا أستطيع يامولاى ... إن واجبى خدمة الرب لا خلع الملوك

فصمت الملك لحظة يطارد بعينيه المستعرتين عينى الكاهن اللتين تتحاشيان النظر إليه ، ثم ولاه ظهره دون أن يزيد وترك المعبد كئيب النفس ضيق الصدر يعض أنمله حسرة وأسفا

وأسرع الخطى إلى قصر رئيس الوزراء حرورى وطلب الاذن بمقابلته ولكن الخدم احتقروا هيئته الزرية فهموا بطرده فتوسل وتضرع فما زادوا إلا استكبارا فقال لهم إنه صديق الوزير وسمى لهم اسما يعلم أنه من المقربين ، فأذن له بالدخول وما إن وقع نظر الوزير على القادم حتى فزع قائما وقد أثلجت أطرافه واتسعت حدقتا عينيه وصاح بلا وعى :

— مولاى

فقال الملك بهدوء :

— طيب الرب أوقاتك أيها الصديق حرورى

فاستولى الهلع على قلب الوزير وسأل مليكه السابق فى لهفة :

— هل رآك أحد وأنت تدخل بيتى ؟

ففطن الملك إلى الباعث على هذا السؤال وبدأ يستشعر اليأس والقنوط فقال :

— نعم أيها الصديق رآنى الخدم وجمع غفير ممن يجتمعون ببابك

فسأله بصوت بحه الفزع :

— وهل عرفك منهم أحد ؟

فقال الملك :

— لا أدرى

فصاح الوزير :

— واضيعتاه لو علم الملك بزيارتك لقصرى

— وهل تخاف هذا الناصب العاق ؟

— كيف لا ؟ أتوسل إليك أن تغادر قصرى من الباب الخلفى

— أو تطردنى أيها الصديق حرورى ؟

— معذرة يامولاى ، إن ظرفى دقيق وإنى أضرع إليك باسم صداقتنا القديمة

فضحك فرعون ساخراً ، ورأى رئيس وزرائه فى حالة من الهلع رثى لها فلم يجد به من فائدة ترجى ولم ير بدأ من مغادرة القصر من حيث أراد صاحبه فغادره وقد اعتلاه الحزن وران على صدره الندم...

ولم يبق من أصدقائه سوى القائد سمنرى ، وبالرغم مما حل به من الفشل لم يقو سوء ظنه ومرارة نفسه على زعزعة ثقته به لأنه كان رجلا شهما باسلا وعظيم الاخلاص ، ميزته الأرباب بطبع لاتطمع فيه الخيانة ولا الدنايا، فقصد إليه ببقية أمل وطلب الاذن بالدخول عليه . ولما وقعت عليه عيناه حن قلبه إليه فصاح به وهو يفتح ذراعيه له :

— أيها القائد سمنرى ... ألا تذكرنى ؟

وبهت القائد وقام واقفا منزعجاً وقال بدهشة :

— مولاى الملك أسركاف

فقال فرعون برجاء :

— نعم هو بذاته وبؤسه وأسفه

ولم ير القائد ذراعى الملك المفتوحتين وبدت على وجهه آى الصلابة والشدة ، فسأل مليكه السابق بجفاء قائلاً :

— هل يعلم جلالة الملك بدخولك مملكته ؟

فبهت أسركاف وسقطت ذراعاه فى خيبة مرة وقال باقتضاب :

— كلا

فسأله القائد بلهجة أشد من الأولى :

— وماذا جئت تفعل فى مصر ؟

فقال الملك :

— جئت أستصرخ أصدقائى القدماء

فتقدم القائدمن فرعون وقال بلهجة عسكرية :

— إن واجبى كقائد الجيش المصرى يقضى على بأن ألقى القبض عليك باسم الملك

فقال له أسركاف :

— ألا تعلم أنى أنا الملك الشرعى . فقال القائد وهو يضع يده على كتفه :

— إن لمصر ملكاً واحداً لا أعرف سواه

وأيقن فرعون بعبث الجدل فاستسلم القائد وترك له نفسه يسير به إلى القصر الفرعونى ودخل القائد إلى بهو العرش يسوق بين يديه الملك ، ورأى أسركاف ابنه جالساً على عرشه ومن حوله رجال مملكته وعلى رأسهم حرورى وبعين فطن أنهما يإدرا

إلى المثول بين يدى مولاهم لينبآه بظهوره ، وحدّ فى نفسه مجيئهما ليشهدا ويشهد معهما القائد صعوده إلى عرشه وتسلمه الأمانة التى أودعها يدى ابنه الأمينتين فيذوقوا جميعاً من الخزى والعار وتذهب نفوسهم الخبيثة حسرات وتتقطع ندما ...

ونظر الملك إلى ابنه وابتسم إليه ابتسامة ذات مغزى عظيم وهم بالكلام لو لا أن سمع نباح كلب عالياً ورأى زاى يتخطى صفوف الحرس ويهرع إليه بقوة لا ترد ويثب عليه بيديه ويوسعه حنيناً دل على الجوى والشوق ، وما استطاع أن يهدئ ثائره ويطيب خاطره إلا بعد جهد جهيد، وغلب التأثر على الملك فتقدم إلى عرشه بخطوات ثابتة حتى أوقفته أيدى الحرس ، فاستولى عليه العجب ونظر إلى ابنه وقال:

— قم يا بنى فقد انتهت تجربتى ودعنى أمثـل بهؤلاء المنافقين

ولكن ابنه لم يقم ولم يتخل له عن مكانه وقال له بعظمة السلطان :

— ماذا جئت تفعل هنا أيهـا الرجل الذى أعطته الآلهة ملكا واسعاً فتهاون فى حقه وذهب يلهو فى بلاد بنت ؟

فوقع قول الابن على أبيه وقوع القضاء، فاتسعت عيناه وجرت فيها الدهشة والجنون وجعل يقلب وجهه الذاهل بين ابنه المتجرف ورجاله الشامتين. ولم يصبر عليه ابنه فقال له بقسوة :

— يحق لى الآن أن أفصل رأسك عن جسدك ولكنى لا أنسى أنك أبى ولا أحب أن أرتكب تلك الجريمة التى تستنكرها تقاليدنا فأوسع لك من صدرى صبراً وأمهلك يوماً تعد فيه عدتك ومن ثم تنفى إلى بلاد النوبة ...

وأثنت الحاشية على بر الملك ولهجت ألسنتهم له بالدعاء ؛ أما أسركاف فقد اشتد عليه البلاء حتى ألجم منه اللسان وشلت الأعضاء ، وكان زاى قد أحس بألمه فجعل ينبح ويتحسس عباءته التى عفرها التجوال

وأفاق الملك إلى نفسه فثار على ضعفه وتمالك زمام نفسه وقال لابنه :

— والملكة تاى ؟ . فقال له ابنه :

— هى الآن ملكة مصر السعيدة

فتنهد الملك وقال :

— هل أطمع فى أن تأذن لى فى اصطحاب زاى ؟ فقال :

— إنك هذا فقد ضايقنا بنباحه !

وغادر الملك أرض مصر ملوماً محسوراً يقلب كفيه من الألم والحزن وسوء المصير وولى وجهه شطر الجنوب يتبعه كلبه الأمين وحط فى بلاد النوبة وعاش بين جبالها فى عزلة رهيبة لا يكلم إنسيا، فاذا ثقل عليه الهم والألم بث شكواه المخلوق الوحيد الذى صدقه الحب ومحضه الوفاء واحتمل وحشة العزلة صابراً من أجله

ولم يدعه حاكم النوبة المصرى فى عزلته طويلا فزاره ودعاه إلى زيارته ولم يخف عنه المودة والاكرام وما لبث الملك أن اكتشف خبيئة نفسه فوجده حاكما متذمراً يرى منصبه فى بلاد النوبة غبنا له وسوء تقدير لخدماته ومؤهلاته . فالتمع فى قلب الملك بارق أمل فاستثل سخط الحاكم ووعده ومناه حتى حمله على تجريد حملة من النوبيين والمصريين، سارا على رأسها صوب الشمال ، وأعد الملك سحورى جيشا لتأديبهما والتحم الجيشان فى معركة فاصلة حالف

النصر فيها الملك أسركاف فدخل عاصمة ملكه فاتحاً وقبض على ابنه وأصدقائه القدماء وأودعهم غيابات السجون ...

ولما علمت الملكة ناى بانتصار جيش زوجها السابق تولاها الخوف فقتلت نفسها وفوتت على الملك فرصة الانتقام منها ، على أن الملك لم يرض أن يبت فى أمر من الأمور ولا أن يقرر مصير أحد من أسراه إلا حين يسكت عنه الغضب وتهدأ نشوة الانتصار فى نفسه ويجد فرصة طويلة للتروى ومهلة للتفكير . وسهر ليلة طويلة يفكر ويديم التأمل حتى اهتدى إلى رأى ...

وفى الصباح أمر بابنه وصحبه فجىء بهم إلى عرشه وكانوا جميعاً منكسى الذقون زائغى النظرات ترهقهم ذلة ويشملهم قنوط . فتأملهم الملك ملياً وعلى شفتيه ابتسامة غامضة ثم قال بهدوء عجيب :

— لقد عفوت عنكم جميعاً

فاستولت عليهم الدهشة ولم يصدقوا آذانهم ونظروا إلى الملك الجالس على عرشه بتهيب وتبادلوا نظرات التعجب والحيرة وعدم التصديق ، فقال الملك بهدوئه العجيب :

— إنى أعنى ما أقول أيها السادة ، لقد عفوت عنكم فعودوا إلى مناصبكم وباشروا أعمالكم بالهمة والاخلاص اللذين عهدتهما فيكم

ولم يستطع حاكم بلاد النوبة صبرا فقال :

— أتعفو يا مولاى عمن اغتصب عرشك وطردك من مملكتك بلا رحمة ؟ أتعفو عنهم يامولاى وما يزال عالقا بأرديتهم أثر الدم الذى سفكوا فى قتالك ؟

فابتسم الملك وقال بتهكم :

— من لى بولى عهد جديد ؟ ومن لى بكاهن أتقى من خنى أو وزير أقدر من حرورى أو قائد أبرع من سمنرى ؟ بل يا ليت الملكة ناى لم تسارع إلى القضاء على نفسها إذاً لأجلستها إلى جانبى على هذا العرش مرة أخرى ، أما الاخلاص أيها الحاكم فقد أمسيت أسىء الظن بجميع البشر ، ولست أعظم ثقة بك نفسك من هؤلاء ، وإن جميع الناس ليأوون إلى ظل الشجرة المورقة فاذا عرّاها جدب الشتاء هجروها غير آسفين ، ولن يجديني قتل هؤلاء قتيلا كلا ولن يبدلنى بهم من هم خير منهم

وعاش الملك أسركاف بقية عمره فى عزلة قلبية . لا يؤنس وحشتها قصر آبو ولا الجم الغفير من الشعب والحاشية اللهم إلا زاى الصديق الأمين !

نجيب محفوظ



كان التمثيل والغناء والموسيقى فيما مضى من الفنون البغيضة فى عيون الطبقتين الراقية والمتوسطة، يُنفى أفرادها عنها ويحتقرون من يزاولونها حتى لقد طرد أحد الآباء زميلا لى أراد الالتحاق بقسم الموسيقى من مدرسة الصناعات لأنه يمقت حرفة « المزيكا » . وكم ذاق الأمرّين من أبيه زميل آخر كان يقطع لياليه بالجرى خلف الحفلات التى كان يحييها المرحومان عبده الحمولى ومحمد عثمان . وذلك لأن أولئك الناس كانوا البقية من رجال العهد القديم لم تتفتح أعينهم على النور ولا تذوقوا مالهذه الفنون من معانى الجلال والجمال والسحر . ولذلك كانت من نصيب فقراء البلد لأنها من بعض وسائل العيش والارتزاق . وكانوا على كل حال أقرب إلى الأميين ، حتى فكر الطلبة فى ترقيتها والنهوض بها، فألف بعضهم جمعية أطلق أعضاؤها عليها اسم « جمعية إحياء التمثيل »

وكان لرئيس هذه الجمعية صلة وثيقة بوجيه سرى له دار فسيحة فى حارة قواديو على مقربة من شارع الناصرية بحى السيدة زينب، فسمح له — ولكن على كره — بالاجتماع مع زملائه فيها

وما كانت كراهية هذا السرى إلا لأنه من بقايا ذلك العهد، ولأنه شيخ درج على التقوى والعبادة، فكان توق مقته هذه الفنون بحكم طبيعة عصره يرى فيها صارفا عن ذكر الله ومادة من مواد اللهو لا تثمر غير العبث . ولكنه مع ذلك كان يلبى رجاء رئيس الجمعية فى حضور جلساتها للوقوف على ما يدور فيها ولسماع ما يلقيه أعضاؤها فى كل أسبوع من القطع المختارة، فكان يعجب بالمرحوم عبد الرحيم[1] عند ما يمثل قطعة (مكبيث) التى يخاطب فيها خنجره، وبالمرحوم محمود مراد[2] وهو يعزف على الكمان، كما يعجب بغيرهما من الأعضاء، حتى إذا رأى أن ما يمارسونه يجرى فى حدود الاحتشام ويسمو بالنفوس إلى سماء التهذيب لم ير بأساً من الإذن لحفيدته « فتنة » بالحضور معه فى تلك الجلسات

وكانت فتنة فى الثالثة عشرة من عمرها صبوحة الوجه مشرقة الجبين ساحرة العينين رودا ناعمة، يبشر جمالها بأن سيكون له من اسمها فيما بعد نصيب، وعنى جدها بتعليمها فى المدرسة ثم حجزها ورتب لها معلمين يستكملون ثقافتها

وكان الدَّوْر فى إحدى جلسات الجمعية على فتى فى السادسة عشرة من عمره اسمه زاهر يسميه إخوانه حيياً خجولا، فكانوا فى شوق إلى مشاهدته وهو يمثل، وينتظرون أن يحكموا على مبلغ ذوقه فى اختيار القطعة المكلف بإلقائها، وعلى ما إذا كان حياؤه سيقف حائلا دون ما هو آخذ به. حتى إذا دق الرئيس الجرس أقبل عليهم قسّيس فى أسمال ممزقة له شعر غزير ولحية طويلة علاهما الشيب، وعلى إحدى عينيه عصابة من خرقة بالية، وبيده عكاز يتكىء عليه ويهتدى به وقد تقوّس ظهره وهو يخطو نحوهم بخطى مضطربة بطيئة، حتى إذا ما توسط المكان أخذ يروى لهم قصة حياته :

(١) ، (٢) كانا من أساتذة التعليم بوزارة المعارف

« يا لَتقلّب الحظوظ ويا لقسوة الأقدار . لقد كنت آمناً مع زوجتي وأولادي . وكنت في أيام الآحاد أعظ أهل القرية وأفتح عيونهم على طريق الهداية ، وأحذرهم عصيان الله ونزوات النفس .

حتى إذا كانت ليلة من ليالي الشتاء سادها الظلام وخيّم عليها السكون — إلا ما كان يتخلله من حفيف الأشجار ونباح الكلاب — اشتد المرض بامرأتي فتقلّص وجهها وذبلت عيناها وانحبس لسانها . كانت تحتضر وأولادها حول سريرها يصرخون ويبكون

في تلك اللحظة لم يخامرني شك في أنها مقبلة على ساعتها الأخيرة، فخطر لي أن أقوم نحوها بواجبي كقسيس، فسألتها أن تعترف بما يكون قد فرط منها لأغفر لها . ولكنها كانت تحملق فيّ وكأنها تفرّ من الكلام، حتى إذا ألححت عليها وألحت عليها منيتها أيضاً استجمعت ما بقي لها من قوة وقالتها كلمة واحدة كان فيها الشقاء الذي ركبني إلى اليوم : إن هؤلاء ليسوا بأولادك ...

عندئذ انخلع قلبي وطار صوابي وانقسمتُ إلى رجلين أحدهما زوج مجروح يريد أن ينتقم، والثاني قسيس فرض الله عليه الصفح والرحمة : وهكذا قامت في نفسي حرب بين عاطفتين نبتت إحداهما من الأرض، وهبطت الأخرى من السماء. حتى إذا بقي الزوج واختفى القسيس هممت بالانقضاض عليها ولكنها كانت قد أسلمت الروح ...

في تلك اللحظة الهائلة أظلمت الدنيا في عيني ونسيت وجودي فلم أشعر إلا وأنا أتسلق جبل المقطم أعيش فيه بعيداً عن شرور الناس

وكانت أسنانه عند ذلك تصطك وجسمه ينتفض وقد أفلتت عصاه من يده فوقع على الأرض كتلة هامدة. وعندها دوى المكان بالتصفيق وأقبلنا عليه نهنئه، وهو فوق قيامه بأداء ما مثل كان الواضع لهذه القطعة الفريدة ، فكان نجماً متألقاً في سماء التأليف وفي سماء التمثيل

أما صاحب الدار فكان أول من أسرع ليطمئن عليه ويهنئه ، ثم انتقل به إلى حيث كان يجلس وحفيدته تنظر إلى هذا القسيس البائس وعلى ملامح وجهها دلائل التأثر كأن ما تحدّث به حقيقة واقعة، حتى إذا ما نزع الشعر المستعار عن رأسه واللحية التي استعان بها في مهمته صاح عبد المجيد بك : زاهر ! أنت زاهر ؟ تعال يا بني تعال . فلقد خيّل إليّ أن ما ساوقك لم يعد الحقيقة حتى أشفقت عليك وأسرعت نحوك . رحمة الله على أبيك فقد كان نعم الصاحب ونعم الجار . الحمد لله على أني ظفرت بك وامتلأت نفسي منك . لم انقطعت عني يا زاهر، وأنا كمك ؟ ألم تكن تلعب وتلهو مع فتنة وأنتما صغيران ؟ بالله لا تقطع بعد ذلك زياراتك عنا فإنها تبعث في نفسي الرضى وتذكرني بالمرحوم أبيك

وعند ذلك سكت وهو يفكر ، وأمسكت فتنة عن الكلام أيضاً وتيّار تفكيرهما يتجهُ إلى هدف واحد هو زاهر . كان الشيخ يوازن بين ما أصبح يحمله من أثقال الشيخوخة وبين شباب هذا الفتى الناضر وكل ما في وجهه يضحك للحياة ويبتسم للأيام . يقول في نفسه : لقد كان لي مثل هذا الشباب فمن لي به أشعر عنده في كل خطوة من خطواتي بالحياة وأنا لا أفتح عينيّ كل صباح إلا على أمل ولهو جديدين ، ولكن الناس لا يعرفون قدر الشباب الذي يمرحون في مروجه إلا بعد أن يولي وهم يلهون بما يحسّونه من فتوّة الصبا حتى أن كثيراً من رفاقي بالمدرسة كانوا يحملقون في قرص الشمس متنافسين فأصاب أكثرهم العمى . ومنهم من فقدوا أسنانهم البيضاء القوية قبل الأوان لأنهم

كانوا يرفعون بها الأثقال والمقاعد وما خلقت عيوننا ولا أسناننا لمثل ذلك

— قل لي يازاهر . ما الذى شعرت به وأنت تمثل دور هذا الشيخ الفانى ؟

— لا شيء وكل ما كنت أفكر فيه هو أن أتقن تمثيله

— ألم تلفتك هذه الصورة المستعارة إلى ما أنت فيه من نعمة الشباب ؟

— أبداً ياعمى

— لقد كنت تكذب الآن على شبابك يازاهر، وسيأتى يوم أرجو أن يكون بعيداً لا تحتاج عنده إلى تمثيل هذا الدور . ليتنى كنت اليوم أمثله مثلك. أحني ظهرى فأذكر اعتدال قامتى؛ وأخضب بالبياض رأسى فأنتبه إلى سواد لمتى ؛ وأرسم الأسارير على جبينى فأهتز نشوة من نعومة بشرتى ؛ وأتكلم والعىّ يلاحقنى فأحمد الله على ما حل من عقدة لسانى . اذكر الآن وماء الشباب يتدفق فى جسمك النضير أنه سيأتى عليك يوم تبكيه حين لا تجده. خذ لشبابك القائم من مشيبك المستعار، ومن غدك المجهول ليومك الحاضر .

أما فتنة فكانت فى حيرة من هـذا القسيس المحطم كيف انقلب فى لحظة فتى مليح القسمات رشيق الحركات، يجرى فى بشرته ماء الحياة الدافق، وتبدو على وجهه نضرة الشباب المبتسم ، ويشع من عينيه الذابلتين السحر حتى لـكأنه وردة بهية أطلت من خلال أشواك ذلك القسيس . ولكنها ما كان ليخطر على بالها أنه سيكون له يوماً ما ذلك النصيب ، ولا أنها سيأتى عليها يوم تصبح عنده كجدتها التى هرمت وقضت . وذلك لأن النفوس المخمورة بسكر الشباب والنعمة لن تفكر فى سواها .

وكان زاهر فى خلال ذلك مطرقاً صامتاً ولكنه كان يخالسها النظر، وهى تحس ذلك فينطلق بهـا الخيال إلى الأيام الأولى التى كان يضمها وإياه فيها ذلك الفناء الفسيح تعدو فى جوانبه كالأرنبة البيضاء البضة وهو يلاحقها وهى تحاوره حتى إذا أخذ منهما التعب اتجها إلى متكأ خشبى وأخذا يفرطان أوراق الورد المقطوف من الحديقة وينثرانها على الأرض فيتذمر الخادم لاضطراره إلى كنسها، ولكنها تضحك بملء فيها قائلة : وهل تكره يا عم رجب أن نكسو لك سطح هـذه الأرض بالورد ؟ وعند ذلك يهتز لجوابها الظريف ويدعو الله أن يعيش حتى ينثر هو الورد تحت قدميها فى يوم زفافها إلى زاهر ، وعلى أثر ذلك تشرق هى وزاهر فى ضحك برىء تكرير الماء الصافى .

ومن غير شك أنها كانت لا تفهم للزواج معنى إلا أن مصير كل فتاة وفتى إليه على ما تسمع من جدها وجاراته . أما الآن فقد أخذ معناه ينكشف لعينيها شيئاً فشيئاً انكشافاً بطيئاً مبهماً ، إلا أنها كانت تشعر مع ذلك بأنه حال من أحوال الحياة لا غنى عنه . وسيأتى يوم قريب تكتمل فيه أنوثتها ورجولته فتستيقظ فى نفسيهما عاطفة أخرى تجعل من الزواج سعادة وجنة

ولقد ظلت فرقة إحياء التمثيل تجتمع فى دار جدها ثم انتقلت منها إلى سواها حتى كتب لهـا التوفيق والنجاح بعد خمس سنوات كانت باكورة جهودها بعـدها الاعلان عن تمثيل رواية روميو وجوليت فى دار الأوبرا بالاشتراك مع بعض الممثلات المحترفات

* * *

لم يقع اختيار الفرقة على هذه الرواية إلا لأنها مأساة أسهل من سواها فى تمثيلها وأشد تأثيراً فى نفس الجمهور فهى أقرب إلى الظفر بإقباله

ولكن زاهر الذى أسند إليه دور روميو لم يكن ليكتفى فى القيام به بالقدر الضئيل الذى اكتسبه من طريق المران، ولذلك عكف على دراسة هذا النوع عند الاغريق وعند الانكليز والفرنسيين

والاغريقيون تفتنهم المحاسن فهم يتوخون فى حوادث التاريخ البساطة لأنها من خير الوسائل فى إظهار جمال الخطوط ونبل الأوضاع . أما الانكليز فولعون بالحوادث العادية ولكن المعقدة ، لتكون خواتيمها أشد تأثيراً ، على عكس الفرنسيين الذين يكتفون بأبسط الحوادث يرتبون نتائجها على مقدماتها فى أسلوب منطقى حكيم . وهكذا كان لكل من هذه المآسى الثلاث وحدة خاصة ومعيار مستقل ، فتتأثر بجمال الفن وعظمته عند الاغريق ، وتدرك دقة الملاحظة فى دقائق الحياة عند الانكليز، وتلمس عند الفرنسيين سلامة الذوق فى أساليبهم المنطق . ثلاثة رؤوس شامخة تزينها أكاليل من الجمال والحياة والحكمة

وقد لا تخرج جميعها عن فتاة وفتى جمع بينهما الحب ولكن حال بينهما حائل من الواجبات كأنتيجون وهيمون عند الاغريق، وروميو وجولييت عند الانكليز، ورودريج وشيمان عند الفرنسيين. فهى على ما يظهر تستقى من معين واحد، ولكن نتائجه تحمل طوابع خاصة لتعدد الأساليب المتبعة فى كل منها ، فتجد فى المأساة الفرنسية حرباً عواناً بين خلجات النفس وبين مطالب الواجبات، وهما عاطفتان متباينتان يتوقف مصير كل منهما على الشرارة التى تنبثق من اصطدام إحداهما بالأخرى . أما روميو وجولييت فلا يخوضان مثل هذا الصراع العنيف وقد طواهما سلطان الحب العاتى فيقتحمان ما يعترضهما من الموانع بخطى عمياء لا يسمعان فى خلالها غير صوته، وهما يتناجيان وسواعدهما ممدودة متوثبة للعناق حتى تحجبهما ظلمة القبر، هذه الظلمة التى أخفى هيمون جثة حبيبته فيها عن حساده لتستقبل شفتاها عندها قبلة النوم الأبدى الهادى

وعلى أثر هذه الدراسة انطلق زاهر يتفهم موضوع دوره ثم أكب على حفظه ، وأخيراً أخذ يجرب تمثيله أمام مرآة اشتراها لهذا الغرض ليرى بعينيه كيف يروض مخارجه على النبرات التى توجبها مقتضيات الالقاء، وكيف يوزع على أعضائه وأطرافه الحركات التى تتفق مع هذه المقتضيات . ولكنه مع ذلك كان لا يزال يشعر بخلو تمثيله من الحرارة والروح فى شتى المواقف التى تتخلل موقفه من حب وتحرق، وحزن وبكاء، وجفوة وعتاب، إلى غير ذلك مما لا يمكن استعارته أو تقليده أو خلقه

وكان الخجل والحياء المتأصلان فيه من الأسباب القائمة فى وجه نجاحه حتى أنه كان إذا رفع صوته فى مواقف الشدة ظل ضعيفاً منخفضاً كالشخص الذى يعانى فى النوم كابوساً يضغط على صدره فيخيل إليه أنه يصرخ ويستنجد وصوته مع ذلك لا يصل إلى سمع أقرب الناس منه

وما كان هذا ليمنعه من الاقبال ثانية على المرآة والعودة إلى مخاطبة نفسه فيها، ولكنه يجد أنه لم يخط خطوة جديدة فى طريق الاقتراب من الحقيقة وساعداه يتحركان حركات آلية كأنهما ليسا منه، وفمه يخونه فى إخراج عباراته على ما يجب، كأنما قد سكنه طاقم جديد من أسنان صناعية يعوق أداء المخارج صحيحة متزنة . وهكذا تثور نفسه ويتغلب عليه يأسه فيلعن التمثيل ويلعن الفن ، ويخص باللوم والعتاب زميله عبد الرحيم الذى خصه بهذا الدور

ولكنه يرجع بنا كرته إلى تاريخ (المسارح) فيجد من بين الممثلين من كانوا مضرب المثل فى النبوغ مثل راشيل وتالما وفريدريك لوميتر الذى

مثل ذات ليلة دور أسد ثائر ألقى الرعب فى قلوب الحاضرين حتى أغمى على بعض السيدات ، ووضع فريق آخر أيديهم على قبضة مسدساتهم، فلما أدركوا أنه لم يكن غير فريدريك أخذوا عند باب الدار يشيعونه بكلمات كان يستقبلها بصدره مبتسما نشوان وهو يراها أثراً جديداً من آثار نجاحه

وعند ذلك يتساءل كيف أمكن لهؤلاء أن يصلوا إلى هذا الكمال ؟ وكيف دان لهم التوفيق بين إلقائهم وحركاتهم وبين الصور المختلفة التى وضعها المؤلفون مع تدرجها من الشدة إلى اللين، ومن الثورة إلى الحلم والاسترخاء، وغير ذلك مما لا يظفر به الممثل إلا إذا غاب عن نفسه وأصبح شخصاً آخر يتقمص كل هذه الصور ويفنى فيها ؟ إنه حاول كل سبيل للوصول إلى هذه الغاية فخانه أمله وقعد به جهده

وعند ذلك يجد أنه لا فرق بين أساليب المؤلفين وبين علامات الموسيقى وهى لا تعطى أكثر من تسجيل اتجاهات الألحان التى وضعها بيتهوفن وليست وموزار وغيرهم دون أن ترسم سر الطريقة الفنية Technique التى مرنت أصابعهم عليها ، وما كانت إلا الروح التى بثها وحيهم فيها عندما كانوا يعزفون تلك الألحان

وهكذا يشرق جبينه وتتقد عيناه وقد اهتدى أخيراً إلى أن الممثل لا يخرج عن اثنين، أحدهما لا هم له إلا محاكاة الفن (Acteur d'art) فهو مقلد متكلف؛ والثانى ممثل بشعره وهى العاطفة فيخرجها فى ثوبها القشيب الطبيعى ، إذ شتان بين من يصور للناس روميو فى موقف غرامه وشقائه ، وبينه هو وهذه العاطفة تنبثق من نفسه الواجدة المعذبة

وأخيراً ينتهى الأمر به إلى أن ممثل الحب يجب أن يكون هو أيضاً قد جرّب الحب ونعم بجنته واكتوى بناره، فمن أين له هذا وما وقع له ولا انغمس فيه ؟ بل إن السيدة التى خصصت لدور جوليت لتؤديه معه لم تكن غير امرأة جاوزت الأربعين ، ولم يكن على وجهها أثر لحسن ولو قديماً . وهى فوق ذلك من تلك الطبقة الجاهلة التى لا ينتظر منها أكثر من أداء دورها على أية صورة كانت، فمثل هذه لا تشجعه ولا تنفخ فيه من تلك الروح التى لجوليت، حتى إنه كان إذا وقف يخاطبها شعر بالوحدة وأغمض عينيه لكيلا يقع بصره عليها فيضطرب ويفلت زمام الأمل الباقى فى نفسه من يده

وكان موعد التمثيل قد اقترب، فأخذت الصحف اليومية والمجلات تفيض فيه باعتباره حادثاً قومياً فذاً يعتد إلى نهضة جديدة ويسد فراغاً فنياً كان لا يزال داعياً إلى الأسف . وأخذت كذلك تذكر أسماء الممثلين ونشأة كل منهم ومقدرته وما ينتظر على يدهم فى هذه الخطوة المباركة الجديدة

ومن هذه المجلات علمت فتنة أن رفيق صباها سيكون بطل هذه الرواية الخالدة . بل بطل ذلك الحب القديم عند روميو والجديد عندها، وقد بدأت بالميل إلى هذا الفتى الجميل القريب . ولكنها كانت تقول فى نفسها إن تلك السورية[1] التى ستمثل معه لأوفر منها حظاً وأكبر سعادة؛ وستسمع أذناها أول أحاديث الحب التى كانت هى أولى بها منها . وعند ذلك ينتفض جسمها ويخفق فؤادها . وتقول بعد ذلك إنه لولا جود شعوره وتحجر قلبه لما انقطع عن زيارة جدها وقد أذن له بها . ولكنها لا تلبث

(١) لم يكن للمصريات فيما مضى نصيب من التمثيل كما هو حاصل اليوم

أن تلتمس له الأعذار وزمنه نهب بين المصلحة التي يعمل فيها، وبين متاعب المسرح التي يعانيها، فتتجدد الرغبة في نفسها إلى مشاهدة تلك الرواية ، بل إلى مشاهدته هو والناس معجبون به مصفقون لنبوغه

وإذا كانت فتنة قد اطمأنت نفسها إلى تلك الأعذار التي تبرعت بها، إلا أنها مع ذلك كانت مشدودة الأعصاب حزينة مهمومة ، حتى أنهـا قصدت إلى سريرها واستسلمت للنوم والأحلام والمجلة بين يديها

وكان جدها بعد وفاة أبويها لا يتناول طعامه إلا إلى جانبها، فلما لم تحضر إلى المائدة وعلم أنها نائمة دهش لأنها كانت لا تذهب إلى سريرها عادة إلا بعد تناول طعام العشاء بساعة أو ساعتين، فهم إلى غرفتها، ولشد ما كانت دهشته حين رآها في نومها تتنهد وتبكي. حتى إذا تناول المجلة التي أفلتت من يديها وجد من بين صحفها شرحاً ضافياً عن زاهر وعن ذلك الاحتفال ... ولكنه في صباح اليوم التالي كتم عنها ما وقف عليه وأذن لها بالذهاب في عربته إلى حديقة الأسماك لتروح عن نفسها قليلا

ولم يكن ذلك اليوم يوم أحد أو جمعـة يقبل الناس فيهما على هذه الحديقة؛ وكان ذهابها عند الصباح الذي ينصرفون فيه إلى أعمالهم، فأخذت فتنة تتمشى رويداً رويداً في مروج الحديقة المكسوة بالعشب والشمس تكسر أشعتها على ما غشيه من النـدى فتحيله قطعاً منتثرة من ماس متألق وهاج

ولما أحسّت التعب خطر لها أن تستريح قليلاً في إحدى حجرات (الجبلاية) وكانت كلما خطت خطوة تسمع صوت تلاوة غريبـة يقترب منها أو تقترب منه ، حتى إذا وقفت عند الحجرة التي ينبعث منها الصوت شعرت بالنبطة تغمرها والنشوة تتمشى في جسمها، لأنه كان قريب الشبه من صوت حبيبها .

وكان يتمشى وظهره إليها، فلما دار ليعود وهو يقول: جوليت — سمع خارج الحجرة صوتاً ناعماً يقول له: هأنذي يا روميو . وعندئذ أسرع نحو فجوة الحجرة فاذا به إلى جانبها. فكانت مفاجأة سارة لم تخطر بباله ولا ببالها

— أنت هنا ؟

— الصدفة هي التي جاءت بي وهي وحدها التي شاءت أن أجتمع بمن ضن علينا حتى بالسؤال

— لك أن تعتبي يا فتنة لولا ما أنا غريق فيه..

— من الحب .. طبعاً وقد هيأت لك الأقدار من ستخاصرها وتناجيها . . . وعند ذلك انفجر زاهر بالضحك . ولكنه شعر بما أخذ يدب في نفسها من عوامل الغيرة فأسرع إليها وضمها إلى صدره قائلا :

ثقي أنني لن أكون في ذلك اليوم إلا وحدي .

وستكون تلك التي يتمثلها خيالك كية مهملة يا رزاقي. آه لو تعلمين كم أنا شقي بهذا الدور الذي رزأني به عبد الرحيم افندي . وما نعمت بالحب ولا شقيت بالهجر. إسمعي يا فتنة، هذه تذكرة لبنوار بين رقم ٣ أرجو أن تنوبي عني في تقديمها لجدك هدية مني . وعديني أنك تحضرين في تلك الليلة، فكم أكون ناعماً سعيداً . وإني لأسألك أيضاً طلباً آخر أنا في شدة الحاجة إليه . إن موعد الحفلة لم يبق عليه غير يومين، فافتحي لي صدرك وامنحيني فيهما رضاك لأن ذلك مما يشجعني ويساعدني في مهمتي .. يومين فقط

— بل العمر كله يا زاهر

وعند ذلك غابا عن الوجود فى قبلة خافقة حارة ثم خرجا

***

وجاء اليوم الموعود والناس يفدون إلى الدار أفواجا أفواجا وهم يلغطون ويضجون ولا حديث لهم إلا هذه الفرقة المثقفة الجريئة التى خرجت على التقاليد ووهبت نفسها وجهودها للفن . وكانت فتنة فى تلك الفترة خائرة القوى مضطربة مشفقة عليه فى هذا الموقف الخطير الرهيب حتى إنها أخذت تتلو سورة الفلق سبع مرات . وما كان ذلك ليخفى على جدها وهو يتأملها وينظر من طرف خفى إلى حركاتها وقلقها . فلما خفت نور الصالة وانتهت الدقات الثلاث المعهودة ارتفع الستار رويدا رويدا بين موجات صاخبة من التهليل والتصفيق

وأقبل روميو على المسرح ودوّى المكان بالهتاف فانتهزت هذه الفرصة وانصراف الحاضرين إلى الممثل ورفعت نقابها عن وجهها لحظة ثم أعادته، حتى إذا ما أبصرها انطلق فى تمثيله فخما رائعا جبارا ووجهه مشرق بالحب ونفسه جياشة بالشعور كأنه كان يمثل نفسه ويصور غرامه وأشجانه ومواجعه

وفى الفترة التى قبل الفصل الأخير قدمت إليه باقة بديعة التنسيق كانت هدية من جدها . حتى إذا انسدل الستار وانتهى التمثيل وضج الناس وعلت الأصوات بالاعجاب والاستحسان كان هو فى البنوار عند جدها يقبل يديه ويشكره . وعند ذلك اغرورقت عينا هذا الشيخ المتهالك الفانى فأخذ يده إلى يد فتنة قائلا فى صوت متهدج مختنق :

هذى هى چولييت أقدمها أنا إليك مرة أخرى يا ولدى حتى لا أكون قاسياً كشكسبير !

محمود خيرت

القاضي السعيد

للفيلسوف الروسي تولستوي
بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد

قام المليك ثملاً من الرقص الفاتن على أنغام المزامير يرنو إلى جمال الراقصات الباسم ... ويصغي إلى أحاديث الندامى ترن في مسامعه مرجعة أنباء الساحر الرهيب، ذي القوة الخارقة والسحر العجيب، وأقاصيص ذلك القاضي السعيد الفياضة بالغرائب، المملوءة بالأعاجيب ... !

وأيقظه نسيم السحر المرتعش ، فنادى غلامه وقال : سمعت في العشية من صحبك أن في أقصى المملكة قاضياً واسع الحيلة ، عظيم الذكاء ، يعرف الكاذب إذا رآه من الصادق ، وله في ذلك نكات حلوة وطرائف طلية ... ولقد هفت نفسي إلى رؤيته فهيء لي يا غلام جوادي ، وأحضر لي زادي ، وائت لي بلباس لا يعرفني به أحد من رعيتي ، كي أذهب فأرى صدقه من تدجيله

وبعد ساعة ... انطلق الملك يسري ... بين شعف الجبال وأحضانها ، وهو يحث السير ويغذه ؛ حتى إذا ما وصل إلى بلد القاضي — وقد ارتفعت الشمس وقاظ النهار — لقيه رجل قد قطعت ساقاه وتهشم وجهه وجحظت عيناه ، فاقترب منه ، وهو يتكئ على عصوين أسندهما إلى إبطيه ... وأخذ يقبل أقدامه ويطلب إحسانه .

فتصدق الملك عليه ، وهمز حصانه وسار على مهله

وفرح البائس إذ ضحكت له المنى ولكنه لحق بالمليك وأمسك بأثوابه لايدعها ، فغضب الملك وثار وقال له:

— ما شأنك أيها الرجل ، وماذا تريد ؟ طلبت فأعطيناك ... وشكوت فرحناك ... !

قال الرجل بصوت يشيع فيه الحزن واللوعة :

— أوصلني يا سيدي إلى ساحة المدينة . فأنا بائس عاجز وأخاف أن تطأني الجمال بأقدامها إذ تمشي مشيها الوئيد ... أوصلني إليها ياسيدي والله يجزيك أحسن الجزاء

ورق قلب الملك له وأشفق عليه . فحمله بين يديه وأردفه . ثم انطلقا حتى أتيا ساحة المدينة الكبرى . قال الملك آنذاك :

— ها هي ذي ساحة المدينة أيها الرجل ، فاهبط آمناً . !

قال الرجل :

— وي . هذا حصاني فلم تريد اغتصابه مني ؟ أهذا جزاء من يعطف عليك ويشفق ؟ ياللوقاحة ! ويل لك من العذاب الذي سيصيبك ! هيا . هيا . دع الحصان وامض إلى سبيلك . وإن لم تفعل ، فخير لك ولي أن نذهب إلى القاضي السعيد فنسأله ، وهناك يظهر الحق ويزهق الباطل . !

وشده الملك . وعجب من هذا المحتال البائس . ثم ثار وغضب ، وأرغى وأزبد ، والتف حوله أهل

المدينـة ، فساقوهما إلى القاضي ليحكم بينهما

وأتيا القاضي يجرّان وراءهما الناس ، وقد جاؤوا ليتسمعوا إلى حكمه. واستوى القاضي على كرسي مزين بالذهب المتوهج ، وبدأ ينادي المتخاصمين فرداً فرداً

وجيء بسالم أصلع الرأس ، كث اللحية ، حاري الأذنين[1] وإلى جانبه قروي رث الهيئة ، ممزق الأثواب ، على وجهه أمارات النباوة ، كانا يختصمان على امرأة حسناء على وجهها سحر وطلاوة . . . هذا يدعي أنها خليلته ، وذاك يقول إنها حليلته..!

واستغرق القاضي في صمت عميق... ثم قال :

— دعا حسناءكما عندي وتعاليا إليّ غداً . !

وتقدم جزار إلى جانب زيات . وكان الجزار يرتدي ثوباً مليئاً دماً، وكان الزيات يرتدي لباساً زين ببقع الزيت الجلية . قال الجزار :

— لقد اشتريت من هذا الرجل يامولاي زيتاً ثم عمـدت إلى قميصي فأخبأته تحت جيبه[2] . ولـكنه هجم عليّ ، وانتزعه مني . فجئنا إليك يامولاي ... أنا أمسك بيدي دراهمي وهو يمسك بتلابيبي لئلا أفر ... ولكن الدراهم لي ... وما هو إلا سارق أثيم ..!

قال الزيات :

— كذب ما قاله ياسيدي وبهتان ... لقد جاء إليّ ليبتاع من زيتي ، فملأت له وعاءه ، فلما أراد الانصراف طلب مني أن أبدل له قطعة ذهبية بقطع فضية ، فرحت أعطيه الدراهم ... ولكنه فرّ بهـا يا مولاي ، فلحقت به .. وأحضرته إليك .. !

واستغرق القاضي في صمت عميق. ثم قال :

— دعا الدراهم عندي وتعاليا إليّ غداً ..!

ونودي الملك والسائل . قال الملك :

— أنا تاجر ياسيدي ، وهذا سائل لقيني وأنا في طرف المدينة فرثيت له وأشفقت عليه ، ثم أعطيته ما يخفف من ألمه ويزيد في فرحه .. فلما انطلقت إلى ما أنا ماض من أجله ، لحق بي وطلب أن أوصـله الساحة الكبرى . فأردفته . فلما كنا في الساحة الكبرى ، طلبت إليه أن يتركني فأبى ، وقال هـذا حصاني جئت تنتزعه مني . فالتف حولنا الناس وساقونا إليك . هذه قصتي يامولاي فاحكم بما تريد ! ...

قال السائل :

— يا الكذب يا مـولاي . لئن كذب وافترى ، فما أنا إلا صادق أمين . . . كنت أجتاز المدينة ومعي الحصان فرأيته في بعض الطريق . . . فطلب مني أن أوصله الساحة الكبرى فقد أنهكه السـير الطويل . فلما أتيت به الساحة قال هذا حصاني ... فاحكم يا مولاي أيدك الله وأطال بقاءك !

وفكـر القاضي وقدّر ... ثم قال :

— سأعرف الـكاذب من الصادق . . . دعا

---

(١) حاري الأذنين أي أن أذنيه كأذني الحمار . ويقال أيضاً فيلي الأذنين . ذكر المعري في رسالة غفرانه ص ٤٧ ما يلي : « كان ببغداد رجل كبير الرأس فيلي الأذنين ، اسمه قاذوه ... الخ » وقد قسنا الأولى على الثانية

(٢) جيب القميص طوقه . أي صدره . وهذا المعنى هو خلاف ما هو شائع عن معنى هذه الكلمة

الحصان لي ، وارجعا إليّ غداً ...

وتفرّق الناس ، ومضى كل إلى سبيله ، وذهب الملك يفكر في هذا القاضي الذي سمّاه الناس « بالسعيد »

* * *

أقبل الليل ، فجلس الملك يفكر في أمر ذلك البائس المسكين ويتذكره ، فملأ صوته المضطرب سمعه وفؤاده ، وهو يتساءل عن جزائه وكيف يكون. فلما أضناه التفكير أسلم نفسه للكرى . فنام نوماً عميقاً ، رأى فيه من الأطياف ما لا يحصر ، ومن الأشباح المرعبة ما لا يحد . وضحك النهار فاستيقظ الملك ... وأخذ يرتدي أثوابه . ثم مضى إلى المدينة ليطوف في أسواقها ... فلما أجاز ساحة الحي وجد غريمه يتدحرج نحو دار القاضي

وكان الناس يأتون زرافات زرافات ، فقد أعجبوا بالقاضي فنفذت نفوسهم في شوق ملح لكل ما يقول . وجاء المتخاصمون فتقدم العالم والقروي. فنظر القاضي إليهما وقال :

— أيها العالم ! إنها زوجتك فخذها وامض بها إلى دارك . . . أما أنت أيها القروي ، فجزاؤك خمسون جلدة تنالها في الساحة الكبرى على ملأ من الناس ! ..

وانصرف العالم وزوجته ، وأخذ القروي ليجلد

وجيء بالجزار وبائع الزيت ، فقال القاضي :

— أيها الجزار ! ها هي ذي دراهمك فخذها . أما أنت . . . فجزاؤك خمسون جلدة تنالها في وضح النهار على ملأ من الناس ! ...

وأخذ الجزار دراهمه . ومضوا بالزيات ليجلدوه

وتقدم الملك والسائل . فقال القاضي للملك المتنكر :

— هل تعرف حصانك جيداً ؟

— نعم يا مولاي !

— وأنت أيها السائل ؟

— وأنا أيضاً يا سيدي !

— اتبعاني إذن ...

وانطلق القاضي بهما إلى الاصطبل وقد امتلأ بالجياد . فقال للملك : دلني على حصانك ... فدله الملك . ثم أخرجه وأدخل السائل ... فدله عليه أيضاً . فلما خرج القاضي قال : خذ حصانك أيها التاجر فهو لك . أما أنت فستجلد خمسين جلدة في الساحة الكبرى

وهم القاضي بالانصراف ... فتبعه الملك وقال له:

— أريد يا مولاي أن أعلم كيف استطعت أن تعرف أن المرأة كانت للعالم ، وأن الدراهم كانت للجزار ... وأن الحصان كان لي ... فلقد حار عقلي في فهم ذلك ...!

قال القاضي :

— أما المرأة ، فقد أتيت بها إلى داري ، وقلت لها ضعي في هذه المحبرة مداداً . فأخذت الدواة فنظفتها ، ثم ملأتها مداداً . فعلمت أنها تعلم ذلك من قبل ، والدواة لا توجد إلا عند العالم . فحكمت بأنها امرأة العالم وليست خليلة القروي . أما الدراهم فقد وضعتها في إناء مليء ماء ، وقلت لنفسي ، إن كانت لبائع الزيت ، فلا بد أن تطفو على صفحة الماء

قطرات من الزيت جاءت إليها من يديه . ولكن الماء بقي صافياً ، فعلمت أن الدراهم ليست لبائع الزيت وإنما هي للجزار .

وصمت القاضي قليلا .. فلما طال صمته قال الملك :

— والحصان ياسيدي ؟

قال القاضي :

لقد قلبت الأمر بين يدي . فلم أجد حيلة أنفع من أن تدلاني على الحصان ، فعرفته أنت كما عرفه السائل . . . ولكني رأيت الحصان قد أدار وجهه نحوك . ورفع أذنيه عند ما دنوت منه . فلما جاء السائل أرخى أذنيه ورفع إحدى رجليه يريد رفسه ، فعلمت أن الحصان لك

وابتسم الملك ضاحكا ... ثم تقدم من القاضي فقال له :

— أيها القاضي ! نعم العدل بك عيناً . . . لست بتاجر ، ولكنني الملك .. !

ودهش القاضي ... وارتجف رهبة . ثم انحنى وقال :

— عفواً يامولاي ... أنا عبدك

— قم أيها القاضي وسل ... !

— إن ثناءك على لمكافأة لي يامولاي . . .

وانحنى ليقبل قدميه .

— قم . . . قم أيها القاضي السعيد . . . فلقد صدقت بك ... وآمنت ... لقد صدقت وآمنت ... ومنذ الغد ستكون لي وزيراً .. !

صموع الديه المنجد

حاجي بابا إصفهاني

لكاتب الانجليزي "جمز موريه"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثالث عشر

حاجي بابا يسافر من مشهد

عند ما خرجنا من مشهد نظرت إليها ورفعت وجهي إلى السماء ودعوت الله أن ينزل غضبه على تلك المدينة ، ولم يسمعني وأنا أدعو هذا الدعاء غير الدرويش صفر ، وقد كان يشاركني شعوري نحوها . ولكن لو أن رجلاً آخر سمعني أفوه به ، لكان هذا اليوم أسوأ يوم في حياتي . وقال لي الدرويش : « أنت لا تزال صغيراً يا بنيّ وستعاني في الحياة آلاماً كثيرة قبل أن تستفيد من التجاريب ماهو ضروري لك في الحياة . لا تشك من الصدمة الأولى فربما كان في شدتها وقاية لك من صدمات كثيرة ، وستستطيع في المستقبل أن تتجنب المحتسب حتى ولو كان متنكراً في ثياب امرأة ، ولكن رجلا في مثل عمري (وأشار إلى الشيب في لحيته) يؤلمه أشد الألم بعد ما استفاد من التجاريب أن يضطر إلى مغادرة مدينته ويساود الأسفار خوفاً من حلول نكبة به »

قلت : « ولكن كان في وسعك أن تبقى في مشهد غير مبال بالعلماء مادمت محافظاً على الصلاة والصوم »

فقال الدرويش : « هذا صحيح، ولكن شهر رمضان قد اقترب وهم يراقبونني فيه أشد مراقبة لأنهم يتربصون بي، ولست أستطيع ولا أريد أن أصوم لأن التدخين ضروري عندي ، ولذلك أحب الأسفار في هذا الشهر لأن الافطار فيه مسموح به في الدين ، وقد يكون في الامكان أن أرائيهم كما فعلت ذلك مراراً وأتظاهر بالصوم وأفطر في السر ولكن ذلك يكون صعباً على من بلغ من الشهرة ما بلغته الآن وأصبح من الأمور العادية أن يتردد لزيارته عشرات من الناس في كل ساعة من ساعات النهار ليتبركوا به »

وصلنا إلى مدينة سليمان دون أن يحدث حادث هام سوى أنني في اليوم الأخير من مسافة السفر ساعدت صاحبي على خاطر على نقل متاجره المحمولة على البغال فجرح ظهري في الموضع الذي أصبت به يوم حدوث الحادث الذي تركت من أجله السقاية

وكان ألمي شديداً فلم أستطع الاستمرار في السفر مع القافلة وصممت على البقاء حيث كنت حتى يتم لي الشفاء ، وكان قد زال خطر التركمان لابتعاد هذا المكان عن جهات هجومهم ، ولم أعد في حاجة إلى حماية القافلة . وقد كان يجمل بالدرويش صفر أن يبقى معي ولكن شوقه كان شديداً إلى نبيذ العاصمة وملاهيها فتركني واستمر مع القافلة

كان المكان الذي تخلفت فيه عن القافلة عند المقابر، فذهبت إليها وأعلنت قدومي كعادة الدراويش بصيحات مزعجة صحبتها بهذا النداء : « هاك هو ! هاك هو ! » أي الله أكبر الله أكبر ، واستعددت لابداء ضروب الرياء والخداع إذا قابلت أي إنسان وفقاً للتعليمات التي تلقيتها من الدراويش

وفى أثناء مرضى وإقامتى بالمقابر زارنى عدد من النساء فكتبت أحجبة وأخذت منهن مقادير وافرة من الفاكهة واللبن والعسل . ولما اشتد الجرح اضطررت إلى السؤال عما إذا كان فى مدينة سليمان من يستطيع علاجى؛ ولم يكن فى تلك المدينة من يعرف شيئاً من شئون الطب غير الحلاق والبيطار، فالحلاقون يعرفون الحجامة وخلع الأسنان ، وأما البيطرون فيعرفون أمراض الخيل ومنها ما يشترك فيه الناس فيستشارون فى الجراح وجبر العظام وغير ذلك

وكان فى المدينة غير حلاقها وبيطارها امرأة عجوز تدعى لعلاج مايعجزان عنه من الأمراض. وقد استدعيت كلاً من هؤلاء الثلاثة فاتفقت كلمتهم على أن لاوسيلة للعلاج غير الكى بالنار . ولما كان البيطار أكثرهم مراناً على أداء هذه العملية فقد اخترته لاجرائها، فجاء بمقدار من الفحم وبحديدتين وأوقد ناره وأحمى الحديدتين حتى احمر لونهما ثم كوانى فى ثلاثة عشر موضعاً من ظهري

ومضت مدة قبل أن تشفى الجراح الأولى والجراح التى أنشأها الكى الذى لم يكن شفائى بسببه بل بسبب الراحة الطويلة

ولما شفيت عزمت على أن أستأنف رحلتى إلى طهران التى لم أشأ أن يكون المرض ملازمى فى بدء عهدى بها، ودخلت المدينة فى ساعة الظهيرة وأعلنت قدومى إليها بالنداء المعتاد فى وسط السوق فاجتمعت حولى الجموع، فلما رأيت كثرة عددهم حدثتنى نفسي بأن أقص عليهم قصة أستدر بها جيوبهم كما تعلمت من أحد الدراويش وراجعت ذاكرتى فتذكرت قصة جميلة وبدأت أسردها عليهم وأعينهم مرفوعة وأفواههم مفتوحة ، فقلت :

« كان فى عهد هرون الرشيد رجل حلاق بمدينة بغداد يدعى « على السقا » وقد اشتهر هذا الرجل بخفة يده وإتقانه صناعته وسرعته حتى إنه كان يحلق الرأس واللحية فى طرفة عين دون أن يسيل قطرة من الدم . وكان كل وجهاء بغداد يحلقون عنده، وقد وصل به الكبر والغرور إلى حد الامتناع عن الحلاقة لمن لم تكن لديه رتبة أو لقب وكان يشترى الأخشاب ويبيعها لزبائنه .

وفى يوم من الأيام جاءه أحد الباعة ومعه أخشاب على ظهر حمار فاتفق معه الحلاق على مبلغ معين فى مقابل (كل ما على ظهر حماره) فلما سلم البائع تلك الأخشاب طالبه الحلاق بالسرج الذى على ظهر الحمار وبالبردعة لأن الاتفاق كان يشمل « كل ما على ظهر الحمار » فدهش البائع وقال: « كيف؟ هل سمعت فى حياتك صفقة مثل هذه ؟ إن هذا مستحيل »

وبعد مشادة حدثت بينهما أخذ الحلاق السرج والبردعة والخشب وترك البائع يفعل ما بداله، فذهب إلى القاضى ، وكان القاضى من أصحاب الحلاق فحكم له، فاستأنف البائع الحكم إلى قاض آخر أخذ كذلك بنص الاتفاق وصادق على الحكم الأول فلم يسع البائع المسكين إلا أن يرفع أمره إلى المفتى نفسه، فلما لم ينصفه أيضاً كتب شكواه ووقف فى طريق الخليفة وهو ذاهب إلى المسجد فى يوم الجمعة . .

وكان الخليفة مشهوراً بعنايته بقراءة العرائض بالمسجد بعد الصلاة والفصل فيما يستحق النظر منها .

ولم تمض ساعة بعد الصلاة حتى دعى بائع الخشب إلى حضرة الخليفة فدخل وقبل الأرض ودعا له، فقال الخليفة: « لقد قرأت شكواك وفهمتها

وإن الألفاظ فى جانب خصمك والعدالة فى جانبك . والقانون يجب أن يحدد بالألفاظ، والاتفاقيات وهى قوانين الخصوم يجب أن تحدد بالألفاظ كذلك. ولهذا السبب يجب أن ينفذ الاتفاق بألفاظه وإلا لما كانت له قيمة ولا أمكن الاحتفاظ بالثقة بين الناس، لذلك سيأخذ الحلاق البرذعة والسرج والخشب ولكن..»
ثم استدعى البائع وهمس فى أذنه بكلمات فبدت على وجهه علائم الرضى وخرج وهو مسرور »

هنا بدا الاهتمام على وجوه السامعين فسكتُّ وهم ينتظرون أن أتكلم. ولما طال سكوتى طالبونى بإتمام الحديث فقلت لهم : إننى لا أتم القصة إلا إذا دفع لى كل منهم قطعة من النقود . فدفعوها وقلت: « قال الخليفة همساً لبائع الأخشاب : « إذهب إلى الحلاق واتبع معه الطريقة التى سأذكرها لك ومتى رجع الأمر إلىّ فإنى سأنصفك » ثم علمه الطريقة فخرج البائع راضياً

وبعد أيام ذهب إلى الحلاق بحالة من الود تدل على أنه لم يكن بينهما أى خلاف وعلى أنه رضى واقتنع بحكم القضاء فى النزاع الذى كان بينهما

واتفق البائع مع الحلاق على أن يحلق له ولزميله الذى سيأتى بعد قليل فى مقابل مبلغ تراضيا عليه، فوافق الحلاق وبدأ يحلق للبائع، ثم سأله عن زميله فذهب وعاد ساحباً حماره وقال : إن هذا هو الزميل الذى يجب أن يحلق له وفقاً للاتفاق

اغتاظ الحلاق وامتنع عن الوفاء بتعهده قائلا : إن هذه خدعة . وقال : « أليس يكفيك أن أضع يدى على رأسك القذر حتى أحلق لحمارك أيضاً ؟ إننى لم أحلق قط لأمثالك وما حلقت لك إلا لمصالحتك إياى بعد القضية التى كانت بيننا . اذهب من هنا وإلا أذقتك الأمرّين ».

فذهب البائع مغتاظاً إلى الخليفة ورفع أمره إليه ، فأمر الخليفة بإحضار الحلاق وقال له فى جمع حاشد: « ألم تتفق معه على أن تحلق له ولزميله ؟ » .

قال الحلاق : « نعم ولكن هل فى الدنيا من يزامل حماراً ؟ »

قال الخليفة : « وهل فى الدنيا من يشترى خشباً وبرذعة ؟ إحلق للحمار أمام هذا الجمع تنفيذاً لا تفاقك وإلا أودعتك السجن »

فاضطر الحلاق إلى الاذعان ، وأمر الخليفة بأن يؤتى له بالمواسى وبالصابون والماء ، وبدأ الحلاق يغسل شعر الحمار ويحلق له بحضور الخليفة وحاشيته

وكان الناس يسرون به ويضحكون منه ، ثم صار كل أهل بغداد يتحدثون بهذه القصة الدالة على ذكاء الخليفة وعدالته

الفصل الرابع عشر

الرجل الذى قابله حاجى بابا

تركت مدينة سليمان وأنا مسرور وقد شفيت جراحى وكنت لا أزال صغير السن جميلا وكان معى عشرون « طومانا » ادخرتها فى مشهد

وكنت إلى ذلك العهد قد جربت بعض التجاريب التى تنفعنى فى الحياة وعزمت على أن أنزع ثياب الدراويش بمجرد وصولى إلى طهران وأن ألبس ثياباً جميلة وأعيش معيشة راقية

وكنت فى أثناء الطريق أنشد بأعلى صوتى قصائد المجنون فى ليلى فقابلنى أحد السعاة ونشأت بينى وبينه مودة فتحادثنا وقدم لى بعض ما كان معه من

الفاكهة فقبلت مسروراً لأن الحر كان شديداً فى ذلك اليوم .

وكنا نسير على شاطىء نهر وبالقرب منا مزارع قمح فنزع الساعى لجام الفرس وتركه يأكل من القمح الجديد ثم أخرج من جرابه طعاماً ودعانى إلى مشاركته فيه وكان هذا الطعام أرزاً بارداً وخبزاً فأكلنا بشهوة قوية ، ثم أخرج من هذا الجراب الذى فيه حذاؤه فجلاً وبصلاً فأتممنا غداءنا وغسلنا أيدينا فى النهر . ثم قدم لى لفافة من التبغ وأخذ كل منا يسائل الآخر عن رحلاته السالفة ، وعرف من شكل ثيابى أننى درويش ، فسألنى عن تاريخ حياتى وقصصته عليه ، ثم قص على تاريخ حياته وقال إنه ساع عند حاكم مدينة « استراباد » وأخبرنى خبراً سرنى وأدهشنى وهو أن عسكر خان شاعر الشاه قد نجا من أسر التركمان ونزل ضيفاً عند هذا الحاكم .

ولم أشأ أن أظهر له شيئاً من سروري وأن أخبره بأنى أعرف هذا الشاعر لأن تجربتى فى الحياة دلتنى على أن كتمان السر من الضروريات لمن يريد النجاح . وأخبرنى الساعى بأن الشاعر أرسله إلى طهران برسائل وقال إنه شديد الشوق إلى معرفة ما فيها وإنه لا يعرف القراءة والكتابة وإنه مسرور التقائي لكى أقرأها له ، وأخرج من صدره تلك الرسائل

ولما كانت العادة فى بلاد فارس أن تطوى الرسائل على شكل مثلثات كالأحجبة ولا توضع فى مظاريف بل يكتفى بثنى جزء منها ووضعه بين طياتها بحيث يسهل فتحها وإعادتها إلى ما كانت عليه دون أن يظهر أنها فتحت — فقد سررت مما عرضه على وفتحت الرسائل لأعرف أخبار صاحبي الشاعر

وكانت أول رسالة منها إلى الشاه الذى دعاه شاعره باسم ملك الملوك وضمن رسالته إليه وصف الآلام التى تكبدها من معاملة التركمان ومن الجوع والظمأ والذل ، قائلا : إن ذلك كله لم يكن شيئاً يذكر بجانب ألمه للبعد عن جلالته وحرمانه التشرف بخدمته . وقال : إن حياته تستمد النور والحرارة من رحمة الشاه ومن قربه ، وإن أكبر أمل لديه هو أن يعاد إلى منصبه الذى كان غيابه عنه على الرغم منه وإنه يريد أن يعود إلى التغريد فى قصره كما يتغنى البلبل للورد

وكانت الرسالة الثانية لرئيس الوزارة الشرس الأخلاق المشوه الخلقة ، ولكن الشاعر وصفه بأنه كوكب ساطع بين نجوم السماء ، وبأنه روح البلاد وعماد مجدها . وكانت الرسالة الثالثة بهذا المعنى لعدوه القديم وزير المالية

أما باقى الرسائل فمنها واحدة لزوجته يتكلم فيها عن شئونهما الداخلية وعن نواياه فى المستقبل ويوصيها بأن تقتصد فى ملابسها وأن تعنى برقابة الخدم والعبيد وبأن تعد له ثياباً جديدة . ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة إلى مربى أبنائه يحييه فيها ويرجو أن يكون قد علمهم الشمائل والتقاليد ومبادىء الدين وعودهم المواظبة على الصلاة فى مواعيدها ومرنهم على استعمال الرماح وإصابة الهدف وهم راكضون على ظهور الجياد

وكانت الرسالة الأخيرة إلى وكيل أعماله وهو يوصيه فيها بالاقتصاد الشديد وأن يذهب كل يوم إلى قصر رئيس الوزارة فيطيل من الدعاء له وشكره لأنه لولا عنايته وهيبته فى البلاد لما أطلق التركمان أسيرهم ، ويوصيه أيضاً بأن يكون شديد العناية بأعماله

وبأن يسحب زوجته فى عدواتها وروحاتها وبأن يكون مطيعاً لما تأمره به وبأن يتشدد فى مراقبة العبيد والخدم عموماً وخص الرقيق جوهراً فاذا رابته منه علاقة باحدى الجوارى جلده وجلدها معه . وأمره بمنع العجائز اللواتى يخشى منهن دس الدسائس — وبخاصة اليهوديات — من الدخول منزله . ويأمره أخيراً بأن يدفع جائزة لمن يحمل هذه الرسالة لتكون بمثابة البشرى لنجاته من الأسر .

طويت هذه الرسائل وأعدتها إلى الساعى الذى ظهر على وجهه البشر لما جاء فى الرسالة الأخيرة ، وقال إنه تعب كثيراً وخشى أن يأتى متأخراً فصار يقضى أيامه ولياليه ركضاً بجواده حتى أتعبه واضطر إلى تركه فى إحدى البلاد التى مر بها على أن يرسل إليه بعد شفائه واغتصب الجواد الذى هو راكب عليه الآن من أحد الفلاحين .

وبعد أن سرنا مسافة أخرى أدرك صاحبى التعب فربط جواده ونام ونظرت إليه وهو مستلق على الحشيش وحدثتنى نفسى بأن أسرق منه رسالة الشاعر إلى وكيله وأذهب بها . ولما كنت عارفاً كل المعرفة بحياة الشاعر وزاملته فى الأسر مدة طويلة فانى بغير شك أولى من هذا الساعى بأداء رسالته ، ولو كنت مع الشاعر عند ما نجا ما أرسل غيرى ليؤديها وأنا أحق كذلك بالجائزة التى تدفع من أموال رجل خدمته وكنت مستعداً للتضحية من أجله بالشىء الكثير لو سنحت لى فرصة لهذه التضحية . أما الجواد فليس حق الساعى فيه أكبر من حق

وفى غير مشقة كبيرة أخذت تلك الرسالة وركبت الجواد وركضت به جاعلا كل همى أن أسرع حتى لا يلحق بى الساعى إما على ظهر جواده الذى قال إنه سيرسل إليه وإما على ظهر جواد آخر يغتصبه وقلت فى نفسى : إننى إذا سبقته بمسيرة يوم فانى آمن من شره ، وعزمت على أن أبيع الجواد ساعة وصولى إلى طهران — وعلى أن أبدل ثيابى فى الحال فلا يجد الساعى إذا وصل أى دليل ضدى ولا يجد من يصدقه إذا زعم أنى كنت درويشاً وأنى سرقت منه رسائل وجواداً . بل إنه من الصعب أن يعرفنى بعد إبدال ثيابى فى تلك المدينة

وحصرت تفكيرى عند ما وصلت إلى المدينة فى الكيفية التى أقابل بها أهل الشاعر وفى الكلام الذى أقوله لهم

الفصل الخامس عشر

حاجى بابا فى بيت الشاعر

دخلت المدينة فى ساعة الصباح من باب الشاه عبد العظيم وكان هذا الباب قد فتح لوقته وحينه . وذهبت تواً إلى سوق الخيل وهو أقرب مكان إلى هذا السوق وهو يعقد يومياً لبيع الخيل

وكنت أعتقد أن جوادى حسن جداً وأنه سيباع بثمن غال لأن تجربتى إياه فى أثناء الطريق دلتنى على أنه ليس به عيب : ولكن تاجراً من تجار الخيل فى ذلك السوق أكد لى أنه ملىء بالعيوب وأنى أكون سعيد الحظ إذا تخلصت منه فى مقابل أى مبلغ من المال . وعرض على خمسة طومانات ثمناً . فدهشت لأنى ما كنت أنتظر بعد وصفه المتقدم أن يعرض كل هذا الثمن

ودهش التاجر أيضاً لتسليمى بقوله وقبولى أول مبلغ عرضه .

ولما طلبت إليه أن ينقدنى المال أخذ الجواد

ودفع لى نصف الثمن وعرض على حماراً بالنصف الباقى فأبيت، فقال إنه سيدفع لى باقى الثمن عند ما أقابله لأول مرة . ولم يكن لدى متسع من الوقت للمساومة . وكان غرضى الأول هو التخلص من الجواد فتركته له وأخـذت ما دفعه وكتبت اسمه عندى واسمت معه على المـكان والزمان اللذين أقابله فيهما لآخذ الباقى من ثمن جوادى وأنا أنوى ألا أعود إلى مقابلته وهو ينوى ألا يدفع لى شيئاً

ثم ذهبت إلى سوق الثياب فاشتريت (قفطاناً وجبة وعباءة سوداء) ولبست ذلك فى نفس السوق وخلعت ما كان على من ثياب الدراويش. وقد كلفتنى هذه الثياب الجديدة مبلغاً كبيراً لأنى اضطررت إلى شراء أشياء أخرى من مستلزمات هذا الزى كالعمامة والحزام ، ثم سألت عن منزل الشاعر

كان هذا المنزل فى حى من المدينة محوط بأشجار الرمان يدل شكله دلالة واضحة على بعد صاحبه كان أحد مصراعى بابه مفتوحا والآخر مغلقا وظهر لى أن عدد المقيمين فيه قليل جداً وأن الجائزة ستكون قليلة أو أننى لن أنالها

صعدت السلم حتى وصلت إلى الطبقة الثانيـة فوجدت رجلا فى سن الخمسين يدخن فى الشليون وظهر لى أنه الرجل الذى كنت أريد مقابلته وهو وكيل أعمال الشاعر وناظر زراعته

وصحت عند ما رأيته : « بشرى ! عسكر خان سيأتى »

فنظر لى الرجل نظرة اندهاش وقال : « ماذا تعنى ؟ أى خانٍ ومتى ومن أين ؟ » فقلت له : إنى رسول من قبله. وقدمت له الخطاب فبدا على الرجل فرح متصنع وحزن حقيقى ودهشة وقال لى : « ولكن هل أنت واثق من أنه لا يزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « لاشك فى ذلك وأنا آت من عنده وسيأتيكم فى الغد رسول آخر من لدنه وسيكون معه رسائل أخرى باسم الملك والوزراء وغيرهم »

فقال الرجل مخاطباً نفسه : « هذا عجيب ! هذا مدهش ! ما هذا الخبر الذى وقع على رؤوسنا ؟ أين الذهب ؟ ماذا أفعل ؟ »

ولـما ملك الرجل روعه حاول إفهامى سبب اضطرابه فقال : « إن كل إنسان يقول إنه قد مات ويجب أن يكون ميتاً فلقد رأت زوجته فى النوم أن ضرسها سقط من فمها وأنها تألم لذلك أشد الألم . وهذا أكبر دليل على أن زوجها قد مات ... إنه غير حى ويجب ألاّ يكون حياً »

قلت : « ظن كما تشاء فان الرجل موجود الآن فى استراباد ولن تمضى ستة أيام حتى يصل إلى هذه المدينة ويريكم شخصه

سكت الناظر وظل واجماً لايعرف بماذا يجيب وقال : « لايدهشك اضطرابى ودهشتى عند ماعلمت بأن سيدى القديم لم يمت ، فان خبر موته لـما شاع فى هذه المدينة أخذ الشاه أملاكه وأمواله وأرقاءه وأثاث بيته وأعطى ذلك كله « لمحور على ميرزا » وهو أصغر الأصهار من أبناء الشاه ، أما ضيعته فهى الآن مملوكة لرئيس الوزراء ، وأما قصره فهو لميرزا فاضل ، ولم يبق غير هذا المنزل لزوجته التى تزوجت من معلم أبنائه، فقل لى هل لى أن أضطرب من هذا الخبر الذى تزعم أنك تبشرنى به أم لا ؟ »

قلت : « نعم لك أن تضطرب وتحار ، ولكن ماذا يكون من أمر الجائزة التى أشير إليها فى هذا الخطاب ؟ »

فقال الناظر : « لا تنتظر مني أي شيء فأنت لم تأتني بخبر سار ، ولكن إذا شئت فاصبر حتى يأتي السيد الجديد »

قلت : « إنني سأعود في يوم آخر وخرجت من المنزل وأنا مستغرق في تأملاتي

الفصل السادس عشر

حاجي بابا يفكر في المستقبل ويدخل في معركة

عزمت على أن أنتظر عودة الشاعر وأن أحصل بوساطته على منصب في الحكومة فأكتسب من هذا الوجه الشريف رزقي ويكون أمامي مجال واسع للترقي والظهور في ميدان الحياة بغير وسائل الغش والتدليس التي علمتنيها تجاربي السالفة لأنني قد سئمت من الاختلاط بالطبقة الدنيا ومن معاشرة الرعاع وطمحت نفسي إلى الرقي والغنى والجاه ولم أجد في ضعة أصلي وحقارة نشأتي ما يمنع من وصولي إلى رياسة الوزارة وقلت في نفسي : « ماذا كان إسماعيل بك تللي (أي الذهبي) أقرب المقربين إلى الشاه ؟ إنه لم يكن إلا فراشاً وشيماً وليس أكثر مني علماً ولا أفصح لساناً ، وهو قد اشتهر بركوب الخيل ولكنه لو وقع في أسر التركمان كما وقعت في أسرهم لافتضحت حقيقة هذه الشهرة وتبين أنني خير منه في ذلك أيضاً . وقلت : ومن هو وزير المالية الذي يوزع أموال الدولة على أصحاب الشاه ولا ينسى نفسه ؟ إنه ابن بدال وأنا ابن حلاق فليس يفضل أبوه أبي ، وأنا أفضل من معاليه لأني أعرف القراءة والكتابة ومعاليه لا يعرفها . وهو يأكل ويشرب كما يشاء ويلبس كما يقولون حلة جديدة في كل يوم ويختار لهوه أجمل النساء ، ولكنه مع ذلك لم ينل نصف كفاياتي ومواهبي وهو كما يلقبه جميع الفارسيين (خور بالتشديد) أي (حمار بتوكيد اللفظ)

اندفعت في تيار هذه التأملات وأنا في وسط الطريق المؤدي إلى القصر وظهري مستند إلى الحائط وقد غلت برأسي حرارة الفكر فرأيت نفسي في الخيال وقد بلغت ما أرجوه من العظمة وحالت رؤيتي ذلك الجلال دون رؤية المخلوقات الوضيعة التي تسير في الطريق وأخذ الطريق يزدحم شيئاً فشيئاً فاضطرتني الجماهير بضجتها وجلبتها إلى الالتفات إليها وأخذت أدفعها عني بكبرياء ، ونظرت إلى الناس نظرة احتقار وزراية ، ودهش الناس من معاملتي إياهم هذه المعاملة فأخذ البعض يضحك والبعض يسخر ، وعنفني القليل منهم ، وحسبني أكثرهم مجنوناً . ولما رجعت إلى نفسي بعد ذلك عذرت من اتهمني هذه التهمة لأن ثيابي وإن كانت جديدة فهي لا تفضل في نوعها ثياب أدنى الطبقات ، فابتسمت من ظهوري بمظهر العظمة ، وسرت إلى السوق لأبدل تلك الثياب بثياب أرقى منها لكي أظهر بمظهر يتفق مع الأمل الذي أرجوه

وبينما كنت أشق لنفسي طريقاً بين الزحام إذ رأيت ثلاثة يتشاجرون ورأيت الناس مزدحمين حولهم ففرقت بعضهم لأفض النزاع إن استطعت ولكن لسوء حظي وجدتهم الساعي الذي سرقت منه الجواد ، والتاجر الذي بعته له ، والفلاح وهو صاحبه الأول

قال الفلاح : « هذا جوادي »

وقال الساعي : « هذا سرجي ولجامي »

وقال التاجر : « أنا المالك وحدي »

ورأيت الخطر الذي يحدق بي ففكرت في النجاة

ولكن نظر التــاجر وقع على فصاح : « هذا هو الرجل الذى اشتريت منه الجواد »

ولما رآنى الساعى انقض علىّ كما ينقض الوحش على فريسته ووصفنى بأنى غادر وأنى لص وأنى وغد

قال لى الفلاح : « هات جوادى »

وقال الساعى : « هات سرجى ولجامى »

وقال لى التاجر : « هات مالى »

وقال الجمهور : « خذوه إلى القاضى »

وعبثاً حاولت أن أقنع الجمهور بأننى برئ ، وعبثاً حاولت أن أطلب الرحـمة أو أجد من ينصت إلى ما أقول وصرت أصيح مخاطباً الساعى : « لماذا تغضب ؟ هذا سرجك ولجامك سليمين فخذهما »

وقلت للفلاح : « ولماذا تغضب أنت ؟ هذا جوادك لم يمت ولم يصب بسوء فخذه واحمد الله إذ لم يحدث له ما يفجعك به »

وقلت للتاجر : « ولماذا تغضب أنت ؟ إنك لم تدفع لى إلا نصف ثمن الجواد وكنت تريد أن تغشنى وتعطينى حماراً أعرج بالنصف الباقى من الثمن »

وعرضت عليه أن أرد ما أخذته منه ولكنه رفض وأصر على أن أدفع للرجلين الآخرين ما يسكتهما ليصير الجواد ملـكه

ولما لم يقبل ما عرضته عليه من أوجه الحلول اتفقت كلمتنا على الذهاب إلى مأمور البوليس وتحكيمه وقد وجدناه فى السوق محاطا بجنوده وفى يده عصاه الطويلة المستعدة لضرب الناس دائماً والتى يعتبر الضرب بها بمثابة الاتهام أو إعلان الشكوى

بدأت أنا برفع الأمر فشرحت القضية على حقيقتها وتمسكت بأن تاجر الخيل كان يريد خداعى وأنه غشنى فى الثمن . وطلبت رد الجواد إلىّ لأرده إلى صاحبه . وقال التاجر دفاعاً عن نفسه إن شكواى باطلة لأن الجواد مسروق ولا يمكن إلزامه بدفع باقى الثمن إلىّ لأنى لست صاحبه، ولا يمكن أخذ الجواد منه لأنه اشتراه بحسن نية وإنما الشئ الوحيد الممكن فى نظره هو أن أدفع تعويضاً لصاحب الجواد

حار مأمور البوليس حيرة شديدة فى حل هذه المشـكلة وقال إنها عويصة وإنه لا يستطيع الفصل فيها . ولذلك فإنه يتنحى عن نظرها ويأمر بعرضها على القاضى . ولكن أحد الواقفين وهو رجل أشيب نظر إليه وقال : « لماذا تحار فى قضية بسيطة مثل هذه ؟ إن الخلاف بين حاجى بابا وتاجر الخيل يحل على أن يدفع التاجر باقى ثمن الجواد . ثم يدفع حاجى بابا إلى التاجر أجرة إبقائه عنده وإطعامه فى هذه المدة »

فصاح كل من سمع هــذه الفتوى : « تبارك الله ! تبارك الله ! »

وسواء أكان رأيهم خطأ أو صواباً فقد بهرهم ذكاء الرجل ووافقه المأمور على ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا الحل كان خطأ ومضحكاً فقد نفذ لأن المأمور قبله فى لحظة كان عقله مختلطاً فيهـا وأخذت الجواد بعد أن أخذت الباقى من ثمنه ودفعت للتاجر أجرة طعامه ، ثم رددت الجواد للفـلاح والسرج واللجام للساعى وكانت الخسارة كلها على التاجر والمكسب كله لى

الفصل السابع عشر

حاجى بابا يبدأ عهداً جديداً فى الحياة

حمدت الله على خلاصى من هذا المأزق واستأنفت

سيرى إلى سوق الثياب لأشترى منه ثوباً غالياً تنفيذاً للخطة التى رسمتها .

ولما وصلت لأول حانوت طلبت جبة جوخ من الجوخ الثمين لأننى كنت دائماً أشعر بالاحترام لمن يلبسون مثل هذه الجبة فنظر إلى البائع من رأسى إلى قدمى : « لمن تريد هذه الجبة ومن الذى سيدفع ثمنها ؟ »

فساءنى هذا السؤال وقلت : « لماذا ؟ أريدها لنفسى وأنا الذى سأدفع الثمن ؟ »

فقال : « ولماذا يلبس مثلك مثلها ؟ إنه لا يلبس الجوخ الأحمر غير الميرزا أو الخان ولا شك عندى أنك لست أحدهما »

كاد الغضب يتملكنى فأهينه لولا أن دلالاً مرّ فى هذه اللحظة من أمامى ومعه ثياب من جميع الأنواع ، ولكنها مستعملة فذهبت إليه وبالرغم من أن صاحب الحانوت أخذ يدعونى لأنه ندم على إبعادى عنه بالوسيلة التى اتبعها .

ومشيت مع الدلال إلى ركن من الطريق بالقرب من باب المسجد وجلس على الأرض وأخذ يعرض علىّ ما معه من الثياب، فأعجبنى ثوب حريرى مزركش بالذهب وبه زرائر ذهبية . ولما سألته عن ثمنه أقسم لى أن الثوب كان لنديم من ندماء الملك وأنه لم يلبسه إلا مرتين فقط . ولأجل أن يغرينى بشرائه وضع هذا الثوب علىّ وأخذ يدور حولى ويقول : «ماشاء الله ! ماشاء الله ! » فعزمت على شراء الثوب وطلبت منه شالا من الكشمير لأجعله حزاماً فقدم لى شالا قديماً به كثير من الثقوب وأقسم أنه كان مملوكا لسيدة من سيدات القصر الملكى . وقال إنه سيبيعه بثمن زهيد . فأخذت الشال وجعلته حول خصرى

حاولا إخفاء ثقوبه فلم أجد به عيباً يذلفه، ورأيت أنه لا ينقصنى إلا خنجراً أضعه فى هذا الحزام فأصبح مثل سائر الوجهاء ، وطلبت من الدلال خنجراً فقدمه لى ووضعته فى الحزام فأعربت عن رضاى لأنى أصبحت فى هذا الزى كأحسن رجل فى طهران

ولما بدأ دور المساومة وجدت الأمر أصعب مما كنت أتوقع، وأخذ الدلال يقسم لى أنه شريف وأنه ليس مثل سائر الدلالين الذين يطلبون مائة ثم يبيعون بخمسين، وقال إن الثمن الذى يطلبه هو الثمن الذى لا يستطيع أن يبيع بأقل منه . وطلب منى خمسة طومانات للجبة وخمسة عشر ثمناً للشال وأربعة للخنجر فتكون الجملة أربعة وعشرين طوماناً

لما سمعت ذلك أسفت لأنه لم يكن معى غير عشرين طوماناً فقلت له إنى لا أريد الشراء ونزعت ثيابه وأخذت ألبس ثيابى فاستمهلنى الدلال قائلا: « إذا كنت استكثرت الثمن فكم تريد أن تدفع ؟ »

قلت إنه لا يريد أن يبيع على ما يظهر وإنى لن أدفع أكثر من خمسة طومانات. فرفض البيع بهذا مظهراً لى أشد احتقار ، ورددت إليه الثياب فأخذ يطويها وظهر أن المساومة انتهت بيننا عند هذا الحد ولكن الرجل نظر إلى وقال : « إننى أشعر بمودة نحوك وسأبيعك بما لا أقبل أن أبيع به لأخى فادفع عشرة طومانات » . فرفضت وأصررت على الثمن الذى عرضته . وأخذ يقلل من مقدار ما يطلبه حتى اتفقنا فى النهاية على ستة طومانات فدفعتها له وأخذت الثياب

كان أول غرض لى بعد أن اشتريت أن أذهب إلى الحمام فذهبت إليه . وفى أثناء الطريق اشتريت

حذاء أخضر وقميصاً أزرق وسروالا قرمزياً ووضعت ذلك كله فى منديل واستأنفت سيرى إلى الحمام

لم يلتفت أحد إلى ساعة دخولى لأن رجلا مثلى فى الثياب التى كانت لا تزال على لا يستثير اهتمام الناس . وكنت أعزى نفسى بأن هذه الحالة لا تلبث إلا ريثما أغير هذه الثياب بثيابى الجديدة وأن الناس فى داخل الحمام لا يتفاضلون تفاضلهم فى الطرقات بل تفاضلهم فيه بطول القامة وعرض الأكتاف ومظاهر القوة والشباب . وكنت فى ذلك أفضل الموجودين فى الحمام ونلت إعجاب من لو رآنى فى الطريق لازدرانى . واستدعيت دلاكين لتدليكى فوقفا بالقرب منى ينتظران أوامرى ، فأمرت أحدهما بحلاقة رأسى وبأن يصبغ شعر لحيتى وشاربى

ولما بدأ فى التدليك أخذ يكرر إعجابه باتساع صدرى ، وعلى تخيلى الحالة التى سأكون عليها بعد أن ألبس الثياب الجديدة على التظاهر بأنى تعودت سماع الثناء والاصغاء إليه . وقال لى الدلاك إننى جئت فى ساعة سعيدة لأنه فرغ لساعته من خدمة خان كبير يلبس خلعة أنعم بها عليه الشاه وأن هذا الخان لم يأت إلى الحمام إلا بعد أن أخبره المنجمون بأن هذه ساعة مباركة تناسب الاستحمام

وبعد أن فرغت من الاغتسال والتدليك ذهبت إلى الغرفة التى فيها ثيابى فلبست جديدها وطويت القديم . وكان الزهو يكاد يقتلنى كلما وضعت على جسدى قطعة منها

وأخيراً جاء الدلاك بالمرآة وهذا هو الرمز عندهم لانتهاء عملهم ومطالبتهم بالأجر فرجلت شعرى ورفعت طرف شاربى إلى عينى ودفعت له الأجر بسخاء ، وخرجت أمشى مشية الرجل الكبير الأهمية

الفصل الثامن عشر

عسكر خان يعود من الأسر — موقف حاجى بابا

مشيت تواً إلى بيت عسكر خان فرأيت وأنا فى أول الطريق إليه جمهوراً كبيراً محتشداً عند بابه وعلمت أنه وصل لساعته ، وأنه دخل البيت من النافذة بدلا من الباب فى وسط احتفال لأن هذه هى العادة عند ما يرجع إلى منزله رجل كان المظنون أنه قد مات

زججت بنفسى بين الجمهور ودخلت إلى الغرفة التى كان الشاعر موجوداً بها وهنأته بوصوله سالماً فى أحر لهجة ودية ، ولكن الشاعر لم يعرفنى فعرفته بنفسى ولم يكد يصدق أن الرجل الذى أمامه الآن فى أجمل ثياب وأرقاها هو ذلك الوغد القذر الثياب الذى كان معه فى أسر التركمان

وكانت الحجرة مزدحمة بالناس من جميع الطبقات ، وكان بعضهم فى نهاية السرور بعودته سالما والبعض فى نهاية الحزن لهذا السبب . وكان من الفريق الأخير « ميرزا فاظل » ولكنه كان من أكثرهم ترحيباً به وإظهاراً لمودته . وقال له : « لقد كان مكانك شاغراً وكانت عيوننا متشوفة إليك

ثم حدثت ضجة بالمكان وفتح الباب ودخل ضابط مندوب من قبل الشاه وأمر عسكر خان بأن يلبس الثياب التى جاء بها من السفر ويذهب إلى الشاه . فتفرق الموجودون وذهبت فى جملة الذاهبين وفى عزمى أن أعود فى اليوم التالى ، وفى طريقى قابلت ناظر الزراعة فقلت له : « هل رأيت أن كلامى كان صادقاً وأن عسكر خان لم يزل على قيد الحياة .

فأجابني : « نعم لقد صدقت فهو لا يزال على قيد الحياة ولكن الله كبير » ثم كرر الجملة الأخيرة مراراً وتركني وقد بدا عليه أنه يشعر بالبؤس والحزن الشديدين . وأمضيت يومي كما يقول المثل في تشييد قصور في الهواء . وجبت الأسواق لمعاينة ما عزمت على شرائه بعد أن تتحقق أحلامي ودخلت المساجد لأداء الصلاة والدعاء لله أن يوفقني إلى تحقيقها .

وفي أحد المساجد وجدت كثيرين ممن لا عمل لهم ولا شاغل يشغلهم غير التساؤل عن أخبار الناس والتحدث بها وقد سمعتهم يتكلمون عن عودة الشاعر عسكر خان وعن المقابلة التي قابله بها الشاه فقال البعض: إن جلالته قال عند ما سمع أنه لا يزال على قيد الحياة إن شاعره قد مات وإن الذي يدعي هذه الدعوى لا يمكن أن يكون إلا كاذباً وإن جلالته سيعاقبه على ذلك . وقال البعض إن جلالة الشاه لم يقل ذلك وإنه أعرب عن سروره بعودة شاعره وأعطى لمن بشره بهذا الخبر عشرة طومانات . ولكن الكثرة كانت متفقة على أن جلالته لم يسر بعودة عسكر خان لأنها ستخل بالنظام الذي كان قد وضعه لتقسيم تركته

ولكن عسكراً كان يعرف حب هؤلاء للشعر فنظم قصيدة بديعة وصف بها حالته في الأسر ومدح الملك بما لم يمدح به ملك من قبله، وإن الشاه سمع منه هذه القصيدة فطرب كل الطرب وأمر بأن يملأ فوه ذهباً وخلع عليه خلعة سنية

لما سمعت الخبر الأخير خرجت من المسجد لأهنئ الشاعر وأنال جائزة منه على هذه التهنئة . وقد وجدته ضاحكا مستبشراً ورأيت من عطفه علي وإيناسه إياي ما شجعني على أن أطلب منه تعييني في خدمته أو التوسط لدى واحد من معارفه لأشتغل لديه ، وشرحت له حالتي بالتفصيل وذكرت له كل الحوادث التي حدثت لي . وقد استكشفت أن سبب اضطراب ناظر الزراعة عندما علم بعودة سيده هو أنه بدد كثيراً من أمواله عند ما اعتقد أنه قد مات . ورجوت أن أنال عمله ، فأخبرت الشاعر بكل ما سمعته عن هذا الناظر الخائن ، ولكنني مع الأسف لم أنجح فيما كنت أريده إما لأن الشاعر لم يثق بقولي وإما لأن الناظر استطاع إقناعه بأنه بريء . وبقي الرجل في عمله وبقيت منتظراً ما يجود به عليّ صاحبي في الأسر صدقة وإحساناً .

وأخيراً طلبني عسكر خان في صباح يوم من الأيام وقال لي : « حاجي بابا، أيها الصديق ، تعرف مقدار ما أجنه لك من الشكر على ما لقيته من عطفك وكلانا واقع في أسر التركمان وقد آن الوقت الذي يجب فيه عليّ إظهار عرفاني الجميل ، لقد تكلمت بشأنك مع ميرزا احمد « حكيمباشي » رئيس أطباء الشاه وذلك بمناسبة ما علمته من احتياجه إلى تابع . ولا شك أنه إذا وجد فيك ضالته فانه سيعلمك صناعته فتجد الطريق المؤدي إلى الغنى فاذهب إليه وقل له إنك أنت الرجل الذي حدثته عنه فانه سيغنيك في الحال »

لم أكن ميالا من قبل لمزاولة الطب وذكرت القصة التي سمعتها من الدرويش فشمرت نحو الأطباء باحتقار شديد . ولكن حالتي كانت حالة اليائس لأنني كنت قد أنفقت آخر دينار معي . ولم يبق أمامي غير أن أقبل أي عمل حتى ولو كان حرفة الطبيب .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى منزل (الحكيمباشي) وهو مجاور لقصر الشاه ودخلت حديقته الواسعة المهملة فوجدت فيها على الجانبين غرفاً بها أسرة للمرضى ووجدت غرفة كبيرة أمامها أناس كثيرون فعلمت أنها غرفة الطبيب . وبقيت منتظراً عند بابها حتى يأتي دوري فيؤذن لي بالدخول

ولم يكن كل المنتظرين من المرضى بل كثير منهم من أصدقاء الطبيب أو أصدقاء أصدقائه ، وقد جاءوا لأمور عادية لا شأن لها بحرفته . والعادة في البلاد الفارسية أن يستقبل الأطباء أصدقاءهم في أوقات عملهم وأن يقدموا مقابلاتهم الشخصية على مقابلات المرضى . وفضلا عن ذلك فان موظفي القصر الملكي كانوا يدخلون حجرة الطبيب بغير استئذان ويطيلون المكث فيها والمرضى في انتظار خروجهم عند الباب

كان هذا الطبيب متقدماً في السن ، عيناه غائرتان في وجهه ، وعظام وجهه كبيرة ، وشعرات لحيته ورأسه قليلة . وكان محدودب الظهر من كبر السن قليل الكلام يبادر مريضه بأسئلة قليلة متناهية في الاختصار والايجاز ، ويظهر الاشمئزاز إن كان الجواب طويلا ، وكان يبدو على وجهه أنه يفكر في كل شيء إلا الشيء الذي يكون أمامه

ولما جاء دوري أخبرته بأني أنا الذي كلمه الشاعر من أجلي فحدق في نظره لحظة قصيرة ثم أمرني بالانتظار لأنه كان يريد أن يكون كلامه معي على انفراد . وبعد أن انتهى من عمله مع الناس ناداني فذهبت معه إلى غرفة ضيقة ملحقة بمكتبه وهي التي يدعونها « الخلوة »

الفصل التاسع عشر

حاجي بابا يصير تابعاً لطبيب الشاه

جلس الطبيب وأمرني بالجلوس فجلست مظهراً ما يجب إظهاره من الاحترام والرهبة عندما يتشرف حقير مثلي باكرام عظيم كطبيب الشاه . وقال لي إن الشاعر كلمه في شأني ، وقال إنني رجل يمكن الاعتماد عليه . وإنني قوي صبور وإنني جربت تجاريب كثيرة في الحياة وإن لي اقتداراً خاصاً على كتمان الأسرار .

فأطأطأت رأسي مراراً وهو يكلمني وكنت شديد الحرص على ألا تظهر قدماى فأخفيتهما تحت طرف الثوب واستمر الطبيب يقول : « وما دامت هذه صفاتك فستكون حاجتي إليك كبيرة . وليس يصلح لخدمتي من لم تتوافر فيه صفة من هذه الصفات . وأنا واثق بما يقوله عسكر خان ، فاذا برهنت أنك عند ظنه فيك فستجد عندي فوق ما يرضيك » ثم أدناني منه وقال لي بصوت خافت كأنما يخشى أن يسمعه إنسان : « لقد جاء أخيراً سفير من أوربا وفي حاشيته طبيب كبير وقد نال هذا الكافر شهرة واسعة وهو يعالج مرضاه بطريقة جديدة علينا . وليس في وسعنا أن نتقلها الآن . وجاء بصناديق مملوءة بعشرات الأدوية التي لا نعرف أسماءها ، وهو يدعى أنه يعرف أشياء يجهلها جميع الأطباء الفارسيين ، ولا يفرق بين الأمراض الحارة والأمراض الباردة ، ولا بين الأدوية الحارة والأدوية الباردة . وهو لا يتبع نظريات جالينوس وابن سينا بل يقول إن علمهما قد أصبح الآن علماً قديماً . وأغرب من ذلك أنه يدعى القدرة على منع مرض

الجدرى بجرح يحدثه في الذراع ويضع مادة فيه يقول إنه يستخرجها من البقر . ونحن لا نريد أن نسمح له بأخـذ القوت من أفواهنا ومزاحمتنا في حرفتنا وفي بلادنا . ومن أجل ذلك أشعر بحاجة كبيرة إلى مساعدتك

ولقد مرض رئيس الوزارة منذ يومين بعد أن أكل مقـداراً كبيراً من الخس والخيار . وأنا لم أعرف مرضه . وعـلم السفير بمرضه فأرسل إليه طبيبه . ولـكن كان بين رئيس الوزارة وبين السفير عداوة على ما يظهر لأن السفير يلح في طلب امتياز سياسي لدولته ويرى رئيس الوزارة أن في إجابة ذلك الطلب مساساً بمصالح فارس، فرفضه وغضب السفير من الرفض ، ويظهر أن هـذا المرض جاء فرصة مناسبة للصلح بين شخصيهما بغض النظر عن موضوع الخلاف فأرسل السفير الطبيب مجاملة . ووجب على رئيس الوزارة أن يجامله كذلك بألا يرد الطبيب . ولو أنني علمت بهذا الأمر في الوقت المناسب لاحتلت بأية حيلة لمنعه ، وقد سمعت أن هذا اللعين قد أعطى رئيس الوزارة قطعة واحدة من دواء أبيض عديم اللون والرائحة نخففت ألمه . وكان تأثيرها قوياً عجيباً وقد دهش رئيس الوزارة حتى صار لا يتحدث إلا عن قدرة هذا الطبيب . وتسامع كل أهل القصر بذلك حتى إن الشاه نفسه أظهر دهشته وإعجـابه ، واستدعى رئيس الوزارة ليقص الأمر على مسمعه . وكنت موجوداً في ذلك الوقت . فأمرني الشاه أن أبين ما أعرفه عن هذا الدواء وعن العلة، فبذلت كل ما في وسعي لاخفاء اضطرابي، وقمت فقبلت الأرض بين يدي جلالته وقلت : « إن نفسي فداك يامالك الملوك! إنني لم أر ذلك الدواء الذي أعطاه الطبيب الكافر لدولة الوزير ، ولكنني متى رأيته أخبرت جلالتكم عن عناصره . ولكنني أقول منذ الآن إن المرض كان سببه تلبس الشيطان بجسم الوزير بدليل أن الشفاء جاء على يد طبيب كافر لا يصدق بديننا ولا يؤمن بنبينا

قلت ذلك لـكي أزعزع الثقة التي نالها هذا الطبيب، ولكنني كنت في نفسي شديد الرغبة في معرفة الدواء الذي استعمله . وأنت قد جئت لحسن الحظ في الوقت المناسب . وسأعتمد عليك في مساعدتي . والذي أريده منك هو أن تتصل به وتخدمه حتى تأخذ عنه علمه . ولـكني أريد قبل كل شيء وفي أقرب وقت أن تعرف لي الدواء الذي أعطاه لرئيس الوزارة لـكي أخبر الشاه عنه . اذهب الآن إلى السوق فاشتر خساً وخياراً وكل منهما مقداراً كبيراً وتمارض إن لم يصبك المرض حتى يبدو لمن يراك أنك صرت بالحالة التي كان عليها الوزير واستدع الطبيب الأوربي فإنه سيعطيك نفس الدواء الذي أعطاه للوزير فلا تتجرعه ولكن جئني ثم تناوله بعد أن أفحصه

أزعجني هذا المشروع الخطر فقلت : « إنني سأتبع كل ما تشير به ولكنني أخشى ألا يقبل علاجي ولا تستطيع أنت أن تداويني أو أن يكون الرجل ذكياً فيعطيني دواء آخر، وقد سمعت أعاجيب عن الأطباء الأوربيين ، ومع ذلك فدلني على الطريقة التي أصل بها إليه »

فقال : « إن عوائد هؤلاء القوم وأخلاقهم تنافي عوائدنا وأخلاقنا منافاة تامة . وسأخبرك بشيء عنهم يعطيك فكرة عن مقدار التناقض بيننا وبينهم . إنهم بدلا من أن يحلقوا رءوسهم ويطلقوا لحاهم وشواربهم — كما نفعل نحن — يحلقون اللحى

والشوارب ويتركون شعر رؤوسهم نامياً كالنساء ولا يأكلون بأيديهم كما نفعل نحن بل يأتون بقطع من الحديد لها عدة أطراف محدودة ويتناولون بها الطعام من الأطباق إلى أفواههم غير مبالين بأن يجرحوا ألسنتهم أو شفاههم ، وهم لا يخجلون من لبس ثيابهم الضيقة التي تظهر كل جزء من أجسامهم كأنما أحدهم يمشي عارياً في الطريق ، وهم لا يصلون خمس صلوات في اليوم مثلنا ولا يرون في تركهم الصلاة إثماً ولا معصية . وصفوة القول أن كل شيء عندنا مخالف لكل شيء عندهم ، وهم أقذر ناس خلقهم الله لأنهم لا يعرفون النجس من الطاهر ، فهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ويدفنون الميت دون أن يغسلوه ليطهر ويفعلون كل شيء ولا يطهرون بعده أجسامهم بالماء »

قلت : « نعم لقد سمعت أن كل ذلك من صفاتهم وسمعت أيضاً أنهم حتى فإذا أظهرت لأحدهم الشك في قوله أو قلت إنه كاذب حاربك من أجل ذلك حتى يقتلك أو يموت »

فقال الطبيب : « هذه أيضاً إحدى الصفات التي سمعتها عنهم وأحذرك في معاملتهم من شيء هام وهو إياك أن تقول لأحدهم على سبيل المجاملة كما يقول أحدنا للآخر : « هذا الشيء لك أو هو تحت تصرفك » فإنه سرعان ما يعاملك بقولك فيأخذه ، فهم لا يعرفون هذه المجاملات ، ولا تقل لهم إلا الحقيقة فإن ذلك يلائم طباعهم »

قلت : « إذا كان هذا شأنهم فهل تظن أن الطبيب سيغفر لي كذبي عليه واستدعائي إياه لكي يعالجني من المرض وأنا لست مريضاً ؟ »

فقال الطبيب : « كلا ياحاجي بابا ، إنك ستكون مريضاً بالفعل ، فاذهب في الحال وكل أكثر ما تستطيع أكله من الخس والخيار وهات لي الدواء الذي سيعطيه لك في هذه الليلة »

ثم منعني عن الاستمرار في مناقشته فأمسك بيدي وأخرجني برفق من حجرته فخرجت وأنا لا أعرف هل أضحك أم أبكي من هذا الاتجاه الذي اتجهت حياتي فيه ومن اضطراري إلى استدعاء المرض لنفسي دون أن أعرف ماذا يكون أجري على تحمل آلامه

وبعد أن ابتعدت عن حجرة الطبيب وقفت وحدثتني نفسي بأن أعود إليه وأساومه على الأجر ولكنني لما عدت إلى الحجرة لم أجده فيها ، ويظهر أنه صعد إلى منزله ، فاضطررت إلى الذهاب حيث وجهني

الفصل العشرون

حاجي بابا يخدع طبيبين

سألت عن منزل السفير وأنا أنوي أن أنفذ ما أشار به الطبيب ولكنني كنت أعتقد أن أكل الخيار والخس وإن أثر في معدة الوزير الهرم فلن يؤثر في معدة قوية لشاب مثلي

على أنه لم يكن أمامي بد من الحصول على دواء الطبيب الأوربي بأية حيلة ، وقلت لنفسي إنني إذا ادعيت المرض فإن هذا الطبيب سيعرف الحقيقة ويطردني من منزله ففضلت أن أزعم أنني خادم لحرم الشاه وأختلق قصة أنال بها ما أريد . وعرجت على حانوت لرجل يبيع الثياب فاستأجرت منه ثوباً كالثياب التي يلبسها في العادة خدم القصر الملكي وتصنعت حالة تدل على أنني لست خادماً عادياً بل من رؤساء الخدم ، وتذكرت ما قاله لي ميرزا أحمد

فاقتربت من باب السفير وأنا خائف متردد

وجدت القسم الذى يشغله الطبيب فى منزل السفير مملوءاً بالنساء الفقيرات وكل واحدة منهن تحمل طفلا على ذراعيها، وقيل لى: إنهن جئن ليفصدن الأطفال وقاية من الجدرى . ويظهر أن أسباباً سياسية حملت السفير وطبيبه على التطوع لخدمة الطبقات الفقيرة فى إيران

لما دخلت الغرفة وجدت رجلا فى وسطها أمام منضدة خشبية عليها أكداس من الكتب وآنية فيها المادة التى يستعملها فى التطعيم وكانت ثيابه مثل الثياب التى وصفها لى ميرزا أحمد والتى رأيت بعض الأوربيين يرتدونها

وكان حاسر الرأس مما يدل على عدم احترامه الناس، وحول رقبته قطعة من القماش كأنما يريد أن يخفى مرضاً بها . وثيابه شديدة الالتصاق بجسده خصوصاً الجزء الأسفل من ثوبه لأن شكله فيه كان غير لائق ، وهو مناف كل المنافاة للآداب . وكان حذاؤه فى قدميه فلم يخلعه ولم يبال بالسجاجيد الثمينة التى هو واقف فوقها على النقيض منا نحن الفارسيين فاننا نخلع الحذاء فى داخل الغرف

وجدت هذا الطبيب يتكلم بلغتنا وسألنى ساعة رآنى بتلك اللغة عما أريده، فوجدت الواجب يقضى بتجميل الرد جهد الطاقة فقلت له : إن شهرتك قد انتشرت فى جميع البلاد الفارسية بأنه لقمان زمانه وأن ليس فى هذا العصر من يضارعه أو تحدثه نفسه بمنافسته

فلم يجبنى بحرف عما قلته ، ويظهر أيضاً أنه لم يطرب من هذا الثناء كما يطرب أحدنا عندما يسمع مثله . وقلت له : إن الملك نفسه علم بتأثير دوائه فى نفس الوزير وأمر مؤرخيه بأن يقيدوا فى تاريخ البلاد هذا الحادث على اعتبار أنه من أعجب الأشياء الخارقة للعادة فى مدة حكمه ، وإن سيدات القصر سمعن باسمه فقلن إنهن لن يتداوين عند غيره إن مرضن، وإن جاريته الشركسية مريضة بالفعل وإن « الأغا باشى » أرسله بأمر خاص من جلالة الشاه لكى يحصل على دواء مماثل للذى أخذه الوزير . وختمت قولى بطلب هذا الدواء

ظهر لى أن الطبيب أخذ يفكر فيا سمعه منى وقال لى بعد مدة وجيزة: إنه ليس من عاداته أن يصف دواء لمريض لم يره لأن ذلك قد يكون أكثر ضرراً للمريض من عدم العلاج بتاتاً ، وإنه على استعداد لمعالجة الجارية إن سمح له برؤيتها . فأجبته على ذلك بأن رؤية أوجه السيدات ممنوعة قطعاً ، وأنه عند الضرورة القصوى يسمح بجس النبض دون رؤية الوجه على شرط أن تكون اليد مستورة برداء

قال لى الطبيب إنه لا يستطيع معالجة المريض بجس نبضه فقط بل يجب أن يرى لسانه أيضاً .

فقلت له : إن رؤية ألسن السيدات أمر لا عهد لنا به فى البلاد الفارسية ، وإن تحقيق هذا الشرط يستدعى صدور أمر خاص من الشاه ولكن الذى يعرض أمراً كهذا على جلالته يعرض لسانه للقطع عقاباً على جرأته .

قال لى الطبيب : « تذكر إذن أننى إذا أسلمت لك الدواء فانما أسلمه على شرط ألا أتحمل مسئولية من تأثيره لأنه قد يقتل بدلاً من أن يشفى »

فلما أكدت له أن ليس هناك مجال للخوف فتح صندوقاً كبيراً مملوءاً بالعقاقير وأخرج ذروراً أبيض وضعه فى غلاف أبيض صغير ودفعه إلى فسألته عن نوع هذا الدواء وعن تأثيره، فقال لى بغير التحفظ الشديد الذى يبديه أطباء فارس — كل الذى أردت أن أسمعه . ولو كان المسئول طبيباً فارسياً لما فهمت من كلامه غير أسماء أبقراط وابن

سينا ولقمان ، لكثرة ما يلجأون فيه من الابهام والغموض .

ولما وعيت ما قاله شكرته ورجعت فى الحال إلى ميرزا احمد طبيب الشاه وقد كان ينتظر عودتى بصبر نافد، وتظاهرت بأنى مريض لأوهمه أنى أكلت الخيار والخس وأنى بسبب ذلك مرضت كما مرض الوزير فتأثر الطبيب الفارسى من رؤيتى وأظهر لى ما يشبه الشفقة .

قلت له بألفاظ متقطعة كالمريض الذى أشرف على الوفاة : « لقد دخلت عيادة ذلك الطبيب وانبعت أوامرك فأنجدنى وأنا منتظر كرمك » .

فحاول ميرزا أحمد أن يحصل منى قبل كل شىء على الدواء الذى أتيت به ولكننى قبضت يدى وتركته يفهم أنى أنتظر جزاء سريعاً وأنى مصمم على ابتلاع الدواء لأشفى من مرضى إذا لم يعجل بمنحى ما أستحقه من التعويض

وكان خوفه شديداً من عدم الحصول على الدواء وعجزه تبعاً لذلك عن إجابة الشاه على ما سأله عنه فقدم لى قطعة من النقد الذهبى وتلطف معى ليحصل على هذا الدواء أكثر مما يتلطف عاشق أمام حبيبته .

وأردت أن أزيد فى التصنع حتى أحصل منه على قطعة ذهبية أخرى ولكنى رأيت الطبيب يجهز لى دواء ليشفينى من المرض الذى أتظاهر به وخشيت من دوائه ، فلت إلى الانتهاء من تمثيل هذا الدور وتركت له الدواء .

فلما أخذه نظر إليه باهتمام شديد وقلبه بين يديه وظل كذلك مدة طويلة دون أن يبدو عليه أنه عرف شيئاً عنه فقلت له: إن الطبيب الأوربى أخبرنى عن المادة التى صنع منها الدواء وعن طبيعته وتأثيره . فأصغى إلى باهتمام شديد ثم قال : « كأنى كنت ناسياً كل هذه الأمور الأولية التى تعلمتها فى أول عهدى بمدرسة الطب »

وكان فى جملة ما قلته له : إن الزئبق يدخل فى تركيب هذا الدواء

فقال : « وهل يريد هذا الكافر اللعين أن يسمم أجسامنا بالزئبق ويضيع بهذا الجهل شهرتى الواسعة التى لم يحلم بمثلها أبوه ؟ إن الزئبق بارد والخس والخيار باردان أيضاً، فهل الثلج يذيب الثلج؟ إننا لا نعالج الأمراض الباردة إلا بأدوية حارة والعكس بالعكس ، وهذا الحمار لا يعرف المبادئ الأولية فى علم الطب فيجب ألاّ نسمح له بالضحك على ذقوننا بهذا الشكل »

وقبل أن يتمم ملاحظاته جاء رسول من قبل الشاه يدعوه إليه، فأسرع فى لبس الثياب التى يقابل بها جلالته وأخذ معه الدواء وذهب مسرعاً مع الرسول

« يتبع » عبد اللطيف النشار



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر و فى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

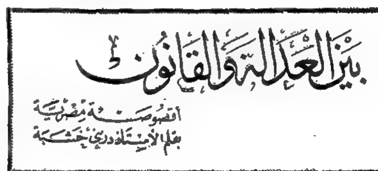
مـ	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٦ — ٢٣ شوال سنة ١٣٥٧ — ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد



— وماذا تستطيع أن تنال بالعنف ياصديقي إبراهيم ؟ لم لا تلجأ إلى قدس القضاء تعرض عليه شكواك ؟

— لن ألجأ إلى هذه الوسيلة العاجزة ياصديقي !

— القضاء وسيلة عاجزة ؟ ماذا تقول ؟ لقد بلغ القضاء في مصر ذروة العدالة ، بل هو في مصر أنزه منه في كثير من الأمم التي تفوقنا حضارة ... فكيف تنعته بالعجز ياصديقي ؟

— أنا ياأخي لا أنعت قضاءنا بالعجز ، وإن اقتناعي بنزاهة قضاتنا لا يفوقه اقتناع . لكنني مع ذلك أعده وسيلة عاجزة في رد الحقوق ، وإن شئت التخفيف من حدة التعبير ، فقل إنه وسيلة بطيئة بطئاً يشبه حبْو المقعد

— أنت تقسو في حكمك ياإبراهيم !

— لست أقسو ، إذ هذا هو الواقع ، بل هذا هو الذي يشجع أخانا على هضم حقوقنا .. إنه خبير بأحوال عما كنا وتعقد الاجراءات القضائية فيها ، ثم هو مطمئن من أجل هذا إلى خشيتنا وشدة تخوفنا من أن ندخل المحكمة . وهذا شعور عجيب يلابس الطامعين وآكلي الحقوق ويجعلهم يفترسون الضعفاء ويخرجون من مساومتهم باغتيال حقوقهم واضطرارهم إلى قبول ما يعرضون عليهم صاغرين !

— إذن هذا هو شعور العجز !

— عجز من ياصديقي ؟

— عجزك أنت إنك بكلامك هذا تبرهن على أنك رجل غير مقاحم ، تؤثر أن تعيش على هامش الحياة ، دون أن تخوض عبابها فتصارع الأهوال فيها !

— أنت تظلمني ياعبد الكريم ، بل أنت لا تفهمني !

— بل أنا أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك . إنك مع خشيتك من اللجوء إلى القضاء ، وهو الطريق الأوحد الذي تنال به حقوقك ، تدعي أنك ستنال هذه الحقوق بالعنف ، فماذا عساك تفعل ؟

— سأقتله !

— أنت ؟

— أجل ، أنا !

— إنك لن تستطيع هذا !

— ولم لا أستطيع ؟

— لأنك رجل مهذب لا ترضى أن تلوث يديك الشريفتين بالجريمة . ومع ذلك فالقضاء الذي تفرمنه اليوم ، هو الذي سيطاردك حتى يثأر لأخيك منك ... على أنني لا أدري علام تريد قتل أخيك !

— لأنه ظلمنا !

— وكيف ظلمكم يا صديقي ؟ أليس أبوك — عليه رحمة الله — هو الذي نزل له عن هذه الدور والضياع ؟ هل اختلسها منه مصطفى ؟

— أبي لم ينزل لأحد عن أملاكه !

— تريد أن تقول إن هذا عمل مزور ؟ أليس كذلك ؟

— لا ... وليس هذا أيضاً !

— إذن ماذا يا صديقى ؟

— لقد كان أبى يضارب بأمواله فى التجارة وقد أراد أن يصون ثروتنا بالنزول لابنه الأكبر عنها ... فهو نزول صورى كما ترى

— إذن هى اللعبة التى يلجأ إليها الناس ليأكلوا أموال غيرهم إلى أموالهم ؟

— لقد كان أبى رجلا شريفاً ، ولم يسع يوماً إلى أكل أموال أحد ...

— وأنت مع ذلك تجيز تصرفه وتبرره ؟

— ... ؟ ...

— وهل كسب أبوك فى مضارباته أم خسر ؟

— لقد خسر خسارة فادحة !

— ومن الذى احتمل خسارته وقد نزل لابنه هذا النزول الصورى عن أملاكه ؟

— احتملته الشركة التى كان يعاملها !

— وأموال هذه الشركة حلال لأبيك يضيعها بمضارباته فى غير مبالاة ؟

— لو أنه ربح لربحت الشركة مالا عظيما ... وكم من مرة أربحها الألوف !

— إذن لم يكن أبوك تاجراً ، بل كان . . . عفواً يا صديقى !

— عفواً ماذا ؟ ماذا كنت تريد أن تقول ؟

— لو كان الرجل الذى تتكلم عنه رجلا آخر غير أبيك لقلت إنه كان لصاً ولم يكن تاجراً ! . . .

— إنك تهيننى يا عبد الكريم !

— عفواً يا صديقى فوالله ما أردت إهانتك قط، وقد عرفت أباك ، فعرفت فيه النبل وحميد الخصال .. غير أن محاولته صون ثروته بهذه الوسيلة كان ضعفاً منه ، لأن الذى لا يجيد السباحة يخلق به ألا يلقى بنفسه فى اللجة ، وكذلك التاجر الذى يعتمد على الله فى كسب قوته ، يخلق به ألا يكون مقامراً ، فاذا لم ير بأساً فى أن يكون كذلك ، فلا يخلق به أن يتجرد من كل فضائله ظناً منه أن المقامرة ليست أعلى درجة من اللصوصية

— وماذا كنت تريده أن يصنع إذن ؟

— كان الأفضل أن يدخل المعترك وثروته من ورائه تسنده وتشد أزره ،

— وكيف كانت تسنده وقد خسر خسارة كانت تذهب بكل ما يملك ؟

— لو حدث هذا لكان بقى له شرفه ، والتاجر الذى يخسر ماله ولا يخسر شرفه يستطيع أن يستعيد المال إذا بدأ الشوط من جديد . . . أما أنه يستحل أموال الناس فيأكلها بالباطل فهذا هو ضياع الشرف ، والتفريط فى الكرامة التى جعلها الله تاج عباده من بنى آدم . . . على أنه ما استفاد أبوكم ؟ لقد قعد ملوماً محسوراً يبكى على القليل من المال الذى أضاع حتى مات من الهم ، وتركك أنت وأخاك الأصغر وأختك الصغرى فرائس لجشع أخيكم يستبد بكم ، ويذيقكم لباس الجوع والخوف ، دون أن يرعى الله فيكم ، ولا أن يرجو خشيته ! !

— لهذا أردت أن أقتله يا عبد الكريم !

— أنت تعود إلى نغمة لا أحب أن ترددها أمامى وأنت تبرهن مرة أخرى على ضعفك واستخذائك... والرجل الذى يهرب من القضاء العادل لأنه بطئ كما يدعى ، لا يستطيع أن يقتل دجاجة

— إذن ماذا أصنع غير أن ألتجيء إلى القضاء؟

— وحتى القضاء يا إبراهيم لم يعد لك أمل فى أن ينتصف لك !

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن القاضى سيجد نفسه مقيداً بعقود بيع رسمى من أبيك لأخيك ، فاذا يصنع ؟

— إنها عقود باطلة !

— هذا كلام تقوله أنت ، وقد تفهمه العدالة التى تتصورها ، لكن القضاء الرسمى لا يفهمه !!

— القضاء الرسمى ؟! هاها ... ألم أقل لك ؟

— ألم تقل لى ماذا ؟

— ألم أقل لك إن القضاء كما يجرى عندنا هو أحسن وسيلة لنصرة الظالمين وإضاعة حقوق المظلومين ؟ القانون ! آه من قانونكم يارجال المحاكم ! القانون الذى أصبح فى اختلاف تفسيره اختلاف توزيع العدالة ، فهذا قاض يحكم ويزعم أن حكمه العدل المحض ، فيأتى قاض آخر يلغى هذا العدل المحض ويصدر حكما يناقضه ، فيكون العدل المحض الذى صدر عن القاضى الأول ظلما محضاً ، ثم مايلبث قاض ثالث أن ينقض الحكمين جميعا ويصدر هو عدله المحض ، ولا تدرى العدالة بين القضاة الثلاثة أين موضعها ولا أين مستقرها

— فى كل ذلك تمحيص الحقيقة يا إبراهيم

— تمحيص الحقيقة ؟! ما شاء الله !! وفيه أيضا إجاعة للمساكين وصرف لهم عن مرتزقهم وإنفاق على المحامين وإضاعة ما يملكون من كفاف العيش ليحصلوا على ثمن تذكرة يسافرون بها إلى مقر المحكمة ... وفى كل جلسة يحسبون أنها الأخيرة فتكون الأولى ، وينطلق القاضى فيؤجل ويؤجل ، وينتحل الأعذار للتأجيل ، وكلما زين لهم محاميهم الآمال تبددت أمانيهم بين شفاه القضاة ، فعادوا إلى بلادهم محسورين

— وماذا عسى القاضى أن يصنع وهو يقف أمام براهين قانونية ومواد مكتوبة ترسم له خطاه ؟

— لست أدرى ماذا يصنع القاضى لأنى لست قاضيا ، ولو كنت قاضيا لرفضت أن أنظر مائة قضية فى جلسة واحدة لاتستغرق ساعتين !

— وهذا أيضاً لا يد للقضاة فيه يا صديقى !

— كل شىء لايد للقضاة فيه ، وهذا هو الذى يصرفنى عن مقاضاة أخى .. وقد أفقتنى من حلمى .. لنفرض أن القضاء عندنا يسير فى مجراه السريع .. ولننس هذه القضايا المكدسة فى محاكمنا ، والتى يكون قد مضى على آلاف منها سنون وسنون ولما يصدر فيها حكم نهائى ... ولننس جشع المحامين وتلاعبهم بتفسير المواد ليُصَيِّروا الظلم حقاً والحق باطلاً ... لننس هذا كله . . . فقد أرحتنى بصراحتك من الالتجاء إلى قانوننا لأنه لن ينصرنى .. قل لى إذن يا صديقى المحامى ماذا أصنع لأنال حقى من أخى ؟ وماذا يصنع أخى وأختى ليردا حقوقهما المغتصبة !

— لقد قلت لك كلمة القانون يا إبراهيم !

— كلمة القانون التى لا تجعل لأحد منا حقاً عند أخينا !

— لقد فهمت تماماً ما أردت أن أقول . . . وأرجو ألا أثيرك بهذا فأنت تستشيرنى ، وبما أننى صديقك أحببت ألا أخدعك !

***

مسكين هذا الشاب البائس إبراهيم !

لقد انصرف عنه صديقه المحامى بعد أن فاجأه بموقفه وموقف إخوته من القانون تلقاء شقيقهم

الأكبر ، ثم جلس وحده يفكر . . . ويقدح زناد التفكير ، بيد أنه مع ذلك لم يستقر على رأى

لقد لجأ قبل أن يلتقي صديقه المحامي إلى ذوى المروءة من أهله وأعيان بلدته ليكونوا شفعاءه عند أخيه ، لكن أخاه لم يلن ولم تتحرك عاطفة واحدة من عواطف الرحمة فى قلبه ... لقد استولى على قلب أخيه شيطان الدنيا ... لقد استحوذ عليه حب المال فأعماه وأضل بصيرته . . . لقد استذله سلطان المادة فأنساه هذه المعانى السامية التى تصل بيننا وبين الله بصلات النور والهداية

ماذا يصنع إبراهيم ؟ ليكن هذا المال الذى نزل عنه أبوه لولده اتقاء ماتتمخض عنه المضاربة التجارية مالاً غير حلال، لأن العدالة لا تجعله حلالاً لأحد من أبناء التاجر المتوفى ، لكنها تجعله حلالا للشركة التى وقعت على رأسها الخسارة من جراء هذا التهريب

وليكن هناك هذا الفارق العظيم بين العدالة والقانون

لكن العدالة فى نظر إبراهيم ليست هى العدالة المطلقة التى تعرفها الفلسفة . . . إنه يعتقد ، بل هو يجزم بأن الثروة التى نزل عنها أبوه لابنه الأكبر عن طريق تصرف قانونى صحيح ، هى حلال لأبناء المتوفى جميعاً ... وليس مما يعنيه أن يكون هذا المال حلالا أو حراماً ، لأنه إن كان مالا نجساً فهو بأيلولته للورثة قد تطهر كما يتطهر مال الربا بوفاة المرابى فلا يحرم أكله على أبنائه

ثم إن إبراهيم لا يقر القسمة التى انتهت باستيلاء أخيه على كل ما كان يملك أبوه

وهو لا يحترم هذا القانون الذى يحرمه ظلماً من ميراثه لأنه يعرف وجميع إخوته يعرفون أن أباهم لم يكن يقصد إلى تلك النتيجة الخائبة التى انتهى إليها تصرفه المعيب

وهو يقف الآن حائراً فى منتصف طريق الحياة لا يدرى أين يذهب ولا كيف يسير

إنه ما زال يتشدو العلم فى مدارس القاهرة ، فليس فى يده سلاح يغنيه عن هذه الثروة المغتصبة الضائعة ؛ وهو شاب عصبى المزاج ، يفكر تفكيراً غير سليم ولا مستقيم وإن كان فيه كثير من الوجاهة

إنه ينظر إلى معترك الحياة بمثل النظرة التى ينظر بها أهل هذا الزمان ... نظرة المال !

إنه يرى كل شيء قد قام فى زماننا على دعامة من الذهب ... فالتعليم الراقى لا يناله إلا القادرون عليه من أبناء الأغنياء ولو كانوا أحط فى مراتب الذكاء من أبناء الفقراء ... والتعليم الراقى يصل المتعلمون إلى مناصب الدولة الكبيرة فى حين يحرم منها أبناء الفقراء لأنهم لم يتعلموا ، والديمقراطية نفسها هى عنده كذب فى كذب ، لأن معناها فى اعتقاده وصول الأغنياء القادرين على الانفاق على المعركة الانتخابية إلى كراسى البرلمان ، فيجتمع ثمة رهط من المستبدين الأرستقراطيين ليتشدقوا بأنهم ممثلو الديمقراطية

فالتعليم ومناصب الدولة وكراسى البرلمان وقف فى نظره على أبناء الأغنياء ، وإذا أحد من أبناء الفقراء وصل إلى إحداها بفلتة من القدر ظل منظوراً إليه بأعين الريبة والامتعاض فى كل وسط يغشاه ، وهذه الأعين هى أعين الأغنياء ...

لقد كان ابراهيم يطمع فى مستقبل هو له أهل

ومن أجل هذا فكر فى الحصول على نصيبه من ثروة أبيه بأى طريق ، لأن المـال وحده هو الذى ينيله ما يروم من جاه وسعادة وبلهنية ... وإذا فقد المال فقد القوة الدافعة ، وإذا فقد المال قعد فى بلدته الخاملة الصغيرة وحرم من التعليم ، واضطر لأن ينافق أخاه ويمرغ جبينه تحت قدميه من أجل اللقمة والكساء ، وبذلك ينحط إلى دركات العبيد

لقد قسا عليه أخوه ، ولم ينفق عليه بعد موت أبيه إلا كما يتصدق بخلاء اليهود ... وكان يصحب كل قرش يرسله إليه بالمن المؤلم والأذى المرير ... وقد طفح الكيل حينما أنذره أخوه أنه لا يرى ذهابه إلى المدرسة ، وأنه يفضل أن يبقى ليساعده ، وقد فهم إبراهيم هذه المساعدة على أنها حرمان وتسخير ، فهمها على أنها أول الاستعباد ، ومن أجل ذلك صمم على أن يستخلص حقه من أخيه ولو أدى ذلك إلى قتله :

ما أبشع القتل !

لقد كان مصمما على الجريمة قبل أن يلقاه صديقه المحامى عبد الكريم ، لكن عبد الكريم كان صريحا فى النصح إليه ... لقد قبح إليه الجريمة ، والانسان العصبى سهل القياد ، يثور بسهولة ، ويهدأ بسهولة أيضاً ، لكن صديقه قد أغلق فى وجهه كل باب ... باب الجريمة وباب القانون على السواء ... وباب العدالة مغلق بطبعه لأن قلب أخيه الأكبر مغلق بطبعه كذلك ... فماذا يصنع ؟

هل يخضع لـما يريد له أخوه من قهر واستعباد ومذلة ؟ لا ! لن يكون هذا ! فنفس إبراهيم نفس أبيه لا تقبل الضيم ، ولا يروضها شىء على الهوان ... ثم هو يعرف أن إبراهيم الذى يطمع فى ثروة أبيه كلها ... أو الذى ذهب بثروة أبيه كلها ، سيذهب كذلك بالسعادة التى كانت من حق إخوته وسيضمها إلى سعادته هو ، وهو فى هذا لم يبال بالشقاء الذى يجره فقر إخوته عليهم والذى هو سببه ، فهو بهذا لص ، والعدالة تعتبره هكذا

كره إبراهيم أن يقتل أخاه إذن ، وكره لنفسه أن يلوث يديه بدم الجريمة كما ألقى عبد الكريم فى روعه ، لأنه شاب مهذب ... أو لأن القانون سيطارده ، وسيأخذه بدم أخيه إن فعل ... وقد هال إبراهيم أن يكون صاحب الحق فيقتل ثم يُقتل ... ماذا يستفيد من ذلك ؟ هل يستفيد شفاء نفسه من الحرد الذى يثيره الظلم فيها ؟ لكنه سيدفع الثمن ... وسيدفعه كبيراً مضاعفا ... سيسلم رأسه الجلاد ... سيخرج من هذه الدنيا الجميلة المشرقة دون أن يستمتع بحقه فيهـا ... ثم هو سيترك أخاه وأخته فريستين لأخيه الظالم ، وهو بهذا سيحرمهما من القلب الأوحد الذى يشفق عليهما ويرق لآلامهما ... بل هو سيحرمهما من النصير الذى يعرف أحزانهما ... وإذا خلا مكانه فى وجودها فسيشغله مصطفى ... وسيشغله مصطفى بالاستعباد والقسوة والمن ... وستكون كل لقمة يأكلانها من يده ، أو جرعة ماء يشربانها فى ظله سما زعافا يمزق أحشاءهما ويهرأ كبديهما .. وحسبهما أن يكونا خادمين من خدم مصطفى ... أو كلبين من كلابه ...

ما أقسى القادر على إبراهيم !!

* * *

صبر إبراهيم برغمه ... وماذا يملك العاجز غير الصبر ؟

وأزف موعد العودة إلى القاهرة حيث تفتح معاهد العلم أبوابها ... فانقلب صبره إلى جزع ... وكلما التقى زميلا من أقرانه فتحدث إليه عن السفر، اربد وجه إبراهيم، وشاعت الكآبة فيه، وحبس الدموع في مآقيه، ثم استأذن وانصرف

وكان يوم أوبة الطلاب إلى معاهدهم، وخرجوا إلى المحطة في أهلهم وذويهم فرحين مستبشرين ... لكن إبراهيم لم يذهب إلى المحطة ذلك اليوم، بل استخفى في حجرته الضيقة، حجرته التي ينتزعها القانون منه فيعطيها لأخيه لأنها جزء من المنزل

لقد صار الهواء خانقاً حول الشاب البائس ... لقد رأى الثروة تفلت من يديه باسم القانون ... وشهد سعادته تزور عنه وتشيح بوجهها الجميل الخلاب ...

نظر إلى جدران الغرفة فأوحت إليه بأفكار غريبة سوداء، وشهد الأبالسة ترقص فوقها تغريه بالشر، وتمد إليه السكين المرهف المشحوذ، وتصفر في أذنيه، وتضربه في ظهره، وتكلمه كلاماً عجيباً لم يكن من دأبه أن يسمعه من قبل

— لم تجلس بليداً هكذا؟ لم يفوز أخوك بهذه الدنيا كلها ويطردك من فردوسك إلى ذلك الجحيم؟ سيكون لك أبناء كما أن لأخيك أبناء، فلم تقذف بفلذات كبدك إلى أيدي الشقاء والتعاسة في حين ينعم أبناء أخيك بخير ما في الحياة من نعم وملاذ؟ سيتعلم أبناء أخيك ويصبحون أطباء ومحامين ويفوزون بمناصب الدولة وكراسي البرلمان، أما أبناؤك وأما أنت، فلن تجدوا حتى ما يملأ بطونكم إلا بشق أنفسكم، ولو أنصف القانون لكنتم مثلهم إن لم تفوقوهم لأنكم عبقريون!

— قم يا شيخ! لا ترض هذا الهوان الذي أنت مقاسيه! كيف يدعي أخوك أنك لا تملك حجراً من هذا البيت المنيف؟ إنه إن شاء طردك الآن فلا يكون لك مأوى إلا بيوت المحسنين؟ وإذا كان ذلك فماذا يكون فرق ما بينك وبين الشحاذين؟ قم! إنه لا يستحق إلا القتل! القتل وحده ينجيك مما أنت فيه! تستطيع أن تحتاط فلا يراك أحد وبذلك تستعمل القانون في براءتك كما استعمله أخوك في سلب حقوقك! أليس يحكم القضاة ببراءتك إذا لم تقم أدلة تدينك؟ لن ينهض ضدك برهان على أنك صنعت هذا! أليس بمثل ذلك ضاعت أموال الشركة التي ضارب بها أبوك؟ ألوف من الجناة والنصابين واللصوص والسيارين يفلتون من أيدي العدالة لأنهم لا يقعون في شراك القانون! وهم يفكرون في الجريمة والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل قبل أن ينفذوا خططهم فتجيء محبوكة وتطيش حولهم سهام القانون!

— هلم! لا تكن جباناً!

وهكذا ظلت الشياطين عاكفة على فؤاده تزخرف له وتنفخ فيه حتى تشجع قليلا وأخذ يفكر في الجريمة بالفعل؛ وهونها عليه أن أباه وأخاه قد سبقاه إلى استخدامها من قبل، فقد استخدمها أبوه ليأكل أموال الشركة، واستخدمها أخوه ليفوز بكل الثروة التي نزل له عنها والده حتى لا تستولي عليها الشركة فيما إذا حاقت به الخسارة المالية، فلم لا يستخدمها هو؟ بل هو يستخدمها لغرض أسمى، إنه سيستخدمها للانتقام من أخيه الذي يريد أن يقتله قتلا مدنياً حيث يعيش فقيراً معدماً ... وهذا، كما يفهم

إبراهيم ، هو أشد القتل ، إذ ليس القتل فى رأيه دماً يتدفق من غلاصم القتيل ، بل القتل هو تحويل دم السعادة من مجراه الطبيعى إلى مجرى غير طبيعى باسم القانون ، فيعيش المغتصبة سعادته كالمقتول بل أشد ، لأنه يحيا حينذاك ليتألم حتى يموت ، وليشهد مأساته ويتجرع مرارتها ، بينما الناصب يحسو أفاويق السعادة التى سلبها من الغير بالغدر ، ويتلذذ دائماً بأن صاحبها الحقيق لم يستطع أن يستردها منه ، وللذلك لذته فى نفوس الناصبين ، بل هم أحياناً يتشدقون به فى تيه وافتخار

إذن ، لقد صمم ابراهيم على قتل أخيه ... ولم يعد يفكر فى فشل محاولته مطلقاً ؛ بل هو قد صمم على ذلك وهو مدفوع بتيار العاطفة المشبوبة التى تأكل صدر صاحبها ، كما تأكل النار بعضها . . . لقد عميت بصيرته هو أيضاً . لقد آمن بعجزه عن السعى فى الحياة كأن أباه لم يترك له شيئاً قط . وهذا هو أكبر عيوب شبابنا ... لقد كبر عليه أن يبدأ جهاده من حيث كان يظن أنه أوشك أن ينتهي .. ومن أكبرعيوبنا نحن الشرقيين أننا سرعان مانقنط من النجاح فى الحياة لمجرد الفشل الأول الذى نقع فيه ، أو العقبة الأولى التى تعترض سبيلنا ، وقد نثنى عن مواصلة السعى ظنا منا أن كل شيء قد انتهى . ونحن أقوام نؤمن إيماناً سخيفاً بالحظ ، مع أن ديننا هو أقوى الأديان ، ولن نستحيى من أن ندعوه دين القوة والسعى ومواصلة الكفاح مع الاعتماد على الله فى ذلك جميعاً

لقد عبس ابراهيم للحياة وتجهم ، وانطلق يشكو سوء حظه ، ويتسخط على المقادير ، ولم يفكر فى خطة إيجابية قط ، لم يفكر إلا فى الوسائل المتمة التى ينتقم بهـا من أخيه ... وألحت الشياطين على فؤاده توسوس فيه وتصرخ ، ثم تغلى دمه ليكون حاراً فواراً يستجيب ولا يتردد

وفكر وهو يشحذ سكينه فى أن يستخدم الرذيلة فى إخضاع أخيـه . فكر فى أن يغرى به بعض السفهاء والشذاذ يهددونه ... وفكر فى تلفيق بعض التهم التى يلصقها الأشرار بالأبرياء فتذهب بشرفهم أو بثروتهم . . . لكنه هزىء بكل ذلك واستسخفه فنبذه ولم يعد يفكر فيه

* * *

وكان لمصطفى مكتب فى الطابق الأول من المنزل يجمع أوراقه ومستنداته ، وإن لم يحو من الثروة الطائلة التى خلفها له أبوه قليلا أو كثيرا . فبينا إبراهيم نازل على الدرج ، وبينا هو يفتح باب الردهة التى تؤدى إلى مكتب أخيه ، إذا فكرة مفاجئة تمر كالبرق فى خاطره . . . ذلك أنه فكر فى أن يقتحم المكتب عسى أن يجد فيه شيئا ينفعه ، وتقدم بالفعل إلى الباب الهائل الذى بدأ يرقص أمام ابراهيم الخائف المذعور ... ولشد ما شده الشاب حين وجد الباب مفتوحا ... فدخل ، وأغلق المكتب ، ثم بدأ يعبث بأوراق أخيه ... ولما لم يجد بها مأربه ، لم يبال أن يحطم أدراج المكتب ثم أخذ ينظر فى الأوراق نظر الخائف الوجل .. وكانت أصابعه ترتجف كلما تناولت ورقة ليرى ما هي ... وكان كثيرا ما ينتفض كلـما سمع حركة ، بل لقد هم أن ينصرف حينما سقط أحد الأضابير فأحدث صوتاً مزعجا جعـل الدم يتجمد فى عروقه

ثم شع بريق الفرح فجأة فى عينيه !

وخفق قلبه يخفق بشدة !

يا فرج الله ! خطابات من الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله إلى ولده مصطفى يخبره بما صح عليه عزمه من التنازل له عن ثروته بطريق البيع والتسجيل لأنه شارع فى مضاربة إما أن تضاعف ثروته أضعافاً مضاعفة ، وإما أن تذهب بالأخضر واليابس إذا بقى فى يده أخضر أو يابس !

ثلاثة خطابات طويلة عريضة فياضة بخط الشيخ رحمه الله وتجاوز عن سيئاته تشرح الموضوع وترسم الخطة وتضع التواريخ

لقد كتبها الشيخ من الاسكندرية فى الشهر نفسه الذى تم فيه البيع والتسجيل بالمحكمة المختلطة

هذه هى السكين حقاً ! وهكذا يكون القتل !

* * *

— أنا يا قليل الخير ، يا ناكر الجميل ، أنا الذى سترتك ولمت شمثك بعد موت أبيك ، يكون جزائى منك أن تتجسس علىّ ، وتبحث ورائى ، وتنسل كاللص إلى مكتبى تتحطم أدراجه عساك تقع على سلاح تتمده فى صدرى ؟

— أينا كان لصاً يا مصطفى ؟ أنا أم أنت ؟

— سلْ نفسك !

— لقد سألتها فقالت إنك أنت كنت اللص !

— لأنى كسرت الأدراج وسرقت ماسرقت؟

— ليس هذا كل ما يفعله اللصوص !

— وماذا يصنعون أكثر من هذا ؟

— من الناس لصوص لا يحطمون الأقفال ولكن يحطمون حياة الناس ويسلبونهم سعادتهم ، والمؤلم أن القانون لا يدعوهم لصوصاً ، بل هم أمامه شرفاء محترمون

— هذه هى الفلسفة التى تعلمتها من المدارس !

— بل هى الفلسفة التى تعلمتها منك !

— وماذا سرقت من مكتبى إذن ؟

— أنا لم أسرق شيئاً ذا قيمة فاطمئن !

— أنا مطمئن يا إبراهيم ، فأنا لا أضع مليما ولامستنداً فى مكتبى ، ولا فى بيتى ، وأنا واثق أنك لن يهدأ لك بال حتى يخرب منزلى

— وإن لم تتق الله فىّ وفى أخويك على وسعاد فسيعجل الله خراب بيتك ، وإنى أنذرك من الآن

— ولن يستجيب الله لك إن شاء الله

— أنا لا أبلغك يا مصطفى ! إن لم ترد إلينا ما هو حق لنا فلن يبقى لك مليم واحد من ثروتك الواسعة بنفسك ، وعندها تعض على أنامل الندم !

— وكيف ! أى حق لكم عندى ؟

— ما كنا نرثه لو لم يتنزل لك والدنا عن ثروته حتى لا تضيع بالمضاربة !

— لقد باع لى أبوكم بيعاً حراً مسجلا ، وقد أخذ نقودى فضارب بها فضاعت ، ولولا ذلك لكنت اليوم أغنى حالا مما أنا فيه !

— هذا هو الكذب والتلفيق الرخيص لأنك لم تكن تملك ستين ألفاً من الجنيهات !

— لقد نظرت هذه المسألة أمام المحكمة المختلطة وثبت بالقانون أننى كنت أملك أكثر من هـذا المبلغ لأننى كنت شريك والدى فى تجارته وقد شهد التجار وشهدت العقود بذلك ، ولسنا بحاجة إلى حجتك يا سيد إبراهيم ؟

— ستعرف أن كل هذا باطل إن لم ترد إلىّ حقوقى كاملة ، وإن لم ترد إلى أخوىّ حقوقهما كاملة كذلك ؟

— ليس لكم عندى حقوق فافعل ما بدا لك

إن استطعت أن تفعل شيئاً !

— سترى أنى مستطيع عمل كل شىء ، ولكنى أسمعك خطاباً كتبه إليك أبوك عما كان ينتوى عمله قبل أن يبيع لك أملاكه هذا البيع الصورى الذى تتشبث الآن به كأنه حقيقة لا ريب فيها ياسيد مصطفى ، فاسمع :

وشرع إبراهيم يقرأ الخطاب الأول ، وما كاد يصل إلى نصفه حتى مادت الأرض تحت قدمى مصطفى : وحتى انطفأ نور العالم الجميل فى عينيه .. ولم ينتظر حتى يتلو أخوه الخطاب كله . بل هب كالعاصفة ، وانقض على أخيه المسكين فطعنه فى صدره وبطنه عدة طعنات بسكين كان يحملها معه ، وكانت لا تفارقه فى روحاته وجيئاته ...

ووقع ابراهيم يتشحط فى دمه ، وأسرع مصطفى فتناول الخطاب الذى كان أخوه يتلوه . ثم دفع يديه فى جيوبه يبحث عن خطابات أخرى أو وثائق من هذا الصنف الخطر الذى إن وصل إلى خصومه من رجال الشركة لم يبق له من حطام فردوسه شىء ....

وترك أخاه يجود بأنفاسه ، ثم أسرع فغسل يديه وأحرق ملابسه التى علق بها شىء من دم أخيه وساعدته زوجته فى كل ذلك . ثم صعد إلى حجرة أخيه فبحثها بحثاً دقيقاً علة يقع على شىء مما دبر ابراهيم له . لكنه لم يقع على شىء

أرأيت إذن ؟!

لقد فكر ابراهيم فى الجريمة ثم عدل عنها ، ثم صمم على ارتكابها ، لكنه حينما عثر على خطابات أبيه نسى القتل ونسى السكين ، ونسى كل شىء ، لأنه حسب أنه انتصر ... وأن أخاه سيخضع له أو تذهب كل ثروته ... وهكذا انتفت فكرة القتل بسرعة زائدة من خاطره ، بعد أن فكر فيها خمسين أو ستين يوماً على الأقل ...

أما مصطفى !... فيالهول ! لقد رأى خرابه فى هذا الخطاب الذى راح يتلوه إبراهيم عليه ، فلم يفكر إلا لحظة ... لحظة واحدة ... واندفع كالذئب يغمد سكينه فى صدر أخيه حتى تخيب مؤامرته ، وحتى لا تضيع ثروته ، وحتى لا تأخذ العدالة مجراها ، وحتى ينتصر القانون . . . القانون الذى لا جرم كان يحكم على مصطفى وينزع منه أملاكه ويردها إلى الشركة لو أنه فاز بالخطابات التى مع إبراهيم ! والقانون فى ذلك يشبه السكين تماماً ، أو يشبه المدفع يكون فى يد المحارب يصب منه النار على أعدائه ، فاذا سقط هذا المدفع فى يد الأعداء لم يتوانوا من صب ناره فوق رأس صاحبه !

هنا إذن فرق ما بين إبراهيم ومصطفى ...

لقد كان إبراهيم شاباً مهذباً قرأ التاريخ والأدب ودرس الدين وعرف الله ... ولذا لم يستطع أن ينفذ الجريمة التى اعتزمها لأنه لم يجبل على الشر ولم يجر الشر فى دمه . . . ولما وجد الخطابات حمد الله واستبشر ، لأنها جنبته هذه الخطة الدامية التى كان فى شك من مصيرها

أما مصطفى فلم يفكر كثيراً . . . إنه استهول أن تضيع ثروته التى يفضلها على كل شىء ، فلم يبال ديناً ولا رباً ولا ضميراً . . . ولذلك لم يكلفه الفتك بأخيه شيئاً إلا أن ينقض عليه كالبرق ، وأن يغمد سكينه فى صدره !

لم يقتل إبراهيم ! بل ظل فى المستشفى شهراً وبعض الشهر ، ثم خرج منه سليما معافى

ورفض أن يتهم أخاه ! وأربك صمته رجال القضاء وحيرهم ! ترى علام عول ، وماذا اعتزم ؟!

لقد فتح ذلك الحادث الرهيب عينيه على حقيقة الدنيا ...

نضال !

أليست الدنيا نضالا فى نضال ؟ فلماذا تكون نضالا من هذا الصنف الوضيع ؟ لماذا تكون نضالا على ميراث ؟ لماذا لا تكون نضالا شريفا ؟ لتكن كذلك إذن ... وليبدأ إبراهيم النضال الشريف من أجل الرفعة إذن ... إن الدنيا ليست لمن ورث الثروة بل هى لمن عمل عليها وملكها بكده وكدحه ، وإن الذى يملك الدنيا من هذا السبيل ليشعر بلذة حلوة سحرية ، ليس يشعر بمثلها الذى ملكها من طريق أبيه ... مثال ذلك الطير إذا وقع على الفريسة بعد أن يرمقها ويتخيرها فهو ينشب أظفاره فيها بفخار وعظمة ، أما الفريسة التى تسقط على الطير فقد تكون جيفة تقتله أو تسممه !

هذا هو الوحى الجديد الذى هبط على إبراهيم ! وهو وحى كريم طيب خير وإن نبع من جراحات وكلوم ، وارتوى من دم كريم طيب خيّر مثله !!

وتبسم ابراهيم تبسمة خبيثة هي بقية الشر فى نفس آدم !

ذلك أنه صمم هــذه المرة على أن يشرك أخاه مصطفى فى هذا النضال ؟!...

فكرة عجيبة !! لكن تنفيذها سهل هين ! إن الخطابات التى وقع عليهــا فى مكتب أخيه محفوظة فى مكان حريز لم تمسسها يد ... أما الخطابات التى أخذها مصطفى حينا غمن أخاه ، فهى صور نسخها ابراهيم ، وقلد فيها خط أبيه تقليدا عجيبا انطلى على مصطفى ولم يجعله يشك قط فى صحتها

وهكذا ذهب إبراهيم إلى رجال الشركة فساومهم على مبلغ كبير جداً لقاء هذه الخطابات التى ترد عليهم أموالهم حين يستصفون أملاك الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله ، وتجاوز عن سيئاته

ولما خرج مصطفى من المحكمة صفر اليدين ، نظر حوله إلى الدنيا الواسعة الجميلة فلم تبسم له على جارى عادتها ! بل لعلها تبسمت ساخرة منه ، ولعل هذه الابتسامة هى التى جعلته يشحذ سكينه فيغمدها فى صدره ، لأنه لم يطق أن يذهب إلى المنزل المنيف فيقال له : « كلا أيها السيد ، ليس هذا منزلك ! » ولأنه عاش حياته لا يصل بينه وبين الله ، بل هو لم يعرف له إلهاً غير هواه ... ولو قد عرف الطريق إلى الله لحسنت آخرته وحسنت دنياه ...

وأتم ابراهيم تعليمه ... وظفر فى الحياة وناضل من أجل الثروة ... لكنه برغم ماجمع وبرغم ما اكتنز لم يبارح خياله طيف أخيه ، فكان يبكى من أجله ويستغفر له ربه ، ويجعل بين يدى نجواه صدقات ينعم بها أبناء مصطفى ... فلم يدعهم يشعرون بمرارة اليتم أو صرامة العوز

دريني خشبة

جرذان الفنادق

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

حدث دكتور وطسن صديق شرلوك هولمز ومستسره ، ومسجل أخباره قال :

عقيب اكتشاف جريمة رونشديل ، ومصرع سيروتينجهام في قصره ، سرى عن شرلوك هولمز قليلاً ، وأخذ ينام بانتظام ، ويتناول إفطاره وغداءه وعشاءه في ساعات معينة معلومة ، وقل إفراطه في شرب الشاي قبل الغروب . وكان يقول : « إنه عادة سكسونية ممقوتة » ولكنه أدمن الحقن بالمورفين إدمانا مزعجاً ، وكان يشق على أن ألفت نظره إلى عواقبه الوخيمة ، فلما ضقت به ذرعاً وخشيت عليه لمحت إليه أن الأفيون يورث الحكة والصداع والأرق ، والرؤى المزعجة .

فضحك وقال : « أبق شفقتك لمرضاك الذين تعودهم » وتناول من على رف الكتب مجلداً ضخما وقرأ « الأفيون عكاز الطبيب ، يتناول الرجل بعد الأربعين منه قمحة انجليزية فيصح بصره ويحسن هضمه ، ويعتدل مزاجه ، ويرم عظمه وتصلب أعصابه ويزداد وزنه ، على شريطة أن يواظب ويحافظ على مقدار الجرعة ولا ينقصها ولا يزيدها » ثم قلب الكتاب فرأيت اسم المؤلف وهو دكتور درجاستر أشهر مؤلفي الأقرباذين قاطبة ، وقال : ما قولك ، ألم أجاوز حدود الأربعين يا طبيبي ؟ فابتسمت ولزمت الصمت . فقال : نعم إنني أزيد أحياناً ، ولكن بنيتي تهضمه وتبتلعه ، ولو علمت أن السر في نجاح موريارتي في إدمانه على هذا العقار الملوكي لعذرتني . آه يا عزيزي وطسن ، لو وفقتني العناية إلى القبض على عنقه متلبساً ، ذلك الأستاذ الأعظم !

الأستاذ الأعظم ! كان هذا هو اللقب الذى يطلقه على ذلك المجرم العالم الكبير ، الذي استخدم أحدث المخترعات في اقتراف جرائمه . وكان يلازمه التفكير فيه كل ما عرضت له قضية خطيرة ولكن البروفسور كان صعب المنال ، ولكن كان لا يقنط من الفوز في النهاية على خصمه الألد ، وكنت من جانبي أتوق توقاً شديداً لأري منظر الكفاح بين الاثنين لحماً ودماً وعقلا ، لافي الخيال كما كانت الحال منذ بضع سنين

في تلك اللحظة دخلت علينا مسز تيرنو مديرة منزل هولمز تحمل الشاي وبيدها بطاقة وقالت إن صاحبها بالباب وهو قلق ويريد لقاء مستر هولمز في الحال . فتناول هولمز البطاقة وقرأ بصوت مرتفع :

رابنيج هلسنفور
صاحب مصرف هانوفر بهامبورج

ودخل علينا رجل أشعث أغبر أسود الشعر فاحمه ، ضيق الأجفان ، ضخم الجثة ، كأنه فيل صغير وحيا وانحنى في احترام عميق ، ثم جلس قبالة هولمز وقال :

— لقد عرفت اسمك من الصحف ، وضاعت حقيبتي منذ خمسة عشر يوماً في القطار ، من هاروتيش ولندن وفيها أوراق خاصة وثياب .

فسأله هولمز : ولم لم تقصد إلى سكوتلانديارد وفيه رجال فطاحل ؟ ألديك سبب يعوقك عن التقدم إلى الشرطة ؟

فقال وابنبيج : كلا ! ليس لدى ما يعوقنى عما أشرت إليه ، غير أنى أتهم البوليس بالبلادة والغباء والغرور . إن المجتمع الحديث فى البلاد المتحضرة محكوم بالبوليس ، وواضع عنقه تحت قدميه . والبوليس فى كل قطر ووطن ضالة الشعب وسقط متاعه ومجموعة أو غاده . وقد انصرف إلى التسلط على الأمم والتحكم فى أقضية الأفراد والجماعات وهو كثير الشكوك والظنون ، واسع الحيلة ، ملآن بالدسائس ، عش زنابير ، وجحر أفاع ، ووكر حيات . فكيف ؟ فابتسم هولمز وقال : إذن هى مبادئك السامية التى تعوقك عن التماس المعونة على أيدى هؤلاء الذين تعتقد أنهم أوغاد . . . صدقنى أنك غطىء يا هير هلسنجفورس خطأ شنيعاً . أنا لا أنقض قولك كله ، ولا أبرمه كله . وإن كان البوليس على ما وصفت من الدنايا ، فلم قبلت أن تعمل فى صفوفه فى مدينة هيدلبرج فى سنة ١٨٨٦ حتى وصلت إلى درجة يوزباشى ؟

فانتفض الرجل وامتقع ثم ملك أعصابه وقال :

— هذا صحيح . . . ولكن كيف . . . كانت ظروف قاسية . ولكن كيف عرفت ذلك وأنت لم ترنى قبل اليوم ؟

فأشاح هولمز بيده وقال : هذا لايهمك ، ولكن الذى يكربك ويكرثك هو فقدان حقيبتك وما احتوت من الوثائق الثمينة

فقال الرجل : أى نعم ، هـذا الذى يهمنى الآن . فقد ركبت الباخرة من هوك أوف هولاند فى منتصف الليل فى أول هذا الشهر ، ووصلت إلى شواطئ انجلترا غداة اليوم التالى والحقيبة بيدى ولم تفارقنى طرفة عين ، وسرت مع المسافرين إلى مبنى الجمارك ففتحت وأغلقت وأشر عليها الموظف المختص بحرف P رمزاً إلى السماح بالمرور ، وركبت القطار فى الدرجة الثانية ، وكان معى بضعة نفر من الطبقة الوسطى ، ولما وصلت إلى فندق فولـكنر بشارع فولـكنر ستريت فتحت حقيبتى وأنا لا أرتاب فيها فاذا هى غير الحقيبة التى كنت أحملها

فنظر إليه هولمز نظرة تهكم وتحديق وقال :

هذا أليم حقاً . حسن جداً يا هير وانبيج وأشكر لك ثقتك ، ومادمت تحب أن نحل لك هذه المعضلة فاكتم خبر زيارتك لنا

فقال الرجل : ولكننى الآن أصبحت معدماً ، لا أملك قوت يومى ولا أعرف ...

وقبل أن يتم كلامه أخرج هولمز من جيبه حزمة من الأوراق المالية وناولها إلى الهير ، فتردد الرجل وعاد إلى الوراء ولـكن هولمز شجعه قائلا :

لا بأس عليك ، إنها قرض حسن ، فلا تحاول عد النقود وانصرف الآن بسلام وعـد إلى غداً فى مثل هذه الساعة. فارتبك الرجل أيما ارتباك، ولم يزد على أن قال :

— شكراً لك سأرد جميلك. وودع وانصرف.

وفى أقل من طرفة عين قال هولمز : على ياوطسن بثياب التنكر . سائح أمريكى وأنت سائح آخر . فتنكرنا وبدونا فى الزيين اللذين عينهما وخرجنا من باب خلفى ومعنا حقائب جـديدة وركبنا عربة إلى محطة

السكة الحديدية الملاصقة فى شارع بيكرلو وانتظرنا إلى موعد وصول أحد القطر وخرجنا مع المسافرين وأرشدنا الحوذي إلى الفندق المعهود . وأخذ كل منا غرفة بفراش فرد. وكانت الساعة السابعة عندما بدلنا ملابسنا واتخذنا سمتنا فى ثياب السهرة إلى ملعب جلوب تياتر ، بعد أن تناولنا وجبة خفيفة فى مطعم پول مول . وكانت الفرقة تمثل رواية « نيران القدر » لذلك المؤلف الشهير ، وفى فترة الراحة التى تعقب الفصل الثانى همس هولمز فى أذنى قائلاً :

— إياك أن تدور برأسك أو تبدى حركة أو إشارة فان خلفنا بالدقة وعلى مقعدين مقابلين لمقعدينا شخصين يهمك أمرهما . وهما يتحدثان بالألمانية التى نجيدها معاً . وعند ما يبدأ التمثيل سوف يأخذان بأطراف الحديث الذى تركاه فى الفترة

فقلقت كثيراً وحاولت أن ألتفت بأى عذر كشراء نسخة من بروجرام الحفلة وملخص القصة أو شراء برتقالة ، أو قالب من الشكولاته ؛ ولكن كان هولمز يراقبنى بدقة وينهانى بالغمز واللمز . فصبرت على مضض ، وقد فقدت رشدى فلم أتتبع حرفاً واحداً مما كان يلقيه الممثلون وسمعت الحديث الآتى

الرجل : إنه فندق مجهول من العامة مقصود من الخاصة . والذى يجعل العمل فيه سهلاً هيناً اتساع ممراته ، وتباعد غرفه ، وغفلة خدمه . فضلاً عن أن أضيافه يغمضون أجفانهم فى الساعة العاشرة مساء ، لأنهم رجال أعمال ومال ومنهو كو القوى . وإن فى قربه من محطة السكة الحديدية ما ييسر كل أمر عسير . فالقادم من سفر طويل يستقرب الفندق الجاور ولا يفكر فى اختيار آخر بعيد

فقالت المرأة : أنا لا يمكننى أن أعمل من الليلة الأولى ولم أتعرف بعد مجاهل الفندق . لا بد من انقضاء أيام وليال ثلاث على الأقل ، حتى أعرف طريقى ... وإلا يحدث لى ما حدث فى دسلدورف

فقال الرجل : اطمئنى ما عليك من بأس . لا عيب فيك إلا ترددك . ولو لم أكن مثقلاً بدين ذلك الانجليزى الملعون شرلوك هولمز لنظرت فى تأجيل العمل حتى يتم تدريبك

قالت المرأة : إن ذلك الحادث اللعين الذى وقع فى فندق دسلدورف لايزال يرعبنى فقد كان الرجل قوى العضلات ومكنى رغم أنفى وكاد ينال منى

الرجل : لا تذكرى هذا الحادث . إنك لاشك أحببته وإلا ما تركت ثيابك فى غرفته ، وخرجت من بين يديه كما خرجت حواء من الجنة

المرأة : ولكن أنت تعلم أن « ثياب الشغل » ناعمة اللمس ، سهلة الانزلاق ، ومن أصول الصنعة أن نتركها خيراً من أن يقبض علينا

الرجل : هذا معلوم ولكن ليس كل ضحايانا أقوياء وذوى شبق ، ولا كلهم ذوى سبات خفيف يطرد النوم من أجفانهم أقل صوت أو حركة

المرأة : والمورفين ... إننى لا أستطيع العمل بدونه ...

الرجل : إن الكمية الكبرى فى الحقيبة ولكننى أعددت لك الجرعة الكافية

كان شرلوك هولمز يضحك عند ما قلت له :

— ما أشد غبائى وأبلد فطرتى . لقد سمعت صوت الرجل من قبل . ولما انتهى التمثيل رأيت الغير

وإينبيج لابساً أفخر ثياب السهرة وعن يمينه فتاة ممشوقة القد ، ساحرة الجمال ، دعجاء العينين تسير كاحدى الملكات فى موكب التتويج

* * *

عدنا إلى الفندق فى نصف الليل ودخل كل منا غرفته . ورقدت فى فراشى ونمت كعادتى نوماً عميقاً وفجأة تيقظت على نور يبهر بصرى متدلياً من بطرية كهربائية فنهضت فأشار إلى هولمز بأن ألزم الصمت التام . وكان أول همى أن أعرف من أين دخل وباب غرفتى لا يزال مغلقاً من الداخل وثقبه منسد بمفتاحه؛ فلما نادنى هولمز بيده رأيت باباً بين الغرفتين كان مغلقاً وفتحه هولمز بأحد المفاتيح من المجموعة التى يحملها للخير لا للشر

وقد راعنى أن رأيت فى غرفته جسما موثقاً

وقال لى : عليك الآن أن تساعدنى فى وضعها فى تلك الحقيبة الكبيرة

فقلت له : إن هذا الكائن يختنق

فقال : لقد أحدثت لها فتحات فى جدران الحقيبة تنفس عنها

قلت : عنها ... من هى ؟

قال : عليك الآن أن تنقل الحقيبة وتخرج من باب الفندق متسللاً فلا تقع عليك عين أحد . وإن وقعت فانك المسافر الذى يقصد إلى الباخرة التى تبحر من تلبرى فى فجر غد

ولم يكن هناك بد من طاعة هولمز فانه لايعرف المزاح فى هذه المواقف . وفى الحق كان الحمل جد خفيف فلم أشعر بأنى أنقل إنساناً . وأغرب من هذا أن الحمل لم يتحرك ولم يحاول أن يستغيث وأنا أعلم أن هولمز أشفق من أن يكمم إنساناً ، بله امرأة ناعمة . فلا بد أن تكون مخدرة ، أو راضية . لاريب فى أن هولمز كانت له قوة سحرية يخضع لها الناس من كل جنس ولون وطبقة. تخيل أيها القارىء طبيباً مثلى ينقل إنساناً فى حقيبة ... لقد تذكرت جان ڤالجان بطل البؤساء وهو يجوس خلال مجارى باريس يحمل جثة ، كما تخيلت فريجولى ذلك المهرج الايطالى الذى كان يخطف الناس ليضمهم فى حقيبة . ماذا أقول لو ألقى القبض علىّ وسئلت عن حملى « شكلا وموضوعا » ؟ ولكننى كنت أشعر بأن ظهرى كالحصن ، يحميه النفر الشديد القوى من الجند ، لمجرد التفكير أنى أعاون شرلوك هولمز ذلك العبقرى الذى لا يعمل إلا الخير

كان البواب نائماً عند ما فتحت الباب الكبير فتنبه وقال : من هناك يمر ؟

قلت: ساكن الغرفة رقم ١٧ إلى تلبرى لآخذ مكانى فى الباخرة التى تبحر فجراً وقد تركت لك الحلوان بالغرفة

فقال : سفر سعيد ياسيدى مع السلامة .

ووجدت مركبة بالباب كأنها تنتظرنى فقفزت فيها وأشرت إلى السائق أن يسير دون أن أعلم الاتجاه الذى أقصد إليه فأطل علىّ وقال: أين ياسيدى؟

قلت : شارع بيكر ستريت

فقال رقم ٤٠ ياسيدى حيث يقطن ذلك النمر الشهير شرلوك هولمز

قلت : هو كذلك . . ولكن من أين تعرف ؟

ولكن الحوذى كان أسرع من سؤالى فى إلهاب

ظهر الجواد بسوطه صائحاً بأسلوبه الشعبي[1] «هيها هاها» وكان لوقع حوافر الحصان رنين على الأرض المرصوفة بالقار ، وللعربة اهتزاز لذيذ أغرقاني في سبات عذب حنون . ولم أشعر إلا والحوذي ينزل ويحمل الحقيبة ويترك المركبة قائلا لي :

— صباح الخير ياوطسن ، إني أعفيك هذه المرة من أجر المشوار الذي قطعناه ، وسيأتي صاحب العربة لأخذها بعد بضع دقائق . فما كان أعظم دهشتي عند ما اكتشفت أن الحوذي الذي أمرته وتأمرت عليه ، لم يكن أحداً سوى شرلوك هولمز نفسه !! لقد كنت أزداد إعجابا به كل لحظة

بلغنا مسكننا في الساعة الرابعة والضباب يحكم الجو والفضاء ويسد الطرق في أوجه الذاهب والقادم وصوت السكون يدوي في آذاننا ، كأعظم ما تكون الجلبة والضوضاء والصخب

صعدنا وأيقظنا على الرغم منا مسز تيرنز مدبرة منزلنا ، فلما وقفت تفرك عينيها والحقيبة تحت أقدامها قال لها هولمز وهو لا يزال بثياب الحوذي : عليك أن تعني أعظم العناية بهذه الحقيبة الثالية فتدخليها الحمام وتطعميها وتعدي لها الشاي ثم تضعيها في فراش دافئ وتجعليها قريرة العين ، طيبة النفس

فنظرت الكهلة إلي وغمزت بعينيها كأنها تقول : لقد فقد الرجل عقله إلى الأبد فوا أسفا ثم نطقت وقالت :

— كيف يمكن يا مستر هولمز أن تغتسل الحقيبة وأن تأكل وتشرب وتنام ؟ لقد ضاع عقلي في معاشرتك . أو ضاع عقلك من طول التفكير أشفق بنفسك يا رجل ، الحمد لله على أن الدكتور كوبرزفيلد لا يسمعك[1]

فابتسم هولمز وقال : خذي حذرك يامسز تيرنز فإن كلامك هذا يعد قذفاً يعاقب عليه القانون وغمز بيده قفل الحقيبة فانفتحت وخرجت منها الفتاة في ثياب التفضل كما تخرج الشمس عند الشروق أو تتفتح الزهرة عن أكمامها . فلما وقع عليها بصر مسز تيرنز صرخت صرخة مكتمة كما لو كانت عنزة تلد جدياً صغيراً بعد ولادة عسيرة . وقالت :

— تباً لكم ! تبا لكم ! لقد أفقدتموني عقلي ! هذه هي الحقيبة . فتاة جميلة على قيد الحياة . آه إعذراني أيها السيدان .

فضحك هولمز حتى كاد يستلقي وضحكت ، وفتحت الفتاة عينيها ، وقالت :

— لقد أنقذتني يا سيدي من يد ذلك الوحش الضاري .

وأفاقت مسز تيرنز من ذهولها وضحكت ، وقالت : لا تفتأ يا مستر هولمز تمزح ولا تقول حقاً ، هيا بنا يا حقيبتي العزيزة ، إلى الحمام والمائدة . فإن ظهورك بهذه الثياب لا يروق هذا العالم الملتزمت المحب للفضيلة .

وكان هولمز قد خلع ثيابه ولبس ثياب التفضل ووضع في قدميه مبادله الطرية الناعمة . وتناول شبقه الأبدي وقال لي وأنا أشرب فنجانة الشاي التي صنعتها بيدي :

— إن الرواية لم تتم فصولا ياوطسن وما قمنا

(١) في الأصل Hackniy أي أسلوب سوقي خاص بأهل لندن

(١) مدير مستشفى المجانين بلندن

بتمثيل الفصل الأول . والآن دعني أغمض عيني طرفة عين .

تيقظنا في تمام الساعة الثامنة على صوت مسز تيرنر وهي تقدم إلينا شابا هادئ الطبع يجلس ويروي علينا قصته التي لخصتها في أن اسمه بلوبيرد وكان هادىء الطبع فاضل الخلق ، وقد استقل القطار قاصداً إلى بلدة صغيرة ليشغل فيها وظيفة متواضعة وكان كل شيء يبدو لبلوبيرد عادياً ، لا خطر له .

وقد مرت سنو عمره دون أن تتخللها مغامرة أو يعتريها حادث يهز حياته ...

وعند ما بلغ القطار عند منتصف الليل المكان الذي يقصده بلوبيرد أخذ حقيبته من الديوان المكتظ الذي كان يجلس فيه مولياً وجهه شطر حياته الجديدة، وصل بلوبيرد إلى الفندق الصغير الذي عزم على الاقامة فيه واسمه فندق فولكنر (يا لتهكم الأقدار !) وعند ما ذهب إلى سريره لينام نظر إلى الحقيبة وسرعان ما علته الدهشة ، فقد كانت تشبه ولا شك حقيبته ولكنها لم تكن هي بذاتها ، على أن بلوبيرد خشي أن يكون مخطئاً في تقديره فحاول أن يفتحها بالمفتاح الذي لديه ،ولكن عبثاً حاول، على أنه عند ما ضاعف جهده انفتحت فجأة، وكانت أول نظرة ألقاها كافية لأن تثبت له أنه لم يكن مخطئاً . نعم كانت الحقيبة لشخص آخر ، أما حقيبته الأصلية وما فيها من سقط المتاع وهو كل ما يملكه فقد كانت في ذلك الوقت تجوب الآفاق المجهولة حيث لا صاحب لها ، ووجد بلوبيرد نفسه وهو الذي لم يصادف في حياته مشا كل صعبة يحتاج لحلها — عاجزاً منذ اللحظة الأولى عن أن يجمع في ذهنه فكرتين أثناء ذهوله ودهشته . فشرع بلوبيرد يبحث أثناء تفتيشه في الملابس المتسخة عما يدله على الشخص الذي أخذ حقيبته . وشعر تحت يديه برزمة من الأوراق ، فلما جذبها وجدها سلسلة من الخطابات والرسائل البرقية وأفلتت هذه الرزمة من يد بلوبيرد فانتشرت على أرض الغرفة رزمة من الأوراق المالية من كل نوع لم يعرف بلوبيرد من هذه الأوراق المتعددة الألوان إلا عدداً ضئيلا؛ وجمعها واستمر في البحث فا كتشف في قاع الحقيبة المفروشة بالورق ما يشبه وسادة منتفخة من الأوراق المالية المختلفة . ونظر بلوبيرد حواليه وقد انتابه العجب والذهول منتظراً شخصاً يأتي إليه ليوقظه من ذلك الحلم اللذيذ الخيف . على أنه لم يأت أحد وبقيت الأوراق في موضعها لم تختف. لم يكن بلوبيرد قد رأى مثل هذه الأوراق الغريبة المتعددة الألوان إلا عدداً ضئيلا . فأخذ يعدها وكان حبه النظام يجعله يضع كل نوع من الأوراق على حدة دون أن يعرف بالضبط قيمة كل منه . على أنه بعد بضع دقائق عرف جيداً أن ما أمامه مقدراً بالعملة الذهبية يتراوح بين مليون ونصف ومليونين، وكان يستطيع حينئذ أن يقول لنفسه إن محتويات حقيبته قد دفع لها ثمن أ كثر من الثمن الذي تساويه، على أن هذه الفكرة لم تخطر بباله . وكل ما كان يضايقه هو فكرة الاتصال بصاحب هذه الكنوز واستبدال كل من الحقيبتين بالأخرى . قال لنفسه لا بد أن أقرأ بعض هذه الخطابات فعرف من القراءة أشياء كثيرة لم يعرفها طول الثلاثة والعشرين عاماً التي قضاها في هذا العالم ، أشياء لم تخطر له على بال . فاستطاع أن يدرك أن هذه الأوراق المالية هي

ملك أحد لصوص الفنادق ذوى النفوذ الواسع وكانت تصل إليـه من شركائه ومن صديقة عزيزة كل أنواع المعلومات . وفهم بلوبيرد من آخر خطاب أرسلته صديقة ذلك اللص إليه أنه يريد أن يضع حداً لمتاعبه ويلجأ إلى الراحة والعزلة ، وكانت الحلى قد بيعت بثمن ضخم . ولكنه فهم أن اللص يريد أن يتهرب من صديقته ليفوز بالغنيمة وحده أو يتعطف عليها بنصيب زهيد ، بعد أن قاست معه عنتاً شديدة وأخطاراً لا عدد لها أمكن التغلب عليها بمهارة وشجاعة ، وقد صارت مدمنة للمورفين حتى تستطيع العمل فى تلك المهنة الشاقة الخطرة

فقال له هولمز بعد أن وقف منه على هذه المعلومات الثمينة : قبل كل شيء كن واثقاً على الأقل أن صاحب الحقيبة سوف لا يأتى إليك ليستبدل حقيبته بالأخرى لأنه لا يحب أن يقبض عليه، ومن أكثر الأمور احتمالاً إذن أن يلوذ اللص هارباً ببذلة بلوبيرد وحذائه وملابسه . فهذه الحقيبة التى لديك تجمك وشريكة لك مجهولة لدينا اللذين اخترقتما الجدران والأسطح وتسلحتما بالليل البهيم والمسدس فى قبضتكما لتدخلا الفنادق الفاخرة فتحطما صناديق الجواهر الموضوعة إلى جانب أصحابها السابحين فى نومهم

فقال بلو بيرد : والذى يزيد موقفى حرجاً أن صورة الفتاة التى عثرت عليها دلتنى على خطيبتى التى اختفت من بلدتى اختفاء غريباً منذ خمسة أعوام ولم نعد نراها ولا نعرف مقرها ولذا عزمت على ألا أخطب ولا أتزوج ما دمت حياً ، لعلها هى أيضاً تكون على قيد الحياة ومغلوبة على أمرها ، وهأنذا جئت إليك يا مستر هولمز لتنقذنى من هذا الموقف لأن المال المكتسب عن طريق غير شريف لا يأتى بفائدة

فضحك هولمز وقال لبلوبيرد عبارة لم أفهم مغزاها وهى : إنك سعيد يا بلو بيرد وقد أتتك السعادة كلها فى يوم واحد ودق الجرس فجاءت مسز تيرنر فقال لها : إن كانت الآنسة قد ارتاحت بما يكفيها فتفضلى بدعوتها إلينا

وعند ما دخلت علينا الآنسة المجهولة ووقع بصرها على بلو بيرد رفعت يديها إلى رأسها وقالت : آه يا رباه ! هل أنا فى حلم ؟ فقال لها هولمز : هـذا خطيبك بلو بيرد جاء يسأل عنك . فتعانقا فى ذهول وانسحبنا لنترك لهما مجالا لبث لواعج الشوق

وكنت أنا فى حيرة وارتباك فقال لى هولمز : إن فى حيلة الدهر ما يغنى عن الحيل ، وعليك الآن يا وطسن أن تتعهد بعلاج الفتاة من عادة إدمان المخدر

وأكلنا جميعاً غداء هنيئاً إلى أن آن الموعد الذى ضربه هولمز لمر واينبيج هلستجورس الذى لم يكن سوى صاحب الحقيبة ومسخر الفتاة ومعودها المورفين . فلما دخل قال له هولمز : أين ذهبت شريكتك ؟

فأخرج الرجل مسدساً ضخما وهجم على هولمز وكنت أسرع من البرق فى نزع سلاحه وتقييده بالحديد ، وأجلسناه كالوحش الضارى يلهث أينما توجه

فقال له هولمز : لقد كشف سرك، فإما أن نسلمك إلى البوليس ، وإما أن تغادر هذه البلاد آمناً ومتنازلا

باختيارك عن كل أموالك التي هي ثمرة سرقتك ،
وهنا دخل بلوبيرد والفتاة . فلما استبان وابنبيج حقيقة موقفه تنازل عن مال الفتاة وخطيبها بمحض اختياره وقال بالألمانية :

« إن مشيئة علوية هي التي أرادت حرماني ثمرة هذه السرقة ورد هذه الأموال إلى تلك التي خاطرت بحياتها في الحصول عليها

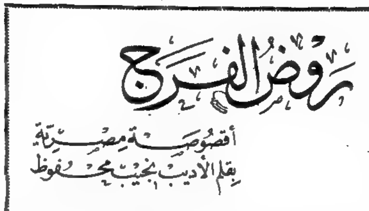
وها أنذا قد أحسست دفعة واحدة باحساس جديد وا كتشفت في قلبي راحة خفية كانت ولاشك نتيجة شعوري بالتوبة » فقال له هولمز :

لقد تنازلت عن مطالبتك بالمال الذي أقرضتك إياه وهو يكفيك ويفيض إلى أن تعود إلى وطنك ألمانيا وتجد لك عملا مربحاً شريفاً . وفككنا عنه وأعدنا له سلاحه فهنأ شريكته السابقة وهي غحيته وخطيبها وصحبه هولمز إلى محطة السكة الحديدية وما زال يشير له بيده حتى غاب قطاره عن الأنظار . وعاد هولمز يقول لي : إن المال صار الآن حلالا ومشروعاً لأن أصحابه الأصليين مجهولون ووضع اليد في المنقول يفيد الملك . وقد دفع اللص السابق ثمن توبته إلى الفتاة ، وأراد الله أن يجمع شملها بخطيبها ، وأظن أحدنا لن يذيع سر هذه المأساة التي انقلبت زفافاً ، وخصوصاً الآنسة وصديقها الذي عثر على الحقيبة

وبعد أشهر كان بلوبيرد وزوجته يسكنان قصراً على شاطئ البحر بجوار بريطون ، وكانا يرتديان أفخر الملابس وآنقها وكان هولمز يقول لي :

— إن سيادتي هي في إقرار العدل ورؤية السعادة تتم للآخرين

محمد لطفي جمعه



اعتدل الأسطى شلبي في جلسته وجعل يفتل شاربيه الغزيرين ويرفع حاجبيه الكثيفين ويقول للشاب الجالس إلى يمينه على الكنبة :

— وما الداعي إلى التعجيل بالسفر ؟

فقال له صاحبه وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره تدل قوة بنيته الطبيعية وسذاجة نظرته على ريفيته القحة :

— وما الداعي إلى البقاء وقد انتهيت من أداء امتحاني ؟

فقال الأسطى شلبي يتفلسف :

— وهل الغاية من الدنيا تنتهي بانتهاء امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية الثانوية ؟ ينبغي أن تروح عن نفسك قليلا فما المريش التي أنت ذاهب إليها إلا قطعة من البادية القاسية لا أثر فيها للهو والمرح ... فقال الشاب :

— أخشى أن يقلق والدي لتأخري

— وماذا يضيره لو تأخرت يوماً آخر وقد غبتَ عنه عاماً مدرسيًّا كاملاً ؟ تعال نذهب معاً هذا المساء إلى روض الفرج والعشاق لمشاهدة تمثيل رواية « اشمعني » وهي كوميديا غاية في الإضحاك والبهجة ... ما رأيك ؟

وضحك الأسطى شلبي وهو ينظر إلى عبد المعز باغراء فابتسم الشاب وقال بتسليم :

— فليكن ... سأؤجل السفر إلى غد

فابتسم الأسطى مسروراً وقال له بخيلاء :

— نعم ارأي ، وسترى بعد قليل عشيقتي تقوم بتمثيل الدور الأول في رواية « اشمعني ». وارتدى عبد المعز ثيابه وكانت تبدو عليه هيئة الطلبة الريفيين الذين يندر أن تنسجم (البدلة) مع قاماتهم ويبدو الطربوش غريباً على رؤوسهم . أما الأوسطى فقد وقف أمام المرآة في دل وتيه وارتدى قفطانه الزاهي وجبته البني الأنيقة ، وأمال الطربوش حتى مس حاجبه الأيمن وأمسك بعصاه المذهبة اليد ، وتقدم قريبه يختال في مشيته كالطاووس

والأسطى شلبي هذا بدأ حياته كصبي حلاق بسيط ثم استقل بصالون جميل أمده رزقه رغداً، ثم اشتغل بالسمسرة وصادفه فيها توفيق كبير فنمت أرباحه واستطاع أن ينفق عن سعة على عشيقاته العديدات من نجوم روض الفرج

أما عبد المعز فهو ابن أحد أقرباء الأسطى شلبي المدعو الشيخ طه شيخ كتاب وواعظ بالمريش ؛ وقد جاء فتح مدرسة المريش الابتدائية متأخراً مما دعا ولاة الأمور إلى التجاوز عن شروط سن القبول فالتحق بها عبد المعز وهو ابن ثلاثة عشر عاماً، وبعد انتهائه من تعليمه الابتدائي أرسله أبوه إلى قريبه شلبي ليتم تعليمه الثانوي ، مؤثراً بعد القاهرة مع الاطمئنان عليه في بيت قريبه على قرب الزقازيق مع إقامته وحده

على أن الأسطى شلبي لم يكن عند حسن ظن الشيخ طه فكان يدعو أحياناً عبد المعز إلى المقهى واقترح عليه مرة أن يعلمه النرد ليستعينا به على تزجية أوقات الفراغ . وكان الشاب حكيما مجتهداً فلم يستسلم لاغراء قريبه ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسلمه فيها زمامه فذهب معه إلى روض الفرج ودخلا كازينو البسفور لمشاهدة رواية « اشمعنى » وبدا الشاب بطيئاً في فهم النكت و(القفشات) وأخذ يقلب عينيه بين الضاحكين في استغراب وحيرة ، ولكن جذب عينيه إلى المسرح ظهور ممثلة قابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق والتهليل، وكانت امرأة فارعة طولا وعرضاً مزججة الحاجبين مكحلة العينين محمرة الخدين والشفتين ، تنوء بحمل ردفين ثقيلين لا ريب يرهقانها ثقلا ، بل ما أحراها أن يعيدا بها لولا أن وازنهما البناية بثديين كبطيخين وإن كانا — بقدرة قادر — ناهضين ، وكانت تنثنى وتتمايل وتتخنث في كلامها وتتكسر وكأنها تتأوه وتتوجع والنظارة لا يكفون عن إبداء الاعجاب ويرقونها من أعين الحساد ، وفتل الأسطى شلبي شاربيه بقوة وزهو ومال على أذن صاحبه وهمس قائلا :

— هذه عشيقتي الآنسة نور الحياة .. أنظر !

وكان عبد المعز ينظر بعينين جشعتين فزاد ذلك من مسرة الرجل فعاد يقول :

— إن بعض الظرفاء ممن يعرفون أني المالك لقلب هذه المرأة يقولون لي : « حقاً إنك لمن كبار ذوى الأملاك »

وقهقه الرجل ضاحكا تياهاً فخوراً

وفي أثنـاء فترة الاستراحة رأى عبد المعز الممثلة الحسناء آتية صوب الركن المنعزل الذي يجلسان فيه ، تتبختر كأنها ترقص، وتوزع النظرات الناعسة بلا عدل ولا رحمة؛ ثم رآها تسلم على الأوسطى شلبي وتقول له ضاحكة :

— كيف حالك يا رجل ؟

وسمع قريبه يجيبها قائلا :

— وما جدوى سؤالك عن حالى ما دمت تلتهمين مالى وصحتى بلا رأفة ؟

فضحكت ضحكة مثيرة وجلست تشارب الرجل كأساً من الويسكي، وكبر على عبد المعز أنها لم تباله؛ ورأت المرأة ارتباكه ، فمدت يدها المكتنزة وقرصته في خده وهي تقول :

— وكيف حالك يا نونو ؟

فاحمر وجه عبد المعز استحياء، وأحس باستياء وشغل بشعوره عما حوله فلم ينتبه إلى ما دار بين المرأة وقريبه ، وجعل يختلس النظرات إلى وجهها الممتلىء فأحس نحوها بانجذاب عجيب ، والظاهر أن المرأة لم تهمله لأنها عادت تداعبه فسألته :

— كم عشقت من النساء يا غلام ؟

وكان عبد المعز يشعر بميل إلى التحدث إليها فأغضى عن سخريتها وسألها بدوره :

— وهل يهمك أن تعرف ذلك ؟

— كيف لا ؟

— وله ؟

— لأسباب كثيرة أقلها أن أعرف عمرك

— وما علاقة العمر بالعشق ؟

فغمزت بعينها وقالت :

— نحن معشر أهل الهوى نقدر الأعمـار بحساب الحب، مثلنا مثل العرافة التي تهتدى إلى معرفة الأعمار بالرمل والنجوم ...

فضحك الأسطى شلبي وقال :

— إذا فسد المز لم يواد بعد على تقديرك

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بانكار :

— وياه... ولم تحرم نفسك من الحب يابني ؟...

ألا ترى الأسطى شلبي لا يفيق من الهوى وإن رد إلى أرذل العمر ؟

فتناصب شلبي وقال محتجا :

— أيقال عنى أنا مثل هذا الكلام (وفتل شاربيه واستمر قائلا) أهذا شارب رجل رد إلى أرذل العمر ؟

فعبثت أناملها المخضبة بالحناء بشاربه وقالت :

— أقسم أنك سرقت هذا الشارب من زيون شارد الفكر !

ولم يكن لدى الممثلة متسع من الوقت لتسترسل في مداعباتها ، فشربت كأسها وحيت الأسطى وقرصت عبد المز مرة أخرى وسارت ترقص على نغم موسيقاها الباطنة

واختتم التمثيل عند منتصف الليل ، وانتظر الأسطى شلبي السيدة نور الحياة حتى انتهت من تغيير ملابسها وعادت إليه وركب ثلاثتهم تاكسي انطلق بهم صوب المدينة . وفي أثناء الطريق كان عبد المز يختلس من الوجه المتلىء الجميل نظرات جائعة ، وكانت المرأة تراقبه بعينين نصف مفتوحتين لا تخفى عليها خافيته ، وقد وجدت لذة غريبة في مشاهدة قلقه وتحيره ، وأرادت أن تتفضى عنه استهانة فلم يطاوعها وجدانها ، وأخيرا أحست نحوه بعطف غريب لم تحاول إخفاءه . وبلغ التاكسي ميدان المحطة فأمر الأسطى السائق بالتوقف ريثما يودعهما عبد المز الذي قدر له أن يعود إلى البيت وحده تلك الليلة ، وأرادت نور الحياة أن تحسن توديعه فقالت : « ياعيني .. أتعود إلى البيت وحدك ... خذ هذه القبلة لتؤنس وحشتك »

ومالت نحوه بسرعة وقبلت فمه قبلة فاضحة ذات رنين عجيب

ووقف الشاب ينظر إلى التاكسي الذي ابتعد بهما في جوف الليل إلى حيث لا يعلم ، وكان ذاهلا محموماً يتصاعد الدم إلى رأسه كما يتصاعد الزئبق في الترمومتر، ويحس بالقبلة على شفتيه ويدوي رنينها في أذنيه ويشم رائحة الفم المعطر بالقرنفل ، واهتاجت أعصابه تلك الليلة الفريدة في حياته فجعلت تخلق له الأحلام وتدني إليه الأماني، وأنامت بين ذراعيه نور الحياة بشحمها ولحمها لتروى اشتهاءه بفنون الحب جميعا

ولدى ضحى اليوم الثاني رجع الأسطى شلبي إلى بيته وقد أدهشه أن يرى عبد المز ما يزال قابعاً به لم يسافر ولا تبدو عليه هيئة المسافرين فقال له :

— ظننت أنك سافرت إلى العريش

فسأله الشاب بقلق :

— أيضايقك أن أبقى مدة أخرى ؟

— كلا وألف مرة كلا .. على الرحب والسعة دائما ... ولكن قل لي بالله ما الذي حملك على تغيير رأيك ؟

فقال الشاب مبتسماً مرتبكا وهو ينظر بعينيه إلى الأرض :

— روض الفرج دون غيره ! ليتني أستطيع أن أشبع من ملاهيه !

وقال الأسطى شلبي لنفسه : ترى هو روض الفرج حقاً أم نور الحياة ، على أنه لم يبال هيامه واعتقد أنه عبث طفولة لا يقابل بغير الهزء والسخرية فاصطحبه معه إلى روض الفرج . وكان تملق الغلام

بنور الحياة بيّناً لا يحتاج إلى دليل؛ أما الذى لم يدر بخلد إنسان أبداً ولا كان محل احتمال قط فهو أن تتعلق المرأة بالغلام، ولو أنه من المسلم به دائماً أن عالم الحب عالم حافل بالمفاجآت غنى بالغرائب والعجائب

وكانت الظواهر تجمع على حب تلك المرأة المائلة لذلك الغلام الغرير فكانت تأنس به وتخف إلى محضره وتعاطيه نظرات حنان وعطف ومودة، وكان لسان حالها ينطق بالرغبة الحارة فى الانفراد به ، وكانا يطلبان غفلة من الأسطى شلبي ليتناجيا بغمزة عين أو يتفساحن صدريهما بلمسة يد، وفى أثناء ذلك لا تكف ركبته عن تحسس فخذها المكتنز . .

وحاول الأسطى شلبي أن يهزأ به فى حضرتها أكثر من مرة فكانت تغضب وتنتهره حتى ضاق صدره وجعل يفتل شاربيه بعنف ويقول لنفسه بغيظ « أيغلب هذا الشارب الذى يقف عليه الصقر؟ هيهات ثم هيهات ... »

وفى أثناء ذلك استبطأ الشيخ حضور ابنه فأرسل إليه خطاباً يحثه فيه على العودة بلا إبطاء؛ وانتهز الأسطى الفرصة الذهبية فنصح الشاب بإطاعة والده ولكنه أجاب — أو قلبه أجاب — « لا أستطيع » . وانفجر حقد الأسطى شلبي فى كتاب حرره للشيخ طه كاشفه فيه بتدهور ابنه إلى الحضيض والفساد وصارحه بهيامه بإحدى بغايا روض الفرج ، وأهاب به أن يدركه أو يتردى فى الهاوية إلى الأبد

وجن جنون الشيخ الواعظ فشد رحاله إلى القاهرة فبلغها عصراً ، واستقبله الأسطى شلبي استقبالا دل على الاخلاص والمحبة، ولم يتردد فمضى به إلى روض الفرج وكان يوسوس فى صدره بما يزيد مخاوفه ويهيج بلابله، وانتهيا إلى كازينو البوسفور

وكان الستار مرفوعاً فسار به إلى مكان يطلان منه على الركن الأيمن الذى يجلس به عبد العز يشاهد التمثيل فى الظاهر وينتظر نور الحياة فى الحقيقة، ومال الأسطى على أذن الشيخ وقال هامساً :

— ستوافيه إلى هذه المائدة بعد قليل

فضرب الرجل حجره بيده فى حالة عصبية وقال بتأثر :

— ألا يكفيه أن ينشئ هذه البؤرة الفاسدة ؟

فقال الأوسطى شلبي بلهجة دلت على الحزن والأسف :

— إن ماينفطر له القلب حقاً أن عبد العز كان شاباً عفاً طاهر الخلق

— فتنهد الرجل بحسرة وقال كالدهش

— ولكن من أين له المال الذى ينفقه على ممثلة؟

— أظن أن العلاقة بينهما لم تجاوز خطى التعارف الأولى ولهذا أهبت بك أن تدركه ولما يهوى

— فقال الشيخ بلوم وحزن :

— لقد سكت عنه ياشيخ شلبي أكثر مما يندبنى . كان يجب أن تحذرني من بادىء الأمر ...

— فقال الأسطى بيقين :

— أقسم بالله إنى ما علمت بسقطته حتى بادرت إلى الكتابة إليك ...

— وعند ذلك نزل الستار فوجه الرجلان انتباههما إلى الشاب الموليهما ظهره، وما لبثا أن رأيا نور الحياة تسير إليه فى مشية الأوزة المصرية وتجلس قبالته ، ونظر الأسطى شلبي إلى الشيخ طه فرآه ينظر إلى المرأة نظرة فاحصة وسمعه يصرخ صرخة مكتومة ويهتف بصوت مبحوح مرتجف

— يارحمة الله ! ورآه يقف مرتعش الأوصال زائغ البصر، فأشفق من عاقبة التهور وقال له بتوسل:

— هدىء روعك ياشيخ طه

ولكن الشيخ طه لم يستطع أن يهدىء روعه وسار كالمترنح حتى وقف خلف ابنه الذى لايحس به وألقى على المثلة نظرات وحش مفترس وألقت عليه نور الحياة نظرة احتقار عاجلة من النظرات التى تدخرها للمتطفلين، ولكنها علقت بوجهه ولم تبرح، وعبثا حاولت أن تحول عينيها عنه كالمسهوى، وعجب الأسطى شلبي لما رآها تتلبسها حالة دهشة وفزع كتلك التى تلبست الشيخ طه حين وقوع نظره عليها لحار لأمرهما وقال لنفسه بقلق « ليست هـذه مسألة عبد المعز »

وفى تلك الأثناء التفت عبد المعز إلى الوراء فوقعت عيناه على أبيه فجمد مكانه كالصنم ولكن أباه لم يباله كما توقع واكتفى أن أمسك يده بقسوة ووضعها فى يد شلبي وقال بشدة لا تحتمل مراجعة: اسبقانى إلى البيت .

— فمضى الأسطى شلبي مع الشاب المرتعب وهو يتمتم : «خلصنا من الابن طلع لنا الأب»

— ولما خلا الجو للشيخ والمثلة قال الرجل باحتقار:

— السلام عليك أيتها الفاجرة التى ما كنت أظن أن الله سيبتليني برؤيتها مرة أخرى

— ولم ترد عليه المرأة الماثلة بل استكانت وبدا عليها الذهول والقلق وتعلق عقلها بالشاب الذى ذهب فعاد الرجل يقول بنفس اللهجة :

— حقا هذه هي البؤرة التى أعدت لأمثالك. لقد كنت يوما ريفية بسيطة ولكن نفسك كانت ملوثة تبرأ منها النفوس الريفيات جميعا . كنت فاجرة بالطبيعة والفطرة فكان من المحتوم أن ينتهى بك المطاف إلى روض الفرج أو إلى هاوية أشد وعورة . أيتها الفاجرة

وكانت نور الحياة تفكر فى أمور أخرى ألهتها عن الاصغاء إليه فسألته بخوف وإشفاق وهى تشير إلى الناحية التى ذهب إليها الأسطى شلبي وعبد المعز:

— هل هو ...؟

— ولم تقو على إتمام سؤالها فقال الرجل بوحشية :

— نعم ... نعم ... هو ابنى ... بل هو الطفل الذى تركته فى القماط وفررت مع ذلك القصاب المنحوس غير آبهة بالأمومة ولا بالزوجية ... هو ابنك أيتها الفاجرة فقولى ماذا صنعت به ؟ ...

وابيض وجه المرأة وعلاه الكركم وزاغ بصرها فقال الرجل بقسوة :

— هل وقعت الجريمة النكراء ؟ هل حدث الأثم الأكبر ؟ هل سفلت يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب ؟ والله ما كنت أحب أن يشارك ابنى فى مثل هذه الفعلة الشنعاء ولكنه الانتقام الالهى الصارم أعمى بصرك وطبع على بصيرتك ليذيقك علقم الندامة ويضرب عليك الذلة والهوان إلى أبد الآبدين

وكانت المرأة فى حالة ذهول شديد حجب عن حواسها إدراك العالم المحيط بها ومنه الشيخ طه فغلبت هواجس ضميرها صوت الرجل المرغى المزبد وجعلت تحدث نفسها

— إبنى ... رباه ... أهذا إذاً سر حبي له وعطفى عليه؟... إبنى ... لكأنه حلم بعيد التحقيق فقال الرجل الناضب :

— فلتموتى كمداً جزاء إثمك الشنيع فأشارت المرأة إليه بيدها إشارة غضب واحتقار وقالت :

— كفى هذياناً ... فانه لم يقع بينى وبين ابنى

ما يخجل منه أحدنا أو كلانا

فاشتد غضب الرجل لحجتها وصاح بصوت انفجاري :

— إياك وأن تقولي ابنك ... لقد ماتت أمه حين ولادته ... أفاهمة أنت ؟

ودوى صوته فالتفت النظارة إلى ناحيتهما من كل صوب ، وكادت تفقد الممثلة صوابها ، ولم تر بداً من الانسحاب السريع ، وغادر الشيخ مكانه ورجع إلى بيت قريبه الأوسطى شلبي ولم يطمئن به المكان فأخذ ابنه ومضيا إلى محطة مصر وفي أثناء الطريق قال له :

— لن ترى القاهرة مرة أخرى إن شاء الله .. وسأحولك إلى مدرسة الزقازيق والله المستعان

وصمت عبد العز فلم تنفرج شفتاه عن كلمة وظل جامداً كالتمثال حتى آوى إلى حجرته وكان في قرارة نفسه غاضباً على أبيه ولعله لو رأى الشيخ وهو يختم صلاة ذاك المساء فيبسط يديه ويدعو ويتوسل ويذرف الدموع الساخنة لزعا سكت عنه الغضب وأجبرته حناياه على الذهاب إليه ليستغفره ويسترحمه ولكنه كان لا يرى من الدنيا جميعاً سوى وجه ممتلىء مستدير حلو الابتسامة جم المحبة والحنان يراه في النور وفي الظلام ويراه حين ينظر وحين يغمض جفنيه فهو لا يبرح مخيلته ولا يدع له فرصة للراحة أو الاطمئنان ، ولم يفكر قط في النسيان أو التعزي ولكنه كان يبتغي الوسيلة إلى الفرار إلى القاهرة مهما كلفه الأمر

ولاحت له الفرصة المطلوبة بعد أسبوع من وصوله إلى العريش حين اضطر أبوه إلى سفر يقتضيه التغيب بضعة أيام ، ولم يدع الفرصة تفلت لأنه كان عازماً عزماً أكيداً أمات ضميره وهزم نوازع الخير في نفسه ففتح صوان والده وبعثر ما فيه من الثياب فعثر — كما قدر — على خمسة جنيهات دسها في جيبه وفر من البيت ...

وبلغ القاهرة ظهراً ، وكان مضطرباً متعباً فاستراح في مقهى حتى العصر ، ثم ركب إلى روض الفرج فإلى كازينو البوسفور وقصد إلى الركن المعهود ، ولكنه لمح عن بعد الأسطى شلبي جالساً إلى المائدة في اطمئنان ودعة ينتظر الحبيبة لا شك بعد أن خلا له الجو ، فغلى الدم في عروقه وود لو يخسف به الأرض ، وحار لحظة قصيرة ثم لم يتردد ، فقصد رأساً إلى حجرات الممثلات وبحث عن حجرة نور الحياة ولم يصبر حتى يؤذن له فاقتحم بابها

وكانت مفاجأة غير متوقعة ، فقامت نور الحياة واقفة تاركة أدوات المكياج والتواليت تسقط من يديها ، وتبدى على أسارير وجهها فرح قهري وكادت تفتح له ذراعيها وتضمه إلى صدرها الخفاق وتساطيه قبل الحنان والأمومة ، ولكنها تنبهت إلى نفسها فتصلبت في وقفتها وجمدت أسارير وجهها وبدت عليها الحيرة والذهول ، ولم يكن لديها متسع للتفكير والتقدير ، ولكنها أحست بأن الطريق الذي تدفعها عواطفها إليه ليس الطريق الذي ينبغي لها سلوكه

ولم ترد عيناه أن ترى في وجهها سوى الفرح الذي كساه لأول وهلة ، فأقبل عليها مفتوح الذراعين ولكنها أعرضت عنه وسألته بلهجة غريبة :

— عبد العز ... ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

فقال بلهجة المستغيث وهو يشفق من تغيرها إشفاقاً :

— أنت تعلمين ما أتى بي فكيف تتجاهلينه ؟

ونفذت لهجته التوسلية إلى سويداء قلبها فخفق بشدة وكاد يطير من بين يديها ، ولكنها ضغطت عليه بقسوة لم تعهدها في نفسها من قبل وسكتت هنيهة

لتضبط عواطفها كيلا يظهر اضطرابُ وجدانها فى نبرات صوتها ثم قالت :

— لا أفقه لما تقول معنى

— فتنهد الشاب بحرقة وترك ذراعيه يسقطان إلى جانبه وقال :

— أتيت لأنى لا أحتمل البعد عنك وليس بى من قوة أستطيع بها التصبر أوالتعزى ، فعبثاً حاولت أن أقيم لرجاء والدي وزناً ، وعبثاً حاولت أن أصرف نفسى عن التفكير فيك ، وانتهزت فرصة سفر والدى لألوذ بالفرار ، ولم أحسن التدبير إذ كانت ظروفى غاية فى القسوة فأخذت نقود أبي ...

وأسكتته عن إتمام حديثه صرخة فرت من فم المرأة الخائفة المشفقة ، وسمعها تسأله بألم :

— هل سرقت ؟

— فلم يحسن فهم الباعث لها على سؤالها وقال بتأثر شديد :

— نعم سرقت ولست آسفا على ما فعلت لأنه كان سبيلي الوحيد إليك ولن أتردد عن أى تضحية فى سبيل أن أحظى بقربك؛ وهاهىذى نقودىفافعلى بها ما تشائين ...

— ولكنها أشارت إليه بيدهافأسكتته وسألته بجفاء يعلم الله كم كلفها من جهد وعذاب :

— هل يعود أبوك سريعاً من سفره ؟

— بعد يومين أو ثلاثة

— فتنهدت المرأة ارتياحا وقالت :

— ينبغى أن ترجع فى الحال إلى بلدك لترد النقود إلى مكانها فلا يعلم أبوك بجريمتك .

ولكنه قال بجزع وخوف :

— هذا مستحيل.أنا لا أستطيع مفارقتك أبداً

— هذا كلام فارغ وعبث طائش والحب سريع الزوال ، أما أثر الجريمة فلا يزول

فقال بإصرار :

— لن أفارقك أبداً

وخشيت إن هى لانت له وطاوعت قلبها أن تقضى عليه فقالت بصرامة :

— ينبغى يا هذا أن تذهب سريعاً وإلا وجهت إلى تهمة تحريضك على السرقة

فبهت الشاب وأحس بخيبة مريرة وسألها :

— أهذا كل ما يهمك من أمر عودتى ؟

— طبعاً ...

— أتجدين فى القول ؟

— وهل هذا وقت هزل ؟

— وفيم كانت مودتك لى ؟

— وأى مودة هذه التى تهون على النفس ما تهددنى به جريمتك ؟

فقال الشاب بانفعال شديد :

— ولكنى ارتكبت هذه الجريمة من أجلك أنت !

— لقد جئت أمراً نكراً ، وإن عشاق الكثيرين ليتوددون إلى بغير ارتكاب الجرائم

فتنهد عبد المعز تنهد اليائس المغيظ وقال :

— وإذا كنت تكذبين ؟

فقالت وكانت فى حالة من الاعياء شديدة

— أنت الذى أخطأت فهمي ... نعم إنى لا أنكر أنى ذكرت فى حديثى معك الحب ولكنه كان حباً بريئاً كحب ... أمك مثلا

وكان دم عبد المعز يغلى فى عروقه غلياناً وكان الغضب يفور فى قلبه وينفث أمام عينيه سحائب من دخان كثيف فصاح بصوت مرتعش النبرات :

— لا تشبعى نفسك الآثمة بأنى الطاهرة فتقلق رقدتها الآمنة أيتها العاهرة ...

ولم يشف الكلام غليله فلطمها على وجهها — فى غيبوبة الغضب — وبصق عليها ...

ثم ولى الأدبار فلم يقدر له أن يرى بشاعة الألم الذى قلص أساريرها ولا الحزن الذى طفر بالشيخوخة على وجهها ولا رآها وهى تمسح بصقته بيدها ودمعها ينهمل ...

ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء هائجاً ثائراً كالزوبعة ، وركب الترام ونزل منه واستقل القطار وهو يحدث نفسه ويتهدد ويتوعد ويتجرع غصص الندم والأسف

وأراد الله ستره فأعاد النقود إلى مكانها ومحا أثر الجريمة بيديه ونجا من شر عظيم

وقد ظن أن الدرس القاسى الذى تعلمه كفيل بأن يجتث من نفسه كل ما كان من ميل أو عاطفة نحو نور الحياة وأمثالها جميعاً ، ولكنه حين عاودته طمأنينته وسكونه وجد عقله ينزع به إلى روض الفرج ، وقد غالط نفسه وقاوم نزوعه ولكنه وجد عقله مجبراً على التفكير والتذكر، فسأل نفسه ماذا فعلت نور الحياة مما استحق غضبى ؟ ألأنها توددت إلى؟ فهذه صناعتها وفنها ، أم لأنها أشفقت على نفسها من عواقب جريمتى ؟ فهذا ما ينتظر من أى إنسان مهما كان أدبه وكان تهذيبه ، وربما كان من الطبيعى أن أغضب بعد أن منيت بالخيبة وذهبت تضحيتى هباء، ولكن لم يكن طبيعياً قط أن أصب عليها جام غضبى، وماذا فعلت هى تلقاء ذلك؟ لاشىء ، لقد لطمتها وبصقت عليها فاذا فعلت وهى القادرة على «البهدلة»؟ لاشىء !

ومضت الأيام تلو الأيام وانتظر على رجاء أن يمحو الزمن من نفسه تلك الذكرى المؤلمة . وكان يجد فى أعماقه عاطفة غريبة لم يعترف بها قط وطالما غالط نفسه فيها ولكن ربما غلبته على أمره أحياناً فيتنهد حزناً ويقول لنفسه آسفاً محسوراً « ليتنى لم أمدد لها يدى بسوء »

نجيب محفوظ

أحيّة أم ميتة ؟

لشاعر الهند وفيلسوفها طاغور

بقلم الأديب فخري شهاب السعدي

— ١ —

لم يكن « لكادامبيني » قريب من آل أبيها تمسها رحمه ، ولا نسيبٌ من عشيرة زوجها تعتمده أو تعول عليه ، فقد أدرك أولئك الموت جميعاً حتى لم يبق على أحد غير طفل صغير لحيها « سارادا سنكار » أميرمقاطعة « رابنهات » خلطته بنفسها ، ووطأت له مهاد رأفتها منذ أن مرضت أمه بعد الوضع فكفلته هي وعنيت بأموره ؛ والمرأة إذا ما احتضنت طفلاً لغيرها محضته خالص حبها الذى ما فوقه شيء ، ذلك بأنها ليس لها عليه حق من حقوق القربى أو النسب غير حق « المحبة الخالصة » ... والمحبة هذه لا تستطيع أن تثبت حقوقها بالصك والوثيقة التى تواضع « الاجتماع » عليها ، بل هى لا تريد أن يكون إثباتها بهذا . وإنما تريد أن تثبت بالعاطفة القوية ، وتعبد بالحنوّ المضاعف من عند أمثال هذه من النساء [1] .. وكذلك كان حب هذه المرأة الخائب قوياً مضاعفاً لذلك الطفل الصغير . . .

وفى ليلة من ليالى « سرابان [2] » — والعالم ماض على نهجه المعهود — توقف قلب « كادامبينى » فى صدرها الصغير المدنف بالحب والآلام عن الخفوق وسكت سكتة الأبدية الطويلة ، إذ توفيت المسكينة « بسكتة القلب » ليلتئذ على حين غرة . . .

وحمل الجثمان أربعةٌ من الرجال سراً إلى حيث يحرقونه بغير أن يجروا له شعائر الاحراق المعروفة حتى لا يؤخرهم رجال الشرط عما يريدون . . ومضوا به إلى حيث يحرق أهل تلك المقاطعة موتاهم ، وهى بقعة فى فسيح من الأرض لم يكن فيها غير كوخ صغير إلى جانبه حوض الماء وشجرة باسقة من أشجار « البانيان » وكانت ترى إلى ذلك آثار نهر قديم كان يجرى فى تلك الأرض من زمن بعيد ، ويظن الناس أن ماء الحوض ذاك قد أجرى إليه من هذا النهر القديم فهم لذلك يقدسونه ويتبركون به .

وأدخل الرجل الجثة فى الكوخ ومضى « كارجان » و « نيتاى » يلتمسان حطباً للاحراق وبقى الآخران فى الكوخ يحرسان الجثة

وقد كانت ليلة حالكة شملت بظلامها كل شيء ، وحجب سحابها المتراكم الكثيف النجوم فى السماء . . جلس الاثنان صامتين فى الكوخ ، وقد خبا المصباح ولم تجد المحاولات فى إيقاده نفساً إذ كانت علب الكبريت رطبة لا حيلة فى الاستفادة منها . وبعد سكون دام طويلاً ، قال أحدهما :

— ما أشد حاجتنا الآن يا أخى إلى غليون من التبغ ! لقد أنستنا السرعة أن نجىء بشىء من ذلك

فأجابه الآخر : إن فى استطاعتى أن أركض

(*) من كتاب « من روائع طاغور » الذى يصدر قريبا

(١) اللائى ينظرن إلى الطفل نظرتين : نظرة الأم الرءوم ونظرة المرأة الحانية باعتبارها إنسانا رقيق القلب

(٢) شهر من الشهور الهندية كان مثبتا فى النص الانكليزى ؛ والظاهر أنه من شهور الصيف التى تهب فيها الرياح الموسمية من ناحية الجنوب الغربى محملة بالأمطار الغزيرة كما سيمر بالقارىء

إلى القرية فأجئ بما نحتاج ...

وفهم « بِدهو » سبب رغبة صاحبه « بنامالى » فى الذهاب[1] فأجابه قائلا :

— ويخيل إلى أنى سأظل وحدى فى غضون ذلك !

ثم انقطع الحوار ، وشمل السكون تارة أخرى ، فكان الوقت يمضى فى بطء شديد حتى لكأن الدقائق الخمس تعدل ساعة كاملة ؛ وكان كل من الرجلين يلعن صاحبيه اللذين ذهبا بحجة الحطب ، ويرتاب فى أنهما ذهبا لذلك . من يدرى فلعلهما يتداولان الحديث فى موضوعات شتى فى مخبئهما الأمين

ولم يكن يسمع فى ذلك السكون غير صرير الحشرات أو نقيق الضفادع التى بقرب الحوض .. وفجأة خيل للرجلين أن الفراش قد تحرك قليلا كما لو كان البدن الذى فيه قد استدار من جنب إلى جنب . . . فارتجف كل من الرجلين فرقاً واستعاذ بالله مما يرى !

وفى اللحظة التى انطلق فيها هذان الحارسان من الكوخ متجهين إلى القرية كانت ترتفع فى جو الغرفة شهقة عميقة ! وبعد أن ركض الرجلان نحو ثلاثة أميال وافاهما الاثنان الآخران، وما كان هذان ليعنيهما أمر الحطب ، بل كانا فى الواقع قد ذهبا لإزجاء الوقت بالتدخين والكلام ، حتى إذا ما عادا زعما أن قطع إحدى الأشجار قد تم وأنه لم يبق إلا أن تشق الشجرة لتحمل بعد قليل ... ولكن « بِدهو » وصاحبه قصّا عليهما ما رأيا من أمر الميتة ، فسخر هذان منهما ونشاها على أن تركا واجبهما المكلفين به !

ورجع الرجال الأربعة من فورهم إلى الكوخ ولكنهم إذ دخلوه لم يجدوا فيه غير الفراش خالياً من الجسد ! فاستولت عليهم الدهشة وحلق بعضهم فى فى وجوه بعض . . . أفى الممكن أن يكون قد أخذ الجثة ابن آوى ؟ ولكن أين مِزَق الثياب الباقية ؟ وبخروجهم من الكوخ رأوا على الطين عند باب الكوخ آثاراً صغيرة انطبعت عليه من أقدام امرأة سارت من قريب على ذلك الطين

... ولم يكن « ساراداسنكار » بالغبى ولا المجنون ليصدق هذه القصة الخيالية التى سيقصون عليه ، ولذلك عزموا — بعد تداول الرأى بينهم — على أن يعلنوا لقومهم أنهم أحرقوا الجسد ...

وعند ما انشق عمود الفجر ، وجئ بالحطب ، زعم الأربعة الحارسون للقوم أنهم أتموا الاحراق — نظراً لتأخرهم — بحطب غير هذا احتطبوه ! وإذ لم تكن لجسد الميتة قيمة فيسرق ، فقد أهمل الجميع السؤال من كل ما يتعلق به ...

— ٢ —

ليس يجهل أحد أن الحياة قد تكون موجودة فى جسم من الأجسام فى حين أنه لا علامة لها فى ذلك الجسم ، وأنها ربما عادت فظهرت علائمها فى ذلك الجسم الذى قد بدا عليه الموت . . . وكذلك كان شأن « كادامبينى » فهى لم تمت بل توقفت أجهزة جسمها لسبب مباغت مجهول . . . ولما أفاقت أدارت الطرف فيما حولها فلم تر غير ظلام ضاربة أطنابها فى كل مكان ! وفى لحظة خاطفة طمس على ذاكرة « كادامبينى » وشعورها ، فاذا هى لا تعى شيئاً مما حولها حتى لكأن هذا الوجود كتاب

(١) وهو ما خيل إليه من أن الأرض مسكونة بالجن والأخيلة والأرواح (النص الانكليزى)

انطمست حروفه وتداخل بعضها فى بعض فليس إلى فهم ما فيه من سبيل ! ... إنها الآن لا تذكر أكان « الطفل » قد ناداها بصوته المنغب المستحب يستدعيها للمرة الأخيرة أم أنه لم يفعل من ذلك شيئاً ؟ بل هى لا تذكر أكانت قد تزودت فى هذه السفرة المجهولة طيبتها — بهدية من « مال الحب » تدفعه أجرة السفر إلى تلك الربوع الصامتة ، أم أن شيئاً من هذا لم يكن ؟ ... هى لا تدرى من كل ذلك شيئاً .

وما أرى إلا أنها حسبت هذا المكان المظلم حفرة القبر ، حيث لا يرى فيها ولا يسمع منها شىء ، وحيث الحركة منقطعة ، فليس إلى صنع شىء من سبيل ، بل كل ما هنالك ظلام عام يشمل كل شىء .

ولكن عند ما هبت نفحة من الهواء الندى من جهة الباب ، ووصل إلى أذنيها نقيق الضفادع ، عاد إلى ذاكرتها كل شىء ، وعرفت صلتها بهذا العالم ...

وأنار وميض البرق الخاطف ما حولها فرأت حوض الماء ، وشجرة « البانيان » والبراح الفسيح وأشجاراً كانت تقوم على بعد ... رأت ذلك كله وتذكرت أنها كانت تجىء إلى نفس هذا المكان فى بعض الليالى المقمرة لتستحم فى هذا الحوض ، ولكم كان الموت فظيعاً مروعاً حين قارنت ذلك الماضى بجثتها ممدة على أرض « المحرقة » !

لقد خطر لها — أول ما خطر — أن تعود إلى الدار ولكنها وقفت تحاور نفسها : « إننى ميتة ، فكيف يمكننى أن أعود إلى البيت ؟ ستكون عودتى نكبة لهم ؛ فانى قد غادرت مملكة الأحياء ، وما أنا الآن سوى خيال ... محض شبح ... فان لم يكن هذا حقاً — واستطردت تبرهن على كلامها السابق — فان لم يكن هذا حقاً ، فكيف أمكنها الافلات من قلعة « ساراد سنكار » الحصينة إلى أرض « المحرقة » فى منتصف الليل ؟ ثم إن شعائر الاحراق لم تنته فأين المكلفون باحراقها ؟ »

ثم استعادت مشهد ساعة موتها فى دار « سارادسنكار » فصح عندها — وهى فى هذه الفلاة — أنها ليست من أفراد هذا المجتمع إنما هى مخلوق مرعب مشؤوم ، هى محض خيال ...

وبهذه الفكرة التى استنتجتها حسبت أن كل العرى التى كانت تربطها بهذه الدنيا قدوهت فانفصمت وخيل إليها أن بمقدورها — وهى صاحبة القوة الخارقة والحرية المطلقة — أن تفعل ما تشاء ، وأن تذهب حيث تريد ...

وجنت بوحى هذه الفكرة الجديدة فانطلقت خارجة من الكوخ بسرعة الريح ووقفت على أرض « المحرقة » وقد فارقتها كل ما كانت لها من آثار الحياء والخوف ... ثم لما سارت وأوغلت فى السير نال قدميها التعب ، وأدرك جسمها الاعياء فكانت تتخبط على غير هدى تارة فى الحقول المنخفضة وطوراً تخوض إلى ركبتها فى المياه !

وسمعت عند انبثاق أول أشعة الفجر صوتَ بعض الطيور فى ذرى الأشجار عن بعد ، فاعتراها الخوف إذ ما كانت تدرى نوع صلتها بالأرض وماهو عالم الأحياء ، فقد كانت إلى زمن يسير فى الفلاة الفسيحة بأرض المحرقة ، وقد أسدل الليل عليها سجفه فغطاها . كانت شديدة الثقة والاطمئنان متحكمة فى مملكتها التى تخيلتها لنفسها ، ولكن ما إن أضاء النهار ، حتى ملأ الناس نفسها رعباً منهم ! ذلك

بأن كلا من «البشر» و «الأرواح» يخاف الآخر، خوفاً منشؤه سكنى جماعات كل طائفة على جانب مختلف عن جانب الآخرين على ضفاف نهر الموت[1]

— ٣ —

كانت ثيابها ملطخة بالأوحال، ومظهرها — وهي تدلج بالليل — وأفكارها الغريبة السود، كل أولئك كان قد أكسبها هيأة امرأة مجنونة تلقى الرعب في قلوب الناس، بل قد تترى الأطفال على حصبها بالحجارة

وكان أول من رآها — لحسن الحظ — رجل مسافر اقترب منها حين وقعت عينه عليها، وقال:

— أيتهــا الأم الوقور ... أين تقصدين بهذا المطاف؟

ولم تستطع «كادامبيني» أن تجمع شتات أفكارها فتجيبه على ما سأل، وإنمــا كان جوابه منها نظرة ألقتها عليه وهي غارقة في بحر من الوجوم عميق ... لم يكن في حسبانها أنها ما زالت على صلة بأهل هذه الوجود بحيث يرونها امرأة وقوراً تستحق أن تسمع من مسافر سؤالاً يطرحه عليها ...

ثم استأنف الرجل قائلاً: تعالى يا أماه سأحملك إلى دارك تخبريني أين تسكنين؟

وفكرت «كادامبيني» فيما عساها أن تقول للرجل ... لم يكن لها دار أب تأوى إليها، كما أنه ليس من الصواب أن تعود إلى بيت حميها بعد الذي حدث ... وإنها لكذلك إذ ذكرت صديقة طفولتها «جوكايا» ... إنها لم ترها منذ أيام الشباب، ولكنها كانت مع ذلك تراسلها، وربمــا خاصمتها أحياناً، وسبب تلك الخصومات أنها كانت تريد أن توضح لصديقتها أن حبها لها لم يكن ذا نهاية ولا محدوداً، في حين أن «جوكايا» ما كانت تصدق أن حب صديقتها لها يساوي ما في صدرها لتلك الصديقة من الحب!

وكانت كل من الصديقتين معتقدة بأن تلاقيهما — إن حدث مرة — فلن يفصمه الفراق!

وأجابت «كادامبيني» المسافر قائلة:

— إني قاصــدة إلى دار «سريباتي» في «نيسندابور» ولم تكن هذه المدينة قريبة، ولكنها كانت تقع على طريق الرجل فحملها إلى دار صديقتها.

ولم تعرف الواحدة الأخرى بادئ ذي بدء ولكنهما استعادتا — شيئاً فشيئاً — ملامح الطفولة التي كانت آثارها على وجهيهما فتعارفتا

قالت «جوكايا» تخاطب صديقتها:

— يا لَلحظ! ما كنت أحلم بأننا سنلتقي أبداً، ولكن حدثيني كيف جئت إليّ يا أختاه؟ كيف أفلتِّ من دار حميك؟ إنهم بطبيعة الحال لم يسمحوا لك بالخروج!

ولكن «كادامبيني» ظلت صامتة ولم تجب؛ ثم قالت أخيراً:

— أختاه! لا تسألي عن حمى، بل دعيني أنتبذ في دارك هــذه زاوية، واحسبيني في عداد الخدم، فسأقوم بكل حاجاتك ...

فصرخت «جوكايا» قائلة:

— ماذا؟ أأحسبك في عداد الخدم في داري؟ أنت يا أعز صديقاتي علي؟ أنت التي ... ومضت في حديثها على هذا النمط

ثم جاء «سريباتي» زوج «جوكايا» فحدقت

---

(١) أي أن الموت هو النهر الذي يجرى بين أرضى هاتين الطائفتين فيكون حدودها الطبيعة الجغرافية

« كادامبينى » فى وجهه طويلاً ، ثم ابتعدت عنه على مهل ... ولم يكن فيا عملت علامة من علامات الاحترام أو الأدب؛ غير أن « جوكايا » اعتذرت عن صديقتها إلى زوجها من هذا التصرف الشائن، ولكن « سرپياتى » الذى كان يصدق كل ما كانت تقوله زوجه — قطع حديثها عليها وتركها خارجاً، مضطربة قلقة البال

* * *

... عادت « كادامبينى » إلى صديقتها ولكنها لم تكن فى الحقيقة أمامها وجهاً لوجه ، بل كان الموت يفصلهما ، إنها لم تكن تألف الناس أو ترتاح إليهم ، ذلك بأنها كانت قد وقعت فى حيرة من « وجودها »[1] هذا ، مع كونها بقيت مالكة شعورها وملكاتها العاقلة ...

... كانت ترنو إلى صديقتها وتطيل الفكر وتحاور نفسها بهذا الحديث :

— إن لها زوجها وأعمالها . إنها تعيش فى عالم بعيد من الذى أعيش فيه . إنها تساهم فى تحمل التبعة والمسؤولية مع الناس فى هذا الوجود ، بينما أنا محض روح . إنها فى عالم الأحياء ، وأما أنا ففى عالم الخلود ...

وما كانت « جوكايا » بالمرتاحة المطمئنة ، ولكنها ما كانت تدرى سبب ذلك ، والمرأة لا تحب « الغموض » أو الابهام لأنه مهما تصور فى صور شتى من « شعر » أو « بطولة » أو « معرفة وبحث » فانه لن يكون فى شكل .. أعمال « المنزل » وتدبير أموره[2] ، وذلك ما يجعل المرأة تعصف بكل شىء لا ينالُه إدراكها ، أو هى — على الأقل — تتناساه أو تلبسه صورة أخرى من عند نفسها فان لم تستطع أن تضمه فى واحدة من هاتين المنزلتين فليست هى امرأة ... إذ أنها عندئذ تخسر طبيعتها النسوية !

* * *

كانت « جوكايا » كلما أمعنت « كادامبينى » فى الذهول — ازدادت هى ضيقاً وتعجباً مما كان يثقل عقل صاحبتها من الأفكار ... ثم نجم من بعد ذلك خطر جديد ... إن « كادامبينى » أخذت تخاف من نفسها ! وأين تستطيع من نفسها الهروب؟ إن الذين يخافون الأرواح والأخيلة إنما يخافون — فى الواقع — ما وراء تلك الأرواح من أخطار وهم خائفون دائماً أينما حلوا مادام بصرهم لا يقع على شىء ، ولكن خوف « كادامبينى » غير خوف الناس ، إن خطرها الذى تخشاه إنما هو فى نفسها هو ليس خارجاً عنها !

فكانت إذا خلت إلى نفسها فى الغرفة، إذا جن المساء صرخت خوفاً ، وإذا رأت ظلها فى نور المصباح ارتعدت فرائصها فرقاً ! وكان من ذلك أن عم أهل الدار نوع من الفزع أقلقهم جميعاً ... حتى كانت الأشباح تتراءى للخدم ، بل و « لجوكايا» نفسها أيضاً ...

وفى منتصف إحدى الليالى خرجت «كادامبينى» من غرفتها مولولة باكية ووقفت بباب غرفة صديقتها قائلة :

— أختاه ! يا أختاه .. دعينى أرقد عند قدميك ولا تتركينى أنام وحدى !

وما كان سخط « جوكايا » ليقل عن فزعها ؛ لقد كان بودها أن تطرد صديقتها فى كل حين من الدار !

---

(١) يقصد حياتها الثانية التى بدأت بعد صحوتها

(٢) أي أن الغموض لا يتلاءم وطبيعة المرأة

وبعد محاولات شتى قام بها «سريباتى» استطاع أن يهدئ ضيفتهم ويدخلها إلى غرفة مجاورة لتنام فيها

* * *

وفى اليوم التالى استدعت « جوكايا » زوجها إلى غرفتها وقالت تعنفه :

— هل تدعو نفسك رجلا؟ امرأة تهرب من دار حميها ثم تدخل بيتك ويمضى على ذلك شهر وأنت لا تشير إلى ضرورة ذهابها ولا تظهر منك بادرة أو علامة تدل على هذا ! سأعدها مِنّة على لو فسرت لى نفسك ... إنكم معشر الرجال جميعاً متشابهون ...

... والرجال باعتبارهم جنساً قائماً بذاته — لهم تحزب طبيعى ضد النساء على العموم ، وهذا ما يجعل النساء يحاسبنهم ويبالغن فى الحساب

لقد كان « سريباتى » يقسم لزوجه أن شعوره نحو « كادامبينى » ما كان ليتعدى الحد الذى تقتضيه الشفقة والرأفة ، وإن كان هذا لا يتفق فى الظاهر مع سلوكه معها . إنه يعتقد أن أهل دارها قد أساءوا معاملتها حتى لم تكد تطيقهم وذلك ما دعاها إلى الالتجاء إلى هنا . أفلو كان لها أب أو أم أ كانا يتركانها كذلك ؟ وعلى هذا فقد قال :

— دعى الأمر كما هو ... وأنا لا أستطيع أن أؤلم هذه البائسة بأن أطلب منها الخروج من الدار

ولكن « جوكايا » حاولت شتى المحاولات لتحمل زوجها الخامل (!) على أن ينزل عند ماتريد حتى ارتأى — إحلالا للسلم فى داره — أن يرسل خطاباً إلى حمى « كادامبينى » ولكنه رأى أن نتيجة الرسالة قد لا تأتى بالمطلوب . ولذا قرر الذهاب إلى « رانيهات » ليجد الحل المعقول

وذهب « سريباتى »

وعادت « جوكايا » تقول لصديقتها :

— أيتها الصديقة ، إن من الصعب عليك أن تبقىْ هنا بعد هذا ... ما تَرَيْن الناس قائلين ؟

وتفرست « كادامبينى » فى وجه صديقتها وقد استولى عليها الدهش ثم أجابتها :

— وماذا علىّ من الناس ؟

ودهشت « جوكايا » مما سمعت ثم قالت بحدّة :

— إذا لم تكن لك بالناس علاقة ولا مساس ، فان لنا بهم ما ليس لك . كيف نفسر وجود امرأة غريبة وتأخرها عندنا ؟

فسألتها « كادامبينى » :

— وأين هى دار حَمِى ؟

قالت « جوكايا » وهى منفعلة ، مخاطبة نفسها :

— يا للهول ! ما الذى ستقوله المرأة المنكوبة بعد ذلك ؟

وفى بطء شديد أجابت « كادامبينى » :

— وما يعنينى من أمركم ؟ أأنا من أهل الأرض ؟ إنكم لتضحكون وتبكون وتحيون وكل منكم محتفظ بالذى له ، وأنا أتطلع فقط ... أنتم بشر ، وأنا محض خيال ... روح ... إننى لست أقدر أن أفهم كيف أبقانى الله بينكم فى عالمكم هذا !

... وكانت نظراتها وكلامها غريبين بحيث لم تستطع أن تفهم «جوكايا» من مرماها إلا اليسير . ولم تكن بعد ذلك قادرة على طردها ، ولا على أن تسألها غير ما سألت ، وانصرفت مثقلة الرأس بالأفكار ...

* * *

... كانت عودة «سريباتى» من « رانيهات » فى قرابة الساعة العاشرة مساء . وكان يغشى وجه الأرض سيل جارف من مياه المطر الهاطل بغير

انقطاع ، حتى ليخيل المرء أن ليس لهذا التهتان حد ينقطع عنده ، ولا لهذه الليلة آخر تنكشف عنه

وابتدرت « جوكايا » زوجها قائلة :

— حسن ...

ولكنه أجابها : « لدى الكثير مما أريد أن أقول » قال ذلك وقام إلى ثيابه فغيرها ، وأكل عشاءه ثم جلس ليروح عن نفسه بغليون من التبغ . وكان خلال ذلك شارد الذهن مشتغل الفكر ... وأما زوجه فقد كانت أثناء هذا تجاهد فضولها لتخفيه حتى إذا رأته استقر في مقعده جاءت إليه فسألته :

— حدثني الآن عما سمعت !

— إنك ارتكبت بالذى اضطرتني إليه أشنع الخطأ ... !

وأغضبها ما سمعت ... ذلك بأن النساء لا يرتكبن الأخطاء ، أو هن إن ارتكبنها فان الرجل العاقل الفاضل لا يأبه لذلك ، بل ربما كان الخير في أن يتحملها على عاتقه هو ؛ وعلى ذلك فقد نترت « جوكايا » مغضبة تقول :

— أجائز أن أسمع ما تقول ؟

فأجابها « سريباتى » : « أجل ! فالمرأة التى أدخلتِها دارك لم تكن « كادامبينى » صديقتك ! »

وأحنقها أن تسمع هذا ، وأن تسمعه من زوجها ، فأجابت :

— ماذا ؟ ألست أعرف صديقتي ؟ أكان على أن أسألك عن أمرها لتعرفها لى ؟ إنك لماهر حقاً !

وأفهمها « سريباتى » أنه لا لزوم للجدال فى مهارته وذكائه ، فإن فى وسعه التدليل على صحة مازعم ذلك بأن « كادامبينى » صديقة « جوكايا » قد توفيت !!

فأجابته زوجه قائلة : « إصغ إلى ... لا شك فى أنك ارتكبت خطأ جسيما فإما أنك ذهبت إلى دار غير دارهم خطأ ، وإما أنك لا تحاول أن تطلعنى على جلية الخبر ! من ذا الذى كلفك الذهاب بنفسك ؟ ! كتب رسالة وسيتضح كل شئ »

وكان « سريباتى » قد آلمه عدم اطمئنان زوجه إلى « حسن تصرفه » فاصطنع لذلك شتى البراهين ، ولكن بغير جدوى ... وبقيا كذلك حتى منتصف الليل فى أخذ ورد. ومع أنهما كانا متفقين على إخراج « كادامبينى » من البيت ، ومع اعتقاد « سريباتى » بأن ضيفته تخدع زوجه بمعرفتها المكذوبة ، وأن « جوكايا » زوجه تخونه فى هذه الضيفة بقبولها تلك المعرفة المكذوبة وإقرارها ضيفتها عليها . . . مع ذلك كله فما توصل لا هو ولا زوجه إلى نتيجة ما، إذ لم يكن أحدهما — هو وزوجه — ليعترف بانتصار صاحبه فى الجدال ...

* * *

قال أحد الزوجين :

— إننا الآن لفى مأزق ظريف حقاً . اسمعى أقل لك، لقد سمعت الخبر بأذنىّ هذين فليس إلى تكذيب ما سمعت من سبيل !

فأجابته زوجه محنقة غضبى : « وماذا يعنيني مما تقول ؟ إننى أستطيع أن أبصر بأم عيني دون أن يساورنى الشك »

وبعد هذا الحوار قالت « جوكايا » لزوجها : « حسن ، فقل متى توفيت « كادامبينى » ؟ » تريد بذلك أن تجد فرق ما بين تاريخ آخر رسالة وردتها من صديقتها وتاريخ الوفاة ؛ ولكنها إذ علمت تاريخ الوفاة وجدته بعد آخر رسالة من رسائل صديقتها بيوم واحد فقط ! وهال «جوكايا» الأمر وارتجفت

عند رؤيتها ذلك التاريخ ... بل إن « سريباتى » نفسه لم يبق على رباطة جأشه

... وإنهم لكذلك إذ فتح الباب بغتة ، وهبت من جهته ريح ندية فأطفأت المصباح فخيمت سدف الظلام على المكان كله وإذا « كادامبينى » تظهر فى الغرفة . . لقد كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، والمطر ينهمر فى الخارج هتوناً . فتكلمت « كادامبينى » قائلة :

— أيتها الصديقة ... إننى « كادامبينى » التى تعهدين . ولكنى لست من عالم الأحياء الآن . إننى ميتة !!

فأما « جوكايا » فقد صرخت رعباً ، وأما زوجها ، فما كان قادراً على أن ينبس ببنت شفة ... واستمرت « كادامبينى » تكمل حديثها :

— . . ولكن النجاة فى بقائى ميتة . . إننى ما ارتكبت خطأ ؛ إنه لا مكان لى بين الأحياء ولا فى عالم الأموات . . آه ، قالى أين أتجه ؟ ؟ وصرخت كأنها تريد أن توقظ العالم فى ذلك الليل الدامس المطير سائلة هذا السؤال : « آه . . إلى أين أتجه ؟ ! » قالت هذا وخرجت تاركة صديقتها مغمياً عليها فى دارها المظلمة — تضرب فى الأرض تفتش عن . . مأواها » ! !

***

لعل من الصعب أن نقول كيف وصلت « كادامبينى » إلى بيتهم فى « رانيهات » . . فقد تكتمت عند وصولها أولاً ولم تر نفسها لأحد ، بل قضت سحابة نهارها فى معبد طال عليه القدم — تتضور جوعاً .. وعند ما عمت ظلم السحاب الماطر الكون ، ودخل الناس إلى بيوتهم فراراً من العاصفة المنتظرة جاءت « كادامبينى » مقتربة من دار حميها ، خافقة الفؤاد ، ودخلت مستترة وراء قناع كثيف أسدلته على وجهها ، فلم يعترضها أحد من البوابين حاسبين أنها من بعض الخدم .

وظل المطر ينهمر ، والريح تعصف بغير انقطاع .. كانت ربة البيت ـ زوج «سارادا سنكار[1]» تلعب الورق مع أخت لها مترملة ؛ وكانت إحدى الخادمات فى المطبخ . أما الطفل فقد كان راقداً فى غرفة النوم . ودخلت « كادامبينى » الغرفة على صغيرها دون أن تشعر أحداً أو تستلفت نظر أحد ، وليس بدرى لم اختارت أن تجىء إلى دار حميها ؛ بل إنها هى نفسها لم تدر كيف كان ذلك منها ، إنما كانت قد تاقت إلى رؤية الطفل تارة أخرى . ولم تكن قد فكرت فيما ستعمله حين تنتهى من زيارة طفلها ، ولا أين تذهب .

رأت فى الغرفة المنـارة الطفل راقداً ، وقد انكمشت قبضتا يديه ، وأنهكت بدنه الحمى ؛ لشد ما تشوق إليه فؤادها وظمأ إليه حين رأته راقداً كذلك آه لو أمكنها ضم هذا البدن المعذب إلى صدرها .

وحالا خطرت لها هذه الفكرة : « إنى لا أحيا؛ فمن سيرانى ؟ هذه أمه تحب « المعاشرة » و « القيل والقال » كما تحب الورق ؛ إنها لم تكن تقلق له أو تتعب من أجله على الأقل . . فمن يرعاه الآن كما كنت أفعل ؟ ؟ » . واستدار الطفل من جنب إلى جنب ، وصرخ — وهو مازال فى نومه — : ياعمة، أعطنى ماء ...

إذاً فحبيبها لم ينس بعد عمته . . . وفى سرعة جنونية عمدت إلى شىء من الماء فسكبته فى كوبة

(١) ساراداسنكار هذا هو أمير مقاطعة « رانيهات » وحمو بطلة القصة « كادامبينى » وأبو الطفل « سايتس » الذى عنيت بتربيته

قربتها من صدرها ثم قدمتها له ليشرب .

ولم يكن الطفل ليستشعر الغرابة فى أخذ الماء من اليد التى اعتادها من قبل ، ما دام لم يصح من نومه تماماً

غير أن « كادامبينى » أرضت شوقها المُلِحّ بتقبيله ثم هزته ليستأنف رقاده ، ولكن الطفل استيقظ وعانقها :

— أَقَدِمْتِ يا عمة حقاً ؟

— نعم أيها الحبيب

— إنك عُدْتِ ثانية ، فلا تموتى تارة أخرى

وقبل أن تتمكن من أن تجيبه على ما قال باغتتها المصيبة ، إذ دخلت إحدى الخادمات بكوبة مليئة بالحساء . . . ولكنها ما إن دخلت حتى أسقطت ما فى يديها ... وسمعت رية الدار الصوت[1] فجاءت إلى الغرفة ! فاذا بها تقف كالخشبة المسندة لا تقدر على الفرار ولا الكلام . وأبصر الطفل كل هذا فهاله الأمر وصرخ باكياً :

— إبتعدى يا عمة ... إذهبى ... إبتعدى !

والآن ، الآن فقط أدركت « كادامبينى » أنها لم تمت !

إن الغرفة هى الغرفة الأولى ، والأثاث هو الأثاث القديم ، والطفل هو بعينه الطفل ، وحبها هو حبها الأول . . . كل أولئك قد عاد إلى « الحياة » كما عادت هى !

كانت قد عرفت فى دار صديقتها — أن « كادامبينى » صديقة الطفولة قد ماتت . أما الآن فقد علمت — وهى فى غرفة طفلها — أن « العمة » لم تمت . وقالت « كادامبينى » بصوت ينم عن الألم :

— أختاه ... لم تخافون منى ؟ أنظرن إلى كما عهدتمونى

ولم تُطق خادمتها صبراً وسقطت مصفرة الوجه قد أغمى عليها ...

. . . ودخل « سارادا سنكار » نفسه قصر الحرم ، وقال لها وأمارات الحزن والألم بادية على وجهه

— أهذا حسن ؟ إن « سايتس » ولدى الوحيد فلم أرَبَّيْتِهِ نفسك ؟ ألسنا جميعاً أهلك ؟ لقد أهمل منذ أن ذهبت ، فكان يناديك ولكن بغير جدوى .. إنك قد غادرت العالم وقطعت صلاتك به ، وسنقيم لك كل شعائر الشرف والتكريم . وما احتملت « كادامبينى » أكثر من هذا فأجابت :

— أوه . . . إنى لست مَيتةً . . . آه كيف أستطيع أن أدَلِّلَ لكم على أنى لست من الموتى ؟ إنى حية . . . إنى أعيش . . . قالت ذلك وتناولت طاساً من النحاس فسكّت به جبهتها فتفجر الدم من جرحها ، فصرخت قائلة : « أنظروا ... إنى أعيش »

كان « سارادا سنكار » قد وقف كصورة ... والطفل قد ملىء رعباً . . . وأما المرأتان فما زالتا مضطجعتين ... ثم صرخت كادامبينى :

— « لست ميتة ! لست ميتة »

ونزلت السلم إلى بئر فى قصر النساء وألقت بنفسها فيه ...

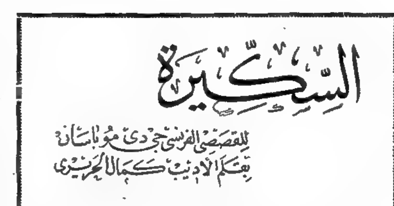
... ومن الطابق الأعلى سمع « سارادا سنكار » صوت ارتطامها فى البئر

كان المطر يتحدر طول الليل والنهار الذى أعقبه إلى الفجر .. إلى الظهر .. لقد ماتت « كادامبينى » وبموتها برهنت على أنها لم تكن فى الأموات !

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

---

(١) يقال لهذا الصوت فى العربية « اللدم »



وقفت العربة ذات الحصان الواحد أمام مزرعة الأم « ما كلوار » تحمل المعلم « شيكو » خمار « دى به فيل » وهو رجل فى العقد الرابع خشن المعارف هائل الخلقة أحمر الوجه بطين سمين، في وجهه سيما الخبث والمكر

هبط الرجل سلم العربة ، ثم ربط حصانها بخشبة معترضة ومشى إلى ساحة الدار

كانت الأم « ما كلوار » تمتلك أرضاً تجاور مزرعته ، طالما تشوفت نفسه إلى ابتياعها منها ، وضمها إلى أرضه لولا أن كان يصده عن هذه الرغبة تعصب من العجوز عنيد وتصلب شديد. وكانت تقول:

— إنى ولدت فى هذه الأرض ، وستجننى تربتها ...

ففى هذا الصباح ألفى العجوز ، وهى دردبيس فى الثانية والسبعين من عمرها ، أمام باب منزلها معنية بتقشير « البطاطس » كانت منكمشة الجلد ، جافة اللحم ، منضوخة الوجه . وبرغم ذلك كانت دائبة على عملها وكأنها فى ربيع العمر

تقدم منها المعلم « شيكو » وربت على كتفها فى دعابة ثم قال :

— وصحتك أيتها الأم، هل هي جيدة وأبداً جيدة؟

— أحمد الله ، وأنت أيها المعلم ؟

— بخير ، ولولا قليل من الألم لكنت هانئاً راضياً

— جدٌ مليح . ثم لاذت بالصمت وأخذت تقشر البطاطس وتديرها فى حذق ومهارة ، بين أصابع يابسة عقداء معروقة ، تشبه أرجل السراطين ، وفى يدها اليمنى سكين عتيقة منثلمة لا تكاد تقطع الجبن

وحين فرغت من البطاطس، وأخرجت لماعة صفراء ، ألقت بها فى قدر مملوءة ماء. فإذا دجيجات وأفراخ تسعى إليها نافة مقوقئة ، ثم تختلس ما تبقى فى حجرها من قشور البطاطس ، وتتراكض فى خبث عنها وفى منقار كل منها ما غنمت من قشور

كان المعلم « شيكو » يرقب هذا المنظر فى سأم وضيق وفى نفسه أمر ، وعلى لسانه كلام يجتهد فى انتزاعه ، وأخيراً وفق فقال :

— ألا تخبريني أيتها الأم « ما كلوار »

— وما عساى مخبرتك به ؟

— ألا زلت ترفضين بيعى مزرعتك ؟

— هذا أمر قد فرغت منه أيها المعلم «شيكو» فلم إقلاقى به مطلع كل صباح ومهبط كل ليل ؟

— ولكنى يا سيدتى وجدت حلاً للمسألة إن رضيت به خرج كلانا راضياً بصفقة غير أسف ولا مغبون

— وما هو هذا الحل ؟

تبيعينى أرضك ثم تحتفظين بحق استثمارها ما بقيت فى قيد الأحياء ، أفلا يرضيك هذا أيضاً ؟

فشغلت العجوز عن تقشير البطاطس ، وراحت ترى الرجل بنظر حاد عنيف تحت جفنين خلقين أجردين . ثم قال الرجل مفسراً :

— إنك إن ترضى بهذه الصفقة تتسلمى فى منتهى كل شهر مائة وخمسين فرنكاً أحملها إليك فى

عريق. أتتدبرين قولي؟ أتفقهين حديثي؟ مائة وخمسون فرنكا ثم لا تتبدل بك حال، ولا تتغير حياة، فستظلين في حقلك آمنة السرب رافهة العيش لا يدينك أحد ولا تدينين لأحد، ولا تمملين أمراً، ولا تنصبين نفسك لعمل. إلا أن يكون استلام مائة وخمسين فرنكا، مطلع كل شهر، عملاً شاقاً يكد وينصب. قال هـذا وطفق ينظر إليها فرحاً مستبشراً وفي وجهه الطيبة والصلاح والمسكنة ... والعجوز تلحظه حذرة متيقظة. وقد كبر في وهمها أنه خادع لها وناصب لاصطياد مزرعتها أحبولة من ألفاظ منمقة مزورة. على أنها سألته في خبث:

إنك لتؤكد لي أن المزرعة ستظل في حوزتي فهل بلغ من أريحيتك أن تتبرع لامرأة عجوز بهذا الراتب الضخم دون فائدة تعود عليك؟ قال المعلم شيكو وقد أدرك ما تنطوي عليه غمزة العجوز

لا أثقـل عليك يا سيدتي في شأن الأرض، فلسوف تنالين خيراتها وتنتفعين بثمراتها ما مد الله في حياتك العزيزة. غير أني أرجوك أن تكتبي لي حقاً شرعياً، يخولني حق امتلاكها بعد عمرك الطويل إن شاء الله. ولبثت المرأة وهي تصغي لقول المعلم مأخوذة دهشة حائرة لا تملك لرأيها إبراماً ولا نقضاً، ولا لموقفها من الرجل إجابة ولا رفضاً، وأخيراً قالت:

إنه لا يسعني رفض اقتراحك، فلو أنظرتني أسبوعاً آخر أتبصر أمري وأروى رأيي. فأطاع المعلم « شيكو » ثم غادر الأم فرحاً فخوراً، كأنه الملك الجبار، استولى على بلد عدوه بالحديد والنار... أما الأم « ماكوار » فقد أمضت أيامها ساهمة حالمة، لا يستقر جنبها على مضجع، ولا يزور جفنها سنة من نوم. ثم استشرت بها حيا التردد وعصفت نار الحيرة فكادت توطن نفسها على الرفض التام، لولا أن ذكرى المائة والخمسين فرنكا الطنانة البراقة، التي توشك أن تتدحرج على حجرها مطلع كل شهر، كانت تلهب رغبتها الخامدة وتذكي أطماعها الهامدة وأرادت أن تضع لترددها حداً، فمضت إلى المسجل الشرعي تنفض له جلة حالها وتستنصحه في أمرها. فأشار إليها بالاطمئنان ونصح لها بالرضى بحل المعلم « شيكو »، ولكنه اشترط عليها المالك، أن يضاعف لهـا الراتب فيجعله ثلثمائة بدلاً من مئة وخمسين فرنكا لأن مزرعتها تساوي في أقل ثمن ١٦٠ ألف فرنك. ثم قال لها في أضعاف حديثه:

— لئن عمرت خمسة عشر عاماً، فلن ترزلي صاحبك أكثر من أربعين ألف فرنك... فاستقلت جسم العجـوز هزة من الطمع حين ذكرت الثلثمائة فرنـكا التي سوف تحظى بها رأس كل شهر. ولـكنها على ذلك ظلت حذرة مبلبلة الخاطر، تنوشها الهواجس، وتتوزعها الوساوس؛ فهي تتوقع حيناً مفـاجأة مفجعة وآناً مكيدة مستورة، لا تبصرها ولكنها تحسها. ولبثت حتى المساء تناقش المسألة بكل حل، وتواجه المقترح من كل جهة. ثم، ثم لم تستقر على عزم ولم تتوجه جهة من الرأي.

وجاءها المعلم شيكو يستطلع رأيهـا ويستلم عرضها الأخير فأنهت إليه قرارها النهائي، بلزوم رفع مرتبها الشهري، وحين رأت هزة الاخفاق تركب أوصاله، ونار الغيظ تحتدم في عينيه، وبوادر الرفض تتوافد على لسانه، أظهرته على قائمة السنين التي يمكن أن تعيشها بعد هذه الصفقة فقالت:

— إني من الوهن ورقة العظم واشتعال الشيب بحيث لا أستطيع الانتقال إلى سريري إلا مستندة إلى الأذرع، أو محمولة على الظهور

ومهما يمتد بي خيط الهرم، فانه كخيط العنكبوت

وشيك الانبتات سريع الانقطاع . وهل بعد الثلاثة والسبعين عاماً التي توقر كاهلي حياة ترجى أو عيش ينتظر ؟ وقاطعها الملم منيظاً فقال :

— إنها لمحاولة فاشلة منك ياسيدتي أن تصطنعي العجز وتتظاهري بانقطاع المنة . ثقي أن منجل الموت لا يعرف سبيله إلى شجرتك قبل أربعين سنة في أقل تقدير، وإني أراهن على أنك أنت التي ستتولين دفني ، فما هذا الخوف والفزع من الموت ؟

وتصرم عمر النهار في الجدل والنقاش والأخذ والرد، وجهد الملم «شيكو» الجهد كله ليقنع العجوز بالنزول عن طلبها الجائر المرهق فما عاد بطائل. وحين لم يجد مندوحة من إجابتهـا رضي مكرهاً بدفع الثلاثمائة فرنك ... وعبرت سنين ثلاث وصاحبتنا العجوز كالسروة المتينة لا يزيدها الزق إلا صلابة وجلداً على الأيام ، حتى يئس الملم من موتها وخيل إليه أنه مرغم على دفع مرتبها الضخم نصف قرن أو يزيد ، وأن صفقته كانت هي الخاسرة المغبونة ، وأنه لا بد موف على الخراب صائر إلى الافلاس إن ظلت معاهدة الصداقة والود بين العجوز وعزرائيل متينة العرى

كان يتردد على المرأة الفينة بعد الفينة بحجة السؤال عن نضوج الحنطة ، أو الاستفسار عن موعد الحصاد ، فكانت تستقبله في خبث ، وفي نفسها الشماتة والتشفي وفي معارف وجهها صورة الافتخار والزهو للدور المضحك المسلي الذي لعبته على مسرح بلاهته وغفلته. فكان يرتد سريعاً إلى عربته ويجمجم:

— وإذن فليس في نية هذه البهيمة أن تموت؟ لم يكن يعرف لمشكله حلا ولا لعقدة أزمته فكاكا . فكانت تمر به ساعات يود فيهـا لو أهوى على عنق العجوز فخنقه ، ورووحها فأزهقه ، مما في نفسه منها من الغيظ والحنق والموجدة ، وظل زمناً يلتمس وجهة الحيلة للخلاص من طلعة العجوز المشؤومة ، وأخيراً ظفر بما يرجو فغدا عليها يوماً يطفر من البشر والسعادة ، ويصفق بيديه من الفرح والمرح ، وبعد أن ناقلها برهة حديث المجاملة والود قال :

— ألا قولي لي أيتها الأم ماكلوار فيم امتناعك عن زيارة منزلي حين مرورك على حانة «إيدي فيل»؟ إن الحديث فيه ليلذ ويمتع ، وأنا هناك ويا للأسف مقطوع الصلة من الصديق ، منبت الوشيجة من القريب ، لا يؤنس وحشتي زائر ، ولا يعرج على عابر. فزوريني إن تكرمت وكلي ماطاب لك فلست مرزئك مالاً ولا مكلفك دفع طعام أو شراب. زوريني فني زيارتك تشيع البهجة في قلبي وينتشر السرور في داري

وفي الغد لم تكلفه الأم إعادة الاستزارة ، فراحت إليه في عربتها ، والشمس لم تغادر خدرها الوردي ، وحين بلغت الحانة ربطت حصان العربة في الاصطبل ، ثم دخلت عليه طالبة الغداء الموعود

لم يكد يصدق عينيه الملم شيكو ، وراح ينشط في خدمتها ويجتهد في مرضاتها ، كأنه أمام سيدة نبيلة لا قروية بخيلة ، ثم أخذ يفتن في تقديم فاخر الأطعمة والآكال وعريض اللحم ، من الطير البهر ، والدجاج المحمر ، ولحم الخنزير المشوي ، وأصناف من الخضار والفاكهة والتوابل ، ولكنها لم تصب من هذه الآكال الدسمة إلا ما يوافق معدتها العجوز التي اعتادت الاكتفاء بحساء اللحم الرقيق ، أو قطع الخبز الممسوحة بالزبدة ، وألح الرجل وعزم عليها . ولكنها لم تأ كل مضغة ولم تشرب جرعة حتى القهوة امتنعت عن تناولها. وأخيراً قال لها وهو يناولها قدحاً من « الكونياك » :

— أو ترفضين أيضاً هذا القدح ؟

— أما هذا فأقبله دون أن أقول لا . فرنجت

أركان الحانة بصوت المعلم يقول :

— « روزالى » أيتها العزيزة . احملى لنا كل فاخر معتق من الـكونياك . وظهرت الخادمة تضم إلى صدرها زجاجة طويلة ممشوقة ازدانت فوهتها بطابع الكونياك الفاخر . فتناولهـا المعلم شيكو وأفرغ منها قدحين، ثم عاطى العجوز أحدهما. قائلا:

— إنه لـكنياك لذيذ شهير ، أفلا تتذوقينه ياسيدتي ؟

فتناولته الأم « ما كلوار » شا كرة وطفقت تتحساه جرعات صغيرات ، كي تطيل مدة نشوتها وانبساطها . وما إن فرغت من القدح الأول حتى أفرغ لها المعلم قدحاً ثانياً . فأعرضت عنه أولاً ثم أ كرهها المضيف بالقول اللطيف والتجمل الظريف والنكتة المستملحة . وكان عازماً على إردافه بثالث ورابع لولا أن عالنته برفضها وامتناعها .

— ولكن هـذا ياسيدتي ليس خمراً إن هو إلا حليب مصفى ، أبتلع عشرة أقداح منه دون أن يتمشى السكر أو تذهب بوقارى النشوة ، لا يكاد يستقر فى الجوف كالسكر الذاب حتى يتبخر فى الجسم دون أن يجد طريقه إلى الرأس . وليس كمثله شىء لصحة الجسم وابتعاث النشاط . فدعا ذلك العجوز إلى أن اجترعت نصف الـكأس الثالثة، ولم تجرؤ على استنفادها لأنها شعرت بفعل السكر بأطرافها ، وتلاعب الخمر بأعطافها . فأسرعت إلى عربتها ومضت ... وغـدا عليها صاحبنا فى عربته المعروفة ذات الحصان الواحد وحين استقر بهما المجلس أخرج من جوف العربة برميلا صغيراً ، فيه خمر الأمس ، ثم جلسا يعيدان سيرة البارحة ، ولما استقر فى جوف كل منهما ثلاثة أقداح ، غاورها المعلم قائلا :

— ما أرانى بحاجة لأقول لك إن الخمر التى أبقيتها لك تكفيك مدة. فاذا فرغت منها فعندى لك اللذيذ المعتق لا أبخل عليك به ولا أضن . وكلما ألححت فى الطلب ألح علىّ السرور وطبت نفساً ...

وآب إليها بعد أيام أربعة ، فألفاها على الباب معنية بتقطيع الخبز الذى تمده للحساء ، فاقترب منها أنفاً لأنف وبدرها بتحية الصباح ، فنفحته منها رائحة «الكحول» وملأت خياشيمه . هنالك أضاء وجهه بنور البشر والفوز ثم قال :

— ألا تقدمين لى قدحاً من الكونياك ... ؟

وجلس الاثنان يعاقران الخمر ويشرب كل منهما نخب صاحبه ... ولم يطل الأمر بالأم « ما كلوار » حتى شاع عنها أنها تعاقر الخمرة متخلية لنفسها . وفى الحق كان الجيران يلقونهـا إما مستلقية أمام مطبخها وساحة دارها لا تعى، أو منطرحة فى الطرق والشوارع لا تحس ، فيحملونها إلى بيتها جثـة لا حراك فيها ولا وعى ...

ولم يعد المعلم شيكو يتردد إلى بيتها فكان يقول للجيرة راثياً :

— إنه لما يبتعث الأسى أن تدمن هذه العجوز الشراب وهى فى أرذل العمر ، مع أن الخمر تعجل خطواتها إلى القبر !

وفى الحق لقد وجدها أهل القرية ميتة على بساط الثلج صباح عيد الميلاد عقيب سكرة انكليزية أبلت فيها البلاء الحسن ...

وورث المعلم « شيكو » أرضها كما خوله الصك فكان يقول :

— لولم تتلف هذه العجوز البلهاء صحتها بسموم الخمر لعاشت عشر سنين أخر !

(حلب) كمال الحريرى



الفصل الحادى والعشرون

ميرزا أحمد عند الشاه

لما عاد ميرزا أحمد من عند الشاه فى مساء ذلك اليوم استدعانى فوجدته مهتاجاً أشد الاهتياج . ولما وصلت إليه قال : « أدن منى ! أدن منى ! » وقال لى همساً : « هل تعرف يا حاجى بابا أن هـذا الطبيب اللعين قد عرف الطريق إلى جلالة الشاه وأنه كان معه فى صباح اليوم ؟ لقد تقابل معه دون أن أعلم وأنا الطبيب الخاص لجلالته . وظهر لى أن ثقة الشاه كبيرة به وأنه شكا إليه من أمراضه القديمة المتعددة وهي فقر الدم والربو وعسر الهضم؛ فسأله الطبيب أسئلة كثيرة جاءت كلها مطابقة للواقع في وصف أعراض أمراضه مما جعل الشاه يعجب كل الاعجاب بدقته فى تشخيص المرض وبغزارة مادته . ثم طلب أن يمهله جلالته ثلاثة أيام يراجع فيها كتبه . واستدعانى الشاه فى المساء وسألنى عما أعرفه عن أطباء أوربا وعن رأيي فيما يصفونه من الدواء فلم أتردد فى إخبار جلالته برأيي وهو أن هؤلاء القوم ليسوا أهلاً لثقتنا لأنهم يكذبون نبينا ويأتون المنكرات ولا يعرفون الطهارة من النجاسة ويشربون الخمر . وقلت لجـلالته إنه إذا أمكن ائتمانهم على شيء فلا يجوز أن يؤتمنوا يا صاحب الجلالة على حياة الملوك الشرقيين . وانظر كيف فعلوا فى الهند وكيف أذلوا حكامها. وإنى لأرجو يا جلالة الشاه أن يحفظك الله من شر دوائهم فانهم إنما يرسلون الأطباء لخدمة سياستهم »

ولمحت له بأنهم يريدون قتله لاستعمار بلاده وأشرت إلى ما اشتهر من إجرائهم عمليات جراحية لحكام الهند وموت هؤلاء الحكام على أثر العمليات. وقد تمكنت من إقناع جلالته بهذا القول فوعدني بألا يقبل منه دواء ولا يستشيره فى أى مرض . وقال إنه سيدعونى إلى مقابلته عند ما يرسل إليه الطبيب الأجنبي الدواء لـكي أفحصه وأخبر جلالته عن المواد التى تركب منها »

ثم قال لى ميرزا أحمد : « وبالرغم من هذا القول فانى أعتقد يا حاجى بابا أن جلالة الشاه سيجرب دواء الطبيب الأجنبي وأنه سيجد له أحسن تأثير فـكيف يثق بى بعد ذلك ؟ ومن الذى يأتى لعيادتى إذا طردنى الشاه ؟ »

فوعدته بأن أفعل كل ما فى وسعى لمساعدته ضد هذا الطبيب الـكافر

وبعد ثلاثة أيام دعى ميرزا أحمد مرة أخرى لمقابلة الشاه لفحص الدواء الذى قدمـه الطبيب الأجنبى إلى جلالته، فتكلم عنه كلاماً غامضاً ختمه بأن هـذا الطبيب طبيب سفارة لدولة أجنبية وأن هذا يدل على أن واجبه واجب سياسى قبل كل شيء . واقتنع الشاه بأن يعرض الأمر على مجلس وزرائه .

وفى اليوم التالى عقد مجلس الوزراء كالعادة فجلس جلالته على العرش وجلس حوله الوزراء وهم على حسب النظام الحكومى فى هذه البلاد : رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الداخلية وأمين الدولة وحاجب الملك ورئيس الحفلات ومدير المركبات الملكية ورئيس الأطباء، ويليهم كبار القواد

وبدأ الشاه خطابه بالتكلم مع رئيس الوزارة عن ذلك الطبيب الأجنبى الذى عرض خدماته على جلالته وقال إن هذا الطبيب حضر اليوم إلى القصر وقدم إليه دواء قال إنه لم يهتد إليه إلا بعد أن قضى ثلاثة أيام كاملة فى مراجعة الكتب الطبية . وأكد أن هذا الدواء أقوى أثراً من كل حجاب وطلسم .

وقال جلالته إنه استدعى رئيس أطبائه واستشاره فى أمر هذا الدواء فأعرب له عن شكه وارتيابه لأنه لا يبعد أن يكون هذا الأجنبى مسخراً من قبل دولته الأجنبية لقضاء مأرب سياسى خصوصاً وهو طبيب سفارة .

قال جلالة الشاه وقد كان يرفع صوته أكثر مما تقضى به ضرورة إسماع الجميع : « وقد رأيت أمام هذه النصيحة أن أجمعكم وأستشيركم لتخبرونى برأيكم ورأيت أن أول عمل يجب أن تعملوه هو أن يتعاطى كل واحد منكم جزءاً من هذا الدواء ليجرب تأثيره فى نفسه قبل أن يشير على برأى فيه »

فهتف رئيس الوزارة وسائر الوزراء بحياة جلالته وبدوام الصحة والعافية له وقالوا إنهم يعدون أنفسهم سعداء إذا ضحوا بأرواحهم من أجل جلالته .

عند ذلك أمر الشاه باحضار الدواء من غرفته الخاصة فذهب النديم وعاد يحمل الصندوق على طبق من الذهب

فنادى الشاه رئيس أطبائه وأمره بأن يدور به على الوزراء مبتدئاً برئيسهم ثم بمن يليه فى الدرجة . ويقدم لكل منهم جزءاً منه ففعل ذلك وأخذ كل من الموجودين ما ليس به حاجة إليه من الدواء بمقدار الجرعة العادية التى يتعاطاها لو كان مريضاً

وأخذ جلالته يراقب وجه كل منهم ليعرف الأثر الذى انطبع عليه وهو يتعاطى الدواء ثم دار الحديث عن شئون أوربا ، فسأل جلالته الموجودين أسئلة متعددة فأجابه كل منهم جواباً أكثر ألفاظه فى مديح الشاه والدعاء له

وفى هذه الأثناء أخذ تأثير الدواء يظهر شيئاً فشيئاً وكان أسرعهم تأثيراً وزير المالية الذى كان يفتح فمه ليتكلم بشىء فيعييه الكلام وتظهر على وجهه علائم التعب الشديد فاتجهت إليه كل الأنظار ثم ظهر الاصفرار الشديد على وجه أمين الملك وتلاه وزير الداخلية . وأخذت ترتسم على عينيه علائم التوسل والضراعة لكى يأذن له الشاه بترك المجلس

وبعد قليل ظهرت علامات المرض على سائر الموجودين إلا رئيس الوزارة الذى أخذ يسخر فى نفسه من آلامهم

ولما تبين الشاه تأثير الدواء فى جميع وزرائه أمرهم بمغادرة القصر ثم التفت إلى رئيس الأطباء وطلب إليه أن يحدثه عن هذا الدواء فوجد الرجل هذه الفرصة سانحة وأخذ يصف الدواء بشر الأوصاف مرتكناً إلى ما عاينه الشاه من تأثيره السيء فى وزرائه

قال لى رئيس الأطباء بعد عودته من عند الشاه :

« لقد كان سلطانى كبيراً يا حاجى بابا على جلالته

وسترى فى الغد أن ذلك الطبيب الذى أراد أن يضحك منا سيتعلم الخوف بدلا من السخرية . وسيعلم مَن نحن معاشر الفرس . لقد كان يريد عزلى من خدمة الشاه وأن يتولى علاجه بدلى . ولـكن من لهذا الأحمق بمن يعلمه أننى خلقت لمعالجة الشاه وأن الشاه خلق لـكى أعالجه . إنه يفاخر باختراعاته الحديثة ولكن ما فائدة هذه الاختراعات ؟ هل خلق الله أمراضاً حديثة ؟ إننا نمرض بما كان يمرض به آباؤنا ونعالج بما كانوا يعالجون به وحسبنا ذلك . إننا لن نصف دواء لمريض غير ما كان يصفه ابن سينا لمريض فى مثل حالته

ثم أخذ رئيس الأطباء يستوثق منى لأعينه فى تدابير أخرى على منافسه الطبيب الـكافر كما تبقى له مكانته فى القصر الملكى . ثم أمرنى بالانصراف بعد أن حدثنى بما ضاق به صدره

الفصل الثانى والعشرون

حاجى بابا يتقاضى راتباً من الطبيب

كنت إلى ذلك الوقت أعامل الطبيب الفارسى معاملة الصديق للصديق لا معاملة التابع للمتبوع ، وكان راضياً بهذه المعاملة لأنه كان يسمح لى بالجلوس أمامه وبأن آكل معه وأدخن ولكننى وجدت الاستمرار على هذه الخطة لا يتفق مع ما أرجوه من الكسب ولم أكن قد نلت من ماله غير القطعة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وكانت الظواهر كلها تدل على أنها آخر ما سآخذه منه وإن كانت أول ما أخذته ، فعزمت على أن أكلمه فى الأمر فانتهزت فرصة سروره لانتصاره على الطبيب الأجنبى وأخذت أبث شكايتى إليه

عاد الطبيب فى اليوم التالى من القصر الملـكى ويكاد وجهه ينطق فرحاً وسروراً وقال لى : «ما أكرم صاحب الجلالة وما أرق طباعه ! لقد قابلنى اليوم بالبشر والحفاوة وأثنى على مواهبى ولعن الطبيب الأجنبى ودعانى إلى الشاه» فقلت : « ومن فى البلاد الفارسية أكرم من جلالة الشاه ؟ ومن فى أطباء العالم يضارع ميرزا أحمد ؟ إنهم إن أرادوا أن يستفيدوا علماً وحكمة فعليهم أن يأتوا ليستعلموا منك »

عند ذلك بدت على وجه الطبيب المغرور ابتسامة الرضى . وأخذ يفتل شاربيه ويمسح ذقنه وقلت له : « إن شاء الله جعل لى نصيباً من جاهك وشهرتك فانى بجانبك كقطعة من الحجر ملقاة بجانب الورد فمن الذى ينظر إليها » ؟

قال لى الطبيب : « لماذا تتكلم بهذه اللهجة يا حاجى بابا ولماذا تبدى اليأس ؟ » فقلت له : « هل تأذن لى أن أقص عليك قصة تمثل حالى ؟ »

فلما أذن لى قلت : « كان هناك كلب يشبه فى كل أحواله الذئاب حتى أن الذئاب أنفسها كانت تنخدع فيه وتأذن له بالبقاء فى زمرتها وكان يشاركها فى قتل الخراف وأكل لحومها . ولكنه كان يصير مع الـكلاب كلباً مثلها . ثم لاحظت الـكلاب اختلاطه بالذئاب فنفرت منه . وأدركت الذئاب أنه كلب فصارت تخافه وتتقيه . ورأى الـكلب أنه أصبح منفرداً مهجوراً فلا الـكلاب تقبله فى زمرتها ولا الذئاب تسمح له بالبقاء بينها ، فعزم عزماً أكيداً على أن يترك تقلبه ويقرر واحداً من اثنين فاما أن يصير كلباً وإما أن يصير ذئباً — أنا أيها الطبيب مثل هذا الـكلب فانك تسمح لى بأن أجلس معك وأدخن وآكل كأنك لست أعلى منى منزلة ، وأنت تستشيرنى وتركن

إلىّ كأنى واحــد من أصدقائك . ولكن ليس فى أصدقائك من يكاد يقتله الجوع غيرى . ولست أستفيد من صداقتك كما تستفيد أنت منى؛ فأرجوك إما أن تصرفنى عنك فلا تعود إلى طلبى، وإما أن تجعل لى راتباً؛ فإن الشاعر عسكر خان قال لك عنى إنى أريد عملاً أكتسب منه ولم يقل إنى أريد صديقاً »

قال لى الطبيب : « أجعل لك راتبا ؟! أنا لم أعط راتباً قط لواحد من خدمى ولكنهم يأخذون ما يستطيعون : خذ من المرضى الذين يأتون لعيادتى كما يفعلون . ولكننى أعطى كل واحد من أتباعى ثوباً جديداً فى عيد النوروز فــاذا تريد منى أكثر من ذلك » ؟

وفى هذه اللحظة جاء رسول من قبل الملك يحمل هدية إلى الطبيب فوقف الطبيب وقفة الذى أصيب بالتشنج وهتف بحياة الشاه . ثم أخرج من جيبه قرشين (القرش عند الفرس يعادل نصف ريال مصرى) وأعطاها لحامل الهدية فرفض أن يأخذها بعزة وإباء، ودفع طوماناً فرفضه كذلك، ولم يزل يزيده حتى عرض خمسة طومانات فقبلها وخرج غير شاكر لأن من حق الرسول الذى يحمل هدية أن يأخذ لنفسه مقداراً من المال قد يكون أكبر قيمة من الهدية نفسها

ولــا ابتعد ذلك الرسول استولى الغضب على الطبيب فقال كلمات لو بلغت سمع الشاه لأذاقه الويل

وكان ممــا قاله : « أهدية هذه ؟ إنها لا تليق بمرسلها ولا بمن أرسلت إليه . انظر يا أخى ماذا بعث به الشاه ! إنه بعث إلى بطبق من الطعام فمن الذى أخبــر جلالته أنى جائع ؟ إن قيمة الهدية لا تعدل فعل هذا ما دفعته لرسوله . جزاءً ؟ هل هذه مكافأتى؟

لقد صدق السعدى حين قال : « لا تثقوا بصداقة الملوك ولا بأصوات الأطفال، فان صداقة الملك تتغير بين يوم ويوم، وصوت الطفل يتغير بين ليلة وليلة »

وهنا تنبه الرجل إلى أنه قال ما ليس ينبغى أن يقال . وغلب خوفه من أن يجلد على حزنه على ضياع الطومانات فسكت مقطباً

ووجدت أن الفرصة ليست سانحة لاستئناف الحديث الذى تكلم فيه فأجلته إلى فرصة أخرى واكتفيت بألا أكون كلباً ولا ذئباً

الفصل الثالث والعشرون

حاجى بابا يحب

زاد سخطى على حاضرى وشكى فى مستقبلى، وكانت أيامى ولياليّ تنقضى بلا عمل، ولم تبق بنفسى رغبة فى تعلم صناعة الطب، ورأيت أملى فى ميرزا احمد يضعف شيئاً فشيئاً حتى عزمت على تركه لولا مصادفة لم تكن منتظرة أرجعتنى عن هذا العزم

وكانت هذه المصادفة أننى رأيت فتاة فاستولى حبها على قلبي حتى صرت أعتقد أن « المجنون » فى أشد حالات جنونه لم يكن أكثر تعلقاً بليلاه منى بتلك الفتاة

مضى الربيع وجانب من فصل الصيف ودفعت الحرارة أكثر الناس إلى ترك مساكنهم فى داخل الدور وفرش السجاجيد فوق الأسطحة ليناموا عليها؛ وكنت أكره أن أقضى الليل مع الخدم والطباخ، وهم يناءون عادة بغرفة فى الدور الأرضى فنمت فى شرفة تطل على الجزء الداخلى من منزل الطبيب وهو الذى تقيم فيه السيدات

كان الجزء الذى تطل عليه هذه الشرفة حديقة

حولها غرف تكاد تكون منفصلة عن سائر المنزل يدعونها « مسكن الحرم » وكان مغروساً في هذه الحديقة أنواع الفاكهة والورد والياسمين، وكان لأسقف هذه الغرف حواف ممتدة تظلل جزءاً كالاطار حول هذه الحديقة، وفي هذه الظلال كان يجلس من في المنزل من السيدات على سجاجيد فارسية بديعة الصنع مفروشة فوق إفريز خشبي مربع أمام أبواب الغرف

وكنت قد رأيت عدداً من سيدات القصر ولكن ليس فيهن مثل التي رأيتها أخيراً، ولو كنت أعرف أن فيهن مثلها لتجنبت النظر إلى مكانهن حتى لا أقع في حبائل عينيها الساحرتين

وكان من سوء حظي أنهن رأينني وأنا أطل عليهن في اليوم الذي وقع نظري فيه على الفاتنة فصرخن وزجرنني ولقبنني بأقبح الألقاب وأقساها، ولكنني بعد هذه المرة لم أكف عن الاطلال عليهن وصرت أكثر حذراً من أن يرينني كذلك وهن مجتمعات

وكانت الفتاة التي ملكت على قلبي مشاعره طويلة الشعر تنسدل على جبينها خصل منه وتخفي بعض وجهها في حين أن الأعين التي تراها شديدة الظمأ إلى التحلي بكل جزء من محاسنه

وكانت يداها صغيرتين مخضوبتين بالحناء وقدماها كذلك، فقد رأيتها وهي في منزلها تمشي حافية. وظللت أنظر إليها حتى فقدت سيطرتي على نفسي لما استولى علي من الاعجاب فتحركت حركة نبهتها فنظرت إلي ووضعت النقاب على وجهها فرأيت أجمل صورة يمكن أن يتصورها إنسان ثم قالت بلهجة رقيقة وأدب بارع : « لماذا تنظر ؟ أليس هذا عيباً ؟ »

فقلت : « أستحلفك بحق الحسين ألا تطرديني. إن الحب ليس جريمة وإن عينيك سحرتا قلبي. بحق أمك التي حملتك ارفعي النقاب عن وجهك لأنظر إليه مرة أخرى »

قالت بلهجة أرق من الأولى وبصوت أعذب : لماذا تستحلفني على ذلك ؟ أليس من الحرم على السيدات أن يكشفن وجوههن أمام الرجال الأجانب؟ إنك لست أباً ولا أخاً ولا زوجاً ولست أعرفك . ألا تخجل من مخاطبة أجنبية عنك ؟ »

وفي هذه اللحظة وقع نقابها كأنما كان وقوعه مصادفة ورأيت وجهها أجمل من قبل، وكانت عيناها سوداوين واسعتين وأهدابها طويلة . وكان حاجباها مقوسين تقويساً بديعاً متصلين فوق الأنف اتصالاً مغرياً فاتناً .

وكان أنفها أقنى صغيراً ، وفمها ضيقاً رقيق الشفتين عليه ابتسامة عذبة، وفي وسط ذقنها « غمازة » لطيفة ، ولم أر في حياتي شيئاً أجمل من شعرها الأسود وغدائرها الطويلة المنسدلة على ظهرها ؛ وقد كانت في الجملة مثالا للجمال والرقة . وفهمت عند رؤيتها أشياء كثيرة كنت قد قرأتها ولكني لم أفهمها من قصائد الشعراء ، وعرفت أنني أستطيع أن أنظر إلى وجهها إلى الأبد دون أن أشعر بشيء من الملل . ولكن نشأ بنفسي شعور قوي يدفعني إلى تسلق الجدار ولمس جسدها الغض ، وكدت أفعل ذلك لولا أن سمعت صوتاً يناديها باسم (زينب) وكان هذا الصوت عالياً حاداً كرره قائله دلالة على فقدان صبره ، فذهبت ، وبقيت في مكاني مدة طويلة منتظراً عودتها، وأصغيت على أسمع صوتها وهي تكلم من كان يناديها ، وقد ظهر لي أن هذا الصوت هو صوت زوجة الطبيب التي لم تكن من السيدات

الراقيات الرقيقات . وتمكنت من إخضاع زوجها لها كل الخضوع .

وانتهى النهـار وكنت على وشك العودة إلى فراشي فسمعت صـوت تلك الزوجة ينادى : « يا زينب ! يا زينب ! إلى أين تذهبين؟ لماذا لم تذهبي إلى فراشك ؟ »

ثم سمعت صوت الفتاة يجيبها، ورأيتها بعد ذلك تدخل الغرفة التي كانت بها في أثناء النهار ولكنها لسوء الحظ لم تمكث طويلاً حتى أمتع عيني برؤيتها بل أخذت سلة كان فيها بعض الفواكه التي جمعتها من الحديقة وخرجت من الغرفة وقالت لى بصوت خافت وهي تغادر الغرفة : « تعال في مساء الغد » فجرت عذوبة صوتها في دمائي وشعرت باحساس لم أشعر به من قبل واهتزت أو صالي كما تهتز أو صال المحموم، وذهبت بعد ذلك إلى فراشي فساورتني الحمى إلى أن طالعتني الشمس في الصباح

الفصل الرابع والعشرون

حاجى بابا يقابل زينب

عرفت في النهاية أنني وقعت في حبائل الحب وقلت في نفسي : « سأعرف الليلة من هي التي أحبها، وإذا كانت من أسرة الطبيب فليهدم منزله على رأسه إذا أنا لم أعلم كيف يكون شديد الرقابة على أهل ذلك المنزل

أما من حيث زواجي بها فان ذلك أمر لا يخطر بالبال . ومن ذا الذي يرضى أن يزوجني ؟ إنني لا أملك ما أشترى به حذاء فكيف أحصل على تكاليف الزواج ؟ ولكن إن شاء الله فسأصبح قادراً على الزواج في يوم من الأيام . ومن هـذا الوقت إلى أن يرزقني الله مالا فسأمتع نفسي بلذات الحب، وإذا اقتضى الأمر تحمل غرم فليتحمله الطبيب بالنيابة عني .

وقبيل الوعد لبست ثيابي وتأنقت أكثر من العادة ورجلت شعرى بعناية شديدة وأتقنت ربطة الحزام وأملت عمامتي إلى جانب رأسي وخرجت من البيت قاصداً الحمام .

وبعد الاستحمام تعطرت وقضيت جانباً كبيراً من وقتي في الغناء ومشيت في المدينة بلا قصد غير قطع الوقت حتى يحين الموعد

وأخيراً انتهى النهار وكان صبرى يقـل شيئاً فشيئاً ، وكان من سوء حظى أن الطبيب تأخر عند الشاه، ومن أجل ذلك لم ينم الخدم مبكرين كعادتهم فقد كانوا مضطرين إلى انتظاره حتى يفرغ من طعامه لـكي يتعشوا بفضلات مائدته . ولهذا السبب لم أستطع الذهاب إلى زينب في الموعد المحدد

ولما هدأت أنفاس النائمين وسطع نور البدر ذهبت إلى النافذة وكان معين الصبر قد غاض . ولما استوثقت من أنه لن يراني أحد أطللت من النافذة فرأيت بهـا أوراق التبغ الخضراء وإلى جانبها سلة بها جزء مرتب من هذه الأوراق وسائرها غير مرتب في الغرفة فعرفت أن زينب كانت ترتبها ولكنها لم تتم عملها

درت بعيني في أرجاء الغرفة فلم أجد الفتاة وتنحنحت مرتين فلم أسمع جواباً ثم سمعت زوجة الطبيب تتـكلم همساً ولكن حدة صوتها جعلته يخترق الحوائط ويصل إلى مسمعي، ولم أتبين في مبدأ الأمر موضوع الحديث ولـكنني في النهاية سمعتها تقول بصوت واضح : أتتكلمين عن الشغل يا بنت

الشيطان ؟ لماذا ذهبت إلى الحمام ؟ أى شأن لك فى المقابر ؟ لماذا لم يتم عملك ؟ لا تأكلى الليلة ولا تشربى ولا تنامى حتى يتم . إذهبى فى الحال وإذا لم تتميه فوالله وبالله لأضربنك على قدميك حتى تسقط أظافرك »

وبعد ذلك سمعت صوت لطمات فعرفت أن زوجة الطبيب هى التى كانت تكلمها . وبعد قليل رأيت فاتنتى تدخل الغرفة مطرقة مكسورة الخاطر . ولقد كنت أتمنى أن أراها فى هذه اللحظة فى أسعد الحالات وأرغدها

قلت فى نفسى : « ما أعجب الحب ! إنه يشحذ الذهن ويقوى الذكاء . ونظرت فى الغرفة فأدركت أن بها مكاناً أستطيع الاختباء فيه ومساعدتها فى العمل حتى يتم وأستطيع أن أقضى الليلة معها دون أن يشعر بنا أحد . ورأتنى الفتاة مطلاً من النافذة فلم تظهر أنها اهتمت حتى تهدأ العاصفة التى أثارتها السيدة . ثم لما ساد السكون بعد مدة دنت من النافذة ، وبعد لحظة كنت معها فى داخل الغرفة

ولست أشك فى أن الذين جربوا الحب من القراء يقدرون اضطرابنا فى هذا الموقف الذى لا يمكن وصفه

وعلمت من فتاتى أنها بنت زعيم من زعماء الأكراد وأن أباها سجين وهى لا تزال طفلة وأن سوء حظها جعلها جارية فى هذا المنزل . وبعد أن تبادلنا وصف ما يشعر به كلانا نحو الآخر أخذت تبثنى ما تجده من سوء معاملة السيدة ، وقالت لى إنها تشعر بأنها فى هذا المنزل أذل من الكلب ، فكل إنسان يسخر بها حتى ماتت نفسها ، وأن الاسم الوحيد الذى تنادى به بينهم هو بنت الشيطان . وقالت :

« أنا كردية من اليزيديين والناس يزعمون أننا نعبد الشيطان ، ولكن الحقيقة ليست كذلك وإنما نحن نخاف الشيطان ، وأى إنسان لا يخافه ؟ إننى أود أن أرى تلك السيدة بين الجبال لكي أريها ماذا تستطيع الفتاة الكردية أن تفعل »

حاولت بكل قوتى أن أعزيها وأن أقنعها بالصبر حتى تتهيأ لها فرصة للانتقام ، فقالت لى إنها يائسة من سنوح الفرصة لأنها مراقبة أشد المراقبة وأنها لا تكاد تنتقل من غرفة إلى أخرى إلا بإذن سيدتها

وقالت لى : إن هذه السيدة كانت من جوارى الشاه وإن الطبيب تزوجها بأمر من جلالته واضطر بتأثيرها إلى ترك زوجته الأولى ، وأن هذا الطبيب من أسرة وضيعة وأنه يعانى آلاماً شديدة من سوء أخلاقها وشدة كبريائها كأنما كانت تعد نفسها فى ماضيها سيدة من سيدات القصر الملكى لا جارية من جواريه ، وأنها لا تفرق فى المعاملة بين زوجها وبين الحيوان وتطالبه بالخضوع والتسليم فى كل شيء . وأن الطبيب لا يجرؤ على الجلوس أمامها حتى تأذن له ، وهى فضلا عن ذلك شديدة الغيرة ترتاب فى علاقة زوجها بكل جارية ، وأن الطبيب يغافل زوجته ويستثمر الضعف الانسانى فيقضى وطره من كل خادمة جميلة

وقالت لى زينب إنها هى نفسها موضع حبه وإعجابه وإن سيدتها لذلك تغار منها ولا تتركها تتحرك أقل حركة دون أن تراقبها أشد المراقبة ، وقالت لى إن جو البيوت التى وصفها كهذا الوصف جو دسائس

ولما كنت لا أعرف من نظام البيوت الفارسية إلا ما علق بذهنى من ذكريات منزلى وقد فارقته وأنا صغير — فقد كنت أصغى إلى الفتاة فى اهتمام

شديد ، وكان مما قالته أن الحرم في هذا المنزل يتكون من خمس سيدات غير زوجة الطبيب وهن : شيرين الرقيقة الشركسية ، ونور جيهان (نور العالم) الرقيقة الحبشية، وفاطمة جارية المطبخ، وليلى خادمة الايوان، وزينب وصيفة السيدة ، واسم هذه السيدة هانم

وعمل الوصيفة أن تصنع لها القهوة وتمد النرجيلة وتذهب معها إلى الحمام وتساعدها على لبس الثياب؛ وأما شيرين الشركسية فهي أمينة المنزل وهي تعنى بثياب السيد والسيدة وسائر الأتباع وتحفظ حاجة المنزل في العام من القمح وسائر المؤونة وفي عهدتها نفقات المطبخ وأدوات الزينة

أما نور جيهان فهي فراشة البيت وهي تنظف السجاجيد وتكنس السلم وتساعد الطباخة وتحمل الطعام وتفعل ما يأمرها بها كل من في المنزل

أما ليلى فانها عجوز تشترى ما يلزم من السوق وتحمل رسائل السيدة إلى صواحبها وتتجسس لها على السيد

قالت زينب : « ونحن نقضي أيامنا في الخلاف بيننا على كل شيء ، وكل اثنتين منا تتحالفان على الأخريات . والخصومة الآن شديدة بيني وبين الشركسية لأنها وجدت في العهد الأخير عناية السيد تنصرف عنها إلى ، ويظهر أنها تدس لي الدسائس عند السيدة لأني أجد السيدة كلما أساءت إلى أحسنت إليها ، وهذه الفتاة شديدة الغيرة مني وقد أحضرت في العهد الأخير حجاباً من أحد الدراويش . ولما رأيت حسن تأثير الحجاب أحضرت حجاباً من درويش آخر لكي يرزقني الله زوجاً صالحاً . ولم أكد أحمل هذا الحجاب يومين حتى رأيتك تطل على من النافذة فعرفت أن الله قد استجاب دعوتي. وأنا الآن على اتفاق مع نور جيهان الحبشية وقد أخبرتني بأن شيرين تدبر لي مكيدة عظيمة ولذلك أحتاط كل الاحتياط من كل ماء أو طعام أعرف أن يدها امتدت إليه خوفاً من أن تضع لي السم فيه . وقد أرادت أن تبدأني بالشر في هذا الصباح فقالت لي : « لعنة الله على الشيطان » وهذه العبارة إهانة عظيمة للزبديين فغضبت وأمسكت بشعرها فانتزعت خصلة منه ، وأخذنا نتشاتم حتى جفت حلوقنا ولست أعرف ماذا تكون نتيجة هذا الشجار عند ما يعلم سيدى الطبيب »

استمرت زينب تحدثني هذا الحديث حتى انبلج الفجر وسمعت صوت المؤذن فاستعددت للخروج واتعدنا على أن نتقابل كلما سنحت فرصة وجعلنا العلامة بيننا على إمكان المقابلة أن تعلق قطعة من القماش على شجرة فأعرف أنها مستعدة لمقابلتي

الفصل الخامس والعشرون

الحبيبان يلتقيان مرة أخرى

في مساء اليوم التالي ذهبت إلى الشرفة وأطللت على حديقة الحرم آملا أن أرى قطعة قماش معلقة على شجرة ، فلم أرها ولم أسمع صوت زوجة الطبيب ذلك الصوت الذي أصبحت أتفاءل به . ولم أجد في الغرفة سلة التبغ ولم يكن في المنزل علامة على أنه مأهول غير وجود ليلى

وبقيت في مكاني حتى دق الجنود طبولهم ليغلق الباعة حوانيتهم وينصرفوا إلى منازلهم . وكان الصمت سائداً في كل مكان

قلت في نفسي : « لا أظن أن سيدات المنزل في الحمام لأن الساعة كانت متأخرة فلعلهن في حفلة زواج أو عند أسرة يكون أحد أفرادها مريضاً، وصرت أعصر ذهني لأفترض الفروض حتى سمعت فجأة صوت الباب يفتح ، وتلت هذا الصوت أصوات

نسائية فعزمت على البقاء لعلى أنعم منها بحديث مثل حديث الأمس

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهرت زينب ومشت نحوى على أطراف الأنامل لتخبرنى أن الظروف لا تسمح بمقابلتها الليلة ولكنها ستنتهز فرصة قريبة لتدعونى إلى مقابلة أخرى ، وأخبرتنى أن سيدتها ذهبت إلى القصر الملكى بأمر من الشاه لتعنى بسيدة مريضة فيه ، وأن الظنون فى مرضها أنه نتيجة لدس السم لها فى الطعام من سيدة أخرى فى القصر

وقالت لى زينب : « إنه لاينتظر أن تعيش تلك السيدة ولذلك فنحن نستعد لاقامة المآتم وستهدى إلى كل واحدة منا ثياب ومناديل سوداء » ثم ودعتنى وأكدت على ألا أنسى العلامة المتفق عليها بيننا

وفى الصباح التالى وجدت زينب تنظر من النافذة وتشير إلىّ بالدنو منها فدنوت غير متردد ودخلت غرفتها كما دخلت فى المرة السالفة وقد تملكنى الخوف فى هذه المرة ، وكدت أهم بالعودة لولا تشجيع الفتاة لى بابتسامة ، وقالت لى : « لا تخش ياحاجى بابا فليس هنا أحد غير حبيبتك زينب وإذا لم يعاكسنا الحظ فسنبقى معاً طول النهار »

فقلت : « ولكن ما هذه المصادفة العجيبة ، أين سائر السيدات وأين الطبيب ؟ »

قالت : « لا تخش شيئاً فانى أغلقت جميع الأبواب وإذا جاء أحد فسيكون لديك متسع من الوقت للفرار قبل أن أفتح له الباب وقد ذهب جميع السيدات إلى المآتم ، وقد دبرت السيدة الشديدة الغيرة أمراً لابعاد الطبيب حتى لا يأتى إلى المنزل فى غيبتها وأنا موجودة فيه »

وقالت : « يجب أن تفهم يا حاجى بابا أن نجم حظنا من أسعد النجوم وأن الساعة التى التقينا فيها كانت ساعة مباركة . وقد خدمتنى شيرين الشركسية من حيث لا تعرف لأنها أرادت منعى من دخول القصر الملكى حتى لا أنال المنحة التى يعطونها فى العادة لمن يحضر المآتم من النادبات ، فأفهمت السيدة أنى لا أحسن الندب وأنه لا فائدة من وجودى فى المآتم . وأننى فضلاً عن ذلك لا أعرف عوائد الايرانيين لأنى كردية فوجودى فى الأوساط الراقية يجعلنى وسيدتى منتقدتين . وأفهمتها أن ليلى خير من تقوم بواجبها فى المآتم فخلفتنى على مرافقتها . وعلى هذا ذهب الجميع إلى المآتم وبقيت وحدى فى المنزل لحسن حظى حتى أتمكن من رؤيتك . ولكننى تظاهرت بالغضب وعارضت فى ذهاب ليلى من حيث كان الواجب أن أذهب »

ثم خرجت زينب لتعد لى طعام الافطار وتركتنى أهتدى بنفسى إلى داخلية الحرم فذهبت أولا إلى غرفة « المنام » ووجدتها غرفة واسعة وقد غطى بابها الذى على الحديقة بستار رقيق وفى صدرها نمرقة عليها سجادة سميكة مطوية طيتين ، وتحت هذه النمرقة وسادة مربعة عالية مغطاة بالحرير المزركش بالذهب ، وبالقرب من النمرقة مرآة فى إطار مزركش وأمامها أدوات الزينة من المكحلة إلى المرود إلى الخضاب والمقص وغير ذلك ، وبين هذه الأشياء إناء صغير به أحجبة متعددة .

وفى جانب من الغرفة سرير عليه ملاءة زرقاء وعلى الحوائط صور كثيرة فى إطارات مختلفة الأشكال والألوان وفى أحد الأركان زجاجة كبيرة من النبيذ الشيرازى

قلت فى نفسى : « كيف يدعى هذا الطبيب الصلاح والتقوى مع وجود الخمر فى منزله ؟ »

وعزمت أن آخذ هذا العيب الذى عرفته عنه

سلاحاً أحاربه به عند الضرورة

وقبل أن أعاين سائر الغرف عادت زينب بطعام الافطار واخترنا غرفة السيدة مكاناً لتناول طعامنا . ولم أتناول قط فى حياتى ألذ من هذا الطعام وهو مكون من طبق من الأرز ولحم مشوى وقاوونة فارسية مقسمة إلى أجزاء مستطيلة كنا نتبلغ بها فى أثناء الطعام كعادة الفارسيين ، وطبق من العجة وآخر من الجبن ، وخوخ ومشمش وأنواع من الحلوى والعسل

قلت لها : « خبريني بحق أمك عليك كيف تمكنت من إعداد هذا كله فى هـذه المدة اليسيرة ؟ إن الطعام يصلح لمائدة الشاه »

فقالت : « لا تظن أنى أحضرت ذلك الآن فان السيدة أمرت قبل ذهابها باعداد الطعام فأعد هذا الافطار ثم غيرت رأيها وفضلت أن تأكل فى بيت الشاه فتركته »

فأكلنا ما طاب لنا وتركنا قليلاً لمن عسى أن يسأل عنه من خدم المنزل . وبعد أن غسلنا أيدينا جاءت زينب بزجاجة النبيذ وكسرنا كأساً ليكون ذلك عهداً بيننا على دوام الحب وهنأ كل منا الآخر بأنه أصبح أسعد الناس . واستولت على نشوة الحب فرفعت عقيرتى وغنيت أبياتاً رقيقة من شعر حافظ الشيرازى فأقسمت لى زينب وهى منتشية نشوتين أنها لم تسمع قط صوتاً أطرب من صوتى . ونسيت لشدة سرورها أنها ليست إلا جارية رقيقة ، ونسيت لشدة سرورى أنى فقير ، وصورت لهـا الخمر كما صورت لى أن سعادتنا دائمة أبدية ، وغنت ثم غنيت كل منا بدوره والخمر فضاحة الأسرار كما يقولون فطلبت إلى زينب أن تقص علىّ تاريخها فلم تمتنع عما طلبت وأخذت تقص علىّ قصتها منذ البداية .

الفصل السادس والعشرون

قصة زينب الكردية

قالت : « أنا بنت زعيم كردى يدعى أوخوس أغا ولست أعرف من هى أمى ولـكننى نشأت فى منزل أبى بين نساء كثيرات لم تشعرنى واحدة منهن بعطف خاص يدل على أنها الأم . ولكنني لما كبرت سمعت أن أمى كانت غريبة وأنها ماتت فى صغرى

وكان أبي مولعاً بالخيل حتى أن أول شيء أذكره فى طفولتى هو موت مهر له وإقامته مأتماً له

وأنت تعرف أن الأكراد لا يعترفون بأية سلطة أو سيادة عليهم ، وقد كان أبى كسائر الأكراد لا يحترم الدولة العثمانية ، ولذلك اغتصب قطعة كبيرة من الأرض مملوكة لباشا بغداد وجعلها مرعى لمواشيه وغنمه ؛ وكان يكلف القبائل المجاورة أن تقدم لمواشيه المؤونة فكانت تخضع مكرهة خوفاً من سطوته وإحراقه زرعها أو تسميمه المواشى

وكان الباشا يتقى شره ، فبدلا من أن يغنمه أو يحاربه كان يتودد إليه ويرسل إليه الهدايا ويتغاضى عن كل إساءاته

وكان أبي طويل القامة عريض الكتفين تبعث هيئته على الهيبة والخوف ، وقد قتل أشخاصاً عديدين ومن أجل ذلك كان يعلق خصلاً كثيرة من الشعر على أعلى رمحه لأن من عادة الفرسان التركمانيين أن يقطع أحدهم خصلة من شعر كل قتيل يقتله فيلصقها على رمحه وأنا إن نسيت شيئاً فلست أنسى الجلالة والعظمة المرتسمتين على وجهه عند ما يكون ممتطياً جواده بين الفرسان أتباعه الخاضعين له أتم الخضوع والذين تتوهج أسنتهم وسيوفهم فى ضوء الشمس كلما هموا بغزوة

وكان أبى رجلا يقدر الأمور حق قدرها ، ويعمد إلى الحكمة بالرغم من استطاعته تنفيـذ كل

الذي يريده بالقوة . ومن أجل ذلك لم يزدر صداقة الباشا بل أراد الانتفاع بها . كذلك كان الباشا حكيما فلم تخف عليه هذه الرغبة عند أبي وصار يستعين به في تأديب القبائل

وحدث في ذلك الوقت أن جماعة من الوهابيين ثاروا على الحدود فاستعان الباشا بأبي على تأديبهم واشتركت جيوش الحكومة مع جيش الأكراد في هذه الحملة، وقد تمكن أبي من قتل الزعيم الوهابي بيده في أثناء المعركة

وأخذ أبي جواد الزعيم الوهابي فأرسله إلى معسكر الأكراد ، ولقد كان هذا الجواد عربياً أصيلا يحسد مالكه عليه ، ولو علم الباشا به ما تركه لأبي بأي حال من الأحوال

وأخيراً تقهقر جيش الوهابيين المغلوب وعاد الأكراد إلى الجبال ، وفي يوم من الأيام فوجئنا بزيارة مندوب من قبل الباشا ومعه عشرة من الجنود مدججون بالسلاح . وكان هذا المندوب هو المرياخور فأكرمه أبي وأدى له جنودنا التحية ثم أخذت جياد المندوبين إلى المرعى وذبحت الذبائح وقدم لهم الطعام. وبالجملة فقد بذلنا كل ما يستطيع بذله من واجب الضيافة أناس مثلنا من الرحل القاطنين في الخيام

وقد أدرك أبي منذ رأى ضيوفه مقبلين كنه المهمة التي جاءوا من أجلها ، وأمر ابنه بأن يأخذ الجواد الذي كان للزعيم الوهابي إلى جهة مجاورة حتى يصدر إليه أمر آخر

ولما كانت جماعتنا جبلية فقد كان من السهل على أي رجل أن ينتقل من مكان إلى مكان دون أن يشعر به الموجودون معه . وإني لأذكر الحوادث التي سأذكرها لك كما لو كانت حدثت بالأمس فقط

كنت أطل على المكان الذي اجتمع فيه المرياخور وأبي واثنان من الأتراك الموفدين من قبل الباشا، وكان هؤلاء الضيوف جالسين في صدر الخيمة وأبي أمامهم جالس جلسة تدل على إكباره لهم وتواضعه في حضرتهم

قال أبي: «مرحباً بكم ! أسعدتمونا بتشريفكم»

فقال المرياخور : « لقد كان من حسن حظي أنني انتدبت لمقابلتك فاني مشتاق إليك وقد مضى زمن طويل على آخر مرة تلاقينا فيها »

وأخذا يتبادلان مثل هذه التحايا وكان كل من بالخيمة يدخنون في هذه الأثناء حتى امتلأت الخيمة بالدخان

ثم قال المرياخور : « إن مولاي الباشا أرسلني إليك لأبلغك تحيته وأقول لك إنه يحبك ويقدرك وإنه يعدك من أقدم أصدقائه وإنه يحب الأكراد ويصادق أصدقاءهم ويعادي أعداءهم »

فقال أبي : « أبلغ الباشا أني لست إلا عبداً من عبيده، وأنه قد شرفني أكثر مما أستحق، وإني أحمد الله على المودة التي عقدت بيني وبينكم. إننا نعيش في أمن مستظلين بظل الباشا وقد أصبحنا لا نعرف الخوف »

وبعد لحظة ساد فيها السكوت قال المرياخور : « الغرض من زيارتنا يا أوخوس أغا هو إبلاغك أن الوهابيين أرسلوا إلى الباشا يطالبونه برد الجواد الذي كان يركبه زعيمهم الذي قتل في الحرب وأنهم لا يقبلون فداء غير رأس الباشا أو ابنه لأنهم يزعمون أن هذا الجواد من نسل الجواد الذي هاجر به النبي من مكة إلى المدينة . وقد قال رسل الوهابيين إنهم جمعوا جيشاً وسيحاربون حتى ترد إليهم جوادهم أو يهلكوا عن بكرة أبيهم. ويقول لك الباشا إن الناس كلهم علموا بوجود هذا الجواد عندك وإنه يريد أن يرد لهم الجواد ومن أجل ذلك أرسلني إليك راجياً أن تسلمه إلي »

فقال أبي : « والله وبالله وبحق الخبز والملح الذي أكلته مع الباشا لقد كذب الوهابيون وليس عندي الجواد الذي يريدونه ، وكل ما في الأمر أنني غنمت

جواداً مريضاً غير أصيل فبعته لأحد الأعراب فى اليوم التالى لحدوث الموقعة ولا يزال عندى سرج هذا الجواد ولجامه ، وأنا مستعد لاعطائهما لك . أما الجواد نفسه فليس عندى »

قال المرياخور : « الله الله ! هذا أمر كبير الأهمية يا أوخوس أنا وأنت رجل محترم ونحن أناس محترمون فلا تحاول الضحك على ذقوننا ، وإذا لم تأت بالجواد لنرده إليهم فانهم سيحاربوننا حرباً تموت فيها كل جيادنا وستنتهى الصداقة التى بينك وبين الباشا فأستحلفك برأس أبيك أن تأتى بالجواد ولا تعرضنا ونفسك لحرب مهلكة »

قال أبى : « أيها الصديق ما الذى أقوله لك ؟ إن الجواد ليس عندى ، وإن الوهابيين كاذبون ، ولم أقل لك غير الصدق »

ثم دنا من المرياخور وأخذ يتكلم معه همساً فلم أسمع حديثهما ولكنى وجدتهما متفقين فى نهاية هذا الحديث وقال المرياخور بصوت عال: « إذا كان الأمر كذلك ولم يكن الجواد لديك فان الله كريم والمرء لا يستطيع أن يغالب الأقدار وعلينا أن نعود إلى بغداد »

وقف أبى ثم خرج تاركا ضيوفه يدخنون ويشربون القهوة . وجاء إلى خيمة السيدات فأمر بالطعام الذى كان يعد فى ذلك الوقت لضيوفه وأخذ من إحدى نسائه كيساً فيه نقود ذهبية فوضعه فى حزامه ثم عاد إلى ضيوفه

ولم يدر حديث طويل فى وقت الغداء ولكنهم كانوا يتكلمون قليلا عن الخيول والكلاب والأسلحة

وكان الطعام طبقاً كبيراً من الحساء وقصعة بها أرز وثريد وحمل مشوى . وكان عدد الجالسين على المائدة خمسة عشر وهم رئيس الوفد التركى وأتباعه العشرة وأبى وثلاثة من أتباعه

وكان فى يد كل منهم ملعقة خشبية، وما هى غير دقائق حتى نفد الطعام لأن الجميع كانوا يأكلون بشهوة قوية . ثم جىء بقصعة من الأرز فالتهموها بأصابعهم وقال كل منهم : « الله بركات فارسن » أى أسأل الله أن يديم نعماءه

ثم خرج أبى مع المرياخور من الخيمة وتكلما بصوت خافت ولكن لقربهما من الخيمة التى كنت أنا فيها ولالتصاقى الشديد تمكنت من سماع ما دار بينهما من الحديث

قال أبى: « إن كل ما أستطيع أن أدفعه لك هو عشرة جنيهات ويا ليتنى كنت أملك أكثر من ذلك »

فقال المرياخور : « هذا مستحيل وأنت تعرف ماذا سيكون إذا لم تدفع لى ضعف هذا المبلغ . إن الباشا سيأمرنى بالعودة للقبض عليك لعدم حصولى على الجواد. بل هو قد أمرنى بألا أعود إلا بالجواد أو بك، ولكن إذا دفعت لى عشرين جنيهاً فانى سأسهل الأمر عليك وأنجيك . فاختر يا صاحبى لنفسك ما تراه »

فأخرج أبى كيس النقود من حزامه ودفع له عشرين جنيهاً فأخذها المرياخور وأظهر علائم الرضى وقال لأبى : « لقد أكلنا الآن خبزاً وملحاً فنحن أصدقاء ووجب على أن أتدخل إذا أراد الباشا سوءاً بك ولكننى أشير عليك بأن ترسل إليه هدية وإلا صعب على التوسط عنده »

فقال أبى : « أهدى إليه هدية تليق به على العين والرأس فان لى كلباً ذاعت شهرته فى كردستان يلحق بالوعل السريع ويندر وجود مثله عند الملوك فهل يقبل هذه الهدية ؟ »

فقال : « إنها تليق من وجهة واحدة ولكنها لا تكفى إذ يجب أن تذكر ما ينشأ عن رضى الباشا عنك »

فأجاب أبى : « إذن لقد خطر ببالى خاطر هو أن أرسل إليه بنتى ذات الوجه المشرق الوضاء

والقوام الأهيف البض والخصر النحيل ، التهب قلبها بحرارة الشباب ، فقل له ولو أنه يرى أن اليزيديين غير مؤمنين إلا أنه قد يهوى امتلاك جبلة تغار منها حور الجنة ، وأنا على استعداد لارسالها معك »

فصفق المرياخور بيديه من فرط سروره وقال : « عفارم ! عفارم ! لقد أصبت وأحسنت وسأعرض الهبة وسيقبلها ولا شك وسيكون لك منها صديق فى قصر الباشا تعتمد عليه وينجدك فى الأزمات ويقيك شر ما تخاف »

وعلى ذلك اتفقا . وأما أنا فقد تركت مكاني الذي كنت أنصت منه لأفكر فيما سيكون من مصيرى ، وقد ملت أولاً إلى البكاء وندبت سوء حظى . ولكننى بعد قليل من التأمل والتفكير قلت : « هل أكون زوجة الباشا ؟ هل ألبس الحرير وأحلى فى الحفلات ؟ إن سرورى بذلك لا يقدر وسيغبطنى كل بنات الجبال »

وبعد قليل من الزمن كنت أنظر من الخيام إلى الفضاء الفسيح فأرى المرياخور فى أحسن حلة ومعه أتباعه وكلبه وهم يسيرون إزاء سلسلة التلال التى تحيط بمعسكرنا ، وسمعت والدى يبدى شكره وامتنانه لأنه تخلص من هؤلاء الزائرين . ولما غاب القوم عن النظر أرسل والدى أحد رعاة غنمه إلى ابنه بالجبل يأمره بارجاع الجواد . ولما أمن على الجواد فى الخيام جمع رجال قبيلته المسنين من أقاربه وأقرباء زوجته والنازلين بجوارنا وشرح لهم الحالة التى أصبح فيها ، وبين لهم أن هلاكه وهلاكهم محتمل إن هم ظلوا فى أملاك الباشا . فعقدوا مجلساً ناطوا رياسته بعمى وهو أكبر رجال القبيلة

قال أبى : « تعلمون أن جميع المسلمين يكرهوننا نحن اليزيديين وقد كان الباشا يدعى صداقتنا ليأمن شرنا ولكى يستفيد من تسخيرنا ضد أعدائه ولكن حبه للمال أكبر من حب سواه ، وعددنا الآن لايستطيع الثبات طويلا أمام جنوده خصوصاً وأن معنا نساء وأطفالاً تجب علينا حمايتهم فأنصح لكم بترك هذه المقاطعة التركية والسفر إلى فارس حيث نجد المرعى خصبا والناس مسالمين »

فقال عم أبى : « إسمع يا أوخوس أغا ! إسمع يا ابن أخى ! أنت رأس هذه القبيلة وأنت أشجع رجالنا ، وإذا نصحت لك بأن تسلم لهم جواد الوهابيين احتقرتنى وقلت إنى غير جدير بأن أكون كردياً أو يزيدياً . وإذا أسلمته الآن إليهم بعدرد رسولهم فاننا لا نخلص من نية الانتقام لأنى جربت حكام الأتراك وعرفت أنهم لا ينتهون عن الانتقام متى سنحت فرصة لذلك ، فأنا أرى رأيك فى الرحيل عن هذه البلاد التى لم يعد يحسن بنا البقاء فيها وقد تعودت منذ صباى أن أرى هذه البقاع وعزيز علىّ أن أفارقها ، ولكن ذلك لا يصلح عذراً للبقاء الذى قد يكون فيه هلاك القبيلة ، وأرى ما دمنا عازمين على الرحيل أن نعجل به لأن التأخير شديد الخطر ولأنه قد لا يمر يومان أو ثلاثة أيام قبل أن يأتى جنود الباشا ليثأروا منا ، وقد يأتى الوقت الذى تعودون فيه إلى أماكنكم القديمة »

ولما فرغ عم أبي من الكلام قال أكبر الرعاة سناً وهو شيخ مجرب يعرف طرق البلاد معرفة جيدة : « إذا كنا ذاهبين فلنذهب فى الحال فان الثلوج التى على قمم الجبال قد أوشكت تذوب ولن نستطيع إذا تغير الفصل أن ننتقل بأغنامنا ومواشينا ولم يبق إلا ثلاثة أسابيع ثم تدخل الشمس فى برج الحمل »

قال أبى : « لقد صدق شيخ الرعاة » ثم التفت إليه وقال : « لقد أحسنت النصيحة ، وأنت خادم أمين وسأجزيك جزاء حسناً متى ابتعدنا عن متناول يد الباشا »

وعلى أثر هذا الاجتماع رفعت الخيام وحملت على ظهور الجياد والجمال ، ومشى الرعيان بالغنم وركب أبي الجواد الذي غنمه من الوهابيين

وكان النساء يبكين وينتحبن لأنهن لم يفهمن الأمر على حقيقته بل اعتقدن أن جنود الباشا على قاب قوسين منا وأنه لم يبق إلا يوم أو بعض يوم ثم يصبحن أسيرات في بيوت الأتراك »

قالت لي زينب : « أما أنا فقد كان لخوفي سبب آخر هو يأسي مما كنت أعلل به نفسي بعد أن سمعت حديث أبي مع المرياخور فقد كنت أعتقد أني سأصبح زوجة للباشا

رأيت أحلامي تبددت دفعة واحدة فلا أمل لي في لبس الثياب الحريرية المزركشة ولا في سكنى القصور العالية المفروشة بالأثاث الغالي ولا في التمتع بالسيادة على الجواري والخدم ولم يبق أمامي أي شيء غير ما كنت فيه من حلب الضرع وصنع الجبن والزبد

تحرك ركبنا وكان الطريق أمامنا مملوءاً بعواشينا إلى آخر حد تقع العين عليه . وكنا نختار الطرق التي بين الجبال حتى لا يرانا أحد فيبلغ أمرنا للباشا

وبعد بضعة أيام وصلنا إلى الحدود الفارسية ولم يحدث لنا في أثناء الطريق إلا مصاعب تافهة أيسر مما كنا ننتظر . وكان الفرسان مجتمعين مستعدين لملاقاة الجنود التركية وحربها . ولكن لحسن حظنا لم نقابل الاجاعة من الرعاة فأخذنا مواشيهم وأسرناهم

ولما وصلنا إلى كرمان شاه ذهب أبي إلى مقر الحكومة فقابل الوالي وهو أحد أبناء الشاه فطلب إليه أن يحميه وأن يقطعه أرضاً من أملاكه . وكنا في انتظار أبي ونحن على أحر من الجمر لأنه كان من المحتمل ألا يكتفي الوالي برفض طلبه، بل يرسل إلينا جنوداً تحاربنا فنقع بين نارين نار الترك ونار الفرس

ولكن السياسة التي جرت عليها الدولتان كانت تقضي بأن تؤوي إحداهما كل قبيلة تلجأ إليها فراراً من الدولة الأخرى

وأخيراً عاد أبي ومعه ضابط من ضباط الأمير وأقطعنا أرضاً على بعد عشرة فراسخ وهي واسعة نقطعها سيراً في ثلاثة أيام ، وفي جانب منها جبال عزمنا على الاقامة فيها شتاء ، وأما الجانب الآخر فعزمنا على جعله مصيفاً

وكان اسم أبي مشهوراً في كرمان شاه، فلما استأذن على الأمير ليقابله أعرب سموه عن السرور بهذه المقابلة وخلع عليه خلعة سنية ووعده بحمايته وقال له : « إذا طلب الباشا تسليمك أو تسليم أي رجل من قبيلتك فانني لا أتردد في رفض طلبه حتى ولو أدى إلى إشهار الحرب عليه . إن أرض الله واسعة يا أوخوس أغا فاذا ضاق بك الأتراك ذرعاً فان بلادنا وصدورنا واسعة رحبة »

وقد كان ما توقعه الأمير ، فلم تمض إلا أيام قليلة حتى جاء إلى المدينة رسول من قبل الباشا يحمل خطاباً موقعاً عليه منه، وهو في هذا الخطاب يطلب تسليمنا ويذكر الأسباب التي أدت إلى جلائنا عن بلاده . وقد اتهم أبي في هذا الخطاب بأنه لص وبأنه سرق جواداً من أنفس الجياد، وهدد الباشا في آخر الخطاب بأنه إذا لم يصله الجواد على الأقل فان الحكومة الفارسية ستكون مسئولة عن النتائج

ولما وصل هذا الخطاب إلى الأمير استدعى أبي وعرفنا أن الباشا لن يترك جهداً في الحصول على الجواد والانتقام من أبي مهما كلفه ذلك . وخشينا أن يسلمنا الفرس بالرغم من وعد الأمير، لأننا زيديون والسلمون جميعاً يكرهوننا ، ولكن الفارسيين أشد كرهاً لنا وتعصباً علينا

وقبل أن يذهب أبي لمقابلة الأمير أصدر أوامر سرية بأن يوضع الجواد في مكان أمين وبأن ينكر

وجوده إذا طلب . ولكن لما عاد أبي من عند الأمير تبين لنا أن هذا الاحتياط لم تكن تقضى به الضرورة فان الأمير أحسن استقباله وقال له إنه لن يقبل مطلب الباشا مهما كانت ذلك وإن لأبي أن يطلق أن الجواد لديه وبرتكن على حماية الأمير . وقال له : « اطمئن يا أوخوس ! كيف يدعى هذا الأحمق أنك من رعاياه مع أن مملكة أبي مفتوحة الأبواب لكل لاجئ ؟ أليس أبي ملك الملوك ؟ أليست حمايته مبسوطة على كل فرد مقيم فى هذه البلاد ؟ إننا لن نكون مسلمين إذا أسلمناك لعدوك بعد أن استجرت بنا فاذهب إلى خيمتك هادىء البال »

كان لهـذا القول رنة فرح بين سامعيه من الأكراد، ودعا أبي كبراء القبيلة إلى وليمة وعلى أثر هذه الوليمة عقد منهم مجلساً للبحث فى شئوننا وتدبير خطة للمستقبل ، وكان الجميع متفائلين بحسن هـذا المستقبل والاغتباط بحماية الأمير الفارسي إلا رجلاً واحداً لم يكن لديه ما لديهم من التفاؤل، وذلك هو عم أبي . وقال إنه يعرف الفارسيين معرفة جيدة وإنه خدم فى عهد شبابه نادر شاه وإنه لا يجد فى نفسه شيئاً من الثقة بوعد الأمير . وقال لرجال القبيلة : « أنتم لم تعاشروا هؤلاء القوم ولم تعرفوا عنهم مثل الذى أعرفه وهم لا يتخذون السلاح الظاهر كالسيوف والرماح ، وإنما سلاحهم الكيد والدس والخـداع والكذب ، وأنتم مع شهرتكم بالتغلب فى الميادين لا تستطيعون أن تحاربوهم بمثل هذا السلاح، وإذا وثقتم واطمأننتم فلا تلبثون أن تجدوا أنفسكم فى حبائلهم وقد حاق بكم من كيدهم ما لا تقدرونه ولا تقدرون على دفعه

إن الكذب يكاد يكون عيباً عاماً فى هذه البلاد ودليلكم على ذلك أن الرجل منهم لا يكاد يقول جملة حتى يشفعها بيمين ، فهو يحلف برأسه وبرأس أبيه وبابنه وبالنبي وبجدوده وبالقبلة الشريفة وبرأس الشاه وبذقون الأولياء وبالموت الذى سيلاقيه وبالملح والخبز اللذين أكلهما وبمشهد الحسين وعلى — على أن القسم بأى يمين من هذه الأيمان لا يدل إلا على أن القائل شديد الكذب وأنه يعتقد أن السامع لن يصدقه . والذى أفهمه من مسلك الأمير معنا هو أنه طامع فى الجواد الذى جر علينا كل هـذه المصائب فالفارسيون أشد من الترك رغبة في الخيل وهم أحرص من الوهابيين على الاحتفاظ بهذا الجواد لأنهم من الشيعة، ولو علم الشاه أن لدينا هذا الجواد لأرسل إلينا فى الحال فهل تريدون أن تحملوا السلاح فى وجه العالم كله ؟ إن لكم رأيكم وأنا خاضع لما تتفقون عليه ولكننى أحذركم وأقدم لكم النصيحة بأن يكون عندكم مبدأ عام فى شأن الفرس هو ألا تصدقوهم ولا تثقوا بهم ».

وقد أظهر رجال القبيلة اقتناعهم بقول هذا الناصح المجرب . وفى فجر يوم من الأيام رأينا حركة غير عادية وسمعنا نباح الـكلاب ولما كنا تعودناه عندما يحاول الذئب السطو على الأغنام فقد ظننا الأمر كذلك فى البداية ولـكن أبي وأخى حملا بندقيتيهما وذهبا إلى المرعى حيث كانت الأغنام والـكلاب . ورأينا قبل وصولهما إليه فارساً يعدو ثم رأينا خلفه فارساً آخر ووراءهما سبعة أو ثمانية من الفرسان ، وأخيراً تبين لنا أن خيامنا مطوقة بالجنود، فصاح أبي ليوقظ رجال القبيلة وجرى نحوه الفارس الأول ليقتله ولكن أبي أطلق عليه رصاصة فقتله فى الحال وضرب الفارس الثانى بسيفه فجرحه وكان صوت الرصاصـة والضجة التى تلته علامة الجنود التى طوقتنا لتبدأ بالهجوم العام وقد ظهر أن الغرض من هذا الهجوم هو البحث عن الجواد لأن أول شيء فعلوه هو التفتيش فى مربط الخيـل وقد عرفنا أن الغزاة كانوا من الفارسيين وعرفنا

أيضاً أنهم مرسلون من قبل السلطات الرسمية

وكان من سوء الحظ أن الرجل الذى قتله أبى هو رئيسهم وكان ذلك سبباً لاتخاذنا أسرى

وكان ذلك اليوم من أيام البؤس التى يستحيل أن أنساها »

ثم أخذت زينب تروى كيف أسرأبوها وكيف انتقلت من يد إلى يد حتى أصبحت جارية فى بيت ميرزا أحمد، وكان انزعاجى عند سماع قصتها مثل انزعاجها وهى ترويها . ثم سمعت فجأة صوتاً يطرق الباب فتوسلت إلى أن أسرع بالفرار من النافذة وكان الذى يطرق الباب هو الطبيب نفسه . وذهبت إلى الباب ففتحته .

ولما خرجت من النافذة وقفت أطل منها ورأيت الطبيب وقد تهلل وجهه بالبشر لرؤيته زينب وحدها بالمنزل، وقال لها كلمات فى نهاية الرقة ثم نظر إلى باب غرفته فرأى بقايا الطعام. فسألها عن سبب ذلك وقبل أن يستمع الجواب جلس ودعاها إلى الجلوس بجنبه وأخذ يداعبها، وعلى حين فجأة دخلت زوجته ووراءها سائر الفتيات ففاجأتهما قبل أن يتفرقا . وإذا نسيت شيئاً فلن أنسى نظرتها إليه ومسلكها الذى سلكته نحوه

قالت بلهجة الساخر : « السلام عليكما، أتمنى لكما الصحة والهناء وأخشى أن يكون مجيئى مبكراً قد أزعج راحتكما »

ثم صعد الدم إلى وجهها واصطكت أسنانها وقالت بصوت يتهدج : « ... وتتناولان طعام الأفطار فى غرفتى أيضاً ؟ ما شاء الله ! ما شاء الله ! لقد أذللتنى واحتقرتنى ياسيدى أحمد! أفى غرفتى وفوق فراشى ! ؟ لقد سقطت السماء إلى الأرض ! هل تعد نفسك بعد الآن رجلاً بين الرجال؟ ألا تخجل حين يدعونك الناس طبيباً وحين يلقبونك بلقمان عصرك ؟ لعنة الله عليك وسخرية واستهزاء بلحيتك البيضاء! »

ثم أشارت بأصبعها إلى عينيه وقالت : « أنا أبصق على وجهك ! من أنا حتى تفضل على جارية قذرة من جوارى منزلى ؟ ما الذى فعلت حتى تهينى هذه الأهانة ؟ إنك كنت خامل الذكر قبل زواجى فجعلت منك رجلاً وسهلت لك الطريق لدخول القصر الملكى والوقوف أمام الشاه وجعلتك رئيساً لأطبائه »

وكان الطبيب فى هذه الأثناء يقسم أغلظ الايمان على براءته ولكن ذلك لم يهدئ من غضب الزوجة ولم يخف تيار سخطها

ثم تركت زوجها والتفتت إلى زينب فأسمعتها كل مؤلمة جارحة من القول ولم تكتف بالكلام بل صارت تجرها من شعرها ومن ثيابها فصارت الفتاة تصرخ من الألم . ثم أمرت الجوارى بأن ينقلنها إلى غرفة أخرى فنقلنها وضربنها حتى أدمين جلدها وكنت أتحرق فى هذه الآونة من الاشفاق وحدثتنى نفسى بأن أدخل المنزل لانقاذها مهما كانت النتائج وأحسست أن دمى صار فى مثل حرارة النار ولكن ما الذى أستطيع أن أفعل ؟ إننى إن دخلت فلن يكون نصيبها ونصيبى غير الموت. ولما هدأت الحالة تركت النافذة ومشيت فى الطريق حتى ابتعدت عن المدينة وأنا أدبر خطة لاخراج زينب من هذا البيت والتزوج منها . لكن كيف يمكن ذلك مع بقائى فى خدمة الطبيب وكيف أحصل على الرزق إن تركته؟ هذا هو السؤال الذى كان يشغل التفكير فيه كل خواطرى

وأحسست أن قلبى يدمى كلما فكرت فى مصير تلك المسكينة لأنى سمعت أشياء كثيرة عما يجرى فى البيوت الفارسية وأيقنت أن اضطهاد السيدة لها لن يخف لا فى الحال ولا فى الاستقبال

« يتبع » عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان - عابدين)



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر و فى نصفه

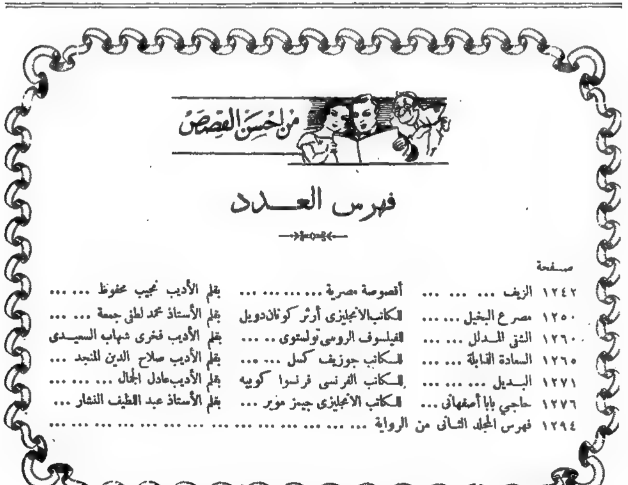
صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

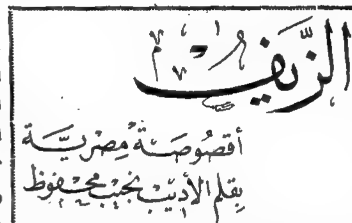
مـ	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٧ — ١٠ ذى القعدة سنة ١٣٥٧ — أول يناير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العــدد



كان المسرح مكتظاً بالنظارة ، حيث كانت تمثل رواية البخيل لموليير ، وكان جمهوره كالمعتاد خليطاً من طلاب التسلية ومحبي الظهور ومدعي الفن وعشاق الخيال . وكان على أفندي جبر المترجم بوزارة الزراعة بين الجالسين في الصفوف الأمامية ، وكان يتتبع التمثيل بين اليقظة والنوم ، واضعاً خده على يده ، ومسنداً مرفقه إلى مسند المقعد . وكان قد طالع في بعض المجلات عن الرواية ما جعله يظنها آية من آيات الكوميدي فجاء المسرح بنفس تواقة إلى الضحك والسرور ، وسرعان ما خاب رجاؤه وفترت حماسته وكاد يستسلم للنعاس . ولكن الأقدار أرادت أن تتبرع بتعويضه عن خيبته ، ففي أثناء الاستراحة دنا منه النادل وانحنى على أذنه وقال له باحترام وتأدب : « هل لبك أن يتفضل بالذهاب إلى البنوار رقم ١ ؟ » ثم ذهب إلى حال سبيله ونظر على افندي إلى البنوار رقم ١ فرأى الستار الأبيض مسدلاً عليه فأدرك أن به « حريماً » وقام من توه وغادر الصالة وقصد إلى البنوار وهو يضرب أخماساً لأسداس ، وطرق الباب مستأذناً فسمع صوتاً رخيماً لا يعرفه يقول « تفضل »

فتردد لحظة سريعة لأنه أدرك لدى سماعه الصوت الغريب ، أن في الأمر خطأ ولكنه كان من الرجال الذين تغلبهم على نفوسهم في حضرة النساء جسارة غير محدودة وحب للمجازفات وثقة بالنفس وطيدة ، فاقتحم الباب غير هياب وصار وجهاً لوجه أمام السيدة الجالسة . وكانت في الأربعين ممتلئة الجسم ناضجة الأنوثة يزين قسمات وجهها العاجي حسن تركي مصري ؛ ويدل على طبقتها العالية ثوبها الأنيق ونظرتها الرفيعة وحليها الثمينة . وقد بهر الرجل أمام روعة الحسن وانحنى باحترام وهو يقول لنفسه في إشفاق: « وآأسفاه! ستعلم السيدة بالخطأ وسرعان ما تنتهي المقابلة» ولكن خاب ظنه، لأن السيدة ابتسمت له تحية كأنه هو المعنى وقالت برقة تعرفه بنفسها :

— أرجو ألا يسوءك إقلاق لراحتك ... أنا أرملة المغفور له علي باشا عاصم

يسوؤه ! ينبغي له أن يعد نفسه من المحظوظين في هذه الدنيا لأن سيدة كتلك السيدة تقول له مثل ذلك الكلام بتلك اللهجة الرقيقة . ترى لماذا دعته إلى بنوارها ؟ فهو لا يذكر أنه رآها من قبل وإن كان يعلم علم اليقين أنه قرأ اسمها في بعض الأخبار الخاصة بالجمعيات النسائية ، وخيل إليه غروره أنها ربما تكون رأته من حيث لم يرها، وأنها ربما وقع في نفسها منه — كما حدث لغيرها وإن كن لسن من نوعها — ما علقها به ، فإذا صدق حدسه — والدلائل تجمع على صدقه فهي تدعوه كما دعت قديماً امرأة العزيز فتاها ...

وأحس بنشوة فرح وزهو وقال للمرأة بكل رقة وهو ينظر إليها كما ينظر الانسان إلى شيء ثمين يملكه :

— العفو يا صاحبة السعادة .. خادمك ...

وهم أن يقدم لها شخصه العزيز ، واستدلت السيدة من لهجته على ذلك فأشارت إليه بيدها البضة وقالت بسرعة وهي تبسم عن در نضيد :

— وهل أنت فى حاجة إلى تعريف يا أستاذ ؟! تفضل

وجلس كما أرادت ، ولكن عبارتها الأخيرة قلبت ما بنفسه رأسا على عقب ، فملاء الوجوم وأطفأ الكدر نور السرور فى عينيه ، لأنه من المحتمل أن يكون فاتنا محبوبا من النساء وأن تقع فى غرامه حرم عاصم باشا ، ولكن مما لا ريب فيه أنه فى حاجة إلى تعريف ككل إنسان ، وأنه لم يكن أبدا فى غنى عن التعريف ، فماذا تعنى السيدة الجميلة بقولها هذا ؟ إنه يكاد يهتدى إلى وجه الحق ، وقد ساعده على ذلك قولها له « يا أستاذ »

فهل تظن السيدة أنه شاعر مصر الأكبر بل شاعر الشرق العربى جميعاً الأستاذ محمد نور الدين ؟ والحق أن المشابهة التى بينه وبين سيد الشعراء معروفة مشهورة ، يعلم بها جميع أصحابه ، وطالما جعلوا منها موضوعاً للتنكيت والتفشش ؛ فكلاهما له هذا الوجه المستطيل الذى يحد من أعلى بجبهة عالية ، ومن أسفل بذقن عريضة ؛ وكلاهما له هذا الأنف الرومانى العظيم والشارب الشركسى الغزير ، ولا اختلاف بينهما إلا أنه أطول من الشاعر وأعظم امتلاء . وهذا يدل على أن السيدة — فيما لو صدق ظنه — لم تر الشاعر إلا فى إحدى صوره التى تظهر أحيانا فى المجلات والصحف

وا أسفاه ! لقد ذاق حلاوة الفوز ومرارة الهزيمة فى لحظة واحدة . فهل يتراجع ويرضى من الغنيمة بالاياب ؟ ولكن مثل هذا التردد لم يكن ليخالجه إلا لحظات قصيرة العمر لأنه كان — كما قلنا — يفقد رشاده فى حضرة النساء ولا يفكر إلا فى انتهاب اللذة واقتناص الفرصة ، فجلس مبتسما على ما به من خيبة مريرة مطمئنا كما ينبغى لشاعر مصر العظيم . وقالت السيدة :

— سيدى الأستاذ ، إن معرفتى بك قديمة جداً لا كما تظن ، وإن أفضالك على زوجى لا تقدر بثمن ولا يحصيها عد . وطالما منيت نفسى بالتحدث إليك . وكم كان فرحى عظيما الليلة حين عثر بصرى بك فلم أتردد فى دعوتك . وإنى أرجو يا سيدى أن تغفر لى تطفلى ...

فقال على افندى وقلبه يلعن الشاعر :

— ما أسعدنى بعطفك يا سيدتى ! إننا معشر الشعراء لنحرق أرواحنا فى سبيل الخلود والشهرة . ومثل إعجابك يا سيدتى أغلى عندى من الخلود والشهرة

فتوردت وجنتا المرأة ورنت إليه بعينين ناعستين وقرأت فى عينيه ما حملها على تجنب حديث العواطف وإن كانت تضمر الرجوع إليه فى المستقبل فقالت :

— هل أعجبتك الرواية ؟

الرواية التى صدعت رأسه وفر منها إلى النعاس ! على أنه كان حكيما ، فلم يسارع إلى مصارحتها برأيه . ولم تنتظر السيدة جوابه فقالت بثقة :

— لا شك فى أنك تعجب بها أيما إعجاب ، لأنها من تلك الفكاهة العالية التى كتبت عنها فصلاً رائعاً فى كتابك الخالد « فلسفة الجمال » وقد كان هذا سبيلى إلى تذوق موليير وتوين وشو

فحمد الله أن لم يذكر رأيه الحقيقى وهز رأسه باسماً وقال باطمئنان عجيب :

« البخيل آية فنية رائعة ، وهى من الآيات التى لا تمنح كنوزها مرة واحدة ، ولقد قرأتها مرة

وأخرى . وهأنذا أشاهدها للمرة الثالثة، وفي كل مرة أفوز بحسن جديد

فابتسمت السيدة وقالت :

— إذاً أصاب ظنى

فقال على افندى :

— إنك يا سيدتى آية فى الذكاء

ولم يأذن الوقت بالاسترسال فى الأحاديث إذ دق الجرس معلنا انتهاء الاستراحة ، فاضطر على افندى أن يستأذن فى طلب الانصراف وقالت السيدة وهى تودعه :

— أرجو أن تشرف قصرى بزيارتك

فقال وهو ينحنى على يدها :

— لى عظيم الشرف يا سيدتى

— يوم الأربعاء الساعة السابعة مساء ... شارع عماريه رقم ١٠ بالزمالك

وتنهدت المرأة ارتياحاً وظنت أنها نالت أمنية من أعز أمانيها . وكانت مخلوقة سعيدة الحظ كأن الأقدار تتوخى راحتها، تزوجت من رجل من رجال مصر القانونيين المعدودين فتمتعت برجولته وكفاها الموت شر شيخوخته وترك لها مالاً وجاهاً واسماً مثليا ، ولكن ضايقها ظهور منافسة خطيرة لها هى أرملة الدكتور إبراهيم باشا رشدى ، يجرى ذكر جمالها — مثلها — على الألسن وتتحدث بثرائها المجتمعات وقد وضعتهما المصادفات فى حى واحد وأغرت بينهما بالعداوة والبغضاء ، فكلتاهما تتمتع بأنوثة ناضجة وجمال فتان وثروة طائلة ، وتملك قصراً فخما يتيه على قصور الأمراء ، وكانت كل منهما تعتز بنفسها وتود لو يغلب نورها نور الأخرى تتنافستا فى اقتناء السيارات الثمينة والتحف النادرة والثياب الأنيقة وتسابقتا فى ميدان الظهور تعرضان حسنهما وتنثران حديثهما ، واتخذت كل منهما بطانة من كرائم الأسر والآنسات المثقفات ، وقد علمت حرم عاصم باشا يوماً بأن منافستها دعت إلى تأليف جمعية المرأة الحديثة فلم يرقم لها جانب حتى كونت جمعية تعليم الأميات . وسمعت يوماً بأن الأخرى تبرعت بمبلغ كبير من المال مساهمة فى إنشاء مدرسة كبيرة وأن الصحف أثنت عليها جميل الثناء ، فأمرت بتشييد جامع فى عزبتها ودعت لالتقاط صوره مصور أكبر مجلة فى مصر وطلبت إليه أن يثنى على ورعها وتقواها ...

وكان آخر ما نمى إلى مسامعها من أخبار منافستها مالاكته الألسن من أن الموسيقار المعروف الأستاذ الشربينى قد شغف بها حباً ، وأنه لا يفتأ يتردد على قصرها . وأن الأغنية الذائعة «حبيت ياقلبى» التى يتغنى بها المصريون جميعاً وتهفو إليها نفوسهم لحنت بوحى جمالها، وما علمت بهذه الأخبار حتى التهبت نفسها التهاباً . واحترق قلبها احتراقاً ، وتلفتت يمنة ويسرة تبحث عن عاشق « شهير » تصير بحبه حديثاً ممتعاً، وتغدو له وحياً ملهماً، فذكرت شاعر مصر محمد نور الدين ، فهو المصرى الوحيد الذى له ما للشربينى من الشهرة والمكانة وهو أجدر الناس بتخليدها فى قصيدة كما خلد الشربينى منافستها فى الأغنية . وفى تلك الأثناء رأت الشاعر مصادفة فى المسرح وكانت تفكر فى وسيلة تصل بها إليه ، فهل كنا مغالين إذ قلنا إنها نالت أمنية من أعز أمانيها ..؟

أما على أفندى جبر فقد رجع إلى مقعده ، وهو يلقى على الناظرين نظرة فاحصة خشية أن يكون

الشاعر الأصلي بين النظارة وقد ساءل نفسه : « ألا يجدر بي أن أفر ؟ » ولكنه لم يكن جاداً في سؤاله لأنه لم يعتد الفرار في ميدان النساء

ولم يأل جهداً في التأهب والاستعداد ليتقن تمثيل شخصيته الجديدة ، فطبع بطاقات باسم محمد نور الدين ورأى من حكمة أن يلقي نظرة سطحية على مؤلفات الشاعر فذهب إلى مكتبة مصر وطلب مؤلفاته ، فسأله الكتبي :

— كلها ؟ فقال :

— نعم . فقال الرجل :

— الطلب غير ممكن الآن يا أستاذ لأن بعضها نفد والبعض غير موجود في المكتبة فاذا انتظرت إلى الغد ... »

ولكنه قاطعه متسائلا :

— ما الحاضر بين يديك ؟

فقال الرجل :

— دواوينه الأربعة . النور والظلام والجحيم والرحلة الروحية والسماء السابعة وكتاب فلسفة الجمال والرحلة الشرقية والجزء الثاني من كتاب النقد.

وهاله الأمر وأسقط في يده، ولم ير بدا من ابتياعها جميعاً . وكانت المرة الأولى في حياته التي يشتري فيها ديوان شعر لأنه بطبعه لا يحب الشعر ولا يهضمه ولا يجد مسوغاً للقوافي التي تقيد معانيه، فلماذا لا يرسل الكلام على سجيته ؟ وإنه لينفث في آذان النساء غزلا يعتقد أنه أرق الكلام وأمتعه؛ ومع هذا لم يشعر مرة بالحاجة إلى تنسيقه في بيت من الشعر . ولم يقرأ من الشعر طوال حياته سوى المحفوظات المدرسية وهو كاره، فما كان يخطر له على بال أن يشتري ديواناً من الشعر فضلا عن أربعة دواوين كاملة ، ولكن قدر فكان

وقد قال لنفسه متبرما وهو يحملها إلى بيته : « أعقل أن يكلفني الحب مالا أو مطاردة خطرة أو صبرا طويلا أو شجارا عنيفاء أما الذي لا أعقله فهو أن يتقاضاني قراءة هذه الكتب ! فهل أنا عاشق أم تلميذ ؟ » وأخذ يقلب صفحات الكتب فنص بالشعر كما توقع ولم يفقه له معنى، ولو كان يسيرا مثل « إذا نام غر في دجى الليل فاسهر » لهان الأمر ولكنه كان من نوع عجيب سهل الألفاظ مغلق المعاني

وهذا غزل نور الدين فما بالك بالأغراض الأخرى التي يجفل قلبه من مجرد تلاوة عنواناتها ؟ والأدهى من هذا وذاك أن نثره ليس بخير من شعره فقد قرأ صفحات في كتاب فلسفة الجمال ما كان يظن أن إنسانا عاقلا ينشرها على الملأ . وضاق صدره بنور الدين شعره ونثره ، فرمى بالكتب جميعا ولكنه قال باصرار وعناد « سأذهب يوم الأربعاء »

وفي الموعد المسمى ذهب إلى قصر السيدة الجليلة بشارع خمارويه، وكان بادي الوجاهة والأناقة، وأرسل بطاقته إلى ربة القصر، فقاده الخادم إلى (صالون) رائع لم ير أجمل منه على كثرة ما غشي من (الصالونات) الفخمة، ولكنه لم يدهش لأن منظر الحديقة والقصر الخارجي سلبه كل دهشة. وكان يكره الانتظار لأن أمثاله من المناصرين تؤاتيهم النجدة بداهة وارتجالا وتشحذ أسلحتهم في أثناء المعمعة ؛ مثله في ذلك مثل الخطيب المطبوع الذي يلهمه الجمهور المعاني فيتدفق؛ ولذلك أحس بارتياح عجيب حين رآها تشرق عليه من باب الصالون في ثوب أبيض غير كتوم يعلن عن جمال كل ثنية من ثنيات جسمها اللدن ، ويبين خاصة عن الخصر الدقيق الذي يتعلق به كفلاها الثقيلان ، فطرد بقوة إرادته بقية قلق عالقة بنفسه

وانحنى باحترام ، فأعطته يدها فضغط عليها بحنو ثم قال وهما يجلسان :

— لقد حسبت الأيام ساعة فساعة

فابتسمت السيدة وقالت بلهجة لم تخل من عتاب:

— هذا معنى مبتذل لا قرابة بينه وبين معانيك الشعرية الخالدة !

فاحتدم الغيظ فى قلبه ولعن الشعر والشاعر وتذكر قراءته لبعض المعانى (الخالدة) التى لم يفقه لها معنى وعجب كيف تؤثرها هذه السيدة العجيبة على عبارته البسيطة التى طالما نصبت الشراك وغزت الحصون ، وأراد أن يلتمس لعجزه عن خلق المعانى « الخالدة » عذرا فلسفيا فقال :

— معذرة ياسيدتى، إنى إذا غشيتني لألاء الحسن السامى تركت نفسى على فطرتها وهجرت إلى حين المعانى التى يبدعها التفكير والتكلف

فاتسعت عينا السيدة الجميلتان دهشة وقالت بإنكار:

— يا عجباً ! ألست القائل يا أستاذ فى مقدمة ديوانك إن شعرك شعر الفطرة والطبع ؟ أو لست الآخذ على شعراء المدرسة القديمة تكلفهم ؟

فأسقط فى يده ووجد أن الحذر لم ينفعه وخشى أن يفقد ثقته بنفسه فقال بلهجة العالم الذى يعنى مايقول:

— إن الشعر ياسيدتى مزيج من الفطرة والتفكير ، والتفكير غير التكلف ، وما أردت قوله هو أن الشاعر فى حضرة الحسن يستبد به الشعور الخالص ...

وأشفق من أن تسأله مثلا عن الفرق بين التفكير والتكلف أو عن معنى الشعور الخالص ولكن السيدة قالت باعجاب :

— صدقت يا أستاذ، ولعل هذا يفسر قولك إن الشعر لا يعبر عن عاطفة إلا بعد أن تسكت ثورتها ويهدأ انفعالها

فهز رأسه مبتسما وقال وهو يتنهد ارتياحا :

— وهو الحق المبين ياسيدتي. أرى أن رأسك متوج بتاجى الحسن والأدب

فتورد خدا المرأة وقالت بحماس :

— إنى واحدة من قرائك المعجبين ... وقد قرأت مؤلفاتك جميعاً بإمعان وشغف

فقال :

— أين لى بقراء مثلك يا سيدتى العزيزة ... ؟ إن هذا البلد لا يقدر الكاتبين

— هذا حق وا أسفاه على وجه العموم ولكن يقال إن لك جمهورا تحسد عليه يا سيدى الأستاذ ؟

فأشار بيده إشارة تدل على الأسف وقال :

— لو أتيح لى أن أكتب باللغة الانجليزية مثلا!

فسألته السيدة بقلق :

— أو ليس لك الجمهور الذى تحسد عليه ؟

فقال باطمئنان :

— جمهور قرائى يربو على ضعفى جمهور أى كاتب آخر فى الشرق الاسلامى

— يا لها من مكانة سامية !

فهز رأسه آسفاً وقال :

— لقد دفعت شبابى وقوتى ثمناً لها

— أآسف أنت على هذا ؟

— لا أدرى

— لقد خلدت شبابك فى آثارك الباقية

— أيهما أفضل أن يخلد شبابى كى يتمتع به غيرى أم يفنى وأتمتع به وحدى ؟

— لا تناقض بين الاثنين فانك تستطيع أن

تستهلكه في متعتك ثم تخلده في شعرك ، أتسألني وأنت أستاذي ؟

— هذه سعادة لا تتاح لغير المجدودين

— وإنك لمن المجدودين

فنظر إليها نظرة لو تحولت إلى كلمة لوقع قائلها تحت طائلة قانون العقوبات ، وكان يجيد هذه اللغة ثم قال بخبث :

— إنك ياسيدتي تتحدثين عن حظي كما لو كان مصيره بين يديك

فتخضب وجهها باحمرار طبيعي غلب أحمرها الصناعي الخفيف؛ وما كانت تكره أن يكون مصير سعادته بين يديها ولكنها ادخرت هذا الحديث إلى وقت آخر فتيرت بحراه وقالت لجأة :

— يدبني أن أنتهز فرصة وجودك معي لأسألك عن معنى بعض الأبيات الشعرية التي أغلق على فهمها

تخفق قلبه خفقة شديدة أيقظته من غيبوبة الغرام وذعر ذعراً شديداً ، إذ أنى له بشرح معانى شعر نور الدين المغلقة وهو الذي لا يفهم أيسر الشعر وأسلسه ؟ وخشي إن تردد أن يخسر كل شيء بعد أن أوفى على الفوز فقال بقوة :

— اعفيني يا سيدتي

فسألته دهشة :

— ولم ؟ هل يبرم الشاعر بشعره أحياناً ؟

— ليس الأمر كذلك ، ولكن قد يسمو الشاعر حيناً على شعره فيخاله بعض مظاهر العالم المادي، وإني الآن في نشوة روحية من تلك النشوات التي تخلق الشعر فكيف أنزل إلى الشرح والتفسير ؟

فغمرتها موجة فرح وسعادة ، وساءلت نفسها قائلة : ترى هل أكون غداً بطلة قصيدة رائعة خالدة ؟

ثم سألته في لهفة :

— أحقاً ما تقول يا سيدي ؟

— كيف يداخلك شك في هذا ؟ تالله إذا لم تخلق هذه الساعة شعراً فلا خلق الشعر أبداً

فامتلأ قلب المرأة فرحاً ومنت نفسها بأسعد الأماني .

وفي تلك اللحظة دخلت الخادمة تعلن قدوم زائرات . ولم تفاجأ السيدة — كما فوجئ الأستاذ بقدومهن ، كأنها كانت على موعد معهن وأمرت الخادمة بإدخالهن . وبعد لحظة قصيرة دخل ثلاث آنسات حسان يحتار ماء الشباب في وجوههن ؛ وتلقتهن السيدة بترحيب وقدمت إليهن الشاعر بلهجة فخار قائلة :

— الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق

وقدمتهن إليه واحدة واحدة قائلة إنهن أعضاء جمية تعليم الأميات التي تتشرف برياستها ثم قالت :

— إنهن أديبات مثقفات ولكن وا أسفا ، فان ثقافتهن قاصرة على الأدب الفرنسي الذي يتعشقنه إلى درجة أن جعلن الفرنسية لغة حوارهن . وإني أرجو أن يكون تعرفك بهن ياسيدي سبباً لتوجيههن إلى الثقافة العربية المصرية

فعجب علي أفندي لذلك وتساءل دهشاً : ترى هل يعلمن الفلاحات الأميات مبادئ اللغة الفرنسية؟!

واستطردت السيدة تقول للآنسات :

— ستجدن في صديقي الشاعر محدثاً جليلا . ولكني ما لهذا دعوتكن الليلة، فقد حجزت البنوار الأول في مسرح رمسيس لنشاهد معاً رواية البخيل، ولا بأس أن يشاهدها الأستاذ للمرة الرابعة إكراماً لي

والحقيقة أن السيدة ما قصدت بدعوتهن إلا أن

تذيع بينهن نبأ صداقتها الشاعر لكي يذعنها بدورهن في (الصالونات) الراقية فيتصل خبرها حتماً بعلم منافستها الخطيرة، وما ذهابها بهن إلى مسرح رمسيس إلا لهذا الغرض نفسه

وقد تضايق على افندى من حضور الزائرات وتضايق أكثر من دعوته إلى المسرح، وكان يرجو أن تطول خلوته بها، ولكنه كان يبالغ فى التشاؤم ولا يدري بالسعادة التى تخبئها له الأقدار، فنى الاستراحة انتهزت السيدة فرصة خروج الآنسات من البنوار وقالت له فى خفر: «ستعود معى إلى القصر» ولم يكن للدعوة إلا معنى واحد، فتساءل على افندى ترى كيف يتخلص من الآنسات، ولكن السيدة لم تعمل لذلك حساباً، فعند انتهاء التمثيل عادت السيارة بهم جميعاً وودعها الفتيات عند مبتدأ شارع خمارويه، ثم سارت بهما السيارة وحدهما إلى القصر السعيد، فأيقن أنه رغم طول تجاربه جاهل بالنساء، وأنه لم يعرف قبل الآن امرأة مغرمة بالفضائح!

وكانت ليلة ...

وبعد يومين ذهب على افندى جبر إلى زيارة المعرض الرابع عشر للفنون الجميلة، ولم يكن من الهواة ولكنه كان من محبى الظهور والادعاء، وكان حبه للنساء يدفعه إلى ارتياد الأماكن التى يحتمل وجودهن بها، فمضى يسير فى الحجرات الأنيقة وينظر بعينين فاترتين إلى اللوحات المعلقة، حتى استرعت انتباهه من بينها صورة فلاحة عارية تستحم فى النيل وقد أجادت الريشة تصوير قدها النحيف وثدييها الناهدين وأضفت على سمرة بشرتها سحراً شهوياً عجيباً، فوقف أمامها طويلا لغير وجه الفن وذكر — لرؤيتها — ذلك الجسد البض المكتنز والردفين المكورين كأنهما إسفنجة هائلة متشبعة بالماء، والساقين المكورتين والبشرة العاجية ذات الرائحة الزكية ذكر ذلك الحسن الفتان الذى رمى به الحظ بين يديه قضاء وقدرا ... أى ليلة جميلة! كأنها حلم لذيذ لا يجود بمثله عالم الحقائق. وكأنه أراد أن يتأكد أنه حقيقة لا حلم فأخرج مذكرته وقرأ فيها الموعد المنتظر الذى كتبته بيدها الرخصة ...

كأن المصادفة لم تقنع بما أتت من عجب عجاب، فانه لفى تأمله وتذكره إذ أحس بيد توضع على كتفه فالتفت إلى الوراء فرأى صاحبته الجميلة واقفة بين جماعة من السيدات الارستقراطيات، واستولت عليه الدهشة والارتباك، أما السيدة فالتفتت إلى صاحباتها وقالت بتيه :

— إأذن لى أن أقدم إليكن صديقى الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق

— فابتسمن له بترحيب إلا واحدة رددت النظر بينه وبين الأرملة وقالت، ضاحكة :

— يالها من نكتة بارعة ياسيدتى!

— فسألتها السيدة :

— أى نكتة تعنين ياسيدتى ؟

— فلم تحفل السيدة بانكار الأرملة الجميلة وقالت وهي تحدج على افندى بنظرة استغراب

— رحماك يارب ... الآن صدقت قول القائل «يخلق من الشبه أربعين»

فاحتدمت الأرملة غيظا وقالت :

— إنى لا أفقه لما تقولين معنى

— بل تفقهين كل المعنى وتريدين أن تضاحكينا. والحق أن الشبه الذى بين شاعرنا المجيد وبين حضرة البك شبه عجيب ...

فاشتد الغيظ بالأرملة والتفتت إلى على افندى وقالت :

— تكلم يا أستاذ لتعلم عصمتها أنى أجد لا أهزل

وكان على فى حالة ارتباك يرثى لها وقد خانته جسارته تلقاء نظرات السيدة الجريئة التى لاشك تعرف الشاعر الأصلى تمام المعرفة فلم يجد مناصا من الهرب فتظاهر بالدهشة وابتسم إلى الأرملة البائسة وقال :

— معذرة ياسيدتى ... يخلق من الشبه أربعين

— وكان يتكلم بلهجة جدية لا تترك أثرا للشك فى نفس السامع ، فجحظت عينا السيدة دهشة وانزعاجا ، وعلا ضحك صاحبتها وتأملته بإمعان وهى تكاد تجن من الدهشة وسألته :

— ألست أنت الشاعر ؟ فأجاب بهدوء :

— كلا ياسيدتى . أنا موظف بوزارة الزراعة

— ألم تقابلنى قبل الآن ؟

— لم يحصل لى هذا الشرف ياسيدتى

— قال على افندى ذلك وأحنى رأسه تحية وذهب تاركا السيدة لصديقاتها الضاحكات ، وقالت السيدة الأخرى :

— إنى أعجب كيف يخدعك البصر إلى هذا الحد ؟ ألا ترين أنى فطنت إلى الحقيقة من النظرة الأولى ؟ فقالت الأرملة الذاهلة تدارى خجلها :

— ما أعجب الشبه بينهما !

فقالت الأخرى :

— ولكن شتان ما بين قامتيهما

وقالت أخرى ساخرة :

— سيغضب « صديقك » الشاعر حين يعلم بهذا الخطأ الغريب !

وغادر على افندى المعرض مضطربا . ولما تنسم الهواء الطلق انفجر ضاحكا حتى دمعت عيناه . على أن الموقف لم يكن يخلو من دواعى الأسف ما دام قد خسر الموعد المنتظر ، وكان يمنى نفسه بأكثر من ليلة واحدة ...

نجيب محفوظ

مصرع البخيل

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

روى دكتور وطسن مسجل أخبار شرلوك هولز ومناصراته قال :

فى هذه الليلة من أخريات الليالى فى شهر ديسمبر سنة — ١٩ كان هولز منشرح الصدر قرير العين ، كعادته كلما دنا عيد الميلاد . كان لا يحب الديكة الحنيذة ولا يميل إلى حلوى البودنج ، وهما اللونان اللذان شنف بهما كل انجليزى تحت السماء ، ولكنه كان شديد الاكتراث باعدار وجبة العيد ، ويكثر من الاستعداد لعشاء أمسية عيد الميلاد ، ويحتفى بها ويحتفل أيما احتفاء واحتفال . فكانت مسز تيرنر منهمكة فى تسوية الديك ، وتدخين فخذ الخنزير ، وخلط الأفاويه والابزار مع الزبيب والبندق والجوز واللوز ... وكان هولز يفرك يديه ، ويدخن غليونه الأبدى . وكان دأبه أن يبدأ الحديث بنفسه ، ولا يبيح لأحد أن يبتته أثناء صمته . فقال :

— أظنك بعد قرانك السعيد الذى كان ثمرة لمناصرة الكنز الدفين لم تشغل نفسك بالحب . . . ؟

فابتسمت وقلت : الحب . . . ؟ لا أظن . . . أريد حب الزوجة يا مستر هولز ؟

فضحك وقال : أقصد إلى الهوى الذى يتفرع منه العشق ، الذى يصفه ماكس بيرتون فى قصصه كما وصفته شارلوت برونته وجورج أليوت ... العشق الذى يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمداً على فراشه

فتجاسرت على مستر هولز ممازحاً وقلت : إننى رجل متزوج ولكنك يا مستر هولز رجل أعزب فهل . . . ؟

فقال هولز وقد أبرقت عيناه بريقاً عجيباً : ليس الحب من طبيعتى . الشفقة نعم . الرحمة نعم . حب الانسانية أى نعم . أما الحبّ الذى تلمع إليه فلا ، ثم لا ، ثم لا ، لأنه قرين بادخال الضيم على المروءة واستشعار الذلة لمن أطاف بالمشيقة كأهلها وذويها

فقلت : ولكن المناقب التى ذكرتها كالرحمة والرقة تتشعب كلها من أصل الحب .

فقال : صحيح ، ولكن ... ثم تناول جريدة التيمس وناولنى إياها ، وقد أشار بعلامة على نبذة قصيرة هذا نصها : « وقد اشتغل مستر هولز فى تحقيق هذه القضية فأغرب فيها على عادته وافترض فيها افتراضاً بعيد الموافقة للواقع ، ففوت على رجال البوليس الرسميين فرصة القبض على المتهمين الذين لا شك قد اتخذوا سبيلهم فى البحر عجباً ، فاستقلوا باخرة كبرى تمخر الآن عباب المحيط فى طريقها إلى نيويورك ، ولا يزال مستر هولز يزجى أخيلته بألفاظه البطيئة ودخان شبقه فى إحدى الغرف الموطأة فى مسكنه الماس ببيكر ستريت » . فغاظتنى هذه النبذة السمجة وقلت :

— لا تبتئس يا مستر هولز ولا تحزن ، فان الدنيا لا تخلو من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ، ومن سامع طاعن ، ومن منافس مقصر

فضحك حتى بانت نواجذه وتجلت أسارير وجهه وبدا لونه كالباج وقال :

— كما أنها لا تخلو من ذي سلامة في المنطق وصحة في النظر وصدق في القصد، ومن رجل شديد المحاماة عن حقوق الضعفاء ، والمطالب بدماء القتلى قليل التسرع إلى أعراض العاملين . فلندع أبطال سكوتلانديارد في غيهم . ولكن قل لي : هل لاحظت أثناء زيارتك الأخيرة حديقة الحيوان كيف أن منج طفل الغوريلا بدأ يدق صدره بإحدى يديه على طريقة يتبعها كل أبناء جنسه حين تشرف على سن المراهقة ؟ فقلت له : نعم . . .

قال : لقد بدأ دور الدق على الصدر منذ ثلاثة أشهر ، أما الآن فهو يدق دقاً منظما بكلتا راحتيه ونحن واثقون أنه اتبع غريزته وأصغى إلى صوت وراثته ، فلم يعلمه أحد ولم يلقنه أحد من الانسان أو الحيوان تلك الوسيلة التي تنم عن مراهقته واستكمال ذكورته . إن دق الصدر علامة على الاهتياج بأنواعه ، عند بعض طوائف البشر وبعض فصائل الحيوان ، هكذا فعلت أنثى الغوريلا مونيا وذكرها موك . ولكن مونيا كانت أشد حذراً من موك ، لأنها كانت تتقي أن تؤذي ثدييها ، فهي لا تنسى في فورة الهيجان ضرورة الحرص على بدنها . والذكر يلطم خديه لا براحة مبسوطة بل بقبضة اليد مجتمعة. أما موك ومونيا ومنج فقد لطمت وجناتها ودقت صدورها براحة مبسوطة . وإن لذلك لصوتاً رهيباً في الحديقة ، فما بالك به وسط الغاب في هدوء الضحى أو سكون الليل

وكنت على شدة إعجابي بحديث هولمز في كل وقت وانشراح خاطري بهدوء باله ، قد بدأت أمل حديث القردة ، وملاحظة لطمها ودقها صدرها ونسيها واغتلامها حتى كدت أقاطعه . . . فلم أتمكن من ذلك قبل أن قال : ألا تعلم أن جاكلين رضيعة الشمبانزي تنشأ الآن ومنج في قفص واحد . فسوف نرى ما تكسب منه غداً . . .

في تلك اللحظة أنقذت مسز تيرنر موقفي بدخولها وقالت :

إن سيداً بالباب يطلب لقاء مستر هولمز

فقطب هولمز جبينه وقال : في عيد الميلاد ، عند سماع الأجراس العذبة ، أجراس العيد ، طارق يريد لقائي ؟!

فقالت مسز تيرنر وكانت روح الدعابة قد اخترمتها بعد طول المعاشرة والمعيشة في حاشية هولمز المرح :

— في الحق وبالصدق ، إنه يشبه سانتا كلوز ، فلعله يحمل إليك هدية . . . ولكن شيئاً واحداً يزعجني بشأنه ، أحب أن ألفت إليه نظر السيدين (تقصد إلى هولمز وإلي) إنه لا ينفك يدق صدره بقبضة يده ، ويلطم خده براحة كفه على طريقة مدهشة ، لم يسبق أن رأيتها لأحد من الناس . ربما بعض الزنوج في معرض كوفنت جاردن أو كريستال بلاس . أما الناس ...

فدهشت ونفضت غزلي وغضضت بصري ولم أجرؤ أن أحدق في وجه ذلك الرجل العجيب الذي يكاد يطلع على الغيب ، ولكنني لم أشأ أن أفجأه بسؤال لأشفي غليل استطلاعي . . . بيد أنه أذن الرجل أن يدخل علينا ، ليرى ما شأنه ، فاستأذن على خلوتنا رجل ملتف اللحية كث العارضين ، متخلع الأسنان ، مغضن الوجه . وجلس في المكان الذي أشار إليه هولمز ؛ وما لبث الرجل أن

رفع حاجبيه الغزيرين فانطويا على جبين تكاثرت غضونه حتى لكأنها أسطر قائمة فى صفحة من سحر القدماء ، ثم أخذ يلهث ويقطع الألفاظ ويسرد حديثاً لم تستبن معانيه لغموض تراكيبه

فقال له هولمز : هوّن عليك أيها الشيخ وحاول استرجاع هدوئك ما أمكنك ، فلا محل قضية بعجلة وإنى ألمح فيك الرجل الحليم والشيخ الركين . فما هذا الحزن الذى نقلك إلى طبع الصبيان والنساء وإلى أفعال المجانين ، تكاد بعد دق صدرك ولطم خديك تشق جيبك وتنفض حبوتك وتبكى كما يبكى الحدث الغرير وتندب كالنوائح

فقال الرجل : ولدى ! ولدى الوحيد أيها الرجل النقد، زين الشباب لم تقع العين على أحسن منه وأعقل

فقال هولمز : إنك بلاريب من مقاطعة كشمير فنذ أى عهد استوطنت هذه البلاد ؟

قال الرجل : انى نزحت من الهند منذ ثلاثين عاماً وكان ابنى رضيعاً ، فنما وترعرع تحت سمائكم وأثرى لحسابه غير قانع بما ربحت من مال ، ولم يكن سفيهاً ولا مبذراً ، وكان مقتصداً لا أنكر ذلك ، حتى أنه لو طلب إليه مال ولو فى مصلحة واجبة الأداء كدفع الضريبة أو سداد دين مستحق تربد وجهه وطار الغضب فى دماغه ، فيمتنع ويعصى ويأبى . ولى أخت فقيرة معسرة ، تبعتنا بولدها ، لأنها ترملت ولم يطب لها العيش فى ظلال الفاقة ، وأحد ولديها وهو يصغر ابنى نشأ فى فقر مدقع فشغل عن التعليم بالجوع، وطمع فى ما للناس خصاصة، فكنا نبره ونرفده حينا ونمنه ونحرمه أحيانا . وكان عطائى إياه أكثر ما يحنق ابنى شاهين لال . ولم يزل معذباً أياماً حتى ينسى المال القليل الذى فرجت به كرب ابن عمته .

ومنذ أسبوعين غادر ابنى بيت الأسرة إلى قرية ديرهام ليجمع مالا من ثمار ضيعة لنا فيها أثمار الشليك التى تطبخ ويحمل صبى فى أعقاب من الزجاج . وكانت آخر مرة رؤى فيها ، وهو فى سيارة مأجورة نقلته من محطة ديكورتى جنكسن فى طريقه إلى تلك القرية . ثم لم نقف له على أثر

فهمهم هولمز : اختفاء غريب حقاً ! فهل أبلغت خبر اختفائه الشرطة ؟

فقال الهندى : أنا جوهر شاه لال أشهد أنى لم أر قط شرطة أغرب وأعجب من شرطة هذه البلاد . فساعتهم بيوم ويومهم بشهر وشهرهم بعام . وإن روح الدعابة فيهم لأقوى من موهبة الذكاء . والسخرية من المنكوبين أمثالى أنكى من عاطفة الواجب . وقد أصبح أداء الأعمال لديهم نوعاً من حركة الآلات التى لا تشعر ولا تحس

فقال هولمز باسماً : على رسلك أيها الرجل الموتور إنك لا تزال من رعايا التاج والطاعة عليك واجبة فى حق السلطة التنفيذية ، التى لولا قوتها ما استطعت أن تعيش فى هذه البلاد آمنا فى سربك مطمئناً على مالك وحياتك

فقال الهندى : أى أمن هذا ؟ كان أهون علىّ أن أموت وأدفن أو أحرق بديلاً من ولدى الوحيد . لقد قلت هذا القول نفسه للمفتش جريفين ، فلم يهتز ولم يثر . ولما ذكرت له اسمك بعد يأسى من معونته وامتعاضى من طرائق عمله قال لى : عليك به . عليك بمستر هولمز إنه خير من يجلو غموض هذه القضية ويحل عقدتها . وليس لك عمل عندنا ، فقد استنفدنا وسائل البحث حتى البركة الآسنة نزحنا ماءها ، والقصر العتيق أقلبناه رأساً على عقب وكدنا نهدم

جدرانه ، ثم أعرض عنى . وما هالنى إلا نبذة قارصة قرأتها فى جريدة هذا النهار ، تسلقك بألسنة حداد فهرولت إليك

فقال هولمز : وهذا أيضاً لا يبزر نقدك ، فقد أسدى هؤلاء الرجال الأفاضل للعدل خدمات لاتنسى ولا تقدر . ولكن أمهر الرماة وأحذقهم وأصوبهم قد يخطئ الهدف مرة أو مرتين فلا تكون خيبته سبباً فى نسيان إصابته مرات . أنت تتجر فى السجاد واللؤلؤ والأفاويه ؟

— نعم . من قال لك ذلك ؟

— لا تحفل لهذه الظنون شأنا

— ولكنها حقائق لا ظنون فقد ورثت تجارة السجاد الفارسى عن والدى . وهويت تجارة اللؤلؤ هواية عشقتها تقليدا لصديقى صاحب هارنهرو؟ أما الأفاويه فيبعث بها إلىّ واحد من ذوى القربى يقيم منذ ثلاثين عاما فى بطاوى عاصمة جاوه . فقلت للمستر جريفن إنك تقفني هذا الموقف وتحملنى على هذا المركب ثم تخذلنى هـذا الخذلان وتشنئى مثل هذا الذل ، ولو حيرة الخوف من العقاب . إننى أتزل عن نصف مالى بل كله لو أنك رددت إلى ولدى

فقال لى المفتش : أشروع فى رشوة أيها الأجنبى ؟ فقلت : لست وحقك أجنبياً ولاغريباً .

فقال هولمز : دعنا من حديث هـذا المفتش جريفن لأنه من أصدقائى الأعزة ويؤلمنى أن تسىء بيننا ، فطالما أسدى إلى خدمة جلى . وقل لى ما مقدار تلك الثروة التى تتيه بها وتبذلها لنجاة ولدك ، فصمت الرجل وتنهد وتلفت يمينا وشمالاً كعادة أهل الشرق فى الحذر ونظر إلى نظرة مريبة . ثم قال : إن قلت مائة ألف جنيه أكون كاذبا ، أو مائتين أكون مقصراً . فسأل هولمز إنك تحمل ميزان رصيدك فى أحد جيوبك . أتملك نصف مليون يامسترلال ؟ فتنهد المندى وتلفت وقال : قد . قد يكون هذا الرقم قريباً من الحقيقة

فقال هولمز : فاذا مت من غير عقب ؟

فانتفض الرجل وقال : حاشا لكالى وفشنو وكريشنا أن تمسح كهانتك . قال هولمز : لاعليك؛ فلا تتطير من سؤالى ، بل أجبنى ! إن مت من غير عقب ، فمن يرث مالك ؟

فبكى الرجل حتى بلل لحيته وقال : ترثنى تلك العينة السوداء أختى شاهجيهان كرو

فقال هولمز : ولا أحد سواها

فقال الرجل : زوجتى تحرم وتحرق وتكب على مناخرها فى النار ولاتنال روبية واحدة . فقال هولمز : تفضل ياذكتور وطسن وناولنى هـذا المجلد الأحمر البالى على الرف الثالث فى الصوان الخامس من اليسار وهو باسفل المطبوعة التاسعة من دائرة المعارف ج ٢٤ حرف ميم ونون . فلما ناولته المجلد المعهود فتحه وقرأ بعض نصوصه وقال :

أية شريعة للمواريث هـذه ؟ تكلم يا وطسن ، إن للمرأة فى الشرق مكانة سامية وإن كانت تحرق بعد وفاة بعلها ، فهلا كما قرن ترملها . ومما يدل على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالآلهة التى لا شىء أعظم منها ، وبالمشى إلى أقدس الهياكل، وبصدقة ماله فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ، فان استحلف بالطلاق يغضب ، ويرفض ، وإن كان الحلف قاضياً جليلا أو أميراً مهيبا أو حاكما مطلقاً ، ولم يكن الرجل يحبها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر قليلة النسب . ولكن هـذه

المرأة السكينة تفقد وجودها وكرامتها يوم يموت بعلها ويلقى بها من حالق ، وعلى ذكر النساء يا وطسن أتعلم أنى فكرت كثيراً فى الأخوات الثلاث من أسرة برونطه شارلوت واميلى وآن[1] ولست أدرى إلى الآن أيهن أذكى وأقسى قلباً وأكثر تحملا للآلام ، فظهرت علائم القلق على المندى وتململ فى مقعده ، ولكن هولمز لم يلتفت إليه ولعله كان مكتفياً بدرسه من كثب . ثم قال لى :

— أتعلم أن فى قصة (جان بار) التى دبجتها براعة شارلوت — حديث المرأة التى تصدق أحلامها، فاذا رأت فيما يري النائم شيئاً ، فلا بد أن يقع على الحالة التى رأتها ، كأنها تطلع على الغيب ؟ وتعلم سلفاً حوادث الأيام ، فلو كانت هذه الرائية على قيد الحياة لكشفت لنا القناع عن كثير من الجرائم . .

فابتسمت وقلت : لعلك تأثرت يا مستر هولمز بأعمال تلك الجمعية التى يبحث أعضاؤها العلماء فى أسرار الروح والنفس على طريقة تثير الخواطر .

فقال هولمز : إن عقلى كالخزانة المفتوحة تتلقى كل ما تستودعه من الصور والآراء . ثم حول وجهه فجأة نحو المندى وقال له : وابن أختك هذا البائس المنبوذ أما زال ؟

قال المندى : نعم ما زال مدقعاً محروماً منحوس الحظ ممنوعاً

قال هولمز : أتراه يعشق فتاة من بنات جنسه أو خريدة أخرى من الجنس الأبيض ؟

قال المندى : إنه متهتك فى حب النساء من سائر الأجناس يعشقهن ويتدله فى هواهن ، بقدر ما يبغضه الرزق .

قال هولمز : وهل يزور تلك الضيعة التى تؤتى أكلها من الأثمار ، أو له بها سكن ؟

قال المندى : كان يختلف إليها إذ كان وولدى صبيين يلهوان معاً ويلعبان بالأكر والصوالج . وفرق بينهما الفقر . وقد حاول استدراج ولدى ، وقد عثرت مرة على ورقة مكتوبة بالهندستانى فيها هذه الكلمات: «ابن خالى العزيز، لقد تأملت شأن الدنيا فوجدت أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه العاشق بطليبه ووجدت شقوة الطالب المكدى وغمه ، فى وزن سعادة الطالب الناجح وسروره ، ووجدت العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف كان موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .

ووجدتك قد ضربت بالعشق عرض الحائط فكنت البخل من نفسك . وعشقت الرزق وجمع المال ، حتى أبغضت كل شئ . وليس المال بامرأة ولا يعشق إلا النساء ، ورأيت حبهن من أكبر أسباب اجتماع الخير . وها أنت ذا قد امتحنت جمع المال ثلاثين عاماً ، فهلا جربت حب النساء شهراً واحداً ؟ »

وقد لاحظ هولمز غرابة هذا الخطاب ، فعبس ثم ابتسم وقال أخيراً للمندى :

— وأين ابن أختك الآن ؟ وهل شغلته الشعوذة أو السحر يوماً ؟

وإننا لكذلك وإذا بالمندى المتهدم يقفز من مقعده ويدق على صدره بيديه كمن مسه الجن . ثم أخذ يعول وينوح ويقول :

— أتؤمن بالسحر يا مستر هولمز ؟ أتؤمن بالأحلام التى يراها النائم فيما يري ؟

فحاولت أن أبادل هولمز النظرات ، ولكنه لم

(١) حنه أو حنينة

يمبأ بى وركز عينيه اللامعتين فى وجه الرجل ، ثم قال ببطء :

— السحر ... لا . أما الأحلام فنعم . ولكن مادخل حديث السحر والرؤى فى استخفاء ولدك ؟

فقال المندى : اسمع يا مستر هولمز ... إنك رجل عجيب . الآن فقط تذكرت ، ويرجع الفضل إليك فيما ذكرته

فقال هولمز : وكيف ذلك ؟

— لقد رأيت أمس فى الحلم ولدى يختال فى ثياب جديدة من حرير الشرق وعلى رأسه عمامة ، أى نعم عمامة ، وفى قدميه حذاء أصفر تعود أن ينتعله ؛ وكان سبوح الوجه مشرقه . فلما دنوت منه لأقبله ، لأننى فى الرؤيا كنت عالماً أنه مستخف وأننى أبحث عنه وأخشى عليه الخطر ، فأعرض عنى وقال :

— كيف تتركنى هكذا ؟ أتهـدر دمى ؟ ألا تبحث عنى ؟ ألاتبذل جهدك ؟ . فبكيت ، فقال لى : ألا تعرف قاتلى ؟ ألا تعرف غريمك الذى اغتالنى ؟

فقلت : لا . قل لى من هو ؟

فقال : هو الرجل الذى تلقاه عصر هذا النهار هابطاً من مركبة الكهرباء فى محطة باسكرفيل ... ثم غاب شبح ولدى بالسرعة التى ظهر بها

فلم يبد على وجه هولمز أى اهتمام ، ولكنه سأله فى هدوء :

— وهل صدقت هذا النـذير وقصدت إلى موعد اللقاء ؟ أجاب : نعم

هولمز — فمن رأيت ؟

المندى — رأيت ... آه ... إنى أختنق ... رأيت ابن أختى الموراء

فانفرجت أسارير هولمز ، وكأنه أفاق من غشية ثم استدرك قائلا :

— هذه أضغاث أحلام . إذا أتتك الرؤى بنبأ فتبينه قبل أن تتهم شخصاً قد يكون بريئاً

فقال المندى : الأمر لك يا مستر هولمز ... ولكن هل تخدعنا الأرواح إلى هذا الحد ؟

فقال هولمز : لا رأى لى فى هذا . وإن كانت روح ولد عليت لم تخدعه قط ... وتحك ... عليك الآن أن تذهب إلى عملك ودارك وأن توافينى فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى محطة باسكرفيل ، لتدلنى على المكان الذى لقيت فيه ابن أختك

فقال المندى : مستر هولمز ... مستر هولمز نسيت شيئاً . لقد أعرضت فى أول الأمر عن محادثة ذلك الولد ابن أختى الموراء المترملة ، قائلاً بينى وبين نفسى : أيبقى الطالح ويذهب الصالح ؟ ما نفع هذا الوغد فى الحياة وهو جاهل متطلل ؟ ولكنه أقبل على ... وكان أصفر الوجه ممتقعاً وقال لى وهو يتلجلج : هل استجد شىء فى الحادث ؟

فقلت : أى حادث ؟

قال : استخفاء ابن خالى

فقلت له : وهل يهمك أمره ؟

قال : كيف لا ، أليس بيننا دم القرابة يجرى فى عروقنا معاً ؟

فأخرجت من جيبى هذا الخطاب الذى تلوت ترجمته على مسامعك وقلت له :

— لو كنت تحبه حقاً ما حرضته على الفسق ، وزينت له ملاهى الشيطان . فبكى وتوارى عنى دون أية تحية

فتناول هولمز الخطاب المندى ونهض يودع

الرجل وعاد هادئاً ، ثم تناول عدسته الكبيرة وأخذ يفحص الخطاب فحصاً دقيقاً

ثم قال لي : علينا الآن أن ننهض لنخرج . أتعرف يا وطسن مبادئ الشيرومانسية ؟

قلت : أبداً

قال : لقد كان هذا الدجال تشيرو على نصيب كبير من الفطنة ، فحاز شهرة ومالاً . هيا ولنلبس ثياب الهنود وعمائمهم ولنتخذ مظهر العالمين بقراءة الكف

وبعد ساعة كنا نجوس خلال الشوارع تحت وابل من المطر . وقد تركنا الديك الرومي الحنيذ والبودنج وغذ الخاوف المدخن تنبئ من طبخها وهيأها . أي تنبئ مسز تيرنر التي رأتنا نترك مأدبة عيد الميلاد في أزياء غريبة . وما زلنا نسير كأننا على غير هدى — هكذا سبهللاً في الواسع والضيق من مسالك لندن وجاداتها حتى بلغنا شارع ويلسو ، وهو الذي يربط كنجزواي بدوري لين ، ثم انحدرنا نحو الشمال وما زلنا نسير حتى بلغنا أوله بلانيد ستريت وهو من أظلم الطرق وأضيقها وأقذرها فوقف هولمز متردداً ثم دفع باباً صغيراً فاندفع ودخلنا في حانة شمطاء ، فاستقبلتنا الساقية بابتسامة عريضة وسألتنا إن كنا نشرب الجعة دسمة ثقيلة ، أم نشربها خفيفة شقراء ، فطلب هولمز الأخيرة . ولمحنا في أحد أركان الحانة شاباً أسمر اللون منثنياً على نفسه كأنه « كوبرا » غبراء تهتضم الفريسة التي طوت عليها أحشاءها . فشربنا من الجعة جرعة ، ثم نهض هولمز ودنا من الساقية ودفع لها ثمن المشروب وقال لها :

— أتودين أن تعرفي حظك بقراءة الكف ؟

فضحكت وقالت : لقد جاوزت السن التي أهتم فيها بحظي ، وليس لي الآن محبوب أترقبه أو أخشى فراقه

فقال هولمز : وكان مدهشاً في تقليد الهنود عند ما يتكلمون الانجليزية : لا لا يا مسز مخطئين إذا كان علم الكف يكشف عن الحب وحده فانه دليل الحياة والعقل والأمراض والنجاح وضده أثناء العمر وما يصادف الانسان من السعود والنحوس ، ويكشف عن القضايا الكبرى وما يصيب المرء من حسن الحظ

فتناولت المرأة يدها لهولمز فبدأ ينظر فيها بانتظام وعند ذلك تحرك الشخص الأسمر المنطوي على نفسه وأخذ يصغي بانتباه

فقال هولمز : إن في جوارك أو في حاشيتك أو على مقربة منك شخصاً يهمه الاتهام في قضية قتل خطيرة

فنظرت المرأة وسحبت كفها من يد هولمز بلطف ، فقال لها :

لا تهتمي فان هذا السر لايضيرك ولايسوؤك إنه بعيد عنك . قد تربحين في حياتك المقبلة مبلغاً من المال عن طريق الحظ الحسن . وقد تشترين عقاراً في مقاطعة ديرهام

فقالت : يالك من منجم صادق . إنها مقاطعتي وربعي حيث ولدت وقضيت طفولتي وصباي في مغانيها . ولا أزال أفكر في العودة إليها ...

من الخير أن تجلس أيها السيد ، فسأحدد لك موعداً لنلتقي بحيث تسهب في التنبؤ لي . فعاد هولمز إلى مقعده

ولم يكد المقام يستقر بنا حتى نهض الشخص الأسمر ودنا منا وحيانا بالهندية . ولشد ما كانت

دهشتى عند ما أجابه هولمز بالهندوستانى ، كأفضل مواطن نشأ فى مقاطعة كشمير ولم أكن قبل اليوم أعلم أن هولمز يجيد الهندية كأحد أبنائها

وسرعان ما مد الشخص الأسمر كفه لهولمز فأخذ ينظر فيها ثم قال له بالانجليزية :

حيث أننا جيعاً نجيد تلك اللغة ، فلنتكلم بها . ثم قال :

إنك ولدت فى الهند حتما ونزحت عنها فى سن صغيرة . وأنت يتيم الوالد ، وأمك الأرمل تعيش معك فى هذه البلاد ، وهى شوهاء عوراء ، ولكنها تحبك وتخلص لك . لم يسعفك الحظ لافى المال ولا فى طلب العلم ، وعندك هوى شديد النساء . ماذا أرى ؟ كان لك قريب يدانيك فى السن ويفوقك فى الذكاء والغنى . وهو جد بخيل ولكننى لا أراه الآن ... لا أراه على قيد الحياة . وأرى امرأة بينكما تدفعك إلى اغتياله وهى امرأة أجنبية ، لا تهمها حياتك ولا حياته . إن الجثة ...

فبكى الهندى ، وأجهش فى البكاء وقال : أنا أعلم أن الجثة تكاد تتعفن ، لولا تلك الحقنة التى أفرغتها بين الجلد واللحم . إن الآلهة تعذبنى

فقال هولمز وهو ثابت الجأش كأنه صخرة لا تتحرك

لنترك التنجيم جانباً ... إننا أبناء وطن واحد أين تلك الجثة ؟

فقال الهندى : فى غرفة هنا فى شارع كورنوال باديستون حيث تقطن المرأة بولى التى أعشقها . لقد خنقته بيدى وهى تحرس الباب . فلم تنزف منه نقطة دم واحدة . وقد وضعناه معاً فى صندوق كبير

فقال هولمز : عليك الآن أن تغادر شواطىء هذه البلاد بأقرب فرصة

فقال الهندى : والجثة ؟

فقال هولمز : لا عليك منها . فأنا أتولى أمرها

فأخرج الهندى من جيبه حزمة من الأوراق المالية وقال : هاك بعض النقود التى وجدناها فى محفظته ، خذ منها ماتشاء أجراً على الخلاص من الجثة

فتناول هولمز النقود وقال له : هيا بنا .

ونهضنا . وخرجنا نضرب فى سواد الليل ، حتى عثرنا على « هانسوب كاب » فاتخذناها إلى أن وصلنا إلى المنزل الذى فيه الجثة فى الصندوق ، فكلفه هولمز بحمله ونقله ، ودعا المرأة إلى مصاحبتنا موهماً إياها أنها ستغادر البلاد مع صديقها وأنه سيتولى الخلاص من الجثة ، واتخذنا عربة من طراز فيكتوريا . حلتنا جيعاً ومعنا صندوق الجثة . وكان المطر قد ازداد انهماره ، حتى اضطررنا للالتجاء إلى قبو تحت سكة حديد امجات هول ، وهو قبو مزدان بالقيشانى الأبيض اللامع ، حتى لكأنه ألواح من الجليد نشرت تحت الأرض على طول مائة ياردة طولاً وعرضاً وارتفاعاً .

لقد كان موقفاً غريباً حقاً : ثلاثة رجال وامرأة وجثة .

وكان الهندى الجانى مستسلماً لهولمز الذى اعتبره منقذاً مخلصاً . أما الفتاة بولى فكانت من شر أنواع النساء الانجليزيات قلباً وقالباً ، فلم يزد هولمز على أن يعلم اسم والدها وموطن ميلادها

وقد قضينا هذه الليلة الغريبة أوالهزيع الأخير منها تحت القبو ، حتى إذا كان مطلع الفجر أمر السائق بأن يسير قدما إلى محطة باسكرفيل ، التى تجتمع بها قطر من الترام لا عـدد لها مقبلة وذاهبة إلى سائر نامحيات العاصمة .

وكان السهر والتعب وهم انتظار ما يأتى به الغد قد نالت منا جميعا ، ما عدا هولمز الذى كان أنشط ما يكون « منجم هندى » !.

وقضينا وقتا طويلا فى الطواف بشركات البواخر ، ليضمن الهندى وشريكته مرقدين فى باخرة مبحرة إلى أمريكا أو إحدى المستعمرات .

وكان هولمز هازلاً لا جاداً ، يقصد إلى تضييع الوقت أوفضيحة القاتلين . وكانت الفتاة الانجليزية بولى تقول بين حين وآخر : أرى أن هذا النهار لن ينتهى بخير أبداً .

فقال هولمز بانجليزية مضعضعة ليتقن تقاليد الهنود :

— ربما صحت الأحلام والنبوءات أيتها السيدة

وفى الساعة الثانية كان الجوع قد أخذ منا كل مأخذ ، فوقفنا فى شارع واترلو على مقربة من ميدان الطرف الأغر ، وإذا بالهندى يقول : «ضعوا على رأسى لحافاً أو غطاء سميكا ، فان البرد شديد

ولكن هولمز قال له : ليس البرد شديداً ولكن هذا خالك والد القتيل قد أقبل . ثم أخرج من جيبه قيد الحديد ووضعه حول يديه وقال لى : تناول رفيقته برفق ولين فتلك عادة معاملة السيدات . فأخرجت على كره قيداً آخر ووضعته حول يديها ونشط هولمز من عقاله ونادى بأعلى صوته « شاهين لال ناوردجى » فالتفت إلينا الرجل ثم جرى إلينا فلم يتعرف علينا لولا أن قال له هولمز: ها هو ذا ولدك قتيلا فى الصندوق وغريمك وشريكته ، ووضع عمامته عن رأسه فأقبل الهندى الثاكل يقبل يديه وقدميه .

فقال له : الأولى لك الآن أن تلجأ إلى المفتش جريفين فقد طبخنا له الطبخة ، وما عليه إلا أن يأكلها . أما نحن فسنعود إلى مسز تيرنر لنشاركها فى التهام الديك المحشو بالأرز اليابانى والأفاويه الهندية والزبيب الأناضولى والصنوبر الشامى واللوز الاسبانى والجوز التركى . فقد استحققنا هذه الأكلة التى تنتظرنا

فقال له القاتل : أيها الخائن الانجليزي

قال هولمز وهو ينفخ فى صفارته يستدعى الشرطة للقبض عليهما متلبسين :

— لئن كنت خائناً ، لخير من أن أكون قاتلا

فأجهشت بولى بالبكاء ثم ضحكت وقالت لمحبوبها الذى رمته فى أعمق الحفر :

— ألم أقل لك إن النهار لن ينتهى بخير ؟

وأقبل الشرطي وتكاثر النظارة . وانفلتنا إلى منزلنا فى ٤٠ بيكر ستريت

محمد لطفى جمعة

الشقي المدلل

للفيلسوف الروسي « تولستوي »
بقلم الأديب فخري شهاب السعيدي

كانت تقوم على شاطئ البحر الأبيض، وقريباً من الحدود الفرنسية الايطالية مملكة صغيرة اسمها «مملكة موناكو»؛ ولعل لكثير من المدن أن تختال على هذه المملكة بوفرة نفوسها وازدحام سكانها، فان أهالي هذه المملكة ما كانوا يتجاوزون سبعة آلاف! وعلى أنه لو قسمت بينهم أراضي المملكة جميعاً لما أصاب المواطن الواحد منهم فدانا! ومع ذلك كله فقد كان لهذه المملكة ملك حقيقي له قصر وحاشية ووزراء، وله أسقف وجيش وقادة!

وعلى أن الجيش لم يكن بالجيش العرمرم الضخم — إذ ما كان عدد أفراده يزيد على الستين — فهو مع ذلك جيش له خطره وأهميته في المحافظة على كيان البلاد... وكان للحكومة في هذه المملكة ضرائب على الشعب تتقاضاه إياها شأن بقية الحكومات؛ فضريبة على التبغ وضريبة على الشراب، وضريبة أخرى غير هاتين على الرؤوس... ومع أن الشعب كان كعامة شعوب العالم يدمن التدخين، ويتعاطى الخمور، إلا أن ضرائب الحكومة من ذلك لم تكن تسد حاجات الأمير ونفقات بلاطه وجيشه، لو لم تسعفه ضريبة أخرى من مصدر جديد هو لعبة «الروليت»

فقد كان الناس يتقاطرون من أنحاء أوربا ليقامروا هناك في دار القمار، وسواء أربح اللاعبون أم كانوا من الخاسرين فان لصاحب القمار حصته المعروفة من المال. وكان يجتمع له بهذا مال كثير يكون النصيب الأوفر منه للأمير... وتضخم أرباح الأمير من هذه اللعبة مرجعه أن دار القمار هذه هي الوحيدة من نوعها في أرجاء أوربا كلها؛ وإذ كان أمراء الألمان قد منعوا من إقامة أمثال هذه البيوت في بلادهم لما يقع فيها من حوادث الأجرام والأضرار الناتئة عن خسارة بعض اللاعبين ومقامراتهم ومضارباتهم وانتهائهم عند نزول الكارثة بهم إلى الانتحار بالرصاص؛ وإذ كان أمير « موناكو » غير متقيد ولا تابع لسلطة من التي يطيعها أمراء الألمان فقد ألغيت دور القمار عند أولئك وبقيت داره هذه الوحيدة في أوربا التي لاقدرة لأحد أن يتعرض لها بشيء؛ وظل هو محتكراً هذه الأرباح

وكذلك كان الناس يفدون على « موناكو » ليقامروا فتارة يخسرون وأخرى يربحون، أما الأمير فليس له في كلتا الحالتين سوى الربح... وعلى أن

(*) أصل العنوان لم يكن بالأنكليزية كما أثبتناه وإنما كان معناه الحرفي « عزيز جدا » (Too Dear) غير أن سياق القصة ومعناها أجدر بهذا العنوان الذي لانراه في نظرنا مخالفاً لرأي واضع القصة. والقصة بعد هذا مما اقتبسه الفيلسوف عن القصصي الفرنسي (موباسان)

أمير (موناكو) كان عليا بالمثل القائل : « ليس من نتائج أعمال النزاهة والشرف تشييد شوامخ القصور . » وعلى أنه كان عارفاً بأن اليسر ليس من مشرفات الأعمال فانه لم يجد بداً من إبقاء نظام اليسر على وضعه ليسد حاجاته ، وليعيش عيشة يرضاها ؛ فكان يقيم الحفلات ويولم الولائم ، ويظهر للناس بمظهر الأبهة التي يعهدونها في قصور الملوك .. وكان يمنح المنح ، ويجزل الهبات ، ويشكل اللجان ، ويشرع النظم وينشئ المحاكم ... وكان يعرض الجيش ويطوف بأنحاء المملكة ، ويفعل فعل غيره من الملوك ، ولكن في صورة مصغرة كنسبة مملكته المصغرة إلى بقية الممالك ! !

* * *

وكان أهل (موناكو) معروفين بالسالة ولين العريكة ، فليس بينهم مجرم ولا سفاح ، حتى حدثت منذ سنوات مضت جريمة قتل كانت الأولى في تاريخ هذه المملكة ؛ فاجتمع لها القضاة في يوم مشهود ليتداولوا في شؤون هذه القضية وفق أصول العدل والانصاف . وكان ذلك الحفل المهيب يضم رجال القانون من محامين وقضاة ومحلفين ومدعين عامين . وقد ظلوا يتدارسون نصوص القانون ، ويؤولونها ، ويذهبون في تفسيرها المذاهب حتى أصدروا حكم الاعدام على ذلك القاتل وفق إحدى مواد القانون ! وحمل القرار من بعد ذلك إلى الأمير ، فقرأه وأصدر الأمر بالموافقة على ما يرتأون !

على أن مشكلة واحـدة بقيت لتنفيذ الحكم ، إذ لم يكن في المملكة مقصلة ولا كان بها جلاد ! فبحث الوزراء المشكلة وقرروا أن يفاوضوا الحكومة الفرنسية في أمر إعارتهم مقصلة وجلاداً لتنفيذ حكم الاعدام ، وطلبوا منها معرفة ما يقتضيهم ذلك من الأجور . ثم أرسلوا بالكتاب إلى رئيس الجمهورية الفرنسية .

وبعد أسبوع ورد جواب الرئيس قائلاً « إن تكاليف إرسال مقصلة وجلاد تبلغ ستة عشر ألفاً من الفرنكات . » وعرض هذا على الأمير فعجب من استحالة قطع رأس هـذا الأثيم إلا بهذا المبلغ الجسيم الذي لا تقوم بشيء منه حياته ! ثم طلب التفتيش عن طريقـة أرخص لا ترهق الأهلين بضريبة جديدة يجبرون عليها ، وربما كان من ذلك ثورة جامحة تندلع ألسنتها فتطغى على الأمن في البلاد !

... ودعي مجلس الوزراء للبحث في هذه المشكلة من جديد ... وعندئذ قرر المجلس إرسـال طلب آخر إلى ملك إيطاليا : ذلك بأن حكومة فرنسا جمهورية لا ترعى الود المتبادل بين الملوك ؛ وليس أمر ملك إيطاليا كذلك ، فانه — ولا شك — سيرعى حرمة الزمالة التي تربطه بالأمير فيتساهل معه . وعلى هذا فقد كتبت رسالة في هذا الغرض وأرسلت ، فجاء الجواب : « إن من دواعي غبطة الحكومة الايطالية تجهيز جارتها بالمقصلة والجلاد مقابل اثني عشر ألفاً من الفرنكات ضمنها تكاليف الارسال والاعادة » وهذا الأجر وإن كان أقل من سابقه إلا أن الجرم لا يستحق صرف هذا المبلغ

عليه ، وتكليف الرعية بأن يدفع كل فرد منها نرنكين :

وهكذا دعى المجلس ثالثة للاجتماع فتداول أعضاؤه الأمر ، وتناقشوا فى المعضلة لعلهم يهتدون إلى طريقة رخيصة فى قتل هـذا المجرم . فقال قائلهم : أو لا يمكن تكليف أحد من الجند بقطع رقبة هذا الأثيم ؟ وليكن ذلك كيفما اتفق إذ المهم أن يموت ! فدعى الملك قائد الجيش وألقى عليـه السؤال ، فجمع هذا جنده وسألهم : أفى استطاعة أحدكم تنفيذ المهمة ؟ غير أنهم لم يجيبوه ولم يرتضوا ذلك منه ، وقالوا له : « إن ذلك ليس من شأننا — نحن — ولا كان مما سبق أن دربنا عليه ! »
هنالك فكر الوزراء وتذاكروا فأجمعوا أمرهم على تفويض النظر فى القضية إلى لجنتين عليا ودنيا ، وأخيراً تم القرار على الاستعاضة عن حكم الاعدام بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة . وكان الأمير بهذا يستطيع أن يرى الرعية رأفته ورقة قلبه ، كما أن تلك الطريقة كانت أرخص العقوبات جميعاً ! ووافق الأمير على الحكم الأخير وأوشك التنفيذ أن يتم لولا أن قامت أزمة جديدة تلك هى أزمة إيجـاد سجن يقضى فيه هذا السجين حياته . على أنهم أخيراً وفقوا إلى إيجاد غرفة لاقامته ووكلوا به سجاناً يتولى أمر حراسـته وإطعامه من مطبخ القصر

ظل السجين فى محبسه تتعاقب عليـه الشهور حتى اكتملت عليه سنة تماماً ؛ ولـكن بينا كان

الأمير يفحص ميزانية الدولة ويقلب فيها نظره لاحظ أن فيها باباً جديداً من النفقة ؛ تلك هي نفقات سجن هذا المجرم الشقي ، ولم تكن هذه بالنفقات اليسيرة البسيطة، ولا كانت بالسهلة القليلة، وإنما كانت شديدة الكلفة ثقيلة الوطأة على ميزانية الدولة ! فقد كان للمجرم هذا حارس يمنعه من الهرب ، ورجل غيره يتولى أمر إطعامه ! وفي هذا السبيل صرفت ستمائة فرنك من ميزانية الدولة هذا العام ! والأدهى من ذلك أن الرجل في ميعة الشباب ، صحيح البدن معافى ، ولربما امتد به العمر إلى خمسين من السنين! ولو حسب المرء المسألة هذا الحساب لم يجدها بالسهولة التي كان يتصور . . . وعلى ذلك فقد جمع الأمير وزراءه وقال لهم : « إن عليكم أن تكتشفوا طريقة غير هـذه تكون أخف مؤونة وأقل منهـا نفقة ، فهـذه التي ابتدعتموها باهظة ! لا قبل لنا بها ! »

وتداول الوزراء الأمر بينهم حتى اهتدى أحدهم إلى فكرة فقال لاخوانه : « أيها السادة ، إن من المعقول — في نظري — أن نفصل الحارس فنقتصد نفقاته . غير أن وزيراً آخر اعترض عليه قائلاً : « إن الرجـل سيهرب إن لم يجـد من يحرسه . » هنا لك رد عليه صاحبه : إن ذلك ما يريدون إذ لا يهمهم هربه شيئاً !

وتم على ذلك الاتفاق . فرفعوا إلى الأمير تقريراً يشرحون له الأمر فوافقهم على ما يرتأون . وفصل الحارس عن عمله وظل جماعة الوزراء يرتقبون المآل حتى جاء موعد الغداء واشتد بالسجين الجوع ، فخرج بعد أن طال ارتقابه لحارسه حتى يئس منه — إلى مطبخ القصر وأخذ طعامه منه وعاد إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب ! وعاد في اليوم التالي فكرر ما صنع بالأمس في الوقت المعين المحـدود ؛ وهكذا قبل السجين هذا الغداء الجديد ، دون أن تخطر له فكرة الهرب من هذا السجن على بال !

وإذاً فما ترى الوزراء فاعلين ؟

هنا لك اجتمعوا وبحثوا المشكلة من جديد فقر رأيهم أن يصارحوه عدم رغبتهم في بقائه أبداً ، فاستدعاه (وزير العدل) إليه وسأله :

— ما بالك لم تهرب وليس عليك حارس يمنعك؟ إذهب حيث شئت فلن يعنى بذلك الأمير . فأجاب الرجل : — لعلي أستطيع أن أقول إن الأمير لا يعنيه ، ولكن أين المأوى الذي آوي إليه ؟ ولا حيـلة لي في الحصول على قوتي وقد وصمتموني بأشنع الصفات بأحكامكم التي أصدرتم علي . وهؤلاء الناس لن يأتمنوني بعد الآن على شيء . ذلك إلى أني إعتدت حياة الكسل والخمول فتعطلت بالتدريج . لقد أسأتم إلي حقاً ، فقد كنتم أصدرتم الحكم علي بالاعدام فلم تنفذوه ؛ ثم استعضتم عن ذلك بحكم الأشغال المؤبدة الشاقة وعينتم لذلك حارساً كان يأتيني بطعامي، غير أنكم — بعد برهة من الزمن — عزلتموه فاضطررت إلى الذهاب بنفسي إلى المطبخ للحصول على ما يكفيني من الطعام . ثم إنكم — بعد ذلك — تريدونني على الفرار ! كلا يا سيدي

كل شيء يصح وليس إلى ما تريدونني عليه من سبيل! اصنعوا ما بدا لكم وافعلوا بي ما حلا لكم غير أني لن ألوذ بالفرار قط!

إذاً فكيف؟

واجتمع مجلس الوزراء يبحث المعضلة بحثاً جدياً حاسماً، ولكنهم احتاروا فيما يقررون! وترددوا في اختيار النهج الذي يرون اتباع السير عليه ... إن الرجل لن يبرح المكان أبداً. وفكروا واحتالوا فما وجدوا غير منح الرجل (معاشاً) يكفل لهم الخلاص منه! وأنهوا الحل الأخير إلى الأمير قائلين: إنه ليس من حل خير من هذا الذي ارتأوه، وهو أن يمنح الشقي معاشاً يقيهم أذاه، ويبعده عنهم؛ فأقر الأمير رأيهم مرغماً وتقرر للمجرم الشقي معاشاً سنوياً قدره (٦٠٠) فرنك فلما أخذ في ذلك رأيه أجاب:

— أما الآن فقد طاب الفرار! على أن تلزموا أنفسكم دفعه إلى بانتظام.

وهكذا حسمت المشكلة. وأخذ الشقي ثلث جرايته مقدماً وغادر المملكة إلى مسيرة ربع ساعة بالقطار!! ونزل قرية ابتاع فيها أرضاً بالقرب من حدود بلاده وزرعها متجراً بثمارها وغلاتها وعاش في راحة واطمئنان. وكان كلما حان موعد معاشه ذهب فاستلمه ثم اتجه إلى مائدة القمار فقامر عليها بفرنكين أو ثلاثة مكتفياً بهذا القدر اليسير ورجع إلى مهجره يستأنف حياة الدعة والراحة.

ولعل من حسن طالعه أنه لم يرتكب جريمته الأولى في قطر آخر ترخص فيه أثمان قطع الرقاب وتقل فيه تكاليف الإيداع في أعماق السجون مدى الحياة!!

فخري شهاب السعيدي

السعادة الذابلة

للكاتب القصصي جوزيف كسل

للأديب صلاح الدين المنجد

كنت وأنا فى بسمة العمر ونضرة الشباب ، أقضى الليالى بين أتباع القيصر ممن تخلى عنهم الحظ فتركوا موسكو فارين من عسف الثورة وجور القادة ، يحملون بين شغاف القلب لهفة على الحظ الآفل ، وحنيناً إلى الربع الآهل ، وأسى لذاك العهد السعيد

ما أدرى ما الذى كان يحبّب إلى هذا الصحب الذى صرعته الخمر ، وسبت عقله الشهوة ، وأنهكته البلايا ... وإن كان يستهوينى منه لباسه القوقازى الجميل ، المفعم بالألوان المشرقة ، الذى ينعكس جماله على لَمَس الشفاه الذابلة عنـد النوافى ، وضلال النظرات فى الرجال ، ويغرينى بشرته أنغامه المطربة ، ورقصه الضاحك ، وحركاته المتوحشة ، التى كانت تملك على أمرى ، وتدفعنى إلى البقاء معه أبداً ...

لقد كنت أشعر ، كلما تمثل فى خاطرى مصيرهم الباكى ، كأن دمى قد نضب وغاض ؛ فأرثى لحالهم ، وأبقى إلى جانبهم ، أسرى عنهم ما يشجيهم مذ هجروا الأوطان . فأمضى وقد تنبه الليل ، هائماً على وجهى فى طرقات باريز الحالمة ، أستمع إلى أنين العذارى وعربدة الفتيات ...

لقد علمت من أقاصيصهم كل عجيب ، وسمعت من أحاديثهم كل ظلى ، ونظرت إلى رعابيبهم نظرة الرحمة من خلل المدامع . . . أولئك الشقر النواعم واللائى احترفن الرقص والغناء بعد أن ذقن الهناء وتمرغن فى أحضان النعيم ...

يا رحمتاه لهن ... ! أكتب عليهن الشقاء فى هـذه الحانات الباريسية الضاحكة اللذة ، الغارقة فى الفجور ... ؟ يجالسن السكارى والعربدين ، ويحدثنهم عن أنباء حياتهن وأقاصيص بلادهن ، وطرائف مناصباتهن ، عند ما كان العيش غضاً والزمان غلاماً ... ! حتى إذا ما هرم الليل ، قمن نشاوى من السكر متعبات من الـكلام ، ليرتمين فوق فرش الحرير ... !

إن اعترافاتهن لشجية ، ما كنت لأرتوى منها أو أمل . . . كنت أستمع من تلك الشفاه الرقيقة أحاديث لذة تصور لى الامبراطورية الخالية ، فى نعيمها وبؤسها ، وظلمها وجورها ، وتمثـل لى أيام الارهاب ولياليه المترعة بالحب ، المفعمة بالدماء ...

لقد فقدن الكبرياء ... وصدف عنهن العز ... وما أحوجهن إلى نديم يسألهن ويستطلع دخائل قلوبهن ...

إيه باريس ...! كم سمعت فى زوايا شوارعك ... أمام موائد الخمر التى غمرت بروائح التبغ والعطر ... أحاديث البؤساء ، وكلام التعساء ... التى ترقص بين كلماتها أشباح القوة العابسة ، والظلم القاهر ، والموت الرهيب

حنانيك قارئى ! ماذا تريد أن أسمعك ؟ أقصة ذلك الأمير القوقازى ، الذى أحب الحرب وعشق البطولة ... ومات بعيـداً عن صهيل الخيل ... فى أحضان حبيبته ؟ أم قصة تلك الراقصة التى صرعتها

نظرات راسبوتين اللتهبة ، وأغوتها جنته الزاهية ؟ أم قصة رئيس الوشاة عنـد القيصر ومناصراته اللاهية ... ؟ ما أدري عم أحدثك . . . وهل أستطيع يا ترى أن أكتب كل ذلك دون أن أفقده روعته وجماله ... ؟ ما أدرى ... ما أدرى ... !

تميسات أنتن يا غواني الحانات ... ! أنا أشفق عليكن ... وأبكي لكن ... تدفعن دائماً رواد كن لأن يتجرعوا كئوس الخمر وأكواب الشمبانيا لتلذذهن بعرآهم ... ألا بئس العيش وبئس المصير ! إستمع إلى يا قارئي ... فقد أطلت ...

* * *

كانت فيرا بتروفنا جميـلة جمال الورد الرقاق بالندى عند الصباح . أصابها داء القلب أيام المسغبة والارهاب في روسيا ، فاضطرها إلى الاخلاد للهدوء والراحة ... وكنا جلوساً حول مائدة رأستها ، وأخذت تسمل كل ما أتقنته مذ كانت بنت عشر وثلاث ، لتدخل الفرح إلى نفوسنا ، والطرب إلى رؤوسنا . وكان شيطانها يوحي لها ما يسر الخاطر ويبهج القلب ، فكانت تبتسم بفمها وتتمنز بعينيها ، وترسل الغناء من ثغرها ... متدفقاً حتى لتحسب أنه قطع من نفسها تجود بها وهي تضحك وتلهو

وكان يفيض من وجهها حزن يائس جميـل . فيغمرها السحر وتحيط بها الفتنة وترسل من عينيها نظرات كلها إغراء وحنان . ويتكلم جسمها بحركاته العابثة الرخوة فتزهق الأفئدة ، وتسلب العقول ، وهي نشوى من الفرح ، سكرى من الفجر . فهذه لحظات نادرة . ولن ترانا كل يوم .

قلت لى بصوت حزين :

— إنك ترثي لى ياسيدى . ولن تستطيع ، مهما فعلت ، أن تخفي هذه الشفقة التي لا تبدو في نظراتك ، وتفيض من كلماتك . إن عيشى لمر ، ولكنه ناعم هنيء . آه لو رأيتني قبل عشر سنين ! إذن لأنكرتني ، ولما عرفتني . ربما دلتك على شعورى البيض الذهبية التي لم تتبدل في . نعم . أما جسمي ووجهي فياأسفا عليهما ، لقد تبدلا ... وغاض جمالى وتولت فتنتي . أواه ياسيدى أواه ! كنت أغني وأنا طفلة غضة ، فاذا تعبت ومللت ، وأعلني الكرى ، أيقظتني أمي بصفعة على وجهي ، وبجرعة من الفودكا وبلفافة من التبغ .

لقد حدثتك من زوجي كثيراً حتى غدوت أخشى أن تمل . ولكن ماذا أفعل . أنا أحبه حب المرضعات لأطفالهن . أواه ، ما أشوقني إلى عهده ، لقد كان من أبناء الأشراف الذين ملكوا الثروة والجاه ، فتزوج مني وأنا جاهلة خاملة .. حتى إذا ما فقد السلطان وأضاع الثروة جاء يبكي بين يدي يطلب الرحمة والغفران . !

لا شيء يبدل عيش الفتاة كنظرات الرجل يسددها إلى عينيها فيغيرها . لقد كانت نظراته حالة ملؤها العطف والحنان ... إنها لم تخلق لترى الحياة ، بل لتشهد أشياء أعذب وأحلى .. لتشهد الحب ولياليه . !

لقد بدأ الهرم يدب إلى على الرغم من شبابي الغض مذ غابت عنى تلك النظرات . لك الله يا زوجي ! لقد أوثقوه في السجن ، لأنه من أبناء الأشراف . ولأنه لم يعرف من الدنيا سوى الموسيقى وزوجته فيرا . كان يعزف فأغني وأرقص . إنه نبيل ياسيدى ، ومثل هذه الخلة تكفيه ليودع في السجن .

كان أملى في إرجاع الحرية له واسماً سمة البحر

العميق . ولكني شعرت بأنني وحيدة لا يرعاني أحد وما كنت لأخاف على نفسي من شر أولئك البولشفيين . فلقد كانوا في أحرج أوقات الارهاب يتهافتون علينا تهافت الذباب على الحلوى . تلك خلتهم . . . إنهم يعبدون المرأة . لقد استطاعوا أن يسيئوا إلى كل إنسان ، ولكنهم لم يسيئوا إلينا أبداً .

وبدأت أحس الجوع وأشعر بالبرد يأكل من جسمي ، ولكني لم آبه لهما ، فأنا ابنة قوم علمهم الشقاء والطواف حول الأرض الصبر على الخطوب

وكنت أتنقل بين الأندية والحانات أغني العمال ، فأعطى قليلاً من الدقيق والسمك والبطاطس . ولم أطلب المزيد وحولي آلاف النسوة يبكين من الجوع ويقضين من القر .

ما أستطيع أن أصف لكم ياسادتي ما كانت عليه روسيا في شتاء ١٩٢٠ . لقد كان الجوع يهلك الأجسام ويوهن القوى ، وكان شبح الموت يرقص فوق رأس كل إنسان ، في تلك الشوارع المغطاة بالثلج التي لا تسمع فيها نأمة ولا حركة ولا ضحكة . كل شيء هادىء فيها يمثل العدم والفناء . آه ! ما أدرى أترتسم في مخيلتكم مدينة لا يضحك فيها أحد أبداً

وكان الارهاب قد بلغ أوجه ، فأصبحت مقادير الناس بين يدي أولئك ، كانوا يقتلون الحريات .. ويقتلون النفوس . وعصفت المصيبة في رؤوسهم فأضحت السجون مقابر والمقابر سجوناً . كانت موسكو آنئذ مملوءة بالوحوش المتبلدين الذين فقدوا الشعور ونسوا عذاب الضمير ! ..؟

عاذا أحدثك .. إستمع إلي :

كان ذلك بعد أن فقدت فاسيلي بأسبوعين .

كنت في طريقي إلى الدار ، وكان الليل قد أظلم ، وأوحشت الأزقة والشوارع ، واستولت عليها رهبة الموت ، فرأيت شبحاً هزيلاً يتبعني حتى إذا ما كدت أصل إلى داري ، هجم علي .. وأمسك بيدي .

لم أستطع أن أتبينه . . . ولم أشعر بخوف أو وجل ... إنها امرأة ... ربما كانت فقيرة سغبى تطلب ما تأكل ... أو مجنونة أفقدها الجوع عقلها وتلفتت يمنة ويسرة ، ثم قادتني إلى ثغرة في أحد الجدر تراكم فيها الثلج ، ثم ضغطت على يدي وقالت بصوت متهدج :

— فيرا . . . فيرا . . . فيرا . . . يا حسناتي . . . هل تعرفينني . . ؟

فأرعبني صوتها الخافت ، واعترتني رجفة خفيفة . . . إنها تكلمني بلغة قبيلتي النورية ، التي كنت أسمعها وأنا بين المضارب والخيام

لقد نسيت تلك اللغة ... ولم يبق منها في رأسي إلا ذكريات ، فشعرت كأن قسماً من عمري قد امحى ، وأن زوجي .. وأيامه الغر ، ولياليه الطيبة ، وبذخه وترفه .. كل ذلك قد انتهى ، وتخيلت عهد طفولتي إذ كنت نورية صغيرة لا ملجأ لي ولا مال .. أطيع الشيوخ وتسيطر علي النساء

وهمست العجوز في أذني :

— فيرا ... ! ما بك ... أنا ماريا .. عمتك ..

ماريا . . . عمتي ... الآن فهمت ... لقد كانت مومئة النساء ، ونائحة على الأموات ، وخادمة في الغور ... يا لله ... إنها بلغت من الكبر عتياً ، وما تزال كما عرفتها يوم عرفت الدنيا . . لقد باعتني مع أمي .. ثم سرقتني .. ثم هيأت لي أسباب العيش بعد ذلك مع زوجي ...

وربتت على كتفي وقالت :

— فيرا . . . يا حسنائي . . . غداً في الساعة التاسعة . . . سأنتظرك في عربة تقف على مائة قدم من دارك . . . على جهة اليمين مما يلي الطريق . . . إياك . . . أن تترك الفرصة تمضي . . . ستساعدين زوجك …

ثم تركتني واختفت في الظلام

وفي مساء الغد . . . خرجت من داري أمشي وأنا أعد الخطى . . . وأعلل نفسي برجل أبتز منه منه دراهمه بعد أن أسقيه العذاب . . . إن عمتي علمتني كيف أعذب الرجال

ووجدتها في عربة عتيقة .. فصعدت إليها .. ثم انطلق الحوذي في طريقه لايلتفت إلينا . وأخذت العجوز تكلمني .. ثم لمست صدري وقالت :

— وهذا الفراء الناعم يا فيرا . . . ألا تشعرين بنعومته ؟

فارتعشت من قولها ، وقلت لها :

— إلى أين تقودينني يا عمتاه .. إن لم تتكلمي فسأرى بنفسي .. هيا .. هيا ..

فراحت تداعبني وتمر يدها اليابسة المرتجفة على عنق البض .. ثم ضحكت وقالت :

أأعمتك السعادة يا فيرا حتى غدوت ما تعرفين طريق قبيلتك ؟ آه منكن يا صبايا النور . . !

فصمت .. وأغمضت عيني ، وأنصت إلى صوت العجلات .. فوق الثلج المتجمد .. ثم وقفت العربة ونزلت منها إلى مرابع طفولتي

* * *

ما أجملك يا أرض قبيلتي !

لقد كنت قيثارة أوتارها النساء . . . وكنت لا تعرفين إلا المرح والغناء ، وكان كل ما فيك يمثل الحياة ويمد معنى الغناء . . . هنا أصوات عذبة تشدو . . . وهنا فتيات نواهد يرقصن … وهناك حلقات الأقاصيص والسحر … وإلى جانبها تهرق أكواب الفودكا وكؤوس الخمر .. ثم كانت أرض قبيلتي مرتعاً للجمال واللهو والشعر !

يا حسرتا عليك يا أرض قبيلتي ! … ماذا أرى الآن في جنباتك ؟ … فارقتك النواني فأوحشت ، واختفت أنغامك فهجرت ، وتهدمت دورك ، فأقفرت … شد ما يحزن المرء يا سيدي عندما يرى وطنه تعدو عليه العوادي وترهقه المحن فيغدو يباباً بلقعاً …! إنه ليحزن ، لأنه قطع منا ، ولأننا قطع منه . ويا ليت شعري هل يستطيع المرء أن يدع قطعة من جسمه . ما أدري إن كانت أيامك الزهر ، يا أرض قبيلتي ، ستعود إليك … وهيهات أن أراك كما تركتك …! لقد تفرقت حسانك بين جنات استنبول وحانات برلين ، واختفت رجالك في مقابر روسيا ، وكهوف باريس … وتلاشت أنغامك بين الأرض والسماء …!

وقفت مذهولة من روعة الذكرى … ثم قادتني العجوز ، ومشى أمامنا الحوذي المتنكر . وكان صوته يملك على أمري ، ويدفعني نحوه . إنه صوت بائس … كأنه لا يبالي الدنيا . لقد سمعت أصوات أولئك الذين كانوا يشدهون من أنغامنا الحزينة بين الخيام … وأصغيت إلى أصوات الذين عذبتهم الثورة ، وآهات من فقدوا الثروة ، ولكني لم أستمع قط إلى صوت مثل صوت هذا الرجل أبداً

ودقت العجوز باباً حقيراً فدخلناه . ونزع الحوذي رداءه ورماه ، ثم وقف أمامي وقال :

لو كنت أعرفك يا فيرا ... لما أتيت إليك ... أنا أنيناسي لوليش بروبوف

ياله من رجل ثائر ... ثائر حتى على نفسه ... كان ميت القلب والنفس ... وكانت تبدو على وجهه طلاوة الجمال وسحر الشباب . وكانت عيناه عميقتين صافيتين ، وكان يعيش فى هذه الدار التى يحسبها المرء كوخاً حقيراً ، عيشة راضية ناعمة ... لا يأكل إلا مالذ وطاب ، ولا يلبس إلا الثمين الفاخر ، ولا يعاشر إلا أجمل الفتيات ... فقد كان من أبناء الأشراف الذين يعلمون أنهم إن عاشوا اليوم فسيموتون غداً

وأعانني على نزع ردائي الثمين ... ثم دفع باباً خفياً فى الحائط وقال لى :

— أهلا بك يا فيرا ...

ودخلت إلى بهو متسع كبير ، زين بالمقش وبالحرير ، وفرش بأفخر الطنافس وأجمل الأثاث. وكان فى منتصفه مائدة حفلت بأنواع الخمور وأطايب المأكول ... قل أن تجدها عند أحد فى ذلك الشتاء القاسى ، وهذه المسغبة القاتلة . فدهشت ، وسال لعابى ، وتدلهت نفسى ، والتفت لأسأله فنسى عن الكلام ، ثم أجلسنى وجلس أمامى ، وملأ كأسين من الفودكا التى لم أشربه منذ عامين ... وأخذت آكل ... يا لحم الطرى ... والسمك اللذيذ ... والفودكا الملهبة ، لقد أكلت كثيراً ياسيدى ... على عجل ... كنت لا أمضغ ولكنى أبتلع ابتلاعاً

فلما فرغت قال لى : أتدرين يافيرا لم أتيت بك ؟ قلت : لا أدرى ياسيدى . قال : من أجل صوتك . فأنا لا أريد أن أمضى عن الدنيا دون أن أتمتع بكل لذيذ فيها . لقد عرفت كل فتيات موسكو وعاشرتهن ولم يبق على إلا سماع صوتك المسكر ... سأسكر يا سيدتى مرتين فى هذه الليلة ... من الفودكا ... ومن صوتك العذب ؟

قلت له : ومن يعيننى ياسيدى ؟

قال : أنا

وقام إلى ناى صغير وراح ينفخ فيه ... ورحت أغنى طوال الليل ... حتى ثمل وسقط على الأرض لا يحس ولا يعى

* * *

استيقظت صباح الغد ، وأنا أحسب أن ماحدث لى فى هذا الكوخ النورى حلماً لولا حرارة الغطاء الناعم المصنوع من جلد الدببة البيضاء . وفكرت فى المساعدة التى سأقدمها لزوجى من هذا الكوخ فلم أجد شيئاً ... أنا أغنى وأشرب وأطرب وهو يئن فى سجنه .. وكيف يتاح لمثل أنيناسى أن ينقذ ناسيلى ... إنه نبيل لو علم به الشيوعيون لما تركوه . ثم قلت لنفسى : ويحك يا فيرا ... إنهم إن يعلموا بك يلقوك فى السجن ولو إلى حين ... هلافررت .

وتركت الكوخ سراً وفى النفس عزم على ألا أعود إليه ... ووجدت شقائى فى غرفتى ... ولم تمض ليال حتى رأيت العجوز تعود فتلح على أن أذهب فى الغد إلى المحل المعهود ... وصفقت نفسى طرباً ... إن صوته ليغوينى أنا التى أغوى ...

وذهبت عشاء اليوم الثانى ... فغنيت له ... ولكن ... مسكين ... إنى لأتمثله الآن يا سادتى ، وأراه وكوب الشمبانيا أمامه ... مطرق الرأس ، كاسف البصر ، ساهم الوجه ، تتساقط على وجنتيه الدموع فتختلط مع ثمالة الكأس ... لقد كان حزيناً ... فسكت ... وقلت : أنيناسى ... ما بك ؟

قال : أنمى بربك يا فيرا ... ولا تقلق ...

فعدت أغنى ... وعاد يبكى ... حتى ثمل ونام

***

ومازلت أتردد على أنيناسي ... حتى كانت النهاية التى كدت أموت فيها ...

كنت معه ذات ليلة نشرب الفودكا ونغنى ... وبغاءة سمعنا لغطاً وضجيجاً .. ثم فاجأنا البولشفيون ورأوا هذا الكوخ المملوء باليواقيت ، المفروش بالطنافس . لقد كان صاحبي يشرب ... ثم على حين بغتة كسرت كأسه ... وسال ما فيها فوق الغطاء ...

مسكين يا صاحبي ... لقد دنا أجلك !

ودخلوا يرسلون أصواتهم الوحشية وينادون : « ها هو ذا ... أقتلوه ... أقتلوه ... الشعب يموت وهو يشرب ... » وانقضوا عليه يرشقونه بألسنة حداد ويوسعونه لكماً وضرباً . وهو صامت ساكت . ثم جرد كبيرهم مدية طويلة وضرب بها عنقه ، فتدحرج رأسه فوق المائدة ... واختلطت دماؤه بالفودكا والشمبانيا ... وطفق المتوحشون يشربون !

أما أنا ... فقد التفوا حولى ... هذا يقبلنى ... وهذا يلكمنى ... وذاك يجس بدنى ... ورابع يصب الخمر فوق رأسي ... ثم ساقونى إلى السجن المظلم الرهيب ...

بقيت فى السجن أياماً لا أرى فيها أحداً ولا أكلم مخلوقاً . وجاءت إلىّ عمتى ذات يوم تخبرنى بأن زوجى قد قتل فى سجنه ، وأن جثته رميت فى الأزقة ، وقد عثر عليها مع جثة أنيناسي

وقفت عند سماع ذلك شاردة اللب زائغة العينين ورحت أبكى ... وفكرت أن أقتل نفسي ولكن ..

ولكن ... كيف أموت دون أن أثأر من هؤلاء لزوجى !

لقد هيأ الله لي أسباب ثأرى ... فقد كان حارس السجن رجلا خشناً غليظاً ، ولكنه كان يميل إلىّ ... ويسمعنى كلمات الحب ... وجلست إلى جانبه ذات ليلة ... أستمع إلى أحاديثه ومغامراته وبغاءة علمت أنه قاتل زوجى .. فلم أظهر له ما يجلب له الريبة فىّ ... و ...

وأشعلت فيرا لفافة وأرسلت دخانها الأسود إلى الفضاء ... وهى تتأوه وتنظر إلينا نظرات حزينة قلت لها : « ثم ماذا فعلت »

— هه ... انتقمت ... راودنى عن نفسى .. وكان سريره إلى جانب باب السجن فاضطجعت معه فيه ... وقد ثمل ... ثم أخرجت خنجرى الذى أخذته ذات يوم من عمتى ، وغرسته فى عنقه ... وجلست فوقه ... فاستغاث وصاح فلم يجبه إلا الليل البهيم !

لم أستطع أن أزيل الهم الذى تسرب من عنقه إلى صدرى وجسمى ... إذ سرقت المفاتيح . وفررت ولقد لحقوا بى يريدون أن يقتلونى ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .. وماذا أريد من الحياة .. أو أطمع بعد ذلك ... لقد عرفت زوجى فأخلصت له ... وثأرت ممن قتله ...

إنى أعيش الآن يا سادة عيشة لا تتاح لكثير من النساء .. ولكنى لم أعرف طعم السعادة بعد أن تولى زوجى ... إن الزوج هو كل شىء فى حياة المرأة ... فاذا غاب عنها ذبلت سعادتها

لقد مضى وخلف لى زفرات أصعدها كلما مثلته لخاطرى ... ما أحسبها إلا أنها قاتلتى يوماً من الأيام

صموع الربيع المجيد

البديل

للكاتب الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأديب عادل الجمال

كان يبلغ العاشرة من عمره عند ما قبض عليه للمرة الأولى بتهمة التشرد .

وتكلم حينئذ قائلاً للقضاة :

« إنني أدعى جين فرانسوا ليتريك ، عملت لمدة ستة أشهر مع الرجل الذي كان يغني ويلعب على حبل رفيع مشدود بين مصابيح ميدان « الباستيل » ، وكنت أردد معه المقاطع الأخيرة لكل أغنية كان يلقيها ، ثم كان على بعد ذلك أن أنادي قائلاً : « كل ذلك بعشرة سنتيمات ... إنه أجر ضئيل لسماع تلك الأغاني الحديثة . وكان الرجل دائماً ثملاً ... فتعود أن يضربني ... ولذلك هربت منه فقبض على الجنود أمس مساء . وكنت قبل ذلك مع الرجل الذي يبيع « المنافض الريشية » . أما أمي ... فنسالة تدعى « إديل » ... كانت تعيش في وقت ما مع رجل على أرض مونمارتر . ولقد كانت امرأة نشيطة تحبني . فادخرت مبلغاً من المال كان نتيجة اشتغالها مع عدة زبائن موفوري النعمة . وفي أيام الآحاد ... كانت ترسلني إلى فراشي في ساعة مبكرة ... ثم تذهب هي إلى أحد المراقص ... أما في باقي أيام الأسبوع ... فكانت ترسلني إلى « مدرسة الفرير » حيث تعلمت القراءة .

وتعود ضابط يدعى « دي فيل » أن يقف عند نافذة منزلنا ليبادل أمي الحديث ، إذ أنه كان يقطن نفس الشارع الذي كنا نقطنه ... كان رجلا ... وشاباً ... حائزاً على وسام من « كريميه » ... فتزوجا . وانعكست الأمور فلم يعبأ بي ... كما أنه قد أثار أمي علي ... كانوا كلهم يحقدون علي لغير ما ذنب اقترفته .. فكنت أخرج من المنزل إلى حي كليش حيث تعلمت الوحدة والبكاء .

وفقد زوج أمي منصبه كما فقدت هي عملها ... فاعتادت أن تخرج باحثة عن عمل لتعول زوجها ، وبذلت في ذلك مجهوداً كبيراً حتى ماتت في « الأمبواسير » .

واغرورقت عينا الطفل بالدموع .. ثم تمتم قائلا: « لقد كانت امرأة طيبة » ... ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش مع بائع المنافض والمغني السابق الذكر .

وصمت برهة ثم قال :

والآن ... هل ستسجنونني ؟ ؟

قال كل ذلك بطلاقة رجل مثقف مع أنه كان من أبناء الشارع ... قصير القامة تعلوه رأس يغطيه شعر أسود . لم يقاطعه أحد ... ولم يسأله أحد ... فقط أرسلوه إلى إصلاحية الأحداث .

لم يكن يجيد أي عمل يدوي ... والشيء الوحيد الذي كان يتقنه هو الاستراحة على المقاعد الخشبية . ولكنه فوق ذلك كان مطيعاً وهادئاً هدوءاً طبيعياً . وحين أكمل السابعة عشرة من حياته نبذ مرة أخرى ... وألقي طريداً شريداً في شوارع باريس . . ولتعاسته وجد كل رفاقه في الاصلاحية يمتهنون مهناً غير مشرفة ... ملبين بذلك نداء طبيعتهم الدنيئة ... فبعضهم ... كان يمسح الأحذية على أبواب الأوبرا ... والبعض الآخر يتشاغل بتصيد

ما ينفع من القاذورات ، فلم يكد ينقضي على خروجه من منزل الاصلاح عدة شهور ... حتى قبض عليه مرة أخرى بتهمة سرقة حذاء بال قديم من حانوت إسكاف ... سرقة ما فكر فى الاقدام عليها إلا بعد أن أحس ببرودة الجو تمشي في عظامه ... وكانت النتيجة قضاء عام فى سجن « سانت بلاجيه » حيث أجبر على أن يترأس طغمة الثائرين الأحداث. وعاش بشعره التعجب بين تلك الفئة من المسجونين.. وجلهم صغار السن يتشابهون فى الملبس ويتكلمون بأصوات عالية ... وكانوا قد اعتادوا الاجتماع فى غرفة أكبرهم سناً ... وقد كان هـذا تمساً يبلغ الثلاثين ... قضى معظمها فى السجون وبالأخص منها سجن « سانت بلاجيه » ... أما غرفته ... فكانت أكبر غرفة فى السجن ... ممتلئة جدرانها بالرسوم الكاريكاتورية ... ومن نافذتها كان بإمكان المستطلع أن يرى كل باريس بجبانها الشاهقة وخوافيها المظلمة ... كما كان باستطاعته أن يرى على البعد خطا من التلال يبدو قريباً جداً من السماء الزرقاء . وفى تلك الغرفة كان المسجونون الأحداث يتناولون طعامهم .

وانقضى عام ... وراح مرة أخرى يجوس خلال باريس مراقباً من البوليس حيث أصبح من هؤلاء المشبوهين الذين يقبض عليهم بمجرد الشبهة فقط .. ففر إلى أورشليم ولكنه استقبل هناك بواجهات الجرائد وهى تتحدث عن الفار « التيريك » و « السجين التيريك » ... وأخيراً ... « المجرم التيريك »

ومر عامان على خروجه من السجن ... يأكل حيث كان ... ويقضي الليل فى أحد الخنادق الحقيرة إن لم يكن فى العراء . كان يرتدى قبعة رمادية مستقرة فوق مؤخرة رأسه ... وفى قدميه حذاء من القماش يعلوه سروال أبيض قصير . وعنـد ما استطاع أن يتحصل على خمسة وعشرين سنتيما .. جز شعره وراح يحترف الرقص فى « مونبارناس » ولكنه لم يفلح .. فاحترف البطالة ... ولكنه لم يهنأ بحرفته الأخيرة ... إذ قبض عليه مع جمع من رفاقه بتهمة سرقة المخمورين وحكم عليه بالسجن عامين فى « بوليس » حيث تعلم هناك كيف يسلك طريق الاجرام — فلم يكد ينقضى ستة شهور على فراره حتى اعتقل ثانية فى حادث سطو حكم عليه فيه بخمسة أعوام قضى صيفها وشتاءها يعمل تحت أشعة الشمس صيفاً محتملاً ضربات السياط ، وينام تحت برد الشتاء القارس فى العراء ... خمسة أعوام مرت أرسل بعدها إلى « فيرنون » حيث اشتغل قليلا فى أعمال الملاحة . وعند ما صار متشرداً لا يمكن إصلاحه .. استطاع الافلات من أسره ورجع مرة أخرى إلى باريس ، حاملا معه ما ادخره وكان مبلغاً يقرب من ستة وخمسين فرنكا . كان يتخفى نهاراً ، أما ليله فكان يقضيه فى نزل امرأة عجوز ، قدم لها نفسه على اعتبار أنه بحار قديم فقد أوراقه فى مركبه الغريق ... وأوهمها أنه يبحث عن عمل ويرجو أن تتكلل مساعيه بالنجاح فى وقت قريب

وقادته قدماه ذات يوم إلى حى « مونمارتر » حيث ولد ... وفى تلك اللحظة هاجته ذكرى بعيدة .. ذكرى أجبرته على التريث أمام « مدرسة الفرير » حيث تعلم القراءة . وفتح باب المدرسة لحرارة الجو ... فكان من السهل على المار فى تلك الآونة أن يرى فصول المدرسة كما رآها فرنسوا . لم يتغير فيها شيء ، فها هو ذا النور الساطع يتلألأ فى الداخل .. وها هى ذى الأدراج تفصلها الممرات.. ثم ... ها هى ذي الموائد المنطاة بطبقة من الكتب والأقلام ... و ... الخرائط التى طالما أشير عليها

إلى مواطن الحروب . ووجد فرنسوا نفسه دون وعي أو تفكير يقرأ ما قد كتب على السبورة الخشبية السوداء

« ستكون الراحة في السماء .. لهؤلاء الخاطئين المستغفرين ... وسيجدون فيها سعادة أكثر ألف مرة من هؤلاء الذين لايجدون شيئاً يستغفرون منه »

لقد كانت إذ ذاك ساعة اللعب دون شك ، لأن المدرس كان قد ترك مقعده . . . وجلس على حافة مائدة وقد التف حوله جمع من الصبية يستمعون في شغف إلى قصة كان يرويها لهم . أي مظهر طاهر بريء كان يشع من ذلك الوجه الشاب الملتحي وهو في عباءته الطويلة السوداء وربطة عنقه البيضاء التي تتناقض تماماً مع حذائه الكبير وشعره الشعث . وانتهى القس المدرس من قصته فأعقبها بضحكة هائلة . . . أعقبتها ضحكات تعالت من هؤلاء الذين كانوا ينصتون إليه

أي حياة سعيدة كان يحياها هؤلاء المجدودون !

وهاجت فرنسوا في وقفته المتأملة ... ذكرى الكلمات التي لم يعض على قراءته لها بضع دقائق فتمتم قائلا لنفسه بحزن « لو أنني لم آت متأخراً في النهاية ؟ ولو كان في الامكان أن أرجع ثانية كالآخرين فآكل خبزى الجاف بشهية وأملأ أجفاني بنوم لا تشوبه الأحلام ! وهز رأسه بيأس ولكنه سرعان ما أردف قائلا وفي عينيه بريق خاطف :

« إنه لجاسوس ماهر ذلك الذي يستطيع أن يستدل عليّ الآن ... فلحيتي التي أزلتها هناك . . . نبتت هنا أشد قوة وغزارة .. إن الانسان ليستطيع أن يختفي في مكان ما على الجبل . . . أما من جهة العمل . . . فمن السهل الحصول عليه، إذ أن الأبنية تتعالى بسرعة هائلة ... ومن الطبيعي أن البنائين يحتاجون لمساعدين يتقاضون أجراً قدره ثلاثة فرنكات يومياً ... ثلاثة فرنكات . . . إنه أجر لم أحلم به يوماً من أيام حياتي . . . سأنسى ... نعم لابد أن أنسى .. والنسيان هو ما أنا في حاجة إليه »

وكان أميناً في تنفيذ فكرته التي اعتزمها ... فلم تكد تنقضي ثلاثة أشهر حتى أصبح رجلا غير الرجل ، فلقبه رئيس العمل الذي كان يعمل عنده برجله الفضل . وبعد أيام انقضت تحت أشعة الشمس القائظة وسط الأوحال ، يميل تارة ويستقيم أخرى ليتناول آلات البناء من الرجل الواقف تحته فيوصلها إلى ذلك الذي استقر على قطعة من الخشب ذهب ليتناول غداءه في حانوت قريب ... منهوك القوى تؤلمه قدماه ... بينما كادت يداه تتقدان وعيناه تسحان الدموع من تأثير حبيبات الرمال التي كانت تداعب أجفانه . ولكنه على رغم ذلك كان راضياً عن نفسه ، ممسكاً بما كسبه من نقود في منديل استقر في يده . كان يخرج الآن دون خوف ، فقد كان قناع الجير الأبيض الطبيعي خير غفير له عن عيون الرقباء حتى أنه حين مر برجل البوليس نظر إليه هذا الأخير نظرة كلها عطف ورثاء ، فنسى آلامه كلية ، فلقد كان حراً طليقاً

وأخيراً ... أوه ... يالله ... لقد وجد صديقاً

كان عاملا مثله يدعى « سافنيان » فلاحاً أتى إلى باريس بعصا في مؤخرتها « صرة » يكاد كتفه ينوء تحت ثقلها . أحبه جبين فرنسوا لسذاجته وطيبته وأمانته ... أحبه لكل تلك الأشياء التي افتقدها هو في زمن مضى . وكان سافنيان بطبيعته ضعيفاً . يترك الأمور لتأخذ مجراها الطبيعي فعمل جبين على مساعدته مساعدة جدية ، وعاشا سوياً في منزل صغير صرع وأشركا معهما لحاجتهما دخيلا

عجوزاً شحيحاً ... يسعى لادخار بعض المال حتى يمكنه أن يشترى قطعة من الأرض فى وطنه . وكان جين فرنسوا وسافنيان دائماً متحدين ، فى أيام العطلة كانا يتمشيان فى ضواحى باريس . ويتناولان غداءهما تحت شجرة فى أحد فنادق الضاحية التى يكونان قد استقرا بها . وتعلم فرنسوا من صديقه كل الأشياء التى يجهلها عن القرية .. فعرف أسماء الأشجار والزهور والنباتات ، وأصغى كثيراً لآلاف من الكلمات تصف حياة القرية ، كان منها « أغاريد الربيع ، وقصف الشتاء ، وصوت الطواحين على حافة المياه ... » وأخيراً ... اكتشف جين فرنسوا فى روحه ناحية حالمة كان يجهلها

لم يكن يزعجه إلا رغبة سافنيان الشديدة فى معرفة شىء عن ماضيه ، ففى بعض الأحيان كانت تمرق من بين شفتيه بعض كلمات عن اللصوص والطريدين ، فكان يحس فى نفسه بآلام تشبه تلك التى تنتج عن جرح تفتح بعد أن كاد يندمل ، وخصوصاً بعد ما سأله عن أسرار المدينة المرحة الخفية الغامضة عليه . كان يتهرب من الاجابة إذ رأى فيها خطراً على صديقه الذى كانت أنوار الحانة تؤثر فيه تأثيراً كبيراً فتجذبه إليها باطراد يعجز عن صده . وعند ما أقبل الربيع ، ابتدأ سافنيان يتوجه منفرداً إلى المراقص بعد أن كان يهاب الدخول فيها . تجرأ ذات يوم وولج باب إحدى الحانات الخارجية . ومن ذلك الحين ابتدأ فرانسوا يلمس التغير الذى طرأ على صديقه . فقد تبدلت عاداته وتصرفاته ، وأصبح بليداً خاملا ، شريراً ... لا يدفع ما عليه من ديون . فكان يتألم دون أن يتكلم إذ لم يجد فائدة من نصائح سبق تكرارها له وحدث ذات مساء بينما كان صاعداً إلى غرفته

ساهماً يفكر أن تمالى إلى سمعه قبل أن يدخل صوت غاضب مزج فيه صوت الرجل العجوز الذى يشاركهما مسكنهما وصوت صاحب الدار وألحت عليه رغبة قوية ليتسمع حديثهما

وتكلم العجوز قائلا بغضب :

« نعم ... إننى واثق من أن أحداً قد اغتصب حقيبتى ونشل منها ثلاثة جنيهات كنت أخفيها فى صندوق صغير ، كما أننى متأكد من أن ذلك السارق لا يمكن إلا أن يكون أحد رفيقى اللذين أنام معهما . هذا إن لم تكن السارقة هى الخادمة ماريا ، والمسألة تختص بك تماماً كما تختص بى ... أفلست أنت صاحب المنزل ؟ وأقسم أننى سأسوقك إلى المحكمة فوراً إن لم تدعنى أنقب عن ذهبى فى حقيبتيهما حالا آه ياذهبى الضائع .. لقد كان هنا بالأمس وسأخبرك كيف كانوا حتى إذا عثرنا عليهم مستقبلا فلا يكون لأى إنسان أى شك فى صدق قولى . نعم ... إننى أعرف قطعى الذهبية الثلاث ، وأنا أراها أمام عينى الآن تماماً كما أراك . كانت الأولى جديدة تحمل صورة الامبراطور والثانية قديمة جداً . أما الثالثة فكان عليها أثر أسنان كانت تختبر نقاوتها . إنهم سوف لا يضحكون على ... هل تعلم أننى فى حاجة إلى قطعتين أخريين لأكمل باقى ثمن الأرض . هيا وتعال لتبحث معى فى تلك الأشياء وإلا فسأنادى البوليس ... هيا . وتكلم صاحب المنزل قائلا :

— حسن ... سأذهب للبحث عنهما مع ماريا ولكننى ... وبعد أن أجبرتنى أنت على ذلك ... سألقى المسئولية على عاتقك إن غضب البناءان »

كانت حياة جين فرنسوا مملوءة بالمتاعب والفاجآت . . . نعم إنه تذكر جولات سافنيان الليليه ... ولكنه لم يكن ليصدق أنه كان لصا . وتمالى

إلى أذنيه صوت العجوز فى نبراته الناضبة ... تخيل إليه أنه يستمع لدقات قلبه «هاهى ذى.. هاهى ذى.. قطعى المحبوبة .. انظر أيها العجوز ياصاحب النزل .. إنها تماماً كما أخبرتك ... ويل السارق ... إنى فى انتظاره وسيكون السجن بانتظاره هو الآخر »

وفى تلك اللحظة سمع جين فرانسوا وقع خطوات سافنيان وهى تنتقل ببطء على درجات السلم متجهة إلى أعلى.. يالله .. إنه ذاهب لملاقاة حتفه.. يجب أن ينقذه

ثم فتح باب الغرفة ودخلها وعلى وجهه سيماء تعب شديد ... فرأى صاحب النزل والخادمة قابعين فى ركن من الغرفة ... بينما كان العجوز راكعا على ركبتيه يقبل جنيهاته الذهبية ... وهتف قائلا بصوت جهورى :

— ماذا تفعل ؟ . . إننى أخذت النقود من حقيبتك وخبأتها فى حقيبة زميلى ... نعم إننى لص ولكننى لست بنذل — هيا واطلب البوليس فلن أحاول الهروب . . . ولكننى أود أن أقول كلمة لسافنيان على انفراد ... ها هو ذا قد جاء

بوغت سافنيان حين اكتشفت جريمته فذهل ووقف بعيدا مضموم الذراعين . وأسرع فرانسوا ناحيته وجذبه إليه بقوة كما لو كان يريد أن يعانقه ثم همس فى أذنه «لاتتكلم» ثم التفت ناحية الآخرين وتمتم قائلاً:

« اتركونى وحيدا معه ... ولقد أخبرتكم أننى لن أحاول الهروب ... لكم أن تسجنونا ها هنا ... ولكن ... بعد أن تدعونا على انفراد »

وخرج الجميع فتهالك سافنيان على الفراش دون أن يفهم شيئا ممـا جرى . واقترب منه فرنسوا وأمسك بيديه قائلا :

انتبه إلى ... إننى متأكد من أنك سرقت تلك القطع الذهبية لشراء هدية لاحدى فتياتك ... وإن هذا ليكلفك ستة أشهر فى السجن ... لاتلبث بعدها أن ترجع إليه ثانية. ستكون طريد البوليس والقضاء. إننى أعلم ذلك تماما فلقد مكثت سبعة أعوام فى مدرسة الاصلاح ... وستة مثلها فى سانت بلاجيه ثم ثلاثة أخرى فى بيوس وأخيرا.. خمسة فى تولون . والآن.. لا تخف فلقد رتبت كل شئ وأخذتها على عاتقى

وتمتم سافنيان بصوت فيه رنة الأمل « ... إن ذلك لمروع جدا» ولكن جين فرنسوا استمر قائلا:

عند ما يتوجه الأخ الأكبر للحرب فلا يحاول الأصغر الذهاب ... إننى بدلا منك وهذا كل شئ إنك تهتم بى قليلا ... أليس كذلك ياسافنيان ؟ ؟ إذا فكن رجلا ولا ترفض . إنهم كانوا سيأخذوننى فى تلك الأيام مرة أخرى لأننى هارب من المنفى ، إننى أفعل ذلك ولا أطلب منك شيئاً . . فقط ... أن تعدنى بأن لا تعود . . . لذلك مرة أخرى . لقد أحببتك ياسافنيان ولقد بعثت صداقتك السعادة إلى قلبى بعد أن تفقدتها عبثا قبل أن ألقاك . ولقد كنت حينئذ صادقا وأمينا كما كنت أود أن أكون دائماً . قد كان يكون ذلك لو أنه قد كان لى أب مثلك وأم لتعلمنى الصلاة . والشئ الوحيد الذى آسف له فى حياتى هو أننى لم أكن مفيدا لك . وأخيرا... لاتبك ياصديقى وهيا لتعانقنى إذ أننى أسمع وقع أقدام ثقيلة على الدرج . . . إنهم هم مع الجنود وليس من المستحسن أن يعرفوا مبلغ صداقتنا

وجذب فرنسوا سافنيان إلى صدره ... وسرعان مادفعه إلى الأمام فى نفس اللحظة التى فتح فيها الباب. كانوا جميعهم : صاحب النزل والرجل العجوز الذى أحضر رجال البوليس

وتقدم جين فرنسوا ليتريك مادا يديه للقيد وهو يتمتم ضاحكا : « أوه ... إنه الحظ السيء أخيرا »

وهو الآن فى فايين ... يقضى بقية أيام حياته كمجرم لا يمكن إصلاحه .

عادل الجمال

حاجى بابا اصفهانى

للكاتب الانجليزي "جيمز موريه"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل السابع والعشرون

الشاه في ضيافة الطبيب

انتهت نتيجة التفكير إلى العزم الصادق على الخروج من خدمة الطبيب والرحيل عن طهران . لكن حبي لزينب تغلب على هذا العزم فآثرت البقاء في خدمته وقلت إنه ليس يعلم ولا يظن أني أنافسه في حبه ولا أنني أنا السبب في الاضطراب الذى حدث اليوم في منزله والاهانة التي ألحقتها به زوجته ولكنه كان يعلم على كل حال أن رجلاً دخل منزله في غيبته ولم يكن قبل مجيء زوجته يعلق أهمية على ذلك بل كان على ما يظهر مسروراً لمعرفته هذه الحقيقة لأنها تسهل عليه طريق الحب مع زينب

لكن رأيه قد تغير بلا شك بعد مجيء زوجته، وحدوث ما حدث وسيكون أشد رقابة على منزله وستكون علاقتي بزينب أشد خطراً لسهره من جهة وسهر زوجته من جهة أخرى على حراسة الفتاة مدفوعين بأشد دوافع الغيرة

ظللت بعد عودتي أنظر كل يوم من النافذة لعلى أرى زينب فلم أرها وخطر ببالي أنه لابد أن يكون قد حدث أمر من اثنين فاما أن تكون مسجونة وإما أن تكون سائر الجوارى قد انتهزن هذه الفرصة فشفين ما في نفوسهن من غل بقتلها .

ونفد صبرى فلم يبق منه شيء .

وفى يوم من الأيام رأيت « نورجيهان » الجارية الحبشية تخرج من المنزل لتشترى شيئاً من السوق فتبعتها وقد دعتنى معرفتى بالصداقة التى بينها وبين زينب إلى الوثوق بها فدنوت منها وقلت : « سعدت يا جيهان ! لماذا تسيرين وحدك بهذه السرعة فى هذا الوقت ؟ »

فقالت : « أنا ذاهبة لأشترى دواء للجارية الكردية »

قلت : « ماذا ! وهل زينب مريضة ؟ »

قالت : « مسكينة زينب ! إنها مريضة حزينة وأنتم أيها الفرس فى نهاية القسوة . إننا سود أرقاء ولكن فى قلوبنا رحمة »

قلت : « ما الذى فعلوه بزينب حتى استنكرت من أجلهم أعمال الفرس ؟ » فأخبرتني بأن سيدتها سجنت زينب بسبب غيرتها منها فى حجرة ضيقة وحرم عليها الانتقال منها وعوملت معاملة قاسية فرضت بالحمى واشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت، ولكن قوتها وشبابها تغلبا على المرض فأبلت منه، لكن السيدة ساءها ذلك فصارت تأمر بشراء العقاقير الضارة بالصحة وتكرهها على تعاطيها حتى لا تتحسن صحتها فيبدو جمالها. ثم وعد الشاه رئيس أطبائه بأن يزور منزله تشريفاً لقدره واعترافاً بخدماته فأرادت السيدة أن تظهر جواريها أمامه بمظهر يسره وأمرت بأن تعالج زينب حتى تعود إلى ما كانت عليه من الصحة والجمال لكى تكون فى خدمة الشاه بهذه الزيارة .

وقد تبين لى بعد هذا اليوم صدق ما أخبرتنى به نورجيهان وعلمت أن الشاه لن يجعل هذه الزيارة عادية بل سيزيد من تشريف طبيبه بأن يتناول العشاء عنده ، وكان الطبيب خائفاً مضطرباً وكان يعد هذه الزيارة نذير سوء على ماليته لأنه لن يخرج منها إلا مفلساً

وكان أول واجب عليه أن يفرش الطريق بين قصر الشاه وبين منزله بالسجاجيد ويغطيها بالأزهار والرياحين وفقاً لتقاليد هذه البلاد

وكان فى حيرة شديدة لأنه إن أظهر غناه تعرض فى المستقبل للمطامع، وإن لم يظهره تعرض لاحتقار منافسيه . وبقى مدة طويلة لا يفكر فى استشارتى ولكنه عاد فتذكر ما أبديته من الذكاء حين أرسلنى فى مهمته مع الطبيب الأجنبى فأرسل إلىّ وقال: «أشر على يا حاجى بابا بما ينبغى أن أفعل فى هذه المشكلة الصعبة . إن جلالة الشاه سيزورنى وسيزور وزير ماليته فى يوم واحد . ووزير المالية كما تعلم أغنى رجل فى البلاد ويستحيل على أن أنافسه ، وقد علمت أنه سيجعل الأبسطة التى يفرشها فى الطريق موشاة بالذهب ، وسيجعل على جانبى الطريق شيلاناً من الكشمير ليمشى عليها جنود الشاه، وأنت تعلم أن وزير المالية لم يعلن هذا العزم منذ الآن إلا لأنه يتجر فى الشيلان والأبسطة ويريد أن أشترى منه بعضها ولو فعلت ذلك لما بقى عندى من المال بقية »

قلت : « إنك لست من الغنى فى منزلة الوزير ولكنك رئيس الأطباء ومرتبتك بين رجال القصر كرتبة الوزراء ، وفضلا عن ذلك فان زوجتك من نساء البلاط فيجب عليك من أجلها أن تبذل كل ما فى وسعك ولو كان فيه إرهاق لماليتك . ولا شك فى أن الشاه سيغضب إذا لم تستقبله الاستقبال اللائق به فكن عند الثقة التى وضعها فيك »

قال الطبيب : « إن الذى تقوله ياحاجى بابا صدق كله ولكننى بالرغم من ذلك فقير . وإذا راعيت الاعتبارات التى ذكرتها فواجب على أيضاً أن أراعى اعتباراتى المالية، أفلا يصح الاكتفاء بفرش الطريق بالأزهار وأن أذبح ثوراً أو ثورين وأكسر قنانى الشراب تحت أقدام جواده ؟ ألا يكفى ذلك؟ أجبنى! »

قلت : «هذا مستحيل . وإذا فعلت ذلك فإنك تعرض نفسك لأشد الهوان ، وتمكن أعداءك من أن يحملوا الشاه على تجريدك من كل ما تملك حتى تصبح معدماً مثلى . ولا ضرورة إلى أن تفعل كما يفعل وزير المالية فافرش الأرض بالقطيفة، والحديقة بالسجاجيد ، وغرف المنزل بالكشمير ؛ ولن تكون تكاليف ذلك باهظة »

فقال الطبيب : « إننى أقدر لك هذه النصيحة وقد أتبعها، وعندى شيلان زوجتى وهى كافية لفرش الغرفة التى سيجلس فيها جلالته وسجاجيد المنزل تكفى لفرش الحديقة وسأشترى من القطيفة ما يكفى لفرش الطريق »

قلت : « ولكن تذكر أن جلالة الشاه سيدخل غرف الحرم فى منزلك فيجب أن تكون مفروشة كلها بالشيلان ، ويجب أن تظهر جواريك كلهن أمام جلالته لابسات أفخر الثياب

فقال الطبيب : « إذا كان الأمر كذلك فليهن أن يقترضن الثياب والمصوغات من جاراتهن » .

لم أجبه على هذا القول لاعتقادى أن زوجته لن توافق عليه وأنها ستكفينى مؤونة الرد عليه وهى قادرة على إكراهه على ما تريد

وعند ما تمت هذه الزيارة كان كل من فى المنزل

فى ثياب لائقة وقد تكلف الطبيب من النفقات أضعاف ما كان يقدره

الفصل الثامن والعشرون

هدية الشاه

فى صباح اليوم الذي حدث فيه هذا الحادث العظيم وهو اليوم الذى قرر المنجمون أنه مبارك يصلح لانتقال جلالة الشاه لأداء الزيارة — فى صباح ذلك اليوم جلس الشاه على عرش وضع له فى حديقة منزل الطبيب وقد أقيمت فوقه مظلة من الأزهار ودارت النوافير فى وسط الأحواض المصنوعة من الرمر والتى حليت فى ذلك اليوم بأزهار البرتقال وثماره

وذبح الطبيب من الأغنام والماشية عدداً وافراً جداً يكفى لإطعام نصف المدينة وصنع الطهاة مئات من أصناف الحلوى والفواكه المجففة والمثلجة

وكان ممن حضروا مع الشاه هذه الوليمة كل وزرائه وكبار الموظفين فى القصر والعلماء وفرقته الموسيقية

وكان الطريق من القصر إلى منزل الطبيب مفروشاً بالسجاجيد الفارسية والأزهار وقد بدأ الموكب بذهاب ميرزا أحمد إلى القصر ليعلن استعداده لهذه الزيارة ؛ وعلى أثر ذلك تقدم بعض الجنود من الفرقة الموسيقية ليخلوا الطريق وليعلنوا بالنفخ فى أبواقهم أن الموكب الملكى سيمر ، وتقدم الموكب عدد كبير من الضباط بثيابهم الرسمية المحلاة بالذهب ووراءهم رجل يحمل نرجيلة الشاه المذهبة وآخر يحمل علبة التبغ وآخرون يحملون أشياء مماثلة

وبعدهم الوزراء والعلماء ورجال البلاط سائرين على أقدامهم وفى وسطهم الشاه راكباً جواده ووراءه فرقة من الجيش

وكان عسكر خان شاعر الشاه بين موظفى القصر الذين رافقوا جلالته فى هذه الزيارة

وكان الطبيب احمد خان الذى شرفه الملك كل هذا الشرف يمشى حافياً فى الموكب إعلاناً لشكره وخضوعه

ولما وصل الموكب إلى البيت وقف الطبيب عند بابه يستقبل الشاه، فلما نزل عن جواده قال الطبيب: « إن أحقر فرد من رعاياك يا جلالة الشاه يبدي خضوعه لملك الملوك ظل الله على الأرض ويتوسل إليك أن تتم النعم التى أسديتها إليه بأن تشرفه بدخول منزله »

فأجابه الشاه : « الحمد لله الذى وهبنا خدماً مخلصين مثلك يا ميرزا أحمد . لقد بيضت وجهك أمامى وعلت منزلتك عندي فاحمد الله على أن ملكك زار منزلك وقبل ضيافتك »

عند ذلك سجد الطبيب وقبل الأرض بين قدمى الشاه وصاح الوزراء : « نقسم برأس الشاه أن ميرزا أحمد عبد مخلص لجلالة مولاه وأنه لقمان عصره فى الطب والحكمة »

قال الطبيب : « كرم من أخلاقكم أن دعوتمونى لقمان عصرى ولست مثل لقمان وإنما رفعنى عن مرتبته تشرفي بالوجود فى ظل الشاه ملك الملوك . من ذا الذى يستطيع منافسة الفرس وهم تحت حكمه؟ وأى طبيب أجنبي ينافس طبيب جلالته فى حكمته وعلمه ؟ »

دخل الشاه وهو يقول : « صدقت، فان فارس قد اشتهرت منذ بدء تاريخها إلى الآن بذكاء أهلها

وجلال ملوكها، وليس فى العالم ملوك بلغوا من العظمة ما بلغه ملوك فارس من عهد قمبيز إلى عهدى . ثم إن فى الهند حكاماً، وفى بلاد العرب خلفاء، وفى بلاد الترك سلاطين، وفى الصين قياصرة ، ولكنهم ليسوا مثلنا . أما بلاد الفرنجة فاننا عرفنا بعض أهلها فى العهد الأخير ، ويقولون إن فيها ملوكا عظماء لم نسمع بأسمائهم »

قال أحد الوزراء : « فى بلاد الفرنجة يا جلالة الشاه أمم كثيرة إذا استثنينا منها انكلترا وفرنسا فان سائرها لا يعدل شيئاً فى الوجود . أما السكوفيون فانهم ليسوا أوربيين بل هم أقل من أن يكونوا عبيداً لأوربا »

ضحك الشاه ضحكة عالية وقال : « صدقت، نعم أناس تحكمهم امرأة يقال لها كاترينا وهى امرأة عجيبة تأخذ على سياسة بلادها وزيراً مجنوناً يدعى بولص ، وقد بلغ من جنونه أنه أرسل جيشاً ليغزو الهند كأن فارس أذنته بذلك . والروس يحلقون ذقونهم ويلبسون ثياباً ضيقة ويدعون أنفسهم من أجل ذلك أوربيين كما يربط المرء فى ذراعيه جناحى أوزة ويدعى أنه ملك كريم »

قال الوزير : « تبارك الله ! من فى ملوك الغرب يتكلم بالحكمة التى يتكلم بها جلالة الشاه ؟ »

فقال وزير آخر : « أسأل الله أن يديم عهده ألف عام »

وقال وزير ثالث : «أسأل الله أن يديم له الصحة والعافية » واستمر الشاه يقول : « إننا نسمع أخباراً عجيبة عن نسائهم فليس فى بيوتهم مكان خاص بالسيدات بل هن يمشين مع الرجال كأنهن بعضهم ولا يضع النساء نقاباً على وجوهن بل يعرضن هذه الوجوه لكل من أراد كنساء قبائلنا المتنقلة. قل لى يا ميرزا أحمد، فأنت طبيب وفيلسوف كيف اختصت العناية الالهية المسلمين دون غيرهم بالنساء الخاضعات المطيعات » ثم ابتسم ابتسامة الساخر وقال : « لقد سمعت أن زوجتك من أوفى النساء وأكثرهن خضوعا » .

فقال الطبيب : « لقد شملنى عطف ملك الملوك فتوافرت لدى كل أسباب السعادة والراحة ، وأنا وزوجتى وكل ما نملك من أرقاء الشاه . وكل ما أوتيت من نعمة فهى من إحسانك الذى أحال نقائصى إلى فضائل . أما سؤالك عن اختلاط نساء الأوربيين برجالهم فأقول والله أعلم إن الأوربيين لا يفضلون البهائم والوحوش فى شىء ، فهم لذلك لا يعرفون الحجاب كما أن إناث البهائم تختلط بذكورها . والبهائم والوحوش لا تتوضأ ولا تصلى ولا تدرك النجاسة فى لحم الخنزير، وكذلك الأوربيون. وقد علمت أن فى كل بيت بأوربا حجرة خاصة تربى فيها الخنازير، ولابد أن تكون علاقة الزوجية علاقة ضعيفة جداً فى تلك البلاد لأن كل امرأة فيها تقابل أى رجل »

قال الشاه : «أحسنت يا ميرزا أحمد. ومن الواضح أن كل الناس وحوش أو بهائم ما عدانا نحن . ولكننا سمعنا يا ميرزا أحمد أنك جعلت منزلك هذا كالجنة فلأنه بالحور ، فهل هذا صحيح ؟ »

فسجد ميرزا أحمد وقال : « لك يا مولاى عبدك وما ملكت يداه، وإن أسعد ساعة فى حياتى هى التى يشرفنى فيها جلالة الشاه بدخول منزل الحرم » .

قال الشاه : «سنرى بأعيننا ما سألنا عنه؛ وإن نظرة من الملك لتجلب الحظ . ثم فأخبر سيدات الحرم أن الشاه داخل لزيارتهن . وإذا كان فيهن مريضة، أو من بنفسها رغبة لم تستطع إبداءها إلى الآن، أو جارية تحب إنساناً بعينه وتريد أن تتزوج منه، أو زوجة تريد أن تتخلص من زوجها فلتقل ذلك للشاه » .

كان عسكر خان شاعر الملك ساكتاً إلى هذه اللحظة، ويظهر أنه كان شارد الذهن فى نظم أبيات؛ فلما نطق الشاه بما نطق به وقف الشاعر وأنشد أبياتاً امتدح فيها الشاه وقال إن نظرة منه تنال من المرض مالا ينال منه الدواء وهنأ فيها الطبيب بزيارة الشاه له وتكريمه إياه »

وكان كل الموجودين ينصتون إليه حتى انتهى منها فهنأه الشاه بجودة شعره وفضله على الفردوسى ثم أمر كل الموجودين أن يقبلوا فمه . ثم ابتعدت الحاشية وجرى الاستعداد للوليمة .

الفصل التاسع والعشرون

الوليمة

لم يكن فى الغرفة التى تغدى فيها الشاه غير الخدم إلا أبناء الشاه الثلاثة . وقد كانوا واقفين فى طرف تلك الغرفة وظهورهم للحائط والسيوف معلقة على جنوبهم ، وكان ميرزا أحمد واقفاً بباب تلك الغرفة مستعداً لتلبية الأوامر . وكان القماش الذى غطيت به المنضدة موشى بالذهب كما كان الطست والابريق المعدان لغسل يدى جلالته مصنوعين من الذهب. وجىء بالطعام فى أطباق مختومة بالشمع الأحمر بخاتم أمين الملك الذى فحصها فى المطبخ فوجدها خالية من السم . ولا يفض هذا الختام إلا أمام الشاه نفسه على المائدة .

وكان الطعام أنواعاً من الحساء، فنوع من لحم الضأن وآخر من الطير وآخر من السمك ، ويلى ذلك طعام خاص مصنوع من الاوز والبرتقال والسكر، ثم أنواع متعددة من السمك فى أوان بعضها ذهبى والبعض فضى والبعض من أغلى أنواع الخزف المصنوع فى الصين ، ثم أنواع من اللحم بعضها مصنوع بالزبد والبيض وأصناف من الخضروات والبقول ، وجىء بالحلوى والأشربة المصنوعة من عصير الفواكه

ولما فرغ الشاه من طعامه انتقل إلى الغرفة المجاورة ليشرب القهوة ويدخن . وأذن لأبنائه الأمراء والوزراء أن يتغدوا من فضلات طعامه . وفى أثناء تناول جلالته الغداء أمر بأن ينقل طبق من أطباق الطعام التى كانت أمامه إلى ميرزا أحمد الواقف بالباب وأذنه بأن يتغدى به فعد ذلك أكبر تشريف منه . ودفع الخادم الذى نقل إليه الطبق مبلغاً كبيراً من المال . وكذلك أكرم الشاه زوجة مضيفه بنقل بعض الأطباق إليها

وبعد أن تغدي الوزراء نقل الطعام إلى من هم دونهم فى المرتبة ، وفى هذه الأثناء زار الشاه مسكن الحرم مع مضيفه الطبيب . وقد كنت شديد الخوف والجزع فى أثناء هذه الزيارة . وزاد خوفى حتى أدركنى اليأس حين علمت بعد ذلك أن الطبيب أهدى إلى الشاه جاريته الكردية زينب

امتقع لونى عند ما سمعت هذا الخبر وعزمت على

مقابلتها قبل الذهاب إلى القصر الملكي مهما كلفني ذلك، وكان في مسكن الحرم كوة تطل على الطريق فقلت في نفسي إن زينب ستطل منها بلا ريب ساعة ذهاب الشاه . وكانت هذه الساعة قد دنت فذهبت ووقفت أمام تلك الكوة

وقد صدق ظني فإنه ما كاد يتحرك الموكب حتى رفعت بصري إلى تلك الكوة فرأيت زينب تطل منها وقد نظرت إلى، وكان هذا كل ما أرجوه، وتركت لها تدبير الحيلة للقائي

وكان موكب الملك وهو يعود إلى قصره كوكبه وهو آت منه . وكان حديث النساء في هذه الأثناء مناقشات حادة عمن نظر إليها الشاه أكثر مما نظر إلى غيرها ، وعمن نالت إعجابه . وكن جميعاً يظهرن بمظهر الحسد لزينب . وقالت إحداهن : « لست أعرف ما الذي أعجب الشاه منها فهي ليست جميلة! »

فقالت الأخرى : « إن خصرها كخصر الفيل »

وقالت ثالثة : « وقدمها كخف الجمل »

وقالت رابعة : «وهي زبيدية من بنات الشيطان»

هذا ما سمعت النساء يتحدثن به ثم لم أعد أسمع شيئاً. ولما اشتد سواد الليل ذهبت إلى النافذة التي في غرفة زينب آملاً أن أراها

الفصل الثلاثون

حاجي بابا يفقد حبيبته

شكوت إلى زينب سوء الحالة النفسية التي وصلت إليها ، فنبهتني إلى الخطر الذي ينطوي عليه هذا الحديث . وقالت : إن هذه آخر مقابلة لنا وإنها منذ الآن أصبحت من نساء القصر الملكي ، وإن نصيبها ونصيبي لن يكونا غير الموت إذا وجدنا بهذه الحالة . وكنت شديد الشغف بأن أعرف كيف وقع اختيار الشاه عليها وما هو رأيها الآن في مستقبلها ، ولكن الدموع حالت بيني وبين كل الذي أردت أن أنطق به . ورأيت الفتاة لا تنظر إلى فراقنا بالعين التي أنظر بها إليه فقد شغلها الفرح بحسن مستقبلها حتى عما في هذا المستقبل من الأخطار . فلم أشأ أمام ما رأيته من فتورها أن أظهر لها حرارة حبي

وأخبرتني أنه لما دخل الشاه مسكن الحريم استقبله المغنيات بإنشاد قصيدة قالها شاعره في مدحه. ولما جلس في البهو دخلت السيدة فقبلت الأرض بين يديه فأهدى إليها جلالته عقداً من اللؤلؤ. ثم دخلنا فوقفنا صفاً أمام جلالته

قالت زينب : « كنت آخر من في الصف . ونظر جلالته إلينا ، فقابله بعضنا بنظرة جريئة ، والبعض بنظرة خجل واضطراب ، وحلقت إحدانا في وجه الشاه فلم تغض من عينيها . وكان ينقل بصره على عجل من واحدة إلى واحدة حتى إذا نظر إلى أطال نظراته وأخذ يتأمل . وقال للطبيب : « ما هذه الجميلة التي يحتويها منزلك يا ميرزا أحمد ؟ وحق تاج الشاه إنها من أجمل من رأيت . أنت حسن الذوق يا طبيبي فوجه فتاتك كالقمر وجيدها كجيد الغزال، ما شاء الله ! ما شاء الله! »

فأحنى الطبيب رأسه وقال : « جعل الله نفسي فداك يا ملك الملوك . إن الجارية لا تستحق هذا الالتفات ولكنها وصاحبها لك ، فهل تشرفني بأن أضعها تحت أقدام عرشك ؟ »

قال الشاه : « مقبول » ثم أمر رئيس الخصيان أن يجعلني بالقصر الملكي في فرقة المغنيات »

قالت زينب : « ويستحيل أن أنسى يا حاجي بابا

تلك النظرات التي كانت تنظرها إليّ السيدة ، فقد عبرت بها عن أقصى عواطف الغيظ والغضب والحسد، أما الشركسية فقد كنت أحس أن نظراتها إلى تطعنني في صدري أشد من طعنات الخناجر . أما ورجيهان صديقتي الوفية فقد بدا على وجهها السرور والارتياح لما أتيح لي من حسن المستقبل . وسجدت أمام الشاه، فنظر إلى نظرة عطف وحنو

وبعد أن خرج جلالته من المنزل لم يعد من فيه يطلقن عليّ لقب بنت الشيطان؛ بل صرن يقلن لي : « يا حبيبتي » و « يا روحي » و « يا نور عيني »

وصارت السيدة تقدم إلى التبغ بنفسها وتدعوني إلى التدخين في نرجيلتها، وصارت تضع بيدها الحلوى في فمي . أما الجارية الشركسية فانها لم تعد تطيق أن تراني ، وكانت تهرب كلما وقع نظرها على وعلى السيدة وهي تلاطفني هذه الملاطفة . أما سائر من في المنزل من الرقيقات فصرن يعلمنني بماذا أخاطب الشاه وبماذا أجيبه إن ناداني وكيف أسلك في القصر مع زوجاته وسائر جواريه . ومجمل القول يا حاجي بابا أن زينب المسكينة المهملة وجدت نفسها موضع الاحترام والاجلال والاعجاب »

كانت زينب تقول ذلك بلهجة طبيعية تدل على امتلاء قلبها بالسرور ، فلم أشأ تعكير صفوها بأن أنبهها إلى ما في هذا المستقبل الذي تبتهج به من المخاوف والأخطار فان غلطة بسيطة تقع منها أمام الشاه لا تعاقب عليها عقاباً أهون من الموت .

وتظاهرت بأنني أشاركها السرور لما ينتظرها من السعادة . وقلت لها إنه بالرغم من اضطرارنا إلى التفرق فاني لا أزال آمل أن تجمعنا الأيام فيما بعد . ومن يدري كيف تجري الظروف وتتغير الأحوال

وأخبرتني بأن خصياً من قصر الشاه سيأتي في صباح اليوم التالي ليأخذها إلى الحمام وأنها بعد أن تلبس ثياباً جديدة ستنتقل إلى القصر لتتعلم الرقص والغناء مع سائر مغنياته وراقصاته

وهنا نوديت زينب فودعتني وتفرقنا وكلانا قليل الأمل في اللقاء .

الفصل الحادي والثلاثون

حاجي بابا يتعلم الطب

بعد أن ذهبت زينب بقيت في مكاني وأطلقت الفكر عنانه وقلت : « أهكذا الدنيا ؟ لقد كنت في الشهرين الماضيين كأنني في حلم . كنت أظنها ونفسي كليلى ومجنونها ، وكنت أحسب قلبها يتحرق حباً كما يتحرق قلبي فاذا أنا مخدوع مضلل وإذا كلتان فالمها الشاه تذهبان بحبي إلى الأبد وتضمان حاجي بابا واسمه في عالم النسيان وتجعلان زينب ملكية كسائر الملكيات .

مضت عليّ هذه الليلة وأنا محموم وقمت في الصباح مهموماً مغموماً فعزمت على أن أتنزه خارج المدينة لأسلي نفسي . وفي أثناء الطريق وجدت زينب راكبة جواداً ومن حولها الخصيان . وقد كنت أنتظر أن ترمقني بنظرة ولكن خاب ظني فانها لم تعبأ بي فسرت وأنا مصمم على أن أطرد اسمها من خاطري . ولكنني على غير إرادة مني غيرت اتجاهي فبدلاً من أن أسير إلى باب المدينة سرت وراءها حتى وصلت إلى باب القصر فوجدت الجنود مزدحمة عند بابه ووجدت دخولي مستحيلاً وإلا لدخلت مدفوعاً بدافع قوي مجهول .

وقد تنبهت في هذا الموقف وتذكرت حياتي

الماضية وتاقت نفسي إلى الاشتغال بعمل ما . وبينا أنا واقف أمام الباب إذ سقط جندي عن جواده . وتصادف أن غيره من الجنود الموجودين معه قد عرفوني لسبق رؤيتهم إياي في عيادة الطبيب فدعوني لإسعافه . ولم أكد أسمع هذه الدعوة حتى ظهرت بمظهر الأطباء وسرت نحو المصاب فبدا لي أنه قد فقد الحياة .

وكان جندي في ذلك الوقت يسكب الماء على صدره وآخر ينفخ في وجهه دخان التبغ لكي يفيق وثالث يدلك يديه ورجليه . لكن عند ما لمست يدي هذا المصاب كفت سائر الأيدي عن لمسه وجسست نبضه وقلت كما اعتاد الأطباء أن يقولوا : « إنه الآن في حالة شديدة والموت والحياة يتنازعانه »

فاستعد السامعون لأسوأ الأمرين ثم أمرت بأن يهز المريض هزاً عنيفاً ليظهر هل هو أقرب إلى الحياة أو الموت، فصدع الجنود بأمري وهزوه ولكن بغير جدوى

وبينا نحن كذلك إذ حدث ما لم أكن أنتظره، وأقبل الطبيب الأجنبي وأبعدنا عن المريض وهو يقول : « ماذا تفعلون ؟ يجب أن يحجم المريض الآن وإلا فلن يعيش »

فتظاهرت بالعلم ونسبت الجهل إلى هذا الطبيب وقلت : ماذا تقول ؟ نحجمه ؟ أهذا هو الطب الجديد ؟ ألا تعرف أن الموت بارد وأن الدم حار ، وأن أول مبدأ في الطب ألا نعالج مرضاً بارداً بدواء بارد ؟ أجهلنا أمر أبقراط أبو الطب . إنك إن حجمت هذا المصاب فسيموت في الحال »

ففحص الطبيب المريض ثم نظر إليّ وقال : « لقد كفانا الله شر الجدال فلا دواء حار ولا مرض بارد . إن الرجل قد مات »

قلت : « إننا معشر الأطباء لا نملك تغيير الحظوظ ولا مد الآجال »

وبعد لحظات جيء بالملا (الشيخ) فأمر بأن يدار وجه الميت إلى القبلة وتربط قدماه بعضهما إلى بعض . وكذلك ربط وجهه بقطعة من القماش وضمت تحت ذقنه وأحكمت عقدتها في وسط رأسه . ثم نادى بالشهادتين فكررها سائر الموجودين . وفي هذا الحين جاء أهل الميت فأخذوا ينوحون ويندبون كما هي العادة . ثم جيء بنعش فنقلت الجثة إلى منزلها وبالسؤال وجدت أن الميت كان « نارا كتشى » وهي وظيفة تطلق على مساعدي الجلاد وعددهم مائة وخمسون ، وهم يذهبون مع الشاه في روحاته وغدواته وينحون الناس عن الطريق ويؤدون واجبات الحرس الملكي الخاص

وحدثتني نفسي بأن أحل في تلك الوظيفة التي خلت بموته لأنها خير من معاونة الطبيب في مزج الأدوية والعقاقير . وذكرت أن الجلاد صديق حميم لميرزا أحمد وقد كان عنده منذ أيام قلائل وأقنعه بأن يقسم أمام الشاه بأن النبيذ دواء ضروري للمحافظة على صحته فأباح شيخ العلماء لجلالته أن يتعاطى النبيذ بناء على هذا القسم

قلت في نفسي : « إذا أمكنني الحصول على تلك الوظيفة فإن اتصالي بزينب يعود أكثر مما كان وينقلب سوء حظي إلى سعادة غير منتظرة

الفصل الثانى والثلاثون

حاجى بابا يصير جلاداً

فى صباح اليوم التالى تقدمت إلى ميرزا أحمد ورجوته أن يكلم الجلاد فى شأنى لكى يعيننى فى مكان « الناز كشى » الذى مات بالأمس . وألححت عليه ألا يهمل هذه الفرصة لأن الشاه سيذهب بعد أيام قليلة إلى قصره الصيفى وسيرافقه الطبيب كعادته، فاذا لم ألتحق بهذا العمل الآن فانى سأبقى مدة الصيف عاطلاً

وكان الطبيب لا يزال يتألم من نفقات الوليمة التى أقامها للشاه . وعزم على أن يقتصد فى نفقات المنزل . وكنت أجدر الناس بأن يوفر الطبيب على نفسه نفقات طعامه . فوعد بمساعدتى فى هذا الأمر وقال إنه سيكلم الجلاد فى الصباح وسيخبرنى بنتيجة المقابلة بعد صلاة الظهر فى القصر الملكى

وبعد أن صليت الظهر ذهبت تواً إلى القصر واستأذنت فى الدخول إلى غرفة الجلاد وهى واقعة أمام الباب الكبير . وكان أمام هذه الغرفة عدد كبير يظهر أنهم جميعاً كانوا يطلبون تعيينهم بهذه الوظيفة ، وكان الجلاد فى غرفته يصلى . وفى الغرفة أيضاً صديقى عسكرخان شاعر الشاه، وأمين القصر وكان الثانى يصف للأول حادث الأمس ويسرد عليه تاريخ الناز كشى

ولما فرغ الجلاد من الصلاة قال الشاعر إن ما يقوله أمين القصر كذب بحت وإن الوفاة لم تحدث على الصورة التى وصفها . ثم أخذ يقص هو القصة مصححاً لما قيل فكان أشد مبالغة وكذباً ، وكان مما قاله أن الرجل لم يمت إلا بناء على غلطة الطبيب الأجنبى لأن الطبيب الفارسى (وهو بذلك يعنينى) كان قد أعاد إليه الحياة بأن هزه هزات عنيفة ولكن الأجنبى الكافر قصده فات للحال

وفى أثناء هذا الحديث دخل ميرزا أحمد غرفة الجلاد وسمع هذا الجزء من الحديث فأيده ثم أشار إلى وقال : « هذا هو الذى أعاد الحياة إلى الناز كشى الذى كان سيظل حياً بيننا إلى الآن لولا جهل الطبيب الأوربى أو سوء نيته

عند ما قال ذلك اتجهت إلى العيون واشرأبت الأعناق ودعيت لكى أقص القصة كما حدثت فلفقتها لكى تكون قريبة مما سمعت وتظاهرت بالعلم الواسع الذى استفدته من ميرزا أحمد رئيس الأطباء وأكثرت من القول فى مدحه والثناء عليه حتى بدا عليه الطرب وتملكه الزهو وكافأنى على ذلك بمدحى عند الجلاد وبتأكيد الوصية

فأظهر الجلاد دهشته وقال : « لست أفهم كيف يطلب طبيب بارع مثل هذا أن يصير جلاداً »

فنظر إلى الشاعر ثم نظر إلى صديقه ميرزا أحمد وقال : « لا مانع من ذلك ولا ضرر فيه فان كلا الرجلين من نوع واحد فان الموت بالعقاقير لا يختلف شيئاً عن الموت بالسيف »

قال ميرزا أحمد للشاعر : « أما وقد اخترت هذا النهج من الكلام فان الشعراء حكمهم كحكم الجلادين والأطباء كما تقول فهم يقتلون شهرة من يهجونهم »

وقال الجلاد : « يظهر أن كليكما يريد مزاحمتنا فكونا كما شئتما ولست أنازعكما فى القدرة على القتل ولكن اتركا لنا الروح العسكرية . إنكما تستطيبان رائحة الورد ولسنا نستطيب إلا رائحة البارود

ويهز أعطافكما صوت البلبل ولكن لا يطربنا غير صوت المدافع »

قال أمين القصر : « إن كل إنسان يعرف مزايا كم جيداً وقد قدر الشاه لكل منكم المنزلة التي يستحقها على هذه المزايا والمواهب . ثم نظر إلى الطبيب والشاعر وقال : « ما هي ذي دولة روسيا تشاكس إيران ، فأيكما يستطيع إفهامها منزلتنا . هل تغنى العقاقير أو الشعر عن السيف والمدفع في قتال الروس ؟ »

فقال الجلاد : « بل ليس لذلك غير الجنود » . ثم اعترته رعشة من الخوف الذي كان يحاول إخفاءه وقال : « من هم الروس ؟ إن مثلهم كمثل البعوضة فان الانسان يتأذى منها ويشعر بالمضايقة ولكنه ليس يعييه أن يقتلها ويريح نفسه من أذاها »

ويظهر أنه أراد التخلص من هذا الموضوع الذي لم يلائم مزاجه فالتفت الى وقال : « لقد قبلت رجاء ميرزا أحمد وعينتك في الوظيفة الخالية على شرط أن تكون لديك شجاعة رستم وقوة الأسد ونشاط النمر وأن يكون أحب الروائح عندك رائحة البارود وأشجى الأصوات صوت المدفع »

ثم أمرني أن أذهب إلى نائبه ليقلدني أعمال الوظيفة ويتخذ الاجراءات الرسمية لتعييني

وذهبت إلى هذا النائب فوجدته مشتغلاً بإعداد المعدات لانتقال الشاه إلى مصيفه . ولما عرف أنني الذي عينت في وظيفة النازكشي الذي مات أمر بتسليمي جواداً وأوصاني بالعناية والحرص على حياته ، وأمر بإعطائي كذلك ثوباً رسمياً وأخبرني أن راتبي السنوي هو ثلاثون طوماناً

وقبل أن أتقدم خطوة في سياق القصة أريد أن أصف القارئ شخصية الجلاد مراد خان (نازر كشي باشا) ونائبه . أما الأول فكان طويل القامة عريض الكتفين كبير العظام يبلغ الخامسة والأربعين من العمر . ولكنه مع ذلك لا يزال محتفظاً بالشباب والقوة . وهو كبير عظام الوجه غليظ الحاجبين أسود الشعر كبير اللحية طويل الشاربين كبير الكتفين

وكانت تبدو على وجهه هيئة تبعث الخوف في نفوس الأشرار . وكان الرجل منهمكا في ملذاته يسمع في بيته الغناء وتدق الطبول كل ليلة من الغروب إلى الشروق ويشرب النبيذ في الصباح وفي المساء ولا يبالي بعداوة العلماء ويسخر بهم

وكان يحمي المغنين والراقصين فما يجسر أحد من أهل المدينة على عداوة واحد منهم . وكان من أشهر الفرسان ويعتقد كل إنسان رآه أنه كبير الشجاعة والاقدام ولكنه كان في الحقيقة جباناً . وإنما اعتاد أن يخفي جبنه بكثرة الادعاء والمفاخرة حتى ظنه الناس بطلا من أبطال عصره

وكان نائبه رجلاً غليظاً ذا مظهر خشن . وكان يعرف أخلاق رئيسه فاعتاد أن يتملقه ويقول إنه ليس في إيران من يستحق أن يلقب بالرجل غير الشاه وجلاده .

وقد أدركت أن أقوى خلق فيه هو الحسد وخشيت أن يضع العراقيل أمامي لأنني عينت في هذه الوظيفة دون أن أتقدم هدية إليه أو أستعين بوساطته ، فحاولت أن أصرف عن نفسي أذاه بأن أتملقه كما يتملق رئيسه وأدركت أنني على كل حال أطلق منه لساناً فصرت أقول إنه من صفوة الضباط وإن لديه الصفات التي تؤهله أن يكون جلاد المستقبل .

فاستراح النائب لهذا القول وعدّه فألاً حسناً وقال لى إنه إذا تولى فى المستقبل عمل رئيسه فسوف يرفع منزلتى لما يتوسمه فىّ وإنه يرى مؤهلاتى التى أستحق بها الرقى . وكنت إلى ذلك الوقت لا أزال مقيماً بمنزل الطبيب حتى جاء الوقت الذى سيسافر فيه الشاه إلى مصيفه. ووجدت فى وظيفتى الجديدة تسهيلاً كبيراً فى السوق فكلما أردت شراء شىء وجدت من يقدمه لى بالنسيئة أو هدية .

وكنت فى حاجة إلى أشياء أخرى لا يمكننى الحصول عليها بهذه الطريقة فحصلت عليها بطريق الحيلة، فمن أمثلة ذلك أننى كنت فى حاجة إلى سرير وما يلزم له من الفراش، فذهبت إلى أهل مريض كنا نعالجه فمات وعزيتهم فيه وقلت : إننا لم نقصر فى علاجه ولكن يظهر أن الله لم يمن عليه بالشفاء بسبب هذا السرير لأن فراشه كان من الحرير والحرير غير جائز الاستعمال للرجال ولأن عجلات هذا السرير لم تكن متجهة نحو القبلة .

ولما كان أهل الميت على درجة كبيرة من البساطة والسذاجة فقد اقتنعوا بهذا التعليل واستغنوا عن السرير فأخذته

ومن أمثلة ذلك أنى كنت فى حاجة إلى مرآة ووجدت أحد المرضى ينظر فى مرآته ويتحسر على نفسه لما أصابه من الهزال والشحوب بسبب المرض فأقنعته بأنه ليس به شىء مما يشكوه وأن وجهه كالوردة اليانعة ولكن العيب فى المرآة . وصدق الرجل قولى فرمى المرآة وأخذتها .

وكنت فى حاجة إلى حقيبتين لأضع فيهما ثيابى وكان عند ميرزا أحمد حقيبتان فى عيادته ولكنه شديد البخل ولا تنطلى عليه مثل هذه الحيل التى اتبعتها مع غيره فكنت كلما دخلت إلى مكانهما ورأيتهما مهملتين أخذت أتأمل فيهما وأفكر فى وسيلة الحصول عليهما وأنا آسف على أنى لم أرزق من سعة الحيلة مثل ما رزقه الدرويش صفر فأنال ما أردت بغير تعب ولا إجهاد خاطر .

وأخيراً بدت لى فكرة فنفذتها ونلت بها ما كنت أريد، وذلك بأن وضعت فى الحقيبتين كلاباً حديثة الولادة . فلما سمع عواء الكلاب فى غرفته تشاءم . وكان زواره مزدحمين إذ ذاك فى غرفته فاختلفوا فى تعليل الصوت وتشاءموا منه وصاروا يبحثون عن مصدره حتى أدركوا أن الكلاب فى الحقيبتين فلم يسع الطبيب غير أن يرمى بهما فى الطريق فأخذتهما .

وسرت على هذه الطريقة حتى توافر لدى ما أنا فى حاجة قليلة أو كثيرة إليه . ولما اقترب الموعد الذى سيسافر فيه الشاه كنت على أتم استعداد للذهاب معه .

الفصل الثالث والثلاثون

حاجى بابا فى حاشية الشاه

أخيراً حدد المنجمون الموعد الذى يحسن أن يسافر فيه جلالته وهو اليوم الحادى والعشرون من شهر ربيع الأول فانتقلنا إلى قصره فى السليمانية وهى تبعد تسعة فراسخ عن طهران

وكان مع جلالته حرسه الخاص وفرقة من المجانة وأخرى من الفرسان ، وكان فى حاشيته الوزراء ورجال البلاط وبعض كبار الموظفين

وفى اليوم الذى سافرنا فيه خرج من المدينة أكثر من ثلاثة أرباع أهلها لرؤية الموكب الملكى وتشييعه إلى خارج المدينة

وكان الأجانب المقيمون فيها لشدة دهشتهم من هذه الحركة غير العادية يحسبون أهل البلاد سيهاجرون منها . وقد قدم كل ميسور الحالة منهم ما استطاع أن يقدمه من الهدايا للشاه بمناسبة سفره ، فكنت ترى وراء الموكب عدداً كبيراً من الجمال والبغال على ظهورها المؤونة والأمتعة المهداة إلى جلالته من مخلصي رعيته . وكنت تسمع هتافهم مقروناً بصوت الأجراس المعلقة في رقاب الجمال

وفي صباح اليوم الذي حدث فيه السفر اشتغل كل السقائين في طهران بحركة الكنس والرش في الطريق الذي سيسير فيه الموكب . وأمر الفلاحون الذين جاءوا كالعادة بمتاجرهم إلى المدينة — بأن يسلكوا طريقاً آخر، ولم يسمح لأية امرأة بأن تقف في الطريق أو تطل من النافذة في أثناء مرور الموكب خشية أن تقع عينها على جلالته فيصيبه سوء لأن النساء متهمات بالحسد في هذه البلاد

وقد وجدت في نفسي كفاية واقتداراً عجيبين في المحافظة على النظام فصرت أطرد الناس من أمام الموكب ضارباً إياهم بالسياط على الأوجه والرؤوس والظهور في غير ضعف ولا خوف حتى أعجب بي سائر الجنود وتساءلوا أي شيطان هذا الذي جيء به لينضم إلى زمرتهم . ونظر إليّ رئيسي نظرات تدل على الرضى . وكنت شديد الشغف بأن أنال حظوة في هذا المركز الجديد لكي أتدرج في سبيل الرقي إلى أعلى منه

وكان يتقدم الموكب جنود يلبسون ثياباً محلاة بالذهب ووراءهم فرقة الحرس الخاص ثم الوزراء والضباط بالأوسمة المرصعة والنياشين وفي وسطهم الشاه على ظهر جواده، ووراءه فرقة الشاة، ووراءها فرقة الجلادة

وكنت قد علمت في صباح يوم السفر أن زينب نقلت من قصر الشاه إلى قصر آخر خارج المدينة على سفح الجبال التي تحيط بها لتتعلم فيه الرقص والغناء ، فلما مررنا بذلك القصر نظرت إليه وأسفت على حظ تلك الفتاة لما سوف تتعرض له من المخاطر

وذكرت ما قالته لي « نورجيهان » من أن الشاه أمر قبل سفره بأن تزاد العناية بتعليم زينب حتى إذا ما عاد من مصيفه في أوائل الخريف استطاعت أن تغني وأن ترقص أمامه

ولولا أنني في الموكب لما اكتفيت بالالتفات إلى ذلك القصر بل ذهبت إليه ووقفت تحت نوافذه أنتظر اجتلاء طلعتها عند سنوح الفرصة

وبعد أن سار الموكب يوماً كاملا وصلنا إلى الجهة التي كنا نريد الوصول إليها . ونصبت لنا الخيام على مقربة من مصيف الشاه . وكان معي في الخيمة خمسة من التازكشية كنت عرفتهم في المدينة ولكن صداقتنا تأكدت في هذه الخيمة الضيقة التي لا يزيد طولها على خمسة أمتار وعرضها على أربعة

وكان لنائب الجلاد الذي تقدم وصفه مساعد هو رئيسي المباشر واسمه «شمير علي بك» ولا أجد بداً من أن أجعل له نصيباً في هذه القصة لأنه رفع منزلتي ونوه بي في مجالس الكبراء والحكام

وكان هذا الرئيس من شيراز، وعلى الرغم من الكراهية المتبادلة بين أهل مدينته وأهل مدينتي ، فقد توطدت بيننا المحبة إلى حد لم أكن أنتظره . وكان هو البادئ متطوعاً إذ لمح على وجهي في يوم من أيام الحر الشديد أنني ظمآن ، وكان معه قاوونة فكسرها وأعطاني قسما منها ، ودعاني في يوم آخر لكي جواده لما علم أن لي دراية بمبادئ الطب ،

وأهدى إلى غليوناً وتبغاً ، ثم أخذنا نتبادل الودات حتى صارت علاقتنا علاقة الصديق بالصديق

وكان شمير على بك يكبرنى بثلاثة أعوام وهو طويل القامة جميل ذو لحية صغيرة بيضاوية ، له خصلتان جميلتان من الشعر تنسدلان وراء أذنيه كأنهما عنقودان من العنب يطلان من ثنايا الكرمة . وقد استفاد من مدة خدمته تجاريب كثيرة فلما دار بيننا الحديث عن وظائفنا أدهشنى ذكاؤه وعلمه وزاد اعتزازى بهذا العمل الجديد

قال لى : « لا تحسب أن أحداً من موظفى حكومة الشاه يستمد قليلا أو كثيراً بالراتب الذى يعطاه بل كل مايستمد به أحدنا هو اقتداره على الانتفاع بالظروف التى يهيؤها له منصبه . وأنت ترى على سبيل المثل أن راتب الجلاد لا يزيد على ألف طومان فى العام ولكنه ينفق خمسة أضعاف هذا الرقم أو ستة أضعافه وهو يتناوله بنظام فى بعض الأشهر ولكن ربما مضت أشهر لا يتناول فيها درهما ، وليس فى ذلك شىء يهمه لأن اعتماده كما قلت لك على موارد أخرى فكثيراً ما يغضب الشاه على بعض الكبراء أو الوزراء فيأمر بجلدهم وأنت تعرف أن قليلا من القسوة فى تنفيذ هذا الحكم قد يؤدى إلى القتل وأن الرأفة فى تنفيذه تجعله عديم الأهمية . ومتى عرفت أنه لا يمر يوم واحد دون أن يجلد عظيم أو عظيمان أمام الشاه أمكنك أن تقدر ربح الجلاد مما يدفعه له المحكوم عليهم لكى يخفف عنهم العقاب ، وينفذ الجلاد أحكام القصاص بخلع الضرس واقتلاع العين فاذا لم يعط مكافأة قيمة اقتلع أعين المذنبين بالخناجر فقتلهم بما يقطعه من عروق الرأس وإذا أعطى المكافأة التى يرضاها جرح الأعين دون أن يطفئ نورها . وفى ذلك مورد كبير الربح ولكن المورد الذى لا يمكن تقدير جسامته هو فى الهدايا التى ترسل إلى الجلاد بنظام من كل الوزراء والوجهاء والعظماء الذين يتوقعون أن يأمر الشاه بجلدهم فى وقت من الأوقات فيشترون مودة الجلاد بما يرسلونه إليه من الهدايا والهبات . وكثيراً ما تتمرد قرية أو قبيلة فيذهب الجلاد على رأس فرقة لينفذ فيها إرادة الشاه ولا تسل فى هذه الحالة عما يجنيه من الربح ليترك بعض الرؤوس ويأتى بالبعض وليحرق جانباً من المزارع ويعفو عن الجانب الآخر .

قال لى مساعد النائب : « قبل أن أتقلد عملى هذا كنت رقيق القلب أعرف معنى الرحمة وأقدرها وفى أول عهدى بتنفيذ الأحكام صرت لا أضرب المجلود على قدميه بل على الخشبة التى ربط عليها الساقان ولم يعلمنى القسوة غير الحادث الذى سأذكره لك :

« فى يوم من الأيام غضب الشاه على أمين القصر فأمر بجلده وكلفنى وأحد النازكشيين بجلده أمام جلالته . وأمر على سبيل الاستثناء بأن تفرش سجادة تحت أمين القصر عند جلده

« فلما أردنا أن ننزع عن المذنب عمامته وشاله قبل أن نطرحه على الأرض لتنفيذ الحكم همس فى آذاننا بأنه سيدفع لكل واحد عشرة طومانات إذا رحمناه فى تنفيذ الحكم فلم نصغ إليه وضربناه فى أول الأمر بعنف لم نضرب أحداً قبله بمثله فصار يستغيث ويتأوه ويشير لنا بأصابعه أنه سيزيد المبلغ إلى عشرين ثم إلى ثلاثين ثم إلى خمسين ، ثم أشار بيده فى النهاية بأنه سيقبل حكمنا أيا كان هذا الحكم لخففنا عنه

« ولما انتهت العقوبة انقلب السخاء الذى كان يبديه ونحن نجلده إلى شح شديد . ولم يقبل أن

يدفع لنا أكثر مما عرضه أولاً . وقد كان بوده ألا يدفعه لولا خوفه من أن تعود الكرة

« ومنذ ذلك العهد أصبحت شديد القسوة على من أنول عقابهم إلا إذا نلت منهم مقدماً شيئاً من المال »

سمعت أحاديث كثيرة رواها شمير على بك على هـذا المنوال فتعرفت أسرار المهنة التي ازداد حبي لها وحرصي عليها وصرت لا أحلم بشيء سوى الكسب من أي طريق . ولما كان أهم طريق ينيل الكسب من هذه المهنة هو القسوة فقد عزمت على أن أقتلع من نفسي جذور الرحمة حتى أصير كأي سبع من سباع البرية وألا أشعر نفسي شعوراً غير القسوة والشر . ولما اعتدت ذلك صرت لا أحب شيئاً غير تقليم الآذان وجدع الأنوف وفقء الأعين. وهان على أن أعذب أقرب الأقرباء ولو كان فيهم أبي

الفصل الرابع والثلاثون

ذكرى الأسر

أخذت أوازن بين حالتي هذه في خدمة الشاه وبين حالتي وأنا في أسر التركمان فقلت في نفسي : « الفرق بين الحالتين أنني كنت أولا من فريق المغلوبين وأنني الآن من الفريق الغالب، ولا أعرف لأي سبب من الأسباب أخذت في سبيل المفاضلة بين الحالتين

وبينا أنا كذلك إذ أقبل عليّ شمير على بك وقال : « يظهر أن الله يريد بك خيراً فقد تهيأت لنا فرصة ربما رفعتك إلى مستوى عال من الرقي إن شاء الله »

ثم أخبرني أن مدينة سوار الواقعة بين السليمانية وبين همدان لم ترسل الضريبة المفروضة عليها في هذا العام . وأرسل حاكمها يعتذر عن ذلك بأن أحد الأمراء ذهب إلى تلك المدينة من مدة قصيرة ليتلهى بالصيد فأقام فيها بضعة أيام أخذ في خلالها هو ورجاله كل ما أنبتته المدينة وما ربحه أهلها ، وقد أمرت بأن أذهب لتحقيق هذا القول وآتي بالحاكم والمسئولين من رجاله وتركت لي الحرية في اختيار من أستصحبه معي ، فاخترتك لتقق بك فاستعد للذهاب معي فأني ذاهب في صباح الغد

سررت لاختياري عاجلا لأداء مهمة ، وكنت بطبيعة الحال لا أعرف الخطة التي رسمها شمير بك ولكنني وثقت بالنظر لما سبق أن أخبرني به من أن خطته ستعود علي وعليه بالربح الطائل وخشيت أن يكون حاكم المدينة قد صدق فيما قال وأن يكون الأمير قد غادره وأهل مدينته من الفقر بحيث لا نستطيع أن ننال شيئاً منهم

على أنني استعددت للسفر فقمت في الحال إلى جوادي فنظفت سرجه ولجامه ومسحت شكيمته ولم أستطع الامتناع عن مفارنة نفسي به وقلت : « إنك مثلي أيها الجواد وستصبح في الغد حراً تفعل من الشرور ما بدا لك »

وخرجت في الصباح الباكر مع شمير بك وقد فاتني أن أذكر أن لقب « بك » عند الايرانيين غيره عند الأتراك ، فالايرانيون يطلقون هذا اللقب على كل جندي ولذلك كنت أنا أيضاً من حملة هذا اللقب على الرغم من أن راتبي الشهري لايتجاوز ثلاثة طومانات

خرجت في الصباح الباكر مع شمير على بك .

وكنت قد اقترضت سلسلة وضعتها فى حزامى ووعدت الذى أعارنيها بأن أحضر له هدية ثمينة عند عودتى ويظهر أن جميع الجنود الايرانيين كانوا يعرفون ما وراء هذه المهمات من الكسب ولذلك رأيت ممن استمرت منه إقبالا وثقة ورغبة فى إقراضى كأنه واثق بأنى لن أعود فقيراً كما ذهبت

قضينا طول النهار فى السير وغنا ساعتين من الليل فى قرية بالطريق ثم واصلنا السير ووصلنا إلى المدينة التى كنا نريدها فى ساعة الفجر، وكان النساء فى هذا الوقت قد خرجن من بيوتهن لخدمة الأرض وكن ينشدن الأناشيد كعادتهن فلما رأيننا سكتن وغطين أوجههن وكنت أتمنى أن يرى القراء وجه شمير على بك فى هذه الحالة فقد كان أحذق من أى ممثل فى الوجود فى تمثيل العظمة حتى غلب خوف منه على معرفتى به وحتى كدت أنخدع عنه. وكانت اللهجة التى يتكلم بها لهجة المسيطر النافذ الكلمة وسأل عن عمدة المدينة فأرشدنا النساء عنه؛ ووجدناه رجلا فى ثياب بسيطة أشيب الشعر رقيق الحالة، ولما رآنا سلم على شمير بك خاضعاً متواضعاً ثم ساعدنا على النزول عن جوادينا وأمر رجاله بأن يأخذوا الدابتين ودعانا إلى دخول منزله. وخلع بيديه حذاءينا كعادة المضيف حين يريد إكرام ضيفه العظيم الخطر

وقد قابل شمير بك كل هذا العمل بكبرياء عجيبة كأن المضيف لم يفعل غير ما هو واجب عليه نحوه

وبعد أن سمع شمير بك أنفاساً من غليونه قال بلهجة التأكيد: « اعلم يا عمدة أننا جئنا من قبل الشاه لنعلم كيف منتم الضريبة هذا العام، فأجبنى جواباً صريحاً وبيض وجهك أمامى »

قال العمدة: « إن الذى كتبته إليكم سأعيده الآن، وكل هؤلاء الموجودين يعلمون أنه صدق »

وأشار إلى أهل القرية الذين جاءوا ليرحبوا بنا ثم قال: « إننى أقسم بيمينى أنى صادق وأسأل الله أن يعمينى إن كنت كاذباً، وأنت أيها السيد رجل بعيد النظر رحيم الصدر واسع الفكر مسلم تخاف الله، فسأقص عليك الأمر وأترك لك حكمك »

قال شمير بك: « قل وأنا خادم الشاه فعلى تنفيذ حكمه واتباع رأيه وليس لأحد حكم ولا رأى »

فقال العمدة: « كلنا خدم الشاه وعبيده ولكنك حاكم مطاع الأمر، مسموع النصيحة، مقبولة مشورتك فأتوسل إليك أن تسمع: منذ ثلاثة أشهر كانت أعواد القمح فى هذه المزارع تبلغ المتر ارتفاعاً وكانت الأغنام كثيرة فى المراعى فجاءنا خادم وقال: إنه آت من قبل الأمير « دمير ميرزا » وإن سموه سيأتى فى اليوم التالى لكى يتلهى بالصيد لأن فى الوديان القريبة منا وعولا كثيرة وغزلاناً وحميراً وحشية. وأبلغنا هذا الخادم أن الأمير يريد إخلاء منازل فى المدينة له ولرجال حاشيته

فلما علم أهل المدينة بذلك استولى عليهم الفزع ولم نجد حيلة مع هذا الخادم ليصرف عنا شر هذه الزيارة وقد حاولنا أن نرشوه فلم يقبل الرشوة، ولم يسعنا إلا أن نخلى المنازل والمدينة تجنباً للسوء ولجأنا إلى الجبال حتى تنصرف هذه المحنة، وأنت تعرف النكبة التى تحيق بفلاحين مساكين كهؤلاء الذين تراهم حين يضطرون إلى مغادرة المزارع وكل ما فيها والمنازل وما اشتملت عليه، وأنت بلا شك تشعر بالرحمة لنا ويكاد قلبك ينفطر علينا حناناً وعطفاً »

قال شمير بك: « ما الذى تعنيه بذلك؟ إن

واجبكم يقضى بأن تسهروا على خدمة الأرض المملوكة للشاه لكي تستطيعوا دفع الضرائب له . وأنتم هربتم من أرضه وأهملتموها ثم تزعمون أنكم تستحقون العطف والرحمة ؟ »

فقال العمدة : « أتوسل إليك أن تصغي إلى حديثي حتى أتمه . لقد حملنا على ظهور الأغنام والمواشي كل ما استطعنا حمله من الحبوب لما انتقلنا إلى الجبال وسكنا في كهوف بها قريبة من مجرى النهر ولم نترك في المدينة غير ثلاث مجاثر وغير القطط »

قال لي شمير بك : « هل تسمع يا حاجي بابابك ؟ إنهم يقولون إنهم أخذوا ما يستمزون به وتركوا مجاثرهم للأمير . هل سمعت في حياتك شيئاً كهذا ؟ ثم نظر إلى العمدة وقال : « استمر »

فاستمر العمدة يقول : « وظللنا نرسل جواسيس بين حين وحين ليخبرونا عما فعله الأمير بالمزارع وقد أخبرونا أن الأمير لما علم بتركنا المدينة هاج وغضب أشد الغضب وأرسل إلى أتباعه ليكسروا أبواب المنازل عنوة فلم يجدوا مقاومة إلا من عجوز كان لا يزال عندها من القوة ما ساعدها على مناجزة الفراش ، وقد أبدت شجاعة عظيمة في تأنيبهم وإسماعهم ما يكرهون من قوارص الكلام »

قال العمدة : « وقد سكن الأمير في منزلي وأرسل إلى أهل القرى المجاورة يأمرهم بأن يبعثوا إليه بما يلزم جنوده من القمح . فأرسلوا إليه وفوده تبلغه خجلهم مما فعلنا وسخطهم علينا ؛ وبعثوا إليه مع هذه الوفود ما جنوه من مزارعنا ، وأفهموه أن هذه مزارعهم وأن الذى أرسلوه هدية منهم وأخذوا لأنفسهم سائر ما في المزارع

فأنت ترى يا رسول الشاه أننا جردنا من كل شيء وأنه لم يبق لنا غير رحمة الله وعطفكم .

فوقف شمير على بك مغضباً وأمسك بلحية العمدة وقال : « ألا تخجل أيها الأشيب من التفوه بهذه الأكاذيب ؟ ألم تقل لي منذ لحظة إنكم حملتم على ظهور الغنم والماشية ما اعتززتم به ثم تنسى قولك في الحال وتدعي أنه لم يبق لكم شيء . إذا كنت تظن يا عمدة أنك تستطيع الضحك على ذقوننا فانك مخطئ وسنملك حول خطئك إن كنت لم تملّه إلى الآن . أنت لا تعرف شمير على بك ولا تعرف أننا من أناس ينام أحدهم بإحدى مقلتيه ويسهر بالأخرى . أنت إذا استطعت أن تخدع سائر الناس فليس في وسعك أن تخادعنا فاقطن إلى نفسك »

قال العمدة : « أعوذ بالله أن أكون قد فكرت في خداعك أو خداع غيرك فاني آخر من يخطر الخداع بباله . إننا عبيد الشاه وكل ما في أيدينا فهو مملوك له ولكننا جردنا فلم يبق معنا شيء ولست أسألك إلا أن تذهب إلى المزارع فتراها بعينيك ثم تأتي إلى المخازن فترى هل فيها شيء مدخر ؟ »

فقال شمير بك : «سواء أجردتم أم لم تجردوا وسواء أكان لديكم قمح أم لم يكن لديكم فانه ليس أمامنا غير طريق واحد وليس في فمنا غير كلمة واحدة هي أن ما أمر به الشاه يجب أن ينفذ وإلا فتأتي معنا أنت ورجالك إلى السلطانية حيث تقابلون الشاه »

بعد هذه الكلمة تداول العمدة مع رجاله همساً وهم واقفون في ركن من الغرفة ، وكنا في ذلك الوقت ندخن ونظهر عدم المبالاة ونبدي من العظمة ما نضحك بيننا وبين أنفسنا من إبدائه

وأخيراً أعلنوا نتيجة مداولتهم وحاول العمدة أن يستلين قلبي وحاول رجل آخر غيره أن يستلين

قلب شمير بك، وقد أكد لى العمدة أنى أكل خلق الله، وأقسم أنه قد أحبنى هو وكل أهل القرية وأنهم جميعاً يعتقدون أنى أنا الرجل الوحيد الذى يستطيع تذليل مصاعبهم

وكنت أظهر الثبات والوقار وأنا أسمع هـذا الاطراء، ثم شجعته على التكلم فى التفصيلات فقال إنهم تشاوروا فيما بينهم واجتمعت كلمتهم على أنه من المستحيل أن يرسلوا ما ليس فى أيديهم وأن القليل الذى فى أيديهم لا يصح أن يرسل للشاه ولذلك فهم يرون إعطاءنا ما يرضينا لكى نتولى الدفاع عنهم

قلت له : « هـذا كلام معقول ، ولكننى لست الرجل الوحيد الذى أرسل لهذه المهمة وإن استرضائى وزميلى ليس يكفى لأن رئيسنا يجب أن يرضى كذلك وإذا لم يكن قسطه أوفر الأقساط فان جهودنا تذهب سدى ويضيع على أهل المدينة ما دفعوه ».

فقال : « لكم علينا أن نعطيكم كل ما معنا واقتسموه أنتم كما تريدون . أما الضريبة فليس دفعها ممكناً بحال من الأحوال لأننا لم نعد نملك غير نسائنا وأطفالنا ، ونظن أنه ليس للشاه رغبة فى أخذ ذلك بدلا من الضريبة»

قلت : «مادام معكم مال كاف تستمدون لانفاقه فانكم بالنون كل رغبـة فى نفوسكم . إنكم بالمال تستطيعون أن تشتروا التاج الذى على رأس الشاه . أما إذا لم تدفعوا ما يخلصكم من هـذه الورطة فلا تنتظروا غير الجلاد »

قال العمدة : « المال ! المال ! ومن أين نأتى بالمال ؟ إننا لا نـكاد نكسب شيئاً من النقود الذهبية حتى يأخذه نساؤنا ويجعلنه حلياً لهن ضنابه وحرصاً عليه، وإذا اجتمع لدى أحدنا عشرون أو ثلاثون طوماناً دفنها تحت الأرض خوفاً عليها من رغائب النفس ومشتهياتها »

ثم دنا منى وهمس فى أذنى قائلا : « يظهر ياأخى أنك ذكى فأرجو ألا تدعى الغباء . إن الرجل لايلقى بنفسه بين مخالب الأسد إذا كان فى وسعه أن يتجنب ذلك، فقل لى كم يرضى زميلك هذا (وأشار إلى شمير بك) ، هل يرضى بخمسة طومانات وشالين من الـكشمير ؟ »

قلت : « لا أظن ذلك يكفيه وأنا على كل حال أريد خدمتك رحمـة بك وإشفاقاً عليك فاجعل الطومانات عشرة واجعل الشالين ثوبين كاملين وسأبذل جهدى معه لكى يقبل »

فقال العمدة : « هذا كثير جداً وقريتنا كلها لا تساوى هـذه القيمة فأقنعه بما عرضناه وسنقدم إليك هدية تدهشك »

اشتد شوقى إلى معرفة هذه الهدية التى يمدنى بها ، ولكننى لم أظهر له أنه استخفنى بهذا الوعد فقطعت حديثى معه وقلت لشمير بك فيما بينى وبينه: إن قليلاً من التشدد سيجعلهم ينزلون عنـد حكمنا ويدفعون الطومانات العشرة والثوبين وإنه لا يتفق مع كرامة الجندى الفارسى أن يقبل من الأعداء أقل من العشرات

ثم قلت للعمدة : « إذا أنت لم تقبل وساطتى ولم تذعن لحكمى فانك ستستحق ما ينزل الك من أنواع العنف . ولا ينفعك صمتك ونظراتك الهادئة»

وبعد فترة استطالوها عادوا إلى الاجتماع بالركن الذى سبق لهم الاجتماع به . ثم تركهم العمدة يتحادثون وخرج وعاد بعد قليل يحمل لنا سـلة من التفاح

والخوخ ومائدة عليها طبق من العسل وآخر من الجبن وتوسل إلينا أن نشرفه بتناول الطعام في منزله

ثم قال لشمير بك بصوت خافت إنه يرجو قبول خمسة الطومانات والشالين لأنه وأهل قريته أناس فقراء إلى درجة تذوب لهـا القلوب الرحيمة مثل قلب شمير علي بك

واتفقت وزميلي على رفض الطعام وأمرناه بأن يرفع الطعام من أمامنا ، فبدا التأثر على القوم الفقراء وكادت تنحدر من أعينهم الدموع ، وحمل العمدة ما جاء به وهو مطأطيء الرأس ذلاً وخجلاً

وكنا في هذه الأثناء كلما فرغ الشلبون عدنا إلى مثله واشتغلنا عن النظر إليهم بالتدخين ، وعاد العمدة بعد فترة استطلناها نحن أيضاً ، وسألنا هل نقبل طعامه إذا أحضر عشرة الطومانات والتوبين ؟

فأشار زميلي إشارة القبول وذهب العمدة وعاد سريعاً بالمال والتوبين والطعام ، فأخذ شمير بك ماتم الاتفاق معه عليه ، وبدأنا نأكل ، وانتظرت الهدية التي ستدهشني ، فلم يقدم لي أحد هدية سوى أن العمدة أخذ يشير لي بحاجبيه وعينيه فقلت له : « أين الهدية وما مقدارها ؟ »

فقال : « انتظر قليلا فهي آتية . إنها لم تتهيأ بعد »

وفي النهاية جاء بالشالين اللذين رفضهما شمير بك فوضعهما أمامي وزاد عليهما كلمات لطيفة راجياً ألا أكسر خاطره وألا أرد هديته

فغضبت وقلت للرجال الذين كانوا لا يزالون بالركن : ألا تعرفون أيها القوم المساكين الحياء أنني جلاد وأنني أستطيع إحراقكم وإحراق آبائكم وأذيقكم من الأحزان ما ليس يخطر لكم ببال ؟ ماذا تريدون بتقديم هذين الشالين القديمين لي بعد ما لبسهما جدودكم وآباؤكم من بعدهم ؟ هل أردتم إهانتي بتقديم هذه الهدية ؟ خذوهما في الحال وإلا اضطررت إلى إفهامكم ماذا يفعله النازا كشي إذا غضب »

فهم العمدة بأن يذعن لقولي ويأخذ الشالين ولكن شمير بك تدخل في الأمر وقال : « أرني هذين الشالين »

وفحصهما وقال : إنهما جديدان ولا عيب فيهما وقد قبلتهما وجعلتهما مع نصيبي وأنا أشكركم وأسأل الله أن يغنيكم »

فنظر كل منهم إلى الآخر نظرة دهشة واستغراب ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التفوه بحرف . وضاع عليّ الجزاء الذي كنت أنتظره لأن مسلك شمير بك ألزمني الصمت ، وإذا كنت قد خسرت ما كنت أطمع فيه من هدية فقد استفدت تجربة عظيمة الأهمية هي أن أعرف كيف أعامل أبناء وطني بعد الآن وألا أثق بمن أدعوه صديق .

(يتبع) عبد اللطيف النشار

فهرس المجلد الثانى من الرواية

القصة	المؤلف	المترجم
المنفى		عبد اللطيف النشار
... ثم جاء الربيع	دوروثي بلاك	فؤاد الطوخي
الأغلال	بول هرفيو	فليكس فارس

(العدد ٤١)

القصة	المؤلف	المترجم
الوصولي	محمود بك خيرت	
في جوف الليل	طاغور	فخري شهاب السعيدي
زهرة الجبل	جيوفاني دي نافا	محمد لطفي جمعة
المس الثرثار		عبد اللطيف النشار
جنية البحر	جول ليتر	محمد المزاوي
سارقة الأطفال	إيركان وشاتريان	صلاح الدين المنجد
فنان	أدريانو زوكولي	محمد حسني
الأغلال	بول هرفيو	فليكس فارس

(العدد ٤٢)

القصة	المؤلف	المترجم
عاشقة الأحذية	محمود بك خيرت	
معركة على عروس	جوستاف جيفروا	محمد لطفي جمعة
الشكائك في الزواج		عبد اللطيف النشار
النار المقدسة	ولتر سكوت	محمد كامل حجاج
الثلاثة الزاهدون	ليو تولستوي	فخري شهاب السعيدي
تحت ظلال الشجر	فرنسيس ينج	فؤاد الطوخي
مبتور الساقين	جي دي موباسان	كمال الحريري
الفرار	هولوي هورن	محمود السيد شعبان
حاجي بابا أصفهاني	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العدد ٤٣)

القصة	المؤلف	المترجم
المجنون	محمود بك خيرت	
سحر بابل	دريني خشبه	
خمسة أعوام في عذاب		عبد اللطيف النشار
الشريدان	جوستاف جيفروا	محمد لطفي جمعة
وقائع مارتان ولديك	ولتر سكوت	محمد كامل حجاج
إنتقام رهيب	أونوريه دي بلزاك	عبد الوهاب بحلاق
فتاة العصر	نجيب محفوظ	
حاجي بابا أصفهاني	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العدد ٤٤)

الصفحة	القصة	المؤلف	المترجم
١٠٧٤	الجنة المهجورة	دريني خشبة	
١٠٨١	في المصيف	أنطون تشيهوف	عبد الحميد حمدي
١٠٧٦	البيوت الثلاثة	الدكتور محمد بهجت	
١٠٩٠	بعد ثمانية عشر قرنا	بارونس أورزي	محمد لطفي جمعة
١٠٩٩	اللوح	ميخائيلوفتش	فخري شهاب السعيدي
١١٠٧	جزاء الفضيلة	رشارد نوري	بشير الشريقي
١١١٢	وفاء راقصة	لافكاد يوهيرن	صلاح الدين المنجد
١١١٨	حاجي بابا أصفهاني	جنمز موير	عبد اللطيف النشار

(العدد ٤٥)

الصفحة	القصة	المؤلف	المترجم
١١٣٠	غرام فنان	دريني خشبة	
١١٤٤	من قتل أباه ؟	أرثر كونان دويل	محمد لطفي جمعة
١١٥٢	عفو الملك أسركاف	نجيب محفوظ	
١١٥٨	الفن	محمود بك خيرت	
١١٦٥	القاضي السعيد	تولستوي	صلاح الدين المنجد
١١٦٩	حاجي بابا أصفهاني	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العدد ٤٦)

الصفحة	القصة	المؤلف	المترجم
١١٨٦	بين العدالة والقانون	دريني خشبة	
١١٩٦	جرذان الفنادق	أرثر كونان دويل	محمد لطفي جمعة
١٢٠٤	روض الفرج	نجيب محفوظ	
١٢١٢	أحية أم ميتة ؟	« طاغور »	فخري شهاب السعيدي
١٢٢١	السكيرة	موباسان	كمال الحريري
١٢٢٥	حاجي بابا أصفهاني	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العدد ٤٧)

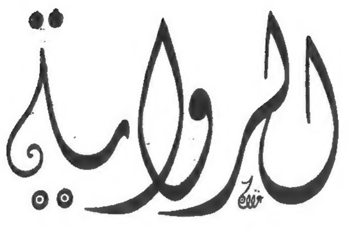
الصفحة	القصة	المؤلف	المترجم
١٢٤٢	الزيف	نجيب محفوظ	
١٢٥٠	مصرع البخيل	كونان دويل	محمد لطفي جمعة
١٢٦٠	الشقي المدلل	تولستوي	فخري شهاب السعيدي
١٢٦٥	السعادة الذابلة	جوزيف كسل	صلاح الدين المنجد
١٢٧١	البديل	فرنسوا كوبيه	عادل الجمال
١٢٧٦	حاجي بابا أصفهاني	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين

FIN

DU

DOCUMENT



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1938

Volume 2